تنوير الأذهان

من

تفسير روح البيان

تأليف

الشيخ إسماعيل حقي البروسوي

المتوفى سنة ١١٣٧ هـ

المجلد الأول

اختصار وتحقيق

خادم الكتاب والسنة

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار القلم

دمشق

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ-١٩٨٨م



دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

تنوير الأذهان

من

تفسير روح البيان

المجلد الأول

من تفسير سورة الفاتحة إلى تفسير سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله منزل الكتاب تبصرةً وذكرى لأولي الألباب ، والصلاة والسلام على من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، سيدنا محمد النبيّ العربيّ الأميّ ، الذي خصَّه الله بالقدر العظيم ، والذكر الحكيم ، وعلى آله وأصحابه الطيِّبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن تفسير « روح البيان » للإمام الأجل الشيخ « إسماعيل حقي بن مصطفى الاستنابولي » من علماء القرن الثاني عشر الهجري ، من التفاسير الشهيرة التي نالت استحسان كثير من العلماء في البلاد الإسلامية ، وهو بحقٍّ موسوعة كبيرة ضخمة ، ضمَّن فيها الشيخ كثيراً من الروايات والأخبار ، والحكم والعظات ، والقصص الممتع ، إلى جانب التفسير ، وله مع علمه الواسع باللغة العربية ، سعة اطلاع باللغة الفارسية والتركية ، وقد حشد في كتابه أقوالاً وأشعاراً كثيرة باللغة الفارسية ، فأصبح الكتاب موسوعة ضخمة ، يصعب على المرء قراءته ومطالعته .

ولما فيه من درر ثمينة ، ولكنها ذهبت بين ذلك الركام والحشد الهائل من نُقولٍ وأقوالٍ ، ووجوهٍ في اللغة والإعراب لا ضرورة لها .. أحبَّ بعض الوجهاء من أهل جدة ، ـ ممن لهم شغف بخدمة القرآن وعلومه ، ولهم باع طويل في الأعمال الخيرية ، وهو الشيخ « عبد الله أبو الحسن » أحسن الله جزاءه وأجره ، دنيا وآخرة ـ أن يكون هناك تنقيحٌ وتهذيب لهذا الكتاب ، ليخرج بثوبه القشيب، حلة زاهية ناضرة ، ليستفيد منه الخاصة والعامة ، فأسند إليَّ فعل هذا العمل الكبير ، الذي يحتاج إلى سنين وأعوام ، فتوكلت على الله ، واعتمدت عليه في أن يعينني على إتمام هذا العمل ، قبل نهاية الأجل ، وقد سلكت في هذا التفسير الطريقة التالية أعرضها بإيجاز :

١ ـ اختيار أقوى الوجوه وأرجحها في تفسير الآيات الكريمة .

٢ ـ حذف كل ما يتعلق بالتفسير من اللغة الفارسية .

---

(١) انظر ترجمة المؤلف في الأعلام للزركشي ١ / ٣١٣ وفي معجم المطبوعات ليوسف سركيس ١ / ٤٤١ وإيضاح المكنون للبغدادي ، وقد كانت ولادة المؤلف سنة ١٠٦٣ هـ ووفاته سنة ١١٣٧ هـ تغمده الله بالرحمة والرضوان .

٣ ـ حذف الروايات الضعيفة من الأحاديث والآثار .

٤ ـ تخريج ما ورد في التفسير من الأحاديث النبوية الشريفة .

٥ ـ الإبقاء على الضروري من وجوه الإعراب .

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يعمَّ بنفعه المسلمين ، ويجعله في ميزان حسنات العاملين والمنفقين ، إنه سميع مجيب الدعاء ، وصلى الله على عبده ورسوله سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة / ٢٠ شعبان ١٤٠٤ هـ .

وكتبه خادم الكتاب والسنّة

الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أظهر من نسخة حقائقه الذاتية الكمالية، نقوش العوالم والأعلام، وأخرج من نور الفيض الذاتي أنواع الحروف والكلمات والكلام ، أنزل من مقام الجمع والتنزيه قرآناً عربياً غير ذي عوج ، وجعله معجزة باقية على وجه كل زمان ساطعة البراهين والحجج ، والصلاة والسلام على من هو فاتح باب الرحمة ، في العلم والعين واليقين ، سيدنا محمد الذي كان نبينا وآدم بين الماء والطين ، وعلى آله وأصحابه المتخلقين بخلق القرآن ، ومن تبعهم بإحسان إلى آخر الزمان ، وبعد : فيقول العبد الفقير الشيخ إسماعيل حقي الناصح المهاجر ، كلأه الله من فتن الغدايا والعشايا والهواجر ، لما أشار إليَّ شيخي الإمام العلامة ، وأستاذي الجهبذ الفهامة ، سلطان وقته ونادرة زمانه ، حجة الله على الخلق بعلمه وعرفانه ، الشيخ الحسيب النسيب سمي ابن عفان نزيل قسطنطينية ، أمده الله وأمدَّنا في السر والعلانية ، بالنقل إلى برج السعداء بمدينة بروسا ، ولم أجد بداً من الوعظ والتذكير ، في الجامع الكبير والمعبد المنير الشهير ، وقد كان مني حين انتواء الإقامة ببعض ديار الروم ، بعض صحائف ملتقطة من صفحات التفاسير وأدوات العلوم ، مشتملة على ما يزيد على آل عمران ، من سور القرآن ، لكنها مع الإطناب الواقع فيها ، كانت متفرقة كأيادي سبا ، أردت أن ألخص ما فرط من الالتقاط ، وأضمَّ إليها نُبَذاً ممّا سنح لي من المعارف ، وأجعله في سمط ما أنظمه من اللطائف ، وأسردَ بأنملة البراعة ـ وإن كنت قليل البضاعة قصير الباعة ـ ما يليه إلى آخر النظم الكريم ، إن أمهلني الله العظيم ، إلى قضاء هذا الوطر الجسيم ، وأُبيّضَ للناس قدر ما حررته بين الأسابيع والشهور ، وأفرزته بالتسويد أثناء السطور ، ليكون ذخراً للآخرة « يوم لا ينفع مال ولا بنون » ، وأسأل الله تعالى أن يجعله من صالحات الأعمال ، وخالصات الآثار ، وباقيات الحسنات إلى آخر الأعمار ، فإنه إذا أراد بعبدٍ خيراً حسَّن عمله في الناس ، وأهَّله لخيرات هي بمنزلة العين من الرأس ، وهو الفياض جلَّ وعلا ، البرُّ الرحيم .

* * *

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

اعلم أنَّ الحكمة في التعوذ الاستئذانُ وقرعُ الباب ، لأن من أتى باب ملكٍ من الملوك ، لا يدخله إلا بإذنه ، كذلك من أراد قراءة القرآن ، إنما يريد الدخول في المناجاة مع الحبيب ، فيحتاج إلى طهارة اللسان ، لأنه قد تنجَّس بفضول الكلام والبهتان ، فيطهره بالتعوذ ، قال أهل المعرفة : هذه الكلمة وسيلة المتقربين ، واعتصامُ الخائفين ، ومباسطةُ المحبين ، وهو امتثال قول رب العالمين (**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**) فالاستعاذة مقدمة على القراءة ، عند عامة المسلمين [1] لأن المعنى : إذا أردتَ القراءة ، وهو تأويلٌ شائعٌ جارٍ مجرى الحقيقة العرفية ، ثم المختار قول الجمهور وهو « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ، وهو أثبتُ روايةً وإن كان « أستعيذ بالله » أوفق دراية لمطابقة المأمور به في قوله ﴿ **فَاسْتَعِذْ** ﴾ وأول ما نزل به جبريل عليه السلام ، على محمد ﷺ الاستعاذةُ والبسملةُ وقوله تعالى (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ**) ﴿ **أَعُوذُ** ﴾ بمعنى ألتجىء ، أو أستعصم ، أو أستجير ، أو أستعين ، والعوذُ والعياذ مصدران كالصوم والصيام ، وقول القائل : أعوذُ إخبار عن فعله ، وهو التقدير أعذني يارب ، وفي العدول إلى لفظ الخبر ، فائدة التفاؤل بالوقوع ، وسرُّه أن بين الرب وعبده عهداً ، قال الله (**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**) فكأنه يقول : أنا مع نقص البشرية وفَّيت بعهد عبوديتي ، وقلت : أعوذ بالله أو أستغفر الله ، فأنت مع كمال الكرم والفضل ، أولى أن تفي بعهد الربوبية وتعيذني ﴿ **بالله** ﴾ مذهبُ أهل التحقيق فيه عدم الاشتقاق ، لأنه لا سبيل إلى كنه معرفته تعالى .

واعلم أنَّ كلماتِ الاستعاذة ثلاث : صفاتية ، وأفعالية ، وذاتية ، كما قال ﷺ : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » فاختير اسم الجلالة ، لتتناول عبارة الاستعاذة أنواع الاستعاذة .

﴿ **مِنَ الشَّيْطَانِ** ﴾ أي المبعد من رحمة الله تعالى ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : لَمَّا عصى لُعِنَ وصار شيطاناً فدل على أنه إنما سمي بهذا الاسم بعد لعن الله له ، وأمَّا قبله فاسمه عزازيل وإنما لم يقيد المستعاذ منه بشيء من قبائحه ومضاره ، كالهمز ، واللمز ، واللمسّ والوسوسة وغيرها ، لتذهب الهمة كل

(١) أراد الشيخ أن يردَّ على من زعم أن التعوذ إنما يكون بعد الانتهاء من القرأة ، فنبَّه إلى أن معنى ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ** ﴾ أي : فإذا أردت قراءة القرآن ، كقوله تعالى ﴿ **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا** ﴾ أي : إذا أردتم القيام للصلاة وأنتم محدثون فاغسلوا .

مذهب ليستعاذ من شره عموماً . قال في روضة الأخيار : الشياطينُ ذكورٌ وإناث ، يتوالدون ولا يموتون بل يُخلَّدون ، والجنُّ : ذكورٌ وإناث ، يتوالدون ويموتون ، والملائكةُ ليسوا بذكورٍ ولا إناث ، ولا يتوالدون ولا يأكلون ولا يشربون ، فثبت بهذا أنَّ للشيطان والجن حقيقة ووجوداً ، ولم ينكر الجنَّ إلا شرذمةٌ قليلة من جهال الفلاسفة والأطباء ونحوهم ، قال تعالى : (**تَبَيَّنَت الجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي العَذَابِ المُهِينِ**) ثم حقيقتهم هم أجسام نارية ، قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، كصور الحيات والعقارب والكلاب ، والخيل والبغال والحمير ، لها عقول وأفهام ، تقدر على الأعمال الشاقة ، كما كانوا يعملون لسليمان عليه السلام المحاريب ، والتماثيل ، والجفان ، والقدور[1] ، والظاهر أن المراد بالشيطان : إبليسُ وأعوانه ، وقيل : عامٌ في كل متمرّدٍ عات ، مضلّ عن الجادَّة المستقيمة ، من جنٍّ وإنس ، كما قال تعالى(**شَيَاطِينَ الإِنْسِ والجِنِّ**) ﴿ **الرَّجِيمِ** ﴾ أي المرمي من السموات بإلقاء الملائكة حين لُعن ، أو المرمي بشهب السماء إذا قصدها ، وهذه صفة مذمومة للشيطان ، وله في القرآن أسماء مشئومة ، وصفات مذمومة ، فأجمع مساويه هو الرجيم ، لأنه جامع لجميع ما يقع عليه من العقوبات ، فلذلك خص به الابتداء من بين تلك الأسماء والصفات ، وظهورُ حقيقة الاستعاذة ، لا يمكن بمجرد القول ، بل لابد من حضور القلب ، وموافقة القول بالحال والفعل وأن لا يقول لسانك « أعوذُ بالله » وفعلكُ وحالك « أعوذ بالشيطان » وذلك بمشاركة النفس مع الشيطان ، في ارتكاب المعاصي والطغيان . قالوا : في الاستعاذة من الشيطان ، إظهارُ الخوف من غير الله ، وهو يخلُّ بالعبودية ؟ قلنا : اتخاذُ العدوّ عدواً ، تحقيقٌ للمحبة ، والفرارُ من غير الله إلى الله ، تتميمٌ للعبودية ، والامتثال لأمر الله ، تقديمٌ للطاعة ، والخوفُ ممن لا يخاف الله ، إظهارٌ للمسكنة . كما قيل : أخاف من الله أي من عذابه وغضبه ، وأخاف ممن يخاف الله أي من سوء دعائه ، وأخاف ممن لا يخاف الله أي من سوء أفعاله .

وفي التفسير الكبير أن « أعوذ بالله » رجوعٌ من الخلق إلى الخالق ، ومن الحاجة التامة لنفسه إلى الغنى التام بالحق ، في تحصيل كل الخيرات ، ودفع كل الآفات ، ففيه سرُّ ﴿ **فَفِرُّوا إِلَى اللهِ** ﴾ وفيه دلالة أن لا وسيلة إلى القرب من حضرة الرب ، إلا بالعجز ، والعجزُ منتهى المقامات ، قال الحسن : من استعاذ بالله على وجه الحقيقة ، وهو ما يكون بحضور القلب ، جعل الله وبينه وبين الشيطان ثلاثمائة حجاب ، والشيطانُ مسلَّطٌ على طبيعة بني آدم ، بالأكل والشرب ، فإذا تركهما الإنسان ، فقد اجتهد في قطع شهوة البطن ، وشهوة الفرج ، فلا يكون إذاً مداخلةٌ للشيطان أصلاً ، وأما النفس فسبب إصلاحها هو الصلوات

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ** ﴾ سورة سبأ .

الخمس ، لأنَّ فرضيتها لإصلاح النفس ، لأن فيها تذللاً بثلاث طبقات : بعقد اليدين بين يديْ الملك الأعظم ، وبالركوع له ، والسجود ، فالنفس تصلح بالخضوع ، والخشوع ، والتذلل ، ذكر أن إبليس عليه اللعنة ، يرفع الدنيا كل يوم في يديه فيقول : من يشتري ما يضره ولا ينفعه ؟ فيقول أصحاب الدنيا : نحن . فيقول : لا تَعْجلُوا فإنها معيوبة ، فيقولون : لا بأس بها ، فيقول : ثمنها ليس بدراهم ولا دنانير ، إنما ثمنها نصيبكم من الجنة ، وإني اشتريتها بأربعة أشياء : بلعنة الله ، وغضبه ، وعذابه ، وقطيعته . وبعتُ الجنة بها ، فيقولون : يجوز لنا ذلك ، فيقول : أريد أن تُرَبّحوني على ذلك ؟ وهو بأن توطّنوا قلوبكم على أن لا تدعوها أبداً ، فيقولون نعم ، فيأخذونها فيقول الشيطان : بئست التجارة .

وسئل النبي عليه السلام عن وسوسة الشيطان ، فقال : « فذلك من مَحْض الإيمان »[1] ، يعني أن السارق لا يدخل بيتاً ليس فيه شيء ، وحُكي أن رجلاً من أهل خراسان خرج نحو العراق ، وكان يتردَّد إلى عالم من علمائها ، حتى علَّمه أربعة آلاف حديث من الحكمة ، فلما أراد الإنصراف إلى وطنه ، استأذنَ من أستاذه ، فقال له الأستاذ : أعلّمك كلمةً خيرٌ لك من أحاديثك ، قال : وما هي ؟ قال : هل يكون في خراسان إبليس ؟ قال : نعم ، قال وهل يوسوسكم ؟ قال : نعم ، قال : وما تصنعون في وسوسته ؟ قال : نردُّه ، قال : إن وسوس ثانياً ؟ قال : نرُدُه ، قال : إذا آذاكم عدو الله ، وشغلكم عن الطاعة ، فلا تشتغلوا بردّ وسوسته ، ولكنْ كونوا معه كالغريب مع كلب الراعي ، واستعيذوا بالله ، وإنه كلبٌ من الكلاب ، عصمنا الله وإياكم من كيده وشره .

* * *

(١) هكذا أورده الشيخ ، وأصل الحديث في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة ؟ فقال : « تلك محض الإيمان » وفي رواية : أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ سألوا الرسول ﷺ : « إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ؟ قال ﷺ : « أو قد وجدتموه ؟ « قالوا : نعم ، قال : « ذلك صريح الإيمان » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الأصح عند متأخري الحنفية ، أن البسملة آية فذة [١] ـ أي : مستقلة ليست جزأ من آية من سور القرآن ـ أُنزلت للفصل والتبرك بالابتداء كما بدىء بذكرها في كل أمرٍ ذي بال ، وهي مفتاح القرآن ، وأول ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ ، وأول ما نزل على آدم عليه السلام ، وحكمة تأخرها عن الاستعاذة تقدم التخلية على التحلية ، والإعراض عما سوى الله على الإقبال والتوجه إليه ﴿ بِسْمِ اللهِ ﴾ كان الكفار يبدؤن بأسماء آلهتهم فيقولون : بسم اللات والعزى ، فوجب أن يَقْصِد الموحِّدُ معنى اختصاص اسم الله عزَّ وجلَّ بالابتداء ، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل ، فلذلك قُدِّر المحذوف متأخراً أي باسم الله أقرأ ، أو أتلو أو غير ذلك ، مما جعلت التسمية مبدأ له ، واسمُ ﴿ الله ﴾ كما يصح أن يطلق عليه بالنظر إلى ذاته ، وباعتبار صفة من صفاته السلبية كالقدّوس ، أو الثبوتية كالعليم ، أو باعتبار فعل من أفعاله كالخالق ، ولكنها توقيفية عند بعض العلماء ، ثم المختار أن كلمة ﴿ الله ﴾ هو الاسم الأعظم ، فإن سأل سائل وقال : إنَّ من شرط الاسم الأعظم ، أنه إن دُعي اللهُ به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى ، فنحن ندعوه به ونسأل ، فلم نر الإجابة في أكثر الأوقات ؟ قلنا : إن للدعاء آداباً وشرائط لا يستجاب الدعاء إلا بها ، كما أن للصلاة كذلك ، فأول شرائطه : إصلاحُ الباطن باللقمة الحلال ، وقد قيل : « الدعاءُ مفتاح السماء ، وأسنانه لقمةُ الحلال » وآخر شرائطه الإخلاصُ وحضورُ القلب ، كما قال الله تعالى (**فادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) فإن حركة الإنسان باللسان ، وصياحه من غير حضور القلب ، ولولةُ الواقف على الباب ، وصوتُ الحارس على السطح ، أما إذا كان حاضراً ، فالقلبُ الحاضر في الحضرة شفيعٌ له .

﴿ **الرَّحْمَٰنِ** ﴾ الرحمة في اللغة رقة القلب والانعطاف ، ومنه الرحم لانعطافها على ما فيها ، والمراد بها ههنا هو التفضل والإحسان ، فالمعنى : العاطف على خلقه بالرزق لهم ، ودفع الآفات عنهم ، لا يزيد في رزق المتقي لقبل تقواه ، ولا يُنقص من رزق الفاجر ، لِقبَل فجوره ، بل يرزق الكلَّ بما يشاء ﴿ **الرَّحِيمِ** ﴾ المترحم إذا سئل أعطى ، وإذا لم يسأل غضب « وبُنَيَّ آدم حين يسأل يغضب » [٢] ، واعلم أن الرحمة من صفات الذات وهو إرادته إيصال الخير ودفع الشر ، والإرادة صفة الذات لأن الله تعالى لو

---

(١) أي : مستقلة ، ليست جزءاً من آية من سور القرآن .

(٢) هذا شطر بيت من الشعر فيه يقول الشاعر :

لا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدمَ حاجةً * وسلِ الذي أبْوابُه لا تُحْجَب

اللهُ يَغْضبُ إن تركتَ سؤالَه * وبُنَيَّ آدمَ حِين يُسْأل يغضَبُ

لم يكن موصوفاً بهذه الصفة لما خلق الموجودات ، فلما خلق الخلق ، علمنا أن رحمته صفة ذاتية ، لأن الخلق إيصال خير الوجود إلى المخلوق، ودفع شر العدم عنهم ، فإن الوجود خير كله ، وإليها أشار رسول الله ﷺ بقوله : « إن لله مائة رحمة أعطى واحدة منها لأهل الدنيا كلها وادخر تسعاً وتسعين إلى الآخرة يرحم بها عباده »[1] .

• • •

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وجه التسمية بفاتحة الكتاب ، إمّا لافتتاح المصاحف والصلاة بها ، وإما لأن الحمد فاتحةُ كل كلام ، وإما لأنها فاتحة أبواب المقاصد في الدنيا ، وأبواب الجنان في العُقبى ، وإما لأن انفتاح أبواب خزائن أسرار الكتاب بها ، لأنها مفتاح كنوز لطائف الخطابة ، بانجلائها ينكشف جميع القرآن لأهل البيان ، لأن من عرف معانيها يفتح بها أقفال المتشابهات ، ويقتبس بسناها أنوار الآيات ، وسميت « بأم القرآن » وأمُّ الشيء أصله ، لأن المقصود من كل القرآن تقرير أمور أربعة : إقرار بالألوهية ، والنبوة ، والمعاد ، وإثبات القضاء والقدر لله تعالى ، فقوله : ﴿ **الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ يدل على الألوهية وقوله : ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ يدل على المعاد وقوله : ﴿ **إِيَاكَ نَعبدُ وَإِيَاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ على نفي الجبر والقدر ، وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله تعالى ، وسُميت « بالسبع المثاني » لأنها سبع آيات تُثنَّى في كل صلاة ، أو في كل ركعة بالنسبة إلى الأخرى ، أو لأن نزولها مرتين : مرة في مكة ، ومرة في المدينة ، وسميت بسورة الصلاة ، وسورة الشفاء ، والشافية ، وأساس القرآن ، والكافية ، والوافية وسورة الحمد ، وسورة السؤال ، وسورة الشكر ، وسورة الدعاء لاشتمالها عليها ، وسورة الكنز ﴿ **الْحَمْدُ للهِ** ﴾ لامه للعهد أي الحمد الكامل ، وهو حمدُ الله لله ، أو حمد الرسل ، أو للعموم والاستغراق ، أي جميع المحامد للمحمود أصلاً ، والممدوح عدلاً ، والمعبود حقاً من الملك أو من البشر أو من غيرها كما قال تعالى : (**وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**) والحمد إظهار كمال المحمود ، وكماله تعالى صفاتُه وأفعالُه وآثارُه ، قال الشيخ داود القيصري : الحمد قوليٌّ ، وفعليٌّ ، وحاليٌّ ، أما القوليُّ فحمد اللسان وثناؤه عليه بما أثنى به الحق على نفسه وعلى لسان أنبيائه عليهم السلام ، وأما الفعليُّ فهو الإتيان بالأعمال البدنية من العبادات والخيرات ابتغاء لوجه الله تعالى ، وتوجهاً إلى جنابه الكريم ، لأن الحمد كما يجب على الإنسان باللسان ، كذلك يجب عليه بحسب كل عضو وعند كل حال من الأحوال كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « الحمد لله على كل حال » وذلك لا يمكن إلا باستعمال كل عضو فيما خلق لأجله ، على الوجه المشروع ، عبادةً للحق تعالى وانقياداً لأمره ، لا طلباً لحظوظ النفس ومرضاتها ، وأما الحاليُّ فهو الذي يكون بحسب الروح والقلب ، كالاتصاف بالكمالات العلمية والعملية ، والتخلق بالأخلاق الإلهية ، لأن الناس مأمورون بالتخلق بأخلاق الله تعالى .

والحمد شامل للثناء والشكر ، والمدح ، ولذلك صدر كتابه بأن حمد نفسه بالثناء في ﴿ **للهِ** ﴾ والشكر في ﴿ **رَبِّ العَالَمِين** ﴾ والمدح في ﴿ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ ثم ليس للعبد أن يحمده بهذه الوجوه الثلاثة حقيقة ، بل تقليداً ومجازاً ، أما الأول فلأن الثناء والمدح ، بوجه يليق بذاته أو

بصفاته ، فرعُ معرفةِ كنهها وقد قال الله تعالى (**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً * وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**) وأما الثاني فكما أن النبي عليه السلام لما خوطب ليلة المعراج بأن أثن عليَّ قال : « لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك » وعلم أن لابد من امتثال الأمر ، وإظهار العبودية فقال :« أنتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكْ » فهو ثناء بالتقليد وقد أُمرنا أيضاً أن نحمده بالتقليد بقوله ﴿ **قُلِ الحَمْدُ للهِ** ﴾ كما قال (**فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**) .

وذكر حجة الإسلام الغزالي رحمه الله في منهاج العابدين أن الحمد والشكر آخر العقبات السبع التي لابد للسالك من عبورها ليظفر بمبتغاه ، فأول ما يتحرك العبد لسلوك طريق العبادة يكون بخطرة سماوية وتوفيق خاص إلهي وهو الذي أشار إليه صاحب الشرع ﷺ بقوله : « إن النور إذا دخل قلب العبد انفتح وانشرح » فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها ؟ فقال : « التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله »[1] .

﴿ **رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ لما نبه على استحقاقه الذاتي بجميع المحامد ، بمقابلة الحمد باسم الذات ، أردفه بأسماء الصفات جمعاً بين الاستحقاقين ، وهو أي ﴿ **ربُّ العَالَمِينَ** ﴾ كالبرهان على استحقاقه جميع المحامد الذاتي والصفاتي ، والدنيوي والأخروي ، والربُّ بمعنى التربية والإصلاح ، أما في حق العالمين فيربيهم بأغذيتهم ، وسائر أسباب بقاء وجودهم ، وفي حق الإنسان فيربي الظواهر بالنعمة وهي النفس ، ويربي البواطن بالرحمة وهي القلوب ، ويربي نفوس العابدين بأحكام الشريعة ، ويربي قلوب المشتاقين بآداب الطريقة ، ويربي أسرار المحبين بأنور الحقيقة ، ويربيّ الإنسان تارة بأطواره وفيض قويّ أنواره في أعضائه ، فسبحان من أسمعَ بعظمٍ ، وبصَّر بشحم ، وأنطق بلحم ، وأخرى بترتيب غذائه في النبات بحبوبه وثماره، وفي الحيوان بلحومه وشحومه ، وفي الأراضي بأشجاره وأنهاره ، وفي الأفلاك بكواكبه وأنواره ، فيا هذا يُربّيك كأنه ليس له عبدٌ سواك ، وأنت لا تخدمه كأن لك رباً غيره!؟ والعالمين جمع عالم ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه ، قال وهب : لله ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا عالم منها وما العمران في الخراب إلا كفسطاط في صحراء . ﴿ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ في التكرار وجوه ، أحدها ما سبق والفرق بين الرحمن والرحيم إما باختصاص الحق بالأول ، أو بعمومه ، أو بجلائل النعم ، فعلى الأول هو الرحمن بما لا يصدر جنسه من العباد والرحيم بما يتصور صدوره منهم ، وأما على أن ﴿ **الرَّحْمن** ﴾ عام فقيل كيف ذلك ، وقلما يخلو أحد بل حالة له عن نوع بلوى ؟ قلنا : الحوادث منها ما يظن أنه رحمة ويكون نقمة ، وبالعكس ، قال الله تعالى (**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً**) الآية ، فالأول كما قال القائل :

---

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وله طرق يشدُّ بعضها بعضاً .

إن الشبـــاب والفراغ والجـــده * مفســـــدة للمرء أي مفســـــدة

وكل منها في الظاهر نعمة ، والثاني كحبس الولد في المكتب ، وحمله على التعلم بالضرب ، وكقطع اليد المتأكلة ، فالأبله يعتبر بالظواهر ، والعاقل ينظر إلى السرائر ، فما من بلية ومحنة إلا وتحتها رحمة ومنحة ، وتركُ الخير الكثير للشر القليل شرّ كبير ، فالتكاليف لتطهير الأرواح عن العلائق الجسدانية وخلق النار لصرف الأشرار إلى أعمال الأبرار ، وخلق الشيطان لتميز المخلصين من العباد ، فشأن المحقق أن يبني على الحقائق كالخضر عليه السلام في قصة موسى عليه السلام معه ، فكل ما يكرهه الطبع فتحته أسرار خفية وحكمة بالغة فلولا الرحمة وسبقها للغضب لم يكن وجود الكون ولما ظهر للاسم «المنعم» عين ، وأما على أن ﴿ **الرَّحْمن** ﴾ لجلائل النعم فإنما أتبعه بالرحيم لدفع توهم أن يكون طلب العبد الشيء اليسير سوء أدب ، كما قيل لبعضهم : جئتك لحاجة يسيرة قال اطلب لها رجلاً يسيراً ، فكأن الله يقول لو اقتصرت على الرحمن لاحتشمت عني ،ولكني رحيم فاطلب مني حتى شراك نعلك ، وملح قدرك .

﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ** ﴾ أي مالك الأمر كله في يوم الجزاء ، فإضافة اليوم إلى الدين لأدنى ملابسة ، كإضافة سائر الظروف إلى ما وقع فيها من الحوادث ، كيوم الأحزاب ، ويوم الفتح ، وتخصيصه إما لتعظيمه وتهويله ، أو لبيان تفرده بإجراء الأمر فيه وانقطاع العلائق بين الملاك والأملاك حينئذ بالكلية ، ففي ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاض ولا مجازٍ غيرهُ ، وأصل الملك الربط والشدُّ والقوة ، فللّه في الحقيقة القوة الكاملة ، والولاية النافذة ، والحكم الجاري والتصرف الماضي ، وهو للعباد مجاز إذ لملكهم بداية ونهاية ، وعلى البعض لا الكل، بخلاف المعبود الحق ، إذ ليس لملكه زوال ، ولا لملكه انتقال ، وقراءة مالك بالألف أكثرُ ثواباً من « مَلِك » لزيادة حرف فيه . يحكى عن الثلجي رحمه الله تعالى أنه قال : كان من عادتي قراءة ﴿ **مَالِك** ﴾ فسمعت من بعض الأدباء أن « مَلِك » أبلغ ، فتركت عادتي وقرأت « مِلِك » فرأيت في المنام قائلاً يقول : لم نقصت من حسناتك عشراً ! أما سمعت قول النبي ﷺ : « من قرأ القرآن كتب له بكل حرف عشر حسنات » فانتبهت فلم أترك عادتي ، حتى رأيت ثانياً في المنام أنه قيل لي لم لا تترك هذه العادة أما سمعت قول النبي ﷺ : « اقرأوا القرآن فَخْماً مفخّماً » أي عظيماً معظماً فأتيت قُطْرباً ـ وكان إماماً في اللغة ـ فسألته ما بين المالك والمَلِك ؟ فقال : بينهما فرق كبير ، أما المالك فهو الذي ملك شيئاً من الدنيا ، وأما المَلِك فهو الذي يملك الملوك . قال في تفسير الإرشاد قرأ أهل الحرمين « مَلِكِ » من الملك الذي هو عبارة عن السلطان القاهر ، والاستيلاء الباهر ، والغلبة التامة والقدرة على التصرف الكلي في أمور العامة ، بالأمر والنهي ، وهو الأنسب بمقام الإضافة إلى يوم ، انتهى . ولكلٍّ وجوه ترجيح ذكرت في التفاسير فلتطالع ثمة ، والوجه في ذكر الصفات الخمس كأنه

يقول: خلقتك فأنا إله ، ثم ربيتك بالنعم فأنا ربٌّ ، ثم عصيتَ فسترت عليك فأنا رحمن ، ثم تبتَ فغفرتُ فأنا رحيم ، ثم لابد من الجزاء فأنا مالك يوم الدين ، ومن لطائف ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ أن مخالفةالمَلِك تئول إلى خراب العالم وفناء الخلق ، فكيف مخالفة ملك الملوك كما قال الله تعالى في سورة مريم (**تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ**) والطاعة سبب المصالح كما قال تعالى (**نَحْنُ نَرْزُقُكَ والعَاقِبَةُ لِلْتَّقْوَى**) فعلى الرعية مطاوعة الملوك ، وعلى الملوك مطاوعة ملك الملوك لينتظم مصالح العالم ، ومن لطائفه أيضاً أن ملك يوم الدين يبين أن كمال ملكه بعدله حيث قال (**وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً**) .

﴿ **إِيَاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ تقديم المفعول لقصد الاختصاص أي نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ، والعبادة غاية الخضوع والتذلل ، وعن عكرمة جميع ما ذكر في القرآن من العبادة يراد به التوحيد ، ومن التسبيح الصلاة ، ومن القنوت الطاعة والضمير المستكن في ﴿ **نَعْبُدُ** ﴾ وكذا في ﴿ **نَسْتَعِين** ﴾ للقارىء ومن معه من الحفظة وحاضري صلاة الجماعة ، أو له ولسائر الموحدين ، أدرج عبادته في تضاعيف عبادتهم ، وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تقبل ببركتها وتجاب ، ولهذا شرعت الجماعة ، وإنما خصص العبادة به تعالى لأن العبادة نهاية التعظيم ، فلا تليق إلا بالمنعم في الغاية ، وهو المنعم بخلق المنتفع ، وبإعطاء الحياة الممكنة من الانتفاع كما قال تعالى (**وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ**) الآية (**خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**) ولأن أحوال العبد ماض وحاضر ومستقبل ، ففي الماضي نقله من العدم والموت والعجز والجهل ، إلى الوجود والحياة والقدرة والعلم ، وفي الحاضر انفتحت عليه أبواب الحاجات ولزمته أسباب الضروريات فهو الرب الرحمن الرحيم ، وفي المستقبل مالك يوم الدين يجازيه بأعماله فصالحه في الأحوال الثلاثة لا تستتبُّ إلا بالله فلا مستحق للعبادة إلا الله تعالى ، ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ كرر إياك للتنصيص على اختصاصه تعالى بالاستعانة أيضاً ، والاستعانة طلب العون أي نطلب العون على عبادتك أو على محاربة الشيطان المانع من عبادتك ، أو في أمورنا بما يصلحنا في دنيانا وديننا ، وتقديم العبادة على الاستعانة ليوافق رؤوس الآي ، وليعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة ، أدعى إلى الإجابة ، و﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ لما أورثه العُجْب أردف ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين** ﴾ إزالة له وإفناء للنخوة ، ففي الجمع بينهما افتخار وافتقار ، فالافتخار بكونه عبداً عابداً ، والافتقار إلى معونته وتوفيقه وعصمته ، وفيه أيضاً تحقيق لمذهب أهل السنّة والجماعة ، إذ فيه إثبات الفعل من العبد ، والتوفيق من الله كالخلق ، ففيه رد الجبرية النافين للفعل من العبد بقوله ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ ورد المعتزلة النافين للتوفيق والخلق من الله بقوله ﴿ **وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين** ﴾ ثم تحقيقهما من العبد أن لا يخدم غير الله ولا

يسأل حاجةً إلا من الله ـ حكي ـ عن سفيان الثوري رحمه الله أنه أمَّ قوماً في صلاة المغرب فلما قال : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاك نَسْتَعِين** ﴾ خرَّ مغشياً عليه فلما أفاق قيل له في ذلك فقال : وقع في نفسي أن يُقال فلم تذهب إلى أبواب الأطباء والسلاطين ؟ وفي تخصيص الاستعانة بالتقديم اقتداء بالخليل عليه السلام في قيد النمرود حيث قال له جبريل عليه السلام : هل لك من حاجة ؟ فقال : أمَّا إليك فلا ، فقال : سله ، قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي .

﴿ **إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم** ﴾ بيان المعونة المطلوبة ، كأن قيل : كيف أعينك ؟ فقال : إهدنا الصراط المستقيم ، وأيضاً إن التعقيب بالدعاء بعد تمام العبادة قاعدة شرعية ، قال في التيسير (**إِيَّاكَ نَعْبُد**) إظهار التوحيد (**وإِيَّاكَ نَسْتَعِين**) طلب العون عليه ، وقوله (**إِهْدِنَا**) لسؤال الثبات على دينه ، وهو تحقيق عبادته واستعانته ، وذلك لأن الثبات على الهداية أهم الحاجات ، إذ هو الذي سأله الأنبياء والأولياء كما قال يوسف عليه السلام : (**تَوَفَّنِي مُسْلِماً**) وسحرة فرعون (**تَوَفَّنَا مُسْلِمِين**) والصحابة (**وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَار**) وذلك لأنه لا ينبغي أن يعتمد على ظاهر الحال فقد يتغير في المآل ، كما لإبليس ، وبرصيصا ، وبلعم بن باعورا .

وفي تفسير القاضي إذا قاله العارف الواصل إلى الله ، عنى به أرشدنا طريق السير فيك ، لتمحو عنا ظلمات أحوالنا ، وتميط غواشي أبداننا لنستضيء بنور قدسك فنراك بنورك وأصل الهداية أن يُعدَّى باللام أو إلى فعومل معاملة اختار في قوله تعالى : (**واخْتَار مُوسَى قَوْمَهُ**) والصراطُ المستقيم : استعارة عن ملة الإسلام والدين الحق ، تشبيهاً لوسيلة المقصود بوسيلة المقصد ، وإنما سمي الدين صراطاً لأن العبد الطالب ، لابد له من قطع المسافات ، ومسِّ الآفات ، وتحمل المجافاة ، ليُكرم بالوصول والموافاة ، ثم في قوله ﴿ **إِهْدِنا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيم** ﴾ مع أنه مهتدٍ وجوهٌ ، الأول أن لابد بعد معرفة الله تعالى والاهتداء بها من معرفة الخط المتوسط بين الإفراط والتفريط ، والمطلوب أن يهديه إلى الوسط ، والثاني أنه وإن عرف الله بدليل ، فهناك أدلة أخرى فمعنى ﴿ **اهْدِنَا** ﴾ عرِّفْنا كل شيء من كيفية دلالته على ذاتك ، وصفاتك ، وأفعالك ، والثالث أن معناه بموجب قوله تعالى (**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً**) طلبُ الإعراض عما سوى الله والإقبال بالكلية عليه ، حتى لو أُمر بذبح ولده كإبراهيم عليه السلام ، أو بأن ينقاد للذبح كإسماعيل عليه السلام فَعل ، أو بأن يرمي نفسه في البحر كيونس عليه السلام ، أو بأن يَتَتلْمذ مع بلوغه أعلى درجات الغايات كموسى عليه السلام ، أو بأن يصبر في الأمر بالمعروف على القتل والشق بنصفين كيحي وزكريا عليهما السلام، فَعَلَ، وهذا مقامٌ هائل إلا أن في قوله ﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم** ﴾ دون أن يقول صراط الذين ضُربوا وقُتلوا ، تيسيراً ، وترغيباً إلى مقام الأنبياء

والأولياء ، ولذا قال النبي ﷺ : « شيَّبتني هود وأخواتها » حيث ورد فيها (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) فإن الإنسان من حيث نشأته وقواه الظاهرة والباطنة مشتمل على صفات وأخلاق طبيعية وروحانية ، ولكل منها طرفا إفراط وتفريط ، والواجب معرفة الوسط من كل ذلك والبقاء عليه ، وبذلك وردت الأوامر ونطقت الآيات ، كقوله تعالى (وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً) الآية حرَّضه على الوسط بين البخل والإسراف ، وكقوله ﷺ لمن سأله مستشيراً في الترهب وصيام الدهر : « إن لنفسك عليك حقاً ، ولزوجك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، فصم وأفطر وقم ونم »[1] وهكذا في الأحوال كلها نحو قوله تعالى (وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا) (لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً) .

وهكذا الأمر في باقي الأخلاق فإن الشجاعة صفة متوسطة بين التهوُّر والجبن ، والبلاغة بين الإيجاز المجحف والإطناب المفرط ، وشريعتنا قد تكفلت ببيان ميزان الاعتدال في كل ترغيب وترهيب، وحال وحكم، وصفة وخلق، وفي التأويلات النجمية أن أقسام الهداية ثلاثة ، الأولى هداية العامة ، أي عامة الحيوانات إلى جلب منافعها وسلب مضارها ، وإليه أشار بقوله تعالى (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) وقوله (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) ، والثانية هداية الخاصة أي للمؤمنين إلى الجنة ، وإليه أشار بقوله تعالى (يَهْدِيهِم رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِم) الآية ، والثالثة هداية الأخص وهي هداية الحقيقة إلى الله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى) وقوله (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ) والغرضُ المراد أوجدتك بفضلي ولطفي وهديتك بجذبات عنايتي ونور هدايتي إليَّ، وجعلتك نوراً أهدي بك إليَّ من أشاء من عبادي فمن اتبعك وطلب رضاك فتخرجهم من ظلمات الوجود البشري إلى نور الوجود الروحاني وتهديهم إلى صراط مستقيم كما قال تعالى (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ) والصراط المستقيم : هو الدين القويم ، وهو ما يدل عليه القرآن العظيم ، وهو خُلُق سيد المرسلين ﷺ كما قال تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ثم هو إما إلى الجنة ، وذلك لأصحاب اليمين كما قال تعالى (وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلامِ) الآية ، وإما إلى الله تعالى ، وهذا للسابقين المتقربين كما قال تعالى (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ) وكل ما يكون لأصحاب اليمين ، يحصل للسابقين ، وهم سابقون على أصحاب اليمين ، بما لهم من شهود الجمال ، وكشف الجلال، وهذا خاصة لسيد المرسلين ومتابعيه ، كما قال تعالى (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) .

---

(١) الحديث أصله في الصحيحين . جامع الأصول ١ / ٢٩٨ .

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ بدل من الأول بدَل الكل ، والإنعامُ : إيصالُ النعمة وهي في الأصل : الحالة التي يستلذها الإنسان ، فأطلقت على ما يستلذه من نعمة الدين الحق . قال ابن عطاء : هؤلاء المنعم عليهم طبقاتٌ ، فالعارفون أنعم الله عليهم بالمعرفة ، والأولياء أنعم الله عليهم بالصدق والرضى واليقين ، والصفوةُ الأبرار أنعم الله عليهم بالحلم والرأفة ، والمريدون أنعم الله عليهم بحلاوة الطاعة ، والمؤمنون أنعم الله عليهم بالاستقامة ، وقيل هم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيينَ والصِّدِّيقَينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ) .

وتكرار الصراط إشارة إلى أن الصراط الحقيقي صراطان : من العبد إلى الرب ، ومن الربّ إلى العبد ، فالذي من العبد إلى الرب طريقٌ مخوف ، كم قُطع فيه القوافل ، وانقطع به الرواحل ، ونادى منادي العزة لأهل العزة : الطلبُ ردٌّ ، والسبيلُ سد ، وقاطع الطريق يقطع على هذا الفريق (لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمِ) الآية والذي من الرب إلى العبد ، طريقٌ آمن ، وبالأمان كائن ، قد سلم فيه القوافل ، وبالنعم محفوف المنازل، يسير فيه سيارته ويقاد بالدلائل قادته (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَبِيينَ) الآية أي أنعم الله على أسرارهم بأنوار العناية ، وعلى أرواحهم بأسرار الهداية ، وعلى قلوبهم بآثار الولاية ، والنعم إما ظاهرة ، كإرسال الرسل وإنزال الكتب ، واتباع السنّة واجتناب البدعة ، وانقياد النفس للأوامر والنواهي ، والثبات على قدم الصدق ، ولزوم العبودية ، وإمّا باطنة وهي ما أنعم على أرواحهم في بداية الفطرة ، بإصابة رُشاش نوره ، كما قال عليه السلام : « إن الله خلق الخلق في ظلمة ، ثم رشّ عليهم من نوره ، فمن أصاب من ذلك النور فقد اهتدى ، ومن أخطأه فقد ضل » [1] فكان فتح باب صراط الله إلى العبد من رُشَاش ذلك النور ، وأول الغيث قطر ثم ينسكب .

﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين ﴾ بدل من الذين على معنى أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من الغضب والضلال ، والغضب : ثوران النفس عند إرادة الانتقام ، وهنا نقيض الرضى ، أو إرادة الانتقام . والضلال : العدولُ عن الطريق السويّ ، عمداً أو خطأ ، والمراد بالمغضوب عليهم العصاة ، وبالضالين الجاهلون بالله ، لأن المنعم عليهم هم الجامعون بين العلم والعمل ، فكان المقابل لهم ، من اختلت إحدى قوتيه : العاقلة أو العالمة ، والمخل بالعمل فاسق مغضوب عليه ، لقوله تعالى (وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ) والمخلُّ بالعلم جاهل ضال كقوله تعالى (فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إلا الضَّلال) أو المغضوب عليهم هم « اليهود » لقوله تعالى في حقهم (مَنْ لَعَنَهُ الله وَغَضِبَ عليه) والضالون « النصارى » لقوله تعالى في

(١) الحديث أخرجه الترمذي في باب الإيمان ، وقال : حديث حسن . جامع الأصول ١٠ / ١١٩ .

حقهم (قَدْ ضَلُّوْا مِنْ قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثِيراً) وليس المراد تخصيص نسبة الغضب باليهود ، ونسبة الضلال بالنصارى ، لأن الغضب قد نسب أيضاً إلى النصارى ، وكذا الضلال قد نسب إلى اليهود في القرآن ، بل المراد أنهما إذا تقابلا ، فالتعبير بالغضب باليهود أليق ، لغاية تمردهم في كفرهم ، من اعتدائهم وقتلهم الأنبياء وقولهم (إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ) وغير ذلك ، فإن قلت من المعلوم أن المنعم عليهم غير الفريقين فما الفائدة في ذكرهما بعدهم ؟ قلت : فائدته وصف إيمانهم بكمال الخوف من حال الطائفتين بعد وصفه بكمال الرجاء في قوله (الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم) .

وفي تفسير النجم (غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيهِم وَلا الضَّالِينَ) هم الذين أخطأهم ذلك النور فضلوا في تيه هوى النفس ، وتاهوا في ظلمات الطبع والتقليد ، فغضب الله عليهم ولعنهم بالطرد والتبعيد .

(آمين) . إسم فعل بمعنى : استجب ومعناه يا ألله استجب دعاءنا وليست من القرآن اتفاقاً ، لأنها لم تكتب في الإمام ، ولم ينقل أحدٌ من الصحابة والتابعين أنها قرآن ، لكنْ يُسنُّ أن يقول القارىء بعد الفاتحة آمين مفصولة عنها لقوله عليه السلام : « إذا قال الإمام (وَلا الضَّالِينَ) فقولوا : آمين ، فإن الملائكة تقولها ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة ، غُفر له ما تقدم من ذنبه »[1] .

وعدد آيات سورة الفاتحة سبع في قول الجمهور ، وعدد كلماتها ، ففي التيسير أنها خمس وعشرون ، وحروفها مائة وثلاثة وعشرون .

تم بعونه تعالى تفسير سورة الفاتحة

• • •

(١) أخرجه البخاري ومسلم بلفظ : « إذا أمّن الإمام فأمنوا » ورواه أبو داود والترمذي بلفظ : « إذا قال الإمام ﴿ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلا الضَّالِين ﴾ فقولوا : آمين ، الحديث .



سؤال .. وجواب

إن قلت : أيُّ سورة أطول وأيها أقصر ؟ وأيُّ آيةٍ أطولُ وأيها أقصر ؟ قلت : قال أهل التفسير : أطول سورة في القرآن البقرة ، وأقصرها الكوثر ، وأطول آيةٍ آيةُ الدَّيْن ، وأقصرها آيةُ والضحى ، والفجر ، وأطول كلمة فيه كلمة (**فَأَسْقَيْنَاكُمُوه**) فإن قلت : ما الحكمة في أن سورة البقرة أعظم السور ما عدا الفاتحة ؟ الجواب : لأنها فُصِّلت فيها الأحكام ، وضربت الأمثال ، وأقيمت الحجج ، إذْ لم تشتمل سورةٌ على ما اشتملت عليه ، ولذلك سميت « فسطاط القرآن » قال ابن العربي [1] : سمعتُ بعض أشياخي يقول : فيها ألف أمرٍ ، وألف نهي ، وألف حُكم ، وألف خبر ، ولِعِظَم فِقْهها أقام ابن عمر رضي الله عنهما ثماني سنين على تعلمها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ **الٓمٓ** ﴾ إن قلت : ما الحكمة في ابتداء البقرة بالٓم ، والفاتحة بالحرف الظاهر المحكم ؟ الجواب قال السيوطي في مناسبة ابتداء البقرة بالٓم : إنه لما ابتدئت الفاتحة بالحرف المحكم ، الظاهر لكل أحد ، بحيثُ لا يُعذر في فهمه ، ابتدئت البقرة بمقابله ، وهو الحرف المتشابه البعيد التأويل ، ليعلم مراتبه للعقلاء والحكماء ، ليعجزهم بذلك ، ليعتبروا ويدبروا آياته .

واعلم أنهم تكلموا في شأن هذه الفواتح الكريمة وما أريد بها ، فقيل : إنها من العلوم المستورة والأسرار المحجوبة ، أي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ، وهي سرُّ القرآن ، فنحن نؤمن بظاهرها ، ونكل العلم فيها إلى الله تعالى ، وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها ، وقيل : الألف الله ، واللام لطيف ، والميم مجيد أي أنا الله اللطيف المجيد ، كما أن قوله تعالى (**الٓر**) أنا الله أرى و (**كٓهيعٓصٓ**) أنا الله الكريم الهادي الحكيم العليم الصادق ، وكذا قوله تعالى (**ق**) إشارة إلى أنه القادر القاهر و (**ن**) إشارة إلى أنه النور الناصر ، فهي حروف مقطعة ، كلٌّ منها مأخوذ من اسم من أسمائه تعالى ، والاكتفاء ببعض الكلمة معهود في العربية كما قال الشاعر :

« قلت لها قفي فقالت ق » أي وقفت ، وقيل : إن هذه الحروف ذكرت في أوائل بعض السور ، لتدلَّ على أن القرآن مؤلفٌ من الحروف التي هي « أ ب ت ث .. » إلخ ، فجاء بعضها مقطعاً ، وبعضها مؤلفاً ، ليكون إيقاظاً لمن تُحدِّي بالقرآن ، وتنبيهاً لهم على أنه منتظم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فلولا أنه

---

(١) هو القاضي أبو بكر بن العربي صاحب « أحكام القرآن » المتوفى سنة ٥٤٣ هـ ، وهو غير ابن العربي الصوفي .

خارج عن طوق البشر ، نازل من عند خلاق القوى والقُدرَ ، لأتوا بمثله هذا ما جنح إليه أهل التحقيق [١] .

وقال الشيخ العارف بالله في أول تفسير ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ وأما الحروف المجهولة التي أنزلها الله تعالى في أوائل السور ، فسبب ذلك من أجل لغو العرب [٢] عند نزول القرآن ، فأنزلها سبحانه حكمة منه ، حتى تتوفر دواعيهم لما أنزل الله إذا سمعوا مثل هذا الذي ما عهدوه ، والنفوسُ من طبعها أن تميل إلى كل أمر غريب غير معتاد ، فينصتون عن اللغو ، ويقبلون عليها ويصغون إليها ، فيحصل المقصود فيما يسمعونه ، مما يأتي بعد هذه الحروف النازلة من عند الله تعالى ، وتتوفر دواعيهم للنظر في الأمر المناسب بين حروف الهجاء التي جاء بها مقطعة وبين ما يجاورها من الكلم ، وأبهم الأمر عليهم من عدم اطلاعهم عليها ، فردَّ الله بذلك شراً كبيراً من عنادهم ولغوهم كان يظهر منهم ، فذاك رحمة للمؤمنين وحكمة منه سبحانه انتهى كلامه .

قال شيخي الأجلُّ في هامش كتاب اللائحات : زلق في أمثال هذا المتشابه أقدام الزائغين عن العلم ، وتحير عقول الراسخين في العلم ، وبعضهم توقف تأدباً مع الله تعالى ولم يتعرض بل قالوا (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) وبعضهم تأولوا لكن بوجوه بعيدة عن المرام والمقام بعيداً ، إلا أنها مستحسنة شرعاً مقبولة ديناً وعقلاً (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ) لكن بتذكير الله تعالى وإلهامه . وقال عبد الرحمن البسطامي : إن بعض الأنبياء علموا بأسرار الحروف ، بالوحي الرباني والإلقاء الصمداني ، وبعض الأولياء بالكشف النوراني والفيض الروحاني ، وبعض العلماء بالنقل الصحيح والعقل الرجيح ، وكلٌّ منهم قد أخبر أصحابه ببعض أسرارها ، إمَّا بطريق الكشف والشهود ، أو بطريق الرسم والحدود ، والصحيح أن الله تعالى طوى علم أسرار الحروف عن أكثر هذه الأمة ، لما فيها من الحكم الإلهية والمصالح الربانية ، ولم يأذن للأكابر أن يعرفوا منه إلا بعض أسراره التي يشتمل عليها تركيبها الخاص ، المنتج أنواع التسخيرات والتأثيرات في العوالم العلويات والسفليات إلى غير ذلك .

ثم اعلم أن المتشابه كالمحكم من جهة أجر التلاوة ، لما ورد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنةُ بعشر أمثالها ، لا أقول الٓمٓ حرف ، بل ألف حرفٌ ، ولامٌ حرفٌ ، وميمٌ حرف » [٣] ففي « الٓمٓ » ثلاثون حسنة ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ المراد به الكتاب الكامل ، الموعود إنزاله في الكتب المتقدمة ، وإنما أشار بذلك إلى ما ليس ببعيد ، لأن الكتاب من حيث كونه

---

(١) هذا القول هو الذي عليه الجمهور ، وهو الذي رجحه الزمخشري واختاره ابن كثير وشيخ الإسلام ابن تيمية .

(٢) أشار إلى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في ثواب القرآن رقم (٢٩١٢) وهو حديث صحيح .

موعوداً في حكم البعيد ﴿ لا رَيْبَ ﴾ كائن ﴿ فِيهِ ﴾ فقوله لا ريب اسم « لا » و« فيه » خبرها ، وهو في الأصل من رابني الشيء إذا حصل فيك الريبة ، وهي قلق النفس واضطرابها ، سمي به الشك لأنه يُقلق النفس ويزيل الطمأنينة وفي الحديث : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ومنه ريب الزمان لنوائبه ولم يقدم الظرف على الريب ، لئلا يذهب الفهم إلى أن كتاباً آخر فيه الريب ، فإن قلت : الكفار شكُّوا فيه فلم يقروا بكتاب الله تعالى ، والمبتدعون من أهل القبلة شكوا في معاني متشابهه ، فما معنى نفي الريب عنه ؟ فالجواب أن هذا نفي الريب عن الكتاب ، لا عن الناس ، والكتاب لا يتمكن فيه ريب ، فهو حق وصدق ، معلوم ومفهوم ، ، شكَّ فيه الناس أو لم يشكُّوا ، ويجوز أن يكون خبراً في معنى الأمر ، ومعناه لا ترتابوا كقوله تعالى (**فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الحَجِّ**) المعنى لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا ﴿ هُدىً ﴾ أي هو رُشدٌ وبيان ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي المتصفين بالتقوى حالاً أو مآلاً ، وتخصيص الهدى بهم لما أنهم المقتبسون من أنواره ، المنتفعون بآثاره ، وإن كان ذلك شاملاً لكل ناظر من مؤمن وكافر ، وبذلك الاعتبار قال تعالى (**هُدَى لِلنَّاسِ**) أي كلهم ، قال في التيسير : وكذلك يقال في كل من انتفع بشيء دون غيره ، إنه لك على الخصوص أي أنت المنتفع به وحدك ، وليس في كون بعض الناس لم يهتدوا ، ما يخرجه من أن يكون هدىً ، فالشمسُ شمسٌ وإن لم يرها الضرير ، والعسلُ عسل وإن لم يجد طعمه المرور ، والمسك مسك وإن لم يدرك طيبه المأنوف ، فالخيبة كل الخيبة لمن عطش والبحر زاخر ، وبقي في الظلمة والبدر زاهر ، والحسرة كل الحسرة لمن عصى وفسق والقرآن ناه آمر ، ولذلك قال تعالى (**وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافِرِينَ**) ، والمتقي : اسم فاعل من الوقاية ، وهي فرط الصيانة مأخوذ من الاتقاء ، وأصله الحاجز بين الشيئين ، ومنه يقال : اتَّقى بترسه أي جعله حاجزاً بين نفسه وبين ما يقصده ، وفي الحديث : « كنا إذا احمرَّ البأس اتَّقينا برسول الله ﷺ »[1] ، أي إذا اشتد الحرب جعلناه حاجزاً بيننا وبين العدو ، فكأنَّ المتقي يجعل امتثال أمر الله والاجتناب عما نهاه ، حاجزاً بينه وبين العذاب ، والتقوى في عرف الشرع عبارة عن كمال التوقي عما يضره في الآخرة ، وله ثلاث مراتب : الأولى التوقي عن العذاب المخلد بالتبري من الكفر ، وعليه قوله تعالى (**وَأَلْزَمَهُم كَلِمَةَ التَّقْوَى**) ، والثانية التجنب عن كل ما يؤثم وهو المتعارف بالتقوى في الشرع وهو المعنيُّ بقوله تعالى (**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا**) ، والثالثة أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق عز وجل ، ويتبتل إليه بكليته ، وهو التقوى الحقيقية المأمور بها في قوله تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**) وأقصى مراتب هذا النوع من التقوى ما انتهى إليه هم الأنبياء عليهم السلام ، حيث جمعوا رئاستيْ النبوة والولاية ، وما عاقهم التعلق بعالم الأشباح ، عن العروج إلى عالم الأرواح ، ولم تصدهم

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

مصالح الخلق ، عن الاستغراق في شؤون الحق ، لكمال استعداد نفوسهم الزكية ، المؤيدة بالقوة القدسية ، وهداية الكتاب المبين شاملة لأرباب هذه المراتب أجمعين ، فهداية العام بالإسلام ، وهداية الخاص بالإيقان والإحسان ، وهدايةُ الأخص بكشف الحجب ومشاهدة العيان ، كما كان لسيِّد ولد عدنان .

﴿ **الَّذِين يُؤْمِنُون بِالغَيْبِ** ﴾ الجملة صفة مقيدة للمتقين ، إن فسر التقوى بترك ما لا ينبغي ، مترتبة عليه ترتب التحلية ، على التخلية، وموضحة إن فسر بما يعم فعل الطاعة وترك المعصية ، لاشتماله على ما هو أصل الأعمال وأساس الحسنات ، من الإيمان والصلاة والصدقة فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية (**إنَّ الصَّلاة تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ**) والإيمان : هو التصديق بالقلب ، لأن المصدَّق يؤمِّنُ المُصَدِّق أي يجعله آمناً أو يؤمن نفسه من العذاب بفعله ، والله تعالى مؤمنٌ لأنه يؤمِّن عباده من عذابه بفضله ، قال في الكواشي : الإيمان في الشريعة هو الاعتقاد بالقلب ، والإقرار باللسان ، والعمل بالأركان ، والإسلامُ : الخضوع والانقياد ، فكل إيمان إسلام ، وليس كل إسلام إيماناً .

والغيبُ : مصدرٌ سُمي به الغائبُ توسعاً وهو ما غاب عن الحسّ والعقل ، غَيْبة كاملة ، وهو قسمان قسم لا دليل عليه وهو الذي أريد بقوله سبحانه (**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُو**) وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته ، واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور ، والحساب والجزاء ، وهو المراد هنا .

﴿ **وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ** ﴾ الصلاة اسم للدعاء كما في قوله تعالى (**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**) أي ادع لهم والثناء كما في قوله تعالى (**إنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ يُصَلّونَ**) والقراءة كما في قوله تعالى (**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ**) أي بقراءاتك ، والرحمة كما في قوله تعالى (**أُولَئِكَ عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ**) والصلاةُ المشروعة المخصوصة بأفعال وأذكار ، سميت بها لما في قيامها من القراءة ، وفي قعودها من الثناء والدعاء ، ولفاعلها من الرحمة ، والصلاة في هذه الآية اسم جنس أُريد بها الصلوات الخمس ، وإقامتها عبارةٌ عن المواظبة عليها ، أو عن التشمر لأدائها من غير فتور ولا توان ، عبَّر عن أدائها بالإقامة لأنها مشتملة على القيام ، كما عبَّر عنها بالقنوت والركوع والسجود ، أو عن تعديل أركانها ، وحفظها من أن يقع في شيء من فرائضها وسننها وآدابها زيغٌ ، من أقام العود إذا قوَّمه وعدَّله ، وهو الأظهر لأنه أشهر ، لتضمنه التنبيه على أن الحقيق بالمدح من راعى حدودها الظاهرة من الفرائض والسنن ، وحقوقها الباطنة من الخشوع والإقبال بقلبه على الله تعالى ، لا المصلون الذين هم عن صلاتهم ساهون ، قال إبراهيم النخعي : إذا رأيت رجلاً يخفف الركوع والسجود فترحَّمْ على عياله ، يعني من ضيق المعيشة .

قال في تفسير التيسير : المذكور في الآية إقامةُ الصلاة ، والله تعالى أمر في الصلاة بأشياء ، إقامتها

بقوله (**وأَقِيمُوا الصَّلاةَ**) وبالمحافظة عليها وإدامتها بقوله (**الَّذِين هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُون**) وبأدائها في أوقاتها بقوله (**كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً**) وبأدائها في جماعة بقوله (**وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**) وبالخشوع فيها بقوله (**الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُون**) وبعد هذه الأوامر صار الناس على طبقات : طبقة لم يقبلوها ، ورأسهم أبو جهل لعنه الله ، قال الله تعالى في حقه (**فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى**) وطبقة قبلوها ولم يؤدوها وهم أهل الكتاب (**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَلاةَ**) ، وطبقة أدوا بعضاً ولم يؤدوا بعضاً متكاسلين ، وهم المنافقون قال الله تعالى (**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُون اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى**) وذكر أن مصيرهم ويل وهو واد في جهنم لو جعلت فيه جبال الدنيا لماعت أي سالت ، وطبقة قبلوها وهم يراعونها في مواقيتها لشرائطها ورأسهم المصطفى ﷺ قال تعالى (**إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَم أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَي اللَّيْل**) وأصحابه كذلك فذكرهم الله تعالى بقوله (**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ**) وذكر مصيرهم فقال (**أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ**) وهو أرفع موضع في الجنة وأبهاه ، واعلم أن الجماعة من فروض الكفاية ، وفيها فضل وليست بفرض عند عامة العلماء ، حتى إذا صلى وحده جاز وإن فاته فضل الجماعة غير أنها وإن لم تكن فريضة عندنا فالواجب على المسلم أن يتعاهدها ويحفظها قال تعالى (**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ**) قال بعضهم المراد من الداعي المؤذّنون ، الذين يدعون إلى الجماعة في الصلوات الخمس ، قال عليه السلام : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ، وأنظر إلى أقوام يتخلفون عن الجماعة فأحرّق عليهم بيوتهم »[1] وهذا يدل على جواز إحراق بيت الذي يتخلف عن الجماعة ، لأن الهمّ بالمعصية لا يجوز من الرسول عليه السلام ، قال مقاتل : كان النبي عليه السلام يصلي بمكة ركعتين بالغداة ، وركعتين بالعشاء ، فلما عرج به إلى السماء أُمر بالصلوات الخمس . وإنما فرضت الصلاة ليلة المعراج لأن المعراج أفضل الأوقات ، وأشرف الحالات ، وأعز المناجات ، والصلاة بعد الإيمان أفضل الطاعات ، وفي التعبد أحسن الهيآت ، ففرض أفضل العبادات في أفضل الأوقات وهو وصول العبد إلى ربه وقربه منه .

وفي التأويلات النجمية : بداية الصلاة إقامة ، ثم إدامة ، فإقامتها بالمحافظة عليها بمواقيتها ، وإقام ركوعها وسجودها وحدودها ظاهراً وباطناً ، وإدامتها بدوام المراقبة وجمع الهمة في التعرض لنفحات ألطاف الربوبية ، التي هي مودعة فيها لقوله عليه السلام : « إن لله في أيام دهركم نفحاتٍ ألا فتعرَّضوا لها »[2] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم (٦٥٢) باب فضل صلاة الجماعة .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير ولفظه : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها ، لعله أن يصيبكم نفحةٌ منها فلا تشقون بعدها أبداً » وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ٤٠٣ .

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) الرزق في اللغة : العطاءُ ، وفي العرف ما ينتفع به الحيوان ، وهو تناول الحلال والحرام عند أهل السنّة ، والقرينةُ تخصّصه ههنا بالحلال ، لأن المقام مقام المدح ، وتقديم المفعول للإهتمام به ، والمحافظة على رؤس الآي، وإدخالُ « مِنْ » التبعيضية عليه للكف عن الإسراف المنهي عنه ، وصيغة الجمع في « رزقنا » مع أنه تعالى واحد لا شريك له ، لأنه خطاب الملوك ، والله تعالى ملك الملك ، وملك الملوك .

والإنفاق والإنفاد أخوان ، خلا أن في الثاني معنى الإذهاب بالكلية دون الأول ، والمراد بهذا الإنفاق الصرف إلى سبيل الخير ، فرضاً كان أو نفلاً ، ومن فسره بالزكاة ذكر أفضل أنواعه ، والأصل فيه ، أو خصّصه بها لاقترانه بما هي شقيقتها وأختها وهي الصلاة ، وقد جوز أن يراد به الإنفاق من جميع النعم الظاهرة والباطنة ، وإليه ذهب من قال في تفسير الآية : ومما خصصناهم من أنوار المعرفة يفيضون[1] ، والأظهر أن يُقال : المراد من النفقة الزكاة ، وزكاة كل شيء من جنسه ، وإنفاق الأغنياء من أموالهم لا يدخرونها عن أهل الحاجة ، وإنفاق العابدين من نفوسهم لا يدخرونها عن وظائف الخدمة ، وإنفاق العارفين من قلوبهم لا يدخرونها عن حقائق المراقبة ، والأقصر أن يقال إنفاق الأغنياء إخراج المال من الجيب ، وإنفاق الفقراء إخراج الأغيار من القلب ، ثم ذكر في الآية الإيمان وهو بالقلب ، ثم الصلاة وهي بالبدن ، ثم الإنفاق وهي بالمال ، وهو مجموع كل العبادات ، ففي الإيمان النجاة ، وفي الصلاة المناجاة ، وفي الإنفاق الدرجات ، وقيل ذكر في هذه الآية أربعة أشياء : التقوى ، والإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق ، وعند القوم السخاءُ هو الرتبة الأولى ، ثم الجود بعده ، ثم الإيثار ، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود ، والذي قاسى الضرورة وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار .

وفي التأويلات النجمية (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) أي من أوصاف الوجود يبذلون بحق النصف المقسوم من الصلاة بين العبد والرَّب ، فإذا بلغ السيل زباه والتعرض منتهاه أدركته العناية الأزلية بنفحات ألطافه وهداه إلى درجات قرباته فكما كان جذبة الحق للنبي عليه السلام في صورة خطاب (أُدْنُ) فجذبة الحق للمؤمن تكون في صورة خطاب (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) ففي التشهد بعد السجود إشارة إلى الخلاص من حجب الأنانية والوصول إلى شهود جمال الحق بجذبات الربانية ، ثم بالتحيات يراقب رسوم العباد في الرجوع إلى حضرة مَلِكِ الملوك بمراسم تحفة الثناء والتحنن إلى اللقاء وفي التسليم عن اليمين وعن الشمال إشارة إلى السلام على الدارين وعلى كل داع جاهل يدعوه عن اليمين إلى نعيم الجنات أو

(١) أي : يعلّمون الناس مما أفاض الله عليهم من العلوم والمعارف الدينية ابتغاء وجهه الكريم .

عن الشمال إلى اللذات والشهوات وهو في مقامات الإجابات والمناجاة ودرجات القربات مستغرق في بحر الكرامات مقيد بقيد الجذبات كما قال تعالى (**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً**) فأهل الصورة بالسلام يخرجون من إقامة صورة الصلاة ، وأهل المعرفة والإيمان يخرجون إلى صفاء القلب ورضى الرحمن (**رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**) ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ نزلت في مؤمني أهل الكتاب ﴿ **بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ** ﴾ هو القرآن بأسره ، والشريعة عن آخرها ، والتعبير عن إنزاله بالماضي ، مع كون بعضه مترقباً حينئذ ، لتغليب المحقَّق على المقدَّر ، أو لتنزيل ما في شرف الوقوع لتحققه منزلة الواقع .

﴿ **وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ التوراة والإنجيل وسائر الكتب السالفة ، والإيمان بالكل جملةً فرضُ عين ، وبالقرآن تفصيلاً يجب على أهل العلم ، فإن في وجوبه على الكل عيناً حرجاً بيناً ، وإخلالاً بأمر المعاش ، ﴿ **وَبِالآخِرَةِ** ﴾ تأنيث الآخر الذي يقابل الأول ، وهي صفة الدار بدليل قوله تعالى (**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ**) وهي من الصفات الغالبة والآخرة بفتح الخاء الذي يلي الأول ، وسُمّيت الدنيا دنيا لدنوها من الآخرة ، وسُمّيت الآخرة آخرة لتأخرها وكونها بعد الدنيا ﴿ **هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ الإيقان إتقان العلم بالشيء ، بنفي الشك والشبهة عنه ، نظراً واستدلالاً ، أي يعلمون علماً قطعياً ، مزيحاً لما كان أهل الكتاب عليه من الشكوك والأوهام التي من جملتها زعمهم أن التلذذ بالمطاعم والمشارب والمناكح إنما احتيج إليه في هذه الدار ، من أجل نماء الأجسام ، ولمكان التوالد والتناسل ، وأهلُ الجنة مستغنون عنه ، فلا يتلذذون إلا بالنسيم ، والأرواح العبقة ، والفرح والسرور[1] .

قال أبو الليث : اليقين على ثلاثة أوجه : يقينُ عيانٍ ، ويقين خبر ، ويقين دلالة ، فأما يقين العيان فهو أنه إذا رأى شيئاً زال الشك عنه في ذلك الشيء ، وأما يقين الدلالة فهو أن يرى الرجل دخاناً ارتفع من موضع ، يعلم باليقين أن هناك ناراً وإن لم يرها ، وأما يقين الخبر فهو أن الرجل يعلم باليقين أن في الدنيا مدينة يقال لها بغداد ، وإن لم ينته إليها ، فههنا يقينُ خبر ويقين دلالة ، لأن الآخرة حقّ ، ولأن الخبر يصير معاينة عند الرؤية انتهى كلامه .

ثم ثمرة اليقين بالآخرة الاستعداد لها ، فقد قيل عشرة من المغرورين : من أيقن أن الله خالقه ولا يعبده ، ومن أيقن أن الله رازقه ولا يطمئن به ، ومن أيقن أن الدنيا زائلة ويعتمد عليها ، ومن أيقن أن الورثة أعداؤه ويجمع لهم ، ومن أيقن أن الموت آت فلا يستعدُّ له ، ومن أيقن أن القبر منزله فلا يعمّره ، ومن أيقن أن الديّان يحاسبه فلا يصحح حجته ، ومن أيقن أن الصراط ممره فلا يخفف ثقله ، ومن أيقن أن النار دار الفجار فلا يهرب منها ، ومن أيقن أن الجنة دار الأبرار فلا يعمل لها كما في

(١) يزعم النصارى أن نعيم أهل الجنة للروح دون الجسد ، فهو نعيم روحي فقط ، وهذا اعتقاد باطل ، وعقيدة المسلمين أنه للروح والجسد معاً .

التيسير ، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الجملة في محل الرفع أي المذكورون قبله وهم المتقون ، الموصوفون بالإيمان بالغيب وسائر الأوصاف المذكورة ، وما فيه من معنى البعد ، للإشعار بعلو درجتهم ، وبعد منزلتهم في الفضل ، وهو مبتدأ وقوله عز وجل ﴿ عَلَى هُدىً ﴾ خبرهُ ، وما فيه من التنكير ، لكمال تفخيمه ، كأنه قيل على هدىً لا يُبلغ كنهُه ولا يُقادر قدره ، كما تقول : لو أبصرتَ فلاناً لأبصرتَ رجلاً ، يعني أكرمهم الله في الدنيا حيث هداهم ، وبيَّن لهم طريق الفلاح قبل الموت ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي على هدى كائن من عنده تعالى ، وهو شامل لجميع أنواع هدايته تعالى ، وفنون توفيقه ، والتعرضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ، لغاية تفخيم الموصوف والمضاف إليهم وتشريفهما .

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ المفلح : الفائز بالبغية ، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه ، والتركيب دالٌ على معنى الشق والفتح والقطع ، ومنه سُميّ الزارع فلاحاً لأنه يشق الأرض ، وفي المثل « الحديد بالحديد يُفلح » أي يُقطع ، والمعنى هم الفائزون بالجنة ، والناجون من النار يوم القيامة ، والمقطوع لهم بالخير في الدنيا والآخرة ، وحاصل الفلاح يرجع إلى ثلاثة أشياء : أحدها الظفر على النفس ، فلم يتابعوا هواها ، والدنيا فلم يطغوا بزخارفها ، والشيطان فلم يفتنوا بوساوسه ، والثاني النجاة من الكفر ، وغرور النفس ، ووسوسة الشيطان ووحشة القبور ، وأهوال النشور ، والثالث البقاء في الملك الأبدي ، والنعيم السرمدي ، ووجدان مُلك لا زوال له ، ونعيم لا انتقال له ، وسرور لا حزن معه ، وشباب لا هرم معه ، وراحة لا شدة معها .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لما ذكر عباده ، وخالصة أوليائه بصفاتهم التي أهلَّتهم للهدى والفلاح ، أعقبهم بأضدادهم العتاة المردة ، الذين لا ينفع فيهم الهدى ، ولا تغني عنهم الآيات والنُّذُر ، وتعريف الموصول إما للعهد ، والمراد به ناس بأعيانهم ، كأبي لهب وأبي جهل ، والوليد ابن المغيرة وأحبار اليهود ، أو للجنس متناولاً كلَّ من صمَّم على كفره ، تصميماً لا يرعوي بعده ، والكفرُ لغة : السترُ والتغطيةُ ، وفي الشريعة إنكار ما عُلم بالضرورة مجيء الرسول ﷺ ، قال في البغوي : الكفر على أربعة أوجه : كفرُ الإنكار ، وهو أن يعرف الله أصلاً ولا يعترف به ، وكفر الجحود ، وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقرَّ بلسانه ككفر إبليس قال الله تعالى (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) وكفر العناد ، وهو أن يعرف بقلبه ولا يعترف بلسانه ، ولا يدين به ، ككفر أبي طالب حيث يقول :

ولقد علمتُ بأن دينَ محمد * من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامةُ أو حذار مسبَّة * لوجدتَني سمحاً بذاك مبيناً

وكفر النفاق وهو أن يقرَّ باللسان ولا يعتقد بالقلب ، وجميع الأنواع سواء في أن من لقي الله بواحد

منها لا يغفر لـه انتهى كلام البغوي ، ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي عنـدهم وهو اسم بمعنى الاستواء نعت بـه كما ينعت بالمصادر مبالغة ، قال الله تعالى (تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) ﴿ ءَأَنْذَرْتَهُمْ ﴾ يـا محمـد ﴿ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾ مرتفع على الفـاعليـة كأنـه قيـل : إن الـذين كفروا مستـو عليهم إنـذارك وعدمه ، وأصل الإنذار : الإعلامُ بأمر مخوف ، والمراد ههنا التخويف من عذاب الله وعقابه على المعـاصي ، وإنما اقتصر عليهم لما أنهم ليسوا بأهل للبشارة أصلاً ولأن الإنذار أوقع في القلوب وأشد تـأثيراً في النفوس ، فإن دفع المضار أهم من جلب المنافع ، فحيث لم يتأثروا بـه فلأن لا يرفعوا للبشـارة رأساً أولى ، وإنمـا لم يقل « سواء عليـك » كما قـال لعَبَـدة الأصنـام (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُـونَ) لأن إنذارك وترك إنذارك ليسا سواء في حقك ، لأنك تثاب على الإنـذار وإن لم يؤمنوا ، فـأمـا في حقهم فهما سواء ، لأنهم لا يؤمنون في الحالين ، وهو نظير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فـإنـه يثـاب بـه الآمر وإن لم يعمل بـه المـأمور ، وكأنَّ هؤلاء القوم كقوم هود الـذين قـالوا لهود عليـه السلام (سَوَاءٌ عَلَيْنَـا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ) وقال تعالى في حق هؤلاء ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ إلخ ويقـال لهم في القيامة (إِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وأخبر عنهم أنهم يقولون (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَـا مِنْ مَحِيصٍ) فلمـا كان الوعـظ وتركـه سواء ، كان صبرهم في النار وتركه سواء ، وأنت إذا كان عصيانك في الشباب والشيب سواء ، وتماديـك في الصحـة والمرض سواء ، وإعراضـك في النعمـة والمحنـة سـواء ، أمـا تخشى أن تكـون تـوبتـك عنـد المـوت وإصرارك وسكوتك سواء ، وقيام الشفعاء بأمرك وتركهم سواء ؟ ﴿ لا يُؤْمِنُون ﴾ جملة مستقلة مؤكدة لما قبلها ثم هذا تخفيف للنبي عليه السلام وتفريغ لقلبـه ، حيث أخبره عن هؤلاء ، بمـا أخبر بـه نوحـاً في الانتهاء ، فإنه قال تعالى لنوح بعـد طول الزمـان ، ومقـاسـاة الشـدائـد والأحزان (إِنَّـهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِـكَ إِلا مَنْ قَـدْ آمَنَ) فـدعـا بهلاكهم بعـد ذلـك ، وفي الآيـة الكريمـة إخبـار بـالغيب ، إن أُريـد بالموصول أشخاص بأعيانهم ، فهي من المعجزات البـاهرة ، فـإن قلت : لَمَّـا علم الله أنهم لا يؤمنون فلِمَ أمرَ النبي عليه السلام بدعائهم ؟ قلت : فائدة الإنذار ـ بعد العلم بأنه لا ينجع ـ إلزامُ الحجة ، كما أن الله تعالى بعث مـوسى إلى فرعـون ليـدعـوه إلى الإسـلام ، وعلم أنـه لا يـؤمن ، قـال الله تعـالى (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكونَ لِلناسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْـدَ الرُّسُلِ) وقـال (وَلَوْ أَنَّـا أَهْلَكْنَـاهُمْ بِعَـذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ) ، فإن قلت : لمـا أخبر الله رسولـه أنهم لا يؤمنون ، فهلا أهلكهم كما أهلـك قوم نوح بعـدمـا أخبر أنهم لا يـؤمنـون ؟ ، قلت لأن النبي عليـه السلام كان رحمة للعـالمين كما ورد بـه الكتـاب (وَمَـا كَـانَ اللهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَـا كَـانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) .

﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ لما ذكر هؤلاء الكفار بصفاتهم ، ألحقَ به ذكرَ عقوباتهم فهو تعليل للحكم السابق وبيان ما يقتضيه ، والختمُ : الكتم سُمي به الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه ، لأنه أكتم له وبلوغ آخره ، والمراد به أن يُحدث في نفوسهم هيئة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصي فتجعل قلوبهم بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ، ولا ينفذ فيها الحق أصلاً وسمى هذه الهيئة على الاستعارة ختماً . وقد عبر عنها بالطبع في قوله تعالى (**أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِم**) وبالإغفال في قوله (**وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا**) ، وردت الآية الكريمة ناعية عليهم شناعة صفتهم ، ووخامة عاقبتهم ، فالختم مجازاة لكفرهم ، والله تعالى قد يسر عليهم السبل ، فلو جاهدوا لوفقهم فسقط الاعتراض ، بأنه إذا ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فمنعهم عن الهدى ، فكيف يستحقون العقوبة ؟ .

والمراد بالقلب في الآية محل القوة العاقلة من الفؤاد ، وقد يطلق ويراد به المعرفة والعقل كما قال (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ**) ﴿ و ﴾ ختم الله ﴿ **عَلَى سَمْعِهِمْ** ﴾ أي على آذانهم ، فجعلها بحيث تعاف استماع الحق ، ولا تصغي إلى خير ، ولا تعيه ولا تقبله ، كأنها مستوثق منها بالختم ، عقوبة لهم على سوء اختيارهم ، وميلهم إلى الباطل وإيثارهم له ، وفي توحيد السمع وجوه ، أحدها أنه في الأصل مصدر والمصادر لا تُجمع ، لصلاحيتها للواحد والاثنين والجماعة قال تعالى (**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً**) ، والثاني أن فيه اضماراً أي على مواضع سمعهم وحواسه كما في قوله تعالى (**وَاسْئَلِ الْقَرْيَةَ**) أي أهلها وثبت هذا الإضمار دلالة أن السمع فعل ، ولا يُختم على الفعل ، وإنما يختم على محله ، والثالث أنه أراد سمع كل واحد منهم ، والإضافة إلى الجماعة تغني عن الجماعة ، وفي التوحيد أمن اللبس ، كما في قول الشاعر : « كلوا في بعض بطنكم » أي : بطونكم ، إذْ البطن لا يشترك فيه ، والرابع قول سيبويه أنه توسط جمعين فدل على الجمع وإن وُحِّد كما في قوله (**يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**) دل على الأنوار ذكر الظلمات ، وتقديمُ ختم قلوبهم للإيذان بأنها الأصل في عدم الإيمان ، وتقديم حال السمع على حال أبصارهم ، للاشتراك بينه وبين قلوبهم في تلك الحال ، ﴿ **وَعَلَى أَبْصَارِهِم** ﴾ جمع بصر وهو إدراك العين ، وقد يُطلق مجازاً على القوة الباصرة وعلى العضوين ، وهو المراد ههنا لأنه أشد مناسبة للتغطية ﴿ **غِشَاوَةٌ** ﴾ أي غطاء ، ولا تغشية على الحقيقة ، إنما المراد بها إحداث حالة تجعل أبصارهم بسبب كفرهم لا تجتلي الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق ، كما تجتليها أعين المستبصرين ، وتصير كأنها غطي عليها ، وحيل بينها وبين الإبصار وهي غشاوة التعامي عن الآيات ، قوله (**غِشَاوَة**) مبتدأ مؤخر خبره المقدم قوله (**عَلَى أَبْصَارِهِمْ**) ولما اشترك السمع والقلب في الإدراك من جميع الجوانب ،

جعل ما يمنعها من خاص فعلها ، الختمُ الذي يمنع من جميع الجهات ، وإدراك الأبصار مما اختص بجهة المقابلة ، جعل المانع لها عن فعلها الغشاوة المختصة بتلك الجهة ، قال في التيسير : إنما ذكر في الآية « القلوب ، والسمع، والأبصار » لأن الخطاب كان باستعمال هذه الثلاثة في الحق كما قال تعالى (**أَفَلا تَعْقِلُون ؟ أَفَلا تُبْصِرُون ؟ أَفَلا تَسْمَعُون**) ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم** ﴾ أي عقوبة شديدة القوة ، والعذاب كالنكال بناء ومعنى ، وسمي العذاب عذاباً ، لأنه يمنع عن الجناية ، إذا تأمل فيها العاقل ، ومنه الماء العذب ، لما أنه يقمع العطش ويردعه ، بخلاف الملح فإنه يزيده ، وقيل : إنما سُميّ به لأنه جزاء ما استعذبه المرءُ بطبعه ، أي استطابه ولذلك قال (**فَذُوقُوا عَذَابِي**) وإنما يذاق الطيب على معنى أنه جزاء ما استطابه واستحلاه بهواه في الدنيا ، والعظيم نقيضُ الحقير ، والكبيرُ نقيضُ الصغير ، قال في التيسير : عظيم أي كبير أو كثير أو دائم ، وهو التعذيب بالنار أبداً ثم عظمته بأهواله وبشدة أحواله ، وكثرة سلاسله وأغلاله ، فتكون هذه الآية وعيداً وبياناً لما يستحقونه في الآخرة ، وقيل : هو القتل والأسر في الدنيا ، والتحريقُ بالنار في العُقبى ، ومعنى التنكير أن لهم من الآلام نوعاً عظيماً ، لا يعلم كنهه إلا الله عز وجل ، فعلى العاقل أن يجتنب ما يؤدي إلى العذاب الأليم والعقاب العظيم ، وهو الإصرار على الذنوب، والإكباب على اقتراف الخطيآت والعيوب .

﴿ **وَمِنَ النَّاس** ﴾ لما افتتح سبحانه وتعالى كتابه بشرح حاله وساق لبيانه ذكر الذين أخلصوا دينهم لله ، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ، وثنّى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً ، ثلّث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين ، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم المنافقون أخبثُ الكفرة ، وأبغضهم إلى الله ، لأنهم موّهوا الكفر ، وخلطوا به خداعاً واستهزاء ، ولذلك طوّل في بيان خبثهم ، قال القاشاني : الاقتصار في وصف الكفار على آيتين ، والإطناب في وصف المنافقين في ثلاث عشرة آية ، للإضراب عن أولئك صفحاً ، إذ لا ينجع فيهم الكلام ، ولا يجدي معهم الخطاب ، وأما المنافقون فقد ينجع فيهم التوبيخ بالتشنيع عليهم ، وتفظيع شأنهم وسيرتهم ، و« الناس » إسم جمع للإنسان ، سمي به لأنه عهد إليه فنسي (**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ**) وقيل لظهوره من آنس أي أبصر ، ولأنهم ظاهرون مُبصرون ، كما سمي الجن جناً لاجتنانهم أي استتارهم عن أعين الناس ، وقيل هو من الأنس الذي هو ضدُّ الوحشة ، لأنهم يستأنسون بأمثالهم ، أو تستأنس أرواحهم بأبدانهم ، ﴿ **مَنْ يَقُول** ﴾ ناس يقولون أي يقرون باللسان و« مَنْ » موصولة والمراد بها عبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه ، ونظراؤه من المنافقين ، حيث أظهروا كلمة الإسلام ليسلموا من النبي عليه السلام وأصحابه ، واعتقدوا خلافها ، وأكثرهم من اليهود ﴿ **آمَنَّا بِالله** ﴾ أي صدقنا بالله ﴿ **وبِاليَوْمِ الآخِر** ﴾ والمراد باليوم الآخر

من وقت الحشر إلى ما لا يتناهى لأنه آخر الأيام المحدودة وسمي بالآخر لتأخره عن الدنيا ، وتخصيصهم للإيمان بها ادعاء أنهم قد حازوا الإيمان من قطريه ، وأحاطوا به من طرفيه فإن ما قالوه على وجه الخداع والنفاق تمويهاً على المسلمين واستهزاء بهم ، فكان خبثاً إلى خبث ، وكفراً إلى كفر ﴿ **وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي ليسوا بمصدقين ، لأنهم يضمرون خلاف ما يظهرون ، بل هم منافقون ، وفي الحكم عليهم بأنهم ليسوا بمؤمنين ، نفيُ ما ادعوه على سبيل البتِّ والقطع ، لأنه نفي أصل الإيمان منهم بإدخال الباء في خبر « ما » ولذا لم يقل : وما هم من المؤمنين ، فإن الأول أبلغ من الثاني ، دلت الآية على أن الدعوى مردودة ، إذا لم يقم عليها دلائل الصحة ، قال قائلهم : من تحلّى بغير ما فيه ، فضح الامتحان ما يدعيه ، فإنَّ من مدح نفسه ذُمَّ ، ومن ذمَّ نفسهُ مُدح ، قال فرعون (**وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**) فقيل له (**وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**) وقال يونس عليه السلام (**إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) فقيل له (**فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**) .

حُكي أن شيخاً كان له تلميذ يدعي أنه أمين ، والشيخ يعلم منه خلاف ذلك ، وهو يردُّ على الشيخ في ذلك ويدعي الأمانة ، فأخذ الشيخ يوماً تلميذاً وخبأه في بيت ، وعمد إلى كبش فذبحه ، وألقاه في كيس ، ودخل ذلك التلميذ المدّعي ، فرأى الشيخ ملطخاً بالدماء ، والعِدْل أمامه والسكينُ في يده ، فقال له : يا سيدي ما شأنك ؟ فقال له غاظني فلان فقتلته ، وهذه أمانة فاستر عليَّ وادفن معي هذا المذبوح ، الذي في هذا الكيس ، فدفنه معه في الدار ، وجاء أبو ذلك المخبوء يطلب إبنه ، فقال له الشيخ هو عندي ، فمضى الرجل ، فلما كبر على الرجل نكاية الشيخ ، مشى إلى والده وأخبره أن الشيخ قتله ودفنه معه ، ورفع ذلك إلى السلطان ، فتوقف السلطان في ذلك الأمر ، لما يعرفه من جلالة الشيخ ، وبعث إليه بالقاضي والفقهاء ، وأخذ ذلك التلميذ يسب الشيخ ، ووقف الشهود حتى حضروا إلى العدل فعاينوا الكبش ، وخرج التلميذُ المخبوء ، وافتضح وندم حيث لا ينفعه الندم .

﴿ **يُخَادِعُونَ اللهَ** ﴾ توبيخ لما هو غرضهم مما يقولون ، أو استئناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الذهن ، كأنه قيل : ما لهم يقولون ذلك وهم غير مؤمنين ؟ فقيل : يُخادعون الخ ، أي : يخدعون ، وإنما أخرج في زنة « فَاعَلَ » للمبالغة ، وخداعهم مع الله سبحانه ليس على ظاهره ، لأنه لا تخفى عليه خافيه ، بل المراد مخادعة رسوله على حذف المضاف ، وإما أنَّ صورة صنعهم مع الله - من إظهار الإيمان واستبطان الكفر ، وصنع الله معهم من إجراء أحكام المسلمين عليهم ، وهم عنده تعالى أخبث الكفار ، وأهل الدرك الأسفل من النار استدراجاً لهم - كصورة صنع المخادعين فتكون المخادعة بين الإثنين ، والخداع : أن يوهم صاحبه خلاف ما يريده من المكروه ، ليوقعه فيه من حيث لا يحتسب ، أو يوهمه

المساعدة ليغتر بذلك فينجو منه بسهولة ، من قولهم ضب خادع ، وكلا المعنين مناسب للمقام ، فإنهم كانوا يريدون بما صنعوا أن يَطَّلعوا على أسرار المؤمنين ، فيذيعوها إلى مخالفيهم وأعدائهم ، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائر الكفرة من القتل والنهب والأسر ، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي يخادعون المؤمنين بقولهم إذا رأوهم : آمنا وهم غير مؤمنين ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إلا أَنْفُسَهُمْ ﴾ النفس ذات الشيء وحقيقته والمراد هنا بيان أن ضرر مخادعتهم راجع إليهم ، لا يتخطاهم إلى غيرهم ، أي يفعلون ما يفعلون والحال أنهم ما يضرون بذلك إلا أنفسهم ، فإن دائرة فعلهم مقصورة عليهم ، ووبال خداعهم راجع إليهم ، لأن الله تعالى يُطلع نبيَّه ﷺ على نفاقهم فيفضحون في الدنيا ويستوجبون العقاب في العقبى .

وقيل : يعاملهم على وفق ما عاملوا وذلك فيما جاء أنهم إذا أُلقوا في النيران ، وعذبوا فيها طويلاً من الزمان ، استغاثوا بالرحمن قيل لهم : هذه الأبواب قد فتحت فاخرجوا ، فيتبادرون إلى الأبواب ، فإذا انتهوا إليها أغلقت دونهم ، وأعيدوا إلى الآبار مع الشياطين والطواغيت ، ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ حال من ضمير ما يخدعون ، والحال أنهم ما يحسون بذلك ، لتماديهم في الغفلة والغواية ، والشعورُ : الإحساس أي علم الشيء علم حسّ ، ومشاعرُ الإنسان حواسُّه ، سُميت به لكون كل حاسة محلاً للشعور ، ثم في هذه الآية نفي العلم عنهم وفي قوله (وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) إثبات العلم لهم ، والتوفيق بينهما أنهم علموا به حقيقة ولكن لم يعملوا بما علموا فكأنهم لم يعلموا وهو كقوله عز وجل (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) فكانوا ناطقين سامعين ناظرين حقيقة لكن لم ينتفعوا بذلك فكانوا كأنهم صم بكم عمي فذو الآلة إذا لم ينتفع بها فهو وعادم الآلة سواء ، والعالم الذي لا يعمل بعلمه فهو والجاهل سواء ، والغني الذي لا ينتفع بماله فهو والفقير سواء ، فإثبات العلم للكفار إلزام الحجة وذكر الجهل إثبات المنقصة بخلاف المؤمنين فإن إثبات العلم لهم إثبات الكرامة وذكر الجهل تلقين عذر المعصية كذا في التيسير ، فعلى المؤمن أن يتحلى بالعلم والعمل ويجتنب عن الخطأ والزلل ويطيع ربه خالصاً لوجهه الكريم ويعبده بقلب سليم وفي الحديث : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله قال : « الرياء يقول الله تعالى يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن لهم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم خيراً »[1] وإنما يقال لهم ذلك لأن عملهم في الدنيا كان على وجه الخداع فيعاملون في الآخرة على وجه الخداع كذا في تنبيه الغافلين .

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾ والمرض حقيقة فيما يعرض للبدن ، فيخرجه عن الاعتدال ، ويوجب الخلل في أفاعيله ويؤدي إلىالموت ، ومجاز في الأعراض النفسانية كالجهل والحسد

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٥ / ٤٢٨ بإسناد جيد ، وابن أبي الدنيا والبيهقي في الزهد ، وانظر الترغيب والترهيب ١ / ٣٤ .

والضغينة وغير ذلك من فنون الكفر ، قلوبهم كانت متألمة تحرقاً على ما فات عنهم من الرياسة ، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول عليه السلام واستعلاء شأنه يوماً فيوماً فزاد الله غمهم بما زاد في إعلاء أمره ورفع قدره وأن نفوسهم كانت مؤوفة بالكفر وسوء الاعتقاد ومعاداة النبي عليه السلام ونحوها فزاد الله ذلك بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيها التذكير والإنذار وبازدياد التكاليف الشرعية وتكرير الوحي وتضاعف النصر لأنهم كلما ازدادت التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفراً وقد كان يشق عليهم التكلم بالشهادة فكيف وقد لحقتهم الزيادات وهي وظائف الطاعات ثم العقوبة على الجنايات فازدادو بذلك اضطراباً على اضطراب وارتياباً على ارتياب ويزدادون بذلك في الآخرة عذاباً على عذاب قال تعالى (**زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العَذَاب بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ**) قال القطب العلامة : أمراضُ القلب إمَّا متعلقة بالدين ، وهو سوء الاعتقاد والكفر ، أو بالأخلاق وهي إما رذائل فعلية كالغل والحسد واما رذائل انفعالية كالضعف والجبن ، فَحَمَل المرض أولاً على الكفر ثم على الهيآت الفعلية ثم على الهيآت الانفعالية ، ويحتمل أن يكون قوله تعالى (**فَزَادَهُمُ اللهُ**) دعاء عليهم ، فإن قلت : فكيف يحمل على الدعاء ، والدعاء للعاجز عرفاً ، والله تعالى منزه عن العجز ؟ قلت : هذا تعليم من الله عباده ، أنه يجوز الدعاء على المنافقين ، والطرد لهم لأنهم شر خلق الله ، وهذا كقوله تعالى (**قَاتَلَهُمُ اللهُ ، وَلَعَنَهُمُ اللهُ**) ﴿ **وَلَهُمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ يصل ألمه إلى القلوب ، وهو بمعنى المؤلم ﴿ **بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾ الباء للسببية أي بسبب كذبهم المتجدد المستمر ، الذي هو قولهم آمنا الخ ، وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته ، وتخبيرٌ أن العذاب الأليم لاحقٌ بهم من أجل كذبهم ، والكذبُ : الإخبار بالشيء على خلاف ما هو به ، وهو قبيحٌ كله ، وأما ما روي أن إبراهيم عليه السلام (كذب ثلاث كذبات) فالمراد به التعريض ، لكنْ لما شابه الكذبَ في صورته ، سُمِّيَ به ، وإحدى الكذبات قوله (**إِنِّي سَقِيم**) أي ذاهب إلى السقم من الغيظ في اتخاذهم النجوم آلهة ، قاله ليتركوه من الذهاب معهم إلى عيد لهم والثانية قوله (**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**) على الفرض والتقدير وعلى سبيل الإلزام ، فهذا القول تهكم بعقولهم . وثالثتها قوله في حق زوجته سارة « هَذِهِ أُخْتِي » والمراد منه الأخوَّة في الدين ، وغرضُه منه تخليصها من يد الظالم ، لأن من دين ذلك الملك أنه لا يتعرض إلا لذوات الأزواج ، واعلم أن الكذب من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب ، ورأس كل معصية وهو مجانب للإيمان ، يعني الإيمان في جانب ، والكذبُ في جانب آخر ، وهذا كناية عن كمال البعد بينهما وفي الحديث : « كل الكذب مكتوب لا محالة ، إلا أن يكذب الرجل في الحرب ، فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين رجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يُحدّث امرأته ليرضيها »[1] مثل أن يقول لا أحد أحب إليَّ منك ، وكذا من جانب المرأة ، فهذه الثلاث ورد

(١) الحديث مروي بالمعنى ، ورواه مسلم بلفظ : « لم أسمعه يرخّص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث ... » وذكرها . وانظر جامع =

فيها صريح الاستثناء إذا ارتبط بمقصود صحيح له أو لغيره .

﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ بقولهم (آمَنَّا بِاللهِ) فإنهم ليسوا بمؤمنين حقيقة ، والإيمان الحقيقي نورٌ إذا دخل القلب يظهر على المؤمن حقيقته ، كما كان لحارثة لما سأله رسول الله ﷺ : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال أصبحت مؤمناً حقاً . قال : يا حارثة إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال : أعرضتْ نفسي عن الدينا ـ أي : زهدت وانصرفت ـ فأظمأتُ نهارها وأسهرتُ ليلها واستوى عندي حجرها وذهبها وكأني أنظرُ إلى أهل الجنة يتزاورون ، وإلى أهل النار يتضاغون ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، فقال رسول الله ﷺ : « أصبت فالزم »[1] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي قال المسلمون لهؤلاء المنافقين ﴿ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أي وإذا قيل لهم هذا القول ، والفسادُ خروج الشيء عن الاعتدال ، والإصلاح ضدُّه والفساد في الأرض : تهييجُ الحروب والفتن ، وإفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار ، وغير ذلك من فنون الشرور ، فلما كان ذلك من صنيعهم مؤدياً إلى الفساد ، قيل لا تفسدوا كما يقول الرجل: لا تقتل نفسك بيدك ، ولا تلق نفسك في النار ، إذا أقدم على ما هذه عاقبته ، ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ردّ للناصح على سبيل المبالغة ، والمعنى إنه لا يصلح مخاطبتنا بذلك ، فإن شأننا ليس إلا الإصلاح ، وإن حالنا متمحضة عن شوائب الفساد ، وإنما قالوا ذلك ، لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح ، لما في قلوبهم من المرض كما قال الله تعالى (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً) فأنكروا كون ذلك فساداً وادعوا كونه إصلاحاً محضاً ، وهو من قصر الموصوف على الصفة مثل إنما زيد منطلق ، فأجابهم الله تعالى ﴿ أَلا ﴾ أيها المؤمنون اعلموا ﴿ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ أي هم مقصورون على الإفساد لا يتخطون منه إلى صفة الإصلاح ثم استدرك بقوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ أنهم مفسدون للإيذان بأن كونهم مفسدين من الأمور المحسوسة لكن لا حسَّ لهم حتى يدركوه ، وذكر الشعور بإزاء الفساد أوفق لأنه كالمحسوس عادة .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ من طرف المؤمنين إتماماً للنصح وإكالاً للإرشاد ، ﴿ آمِنُوا ﴾ أي آمنوا بالله وباليوم الآخر ﴿ كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ أي آمنوا إيماناً مماثلاً لإيمانهم ، واللام في الناس للجنس والمراد به الكاملون في الإنسانية أو للعهد والمراد به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه ، والمعنى آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص ، متمحضاً من شوائب النفاق ، مماثلاً لإيمانهم ﴿ قَالُوا ﴾ مقابلين للأمر بالمعروف

= الأصول ١٠ / ٦٠٤ .

(١) الحديث أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب ، وابن منده ، وأبو نعيم ، وانظر نصّ الحديث في أسد الغابة لابن الأثير ١ / ٤٢٥ في ترجمة حارثة بن سُراقة برقم ٩٩٣ .

بالإنكار ﴿ **أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ** ﴾ الهمزة فيه للإنكار والسَّفهُ : خفة عقل وسخافة رأي ، يورثها قصور العقل ، ويقابله الحلم والأناة ، وإنما نسبوهم إليه مع أنهم في الغاية القاصية من الرشد ، والوقار والكمال لانهماك أنفسهم في السفاهة ، أو لتحقير شأنهم ، فإنَّ كثيراً من المؤمنين كانوا فقراء ، ومنهم موالي كصهيب وبلال ، فإن قيل : كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقوله (**أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء**) ؟ قلنا فيه أقوال : الأول أن المنافقين كانوا يتكلمون بهذا الكلام في أنفسهم ، دون أن ينطقوا به بألسنتهم ، لكن هتك الله تعالى أستارهم وأظهر أسرارهم ، والثاني أن المنافقين كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم ، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ بذلك ، والثالث أن هذا القول وإن صدر عنهم بمحضر من المؤمنين الناصحين لهم لكنْ لا يقتضي كونهم مجاهرين لا منافقين لأنه محتمل للشر وللخير ، بأن يُحمل على ادعاء الإيمان كإيمان الناس ، وإنكار ما اتهموا به من النفاق ، على معنى أنؤمن كما آمن السفهاء والمجانين الذين لا اعتداد بإيمانهم حتى تأمروننا بذلك ؟ قد خاطبوا به الناصحين استهزاء بهم ، فرد عليهم ذلك بقوله عز وجل ﴿ **أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أنهم هم السفهاء ولا يحيطون بما عليهم من داء السفه ، وهذا رد ومبالغة ، واعلم أن قوله تعالى (**وَمَا يَشْعُرُونَ**) في الآية الأولى نفي الإحساس عنهم ، وفي الثانية نفي الفطنة لأن معرفة الصلاح والفساد يدرك بالفطنة ، وفي الآية الثالثة نفي العلم ، وفي نفيها على هذه الوجوه تنبيه لطيف ومعنى دقيق ، وذلك أنه بيَّن في الأول أن في استعمالهم الخديعة نهاية الجهل ، الدال على عدم الحس ، وفي الثاني أنهم لا يفطنون ، تنبيهاً على أن ذلك لازم لهم ، لأن من لا حس له لا فطنة له ، وفي الثالث أنهم لا يعلمون تنبيها على أن ذلك أيضاً لازم لهم ، لأن من لا فطنة له لا علم له فإن العلم تابع للعقل .

﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا** ﴾ أي هؤلاء المنافقون إذا عاينوا وصادفوا المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، قالوا كذباً : آمنا وصدَّقنا كتصديقكم ، روي أن « عبد الله بن أبيّ » المنافق وأصحابه ، خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفرٌ من الصحابة ، فقال ابن أبيّ انظروا كيف أُردُّ هؤلاء السفهاء عنكم ؟ فلما دنوا منهم أخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه ، فقال : مرحباً بالصدّيق سيد بني تميم ، وشيخ الإسلام وثاني رسول الله ﷺ في الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه فقال مرحباً بسيد بني عديّ ، الفاروق القوي في دينه ، البازل نفسه وماله لرسول الله ﷺ ، ثم أخذ بيد عليّ رضي الله عنه فقال مرحباً بابن عم رسول الله وختنه ، فقال له عليّ رضي الله عنه : يا عبد الله اتق الله ولا تنافق ، فإن المنافقين شر خلق الله ، فقال له : مهلاً يا أبا الحسن ، كيف تقول هذا ؟ والله إن إيماننا كأيمانكم وتصديقنا كتصديقكم ، ثم افترقوا فقال ابن أبيّ لأصحابه كيف رأيتموني فعلت ؟ فإذا

رأيتوهم فافعلوا مثل ما فعلت فأثنوا عليه خيراً ، فنزلت الآية ﴿ **وَإِذَا خَلَوْا** ﴾ أي مضوا أو اجتمعوا على الخلوة ﴿ **إِلَى شَيَاطِينِهِمْ** ﴾ أصحابهم المماثلين للشيطان في التمرد والعناد ، المظهرين لكفرهم ، وإضافتهم إليهم للمشاركة في الكفر ، أو كبار المنافقين والقائلون صغارهم ، وكلُّ عاتٍ متمرد فهو شيطان ، وسُمُّوا شياطين لبعدهم عن الحق ﴿ **قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ** ﴾ إنا موافقوكم على دينكم واعتقادكم ، لا نفارقكم في حال من الأحوال ﴿ **إِنَّمَا نَحْنُ** ﴾ أي في إظهار الإيمان عند المؤمنين ﴿ **مُسْتَهْزِئُونَ** ﴾ بهم من غير أن يخطر ببالنا الإيمان فنريهم أنَّا نوافقهم على دينهم ظاهراً لنشاركهم في غنائمهم ونطّلع على أسرارهم والاستهزاءُ : السخرية والاستخفاف ، والمعنى نسخر بهم بإظهارنا الإسلام ، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿ **اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِم** ﴾ أي يجازيهم على استهزائهم ، أو يعاملهم معاملة المستهزئ بهم ، أما في الدنيا فبإجراء أحكام المسلمين عليهم ، واستدراجهم بالإمهال على التمادي في الطغيان ، وأما في الآخرة فما يُروى أنه يُفتح لهم باب الجنة وهم في جهنم ، فيسرعون نحوه ، فإذا وصلوا إليه سُدَّ عليهم الباب وردوا إلى جهنم ، والمؤمنون على الأرائك في الجنة ينظرون إليهم ، فيضحكون منهم كما ضحكوا من المؤمنين في الدنيا ، فذلك بمقابلة هذا ، ﴿ **وَيَمُدُّهُمْ** ﴾ أي يزيدهم ويقويهم ﴿ **فِي طُغْيَانِهِمْ** ﴾ متعلق بيمدهم والطغيان مجاوزة الحد في كل أمر ، والمراد إفراطهم في العتو وغلوهم في الكفر ﴿ **يَعْمَهُونَ** ﴾ أي يترددون في الضلالة متحيرين ، عقوبة لهم في الدنيا لاستهزائهم ، والعمه في البصيرة ، كالعمى في البصر ، وهو التحير والتردد ، بحيث لا يدري أين يتوجه ، ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ المنافقون المتصفون بما ذكر من الصفات الشنيعة ، المميِّزة لهم أكمل تمييز ، بحيث صاروا كأنهم حُضَّار مشاهدون على ما هم عليه ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الشر وسوء الحال ﴿ **الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ** ﴾ أصل الاشتراء بذل الثمن لتحصيل ما يطلب من الأشياء ، ثم اتسع فيه فاستعمل للرغبة عن الشيء طمعاً في غيره ، وهو ههنا اشتراء الضلالة وهي الكفر بالهدى وهو الإيمان ، أي اختاروها عليه واستبدلوها به وأخذوها مكانه ، ﴿ **فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ** ﴾ ترشيح للمجاز أي ما ربحوا فيها ، والتجارة صناعة التجار ، وهو التصدي بالبيع والشراء لتحصيل الربح وهو الفضل على رأس المال ﴿ **وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** ﴾ أي إلى طريق التجارة فإن المقصد منها سلامة رأس المال مع حصول الربح ، ولئن فات الربح في صفقة ، فربما يتدارك في صفقة أخرى ، لبقاء الأصل ، وأما إتلاف الكل بالمرة ، فليس من باب التجارة قطعاً ، وهؤلاء قد أضاعوا مالهم واختل عقلهم ، ولم يبق لهم رأس مال ، يتوسلون به إلى درك الحق ونيل الكمال ، فبقوا خاسرين آيسين من الربح ، واعلم أن المهتدي هو الذي ترك الدنيا والعادة ، ثم اشتغل بوظائف الطاعة والعبادة ، لا من اتبع كل ما يهواه وخلط هواه بهداه .

﴿ مَثَلُهُم ﴾ المثل في الأصل بمعنى النظير ، ثم قيل للقول السائر ، ولا يضرب إلا بما فيه غرابة ، ثم استعير لكل حال أو قصة ، أو صفة لها شأن عجيب وفيها غرابة ، كقوله تعالى (**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**) وقوله تعالى (**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى**) أي الوصف الذي له شأن من العظمة والجلال ، ولما أخبر الله بحقيقة حال المنافقين ، عقّبها بضرب المثل زيادة في التوضيح والتقرير ، فإن التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل ، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي ، ومن ثمة كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي ، والغائب بالشاهد ، ولأمرٍ ما أكثر الله في كتبه الأمثال ، وفي الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال ، وفي القرآن ألف آية من الأمثال والعبر ، وهي في كلام الأنبياء عليهم السلام والعلماء والحكماء كثيرة لا تحصى والمعنى حالهم العجيبة الشأن ﴿ **كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً** ﴾ أي كحال الذين من باب وضع واحد الموصول موضع الجمع ، والاستيقاد طلب الوقود ، والسعي في تحصيله ، وهو سطوع النار وارتفاع لهبها ، أي أوقد في مفازة في ليلة مظلمة ، ناراً عظيمة خوفاً من السباع وغيرها ﴿ **فَلَمَّا أَضَاءَتْ** ﴾ الإضاءة فرط الإنارة كما يعرب عنه قوله تعالى (**هوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُوراً**) أي أنارت النار ﴿ **مَا حَوْلَهُ** ﴾ أي ما حول المستوقد من الأماكن والأشياء ﴿ **ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ** ﴾ أي أذهبه بالكلية ، وأطفأ نارهم التي هي مدار نورهم ، والمراد إزالته بالكلية ، كما يفصح عنه قوله تعالى ﴿ **وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُون** ﴾ فإن الظلمة هي عدم النور ، وانطماسه بالمرة ، لا سيما إذا كانت متضاعفة متراكمة كما يفيده الجمع والتنكير التفخيمي ﴿ **لا يُبْصِرُونَ** ﴾ لا يتحقق إلا بعد أن لا يبقى من النور عين ولا أثر ، والمعنى : إن حالهم العجيبة هي اشتراؤهم الضلالة ، التي هي عبارة عن ظلمتي الكفر والنفاق ، المستتبعين لظلمة سخط الله تعالى ، وظلمة العقاب السرمدي ، بالهدى الذي هو الفطري النوري المؤيد بما شاهدوه من دلائل الحق ، كحال من استوقد ناراً عظيمة حتى كاد ينتفع بها ، فأطفأها الله تعالى ، وتركه في ظلمات هائلة لا يتسنى فيها الإبصار ، ﴿ **صُمٌّ** ﴾ أي هم صم عن الحق لا يقبلونه ، فكأنهم لم يسمعوا ، والصَّممُ : انسداد خروق المسامع ، بحيث لا يكاد يصل إليها هواء ، يحصل الصوت بموجبه ﴿ **بُكْمٌ** ﴾ خرس عن الحق لا يقولونه فكأنهم لم ينطقوا ، وهو آفة في اللسان لا يتمكن بها أن يعتمد مواضع الحروف ﴿ **عُمْيٌ** ﴾ أي فاقدوا الأبصار عن النظر الموصل إلى العبرة ، التي تؤديهم إلى الهدى ، فالعمى مستعمل ههنا في عدم البصر والبصيرة جميعاً ، وهذه صفاتهم في الدنيا ، ولذلك عوقبوا في الآخرة بجنسها قال تعالى (**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامةِ عَلَى وُجُوهِهِم عُمْياً وبُكْماً وصُماً**) فلا يسمعون سلام الله ، ولا يخاطبون الله ، ولا يرونه ، والمسلمون كانوا سامعين للحق ، قائلين بالحق ناظرين إلى الحق ، فيكرمون يوم القيامة بخطابه ، ولقائه ، وسلامه ﴿ **فَهُمْ لا يَرْجِعُون** ﴾ أي هم بسبب اتصافهم بالصفات المذكورة ، لا يعودون عن الضلالة إلى الهدى الذي تركوه ، وقوله تعالى ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ**

﴿ عُمْيٌ ﴾ ليس بنفي الآلات ، بل هو نفي تركهم استعمالها .

وأسباب عمى البصيرة ثلاثة : إرساله الجوارح في معاصي الله ، والتصنع بطاعة الله ، والطمع في خلق الله ، فعند عماها يتوجه العبد للخلق ، ويعرض عن الحق ، ﴿ أَوْ ﴾ مثل المنافقين ﴿ كَصَيِّبٍ ﴾ أي كحال أصحاب صيِّب أي مطر يصوب أي ينزل ويقع ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ والسماء سقف الدنيا والمعنى أنه صيِّبٌ عامٌّ ، نازل من غمام مطبق ، آخذ بآفاق السماء ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن تحت العرش بحراً ينزل منه أرزاق الحيوانات، يوحى إليه فيطر ما شاء من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى سماء الدنيا ، ﴿ فِيهِ ﴾ أي في الصيب ﴿ ظُلُمَاتٌ ﴾ أنواع منها وهي ظلمة تكاثفه ، وظلمة الغمام المطبق الآخذ بالآفاق ، مع ظلمة الليل ، وليس في الآية ما يدل على ظلمة الليل ، لكنْ يمكن أن يؤخذ ظلمة الليل من سياق الآية ، حيث قال تعالى (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) وبعده (وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) فإن خطف البرق البصر ، إنما يكون غالباً في ظلمة الليالي ، وكذا وقوف الماشي عن المشي إنما يكون إذااشتدت ظلمة الليل ، بحيث يحجب الأبصار عن إبصار ما هو أمام الماشي من الطريق وغيره ، وظلمة السحب وتكاثفه في النهار لا يوجب وقوف الماشي عن المشي وجعل المطر محلاً للظلمات مع أن بعضها لغيره كظلمة الغمام والليل لما أنها جعلتا من توابع ظلمته مبالغة في شدته وتهويلاً لأمره ، ﴿ وَرَعْدٌ ﴾ هو صوت قاصف يسمع من السحاب ﴿ وَبَرْقٌ ﴾ هو ما يلمع من السحاب إذا تحاكّت أجزاؤه .

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدة والهول فكأن قائلاً قال كيف حالهم مع مثل ذلك الرعد ؟ فقيل : يجعلون أصابعهم في آذانهم والمراد أناملهم ، وفيه من المبالغة ، كأنهم يدخلون من شدة الحيرة أصابعهم كلها في آذانهم لا أناملها فحسب ، ويجوز أن يكون هذا إيماء إلى كمال حيرتهم وفرط دهشتهم وبلوغهم إلى حيث لا يهتدون إلى استعمال الجوارح على النهج المعتاد ، ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴾ أي من أجل خوف الصواعق وهي جمع صاعقة وهي قصفة رعد هائل ، تنقض معها شعلة نار لا تمر بشيء إلا أتت عليه ، وكان ﷺ يقول إذا سمع الرَّعد وصواعقه : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تُهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » ، ﴿ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ أي لأجل مخافة الهلاك ، ﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ ﴾ أصل الإحاطة : الإحداق بالشيء من جميع جهاته أي محدق بعلمه وقدرته ، ﴿ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أي لا يفوتونه كما لا يفوت المحاط به المحيط ، والجملة اعتراضية منبهة على أن ما صنعوا من سدالآ ذان بالأصابع ، لا يغني عنهم شيئاً ، فإن القدر لا يدفعه الحذر ، وفائدة وضع الكافرين موضع الضمير ، الإيذان بأنَّ مادهمهم من الأمور الهائلة بسبب كفرهم ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ ﴾ أي يقرب البرق ،

﴿ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ أي يختلسها ويستلبها بسرعة من شدة ضوئه ، ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ ﴾ أنار البرق الطريق في الليلة المظلمة ، ﴿ مَشَوْا فِيهِ ﴾ أي في ذلك المسلك خطوات يسيرة ، مع خوف أن يخطف أبصارهم ، وإيثار المشي على ما فوقه من السعي والعدو ، للإشعار بعدم استطاعتهم لهما لكمال دهشتهم ، ﴿ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي خفي البرق واستتر فصار الطريق مظلماً ﴿ قَامُوا ﴾ أي وقفوا في أماكنهم على ما كانوا عليه ، متحيرين مترصدين لحظة أخرى ، عسى يتسنى لهم الوصول إلى المقصد أو الالتجاء إلى ملجأ يعصمهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ ﴾ أي لو أراد أن يذهب الأسماع والأبصار ، ﴿ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ بصوت الرعد ونور البرق ، عقوبة لهم ، لأنه لا يعجز عن ذلك ، ﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي على كل موجود بالإمكان ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أي فاعل له ، على قدر ما تقتضيه حكمته ، ثم إن هذا التمثيل كشفٌ بعد كشف ، وإيضاحٌ بعد إيضاح ، أبلغ من الأول ، شبَّه الله حال المنافقين في حيرتهم ، وما خبطوا فيه من الضلالة ، وشدة الأمر عليهم وخزيهم وافتضاحهم ، بحال من أخذته السماء في ليلة مظلمة ، مع رعد وبرق ، وخوف من الصواعق والموت ، هذا إذا كان التمثيل مركباً وهو الذي يقتضيه جزالة التنزيل ، كما إذا تصورت من مجموع الآية مكابدة من أدركه الوابل الهاطل ، مع تكاثف ظلمة الليل ، وهيئة انتساج السحاب بتتابع القطر ، وصوت الرعد الهائل ، والبرق الخاطف ، والصاعقة المحرقة ، ولهم من خوف هذه الشدائد حركات من يحذر الموت ، حصل لك منه أمر عجيب ، وخطب هائل ، بخلاف ما إذا تكلفت لكل واحد مشبهاً به ، فشبَّه القرآن وما فيه من العلوم والمعارف التي هي مدار الحياة الأبدية بالصيب الذي هو سبب الحياة الأرضية ، وما عرض لهم بنزوله وتصامهم عما يقرع أسماعهم من الوعيد بحال من يهوله الرعد والبرق فيخاف صواعقه فيسد أذنه ولا خلاص له منها ، واهتزازهم لما يلمع لهم من رشد يدركونه أو رفد يحرزونه بمشيهم في ضوء البرق كلما أضاء لهم ، وتحيرهم في أمرهم حين عنّ لهم مصيبة بوقوفهم إذا أظلم ، فعلى العاقل أن يتمسك بحبل الشرع القويم ، والصراط المستقيم ، كي يتخلص من الغوائل والقيُود ، ومهالك الوجود ، وغاية الأمر خفيَّة لا يدري بم يختم ؟ قال رجل للحسن البصري كيف أصبحت ؟ قال بخير ، قال كيف حالك ، فتبسم الحسن ثم قال : لا تسأل عن حالي ، ما ظنك بناس ركبوا سفينة ، حتى توسطوا البحر ، فانكسرت سفينتهم فتعلق كل إنسان منهم بخشبة ، على أي حال هم ؟ قال الرجل : على حال شديد ، قال الحسن : حالي أشد من حالهم ، فالموت بحري ، والحياة سفينتي ، والذنوب خشبتي ، فكيف يكون حال من وصفه هذا يا بني ؟ فلابد من ترك الذنوب ، والفرار إلى علام الغيوب .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ الآية مسوقة لإثبات التوحيد ، وتحقيق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، اللذين هما أصل الإيمان ، والناس يصلح اسماً للمؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين ، والنداء تنبيه الغافلين ،

وتحريك الساكنين وتعريف الجاهلين وتفريغ المشغولين وتوجيه المعرضين وتهييج المحبين وتشويق المريدين ، قال بعض العارفين : أقبل عليهم بالخطاب ، جبراً لما في العبادة من الكلفة بلذة الخطاب .

﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ يقول للكفار وحّدوا ربكم ، ويقول للعاصين أطيعوا ربكم ، ويقول للمنافقين أخلصوا بالتوحيد معرفة ربكم ويقول للمطيعين أثبتوا على طاعة ربكم، واللفظ يحتمل لهذه الوجوه كلها وهو من جوامع الكلم ، والعبادةُ استفراغ الطاقة في استكمال الطاعة ، واستشعار الخشية في استبعاد المعصية ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ صفة جرت عنه للتعظيم والتعليل معناه أطيعوا ربكم لأنه خلقكم ، والخلقُ : اختراع الشيء على غير مثال سبق ﴿ و ﴾ خلق ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي من زمن قبل زمانكم من الأمم ، وفي الوصف به إيماء إلى سبب وجوب عبادته تعالى ، فإن خلق أصولهم من موجبات العبادة كخلق أنفسهم ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي راجين أن تدخلوا في سلك المتقين ، الفائزين بالهدى والفلاح ، المستوجبين لجوار الله تعالى ، ولعل للترجي والإطماع ، وهي من الله تعالى واجبٌ ، لأن الكريم لا يُطَمِّع إلا فيما يفعل ، وفيه تنبيه على أن التقوى منتهى درجة السالكين ، وهو التبري من كل شيء سوى الله تعالى ، وأن العابد ينبغي أن لا يغتر بعبادته ويكون ذا خوف ورجاء ، كما قال تعالى (**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً**) .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ﴾ صفة ثانية لربكم ، والأرض بساط العالم وبسيطها من حيث يحيط بها البحر ، ﴿ فِرَاشاً ﴾ ومعنى جعلها فراشا جعل بعضها بارزاً من الماء ، مع اقتضاء طبعها الرسوب ، وجعلها متوسطة بين الصلابة واللين ، صالحة للقعود عليها والنوم فيها ، كالبساط المفروش ، وليس من ضرورة ذلك كونها سطحاً حقيقياً ، فإن كرويةَ شكلها مع عظم جرمها ، مصححة لافتراشها ﴿ و ﴾ جعل ﴿ السَّمَاءَ ﴾ وهو ما علاك وأظلك ﴿ بِنَاءً ﴾ قبة مضروبة عليكم ، وكل سماء مطبقة على الأخرى مثل القبة ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي مطراً ينحدر على السحاب ، ومنه على الأرض ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ ﴾ أي أنبت الله بسبب الماء الذي أنزل من السماء ﴿ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ هي ههنا المأكولات كلها من الحبوب والفواكه وغيرها ، مما يخرج من الأرض والشجر ﴿ رِزْقاً لَكُمْ ﴾ وذلك بأن أودع في الماء قوة فاعلية ، وفي الأرض قوة منفعلة ، فتولّد من تفاعلها أصناف الثمار ، فبين المُظِلَّة والمُقِلَّة [1] شبه عقد النكاح ، بإنزال الماء منها عليها ، والإخراج به من بطنها ، أشباه النسل المنتج من الحيوان ، من ألوان الثمار ، رزقاً لبني آدم ، ورزقاً أي طعاماً وعلفاً لكم ولدوابكم ، والمعنى أن الله تعالى أنعم عليكم بذلك كله ، لتعرفوه بالخالقية والرازقية فتوحدوه ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً ﴾ جمع ندّ وهو المثل ، أي أمثالاً

(١) أراد بالمظِلّة « السّماءَ » لأنها كالقُبّة تظلّلُ البشر ، وبالمقِلّة « الأرضَ » لأنها تحملهم على ظهرها .

تعبدونهم كعبادة الله ، يعني لا تقولوا له شركاء تعبد معه .

﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أن الله هو الذي خلقكم ومن قبلكم ، وخلق السماء والأرض ، وخلق الأرزاق ، دون الأصنام فإنها لا تضر ولا تنفع ، والوعظ الكلي أنه قال في الآية ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ وقال ﴿ رِزْقاً لَكُمْ ﴾ فلو قال لك في القيامة : فعلتُ كذا كله لكم ، فما فعلتم لي فما تقول ؟ .

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ أي في شك من القرآن ، الذي نزلناه على محمد ﷺ ، في كونه وحياً منزلاً من عند الله تعالى ، والتنزيل : النزول على سبيل التدريج ، وأُنزل القرآن جملة واحدة من السماء الدنيا ، إلى بيت العزة ، ثم منه على النبي ﷺ مفرقاً منجماً في ثلاث وعشرين سنة ، ليحفظ ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان أُمياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، ففُرّق عليه ليثبت عنده حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء فإنه كان كاتباً وقارئاً فيمكنه حفظ الجميع من الكتاب ، ولذا قالوا إن سائر الكتب الآلهية أُنزلت جملة ﴿ فَأْتُوا ﴾ جواب الشرط وهو أمر تعجيز ﴿ بِسُورَةٍ ﴾ وحَدُّ السورة : قطعة من القرآن معلومة الأول والآخر ، أقلها ثلاث آيات ، ﴿ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ أي سورة كائنة من مثل القرآن في البيان الغريب ، وعلو الطبقة في حسن النظم ، فالضمير لما نزلنا ، أي أتوا أنتم بمثل ما أُوتي هو إن كان الأمر كما زعمتم من كونه كلام البشر ، إذ أنتم وهو سواء في الخلق واللسان ، ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ ﴾ جمع شهيد بمعنى الحاضر ، أو القائم بالشهادة ، أو الناصر ، ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أما متعلقة بادعوا فالمعنى ادعوا متجاوزين الله من حضركم كائناً من كان ، للاستظهار في معارضة القرآن ، وإما متعلقة بشهداءكم والمراد بهم الأصنام ، ودون بمعنى التجاوز على أنها ظرف مستقر وقع حالاً من ضمير المخاطبين والعامل ما دل عليه شهداءكم أي ادعوا أصنامكم الذين اتخذتموهم آلهة وزعمتم أنهم يشهدون لكم يوم القيامة أنكم على الحق متجاوزين الله في اتخاذها كذلك ، ودلت الآية على أن الاستعانة بالخلق لا تغني شيئاً ، وما يغني رجوع العاجز إلى العاجز ، فلا ترفع حوائجك إلا إلى من لا يشق عليه قضاؤها ولا تسأل إلا من لا تفنى خزائنه ، ولا تعتمد إلا على من لا يعجز عن شيء، ينصرك من غير معين ويحفظك من كل جانب ومن غير صاحب ويغنيك من غير مال ، فيقل أعداد الأعداء الكثيرة إذا حماك ، ويكثر عدد المال القليل إذا كفاك ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في أن محمداً تقوّله من تلقاء نفسه ، ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ أي ما أمرتم به من الإتيان بالمثل ، بعد ما بذلتم في السعي غاية المجهود ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ فيما يستقبل أبداً وذلك لظهور إعجاز القرآن ، فإنه معجزة النبي عليه الصلاة والسلام ، والجملة اعتراض بين الشرط وجوابه ، وهذه معجزة باهرة ، حيث أخبر بالغيب الخاص ، علّمه به عز وجل ، وقد وقع الأمر كذلك ، كيف لا ولو عارضوه بشيء لتناقله الرواة خلفاً عن سلف ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ أي ولما

عجزتم عن معارضة القرآن ، لزمتكم الحجة أن محمداً رسولي ، والقرآن كتابي ، ولزمكم تصديقه والإيمان به ، ولما لم تؤمنوا صرتم من أهل النار فاتقوها ، ﴿ **الَّتِي وَقُودُهَا** ﴾ أي حطبها وهو ما يوقد به النار ﴿ **النَّاسُ** ﴾ أي العصاة ﴿ **وَالحِجَارَة** ﴾ أي حجارة الكبريت ، وإنما جعل حطبها منها ، لسرعة التهابها وبطيء خمودها ، وشدة حرها ، وقبح رائحتها ، ولصوقها بالبدن ، أو الحجارة هي الأصنام التي عبدوها ، وإنما جُعل التعذيب بها ليتحققوا أنهم عذبوا بعبادتها ، وليروا ذُلَّها ومهانتها ، بعد اعتقادهم عزها وعظمتها ، والكافر عَبَد الصنم واعتمده ورجاه ، فعُذب به ، إظهاراً لجهله ، وقطعاً لأمله ، كأتباع الكبراء ، خدموهم ورجوهم ، وفي النار يُسحبون معهم ، ليكون أشق عليهم ، وأقطع لرجائهم ، ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ أي هيئت للذين كفروا بالله ، وجُعلت عدةً لعذابهم ، وفيه دلالة على أن النار مخلوقة موجودة الآن ، خلافاً للمعتزلة ، قال البغوي السورة : اسم للمنزلة الرفيعة ، وسميت سورة لأن القارىء ينال بقراءتها منزلة رفيعة ، حتى يستكمل المنازل ، باستكمال سور القرآن ، وقال الحكماء : حق الولد على أبويه ثلاثة : أن يسمياه باسم حسن عند الولادة ، وأن يُعلِّماه القرآن والأدب والعلم ، وأن يختناه ، ثم إن المقصد الأصلي هو العمل بالقرآن ، والتخلق بآدابه .

﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ البشارة الخبر السار ، الذي يظهر به أثر السرور في البشرة أي فرِّحْ يا محمد قلوب الذين آمنوا ، فالخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ، وقيل لكل من يتأتى منه التبشير ، كما في قوله عليه الصلاة والسلام : « بشرالمشائين إلى المساجد في الظُّلَم بالنور التام يوم القيامة »[1] فإنه عليه الصلاة والسلام لم يأمر بذلك واحداً بعينه ، بل كل أحد مما يتأتى منه ذلك ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أي فعلوا الفعلات الصالحات ، وهي كل ما كان لله تعالى ، وفي عطف العمل على الإيمان ، دلالة على تغايرهما ، وإشعار بأن مدار استحقاق البشارة مجموع الأمرين ، فإن الإيمان أساس ، والعملُ الصالح كالبناء عليه ، ولا غناء بأساس لا بناء عليه ، وطلب الجنة بلا عمل حال السفهاء ، ﴿ **أَنَّ لَهُمْ** ﴾ أي بأن لهم ﴿ **جَنَّاتٍ** ﴾ بساتين فيها أشجار مثمرة ، والجنة ما فيه النخيل ، ولفرط التفاف أغصان أشجارها وتسترها بالأشجار سميت جنة ، كأنها سترة واحدة ، لأن الجنة بناء قصور ، وإنما سميت دار الثواب بها مع أن فيها ما لا يوصف من الغرفات والقصور لما أنها مناط نعيمها ومعظم ملاذها ، فإن قلت : ما معنى جمع الجنة وتنكيرها ؟ قلتُ : الجنة إسم لدار الثواب كلها ، وهي مشتملة على جنان كثيرة ، مرتبة مراتب على استحقاقات العاملين ، لكل طبقة منهم جنة من تلك الجنان ، ثم الجنان ثمان : دار الجلال ، ودار القرار ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم ، ﴿ **تَجْرِي مِنْ**

---

(١) أخرجه أبو داود رقم / ٥٦١ / في باب الصلاة ، والترمذي برقم / ٢٢٣ / انظر جامع الأصول ٩ / ٤٢٠ .

﴿ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ والأنهار جمع نهر ، وهو المجرى الواسع كالنيل نهر مصر ، والمراد بها ماؤها ، فإن قلت : كيف جريُ الأنهار تحتها؟ قلت : كما ترى الأشجار النابتة ، على شواطىء الأنهار الجارية . وعن مسروق أن أنهار الجنة تجري في غير أخدود ، وهو الشق من الأرض بالاستطالة ، وأنزه البساتين وأكرمها منظراً ، ما كانت أشجاره مظلّلة ، والأنهار في خلالها مطردة ، ولولا أن الماء الجاري من النعمة العظمى ، وأن الرياض وإن كانت أحسن شيء لا تجلب النشاط حتى يجري فيها الماء ، وإلا كانت كتماثيل لا أرواح لها ، وصور لا حياة لها ، والأنهار ، هي الخمر ، واللبن ، والعسل ، والماء ، فإذا شربوا من نهر الماء ، يجدون حياة ثم إنهم لا يموتون ، وإذا شربوا من اللبن يحصل في أبدانهم تربية ، ثم إنهم لا ينقصون ، وإذا شربوا من نهر العسل ، يجدون شفاء وصحة ثم إنهم لا يسقمون ، وإذا شربوا من نهر الخمر يجدون طرباً وفرحاً ، ثم إنهم لا يحزنون .

﴿ كُلَّمَا ﴾ متى ﴿ رُزِقُوا مِنْهَا ﴾ أي أُطعموا من الجنة ﴿ مِنْ ثَمَرَةٍ ﴾ ليس المراد بالثمرة التفاحة الواحدة أو الرمانة وإنما المراد نوع من أنواع الثمار ، ﴿ رِزْقاً ﴾ مفعول رزقوا وهو ما ينتفع به الإنسان طعاماً ﴿ قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي هذا مثل الذي رزقنا من قبل في الدينا ، وإنما جعل ثمر الجنة كثمر الدنيا لتميل النفس إليه حين تراه ، فإن الطباع مائلة إلى المألوف ، إذ لو كان جنساً غير معهود لظن أنه لا يكون إلا كذلك وإن كان فائقاً ، فحين أبصروا الرمانة من رمان الدنيا ومبلغها في الحجم ، ثم يبصرون رمانة الجنة وهي تشبع أهل الدار كان ذلك أبين للفضل ، وأجلب للسرور ، وأزيد في التعجب ، كأنهم قالوا هذا عين ما رزقناه في الدنيا ، فمن أين له هذه الرتبة من اللذة والطيب ؟ ﴿ وَأُتُوا بِهِ ﴾ أي جيئوا بذلك الرزق ﴿ مُتَشَابِهاً ﴾ في اللون والجودة ، فإذا أكلوا وجدوا طعمه أجود وألذ ، يعني لا يكون فيها رديء ، وثمرتها أمثال القلال ، كلما نُزعتْ ثمرة عادت مكانها أخرى ، ولو اجتمع الخلائق على عنقود لأشبعهم ، وجاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال : يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون فقال : « نعم والذي نفس محمد بيده ، إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل ، في الأكل والشرب والجماع » قال : فإن الذي يأكل له حاجة ، والجنةُ طيبة ليس فيها أذى ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « حاجة أحدهم عَرَق كريح المسك »[1] ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا ﴾ أي في الجنة ﴿ أَزْوَاجٌ ﴾ أي نساء وحور ﴿ مُطَهَّرَةٌ ﴾ مهذبة من الأحوال المستقذرة ، كالحيض والنفاس ، والبول والغائط والمني ، وسائر الأرجاس والولادة ودنس الطبع وسوء الخُلُق وغير ذلك ، ومطهَّرة أبلغ من طاهرة للإشعار بأن مطهراً طهَّرهن ، وما هو إلا الله سبحانه وتعالى ، قال الحسن : هن عجائزكم العمص العمش طهرن من قاذورات الدنيا ، ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي دائمون أحياء ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، قال

(١) الحديث أخرجه ابن أبي شيبة والنسائي وأحمد في المسند ٤ / ٣٦٧ وذكره السيوطي في الدر المنثور ١ / ٤٠ .

عكرمة : أهل الجنة ولد ثلاث وثلاثين سنة وقامتهم ستون ذراعاً على قامة أبيهم آدم ، شبابٌ جرد مرد مُكحَّلون ، لا يبصقون ولا يمتخطون ، يزدادون كل يوم جمالاً وحسناً كما يزداد أهل الدنيا هرماً وضعفاً ، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم ، واعلم أن معظم اللذات الحسية ، لما كان مقصوراً على المساكن والمطاعم والمناكح ، وكان ملاك جميع ذلك الدوام والثبات ، إذْ كُلُّ نعمة - وإن جلَّت - حيث كانت في شرف الزوال ، فإنها منغصة غير صافية من شوائب الألم ، بُشّر المؤمنون بها وبدوامها ، تكميلاً للبهجة والسرور .

﴿ إِنَّ اللهَ لا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً ﴾ لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه ، وضرب للمشركين به المثل ، ضحكت اليهود ، وقالوا : ما يشبه هذا كلام الله ، فأنزل الله هذه الآية ، والحياءُ تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يُعاب به ويُذم ، وهو جار على سبيل التمثيل ، أي لا يترك ضربَ المثل بالبعوضة ، ترك من يستحي أن يمثِّل بها لحقارتها ، كأنه قيل لا يترك مثلاً ما من الأمثال ، أيَّ مثل كان ، والبعوضة صغارُ البقّ ، سُميت بعوضة لأنها كأنها بعضُ البقّ ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ أي فما هو أزيد منها كالذباب والعنكبوت ، أو فما دونها في الصغر ، فان قلت : مثَّل الله آلهتهم ببيت العنكبوت وبالذباب ، فأين تمثيلها بالبعوضة فما دونها ؟ قلت في هذه الآية كأنَّه قال : إن الله لا يستحي أن يضرب مثل آلهتكم بالبعوضة فما دونها ، فما ظنكم بالعنكبوت والذباب ؟ قال الإمام أبو منصور : الأعجوبة في الدلالة على وحدانية الله تعالى ، في الخلق الصغير الجُثَّة والجسم ، أكثرُ منها في الكبار العظام ، لأن الخلائق لو اجتمعوا على تصوير صورة من نحو البعوض والذباب ، وتركيب ما يحتاج من الفم والأنف والعين ، والرجل واليد ، ما قدروا عليه ، ولعلهم يقدرون على تصوير العظام من الأجسام الكبار منها ، فالبعوضة أعطيت على قدر حجمها الحقير ، كل آلة وعضو أعطيه الفيل الكبير .

ومن لطف الله تعالى أنه خلق الأسد بغاية القوة ، والبعوض والذباب بغاية الضعف ، ثم أعطى البعوض والذباب جراءةً ، أظهرها في طيرانها في وجوه الناس ، وتماديها في ذلك ، مع مبالغة الناس في ذبها بالمذبّة ، وركَّب الجبن في الأسد ، وأظهر ذلك بتباعده عن مساكن الناس وطرقهم ، ولو تجاسر الأسد تجاسر الذباب والبعوض ، لهلك الناس ، فمنَّ الله تعالى وجعل في الضعيف التجاسر وفي القوي الجبن ، ومن العجب عجزك عن هذا الضعيف ، وقدرتك على ذلك الكبير وحكي : أنه خطب المأمون فوقع ذباب على عينه فطرده ، فعاد مراراً حتى قطع عليه الخطبة ، فلمّا صلى أحضر أبا هذيل شيخ البصريين فقال له : لِمَ خَلَقَ الله الذباب ؟ قال : ليذلَّ به الجبابرة ، قال : صدقت ، وأجازه بمال ، ففي خلق مثل الذباب حِكَمٌ ومصالح ، قال القشيري : الخلقُ في التحقيق بالإضافة إلى قدرة الخالق ، أقل من ذرَّة من الهباء في الهواء ، وسيّان في قدرته العرشُ والبعوضةُ ، فلا خلقُ العرش عليه أعسر ، ولا خلق

البعوضة عليه أيسر ، سبحانه وتقدس عن لحوق العُسْرِ واليسر .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالقرآن ومحمد ﷺ ﴿ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أي المثل بالبعوضة والذباب ﴿ الحَقُّ ﴾ أي الثابت الذي لا يسوغ إنكاره ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي كائناً منه تعالى ، فيتفكرون في هذا المثل الحق ، ويوقنون أن الله هو خالق الكبير والصغير، وكلٌّ ذلك في قدرته سواء فيؤمنون به ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهم اليهود والمشركون ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا ﴾ أي ما الذي أو أي شيء ﴿ أَرَادَ اللهُ بِهَذَا ﴾ أي بالمثل الخسيس ، وفي كلمة « هذا » تحقيرٌ للمشار إليه ، واسترذال له ﴿ مَثَلاً ﴾ أي بهذا المثل ممثلاً ؟ فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿ يُضِلُّ بِهِ ﴾ أي يخذل بهذا المثل ، والإضلال : هو الصرفُ عن الحق إلى الباطل ، وإسناد الإضلال إليه سبحانه ، مبني على أن جميع الأشياء مخلوقة له تعالى ، وإن كانت أفعال العباد من حيثُ الكسبُ مستندة إليهم ﴿ كَثِيراً ﴾ من الكفار وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون ضلالة ﴿ وَيَهْدِي بِهِ ﴾ أي يوفق بهذا المثل ﴿ كَثِيراً ﴾ من المؤمنين لتصديقهم به فيزدادون هداية ، يعني يضل به من علم منهم أنه يختار الضلالة ، ويهدي به من علم أنه يختار الهدى ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ ﴾ أي لا يخذل بالمثل وتكذيبه ﴿ إِلا الفَاسِقِينَ ﴾ أي الكافرين بالله ، الخارجين عن أمره ، والفسقُ الخروجُ عن طاعة الله بارتكاب الكبيرة ، التي من جملتها الإصرار على الصغيرة ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ ﴾ أي يخالفون ويتركون أمر الله تعالى ، والنقضُ : الفسخُ وفك التركيب ، ﴿ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ أي بعد توثيق ذلك العهد وتوكيده بالقبول ، فالضمير للعهد ، أو بعد توثيق الله ذلك بإنزال الكتب وإرسال الرسل فالضمير إلى الله .

﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ يحتمل كل قطيعة لا يرضى بها الله سبحانه ، كقطع الرحم ، وموالاة المؤمنين ، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام ، وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطي شر ، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة ، التي هي المقصودة بالذات ، ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ بالمنع عن الإيمان ، والاستهزاء بالحق ، وقطع الوَصلَ التي عليها يدور فلك نظام العالم وصلاحه ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ أي المغبونون بالعقوبة في الآخرة ، مكان المثوبة في الجنة ، لأنهم استبدلوا النقض بالوفاء ، والفساد بالصلاح ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ ﴾ أي كيف تجحدون ﴿ بِاللهِ ﴾ أي بوحدانيته ، ومعكم ما يصرفكم عن الكفر إلى الإيمان ، من الدلائل الأنفسية والآفاقية ، والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه ، لأن التعجب من الله يكون على وجه التعجيب وكأنه يقول ألا تتعجبون أنهم يكفرون بالله ؟ وقال القاضي : هو استخبار والمعنى أخبروني على أي حال تكفرون ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً ﴾ أي والحال أنكم كنتم أمواتاً ، أي أجساماً لا حياة لها ومضغاً ، مخلّقة وغير مخلقة

﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ بخلق الأرواح ونفخها فيكم ، في أرحام أمهاتكم ، ثم في دنياكم ، وهذا إلزام لهم بالبعث ، والفاء للدلالة على التعقيب ، فإن الإحياء حاصل إثر كونهم أمواتاً ، ثم لما كان المقام في الدنيا قد يطول جاء بثم حرف التراخي فقال ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم وكون الإماتة من دلائل القدرة ظاهر ، وأما كونها من النعم فلكونها وسيلة إلى الحياة الثانية ، التي هي الحيوان [1] الأبدي والنعمة العظمى ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ للسؤال في القبور ، فيحيا حتى يسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين ، ويقال من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ ودلَّ على أنه لم يرد به حياة البعث ، فإن الحياة يومئذ يقارنها الرجوع إلى الله بالحساب والجزاء ، وتتصل به من غير تراخ ، فلا يناسب (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ودلت الآية على إثبات عذاب القبر ، وراحة القبر ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بعد الحشر لا إلى غيره ، فيجازيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فما أعجب كفركم مع علمكم بحالكم هذه ؟ وفي الآية تنبيه على ما يدل به على البعث وهو أنه تعالى لما قدر أن أحياهم أولاً قدر أن يحييهم ثانياً ، فإن بدأ الخلق ليس بأهون عليه من إعادته ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم ﴾ هذا بيانُ نعمةٍ أخرى ، أي خلقها لأجلكم ، ولانتفاعكم بها في دنياكم ودينكم ، ﴿ مَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي الذي فيها من الأشياء ﴿ جَمِيعاً ﴾ وقد يستدل بهذا على أن الأصل في الأشياء الإباحة وقال في التيسير : أهل الإباحة من المتصوفة الجهلة حملوا اللام في قوله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ) على الإطلاق ، والإباحة على الإطلاق ، وقالوا : لا حظر ، ولا نهي ، ولا أمر ، فإذا تحققت المعرفة وتأكدت المحبة ، سقطت الخدمة ، وزالت الحرمة ، فالحبيب لا يكلف حبيبه ما يُتعبه ، ولا يمنعه ما يريده ويطلبه ، وهذا منهم كفر صريح ، وقد نهى الله تعالى وأمر ، وأباح وحظر ، ووعد وأوعد ، وبشَّر وهدَّد ، والنصوص ظاهرة ، والدلائل متظاهرة ، فمن حمل هذه الآية على الإباحة المطلقة ، فقد انسلخ من الدين بالكلية[2] ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ قصد إليها أي إلى خلقها بإرادته ومشيئته ﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ أي أتمهن وقوَّمهن وخلقهن ﴿ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تعليل كأنه قال : ولكونه عالماً بكنه الأشياء كلها ، خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل ، والوجه الأنفع ، ﴿ وَإِذْ ﴾ مفعول اذكر لهم وقت ﴿ قَالَ رَبُّكَ ﴾ وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت ، دون ما وقع فيه من الحوادث ، لأن الوقت مشتمل عليها ، فإذا استحضر كانت حاضرة كأنها مشاهدة عياناً ﴿ لِلْمَلائِكَةِ ﴾ والملائكة جمع ملك ، والتاء لتأكيد تأنيث الجماعة ، وسُمُّوا بها لأنهم وسائط بين الله وبين الناس ، والملائكةُ

---

(١) المراد بالحيوان : الحياة الهنيئة السعيدة التي يصح أن يقال عنها إنها حياة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(٢) كلام جهلة المتصوفة في إطلاق الإباحة كفر وضلال كما قال الشيخ رحمه الله ، فإذا كان سيد البشر ﷺ مأموراً بعبادة الله حتى الموت ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ فكيف يسقط التكليف عمَّن يزعم أنه وصل إلى غاية المعرفة ؟ وما هي إلا غاية السَّفه والجهل .

أجسامٌ لطيفة ، قادرةٌ على التشكل بأشكال مختلفة ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ** ﴾ أي مصيِّر ﴿ **فِي الأَرْضِ** ﴾ دون السماء ، لأن التباغي والتَّظالم كان في الأرض ﴿ **خَلِيفَةً** ﴾ وهو آدم عليه السلام ، لأنه خلف الجن وجاء بعدهم ، ولأنه خليفة الله في أرضه ، أي أريد أن أخلق في الأرض بدلاً منكم خليفة ، والحكمة في الاستخلاف قصور المستخلف عليه عن قبول فيضه ، وتلقي أمره بغير واسطة ، ولذا لم يستنبىء الله ملكاً فإن البشر لا يقدر على الاستفادة منه لكونه خلاف جنسه وفائدة قوله تعالى (**لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**) أربعة أمور : الأول تعليم المشاورة في أمورهم قبل أن يُقدموا عليها ، وإن كان هو بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة .

ويقال : « أعقل الرجال لا يستغني عن مشاورة أُولي الألباب » والثاني تعظيم شأن المجعول بأن بشَّر بوجوده سكان ملكوته ، ولقَّبه بالخليفة قبل خلقه ، والثالث إظهار فضله الراجح بقوله (**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**) الخ ، والرابع بيان أن الحكمة تقتضي ما يغلب خيره ، فإنَّ ترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير ، كقطع العضو الذي فيه آكلة شرّ قليل ، وسلامة جميع البدن خير كثيرٌ ، فلو لم يُقطع ذلك العضو سرت تلك الآفة إلى جميع البدن وأدت إلى الهلاك الذي هو شر كثير ﴿ **قَالُوا** ﴾ استئناف كأنه قيل : فماذا قالت الملائكة حينئذ ؟ فقيل قالوا ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا** ﴾ أي الأرض ﴿ **مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا** ﴾ كما أفسدت الجن ﴿ **وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ﴾ أي يصبها ظلماً كما يسفك بنو الجان ، والتعبير عن القتل بسفك الدماء ، لما أنه أقبح أنواع القتل .

﴿ **وَنَحْنُ** ﴾ أي والحال أنَّا ﴿ **نُسَبِّحُ** ﴾ أي ننزهك عن كل ما لا يليق بشأنك ، ملتبسين ﴿ **بِحَمْدِكَ** ﴾ على ما أنعمت علينا من فنون النعم ، فالتسبيح لإظهار صفات الجلال ، والحمدُ لتذكير صفات الإنعام ﴿ **وَنُقَدِّسُ** ﴾ تقديساً ﴿ **لَكَ** ﴾ أي نصفك بما يليق بك من العلو والعزة ، وننزهك عما لا يليق بك ، قال في التيسير : التسبيحُ نفي ما لا يليق به ، والتقديسُ إثبات ما يليق به ، ﴿ **قَالَ** ﴾ الله ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ من الحكمة والمصلحة باستخلاف آدم عليه السلام ، وأن من ذريته الطائع والعاصي ، فيظهر الفضل والعدل ، فلا تعترضوا على حكمي وتقديري ، ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ أي علَّمه أسماء الأشياء كلها ، وألهمه فوقع في قلبه بتسمية الأشياء من عنده ، فعلمه جميع أسماء المسميات بكل اللغات ، بأن أراه الأجناس التي خلقها ، وعلّمه أن هذا اسمه فرسٌ ، وهذا اسمه بعير ، وهذا اسمه كذا ، وعلَّمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية والدنيوية ، وعلَّمه أسماء الملائكة ، وأسماء الحيوانات والجمادات ، وأسماء المدن والقرى ، وأسماء الطير والشجر ، وأسماء كل شيء حتى القصعة والقَصيعة ، ﴿ **ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ** ﴾ أي عرض المسميات ، وإنما ذكَّر الضمير ، لأن في المسميات العقلاء فغلَّبهم ، والعَرْضُ إظهار الشيء للغير ، ليعرف العارض منه حاله ، وفي الحديث « أنه عرضهم

أمثال الذر » والحكمة في التعليم والعرض ، تشريف آدم ، وإظهاره الأسرار والعلوم المكنونة ، في غيب علمه تعالى ، على لسان من يشاء من عباده ، وذلك رحمةُ الله التي وسعت كل شيء ﴿ **فَقَالَ** ﴾ الله عز وجل تبكيتاً وتعجيزاً للملائكة ﴿ **أَنْبِئُونِي** ﴾ أي أخبروني ﴿ **بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ** ﴾ الموجودات ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ في زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته ، كما ينبىء عنه مقالكم ؟ ﴿ **قَالُوا** ﴾ استئناف واقع موقع الجواب كأنه قيل فماذا قالوا حينئذ ؟ فقيل قالوا ﴿ **سُبْحَانَكَ** ﴾ أي نسبحك عما لا يليق بشأنك الأقدس ، من الأمور التي من جملتها خلو أفعالك من الحِكَم والمصالح ، وهي كلمة تقدم على التوبة قال موسى عليه السلام (**سُبْحَانَكَ تُبتُ إِلَيْكَ**) وقال يونس (**سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**) وسبحان اسم واقع موقع المصدر لا يكاد يستعمل إلا مضافاً ﴿ **لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا** ﴾ اعتراف منهم بالعجز ، وإشعار بأن سؤالهم كان استفساراً ، ولم يكن اعتراضاً إذ معناه لا علم لنا إلا ما علمتنا بحسب قابليتنا ولا قدرة لنا على ما هو خارج عن دائرة استعدادنا ، حتى لو كنا مستعدين لذلك لأفضته علينا و « ما » مصدرية أي إلا علماً علمتناه ﴿ **إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ** ﴾ الذي لا يخفى عليه خافية وهذه إشارة إلى تحقيقهم ، لقوله تعالى (**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُون**) ﴿ **الحَكِيمُ** ﴾ المحكم لمبتدعاته ، والذي لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة ، وأفادت الآية أن العبد ينبغي أن لا يغفل عن نقصانه ، وعن فضل الله وإحسانه ، ولا يأنف أن يقول لا أعلم فيما لا يعلم ، ولا يكتم فيما يعلم ، وقالوا : « لا أدري » نصفُ العلم ، وسئل أبو يوسف القاضي عن مسألة فقال : لا أدري ، فقالوا : له ترتزق من بيت المال ثم تقول : لا أدري ؟ فقال : إنما أرتزق بقدر علمي ، ولو أعطيتُ بقدر جهلي لم يسعني مال الدنيا ، وحكي أن عالماً سئل عن مسألة وهو فوق المنبر ، فقال : لا أدري ، فقيل له : ليس المنبر موضع الجهال ، فقال : إنما علوتُ بقدر علمي ، ولو علوتُ بقدر جهلي لبلغتُ السماء ﴿ **قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ** ﴾ أي أعلمهم ﴿ **بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾ التي عجزوا عن علمها ، واعترفوا بتقاصر هِمَمهم عن بلوغ مرتبتها ﴿ **فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾ روي أنه رفع على منبر وأمر أن ينبىء الملائكة بالأسماء فلما أنبأهم بها وهم جلوس بين يديه وذكر منفعة كل شيء ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ والاستفهام للتقرير أي قد قلت لكم : إني أعلم ما غاب فيهما ولا دليل عليه ولا طريق إليه ﴿ **وأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ** ﴾ تظهرون من قولكم (**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا**) الآية ﴿ **وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ تُسرُّون من قولكم لن يخلق الله خلقاً أكرم عليه منا ، وفيه تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى من السؤال ، وهو أن يتوقفوا مترصدين حتى يبين لهم ، وهذه الآيات تدل على شرف ، ومزية العلم وفضله على العبادة ، لأن الملائكة أكثر عبادة من آدم ، ومع ذلك لم يستحقوا الخلافة ، وتدل على أن العلم شرطٌ في الخلافة بل العمدة فيها ، وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة ، لأنه أعلم منهم ، والأعلمُ

أفضل لقوله تعالى (**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**) فالعلمُ أشرف جوهر ولكن لابد من العبادة مع العلم ، فإن العلم بمنزلة الشجرة ، والعبادةُ بمنزلة الثمرة ، فالشرف للشجرة وهو الأصل ، لكن الانتفاع بثمرتها .

قالوا : النظر إلى وجه الوالد عبادة ، والنظر إلى الكعبة المكرمة عبادة ، والنظر في المصحف عبادة ، والنظر في وجه العالم عبادة .

﴿ **وَإِذْ قُلْنَا** ﴾ أي اذكر يا محمد وقت قولنا ﴿ **لِلْمَلائِكَةِ** ﴾ أي لجميعهم لقوله تعالى (**فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**) ﴿ **اسْجُدُوا لآدَمَ** ﴾ أي خِرُّوا له ، والسجودُ في الأصل تذللٌ مع تطامن ، وفي الشرع : وضعُ الجبهة على قصد العبادة ، والمأمور به إما المعنى الشرعي ، فالمسجود له في الحقيقة هو الله تعالى ، وجُعل آدمُ قبلة سجودِهم تفخيماً لشأنه ، وإما المعنى اللغوي ، وهو التواضع لآدم تحية وتعظيماً له ، كسجود إخوة يوسف له ، وكان سجود التحية جائزاً فيما مضى ، ثم نسخ بقوله عليه السلام لسلمان حين أراد أن يسجد له : « لا ينبغي لمخلوق أن يسجد لأحد إلا لله تعالى ، ولو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها » (١) فتحية هذه الأمة هي السلام ، لكن يكره الإنحناء لأنه يشبه فعل اليهود ، ﴿ **فَسَجَدُوا** ﴾ أي سجد الملائكة لأنهم خلقوا من نور ، والنورُ من شأنه الانقياد والطاعة ، والفاء في قوله « فسجدوا » لإفادة مسارعتهم إلى الامتثال ، ﴿ **إِلا إِبْلِيسَ** ﴾ أي ما سجد لأنه خلق من النار ، والنار من شأنها الاستكبار ، وطلب العلو، وللعلماء في هذا الاستثناء قولان ؟ الأول أنه استثناء متصل ، لأن إبليس كان من الملائكة ، لأن خطاب السجود كان مع الملائكة .

والقول الثاني أنه منقطع ، لأنه لم يكن من الملائكة بل كان من الجن بالنص الصريح قال تعالى (**كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**) (٢) ﴿ **أَبَى** ﴾ أي امتنع عما أُمر به من السجود ، والإباء : الامتناع باختيار ﴿ **واسْتَكْبَرَ** ﴾ أي تعظَّم وأظهر كبره ، ولم يتخذه وصلة في عبادة ربه ، والتكبُر أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره ، والاستكبار طلب ذلك بالتشبع أي بالتزين بالباطل ، وبما ليس له .

قالوا لما سجد الملائكة امتنع إبليس ، ولم يتوجه إلى آدم ، بل ولاه ظهره إلى أن سجدوا ، ولم يندم من الامتناع ولم يعزم على الاتباع ، فلما رأوه عدل ولم يسجد ، سجدوا لله تعالى ثانياً ، فصار لهم

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود بلفظ : « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » بدون الجملة الأولى التي ذكرها الشيخ رحمه الله .

(٢) هذا هو الصحيح أن إبليس من الجن ولم يكن من الملائكة ، وقد قال الحسن البصري : « ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين » لأن إبليس له ذرية ، والملائكة لا ذرية لهم ، وإبليس من نار والملائكةُ من نور » وانظر تحقيق الموضوع في كتابنا « صفوة التفاسير » ١ / ٥٢ .

سجدتان سجدة لآدم ، وسجدة لله تعالى ، وإبليس يرى ما فعلوه ، فغيَّر الله صفته وحالته ، فصار أقبح من كل قبيح .

﴿ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ أي في علم الله تعالى ، أو صار من الكافرين باستقباحه أمر الله إياه بالسجود لآدم ، اعتقاداً بأنه أفضل منه ، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالسجود للمفضول .

ومن فوائد الآية استقباح الاستكبار ، وأنه قد يفضي بصاحبه إلى الكفر ، والحث على الائتمار لأمره ، وترك الخوض في سره وأن العبرة بالخواتم وهي مسألة الموافاة أي اعتبار تمام العمر الذي هو وقت الوفاة ، فإذا كانت العبرة بالخاتمة فليسارع العبد إلى الطاعات ، فكل ميسر لما خُلق له ، خصوصاً في آخر السنة وخاتمتها ، كي يُختم له الدفتر بالعمل الصالح ، قالت رابعة العدوية : « إنما أنت أيامٌ معدودة ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضُك ، ويوشكُ إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، فاعمل واعتبر ، ولا تقل ذهب لي درهم ودينار ، وسقط لي مال وجاه ، بل قل : ذهب يومي ماذ عملتُ فيه ؟ فإن باليوم ينقضي العمر » واحتضرَ عابدٌ فقال : ما تأسفي على دار الأحزان ، وإنما تأسفي على ليلة نمتها ، ويوم أفطرتُه ، وساعة غفلتُ فيها عن ذكر الله تعالى ، وعن العلاء بن زياد قال : ليس يومٌ يأتي من أيام الدنيا ، إلا يتكلم ويقول : يا أيها الناس إني يوم جديد ، وأنا على عملكم شهيد ، وإني لو غربتْ شمسي لم أرجعْ إليكم إلى يوم القيامة ، قال الحسن لجلسائه : يا معشر الشيوخ ما يُنْتظر بالزرع إذا بلغ ؟ قالوا الحصاد . وأنشد بعضهم :

ألا مهّدْ لنفسكَ قبلَ موتٍ * فإن الشيبَ تمهيدُ الحِمَام
وقد جدَّ الرحيلُ فكنْ مجدّاً * لحطِّ الرَّحْلِ في دَار المقام

وعن الحسن قال : ابن آدم لا تحمل همَّ سَنَةٍ على يوم ، كفى يومك بما فيه ، فإن تكن السنة من عمرك يأتك الله فيها برزقك ، وإلا تكن من عمرك فأراك تطلب ما ليس لك .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ ﴾ قال القرطبي لا خلاف أن الله تعالى أخرج إبليس عند كفره ، وأبعده عن الجنة ، وبعد إخراجه قال : « يا آدم اسكنْ » أي لازم الإقامة ، واتَّخذها مسكناً ، ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ حواء يقال للمرأة : الزوج والزوجة ، والزوجُ أفصح ﴿ الجَنَّةَ ﴾ هي دار الثواب بإجماع المفسرين ، خلافاً لبعض المعتزلة حيث قالوا : المراد بالجنة بستان كان في أرض فلسطين خلقه الله تعالى امتحاناً لآدم ، وأوّلوا الهبوط بالانتقال منه كما في قوله تعالى (اهْبِطُوا مِصْراً) وفيه نظر لأن الهبوط قد يستعار للانتقال ، إذا ظهرَ امتناعُ حقيقته واستبعادها وهناك ليس كذلك ، واختلفوا في خلقه

حواء ، هل كانت قبل دخول الجنة أو بعده ؟ يدل على الثاني ما روي عن ابن مسعود أنه قال : لما خلق الله الجنة وأسكن فيها آدم ، بقي فيها وحده ، فألقى الله عليه النوم ، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من الجانب الأيسر فخلق منه حواء ، فلما استيقظ وجدها عند رأسه قاعدة ، فسألها من أنت ؟ فقالت إني امرأة ، فقال ولم خلقت ؟ قالت : لتسكن إليَّ وأسكن إليك ، فقالت الملائكة يا آدم ما اسمها ؟ قال : حواء ، قالوا ولم ؟ قال : لأنها خلقت من حي ، واعلم أن الله تعالى ، خلق واحداً من أب دون أم هي حواء ، وآخر من أم دون أب وهو عيسى ، وآخر من أب وأم وهم أولاد آدم ، وآخر من غير أب وأم وهو آدم ، فسبحان من أظهر من عجائب صنعه ما تتحيَّر فيه العقول !!

﴿ **وَكُلاَ مِنْهَا** ﴾ أي من ثمار الجنة ، وجَّه الخطاب إليهما إيذاناً بتساويهما في مباشرة المأمور به ، فإن حواء أسوة له في الأكل ، بخلاف السكنى فإنها تابعة له فيها ، ﴿ **رَغَداً** ﴾ أي أكلاً واسعاً رافهاً ، بلا تقدير وتقتير ﴿ **حَيْثُ شِئْتُمَا** ﴾ أيَّ مكان من الجنة شئتما ، وسَّع الأمر عليهما إزاحة للعذر ، في التناول من الشجرة المنهي عنها ﴿ **وَلا تَقْرَبَا** ﴾ بالأكل ﴿ **هَذِهِ الشَّجَرَةَ** ﴾ أي هذه الحاضرة من الشجر وإنما علق النهي بالقربان منها ، مبالغة في تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه ، ﴿ **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ منصوب على أنه جواب للنهي أي إن تقربا هذه الشجرة تكونا من الظالمين ، قال القرطبي في قوله : « ولا تقربا » إشعارٌ بالوقوع في الخطيئة ، والخروج من الجنة ، وأنَّ سُكناهما فيها لا يدوم ، لأن المخلَّد لا يُحْظَر عليه شيء ، ولا يُؤمر ولا يُنهى ، والدليل قوله تعالى (**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**) فدل على خروجه منها .

﴿ **فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا** ﴾ أبعدهما عن الجنة يقال : زلَّ عني كذا إذا ذهب ، والزلة بالفتح الخطأ ، وهو الزوال عن الصواب من غير قصد ، والمقصود حملها على الزلة بطريق التسبب ، بالوسوسة وبالغرور والدعاء ، فإن قلت : إبليس كافر ، والكافرُ لا يدخل الجنة ، فكيف دخل هو ؟ قلتُ : منع من الدخول على وجه التكرمة كما يدخلها الملائكة ، ولم يمنع من الدخول للوسوسة ابتلاء ﴿ **فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ** ﴾ من النعيم والكرامة ، ولم يقصد إبليس إخراج آدم من الجنة ، وإنما قصد إسقاطه من مرتبته ، وإبعاده كما أبعد هو فلم يبلغ مقصده .

﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا** ﴾ خطاب لآدم وحواء ، وجُمع الضميرُ لأنها أصلا الجنس ، فكأنها الجنس كله ، وقيل هو لآدم وحواء وإبليس ، بعدما كان يدخلها للوسوسة ، ودلت كلمة « اهبطوا » على أنها كانا في جنة الخلد ، حيث أُمرا بالانحدار ، وهو النزول من علو إلى سفل ، قال القرطبي : الصحيح في إهباطه وسكناه في الأرض ، ما قد ظهر من الحكمة الأزلية في ذلك ، وهي نثر نسله فيها ، ليكلفهم ويمتحنهم ،

ويرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم الأخروي ، إذ الجنةُ والنار ليستا بدار تكليف ، فكانت تلك الأكلةُ سبب إهباطهما من الجنة ، وليكون آدم خليفة الله في الأرض ، ولله أن يفعل ما يشاء وقد قال (**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**) وهذه منقبة عظيمة ، وفضيلة كريمة شريفة ، انتهى . فهبوطه من الجنة هبوط التشريف والامتحان ، والتمييز بين قبضتي السعادة والشقاوة ، لأن ذلك من مقتضيات الخلافة الإلهية .

﴿ **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ﴾ العدو يصلح للواحد والجمع ، ولهذا لم يقل أعداء ، فإبليس عدو لهما ، وهما عدوّ لإبليس ، والحية عدو لبني آدم ، وهم عدوها ، هي تلسعهم وهم يدمغونها ، وإبليس يفتنهم وهم يلعنونه ، وكذا العداوةُ بين ذرية آدم وحواء ، بالتحاسد في الدنيا ، والاختلاف في الدين ، والعداوة مع إبليس دينية ، فلا ترتفع ما بقي الدين ، والعداوة مع الحية طبيعية ، فلا ترتفع ما بقي الطبع ، ﴿ **وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ** ﴾ أي موضع قرار على وجهها ، ثم المستقر ثلاثة : رحمُ الأم قال تعالى (**فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ**) استقر في رحم الأم ، والثاني الدنيا قال تعالى (**وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ**) والثالث العقبى ، إما في الجنة قال تعالى (**أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَراً**) وإما في النار قال تعالى (**إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً**) ﴿ **وَمَتَاعٌ** ﴾ أي تمتع بالعيش وانتفاع به ﴿ **إِلَى حِينٍ** ﴾ إلى آخر أعماركم ، وهو حين الموت أو إلى يوم القيامة ، قال بعض العلماء في قوله تعالى ﴿ **إِلَى حِينٍ** ﴾ فائدة لآدم عليه السلام ، ليعلم أنه غير باق فيها ، ومنتقل إلى الجنة التي وُعدَ بالرجوع إليها ، وهي لغير آدم دالّةٌ على المعاد فحسب .

﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ** ﴾ معنى تلقى الكلمات استقبالها بالأخذ والقبول ، والعمل بها حين علمها ، فإن قلت : ما هن ؟ قلت قوله تعالى (**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا**)[1] الآية .

﴿ **فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ أي فرجع الرب عليه بالرحمة وقبول التوبة ، وأصل التوب الرجوع ، فإذا وُصف به العبد ، كان رجوعاً عن المعصية إلى الطاعة ، وإذا وصف به الباري تعالى أُريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة ، واكتفى بذكر آدم عليه السلام ، لأن حواء كانت تابعة له في الحكم ، ﴿ **إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ** ﴾ الرجَّاع على عباده بالمغفرة ﴿ **الرَّحِيمِ** ﴾ المبالغ في الرحمة ، وفي الجمع بين الوصفين ، وعدٌ بليغ للتائب بالإحسان ، مع العفو والغفران .

والتوبة بمنزلة الصابون ، فكما أن الصابون يزيل الأوساخ الظاهرة ، فكذا التوبة تزيل الأوساخ الباطنة ، والعبد إذا رجع عن السيئة وأصلح عمله ، أصلح الله شأنه ، وأعاد عليه نعمته الفائتة ، ﴿ **قُلْنَا**

(١) الآية مذكورة في الأعراف : ﴿ **قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ فهي الكلمات التي ألهمه الله إياها .

﴿ اهْبِطُوا مِنْهَا ﴾ أي من الجنة ﴿ جَمِيعاً ﴾ آدم وحواء وإبليس أي اهبطوا أنتم أجمعون وكرر الأمر بالهبوط ، إيذاناً بتحتم مقتضاه ودفعاً لما عسى يقع في أمنيته عليه السلام ، من استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك ، لكن اعترض بينهما كلام ، وهو تلقيه الكلمات ونيله قبول التوبة ، فأعاد الأول ليتصل بالمعنى الثاني به ، وهو الابتلاء بالعبادة ، والثواب والعقاب .

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي ﴾ أي إن يأتينكم ﴿ هُدَىً ﴾ أي رشدٌ وبيان ، برسول أبعثه إليكم ، وكتاب أنزله عليكم ، والخطاب في قوله « يأتينكم » لآدم والمراد ذريته ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ أي اقتدى بشريعتي وتبع ما أتاه من قبل الشرع من الأدلة الآفاقية والأنفسية ﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في الدارين من لحوق مكروه ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من فوات مطلوب ، فالخوف على المتوقع ، والحزن على الواقع ، أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إيراد الموصول بصيغة الجمع ، للإشعار بكثرة الكفرة ، أي والذين كفروا برسلنا المرسلة إليهم ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ المنزلة عليهم ، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول من الكفر والتكذيب ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ملازموها وملابسوها بحيث لا يفارقونها سموا أصحابها لاتصالهم بها وبقائهم فيها ، فكأنهم ملكوها فصاروا أصحابها ﴿ هُمْ فِيهَا ﴾ أي في النار ﴿ خَالِدُونَ ﴾ دائمون ففي هاتين الآيتين دلالة على أن الجنة في جهة عالية لقوله تعالى (اهْبِطُوا مِنْهَا) وأن متبع الهدى مأمون العاقبة .

فالمؤمن مخيَّر بين أن يطيع الله فيثيبه بالنعيم ، وبين أن يعصيه فيعاقبه بالجحيم ، ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ إسرائيل اسم يعقوب عليه السلام ومعناه عبد الله أي يا أولاد يعقوب ، والخطاب لليهود المعاصرين للنبي ﷺ ، ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ﴾ الذكر بضم الذال بالقلب خاصة بمعنى الحفظ الذي يضاد النسيان وبكسر الذال يقع على الذكر باللسان أي احفظوا واشكروا باللسان نعمتي ، لأن النعمة اسم جنس بمعنى الجمع ﴿ الَّتِي أَنْعَمْتُ ﴾ بها ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ وفيه إشعار بأنهم قد نسوها بالكلية ولم يخطروها بالبال ، لا أنهم أهملوا شكرها فقط ، وربط سبحانه وتعالى بني إسرائيل بذكر النعمة ، وأسقطه عن أمة محمد ﷺ ودعاهم إلى ذكره فقال ﴿ اذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ليكون نظر الأمم من النعمة إلى المنعم ، ونظر أمة محمد من المنعم إلى النعمة ﴿ وَأَوْفُوا ﴾ أتموا ولا تتركوا ﴿ بِعَهْدِي ﴾ وهو عام في جميع أوامره من الإيمان والطاعة ، ونواهيه ، ووصاياه ، فيدخل في ذلك ما عهده تعالى إليهم في التوراة من اتباع محمد ﷺ ، والعهد : حفظ الشيء ومراعاته حالاً فحالاً ، والمراد منه الموثق والوصية ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ أتم جزاءكم بحسن الإثابة والقبول ، ودخول الجنة ، ﴿ وَإِيَّايَ ﴾ نصب بمحذوف تقديره وإياي ارهبوا ﴿ فَارْهَبُونِ ﴾ فيما تأتون وتذرون وخصوصاً في نقض العهد والأصل ارهبوني ، لكنْ حُذفت الياء تخفيفاً

لموافقة رؤس الآي ، والرهبة : خوف معه تحرز ، والآية دالة على وجوب الشكر ، والوفاء بالعهد ، وأن المؤمن ينبغي أن لا يخاف أحداً إلا الله ، ﴿ **وَآمِنُوا** ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ **بِمَا أَنْزَلْتُ** ﴾ أي صدقوا بهذا القرآن الذي أنزلته على محمد ﴿ **مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ** ﴾ أي حال كون القرآن مصدقاً للتوراة ، لأنه نازل حسبما نعت فيها ، ﴿ **وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ** ﴾ فريق ﴿ **كَافِرٍ بِهِ** ﴾ أي بالقرآن ، فإنَّ وزر المقتدي يكون على المبتدي .

أي لا تسارعوا إلى الكفر به ، فإن وظيفتكم أن تكونوا أول من آمن به ، لما أنكم تعرفون شأنه وحقيقته ، بطريق التلقي مما معكم من الكتب الإلهية ، ﴿ **وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي** ﴾ أي لا تأخذوا لأنفسكم بدلاً منها ﴿ **ثَمَناً قَلِيلاً** ﴾ هي الحظوظ الدنيوية ، فإنها مسترذلة بالنسبة إلى ما فات عنهم من حظوظ الآخرة ، قيل : كانت عامتهم يعطون أحبارهم من زروعهم وثمارهم ، ويُهدون إليهم الهدايا ، ويعطونهم الرُشَى على تحريفهم الكلم ، وتسهيلهم لهم ما صعب عليهم من الشرائع ، كما حكي أن « كعب بن الأشرف » قال لأحبار اليهود : ما تقولون في محمد ؟ قالوا : إنه نبي ، قال لهم : كان لكم عندي صلة وعطية لو قلتم غير هذا ، قالوا : أمهلنا نتفكر وننظر في التوراة ، فخرجوا وبدلوا نعت المصطفى بنعت الرجال ، ثم رجعوا وقالوا ذلك ، فأعطى كل واحد منهم صاعاً من شعير ، فهو القليل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية الكريمة .

﴿ **وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ** ﴾ بالإيمان واتّباع الحق ، والإعراض عن حطام الدنيا ، ﴿ **وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ** ﴾ اللّبْس بالفتح الخلْط أي لا تخلطوا الحق المنزل ، بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه ، حتى لا يميز بينهما ، أو لا تجعلوا الحق ملتبساً ، بسبب خلط الباطل ، الذي تكتبونه في خلاله ﴿ **وَ** ﴾ لا ﴿ **تَكْتُمُوا الْحَقَّ** ﴾ بإضمار « لا » فقوله « ولا تلبسوا الحق بالباطل » هو نهيٌ عن التغيير ، وقوله « وتكتموا الحقَّ » هو نهيٌ عن الكتمان ، لأنهم كانوا يقولون : لا نجد في التوراة صفة محمد ﷺ ، فاللبْس غير الكتمان ﴿ **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ أي وأنتم تعلمون أنه حق ، نبيٌ مرسل ، وهذا زيادة في تقبيح حالهم ، إذِ الجاهل قد يُعذر ، فهذه الآية وإن كانت خاصة ببني إسرائيل ، فهي تتناول من فعل فعلهم ، فمن أخذ رشوة على تغيير حق وإبطاله ، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه ، حتى يأخذ عليه أجراً ، فقد دخل في مقتضى الآية ، قال ﷺ : « من تعلم علماً ممَّا يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة »[1] أي ريحها ، حكي أن « سليمان بن عبد الملك » مرَّ بالمدينة وهو يريد الكعبة ، فأقام بها أياماً ، فقال : هل بالمدينة أحدٌ أدرك أحداً من أصحاب النبي ﷺ ؟

(١) الحديث أخرجه أبو داود في باب العلم رقم / ٣٦٦٤ / وسنده حسن ، ورواه أيضاً ابن ماجه ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٤٣ .

قالوا : أبو حازم ، فأرسل إليه ، فلما دخل عليه قال له يا أبا حازم : ما هذا الجفاء ؟ قال له أبو حازم يا أمير المؤمنين وأي جفاء رأيت مني ؟ قال أتاني وجوهُ أهل المدينة ولم تأتني !! قال : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما عرفتني قبلَ هذا اليوم ولا أنا رأيتك !! قال : فالتفت إلى محمد بن شهاب الزهري فقال : أصاب الشيخ ، وأخطأتُ ، قال سليمان : يا أبا حازم ، ما لنا نكرهُ الموت ؟ فقال : لأنكم خربتم الآخرة وعمرتم الدنيا ، فكرهتم أن تنقلوا من العمران إلى الخراب ، قال أصبتَ يا أبا حازم ، فكيف القدوم غداً على الله تعالى ؟ قال : أمَّا المحسن فكالغائب يقدمُ على أهله ، وأما المسيء فكالآبق يقدمُ على مولاه ، فبكى سليمان وقال : ليت شعري ما لنا عند الله ؟ قال : اعرضْ عملَكَ على كتاب الله ، قال : وأيَّ مكان أجده ؟ قال : في قوله تعالى (**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**) قال سليمان : فأين رحمة الله يا أبا حازم ؟ قال (**إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ**) قال له سليمان : يا أبا حازم فأي عباد الله أكرم قال : أولوا المروة والنُّهَى ، قال له سليمان : فأي الأعمال أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم . قال سليمان فأي الدعاء أسمع ؟ قال : دعاء المُحْسَنِ إليه للمُحْسِنِ . فقال : أي الصدقة أفضل ؟ قال : على السائل البائس من غير منٍّ ولا أذى ، قال سليمان : أصبت ، فما تقول فيما نحن فيه ؟ قال : يا أمير المؤمنين اعفني ، قال له سليمان : لا ولكنْ نصيحة تلقيها إليَّ ، قال : يا أمير المؤمنين إنَّ آباءك قهروا الناس بالسيف ، وأخذوا هذا المُلْك عُنْوة ، على غير مشورة من المسلمين ولا رضاهم ، حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فقد ارتحلوا عنها ، فلو شعرت ما قالوا وما قيل لهم ؟ فقال رجل من جلسائه : بئس ما قلت يا أبا حازم ، قال أبو حازم : كذبتَ إنَّ الله أخذ ميثاق العلماء « لَتُبَيِّنُنَّه لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُوْنَه » قال سليمان فكيف لنا أن نصلح قال تَدَعُونَ الصَّلَفَ ، وتتمسكون بالمروءة ، وتقسمون بالسويّة ، قال له سليمان : كيف لنا بالمأخذ ؟ قال تأخذه من حلّه ، وتضعه في أهله ، قال له سليمان هل لك يا أبا حازم أن تصحبنا ونصيب منك ؟ قال : أعوذ بالله ، قال ولِمَ ذاك ؟ قال : أخشى أن أرْكَنَ إليكم شيئاً قليلاً ، فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات ، قال له ارفع إلينا حوائجك ؟ قال : تنجيني من النار وتدخلني الجنة ، قال له سليمان : ليس ذاك إليَّ ، قال أبو حازم : فما لي إليك حاجة غيرها ، قال فادع لي ، قال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وليَّك فيسرْه لخيريْ الدنيا والآخرة ، وإن كان عَدُوَّك فخذ بناصيته إلى ما تحبُّ وترضى ، قال له سليمان : عظني قال أبو حازم : قد أوجزتُ وأكثرتُ إن كنت من أهله ، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر .

قال القرطبي في تفسيره بعد إيراد هذه الحكاية ، قلت : هكذا يكون الاقتداء بالكتاب والأنبياء انتهى .. وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم لهذه الآية ﴿ **وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي**

﴿ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ والفتوى في هذا الزمان ، على جواز الاستئجار لتعليم القرآن ، والفقه وغيره ، لئلا يضيع قال ﷺ : « إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله »(١) والآية في حق من تعيَّن عليه التعليم فأبى ، حتى يأخذ عليه أجراً ، فأما إذا لم يتعين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلك ، ويجب على الإمام أن يُعيِّن له شيئاً وإلا فعلى المسلمين ، لأن الصدّيق رضي الله عنه لما وُلّيَ الخلافة وَعيِّن لها ، لم يكن عنده ما يقيم به أهله ، فأخذ ثياباً وخرج إلى السوق ، فقيل له في ذلك : فقال ومن أين أنفق على عيالي ؟ فردوه وفرضوا له كفايته ، وكذا يجوز للإمام والمؤذن وأمثالها أخذ الأجرة .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ خطاب لبني إسرائيل ، أي اقبلوها وأدوها بشرائطها وحدودها ، كصلاة المسلمين ، فإنَّ غيرها كلا صلاة ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ كزكاة المؤمنين والزكاةُ من زَكَى الزرعُ إذا نما ، فإن إخراجها يستجلب بركةً في المال ، ويثمر للنفس فضيلةَ الكرم ، أو من الزَّكاة بمعنى الطهارة ، فإنها تطهّر المالَ من الخبث ، والنفسَ من البخل ، ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أي في جماعاتهم ، فإن صلاة الجماعة تفضُل صلاةَ الفذّ بسبعٍ وعشرين درجة ، لما فيها من طهارة النفوس ، فإن الصلاة كالغزو ، والمحراب كمحلّ الحرب ، ولابد للقتال من صفوف الجماعة ، فالجماعة قوة .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ ﴾ الخطاب لليهود ﴿ بِالبِرِّ ﴾ أي الاعتراف بالنبي واتباع الأدلة والهمزةُ تقريرٌ مع توبيخ وتعجيب ﴿ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وتتركونها من البر ، كالمنسيات ، لأن أصل السهو والنسيان الترك ، كانوا يقولون لفقرائهم بالسر : آمنوا بمحمد فإنه حق وكانوا يقولون للأغنياء : نرى فيه بعض علامات نبي آخر الزمان دون بعض ، فانتظروا ويؤخرون أمور أنفسهم ، فلا يتبعونه في الحال ، مع عزيمتهم أن يتبعوه يوماً ، وكذا حال من تمادى في العصيان وهو يقول : أتوب عند الكبر والشيب ، وربما يفجأه الموت فيبقى في حسرة الفوت .

﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ ﴾ أي والحال أنكم تتلون التوراة ، الناطقة بنعوته صلى الله تعالى عليه وسلم ، الآمرة بالإيمان به ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أليس لكم عقل ، تعرفون به أنه قبيح منكم عدم إصلاح أنفسكم ، والاشتغال بغيركم ؟ والعقل في الأصل : المنعُ والإمساك ، ومنه العقال الذي يشد به لأنه يحبس عن تعاطي ما يقبح ، ويعقل على ما يحسن ، ثم هذا التوبيخ ليس على أمر الناس بالبّر بل لشرك العمل به ، فمدار الإنكار والتوبيخ هي جملة : « تَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ » ، ومن أمر بخير فليكن أشد الناس مسارعة إليه ، ومن نهى عن شيء فليكنْ أشد الناس انتهاءً عنه ، وهذه الآية الكريمة كما ترى ناعية على من يعظ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الإجارة والطب ، وابن ماجه في التجارات ، والحديث له قصة .

غيره ولا يعظ نفسه ، وأن فعله فعل الجاهل بالشرع ، أو الأحمق الخالي عن العقل .

أتهـــدي الأنـــام ولا تهتـــدي * ألا إنَّ ذلـــــك لا ينفـــع
فيـــا حجرَ الشَّحْـــذِ حتى متى * تَسُنُّ الحـــديـــدَ ولا تقطـع

﴿ **وَاسْتَعِينُوا** ﴾ يـا بني إسرائيـل على قضـاء حـوائجكم ﴿ **بِالصَّبْرِ** ﴾ أي بـانتظـار الظفر والفرج توكلاً على الله تعالى ﴿ **وَالصَّلاةِ** ﴾ أي التوسل بالصلاة والالتجاء إليها ، حتى تجابوا إلى تحصيل المآرب ، وجبر المصائب ، روي أنه عليه السلام كان إذا حَزَبه أمرٌ فزع إلى الصلاة ، وروي أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما نعي له بنت وهو في سفره ، فاسترجع وقال : عورة سترها الله ، ومؤونـة كفـاهـا الله ، وأجر سـاقـه الله ، ثم تنحّى عن الطريق وصلى ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴿ **وَإِنَّهَا** ﴾ أي الاستعانة بها ﴿ **لَكَبِيرَةٌ** ﴾ لثقيلة شاقة كقولـه تعـالى (**كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ**) ﴿ **إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾ أي المخبتين الخـائفين ، والخشوع بـالجوارح ، والخضوع بـالقلب ، وإنمـا لم يثقل عليهم لأنهم يستغرقون في مناجاة ربهم ، فلا يدركون ما يجري عليهم من المشاق والمتـاعب ، لـذلـك قـال ﷺ : « وجُعِلَتْ قُرة عيني في الصلاة » لأن اشتغاله عليه السلام بالصلاة كان راحة له ، وكان يعد غيرها من الأعمال الدنيوية تعباً ﴿ **الَّذِينَ يَظُنُّونَ** ﴾ أي يوقنون ، لأن الظن يكون يقينـاً ويكون شكاً ، فهو من الأضـداد كالرجـاء يكون أمنـاً وخوفـاً ﴿ **أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ** ﴾ معـاينوه وهو شهـود مشهـد العرض والسؤال يوم القيـامـة ، وقيـل : أي يعلمـون أنهم يمـوتـون وفي الحـديث : « من أحب لقـاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءهُ »[1] ، وأراد به الموت ﴿ **وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ أي ويعلمون أنهم راجعون يوم القيـامـة إلى الله تعـالى ، وإلى جزائـه ، وأمـا الـذين لا يوقنون بـالجـزاء ، ولا يرجـون الثواب ، ولا يخافون العقاب ، كانت عليهم مشقة خالصة ، فتثقل عليهم كالمنافقين والمرائين ، فـالصبرُ على الأذى والطاعات من باب جهاد النفس ، وقمعهـا عن شهواتهـا وهو من أخلاق الأنبيـاء والصـالحين ، قـال يحيى بن اليمان : الصبر أن لا تتمنى حـالـة سـوى مـا رزقـك الله ، والرضى بمـا قضى الله من أمر دنيـاك وآخرتك ، وهو بمنزلة الرأس من الجسد .

ثم إن الله تعالى وصف جزاء الأعمال ، وجعل لها نهاية ، وحدًّا فقال (**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**) وجعل جزاء الصدقـة في سبيل فوق هـذا فقـال (**مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ**) الآيـة وجعـل أجر الصـابرين بغير حسـاب

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من حديث عائشـة ولـه تتمـة : « فقلتُ : يـانبيَّ الله : أكراهيـةُ الموت ؟ فكُلُّنـا نكرهُ الموت ؟ قال : ليس كذلك ، ولكنَّ المؤمنَ إذا بُشِّر برحمةِ اللهِ ، ورضوانه وجنَّته ، أحبَّ لقـاء الله فـأحبَّ اللهُ لقـاءه ، وإن الكافر إذا بُشِّر بعذاب الله وسخطه ، كره لقاء الله فكره الله لقاءه » انظر جامع الأصول ٩ / ٥٩٦ .

ومدح أهله فقال (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**) وقد وصف الله نفسه بالصبر كما في الحديث : « ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى ، إنهم ليدعون له ولداً وإنه ليعافيهم ويرزقهم »[1] . ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي : اشكروا هذه النعم الجليلة التي أنعمتُ بها عليكم ، من إنزال المنّ والسلوى ، وتظليل الغمام ، وتفجير الماء من الحجر الصلد ، وغيرها من النعم ﴿ **وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ أي : فضّلتُ آباءكم على عالمي زمانهم ، بما منحتهم من العلم والإيمان ، والعمل الصالح ، وجعلتهم أنبياء وملوكاً ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً** ﴾ أي : اخشوا يا بني إسرائيل عذاب يوم القيامة ، حيث لا تغني ولا تؤدي نَفْسٌ مؤمنة عن نفسٍ كافرة شيئاً من الحقوق التي لزمت عليها .

﴿ **وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا** ﴾ أي من النفس الأولى المؤمنة ﴿ **شَفَاعَةٌ** ﴾ إن شفعت للنفس الثانية الكافرة عند الله ، لتخليصها من عذابه ، والشفاعة مصدر الشافع والشفيع ، وهو طالب قضاء حاجة غيره ، مأخوذ من الشفع ، لأنه يشفع نفسه بمن يشفع له في طلب مراده ، ولا شفاعة في حق الكافر ، بخلاف المؤمن قال النبي عليه السلام : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »[2] ، والآيات الواردة في نفي الشفاعة خاصة بالكفار ﴿ **وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا** ﴾ أي من المشفوع لها وهي النفس الثانية العاصية ﴿ **عَدْلٌ** ﴾ أي فداء من مال أو توبة تنجو بها من النار ، ﴿ **وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ** ﴾ أي يُمنعون من عذاب الله تعالى ، ثم هذه الآية في غاية البلاغة ، فإنها جمعت ذكر الوجوه ، التي يتخلص المرء من النكبة التي أصابته في الدنيا ، وهي أربع : ينوب عنه غيره في تحمل ما عليه ، أو يفتدي بمال فيخلص منها ، أو يشفع له شافع فيوهب له ، أو ينصره ناصر فيمنعه ، فقطعها الله عنهم جميعاً ، وعن عكرمة أنه قال : إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ، فيقول يا بني إني أبٌ لك في الدنيا ، وقد احتجت إلى مثقال حبة من حسناتك ، لعلي أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : إني أتخوف مثل الذي تخوفت أنت ، فلا أطيق أن أعطيك شيئاً ، ثم يتعلق بزوجته فيقول لها فلانة إني زوجٌ لك في الدنيا فتثني عليه خيراً فيقول لها إني أطلب منك حسنة واحدة تَهَبينَهَا إليّ ، لعلي أنجو مما ترين ، فتقول لا أطيق ذلك إني تخوفت مثل الذي تخوفت منه قال تعالى (**وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**) يعني من أثقلته الذنوب ، لا يحمل أحد من ذنبه شيئاً .

﴿ **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ** ﴾ خطاب لبني إسرائيل ، أي اذكروا وقت تنجيتنا إياكم أي آباءكم والنجو المكان

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ : « لا أحد أصبر .. » .

(٢) أخرجه الترمذي برقم / ٢٤٣٧ / في صفة القيامة ، وأبو داود برقم / ٤٧٣٩ / في السنّة ، وابن ماجه برقم / ٤٣١٠ / في الزهد ، وسنده صحيح .

العالي من الأرض ، سُمي كل فائز ناجياً ، لخروجه من ضيق إلى سعة أي جعلنا آباءكم بمكان حريز ورفعناعنهم الأذى ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ وأتباعه وأهل دينه ، وفرعون لقب من مَلَك العمالقة ، ككسرى لملك الفرس ، وقيصر لملك الروم ، ولعتوه اشتق منه تَفَرْعَنَ الرجل ، إذا عتا وتمرَّد ، وفرعون هو : « الوليد بن مصعب بن الريان » وكان من القبط وعمّر أكثر من أربعمائة سنة ، ﴿ يَسُومُونَكُمْ ﴾ أي يبغونكم ﴿ سُوءَ العَذَابِ ﴾ وأقبحه ويكلفونكم الأعمال الشاقة وذلك أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً وصنَّفهم في الأعمال ، فصنفٌ يبنون ، وصنفٌ يحرثون ، وصنفٌ يخدمونه ، ومن لم يكن منهم في عمل وضع عليهم الجزية ، وقيل تفسير قوله ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ ﴾ ما بعده وهو قوله تعالى ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ كأنه قيل: ما حقيقة سوء العذاب ؟ فأجيب بأنهم يذبحون أبناءكم أي يقتلونهم ، والتشديد للتكثير كما يقال فتَّحت الأبواب ، والمراد من الأبناء هم الذكور خاصة ، فإنهم كانوا يذبحون الغلمان لا غير ، ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ أي يستبقون بناتكم حيّات ، وذلك أن فرعون رأى في منامه كأنَّ ناراً أقبلت من بيت المقدس ، فأحاطت بمصر وأخرجت كل قبطي بها ، ولم تتعرض لبني إسرائيل ، فهاله ذلك وسأل الكهنة والسحرة عن رؤياه ، فقالوا : يُولد في بني إسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني إسرائيل ، ثم أسرع الموت في مشيخة بني إسرائيل ، فدخل رؤس القبط على فرعون ، وقالوا إن الموت وقع في بني إسرائيل ، فتذبح صغارهم ويموت كبارهم ، فيوشك أن يقع العمل علينا ، فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ، ويتركوا سنة ، فولد هارون عليه السلام في السنة التي لا يذبح فيها ، وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها ، فلم يرد اجتهادهم من قضاء الله شيئاً ﴿ وَفِي ذٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى التذبيح والاستحياء ﴿ بَلاءٌ ﴾ أي محنة وبلية ، وكون استحياء نسائهم ـ أي استبقائهن على الحياة ـ محنةً ، مع أنه عفو وترك للعذاب ، لما أن ذلك كان للاسترقاق والاستعمال في الأعمال الشاقة ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ﴿ عَظِيمٌ ﴾ صفة للبلاء ، وتنكيرها للتفخيم ، ويجوز أن يشار بذلكم إلى الإنجاء من فرعون ومعنى البلاء حينئذ النعمة لأن أصل البلاء : الاختبارُ ، والله تعالى يختبر عباده ، تارةً بالمنافع ليشكروا فيكون ذلك الاختبار منحة أي عطاء ونعمة ، وأخرى بالمضار ليصبروا فيكون محنة ، فلفظ الاختبار يستعمل في الخير والشر قال تعالى (وَنَبْلُوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

﴿ وَ ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿ إِذْ فَرَقْنَا ﴾ فصلنا ﴿ بِكُمْ ﴾ أي بسبب إنجائكم فالباء للسببية ، وقيل الباء بمعنى اللام كقوله تعالى (ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ) أي لأن الله ﴿ البَحْرَ ﴾ وهو بحر القلزم من بحار فارس ، حتى حصل اثنتا عشر مسلكاً بعدد أسباط بني إسرائيل ، ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ أي

من الغرق بإخراجكم إلى الساحل ﴿ وَأَغْرَقْنَا ﴾ الغرق الرسوب في الشيء المائع ، والإغراق الإهلاكُ في الماء ﴿ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ يريد فرعون وقومه ، للعلم بدخوله فيهم ، وكونه أولى به منهم ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ بأبصاركم انفراق البحر حين سلكتم فيه ، وانطباقه على آل فرعون بعد سلامتكم منه ، وأيضاً تنظرون إليهم غرقى موتى حين رماهم البحر إلى الساحل ، قال القرطبي : إن الله تعالى لما أنجاهم وأغرق فرعون ، قالوا يا موسى : إن قلوبنا لا تطمئن أن فرعون قد غرق ، حتى أمر الله البحر ، فَلَفَظه فنظروا إليه .

واعلم أن هذه الواقعة ، كما أنها لموسى عليه الصلاة والسلام معجزة عظيمة ، لأوائل بني إسرائيل ، موجبة عليهم شكرها ، كذلك اقتصاصها على ما هي عليه ، من رسول الله ﷺ معجزة جليلة ، تطمئنُّ بها القلوب ، وتنقاد لها النفوس ، موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالإذعان ، لأنه عليه السلام أخبرهم بذلك ، مع أنه كان أمياً لم يقرأ كتاباً ، وهذا غيب لم يكن له علم عند العرب ، فإخباره به دلَّ على أنه أوحيَ إليه ذلك ، وذلك علامة لنبوته فما تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها ، حيث اتخذوا العجل إلهاً ، ثم صار أمرهم إلى أن قتلوا أنبياءهم ورسلهم ، فهذه معاملتهم مع ربهم ، وسيرتهم في دينهم وسوء أخلاقهم ، ولا تذكَّرتْ أواخرهم بتذكيرها وروايتها ، حيث بدّلوا التوراة ، وافتروا على الله ، وكتبوا بأيديهم واشتروا به عرضاً ، وكفروا بنبوة محمد ﷺ ، إلى غير ذلك ، فيالها من عصابة ما أعصاها ، وطائفة ما أطغاها ، وكانت نجاة بني إسرائيل في اليوم العاشر من المحرم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قدم المدينة ، فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء ، فقال لهم : « ما هذا اليوم الذي تصومونه » ؟ فقالوا : هذا يوم عظيم ، أنجى اللهُ فيه موسى وقومه ، وأغرق فيه فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً فنحن نصومه ، فقال رسول الله ﷺ : « نحن أحقُّ وأولى بموسى منكم » فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه [1] .

﴿ وَ ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿ إِذْ وَاعَدْنَا ﴾ وقت وعدنا وهو وعده المجيء للميقات إلى الطور ﴿ مُوسَى ﴾ مفعول أول لواعدنا ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أي تمام أربعين ليلة مفعول ثان ، أمره الله تعالى بصوم ثلاثين وهو ذو القعدة ، ثم زاد عليه عشراً من ذي الحجة ، وعبر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور ، وشهور العرب وُضعت على سير القمر ، ولذلك وقع بها التاريخ ، فالليالي أولى الشهور ، والأيام تتبع لها ، ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ وهو ولد البقرة إلهاً ومعبوداً ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي من بعد مضيه إلى الميقات ، وإنما ذكر لفظة (ثُمَّ) لأنه تعالى لما وعد موسى حضور الميقات ، لإنزال التوراة عليه ، كان ذلك من أعظم النعم ، فلما أتوا عقب ذلك بأقبح أنواع الكفر والجهل ، كان ذلك في محل التعجب ، فهو كمن يقول : إنني أحسنتُ إليك ، وفعلت كذا وكذا ثمَّ إنك تقصدني بالسوء والأذى ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الصيام ، والبخاري في التفسير والصيام ، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الصيام أيضاً .

بإشراككم ووضعكم للشيء في غير موضعه ، أي وضع عبادة الله تعالى في غير موضعها بعبادة العجل ، ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ ﴾ أي محونا جريمتكم حين تبتم ﴿ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ ﴾ أي من بعد الاتخاذ الذي هو متناهٍ في القبح ، فلم نعاجلكم بالإهلاك بل أجّلْناكم الى مجيء موسى ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لكي تشكروا نعمة العفو ، وتستمروا بعد ذلك على الطاعة ، فإن الإنعام يوجب الشكر .

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا ﴾ أعطينا ﴿ مُوسَى الكِتَابَ وَالفُرْقَانَ ﴾ أي التوراة الجامعة بين كونها كتاباً ، وحجة ، تفرق بين الحق والباطل ، فالمراد بالفرقان والكتاب واحد ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ لكي تهتدوا بالتدبر فيه ، في اتباع الرشد .

﴿ وَ ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل هذا هو الإنعام الخامس ﴿ إِذْ قَالَ مُوسىٰ ﴾ وقت قوله ﴿ لِقَوْمِهِ ﴾ الذين عبدوا العجل ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ أي يا قومي ، والإضافة للشفقة ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي ضَرّرتم أنفسكم بإيجاب العقوبة عليها ﴿ بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ ﴾ أي معبوداً ، قالوا : أي شيء نصنع ؟ قال : ﴿ فَتُوبُوا ﴾ أي اعزموا على التوبة ﴿ إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ أي مَنْ خَلَقَكُمْ بريئاً من العيوب والنقصان ، وميّز بعضكم من بعض ، بصور وهيآت مختلفة ، والتعرض لعنوان البارئيّة ، للإرشاد بأنهم بلغوا من الجهالة أقصاها ، ومن الغباوة منتهاها ، حيثُ تركوا عبادة العليم الحكيم ، الذي خلقهم بلطيف حكمته ، بريئاً من التفاوت والتنافر ، إلى عبادة البقر الذي هو مثل في الغباوة ، وإنَّ من لم يعرف حقوق منعمه ، حقيقٌ بأن تُستردَّ منه ، ولذلك أُمروا بالقتل وقالوا كيف نتوب ؟ قال : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي ليقتلْ البريءُ منكم المجرم ، وإنما قال أنفسكم لأن المؤمنين إخوة ، وأخو الرجل كأنه نفسه ، ذكر قتل الأنفس ، وأراد به قتل الإخوان ، وهذا كما قال (وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ) أي ولا تغتابوا إخوانكم من المسلمين ، والفاءُ للتعقيب وتوبتهم هي قتلهم ، أي فاعزموا على التوبة بقتل النفس ، وفيه بيان أن توبتهم لا تتم ولا تحصل إلا بقتل النفس ، وإنما كان كذلك لأن الله تعالى أوحى إلى موسى أن توبة المرتد لا تتم إلا بالقتل ﴿ ذٰلِكُمْ ﴾ أي التوبة والقتل ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ﴾ أنفع لكم عند الله ، لما أن القتل طهرةٌ من الشرك ، ووصلة إلى الحياة الأبدية ، ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي ففعلتم ما أُمرتم به فتاب عليكم بارئكم ، أي قبل توبتكم وتجاوز عنكم ، وإنما لم يقل « فتاب عليهم » لما أن ذلك نعمة أُريد التذكير بها للمخاطبين ، لا لأسلافهم ، فإن قلت : القتل لا يكون نعمة ؟ قلت : إنَّ الله نبَّههم على عظيم ذنبهم ، ثم نبههم على ما به يتخلصون من ذلك العظيم ، وذلك من النعم في الدين ﴿ إِنَّهُ ﴾ الله تعالى ﴿ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ أي الذي يكثر توفيق المذنبين للتوبة ، ويبالغ في قبولها منهم ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ كثير الرحمة للمطيعين حيث جعل القتل كفارةً لذنوبهم ، روي أن الأمر بالقتل ، من

الأغلال التي كانت عليهم ، ومن الإصر وهو الأعمال الشاقة ، كقطع الأعضاء الخاطئة ، وعدم جواز صلاتهم في غير المسجد ، وعدم التطهير بغير الماء ، وحرمة أكل الصائم بعد النوم ، ومنع الطيبات عنهم بالذنوب ، وكون الزكاة ربع مالهم ، وكتابة ذنب الليل على الباب بالصبح ، فهذه الأمورُ رُفعتْ عن هذه الأمة تكريماً للنبي ﷺ ، فالتوبةُ نعمةٌ من الله ، أنعم بها على هذه الأمة دون غيرها ، ولها أربع مراتب : فالأولى مختصة باسم التوبة ، وهي أول منزلٍ من منازل السالكين ، وهي للنفس الأمارة وهذه مرتبة عموم المؤمنين ، وهي ترك المنهيات ، والقيام بالمأمورات ، والاستحلال من المظالم ، والندم على ما جرى ، والعزم على أن لا يعود ، والمرتبة الثانية الإنابة ، وهي للنفس اللوامة ، وهذه مرتبة خواص المؤمنين ، بترك الدنيا والزهد في ملاذها ، وتهذيب الأخلاق ، وتطهير النفس بمخالفة هواها لأن الإنابة من صفات القلب قال تعالى : (**وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ**) ، والمرتبة الثالثة الأوبة وهي النفس الملهمة ، وهذه مرتبة خواص الأولياء ، والأوبة إلى الله من آثار الشوق إلى لقائه ، فالنفسُ إذا تحلّت بالأوبة ، دخلت في مقام الروح ، ومن أمارات الأواب المشتاق ، أن يستبدل المخالطة بالعزلة ، ويستوحش عن الخلق ويستأنس بالحق ، ويجاهد نفسه في الله حق جهاده ، والمرتبة الرابعة وهي للنفس المطمئنة وهذه مرتبة الأنبياء ثم الأولياء قال تعالى **(ارْجِعِي إِلَى رَبكِ)** وهي صورة جذبة العناية الإلهية لنفوس الأنبياء والأولياء .

﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ** ﴾ هذا هو الإنعامُ السادس أي واذكروا يا بني إسرائيل ، وقت قول السبعين من أسلافكم ، الذين اختارهم موسى حين ذهبوا معه إلى الطور ، للاعتذار عن عبادة العجل ، ﴿ **يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ** ﴾ لن نصدقك لأجل قولك إن هذا كتاب الله ، وأنك سمعت كلامه ، وأن الله تعالى أمرنا بقبوله والعمل به ﴿ **حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً** ﴾ أي عياناً لا ساتر بيننا وبينه ، كالجهر في الوضوح والانكشاف ﴿ **فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ** ﴾ هي نار محرقة فيها صوت ، نازلة من السماء وإنما أحرقتهم الصاعقة ، لسؤالهم ما هو مستحيل على الله في الدنيا ، ولفرط العناد والتعنت ، وإنما الممكن أن يُرى تعالى رؤية منزهة عن الكيفية وذلك للمؤمنين في الآخرة ، ﴿ **وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** ﴾ إلى الصاعقة النازلة فقد مات بعضهم أولاً ، ورأى الباقون أنهم ماتوا ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ** ﴾ أي أحييناكم ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ** ﴾ بتلك الصاعقة ، وقيّد البعث بقوله ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ** ﴾ لما أنه قد يكون من الإغماء أو من النوم ، قال قتادة: أحياهم ليستوفوا بقيّة آجالهم وأرزاقهم ، ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة ، ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ نعمة الحياة أو لعلكم تشكرون وقت مشاهدتكم بأس الله بالصاعقة ، نعمة الإيمان التي كفرتموها بقولكم « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ، وأصل القصة أن موسى عليه السلام ، لما رجع من الطور إلى قومه ، فرأى ما هم عليه من عبادة العجل وقال لأخيه والسامري ما قال ، وأحرق العجل ،

وألقاه في البحر ، وندم القوم على ما فعلوا ، أمر الله موسى أن يأتيه في ناسٍ من بني إسرائيل ، يعتذرون إليه من عبادة العجل ، فاختار موسى سبعين رجلاً من قومه من خيارهم ، فلما خرجوا إلى الطور ، قالوا لموسى: سل ربنا حتى يُسْمعنا كلامه ؟ فسأله موسى عليه السلام ذلك ، فأجابه الله ولما دنا من الجبل وقع عليه عمود من الغمام ، وتغشَّى الجبل كله ، ودنا من موسى ذلك الغمام حتى دخل فيه ، وقال للقوم ادخلوا ، فكلَّم الله موسى يأمره وينهاه ، وسمعوا كلامه تعالى مع موسى افعل لا تفعل ، فعند ذلك طمعوا في الرؤية وقالوا ما قالوا ، فأخذتهم الصاعقة فخروا صعقين ميتين يوماً وليلة ، فلما ماتوا جميعاً جعل موسى يبكي ويتضرع ، رافعاً يديه إلى السماء يدعو ويقول : يا إلَهي اخترتُ من بني إسرائيل سبعين رجلاً ليكونوا شهودي بقبول توبتهم ، وماذا أقول لهم إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم ؟ لو شئت أهلكتهم قبل هذا اليوم مع أصحاب العجل « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » ؟ فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله ، ورد إليهم أرواحهم ، وطلب توبة بني إسرائيل من عبادة العجل فقال : لا ، إلا أن يقتلوا أنفسهم قالوا إن موسى عليه السلام سأل الرؤية في المرة الأولى في الطور ولم يمت ، لأنَّ صعقته لم تكن موتاً ، ولكن غشية بدليل قوله تعالى (**فَلَمَّا أَفَاقَ**) وسأل قومُه في المرة الثانية حين خرجوا للاعتذار وماتوا ، وذلك لأنَّ سؤال موسى كان اشتياقاً وافتقاراً ، وسؤالُ قومه كان تكذيباً واجتراء ، ولم يسألوا سؤال استرشاد ، بل سؤال تعنت ، قال بعض العلماء : الحكمة في أنَّ الله تعالى لا يُرى في الدنيا وجوه ، الأولى أنَّ الدنيا دار أعدائه ، لأنها جنة الكافر ، الثاني لو رآه المؤمن لقال الكافر لو رأيته لعبدته ، الثالث أنَّ المحبَّة على غيبٍ ، ليست كالمحبة على عين ، الرابع أنَّ الدنيا محل المعيشة ولو رآه الخلق لاشتغلوا عن معائشهم فتعطلت مصالحهم ، الخامس أنه جعلها بالبصيرة دون البصر ليرى الملائكة صفاء قلوب المؤمنين ، السادس ليقدر قدرها إذ كل ممنوع عزيز ، السابع إنما منعها رحمة بالعباد لما جبلوا عليه في هذه الدار من الغيرة ، إذ لو رآه أحدٌ تصدَّع قلبه من رؤية غيره إياه ، كما تصدَّعَ الجبل غيرةً من أن يراه موسى .

﴿ **وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ** ﴾ هذا هو الإنعام السابع أي جعلنا الغمام ظلة عليكم يا بني إسرائيل ، وهذا جرى في التيه بين مصر والشام ، فإنهم حين خرجوا من مصر وجاوزوا البحر ، وقعوا في صحراء لا أبنية فيها ، أمرهم الله تعالى بدخول مدينة الجبارين وقتالهم فقبلوا ، فلما قربوا منها سمعوا بأن أهلها جبارون أشداء ، فامتنعوا وقالوا لموسى « اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون » فعاقبهم الله بأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة ، فأصابهم حر شديد وجوع مفرط ، فشكوا إلى موسى فرحمهم الله فأنزل عليهم عموداً من نور ، وأرسل غماماً أبيض رقيقاً ، أطيب من غمام المطر ، يظللهم من حر الشمس في النهار ، وسُمي السحاب غماماً لأنه يغمّ السماء أي يسترها ، ثم سألوا موسى الطعام فدعا ربه فاستجاب له

وهو قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ ﴾ كان أبيض مثل الثلج كالشهد المعجون بالسمن ، أو المنُّ جميع ما منَّ الله به على عباده من غير تعب ولا زرع ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « الكمأة من المنّ وماؤها شفاء للعين »[1] أي مما منَّ الله على عباده ، ﴿ وَالسَّلْوَى ﴾ فكان ينزل عليهم المن نزول الثلج من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وتأتيهم السلوى فيأخذ كل إنسان منهم كفايته إلى الغد ، ﴿ كُلُوا ﴾ أي قلنا لهم كلوا ﴿ مِنْ طَيِّبَاتِ ﴾ حلالات ﴿ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ من المن والسلوى ولا ترفعوا منه شيئاً ادخاراً ولا تعصوا أمري ، فرفعوا وجعلوا اللحم قديداً مخافة أن ينفد ، ولو لم يرفعوا لدام عليهم ذلك ، ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ أي فظلموا بأن كفروا تلك النعمة الجليلة ، وادخروا بعد ما نهوا عنه وما ظلمونا أي ما بخسوا بحقنا ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ باستيجابهم عذابي وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم ، بلا مؤونة في الدنيا ولا حساب في العقبى .

قال رسول الله ﷺ : « لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر »[2] .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ هذا هو الإنعام الثامن لأنه تعالى أباح لهم البلدة وأزال عنهم التيه أي اذكروا يا بني إسرائيل وقت قولنا لآبائكم إثر ما أُنقذتم من التيه ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ أي مدينة بيت المقدس ، والقرية بفتح القاف وكسرها ، ما يجتمع فيه الناس أخذاً من القرى ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ﴾ أي أكلاً واسعاً هنيئاً وفيه دلالة على أن المأمور به الدخول على وجه الإقامة والسكنى ، فتعيشوا فيها كيف شئتم بلا تضييق ولا منع ، وهو تمليك لهم بطريق الغنيمة ، وذكر الأكل لأنه معظم المقصود ﴿ وادْخُلُوا الْبَابَ ﴾ أي باباً من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب ﴿ سُجَّداً ﴾ أي رُكَّعاً منحنين ناكسي رؤسكم بالتواضع ، أو ساجدين لله تعالى شكراً على إخراجكم من التيه ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ أي مسألتنا من الله أن يحطَّ عنا ذنوبنا أو نصب أي حط عنا ذنوبنا حطة ، ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ مجزوم على أنه جواب الأمر ، من الغفر وهو الستر أي نستر عليكم ﴿ خَطَايَاكُمْ ﴾ جمع خطيئة ضد الصواب ، أي ذنوبكم فلا نجازيكم بها لما تفعلون من السجود والدعاء ، وهم الذين عبدوا العجل ثم تابوا ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ثواباً من فضلنا ، وهم الذين لم يعبدوا العجل ، والمحسن من أحسن فعله وإلى نفسه وغيره ، وقيل : المحسن هو الفاعل ما يجمل طبعاً ويُحْمد شرعاً ، أمرهم بشيئين : بعمل يسير ، وقول صغير ، فالعمل الانحناء عند الدخول ، والقولُ التكلم بالمقول ، ثم وعد عليهما غفران السيئآت ، والزيادة في

---

(١) أخرجه البخاري في الطب ، ومسلم في الأشربة ، وانظر جامع الأصول ٧ / ٥٢٢ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، ومسلم في الرضاع ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٣٢٦ .

الحسنات ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي غيَّر الذين ظلموا أنفسهم بالمعصية ، ما قيل لهم من التوبة والاستغفار ﴿ قَوْلاً ﴾ آخر مما لا خير فيه ﴿ غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ غير نعت لقولاً روي أنهم قالوا مكان حطة (حنطة) استخفافاً بأمر الله تعالى ، ودخلوا يزحفون على أستاههم مخالفة في الفعل كما بدلوا القول ، وأما المحسنون ففعلوا ما أُمروا به ، ولذا لم يقل فبدلوا بل قال ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ومعنى قوله ﴿ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي أمراً غير الذي أُمروا به ، فإن أمر الله قول ، وهو تغيير جميع ما أمروا به ﴿ فَأَنْزَلْنَا ﴾ أي عقيب ذلك ﴿ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي غيَّروا ما أُمروا به ولم يقل عليهم لأنه سبق ذكر المحسنين أيضاً ، فلو أطلق لوقع احتمال دخول الكل فيه ، ﴿ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي عذاباً مقدراً والتنوين للتهويل والتفخيم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب خروجهم عن الطاعة ، والرجزُ في الأصل: ما يُعاف ويستكره والمراد به الطاعون ، روي أنه مات في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً ودام فيهم حتى بلغ سبعين ألفاً ، وفي الحديث : « الطاعون رجزٌ أُرسل على بني إسرائيل ـ أو على من كان قبلكم ـ فإذا سمعتم أن الطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها »[1] ، واعلم أن من مات من الطاعون مات شهيداً لأنه نظير المرابط في سبيل الله تعالى ، فالمطعون شهيد وكذا المبطون وهو الميت من داء البطن وكذا الغريقُ شهيد ، وكذا صاحب الهدم ، وهو الذي يهدم وصاحبه يموت تحته ، وكذا المقتول في سبيل الله ، وكذا صاحب ذات الجنب ، والحرق ، والمرأة الجمعاء وهي من تموت حاملاً جامعاً ولدها[2] .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « لا عدوى » فإنما هو نفي للتعدي طبعاً ، كما هو اعتقاد أهل الجاهلية ، حيث كانوا يرون التأثير من طبيعة المرض ، لا نفي للسراية مطلقاً .

قال الشافعي رحمه الله : أنفس ما يداوى به الطاعون التسبيح ، ووجهه بأن الذكر يرفع العقوبة والعذاب قال تعالى ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ وكذا كثرة الصلاة على النبي المحترم ﷺ .

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ ﴾ نعمة أخرى كفروها أي اذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين سأل موسى السقيا ﴿ لِقَوْمِهِ ﴾ لأجل قومه ، وكان ذلك في التيه حين استولى عليهم العطش الشديد ، فاستغاثوا بموسى فدعا ربه أن يسقيهم ﴿ فَقُلْنَا ﴾ له بالوحي أن ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ ﴾ وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً ، حملها آدم من الجنة فتوارثها

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ « رجس » وقد رجح الإمام ابن حجر الرجز بالزاي ، وانظر الفتح ١٠ / ١٨٣ .

(٢) الأصل في هذا ما روي عن النبي ﷺ : « الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله ، المطعون ، والمبطون ، والغرق ، والحرق ، وصاحب ذات الجنب ، والذي يموت تحت الهدم ، والمرأة تموت بجمع » رواه مالك في الموطأ والنسائي وابن حبان .

الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب فأعطاها موسى [١] ﴿ الْحَجَرَ ﴾ اللام إمَّا للعهد والإشارة إلى معلوم ، فقد روي أنه كان حجراً طورياً حمله معه ، وكان خفيفاً مربعاً، وإما للجنس أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر ، وهو الأظهر في الحجة أي أبين على القدرة ، فإن إخراج الماء بضرب العصا من جنس الحجر ، أيَّ حجر كان ، أدل على ثبوت نبوة موسى عليه السلام ، من إخراجه من حجر معهود معين ، لاحتمال أن يذهب الوهم إلى تلك الخاصية في ذلك الحجر المعين كخاصية جذب الحديد في حجر المغناطيس ﴿ فَانفَجَرَتْ ﴾ أي : فضرب ، والانفجار : الانسكاب، والانبجاسُ : الترشح والرش ، فالرش أول ثم الانسكاب ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من ذلك الحجر ﴿ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ ماء عذباً على عدد الأسباط لكل سبط عين وكان يضربه بعصاه إذا نزل فيتفجر ويضربه إذا ارتحل فيبس ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ أي كل سبط من الأسباط الاثنى عشر ﴿ مَشْرَبَهُمْ ﴾ أي عينهم الخاصة بهم ، أو موضع شربهم ، لا يدخل سبط على غيره في شربه ، والمشرب : المصدرُ والمكانُ ، والحكمة في ذلك لكيلا يقع بينهم جدال ومخاصمة ، وكانوا ستمائة ألف ، ثم إن الله تعالى قد كان قادراً على تفجير الماء ، وفلق البحر ، من غير ضرب ، لكنْ أراد أن يربط المسببات بالأسباب ، ومن أنكر مثل هذه المعجزات ، فلغاية جهله بالله ، وقلة تدبره في عجائب صنعه ، قال القرطبي : ما ورد من انفجار الماء ، ونبعه من يد نبينا ﷺ ، وبين أصابعه ، أعظم في المعجزة ، فإنا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار ، آناء الليل وأطراف النهار ، ومعجزةُ نبينا عليه الصلاة والسلام لم تكن لنبي قبل : إذ لم يخرج الماء من لحم ودم ﴿ كُلُوا ﴾ أي قلنا لهم كلوا ﴿ وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ ﴾ هو ما رزقهم من المنِّ والسلوى والماء ، فالأكل يتعلق بالأوَّلَيْن ، والشرب بالثالث ، وإنما لم يقل : من رزقنا كما يقتضيه قوله تعالى « فقلنا » إيذاناً بأن الأمر بالأكل والشرب ، لم يكن بطريق الخطاب ، بل بواسطة موسى عليه السلام ﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ ﴾ العِثيُّ : أشد الفساد فقيل لهم : لا تمادوا في الفساد ، حال كونهم ﴿ مُفْسِدِينَ ﴾ فالمراد بهذه الحال تعريفهم بأنهم على الفساد ، لا تقييد العامل ، وأفادت الآية إباحة الخروج إلى الاستسقاء ، وهو إنما يكون إذا دام انقطاع المطر مع الحاجة إليه ، فالحكم حينئذ إظهار العبودية ، والفقر ، والذلة ، وقد استسقى نبينا محمد ﷺ فخرج إلى المصلى متواضعاً متذللاً ، متخشعاً متضرعاً ، وروي « أن أعرابياً دخل عليه ﷺ يوم الجمعة وقال يا رسول الله : هلكت الكُراع والمواشي ، وأجدبت الأرض ، فادع الله أن يسقينا ، فرفع يديه ودعا قال أنس رضي الله عنه : والسماء كأنها زجاجة ليس بها قزعة ، فنشأت سحابة ومطرت إلى الجمعة القابلة » [٢] .

ولابد في الاستسقاء من تقديم التوبة والصدقة والصوم ، وأن يجعل صلحاء الناس وسيلة وشفيعاً في

(١) ذكر هذا الطبري في تفسيره .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ومالك والنسائي ، ومعنى الكُراع : الخيلُ ، والقَزَعةُ : السحابةُ .

ذلك ، ويستسقي للدواب العطاش ، والأنعام السائمة ، والأطفال الضعيفة ، فلعلهم يُسقون ببركتها ، وليكنْ الداعي على يقينٍ بالإجابة ، لأن ردَّ الدعاء إما لعجزٍ ، أو لعدم كرم ، وهذه الأشياء منتفية عن الله تعالى ، فإنه كريم عالم قادر ، لا مانع له من الإجابة ، وهو أقرب إلى المؤمنين منهم ، يسمع دعاءهم ويقبل تضرعهم ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ** ﴾ تذكير لجناية أخرى لأسلاف بني إسرائيل وكفرانهم لنعمة الله عز وجل ، وكان هذا القول منهم في التيه ، حين سئموا من أكل المن والسلوى ، لكونها غير مبدَّلين ، والإنسان إذا داوم شيئاً واحداً سئمه ، وتذكروا عيشهم الأول بمصر ، لأنهم كانوا أهل فلاحة ، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا ﴿ **يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ** ﴾ الطعام ما يتغذى به ، وكنوا عن المن والسلوى بطعام واحد وهما اثنان لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فيصيران طعاماً واحداً ، أو أريد بالواحد نفي التبدل والاختلاف ، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة ، يداوم عليها كل يوم لا يبدلها قيل : لا يأكل فلاناً إلا طعاماً واحداً ، ﴿ **فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ** ﴾ أي سله لأجلنا ﴿ **يُخْرِجْ لَنَا** ﴾ أي يظهر لنا ويوجد شيئاً ﴿ **مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ** ﴾ إسناد مجازي [1] ، بإقامة القابل ، وهو الأرض ، مقام الفاعل ، وهو الله تبارك وتعالى ﴿ **مِنْ بَقْلِهَا** ﴾ أي مما تنبته كائناً من بقلها ، والبقل ما تنبت الأرض من الخضر ، والمراد أصناف البقول التي تأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها ﴿ **وَقِثَّائِهَا** ﴾ هي القِثَّاءُ ، وهي شيء يشبه الخيار ﴿ **وَفُومِهَا** ﴾ وهو الحنطة وقيل هو الثوم ، لأن ذكر البصل يدل على أنه هو المراد ، فإنه من جنسه ، وحمله على الثوم أوفق من الحنطة ، لاقتران ذكره بالبصل والعدس ، ﴿ **وَعَدَسِهَا** ﴾ حب معروف يستوي كيله ووزنه ﴿ **وَبَصَلِهَا** ﴾ بقل معروف ﴿ **قَالَ** ﴾ أي موسى إنكاراً عليهم ﴿ **أَتَسْتَبْدِلُونَ** ﴾ أي أتأخذون لأنفسكم وتختارون ﴿ **الَّذِي هُوَ أَدْنَى** ﴾ أدون قدراً ﴿ **بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ** ﴾ أي بمقابلة ما هو خير ، فإن الباء تصحب الزائل ، دون الآتي الحاصل ، ﴿ **اهْبِطُوا** ﴾ أي انحدروا وانزلوا من التيه إن كنتم تريدون هذه الأشياء ﴿ **مِصْراً** ﴾ من الأمصار ، لأنكم في البرية فلا يوجد فيها ما تطلبون ، وإنما يوجد ذلك في الأمصار ، وهو ينصرف ولا ينصرف ، فصرف ههنا لأن المراد غير معين ، ﴿ **فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ** ﴾ تعليل للأمر بالهبوط أي فإن لكم فيه ما سألتموه من بقول الأرض ، ﴿ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ** ﴾ أي الذل والهوان ﴿ **وَالْمَسْكَنَةُ** ﴾ أي الفقر ، مجازاة لهم على كفرانهم ، كما يضرب الطين على الحائط فهو استعارة بالكناية ، فترى اليهود وإن كانوا مياسير كأنهم فقراء ﴿ **وَبَاؤُوا** ﴾ أي رجعوا ﴿ **بِغَضَبٍ** ﴾ عظيم كائن ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ أي : استحقوه ولزمهم ذلك ، وغضبُ الله تعالى : ذمه إياهم في الدنيا ، وعقوبتهم في الآخرة ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي ضرب الذلة

---

(١) هذا النوع من المجاز يسمى « المجازي العقلي » لأن المنبت والمخرج للزرع هو الله تعالى لا الأرض .

والمسكنة ﴿ **بِأَنَّهُمْ** ﴾ أي بسبب أن اليهود ﴿ **كَانُوا يَكْفُرُونَ** ﴾ على الاستمرار ﴿ **بِآيَاتِ اللهِ** ﴾ الباهرة التي هي المعجزات الساطعة الظاهرة على يدي موسى عليه السلام ، ﴿ **وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ** ﴾ كشعيب وزكريا ويحيي عليهم السلام .

﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي ما ذكر من الكفر بالآيات العظام ، وقتل الأنبياء عليهم السلام ﴿ **بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ يتجاوزون أمري ، ويرتكبون محارمي أي جرَّ بهم العصيان والتمادي في العدوان إلى المشار إليه ، فإن صغار الذنوب إذا دووم عليها أدت إلى كبارها ، وسقمُ القلب بالغفلة عن الله تعالى منعهم عن إدراك لذاذة الإيمان وحلاوته ، لأن المحموم ربما وجد طعم السكر مراً ، فالغفلة سمٌّ للقلوب مُهلك .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بألسنتهم وهم المنافقون بقرينة انتظامهم في سلك الكفرة ، والتعبير عنهم بذلك دون عنوان النفاق للتصريح بأن تلك المرتبة وإن عبر عنها بالإيمان لا تجديهم نفعاً أصلاً ولا تنقذهم من ورطة الكفر قطعاً ﴿ **وَالَّذِينَ هَادُوا** ﴾ أي تهودوا من هاد إذا دخل اليهودية ، ومن هاد إذا تاب ، سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل ، وأما معرب يهودا كأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام ، ﴿ **وَالنَّصَارى** ﴾ جمع نصران كندامى جمع ندمان ، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام ، أو لأنهم كانوا معه في قرية يقال لها ناصرة فسموا باسمها ، ﴿ **والصَّابِئِينَ** ﴾ من صبأ إذا خرج من الدين وهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية ، وعبدوا الكواكب والملائكة ، فكانوا كعبدة الأصنام وإن كانوا يقرأون الزبور ، لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نسائهم ﴿ **مَنْ آمَنَ** ﴾ من هؤلاء الكفرة ﴿ **بِاللهِ** ﴾ وبما أنزل على جميع النبيين ﴿ **وَاليَوْمِ الآخِرِ** ﴾ وهو يوم البعث ، أي من أحدث منهم إيماناً خالصاً بالمبدأ والمعاد ، على الوجه اللائق ، ودخل في ملة الإسلام دخولاً أصيلاً ﴿ **وَعَمِلَ** ﴾ عملاً ﴿ **صَالِحاً** ﴾ مرضياً عند الله ﴿ **فَلَهُمْ** ﴾ بمقابلة تلك ﴿ **أَجْرُهُمْ** ﴾ الموعود لهم ﴿ **عِنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ أي مالك أمرهم ومبلغهم إلى كمالهم اللائق ، أخبر أن هؤلاء إذا آمنوا وعملوا الصالحات لم يؤاخذوا بسابق فعلهم ، ولا بفعل آبائهم ولا ينقصون من ثوابهم ﴿ **وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي لا خوف عليهم حين يخاف الكفار العقاب ﴿ **وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب ، وتلخيصُه: من أخلص إيمانه ، وأصلح عمله دخل الجنة ، ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ** ﴾ تذكير لجناية أخرى ، لأسلاف بني إسرائيل أي اذكروا يا بني إسرائيل ، وقت أخذنا عهد آبائكم ، بالعمل على ما في التوراة ، وذلك قبل التيه حين خرجوا مع موسى من مصر ، ونجوا من الغرق ﴿ **وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ** ﴾ كأنه ظلة حتى قبلتم ، وأعطيتم الميثاق ، والطورُ : الجبل ، وذلك أن موسى عليه السلام جاءهم بالألواح ، فرأوا ما فيها من الآصار والتكاليف الشاقة ، فكبرت عليهم ، وأبوا قبولها ، فأمر الله جبريلَ

فقلع الطور من أصله ورفعه وظلله فوقهم ، وقال لهم موسى : إن قبلتم وإلا أُلقي عليكم ، فلما رأوا أن لا مهرب لهم منها ، قبلوا وسجدوا وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود ، لئلا ينزل عليهم ، فصارت عادة في اليهود لا يسجدون إلى على أنصاف وجوههم ، ويقولون بهذا السجود رفع عنا العذاب ، ﴿ **خُذُوا** ﴾ على إرادة القول أي وقلنا لهم خذوا ﴿ **مَا آتَيْنَاكُمْ** ﴾ من الكتاب ﴿ **بِقُوَّةٍ** ﴾ بجد وعزيمة ومواظبة ﴿ **واذْكُرُوا مَا فِيهِ** ﴾ أي احفظوا ما في الكتاب ، وادرسوه ولا تنسوه ولا تغفلوا عنه ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ رجاء منكم أن تكونوا متقين ﴿ **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ أي أعرضتم عن الميثاق ، والوفاء به والدوام عليه ، ﴿ **مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ** ﴾ الميثاق المؤكد ﴿ **فَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ** ﴾ عطفه بالإمهال وتأخير العذاب ﴿ **لَكُنْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ** ﴾ أي من الهالكين ولكن تفضل عليكم حتى تبتم ، فزال الجبل عنكم ، ولولا ذلك لسقط عليكم ، والخسران في الأصل : ذهابُ رأس المال ، وهو ههنا هلاك النفس ، لأنها الأصل ، وقد منَّ الله تعالى على أمة محمد ﷺ ، حيث فرض عليهم الفرائض واحدة بعد واحدة ، وأما بنو إسرائيل فقد فرض عليهم دفعة واحدة فشق عليهم ذلك ، ولذا لم يقبلوا حتى رأوا العذاب ، ثم إن الله تعالى أمر بحفظ الأوامر والعمل ، وبعدم النسيان والتضييع ، وقال ﴿ **اذْكُرُوا مَا فِيهِ** ﴾ وهو المقصود من الكتب الإلهية لأن العمدة العملُ بمقتضاها ، لا تلاوتها باللسان ، فإن ذلك نبذٌ لها ، مثاله إن السلطان إذا أرسل منشوراً إلى واحد من أمرائه في ممالكه ، وأمره فيه أن يبني له قصراً في تلك الديار ، فوصل الكتاب إليه ، وهو لا يبني ما أمر به ، ولكنه يقرأ المنشور كل يوم ، فلو حضر السلطان ولم يجد القصر حاضراً فالظاهر أنه يستحق العقاب ، فالقرآن إنما هو مثل ذلك المنشور ، قد أمر الله فيه عبيده أن يعمروا أركان الدين من الصوم ، والصلاة وغيرهما ، فمجرد قراءة القرآن بغير عمل لا يفيد .

﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ** ﴾ خطاب لمعاصري النبي ﷺ من اليهود أي وبالله قد عرفتم يا بني إسرائيل ﴿ **الَّذِينَ اعْتَدَوْا** ﴾ أي تجاوزوا الحد ظلماً ﴿ **مِنْكُمْ** ﴾ من أسلافكم ﴿ **فِي** ﴾ يوم ﴿ **السَّبْتِ** ﴾ أي جاوزوا ما حُدَّ لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه واشتغلوا بالصيد ، وأصل السبت القطع ، لأن اليهود أمروا بأن يقطعوا الأعمال ، ويشتغلوا بعبادة الله ، ويسمى النوم سباتاً لأنه يقطع الحركات الاختيارية ، وفيه تحذير وتهديد ، فكأنه يقول : إنكم تعلمون ما أصابهم من العقوبة ، فاحذروا كيلا يصيبكم مثل ما أصابهم .

﴿ **فَقُلْنَا لَهُمْ** ﴾ قهراً ﴿ **كُونُوا قِرَدَةً** ﴾ جمع قرد ﴿ **خَاسِئِينَ** ﴾ أي كونوا جامعين بين القردية والخسيء ، وهو الصَّغَار والطرد ، ثم لم يكن ابتداء القردة من هؤلاء ، بل كانت قبلهم قردة ، وهؤلاء حولوا إلى صورتها لقبحها ، جزاء على قبح أعمالهم وأفعالهم ، وماتوا بعد ثلاثة أيام ولم يتوالدوا ، والقردة التي في الدنيا هي نسل قردة كانت قبلهم ، ﴿ **فَجَعَلْنَاهَا** ﴾ أي صيرنا مسخة تلك الأمة وعقوبتها

﴿ نَكَالاً ﴾ أي عبرة تنكل من اعتبر بها أي تمنعه من أن يقدم على مثل صنيعهم ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أي لما قبلها وما بعدها من الأمم والقرون ، فاستعير « ما بين يديها » للزمان الماضي « وما خلفها » للمستقبل ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أي تذكرة ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين نهوهم عن الاعتداء من صالحي قومهم .

واعلم أن البلاء والخسران ، جزاء من لم يعرف قدر الإحسان ، ومن يكافيء المنعم بالكفران ، وكان عقوبة الأمم بالخسف والمسخ على الأجساد ، وعقوبة هذه الأمة على القلوب ، (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ) الآية ، ثم علامة المسخ مثل الخنزير أن يأكل العذرات ومن أكل الحرام فقلبه ممسوخ ، ويقال : علامة مسخ القلب ثلاثة أشياء : لا يجد حلاوة الطاعة ، ولا يخاف من المعصية ، ولا يعتبر بموت أحد ، بل يصير أرغب في الدنيا كل يوم ، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ توبيخ آخر لأخلاف بني إسرائيل ، بتذكير بعض جنايات صدرت من أسلافهم أي واذكروا قول موسى عليه السلام لأجدادكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ هي الأنثى من نوع الثور ، أو واحد البقر ذكراً كان أو أنثى ، وسببه أنه كان في بني إسرائيل شيخ موسر ، فقتله بنو عمه طمعاً في ميراثه ، وحملوه إلى قرية أخرى وألقوه بفنائها ، ثم جاءوا يطالبون بديته ، وجاؤا بناس يدعون عليهم القتل ، فسألهم موسى فجحدوا ، فاشتبه أمر القتيل على موسى فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، ويضربوه ببعضها فيحيا فيخبرهم بقاتله ﴿ قَالُوا ﴾ كأنه قيل فماذا صنعوا هل سارعوا إلى الامتثال ؟ فقيل : قالوا ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ﴾ أي أتجعلنا مكان هزء وسخرية ؟ وتستهزىء بنا ؟ نسألك عن أمر القتيل ، وتأمرنا بذبح بقرة ، ولا جامع بينهما ؟ قال بعض العلماء : كان ذلك هفوة منهم وجهالة فما انقادوا للطاعة وذبحها ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ لأن الهزؤ في أثناء تبليغ أمر الله ، جهل وسفه ، ودل على أن الاستهزاء بأمر الدين كبيرة ، وأن ذلك جهل وصاحبه مستحق للوعيد ، وليس المزاح من الاستهزاء ، قال عليّ رضي الله تعالى عنه : لا بأس بفكاهة يخرج بها الإنسان من حد العبوس ، روي أنه قدم رجل إلى « عبيد الله بن الحسين » وهو قاضي الكوفة ، فمازحه عبيد الله فقال : جبتك هذه من صوف نعجة ، أو من صوف كبش ، فقال : أتجهل أيها القاضي ! فقال له عبيد الله : وأين وجدت المزاح جهلاً ؟ فتلا هذه الآية ، فأعرض عنه عبيد الله ، لأنه رآه جاهلاً ، لا يعرف المزاح من الاستهزاء ، ثم إن القوم علموا أن ذبح البقرة عزمٌ من الله ، فاستوصفوها كما يأتي ، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكنهم شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم ، وكانت تحته حكمة ، والوجه في تعيين البقرة دون غيرها من البهائم ، أنهم كانوا يعبدون البقر والعجل ، وحبّب إليهم ذلك كما قال تعالى (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ) ثم تابوا وعادوا إلى طاعة الله وعبادته ، فأراد الله تعالى أن يمتحنهم بذبح ما حُبِّب إليهم ، ليظهر منهم حقيقة التوبة ، وانقلاع ما كان منهم في قلوبهم ، ﴿ قَالُوا ﴾ كأنه قيل : فماذا قال قوم موسى بعد ذلك ؟

فقيل : توجهوا نحو الامتثال وقالوا يا موسى ﴿ ادْعُ لَنَا ﴾ سل لأجلنا ﴿ رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا ﴾ أي يوضح ويعرف ﴿ مَا هِيَ ﴾ أي يبين لنا جواب هذا السؤال ، وقد سألوا عن حالها وصفتها ، ف « ما » ههنا سؤال عن الحال والصفة ، تقول ما زيد ؟ فيقال : طبيب ! أو عالم أي ما سنها وما صفتها من الصغر والكبر؟﴿ قَالَ ﴾ أي موسى عليه السلام بعدما دعا ربه وأتاه الوحي ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الله تعالى ﴿ يَقُولُ إِنَّهَا ﴾ أي البقرة المأمور بذبحها ﴿ بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ ﴾ أي مسنة من الفرض وهو القطع ، كأنها قطعت سنها وبلغت آخره ، ﴿ وَلا بِكْرٌ ﴾ أي فتية صغيرة ، ولم يؤنث البكر والفارض ، لأنها كالحائض في الاختصاص بالأنثى ﴿ عَوَانٌ ﴾ أي نَصَفٌ ﴿ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الفارض والبكر ﴿ فَافْعَلُوا ﴾ أمرٌ من جهة موسى عليه السلام ﴿ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ أي ما تؤمرونه بمعنى ما تؤمرون به من ذبح البقرة ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ من الألوان حتى تتبين لنا البقرة المأمور بها واللون عرض مشاهد يتعاقب على بعض الجواهر ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام بعد المناجاة إلى الله ومجيء البيان ﴿ إِنَّهُ ﴾ الله تعالى ﴿ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ ﴾ والصفرة لون ما بين البياض والسواد ، وهي الصفرة المعروفة ، ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ والفقوع نصوع الصفرة وخلوصها يقال في التأكيد : أصفر فاقع كأنه قيل : صفراء شديدة الصفرة ﴿ تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ إليها يعجبهم حسنها وصفاء لونها ، ويفرح قلوبهم لتمام خلقتها ولطافة قرونها وأظلافها ، ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ أسائمة هي أم عاملة ؟ هذا تكرير للسؤال عن حالها وصفتها ، واستكشاف زائد ليزدادوا بياناً لوصفها ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ أي جنس البقر الموصوف بالصفرة كثير ، فاشتبه علينا أيها نذبح ؟ ﴿ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إلى البقرة المراد ذبحها وفي الحديث : « لو لم يستثنوا لما بُيِّنتْ لهم آخر الأبد »(١) ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعالى ﴿ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ ﴾ مذللة ذللها العمل ، وهو صفة لبقرة بمعنى غير ذلول ، ولم يقل ذلولة لأن فعولاً إذا كان وصفاً لم تدخله الهاء كصبور ﴿ تُثِيرُ الأَرْضَ ﴾ أي تقلبها للزراعة ﴿ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أي ليست بسانية يسقى عليها بالسواقي ، ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ أي سلمها الله من العيوب أو مخلصة اللون ، من سلم له كذا إذا خلص له ، لم يشب صفرتها شيء من الألوان ، ويؤيده قوله تعالى ﴿ لاشِيَةَ فِيهَا ﴾ يخالف لون جلدها ، فهي صفراء كلها حتى قرنها وظلفها ، والأصل وِشْيةٌ كالعِدَة والزِّنَة ، أصلها وعد ووزن ﴿ قَالُوا ﴾ عندما سمعوا هذه النعوت ﴿ الآنَ ﴾ أي هذا الوقت ﴿ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ أي بحقيقة وصف البقرة ، وما بقي إشكال في أمرها ﴿ فَذَبَحُوهَا ﴾ أي فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها ، فاشتروها بملء جلدها ذهباً فذبحوها

(١) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم بلفظ : « لولا أن بني إسرائيل قالوا : ﴿ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ لما أعطوا ولكنْ استثنوا » ورواه الحافظ ابن مردويه بنحوه .

﴿ وَمَا كَادُوا ﴾ أي وما قربوا ﴿ يَفْعَلُونَ ﴾ والجملة حال أي فذبحوها والحال أنهم كانوا قبل ذلك بمعزل منه .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً ﴾ هذا مؤخر لفظاً مقدم معنى ، لأنه أول القصة ، أي وإذ قتلتم نفساً وأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى فقال موسى (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ) الآيات ، ولم يقدم لفظاً لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة للكشف عن القاتل ، وأضيف القتل إلى اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لرضاهم بفعل أولئك ، والمعنى : واذكروا يا بني إسرائيل وقت قتل أسلافكم نفساً محرمة ، ﴿ فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ أصله تدارأتم من الدرء وهو الدفع ، أي تدافعتم وتخاصمتم في شأنها ، إذ كل واحد من الخصماء يدفع القتل عن نفسه ويحيل على غيره ﴿ واللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي مظهر لا محالة ما سترتم من أمر القتل ، لا يتركه مكتوماً مستوراً ، ﴿ فَقُلْنَا ﴾ عطف على فادارأتم وما بينهما اعتراض ﴿ اضْرِبُوهُ ﴾ أي النفس ، والتذكيرُ على تأويل الإنسان ﴿ بِبَعْضِهَا ﴾ أي ببعض البقرة ، أيَّ بعض كان ، والبعضُ أقلُّ من النصف ، والمعنى فضربوه فحيِيَ ، فحذف ذلك لدلالة قوله ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى ﴾ روي أنه لما ضربوه قام بإذن الله ، وأوداجه تشخب دماً وقال : قتلني فلان وفلان لابنيْ عمه ، ثم سقط ميتاً فأخذا وقتلا ، ولم يورث قاتل بعد ذلك ، ثم إن موسى عليه السلام ، أمرهم بضربه ببعضها ، وما ضربه بنفسه نفياً للتهمة ، كيلا ينسب إلى السحر أو الحيلة ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الخطاب في (كَذَلِكَ) للحاضرين عند حياة القتيل ، أي مثل ذلك الإحياء العجيب ﴿ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى ﴾ . فقد كانوا مقرين قولاً وتقليداً ، فثبّته عياناً وإيقاناً ، وهو كقول إبراهيم عليه السلام (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) ويجوز أن يكون الخطاب لمنكري البعث في زمان النبي عليه الصلاة والسلام والحاضرين عند نزول الآية الكريمة فلا حاجة حينئذ إلى تقدير القول بل تنتهي الحكاية عند قوله تعالى ببعضها ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ دلائله الدالة على أنه تعالى على كل شيء قدير ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تكمل عقولكم ، وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس واحدة ، قدر على إحياء الأنفس كلها ، وتمنعوا نفوسكم من هواها ، وتطيعوا الله فيما يأمركم به ، ولعل الحكمة في اشتراط ذبح البقرة ، وضربه ببعضها ، مع ظهور كمال قدرته على إحيائه بلا واسطة أصلاً ، لاشتماله على التقرب إلى الله تعالى ، وأداء الواجب ، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة ، والتنبيه على بركة التوكل على الله تعالى ، والشفقة على الأولاد ونفع بر الوالد .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم ﴾ خطاب لأهل عصر النبي عليه الصلاة والسلام من الأحبار و﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد القسوة ، من بعد ذكر ما يوجب لين القلوب ورقتها ، ونحوه (ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ) والقسوة

عبارة عن الغلظ والصلابة كما في الحجر ووصف القلوب بالقسوة والغلظ ، مثل لنُبوِّها عن الاعتبار ، وأن المواعظ لا تؤثر فيها ﴿ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ ﴾ أي من بعد سماع ما ذكر ، من إحياء القتيل ، وغيرها من الآيات والقوارع ، التي تميع منها الجبال ، وتلين بها الصخور ﴿ فَهِيَ ﴾ أي القلوب ﴿ كَالْحِجَارَةِ ﴾ أي مثل الحجارة في شدتها وقسوتها ﴿ أَوْ أَشَدُّ ﴾ منها ﴿ قَسْوَةً ﴾ أو بمعنى بل أي بل أشد قسوة . ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ ﴾ بيان لشدة القسوة ، وتقرير لقوله (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) ومن الحجارة خبر إنّ ، والاسم قوله ﴿ لَمَا ﴾ واللام للتأكيد أي الحجر ﴿ يَتَفَجَّرُ ﴾ أي يتفتح بكثرة وسعة ﴿ مِنْهُ ﴾ راجع إلى ما ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ جمع نهر وهو المجرى الواسع من مجاري الماء ، والمعنى وإن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير أي يتصبب ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا ﴾ أي من الحجارة ﴿ لَمَا يَشَّقَّقُ ﴾ أصله يتشقق أي يتصدع والصدع جعل الشيء ذا نواحي ﴿ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ أي ينشق انشقاقاً بالطول أو بالعرض ، ينبع منه الماء أيضاً ، يعني العيون دون الأنهار ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ ﴾ أي يتردى وينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ﴿ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ وهي الخوف عن العلم ، وقلوب هؤلاء اليهود لا تنقاد ولا تلين ، ولا تخشع ولا تفعل ما أُمرت به ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ ﴾ بساهٍ ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي الذي تعملونه ، وهو وعيد شديد على ما هم عليه من قساوة القلوب ، وما يترتب عليها من الأعمال السيئة ، فقلب الكافر أشد في القساوة من الحجارة ، وأنها مع فقد أسباب الفهم والعقل تخضع له وتتصدع كما قال تعالى (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) وقلب الكافر مع وجود أسباب الفهم والعقل لا يخضع ولا يلين ، ومذهب أهل السنة ، أن للجمادات وسائر الحيوانات ، صلاة وتسبيحاً وخشية كما قال جل ذكره (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) وقال (وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) فيجب على المرء الإيمان به ، ويحيل علمه إلى الله تعالى ، روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سواري المسجد ، فلما صنع له المنبر فاستوى عليه ، اضطربت تلك السارية من فراق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحنّت كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد ونزل رسول الله عليه الصلاة والسلام فاعتنقها فسكنت [١] .

وبينما راع في غنمه عَدَا عليه الذئب فأخذ منها شاة ، فطلبه الراعي حتى استنقذها منه ، أي استخلصها ، فالتفت إليه الذئب فقال : من لها يوم السبع ، يوم ليس لها راع غيري ؟ فقال الناس : سبحان الله ذئب يتكلم !! فقال رسول الله ﷺ أنا أومن به وأبو بكر وعمر [٢] وعلى هذا إنطاق الله جلود

---

(١) قصة حنين الجذع مروية في الصحيحين ، وانظر جامع الأصول في أحاديث الرسول ١١ / ٣٣٤ .

(٢) قصة الذئب مع الشاة في صحيح البخاري ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٦٢٥ .

الكفار يوم القيامة ، وتسبيح الحصى في كفه عليه الصلاة والسلام ، وكلام الشاة المسمومة ، ومجيء الشجرتين إليه ﷺ حتى يستتر بهما في قضاء حاجته ، ثم رجوعهما إلى مكانهما وأمثال ذلك كثيرة .

قال بعض الحكماء معنى قوله ﴿ ثُمَ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ يبست ، ويبسُ القلب أن يَيْبَس عن ماء خشية الله تعالى ، وماء شفقة الخلق ، وكل قلب لا يكون فيه خشية الله ، ولا شفقة الخلق فهو كالحجارة أو أشد قسوة ، قال رسول الله ﷺ : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوةٌ للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي »(١) وفي الأثر : « أربعة من الشقاء ، جمود العين ، وقسوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا »(٢).

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ ﴾ كان عليه السلام شديد الحرص على الدعاء إلى الحق ، وقبولهم الإيمان منه ، وكان يضيق صدره بسبب عنادهم وتمردهم ، فقصَّ الله عليه أخبار بني إسرائيل في العناد العظيم ، مع مشاهدة الآيات الباهرة ، تسليةً لرسوله فيما يظهر من أهل الكتاب في زمانه ، من قلة القبول والاستجابة ، والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده ، كما في قولك أتضرب أباك ؟ لا لإنكار الوقوع أي أتسمعون أخبارهم ، وتعلمون تفاصيل شؤونهم المؤيسة منهم فتطمعون في ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا ﴾ جميع اليهود أو علماؤهم ، فإنهم متماثلون في الأخلاق الذميمة ، لا يتأتى من أخلاقهم ، إلا مثل ما أتى من أسلافهم ، فلا تحزنوا على تكذيبهم واللام في ﴿ لَكُمْ ﴾ لتضمين معنى الاستجابة أي في إيمانهم مستجيبين لكم ﴿ وَ ﴾ الحال ﴿ قَدْ كَانَ فَرِيقٌ ﴾ كائن ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي طائفة ممن سلف منهم ، والفريقُ اسم جمع ، لا واحد له من لفظه كالرهط ﴿ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ﴾ وهو ما يتلونه من التوراة ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ أي يُغيِّرون ما فيها من الأحكام ، كتغييرهم صفة محمد ﷺ وآية الرجم ومعنى يسمعون كلام الله أي التوراة من موسى بقراءته ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أي من بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ، ولم يبق لهم شبهة في صحته ، يقول : كيف يؤمن هؤلاء ، وهم يقلدون أولئك الآباء ؟ فهم من أهل السوء الذين مضوا بالعناد ، فلا تطمعوا في الإيمان منهم ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي يحرفونه والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون مفترون ﴿ وَإِذَا لَقُوا ﴾ أي اليهود ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُوا ﴾ أي منافقوهم ﴿ آمَنَّا ﴾ كإيمانكم ، وأن محمداً هو الرسول المبشَّر به ﴿ وَإِذَا خَلا ﴾ مضى ورجع ﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ الذين لم ينافقوا أي إذا فرغوا من الاشتغال بالمؤمنين متوجهين ومنضمِّين ﴿ إِلَى بَعْضٍ ﴾ أي إلى الذين نافقوا بحيث لم يبق معهم غيرهم ﴿ قَالُوا ﴾ أي : الساكتون

(١) أخرجه الترمذي في الزهد رقم / ٢٤١٣ / وقال : حديث حسن غريب .

(٢) هذا الأثر أخرجه ابن عديّ في الكامل ، وأبو نعيم في الحلية عن أنس ، وسنده ضعيف ، وانظر فيض القدير بشرح الجامع الصغير ١ / ٤٦٦ .

لمنافقيهم عاتبين على ما صنعوا ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُمْ ﴾ تخبرونهم والاستفهام بمعنى النهي ، أي لا تحدثوهم يعنون المؤمنين ﴿ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بينه الله لكم خاصة في التوراة من نعت النبي عليه الصلاة والسلام ، ﴿ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ ﴾ أي ليحتجوا عليكم به فيقطعوكم بالحجة ويبكّتوكم ﴿ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ أي في حكمه وكتابه كما يقال هو عند الله كذا أي في كتابه وشرعه ، والمحدّثون به وإن لم يحوموا حول ذلك الغرض وهو المحاجة لكن فعلهم ذلك لما كان مستتبعاً له البتة جعلوا فاعلين للغرض المذكور إظهاراً لكمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ متصل بكلامهم من التوبيخ والعتاب أي ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش وهو أن ذلك حجة لهم عليكم ، فالمنكر عدم التعقل ابتداء أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون إلى التنبيه عليه فالمنكر حينئذ عدم التعقل بعد الفعل ﴿ أَوَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أيلومونهم على التحديث مخافة المحاجة ولا يعلمون ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي جميع ما يسرونه وما يعلنونه ، ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان ، فأي فائدة في اللوم والعتاب ؟ ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي من اليهود ﴿ أُمِّيُّونَ ﴾ لا يحسنون الكتب ولا يقدرون على القراءة ، والأمي منسوب إلى أمة العرب وهي الأمة الخالية عن العلم والقراءة فاستعير لمن لا يعرف الكتابة والقراءة ﴿ لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ ﴾ أي لا يعرفون التوراة ليطالعوها ويتحققوا ما فيها من دلائل النبوة فيؤمنوا ﴿ إلا أَمَانِيَّ ﴾ جمع أمنية من التمني ، والاستثناء منقطع لأنها ليست من جنس الكتب ، أي لكنْ الشهوات الباطلة ثابتة عندهم ، وهي المفتريات من تغيير صفة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم لا يعذبون في النار ، إلا أياماً معدودة ، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، ولا حجة لهم في صحة ذلك ﴿ وإنْ هُمْ ﴾ أي ما هم ﴿ إلا يَظُنُّونَ ﴾ ظناً من غير تيقن بها ، أي ما هم إلا قوم قُصَارى أمرهم الظن والتقليد من غير أن يصلوا إلى مرتبة العلم ، فأنّى يُرْجى منهم الإيمان ، المؤسس على قواعد اليقين ؟ ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ كلمة يقولها كل واقع في هلكةٍ ، بمعنى الدعاء على النفس بالعذاب ، أي عقوبة عظيمة وهو مبتدأ خبره ما بعده ، ﴿ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ ﴾ المحرف ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز ، فقد يقول إنسان : كتبت إلى فلان إذا أمر غيره أن يكتب عنه إليه ﴿ ثُمَّ يَقُولُونَ ﴾ لعوامهم ﴿ هَذَا ﴾ أي المحرَّف ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ في التوراة ، روي أن أحبار اليهود خافوا ذهاب مآكلهم ، وزوال رياستهم حين قدم النبي عليه الصلاة والسلام المدينة ، فاحتالوا في تعويق أسافل اليهود عن الإيمان ، فعمدوا إلى صفة النبي عليه الصلاة والسلام في التوراة ، وكانت هي فيها حسن الوجه ، جعد الشعر ، أكحل العين ، ربعة أي متوسط القامة ، فغيروها وكتبوا مكانه طوال ، أزرق ، سبط الشعر ، وهو خلاف الجعد ، فإذا سألهم سفلتهم عن ذلك ، قرأوا عليهم ما كتبوا ، فيجدونه مخالفاً لصفته عليه الصلاة والسلام فيكذبونه ، ﴿ لِيَشْتَرُوْا بِهِ ﴾ أي ليأخذوا لأنفسهم بمقابلة المحرَّف

﴿ ثَمَناً ﴾ هو ما أخذوه من الرشى بمقابلة ما فعلوا من التحريف ، والتأويل الزائغ ، ﴿ قَلِيلاً ﴾ لا يعبأ به وإنما وصفه بالقلة لفنائه وعدم ثوابه ، ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ ﴾ أي العقوبة العظيمة ثابتةٌ لهم ﴿ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أجل كتابتهم إياه ﴿ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ من أخذهم الرشوة ، وعملهم المعاصي ، وفي الآيات إشارات : الأولى : أن علم الرجل ويقينه ومكالمته مع الله ، لا يفيده الإيمان الحقيقي ، إلا أن يتداركه الله بفضله ورحمته ، قال تعالى (وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُه مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً) وأن الله تعالى كلَّم إبليس وخاطبه بقوله (يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) وما أفاده الإيمان الحقيقي ، إذا لم يكن مؤيداً من الله بفضله ورحمته ، ولم يبق على الإيمان بعد العيان ، فكيف يؤمن بالبرهان ؟

والثانية : أن العالم المعاند ، والعامي المقلد ، سواء في الضلال ، لأن العالم عليه أن يعمل بعلمه ، وعلى العامي أن لا يرضى بالتقليد والظن ، وهو متمكن من العلم ، وأن الدين ليس بالتمني ، فالذين ركنوا إلى التقليد المحض ، واغتروا بظنون فاسدة ، وتخمينات مبهمة ، هم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها ، دون معرفة معانيها وإدراك أسرارها وحقائقها ، وهذا حال أكثر أهل زماننا ، من مدعي الإسلام ، فالمدعي والمتمني عاقبتهما خسران وضلال ، وحسرة ووبال .

والثالثة : أن من بدَّل أو غيَّر ، أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ، فهو داخل في الوعيد المذكور وقد حذر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمته لما علم ما يكون في آخر الزمان فقال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ، كلها في النار إلا واحدة »[1] فحذرهم أن يُحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله ، أو سنته أو سنّة أصحابه فيضلوا به الناس ، وقد وقع ما حذره وشاع ، وكثر وذاع ، فَإِنَّا للهِ وإِنَّا إليه راجعون .

والرابعة : أن بعض المتسمين بالصوفية ، ينضم إلى الأولياء وأرباب القلوب ظاهراً ، ثم لاَ يَصْدُق الإرادة ، ويميل إلى أهل الغفلة ، ويصغي إلى أقوالهم ، ويشتهي ارتكاب أفعالهم ، وكلما دعته هواتف الحظوظ سارع إلى الإجابة « فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون » من الإلحاد عن الحق واعتقاد السوء ، وإغراء الخلق وإضلالهم ، فهم الذين أضلوا كثيراً .

فعلى السالك أن يجتهد في الوصول إلى الموجود الحق ، ويتخلص من الموهوم المطلق ، ولا يغتر بظواهر الحالات ، غافلاً عن بطون الاعتبارات ، فإن طريق الحق أدق من كل دقيق ، وماء عميق ، وفجٌ

---

(١) أخرجه أبو داود ، ورواه أحمد في المسند بنحوه وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٠٦ وجامع الأصول١٠ / ٣٢ .

سحيق ، وأجهل الناس من يترك يقين ما عنده ، من صفات نفسه التي لا شك فيها ، لظنٍّ ما عند الناس من صلاحية حاله ، قال حارث المحاسبي رضي الله عنه : الراضي بالمدح بالباطل ، كمن يهزؤ به ، ويقال : إن العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك ، وهو يفرح ويرضى بالسخرية به ، فالعاقل لا يغتر بمثله بل يجتهد إلى أن يصل إلى الحقيقة ، فويل لواعظ تكبَّر وافتخر ، بتقبيل الناس يده ، ورأى نفسه خيراً من السامعين ، ويغترُّ بالمدح والذم ، اللهم إلا أن يُخرج ذلك من قلبه ، والمعيارُ مساواة المقبِّل واللاطم عنده ، بل رجحان اللاطم والضارب ، ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي اليهود زعماً منهم ﴿ **لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ** ﴾ أي لا تصل إلينا النار في الآخرة ﴿ **إلا أَيَّاماً مَعْدُودَةً** ﴾ قليلة محصورة سبعة أيام ، فإنهم يقولون : إن أيام الدنيا سبعة آلاف سنة ، فنعذب مكان كل ألف سنة يوماً ، أو يراد أربعين يوماً ، مقدار عبادة آبائهم العجل ، أو لأنهم كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه فلا نعذب أبداً ، بل نعذب تعذيب الأب ابنه ، والحبيب حبيبه ، في وقت قليل ثم يرضى ، وهذا منهم باطل ، وعقوبة الكفر أبداً ، وثواب الإيمان كذلك ، لأن من اعتقد ديناً إنما يعتقده للأبد ، فعلى ذلك جزاؤه للأبد ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد تبكيتاً لهم وتوبيخاً ﴿ **أَتَّخَذْتُمْ** ﴾ بقطع الهمزة لأنه ألف استفهام بمعنى التوبيخ ، والألف المجتلبة ذهبت بالإدراج أي : أأتخذتم ﴿ **عِنْدَ اللهِ عَهْداً** ﴾ خبراً أو وعداً بما تزعمون ، فإن ما تدَّعون لا يكون إلا بناء على وعد قوي ، ولذلك عبَّر عنه بالعهد ﴿ **فَلَنْ** ﴾ أي إن اتَّخذتم عند الله عهداً وأماناً ، فلن ﴿ **يُخْلِفَ اللهُ** ﴾ الإخلاف نقض العهد ﴿ **عَهْدَهُ** ﴾ الذي عهده إليكم ، يعني ينجز وعده البتة ، ﴿ **أَمْ تَقُولُونَ** ﴾ مفترين ﴿ **عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ وقوعه إن كان لكم عنده عهد فلا ينقض ، ولكنكم تخرصون وتكذبون ، روي أنهم إذا مضت تلك المدة عليهم في النار ، يقول لهم خزنة جهنم : يا أعداء الله ذهب الأجل ، وبقي الأبد ، فأيقنوا بالخلود ﴿ **بَلَى** ﴾ إثبات لما بعد النفي ، أي بلى تمسكم أبداً ﴿ **مَنْ** ﴾ فهو رفع مبتدأ بمعنى الشرط ﴿ **كَسَبَ** ﴾ الكسبُ : استجلاب النفع ، واستعماله في استجلاب الضر كالسيئة ، على سبيل التهكم ﴿ **سَيِّئَةً** ﴾ من السيئات يعني كبيرة من الكبائر ﴿ **وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ** ﴾ أي استولت عليه من جميع جوانبه ، من قلبه ، ولسانه ، ويده ، كما يحيط العدو ، وهذا إنما يتحقق في الكافر ، ولذلك فسر السلف السيئة بالكفر ﴿ **فَأُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر ، من كسب السيئات ، وإحاطة خطاياهم بهم ، ﴿ **أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ أي ملازموها في الآخرة حسب ملازمتهم في الدنيا لما يستوجبها من الأسباب ، من تكذيب آيات الله ، وتحريف كلامه ﴿ **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ دائمون فأنى لهم النجاةُ منها بعد سبعة أيام أو أربعين كما زعموا !؟ولا حجة في الآية على خلود صاحب الكبيرة ، لما عرفتَ من اختصاصها بالكافر ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ أي صدَّقوا بالله تعالى ومحمد عليه الصلاة والسلام ، بقلوبهم ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أي أدَّوا الفرائض ، وانتهوا عن المعاصي ﴿ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ**

﴿ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ لا يموتون ولا يخرجون منها أبداً ، جرت السنّة الإلهية على شفع الوعد بالوعيد ، مراعاة لما تقتضيه الحكمة في إرشاد العباد ، من الترغيب تارة ، والترهيب أخرى ، والتبشير مرة ، والإنذار أخرى ، فإن باللطف والقهر ، يترقى الإنسان إلى الكمال ، ويفوز بجنة الجمال والجلال .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ في التوراة ، والميثاقُ : العهد الشديد و« إذْ » نصب بإضمار فعل ، خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنون ، ليؤديهم التأمل في أحوالهم ، إلى قطع الطمع عن إيمان أخلافهم ، لأن قبائح أسلافهم مما تؤدي إلى عدم إيمانهم ، ولا يلد الحية إلا الحية ، ومن ههنا قيل :

« إذا طاب أصل المرء طابت فروعه » .

أي اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم بأن ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ ﴾ أي لا توحدوا إلا الله ، ولا تجعلوا الألوهية إلا لله ، ﴿ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ أي وتحسنون إحساناً إليهما عطفاً عليهما ، ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله ﴿ وَذِي القُرْبَى ﴾ أي وتحسنون إلى ذي القرابة أيضاً ﴿ وَاليَتَامَىٰ ﴾ جمع يتيم وهو الصغير الذي مات أبوه قبل البلوغ ، والإحسان بهم بحسن التربية ، وحفظ حقوقهم عن الضياع ﴿ وَالمَسَاكِينِ ﴾ بحسن القول وإيصال الصدقة إليهم ، جمع مسكين من السكون ، كأن الفقر أسكنه عن الحراك : أي الحركة ، أو أثقله عن التقلب ﴿ وَ ﴾ قلنا ﴿ قُولُوا لِلنَّاسِ ﴾ قولاً ﴿ حُسْنَاً ﴾ سماه حُسْناً مبالغة لفرط حسنه ، أمر بالإحسان بالمال في حق أقوام مخصوصين ، وهم الوالدان والأقرباء واليتامى والمساكين ، ولما كان المال لا يسع الكل ، أمر بمعاملة الناس كلهم بالقول الجميل ، الذي لا يعجز عنه العاقل ، يعني : وألينوا لهم القول ، بحسن المعاشرة وحسن الخُلُق ، ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ذكرهما تنصيصاً مع دخولهما في العبادة المذكورة تعميماً وتخصيصاً ، تلخيصه أخذنا عهدكم يا بني إسرائيل ، بجميع المذكور ، فقبلتم وأقبلتم عليه ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي أعرضتم عن المضيّ على مقتضى الميثاق ورفضتموه ﴿ إِلا قَلِيلاً مِنْكُمْ ﴾ وهم من الأسلاف من أقام اليهودية على وجهها ، ومن الأخلاف من أسلم كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ جملة تكيلية أي وأنتم قوم عادتكم الإعراض عن الطاعة ، وأصل الإعراض الذهاب عن المواجهة ، والإقبال إلى جانب العرض ، واعلم أن في الآية عدة أشياء منها العبادة ، فمن شرط العبودية تفرد العبد لعبادة المعبود ، وتجرده عن كل مقصود ، فمن لاحظ خلقاً ، أو استحلى ثناء ، واستجلب بطاعته إلى نفسه حظاً من حظوظ الدنيا والآخرة ، فهو ساقط عن مرتبة الإخلاص برؤية نفسه .

ومنها الإحسان إلى الوالدين ، وقد عظم الله حق الوالدين ، حيث قرن حقه بحقها في آيات من

القرآن ، لأن النشأة من عند الله ، والنشأة الثانية وهي التربية من جهة الوالدين ، ويقال : ثلاث أُنزلت مقرونة بثلاث آيات ، ولا تقبل إحداهما بغير قرينتها ، إحداها : قوله تعالى (**أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ**) والثانية (**أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**) والثالثة (**أَقِيمُوا الصَّلاة وآتُوا الزَّكاةَ**) والإحسان إلى الوالدين : معاشرتها بالمعروف ، والتواضع لهما ، والامتثال بتنفيذ أمرهما ، وصلة أهل ودهما ، والدعاء لهما بالمغفرة بعد مماتها .

﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ** ﴾ أي واذكروا أيها اليهود ، وقت أخذنا إقراركم ، وعهدكم في التوراة ، وقلنا لكم : ﴿ **لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ** ﴾ لا يريق بعضكم دم بعض ، وهو إخبار في معنى النهي ﴿ **وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ** ﴾ أي لا يخرج بعضكم بعضاً من دياره ، ﴿ **ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ** ﴾ أي بالميثاق ، واعترفتم على أنفسكم بلزومه ، وبوجوب المحافظة عليه ﴿ **وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ** ﴾ عليها ، توكيد للإقرار ، كقولك فلان مقر على نفسه بكذا ، شاهد عليها ، أو أنتم اليوم أيها اليهود ، تشهدون على إقرار أسلافكم بهذا الميثاق ﴿ **ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤلاءِ** ﴾ أي أنتم بعد ذلك قوم آخرون ، غير أولئك المقرين ﴿ **تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ** ﴾ أي الجارين مجرى أنفسكم ﴿ **وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ** ﴾ الضمير للفريق وهو الطائفة ﴿ **تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ** ﴾ بحذف إحدى التاءين والمعنى تقوُّون ظهوركم للغلبة عليهم ﴿ **بِالإِثْمِ** ﴾ أي ملتبسين بالإثم ، وهو الفعل الذي يستحق فاعله الذم واللوم ﴿ **وَالْعُدْوَانِ** ﴾ أي التجاوز في الظلم ، ودلت الآية على أن الظلم كما هو محرم ، فكذا إعانة الظالم على ظلمه ، ﴿ **وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ** ﴾ أي جاؤكم حال كونهم مأسورين ، والأسارى والأسرى جمع أسير ، وهو من يؤخذ قهراً ، والفرق أنهم إذا قيِّدوا فهم أسارى ، وإذا حصلوا في اليد من غير قيد فهم أسرى ﴿ **تُفَادُوهُمْ** ﴾ أي تخرجوهم من الأسر بإعطاء الفداء ﴿ **وَهُوَ** ﴾ أي الشأن ﴿ **مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ** ﴾ وذلك أن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل في التوراة ، أن لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، وأيما عبدٍ أو أمةٍ وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه واعتقوه ، وكان قريظة والنضير من اليهود أخوين ، وكذا الأوس والخزرج - وهم أهل شرك يعبدون الأصنام ، ولا يعرفون القيامة والحلال والحرام - فافترقوا في حرب شمر ، ووقعت بينهم عداوة ، فكانت بنو قريظة معينة للأوس وناصريهم ، والنضيرُ معينة للخزرج وحلفاءهم ، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب ، خرجت بنو قريظة مع الأوس ، والنضير مع الخزرج ، يظاهر كل قوم حلفاءهم على إخوانهم ، حتى يتسافكوا الدماء ، وإذا غلبوا خربوا ديارهم ، وأخرجوهم منها ، وبأيديهم التوراة يعرفون ما فيها ، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدى قريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم ، وافتدى النضير ما كان في أيدي الأوس منهم من الأسارى ، فعيرتهم

العرب بذلك ، وقالوا : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ فقالوا : أُمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، قالوا : فَلِمَ تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن يستذل حلفاؤنا ، فذمهم على المناقضة ، وتلخيصه : أعرضتم عن الكل إلا الفداء ، لأن الله تعالى أخذ عليهم أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة عليهم مع أعداءهم ، وفداء الأسرى ﴿ **أَفَتُؤْمِنُون بِبَعْضِ الكِتَابِ** ﴾ أي أتفعلون ذلك فتؤمنون ببعض الكتاب ﴿ **وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** ﴾ هو حرمة القتال والإخراج ، مع أن قضية الإيمان ببعضه ، الإيمانُ بالباقي ، لكون الكل من عند الله ، داخلاً في الميثاق ، فمناط التوبيخ كفرهم بالبعض مع إيمانهم بالبعض ﴿ **فَمَا جَزَاءُ** ﴾ أي ليس جزاء ﴿ **مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ** ﴾ أي الكفر ببعض الكتاب ، مع الإيمان بالبعض ﴿ **مِنْكُمْ** ﴾ يا معشر اليهود ﴿ **إلا خِزْيٌ** ﴾ أي ذلّ وهوانٌ مع الفضيحة ﴿ **فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ صفة خزي لقطع أطماعهم الفارغة من ثمرات إيمانهم ببعض الكتاب ﴿ **وَيَوْمَ القِيَامَةِ** ﴾ يوم تقام فيه الأجزية ﴿ **يُرَدّونَ** ﴾ أي يرجعون ﴿ **إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ** ﴾ هو التعذيب في جهنم ، وهو أشد من خزيهم في الدنيا ، وأشد من كل عذاب كان قبله ، فإنه ينقطع ، وهذا لا ينقطع .

﴿ **وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ** ﴾ بساهٍ ﴿ **عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ من القبائح التي من جملتها هذا المنكر ، أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، فيجازيهم بها يوم البعث ، تهديد شديد ، وزجر عظيم عن المعصية ، وبشارة عظيمة على الطاعة ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر من الأوصاف القبيحة ﴿ **الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ واستبدلوها ﴿ **بِالآخِرَةِ** ﴾ وأعرضوا عنها مع تمكنهم من تحصيلها ، فإن ما ذكر من الكفر ببعض أحكام الكتاب ، إنما كان مراعاة لجانب حلفائهم ، لما يعود إليهم منهم ، من بعض المنافع الدينية والدنيوية ﴿ **فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ** ﴾ دنيوياً كان أو أخروياً ﴿ **وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ** ﴾ يُمنعون من العذاب ، بدفعه عنهم بشفاعة أو جبره ، واعلم أن الجمع بين تحصيل لذات الدنيا ، ولذات الآخرة ، ممتنعٌ غير ممكن ، فعلى العاقل أن يرغب في تجارة الآخرة ، ولا يركن إلى الدنيا ، ولا يسفك دمه بامتثال أوامر الشيطان ، في استجلاب حظوظ النفس .

﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا** ﴾ أي بالله لقد أعطينا يا بني إسرائيل ﴿ **مُوسَى الكِتَابَ** ﴾ أي التوراة جملة واحدة ﴿ **وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ** ﴾ يقال : قفَّاه به ، إذا أتبعه إياه ، أي أتبعنا من بعد موسى رسولاً بعد رسول ، مقتفين أثره ﴿ **وَآتَيْنَا عِيسَى** ﴾ هو عيسى اليسوع ومعناه المبارك ﴿ **ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾ بالسريانية بمعنى الخادمة والعابدة ، قد جعلتها أمها محررة لخدمة المسجد ، ولكمال عبادتها لربها سمَّاها الحق تعالى في كتابه الكريم ، مع الأنبياء عليهم السلام سبع مرات ، وخاطبها كما خوطب الأنبياء كما قال تعالى (**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**) فشاركها مع الرجال ﴿ **البَيِّنَاتِ** ﴾

المعجزات الواضحات ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار بالمغيبات ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾ أي قويناه ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي بالروح المقدسة المطهرة ، وهي روح جبريل ، ووصف بالطهارة لأنه لم يقترف ذنباً ، وسمي روحاً لأنه كان يأتي الأنبياء بما فيه حياة القلوب ، ومعنى تقويته به أنه عصمه من أول حاله إلى كبره فلم يدن منه الشيطان عند الولادة ، ورفعه إلى السماء حين قصد اليهود قتله ، وتخصيص عيسى من بين الرسل ، لما أن بعثتهم كانت لتنفيذ أحكام التوراة ، وأما عيسى فقد نُسخ بشرعه كثير من أحكامها ، وما بين عيسى وموسى أربعة آلاف نبي ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ ﴾ خاطب أهل عصر النبي عليه السلام بهذا ، وقد فعله أسلافهم ، يعني لم يوجد منهم القتل وإن وجد الاستكبار ، لأنهم يتولونهم ويرضون بفعلهم أي ألم تطيعوهم فكلما جاءكم ﴿ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى ﴾ أي لا تريد ﴿ أَنْفُسُكُمْ ﴾ ولا يوافق هواكم ﴿ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أي تعظمتم عن الاتباع له ، والإيمان بما جاء به من عند الله ﴿ فَفَرِيقاً ﴾ منهم ﴿ كَذَّبْتُمْ ﴾ كعيسى ومحمد عليهما السلام ﴿ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ كزكريا ويحيى عليهم السلام ، وقدم فريقاً في الموضعين للاهتمام ، وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم ، ولم يقل « قتلتم » تفظيعاً لهذه الحالة ، فكأنها وإن مضت حاضرة لشناعتها ، ولثبوت عارها عليهم وعلى ذريتهم بعدهم ، أو يراد وفريقاً تقتلونهم بعد ، لأنكم حاولتم قتل محمد عليه الصلاة والسلام لولا أني عصمتُه منكم ، ولذلك سحرتموه ، وسممتم له الشاة حتى قال عليه الصلاة والسلام عند موته : (مازالت أكلة خيبر تعاودني - أي يراجعني أثر سمها في أوقات معدودة (فهذا أوانُ قطعت أبهري)[1] وهو عرق منبسط في القلب ، إذا انقطع مات صاحبه .

﴿ وَقَالُوا ﴾ أي اليهود الموجودون في عصر النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أي هي مغشاة بأغشية ، لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد ولا تفقهه ، ثم ردَّ الله أن تكون قلوبهم مخلوقة كذلك ، لأنها خلقت على الفطرة وأضرب وقال : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي خذلهم وخلاهم وشأنهم ، بسبب كفرهم العارض ، ﴿ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ « مَا » مزيدة للمبالغة أي فإيماناً قليلاً يؤمنون ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ ﴾ كائن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ وهو القرآن ، ووصفه بقوله من عند الله للتشريف ﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ أي موافق للتوراة في التوحيد وبعض الشرائع ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قبل مجيء محمد ﷺ ﴿ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي يستنصرون به على مشركي العرب ، وكفار مكة ، ويقولون لأعدائهم : قد أظل زمان نبي ، يخرج بتصديق ما قلنا ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾ من الكتاب ، لأن معرفة

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه .

من أنزل عليه معرفةٌ له ﴿ **كَفَرُوا بِهِ** ﴾ حسداً وحرصاً على الرياسة ، وغيَّرُوا صفته ﴿ **فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ** ﴾ أي عليهم ، وضعاً للظاهر موضع الضمير ، للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم ، واللعنة في حق الكفار : الطردُ والإبعاد من الرحمة والكرامة على الإطلاق ، وفي حق المذنبين من المؤمنين الإبعاد عن الكرامة ، ومنه قوله عليه السلام : « من احتكر فهو ملعون »[1] أي من ادخر ما يشتريه وقت الغلاء ، ليبيعه وقت زيادة الغلاء ، فهو مطرود من درجة الأبرار ، لا من رحمة الغفار ، واعلم أن الصفات المقتضية للَّعن ثلاث : الكفرُ ، والبدعة ، والفسق ، وله في كل واحدة ثلاث مراتب ، الأولى : اللعن بالوصف الأعم ، كقولك لعنة الله على الكافرين أو المبتدعة أو الفسقة ، والثانية : اللعن بأوصاف أخص منه كقولك لعنة الله على الخوارج والروافض ، أو على الزناة والظلمة ، وكل ذلك جائز والثالثة : اللعن على الشخص ، فإن كان ممن ثبت كفرهم شرعاً يجوز لعنه ، إن لم يكن فيه أذى على مسلم ، كقولك لعنة الله على فرعون وأبي جهل ، لأنه ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر ، وإن كان ممن لم يثبت شرعاً كلعنة زيد أو عمرو أو غيرهما بعينه ، فهذا فيه خطر ، لأن حال خاتمته غير معلوم ، وربما يسلم الكافر ، أو يتوب فيموت مقرباً عند الله ، فكيف يحكم بكونه ملعوناً ؟ ألا يرى أن وحشياً قتَلَ عمَّ النبي عليه الصلاة والسلام حمزة رضي الله عنه ، ثم أسلم على يد النبي عليه الصلاة والسلام وبشره الله بالجنة .

ثم اعلم أنَّ اللعنة ترتد على اللاعن ، إن لم يكن الملعون أهلاً لذلك ، ولعنُ المؤمن كقتله وربما يلعن شيئاً من ماله فتنزع منه البركة ، فلا يلعن شيئاً من خلق الله لا للجماد ، ولا للحيوان ، ولا للإنسان ، فالأولى أن يترك ويشتغل بدله بالذكر والتسبيح ، إذ فيه ثواب ، ولا ثواب في اللعن ، وإن كان يستحق اللعن ، قال عليه الصلاة والسلام : « رأيت النار وأكثر أهلها النساء ، فإنهن يكثرن اللعن ، ويكفرن العشير ، لو أحسنت إلى أحداهن الدهر كله ، ثم رأت منك شيئاً ، قالت ما رأيت منك خيراً قط »[2] ، ﴿ **بِئْسَمَا** ﴾ ما نكرة منصوبة أي بئس شيئاً ﴿ **اشْتَرَوْا** ﴾ اشترى بمعنى باع وابتاع ، والمراد هنا الأول ﴿ **بِهِ** ﴾ أي بذلك الشيء ﴿ **أَنْفُسَهُمْ** ﴾ المراد الإيمان ، والمخصوصُ بالذم قوله تعالى ﴿ **أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ** ﴾ أي بالكتاب المصدِّق لما معهم ، بعد الوقوف على حقيقته ﴿ **بَغْياً** ﴾ أي حسداً وطلباً لما ليس لهم ، كما أن الحاسد يطلب ما ليس له لنفسه ، مما للمحسود من جاه ، أو منزلة ، أو خصلة حميدة ، والباغي : هو الظالم الذي يفعل ذلك عن حسده ، والمعنى : بئس شيئاً باعوا به إيمانهم ، كفرهم المعلل بالبغي ، الكائن لأجل ﴿ **أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ الذي هو الوحي ﴿ **عَلَى مَنْ يَشَاءُ** ﴾ أي يشاؤه ويصطفيه ﴿ **مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ المستأهلين لتحمل أعباء الرسالة ، والمراد ههنا محمد ﷺ ، كان

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود بلفظ : « من احتكر طعاماً فهو خاطيء » وانظر جامع الأصول ١ / ٥٩٢ .

(٢) أصل الحديث في الصحيحين ولفظُهُ : « يامعشر النساء تصدَّقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار .. » الحديث .

اليهود يعتقدون أنه نبي آخر الزمان ، ويتمنون خروجه وهم يظنون أنه من ولد إسحق ، فلما ظهر أنه من ولد إسماعيل ، حسدوه وكرهوا أن يخرج الأمر من بني إسرائيل فيكون لغيرهم ﴿ **فَبَاؤُا** ﴾ أي رجعوا ملتبسين ﴿ **بِغَضَبٍ** ﴾ كائن ﴿ **عَلَى غَضَبٍ** ﴾ أي صاروا مستحقين لغضبٍ مترادف ، ولعنة إثر لعنة ، حسبما اقترفوا من كفر على كفر ، فإنهم كفروا بنبي الحق وبغوا عليه ﴿ **وَلِلْكَافِرِينَ** ﴾ أي لهم ﴿ **عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ يراد به إهانتهم وإذلالهم ، لما أن كفرهم بما أنزل الله كان مبنياً على الحسد ، المبني على طمع النزول عليهم ، وادعاء الفضل على الناس ، والاستهانة بمن أنزل الله عليه ﷺ ، ودل أن عذاب المؤمنين تأديبٌ وتطهير ، وعذابَ الكفار إهانة وتشديد .

﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ** ﴾ أي وإذا قال أصحاب رسول الله ﷺ ليهود أهل المدينة ومن حولها ﴿ **آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ** ﴾ من الكتب الإلهية جميعاً ﴿ **قَالُوا نُؤْمِنُ** ﴾ أي نستمر على الإيمان ﴿ **بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا** ﴾ يعنون به التوراة ، وما أنزل على أنبياء بني إسرائيل ، ﴿ **وَ** ﴾ هم ﴿ **يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ** ﴾ أي سوى ما أنزل ﴿ **وَهُوَ** ﴾ أي والحال أن ما وراء التوراة ﴿ **الْحَقُّ** ﴾ أي المعروف بالحقية الحقيقُ بأن يُخص به اسم الحق على الإطلاق ﴿ **مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ** ﴾ من التوراة غير مخالف له ، أي حال كونه موافقاً لما معهم ، وفيه رد لمقالتهم لأنهم إذا كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ، ثم اعترض عليهم بقتلهم الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة ، والتوراة لا تسوِّغ قتل نبي ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد تبكيتاً لهم من جهة الله تعالى ببيان التناقض بين أقوالهم وأفعالهم ﴿ **فَلِمَ** ﴾ أصله فلما لامُه للتعليل ، دخلت على « ما » التي للاستفهام ، وسقطت الألف فرقاً بين الاستفهامية والخبرية ﴿ **تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي قل لهم : إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون ، فلأي شيء تقتلون أنبياء الله من قبل ، وهو فيها حرام ، وأسند فعل الآباء وهو « القتل » إلى الأبناء ، للملابسة بين الآباء والأبناء ، وفي الآية دليل على أن من رضي بالمعصية ، فكأنه فاعل لها ، لأن اليهود كانوا راضين بقتل آبائهم فسماهم الله قاتلين ، حيث قال ﴿ **قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ** ﴾ الآية ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ جواب الشرط محذوف لدلالة ما سبق عليه أي إن كنتم مؤمنين فَلِمَ تقتلونهم ؟ وهو تكرير للاعتراض لتأكيد الإلزام وتشديد التهديد ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ اللام للقسم أي بالله لقد جاءكم موسى ، ملتبساً بالمعجزات الظاهرة ، من العصا واليد ، وفلق البحر ، ونحو ذلك ﴿ **ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ** ﴾ أي إلهاً ﴿ **مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ أي من بعد مجيئه بها و«ثمَّ» للتراخي في الرتبة والدلالة على نهاية قبح ما فعلوا ﴿ **وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ** ﴾ أي عبدتم العجل ، وأنتم واضعون العبادة في غير موضعها ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ** ﴾ أي العهد منكم ﴿ **وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ** ﴾ أي الجبل قائلين لكم : ﴿ **خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ** ﴾ أي

بجد واجتهاد ﴿ وَاسْمَعُوا ﴾ ما في التوراة ، سماع قبول وطاعة ﴿ قَالُوا ﴾ كأنه قيل : ماذا قالوا ؟ فقيل قالوا ﴿ سَمِعْنَا ﴾ قولك ، ولكنْ لا سماع طاعة ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ أمرك ، ولولا مخافة الجبل ما قبلنا ، فإن كان حال أسلافهم هكذا ، فكيف يتصور من أخلافهم الإيمان ؟ .

﴿ وَأُشْرِبُوا ﴾ أي والحال أنهم قد أُشربوا ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ العِجْلَ ﴾ أي حب العجل على حذف المضاف ، وأُشرب قلبُه كذا أي حلَّ محل الشراب ، فالمعنى جعلوا شاربين حب العجل نافذاً فيهم نفوذ الماء فيما يتغلغل فيه ، ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك ، وجعل حلاوة عبادة العجل في قلوبهم مجازاة لكفرهم ﴿ قُلْ ﴾ توبيخاً لحاضري اليهود ﴿ بِئْسَمَا ﴾ بئس شيئاً ﴿ يَأْمُرُكُمْ بِهِ ﴾ أي بذلك الشيء ﴿ إِيمَانُكُمْ ﴾ بما أُنزل عليكم من التوراة حسبما تدَّعون ، وفي إسناد الأمر إلى الإيمان تهكّم بهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مؤْمِنِينَ ﴾ بالتوراة ، إذ لا يُسوِّغ الإيمان بها مثلَ فعلِ تلك القبائح ، فلستم بمؤمنين بها قطعاً ، فقد علم أن من ادعى أنه مؤمن ، ينبغي أن يكون فعله مصدقاً لقوله ، وإلا لم يكن مؤمناً .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ أي الجنة ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ ظرف للاستقرار أعني لكم ﴿ خَالِصَةً ﴾ أي : سالمة لكم خاصة بكم ﴿ مِنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ أي من دون محمد وأصحابه ، والمعنى إن صح قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ﴿ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ ﴾ أي أحبُّوه واسألوه بالقلب واللسان ، وقولوا : اللهم أمتنا ، فإن من أيقن بدخول الجنة اشتاق إليها ، وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم ، والتخلص من دار الأكدار ، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في قولكم أن الجنة خاصة لكم فتمنوه ، وأصل التمني : تقدير شيء في النفس ، وأكثر ما يستعمل فيما لا حقيقة له ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ ﴾ أي الموت ﴿ أَبَداً ﴾ أي في جميع الزمان والمستقبل ، لأن أبداً اسم لجميع مستقبل الزمان كـ « قطُّ » لماضيه ، ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بسبب ما عملوا من المعاصي الموجبة لدخول النار ، كالكفر بالنبي عليه الصلاة والسلام والقرآن ، وتحريف التوراة ، وخص الأيدي بالذكر ، لأن الأعمال غالباً تكون بها ، ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ بهم وبما صدر عنهم وهو تهديد لهم ، روي أن اليهود لو تمنوا الموت ، لغصَّ كل واحد منهم بريقه فمات من ساعته ، ولما بقي على الأرض يهودي إلا مات ، فقوله : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ﴾ من المعجزات ، لأنه إخبار بالغيب ، وكان كما أخبر به ، فإن قلت : إن التمّني يكون بالقلب ، فلا يظهر لنا أنهم تمنوه أو لا ؟ قلت : ليس التمني من أعمال القلوب ، إنما هو قول الإنسان بلسانه : ليت لي كذا ، وعن نافع جلس إلينا يهودي يخاصمنا ، فقال : إن في كتابكم ﴿ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ ﴾ وأنا أتمنى فمالي لا أموت ؟ فسمع ابن عمر هذا ، فدخل بيته وأخذ السيف ثم خرج ، ففر اليهودي حين رآه ، فقال ابن عمر : أما والله لو أدركته لضربتُ عنقه ، توهَّم هذا الجاهل ، أنه لليهود في كل وقت ، إنما هو لأولئك الذين

كانوا يعاندونه ويجحدون نبوته بعد أن عرفوه ، واليهود ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الجنة خالصة لهم ، والإنسان لا يكره القدوم على حبيبه ، ولا يخاف انتقامه بالمصير إليه ، بل يرجو وصوله إلى محابه ، فقيل لهم : تمنوا ذلك ، فلما لم يتمنوه ظهر كذبهم في دعاويهم ، والنبي عليه الصلاة والسلام نهى عن تمني الموت فقال : « لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضر نزل به ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي » (١) قال أحد الصالحين :

لولا بناتي وسيآتي * لذبت شوقاً إلى الممات

قال سهل التستري : لا يتمنى الموت إلا ثلاثة : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفر من أقدار الله عليه ، أو مشتاق يحب لقاء الله .

واعلم أن الموت هو المصيبة العظمى ، والبلية الكبرى ، وأعظم منه الغفلة عنه ، وترك العمل له ، وإن فيه لَعِبَراً لمن اعتبر ، كما قيل : « كفى بالموت واعظاً » ومن ذكر الموت زهَّده فيما كان من الدنيا يؤمل ، ولكن القلوب الغافلة ، تحتاج إلى تطويل الوعاظ وتزيين الألفاظ ، وإلا ففي قوله عليه الصلاة والسلام : « أكثروا ذكر هاذم اللذات » (٢) وقوله تعالى (**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**) ما يكفي السامع له ويشغل الناظر فيه ، فعلى العاقل أن يسعى للموت بالاختيار ، قبل الموت بالاضطرار ، ويزكي نفسه عن سفساف الأخلاق .

ثم قال تعالى ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ** ﴾ أي والله لتجدن اليهود يا محمد أحرص من الناس ﴿ **عَلَى حَيَاةٍ** ﴾ لا يتمنون الموت ، والتنكيرُ للنوع ، وهي حياتهم التي هم فيها ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾ كأنه قيل أحرص من الناس ومن المشركين ، وأُفردَ المشركون بالذكر ، وإن كانوا من الناس ، لشدة حرصهم على الحياة ، وفيه توبيخ عظيم ، لأن الذين أشركوا ما يعرفون إلا الحياة الدنيا ، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم ، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب ، وهو مقر بالجزاء كان حقيقاً بأعظم التوبيخ ، ﴿ **يَوَدُّ أَحَدُهُمْ** ﴾ أي يريد ويتمنى أحد هؤلاء المشركين ﴿ **لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ حكاية لودادهم و« لَوْ » معنى التمني والمعنى تمنى أحدهم أن يُعطى البقاء والعمر ألف سنة وخص هذا العدد ، لأنهم يقولون ذلك فيما بينهم عند التحية : عش ألف سنة ، وألف مهرجان ، وصح إطلاق المشركين على المجوس لأنهم يقولون بالنور والظلمة ﴿ **وَمَا** ﴾ حجازية ﴿ **هُوَ** ﴾ أي أحدهم ﴿ **بِمُزَحْزِحِهِ** ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ، وفي بعض الروايات : « فإن كان لابدَّ فاعلاً فليقل .. » الحديث وانظر جامع الأصول ٢ / ٤٥٥ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في القيامة ، والنسائي في الجنائز وابن ماجه في الزهد ، وانظر مسند أحمد ٢ / ٢٩٣ .

الزحزحة : التبعيد والانجاء ﴿ مِنَ العَذَابِ ﴾ من النار ﴿ أَنْ يُعَمَّر ﴾ فاعل مزحزحه أي تعميره ﴿ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ البصير في كلام العرب ، العالم بكنه الشيء الخبير به ، أي عليم بخفيّات أعمالهم ، من الكفر والمعاصي ، لا يخفى عليه ، فهو مجازيهم بها لا محالة بالخزي والذل في الدنيا والعقوبة في العقبى .

فعلى أهل القلوب القاسية أن يعالجوا قلوبهم بأمور : أحدها الإقلاع عما هي عليه ، بحضور مجالس العلم ، والوعظ والتذكير ، وأخبار الصالحين ، فإن ذلك مما يلين القلوب ، وينجح فيها ، والثاني ذكر الموت ، فيكثر من ذكر هاذم اللذات ، ومفرق الجماعات ، وميتم البنين والبنات ، والثالث مشاهدة المحتضرين ، فإن في النظر إلى الميت ، ومشاهدة سكراته ونزعاته ، وتأمل صورته بعد مماته ، ما يقطع عن النفوس لذاتها ، ويطرد عن القلوب مسراتها ، ويمنع الأجفان من النوم ، والراحة من الأبدان ، ويبعث على العمل ، فيزيد في الاجتهاد والتعب ، ويستعد للموت قبل النزول ، فإنه أشد الشدائد . روي أن بعض الصالحين ، كان يقف على سور المدينة ، فينادي كل يوم : يا أهل المدينة الرحيل الرحيل ، فافتقد الناس صوته فسألوا عنه فقيل لهم : إنه مات ، فقال بعضهم :

مازال يلهج بالرحيل وذكره * حتى أناخ ببابه الجمّال
فأصابه متيقظاً متشمراً * ذا أهبةٍ لم تُلْهِهِ الآمال

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ ﴾ لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه عبد الله بن صوريا من اليهود فسأله فقال يا محمد : أي ملك يأتيك بما تقول من الله تعالى ؟ فقال : « جبريل » قال ذاك عدونا ، لأنه مَلَك العذاب ، ينزل بالقتال والعذاب ، والشدائد ، ورسولنا ميكائيل ، لأنه مَلَك الرحمة ينزل بالغيث والبشر والرخاء فنزلت الآية ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ ﴾ وجواب « مَنْ » محذوفٌ ، أي من عادى جبريل من أهل الكتاب ، فلا وجه لمعاداته ، بل يجب عليه محبته ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ يعني جبريل ﴿ نَزَّلَهُ ﴾ أي القرآن ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ زيادة تقرير للتنزيل أي حفَّظه إياك ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ بأمره وتيسيره ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي موافقاً لما قبله من الكتب الإلهية ، ﴿ وَهُدًى ﴾ أي هادياً إلى دين الحق ﴿ وَبُشْرَى ﴾ أي مبشراً بالجنة ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلا وجه لمعاداته ، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه ، في إنزاله ما ينفعهم ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ ﴾ أي مخالفاً لأمره عناداً ، وخارجاً عن طاعته مكابرة ﴿ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ أفردهما بالذكر لإظهار فضلها ، ﴿ فَإِنَّ اللهَ ﴾ جواب الشرط ، ولم يقل فإنه لاحتمال أن يعود إلى جبريل وميكائيل ﴿ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أي لهم ، جاء بالظاهر ليدل على أن الله إنما عاداهم لكفرهم ، والمعنى من عاداهم عاداه الله ، وعاقبه أشد

العقاب ، ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات الدلالة على معانيها ، وعلى كونها من عند الله ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا ﴾ أي بالآيات التي توضح الحلال والحرام ، وتفصل الحدود والأحكام ﴿ إِلا الْفَاسِقُونَ ﴾ المتمردون في الكفر الخارجون عن حدوده ، واعلم أن القرآن هو النور الإلهي ، الذي كشف الله به الظلمات ، واليهود أرادوا أن يطفئوا نور الله ، والله متم نوره ، وليس لهم في ذلك إلا الفضاحة والخزي .

﴿ أَوَ ﴾ الهمزة للإنكار أي أكفروا بآيات الله البينات ، وهي في غاية الوضوح ﴿ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً ﴾ مصدر مؤكد لعَاهَدوا ﴿ نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾ أي رموا العهد ورفضوه ، والفريق الطائفة ، ويكون للقليل والكثير ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالتوراة ، وليسوا من الدين في شيء ، فلا يعدُّون نقض المواثيق ذنباً ولا يبالون به ، ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ ﴾ هو النبي ﷺ ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ متعلق بجاء ﴿ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ﴾ من التوراة ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أي التوراة ﴿ كِتَابَ اللهِ ﴾ وهو التوراة ، لأنهم كفروا بالرسول المصدِّق لما معهم ، يعني رموا بالعناد كتاب الله ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يعملوا به ، مثَّلَ لتركهم وإعراضهم عنه بالكلية ، بما يُرمى به وراء الظهر، استغناء عنه وقلة التفات إليه ﴿ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي نبذوه وراء ظهورهم متشبهين بمن لا يعلم أنه كتاب الله ، وفيه إشارة إلى أن من فعل فعل الجاهل ، مع علمه ، يلتحق بالجهال ، وهو والجاهل سواء ، فكما أن الجاهل لا يجيء منه خير ، فكذا العالم الذي لا يعمل ، فعلى العاقل أن يسارع إلى الامتثال خوفاً من بطش ذي الجلال .

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ ﴾ أي نبذ اليهود كتاب الله وراء ظهورهم ، واتبعوا كتب السحرة التي تقرأها وتعمل بها الشياطين ، وهم المتمردون من الجن ، و« تَتْلُوْ » حكاية حال ماضية ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أي على عهد ملكه وفي زمانه . قال السدي : كانت الشياطين تصعد إلى السماء فيسمعون كلام الملائكة ، ويأتون الكهنة ويخلطون بما سمعوا في كل كلمة مائة كذبة ويخبرونهم بها ، وفشا في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب ، وبعث سليمان في الناس وجمع تلك الكتب ، وجعلها في صندوق ودفنه تحت كرسيه ، وقال : لا أسمع أحداً يقول : إن الشيطان يعلم الغيب إلا ضربت عنقه ، فلما مات سليمان وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ، فشا في الناس أن سليمان كان ساحراً وأخذ بنو إسرائيل تلك الكتب ، فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود ، فلما جاء محمد ﷺ برَّأ الله سليمان عليه السلام من ذلك ، وأنزل في عذر سليمان ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ الآية ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ بالسحر وعلمه ، يعني لم يكن ساحراً ، لأن الساحر كافر ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ

﴿ كَفَرُوا ﴾ باستعمال السحر وتعليمه وتدوينه ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ أي كفروا والحال أنهم يعلمونه إغواءً وإضلالاً ﴿ وَمَا ﴾ أي ويعلمون الناس الذي ﴿ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ أي ما ألهما وعلما وهو علم السحر ، أنزلا لتعليم السحر ، ابتلاء من الله للناس ، مَنْ تعلمه منهم وعمل به كان كافراً ، ومن تجنبه أو تعلمه لا ليعمل به ، ولكن ليتوقاه كان مؤمناً كما قيل : عرفت الشرَّ لا للشر ولكن لتوقّيه ، قال الإمام فخر الدين : كأن الحكمة في إنزالهما ، أن السحرة كانوا يسترقون السمع من الشياطين ، ويلقون ما سمعوا بين الخلق ، وكان بسبب ذلك يشبه الوحي النازل على الأنبياء ، فأنزلهما الله إلى الأرض ليعلما الناس كيفية السحر ، ليظهر بذلك الفرق بين كلام الله وكلام السحرة ﴿ بِبَابِلَ ﴾ هي بابل العراق بأرض الكوفة ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ منع صرفهما للعجمة والعلمية ، وما روي في قصتهما من أنهما شربا الخمر ، وسفكا الدم ، وزنيا وقتلا وسجدا للصنم ، فما لا تعويل عليه ، لأن مداره رواية اليهود ، مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل ، ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ والحال أن الملكين ما يعلمان ما أنزل عليهما من السحر واحداً من طالبيه ﴿ حَتَّى ﴾ ينصحاه وينهياه عن العمل به ، والكفر بسببه و ﴿ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ وابتلاء من الله تعالى ، فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيته كفر ، ومن توقى العمل به بقي على الإيمان ، والفتنة الاختبار والامتحان ﴿ فَلا تَكْفُرْ ﴾ باعتقاد حقيته وجواز العمل به ، فإن أبىٰ إلا التعليم علماه ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ عطف على الجملة المنفية أي فالناس يتعلمون ﴿ مِنْهُمَا ﴾ أي من الملكيْن ﴿ مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ ﴾ أي بسببه واستعماله ﴿ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ بأن يحدث الله تعالى بينهما التباغض والنشوز ابتلاء ، لا أن السحر هو المؤثر في ذلك ، ﴿ وَمَا هُمْ ﴾ أي ليس الساحرون ﴿ بِضَارِّينَ بِهِ ﴾ أي بما تعلموه واستعملوه من السحر ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أي أحداً ﴿ إِلا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي ما يضرون به أحداً ، إلا مقروناً بعلم الله ، وإرادته وقضائه ، لا بأمره ، لأنه لا يأمر بالكفر ، ولا يُنْكَر أن السحر له تأثير في القلوب ، بالحب والبغض وبإلقاء الشرور ، حتى يحول بين المرء وقلبه وذلك بإدخال الآلام وعظيم الأسقام ، وكل ذلك مدرك بالحِسِّ والمشاهدة ، وإنكاره معاندة ، وإن أردت التفصيل فاعلم أن السحر إظهار أمر خارق للعادة ، من نفس شريرة خبيثة ، بمباشرة أعمال مخصوصة ، يجري فيه التعلم والتعليم ، وبهذين الاعتبارين ، يفارق المعجزة والكرامة ، واختلف العلماء في حقيقة السحر ، فذهب الجمهور إلى ثبوته فيه ، وقالت المعتزلة : لا ثبوت له ولا وجود له في الخارج ، بل هو تمويه وتخييل ، يرى الحبال حيات ، بمنزلة الشعوذة التي سببها خفة حركات اليد ، أو إخفاء وجه الحيلة ، وتمسكوا بقوله تعالى (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) ولنا وجهان : الأول إمكان الأمر في نفسه ، وشمول قدرة الله ، فإنه الخالق ، وإنما الساحر فاعل وكاسب ، الثاني قوله تعالى ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ

اللهِ ﴾ وفيه إشعار بأنه ثابت حقيقة ليس مجرد إرادة وتمويه ، وبأن المؤثر والخالق هو الله تعالى وحده ، وأما الشعوذة وما يجري مجراها من إظهار الأمور العجيبة ، بواسطة خفة اليد ، والاستعانة بخواص الأدوية والأحجار ، فإطلاق السحر عليها مجاز ، وأكثر من يتعاطى السحر من الإنس النساء ، وخاصة في حال حيضهم ، والأرواح الخبيثة تُرى غالباً للطبائع والنفوس الرذيلة ، وإن لم يكن لهم رياضة ، كالنساء والصبيان المخنثين ، والإنسان إذا فسد نفسه أو مزاجه ، يشتهي ما يضره ويتلذذ به ، بل يعشق ذلك عشقاً ، يفسد عقله ودينه وخلقه ، والشيطان خبيث ، فإذا تقرَّب صاحب العزائم السحرية إليهم بما يحبونه من الكفر والشرك ، صار ذلك كالرشوة والبرطيل لهم ، فيقضون بعض أغراضهم ، كمن يعطي رجلاً مالاً ليقتل من يريد قتله .

وكثيراً ما يتصور الشيطان بصورة الساحر ، ويقف بعرفات ليظن من يحسن به الظن أنه وقف بعرفات ، وقد زين لهم الشيطان أن هذا كرامات من الصالحين ، وهو من تلبيس الشيطان ، ولأهل الضلال الذين لهم عبادة على غير الوجه الشرعي مكاشفات أحياناً وتأثيرات ، يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين ، التي نُهي عن الصلاة فيها كالحمام والمزبلة وأعطان الإبل ، وغير ذلك مما هو من مواضع النجاسات ، لأن الشياطين تنزل عليهم فيها ، وتخاطبهم ببعض الأمور كما يخاطبون الكفار ، وكما كانت تدخل في الأصنام ، وتكلم عابدي الأصنام .

﴿ **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ** ﴾ لأنهم يقصدون به العمل ، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً ﴿ **وَلا يَنْفَعُهُمْ** ﴾ صرح بذلك ، إيذاناً بأنه شرٌّ بحت ، وضرر محض ، لأنهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار ، بأكاذيب من يدعي النبوة مثلاً من السحرة ، أو تخليص الناس منه ، حتى يكون فيه نفع في الجملة .

﴿ **وَلَقَدْ عَلِمُوا** ﴾ أي هؤلاء اليهود في التوراة ﴿ **لَمَنِ اشْتَرَاهُ** ﴾ أي من اختار من السحر ، واستبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله ﴿ **مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ** ﴾ أي نصيب ﴿ **وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ** ﴾ أي باعوه لأن الشراء من الأضداد أي والله لبئس ما باعوا به أنفسهم السحر ، وعبر عن إيمانهم بأنفسهم ، لأن النفس خلقت للعلم والإيمان ﴿ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ جواب لو محذوف أي لما فعلوا ما فعلوا من تعلم السحر وعمله ، ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ** ﴾ أي اليهود ﴿ **آمَنُوا** ﴾ بالقرآن والنبي ﴿ **وَاتَّقَوْا** ﴾ السحر والشرك ﴿ **لَمَثُوبَةٌ** ﴾ من الثواب وسمي الجزاء ثواباً لأنه عوض عمل المحسن يرجع إليه ، وهو مبتدأ جواب ﴿ **مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ** ﴾ خبر المبتدأ وأصله لأثيبوا مثوبة من عند الله ، خيراً مما شروا به أنفسهم ، ﴿ **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ أن ثواب الله خير ، ومجرد العلم باللسان لا ينفع بدون أن

يصل التأثير إلى القلب ، ويظهر ذلك التأثير بالمسارعة إلى الأعمال الصالحة ، والاتباع للكتاب والسنّة ، فمن أمَّر السنّة على نفسه نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة ، قال بعض العلماء : زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل ، كلما ازداد رياً ازداد مرارة ، ومثل من تعلَّم العلم لاكتساب الدنيا ، وتحصيل الرفعة فيها ، كمثل من رفع العذرة بملعقة من الياقوت ، فما أشرف الوسيلة ، وما أخس المتوسَّل إليه !! فإن أردت أن تعرف قدرك عند الله ، فانظر فيماذا يقيمك ، وذلك لأن الأعمال علامات ، والأحوال كرامات ، والكرامات دليل ، والعلوم وسائل ، وقد جاء (من سره أن يعرف منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله في قلبه ، فإن الله يُنْزِل العبد عنده حيث أنزله العبد من نفسه) .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا** ﴾ لرسول الله ﷺ ، وهو إرشاد للمؤمنين إلى الخير ﴿ **رَاعِنَا** ﴾ المراعاة المبالغة في الرعي ، وهو حفظ الغير وتدبير أموره ، وتدارك مصالحه ، كان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم : راعنا يا رسول الله أي راقبنا وانتظرنا ، وتأنَّ بنا حتى نفهم كلامك ، وكانت لليهود كلمة عبرانية يتسابون بها فيما بينهم وهي « راعنا » فلما سمعوا بقول المؤمنين، خاطبوا به الرسول ، وهم يعنون بتلك المسبة ، فنهي المؤمنون عنها ، قطعاً لألسنة اليهود عن التلبيس ، وأُمروا بما هو في معناها ﴿ **وَقُولُوا انْظُرْنَا** ﴾ أي انتظرنا ، من نظره إذا انتظره ﴿ **وَاسْمَعُوا** ﴾ وأحسنوا سماع ما يكلمكم به رسول الله ﷺ ، ويلقي عليكم من المسائل ، بآذان واعية وأذهان حاضرة ، حتى لا تحتاجوا إلى الاستعادة وطلب المراعاة ﴿ **وَلِلْكَافِرِينَ** ﴾ أي ولليهود والذين تهاونوا برسول الله ﷺ وسبُّوه ﴿ **عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ وجيع لما اجترؤا عليه من المسبة العظيمة ، وفي هذه الآية دليلان : أحدهما على تجنب الألفاظ المحتملة ، التي فيها التعريض، وأما قولهم لا بأس بالمعاريض وهو أن يتكلم الرجل بكلمة يظهر من نفسه شيئاً ومراده شيء آخر ، فإنما أرادوا ذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب ، فأما إذا لم يكن حاجة ولا ضرورة ، فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »[1] ، وقدم اللسان في الذكر ، لأن التعرض به أسرع وقوعاً وأكثر ، وخص اليد بالذكر لأن معظم الأفعال يكون بها .

والثاني : التمسك بسد الذرائع وحمايتها ، والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع ، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهي سب بلغتهم ، فلما علم الله تعالى ذلك منهم ، منع من إطلاق ذلك اللفظ ، لأنه ذريعة للسب قال تعالى (**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ**) .

---

(١) رواه الترمذي والنسائي وإسناده قوي ، وزاد « والمهاجرُ من هَجَرَ ما نهاه اللهُ عنه » جامع الأصول ١ / ٢٤١ .

وقال ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به البأس » (١) وقال عليه السلام : « إن من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم يسبُّ أبا الرجل ، فيسبُّ أباه ، ويسبُّ أمه ، فيسب أمه » (٢) فجعل التعرض لسب الآباء والأمهات ، كسبِّ الآباء والأمهات .

﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ كان فريق من اليهود يظهرون للمؤمنين محبة ، ويزعمون أنهم يودون لهم الخير ، فنزل تكذيباً لهم ، والود : حبُّ الشيء مع تمنيه أي ما يحب الذين كفروا ﴿ **مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ** ﴾ « مِنْ » للتبيين والمعنى أن الكفار جميعاً لم يحبوا ﴿ **أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي على نبيكم ، لأن المنزل عليه منزل على أمته ﴿ **مِنْ خَيْرٍ** ﴾ والخيرُ الوحي والقرآن ﴿ **مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ المعنى أنهم يرون أنفسهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم ، ويكرهون أن ينزل عليكم شيء من الوحي ، ﴿ **وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ يقال خصه بالشيء واختصه به ، إذا أفرده به دون غيره ، ومفعول « مَنْ يَشَاءُ » محذوف ، والرَّحمةُ : النبوة والوحيُ والحكمة والنصرة والمعنى يفرد برحمته من يشاء إفراده بها ، ويجعلها مقصورة عليه ، بحسب إرادته عز وجل ، ﴿ **وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ** ﴾ أي على من يختاره بالنبوة والوحي ، لابتدائه بالإحسان بلا علة ، وفيه إشعار بأن إيتاء النبوة من الفضل ، وأن حرمان بعض عباده ليس لضيق فضله ، بل لمشيئته وما عرف فيه من حكمته ، فمن تعرض لرد ما منَّ الله به على عباده المؤمنين ، فقد جهل بحقيقة الأمر ، قال بعض الحكماء : بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه : أولها : أن أبغض كل نعمة ظهرت على غيره ، والثاني : أنه يتسخَّط قسمته تعالى ويقول لربه : لو قسمت هكذا !! والثالث : أن فضل الله يؤتيه من يشاء وهو يبخل بفضله ، والرابع : أنه خذل ولي الله لأنه يريد خذلانه وزوال النعمة عنه ، والخامس : أنه أعان عدوه يعني إبليس ، واعلم أن حسدك لا ينفذ على عدوك ، بل على نفسك ، كمن يرمي حجراً على عدوه فلا يصيبه ، بل يرجع إلى حدقته فيقلعها ، فيزيد غضبه فيعود ويرميه أشد من الأولى ، فيرجع على عينه فيعميها ، فيزداد غضبه ، وأعداؤه حواليه يفرحون ويضحكون ، وهذا هو حال الحسود وسخرية الشياطين .

حكي أنه كان رجل يأتي بعض الملوك فيقوم بحذائه ويقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن المسيء سيكفيه إساءته ، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام ، فسعى به إلى الملك ، وقال : إن هذا الرجل يزعم أن الملك أبخر ، فقال الملك : وكيف يصح ذلك عندي ، قال ندعو به إلى الملك ، فانظر فإنه إذا دنا

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في صفة القيامة وحسَّنه برقم ٢٤٥٣ جامع الأصول ٤ / ٦٨٢ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، والترمذي في البر ، وأحمد في المسند ٣ / ١٦٤ وانظر جامع الأصول ١٠ / ٦٢٨ .

منك ، وضع يده على أنفه أن لا يشم ريح البخر ، فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله ، فأطعمه طعاماً فيه ثوم ، فخرج الرجل من عنده ، فقام بحذاء الملك ، فقال له الملك : أدن مني فدنا منه واضعاً يده على فيه ، مخافة أن يشم الملك منه ريح الثوم ، فصدَّق الملك في نفسه قول الساعي ، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا لجائزة ، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل له : إذا أتاك الرجل فاذبحه واسلخه ، واحش جلده تبناً وابعث به إليَّ ، فأخذ الكتاب وخرج فلقيه الرجل ، الذي سعى به فاستوهب منه ذلك الكتاب ، فأخذه منه بأنواع التضرع والامتنان ، ومضى إلى العامل فقال له العامل : إن في كتابك أن أذبحك وأسلخك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي ، الله الله في أمري ، حتى أراجع الملك ، قال : ليس لكتاب الملك مراجعة ، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً وبعث به ، ثم عاد الرجل كعادته فتعجب منه الملك ، فقال : ما فعلت بالكتاب ؟ قال : لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته ، قال الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر ، فقال : كلا ، قال فلم وضعت يدك على أنفك ؟ قال : كان أطعمني طعاماً فيه ثوم ، فكرهت أن تشمه ، قال ارجع إلى مكانك ، فقد كفى المسيء إساءته ، اللهم احفظنا من مساوىء الأخلاق .

﴿ **مَا** ﴾ شرطية جازمة لننسخ منصوبة به على المفعولية أي : أيَّ شيء ﴿ **نَنْسَخْ** ﴾ ومحل قوله ﴿ **مِنْ آيَةٍ** ﴾ نصب تمييز لما ، والنسخ في اللغة : الإزالةُ والنقل ، يقال : نسختِ الريحُ الأثرَ أي : أزالته ، ونسختُ الكتاب أي نقلته من نسخة إلى نسخة ، ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها ، أو بالحكم المستفاد منها ، أو بها جميعاً .

قال القرطبي : الجمهور على أن النسخ إنما هو مختص بالأوامر والنواهي ، والخبرُ لا يدخله النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى ﴿ **أَوْ نُنْسِهَا** ﴾ إنساء الآية إذهابها من القلوب ، روي أن المشركين أو اليهود قالوا : ألا ترون إلى محمد ، يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ، ويأمرهم بخلافه ، ما يقول إلا من تلقاء نفسه ، يقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً !؟ يريدون بذلك الطعن في الإسلام ، ليضعفوا عزيمة من أراد الدخول فيه ، فبيَّن الله الحكمة من النسخ بهذه الآية ، والمعنى أن كل آية نذهب بها على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، من إزالة لفظها ، أو حكمها ، أو كليهما ﴿ **نَأْتِ بِخَيْرٍ** ﴾ أي بآية هي خير ﴿ **مِنْهَا** ﴾ للعباد بحسب الحال في النفع والثواب ، وليس المقصود أن آيةً خيرٌ من آية ، لأن كلام الله واحد ، وكله خير ، فلا يتفاضل بعض الآيات على بعض في أنفسها ، من حيثُ إنه كلام الله ووحيه ، وكتابه ، بل التفاضل فيها إنما هو بحسب ما يحصل منها للعباد ﴿ **أَوْ مِثْلِهَا** ﴾ في المنفعة والثواب ، فكل ما نسخ إلى الأيسر فهو أسهل في العمل ، وما نسخ إلى الأشق فهو في الثواب أكثر ، أما الأول فكنسخ الاعتداد بحول [1]

(١) نُسِخَ الاعتداد بالحول في قوله تعالى ﴿ **مَتَاعاً إلى الحَوْلِ** ﴾ إلى أربعة أشهر وعشرة أيام في قوله تعالى : ﴿ **والَّذِينَ يُتوفونَ مِنكُم ويَذَرُونَ أَزْواجا يتَربَّصْن بِأَنْفُسهِنَّ أَربعةَ أَشْهُرٍ وعَشْراً** ﴾ .

ونقله إلى الاعتداد بأربعة أشهر وعشراً ، وأما الثاني فكنسخ ترك القتال بإيجابه ، وقد يكون النسخ بمثل الأول لا أخف ولا أشق ، كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة ، والحكمة في النسخ ، أن الطبيب المباشر لإصلاح البدن ، يُغيِّر الأغذية والأدوية بحسب اختلاف الأمزجة والأزمنة ، كذلك الأنبياء المباشرون لإصلاح النفوس ، يغيِّرون الأعمال الشرعية ، والأحكام الخلقية ، التي هي للنفوس بمنزلة العقاقير والأغذية للأبدان ، فإن أغذية النفوس وأدويتها هي الأعمال الشرعية والأخلاق المرضية ، فيغيرها الشارع على حسب تغير مصالحها ، فكما أن الشيء يكون دواء للبدن في وقت ، ثم قد يكون داء في وقت آخر ، كذلك الأعمال قد تكون مصلحة في وقت ، ومفسدة في وقت .

﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ** ﴾ الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ، ومعنى الاستفهام التقريرُ أي إنك تعلم ﴿ **أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ فيقدر على النسخ ، والإتيان بمثل المنسوخ ، وبما هو خير ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ** ﴾ خصَّه عليه الصلاة والسلام بالخطاب ، مع أن غيره داخل في الخطاب أيضاً حقيقةً ، بناء على أن المقصود تقرير علم المخاطب ، ولا أحد من البشر أعلم بذلك منه عليه الصلاة والسلام ، إذ قد وقف من أسرار ملكوت السموات والأرض ، على ما لم يطلع عليه غيره ، ﴿ **أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وتخصيص السموات والأرض بالذكر ، لكونها أعظم المصنوعاتِ وأعجبها شأناً ، ﴿ **وَمَا لَكُمْ** ﴾ أيها المؤمنون ﴿ **مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي سوى الله ﴿ **مِنْ** ﴾ زائدة للاستغراق ﴿ **وَلِيٍّ** ﴾ قريب وصديق ، وقيل : والٍ وهو القيم بالأمور ﴿ **وَلا نَصِيرٍ** ﴾ أي معين ومانع ، والفرق بين الولي والنصير ، أن الوليَّ قد يضعف عن النصرة ، والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور ، والمقصود التسكين لقلوب المؤمنين ، بأن الله وليهم وناصرهم دون غيره ، فلا يجوز الاعتماد إلا عليه ، ولا يصح الالتجاء إلا إليه ، والمعنى أن قضية العلم بما ذكر من الأمور الثلاثة وهو العلم (**بِأَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير**) والعلم (**بِأَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**) والعلم (**بِأَنْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**) هو الجزم والإيقان ، بأنه تعالى لا يفعل بهم إلا ما هو خير لهم ، من غير إصغاء إلى أقاويل الكفرة وتشكيكاتهم ، التي من جملتها ما قالوا في أمر النسخ ﴿ **أَمْ تُرِيدُونَ** ﴾ أي ألم تعلموا أنه مالك الأمور ، يأمر وينهى كما أراد ، أم تعلمون وتقترحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى عليه السلام ، والمراد توصية المسلمين بالثقة به ، وترك الاقتراح عليه ، وهو المفاجأة بالسؤال من غير رويَّة وفكر ﴿ **أَنْ تَسْئَلُوا** ﴾ وأنتم مؤمنون ﴿ **رَسُولَكُمْ** ﴾ وهو في تلك الرتبة من علو الشأن وتقترحوا عليه ما تشتهون غير واثقين بأموركم بفضل الله تعالى حسبما يوجبه قضية علمكم بشؤونه تعالى ، قيل : لعلهم كانوا يطلبون منه عليه الصلاة والسلام بيان تفاصيل الحِكَم الداعية إلى النسخ ﴿ **كَمَا سُئِلَ مُوسَى** ﴾ مصدر تشبيهي أي سؤالاً مشبهاً بسؤال موسى عليه السلام ، حيث قيل له : « اجعل لنا إلهاً ، وأرنا الله

جهرة » وغير ذلك ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي من قبل محمد ﷺ ﴿ **وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ** ﴾ أي يختره ويأخذه لنفسه ﴿ **بِالإِيمَانِ** ﴾ بمقابلته بدلاً منه ، واقترح غيرها ﴿ **فَقَدْ ضَلَّ** ﴾ أي عدل وجار من حيث لا يدري ﴿ **سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾ عن الطريق المستقيم ، الموصل إلى معالم الحق والهدى ، وسواءُ السبيل : وسط الطريق السوي ، الذي هو بين الغلوّ والتقصير وهو الحق .

﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ** ﴾ هم رهط من أحبار اليهود والمعنى أحبَّ كثير من اليهود ﴿ **لَوْ يَرُدّونَكُمْ** ﴾ أي أن يردوكم فإن لو من الحروف المصدرية إذا جاءت بعد فعل يفهم منه معنى التمني نحو قوله تعالى (**وَدُّوْا لَوْ تُدْهِنُ**) أي أن يصرفوكم عن التوحيد ﴿ **مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ** ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿ **كُفَّاراً** ﴾ أي مرتدّين حال من ضمير المخاطبين في يردونكم ﴿ **حَسَداً** ﴾ علة لقوله ودَّ ، كأنه قيل : ودَّ كثير ذلك ، من أجل الحسد ﴿ **مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ** ﴾ أي حسداً منبعثاً من أصل نفوسهم ، بالغاً أقصى مراتبه ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ** ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم أن محمداً رسول الله ، ودينه حق ، بالمعجزات والنعوت المذكورة في التوراة ﴿ **فَاعْفُوا** ﴾ العفو ترك عقوبة المذنب ، يقال : عفت الريح المنزل درسته ، ومن ترك الذنب فكأنه درس ذنبه ﴿ **وَاصْفَحُوا** ﴾ الصفحُ : ترك التقريع باللسان والاستقصاء في اللوم ، يقال صفحت عن فلان ، إذا أعرضت عن ذنبه بالكلية ، وليس المراد بالعفو والصفح المأمور بهما ، الرضى بما فعلوا ، لأن ذلك كفر ، والله تعالى لا يأمر به ، بل المراد بهما ترك المقاتلة ، والإعراض عن الجواب عن مساوىء كلامهم ﴿ **حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ** ﴾ أي يحكم الله بحكمه الذي هو الإذن في قتالهم ، وضرب الجزية عليهم ، روي أن الصحابة رضي الله عنهم استأذنوا رسول الله ﷺ في أن يقتلوا هؤلاء اليهود الذين كفروا بأنفسهم ، ودعوا المسلمين إلى الكفر ، فنزلت الآية ﴿ **إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ فيقدر على الانتقام منهم ، وينتقم إذا جاء أوانه ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ عطف على (**فَاعْفُوا**) كأنه أمرهم بالصبر والمخالفة واللجوء إلى الله تعالى بالعبادة والبر ، فالمراد الأمر بملازمة طاعة الله تعالى ، من الفرائض والواجبات والتطوعات بقرينة قوله ﴿ **وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيرٍ** ﴾ فإن الخير يتناول أعمال البر كلها ، إلا أنه تعالى خصَّ من بينها إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة بالذكر ، تنبيهاً على عظم شأنها ، وعلو قدرهما عند الله تعالى ، فإن الصلاة قربة بدنية ، ليكون عمل كل عضو شكراً لما أنعم الله عليه في ذلك ، والزكاة قربة مالية ، ليكون شكراً للأغنياء ، الذين فضلهم الله في الدنيا بالاستمتاع بلذيذ العيش ، بسبب سعتهم في صنوف الأعمال ، (**وَمَا تُقَدِّمُوا**) شرطية أي أيَّ شيء من الخيرات صلاة أو صدقة أو غيرهما ، تقدموه وتسلفوه لمصلحة أنفسكم ﴿ **تَجِدُوهُ** ﴾ أي ثوابه وجزاءه ﴿ **عِنْدَ اللهِ** ﴾ أي محفوظاً عنده في الآخرة ، فتجدوا الثمرة واللقمة فيها مثل أحد ،

ولفظ التقديم إشارة إلى أن في جميع ما أنعم الله تعالى به على المكلفين في الدنيا أن يقدموه إلى معادهم ويدخروه ليومهم الآجل ، كما جاء في الأثر : (إن العبد إذا مات قال الناس ما خلَّف ، وقالت الملائكة ما قدم) ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي عالم لا يخفى عليه القليل ولا الكثير من الأعمال ، والعمل غير مقيد بالخير أو الشر ، فهو علمٌ شامل للترغيب والترهيب ، فالترغيب من حيث إنه يدلُّ على أنه تعالى يجازي على القليل من الخير ، كما يجازي على الكثير ، والترهيب من حيث إنه يجازي على القليل والكثير من الشر أيضاً ، فلا يضيع عنده عمل عامل .

قدِّمْ لنفسك قبل موتك صالحاً * واعمل فليس إلى الخلود سبيل

واعلم أن الإنسان إذا مات انقطع عمله ، إلا أن يبقى بعده واحد من الأولاد الثلاثة ، التي ينقطع أجرها . الأول : ما يتولد من مال الإنسان كبناء المساجد ، والجسور ، والرباط والأوقاف ، وغير ذلك من الخيرات .

والى هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله : « صدقة جارية » في حديث : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث »[١] والثاني : ما يتولد من العقل الراجح ، كالعلم المنتفع به ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : « أو علم ينتفع به » واللفظ عام متناول ما خلَّفه من تصنيف ، أو تعليم في العلوم الشرعية ، وما يحتاج إليه في تعلمها، قيَّد العلم بالمنتفع به ، لأن ما لا ينتفع به ، لا يثمر أجراً ، كما أن كتم ما ينتفع به لا يثمر أجراً ، بل إثماً وعذاباً ، والثالث : ما يتولد من النفس كالبنين والبنات ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : « أو ولد صالح يدعو له » قيّدها بالصالح لأن الأجر لا يحصل من غيره ، وأما الوزر فلا يلحق بالأب من سيئة ولده ، إذا كانت نيته في تحصيله الخير ، وإنما ذكر الدعاء له تحريضاً للولد على أن يدعو لأبيه ، لا لأنه قيد ، لأن الأجر يحصل للوالد من ولده الصالح ، كلما عمل عملاً صالحاً ، سواء دعا لأبيه أم لا ، كمن غرس شجرة ، يحصل له من أكل ثمراتها ثواب ، سواء دعا له من أكلها أم لم يدع ، وكذلك الأم ، فإن قلت ؛ ما التوفيق بين هذا الحديث وبين قوله عليه الصلاة والسلام : « من سنَّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة »[٢] وقوله عليه الصلاة والسلام : « من مات يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة[٣] ، قلنا السنّة المسنونة من جملة العلم المنتفع به ، ومعنى حديث المرابط أن ثواب عمله الذي قدمه في حياته

(١) الحديث أخرجه مسلم في الوصية وأبو داود ، والنسائي . جامع الأصول ١١ / ١٨٠ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم والنسائي ، وله قصة في الأعراب الفقراء من مضر ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٤٥٧ .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي والدارمي في كتاب « الجهاد » ، وأخرجه أحمد في المسند ٤ / ١٥٠ .

ينمو له إلى يوم القيامة ، أما الثلاثة المذكورة في الحديث فإنها أعمال تحدث بعد وفاته ، لا تنقطع عنه ، لأنه سبب لها فيلحقه منها ثواب ، ﴿ وَقَالُوا ﴾ نزلت في وفد نجران وكانوا نصارى ، اجتمعوا في مجلس رسول الله عليه الصلاة والسلام مع اليهود ، فكذَّب بعضهم بعضاً أي قال أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ الهود جمع هائد أي تائب ومنه (إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) ، والنصارى جمع نصران كسكران ﴿ تِلْكَ ﴾ أي ما قالوا بأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى ﴿ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ أي شهواتهم الفاسدة ، التي تمنوها على الله جمع أمنية ، والتمني التشهي ، والعرب تسمى الكلام العاري عن الحجة تمنياً وغروراً مجازاً ، ﴿ قُلْ هَاتُوا ﴾ أمر تعجبي أي أَحْضِروا ﴿ بُرْهَانَكُمْ ﴾ حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة ﴿ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعواكم ، فإن كل قول لا دليل عليه غير ثابت ﴿ بَلَىٰ ﴾ كأنهم قالوا لا يدخل الجنة غيرنا فأجيبوا بقوله بلى يدخل الجنة غيركم ، وليس الأمر كما تزعمون ﴿ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله ﴾ أي أخلص نفسه لله تعالى لا يشرك به شيئاً ، عبر عنها بالوجه لكونه أشرف الأعضاء ، فهو مجاز من باب « ذكر الجزء وإرادة الكل » ومنه قولهم : كرَّم الله وجهك ، ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي وهو مع إخلاصه وتسليم النفس إلى الله بالكلية ، بالخضوع والانقياد ، محسن في جميع أعماله ، وحقيقة الإحسان : الإتيانُ بالعمل على الوجه اللائق ، وقد فسره ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ ﴾ ثوابه الذي وُعد له على عمله ، وهو دخول الجنة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ أي عند مالكه ومدبر أموره ، لا يضيع ولا ينقص ﴿ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ في الآخرة عند دخول الجنة ، كما قال تعالى خبراً عن أهل الجنة (وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ) وأما في الدنيا فإنهم يخافون من أن يصيبوا الشدائد والأهوال ، ويحزنون على ما فاتهم من الأعمال الصالحة ، فإن المؤمن كما لا يقنط من رحمة الله ، لا يأمن من غضبه وعقابه ، كما قيل : لا يجتمع خوفان ولا أمنان ، فمن خاف في الدنيا أمن في الآخرة ، ومن أمن في الدنيا خاف في الآخرة .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ بيان لتضليل كل فريق من اليهود والنصارى صاحبه ﴿ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أي على أمر يصح ويُعتدُّ به ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ ﴾ أي : قالوا ما قالوا والحال أن كل فريق منهم ﴿ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ أي أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب ، وحقٌّ من تلا كتاباً من كتب الله تعالى أن لا يكفر بالباقي ، لأن كل واحد من كتب الله

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه .

يُصدّق ما عداه ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك القول ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ من عبدة الأصنام ونحوهم من الجهلة أي قالوا لأهل كل دين ليسوا على شيء ﴿ مِثْلَ قَوْلِهِم ﴾ وفيه توبيخٌ عظيم ، حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لا يعلم أصلاً ﴿ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الفريقين ﴿ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ ﴾ متعلق بيختلفون ، قُدّم للمحافظة على رؤس الآي ﴿ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمر الدين ، وليس ذلك في الفرق الضالة خاصة ، بل ذلك يجري بين صوفي وصوفي ، وشيخ وشيخ ، وعالم وعالم فتخطئة كل فريق صاحبه مستمرة، والأولى أن يتبع الهدى .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ سبب النزول أن ططيوس الرومي ، ملك النصارى وأصحابه ، غزوا بني إسرائيل ، فقتلوا مقاتليهم ، وأحرقوا التوراة ، وخربوا بيت المقدس ، وقذفوا فيه الجيف ، وذبحوا فيه الخنازير ، ولم يزل خراباً حتى بناه أهل الإسلام في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم صار في أيدي النصارى من الإفرنج أكثر من مائة سنة ، حتى فتحه واستخلصه الملك الناصر « صلاح الدين » من آل أيوب سنة خمسمائة وخمس وثمانين بعد الهجرة ، و« مَنْ » في الأصل كلمة استفهام ، وهي ههنا بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ والمراد بيت المقدس ، وصيغة الجمع لكون حكم الآية عاماً لكل من فعل ذلك ، في أيّ مسجد كان، لأنه لا عبرة لخصوص السبب ﴿ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أي من أن يُسبح ويُقدّس ويُصلّى فيها ﴿ وَسَعَى ﴾ أي عمل ﴿ فِي خَرَابِهَا ﴾ بالهدم ، والخرابُ اسم للتخريب ، كالسلام اسم للتسليم ، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المانعون ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إلا خَائِفِينَ ﴾ أي ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع ، فضلاً عن الاجتراء على تخريبها ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾ أي خزي فظيع لا يوصف ، كالقتل والسبي ، والإذلال بضرب الجزية ، ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو عذاب النار الذي لا ينقطع ، وقيل : نزلت الآية في مشركي العرب ، الذين منعوا رسول الله ﷺ عن الدعاء إلى الله تعالى بمكة ، وألجأوه إلى الهجرة ، وأيضاً إنهم صدُّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن المسجد الحرام ، حين ذهب إليه من المدينة عام الحديبية ، وهي السنة السادسة من الهجرة ، فالمراد بالخراب في قوله ﴿ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا ﴾ تعطيلهم المسجد الحرام عن الذكر والعبادة ، دون تخريبه وهدمه حقيقة ، لأن المقصود صار كأنه هدم وخرب ، فإن عمارة المسجد كما تكون ببنائه وإصلاحه ، تكون أيضاً بحضوره ولزومه ، يقال : فلان يعمر المسجد إذا كان يحضره ويلزمه ، وفي الحديث : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » لأن الله تعالى يقول : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ) [1] فجعل حضور المساجد عمارة لها .

---

(١) أخرجه الترمذي والدارمي وابن ماجه وانظر جامع الأصول ١ / ٢٤٢ .

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ يريد بها ناحيتي الأرض أي له الأرض كلها ، لا يختص به مكان منها دون مكان ، فإن مُنعتم أن تصلُّوا في المسجد الحرام أو الأقصى ، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ﴾ أي ففي أي مكان فعلتم تولية وجوهكم القبلة ، قال الإمام : ولَّى إذا أقبل ، وولّى إذا أدبر ، وهو من الأضداد ، والمراد ههنا الإقبال ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ أي هناك جهته التي أمر بها ورضيها قبلة ، فإن إمكان التولية غير مختص بمسجد دون مسجد ، أو مكان دون آخر ، ، واعلم أن « أين » شرط في الأمكنة و« ما » مزيدة للتأكيد ، وثَمَّ ظرف مكان بمنزلة هناك ، تقول لما قرب من المكان هنا ، ولما بعد ثَمَّ وهناك ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ ﴾ بإحاطته بالأشياء ملكاً وخلقاً وكذا إن فسرت السعة بسعة الرحمة ، فإن قوله (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) اشتمل على معنى قولنا لا تختص العبادة والصلاة ببعض المساجد ، بل الأرض كلها مسجد لكم ، فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها ، والمقصود التوسعة على عباده ، والتيسير عليهم في كل ما يحتاجون إليه ، فيدخل فيه التوسعة في أمر القبلة دخولاً أولوياً ، قال الغزالي في شرح الأسماء الحسنى : الواسع مشتقٌّ من السعة ، والسعة تضاف مرة إلى العلم ، إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة ، وتضاف أخرى إلى الإحسان وبسط النعم ، وكيفما ما قدّر وعلى أي شيء نزل فالواسع المطلق هو الله تعالى ، لأنه إن نظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته ، بل تنفدُ البحار لو كانت مداداً لكلماته ، وإن نظر إلى إحسانه ونعمه فلا نهاية لمقدوراته ، وكل سعة وإن عظمت فتنتهي إلى طرف ، والذي لا يتناهى إلى طرف فهو أحق باسم السعة ، والله تعالى هو الواسع المطلق ، لأن كل واسع بالإضافة إلى ما هو أوسع منه ضيِّق ، وكل سعة تنتهي إلى طرف فالزيادة عليها مقصورة ، وما لا نهاية له ولا طرف فلا يتصور عليه زيادة .

﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمصالحهم وأعمالهم كلها ، وهذا لا يخلو عن إفادة التهديد ، كما أنه يتضمن الوعد ، بتوفية ثواب المصلين في جميع الأماكن ، فقد ظهر أن هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ) الآية وأن المعنى أن بلاد الله أيها المؤمنون تسعكم ، فلا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله ، أن تولوا وجوهكم نحو قبلة الله أينما كنتم من أرضه ، وقال مجاهد والحسن لما نزل (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) قالوا أين ندعوه فأنزل الله ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ أي : هناك قبلته التي رضيتها لكم ، ومغفرته ورحمته .

﴿ وَقَالُوا ﴾ نزلت لما قالت اليهود عُزيرٌ بنُ الله ، والنصارى المسيح ابن الله ، ومشركو العرب الملائكة بنات الله ، فضمير « قالوا » راجع إلى الفرق الثلاث المذكورة سابقاً ، ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ أي صيَّر بعض مخلوقاته ولداً ، وادَّعى أنه ولده ، حقيقة ، وكما يستحيل عليه تعالى أن يلد حقيقة ، كذا

يستحيل عليه التبني واتخاذ الولد ، فنزه الله تعالى نفسه عما قالوا في حقه فقال : ﴿ **سُبْحَانَهُ** ﴾ تنزيهاً له مصدر بمعنى التسبيح وهو التنزيه ،أي منزه عن السبب المقتضي للولد ، وهو الاحتياج إلى من يعينه في حياته ، ويقوم مقامه بعد مماته ، وعما يقتضيه الولد وهو التشبيه ، فإن الولد لا يكون إلا من جنس والده ، فكيف يكون للحق سبحانه ولد ، وهو لا يشبهه شيء ؟ ثم نبَّه إلى أنه المالك لكل شيء فقال : ﴿ **بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ رد لما قالوه واستدلال على فساده ، والمعنى إنه خالق ما في السموات والأرض جميعاً ، الذي يدخل فيه الملائكة ، وعزير والمسيح دخولاً أولياً ، فكأن المستفاد من الدليل ، امتناع أن يكون شيءٌ ما في السموات والأرض ولداً ، سواء كان ذلك ما زعموا أنه ولد له أم لا ﴿ **كُلٌّ** ﴾ أي كل ما فيهما كائناً ما كان ﴿ **لَهُ** ﴾ أي لله سبحانه وتعالى ﴿ **قَانِتُونَ** ﴾ منقادون لا يمتنع شيء منهم على مشيئته وتكوينه ، وكل ما كان بهذه الصفة فلا يكون له ولد ، لأنه من حق الولد أن يجانس والده ، ﴿ **بَدِيعُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ** ﴾ أي هو مبدعها ، وهو الذي يبدع الأشياء أي يحدثها ، أو ينشئها على غير مثالٍ سبق ، والإبداعُ : اختراع الشيء من غير مادة ومدَّة ، وهو حجة أخرى لإبطال مقالتهم الشنعاء ، تقريرها أن الوالد عنصر الولد ، المنفعل بإنفصال مادته عنه ، والله تعالى مبدع الأشياء كلها على الإطلاق ، منزَّه عن الانفعال فلا يكون والداً ، ومن قدر على خلق السموات والأرض من غير شيء ، كيف لا يقدر على خلق عيسى من غير أب ؟ ﴿ **وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً** ﴾ أي أراد شيئاً ، وأصل القضاء الإحكام ، أطلق على الإرادة الإلهية المتعلقة بوجود الشيء لإيجابها إياه البتة ﴿ **فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ أي يحصل في الوجود سريعاً ، من غير توقف ولا إباء أي احدثْ فيحدث ، واعلم أن أهل السنّة لا يرون تعلق وجود الأشياء بهذا الأمر ، وهو « كُنْ » بل وجودها متعلق بخلقه وإيجاده وتكوينه ، وهو صفة أزلية ، وهذا الكلام عبارة عن سرعة حصول المخلوق ، بإيجاده وكمال قدرته على ذلك ، ثم اعلم أن السبب في هذه الضلالة ، وهي نسبة الولد إلى الله أن أرباب الشرائع المتقدمة ، كانوا يطلقون على الباري تعالى اسم الأب ، حتى قالوا إن الأب هو الرب الأصغر ، وإن الله تعالى هو الأب الأكبر ، وكانوا يريدون بذلك أنه تعالى هو السبب الأول في وجود الإنسان ، وأن الأب هو السبب الأخير في وجوده ، ثم ظنت الجهلة منهم أن المراد به معنى الولادة الطبيعية ، فاعتقدوا ذلك تقليداً ولذلك كفروا ، فالله سبحانه منزه عن الحدود والجهات[1] ، ومتعال عن الأزواج والبنين والبنات ، ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السموات ، وفي الحديث القدسي : « كذبني ابن آدم ـ أي نَسَبني إلى الكذب ـ ولم يكن له ذلك ـ أي لم يكن التكذيب لائقاً به بل كان خطأ ـ وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد ، فسبحاني أن أتخذ صاحبةً أو ولداً »[2] .

(١) لله جلَّ وعلا العلوُّ المطلق « وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ » .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ، والنسائي في الجنائز ، وأحمد في المسند ٢ / ٣٥١ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي مشركو العرب الجاهلون حقيقة ، أو أهل الكتاب المتجاهلون ﴿ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ ﴾ لولا هنا للتحضيض ، وحروف التحضيض إذا دخلت على المضي كان معناها التوبيخ واللوم على ترك الفعل ، بمعنى لِمَ لم يفعله ، ومعناها في المضارع تحضيض الفاعل على الفعل ، بمعنى الأمر ، والمعنى : هلا يكلمنا الله عياناً بأنك رسوله ، كما يكلم الملائكة بلا واسطة ؟ أو يرسل إلينا مَلَكاً ويكلمنا بواسطة ذلك الملك أنك رسوله ، كما كلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على هذا الوجه ؟ وهذا القول من الجهلة استكبار ، يعنون به : نحن عظماء كالملائكة والنبيين ، فلم اختصوا به دوننا ؟ ﴿ أَوْ ﴾ للتخيير ﴿ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ حجة تدل على صدقك ؟ والعجب أنهم عظموا أنفسهم وهي أحقر الأشياء واستهانوا بآيات الله وهي أعظمها ﴿ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم الماضية ﴿ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ فقال اليهود لموسى عليه السلام : « أرنا الله جهرة » وقال النصارى لعيسى عليه السلام : (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) ؟ والاقتراح على سبيل التعنت والعناد ، لا على سبيل الإرشاد ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي تماثلت قلوب هؤلاء ومن قبلهم ، في العمى والقسوة والعناد ، والقلب إن استحكم فيه الكفر والقسوة ، لا يجري على اللسان إلا التباعد عن الإيمان .

﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ ﴾ أي نزلناها بيِّنة بأن جعلناها كذلك في أنفسها ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي يطلبون اليقين ، واليقينُ أبلغ العلم وأوكده ، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ حال كونك ملتبساً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ مؤيداً به ، والمراد الحجج والآيات ﴿ بَشِيراً ﴾ مبشراً لمن اتبعك ﴿ وَنَذِيراً ﴾ أي منذراً ومخوفاً لمن كفر بك وعصاك ، والمعنى إن شأنك بعد إظهار صدقك بالدلائل والمعجزات ، ليس إلا الدعوة بالتبشير والإنذار ، لا أن تجبرهم على القبول والإيمان ﴿ وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلَّغت الرسالة والجحيمُ : المكانُ الشديد الحر .

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارىٰ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ إقناط له عليه الصلاة والسلام من طمعه في إسلامهم ، حيث علَّق رضاهم عنه بما يستحيل وجوده ، وإذا لم يرضوا عنه فكيف يتبعون ملته ؟ أي لن ترضى عنك اليهود ، إلا بالتهوُّدِ والصلاة إلى قبلتهم ، ولا النصارى إلا بالتنصُّرِ والصلاة إلى قبلتهم ، ووحد الملَّة لأن الكفر ملة واحدة ، وهذه حكاية لمقالتهم بأن ملتهم هي الهدى لا ما سواها فأمره الله تعالى بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ ﴾ الذي هو الإسلام ﴿ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ إلى الحق ، لا ما تدعون إليه من الملة الزائغة ، فإنها هوى ، ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي آراءهم الزائغة والأهواء : جمع هوى ، وهو رأي عن شهوة ، داع إلى الضلال ، وسمي بذلك لأنه يهوى بصاحبه إلى الهاوية ، وإنما قال ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ بلفظ الجمع ، ولم يقلْ هواهم ، تنبيهاً على أن لكل واحد هوى ، غير هوى الآخر

فلذلك أخبر أنه لا يرضى الكل ، إلا باتباع أهواء الكل ، واعلم أن الطريقة المشروعة تسمى « ملة » باعتبار أن الأنبياء قد أملوها وكتبوها لأمتهم كما أنها تسمى « ديناً » باعتبار طاعة العباد وانقيادهم لحكمه ، وتسمى أيضاً « شريعة » باعتبار كونها مورداً للمتعطشين إلى زلال ثوابه ورحمته ، والخطابُ في قوله ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ متوجهٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام في الحقيقة .

﴿ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾ أي القرآن الموحَىٰ إليك ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ ﴾ أي من جهته العزيزة ، وهو جواب لئن ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أي قريب ينفعك ﴿ وَلا نَصِيرٍ ﴾ يدفع عنك عقابه ، والفرقُ بين الوليِّ والنصير ، العمومُ والخصوص من وجه ، لأن الوليَّ قد يضعف عن النصرة ، والنصيرُ قد يكون أجنبياً عن المنصور ، ولما ذكر قبائح المتعنتين ، الطالبين للرئاسة من اليهود والنصارى ، أتبعَ ذلك بمدح من ترك طريق التعنت ، وحُب الرئاسة منهم ، وطلبَ مرضاة الله وحسن ثواب الآخرة ، وآثره على الحظوظ العاجلة الفانية ، فقال تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ ﴾ يريد مؤمني أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، من الذين أسلموا من اليهود ، والكتاب : التوراة ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ بمراعاة لفظه عن التحريف ، وبالتدبر في معانيه ، والعمل بما فيه وقوله ﴿ حَقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ أي يتلونه تلاوة حق تلاوته ، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بإيتاء الكتاب ، وتلاوته كما هو حقه ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي بكتابهم ، دون المحرّفين ، ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أي بالكتاب ، سواء كان كفره بنفس التحريف ، أو بغيره ، كالكفر بالكتاب الذي يصدقه ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ أي الهالكون المغبونون ، حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ ومن جملتها التوراة ، وذكر النعمة إنما يكون بشكرها ، وشكرها الإيمان بجميع ما فيها ، ومن ضرورة الإيمان بها الإيمان به ﷺ ﴿ وَ ﴾ اذكروا ﴿ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ أي عالمي زمانكم ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿ يَوْماً ﴾ أي عذاب يوم وهو يوم القيامة ﴿ لا تَجْزِي ﴾ أي لا تقضي في ذلك اليوم ﴿ نَفْسٌ ﴾ من النفوس ﴿ عَنْ نَفْسٍ ﴾ أخرى ﴿ شَيْئاً ﴾ من الحقوق التي لزمتها أي لا تؤخذ نفس بذنب أخرى ، ولا تدفع عنها شيئاً ، وأما إذا كان عليها شيء ، فإنها تقضي من حسناتها ما عليها من الحقوق ، كما جاء في الحديث : « من كانت له مظلمة لأخيه ، من عرض أو غيره ، فليستحلل منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات ، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ثم طُرح في النار »[1] ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا ﴾ أي من النفس الأولى ﴿ عَدْلٌ ﴾ أي فداء وهو بفتح العين : الفديةُ ، والعِدْل بالكسر ما يساوي الشيء والمعنى : لا يؤخذ منها فدية ينجو بها من النار ، ولا تجد ذلك لتفتدي به ، وسميت الفدية عَدْلاً لأنها تعادل ما

(١) الحديث أخرجه البخاري في المظالم وفي الرقائق ، والترمذي في القيامة بنحوه ، وأحمد في المسند ٢ / ٥٠٦ .

يقصد انقاذه وتخليصه ، يقال : فداه إذا أعطى فداءه فأنقذ ﴿ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ إن شفعت للنفس الثانية ﴿ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ أي يمنعون من عذاب الله تعالى .

ودلَّ قوله تعالى ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ على قبح الصحبة لأهل الهوى والبدع ، والاتباع لهم في أقوالهم وأفعالهم ، وفي الحديث : « من حضر معصية فكرهها ، فكأنما غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن حضرها[١] » ومن سنّة السلف الصالحين ، الانقطاع عن مجالس أهل اللغو واللهو ، والمجانبة عن اتباع أهل الهوى والبدع ، وروي أن ابن المبارك رؤي في المنام فقيل له : ما فعل ربك بك ؟ فقال : عاتبني وأوقفني ثلاثين سنة ، بسبب أني نظرت باللطف يوماً إلى مبتدع ، قال : إنك لم تعادِ عدوي في الدين ، فكيف حال القاعد بعد الذكر مع القوم الظالمين ؟ وللصحبة تأثير عظيم كما قيل :

عَدْوَى البليدِ إلى الجليد سريعةٌ * والجمرُ يُوضع في الرَّمادِ فيَخْمدُ

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال القرطبي: إبراهيم تفسيره أب رحيم لمرحمته بالأطفال ، ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغاراً إلى يوم القيامة ، ﴿ رَبُّهُ ﴾ أي واذكر وقت اختباري إبراهيم ، والابتلاء : الاختبار ، بتعريضه لأمر يشق عليه غالباً فعله أو تركه ، ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ جمع كلمة وهي اللفظ الموضوع لمعنى مفرد ، لكنها قد تطلق على المعاني التي تحتها ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي قام بهن حق القيام ، وأدَّاهن أحسن التأدية من غير تفريط وتوان ، قال ابن عباس : هي عشر خصال كانت فرضاً في شرعه ، وهي سنّة في شرعنا ، خمس منها في الرأس وهي المضمضة ، والاستنشاق ، وفرق الرأس ، وقص الشارب ، والسواك ، وخمس في البدن وهي : الختان ، وحلق العانة ، ونتف الإبط ، وتقليم الأظفار ، والاستنجاء بالماء أي غسل مكان الغائط والبول بالماء ، والسنّة تقصير الشارب فحلقه بدعة كحلق اللحية ، وفي الحديث : « جزوا الشارب واعفو اللحى »[٢] الجزُّ : القصُّ والقطع ، والإعفاءُ : التوفير والترك على حالها ، وحلق اللحية قبيح بل مُثْلة وحرام ، وكما أن حلق شعر الرأس في حق المرأة مُثْلة منهي عنها وتشبه بالرجال وتفويت للزينة ، كذلك حلق اللحية مُثْلة في حق الرجال وتشبه بالنساء منهي عنه وتفويت للزينة ، قال الفقهاء : اللحية في وقتها جمال وفي حلقها تفويته على الكمال ، ومن تسبيح الملائكة « سبحان من زيَّن الرجال باللحى وزين النساء بالذوائب » ، ولا بأس بأخذ الزائد على القبضة من اللحية ، لأنه عليه الصلاة والسلام « كان يأخذ من لحيته طولاً وعَرْضاً »[٣] ، إذا زاد على

---

(١) الحديث أخرجه البيهقي في السنن ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ١٨٥ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي بلفظ : « احفوا الشوارب » وانظر جامع الأصول ٤ / ٧٦٣ .

(٣) حديث أن النبي ﷺ كان يأخذ من لحيته من طولها وعرضها ، أخرجه الترمذي في سننه رقم ٢٧٦٣ وانظر جامع الأصول ٤ / ٧٦٦.

قدر القبضة ، فإن الطول المفرط يشوّه الخلقة ، ويطلق ألسنة المغتابين بالنسبة إليه ، فلا بأس بالاحتراز عنه على هذه النية .

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي لأجل الناس ﴿ إِمَاماً ﴾ يأتمون بك في هذه الخصال ، ويقتدي بك الصالحون ، فهو نبي في عصره ومقتدى لكافة الناس إلى قيام الساعة ، وقد أنجز الله وعده فقال لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) ونحو ذلك فلذلك اجتمعت أهل الأديان كلهم على تعظيمه ، ﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِيَّتِي ﴾ أي وجاعل بعض ذريتي إماماً يقتدى به أي اجعل ، لكنه راعى الأدب بالاحتراز عن صورة الأمر ، والذريَّةُ : نسل الرجل وقد تطلق على الآباء والأبناء ، من الذكور والإناث، والصغار والكبار ، ومنه قوله تعالى (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ) أراد آباءهم الذين حملوا في السفينة ، وتقع الذرية على الواحد كما في قوله تعالى (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) يعني ولداً صالحاً ﴿ قَالَ ﴾ الله استئناف أيضاً ﴿ لا يَنَالُ ﴾ لا يصيب ﴿ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ يعني أن أولادك منهم مسلمون وكافرون ، فلا تصل الإمامة والاستخلاف بالنبوة الذي عهدت إليك من كان ظالماً من أولادك وغيرهم ، إنما ينال عهدي من كان بريئاً من الظلم ، لأن الإمام إنما هو لمنع الظلم فكيف يجوز أن يكون ظالماً ؟ وإن جاز فقد جاء المثل السائر (من استرعى الذئبَ الغنمَ ظلم) .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ ﴾ أي واذكر يا محمد وقت تصييرنا الكعبة المعظمة ﴿ مَثَابَةً ﴾ كائنة ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي مباءة ومرجعاً للحجاج والمعتمرين ، يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه ، أي يرجع إليه أعيان الذين يزورونه بأن يحجوه مرة بعد أخرى ، ﴿ وَأَمْناً ﴾ موضع أمن ، فإن المشركين كانوا لا يتعرضون لسكان الحرم ، ويقولون : البيت بيت الله ، وسكانه أهل الله بمعنى أهل بيته ، وكان الرجل يرى قاتل أبيه في الحرم فلا يتعرَّض له ، ويتعرَّضون لمن حوله ، وهذا شيء توارثوه من دين إسماعيل عليه السلام فبقوا عليه إلى أيام النبي عليه الصلاة والسلام ، ﴿ وَاتَّخِذُوا ﴾ أي وقلنا اتخذوا على إرادة القول لئلا يلزم عطف الإنشاء على الإخبار ﴿ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ أي موضع الصلاة ومقام إبراهيم : الحجرُ الذي فيه أثر قدميه أو حين رفع بناء البيت ، والذي يسمى اليوم « مقام إبراهيم » هو موضع ذلك الحجر (روي) أنه لما أتى إبراهيم بإسماعيل وهاجر ، ووضعهما بمكة ، وأتت على ذلك مدة ، ونزلها الجرهميون وتزوج إسماعيل منهم امرأة ، وماتت هاجر ، استأذن إبراهيم سارة في أن يأتي هاجر ، فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل فقدم إبراهيم وقد ماتت هاجر ، فذهب إلى بيت إسماعيل فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت ذهب يتصيد ، وكان إسماعيل يخرج من الحرم فيصيد ، فقال لها إبراهيم : هل

عندك ضيافة ؟ قالت : ليست عندي ؟ وسألها عن عيشهم فقالت : نحن في ضيق وشدة ، فشكت إليه فقال لها : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له فليغيِّر عتبة بابه ـ والمراد ليطلقك فإنك لا تصلحين له امرأة ـ وذهب إبراهيم فجاء إسماعيل فوجد ريح أبيه فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟ قالت : جاءني شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه ، وقال : فما قال لك ؟ قالت : قال اقرئي زوجك السلام وقولي له فليغيِّرْ عتبة بابه ، قال ذلك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك ، إلحقي بأهلك فطلَّقها ، وتزوج منهم أخرى فلبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث ، ثم استأذن سارة في أن يزور إسماعيل فأذنت له وشرطت عليه أن لا ينزل فجاء إبراهيم حتى انتهى إلى باب إسماعيل فقال لامرأته : أين صاحبك ؟ قالت : ذهب يتصيد وهو يجيء الآن إن شاء الله ، فانزل رحمك الله ، قال : هل عندك ضيافة ؟ قالت : نعم فجاءت باللبن واللحم ، وسألها عن عيشهم قالت : نحن في خير وسعة فدعا لها بالبركة ، ولو جاءت يومئذ بخبز برّ أو شعير أو تمر لكانت أكثر أرض الله برّاً أو شعيراً أو تمراً ، وقال لها إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام ، وقولي له قد استقامت عتبة بابك ، فلما جاء إسماعيل وجد ريح أبيه ، فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟ قالت : نعم ، جاء شيخ أحسن الناس وجهاً وأطيبهم ريحاً ، فقال لي كذا وكذا . فقال : ذاك إبراهيم وأنت عتبة بابي ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً تحت دوحة قريبة من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الولد بالوالد ، ثم قال يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر أتعينني عليه ؟ قال : أعينك عليه ، قال : أمرني أن أبني ههنا بيتاً ، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة ، وإبراهيم يبني ، فلما ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ، فوضعه له فقام إبراهيم على حجر المقام وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجر وهما يقولان (**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**)[1] ثم لما فرغ من بناء الكعبة قيل له : أَذِّنْ في الناس بالحج ، فقال : كيف أنادي وأنا بين الجبال ولم يحضرني أحد ؟ فقال : الله عليك النداء وعلينا البلاغ فصعد أبا قبيس وصعد هذا الحجر وكان قد خبىء في أبي قبيس أيام الطوفان فارتفع هذا الحجر حتى علا كل حجر في الدنيا ، وجمع الله له الأرض كالسفرة فنادى يا معشر المسلمين إن ربكم بنى لكم بيتاً وأمركم أن تحجوه فأجابه الناس من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات فمن أجابه مرة حج مرة ، ومن أجابه عشراً حج عشراً ، ﴿ **وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ** ﴾ أي أمرناهما أمراً مؤكداً ووصينا إليهما ، فإن العهد قد يكون بمعنى الأمر والوصية ، يقال عهد إليه أي أمره ووصاه ومنه قوله تعالى (**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ**) ﴿ **أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ** ﴾ أي بأن طهراه من الأوثان والأنجاس والمراد احفظاه من أن يُنْصب حوله شيء منها ﴿ **لِلطَّائِفِينَ** ﴾

(١) هذه القصة أصلها في صحيح البخاري ، وانظر البخاري كتاب الأنبياء ، وجامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير ١٠ / ٢٩٩ .

الزائرين حوله ﴿ وَالعَاكِفِينَ ﴾ المجاورين الذين عكفوا عنده أي أقاموا لا يرجعون ، وهذا في أهل الحرم ، والأول في الغرباء القادمين إلى مكة للزيارة والطواف ﴿ والرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ أي المصلين جمع راكع وساجد ، لأن القيام والركوع والسجود من هيآت المصلي ، والجلوس في المسجد الحرام ناظراً إلى الكعبة من جملة العبادات الشريفة المرضية كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن لله تعالى في كل يوم عشرين ومائة رحمة تنزل على هذا البيت ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين »[1] ، واعلم أنه تعالى لما قال ﴿ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِي ﴾ دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى ، فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة ، وإنما خصَّ الكعبة بالذكر ، لأنه لم يكن هناك غيرها .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي واذكر يا محمد إذ دعا إبراهيم فقال يا ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا ﴾ المكان وهو الحرم ﴿ بَلَداً آمِناً ﴾ ذا أمن يأمن فيه أهله من القحط والجدب ، والخسف ، والمسخ ، والزلازل ونحو ذلك من المثلات التي تحِلُّ بالبلاد ، ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ جمع ثمرة وهي المأكولات وقيل : هي الفواكه ، وإنما خص هذا بالسؤال لأن الطعام يكون في كل موضع ، وأما الفواكه فقد تندر ، فسأل لأهله الأمن والسعة مما يطيب العيش ويدوم ، فاستجاب له في ذلك ، ﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ﴾ والمعنى وارزق المؤمنين خاصة ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ معطوف على محذوف أي أرزقُ من آمن ومن كفر ، قاس إبراهيم الرزق على الإمامة ، حيث سأل الرزق لأجل المؤمنين خاصة فنبَّهه سبحانه على أن الرزق رحمة دنيوية ، تعمُّ المؤمن والكافر ، بخلاف الإمامة والتقدم ﴿ فَأُمَتِّعُهُ ﴾ أي أمد له ليتناول من لذات الدنيا ﴿ قَلِيلاً ﴾ أي تمتيعاً قليلاً فإن الدنيا بكليتها قليلة ، وما يتمتع الكافر به منها قليل من القليل ﴿ ثُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ﴾ الاضطرار في اللغة حمل الإنسان على ما يضر ، وهو في المتعارف حمل الإنسان بكفره ، على أن يفعل ما أكره عليه باختياره ، ﴿ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ أي بئس المرجع الذي يرجع إليه للإقامة فيه النار أو عذابها ، فللعبد في هذه الدنيا الفانية الإمهال أياماً دون الإهمال إذ كل نفس تجزى بما كسبت ، ولا تغرنك الزخارف الدنيوية فإن للمطيع والعاصي نصيباً منها وليس ذلك من موجبات الرفعة في الآخرة .

قال سهل : نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها ، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أخذوا ، وقال ابن عطاء : يعني كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة ، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة ، فعلى العاقل أن لا يغتر بالزخارف الدنيوية ، بل لا يفرح بشيء سوى الله تعالى ، فإن ما خلا الله باطل وزائل ، والاغترار بالزائل الفاني ، ليس من قضية كمال العقل والفهم والعرفان .

---

(١) الحديث أخرجه ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان وضعَّفه ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ١ / ١٣٦ .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ ﴾ حكاية حال ماضية حيث عبر بلفظ المضارع ، واقعاً في الحال ، كأنك تصوره للمخاطب ، وتريه على وجه المشاهدة والعيان ، والقواعد جمع قاعدة وهي في الأصل صفة بمعنى الثابتة ، ثم صارت بالغلبة من قبيل الأسماء للثبات والاستقرار ، تشبيهاً له بها في أن كلاً منهما حالة مباينة للانتقال والنزول ، والمعنى واذكر يا محمد وقت رفع إبراهيم أساس البيت أي الكعبة ﴿ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ ولده وكان له أربعة بنين إسماعيل وإسحق ومدين ومداين ، واعلم أن رفع الأساس الذي هو البناء عليه يدل على أن البيت كان مؤسساً قبل إبراهيم ، وإنما بني على الأساس ، واختلف الناس فيمن بنى البيت أولاً وأسّسه ؟ فقيل : هو الملائكة ، وقيل : إن الله بنى في السماء بيتاً وهو البيت المعمور ، وأمر الملائكة أن يبنوا الكعبة في الأرض بحياله على قدره ومثاله ، وقيل : أول من بنى الكعبة آدم ، واندرست زمن الطوفان ، ثم أظهرها الله لإبراهيم عليه السلام .

﴿ رَبَّنا ﴾ أي يرفعانها قائلين ربنا ﴿ تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ الدعاء وغيره من القُرَب والطاعات ، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ﴾ لجميع المسموعات التي من جملتها دعاؤنا وتضرعنا ﴿ العَلِيمُ ﴾ بكل المعلومات التي من زمرتها نياتنا في جميع أعمالنا ، ودلت الآية على أن الواجب على كل مأمور بعبادة وقربة ، إذا فرغ منها وأداها كما أمر بها وبذل في ذلك ما في وسعه ، أن يتضرع إلى الله ويبتهل ليتقبَّل منه ، وأن لا يرده عليه فيضيع سعيه ، فالقبول والرد إليه تعالى ولا يجب عليه شي ، ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أي مخلصين لك فالمراد بالمسلم من يجعل نفسه وذاته خالصاً لله تعالى ، أو المعنى واجعلنا مستسلمين لك منقادين بالرضى بكل ما قدرت وبترك المنازعة في أحكامك ، فإن الإسلام إذا وصل باللام الجارَّة يكون بمعنى الاستسلام والانقياد والرضى بالقضاء ، ﴿ وَمِنْ ذُرِّيتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ أي واجعل بعض ذريتنا جماعة مخلصة لك بالعبادة والطاعة ، وخص البعض من ذريتها لما علما أن من ذريتها محسن وظالم لنفسه مبين ، والاستدلال بأن حكمة الله تعالى تقتضي أن لا يخلو العالم عن أفاضل وأوساط وأرذال فالأفاضل هم أهل الله ، الذين أخلصوا أنفسهم لله ، بالإقبال الكلي عليه ، والأوساط هم أهل الآخرة الذين يجتنبون المنكرات ، ويواظبون على الطاعات رغبة في نيل المثوبات ، والأرذال هم أهل الدنيا الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، جُلُّ همتهم عمارة الدنيا وتهيئة أسبابها ، وقد قيل : عمارة الدنيا بثلاثة ؛ أحدها : الزراعة والغرس ، والثاني : الحماية والحرب ، والثالث : جلب الأشياء من مصر إلى مصر ، ومن أكب على هذه الأشياء ونسي الموت ، والبعث والحساب ، وسعى لعمارة الدنيا سعياً بليغاً ودقق في أعمال فكره تدقيقاً عجيباً ، فهو متوغل في الجهل والحماقة ، ولهذا قيل : لولا الحمقى لخربت الدنيا .

﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ جمع منسك بفتح السين وكسرها أي بصِّرْنا مواضع نسكنا ، أو عرفنا المواضع التي يتعلق بها النسك أي أفعال الحج ، نحو المواقيت التي يحرم منها ، والموضع الذي يوقف فيه بعرفة ، وموضع الطواف ، والصفا والمروة وما بينهما من المسعى ، وموضع رمي الجمار ، والنُّسُكُ : كل ما يتعبد به إلى الله ، وشاع في أعمال الحج لكونها أشق الأعمال ، بحيث لا تتأتى إلا بمزيد سعي واجتهاد ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ عما فرط منا سهواً من الصغائر ومن ترك الأولى ولعلها قالاه هضماً لأنفسهما ، وإرشاداً لذريتهما ليعرفاهم أن ذلك البيت وما يتبعه من المناسك والمواقف ، أمكنة التخلص من الذنوب ، وطلب التوبة من علام الغيوب ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ التَوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ لمن تاب ، أصل التوبة الرجوع ، وتوبة الله على العبد قبوله توبته ، وأن يخلق الإنابة والرجوع في قلب المسيء ، ويُزيِّن جوارحه الظاهرة بالطاعات ، بعد ما لوثها بالمعاصي والخطيئآت ، وتوَّاب : من صيغ المبالغة أطلق عليه تعالى للمبالغة في صدور الفعل منه ، وكثرة قبوله توبة المذنبين لكثرة من يتوب إليه ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ ﴾ أي في جماعة الأمة المسلمة من أولادنا ﴿ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ أي من أنفسهم فإن البعث فيهم لا يستلزم البعث منهم ، ولم يبعث من ذريتهما غير النبي ﷺ فهو الذي أجيب به دعوتهما (روي) أنه قيل له قد استجيب لك ، وهو في آخر الزمان ، وفي الحديث : إني عند الله مكتوب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأخبركم بأوَّل أمري : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى ، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني أنه خرج منها نور أضاءت لها منه قصور الشام »[1] وأراد بدعوة إبراهيم هذا ، فإنه دعا الله أن يبعث في أمة العرب رسولاً منهم ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ يقرأ عليهم ويبلغهم ، ما يوحى إليه من دلائل التوحيد والنبوة ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ﴾ بحسب قوتهم النظرية ﴿ الكِتَابَ ﴾ أي القرآن ﴿ وَالحِكْمَةَ ﴾ وما يكمل به نفوسهم من المعارف الحقة والأحكام الشرعية ، قال ابن دريد : كل كلمة وعظَتْك ، أو دَعَتْك إلى مكرمة ، أو نهتك عن قبيح فهي حكمة ، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ بحسب قوتهم العملية أي يطهرهم من دنس الشرك وفنون المعاصي ، ثم إن إبراهيم عليه السلام لما ذكر هذه الدعوات الثلاث ، ختمها بالثناء على الله تعالى فقال : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ ﴾ الذي لا يُقهر ، ويغلب على ما يريد ﴿ الحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، فهو عزيز حكيم بذاته ، وكل ما سواه ذليل جاهل في نفسه ، قال الإمام الغزالي : العزيز هو الخطير الذي يقلُّ وجود مثله ، وتشتد الحاجة إليه ، ويصعب الوصول إليه ، فما لم تجتمع هذه المعاني الثلاثة لم يطلق عليه العزيز ، فكم من شيء يقل وجوده ولكن إذا لم يعظم خطره ولم يكثر نفعه لم يسم عزيزاً ، وكم من شيء يعظم خطره ويكثر نفعه ولا يوجد نظيره ، ولكن إذا لم

(١) الحديث أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

يصعب الوصول إليه لم يسم عزيزاً ، كالشمس مثلاً فإنها لا نظير لها ، والأرض كذلك ، والنفع عظيم في كل واحدة منها ، والحاجة شديدة إليهما ، ولكن لا توصفان بالعزة ، لأنه لا يصعب الوصول إلى مشاهدتها ، فلابد من اجتماع المعاني الثلاثة .

والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأجل العلوم ، وأجلُّ الأشياء هو الله تعالى ولا يعرف كنه معرفته غيره ، فهو الحكيم المطلق لأنه يعلم أجلَّ الأشياء بأجلِّ العلوم ، وقد يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعتها حكيماً ، ومن عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله تعالى ، لم يستحق أن يسمى حكيماً لأنه لم يعرف أجلَّ الأشياء وأفضلها ، والحكمة أجل العلوم وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم ، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، وربَّما أطلق الناس اسم الحكمة على مثل تلك الكلمات الكلية ، ويقال للناطق بها حكيم ، وذلك مثل قول سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام : « رأس الحكمة مخافة الله » ، « الكيِّسُ من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجزُ من أَتبعَ نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني »[1] « ما قلَّ وكفى خيرٌ ممَّا كثر وألهى » « السعيد من وُعِظَ بغيره » ، فهذه الكلمات وأمثالها تسمى حكمة وصاحبها يسمى حكيماً انتهى كلام الغزالي .

﴿ **وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ من استفهامية قصد بها الإنكار والتقريع ، ورغب في الشيء إذا أراده ، ورغب عنه إذا تركه أي لا يترك دين إبراهيم أحد ولا يعرض عن شريعته وطريقته ﴿ **إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ** ﴾ أي أذلها وجعلها مهيناً حقيراً ، ـ روي ـ أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام فقال لهما : قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة إني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون ، فأسلم سلمة وأبى مهاجر ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ **وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا** ﴾ أي وبالله لقد اخترنا إبراهيم في الدنيا من بين سائر الخلق ، بالنبوة والحكمة ﴿ **وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ أي من المشهود لهم بالثبات على الاستقامة ، والخير والصلاح فمن كان صفوة العباد في الدنيا ، مشهوداً له في الآخرة بالصلاح ، كان حقيقاً بالاتباع ، لا يرغب عن ملته إلا سفيه .

﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ** ﴾ ظرف لاصطفيناه أي اخترناه في وقت قال له ﴿ **رَبُّهُ أَسْلِمْ** ﴾ أي أخلص دينك لربك ، واستقم على الإسلام واثبت عليه ، وذلك حين خرج من الغار ونظر إلى الكواكب والقمر والشمس ، فألهمه الله الإخلاص ، ﴿ **قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ أي أخلصت ديني له كقوله (**إِنِّي**

(١) الحديث أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن .

﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ الآية وقد امتثل ما أمر به من الإخلاص والاستسلام وأقام على ما قال ، فسلَّم القلب والنفس والولد والمال ، ولما قال له جبريل حين ألقي في النار : هل لك من حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، فقال : ألا تسأل ربك ؟ فقال : حسبي بسؤالي علمه بحالي .

﴿ وَوَصَّى ﴾ لما كمل إبراهيم عليه السلام في نفسه ، كمَّل غيره بالتوصية ، وهي تقديم ما فيه خير وصلاح على وجه التفضل والإحسان ، سواء كان أمراً دينياً أو دنيوياً ﴿ بِهَا ﴾ أي بالملة المذكورة ﴿ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾ أي أولاده الذكور ﴿ وَيَعْقُوبُ ﴾ أي وصى يعقوب أيضاً وهو ابن إسحاق بن إبراهيم وصَّى بنيه الإثني عشر ، وعاش يعقوب مائة وسبعاً وأربعين سنة ، ومات بمصر ، وأوصى أن يحمل إلى الأرض المقدسة ويدفن عند أبيه إسحق ، فحمله يوسف فدفنه عنده ﴿ يَا بَنِيَّ ﴾ على إضمار القول تقديره وصَّى وقال يا بنيَّ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ﴾ أي دين الإسلام الذي هو صفوة الأديان ، ولا دين عنده غيره ﴿ فَلا تَمُوتُنَّ ﴾ أي لا يصادفكم الموت ﴿ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون بالتوحيد محسنون بربكم الظن ، وهذا نهي عن الموت في الظاهر ، وفي الحقيقة عن ترك الإسلام ، لأن الموت ليس في أيديهم ، وذلك حين دخل يعقوب مصر فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، فأوصى بنيه بأن يثبتوا على الإسلام ، وتخصيص الأبناء بهذه الوصية للدلالة على أن أمر الإسلام أولى الأمور بالاهتمام ، حيث وصى به أقرب الناس إليه ، وأحراهم بالشفقة والمحبة وإرادة الخير ، مع أن صلاح أبنائه سبب لصلاح العامة ، لأن المتبوع إذا صلح في جميع أحواله صلح التابع ، ولابد من الوصية والتحذير في باب الدين لأن الإنسان إذا أنس بأهل الشر ، يخاف أن يتخلق بأخلاقهم ، ويعمل عملهم ، فيجرُّه ذلك الهوى إلى الهاوية .

وكتب أبو عبيد الصوري إلى بعض إخوانه : أما بعد فإنك قد أصبحت تأمل الدنيا بطول عمرك ، وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك ، وإنما تضرب حديداً بارداً والسلام ، وحسن الظن بالله تعالى إنما يعتبر بعد إصلاح الحال بالأخلاق والأعمال ، قال الحسن : إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ، يقول أحدهم إني أحسن الظن بربي ، وكذب ، لو أحسن الظن لأحسن العمل ، ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ أم منقطعة مقدرة ببل والهمزة ، قال في التيسير : أم إذا لم يتقدمها ألف الاستفهام كانت بمنزلة مجرد الاستفهام ، ومعنى الهمزة فيها الإنكار ، يعني أكنتم شهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر ، يريد ما كنتم حاضرين ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ أي أمارته وأسبابه ، نزلت حين قالت اليهود للنبي عليه الصلاة والسلام: ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية يوم مات ، فقال تعالى : ما كنتم حاضرين

حين احتضر يعقوب وقال لبنيه ما قال ، وإلا لما ادعيتم عليه اليهودية ﴿ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ ﴾ بدل من إذ حضر والعامل فيها شهداء ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ أي أيَّ شيء تعبدونه بعد موتي ؟ أراد به تقريرهم على التوحيد والإسلام ، وأخذ ميثاقهم على الثبات عليهما ، قال الراغب : لم يَعْنِ بقوله « ما تعبدون من بعدي » العبادة المشروعة فقط ، وإنما خشي أن يكون مقصودهم في جميع الأعمال غير وجه الله تعالى ، ولم يخف عليهم الاشتغال بعبادة الأصنام ، وإنما خاف أن تشغلهم دنياهم ولهذا قيل : ما قطعك عن الله فهو طاغوت ولهذا قال (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ) أي أن نخدم ما دون الله ، ونعبد غير الخالق .

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ ﴾ أي نعبد الإله المتفق على وجوده ، وإلهيته ووجوب عبادته ، وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة الآباء تغليباً للأب والجد ، لأن العم أب ، والخالة أم لانخراطهما في سلك واحد ، وهو الأخوة لا تفاوت بينهما ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « عم الرجل صنو أبيه »[1] أي لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوي النخلة ﴿ إِلَهاً وَاحِداً ﴾ بدل من « إلهَ آبائكَ » وفائدته التصريح بالتوحيد ودفع التوهم الناشيء من تكرر المضاف أو نصب على الاختصاص كأنه قيل نريد ونعني بإله آبائك إلهاً واحداً ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ حال من فاعل نعبد ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون ﴿ أُمَّةٌ ﴾ هي في الأصل المقصود كالعهدة بمعنى المعهود وسمى بها الجماعة لأن فرق الناس تؤمها أي يقصدونها ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت بالموت وانفردت عمن عداها ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أي لها كسبها لا كسب غيرها ﴿ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ لا كسب غيركم ﴿ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا تؤاخذون بسيآت الأمة الماضية كما في قوله (لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا) كما لا تثابون بحسناتهم فلكلٍّ أجر عمله ، وذلك لما ادعى اليهود أن يعقوب عليه السلام مات على اليهودية ، وأنه عليه السلام وصى بها بنيه يوم مات ، ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ الآية قالوا هب أن الأمر كذلك أليسوا آباءنا وإليهم ينتمي نسبنا فلا جرم ننتفع بصلاحهم ومنزلتهم عند الله تعالى قالوا ذلك مفتخرين باوآئلهم فردوا بأنهم لا ينفعهم انتسابهم إليهم وإنما ينفعهم اتباعهم في الأعمال ، فإن أحداً لا ينفعه كسب غيره ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم »[2] وقال عليه الصلاة

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود في الزكاة بلفظ : « ما شعرتَ أن عمَّ الرجل صنو أبيه » أي : نظيره ومثله ، وأخرجه الترمذي في المناقب ، وأحمد في المسند ٤ / ١٦٥ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه أحمد والترمذي وأصحاب السير ، وانظر الدر ٥ / ٩٦ .

والسلام : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »[1] يعني من أخره في الآخرة عمله السيء ، أو تفريطه في العمل الصالح ، لم ينفعه شرف نسبه ، ولم تنجبر نقيصته به ، قال الشاعر :

أتفخرُ بـاتِّصـالـكَ من عليٍّ * وأصـلُ البُـؤْسـةِ المـاءُ القَرَاحُ
وليسَ بِنَـافِـعٍ نَسَبٌ زكيٌّ * يُـدنِّسُـهُ صنـائِعُـكَ القبَـاحُ

والأبناء وإن كانوا يتشرفون في الدنيا بشرف آبائهم ، إلا أنه إذا نفخ في الصور فلا أنساب ، والافتخار بمثل هذا كالافتخار بمتاع غيره ، وأنه من الجنون ، فلابد من كسب العمل والإخلاص فيه فإنه المنجي بفضل الله تعالى .

﴿ **وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارىٰ** ﴾ نزلت في يهود المدينة وفي نصارى نجران ، أي قالت اليهود : كونوا هُوداً فإن نبينا أفضل الأنبياء ودينا أفضل الأديان ، وكفروا بعيسى وبمحمد ، وقالت النصارى : كونوا نصارى فإن نبينا أفضل الأنبياء ودينا أفضل الأديان ، وكفروا بموسى وبمحمد والقرآن ، ﴿ **تَهْتَدُوا** ﴾ تجدوا الهداية وتجتنبوا الضلالة ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد لهم على سبيل الرد ﴿ **بَلْ** ﴾ نكون متَّبعينَ ﴿ **مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ أي أهل ملته ودينه أي بل نتبع ملته ، « كونوا » معناه اتبعوا اليهودية والنصرانية ﴿ **حَنِيفاً** ﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل إلى دين الحق ، ومنحرفاً عن اليهودية والنصرانية وهو حال من المضاف إليه وهو إبراهيم ، ﴿ **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ تعريض لهم وإيذان ببطلان دعواهم اتباع إبراهيم ، مع إشراكهم بقولهم عزيرُ بن الله والمسيح ابن الله ، وفي الآية إرشاد إلى اتباع دين إبراهيم ، وهو الدين الذي عليه نبينا عليه السلام وأصحابه وأتباعه ، ﴿ **قُولُوا** ﴾ أيها المؤمنون ﴿ **آمَنَّا بِاللهِ** ﴾ وحده ﴿ **وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا** ﴾ أي بالقرآن الذي أنزل على نبينا ، والإنزال إليه إنزال إلى أمته ﴿ **وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ** ﴾ من صحفه العشر ﴿ **وَ** ﴾ ما أنزل إلى ﴿ **إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَ** ﴾ إلى ﴿ **الأَسْبَاطِ** ﴾ جمع سبط ، وهو في الأصل شجرة واحدة لها أغصان كثيرة ، والمراد هنا أولاد يعقوب وهم اثنا عشر سموا بذلك لأنه ولد لكل منهم جماعة ، وسبطُ الرجل : ولد ولده ، والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب والشعوب من العجم ، وهم جماعة من أب وأم ، ﴿ **وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى** ﴾ من التوراة والإنجيل ، وتخصيصهما بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ، ﴿ **وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ** ﴾ جملة المذكورين منهم وغير المذكورين ﴿ **مِنْ رَبِّهِمْ** ﴾ في موضع الحال وبما أوتيه النبيون منزلاً عليهم من ربهم ﴿ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ** ﴾ كاليهود فنؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ﴿ **وَنَحْنُ**

(١) أخرجه أبو داود في العلم ، والترمذي في القرآن ، وابن ماجه والدارمي ، وأحمد في المسند ٣ / ٥٢ .

﴿ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي والحال أنا مخلصون لله تعالى ومذعنون ﴿ فَإِنْ آمَنُوا ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ بِمِثْلِ مَا ﴾ أي بمثل الدين الذي ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ هذا من باب التعجيز والتبكيت أي إلزام الخصم وإلجائه إلى الاعتراف بالحق ، والمعنى فإن آمنوا بما آمنتم به وهو الله تعالى ، فإنه ليس لله تعالى مثل ، ﴿ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ إلى الحق وأصابوه كما اهتديتم ، وحصل بينكم الاتحاد والاتفاق ، ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان على الوجه المذكور ، بأن أخلُّوا بشيء من ذلك ، كأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾ أي مستقرون في خلاف عظيم ، بعيد من الحق وجعل الشقاق ظرفاً لهم وهم مظروفون له ، مبالغة في الإخبار باستيلائه عليهم فإنه أبلغ من قولك هم مشاقون ، والشقاق مأخوذ من الشق وهو الجانب فكأن كل واحد من الفريقين في شق غير شق صاحبه بسبب العداوة ، ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ﴾ أي فسيكفي الله إياك أمر اليهود والنصارى ، ويدفع شرهم عنك وينصرك عليهم ، وقد أنجز الله وعده الكريم بالقتل والسبي في بني قريظة ، والجلاء والنفي إلى الشام وغيره في بني النضير ، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ يسمع ما تدعو به ، ويعلم ما في نيتك من إظهار الدين ، فيستجيب لك ويوصلك إلى مرادك ﴿ صِبْغَةَ اللهِ ﴾ الصبغ ما يلون به الثياب ، والصبغ المصدر ، والصبغة الفعلة التي تبنى للنوع والحالة ، من صَبَغ كالجِلْسة من جلس ، وهي الحالة التي يقع الصبغ عليها وهي أي الصبغة في الآية مستعارة لفطرة الله التي فطر الناس عليها ، شبهت الخلقة السليمة التي يستعد بها العبد للإيمان وسائر أنواع الطاعات ، بصبغ الثوب من حيث أن كل واحدة منهما حلية لما قامت هي به وزينة له، والتقدير صَبَغنا الله صبغة أي فطرنا وخلقنا على استعداد قبول الحق والإيمان فطرته ، ويحتمل أن يكون التقدير طهرنا الله تطهيره ، لأن الإيمان يطهر النفوس من أوضار الكفر ، وسماه صبغة للمشاكلة وعبر عن لفظ الفطرة بلفظ الصبغة ، لوقوعه في صحبة صبغة النصارى ، إذ كانوا يشتغلون بصبغ أولادهم في سابع الولادة مكان الختان للمسلمين ، يغمسهم في الماء الأصفر الذي يسمونه المعمودية ، وهي اسم ماء غسل عيسى عليه السلام ، فمزجوه بماء آخر ، وكلما استعملوا منه جعلوا مكانه ماء آخر ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾ والمعنى أي شخص تكون صبغته أحسن من صبغة الله ؟ فإنه يصبغ عباده بالإيمان ، ويطهرهم به من أوضار الكفر وأنجاس الشرك ، فلا صبغة أحسن من صبغته ﴿ وَنَحْنُ لَهُ ﴾ أي لله الذي أولانا تلك النعمة الجليلة ﴿ عَابِدُونَ ﴾ شكراً له ولسائر نعمه ، وتقدم الظرف للاهتمام ورعاية الفواصل .

وفي قوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ إشارة إلى أن العارفين يعبدون ربهم لا لشوق الجنة ولا لخوف النار ، وقد رُوي في الزبور : « ومن أظلم ممن عبدني لجنة أو نار ، فلو لم أخلق جنة ولا ناراً لم أكن مستحقاً لأن أُعْبَد » ؟.

(روي) أن السري السقطي قال : مكثت عشرين سنة أحرسَ خلقِ الله تعالى ، فلم يقع في شبكتي إلا واحد ، كنت أتكلم في المسجد الجامع ببغداد يوم الجمعة ، وقلت : عجبت من ضعيف عصى قوياً ، فلما كان يوم السبت وصليت الغداة ، إذا أنا بشاب قد وافى وخلفه غلمان وهو راكب على دابته ، فنزل وقال أيكم السري السقطي ؟ فأومأ جلسائي إليَّ فسلم عليَّ وجلس ، وقال سمعتك تقول : عجبت من ضعيف عصى قوياً فما أردت به ؟ فقلت : ما ضعيف أضعف من ابن آدم ، ولا قويٌّ أقوى من الله تعالى ، وقد تعرض ابن آدم مع ضعفه إلى معصية الله تعالى ، قال فبكى ثم قال يا سري هل يقبل ربك غريقاً مثلي ؟ قلت : ومن ينقذ الغرقى إلا الله تعالى ؟ قال يا سري إن عليَّ مظالم كثيرة كيف أصنع ؟ قال : إذا صححت الانقطاع إلى الله تعالى ، أرضى عنك الخصوم ، فبكى ثم قال : صف لي الطريق إلى الله فقلت : إن كنت تريد المقتصدين فعليك بالصيام والقيام وترك الآثام ، وإن كنت تريد طريق الأولياء ، فاقطع العلائق واتصل بخدمة الخالق ، فبكى حتى بلَّ منديلاً له ثم انصرف ، وكان من أمره ترك الأهل والعيال ، والسكون عند المقابر وتغيير الحال ، حتى توفي ذلك الشاب على الحالة التي أقبل عليها ، قال السري : فحلمتُ يوماً في المنام ، فرأيته يرفل في السندس والاستبرق ويقول : جزاك الله خيراً ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : أدخلني الجنة ولم يسألني عن ذنب انتهى ، ﴿ **قُلْ أَتُحَاجُّوۤنَنَا** ﴾ المحاجة المجادلة ودعوى الحق ، وإقامة الحجة على ذلك من كل واحد ، والهمزة للإنكار والتوبيخ ، وسبب نزول هذه الآية أن اليهود والنصارى قالوا إن الأنبياء كانوا منا وعلى ديننا ، وديننا أقدم ، فقال الله تعالى قل يا محمد لليهود والنصارى : أتجادلوننا وتخاصموننا ﴿ **فِي اللهِ** ﴾ أي في دينه ، وتدَّعون أن دينه الحق هو اليهودية والنصرانية ، ﴿ **وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ** ﴾ أي الحال أنه لا وجه للمجادلة أصلاً لأنه تعالى مالك أمرنا وأمركم ﴿ **وَلَنَا أَعْمَالُنَا** ﴾ الحسنة الموافقة لأمره ﴿ **وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ السيئة المخالفة لحكمه ، فكيف تدَّعون أنكم أولى بالله ؟ ﴿ **وَنَحْنُ لَهُ** ﴾ أي لله تعالى ﴿ **مُخْلِصُونَ** ﴾ في تلك الأعمال ، لا نبتغي بها إلا وجهه ، فأنى لكم المحاجة وادعاء أحقية ما أنتم عليه ، وأنتم به مشركون ؟ والإخلاصُ : تصفية العمل عن الشرك والرياء ، وحقيقته تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين ﴿ **أَمْ تَقُولُونَ** ﴾ أم معادلة للهمزة في قوله تعالى أتحاجوننا على معنى أي الأمرين تأتون ؟ إقامة الحجة وتنوير البرهان على أحقية ما أنتم عليه ، والحال ما ذكر ، أم التشبث بذيل التقليد والافتراء على الأنبياء ؟ وتقولون ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ** ﴾ جمع سِبْطٍ ، حفدة يعقوب وهم أولاد أولاده الإثني عشر ، وعن الزجاج أنه قال : الأسباط في ولد إسحق بمنزلة القبائل في ولد إسماعيل فولد كل واحد من ولد اسحق سبط ، ومن ولد إسماعيل قبيلة ﴿ **كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ** ﴾ فنحن مقتدون بهم والمراد إنكار كلا الأمرين والتوبيخ عليهما ، أي كيف تحاجون وكيف تقولون في حق الأنبياء الذين بعثوا

قبل نزول التوراة والإنجيل ، إنهم كانوا هوداً أو نصارى ؟ ومن المحال أن يقتدي المتقدم بالمتأخر ويستن بسنّته ؟ ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ ءَأَنْتُمْ ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿ أَعْلَمُ ﴾ بدينهم ﴿ أَمِ اللهُ ﴾ أعلم ؟ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ إنكار لأن يكون أحد أظلم ، فالاستفهام بمعنى النفي ﴿ مِمَّنْ كَتَمَ ﴾ أي ستر وأخفى عن الناس ﴿ شَهَادَةً ﴾ ثابتة ﴿ عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾ أي شهادة حاصلة عنده صادرةً من الله تعالى ، يعني يا أهل الكتاب قد علمتم بشهادة حصلت عندكم ، صادرة من الله تعالى ، بأن إبراهيم وبنيه كانوا حنفاء مسلمين ، بأن أخبركم الله بذلك في كتابكم ، ثم إنكم تكتمونها وتدّعون خلاف ما شهد الله به في حقهم ، فلا أحد أظلم منكم حيث إجترأتم على تكذيب الله تعالى فيما أخبر به ، ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ما موصولة أي هو محيط بجميع ما تأتون وما تذرون ، فيعاقبكم بذلك أشد عقاب ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ ﴾ أي الأنبياء جماعة ﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ أي مضت بالموت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ من الأعمال ﴿ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ منها ﴿ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا يُسأل أحد عن عمل غيره ، بل يسأل عن عمله ويجزى به ، وهذا تكرير للآية السابقة بعينها للمبالغة في الزجر ، عما هم عليه من الافتخار بالآباء ، والاتكال على أعمالهم قال الله تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ) ـ قيل ـ لما انصرف هارون الرشيد من الحج ، أقام بالكوفة أياماً فلما خرج وقف بهلول المجنون على طريقه وناداه بأعلى صوته : يا هارون ثلاثاً ، فقال هارون : من الذي ينادي ؟ تعجباً ، فقيل له : بهلول المجنون ، فوقف هارون فقال له : ألم تعرفني ، قال : بلى أعرفك ، فقال : من أنا ؟ قال : أنت الذي لو ظُلِم أحد في المشرق وأنت في المغرب سألك الله عن ذلك يوم القيامة ، فبكى هارون وقال : كيف ترى حالي ؟ قال : اعرضْه على كتاب الله (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) وقال أين أعمالنا ؟ قال : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) قال : وأين قرابتنا من رسول الله ﷺ ؟ قال : (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ) قال : وأين شفاعة رسول الله لنا ؟ قال : (يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً) فلابد من الأعمال الصالحة ، والإخلاص فيها ، فإن الله يتقبلها لا غيرها ، قال الجنيد : الإخلاص سرٌّ بين العبد وبين الله تعالى ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك عنها ، قال بعض الحكماء : مثل من يعمل الطاعة للرياء والسمعة ، كمثل رجل يخرج إلى السوق وقد ملأ كيسه حصى ، فيقول الناس ما أملأ كيس فلان ، ولا منفعة له سوى مقالة الناس ، وفي الأثر : « أخلصوا أعمالكم لله تعالى ، فإن الله لا يقبل إلا ما خلص له ، ولا تقولوا هذا لله وللرحم ، وليس لله تعالى منه شيء » [1] .

(١) أخرجه الدارقطني في السنن عن الضحاك بن قيس ، وانظر الفتح الكبير السيوطي ١ / ٥٨ .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ﴾ أي الذين ضعفت عقولهم ﴿ مِنَ النَّاسِ ﴾ أي الكفرة يريد المنكرين لتغيير القبلة ، من المنافقين واليهود والمشركين ، وفائدة تقديم الإخبار به قبل وقوعه ليوطّنوا عليه أنفسهم فلا يضطربوا عند وقوعه ، لأن مفاجأة المكروه أشد على النفوس وأشق ، وليعلمهم الجواب ﴿ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ « ما » استفهامية إنكارية والمعنى أيُّ شيء صرفهم وحوّلهم عن قبلتهم التي كانوا على التوجه إليها وهي بيت المقدس ؟ ولم انصرفوا منها إلى الكعبة ؟ روي أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى إلى نحو بيت المقدس بعد مقدمه المدينة نحواً من سبعة عشر شهراً ، تأليفاً لقلوب اليهود ، ثم صارت الكعبة قبلة المسلمين إلى نفخ الصور ﴿ قُلْ للهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ ﴾ أي الأمكنة كلها والنواحي بأسرها لله تعالى ، ملكاً وتصرفاً فلا يستحق شيء منها لذاته أن يكون قبلة حتى يمتنع إقامة غير مقامه ، ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وهو التوجه إلى بيت المقدس تارة والكعبة أخرى ، ووجه استقامته كونه مشتملاً على الحكمة والمصلحة موافقاً لهما .

﴿ وَكَذٰلِكَ ﴾ أي وكما جعلناكم مهتدين إلى الصراط المستقيم ﴿ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ توحيد الخطاب في كذلك مع القصد إلى المؤمنين ، لما أن المراد مجرد الفرق بين الحاضر والمنقضي دون تعيين المخاطبين ﴿ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ أي خياراً ، لأن الأوساط محمية محوطة والأطراف يتسارع إليها الخلل ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ يوم القيامة أن الرسل قد بلغتهم ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ ﴾ أي محمد ﷺ ﴿ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ هذا مبني على تضمين الشهيد معنى الرقيب والمطلع ، فعدي تعديته ، والوجه أن التعديل والتزكية إنما يكون عن خبرة ومراقبة بحال الشاهد ، فإذا شاهد منه الرشد والصلاح عدّله وزكاه ، (روي) أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، ثم يقول لكفار الأمم : ألم يأتكم نذير ؟ فينكرون فيقولون : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فيسأل الأنبياء عن ذلك فيقولون كذبوا قد بلغناهم ، فيسألهم البينة - وهو أعلم بهم إقامة للحجة - فيؤتى بأمة محمد ﷺ فيشهدون لهم أنهم قد بلغوا ، فتقول الأمم الماضية من أين علموا وإنهم أتوا بعدنا ؟ فيسأل هذه الأمة فيقولون : أرسلت إلينا رسولاً وأنزلت عليه كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل وأنت صادق فيما أخبرت ثم يؤتى بمحمد عليه الصلاة والسلام فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم فيؤمر بالكفار إلى النار ، فذلك قوله تعالى : (لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ ﴾ مفعول أول لجعلنا ﴿ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ مفعول ثان له بتقدير موصوف أي الجهة التي كنت عليها وهي الكعبة ، والمعنى ما رددناك إلى ما كنت عليه أي على استقباله والتوجه إليه ، وما جعلنا ذلك لشيء من الأشياء ﴿ إِلا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ﴾ في التوجه إلى ما

أمر به ﴿ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ ﴾ أي ينصرف ويرجع ﴿ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ العقب مؤخر القدم ، والانقلاب على العقبين مستعار للارتداد والرجوع عن الدين الحق إلى الباطل ، ومعنى ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ ليظهر علمنا على مشهد الرسول والمؤمنين ، ويتميز عندهم الثابت على الإسلام الصادق فيه ، من المتردد الذي يرتد بأدنى سبب ، لا أنه لم يعلم حالهم فعلم ، لأنه تعالى كان عالماً في الأزل بهم، وبكل حال من أحوالهم ، ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ﴾ أي القبلة المحولة ﴿ لَكَبِيرَةً ﴾ أي شاقة ثقيلة على من يألف التوجه إلى القبلة المنسوخة فإن الإنسان ألوف لما يتعوده ، يثقل عليه الانتقال منه : « وإنْ » هي المخففة من المثقلة واسمها محذوف وهو القبلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية كما في قوله تعالى (إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً) ﴿ إِلا عَلَىٰ الَّذِينَ هَدَىٰ اللهُ ﴾ أي هداهم إلى حكمة الأحكام وأرشدهم وعرفهم أن ما كلّفه عباده متضمن لحكمة لا محالة وإن لم يهتدوا إلى خصوصيَّةِ تلك الحكمة بعينها ، فتيقنوا بذلك أن السعيد الفائز من أطاع ربه الحكيم، وأن الشقي الخاسر من عصى ربه العليم ، ثم بين أنهم مثابون على ذلك الثبات والاتباع ، وأنَّ ذلك غير ضائع منهم فقال ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ ﴾ مريداً ﴿ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أي ثباتكم على التصديق بجميع ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام من غير أن ترتابوا في شيء من ذلك ﴿ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ ﴾ أي ذو مرحمة عظيمة لهم حيث نقلهم برحمته من ذلك إلى هذا وهو أصح لهم ﴿ رَحِيمٌ ﴾ يغفر ذنوبهم بالإيمان وإيصال الرزق ، ويستجيب دعاء من استغاث به ، وطلب أمنه وحماه .

حكي : أنه أخذ بعض أمراء الكفار قاتلاً في زمن داود عليه السلام ، فصلب فوق الجبل عشاء ورجع الناس إلى منازلهم وبقي هذا على الخشبة وحده وتضرع إلى آلهته فلم يغنوا عنه شيئاً ، ثم رجع إلى الله وقال أنت الله الحق ، أتيت إليك لتغيثني برحمتك ، قال الله تعالى يا جبريل : إن هذا عَبَد آلهته طويلاً ، فلم ينتفع ففزع إليَّ ودعاني فاستجبت له ، فاهبط إلى الأرض وضعه على الأرض في سلامة وعافية ففعل ، فلما أصبحوا رأوه وهو حي يصلي لله تعالى ، فأخبروا داود بذلك فدعا الله فيه مستكشفاً سره ، فأوحى الله إليه : يا دواد إني أرحم من آمن بي ودعاني ، فإن لم أفعل فأي فرق بيني وبين آلهته ؟

﴿ قَدْ نَرَى ﴾ لفظ « قَدْ » في المضارع للتقليل وقد استعمل ههنا للتكثير بطريق الاستعارة ، والمعنى شاهدنا وعلمنا ﴿ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ ﴾ أي تردد وجهك في تصرف نظرك ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ أي في جهتها تطلعاً للوحي ، وكان عليه الصلاة والسلام يقع في روعه ويتوقع من ربه أن يحوِّله إلى الكعبة ، لأنها قبلة أبيه إبراهيم وأقدم القبلتين ، وأدعى للعرب إلى الإيمان من حيث إنها كانت مفخرة لهم وأمناً ومزاراً ومطافاً، ولمخالفة اليهود فإنهم كانوا يقولون : إنه يخالفنا في ديننا ثم إنه يتبع قبلتنا ولولا نحن لم يدر أين يستقبل ؟ فعند ذلك كره أن يتوجه إلى قبلتهم ، حتى روي أنه ﷺ قال لجبريل : « وددت أن الله

صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها » ، وجعل رسول الله ﷺ يديم النظر إلى السماء رجاء أن يأتيه جبريل بالذي سأل ربه ، فأنزل الله هذه الآية ، ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً ﴾ أي فوالله لنعطينَّكها ولنمكننك من استقبالها من قولك : وليته كذا أي صيرته والياً له ، وولي الرجل ولاية أي تمكن منه ، أو فلنجعلنك تلي سمتها دون سمت بيت المقدس من وليه ولياً أي قربه ودنا ، وأوليتهُ إياه ووليته أي أدنيته منه ﴿ تَرْضَاهَا ﴾ أي تحبها وتتشوق إليها لا لهوى النفس والشهوة الطبيعية ، بل لمقاصد دينية وافقت مشيئة الله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أي اصرفْ وجهك أي اجعل وجهك بحيث يلي شطره ونحوه ، والمرادُ بالوجه ههنا جملة البدن ، لأن الواجب على المكلف أن يستقبل القبلة بجملة بدنه لا بوجهه فقط ، ولعل تخصيص الوجه بالذكر التنبيه على أنه الأصل المتبوع في التوجه والاستقبال ، والمتبادر من لفظ المسجد الحرام وهو المسجد الأكبر الذي فيه الكعبة ، والحرام المحرم أي المحرم فيه القتال أو الممنوع من الظلمة أن يتعرضوا له ، وفي ذكر المسجد الحرام دون الكعبة إيذان بكفاية مراعاة جهة الكعبة ، لأن استقبال عينها للبعيد متعذر ، وفيه حرج عظيم بخلاف القريب ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ ﴾ أي في أي موضع كنتم من الأرض من بحر أو بر ، شرق أو غرب ، وأردتم الصلاة ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ فإنه القبلة إلى نفخ الصور، أمرٌ لجميع المؤمنين بذلك بعد ما أمر به النبي عليه الصلاة والسلام ، تصريحاً بعمومه لكافة العباد من كل حاضر وباد ، حثاً للأمة على المتابعة ، ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ من فريقي اليهود والنصارى ﴿ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أي التحويل إلى الكعبة ﴿ الْحَقُّ ﴾ أي الثابت كائناً ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ لما أن المسطور في كتبهم أنه عليه الصلاة والسلام يصلي إلى القبلتين ، بتحويل القبلة إلى الكعبة بعدما كان يصلي إلى بيت المقدس ، ومعنى «مِنْ رَبِّهِمْ» أي من قبله تعالى ، ولا شيء ابتدعه الرسول ﷺ من قبل نفسه ، فإنهم كانوا يزعمون أنه من تلقاء نفسه ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ خطاب للمسلمين واليهود جميعاً على التغليب فيكون وعداً للمسلمين بالإثابة وجزيل الجزاء ووعيداً وتهديداً لليهود على عنادهم ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ ﴾ برهان قاطع على أن التوجه إلى الكعبة هو الحق ﴿ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ عناداً ومكابرة ، وهذا في حق قوم معينين علم الله أنهم لا يؤمنون ، فإن منهم من آمن وتبع القبلة ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ حسم لأطماعهم ، إذ كانوا قالوا لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره ، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ فإن اليهود تستقبل الصخرة ، والنصارى مطلع الشمس ، لا يرجى توافقهم كما لا يرجى موافقتهم لك ، لتصلُّب كل فريق فيما هو فيه ، ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي ولئن وافقتهم في مراداتهم بأن صليت إلى قبلتهم ، مداراة لهم وحرصاً على إيمانهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أي من بعد ما علمت بالوحي القاطع ، أن قبلة الله هي الكعبة ﴿ إِنَّكَ

﴿ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي المرتكبين الظلم الفاحش وهذه الجملة الشرطية واردة على منهاج التهييج والإلهاب للثبات على الحق .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ ﴾ إيتاء فهم ودراسة وهم الأحبار ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ أي يعرفونه ﷺ بأوصافة الشريفة المكتوبة في كتابهم ، لا يشتبه عليهم كما لا يشتبه أبناؤهم ، وتخصيصهم بالذكر ، لكون الذكور أشهر وأعرف عندهم ، وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق ، ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ ﴾ هم الذين كابروا وعاندوا الحق ﴿ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أن محمداً رسول الله ﷺ وأن الكعبة قبلة الله ، ﴿ الحَقُّ ﴾ الذي أنت عليه يا محمد ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ خبر لقوله الحق ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أي الشاكّين في كون الحق من ربك ، هذا خطاب له ﷺ ، والمقصود خطاب أمته ونهيهم عن الامتراء ، ومعنى نهي الأمة عن الامتراء ، أمرهم بضده الذي هو اليقين وطمأنينة القلب .

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ أي لكل أمة من الأمم أعني المسلمين واليهود والنصارى ﴿ وِجْهَةٌ ﴾ أي قبلةٌ وجهةٌ ﴿ هُوَ ﴾ راجع إلى كل ﴿ مُوَلِّيهَا ﴾ أي محول وموجه إلى تلك الجهة وجهه ، فقبلة كل أمة من أهل الأديان المختلفة مغايرة لقبلة الأمة الأخرى ﴿ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ ﴾ أي إلى الخيرات بنزع الجار والمراد جميع أنواع الخيرات ، من أمر القبلة وغيره ، مما ينال به سعادة الدارين ، والمعنى أن لكل أمة قبلة يتصلبون في التوجه إليها ، بحيث لا ينصرفون عنها إلى القبلة الحق ، وإن أتيتهم بكل آية دالة على أن القبلة هي الكعبة ، وإذا كان الأمر كذلك فاستبقوا أنتم وبادروا إلى الفعلات الخيرات ولا تقتفوا أثر المكابرين المستكبرين ، الذين يتبعون أهواءهم ويلقون الحق وراء ظهورهم ، فإنهم إنما يستبقون إلى الشر والفساد ، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال ، ﴿ أَيْنَمَا ﴾ أي في أي موضع ﴿ تَكُونُوا ﴾ أنتم وأعداؤكم ﴿ يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعاً ﴾ يحشركم الله إلى المحشر للجزاء ، ويفصل بين المحق والمبطل ، فهو وعد لأهل الطاعة ووعيد لأهل المعصية ﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على الإماتة والإحياء والجمع ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ أي من أي مكان وبلد خرجت إليه للسفر ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾ عند صلاتك ﴿ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ ﴾ تلقاءه فإن وجوب التوجه إلى الكعبة لا يتغير بالسفر والحضر ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي هذا المأمور به وهو تحويل القبلة إلى الكعبة ﴿ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أي الثابت الموافق للحكمة ﴿ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء فهو وعد للمؤمنين ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴾ إليه في أسفارك ومغازيك من المنازل القريبة والبعيدة ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون من أقطار الأرض مقيمين أو مسافرين وصليتم ﴿ فَوَلُّوا

﴿ وُجُوهَكُمْ ﴾ من محالكم ﴿ شَطْرَهُ ﴾ كرر هذا الحكم لما أن القبلة لها شأن خطير ، والنسخ من مظان الشبهة والفتنة فبالحري أن يؤكد أمرها مرة بعد أخرى ، مع أنه قد ذكر في كل مرة حكمة مستقلة ﴿ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ متعلق بقوله فولوا ، والمعنى أن التولية إلى الكعبة تدفع احتجاج اليهود ، بأن المنعوت في التوراة قبلته الكعبة ، واحتجاج العرب بأنه يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ، ﴿ إلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ استثناء من الناس أي لئلا يكون حجة لأحدٍ من اليهود إلا المعاندين منهم ، القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه ، وحباً لبلده ، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء ، ولا لأحد من العرب من أهل مكة إلا للمعاندين منهم الذين قالوا بَدَا له فرجع إلى قبلة آبائه ويوشك أن يرجع إلى دينهم .

﴿ فَلا تَخْشَوْهُمْ ﴾ فلا تخافوهم في توجهكم إلى الكعبة ، ﴿ وَاخْشَوْنِي ﴾ بامتثال أمري فإني ناصركم ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ أي أمرتكم بتولية الوجوه شطره لإتمامي النعمة عليكم ، فإن القوم كانوا يفتخرون باتباع إبراهيم في جميع ما كانوا يفعلونه ، فلما وجهوا إلى قبلته بعدما صرفوا عنها لمصلحة حادثة ، فقد أصابوا تمام النعمة في أمر القبلة ، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي ولإرادتي اهتداءكم إلى شعائر الملة الحنيفية وشرائع الدين القويم ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ ﴾ متصل بما قبله أي ولأتم نعمتي عليكم في أمر القبلة إتماماً كائناً كإتمامي لها بإرسال رسول كائن منكم وهو محمد ﷺ ﴿ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ أي يحملكم على ما تصيرون به أزكياء طاهرين من دنس الذنوب المكدرة لجوهر النفس ، ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ ﴾ أي ما في القرآن من المعاني والأسرار والشرائع والأحكام فإنه عليه الصلاة والسلام كان يتلوه عليهم ليحفظوا نظمه ولفظه ، ومع ذلك كان يُعلِّمهم ما فيه من الحقائق والأسرار ليهتدوا بهداه وأنواره ﴿ وَالحِكْمَةَ ﴾ هي الإصابة في القول والعمل ولا يسمى حكيماً إلا من اجتمع له الأمران ، ﴿ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الراغب : عنى بذلك العلوم التي لا طريق إلى تحصيلها إلا من جهة الوحي ، ﴿ فَاذْكُرُونِي ﴾ بالطاعة ﴿ أَذْكُرْكُمْ ﴾ بالثواب واللطف والإحسان وفتح أبواب السعادات ، ﴿ وَاشْكُرُوا لِي ﴾ على ما أنعمت عليكم من النعم ، فقوله واشكروا لي أمر بتخصيص شكرهم به تعالى لأجل إفضاله وإنعامه عليهم ، وأن لا يشكروا غيره ، ﴿ وَلا تَكْفُرُونِ ﴾ بجحد النعم وعصيان الأمر .

قال الغزالي : الذكر قد يكون باللسان ، وقد يكون بالقلب ، وقد يكون بالجوارح ، فذكرهم إياه باللسان أن يحمدوه ويسبحوه ويمجدوه ويقرأوا كتابه ، وذكرهم إياه بقلوبهم على ثلاثة أنواع . أحدها : أن يتفكروا في الدلائل الدالة على ذاته وصفاته ، وثانيها : أن يتفكروا في الدلائل الدالة على كيفية

تكاليفه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، وثالثها : أن يتفكروا في أسرار مخلوقات الله تعالى . وأما ذكرهم إياه تعالى بجوارحهم فهو أن تكون جوارحهم مستغرقة في الأعمال التي أُمروا بها ، وخالية عن الأعمال التي نهوا عنها ، فصار الأمر بقوله (**اذْكُرونِي**) متضمناً لجميع الطاعات ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا** ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون ﴿ **بِالصَّبْرِ** ﴾ على الأمور الشاقة على النفس كالصبر عن المعاصي وحظوظ النفس ﴿ **والصَّلاةِ** ﴾ التي هي أم العبادات ومعراج المؤمنين ومثاب رب العالمين (روي) أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان إذا حَزَبَهُ أمر فزع إلى الصلاة وتلا هذه الآية ، وإنما خص الصبر والصلاة بالذكر ، لأن الصبر أشدُّ الأعمال الباطنة على البدن ، والصلاة أشد الأعمال الظاهرة عليه ، لأنها مجمع أنواع الطاعات من الأركان والسنن ، والآداب والحضور والخضوع والتوجه والسكون وغير ذلك مما لا يتيسر حفظه إلا بتوفيق الله تعالى ، ﴿ **إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ بالنصرة وإجابة الدعوة فمعنى المعية الولاية الدائمة المستديمة لهما ، ﴿ **وَلا تَقُولُوا** ﴾ نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً وكان الناس يقولون ﴿ **لِمَنْ يُقْتَلُ** ﴾ في سبيل الله مات فلان ، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها ، فأنزل الله تعالى ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ** ﴾ القتل نقض البنية الحيوانية ﴿ **فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ وهو الجهاد لأنه طريق إلى ثواب الله ورحمته ﴿ **أَمْوَاتٌ** ﴾ أي هم أموات ﴿ **بَلْ أَحْيَاءٌ** ﴾ أي كالأحياء في الحكم لا ينقطع ثواب أعمالهم ، لأنهم قتلوا لنصرة دين الله ، فما دام الدين ظاهراً في الدنيا ، فلهم ثواب ذلك ، لأنهم سنّوا هذه السنّة ﴿ **وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ كيف حالهم في حياتهم ؟ وفيه رمز إلى أنها أمر روحاني لا يدرك بالعقل بل بالوحي ، وفي الآية دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها ، مغايرة لما يحس به من البدن ، تبقى بعد الموت دراكة وعليه الجمهور ، فقد عرفت من هذا أن مذهب أهل السنّة والجماعة أن الروح جسم لطيف ، مغاير لهذا الهيكل المحسوس ، وانكشف لك حال الروح ووقفت على أسرار البرزخ ، وأحوال القبر وما فيه من الألم واللذة الجسمانيين ، وانحل عندك وجه كونه روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران ، فالشهداء أحياء بالحياة البرزخية ، متنعمون لأنهم أجسام لطيفة كالملائكة فإنهم موجودون أحياء .

﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ** ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لنعاملنكم معاملة المبتلي ، هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء أو لا ؟ إذ البلاء كالمحك يظهر به جوهر النفس ، وذلك لنظهر لكم المطيع من العاصي ، لا لنعلم شيئاً لم نكن عالمين به ﴿ **بِشَيْءٍ مِنْ الخَوْفِ** ﴾ أي بقليل من خوف الأعداء ، وإنما قلّله لأن ما وقاهم منه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة ﴿ **وَ** ﴾ شيء من ﴿ **الْجُوعِ** ﴾ أي القحط وإنما أخبرهم به قبل وقوعه ، ليوطئوا عليه نفوسهم ، ويسهل لهم الصبر عليه ، فإن مفاجأة المكروه أشد

على النفس ، من إصابته مع ترقبه ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ ﴾ أي وبنقص شيء قليل من ذلك بالسرقة والإغارة وأخذ السلطان والهلاك والخسران ﴿ وَالأَنْفُسِ ﴾ أي بالقتل والموت أو بالمرض والشيب ﴿ والثَّمَرَاتِ ﴾ أي وذهاب ثمرات الكروم والأشجار بالبرد والسموم ، والريح والجراد وغيرها من الآفات ، وفي الحديث : « إذا مات ولدُ العبد قال الله تعالى ماذا قال عبدي ؟ فيقولون حمدك واسترجع، فيقول الله ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد »[1] ، ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ الخطاب للرسول أو لمن يتأتى منه البشارة لتعظيم الصبر وتفخيمه ، لأنه فضيلة عظيمة الثواب ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ على البلايا ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ ﴾ الإصابة ضد الخطأ ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ هي ما يصيب الإنسان من مكروه وأصلها الوصول ، من صاب السهم المرمي وأصابه وصل إليه ﴿ قَالُوا إِنَّا للهِ ﴾ أي نحن عبيد الله، والعبد وما في يده لمولاه فإن شاء أبقاه في أيدينا وإن شاء استرده منا ، فلا نجزع بما هو ملكه بل نصبر ، ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ إقرار على أنفسنا بالهلكة ، وقول المصاب عند مصيبته : ﴿ إِنَّا للهِ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ له فوائد : منها الاشتغال بهذه الكلمة عن كلام لا يليق ، ومنها أنها تسلي قلب المصاب وتقلل حزنه ، ومنها أنها تقطع طمع الشيطان في أن يوافقه في كلام لا يليق ، ومنها أنه إذا سمعه غيره اقتدى به ، ومنها أنه إذا قال ذلك بلسانه يتذكر بقلبه الاعتقاد الحسن ، والتسليم لقضاء الله وقدره ، فإن المصاب يدهش عند المصيبة فيحتاج إلى ما يذكّره بضرورة الاستسلام لله ، وفي الحديث : « ما من مصيبة تصيب عبداً فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ، إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها »[2] . قال سعيد بن جبير : ما أُعطي أحدٌ في المصيبة ما أعطي هذه الأمة يعني الاسترجاع ، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي الصابرون ﴿ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي رحمة ووجه الجمع في الصلوات الدلالة على الكثرة والتكرير ، واستغنى بتنكير التعظيم في رحمة عن إيرادها بلفظ الجمع ، ويندرج في رحمته تعالى أيصال المسار ودفع المضار في الدنيا والآخرة ، فالمعنى عليهم فنون الرحمة المتوالية الفائضة من مالك أمورهم ومبلغهم إلى كمالاتهم اللائقة بهم ، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ المختصون بالاهتداء لكل حق وصواب ، ولذلك استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى .

﴿ إِنَّ الصَّفَا ﴾ عَلَمٌ لجبل بمكة ، وسمي الصفا لأنه جلس عليه آدم صفي الله ﴿ وَالْمَرْوَةَ ﴾ علم لجبل في مكة أيضاً ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ﴾ جمع شعيرة بمعنى العلامة ، أي من أعلام طاعة الله ، فإن كل واحد من المواقف والمساعي والمنحر جعله الله تعالى علامة لنا نعرف به العبادة المختصة به (روي) أنه كان على

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأحمد وابن حبان ، وقال ابن حجر : الحديث حسن . جامع الأصول ٦ / ٤٣٢ .
(٢) الحديث أخرجه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي ، جامع الأصول ٦ / ٤٣٢ .

الصفا صنم على صورة رجل يقال له إساف ، وصنم على المروة على صورة امرأة يقال لها نائلة ، فكان أهل الجاهلية إذا سعوا بين الصفا والمروة مسحوهما تعظيماً لهما ، فلما جاء الإسلام وكسرت الأوثان كره المسلمون الطواف بينهما ، لأنه فعل الجاهلية ، فأذن الله تعالى في الطواف بينهما وأخبر أنهما من شعائر الله ، والحكمة في شرعية السعي بين الصفا والمروة ما حكي أن هاجر لما ضاق عليها الأمر في عطشها وعطش إسماعيل سعت في هذا المكان إلى أن صعدت الجبل ودعت فأنبع الله لها زمزم وأجاب دعاءها فجعلها طاعة لجميع المكلفين إلى يوم القيامة ، ﴿ **فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ** ﴾ الحج في اللغة القصد ، والعمرة الزيارة ، وفي الحج والعمرة المشروعين قصد وزيارة ﴿ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ** ﴾ أي لا إثم عليه ، وأصله من جنح أي مال عن القصد والخير إلى الشر ﴿ **أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا** ﴾ أي في أن يطوف بهما ويدور ، فأزال عنهم الجناح ، لأنهم توهموا أن يكون في ذلك إثم عليهم لأجل فعل الجاهلية ، وأصل ﴿ **يَطَّوَّفَ** ﴾ يتطوف ، وفي إيراد التفعل إيذان بأن من حق الطائف أن يتكلف في الطواف ويبذل فيه جهده ﴿ **وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً** ﴾ أصل التطوع الفعل طوعاً لا كرهاً ، كأنه قيل: من فعل أوْ أتى ما يتقرب به طائعاً ، ﴿ **فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ** ﴾ له أي مجاز بعمله فإن الشاكر في وصف الله تعالى بمعنى المجازي على الطاعة بالإثابة عليها ، ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بطاعة المتطوع ونيته فيها ، وفي الآية حث على نوافل الطاعات كما حثَّ على فرائضها فمن أتى بنافلة واحدة فإن الله شاكر عليم ، فكيف بأكثر منها ، فبالصوم تحصيل قهر النفس وبالزكاة تزكيّها ، وبالصلاة المعراج الروحاني ، وبالحج الوصول .

قيل : بناء الرباط بحيث ينتفع به المسلمون أفضل من الحجة الثانية ، والحج تطوعاً أفضل من الصدقة النافلة ، وحج الفرض أولى من طاعة الوالدين بخلاف النفل ، فعلى العاقل ، أن يقصد بيت الله ويزوره ، فإن لم يساعده المال فلتساعده الهمة والحال ، فإن المعتبر هو توجه القلب إلى جانب الغيب ، لا مجرد توجه القالب .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ** ﴾ الآية نزلت في رؤساء اليهود وأحبارهم ، أو في كل من كتم شيئاً من أحكام الدين وهو الأقرب ، لأن اللفظ عام، وعموم الحكم لا يأبى خصوص السبب ، والكتم والكتمان : تركُ إظهار الشيء قصداً مع الحاجة إليه ، وحصول الداعي إلى إظهاره ، وذلك قد يكون بمجرد ستره وإخفائه ، وقد يكون بإزالته ووضع شيء آخر في موضعه ، وهو الذي فعله هؤلاء في نعوت النبي ﷺ وغيرها ﴿ **مَا أَنْزَلْنَا** ﴾ حال كونه ﴿ **مِنَ البَيِّنَاتِ** ﴾ أي من الآيات الواضحة الدالة على أمر محمد عليه الصلاة والسلام ، وعلى الرجم ، وتحويل القبلة ﴿ **وَالهُدَى** ﴾ أي والآيات الهادية إلى كنه أمره ، ووجوب اتباعه عليه الصلاة والسلام ، والإيمان به ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ** ﴾ أي أوضحناه ولخصناه

﴿ لِلنَّاسِ ﴾ جميعاً لا الكاتمين فقط ﴿ فِي الكِتَابِ ﴾ أي التوراة ، وتبيينه لهم ايضاحه بحيث يتلقاه كل أحد من غير أن يكون فيه شبهة .

﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي أهل هذه الصفة ﴿ يَلْعَنُهُمُ اللهُ ﴾ أي بطردهم ويبعدهم من رحمته بسبب كتمهم الحق ﴿ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴾ أي الذين يتأتى منهم اللعن أي الدعاء عليهم باللعن من الملائكة ومؤمني الثقلين ، أو اللاعنون البهائم والهوام ، تلعن العصاة تقول اللهم العن عصاة بني آدم ، فبشؤمهم منع عنا القطر ﴿ إِلا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ من الكتمان وسائر ما يجب أن يتاب منه ، ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ ما أفسدوا بالتدارك ، فإنه لابد بعد التوبة من إصلاح ما أفسده ، مثلاً لو أفسد على غيره دينه بإيراد شبهة عليه يلزمه إزالة تلك الشبهة ، ﴿ وَبَيَّنُوا ﴾ أي ما بينه الله في كتابهم لتتم توبتهم ، فدلت الآية على أنَّ التوبة لا تحصل إلا بترك كل ما لا ينبغي ، وبفعل كل ما ينبغي ﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي بالقبول وإفاضة الرحمة والمغفرة ، ﴿ وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المبالغ في قبول التوبة ونشر الرحمة ، ولما ذكر لعنتهم أحياء ذكر لعنتهم أمواتاً فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي استمروا على الكفر ، المستتبع للكتمان وعدم التوبة ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ مصرون على كفرهم لا يرتدعون عن حالتهم الأولى ﴿ أُولَئِكَ ﴾ مستقر ﴿ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أي هم المخصوصون باللعنة الأبدية ، أحياء وأمواتاً ، والناس عام لأن الكفار يوم القيامة يلعن بعضهم بعضاً ، والله تعالى يلعنهم يوم القيامة ، ثم تلعنهم الملائكة ، ثم تلعنهم الناس ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي دائمين في اللعنة ، لأنهم خلدوا في النار ، وخلدوا في الإبعاد عن رحمة الله تعالى ﴿ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ ﴾ أي لا يرفع عنهم ولا يهون عليهم ﴿ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ من الإنظار بمعنى الإمهال والتأجيل ، أي لا يمهلون للرجعة ولا للتوبة ولا للمعذرة ، أو يعذبون على الدوام والاستمرار ، وأنهم لا يمهلون ولا يؤجلون ساعة ليستريحوا فيها ، وإنما خلدوا في النار ، لأن نيتهم كانت عبادة الأصنام أبداً إن عاشوا ، فجوزوا بتأبيد العذاب ، وأما الدركات في النيران فلتفاوت سوء الأحوال .

وإنما حمل هؤلاء اليهود على ما فعلوا من الكتمان وغيره حب الرياسة في الدنيا لأنهم خافوا أن يذهب مأكلتهم من السفلة وما يغني عنهم ذلك شيئاً إذا كان مصيرهم إلى النار ، ﴿ وَإِلَهُكُمْ ﴾ خطاب عام لكافة الناس أي المستحق منكم للعبادة ﴿ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ فرد في الآلهية لا شريك له فيها ، ولا يصح أن يسمى غيره إلهاً ، فلا معبود إلا هو ، ﴿ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ تقرير للوحدانية ، وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً ولكن لا يستحق منهم العبادة ، يعني بهذا فاعرفوه ودائماً فاعبدوه ، ولا ترجوا غيره ، ولا تخافوا سواه ، ولا تعبدوا إلا إياه .

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ أي المولي لجميع النعم ، أصولها وفروعها ، فثبت أن غيره لا يستحق العبادة ، فلا يكون إلهاً فقوله : « الرحمن الرحيم » كالحجة على الوحدانية ، قيل : كان للمشركين حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فلما سمعوا هذه الآية تعجبوا ، وقالوا : كيف يسع الناس إله واحد ؟ فإن كان محمد صادقاً في توحيد الإله ، فليأتنا بآية نعرف بها صدقة فنزل قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي في إبداعهما على ما هما عليه ، مع ما فيهما من تعاجيب العبر ، التي يعجز عن فهمها عقول البشر ، ﴿ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ﴾ أي في تعاقبهما في الذهاب والمجيء ، يخلف أحدهما صاحبه ، إذا جاء أحدهما تلاه الآخر خلفه ، أي بعده ، وفي الزيادة والنقصان ، والظلمة والنور ﴿ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ ﴾ لا ترسب تحت الماء وهي ثقيلة كثيفة ، والماء خفيف لطيف ، وتقبل وتدبر بريح واحدة ، والفلك في الآية جمع وتأنيثه بتأويل الجماعة ﴿ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ أي تجري مصحوبة بالأعيان والمعاني التي تنفع الناس ، فإنهم ينتفعون بركوبها ، والحمل فيها للتجار ، فهي تنفع الحامل ، لأنه يربح والمحمول إليه لأنه ينتفع بما حمل إليه ﴿ وَمَا ﴾ أي إن فيما ﴿ أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي من جهة السماء ﴿ مِنْ مَاءٍ ﴾ بيان للجنس فإن المنزل من السماء يعم الماء وغيره ، والسماء يحتمل الفلك على ما قيل من أن المطر ينزل من السماء إلى السحاب ، ومن السحاب إلى الأرض ، ويحتمل جهة العلو سماء كانت أو سحاباً ، فإن كل ما علا الإنسان يسمى سماءً ، ومنه قيل للسقف سماء البيت ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ﴾ عطف على ما أنزل أي نضّر بالماء النازل ﴿ الأَرْضَ ﴾ بأنواع النبات والأزهار ، وما عليها من الأشجار ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أي بعد ذهاب زرعها وتناثر أوراقها باستيلاء اليبوسة عليها والنضارة والبهاء والنماء فكذلك القلوب إذا تزينت بالقوة المنبتة وما يترتب عليها من أنواع النبات ﴿ وَبَثَّ فِيهَا ﴾ أي فرّق ونشر في الأرض ﴿ مِنْ كُلِ دآبَةٍ ﴾ من كل حيوان يدب على وجهها من العقلاء وغيرهم ، وهو معطوف على (فَأَحْيَا) ، والمناسبة أن بث الدواب يكون بعد حياة الأرض بالمطر ، لأنهم ينمون بالخصب ويعيشون بالمطر ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾ أي في تقليبها في مهابها قَبُولاً ودَبُوراً ، وشمالاً وجنوباً ، وفي كيفيتها حارة وباردة ، وفي أحوالها عاصفة ولينة ، وفي آثارها عقيماً ولواقح ، وفي إتيانها تارة بالرحمة وتارة بالعذاب ، قال ابن عباس : أعظم جنود الله الريح والماء ، وسميت ريحاً لأنها تريح النفوس ، وقال وكيع الجراح : لولا الريح والذباب لأنتنت الدنيا ، ﴿ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ ﴾ أي الغيم المذلل المنقاد الجاري على ما أجراه الله تعالى عليه ، وهو اسم جنس ، واحده سحابة ، وسمي سحاباً لأنه ينسحب في الجو أي يسير في سرعة كأنه يسحب أي يجر ﴿ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ﴾ صفة للسحاب باعتبار لفظه وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما في قوله تعالى (سَحَاباً ثِقَالاً) أي لا ينزل الأرض ولا ينكشف مع أن طبع السحاب يقتضي أحد هذين : النزول ، والانكشاف . قيل لأنه لو كان خفيفاً لطيفاً ينبغي أن

يصعد ولو كثيفاً يقتضي أن ينزل ﴿ لآيَاتٍ ﴾ أي آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة ، والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة المقتضية لاختصاص الألوهية به سبحانه ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لقوم يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون العقول والقلوب ، ويعتبرون بها لأنها دلائل على عظم قدرة الله فيها وباهر حكمته ، فيستدلون بهذه الأشياء على موجدها فيوحدونه ، وفيه تعريض لجهل المشركين الذين اقترحوا على الرسول آية تصدقه في قوله تعالى (وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ) وتسجيل عليهم بسخافة العقول ، إذْ لو عَقَلوه لكفاهم بهذه التصاريف آية، قال رسول الله ﷺ : « ويل لمن قرأ هذه الآية فمجَّ بها » المج حقيقة قذف الريق ونحوه من الفم ، واستعير ههنا لعدم الاعتبار والاعتداد ، فإن من تفكر فيها فكأنه حفظها ولم يلقها من فيه ، وكأن العالم مرآة يظهر فيه آيات كمال الحق وجلاله ، والإنسان هو المشاهد لآيات الجمال والجلال في مرآة العَالَمَ ، وهو مرآة يظهر فيه مرآة العالم كما قال تعالى (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ، فاعرف قدرك لتعرف قدر ربك يا مسكين ، ومما يدل على أن خلق السموات والأرض وما بينهما تبع لخلق الإنسان قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله »[1] يعني إذا مات الإنسان الذي يقول « الله الله » قامت القيامة ، فلم تبق السموات والأرض ، لأن وجودهما كان تبعاً لوجود الإنسان ، فإذا لم يبق المتبوع ما بقي التابع ، فعلى السالك أن يصل بالذكر الحقيقي إلى المقصود الأصلي ، فإن التوحيد ينفي الباطل وينفي الأغيار ، روي أن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأبي حصين : « كم تعبد اليوم من إله ؟ فقال : أعبد سبعاً ، ستاً في الأرض وواحداً في السماء ، قال : وأيهم تعبده لرغبتك ورهبتك ؟ فقال : الذي في السماء ، فقال عليه الصلاة والسلام : فيكفيك إله السماء » ثم قال : « يا حصين لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك ، فأسلم حصين ثم قال : يا رسول الله علمني هاتين الكلمتين . فقال عليه الصلاة والسلام : قل اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي »[2] ، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ «مِنْ » لابتداء الغاية و(دُونِ) في الأصل ظرف مكان استعمل هنا بمعنى (غير) مجازاً ، ﴿ أَنْدَاداً ﴾ هي الأصنام التي بعضها أنداد لبعض أي أمثال ، أو أنها أنداد الله تعالى بحسب ظنونهم الفاسدة ، من حيث إنهم كانوا يرجون من عندها النفع والضرر ، وقصدوها بالمسائل وقربوا لها القرابين ، فإرجاع ضمير العقلاء إليها في قوله تعالى ﴿ يُحِبُّونَهُمْ ﴾ مبني على آرائهم الباطلة في شأنها ، من وصفهم بما لا يوصف به إلا العقلاء ، أو هي الرؤساء الذين يطيعونهم .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، ولم أر الحديث الأول « ويلٌ لمن قرأ الآية فمجَّ بها » فيما طالعته من المراجع .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب .

وقوله تعالى ﴿ يُحِبُّونَهُمْ ﴾ الجملة صفة لأنداداً أي يعظمونهم ويخضعون لهم ويطيعونهم تعظيم المحبوب وإطاعته ﴿ كَحُبِّ اللهِ ﴾ أي حباً كائناً مثل حبهم الله تعالى ، أي يسوُّون بينه تعالى وبينهم في الطاعة والتعظيم ، ثم فصل محبة المؤمنين بقوله ﴿ والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ ﴾ من حب الكفرة لأندادهم ، لأنه لا تنقطع محبتهم لله ، بخلاف محبة الأنداد ، فإنها لأغراضٍ فاسدة موهومة تزول بأدنى سبب ، ولذلك كانوا يعدلون عن آلهتهم إلى الله تعالى عند الشدائد ، ويعبدون الصنم زماناً فإذا رأوا صناً يعجبهم أخذوه وطرحوا الأول ، وروي أن باهلة عملت لها إلهاً من تمرٍ فأكلوه عام المجاعة ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي لو يعلم هؤلاء الذين أشركوا باتخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود ﴿ إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ ﴾ المعد لهم يوم القيامة أي عاينوه فهي من الرؤية بالعين ﴿ أَنَّ القُوَّةَ ﴾ أي الغلبة والقدرة الآلهية ﴿ للهِ جَمِيعاً ﴾ نصب حالا ، والجملة سادة مسد مفعولي يرى ﴿ وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ العَذَابِ ﴾ عطف على ﴿ أَنَّ القُوَّةَ ﴾ وفائدته المبالغة في تهويل الخطب ، وتفظيع الأمر ، وجواب « لو » محذوف أي لو علم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم بشركهم أن القدرة كلها لله على كل شيء من الثواب والعقاب دون أندادهم ، ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة ، لوقعوا من الحسرة والندامة على عبادة الأنداد فيما لا يكاد يوصف ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا ﴾ أصل التبري التخلص مما تكره مجاورته ، والمعنى إذ تبرأ الرؤساء المتبوعون ﴿ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ أي من الأتباع بأن اعترفوا ببطلان ما كانوا يدعونه في الدنيا ويدعونهم إليه من فنون الكفر والضلال ، واعتزلوا عن مخالطتهم وقابلوهم باللعن ﴿ وَرَأَوُا العَذَابَ ﴾ أي تبرأوا حال رؤيتهم العذاب ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ أي انقرضت عنهم الوُصَلُ التي كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ، والأنساب والأتباع أي تقطعت بسبب كفرهم الأسباب التي كانوا يرجون بها النجاة ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ حين عاينوا تبري الرؤساء منهم وندموا على ما فعلوا من اتباعهم لهم في الدنيا ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ﴾ أي ليت لنا رجعة إلى الدنيا وعودة ﴿ فَنَتَبَرأَ مِنْهُمْ ﴾ هناك ﴿ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ﴾ اليوم أي تبرُّؤ مثل تبرئهم ﴿ كَذٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الإبراء الفظيع ﴿ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ندامات شديدة ، فإن الحسرة شدة الندم والكمد ، وهي تألم القلب وانحساره عما يؤلمه ، منصوب على أنه صفة لحسرات أي حسرات مستولية عليهم ، فإن ما عملوا من الخيرات محبوطة بالكفر ، فيتحسرون لم ضيَّعوها ؟ ويتحسرون على ما فعلوا من المعاصي لم عملوها ؟ قال السدي : ترفع لهم الجنة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله ، فيقال لهم : تلك مساكنكم لو أطعتم الله ، ثم تقسم بين المؤمنين وذلك حين يندمون ويتحسرون ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ لأنهم خلقوا لأجلها ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ نزلت في قوم حرَّموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس ﴿ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ ﴾ أي من بعض ما فيها من أصناف المأكولات ، لأن

كل ما فيها لا يؤكل ﴿ حَلالاً ﴾ حال من الموصول أي حال كونه حلالاً ﴿ طَيِّباً ﴾ طاهراً من جميع الشبه ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ الخَطْوة بالفتح المرة من نقل القدم ، وبالضم : بُعْدُ ما بين قدمي الماشي ، يقال : اتَّبع خُطواته ووطىء على عقبه ، إذا اقتدى به واستن بسنته ، أي لا تقتدوا بآثاره وطرقه ومذاهبه في اتباع الهوى ، وهي وساوسه ، فتحرِّموا الحلال وتحللوا الحرام ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ تعليل للنهي أي ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة ، وأما عند متبعي الهوى الذين لا بصيرة لهم ، فهو كولي حميم ، حيث يدلهم على مشتهيات نفوسهم ، ولذائذ مراداتها المستحسنة ، فقوله : ﴿ مُبِينٌ ﴾ من أبان بمعنى بان وظهر ، وجعله الواحدي من أبان المتعدي حيث قال إنه عدو مبين ، قد أبان عداوته لكم بإبائه السجود لأبيكم آدم ، وهو الذي أخرجه من الجنة ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ ﴾ أي يوسوس لكم ، شبه تسلطه عليهم بآمر مطاع ، وشبهوا في قبولهم للوسوسة وطاعتهم له بمأمور مطيع ، وفيه رمز إلى أنهم بمنزلة المأمورين المنقادين له ، تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم ﴿ بِالسُّوءِ ﴾ وهو كل ما ساءك في عاقبتك ، يطلق على جميع المعاصي ، سواء كانت من أعمال الجوارح أو أعمال القلوب ، لاشتراك كلها في أنها تسوء صاحبها وتحزنه ﴿ وَالفَحْشَاءِ ﴾ أي أقبح أنواع المعاصي وأعظمها مساءة ، فالزنى فاحشة ، والبخل فاحشة ، وكل فعلة قبيحة فاحشة ، وأصل الفحش مجاوزة القدر في كل شيء ، ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا ﴾ أي يأمركم بأن تفتروا ﴿ عَلَى اللهِ ﴾ بأنه حرَّم هذا وذاك ﴿ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أن الله تعالى أمر به ، وهو أقبح ما أمر به الشيطان من القبائح ، لأنه وصفه تعالى بما لا ينبغي أن يوصف به ، من أعظم أنواع الكبائر ، كما أن الفحشاء أقبح أنواع السوء ، فإن قيل : كيف يأمرنا الشيطان بذلك ونحن لا نراه ولا نسمع كلامه ؟ فكيف وسوسته وكيف وصوله إلى القلب ؟ قلنا : هو كلام خفي تميل إليه النفوس والطبع ، وقد قيل : يدخل في جسد ابن آدم ، لأنه جسم لطيف ويوسوس وهو أنه يُحدِّث النفس بالأفكار الرديئة قال تعالى : (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ) ومن دعاء النبي ﷺ : « اللهم اطرد عني وساوس الشيطان » ، قال في آكام المرجان : وينحصر ما يدعو الشيطان إليه ابن آدم ويوسوس له في ست مراتب : المرتبة الأولى : مرتبة الكفر والشرك ومعاداة رسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم استراح من تعبه معه ، لأنه حصل منتهى أمنيته ، وهذا أول ما يريده من العبد ، المرتبة الثانية : البدعة وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي ، لأن المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها ، لأن صاحبها يظنها صحيحة فلا يتوب ، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الثالثة : وهي الكبائر على اختلاف أنواعها ، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الرابعة : وهي الصغائر التي إذا اجتمعت صارت كبيرة ، والكبائر ربما أهلكت صاحبها كما قال عليه الصلاة والسلام : « إياكم ومحقَّرات الذنوب ، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا

بفلاة من الأرض ، فجاء كل واحد بعود حطب ، حتى أوقدوا ناراً عظيمة وطبخوا وشبعوا »[1] فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الخامسة : وهي اشتغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب ، بل عقابها فوات الثواب الذي فات عليه باشتغاله بها ، فإن عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة السادسة : وهي أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل ، وإنما خلق الله إبليس ليتميز به الخبيث من الطيب ، فخلق الله الأنبياء لتقتدي بهم السعداء ، وخلق إبليس لتقتدي به الأشقياء ويظهر الفرق بينهما ، فإبليس دلالٌ وسمسار على النار وبضاعته الدنيا . فعلى العاقل أن يزهد ويرغب عن الدنيا ولا يقبل منها إلا الحلال الطيب .

وطلب الحلال بالكسب المشروع سنّة الأنبياء عليهم السلام ، وفي الكسب فوائد كثيرة : منها الزيادة على رأس المال إن عمل للتجارة والزراعة وغرس الأشجار ، وفيها صدقة لما أكلته الطيور وغيرها ، ومنها اشتغال المكتسب بالكسب عن البطالة واللهو ، ومنها كسر النفس وصيرورتها قليلة الطغيان ، ومنها أن الكسب واسطة الأمان من الفقر الذي هو اسوداد الوجه في الدارين ، وأفضل الكسب الجهاد ، ثم التجارة ، ثم الحراسة ، ثم الصناعة ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ** ﴾ نزلت في مشركي العرب وكفار قريش أُمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل تعالى من البينات الباهرة ، فجنحوا للتقليد أي وإذا قيل للمشركين من الناس على وجه النصيحة والإرشاد ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ** ﴾ كتاب الله الذي أنزله ، فاعملوا بتحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله في القرآن ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴿ **قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا** ﴾ أي وجدنا ﴿ **عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾ من اتخاذ الأنداد وتحريم الطيبات ونحو ذلك ، لأنهم كانوا خيراً منا ، فقلدوا آباءهم ، فانظروا أيها العقلاء إلى هؤلاء الحمقى ، ماذا يجيبون ؟ قال تعالى رداً عليهم بهمزة الإنكار والتعجب ﴿ **أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ** ﴾ والمعنى أيتبعونهم ولو كان آباؤهم ﴿ **لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً** ﴾ من الدين ، لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا ﴿ **وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾ للصواب والحق ، يعني هذا منكر مستبعد جداً ، لأن اتباع من لا عقل له ، ولا اهتداء له إلى الطريق الحق ، لا وجه له أصلاً ﴿ **وَمَثَلُ** ﴾ واعظ ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ وداعيهم إلى الحق ﴿ **كَمَثَلِ** ﴾ الراعي ﴿ **الَّذِي يَنْعِقُ** ﴾ نعق الراعي والمعنى يصوّت ﴿ **بِمَا لا يَسْمَعُ** ﴾ وهو البهائم أي لا يدرك بالاستماع ﴿ **إلا دُعَاءً** ﴾ صوتاً من الناعق ﴿ **وَنِدَاءً** ﴾ زجراً مجرداً من غير فهم شيء آخر ، شبّه داعي الكافر بالناعق ، ونفس الكفرة بالبهائم المنعوق بها ، ودعاء داعي الكفرة بنعيق الناعق بالبهائم ، والمعنى مثلك يا محمد ومثل الذين كفروا ، في وعظهم ودعائهم إلى الله وعدم اهتدائهم ، كمثل الراعي الذي يصيح بالغنم ويكلمها ويقول : كلي ،

(١) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وأحمد في المسند وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٩١ .

واشربي ، وارعي ، وهي لا تفهم شيئاً مما يقول لها ، كذلك هؤلاء الكفار كالبهائم ، لا يعقلون عنك ولا عن الله شيئاً ﴿ صُمٌّ ﴾ أي هم صم يعني كأنهم يتصامون عن سماع الحق ﴿ بُكْمٌ ﴾ بمنزلة الخرس في أنهم لم يستجيبوا لما دعوا إليه ﴿ عُمْيٌ ﴾ بمنزلة العُمْي من حيث إعراضهم عن الدلائل كأنهم لم يشاهدوها ، ثم إنه تعالى لما شبههم بفاقدي هذه القوى الثلاث التي يتوسل بها إلى تمييز الحق من الباطل ، واختيار الحق ، فرَّعَ على هذا التشبيه قوله ﴿ فَهُمْ لا يَعْقِلُونِ ﴾ أي لا يكتسبون الحق لأن اكتسابه إنما يكون بالنظر والاستدلال ، ومن كان كالأصم والأعمى في عدم استماع الدلائل ومشاهدتها ، كيف يستدل على الحق ويعقله ؟ وليس المراد نفي أصل العقل ، لأن نفيه لا يصلح طريقاً للذم ، وهكذا لا ينفع الوعظ في آخر الزمان ، لأن آذان الناس مسدودة عن استماع الحق ، وأذهانهم مصدودة عن قبوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا ﴾ رزقكم ﴿ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أي من حلالاته أو من لذيذاته ، لأنه أعم من المستلذ والمستكره ، وهذا المعنى هو المناسب لهذا المقام ، وأولى من حمله على الحلال الطاهر من الشبهة ، لأن المقام مقام الامتنان ، بما رزقه من لذائذ الإحسان وطلب شكر المنعم المنان ، والطيب له ثلاثة معان : المستلذ طبعاً ، والمباح شرعاً والطاهر وضعاً ، وفي الآية إشارة إلى أنه لا بأس بالتفكه بأنواع الفواكه ، لأنها من الطيبات وتركه أفضل ، لئلا يدخل تحت قوله تعالى (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) والأمر بأكل الطيبات لفائدتين : إحداهما : أن يكون أكلهم بالأمر ، لا بالطبع ، فيمتازون عن الحيوانات ، ويخرجون من حجاب ظلمة الطبع بنور الشرع ، والثاني : ليثيبهم بائتمار أمر الأكل ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ الذي رزقكموها وأحلها لكم ، والشكر صرف العبد جميع أعضائه ، الظاهرة والباطنة إلى ما خلقت لأجله ، وهذا الأمر ليس أمر إباحة بل هو للإيجاب ، إذ لا شك في أنه يجب على العاقل ، أن يعتقد بقلبه أن من أوجده وأنعم عليه بما لا يحصى من النعم الجليلة ، مستحق لغاية التعظيم ، وأن يظهر ذلك بلسانه وبسائر جوارحه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أي إن كنتم مؤمنين بالله ومخصصين الله بالعبادة ، فاشكروا له ، فإن الإيمان يوجب ذلك وهو من شرائطه ، وفي الحديث القدسي : « يقول الله تعالى : إني والإنس والجن لفي نبأ عظيم ، أخلق ويُعْبد غيري ، وأرزق ويُشكر غيري » .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ أي ما مات بغير ذكاة ، مما يذبح ، والسمك والجراد مستثنيان بالشرع ، والمراد بتحريم الميتة تحريم أكلها وشرب لبنها ، أو الانتفاع بها ، لأن الأحكام الشرعية إنما تتعلق بالأفعال دون الأعيان ﴿ وَالدَّمَ ﴾ الجاري ، والكبد والطحال مستثنيان أيضاً بالعرف فهما حلالان ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ قد انعقد الإجماع على أن الخنزير حرام لعينه ، فيكون جميع أجزائه محرماً ، وإنما

خصَّ الله لحمه بالذكر ، لأنه معظم ما ينتفع به من الحيوان ، فهو الأصل وما عداه تبع له ﴿ **وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ** ﴾ أي وحرم ما رفع به الصوت عند ذبحه للصنم ، وأصل الإهلال رفع الصوت ، وكانوا إذا ذبحوا لآلهتهم يرفعون أصواتهم بذكرها ، ويقولون : باسم اللات والعزى ، قال العلماء : لو ذبح مسلم ذبيحة وقصد بها التقرب إلى غير الله صار مرتداً وذبيحته ميتة ، وذبائح أهل الكتاب تحل لنا لقوله تعالى (**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ**) إلا إن سموا غير الله فإنها حينئذ لا تحل لهذه الآية ، فإن قوله تعالى (**وَطَعَامُ الَّذِينَ**) الخ عام وقوله ﴿ **وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ** ﴾ خاص مقدم على العام ﴿ **فَمَنْ اضطُرَّ** ﴾ أي أُحوج وأُلجىء إلى أكل شيء مما حرم الله ، بأن لا يجد غيرها ، وحدُّ الاضطرار أن يخاف على نفسه ، أو على بعض أعضائه التلف ﴿ **غَيْرَ** ﴾ نصب على الحال تقديره فمن اضطره أحد أمرين ، إلى تناول شيء من هذه المحرمات : أحدها : الجوع الشديد ، مع عدم وجدان مأكول حلال يسد رمقه ، وثانيهما : الإكراه على تناوله ، فتناول أكله حال كونه غير ﴿ **بَاغٍ** ﴾ على مضطر آخر بأن حصل ذلك المضطر الآخر من الميتة مثلاً قدر ما يسد به جوعته ، فأخذه منه وتفرد بأكله ، وهلك الآخر جوعاً [1] ، ﴿ **وَلا عَادٍ** ﴾ من التعدي والتجاوز في الأمر أي غير متجاوز حد الشبع عند الأكل بالضرورة بأن يأكل قدر ما يحصل به سد الرمق والجوع ﴿ **فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ في تناوله عند الضرورة ﴿ **إِنَّ اللهَ غَفُورٌ** ﴾ لما أكل في حال الاضطرار ﴿ **رَحِيمٌ** ﴾ بترخيصه ذلك ، ولم يذكر في هذه الآية سائر المحرمات لأنها ليست لحصر المحرمات بل هذه الآيات سيقت لنهيهم عن استحلال ما حرم الله ، وهم كانوا يستحلون هذه الأشياء ، فكانوا يأكلون الميتة ويقولون تأكلون ما أمتُّم ولا تأكلون ما أماته الله ، وكذا يأكلون الدم ولحم الخنزير وذبائح الأصنام ، فبين أنه حرمها ، فالمراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحلوه لا مطلقاً .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ** ﴾ نزلت في أحبار اليهود ، فإنهم كانوا يرجون أن يكون النبي المنعوت في التوراة منهم ، فلما بعث الله نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام من غيرهم ، غيَّروا نعته ، ﴿ **يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ** ﴾ وهو التوراة المشتمل على نعت محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ **وَيَشْتَرُونَ بِهِ** ﴾ أي بدل المنزل المكتوم ﴿ **ثَمَناً قَلِيلاً** ﴾ أي يأخذون عوضاً حقيراً من الدنيا ، يعني المآكل التي يصيبونها من سفلتهم ﴿ **أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ** ﴾ أما في الآخرة فظاهر ، لأنهم لا يأكلون يوم القيامة إلا عين النار ، عقوبة لهم على أكلهم الرشوة ، وأما في الدنيا فبأكل سببها، فإن أكلهم ما أخذوه من

---

(١) هكذا فسره الشيخ ، والأظهر أن المراد بقوله تعالى ﴿ **غَيْرَ بَاغٍ** ﴾ أي : غير ساعٍ في الأرض بالفساد ، كما قال مجاهد : من خرج باغياً في معصية الله فلا رخصة له وإن اضطر إليه ، وقال ابن عباس : لا يشبع من الميتة ، وقال قتادة : غير باغٍ في أكله بأن يتعدى حلالاً إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة . اهـ وانظر مختصر ابن كثير ١ / ١٥١ .

أتباعهم سبب مؤد إلى أن يعاقبوا بالنار ، فإطلاق النار عليه من قبيل إطلاق اسم المسبب على السبب ، ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ أي لا يكلمهم الله بطريق الرحمة غضباً عليهم ، فليس المراد به نفي الكلام حقيقة لئلا يتعارض بقوله تعالى (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) ونحوه بل هو كناية عن الغضب ، لأن نفي الكلام لازم للغضب عرفاً ، وعادة الملوك عند الغضب أنهم يعرضون عن المغضوب عليهم ولا يكلمونهم ، كما أنهم عند الرضى يتوجهون إليهم بالملاطفة ﴿ وَلا يُزَكِّيهِمْ ﴾ ولا يطهرهم من دنس الذنوب ، يوم يطهر المؤمنين من ذنوبهم بالمغفرة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وجع دائم مؤلم ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المشترون بكتاب الله ثمناً قليلاً ﴿ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ ﴾ التي ليست مما يمكن أن يُشترى قطعاً ﴿ بِالهُدَىٰ ﴾ الذي ليس من قبيل ما يبذل بمقابلة شيء وإن جلَّ ﴿ وَالعَذَابَ ﴾ أي اشتروا العذاب الذي لا يتوهم كونه من المشترى ﴿ بِالمَغْفِرَةِ ﴾ التي يتنافس فيها المتنافسون ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ أي ما أصبرهم على أعمال أهل النار ؟ حين تركوا الهدى وسلكوا مسالك الضلال ، ﴿ ذَلِكَ ﴾ العذاب بالنار ﴿ بِأَنَّ اللهَ ﴾ أي بسبب أنه ﴿ نَزَّلَ الكِتَابَ ﴾ أي جنس الكتاب ﴿ بِالحَقِّ ﴾ أي حال كونه ملتبساً بالحق ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ ﴾ أي في جنس الكتاب الإلهي ، بأن آمنوا ببعض كتب الله ، وكفروا ببعضها ، أو في التوراة بأن آمنوا ببعض آياتها وكفروا ببعض كالآيات المغيِّرة المشتملة على أمر بعثة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ونعوته الكريمة ﴿ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ أي خلاف بعيد عن الحق والصواب ، مستوجب لأشد العذاب . اعلم أن في هذه الآيات وعيداً عظيماً لكل من يكتم الحق لغرض فاسد دنيوي ، فليحذر العلماء أن يكتموا الحق وهم يعلمون وإنما يكتمونه عن الملوك والأمراء ، إما خوفاً من نقصان قدرهم عندهم ، وإما طموحاً إلى إحسانهم ، أو لأنهم شركاؤهم في بعض أحوالهم من حب الدنيا وجمعها ، والحرص على طلبها أو طلب مناصبها ، فعند ذلك يداهنون ويأكلون ثمناً قليلاً ، ولا يأكلون إلا نار الحرص والشهوة والحسد .

فأولئك المداهنون من العلماء هم الذين اشتروا حب الدنيا بهدى إظهار الحق ، وآثروا الخلق على الحق ، والمداهنة على أفضل الجهاد وقد قال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » [1] ، قال الحسن : إن الزبانية إلى فسقة حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان فيقولون ربنا ما بالنا يتقدمون إلينا ؟ فيقول الله ليس من يعلم كمن لا يعلم ، فمن اشترى الدنيا بالدين فقد وقع في خسران مبين .

﴿ لَيْسَ البِرَّ ﴾ هو كل فعل مرضي ، يفضي بصاحبه إلى الجنة ﴿ أَنْ تُوَلُّوا ﴾ أي أن تصرفوا يا

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه والطبراني وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ٢٠٨ .

أهل الكتابين ﴿ وُجُوهَكُمْ ﴾ في الصلاة ﴿ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أي مقابلها ظرف مكان لقوله « تُوَلُّوا » ، وذلك أن اليهود والنصارى أكثروا الخوض في أمر القبلة ، وزعم كل واحد من الفريقين أن البر هو التوجه إلى قبلته ، فردَّ الله عليهم فقال ليس البر ما أنتم عليه ، ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ ﴾ الذي ينبغي أن يهتم بشأنه ﴿ مَنْ ﴾ أي بر من آمن على حذف مضاف ﴿ آمَنَ بِاللهِ ﴾ وحده إيماناً بريئاً من شائبة الإشراك ﴿ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أي بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال على أنه كائن لا محالة ، ولما كان الإيمان باليوم الآخر متفرعاً على الإيمان بالله ، ذكر الإيمان به عقيب الإيمان بالله ﴿ وَالْمَلائِكَةِ ﴾ بأنهم عباد الله ، ليسوا بذكور ولا إناث ، مكرَّمون عنده متوسطون بينه وبين أنبيائه ، ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ أي بجنس الكتاب الإلهي الذي من أفراده الفرقان ﴿ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ جميعاً بأنهم المبعوثون إلى خلقه والصادقون عنه في أمره ونهيه ، من غير تفرقة بين أحد منهم ، وهذا أي الإيمان بالأمور الخمسة المذكورة ، أصول الدين وقواعد العقائد ﴿ وَآتَى الْمَالَ ﴾ أي الصدقة من ماله ﴿ عَلَى حُبِّهِ ﴾ أي آتاه كائناً على حب المال كما قال عليه الصلاة والسلام لما سئل أي الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلتَ : لفلانٍ كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان »[١] .

﴿ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ قدمهم لأنهم أحق بالصدقة لقوله عليه الصلاة والسلام : « صدقتك على المسلمين صدقة وعلى ذي رحمك اثنتان »[٢] لأنها صدقة وصلة وقال أيضاً : « أفضل الصدقة على ذي الرَّحم الكاشح »[٣] ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ الفقراء منهم لا الأغنياء ، وقدم اليتامى على سائر المصارف ، لأن الصغير الفقير الذي لا والد له ولا كاسب ، أشد احتياجاً من المساكين ومن ذكر بعدهم ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ جمع مسكين والمسكين ضربان : من يكفُّ عن السؤال وهو المراد ههنا ، ومن ينبسط ويسأل وهذا القسم داخل في قوله « والسائلين »، وهو مبالغة الساكن فإن المحتاج يزداد سكونه إلى الناس على حسب ازدياد حاجته ﴿ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ أي المسافر البعيد عن ماله ، وسمي به لملازمته له فكأنه ولد منه قال ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[٤] ﴿ وَالسَّائِلِينَ ﴾ الذين ألجأتهم الحاجة والضرورة إلى السؤال وفي الحديث : « للسائل حق ولو جاء على ظهر فرسه »[٥] .

﴿ وَفِي ﴾ تخليص ﴿ الرِّقَابِ ﴾ بمعاونة المُكَاتَبين ، جمع رقبة وهي مؤخر العنق ، وإذا قيل أعتق

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط بلفظ : « صدقةُ ذي الرحم ، صدقةٌ وصلةٌ » .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والطبراني عن حكيم بن حزام وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٠٩ ومعنى الكاشح : الذي يضمر العداوة.

(٤) هذا جزء من حديث أخرجه النسائي وابن ماجه وأحمد بن حنبل في المسند ، وأصله في الصحيحين .

(٥) أخرجه أبو داود وأحمد ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٢٦ .

الله رقبته يراد أن الله تعالى خلصه من ملازمة العذاب إياه ، وقيل : المراد بهم أرقاء يشتريهم الأغنياء لإعتاقهم ، وقيل المراد بهم الأسارى فإن الأغنياء يؤتون المال في تخليصهم ، فهذا هو البر ببذل الأموال على وفق مراد الله تعالى إلى المصارف المذكورة ، ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ ﴾ المفروضة عطف على « مَنْ » أي من آمن وآتى وأقام ﴿ وَآتَىٰ الزَّكَاةَ ﴾ المفروضة ، على أن المراد بما مر من إيتاء المال ، التنفل بالصدقة ، قدم على الفريضة مبالغة في الحث عليه ، ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ ﴾ من الأوامر والنواهي أو النذور ﴿ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ فيما بينهم وبين الله ، وفيما بينهم وبين الناس ، إذا وعدوا أنجزوا ، وإذا حلفوا أو نذروا أوفوا ، وإذا قالوا صدقوا ، وإذا ائتمنوا أدوا .

﴿ وَالصَّابِرِينَ ﴾ منصوب على المدح بتقدير أعني ، غيَّر سَبْكه تنبيهاً على فضيلة الصبر ومزيته أي وأعني الذين صبروا ﴿ فِي الْبَأْسَاءِ ﴾ أي في الفقر والشدة ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾أي المرض والزمانة ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ أي وقت الشدة ، والبأسُ شدة القتال خاصة ، وهو في الأصل مطلق الشدة ، والحاصل أنه لما حُوِّلت القبلة وكثر خوض أهل الكتاب في نسخها ، صار كأنهم قالوا مدار البر والطاعة هو الاستقبال ، فأنزل الله هذه الآية كأنه تعالى قال : ما هذا الخوض الشديد في أمر القبلة مع الإعراض عن كل أركان الدين ، فصفة البِّر لا تحصل بمجرد استقبال المشرق والمغرب ، بل البر لا يحصل إلا بمجموع الأمور المذكورة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي أهل هذه الصفة ﴿ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ في الدين واتباع الحق ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل ، والآية جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها ، دالة عليها تصريحاً أو ضمناً ، فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس ، وقد أشير إلى الأول بقوله وأقام الصلاة إلى آخرها ، ولذلك وُصف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده ، وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَىٰ ﴾ الخطاب لأئمة المؤمنين ، أوجب الله تعالى على الإمام وعلى من يجري مجراه ويقوم مقامه ، إقامة القصاص ، والتقدير يا أيها الأئمة فرض عليكم استيفاء القصاص ، إن أراد ولي الدم استيفاءه ، والقصاص : أن يُفعل بالإنسان مثل ما فعل ، فهو عبارة عن التسوية والمماثلة في الأنفس والأطراف والجراحات ، والقتلى : جمع قتيل « وفي » للسبب أي بسبب قتل القتلى كما في قوله عليه الصلاة والسلام : « إن امرأة دخلت النار في هرة ربطتها » أي بسبب ربطها إياها ﴿ الْحُرُّ بِالْحُرِّ ﴾ أي الحر مأخوذ ومقتول بمثله ﴿ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَىٰ بِالأُنْثَىٰ ﴾ سبب النزول أنه كان بين حيين من أحياء العرب دماءٌ في الجاهلية ، وكان لأحدهما طَوْل على الآخر ـ أي : قوة وفضل ـ فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد ، والذكر بالأنثى ، والاثنين بالواحد ، فنزلت الآية وأمرهم الله أن

يتساووا ويتعادلوا ، وقوله « الحرُّ بالحرِّ » لا يفيد الحصر البتة ، بأن لا يجري القصاص إلا بين الحرين ، وبين العبدين ، وبين الأنثيين ، بل يفيد شرع القصاص في القتلى بين المذكورين ، وإبطال ما كان عليه أهل الجاهلية ، من أنهم كانوا يقتلون بالعبد منهم الحرَّ من قبيلة القاتل ، وليس فيه نفي جريان القصاص بين الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، بل فيه منعٌ عن التعدي إلى غير القاتل ، والثوري وأبو حنيفة يقتلان الحر بالعبد ، والمؤمن بالكافر ، ويستدلان بعموم قوله تعالى (**وَكَتَبْنَا عَلَيهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ** ﴾ وبما روي : « المسلمون تتكافأ دماؤهم »[1] وبأن التفاضل في النفس غير معتبر ، بدليل قتل الجماعة بالواحد ، ومالك والشافعي لا يقتلان الحر بالعبد ، ولا المؤمن بالكافر كما قال الشافعي رحمه الله :

خذوا بدمي هذا الغزالَ فإنه * رماني بسهميْ مقلتيه على عَمْدِ

ولا تقتلوه إنني أنا عَبْدُه * وفي مذهبي لا يُقتل الحرُّ بالعبد

﴿ **فَمَنْ** ﴾ عبارة عن القاتل ﴿ **عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ** ﴾ الضميران راجعان إلى مَنْ ﴿ **شَيْءٌ** ﴾ أيَّ شيء من العفو قليل ، وفائدة قوله ﴿ **شَيْءٌ** ﴾ الإشعار بأنه إذا عفي له طرف من العفو ، بأن يعفى عن بعض الدم ، أو عفا عنه بعض الورثة ، تمَّ العفو وسقط القصاص ، ولم يجب إلا الدية ، فكأنه قيل : القاتل الذي عفي له عن جناية من جهة أخيه ، الذي هو ولي المقتول ، سواء كان العفو الواقع تاماً بأن اصطلح القاتل مع جميع أولياء القتيل على مال ، أو بعض العفو بأن وقع الصلح بينه وبين بعض الأولياء ، فإنه على التقديرين يجب المال ويسقط القصاص ، فإنه قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في الصلح عن القصاص على مال ، وسمَّى الله تعالى وليَّ الجناية أخاً للقاتل ، استعطافاً له عليه ، وتنبيهاً على أن أخوة الإسلام قائمة بينهما ، وأن القاتل لم يخرج من الإيمان بقتله ﴿ **فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ** ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي وإذا حصل شيء من العفو ، وبطل الدم بعفو البعض ، فالأمر اتباعٌ بالمعروف أي على ولي المقتول أن يطالب القاتل ببدل الصلح بالمعروف ، بترك التشديد والتضييق في طلبه ، وإذا أخذ الدية لا يطلب الأكثر مما وجب عليه ﴿ **وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** ﴾ أي وعلى القاتل أن يؤدي المال إلى العافي بإحسان في الأداء ، بترك المطل والبخس والأذى ﴿ **ذٰلِكَ** ﴾ أي الحكم المذكور من العفو والدية ﴿ **تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ أي تيسير وتوسعة لكم ﴿ **وَرَحْمَةٌ** ﴾ منه حيث لم يجزم بالعفو وأخذ الدية ، بل خيَّركم بين الثلاثة « القصاص ، والدية ، والعفو » وذلك لأن في شرع موسى عليه السلام القصاص وهو العدل فقط ، وفي دين عيسى عليه السلام العفو وهو الفضل فحسب ، وفي ملتنا للتشفي القصاص ، وللترفه الدية ، وللتكرم العفو ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَىٰ** ﴾ أي تجاوز ما

(١) الحديث أخرجه أبو داود وابن ماجه ولفظه : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم » وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٢٥٧ .

شرع له ﴿ بَعْدَ ذٰلِكَ ﴾ التخفيف بأن قتل غير القاتل ، أو قتل القاتل بعد العفو أو أخذ الدية ، فقد كان الولي في الجاهلية يؤمن القاتل بقبول الدية ، ثم يظفر به فيقتله وينبذ ماله إلى أوليائه ﴿ فَلَهُ ﴾ باعتدائه ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ نوع من العذاب شديد الألم ، أما في الدنيا فبالاقتصاص بما قتله بغير حق ، وأما في الآخرة فبالنار ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ أي في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، لأنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، كما قتل « مهلهل بن ربيعة » بأخيه كليب الكثيرين حتى كاد يفني « بكرَ بن وائل » ، وكان يُقتل بالمقتول غير قاتله ، فتثور الفتنة ويقع فيما بينهم التشاجر ، والهرج والمرج ، وارتفاع الأمن ، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه أي حياة ، لأنه إذا علم القاتل أنه يُقتل إذا قَتَل لا يقدم على القتل ، وإذا قَتَل فقُتل ارتدع غيره ، فكان القصاص سبب حياة نفسين أو أكثر ، وهو كلام في غاية الفصاحة والبلاغة ، من حيث جعل الشيء محل ضده ، فإن ضدية شي لآخر ، تستلزم أن يكون تحقق أحدهما رافعاً للآخر ، والقصاص لاستلزامه ارتفاع الحياة ضد لها ، وقد جعل ظرفاً لها تشبيهاً له بالظرف ، كذلك القصاص يحمي الحياة من الآفات ، فكان من هذا الوجه بمنزلة الظرف لها ، ولا شك فيه ، إذ جَعْلُ الضدّ حامياً لضده ، اعتبارٌ لطيف في غاية الحسن والغرابة ، التي هي من نُكات البلاغة وطرقها ﴿ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ أي يا ذوي العقول الخالصة من شوب الأوهام ، ناداهم للتأمل في حكمة القصاص ، من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ تعملون عمل أهل التقوى ، في المحافظة على القصاص ، والحكم به والإذعان له ، وفيه تحذير عن القتل ، فإن من أعظم حقوق العباد الدماء ، وهي أول ما يحاسب به العبد بالنسبة إلى حقوق العباد ، كما أن الصلاة أول ما يحاسب به بالنسبة إلى حقوق الله تعالى ، وفي الحديث : « يأتي المقتول معلقاً رأسه بإحدى يديه ، ملبِّباً قاتله بيده الأخرى ، تَشْخُب أوداجه دماً حتى يوقفا ، فيقول المقتول لله سبحانه هذا قتلني ، فيقول الله تعالى للقاتل تعستَ ، ويُذهب به إلى النار »[1] . واعلم أن الذنوب على ثلاثة أوجه : الأول : فيما بين العبد وبين الله تعالى كالزنى واللواطة ، والغيبة والبهتان ، ما لم يبلغ إلى من بهته واغتابه ، فإذا بلغه وجعله في حلّ وتاب المذنب ، فنرجو أن الله يغفر له ، والثاني : ذنب فيما بينه وبين أعمال الله ، وهو أن يترك الصلاة والصوم والزكاة والحج ، فإن التوبة لا تكفيه ما لم يقض الصلاة وغيرها ، لأن شرط التوبة أن يؤدي ما ترك ، فإذا لم يؤد فكأنه لم يتب ، والثالث : فيما بينه وبين عباد الله ، وهو أن يغصب أموالهم ، أو يضربهم أو يشتمهم ، فإن التوبة لا تكفيه ، إلا أن يرضى عنه خصمه ، أو يجتهد في الأعمال الصالحة ، حتى يوفق الله بينهما يوم القيامة ، فإنه إذا تاب العبد وكان عليه حقوق العباد ، فعليه أن يردها إلى أربابها ، وإن عجز عن إيصالها ، وأراد الله مغفرته ، يقول لخصمه يوم القيامة : ارفع رأسك

(١) الحديث أخرجه ابن جرير بسنده عن سالم بن أبي الجعد ، وانظر الطبري ٥ / ٢١٨ .

فيرفع فيرى قصوراً عالية ، فيقول يارب لمن هذه ؟ فيقول الله تعالى : أنت قادر عليها ، فإن ثمنها عفوك عن أخيك ، فيقول قد عفوت ، فيقول الله تعالى : خذ يد أخيك واذهبا إلى الجنة » .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أي حضرت أسبابه ، وظهرت أمارته وآثاره ، من العلل والأمراض إذ لا اقتدار على الوصية عند حضور نفس الموت .

﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْراً ﴾ أي مالاً قليلاً أو كثيراً ، أو مالاً كثيراً ، يقال : فلان ذو مال ، ولا يطلق ذلك لمن له مال قليل ، وعن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً أراد أن يوصي ، قالت : كم مالك ؟ قال : ثلاثة آلاف ، قالت : كم عيالك ؟ قال : أربعة ، قالت : إنما قال الله عز وجل : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْراً ﴾ وإن هذا الشيء يسيرٌ فاتركه لعيالك ، ﴿ الْوَصِيَّةُ ﴾ أي فرض الإيصاء ﴿ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ ممن يرث وممن لا يرث ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي بالعدل لا يزيد على الثلث ، ولا يوصي لغني ويدع الفقير ، وكان السبب في نزول هذه الآية ، أن أهل الجاهلية كانوا يوصون بمالهم للبُعَدَى ، رياء وسمعة ، وطلباً للفخر والشرف ، ويتركون الأقارب في الفقر والمسكنة ، فصرف الله تعالى بهذه الآية ما كان يصرف إلى الأبعدين إلى الوالدين والأقربين ، ثم نسختها آية المواريث في سورة النساء ، فالآن لا يجب على أحد أن يوصي لأحد قريب ولا بعيد ، وإذا أوصى فله أن يوصي لكل من الأقارب والأباعد إلا للوارث ﴿ حَقّاً ﴾ أي أحق هذه الوصية حقاً ﴿ عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ المجتنبين لضياع المال وحرمان القريب ، يعني إن كنتم متقين بالله لا تتركوا العمل بهذا حقاً على المتقين ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ ﴾ الضمير راجع إلى الوصية لكونها في تأويل الإيصاء ، أي غيَّر الإيصاء عن وجهه الشرعي . فالوصي يغير الوصية إمَّا في الكتابة ، أو في قسمة الحقوق ، والشاهد يغيّرها بكتمها ، ويمكن أن يكون التبديل من سائر الناس ، بأن منعوا من وصول المال الموصى به إلى مستحقه ، فهؤلاء كلهم داخلون تحت قوله ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ ﴾ ﴿ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ ﴾ أي بعد ما وصل إليه وتحقق لديه ﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ ﴾ أي ما إثمُ الإيصاء المغيَّر ، أو إثم التبديل إلا ﴿ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ لأنهم خانوا وخالفوا الشرع ، لا على الموصي وهو الميت ، فإنه بريء من الإثم ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ بالإيصاء وتغييره ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بثوابه وجزاء من غيَّرهُ ، وهو يجازي كل واحد منهما بما يستحقه ﴿ فَمَنْ خَافَ ﴾ أي توقع وعلم ، فإنه إذا علم خاف ، فهو من إطلاق اسم اللازم على الملزوم ﴿ مِنْ مُوصٍ ﴾ أي من الذي أوصى ﴿ جَنَفاً ﴾ أي ميلاً عن الحق بالخطأ في الوصية ﴿ أَوْ إِثْماً ﴾ أي تعمداً للجنف ، يعني إذا زاد على مقدار الوصية ، أو أوصى بما لا يجوز إيصاؤه ﴿ فَأَصْلَحَ ﴾ ينبغي أن يدخل تحته كل من يتأتى منه رفع الفساد في وصية الميت ، من الوالي والولي والوصي ، ومن يأمر بالمعروف ، والمفتي والقاضي والوارث ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الموصَى لهم وهم الوالدان والأقربون ، فغير

وصيته بإجرائها على طريق الشرع ﴿ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ أي لا وزر على المغير في هذا التبديل ، لأنه تبديل باطل إلى حق ، بخلاف الأول ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وعدٌ للمصطلح بالإنابة ، وذكر المغفرة لمطابقة ذكر الإثم ، لأن التبديل إلى خير ليس من جنس الإثم ، لكن صورته صورة ما يؤثم ، واعلم أن الوصية مستحبة لحاجة الناس إليها ، فإن الإنسان مغرور بأمله ، مقصر في عمله ، فإذا عرض له المرض وخاف الهلاك ، يحتاج إلى تدارك تقصيره بماله ، وفي الحديث : « إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم ، في آخر أعماركم ، زيادة لكم في أعمالكم ، تضعونها حيث شئتم »[1] ويوصي بفدية صلاته وصيامه ، لكل مكتوبة نصف صاع من الحنطة ، وكذا الوتر ، ولكل يوم من صوم رمضان أيضاً نصف صاع من الحنطة ، وفي صوم النذر كذلك ويوصي بإرضاء خصمائه وديونه (حكي) أن الإمام الشافعي رحمه الله لما مَرِضَ مَرَضَ موته ، قال مروا فلاناً يغسّلني ، فلما مات بلغ خبر موته إليه فحضر ، وقال : ائتوني بتذكرته ، فأتي بها فنظر فيها فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم ديناً ، فكتبها على نفسه وقضاها ، وقال هذا غسلي إياه ، وإياه أراد ، قال الإمام نقلاً عن بعض الأئمة الأعلام : الأرواح قسمان : منعَّمة ومعذبة ، فأما المعذبة فهي محبوسة مشغولة عن التزاور والتلاقي ، وأما المنعمة المرسلة فتتلاقى وتتزاور ، وتتذاكر ما كان منها في الدنيا ، وما يكون من أهل الدنيا ، فيكون كل روح مع رفيقه الذي هو على مثل عمله ، وهذه المعيَّة ثابتة في دار البرزخ وفي دار الجزاء ، والمرء مع من أحب في هذه الدور الثلاث ، في كل موطن وموقف ، فعلى العاقل أن يختار صحبة الأخيار ، ويتأهب آناء الليل وأطراف النهار ، ولا يغتر بالمال والمنال ، ولا ينقطع عن الله بطول الآمال ، فإن الدنيا فانية وكل من عليها فان ، فاتقوا الله كل حين وآن .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يا حرف نداء ، وهو نداء من الحبيب للحبيب ، وأيُّها تنبيه من الحبيب للحبيب ، وقال الحسن : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فارفع لها سمعك ، فإنه لأمر تؤمر به ، أو لنهي تُنْهى عنه ، وقال جعفر الصادق : لذة في النداء ، أزال بها تعب العبادة والعناء ، يشير إلى أن المحب يبادر إلى امتثال أمر محبوبه ، حتى لو أمره بإلقاء نفسه في النار ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ أي فرض عليكم صيام شهر رمضان ، والصيام في الشريعة هو الإمساك نهاراً مع النية عن المفطرات المعهودة ، التي هي معظم ما تشتهيه الأنفس ، وهذا صوم عوام المؤمنين ، وأما صوم الخواص فالإمساك عن المنهيات ، وأما صوم أخص الخواص فالإمساك عما سوى الله تعالى ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ صفة لمصدرٍ محذوف أي كتب كتاباً كائناً مثل ما كتب ﴿ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ من الأنبياء عليهم

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في الوصايا وأحمد في المسند ٦ / ٤٤١ .

السلام والأمم ، من لدن آدم عليه السلام ، وفيه تأكيد للحكم ، وترغيب فيه ، وتطييب لأنفس المخاطبين ، فإن الصوم عبادة شاقة ، والشيء الشاق إذا عمَّ سهل تحمله ، ويرغب كل أحد في إتيانه ، والظاهر أن التشبيه عائد إلى أصل إيجاب الصوم ، لا إلى كمية الصوم المكتوب ، فكان الصوم على آدم أيام البيض ، وصوم عاشوراء كان على قوم موسى ، والتشبيه لا يقتضي التسوية من كل جهة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر » فإن هذا تشبيه الرؤية بالرؤية ، لا تشبيه المرئي بالمرئي ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ المعاصي ، فإن الصوم يكسر الشهوة التي هي مبدأها ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإن الصوم له وجاء »[1] ، الباءة : النكاح والتزوج ، والوجاء من الإخصاء ، وهو أن يرضَّ عروق الأنثيين ويترك الخصيتين كما هما والمعنى على التشبيه أي الصوم يقطع شهوة الجماع ، ويدفع شر المني كالخصاء ، والأمر في الحديث للوجوب ، لأنه محمول على حالة التوقان بإشارة قوله يا معشر الشباب فإنهم ذوو التوقان على الجبلَّة السليمة ، ﴿ **أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ** ﴾ أي موقتات ومقدرات بعدد معلوم ، أو قلائل ، فإن القليل من المال يعد عداً ، والكثير يهال هيلاً أي يصب صباً من غير كيلٍ وعدٍّ ، فالله تعالى لم يفرض علينا صيام الدهر ، ولا صيام أكثره تخفيفاً ورحمة ، وتسهيلاً لأمر التكليف على جميع الأمم ، ﴿ **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً** ﴾ أي مرضاً يضره الصوم ، أو يُضَرُّ معه ﴿ **أَوْ عَلَى سَفَرٍ** ﴾ أو راكب سفر ، وفيه إيماء بأن من سافر في أثناء اليوم لم يفطر ، لعدم استعلائه السفر استعلاء الراكب المركوب ، بل هو ملابس شيئاً من السفر ، والرخصة إنما أثبتت لمن كان على سفر ، وكلمة ﴿ **عَلَىٰ** ﴾ فيها استعارة تبعية ، شبه تلبسه بالسفر باستعلاء الراكب واستيلائه على المركوب ، يتصرف فيه كيف يشاء ، وللدلالة على هذا المعنى عدل عن اسم الفاعل ، فلم يقل أو مسافراً إذ ليس فيه إشارة بالاستيلاء على السفر ﴿ **فَعِدَّةٌ** ﴾ أي فعليه صوم عدة أيام المرض والسفر ، فعدة من العدِّ بمعنى المعدود ﴿ **مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾ غير أيام مرضه وسفره ، إن أفطر ، متتابعاً أو غير متتابع ، والمقصود من الآية ، بيان أن فرض الصوم في الأيام المعدودات ، إنما يلزم الأصحاء المعتبرين ، وأما من كان مريضاً أو مسافراً ، فله تأخير الصوم عن هذه الأيام إلى أيام أخر ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ** ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالذين يطيقونه الأصحاء المقيمون ، خيَّرهم في ابتداء الإسلام بين أمرين : أن يصوموا وبين أن يفطروا ويفدوا لئلا يشق عليهم ، لأنهم كانوا لم يتعودوا الصوم ، ثم نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله ﴿ **فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** ﴾ فالمعنى أي وعلى المطيقين للصيام القادرين عليه

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم .

إن أفطروا ﴿ فِدْيَةٌ ﴾ أي إعطاء فدية وهي ﴿ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ وهي نصف صاع من بر ، أو صاع من غيره ، والفدية في معنى الجزاء ، وهو عبارة عن البدل القائم عن الشيء ، وقيل المعنى : أي لا يقدرون على الصوم ، وهم الذين قدروا عليه في حال الشباب ، ثم عجزوا عنه في حال الكبر ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً ﴾ أي من تبرع بخير فزاد في الفدية ، أو تطوع تطوعاً خيراً ﴿ فَهُوَ ﴾ أي التطوع ﴿ خَيْرٌ لَهُ ﴾ وذكر في الخير المتطوَّع ثلاثة أوجه : أحدها أن يزيد على مسكين واحد فيطعم مكان كل يوم مسكينين أو أكثر ، وثانيها أن يطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب ، وثالثها : أن يصوم مع الفدية فهو خير كله ﴿ وَأَنْ تَصُومُوا ﴾ أي صومكم أيها المرضى والمسافرون والذين يطيقونه ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من الفدية ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما في الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة ، وإنما فضل الصوم للمسافر ، لأن الصوم عزيمة له والتأخير رخصة ، والأخذ بالعزيمة أفضل ، وأما ما روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « ليس من البر الصيام في السفر[1] » فمحمول على ما إذا كان الصوم يضعفه حتى يخاف عليه الهلاك ، كذا في شرح المجمع لابن الملك ، والسفر المبيح للفطر مسيرة ثلاثة أيام ولياليها عند أبي حنيفة رحمه الله ، واعلم أن الله تعالى أمرنا بصيام شهر كامل ليوافق عدد السنة في الأجر الموعود بقوله (مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) فالشهر الكامل ثلاثمائة ، وستةُ أيام شوال ستون يوماً .

وإنما أضيف إلى الله في الحديث القدسي : « الصوم لي »[2] لأنه لا رياء فيه ، بل سر لا يعلمه إلا الله ، وإنما يكون الله سبحانه مجازٍ له على صومه إذا أمسك قلبه وسره وروحه عما سواه تعالى وهو الصوم الحقيقي عند الخواص .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ مبتدأ خبره ما بعده ، فيكون المقصود من ذكر هذه الجملة المنبهة على فضله ومنزلته ، الإشارة إلى وجه تخصيصه من بين الشهور ، بأن فرض صومه ، ثم أوجب صومه بقوله ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ وسمي الشهر شهراً لشهرته ، ورمضان مصدر رمض إذا احترق ، وإنما سمي بذلك إما لارتماض الأكباد واحتراقها من الجوع والعطش ، وإما لارتماض الذنوب بالصيام فيه ، ﴿ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ ﴾ جملة إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل نجوماً في ثلاث وعشرين سنة ، حسبما تقتضيه المشيئة الربانية ، والقرآن من القرء وهو الجمع ، لأنه مجمع علم الأولين والآخرين ﴿ هُدىً لِلنَّاسِ ﴾ أي أنزل حال كونه هداية للناس إلى سواء الصراط ، بما فيه من الإعجاز وغيره ﴿ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَىٰ وَالفُرْقَانِ ﴾ أي وحال كونه آيات واضحات مما يهدي إلى الحق ، ويفرق

(١) الحديث أخرجه أبو داود وأحمد والنسائي ، وانظرالفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٦٥ .

(٢) هذا جزء من حديث قدسي رواه البخاري ومسلم وأوله : « الصوم لي وأنا أجزي به » .

بينه وبين الباطل ، بما فيه من الحِكَم والأحكام ، والعطف في ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ من باب عطف التشريف ﴿ فَمَنْ شَهِدَ ﴾ أي فمن حضر موضع الإقامة من المصر أو القرية ﴿ مِنْكُمُ الشَّهْرَ ﴾ منصوب على الظرف أي في الشهر ﴿ فَلْيَصُمْهُ ﴾ أي فليصم فيه ، والمراد بالشاهد العاقل البالغ الصحيح ، وهذا الحتم ينسخ التخيير بين الصوم والإفطار والفداء ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً ﴾ وإن كان مقيماً حاضراً فيه ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ وإن كان صحيحاً و« على » بمعنى « في » وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أي فعليه صيام أيام أخر ، وأعاد تخيير المريض والمسافر وترخيصها في الإفطار ، لأن الله تعالى ذكر في الآية الأولى تخيير المقيم المطيق ، والمسافر والمريض ، ونسخ في الثانية تخيير المقيم بقوله ﴿ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فلو اقتصر على هذا احتمل أن يعود النسخ إلى تخيير الجميع ، فأعاد بعض النسخ بترخيص المسافر والمريض ، ليعلم أنه باق على ما كان ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ حيث أباح الفطر بالسفر والمرض ﴿ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ أي مشقة بالصوم في المرض والسفر ، لغاية رأفته وسعة رحمته ، قال محمد الترمذي : اليسر اسم الجنة لأن جميع اليسر فيها ، والعسر اسم جهنم لأن جميع العسر فيها ، وقال نجم الدين : يعني يريد الله بكم اليسر الذي فيه العسر ، فلا تنظر في امتثال الأمر إلى العسر ، ولكن انظر إلى اليسر الذي هو مع العسر ، فإن العاقل إذا سقاه الطبيب شراباً مراً ، فلا ينظر العاقل إلى مرارة الشراب ، ولكن ينظر إلى حلاوة الصحة ، ولا يبالي بمرارة الشراب فيشربه بقوة الهمة .

﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ﴾ أي وإنما أمرناكم بمراعاة العدة ، بعد إيجاب صوم رمضان ، لتكملوا عدد أيام الشهر ، بقضاء ما أفطرتم بسبب مرضكم ، أو سفركم ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ ﴾ أي لتعظموا الله حامدين ﴿ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ﴾ أي على هدايته إياكم إلى طريق الخروج عن عهدة التكليف ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ لكي تشكروا الله على هذه النعمة باللسان والقلب والبدن ، واعلم أنه لابد من النية في الأعمال ، خصوصاً في الصوم ، وهي أن يعلم بقلبه أنه يصوم ، ولا يخلو مسلم عن هذا في ليالي شهر رمضان ، والإمساك قد يكون للعادة ، أو لعدم الاشتهاء ، أو للمرض أو للرياضة ، ويكون للعبادة فلا يتعين له إلا بالنية ، وهي شرط لكل يوم ، لأن صوم كل يوم عبادة على حدة ، ألا يرى أنه لو أفسد صوم يوم ، لا يمنع صحة الباقي ، بخلاف التراويح ، فإنه لا يلزم النية في كل شفع ، لأن الكل بمنزلة صلاة واحدة ، وهو الأصح ، وتجوز النية إلى نصف النهار دفعاً للحرج وما يروى من الأحاديث في نفي الصوم إلا بالتبييت ، فمحمولة على نفي الفضيلة ، بخلاف القضاء والكفارات والنذر المطلق ، لأن الزمان غير متعين لها ، فوجب التبييت نفياً للمزاحمة ، ويعتبر نصف النهار من طلوع الفجر الثاني فيكون إلى الضحوة الكبرى ، فينوي قبلها ليكون الأكثر منوياً فيكون له حكم الكل ، حتى لو نوى بعد ذلك لا

يجوز لخلو الأكثر عن النية تغليباً للأكثر ، والتراويح سنةٌ مؤكدة ، واظب عليها الخلفاء الراشدون قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله فرض عليكم الصيام وسننت قيامه » وأما قول عمر رضي الله عنه : (نعمت البدعة هذه) (١) يعني قيام رمضان ، فمعناه أن النبي ﷺ وإن كان قد صلاها إلا أنه تركها ولم يحافظ عليها ، ولا جمع الناس إليها ، فمحافظة عمر عليها وجمع الناس إليها وندبهم بدعة ، لكنها بدعة محمودة ممدوحة كذا في تفسير القرطبي ، وكان النبي ﷺ يبشر أصحابه بقدوم رمضان ويقول : « قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك، كتب الله عليكم صيامه تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغل فيه الشياطين وفيه ليلة خير من ألف شهر من حُرِم خيرها فقد حرم » (٢) ، قال بعض العلماء : هذا الحديث أصل في تهنئة الناس بعضهم بعضاً بشهر رمضان ، قال السخاوي في المقاصد الحسنة : التهنئة بالشهور والأعياد مما اعتاده الناس ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : « من لقي أخاه عند الانصراف من الجمعة : فليقل : تقبّل الله منا ومنك »(٣) ويروى « في جملة حقوق الجار ـ من المرفوع : « إن أصابه خير هنأه ، أو مصيبة عزّاه ، أو مرض عاده » ، ومن آداب الصيام حفظ الجوارح الظاهرة ، وحراسة الخواطر الباطنة ، ولن يتم التقرب إلى الله تعالى إلا بترك ما حرم الله ، والسنة تعجيل الفطور وتأخير السحور فإن صوم الليل بدعة ، وقد رُوي : « من أشبع جائعاً أو كسا عارياً أو آوى مسافراً أعاذه الله من أهوال يوم القيامة » وكان عبد الله بن المبارك ينفق على الفقراء وطلبة العلم في كل سنة مائة ألف درهم ويقول للفضيل بن عياض: لولاك وأصحابك ما اتجرت ، وكان يقول للفضيل وأصحابه : لا تشتغلوا بطلب الدنيا اشتغلوا بالعلم وأنا أكفيكم المؤونة ، وكان يحيي البرمكي يجري على سفيان الثوري كل شهر ألف درهم ، وكان سفيان يدعو له في سجوده ويقول : اللهم إن يحيي كفاني أمر الدنيا فاكفه أمر آخرته، فلما مات يحيي رآه بعض أصحابه في النوم فقال ما صنع الله بك ؟ قال غفر لي بدعاء سفيان .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أن الله تعالى لما أمرهم بصوم الشهر وحثهم على القيام ، عقّبه بهذه الآية ، الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم ، مطلع على ذكرهم وشكرهم ، سميع بأقوالهم مجيب لدعائهم ، وسبب النزول ما روي أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فقال تعالى إيماء إلى سرعة إجابة الدعاء ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ أي فقل لهم إني قريب بالعلم والإحاطة ، فهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم ، واطلاعه على أحوالهم ، بحال من قرب مكانه منهم ، قال أبو موسى الأشعري : لما توجه رسول الله صلى

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه . (٢) أخرجه أحمد والنسائي والبيهقي .

(٣) هذا الأثر موقوف على ابن عباس رضي الله عنه وهو من الكلم الطيب الذي يدخل السرور إلى قلب المؤمن وقد قال ﷺ : « والكلمةُ الطيِّبةُ صدقة » .

الله تعالى عليه وسلم إلى خيبر ، أشرف النَّاسُ على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير « لا إله إلا الله والله أكبر » فقال ﷺ : « اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم »[١] .

﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ تقرير للقرب ، ووعدٌ للداعي بالإجابة ، فإن قلت : إنا نرى الداعي ، يبالغ في الدعوات والتضرع فلا يجاب ؟ قلت : إن هذه الآية مطلقة ، والمطلق محمول على المقيد ، وهو قوله تعالى (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ) فالمعنى أجيب دعوة الداع إذا دعاني إن شئت ، أو إذا وافق القضاء ، أو كانت الإجابة خيراً له ، ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ﴾ أي فليجيبوا إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، كما أجيبهم إذا دعوني لمهاتهم ، ﴿ وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ أمر بالثبات على ما هم عليه ، والإيمان عبارة عن صفة القلب ، وتقديمها على الإيمان يدل على أن العبد لا يصل إلى نور الإيمان وقوته ، إلا بتقديم الطاعات والعبادات ، ومعنى الفاء فيه أنه تعالى قال : أنا أجيب دعاءك مع أني غنيٌّ عنك ، فكن أنت أيضاً مجيباً لدعائي مع أنك محتاج إليَّ من كل الوجوه ، فما أعظم هذا الكرم ؟ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ راجين إصابة الرشد وهو الاهتداء لمصالح الدين والدنيا ، ومعنى الآية أنهم إذا استجابوا وآمنوا اهتدوا لمصالح دينهم ودنياهم ، لأن الرشيد من كان كذلك ، اعلم أن عدم الدعاء بكشف الضر ، مذموم عند أهل الشريعة والطريقة ، لأنه كالمقاومة مع الله ، ودعوى التحمل لمشاقه من حبائل الشيطان .

فالتسبب واجب للعوام ، والتوكل أفضل للمتوسطين ، وأما الكاملون فليس يمكن حصر أحوالهم ، فالتوكل والتسبب عندهم سيان (روي) أن إبراهيم الخليل عليه السلام لما ألقي في النار ، لقيه جبريل في الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، فقال : فاسأل الله الخلاص ، فقال عليه السلام : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، وهذا مقام أهل الحقيقة ، من كبار المكلين الفانين عن الوجود بالرب المعبود ، فأين أنت من هذا ، فاسأل الله عفوه ومغفرته ، ثم إجابة الدعاء وعدٌ صدقٌ من الله لا خُلف فيه ، ومن دعا بحاجة فلم تقض للحال فذلك لوجوه : منها أن الإجابة حاصلة لا محالة ، فإن إجابة الدعوة غير قضاء الحاجة ، وقضاء الحاجة غير إجابة الدعوة فإن إجابة الدعوة هو أن يقول العبد يارب فيقول الله تعالى له لبيك عبدي ، وهذا موعود موجود لكل متوجه راشد ، وقضاء الحاجة إعطاء المراد وإيصال المرتاد وذلك قد يكون للحال ، وقد يكون بعد مدة ، وقد يكون في الآخرة ، وفي الحديث : « دعوة المسلم لا تردُّ إلا لإحدى ثلاث : إمَّا أن يدعو بإثم أو قطيعة رحم ، وإما أن يُدَّخر له في الآخرة ، وأما أن يصرف السوء عنه بقدر مادعا)[٢] ، ومنها أن الإجابة مقيدة بالمشيئة كما سبق ، ومنها أنه شرط لهذه الإجابة

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد في المسند ، ومعنى « اربعوا على أنفسكم » أي ارفقوا بها وتمهلوا .

(٢) أخرجه الترمذي بلفظ : « ما من عبد مسلم يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل ، أو ادخر الله له في الآخرة خيراً منه ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » .

إجابة العبد إياه فيما دعاه إليه ، لقوله تعالى ﴿ **فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي** ﴾ ومنها أنَّ للدعاء شرائط وآداباً وهي أسباب الإجابة ، فمن استكملها كان من أهل الإجابة ، ومن أخل بها كان من أهل الاعتداء ، فلا يستحق الجواب ، وقد قيل : الدعاء مفتاح باب السماء ، وأسنانه لقمة الحلال وقال عليه الصلاة والسلام : « الرجل يطيل السفر ، يمد يده إلى السماء أشعث أغبر ، يقول : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِي بالحرام فأنى يستجاب لذلك »[1] ، (حكي) أنه كان بالكوفة أناس يستجاب دعاؤهم ، كلما دخل عليهم وال كانوا يدعون عليه فيهلك ، فدبر الحجاج الحيلة عليهم حين ولي عمل الكوفة من ابن مروان ، فدعاهم إلى مأدبته فلما أكلوا قال : أمنت من دعائهم أن يستجاب ، حيث دخل في بطونهم طعام حرام ، فمن أخل ببعض هذه الشرائط لم يلزمه الإجابة ، كمن أخلَّ بركن من أركان الصلاة لم يلزمه القبول ، إلا أن الجبار يجبر كل خلل وكسر ، يكون في أعمال العباد بفضله وكرمه ، والداعي على قسمين: داع بالدعاء ، وقارىء للدعاء ، فللداعي يفتح أبواب السموات حتى يبلغ دعاؤه العرش ، وقارىء الدعاء لا يبلغ إلا الأذن .

وللدعاء أماكن يظن فيها الإجابة مثلاً عند رؤية الكعبة ، والمساجد الثلاثة ، وفي الطواف ، وعند الملتزم ، وفي البيت ، وعند زمزم ، وعند شرب مائه ، وعلى الصفا والمروة ، وفي السعي، وخلف المقام ، وفي عرفات، والمزدلفة ، وعند الجمرات الثلاث ، ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ** ﴾ أي أبيح لكم ﴿ **لَيْلَةَ الصِّيَامِ** ﴾ أي في ليلة يوم الصوم ، وهي الليلة التي يصبح الرجل في غداتها صائماً ﴿ **الرَّفَثُ** ﴾ أصل الرفث : قول الفحش والتكلم بالقبح ، ثم جعل ذلك اسماً لما يتكلم به عند النساء ، من معاني الإفضاء ، ثم جعل كناية عن الجماع ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الرفث : كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة ، كالغمز والتقبيل ﴿ **إِلَىٰ نِسَائِكُمْ** ﴾ عدي الرفث بإلى لتضمنه معنى الإفضاء قال تعالى : (**وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**) أراد به الجماع ، وكان الرجل في ابتداء الإسلام إذا أمسى في رمضان ، حلَّ له الأكل والشرب والجماع ، إلى أن يصلي العشاء الأخيرة أو يرقد ، فإذا صلاها أو رقد ولم يفطر ، حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة ، ثم إن عمر بن الخطاب واقع أهله بعد صلاة العشاء الأخيرة ، فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه ، فأتى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقال يا رسول الله : إني أعتذر إلى الله وإليك من نفسي هذه الخاطئة ، إني رجعت إلى أهلي بعد العشاء فوجدت رائحة طيبة ، فسولت لي نفسي فجامعت أهلي فقال عليه الصلاة والسلام : « ما كنت جديراً بذلك يا عمر » فقام رجال فاعترفوا بمثله فنزلت الآية ، وصارت زلته سبباً للرحمة في جميع الأمة ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ** ﴾ جعل

---

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم .

كلاً من الرجل والمرأة لباساً للآخر ، لتجردهما عند النوم واعتناقهما واشتمال كل منهما على الآخر ، أو لأن كلاً منهما يستر حال صاحبه ويمنعه من الفجور ، أو المعنى هن سكن لكم وأنتم سكن لهن كما قال تعالى (**وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**) ولا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر ﴿ **عَلِمَ اللهُ** ﴾ في الأزل ﴿ **أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ** ﴾ تخونونها وتظلمونها بتعريضها للعقاب ، وتنقيص حظها من الثواب ، بمباشرة النساء في ليالي الصوم ، والخيانة ضد الأمانة ، وقد ائتمن الله العباد على ما أمرهم به ونهاهم عنه ، فإذا عصوه في السر فقد خانوه وقد قال الله تعالى (**لا تَخُونُوا اللهَ والرَسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ**) .

﴿ **فَتَابَ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي قبل توبتكم وتجاوز عنكم ، لمّا تبتم مما اقترفتموه ﴿ **وَعَفَا عَنْكُمْ** ﴾ أي محا أثره عنكم ﴿ **فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ** ﴾ المباشرة إلزاق البشرة بالبشرة كنى بها عن الجماع الذي يستلزمها ، وجميع ما يتبعه يدخل فيه ﴿ **وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ** ﴾ أي واطلبوا ما قدره الله تعالى ، وأثبته في اللوح المحفوظ من الولد ، وفيه أن المباشر ينبغي أن يكون غرضه الولد والتناسل ، فإن الحكمة في خلق الشهوة وشرع النكاح ، بقاءُ النسل ، لا قضاء الشهوة وحدها وفي الحديث : « تناكحوا تناسلوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة »[1] ﴿ **وَكُلُوا واشْرَبُوا** ﴾ في ليالي الصوم ﴿ **حَتَّى يَتَبَيَّنَ** ﴾ يظهر ﴿ **لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ** ﴾ هو أول ما يبدو من بياض النهار ، كالخيط الممدود دقيقاً ثم ينتشر ﴿ **مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ** ﴾ هو ما يمتد من سواد الليل مع بياض النهار ، لأن نور الصبح إنما ينشق في خلال ظلمة الليل ، فشبها بخيطين أبيض وأسود ﴿ **مِنَ الفَجْرِ** ﴾ أي انشقاق عمود الصبح ، واكتفى ببيانه عن بيان الأسود لدلالته عليه والتقدير حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الفجر ، من الخيط الأسود من الليل ، ﴿ **ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ** ﴾ أي أديموا الإمساك عن مباشرة الأكل والشرب ، في جميع أجزاء النهار ﴿ **إِلَى** ﴾ غاية ﴿ **اللَّيْلِ** ﴾ وهو دخول الليل ، وذاك بغروب الشمس ، والإتمام أداؤه على التام وفي الحديث : « إذا أقبل الليل وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطر الصائم »[2] أي دخل وقت الإفطار .

﴿ **وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ** ﴾ أي لا تجامعوهن ﴿ **وَأَنْتُمْ** ﴾ أي والحال أنتم ﴿ **عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ** ﴾ مقيمون فيها بنية الاعتكاف ، وهو في الشرع لزوم المسجد ، والمكث لطاعة الله فيه ، والتقرب إليه ، وهو من الشرائع القديمة ، قال تعالى (**أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَائِفِينَ والعَاكِفِينَ**) نزلت فيمن كان يعتكف في المسجد ، فإذا عرضت له حاجة إلى امرأته ، خرج فجامعها ثم اغتسل ، فرجع إلى المسجد ، فنهوا عن

(١) الحديث أخرجه الشافعي بلاغاً عن ابن عمر ، وأخرجه ابن حبان بلفظ : « تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم يوم القيامة » .

(٢) الحديث في الصحيحين ، وهذا حكم متفق عليه ، أنه بغروب قرص الشمس يحل الإفطار للصائم .

ذلك ، فالجماع يحرم على المعتكف ويفسد الاعتكاف ، ولفظ المساجد يدل على جواز الاعتكاف في كل مسجد ، إلا أن المسجد الجامع أفضل ، حتى لا يحتاج إلى الخروج إلى الجمعة ، والاعتكاف من أشرف الأعمال ، إذا كان عن إخلاص ، لأن فيه تفريغ القلب عما سوى الله تعالى ، قال عطاء : مثل المعتكف كرجل له حاجة إلى عظيم فيجلس على بابه ، ويقول : لا أبرح حتى يقضي حاجتي ، فكذلك المعتكف يجلس في بيت الله ويقول : لا أبرح حتى يغفر لي ، وفي الخلوة والانقطاع عن الناس فوائد جمة يسلم منه الناس ، ويسلم هو منهم ، وفيها خمول النفس والإعراض عن الدنيا ، وهو أول طريق الصدق والإخلاص ، وفيها الأنس بالله ، والتوكل والرضى بالكفاف ، فإن المعاشر للناس يتكلف في معيشته وبعدها لا يفرق غالباً بين الحلال والحرام ، فيقع في الهلاك ، ويَسْلم المتخلي أيضاً من مداهنة الناس ، وغير ذلك من المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة . قال بعضهم : الورعُ عبارة عن الاجتناب عن كل ما فيه شائبة الحرمة ، وصون لسانه عن الكلام اللغو ، والخلوة في الحقيقة ليست إلا هذا ، والمقصود من الخلوة أيضاً ذلك ، ولكن ما يكون في الكثرة على الوجه الذي ذكرنا أثبت وأحكم ، لأن ما يكون بالخلوة يزول إذا اختلط بين الناس ، وليس كذلك ما ذكر ، والخلوة بغار حراء طريق النبي عليه الصلاة والسلام وطريق الأصحاب رضي الله تعالى عنهم بالاعتكاف ، والنبي عليه الصلاة والسلام لم يُعيِّن الأربعين بل الاعتكاف في العشر الأخير من رمضان ، نعم فعل ذلك موسى عليه السلام قال تعالى ﴿ **وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ** ﴾ والصالحون أخذوا من ذلك ﴿ **تِلْكَ** ﴾ الأحكام التي ذكرت من أول آية الصيام إلى هنا ﴿ **حُدُودُ اللهِ** ﴾ جمع حد وهو الحاجز بين الشيئين ، جعل ما شرعه الله تعالى لعباده من الأحكام حدوداً لهم ، لكونها أموراً حاجزة بين الحق والباطل ، ولكونها مانعة من مخالفاتها والتخطي عنها ﴿ **فَلا تَقْرَبُوهَا** ﴾ أي أن تنتهوا فلا تقربوها فضلاً عن تجاوزها ، نهى أن يقرب الحد الحاجز بين الحق والباطل لئلا يداني الباطل فضلاً أن يتخطى كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن لكل ملك حمى ، وإن حمى الله محارمه ، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه »[1] وهو أبلغ من قوله فلا تعتدوها . ولما بيَّن تعالى أحكام الصوم على وجه الاستقصاء في هذه الألفاظ القليلة بياناً شافياً ، قال بعده ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي بياناً مثل هذا البيان الوافي الواضح ﴿ **يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ** ﴾ والآيات دلائل الدين ونصوص الأحكام ، والمقصود من تعظيم البيان هدايته ورحمته على عباده في هذا البيان ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ مخالفة أوامره ونواهيه ، والتقوى: اتقاء الشرك ، ثم بعده اتقاء المعاصي والسيئات ، ثم بعده اتقاء الشهوات ، ثم يدع بعده الفضلات ، وفي الحديث : « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي وهو حديث طويل أوله : « إنّ الحلال بيّنٌ وإنّ الحرامَ بيّنٌ » جامع الأصول ١٠ / ٥٦٧ .

لا بأس به حذراً مما به بأس »[١] .

جعلنا الله وإياكم من أهل اليقظة واليقين ﴿ وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ ﴾ أي لا يأكل بعضكم مال بعض ، بالوجه الذي لم يبحه الله تعالى ، كالغصب والنهب والسرقة ، واليمين الكاذبة ، وكالأكساب الخبيثة كالقمار ، والرشى ، وحلوان الكاهن ، وليس المراد بالأكل المنهي عنه نفس الأكل خاصة ، لأن جميع التصرفات الباطلة حرام ، إلا أنه شاع في العرف ، أن يعبر عن إنفاق المال بالأكل ، لأن الأكل معظم المقصود من المال ، وقوله ﴿ بِالبَاطِلِ ﴾ متعلق بالفعل المذكور أي لا تأكلوها بالسبب الباطل ، ونزلت في رجلين تخاصما في أرض بينهما ، فأراد أحدهما أن يحلف على أرض أخيه بالكذب ، فقال النبي عليه الصلاة السلام : « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ وأنتم تختصمون إليَّ ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضي له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له شيئاً من حق أخيه ، فإنما أقضي له قطعة من نار ، فبكيا وقال كل واحد منهما : أنا حلٌ لصاحبي . فقال : اذهبا فتوخيا ثم استهما ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه »[٢] ، قوله ألحن بحجته أي أقوم بها وأقدر عليها من صاحبه ، وفيه دلالة ظاهرة على أن حكم القاضي لا ينفذ باطناً كما عند الشافعي ، ﴿ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ ﴾ الإدلاء : الإلقاء ، وضمير « بها » للأموال،والمعنى : ولا تلقوا أمر الأموال والحكومة فيها إلى الحكام ﴿ لِتَأْكُلُوا ﴾ بالتحاكم إليهم ﴿ فَرِيقاً ﴾ أي طائفة وبعضاً ﴿ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ ﴾ أي بما يوجب إثماً ، كشهادة الزور ، واليمين الكاذبة ، والصلح مع العلم بأن المقضي له ظالم ، وقيل : ولا تلقوا بعضها إلى أمراء الظلم ، وقضاة السوء ، على وجه الرشوة ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنكم على الباطل وارتكاب المعصية ، ويقال : الدنيا ثلاثة أشياء: حلال ، وحرام ، وشبهة ، فالحرام يوجب العقاب ، والشبهة توجب العتاب، والحلال يوجب الحساب .

فعلى العاقل أن يجتنب عن حقوق العباد والمظالم ، حُكي أن أبا حنيفة كان له على بعض المجوس مال ، فذهب إلى داره ليطالبه به ، فلما وصل إلى باب داره وقع نعله على نجاسة ، فنفض نعله فانقلعت النجاسة عن نعله ، ووقعت على حائط دار المجوسي ، فتحير أبو حنيفة رحمه الله ، وقال : إن تركتها كان ذلك شيئاً يقبح جدار ذلك المجوسي ، وإن حككتها أحفر التراب من الحائط ، فدق الباب ، فخرجت الجارية . فقال لها : قولي لمولاك إن أبا حنيفة بالباب ، فخرج إليه وظن أنه يطالبه بالمال ، وأخذ يعتذر ، فقال أبو حنيفة رحمه الله ههنا ما هو أولى بالاعتذار ، وذكر قصة الجدار وأنه كيف السبيل إلى التطهير ، فقال المجوسي : فأنا أبدأ بتطهير نفسي ، فأسلم في الحال ، والنكتة أن أبا حنيفة لما احترز عن ظلم ذلك المجوسي في ذلك القدر القليل ، فلأجل بركة ذلك أسلم المجوسي ونجا من شقاوة الأبد ، فمن

(١) الحديث أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم / ٢٠ / وهو حديث حسن وانظر جامع الأصول ٤ / ٦٨٢ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه من حديث أم سلمة ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٣٦ .

احترز عن الظلم نال سعادة الدارين ، وإلا فقد وقع في الخذلان .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ روي أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غُنْم قالا : يا رسول الله ، ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يمتلىء ويستوي ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ أولاً ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ﴾ وهي جمع هلال ، والهلال أول ما يظهر لك من نور القمر إلى ثلاث ليال ، وسمي هلالاً لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر عند رؤيته ، من قولهم استهل الصبيُّ إذا صرخ حين يولد ، وأهلَّ القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ هِيَ ﴾ الأهلة ﴿ مَوَاقِيتُ ﴾ جمع ميقات من الوقت ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ أي لما يتعلق بهم من أمور معاملاتهم ومصالحهم ﴿ وَالحَجِّ ﴾ وأموره المتعلقة بأوقات مخصوصة ، وخصه بالذكر للتنبيه على مزيته ، فالحج من حيث أنه يراعى في أدائه وقضائه الوقت المعلوم ، بخلاف سائر العبادات التي لا يعتبر في قضائها وقت معين ، وحاصل الخطاب أن الهلال يبدو دائماً ويظهر على حسب مصلحتكم ، لقربه وبعده من الشمس ، كما بُيِّن في فن الهيئة ، ثم الشمس على حالة واحدة ، لأنها ضياء للعالم وقوام لمصالح الناس ، والقمر يتغير لأن الله علَّق به ما قلنا من المواقيت ، وذلك يعرف بهذه الاختلافات ، ودبَّر عز وجل هذا التدبير ، لحاجة الناس إلى ذلك ﴿ وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ كان الأنصار إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة ، لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه ، فإن كان من أهل المدر نقب ثقباً في ظهر بيته يدخل منه ويخرج ، أو يتخذ سلماً فيصعد منه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يحل من إحرامه ويرون ذلك براً ، وسببه أنهم ظنوا أنه لابد في الإحرام من تغيير جميع العادات ، فيغيِّروا عادتهم في الدخول كما غيَّروها في اللباس والتطيب ، وقالوا لا ندخل بيوتاً من الأبواب حتى ندخل بيت الله تعالى ، وكان منهم من لا يستظل بسقف بعد إحرامه، وهذه أشياء وضعوها من عند نفوسهم ، من غير شرع ، فعرفهم الله تعالى أن هذا التشديد ، ليس براً ولا قربة ﴿ وَلَكِنَّ البِرَّ ﴾ بر ﴿ مَنِ اتَّقَىٰ ﴾ المحارم والشهوات دون دخول البيت من ظهره ، ﴿ وَائتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ حال الإحرام إذ ليس في العدول برٌّ ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ في تغيير أحكامه والاعتراض على أفعاله ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أي لكي تظفروا بالبر والهدى .

﴿ وَقَاتِلُوا ﴾ جاهدوا ﴿ فِي ﴾ نصرة ﴿ سَبِيلِ اللهِ ﴾ وإعزازه ، والمراد بسبيل الله دينه ، لأنه الطريق إلى الله ومرضاته ﴿ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ يعني قريشاً وكان ذلك قبل أن يُأمروا بقتال المشركين كافة لأن هذه الآية أول آية نزلت في القتال بالمدينة ، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ، ويكف عمن كفَّ عنه ، ويؤيده ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في صلح

الحديبية ، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام خرج مع أصحابه للعمرة سنة ست من الهجرة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، فنزل في الحديبية ، وصدَّهم المشركون عن البيت الحرام ، فأقام شهراً وصالحه المشركون على أن يرجع ذلك العام ، ويأتي مكة في العام المقبل ويعتمر ، فرضي بما قالوا وكره الأصحاب قتالهم في الشهر الحرام وفي الحرم فأنزل الله تعالى (**وَقَاتِلُوا**) الآية ﴿ **وَلا تَعْتَدُوا** ﴾ بابتداء القتال في الحرم محرمين ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾ أي لا يريد بهم الخير ولا يجعلهم أحبابه ﴿ **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** ﴾ أين وجدتموهم في الحرم والحل ، وفي الأشهر الحرم ، وهم الذين هتكوا حرمة الشهر والحرم ، بالبداية ، فجازوهم بمثله ، ﴿ **وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ** ﴾ أي من مكة لأنهم أخرجوا المسلمين منها أولاً ، وأُخْرِجَ عليه الصلاة والسلام منها ثانياً من لم يؤمن به منهم يوم الفتح ﴿ **وَالفِتْنَةُ** ﴾ أي المحنة التي يُفتتن بها الإنسان ويمتحن كالإخراج من الوطن ﴿ **أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ** ﴾ أصعب منه لدوام تعبها وتألم النفس بها ، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التي يتمنى عندها الموت ، أي لا تبالوا بقتلهم أينما وجدتموهم فإن فتنتهم أي تركهم في الحرم ، وصدهم إياكم عن الحرم ، أشد من قتلكم إياهم فيه ﴿ **وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ** ﴾ أي لا تفاتحوهم بالقتل هناك وهتك حرمة المسجد الحرام ﴿ **حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ** ﴾ حتى يبدأوكم بالقتال في الحرم ، وهذا بيان لشرط كيفية قتالهم في هذه البقعة خاصة ، فيكون تخصيصاً لقوله ﴿ **وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ** ﴾ ﴿ **فَإِن قَاتَلُوكُمْ** ﴾ ثمة ﴿ **فَاقْتُلُوهُمْ** ﴾ فيه ولا تبالوا بقتالهم ، لأنهم هم الذين هتكوا حرمته ، فاستحقوا أشد العذاب ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ **جَزَاءُ الكَافِرِينَ** ﴾ يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم ﴿ **فَإِنِ انْتَهَوْا** ﴾ عن القتال وعن الكفر ﴿ **فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ يغفر لهم ما قد سلف ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ** ﴾ أي المشركين ﴿ **حَتَّى لا تَكُونَ** ﴾ إلى أن لا توجد ولا تبقى ﴿ **فِتْنَةٌ** ﴾ أي شرك يعني قاتلوهم حتى يسلموا فلا يقبل من الوثني إلا الإسلام فإن أبى قُتِل ﴿ **وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ** ﴾ خالصاً له ، ليس للشيطان نصيب فيه ﴿ **فَإِنِ انْتَهَوْا** ﴾ بعد مقاتلتكم عن الشرك ﴿ **فَلا عُدْوَانَ إلا عَلَىٰ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي فلا تعتدوا على المنتهين ، إذ لا يحسن أن يُظْلَم إلاَّ من ظَلَم .

كأنه قيل فإن انتهوا فلا تعتدوا عليهم ، لأن العدوان مختص بالظالمين ، والمنتهون عن الشرك ليسوا بظالمين فلا عدوان عليهم ، وسمي ما يفعل بالكفار عدواناً وظلماً وهو في نفسه حق وعدل ، لكونه جزاء الظالم للمشاركة كقوله تعالى (**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**) ﴿ **الشَّهْرُ الحَرَامُ** ﴾ يقابل ﴿ **بِالشَّهْرِ الحَرَامِ** ﴾ في هتك الحرمة حيث صدهم المشركون عام الحديبية في ذي القعدة ، وكان بين القوم ترامٍ بسهام وحجارة ، واتفق خروجهم لعمرة القضاء فيه سنة سبع من الهجرة ، وكرهوا أن يقاتلوهم لحرمته فنزلت هذه الآية ، وقيل لهم هذا الشهر الحرام بذلك الشهر ، وهتكه بهتكه فلا تبالوا به ﴿ **وَالحُرُمَاتُ**

﴿ قِصَاصٌ ﴾ يعني من هتك حرمة من حرمة الشهر ، وحرمة الحرم ، اقتص منه ، فإن مراعاة هذه الحرمات إنما تجب في حق من يراعيها ، وأما من هتكها فإنه يقتص منه ويعامل معه بمثل فعله ، والأوضح أن المراد بالحرمات كل حرمة ، وهي ما يجب المحافظة عليه نفساً كان أو عرضاً يجري فيها القصاص ، فلما هتكوا حرمة شهركم بالصد وهو عين التعرض للقتال ، فافعلوا بهم مثله ، وادخلوا عليهم عنوة أي قهراً وغلبة فإن منعوكم في هذه السنة عن قضاء العمرة بالمقاتلة ونحوها فاقتلوهم كما قال تعالى ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ أي تجاوز بقتالكم في الشهر الحرام ﴿ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ أي بعقوبة مماثلة لجناية اعتدائه ، وهذا اعتداء على سبيل القصاص ، وهو اعتداء مأذون فيه لا على سبيل الابتداء فإنه ظلم حرام ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ إذا انتصرتم ممن ظلمكم فلا تظلموهم بأخذ أكثر من حقكم ، ولا تعتدوا إلى ما لم يُرَخَّص لكم ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ يحرسهم ويصلح شؤونهم بالنصر والتمكين (روي) أنه عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، دخلوا ذلك العام مكة وطافوا بالبيت ونحروا الهدي ، وكان المشركون شرطوا له بعد قضاء العمرة الإقامة بمكة ثلاثاً ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام تزوج ميمونة بنت الحارث ، فأحب المقام بمكة ليولم عليها ، فطالبوه بالخروج منها والوفاء بما عاهد ففعل ، وأولم على ميمونة وبنى بها بِسَرِفٍ ، واعلم أن الله تعالى أمرنا بالغزو في سبيله ، ليظهر من يدعي بذل الوجود في سبيل الله ، وأمرنا بالزكاة ببذل المال ، ليتبين من يدعي محبة الله ، فالغزو معيار المحبة الإلهية ، لأن كل إنسان جُبل على حب الحياة والمال ، فامتحن بالغزو والزكاة في سبيل الله قطعاً لدعوى المدعين ، لأن الكل يدعي محبة الله ، وهذا هو السر في الجهاد .

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الإنفاق صرف المال إلى وجوه المصالح فكل ما أمر الله به من الإنفاق في إعزاز الدين ، وإقامته فهو داخل في هذه الآية ، سواء كان في جهاد الكفار أو صلة الأرحام ، أو تقوية الضعفاء من الفقراء والمساكين ، أو رعاية حقوق الأهل والأولاد ، أو غير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى ، أمر تعالى بالجهاد بالمال ، بعد الأمر بالنفس ، أي واصرفوا أموالكم في سبيل الله ، ﴿ وَلَا تُلْقُوا ﴾ الإلقاء طرح الشيء حيث تراه ، ثم صار اسماً لكل طرح عرفاً ، ﴿ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ لا يقال ألقي بيده إلا في الشر ، والمراد بالأيدي الأنفس ، وتخصيص اليد من بين سائر الجوارح ، لأن أكثر الأعمال يظهر بالمباشرة باليد ، والمعنى لا تطرحوا أنفسكم ﴿ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ أي الهلاك ، بالإسراف وتضييع وجه المعاش ، أو بالكف عن الغزو والإنفاق في مهماته ، فإن ذلك مما يقوي العدو ويسلطه عليكم ، ويؤيده ما روي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنه قال : « إن الله تعالى لما أعزَّ دينه ونصر رسوله ، قلنا فيما بيننا : إنا قد تركنا أهلنا وأموالنا حتى فشا الإسلام ونصر الله نبيه ، فلو رجعنا إلى

أهلنا وأموالنا فأقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منا » ، فأنزل الله تعالى ﴿ **وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَىٰ التَّهْلُكَةِ** ﴾ أي إلى ما يكون سبباً لهلاككم ، من الإقامة في الأهل والمال ، وترك الجهاد ، فمازال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله ، حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية ، في زمن معاوية ، فتوفي هناك ودفن في أصل سور قسطنطينية وفي الحديث : « من مات ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّث نفسه بالغزو ، مات على شعبة من النفاق »[1] ﴿ **وَأَحْسِنُوا** ﴾ أي تفضلوا على الفقراء ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ أي يريد بهم الخير ، ويحبُّهم ويدنيهم منه ، ويُظلّهم تحت ظل عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظله .

حكي أنه أقبل ركب من بني أسد يريدون النعمان ، فلقوا حاتماً ـ وهو المشهور بالجود ـ فقالوا له تركنا قومنا يثنون عليك خيراً ، وقد أرسلوا إليك رسالة ، فقال ما هي ؟ فأنشد الأسديُّون شعراً للنابغة فيه ، فلما أنشده ، قالوا : إنا نستحي أن نسألك شيئاً ، وإن لنا لحاجة ، قال : ما هي ؟ قالوا صاحب لنا قد فقدت راحلته ، فقال حاتم : فرسي هذه فاحملوه عليها ، فأخذوها وربطت الجارية فلوها بثوبها ، فأفلت يتبع أمه ، وتبعته الجارية لترده ، فصاح حاتم ما يتبعكم فهو لكم ، فذهبوا بالفرس ، والفلو ، والجارية ، كذا في رسالة ابن زيدون الوزير .

﴿ **وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ** ﴾ الحج فرض على من استطاع إليه سبيلاً بالاتفاق ، والعمرة سنة عند أبي حنيفة رحمه الله لا تلزم إلا بالشروع كنفل الصلاة ، والمعنى : أن من شرع في أي واحد منهما فليتمه قالوا ومن الجائز أن لا يكون الدخول في شيء واجباً ابتداء إلا أنه بعد الشروع فيه يكون إتمامه واجباً ﴿ **لله** ﴾ متعلق بأتموا وفائدة التخصيص به هنا ، أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر ، وحضور الأسواق ، وكل ذلك ليس لله فيه طاعة ولا قربة ، فأمر الله بالقصد إليه لأداء فرضه ، وقضاء حقه ، والمعنى أكملوا أركانها وشرائطها ، وسائر أفعالها المعروفة شرعاً لوجه الله تعالى ، من غير إخلال منكم بشيء منها ، وأخلصوهما للعبادة ولا تشوبوهما بشيء من الأغراض الدنيوية ، واجعلوا النفقة من الحلال ، وأركان الحج خمسة : الإحرام ، والوقوف بعرفة ، والطواف ، والسعي بين الصفا والمروة ، وحلق الرأس أو التقصير ، فركن الحج ما لايحصل التحلل إلا بالإتيان به ، وواجباته : هو الذي إذا ترك يجبر بالدم ، وسننه : ما لا يجب بتركه شيء ، وكذا أفعال العمرة تشتمل على هذه الأمور المذكورة ، فأركانها أربعة : الإحرام ، والطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة ، والحلق ، وللحج تحللان ، وأسباب التحلل ثلاثة : رمي جمرة العقبة يوم النحر ، وطواف الزيارة ، والحلق ، وإذا وجد شيئان من هذه الأشياء الثلاثة حصل التحلل ، وبالثالث حصل التحلل الثاني ، وبعد التحلل الأول يستبيح جميع

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٢٤٠ .

المحظورات أي محظورات الإحرام إلا النساء ، وبالثاني يستبيح الكل ، واتفقت الأمة على أنه يجوز أداء الحج والعمرة على ثلاثة أوجه : الإفراد ، والتمتع ، والقِرَانُ ، فصورة الإفراد أن يحرم بالحج مفرداً ، ثم بعد الفراغ منه يعتمر من الحل ، أي الذي بين المواقيت وبين الحرم ، وصورة التمتع أن يبتدىء بإحرام العمرة في أشهر الحج ، ويأتي بمناسكها ، ثم يحرم بالحج من مكة فيحج في هذا العام ، وصورةُ القران ، أن يحرم بالحج والعمرة معاً بأن ينويها بقلبه ، ويأتي بمناسك الحج ، وحينئذ يكون قد أتى بالعمرة أيضاً لأن مناسك العمرة هي مناسك الحج من غير عكس ، أو يحرم بالعمرة ثم يدخل عليها بالحج ، قبل أن يفتتح الطواف فيصير قارناً ، والأفضل عندنا من هذه الوجوه هو القران ، وفي الحديث : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنها ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفي الكير خَبَث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحج المبرور جزاء إلا الجنة » (١) ﴿ **فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ** ﴾ أي منعتم وصددتم عن الحج بمرض ، أو عدو ، أو عجز ، أو ذهاب نفقة ، أو راحلة ، أو سائر العوائق بعد الإحرام بأحد النسكين ، ﴿ **فَمَا اسْتَيْسَرَ** ﴾ أي فعليكم ما تيسر ﴿ **مِنَ الْهَدْيِ** ﴾ من إما تبعيضية أو بيانية أي حال كونه بعض الهدي أو الكائن من الهدي جمع هدية كتمر وهو ما يهدى إلى البيت تقرباً إلى الله من النعم أيسره شاة وأوسطه بقرة ، وأعلاه بدنة ويسمى هدياً ، لأنه جار مجرى الهدية التي يبعثها العبد إلى ربه بأن بعثها إلى بيته ، والمعنى : أن المحرم إذا أُحصِر وأراد أن يتحلل تحلل بذبح هدي تيسر عليه، من بدنة أو بقرة أو شاة حيث أحصر في أي موضع كان عند الشافعي ، وأما عندنا فيبعث به إلى الحرم ، ويجعل للمبعوث على يده يوم ذبحه أمارة أي علامة فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح تحلل لقوله تعالى ﴿ **وَلا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ** ﴾ أي لا تتحللوا بحلق رؤسكم ﴿ **حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّه** ﴾ حتى تعلموا أن الهدي المبعوث إلى الحرم بلغ مكانه الذي وجب أن ينحر فيه ، والمحِلُّ بالكسر من الحلول وهو النزول ، يطلق على الزمان والمكان ، فمحِلُّ الدين وقت وجوب قضائه ، ومَحِلُّ الهدي المكان الذي يحل فيه ذبحه ، وهو الحرم عندنا لقوله تعالى (**ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ**) والمراد الحرم كله لأنه كله يتبع البيت ، وهذا الحكم عام لجميع الحاج من المفرد والقارن والمتمتع والمعتمر يعني لا يجوز له أن يحلق رأسه إلا أن يذبح هديه ، وإن لم يحصر يعني في منى ، والحلق أفضل من التقصير ولو حلق ربع الرأس يكتفي به ، ولكن حلق كله أولى اقتداء برسول الله ﷺ ، هذا في الحج ، وأما في غيره فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يحلق رأسه إلا قليلاً ، ويتركه في أكثر الأزمان ، ﴿ **فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً** ﴾ مرضاً محوجاً إلى الحلق حال الإحرام ﴿ **أَوْ بِهِ أَذًى** ﴾ أي ألمٌ كائن ﴿ **مِنْ رَأْسِهِ** ﴾ كجراحة أو قمل ، أو صداع ، والمعنى يثبت على إحرامه حتى يذبح هديه ، إلا أن يضطر إلى الحلق ، فإن

(١) الحديث أخرجه النسائي وصححه وهو حديث حسن له شواهد . جامع الأصول ٩ / ٤٦١ .

حلق ضرورة ﴿ فَفِدْيَةٌ ﴾ أي فعليه فدية ﴿ مِنْ صِيَامٍ ﴾ أي صيام ثلاثة أيام ﴿ أَوْ صَدَقَةٍ ﴾ على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من بر ﴿ أَوْ نُسُكٍ ﴾ بضمتين جمع نسيكة وهي الذبيحة أعلاها بدنة ، وأوسطها بقرة ، وأدناها شاة ، و« أَوْ » للتخيير ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ ﴾ من خوفكم ، وبرئتم من مرضكم ، وكنتم في حال أمن وسعة ، لا في حال إحصار ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ ﴾ أي فمن انتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بتقربه بالحج في أشهره ، أو من استمتع بعد التحلل من عمرته بإباحة محظورات الإحرام إلى أن يحرم بالحج ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ ﴾ أي فعليه دم تيسر عليه بسبب التمتع ، وهو هدي المتعة ، وهو نسك عند أبي حنيفة رحمه الله ، لا يذبحه إلا يوم النحر ، ويأكل منه كالأضحية ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ﴾ أي الهدي ﴿ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ أي فعليه صيام ثلاثة أيام ﴿ فِي الحَجِّ ﴾ أي في وقته وأشهره بين الإحرامين ، إحرام العمرة ، وإحرام الحج ، إن شاء متفرقة وإن شاء متتابعة ، والأحبُّ أن يصوم سابع ذي الحجة وثامنه وتاسعه ، فلا يصح يوم النحر وأيام التشريق ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ أي نفرتم وفرغتم من أعمال الحج ، أطلق عليه الرجوع ، على طريق إطلاق اسم المسبب وإرادة السبب ﴿ تِلْكَ ﴾ أي صيام ثلاثة وسبعة ﴿ عَشَرَةٌ ﴾ فذلكة الحساب ، وفائدتها أن أكثر العرب لا يحسنون الحساب ، فكان الرجل إذا خاطب صاحبه بأعداد متفرقة جمعها له ، ليسرع فهمه إليها ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ صفة مؤكدة لعشرة فإن الوصف قد يكون للتأكيد إذا أفاد الموصوف معنى ذلك الوصف نحو إلهين اثنين والتأكيد إنما يصار إليه إذا كان الحكم المؤكد مما يهتم بشأنه والمحافظة عليه والمؤكد هنا هو رعاية هذا العدد في هذا الصوم ، أكده لبيان أن رعايته من المهمات التي لا يجوز إهمالها البتة ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى نفس التمتع عندنا ، وإلى حكم التمتع عند الشافعي ، وهو لزوم الهدي ، ﴿ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ ﴾ أي لازم للذي لا يسكن مكة ، وإنما ذكر الأهل . لأن الغالب أن الإنسان يسكن حيث يسكن أهله ، فعبَّر بسكون الأهل عن سكون نفسه « حاضرو المسجد الحرام » عندنا هم أهل مكة ، ومن كان منزله داخل المواقيت ، فلا متعة ولا قران لهم ، فمن تمتع أو قرن منهم فعليه دم جناية ، لا يأكل منه و« حاضرو المسجد الحرام » ينبغي لهم أن يعتمروا في غير أشهر الحج ، ويُفردوا شهور الحج للحج ، والقارن والمتمتِّعُ الآفاقيان دمها دم نسك يأكلان منه ، وعند الشافعي « حاضرو المسجد الحرام » أهل الحرم ومن هو على مسافة لا تقصر فيها الصلاة ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ في المحافظة على أوامره ونواهيه ، وخصوصاً في الحج ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ لمن لم يتقه ، كي يصدكم العلم به عن العصيان .

ثم اعلم أن كل قلب لا يصلح لمعرفة الرب ، ولا كل نفس تصلح لخدمة الرب ، ولا كل نفيس مال

يصلح لخزانة الرب ، فتعجل أيها العبد في تدارك حالك ، وكن سخياً بمالك ، فإن لم يكن فبنفسك ، وإن كان لك قدرة على بذلها فبها ، ألا يرى أن إبراهيم عليه السلام كيف أعطى ماله للضيفان ، وبدنه للنيران ، وولده للقربان ، وقلبه للرحمن !! حتى تعجب الملائكة من سخاوته فأكرمه الله بالخلة قال الله تعالى (وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) ، قال مالك ابن دينار : (خرجت إلى مكة فرأيت في الطريق شاباً ، إذا جنَّ عليه الليل رفع وجهه نحو السماء ، وقال : يا من تسرُّه الطاعات ، ولا تضره المعاصي ، هب لي ما يسرك ، واغفر لي ما لا يضرك ، فلما أحرم الناس ولبوا قلت له : لم لا تلبي ؟ فقال : يا شيخ ، وما تغني التلبية عن الذنوب المتقدمة ، والجرائم والمعاصي السالفة ، أخشى أن أقول : لبيك فيقال لي : لا لبيك ولا سعديك ، لا أسمع كلامك ولا أنظر إليك ، ثم مضى فلبَّى فما رأيته إلا بمنى وهو يقول : اللهم اغفر لي ، اللهم إن الناس قد ذبحوا وتقربوا إليك ، وليس لي شيء أتقرب به إليك سوى نفسي ، فتقبلها مني ، ثم شهق شهقة وخرَّ ميتاً) اللهم عاملنا بكمال كرمك ، وأوصلنا إلى حضرتك العليا وحرمك ﴿ الْحَجُّ ﴾ بحذف المضاف أي وقته ، لأن الحج فعلٌ ، والفعل لا يكون أشهراً ﴿ أَشْهُرٌ ﴾ هي شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة عندنا ﴿ مَعْلُومَاتٌ ﴾ معروفات بين الناس ، لأنهم توارثوا علمها ، وفائدة توقيت الحج بهذه الأشهر ليعلم أن شيئاً من أفعال الحج لا يصح إلا فيها ، والإحرام وإن كان ينعقد في غيرها أيضاً عند أبي حنيفة إلا أنه مكروه ، يعني أن الإحرام عنده من شرائط الحج ، فيجوز تقديمه على وقت أدائه ، كما يجوز تقديم الطهارة على أداء الصلاة ، والأشهر كلها وقت لصحة إحرامه لقوله تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) فجعل الأهلة كلها مواقيت لصحة الإحرام ، ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ أي أوجبه على نفسه بالتلبية أو تقليد الهدي وذلك لأن الحج عبادة لها تحليل وتحريم فلا يشرع بمجرد النية كالصلاة ، فلابد من فعل يشرع به فيه وهو ما ذكرنا من التلبية أو تقليد الهدي وهو جعل القلادة في عنقه وسوقه ﴿ فَلا رَفَثَ ﴾ أي فلا جماع وما دونه ، مما يفضي إلى ذلك ، كالقبلة والغمز ، وهو محظور الإحرام ، فقبل الوقوف بعرفة مفسد ، وبعده موجب للبدنة ، وحرمت دواعيه لئلا يقع فيه ، ﴿ وَلا فُسُوقَ ﴾ ولا خروج من حدود الشرع بارتكاب المحظورات ، والفسق هو المعاصي بأنواعها ، فيدخل فيه السباب والتنابز بالألقاب وغير ذلك ﴿ وَلا جِدَالَ ﴾ أي لا مراء مع الخدم ، والرفقة والمُكَارين ، لأنه يفضي إلى التضاغن ، ﴿ فِي الْحَجِّ ﴾ أي في أيامه ، وإنما أمر باجتناب ذلك ، وهو واجب الاجتناب في كل حال ، لأنه مع الحج أقبح وأشنع ، كلبس الحرير في الصلاة ، والتطريب في قراءة القرآن ، كما يفعله بعض القراء ، من الألحان العجيبة والأنغام الموسيقية ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ﴾ نهى عن ثلاثة أشياء من المعاصي ، ورغب في كل الطاعات ، فهو حث على فعل الخير عقيب النهي عن الشر ، فيدخل فيه استعمال الكلام الحسن مكان

القبيح ، والبر والتقوى مكان الفسوق ، والوفاق والأخلاق الجميلة مكان الجدال ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ أي اجعلوا زادكم لمعادكم وآخرتكم اتقاء القبائح ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ ﴾ لا ما يتخذ من الطعام ، وتحقيق الكلام أن الإنسان له سفران : سفرٌ في الدنيا ، وسفر من الدنيا ، فالسفر في الدنيا لابد له من زاد ، وهو الطعام والشراب ، والمركب والمال ، والسفر من الدنيا لابد له أيضاً من زاد ، وهو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه ، بالاشتغال في طاعته ، والاجتناب عن مخالفته ومناهيه ، وهذا الزاد خير من زاد المسافر في الدنيا ، لأن زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع ، وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم ، وزاد الدنيا فانٍ ، وزاد الآخرة يوصلك إلى لذات باقية خالصة ، كان أهل اليمن لا يتزودون ، ويخرجون بغير زاد ، ويقولون نحن المتوكلون ، ونحن نحج بيت الله ، أفلا يطعمنا ؟ فيكون الواحد كَلاً على الناس ، وإذا قدموا مكة سألوا الناس ، وربما يفضي بهم الحال إلى النهب والغصب ، فقال الله تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ أي ما تتبلغون به وتكفُّون به وجوهكم ، واتقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقيل عليهم ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ ﴾ تقوى الله ﴿ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ فإن قضية اللب خشية الله وتقواه ، حثهم على التقوى ، ثم أمرهم بأن يكون المقصود بها هو الله فيتبرأوا عن كل شيء سواه ، فلذلك خص أولي الألباب بالخطاب ، فإن من لم يتقه فكأنه لا لب له ، فعلى العاقل تخليص العقل من الشوائب ، وتهذيب النفس وتكميلها بالوصول إلى أعلى المراتب .

قال الإمام : اعلم أن الإنسان فيه قوى ثلاث : قوة شهوانية بهيمية ، وقوة غضبية شيطانية ، وقوة وهمية عقلية ، والمقصود من جميع العبادات قهر القوى الثلاث ، أعني الشهوانية ، والغضبية ، والوهمية ، فقوله تعالى ﴿ فَلا رَفَثَ ﴾ إشارة إلى قهر القوة الشهوانية ، وقوله ﴿ وَلا فُسُوقَ ﴾ إشارة إلى قهر القوة الغضبية ، التي توجب المعصية ، وقوله ﴿ وَلا جِدَالَ ﴾ إشارة إلى قهر القوة الوهمية ، التي تحمل الإنسان على الجدال ، وهي الباعثة للإنسان على منازعة الناس ومماراتهم ، والمخاصمة معهم في كل شيء ، فلما كان الشر محصوراً في هذه الأمور الثلاثة لا جرم قال ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الحَجِّ ﴾ أي فيمن قصد معرفة الله ومحبته ، والاطلاع على نور جلاله ، والانخراط في سلك الخواص من عباده انتهى ما قال الإمام . قال أبو جعفر محمد الباقر : ما يُعبأ بمن يؤم هذ البيت ، إذا لم يأت بثلاث : ورعٍ يحجزه عن محارم الله ، وحلم يكف به غضبه ، وحسن الصحابة لمن يصحبه من المسلمين ، فهذه الثلاث يحتاج إليها المسافر ، خصوصاً إلى الحج ، فمن كمَّلها فقد كمل حجه وإلا فلا .

فينبغي أن يجتهد الحاج قبل مفارقة رفاقه ، في أن يتحالوا من المظالم ، إن كانت جرت بينهم ، مثل غيبة ونميمة ، أو تعرض لمال ، فما سلم من ذلك إلا القليل ، وإذا ذكر رفيقه فليثن عليه خيراً ، وليغضَّ

عما سوى ذلك ، فقد كان السلف بعد رجوعهم من السفر ، لا يذكر أحدهم صاحبه إلا بخير ، وليحذر من نُظِّفت صحيفة عمله من الذنوب بالغفران ، أن يرجع إلى وسخ المعاصي والأدران .

﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ** ﴾ أي إثم من الجنوح ، وهو الميل عن القصد ﴿ **أَنْ تَبْتَغُوا** ﴾ أي في أن تقصدوا وتطلبوا ﴿ **فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ أي عطاء ورزقاً منه ، يريد الربح بالتجارة في أيام الحج ، فإن الآية نزلت رداً على من يقول : لا حج للتاجر والجمَّال ، لكن الحق أن التجارة وإن كانت مباحة في الحج ، إلا أن الأولى تركها فيه لقوله تعالى (**وَمَا أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) والإخلاص : أن لا يكون له حامل على الفعل ، سوى كونه طاعة وعبادة ﴿ **فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ** ﴾ أي دفعتم أنفسكم منها بكثرة بعد غروب الشمس ، ورجعتم بعد الوقوف بها ، وحقيقة الإفاضة هو اجتماع الكثير في الذهاب والمسير ، وعرفات عَلَمٌ للموقف ، وليس بجمع حقيقة ، بل هو من قبيل ما زيدت حروفه لزيادة معناه ، وفيه دليل على وجوب الوقوف بعرفات ، لأن الإفاضة مأمور بها ، وهي موقوفة على الحضور فيها ، وما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ﴿ **فَاذْكُرُوا اللهَ** ﴾ بالتلبية والتهليل ، والتسبيح والتحميد ، والثناء والدعوات ﴿ **عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ** ﴾ وهو الجبل الذي يقف عليه الإمام ، والمشعر : العَلَم للعبادة ، والشعائر : العلامات من الشعار وهو العلامة ، وصفه بالحرام لحرمته فلا يفعل فيه ما نهي عنه ﴿ **وَاذْكُرُوه كَمَا هَدَاكُمْ** ﴾ أي كما علمكم كيف تذكرونه ، مثل كون الذكر ذكراً كثيراً ، وعلى وجه التضرع والخيفة ، ناشئاً عن الرغبة والرهبة ، أي اذكروه على الوجه الذي هداكم إليه ، لا تعدلوا عما هديتم إليه ، ﴿ **وَإِنْ** ﴾ هي المخففة واللام هي الفارقة ﴿ **كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ** ﴾ أي من قبل ما ذكر من هدايته إياكم ﴿ **لَمِنَ الضَّالِّينَ** ﴾ غير العالمين بالإيمان والطاعة ، ولما أمر بذكر الله تعالى أمر بأن تكون الإفاضة من حيث أفاض الناس ، مرتباً الأمر الثاني على الأول بكلمة ثم فقال ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُوا** ﴾ أي ارجعوا ﴿ **مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ** ﴾ أي من عرفة لا من المزدلفة ، كانت قريش وحلفاؤها وهم « الحُمْسُ » يقفون بالمزدلفة ، ويقولون نحن أهل الله وسكان حرمه ، فلا نخرج من الحرم ، ويستعظمون أن يقفوا مع الناس بعرفات ، لكونها من الحِلّ ، وسائر العرب كانوا يقفون بعرفات ، اتباعاً لملة إبراهيم عليه السلام ، فإذا أفاض الناس من عرفات ، أفاض الحُمس من المزدلفة ، فأنزل الله هذه الآية ، فأمرهم أن يقفوا بعرفات ، وأن يفيضوا منها كما يفعله سائر الناس ، والمراد بالناس العرب كلهم غير الحمس ، والحمس جمع أحمس وهو الرجل الشجاع ، والأحمس أيضاً الشديد الصلب في الدين ، وسميت قريشاً وكنانة وقيس حُمْساً لتشددهم في دينهم ، وكانوا لا يستظلون أيام منى ، ولا يدخلون البيوت من أبوابها ، وكذلك كان من حالفهم أو تزوج منهم ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ** ﴾ من جاهليتكم في

تغيير المناسك ، ومخالفتكم في الموقف ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه ، وقد أمر النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر رضي الله تعالى عنه أن يخرج بالناس جميعاً إلى عرفات فيقف بها (روي) أن الله تعالى يباهي ملائكته بأهل عرفات ويقول : « انظروا إلى عبادي ، جاؤا من كل فجٍ عميق ، شُعْثاً غُبْراً اشهدوا أني غفرت لهم »[١] ، ويُروى أن الشيطان ما رؤي في يوم هو أصغر ، ولا أحقر ، ولا أذلَّ منه من يوم عرفة ، وما ذلك إلا لما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام[٢] .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ ﴾ أي أتممتم عبادتكم وفرغتم منها ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ﴾ يعني فاتركوا عادة الجاهلية ، واشتغلوا بذكر رب الأنام ، وكانت العرب إذا قضوا مناسكهم ، وقفوا بمنى بين المسجد والجبل ، يذكرون مفاخر آبائهم ، ومحاسن أيامهم ، يريد كل واحد منهم بذلك حصول الشهرة والترفع له ، بمآثر سلفه ، فنهاهم الله عن ذلك ، وأمرهم بأن يجعلوا بدل ذكرهم آباءهم ، ذكر الله تعالى وتمجيده والثناء عليه ، إذ الخير كله من عنده .

﴿ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ﴾ ذكراً كائناً مثل ذكركم المتعلق بآبائكم بل أشد وأبلغ ذكراً ، ﴿ فَمِنَ النَّاسِ ﴾ أي من الذين يشهدون الحج ﴿ مَنْ يَقُولُ ﴾ في ذكره مقتصراً على طلب الدنيا ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾ آتنا في الدنيا خاصة ، من الجاه والغنى ، وهم المشركون ، لأنهم لا يسألون في حجهم إلا الدنيا ﴿ وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن خَلاقٍ ﴾ أي نصيب وحظ ، لأن همه مقصور على الدنيا ، حيث سأل في أعز المواقف أحقر المطالب ، وأعرض عن سؤال النعيم الدائم ، والملك العظيم ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي من الذين يشهدون الحج ﴿ مَنْ يَقُولُ ﴾ في ذكره طالباً خير الدارين ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ هي الصحة ، والكفاف ، والتوفيق للخير ، والحسنةُ : جامعة لكل الخيرات في الدارين ﴿ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ هي الثواب والرحمة ، قال أبو القاسم الحكيم : حسنة الدنيا عيشٌ على سعادة ، وموت على شهادة ، وحسنة الآخرة بعثٌ من القبر على بشارة ، وجوازٌ على الصراط على سلامة ﴿ وَقِنَا ﴾ أي احفظنا واحْمِنا ﴿ عَذَابَ النَّارِ ﴾ بالعفو والمغفرة ، وعن عليّ كرَّم الله وجهه أن الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة ، وفي الآخرة الحور العين ، وعذابُ النار : المرأة السوء[٣] .

﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى الفريق الثاني ، وهم الداعون بالحسنتين ﴿ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي

---

(١) أخرجه أبو يعلى والبزار وابن خزيمة وابن حبان وبمعناه عند مسلم من حديث عائشة . (٢) رواه مالك مرسلاً والحاكم موصولاً .

(٣) هذا القول عن علي رضي الله عنه أحد وجوه التأويل ، وهو محمولٌ على أن المرأة جنةٌ أو جحيم ، فإن كانت صالحة سعدت بها الأسرة ، وإلا كانت شقاءً وجحيماً ، وما أجمل تصوير الشاعر عن المرأة : هي شَيْطَانٌ إِذَا أَفْسَدتَهَا

وَإِذَا مَا أَصْلَحَتَ فَهِيَ مَلَكٌ

*

لهم نصيب عظيم من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة ، وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة ، ﴿ **وَاللهُ سَرِيعُ الحِسَابِ** ﴾ أي يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم ، في مقدار لمحة ، لعدم احتياجه إلى عقد يد ، أو نظر وفكر ، فاحذروا من الإخلال بطاعة من هذا شأن قدرته .

﴿ **وَاذْكُرُوا اللهَ** ﴾ أي كبّروه أعقاب الصلوات ، وعند ذبح القرابين ، ورمي الجمار وغيرها ﴿ **فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ** ﴾ في أيام التشريق ، هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، أولها يوم الحادي عشر من ذي الحجة ، والثاني يوم النفر الأول ، لأن بعض الناس ينفرون في هذا اليوم من منى ، والثالث : يوم النفر الثاني ، وهذه الأيام الثلاثة مع يوم النحر أيام رمي الجمار ، وأيام التكبير أدبار الصلوات ، ﴿ **فَمَنْ تَعَجَّلَ** ﴾ أي استعجل وطلب الخروج من منى ﴿ **فِي يَوْمَيْنِ** ﴾ في تمام يومين بعد يوم النحر ، واكتفى برمي الجمار في يومين من هذه الأيام الثلاثة ، فلم يمكث حتى يرمي في اليوم الثالث ﴿ **فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ بهذا التعجيل وهو مرخص له ، ومحصله أن على الحاج أن يبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق ، ويرمي كل يوم من بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة ، ورخص في ترك البيتوتة لرعاء الإبل وأهل سقاية الحاج ، ثم كل من رمى اليوم الثاني من أيام التشريق[1] ، وأراد أن ينفر بعد البيتوتة في الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق ، فذلك له واسع لقوله تعالى ﴿ **فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ ومن لم ينفر حتى غربت الشمس ، فعليه أن يبيت حتى يرمي اليوم الثالث ، ثم ينفر ﴿ **وَمَنْ تَأَخَّرَ** ﴾ عن الخروج حتى رمى في اليوم الثالث قبل الزوال ﴿ **فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾ بترك الترخص . والمعنى أنهم مخيرون بين التعجيل والتأخير ، فإن قلت : أليس التأخير بأفضل ؟ قلت : بلى ويجوز أن يقع التخيير بين الفاضل والأفضل ، كما خُيّر المسافر بين الصوم والإفطار ، وإن كان الصوم أفضل ، ﴿ **لِمَنِ اتَّقَى** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أي الذي ذكر من التخيير ونفي الإثم مختص بمن اتقى المناهي ، لأنه الحاج على الحقيقة والمنتفع به ، لا ينفعه إلا حجه ، وإن كان قد أدّى الفرائض ظاهراً ﴿ **واتَّقُوا اللهَ** ﴾ أي حال الاشتغال بأعمال الحج وبعده ، ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ أي تبعثون وتجمعون للجزاء على أعمالكم ، وهو تأكيد للأمر بالتقوى . وموجب للامتثال به ، كانوا إذا رجعوا من حجهم يجترئون على الله بالمعاصي ، فشدّد في تحذيرهم ، وعلامةُ الحج المبرور ، أن يرجع زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة ، فإذا رجع من الحج المبرور ، رجع وذنبه مغفور ، ودعاؤه مستجاب ، فلذلك يستحب تلقيه بالسلام ، وطلب الاستغفار منه ، قال بعضهم : الحر الكريم لا ينقض العهد القديم ، وإذا دعتك نفسك إلى نقض عهد مولاك ، فقل لها : معاذ الله إن ربي أحسن مثواي .

(١) أيام التشريق هي : اليوم الثاني والثالث والرابع من أيام عيد الأضحى ، سميت أيام التشريق لأنها تجفف فيها اللحوم ، وأما اليوم الأول فهو يوم النحر .

وعن بعضهم : قدمت من الحج مع قوم ، فدعتني نفسي إلى أمر سوء ، فسمعت هاتفاً ناحية البيت يقول : ويلك ألم تحج ؟ ويلك ألم تحج ؟ فعصمني الله إلى الساعة ، (وحكي) عن بعض من حج ، أنه توفي في الطريق في رجوعه ، فدفنه أصحابه ونسوا الفأس في قبره ، فنبشوه ليأخذوا الفأس ، فإذا عنقه ويداه قد جمعتا في حلقة الفأس ، فردوا عليه التراب ، ثم رجعوا إلى أهله فسألوهم عن حاله ، فقالوا : صحب رجلاً فأخذ ماله فكان يحج منه ، ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ** ﴾ أي تستحسن ظاهر قوله ، وتعده حسناً مقبولاً ، فإن الإعجاب استحسان الشيء والميل إليه ﴿ **فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ أي يسرك ما يقوله أو يعجبك في الدنيا ، بحلاوته وفصاحته ، لا في الآخرة ، لما أنه يَظْهر هناك كذبه وقبحه ﴿ **وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ** ﴾ أي يقول الله شاهد أن ما في قلبي من المحبة والإسلام ، موافق لما في لساني ، ﴿ **وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** ﴾ أي أشد في العداوة والخصومة للمسلمين ، واللَّدَدُ : شدة الخصومة ، نزلت في « الأخنس بن شريق الثقفي » وكان حسن المنظر ، حلو المنطق ، يوالي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويدَّعي الإسلام ، ودعوى المحبة بدون الموافقة ، من فعل الملاحدة والزنادقة ، والمحبُّ لا يفعل إلا ما يحب محبوبه كما قيل :

تَعْصي الإلَـهَ وأنتَ تُظْهر حبَّـه * هَـذا لعَمْري فِي الفِعَـال شَنِيـعُ
لَوْ كَان حُبُّكَ صَادِقـاً لأَطَعْتَـهُ * إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحبُّ مُطيـعُ

﴿ **وَإِذَا تَوَلَّى** ﴾ أي أدبر وانصرف عن مجلسك ﴿ **سَعَى فِي الأَرْضِ** ﴾ السعي سيرٌ سريع بالأقدام ، وقد يستعار للجد في العمل والكسب ، أي وفي أيّ مكان حلَّ فيه من الأرض ، أفسد فيه ، ﴿ **لِيُفْسِدَ فِيهَا** ﴾ علة لسعى ﴿ **وَيُهْلِكَ** ﴾ الإهلاك الإضاعة ﴿ **الْحَرْثَ** ﴾ أي الزرع ﴿ **وَالنَّسْلَ** ﴾ ما خرج من كل أنثى من أجناس الحيوان ، كما فعله الأخنس بثقيف ، إذ بيَّتهم - أي أتاهم ليلاً - وأهلك مواشيهم وزرعهم ، لأنه كان بينه وبينهم عداوة ، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف ، أو بالظلم حتى يمنع الله بشؤمهم القطر ، فيهلك الحرث والنسل ، ﴿ **وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَسَادَ** ﴾ أي لا يرتضيه ويبغضه ويغضب على من يتعاطاه ، ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُ** ﴾ أي لهذا المنافق والمفسد : على نهج العظة والنصيحة ﴿ **اتَّقِ اللهَ** ﴾ خفْ من الله في صنعك السوء واترك ما تباشره من الفساد والنفاق ﴿ **أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ** ﴾ أي حملته الأنفة التي فيه حميته الجاهلية على الإثم والذنب ، ﴿ **فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ** ﴾ أي كافيه دخول النار ، الخلود فيها على ما عمله ﴿ **وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ أي والله لبئس الفراش جهنم ، قال ابن مسعود : من أكبر الذنب عند الله ، أن يقال للعبد : اتق الله ، فيقول : عليك نفسك ، وقيل لعمر بن الخطاب : اتَّقِ الله ، فوضع خده على الأرض تواضعاً لله تعالى ، ثم إنه تعالى لما وصف في الآية المتقدمة ،

حال من يبذل دينه لطلب الدنيا ، ذكر في هذه الآية من يبذل دنياه ونفسه لطلب الدين فقال ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ﴾ أي يبيعها ويبذلها ، فإن المكلف لما بذل نفسه في طاعة الله ، من الصوم والصلاة والحج والجهاد ، صار كأنه باع نفسه من الله تعالى بما نال من ثوابه ، ﴿ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ﴾ أي طلباً لرضاه ﴿ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ ﴾ ومن جملة رأفته بعباده ، أن ما اشتراه منهم من أنفسهم وأموالهم ، إنما هو خالص ملكه وحقه ، ثم إنه تعالى يشتري منهم ملكه الخالص ، بما لا يعد ولا يحصى رحمة وإحساناً ، وفضلاً وإكراماً ، نزلت الآية في « صهيب بن سنان الرومي » ، خرج من مكة يريد الهجرة إلى النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة ، واتبعه نفر من مشركي قريش وقتلوا نفراً كانوا معه ، وكان معه كنانة فيها سهامه ، وكان رامياً مصيباً ، فقال يا معشر قريش : لقد علمتم أني من أرماكم رجلاً ، والله لا أضع سهمي إلا في قلب رجلٍ ، وايم الله لا تصلون إليّ حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ، ثم لأضربنّ بسيفي ما بقي في يدي ، ثم افعلوا ما شئتم ، ولن ينفعكم كوني فيكم ، فإني شيخ كبير ، ولي مال في داري بمكة ، فارجعوا وخذوه وخلُّوني وما أنا عليه من الإسلام » ، ففعلوا وسار إلى المدينة ، فلما دخلها لقيه أبو بكر فقال له : ربح البيع يا صهيب ، فقال : وما ذاك ؟ فأخبره بما نزل فيه ففرح بذلك صهيب ، فـ« يَشْرِي » حينئذ بمعنى يشتري لجريان الحال على صورة الشراء ، لأنه اشترى نفسه من المشركين ببذل ماله لهم ، واعلم أن المؤمنين باعوا باختيارهم أنفسهم فكان ثمن نفس المؤمن الجنة ، أما الأولياء فإنهم باعوا باختيارهم أنفسهم فكان ثمن النفس مرضاة الله تعالى ، وبينهما فروق كثيرة ، فعلى السالك أن يخرج من الأوطان ، ويغترب عن ديار الأقران ، حتى يكون مجاهداً حقيقياً وشهيداً معنوياً ، قال عليه الصلاة والسلام : « طوبى للغرباء »[1] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بألسنتهم على أن الخطاب للمنافقين ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ أي استسلموا لله تعالى ، وأطيعوه جملة ظاهراً وباطناً ، فالسلم بمعنى الاستسلام والطاعة ، وكافة حال تؤكد معنى العموم ، فإن قولك قام القوم كافة ، بمنزلة قاموا كلهم أو المعنى ادخلوا في الإسلام بكليته ، ولا تخلطوا به غيره ، فالخطاب لمؤمني أهل الكتاب ، فإنهم كانوا يراعون بعض أحكام دينهم القديم كما روي أن عبد الله بن سلام وأصحابه كانوا يتمسكون ببعض شرائع التوراة من تعظيم السبت ، وتحريم لحم الإبل وألبانها ويتركون غيرها ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ جمع خطوة بالضم والسكون، وهو ما بين القدمين أي لا تسلكوا مسالكه، ولا تطيعوه فيما دعاكم إليه من السُّبُل الزائغة، والوساوس الباطلة ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة يريد أن يفسد عليكم بهذه الوساوس إسلامكم ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ ﴾ الزلل في الأصل

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الترمذي وأحمد وأوله (بدأ الإسلام غريباً . وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء) .

عثرة القدم ثم يستعمل في العدول عن الاعتقاد الحق العمل الصائب فالمعنى : أخطأتم الحق وتعديتموه علماً كان أو عملاً ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي الحجج والشواهد على أن ما دعيتم إلى الدخول فيه هو الحق ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره ، لا يعجزه الانتقام منكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا ينتقم إلا بالحق ، وفي الآية تهديد بليغ لأهل الزلل ، فإن الوالد إذا قال لولده ، إن عصيتني فأنت عارف بي وبشدة سطوتي ، يكون قوله هذا أبلغ في الزجر من ذكر الضرب وغيره ، ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ استفهام في معنى النفي ، ونظر بمعنى انتظر ، أي : هل ينتظر من يترك الدخول في السلم ، ويتبع خطوات الشيطان ﴿ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ ﴾ أي إلا إتيان الله أي عذابه على حذف المضاف ، لأن الله تعالى منزه عن المجيء والذهاب ، المستلزمين للحركة والسكون ، ومذهب المتقدمين في هذه الآية وما شاكلها ، أن يؤمن الإنسان بظاهرها ، ويَكِلَ علمها إلى الله ، لأنه لا يأمن في تعيين مراد الله تعالى من الخطأ ، فالأولى السكوت ، ومذهب جمهور المتكلمين أن لابد من التأويل على سبيل التفصيل [1] ﴿ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ الظلل : جمع ظلة وهي ما أظلك ، والغمام : السحاب الأبيض الرقيق ، سمي غماماً لأنه يغم أي : يستر ، ولا يكون السحاب ظلة ، إلا إذا كان مجتمعاً متراكماً ، ﴿ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ أي وتأتيهم الملائكة ، فإنهم وسائط في إتيان أمره تعالى ، بل هم الآتون ببأسه على الحقيقة ، وتلخيصه قد قامت الحجج ، فلم يبق إلا نزول العذاب ، ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أي أُتِمَّ أمرُ إهلاكهم وفُرغ منه ، وإنما عدل الى صيغة الماضي دلالة على الحقيقة ، فكأنه قد كان ﴿ وَإِلَى اللهِ ﴾ لا إلى غيره ﴿ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أي أمور الخلق وأعمالهم ، هو القاضي بينهم يوم القيامة ، والمثيب والمعاقب ، فينبغي للمؤمن أن يكون في جانب الانقياد ويحترز عن الهوى وخطوات الشيطان .

واعلم أن في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ ﴾ معنى عاماً ومعنى خاصاً ، فالعام خطاب مع جميع من آمن ، أي ادخلوا في شرائط الإسلام ، في الباطن كما في الظاهر ، ومن شرائطه ما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم »[2] ، وأما المعنى الخاص فخطاب خاص مع شخص الإنسان ، وجميع أجزائه الظاهرة والباطنة ، والباطنة ، فينبغي أن يُدْخِل أركانه في الإسلام بالفعل ، « فالعين بالنظر ، والأذن بالسمع ، والفم بالأكل ، والفرج بالشهوة ، واليد بالبطش ، والرجل بالمشي » ودخول واحد منها في الإسلام بأن يستسلم لأوامر الحق ، ويجتنب نواهيه ، بل يترك ما لا يعنيه أصلاً ، ويقع على ما لابد له منه ، ﴿ سَلْ ﴾ أمر للرسول عليه

---

(١) مذهب السلف الإيمان بظواهرها دون تعيين الكيفية ، فالأولى في تفسير الآية أن نسلك مذهب السلف الصالح فنقول : يأتي الله عز وجل للفصل بين العباد يوم القيامة إتياناً يليق بجلاله ، ولا حاجة لسلوك طريقة المتكلمين فإنها مزلق قدم .

(٢) الحديث أخرجه النسائي وإسناده قوي ، ونحوه عند ابن حبان .

الصلاة والسلام بالسؤال ، أو لكل أحد يصلح أن يُخاطب ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يعني هؤلاء الموجودين في عصرك من رؤساء بني إسرائيل ﴿ كَمْ آتَيْنَاهُمْ ﴾ أي آتينا آباءَهم وأسلافهم ﴿ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾ أي معجزة ظاهرة على أيدي أنبيائهم ، كالعصا ، واليد البيضاء ، وإنزال المنّ والسلوى وغيرها ، وهذا السؤال سؤال تقريع وتبكيت ، كما يسأل الكفرة يوم القيامة ، وليس المراد حقيقة الاستفهام ﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ ﴾ أي يغير ﴿ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ التي هي آياته الباهرة ، وتبديلهم إياها أن الله أظهرها لتكون أسباب هداهم ، فجعلوها أسباب ضلالتهم ، فكفروا بها وتركوا الشكر عليها ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ ﴾ أي من بعد ما وصلت إليه وتمكّن من معرفتها ﴿ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ لمن بدل النعمة في الدنيا والآخرة ، وقد عاقبهم في الدنيا بالقتل وذلك في بني قريظة ، وبالإجلاء وذلك في بني النضير ، ويوم القيامة يعذبون في السعير ، ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي حُسِّنَتْ في أعينهم ، وأشربت محبتها في قلوبهم ، حتى تهالكوا عليها ، ﴿ وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ويستهزئون بالفقراء من المؤمنين كعبد الله بن مسعود ، وعمار وصهيب وبلال ، ويسترذلون ويقولون : تركوا لذات الدنيا ، وعذبوا أنفسهم بالعبادات ، وفوتوا الراحات ، ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ يعني أطاعوا الله ، واختاروا الفقر من المؤمنين ، وإنما ذكروا بعنوان التقوى ، للإشارة إلى أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن المتّقي ﴿ فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ يعني فوق المشركين لأنهم في أعلى عليين ، وهم في أسفل سافلين ، فتكون الفوقية حقيقة ، أو لأنهم في أوج الكرامة ، وأولئك في حضيض الذل والمهانة ، فتكون الفوقية مجازاً ﴿ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي في الدارين ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لأنه تعالى لا يخاف نفاذ ما عنده ، لأنه غني لا نهاية لمقدوراته ، فالله تعالى يوسع بحسب الحكمة والمشيئة على عباده ، فمنهم من تكون التوسعة عليه استدراجاً كهؤلاء الكفرة وقارون وأضرابهم ، ومنهم من تكون كرامة كأغنياء المؤمنين وسليمان وأمثالهم ، وفي الحديث : « وقفت على باب الجنة فرأيت أكثر أهلها المساكين ، ووقفت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء ، وإذا أهل الجَدِّ محبوسون ، إلا من كان منهم من أهل النار فقد أمر به إلى النار »[1] .

(يحكى) أن عيسى عليه السلام سافر ومعه يهودي ، فكان مع عيسى ثلاثةُ أقراص فأعطاها اليهودي وقال احفظها ، ثم بعد ساعة أكل اليهودي واحداً منها ، فقال عيسى أعطني الأقراص الثلاثة ، فقدم قرصين فقال : أين ثالثهما ؟ فقال اليهودي : لم تكن أكثر من هذا ، فمشيا حتى شاهد من عيسى عجائب ، فأقسم عليه عيسى لذلك حتى يُقرَّ بالقرص الثالث فلم يقر ، فلحقا بثلاث لبنات من الذهب فقال عيسى واحدة لي وواحدة لك ، وواحدة لمن أكل القرص الثالث ، فقال اليهودي : أنا أكلت القرص الثالث ،

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد بلفظ : « قمت على باب الجنة » الحديث .

فقال عيسى : ابعد عني فترك اللبنات الثلاث عند اليهودي ومشى ، وجاء ثلاثة من اللصوص وقتلوا اليهودي وأخذوا اللبنات ، ثم بعثوا من جملتهم واحداً ليأتي لهم بطعام ، فلما غاب عنهما تشاورا في قتله وقالا إذا رجع قتلناه وأخذنا نصيبه ، ووسوس إليه الشيطان وهو في طريقه أن يضع لهما السُّمَّ في الطعام ليأخذ الذهب كله ، فذهب واشترى سماً فطرحه في الطعام الذي اشتراه حتى يأكل ذلك الطعام صاحباه فيموتا ويأخذ اللبنات فلما قدم عليهما قاما وقتلاه ثم أكلا الطعام فماتا ، فعبر عليهم عيسى فوجد اليهودي وهؤلاء الثلاثة مقتولين ، فتعجب من ذلك وقال : هكذا تفعل الدنيا بأربابها » . فينبغي للعاقل أن لا يغتر بكثرة الدنيا ، وأن لا يهتم في جمعها ، بل يزرع فيها كي يحصد في الآخرة ، لأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا ينبغي للأغنياء أن يحقروا الفقراء بالغرور بكثرة دنياهم ، ولا يسخروا منهم لأن هذه الصفة من صفات الكفرة .

﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ أي جماعة واحدة ، متفقين في الإيمان من وقت آدم إلى مبعث نوح عليهما السلام ، وكان بينهما عشرة قرون[1] ﴿ **فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ** ﴾ أي فاختلفوا فبعث إلخ بدلالة قوله تعالى (**لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**) ﴿ **مُبَشِّرِينَ** ﴾ بالثواب لمن آمن وأطاع ﴿ **وَمُنْذِرِينَ** ﴾ محذرين بالعقاب لمن كفر وعصى ﴿ **وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ** ﴾ أي مع كل واحد منهم ممن له كتاب ﴿ **بِالحَقِّ** ﴾ أي ملتبساً بالحق والعدل شاهداً به ﴿ **لِيَحْكُمَ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه بعد الاتفاق ﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ** ﴾ أي في الحق ﴿ **إِلا الَّذِينَ أُوتوهُ** ﴾ أي الكتاب المنزل لإزالة الاختلاف ، عكسوا الأمر حيث جعلوا ما أنزل لإزالة الاختلاف سبباً لاستحكامه ورسوخه ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ** ﴾ أي رسخت في عقولهم ﴿ **بَغْياً بَيْنَهُمْ** ﴾ مفعول له ، أي وما كان الاختلاف إلا للبغي والتهالك على الدنيا ، وللحسد والظلم ، كما فعل قابيل بهابيل وما قتله لإشكال الحق عليه ، بل حسداً منه على أخيه ، وهكذا في كل عصر ، ﴿ **فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ بالكتاب ﴿ **لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾ إلى ما اختلفوا فيه ﴿ **مِنَ الحَقِّ** ﴾ بيان لما ﴿ **بِإِذْنِهِ** ﴾ أي بأمره وتيسيره ولطفه ، حتى أبصروا الحق بنور التوفيق من الباطل ﴿ **واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ لا يضل سالكه ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ** ﴾ خاطب به النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ، بعدما ذكر اختلاف الأمم على الأنبياء تشجيعاً لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفرة ، فإن عاقبة الأمر النصر ، ﴿ **وَلَمَّا يَأْتِكُمْ** ﴾ أي والحال لم يجئكم ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا** ﴾ أي صفة الذين مضوا ﴿ **مِنْ قَبْلِكُمْ** ﴾ من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين ،

---

(١) رُوي عن ابن عباس أنه قال : « كان بين نوح وآدم عشرةُ قرون كلُّهم على الإسلام » ثم ظهرت عبادة الأصنام .

ولم تبتلوا بعد بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة ، التي هي مثل في الفظاعة والشدة ، وهو متوقع ومنتظر ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ ﴾ أي الشدة من الخوف والفاقة ﴿ والضَّرَّاءُ ﴾ أي الآلام والأمراض ﴿ وَزُلْزِلُوا ﴾ أي أزعجوا إزعاجاً شديداً بما أصابهم من الشدائد ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ أي انتهى أمرهم من الشدة ، إلى حيث اضطرهم إلى أن يقول الرسول وهو أعلم الناس بشؤون الله وأوثقهم بنصره ، والمؤمنون المقتدون بآثاره المستضيئون بأنواره ﴿ مَتَى ﴾ أي يأتي ﴿ نَصْرُ اللهِ ﴾ الذي وعدناه طلباً وتمنياً له ، واستطالة لمدة الشدة والعناء ؟ فأجابهم الله بقوله ﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ أي : أنا ناصر أوليائي لا محالة ، ونصري قريب منهم ، فإن كل آت قريب ولما كان الجواب بذكر القرب دل ذلك على أن السؤال كان واقعاً عن زمان النصر أقريب هو أم بعيد ؟ ولو كان السؤال عن وقوع أصل النصر بمعنى أنه هل يوجد أوْ لا ؟ لما كان الجواب مطابقاً للسؤال ، وفي الآية إشارة إلى أن الوصول إلى الله والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذات ، ومكابدة الشدائد والرياضات كما قال عليه السلام : « حُفَّت الجنةُ بالمكاره ، وحُفَّت النارُ بالشهوات »[1] .

وعن خباب بن الأرتِّ رضي الله تعالى عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ ما نلقى من المشركين ، فقال ﷺ : « إن من كان قبلكم من الأمم ، كانوا يعذبون بأنواع البلاء ، فلا يصرفهم ذلك عن دينهم ، حتى إنَّ الرجل كان يوضع على رأسه المنشار فيشق فلقتين ، ويمشط الرجل بأمشاط الحديد بما دون العظم من لحمٍ وعصب ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وايم الله ليتمنَّ الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[2] .

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ أي أيَّ شيء يتصدقون به من أصناف أموالهم ؟ نزلت حين حث النبي عليه الصلاة والسلام على التصدق في سبيل الله ؟ وسأل « عمرو بن الجموح » وهو شيخ فانٍ ، وله مال عظيم ، فقال : ماذا ننفق يا رسول الله من أموالنا ؟ وأين نضعها ؟ ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيرٍ ﴾ أي أيَّ شيء أنفقتم من أي خير كان ، والمال يسمى خيراً ، لأن حقه أن يصرف إلى جهة الخير ، ﴿ فَلِلْوَالِدَيْنِ ﴾ بنى الكلام على ما هو أهمُّ ، وهو بيان المصرف ، لأن النفقة لا يعتد بها ، إلا أن تَضَعها موقعها ﴿ وَالأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَىٰ ﴾ أي المحتاجين ﴿ وَالمَسَاكِينِ وابنِ السَّبِيلِ ﴾ ولم يتعرض للسائلين والرقاب لدخولهم تحت عموم قوله تعالى ﴿ وَمَا ﴾ أي أيَّ شيء ﴿ تَفْعَلُوا مِنْ خَيرٍ ﴾ فإنه شامل لكل خير واقع في أي مصرف كان ﴿ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أي إن تفعلوا خيراً فإن الله يعلم كنهه ويوافي

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ : « حجبت الجنة بالمكاره ، وحجبت النار بالشهوات » وأخرجه مسلم بلفظ : « حفت » .

(٢) الحديث أخرجه البخاري بلفظ مقارب وهو في سنن أبي داود والنسائي .

ثوابه ، والمراد بهذه الآية الحث على بر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وقضاء حاجة ذي الحاجة على سبيل التطوع ، ﴿ كُتِبَ ﴾ أي فرض ﴿ عَلَيْكُمُ القِتَالُ ﴾ أي قتال الكفرة ﴿ وَهُوَ كُرهٌ لَكُمْ ﴾ شاق عليكم مكروه ، وهذه الكراهة من حيث نفور الطبع منه ، ولشقة النفس ، وخطر الروع ، لا أنهم كرهوا أمر الله تعالى ، فأما كراهة الاعتقاد فهي من صفات المناقين ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً ﴾ من الأمور الشاقة التي من جملتها القتال ﴿ وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لأن في الغزو إحدى الحسنيين ، إما الظفر والغنيمة ، وإما الشهادة والجنة ، ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً ﴾ من الأمور المستلذة ، التي من جملتها القعود عن الغزو ﴿ وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ لما فيه من فوات الغنيمة والأجر ، وغلبة الأعداء وتخريب الديار ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ ﴾ ما هو خير لكم ديناً ودنيا ﴿ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ولذلك تكرهونه .

قال ذو النون المصري رحمه الله : إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء : الأول : ضعف النية بعمل الآخرة ، والثاني : صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم ، والثالث : غلب عليهم طولُ الأمل مع قرب الأجل ، والرابع : آثروا رضى المخلوقين على رضى الخالق ، والخامس : تابعوا أهواءهم ونبذوا سنّة نبيهم وراء ظهورهم ، والسادس : جعلوا قليل زلات السلف حجة لأنفسهم ودفنوا كثيراً من مناقبهم . فعلى العاقل أن يجاهد النفس والطبيعة ليرتفع عنه الهوى والشهوات والبدعة ، ويتمكن في القلوب حب العمل بالكتاب والسنّة ، قال إبراهيم الخواص رحمه الله : كنت في جبل أتمشّى ، فرأيت رماناً فاشتهيته ، فدنوت فأخذت منه واحدة ، فشققتها فوجدتها حامضة ، فمضيت وتركتها ، فرأيت رجلاً مطروحاً قد اجتمع عليه الزنابير ، فقلت : السلام عليك ، فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ، فقلت : كيف عرفتني ؟ فقال : من عرف الله لا يخفى عليه شيء ، فقلت له : أرى لك حالاً مع الله ، فلو سألته أن يحميك ويقيك الأذى من هذه الزنابير ؟ فقال : وأرى لك حالاً مع الله ، فلو سألته أن يقيك شهوة الرمان ؟ فلدغُ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ، ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا ، فتركته ومشيت .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ ﴾ روي أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش في جمادى الآخرة ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ، وكتب لأميرهم عبيد الله بن جحش كتاباً وقال : « سر على اسم الله ، ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين ، فإذا نزلت فافتح الكتاب واقرأه على أصحابك ، ثم امض لما أمرتك ، ولا تُكْرِهنَّ أحداً من أصحابك على السير معك » فسار عبد الله يومين ، ثم نزل وفتح الكتاب فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فسر على بركة الله ، بمن تبعك من أصحابك ، حتى تنزل بطن نخلة ، فترصَّدْ بها عير قريش ، لعلك أن تأتينا منها بخبر » فلما نظر في الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه ذلك ، وقال : إنه نهاني أن أُكْره أحداً منكم ، فمن

كان يريد الشهادة فلينطلق ، ومن كره فليرجع ، ثم مضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف عنه منهم أحد ، حتى نزلوا بطن نخلة بين مكة والطائف ، فبينما هم كذلك مرت عير قريش ، تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة الطائف ، فيهم « عمرو بن الحضرمي » فلما رأوا أصحاب رسول الله هابوهم ، فقال « عبد الله بن جحش » إن القوم قد زعروا منكم ، فاحلقوا رأس رجل منكم فليتعرض لهم ، فحلقوا رأس عكاشة ثم أشرف عليهم ، فقالوا : قوم عُمَّارٌ لا بأس عليكم فأمنوا ، وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة ، وكانوا يرونه من جمادى وهو من رجب ، فتشاور القوم وقالوا : إن تركتوهم الليلة ليدخلن الحرم فليمنعن منكم ، فأجمعوا أمرهم في مواقعة القوم فرمى واقد بن عبد الله السهمي « عمرو بن الحضرمي » بسهم فقتله ، واستأسروا الحكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله ، واستاق المؤمنون العير والأسيرين ، حتى قدموا على رسول الله ﷺ فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام ، شهراً يأمن فيه الخائف ، فسفك فيه الدماء ، وأخذ السَّبْيَ ، وعيَّر ذلك أهل مكة من كان بها من المسلمين ، وقالوا : يا معشر الصُّبَاةِ استحللتم الشهر الحرام ، وقاتلتم فيه . وبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام لابن جحش وأصحابه : « ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام » ، فأكثر الناس في ذلك فأنزل الله هذه الآية ، والمعنى : يسألك المسلمون استعلاماً عن الشهر الحرام أي رجب ، سمي به لتحريم القتال فيه ﴿ **قِتَالٍ فِيهِ** ﴾ بدل اشتمال من الشهر ، لأن الشهر مشتمل على القتال ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد في جوابهم ﴿ **قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** ﴾ إثم عظيم عند الله ﴿ **وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي ومنع عن الإسلام الموصل للعبد إلى الله تعالى ﴿ **وَكُفْرٌ بِهِ** ﴾ أي بالله تعالى ﴿ **وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ عطف على سبيل الله ، أي ومنع المسلمين عن دخول مكة ، وزيارة بيت الله ﴿ **وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ** ﴾ أي أهل المسجد وهو النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنون ﴿ **مِنْهُ** ﴾ أي من المسجد الحرام ، ﴿ **أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ** ﴾ أي هذه الأشياء الأربعة ، أكبر إثماً وعقوبة من قتل المسلمين ابن الحضرمي في الشهر الحرام ، ﴿ **وَالْفِتْنَةُ** ﴾ أي ما ارتكبوا من الإخراج والشرك ، وصدّ الناس عن الإسلام ﴿ **أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾ أي أفظع من قتل الحضرمي في الشهر الحرام ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ** ﴾ بيان لاستحكام عداوتهم ، أي ولا يزال الكفار جادّين في قتالكم أيها المؤمنون ﴿ **حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ** ﴾ أي كي يصرفوكم عن دينكم الحق ، إلى دينهم الباطل ﴿ **إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ إشارة إلى تصلبهم في الدين ، كأنه قيل : وأنى لهم ذلك ؟ ﴿ **وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ** ﴾ أي من يفعل ذلك فيرتد عن الإسلام بإضلالهم وإغوائهم ﴿ **فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ** ﴾ بأن لم يرجع إلى الإسلام ، ﴿ **فَأُولَئِكَ** ﴾ المصرون على الارتداد ﴿ **حَبِطَتْ** ﴾ بطلت وتلاشت ﴿ **أَعْمَالُهُمْ** ﴾ التي كانوا عملوها في حالة الإسلام ﴿ **فِي الدُّنْيَا** ﴾ وهو قتله عند الظفر به لارتداده ، وزوال النكاح ، وحرمانه من مواريث المسلمين ونحو ذلك .

﴿ وَالآخِرَةِ ﴾ وهو الثواب وحسن المآب ، وظاهر الآية يقتضي أن تكون الوفاة على الردة ، شرطاً لثبوت الأحكام المذكورة ، وهي حبوط الأعمال في الدنيا والآخرة ، وكون صاحبها من أصحاب النار خالداً فيها ، وأن لا يثبت شيء من الأحكام ، إن أسلم المرتد بعد ردته ، ولهذا احتج الشافعي بهذه الآية ، على أن الردة لا تحبط الأعمال ، حتى يموت صاحبها عليها ، وعند أبي حنيفة أن الردة تحبط الأعمال مطلقاً أي وإن رجع مسلماً ، تمسكاً بعموم قوله تعالى (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وقوله (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) ، ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ملازموها ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ كدأب سائر الكفرة ، فلابد للمؤمن من العمل الصالح ، ومن الصون عما يبطله ، وسبب الارتداد عدم اليقين ، وإلا فكيف يحوم حول الموحد الحقيق شيطان ، وهو قد تخلص من القيود ، ووصل إلى الرب المعبود ؟ .

قال الشيخ ابن السراج : سمعت الجنيد قدس سره يقول : رأيت إبليس في المنام كأنه عريان ، فقلت : ألا تستحي من الناس ؟ فقال : لو كان هؤلاء من الناس لم أتلاعب بهم ، كما يتلاعب الصبيان بالكرة ، فقلت : وَمَنِ النَّاسُ ؟ فقال : قوم في المسجد قد أنحلوا جسمي ، وأحرقوا قلبي ، كلما هممت بهم أشاروا إلى الله تعالى ، فأكاد أحرق بنور ذكرهم ، قال : فانتبهت وجئت إلى المسجد بليل ، فلما دخلت المسجد إذ أنا بثلاثة أنفس جلوس ، ورؤسهم مغطاة بمرقعاتهم ، فلما أحسوا بي أخرج واحد رأسه ، فقال : يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك بشيء صرت تقبله وتسمعه ؟ أنظر إلى اجتهادهم في طاعة الله ، وصفاء أسرارهم عما سواه تعالى ، فهم من أهل الإسلام الحقيقي ، يقول الفقير ناظم هذه الدرر ، قال لي شيخي العلامة أبقاه الله بالسلامة ، في قوله عليه الصلاة والسلام : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كَمَا بدأ »[1] المراد بالإسلام هو الإسلام الحقيقي ، وصاحبه لا يرتد أبداً ، وكونه غريباً أن لا يوجد له أنيس .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ نزلت في المجاهدين ، والمعنى ثبتوا على إيمانهم فلم يرتدوا ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ أي فارقوا منازلهم وأهلهم ﴿ وَجَاهَدُوا ﴾ أي حاربوا المشركين ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ في طاعته لإعلاء دينه ﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ﴾ أي يرجون ثوابه ولا يحبط أعمالهم كأعمال المرتدين ، ﴿ وَاللهُ غَفُورٌ ﴾ مبالغ في مغفرة ما فرط من عباده خطأ ﴿ رَحِيمٌ ﴾ يجزل لهم الأجر والثواب ، قال قتادة : هؤلاء خيار هذه الأمة ، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون ، وإنه من رجا طلب ، ومن خاف هرب .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وتتمته : « فطوبى للغرباء » ورواه الترمذي وأحمد ، وفي رواية الترمذي « إن الأسلام بدأ غريباً » وانظر جامع الأصول ١ / ٢٧٥ .

قيل : إن الحجاج لما حضرته الوفاة ، كان يقول : اللهم اغفر لي ، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل ، ومات بواسط سنة خمس وتسعين ، وهي مدينته التي أنشأها ، وكان يوم موته يسمى عرس العراق ، ولم يعلم بموته حتى أشرفت جارية من القصر ، وهي تبكي وتقول : ألا إن مطعم الطعام ، ومفلق الهام قد مات ، ثم دفن ، ووقف رجل من أهل الشام على قبره فقال : اللهم لا تحرمنا شفاعة الحجاج ، وحلف رجل من أهل العراق بالطلاق أن الحجاج في النار ، فاستفتى طاووس ، فقال : يغفر الله لمن يشاء ، وما أظنها إلا طلقت ، فيقال : إنه استفتى الحسن البصري ، فقال : اذهب إلى زوجتك وكن معها ، فإن لم يكن الحجاج في النار ، فما يضرُّكما أنكما في الحرام » فقد وقفت من هذا المذكور على أن الله تعالى غفور رحيم ، يغفر لعبده وإن جاء بمثل زبد البحر ذنباً ، فاللازم للعباد الرجاء من الله تعالى . وهذه المنازل الثلاثة التي هي : « الإيمان ، والمهاجرة ، والجهاد » هي المعنية بقوله (**اتَّقُوا اللهَ وابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِه**) ولا سبيل إلى المهاجرة إلا بعد الإيمان ، ولا إلى جهاد الهوى إلا بعد هجران الشهوات ، ومن وصل إلى ذلك فحق له أن يرجو رحمته ، واعلم أن الهجرة على قسمين : صورية : وقد انقطع حكمها بفتح مكة كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا هجرة بعد الفتح[1] » ومعنوية : وهي السير عن هوى النفس إلى الله ، لفتح كعبة القلب ، وتخليصها من أصنام الشرك والهوى ، فيجري حكمها إلى يوم القيامة ، (حكي) أن بعضهم جاء إلى بعض المشايخ وخدمه ، وقال له : أريد أن تعلمني الاسم الأعظم ، فقال له : وفيك أهليةٌ له ؟ قال : نعم ، قال : اذهب إلى باب البلد ، ثم أخبرني بما جرى فيه ، فذهب وجلس على باب البلد ، فإذا بشيخ حطاب معه حطبٌ على حمار ، فضربه جندي وأخذ حطبه ظلماً ، فلما رجع الرجل إلى الشيخ وأخبره بالقصة ، قال له الشيخ : لو كنتَ تعلم الاسم الأعظم ما تصنع بالجندي ؟ قال : كنت أدعو عليه بالهلاك ، فقال له الشيخ : إعلم أن الحطَّاب هو الذي علمني الاسم الأعظم ، واعلم أن الإسم الأعظم لا يصلح إلا لمن يكون على هذه الصفة ، من الصبر والرحمة على الخلق والشفقة عليهم .

﴿ **يَسْأَلُونَكَ** ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة ، كلها في القرآن ، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم وينفع المسلمين ﴿ **عَنِ الخَمْرِ** ﴾ أي عن حكم تعاطيها ، ويدخل في تعاطي الخمر البيع والشراء ، وغيرهما مما هو على خلاف الشرع ، والخمر مصدر خمره أي ستره ، سميت خمراً لتغطيتها العقل والتمييز ، كأنها نفس الستر كما سميت سَكَراً لأنها تسكرها أي تحجزها ﴿ **وَ** ﴾ عن تعاطي ﴿ **المَيْسِرِ** ﴾ مصدر ميمي من يَسَر واشتقاقه إما

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم وبقية الحديث : « ولكنْ جهادٌونيَّةٌ ، وإذا استنفرتم فانفروا » وانظر جامع الأصول ٩ / ٢٨٨ .

من اليسر ، لأنه أخذ المال بيسر من غير كد وتعب ، وإما من اليسار لأنه سلب له ويدخل فيه جميع أنواع القمار ﴿ قُلْ فِيهِمَا ﴾ أي في تعاطي الخمر والميسر واستعالها ﴿ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ لما أن الأول مسلبة للعقول التي هي قطب الدين والدنيا مع كون كل منهما متلفة للأموال ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ من كسب الطرب والمغالاة بثمن الخمر ومنافع الميسر إصابة المال من غير كدٍّ ولا تعب ، وانتفاع الفقراء بلحم الجزور ، فإنهم كانوا يفرقونها على المحتاجين ، قال الواقدي : وربما قمر الواحد منهم في مجلس مائة بعير ، فيصيب مالاً عظيماً بلا نصب ولا ثمن ، ثم يعطيه المحتاجين فيكتسب المدح والثناء ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ وفي الخمر إيقاع العداوة والبغضاء ، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهي تسفه الحليم ويصير شاربها بحيث يلعب ببوله وعذرته وقيئه ، كما ذكر ابن أبي الدنيا أنه مَرَّ على سكران وهو يبول في يده ويمسح به وجهه ، كهيئة المتوضىء ويقول : الحمد لله الذي جعل الإسلام نوراً ، والماء طهوراً ، وفي الميسر أنه إذا ذهب ماله من غير عوض ، ساءه ذلك فعادى صاحبه وقصده بالسوء .

وعن بعض الصحابة أنه قال من زوَّج ابنته لشارب الخمر ، فكأنما ساقها إلى الزنى ، معناه أن شارب الخمر يقع منه الطلاق وهو لا يشعر ، فالذي يجب على الولي ، أن لا يزوج ابنته ولا أخته من فاسق ، ولا ممن يتعاطى المنكرات ، وأما الميسر فهو القمار ، والياسر القامر ، وكان أصل الميسر في الجزور ، وذلك أن أهل الثروة من العرب ، كانوا يشترون جزوراً ويضمنون ثمنه ولا يؤدونه ، ليظهر بالقمار أنه على من يجب ، فينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء ، ثم يسهمون عليها بعشرة أقداح يقال لها الأزلام ، سبعة منها لها أنصباء ، وثلاثة منها لا أنصاب لها ، ثم يجعلون القداح في خريطة تسمى الربابة ، ويضعونها على يدي عدل ، يسمى المُجيل ، يجيلها ويجلجلها أي يحركها باليد ، ويدخل يده فيخرج باسم رجل رجل ، قدحاً قدحاً ، فمن خرج له قدح من ذات الأنصباء أخذ النصيب المعين له ، ومن خرج له قدح مما لا نصيب له ، وهو الثلاثة لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور ، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ، ولا يأكلون منها ويفتخرون بذلك ، ويذمون من لا يدخل فيه ويسمونه البرم ، وهو اللئيم العديم المروءة والكرم ، فهذا أصل القمار الذي كانت العرب تفعله ، فنهي المسلمون عنه ، والمراد من الآية جميع أنواع القمار ، من النرد والشطرنج وغيرهما ، وروي أن رجلاً خاطر رجلاً على أن يأكل كذا بيضة ، على كذا كذا من المال ، فقال عليّ رضي الله عنه : هذا قمار ، وعن ابن سيرين : كل شيء فيه خطر فهو من الميسر .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ كما يصلح سؤالاً عن جنس المُنْفَقِ ، يصلح سؤالاً عن كميته وقدره ، ﴿ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ أي أنفقوا العفو وهو نقيض الجهد ، وهو المشقة ، فالعفو من المال ما يسهل إنفاقه ، والجهد من المال ما يعسر إنفاقه ، والقدر المنفق ، إنما يكون إنفاقه سهلاً ، إذا كان فاضلاً عن

حاجة نفسه وعياله ، ومن عليه مؤونته ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الكاف في محل النصب صفة لمصدر محذوف ، أي تبييناً مثل هذا التبيين ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ ﴾ الدالة على الاحكام الشرعية ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ أي لكي تتفكروا في أمور الدارين ، فتأخذوا بما هو أصلح لكم وأسهل في الدنيا ، وأنفع في العقبى ، وتتجنبوا عما يضركم في العقبى ، قال البغوي: يبين الله لكم الآيات في أمر الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في زوال الدنيا وفنائها فتزهدوا ، وفي إقبال الآخرة وبقائها فترغبوا فيها،وهذه الآية ترغب في التصدق لكن بشرط أن يكون ذلك من فضل المال وعفوه .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليَتَامى ﴾ أي عن مخالطتهم وذلك بعد نزول قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامى ظُلْماً) فتركوا مخالطتهم ومؤاكلتهم ، حتى لو كان عند رجل يتيم ، يجعل له بيتاً على حدة ، وطعاماً على حدة ، وعزلوا أموال اليتامى عن أموالهم ، وكان يُطْبَخ لليتيم طعام فيفضل منه شيء ، فيتركونه ولا يأكلونه حتى يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فنزلت هذه الآية ﴿ قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ ﴾ أي مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم ﴿ خَيْرٌ ﴾ من مجانبتهم وترك الخلطة والنظر عليهم ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ ﴾ أي تعاشروهم على وجه ينفعهم ﴿ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين ، الذي هو أقوى من العلاقة النسبية ، ومن حق الأخ أن يخالط الأخ بالإصلاح والنفع ، قال ابن عباس : المخالطة أن تأكل من تمره ولبنه وقصعته ، وهو يأكل من تمرك ولبنك وقصعتك ، قال أبو عبيد : هذه الآية عندي أصل لما يفعله الرفقاء في الأسفار ، فإنهم يتخارجون النفقات بينهم بالسوية ، وقد يتفاوتون في قلة الطعام وكثرته ، وليس كل من قلَّ مطعمه تطيب نفسه بالتفضل على رفيقه ، فلما كان هذا في أموال اليتامى واسعاً كان في غيرهم أوسع ، ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ ﴾ لمال اليتيم ﴿ مِنَ المُصْلِحِ ﴾ لماله ، أي لا يخفى على الله من دَاخَلهم بإفساد وإصلاح ، فيجازيه على حسب مداخلته ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ ﴾ أي لحملكم على العنت ، وهو المشقة ، فلم يطلق لكم مداخلتهم ، يقال : عَنِت فلان : إذا وقع في أمر يخاف منه التلف ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على العباد ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يحكم ما تقتضيه الحكمة ، واعلم أن مخالطة الأيتام ، من أخلاق الكرام .

وفي الحديث : « أنا وكافل اليتيم ـ أي القائم بمصالحه ـ كهاتين في الجنة ، وأشار بالسبابة والوسطى »[1] يعني أن كافل اليتيم يكون في الجنة مع حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ، لا أن درجته تبلغ درجته .

ويؤدب اليتيم الذي في حجره ، كتأديبه ولده ، فإنه مسئول عنه يوم القيامة ، ويصلح حاله ،

(١) الحديث أخرجه مسلم .

والتأديب على أنواع : منها : الوعيد ، ومنها الضرب ، ومنها حبس العطية ، فإن بين النفوس تفاوتاً ، فنفس تخضع بالغلظة والشدة ، ولو استعملت معها الرفق والبر لأفسدها ، ونفس بالعكس ، وقد جعل الله الحدود والتعزير لتأديب العباد ، على قدر ما يأتون من المنكر ، وهو مأجور على التأديب ، ومسئول عنه قال الله تعالى (**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**) وفي الحديث : « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته »(١) ، وفي قوله تعالى (**وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**) إشارة إلى أن المرء ينبغي أن يتعود الأكل مع الناس ، فإن شر الناس من أكل وحده وفي الحديث : « أحب الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي »(٢) وروي أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قالوا : يا رسول الله ، إنا نأكل ولا نشبع . قال : « لعلكم تفترقون » قالوا : نعم ، قال : « فاجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله تعالى عليه يُبَارك لكم فيه »(٣) ، ومن اللطائف ما يحكى أنه قيل لجمين صاحب النوادر : أتغديتَ عند فلان ؟ قال : لا ولكن مررت ببابه وهو يتغدى ، فقيل : كيف علمت ؟ قال رأيت غلمانه بأيديهم قسيُّ البنادق ، يرمون الطير في الهواء »وقيل لبخيل : من أشجع الناس ؟ فقال : من يسمع وقع أضراس الناس ، فلا تنشق مرارته ، ﴿ **وَلا تَنْكِحُوا** ﴾ أي لا تتزوجوا ﴿ **الْمُشْرِكَاتِ** ﴾ أي الحربيات ، فإن الكتابية يجوز تزوجها عند الجمهور استدلالاً بقوله تعالى (**والْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَاب مِنْ قَبْلِكُمْ**) وسورة المائدة كلها ثابتة لم ينسخ منها شيء أصلاً ﴿ **حَتَّى يُؤْمِنَّ** ﴾ أي يصدّقن بالله وبمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ** ﴾ مع ما بها من خساسة الرق وقلة الخطر ﴿ **خَيْرٌ** ﴾ بحسب الدين والدنيا ﴿ **مِنْ مُشْرِكَةٍ** ﴾ أي امرأة مشركة مع مالها من شرف الحرية ، ورفعة الشأن ﴿ **وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ** ﴾ تلك المشركة بجمالها ومالها ونسبها ، ولو في هذه الحالة ، وفي تفسير الكواشي « لَوْ » هنا بمعنى « إنْ » وكذا كل موضع وليها الفعل الماضي وكان جوابها مقدماً عليها والمعنى وإن كانت المشركة تعجبكم وتحبونها فإن المؤمنة خير لكم ﴿ **وَلا تُنْكِحُوا** ﴾ بضم التاء من الإنكاح ﴿ **الْمُشْرِكِينَ** ﴾ أي الكفار أعم من الوثني وغيره ، أي لا تزوجوا منهم المؤمنات ، سواء كن حرائر أم إماء ﴿ **حَتَّى يُؤْمِنُوا** ﴾ ويتركوا ما هم عليه من الكفر ، ﴿ **وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ** ﴾ مع ما به من ذل المملوكية ﴿ **خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ** ﴾ مع ما به من عز المالكية ﴿ **وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ** ﴾ بماله وجماله وخصاله ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ المذكورون من المشركين والمشركات ﴿ **يَدْعُونَ** ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ﴿ **إِلَى النَّارِ** ﴾ أي إلى ما يؤدي إليها من الكفر والفسوق ، فلابد من الاجتناب عن مقارنتهم ومقاربتهم ﴿ **وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ والْمَغْفِرَة** ﴾ أي إلى الاعتقاد الحق ،

---

(١) الحديث متفق عليه . جامع الأصول ٤ / ٥٠ .

(٢) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وانظر الفتح ١ / ٤٧ .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود في سننه وابن ماجه وأحمد في المسند وابن حبان والحاكم ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٣ .

والعمل الصالح ، الموصلين إليهما ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أي بتوفيقه الذي من جملته إرشاد المؤمنين إلى الخير ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ ﴾ المشتملة على الأحكام الفائقة ، والحكم الرائقة ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي لكي يتذكروا ويعملوا بما فيها ، فيفوزوا بما دعوا إليه من الجنة والغفران ، ففي الآية نهي عن مواصلة الكفار ، وترغيب في مواصلة المؤمنين ، ولا ينبغي للمؤمن أن تعجبه المشركة بمالها وجمالها ، فإن من المسلمات من تدفع التعجب . وفي المحيط : مسلمٌ رأى نصرانية سمينة وتمنى أن يكون هو نصرانياً حتى يتزوجها يكفر ، وهذا من حماقته فإن السمان الحسنة كثيرة في الملة الحنيفية ، ولكن علة الضم هي الجنسية كما قال تعالى (الزَّانِي لا يَنْكِحُ إلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً) وميل الطباع القذرة إلى الدنيا العذرة قال تعالى (الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ .. وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ) .

ومن بلاغات الزمخشري : لا ترض لمجالستك إلا أهل مجانستك ، أي لا ترض أن يكون لك جليس من غير جنسك ، فإن العذاب الشديد ليس إلا هو .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ لعل حكاية الأسئلة الثلاثة بالواو ، وحكاية ما عداها بغير عطف ، أنهم سألوا عن هذه الحوادث في وقتٍ واحد ، فكأنه قيل : يجمعون لك بين السؤال عن الخمر ، والميسر ، والسؤال عن الإنفاق ، بخلاف ما عداها فإنهم سألوها في أوقات متفرقة ﴿ عَنِ المَحِيضِ ﴾ مصدر كالمجيء والمبيت ، والحيضُ : هو اللوث الخارج من الرحم في وقت معتاد ، والسؤال كان عن مخالطة النساء في حالة الحيض ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ أي الحيض شيء مستقذر مؤذ من يقربه ، روي أن أهل الجاهلية كانوا لا يساكنون الحُيَّض ، ولا يؤاكلوهن كدأب المجوس واليهود ، واستمر الناس على ذلك إلى أن سأل عن ذلك « أبو الدحداح » في نفر من الصحابة ، فقال : يا رسول الله كيف نصنع بالنساء إذا حضن أنقربهن أم لا ؟ فنزلت ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ ﴾ المحيض هنا اسم لمكان ظهور الحيض وهو الفرج ، أي فاجتنبوا مجامعتهن ، ﴿ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ بالجماع ﴿ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ من الحيض ، أو ينقطع دمهن ، فذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنَّ له أن يقربها إذا كانت أيامها عشرة بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل ، وفي أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل ، أو يمضي عليها وقت صلاة ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أي اغتسلن ، فإن التطهر هو الاغتسال ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ﴾ أي من المأتي الذي حلَّله لكم وهو القُبُل ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَوَّابِينَ ﴾ من الذنوب ﴿ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ المتنزهين عن الفواحش والأقذار ، كمجامعة الحائض ، والإتيان في غير المأتى ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ أي مواضع حرث لكم ، شبهن بها لما بين ما يلقى في أرحامهن من النُّطَفِ ، وبين البذور من المشابهة ، من حيث إن كلاً منهما مادة لما يحصل منه ، والفرق بين الحرث والزرع ، أن الحرث إلقاء البذر وتهيئة الأرض ، والزرع مراعاته وإنباته ، ولهذا قال تعالى (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَارِعُونَ) فأثبت لهم الحرث ،

ونفى عنهم الزرع ﴿ فَأْتُوْا حَرْثَكُمْ ﴾ لما عبر عنهن بالحرث عبر عن مجامعتهن بالإتيان ﴿ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ ﴿ أَنَّى ﴾ هنا بمعنى « كيف » أي كيف شئتم ، ومن أي شق أردتم ، بعد أن يكون المأتيُّ واحداً ، وهو موضع الحرث ، لأن الدبر ليس موضع الحرث ، حتى يجوز إتيان النساء في أدبارهن ، فيكون محمولاً على التخيير في الكيفيات ، ويدل على هذا ما روي في سبب نزول الآية ، من أن اليهود كانوا يزعمون أن من أتى امرأته في قُبُلها من دُبُرها ، يأتي ولده أحول ، فنزلت الآية رداً عليهم ، وفي الحديث : « ملعون من أتى امرأته في دبرها »[1] وهو اللواطة الصغرى ، والإتيان في دبر الذكر أكبر لواطة منه ، وحكم اللواطة التعزير والحبس في السجن حتى يتوب ، وعندهما يحد حد الزنى فيجلد إن لم يكن محصناً ، ويرجم إن كان محصناً ﴿ وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ ﴾ من الأعمال الصالحة ، ما يكون ذخيرة محفوظة لكم عند الله ، ولا تكونوا في قربانهنَّ على رغبة قضاء الشهوة ، ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ بالاجتناب عن معاصيه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ ﴾ أي ملاقوا جزائه فتزودوا ما لا تفضحون به ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ يا محمد ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين تلقوا ما خوطبوا به من الأوامر والنواهي ، بحسن القبول والامتثال .

﴿ وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ روي أن بشير بن نعمان الأنصاري ، كان قد طلَّق زوجته التي هي أخت « عبد الله بن رواحة » وأراد أن يتزوجها بعد ذلك وكان عبد الله قد حلف على أن لا يدخل على بشير ، ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين اخته ، فإذا قيل له في ذلك ، قال : قد حلفت بالله : أن لا أفعل ، ولا يحل لي إلا أن احفظ يميني وأبرَّ فيه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والعُرْضة بمعنى المعروض ، جعل اسماً لما يعرض دون الشيء ، أي يجعل قدامه بحيث يصير حاجزاً ومانعاً منه ، والمعنى لا تجعلوا ذكر الله والحلف به ، مانعاً لما حلفتم عليه من أنواع الخير ، كالبر والاتقاء والإصلاح ، فإن الحلف بالله لا يمنع ذلك ، واللام في « لأيمانكم » متعلق بقوله عرضة ، لأن العرضة ما عرضته دون الشيء فاعترضه ، أي ما تجعله أنت قدام شيء آخر فيقع قدامه ، فيكون المعنى : لا تجعلوا الحلف بالله شيئاً عارضاً ، أو وقع قدام المحلوف عليه ، الذي هو البر والخير ، ويصير مانعاً من الإتيان به ، ﴿ وَاللهُ سَمِيعٌ ﴾ لأيمانكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتكم ، يعلم ما في قلوبكم وبنيَّتكم ، فحافظوا على ما كُلِّفتموه لئلا يحلَّ بكم عقابه .

والآية عامة في كل من كان يحلف بالله أن لا يحسن لأحد ، وأن لا يصلح بين الناس ، إذا وقع فيهم العداوة والبغضاء ، فكأنه قال تعالى : كل ذلك خير وطاعة لا يمنعها حلفكم ، فإن حلفتم عليها ، فلتكفروا عن حلفكم ولتفعلوا تلك الخيرات ، من البر ، والتقوى ، والإصلاح بين الناس ، ولا تقولوا نحن حلفنا

(١) الحديث أخرجه أبو داود في باب النكاح رقم / ٢١٦٢ / وللحديث شواهد بمعناه .

بالله فنخاف من اليمين بـه أن نفعلـه فنحنث في يميننا ، وفي الحـديث : « من حلف على يمين فرأى غيرهـا خيراً منها ، فليكفر عن يمينه ثم ليفعل الذي هو خير »[1] ، والكفارة قبل اليمين غير جـائزة وبعـد الحنث واجبة اتفاقاً ، ولا يروج سلعتـه بـالحلف ، لا صـادقـاً ولا كاذبـاً ، لأنـه إن كان كاذبـاً فقـد جـاء بـاليمين الغموس ، وهي من الكبائر التي تَذَرُ الديار بلاقع ، وإن كان صادقاً قد جعل الله عرضـة لأيمـانـه وأسـاء فيه ، إذ الـدنيـا أخسُّ من أن يُقْصَـد ترويجهـا بـذكر الله من غير ضرورة ، ومن حلف بـالله في كل قليل وكثير انطلق لسانه بذلك ، فلا يؤمن من إقدامه على الأيمـان ، ولا يحلف على الله بشيء ، نحو أن يقول : والله ليفعلن الله كذا ، ولو أقسم ولِيُّ الله مثل القسم المذكور ، لأبرَّه الله وصدَّقه في يمينه كرامة لـه وقـد ورد «إنَّ من عبـاد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه» وكان أبو حفص رحمه الله يمشي ذات يوم ، فاستقبله حمَّالٌ مدهوش ، فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ قال : ضلَّ حماري ولا أملـك غيره ، فوقف أبو حفص وقـال : وعزتـك لا أخطو خطوة مـا لم تردَّ حمـاره ، فظهر الحمار في الوقت ، كذا في شرح المشارق ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ** ﴾ اللغو ما سقط من الكلام ، يقـال لغا لغواً إذا قال باطلاً ﴿ **فِي أَيْمَانِكُمْ** ﴾ جمع يمين وهو الحلف ، والمراد بـاللغو في الأيمـان ، مـا لا عقـد معه ولا قصد ، وهو أن يحلف الرجل بالله على شيء يظن أنه صادق فيه وليس كذلك ، فليس له إثم ولا كفارة هذا عند أبي حنيفة ، وأما عند الشافعي فلغو اليمين ما سبق إليـه اللسـان بلا قصـد الحلف ، نحو لا والله ، وبلى والله ، مما يؤكدون به كلامهم ، من غير إخطار الحلف بالبال ، ولو قيل لواحد منهم سمعتك تحلف في المسجد الحرام لأنكر ذلك ، ولعله قال لا والله ألف مرة ، ﴿ **وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ** ﴾ المؤاخـذة هي المعاقبـة ﴿ **بِمَـا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾ انطوت عليـه من قصـد الإثم ، بـالكـذب في اليمين ، وهو أن يحلف الرجل على ما يعلم أنه خلاف مـا يقولـه ، وهي اليمين الغموس ، وسميت بـالغموس لانغماس صـاحبهـا في الإثم ، ﴿ **واللهُ غَفُورٌ** ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو ﴿ **حَلِيمٌ** ﴾ حيث لم يعجل بالمؤاخذة .

ثم إن العلماء قـالوا : إذا حلف بشيء فحنث ، إن كان مستقبلاً فعليـه كفـارة ، وهو اليمين المنعقـدة ، وإن كان ماضياً فإن كان الحالف عالماً بـالواقع ، وحلف على خلافـه فـاليمين كبيرة ولا كفـارة ، عنـد أبي حنيفة في الكبائر ، وعنـد الشـافعي تجب الكفـارة فيـه ، وهو اليمين الغموس ، وإن كان الحـالف جـاهلاً بالواقع ويرى أنه صادق فيه وليس كذلـك ، فلا كفـارة فيـه ، وهو يمين اللغو عنـد أبي حنيفـة ، واليمين الغموس عند الشافعي . واليمين بـالله ، أو بـاسم من أسمائـه كقولـه والله ، والرحمن ونحوه ، واليمين بصفتـه كقـولـه وعـزة الله ، وعظمتـه ، وجـلال الله ، وقـدرتـه ونحـوهـا ، ومن حلف بغير الله مثـل أن قـال : والكعبة ، وبيت الله ، ونبي الله أو حلف بأبيه ونحوه ، فلا يكون يميناً ولا تجب به الكفـارة إذا حـنث ،

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي ومالك في الموطأ ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٦٦٨ .

وهي يمين مكروهة ، قال الشافعي : وأخشى أن تكون معصية وفي الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك بالله » (١) معناه من حلف بغير الله تعالى ، معتقداً تعظيم ذلك الغير ، قد أشرك المحلوف به مع الله في التعظيم المختص به ، قال على الرازي : أخاف الكفر على من قال : بحياتي ، وبحياتك ، وما أشبهه ، ولولا أن العامة يقولونه ولا يعلمونه ، لقلت إنه الشرك ، لأنه لا يمين إلا بالله ، ولا يحلف بالبراءة من الإسلام فمن فعل ذلك صادقاً ، لن يرجع إلى الإسلام سالماً ، وإن كان كاذباً خيف عليه الكفر ، وفي الحديث : « من حلف بملة غير ملة الإسلام كاذباً فهو كما قال » (٢) وظاهر الحديث يدل على أن المسلم إن قال : إن أفعلْ كذا فأنا يهودي ، ففعل يكفر ، وبه قال الشافعي ، وقال الحنفية : لا يكفر ، فحملوا الحديث على التهديد ، وأما إن علّقه بالماضي كقوله : إن فعلتُ كذا فأنا يهودي وقد فعل ، فقد اختلف الحنفية ، والصحيح أنه لا يكفر إن كان يعلم أنه يمين ، وإن كان عنده أنه يكفر بالحلف يكفر ، لأنه رضي بالكفر ، وهو محمل الحديث عند الأكثر ، وفي الفتاوى البزازية : والفتوى على أنه يمين يلزم عليه الكفارة .

﴿ **لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ** ﴾ الإيلاء : الحلفُ أي الذين يبعدون من نسائهم مؤلين ﴿ **تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ** ﴾ أي لهم أن ينتظروا في هذه المدة من غير مطالبة بفيء أو طلاق ، والإيلاء من الزوجة : أن يقول الرجل : والله لا أقربك أربعة أشهر فصاعداً ، أو لا أقربك على الإطلاق ، ولو حلف على أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر لا يكون مؤلياً بل هو حالف ، إذا وطئها قبل مضي تلك المدة يجب عليه كفارة يمين على الأصح ، وللإيلاء حكمان : حكم الحنث ، وحكم البر ، فحكم الحنث وجوب الكفارة بالوطىء في مدة الإيلاء ، وحكم البر وقوع طلقة بائنة عند مضي مدة الإيلاء ، وهي أربعة أشهر ، إن كانت المنكوحة حرة ، قال قتادة : كان الإيلاء طلاقاً لأهل الجاهلية ، وقال سعيد بن المسيب : كان ذلك من ضرار أهل الجاهلية ، كان الرجل لا يحب امرأته ، ولا يحب أن يتزوّجها غيره ، فيحلف أن لا يقربها أبداً فيتركها ، لا أيِّما ولا ذات بعل ، وكانوا في ابتداء الإسلام يفعلون ذلك أيضاً ، فأزال الله ذلك الضرر عنهن ، وضرب للزوج مدة يتروَّى فيها ويتأمل ، فإن رأى المصلحة في ترك هذه المضارة فعله ، وإن رأى المصلحة في المفارقة فارقها ﴿ **فَإِنْ فَاؤُوا** ﴾ أي إن رجعوا عما حلفوا عليه من ترك الجماع ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ يغفر للمولي بفيئته ـ التي هي كتوبته ـ إثمَ حنثه ، ﴿ **وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ** ﴾ أي حققوه وأكدوه ، بأن ثبتوا على ترك القربان حتى مضت المدة ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ** ﴾ لطلاقهم ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بغرضهم فيه .

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظ : « فقد كفر أو أشرك » وقال : حسن ، وصححه الحاكم وسكت عنه في فتح الباري.

(٢) أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٦٥٦ .

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ ﴾ المراد بها ذوات الأقراء من الحرائر ، المدخول بهن ، لأنه لا عدة على غير المدخول بها ، وأصل التطليق رفع القيد ، أي المخليات من حبال أزواجهن ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ خبر في معنى الأمر أي ليتربصن وينتظرن ﴿ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ أي يحملن أنفسهن على التربص ﴿ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ أي مدة ثلاثة قروء ، فلا تتزوجن إلى انقضائها ، والقروء : جمع قرء ، وهو من الأضداد في كلام العرب ، يقع على الطهر والحيض ، ذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أن القروء هي الحيض ، لأن الله تعالى جعل الاعتداد بالأشهر ، بدلاً من الاعتداد بالقرء ، كما قال (وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ) فلما شرع ذلك عند ارتفاع الحيض ، دلَّ على أن الأصل كان هو الحيض ، وتمسك الشافعي بقوله تعالى (فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) على أن المراد بالقروء الأطهار ، لأن اللام في لعدتهن للوقت ، ووقت العدة لا يجوز أن يكون وقت الحيض ، والطلاق في وقت الحيض منهي عنه ، وجوابه أن معناه فطلقوهن مستقبلات لعدتهن ، وهي الحِيَضُ الثلاث ، وليس معنى الآية أن الطلاق واقع في العدة ، وفائدة الخلاف بين الشافعي وأبي حنيفة أن مدة العدة عند الشافعي أقصر ، وعند أبي حنيفة أطول حتى لو طلقها في حال الطهر ، يحسب بقية الطهر قرأ ، وإن حاضت عقيبه في الحال ، فإذا شرعت في الحيضة الثالثة انقضت عدتها ، وعند أبي حنيفة ما لم تطهر من الحيضة الثالثة ، إن كان الطلاق في حال الطهر ، أو من الحيضة الرابعة إن كان الطلاق في حال الحيض ، ﴿ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ﴾ أي يخفين ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ من الحبل والحيض ، بأن تقول المرأة لست بحامل ، أو لست بحائض وهي حائض ، لتبطل حق الزوج من الولد والرجعة ، أو كتمت حيضها استعجالاً للطلاق ، لأن الطلاق السني إنما يكون في الطهر ، وفيه دليل على قبول قولهن في ذلك نفياً وإثباتاً ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أي فلا يجترئن على ذلك ، فإن قضية الإيمان بالله واليوم الآخر منافية له قطعاً ، وفيه تهديد شديد على النساء ، ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ ﴾ جمع بعل ، سمي الزوج بعلاً لقيامه بأمر زوجته ، كأنه مالك لها ، والتاء في البعولة لتأنيث الجمع ، ودلت تسمية الزوج بعلاً بعد طلاقها الصريح ، على أن النكاح قائم ، والحِلُّ ثابت ، والضمير للمطلقة بالطلاق الرجعي ، ولا حق لأزواج البوائن في النكاح والرجعة ﴿ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ إلى النكاح والرجعة إليهن ﴿ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في زمان التربص ، فإن حق الرجعة إنما يثبت للزوج ما دامت في العدة ، وإذا انقضى وقت العدة ، بطل حق الرد والرجعة ، والمعنى أن أزواجهن حقيقون بردهن ، ﴿ إِنْ أَرَادُوا ﴾ أي الأزواج بالرجعة ﴿ إِصْلاحاً ﴾ لما بينهم وبينهن ، وإحساناً إليهن ، ولم يريدوا مضارتهن ، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية ، كان الرجل يطلق امرأته ، فإذا قرب انقضاء عدتها راجعها ، ثم بعد مدة طلقها ، يقصد بذلك تطويل العدة عليها ، ثم إنه تعالى لما بين

أن المقصود من الرجعة إصلاح حالها ، لا إيصال الضرر إليها ، بيَّن أن لكل واحد من الزوجين حقاً على الآخر فقال ﴿ وَلَهُنَّ ﴾ عليهم من الحقوق ﴿ مِثْلُ الَّذِي ﴾ لهم ﴿ عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي بالوجه الذي لا ينكر في الشرع ، فلا يكلفهن ما ليس لهم ، ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه ، ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أي زيادة في الحق وفضل فيه ، وفضل الرجل على المرأة ، في العقل والدين ، وفضله المناسب بهذا المقام أمران : الأول : كون ما يستحق هو عليها أفضل وأزيد مما تستحق هي عليه ، فإنه مالك لها مستحق لنفسها ، لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، وقادر على الطلاق ، فإذا طلقها فهو قادر على مراجعتها ، شاءت المرأة أو أبت ، وأما المرأة فلا تملك شيئاً من هذه الأمور ، وإنما حقها فيه المهر ، والكفاف ، وترك الضرار ، والثاني : ما أشار إليه الزجاج بقوله معناه : أن المرأة تنال من الرجل من اللذات المتفرعة على النكاح ، مثل ما ينال الرجل منها ، وله الفضيلة عليها بنفقته ، والقيام عليها ، فالفضيلة على هذا فضيلة ما التزمه في حقها مما يتعلق بالرحمة والإحسان ، كالتزام المهر ، والنفقة ، والمسكن ، والذب عنها ، والقيام بمصالحها ومنعها عن مواقع الآفات ، وفي الحديث : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد غير الله ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها »[1] لما عظَّم الله من حقه عليها ، ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ يقدر على الانتقام ممن يخالف أحكامه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ تنطوي شرائعه على الحِكَم والمصالح ، واعلم أن مقاصد الزوجية لا تتم ، إلا إذا كان كل واحد من الزوجين مراعياً حق الآخر ، مصلحاً لأحواله ، مثل طلب النسل ، وتربية الولد ، ومعاشرة كل واحد منهما للآخر بالمعروف ، وحفظ المنزل ، وتدبير ما فيه ، وسياسة ما تحت أيديها إلى غير ذلك ، مما يستحسن شرعاً ويليق عادة ، وفي الحديث : « جهاد المرأة حسن التبعل » يقال امرأة حسنة التبعل ، إذا كانت تحسن عِشْرة زوجها ، والقيام بما عليها في بيت الزوج ، وفي الحديث : « أيما امرأة ماتت وزوجها راضٍ عنها دخلت الجنة »[2] ، ومن الحقوق التزين ، قال ابن عباس : إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي ، لقوله تعالى ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ويقال إن المرأة مثل الحمامة ، إذا نَبَت لها جناح طارت ، كذا الرجل إذا زين امرأته بالثياب فلا تجلس بالبيت .

(حكي) أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح ، وكان له امرأة يحبها حباً شديداً ، فبعث الله إليه أن يسأله ثلاث حوائج ، فقال لامرأته : حوائجي كثيرة لا أدري ما أعمل ؟ فقالت امرأته : اسأل الله حاجة لي ، وحاجتين لك ، قال ما تريدين ؟ قالت : اسأل ربك أن يصيّرني في صورة ، ما كانت صورة

---

(١) رواه الترمذي وهو حديث حسن وأخرجه أحمد والحاكم ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٧ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الرضاع رقم / ١١٦١ / وهو حديث حسن ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٤٩٥ .

أحسن منها وأجمل ، فسأل ربه فأضاء البيت من حسنها وجمالها ، فقامت لتخرج من بيتها ، فقال زوجها إلى أين تذهبين ؟ قالت : إلى بعض السلاطين ، أنا لا أضيع حسني وجمالي بمثلك ، وبلغ الخبر إلى بعض السلاطين ، فجاء أعوانه وأخذوها من زوجها جبراً ، فقال الرجل : اللهم بقي لي عندك حاجتان ، اجعلها قردة فمسخها الله تعالى قردة ، فردها الملك من عنده ، فجاءت إلى زوجها ، ثم قال الرجل: اللهم ردَّها كما كانت أولاً ، فذهبت الحوائج كلها عبثاً ، لا هي أفلحت ولا هو .

﴿ **الطَّلاقُ** ﴾ أي التطليق الرجعي المتقدم ذكره ﴿ **مَرَّتَانِ** ﴾ أي دفعتان وذلك لا يكون إلا على سبيل التفريق ، فإن من أعطى إلى آخر درهمين ، لم يجز أن يقال : أعطاه مرتين ، حتى يعطيه إياهما دفعتين ، فالطلاق الذي يثبت فيه للزوج حق المراجعة ، هو أن يوجد طلقتان فقط ، وأما بعد الطلقتين بأن طلق ثلاثاً ، فلا يثبت للزوج حق الرجعة البتة ، ولا تحل له المرأة إلا بعد زوج آخر ، كأنه قيل طلقوهن مرتين أي دفعتين ﴿ **فَإِمْسَاكٌ** ﴾ أي فالحكم بعد هاتين الطلقتين إمساك لهن ﴿ **بِمَعْرُوفٍ** ﴾ وهو أن يراجعها لا على قصد المضارة ، بل على قصد الإصلاح وحسن المعاشرة ، ﴿ **أَوْ تَسْرِيحٌ** ﴾ أي تخلية ﴿ **بِإِحْسَانٍ** ﴾ بأن يترك المراجعة حين تبين بانقضاء العدة ، ومعنى الإحسان في التسريح : أنه إذا تركها أدَّى إليها حقوقها المالية ، ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ، ولا ينفر الناس عنها ، وجملة الحكم في هذا الباب ، أن الحر إذا طلق زوجته طلقة أو طلقتين ، بعد الدخول بها ، يجوز له أن يراجعها من غير رضاها ، ما دامت في العدة ، وإن لم يراجعها حتى تنقضي عدتها ، أو طلقها قبل الدخول بها ، أو خالعها ، فلا تحل له إلا بنكاح جديد ، بإذنها وإذن وليها ، فإن طلقها ثلاثاً فلا تحل له ما لم تنكح زوجاً غيره ، ﴿ **وَلا يَحِلُّ لَكُمْ** ﴾- روي -أن« جميلة بنت عبدالله بن أبيّ بن سلول » كانت تبغض زوجها « ثابت بن قيس » فأتت رسول الله عليه الصلاة والسلام وقالت : لا يجمع رأسي ورأسه شيء ، والله ما أعيبه في دين ولا خلق ، ولكني أكره الكفر في الإسلام ، ما أطيقه بغضاً ، إني رفعت جانب الخباء ، فرأيته أقبل في عدة ، فإذا هو أشدهم سواداً ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجهاً ! فاختلعت منه بحديقة ، أصدقها أي سماها ثابت صداقاً لها ، وكان ذلك أول خلع في الإسلام [1] ، والخطاب في لكم مع الحكام ، والحكام وإن لم يكونوا آخذين ومؤتين حقيقة ، إلا أنهم هم الذين يأمرون بالأخذ والإيتاء ، عند الترافع إليهم ، ﴿ **أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ** ﴾ أي تأخذوا منهن ما أعطيتموهن من المهور ﴿ **شَيْئاً** ﴾ أي نزراً يسيراً ، فضلاً عن استرداد الكثير ﴿ **إِلا أَنْ يَخَافَا** ﴾ أي الزوجان ﴿ **أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ** ﴾ أي

(١) حديث ثابت بن قيس رواه البخاري والنسائي وابن ماجه ، ونحوه في الموطأ .

أن لا يراعيا واجب الزوجية ، ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ أيها الحكام ﴿ أَلا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ﴾ أي الحقوق التي أثبتها النكاح ، وذلك بمشاهدة بعض الأمارات والمخايل ، ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ أي فيما أعطته المرأة من بدل الخلع ، ولا عليها في إعطائه إياه ، هذا إذا كان النشوز من قبل المرأة ، أما إذا كان النشوز من قبل الزوج ، فلا يحل له أن يأخذ شيئاً مما آتاها لقوله تعالى (**فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً**) ولا يضيق عليها ليلجئها إلى الافتداء ، فإن ذلك منهي عنه قال تعالى (**وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ**) والآية تشعر بجواز المخالعة على قدر المقبوض من الزوج ، وعلى الأزيد ، والأقل ، وعليه جمهور الفقهاء ، قال البغوي : ويجوز الخلع في غير حال النشوز ، غير أنه يكره لما فيه من قطع الوصلة بلا سبب ، ففي الحديث : « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق »[1] ﴿ تِلْكَ ﴾ أي الأحكام المذكورة ﴿ حُدُودُ اللهِ ﴾ أوامره ونواهيه ﴿ فَلا تَعْتَدُوهَا ﴾ أي لا تتجاوزوا عنها بالمخالفة والرفض ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ ﴾ المتعمدون ﴿ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه ، واعلم أن المرأة إذا اتصفت بالعفة ، فعلى الزوج أن يعاشرها بالمعروف ، ويصبر على سائر أوضاعها وسوء خلقها ، ويتأدب بآداب النبي ﷺ ، وكان عليه الصلاة والسلام يحسن المعاشرة مع أزواجه المطهرة ، فحسن معاشرتهن والصبر عليهن ، مما يُحسِّن الأخلاق ، فلا جرم يعدُّ الصابر من المجاهدين في سبيل الله ، (حكي) أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته ، إلى أن ماتت ، وعرض عليه التزويج فامتنع ، وقال : الوحدة أروح لقلبي ، قال : فرأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها ، كأن أبواب السماء قد فتحت ، وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء ، يتبع بعضهم بعضاً ، فكلما نظر إليَّ واحد منهم ، يقول لمن وراءه : هذا هو المشئوم ؟ فيقول الآخر : نعم ، ويقول الثالث كذلك ، فخفت أن أسألهم إلى أن مرَّ بي آخرهم ، فقلت له : من هذا المشئوم ؟ فقال : أنت ، قلت : ولم ؟ ، قال : كنا نرفع عملك مع أعمال المجاهدين في سبيل الله تعالى ، فمنذ جمعة أُمرنا أن نضع عملك مع المخالفين ، فلا ندري ما أحدثت ؟ فقال لإخوانه : زوجوني ، فلم يكن يفارقه زوجتان أو ثلاث .

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ أي بعد الطلقتين السابقتين ﴿ فَلا تَحِلُّ ﴾ تلك المرأة ﴿ لَهُ ﴾ لزوجها ﴿ مِنْ بَعْدُ ﴾ أي من بعد الطلقة الثالثة ﴿ حَتَّى تَنْكِحَ ﴾ تتزوج تلك المرأة ﴿ زَوْجاً غَيْرَهُ ﴾ أي غير المطلِّق ، وينعقد بينهما عقد النكاح ، والإجماع على اشتراط الإصابة ، لما روي : أن امرأة رفاعة جاءت النبي عليه الصلاة والسلام ، فقالت : إن رفاعة طلقني فبتَّ طلاقي ، أي قطعه حيث طلقني ثلاثاً ، وإن

(١) الحديث أخرجه أبو داود والحاكم وصححه . الفتح الكبير ١ / ١٧ .

عبد الرحمن بن الزبير تزوجني ، وإن ما معه ـ مثلَ هذه الهُدْبة ـ أي ذكره ليس بأغنى عني من هذه أي الهدبة وأخذت من جلبابها ـ فتبسم رسول الله صلى الله تعال عليه وسلم وقال : « أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة ؟ » قالت : نعم ، فقال : « لا حتى تذوقي عُسَيْلته ويذوق عسيلتك » (١) والمراد بالعسيلة الجماع ، شبه لذة الجماع بالعسل ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ أي الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أي لا إثم على الزوج الأول والمرأة ﴿ أَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾ أي يرجع كل منهما إلى صاحبه بعقد جديد ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ﴾ أي إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حدود الله ، أي ما حدَّه الله وشرعه من حقوق الزوجية ، ولم يقل : إن علما ، لأن العواقب غير معلومة ، والإنسان لا يعلم ما في الغد ، وإنما يظن ظناً ، ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة سابقاً ﴿ حُدُودُ اللهِ ﴾ أي أحكامه المحمية من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿ يُبَيِّنُهَا ﴾ بهذا البيان ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي يفهمون ويعملون بمقتضى العلم .

ثم إن الحكمة في اشتراط إصابة الزوج الثاني في التحليل ، وعدم كفاية مجرد العقد فيه ، الردع عن المسارعة إلى الطلاق ، فإن الغالب أن يستنكر الزوج أن يستفرش زوجتَهُ رجلٌ آخر ، وهذا الردع إنما يحصل بالدخول ، وأما مجرد العقد فليس منه زيادة نفرة ، وتهييج غيرة ، فلا يصلح رادعاً وزاجراً عن التسرع إلى الطلاق ، والنكاح المعقود بشرط التحليل وهو أن يشترط في النكاح أن يقتصر على قدر التحليل ، ولا يستديم زوجيتها فاسد عند الأكثر ، وجائز عند أبي حنيفة مع الكراهة ، وعنه أنهما إن اضمرا المحلّل ، فقالت : زوَّجتُك نفسي على أن أمري بيدي ، أطلّق نفسي كلما أردت ، فقبل جاز النكاح ، وصار الأمر بيدها ، وفي الحديث : « لعن الله المحلِّل والمحلَّل له » (٢) المحلّل بكسر اللام والمراد به الزوج الثاني ، والمحلَّل له بفتح اللام والمراد به الزوج الأول ، فإن قلت ما معنى لعنهما ؟ قلت : معنى اللعن على المحلل ، لأنه نكح على قصد الفراق ، والنكاح شُرع للدوام ، وصار كالتيس المستعار ، والتيس هو الذكر من الغنم ، وقد يستعيره الناس لاستيلاد الغنم ، واللعن على المحلَّل له ، لأنه صار سبباً لمثل هذا النكاح ، والمتسبب شريك المباشر في الإثم ، أو المراد من اللعن : إظهار خساستها ، أما خساسة المحلِّل فلمباشرته مثل هذا النكاح ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : « ألا أنبئكم بالتيس المستعار » (٣) ؟ وأما خساسةُ المحلَّل له ، فلمباشرة ما ينفر عنه الطبع السليم ، من عودها إليه بعد مضاجعة غيره إياها ، واستمتاعه بها ، لا حقيقة اللعن ، إذ هو لا يليق بمنصب الرسالة في حق الأمة ، لأنه عليه الصلاة والسلام لم يبعث لعاناً .

---

(١) رواه البخاري ورجح أبو حاتم والدارقطني والبيهقي المرسل . (٢) الحديث أخرجه النسائي ضمن حديث الواشمات ، وورد في حديث آخر عند أحمد بسند حسن ، ورواه الترمذي أيضاً ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٤ .

(٣) هذا جزء من حديث اخرجه ابن ماجه والحاكم والبيهقي وصحّحه ولفظه : « ألا أخبركم بالتَّيْسِ المستعار ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، قال : هو المحلِّلُ ، لعن اللهُ المحلِّلَ والمحلَّلَ له » .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ أي نساءكم ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي آخر عدتهن وشارفن منتهاها ، نزلت في رجل من الأنصار يدعى « ثابت بن يسار » طلق امرأته ، حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها ، ثم طلقها بقصد مضرتها ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أي راجعوهن من غير إضرار لهن بالرجعة ، والمعروف : ما ألفته العقول واستحسنته النفوس شرعاً وعرفاً ، والمراد به هنا حسن المعاشرة ﴿ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أو خلّوهن حتى تنقضي عدتهن من غير تطويل ﴿ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً ﴾ أي ولا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن ، بتطويل العدة والحبس ، ﴿ لِتَعْتَدُوا ﴾ أي لتظلموهن بالإلجاء إلى الافتداء ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ﴾ أي ما ذكر من الإمساك المؤدي إلى الظلم ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ في بتعريضها للعقاب ﴿ وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ ﴾ المنطوية على الأحكام المذكورة أو جميع آياته ﴿ هُزُواً ﴾ أي مهزءواً بها بالإعراض عنها ، والتهاون في العمل بما فيها ، والنهي كناية عن الأمر بضده أي جِدُّوا في الأخذ بها ، والعمل بما فيها ، وارعوها حق رعايتها .

ولما رغبهم في رعاية التكاليف والعمل بها بالتهديد على التهاون بها أكد ذلك الأمر فقال : ﴿ وَاذْكُروا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ حيث هداكم إلى ما فيه سعادتكم الدينية والدنيوية ، أي قابلوها بالشكر والقيام بحقوقها ، وقيل واذكروا إنعام الله عليكم بأن خلقكم رجالاً ، وجعل لكم أزواجاً تسكنون إليهنّ ، وجعل النكاح والطلاق والرجعة بأيديكم ، ولم يضيق عليكم كما ضيّق على الأولين ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي وما أنزله الله عليكم ﴿ مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ ﴾ أي القرآن والسنّة ، أفردهما بالذكر إظهاراً لشرفها ﴿ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ أي واعظاً به لكم ومخوفاً ﴿ واتَّقُوا اللهَ ﴾ في شأن المحافظة عليه ، والقيام بحقوقه الواجبة ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فلا يخفى عليه شيء مما تأتون وما تذرون ، فيؤاخذكم بأفانين العذاب .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي استوفين عدتهن ، فالبلوغ هنا عبارة عن حقيقة الانتهاء ، لأن المذكور بعده النكاح ، ولا يكون ذلك إلا بعد انقضاء العدة ﴿ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ العضل المنع والحبس والتضييق ، والمخاطب بالخطاب الأول هو الأزواج ، وبالثاني هو الأولياء ، لما روي أن الآية نزلت في « معقل بن يسار » حين منع أخته جميلة أن ترجع إلى زوجها الأول « عبيد الله بن عاصم » فإنه جاء يخطبها بعد انقضاء العدة ، وأرادت المرأة الرجوع ، فلما سمع معقل الآية قال : أرغم أنفسي ، وأزوّج أختي ، وأطيع ربي ، وقيل : الخطابان للأزواج ، حيث كانوا يعضلون مطلقاتهم ، ولا يدعونهن يتزوجن من شئن من الأزواج ، ظلماً وقسراً ، واتباعاً لحمية الجاهلية ﴿ أَنْ يَنْكِحْنَ ﴾ أي لا تمنعوهن من أن يتزوجن وفيه دلالة على صحة النكاح بعبارتهن ﴿ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ أن ينكحن أنفسهن ممن شئن أن يكونوا

أزواجاً لهن ، ﴿ إِذَا تَرَاضَوْا ﴾ أي أن ينكحن وقت التراضي ﴿ بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي إذا تراضوا ملتبسين بالمعروف ، من العقد الصحيح ، والمهر الجائز ، والتزام حسن المعاشرة ، وشهود عدول ، والمعروف ما يعرفه الشرع وتستحسنه المروءة ، وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفؤ ، وبما دون مهر المثل ، ليس من باب العضل ﴿ ذٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما مضى ذكره أي الأمر الذي تلي عليكم من ترك العضل أيها الأولياء أو الأزواج ، ﴿ يُوعَظُ بِهِ ﴾ أي يُنْهى ويُنْصحُ به ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ لأنه المتعظ به والمنتفع ﴿ ذٰلِكُمْ ﴾ أي الاتعاظ به والعمل بمقتضاه ﴿ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أنمى لكم وأنفع ، من زكا الزرع إذا نما فيكون إشارة إلى استحقاق الثواب ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ من أدناس الآثام ، وأوضار الذنوب ، ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ ﴾ ما فيه من النفع والصلاح والتفضيل ﴿ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ لقصور علمكم ، فدعوا رأيكم ، وامتثلوا أمره تعالى ونهيه ، في كل ما تأتون وما تذرون ، كما أن الوالد يحمي ولده عن بعض الأطعمة ، صوناً له عن انحراف مزاجه ، فذلك محض إصلاح له ، لما أنه يعلم ما لا يعلمه ، فقد وعظنا الله تعالى في الكتاب بكل ما هو خير وصواب ، ونهانا عن كل ما يؤدي إلى هلاك وتباب ، ولكن سماع النصيحة لا يتيسر إلا لأولي الألباب ، كما قال الإمام الغزالي : النصيحة سهلٌ ، والمشكل قبولها ، لأنها في مذاق متَّبِع الهوى مرٌّ .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ ﴾ أي جميع الوالدات ، مطلقات كن أو مزوجات ، لأن اللفظ عام ، ﴿ يُرْضِعْنَ ﴾ خبر في معنى الأمر أي ليرضعن ، ﴿ أَوْلادَهُنَّ ﴾ جمع ولد ذكراً كان أو أنثى ، ومعنى الأمرالندب ، ووجه الندب أن تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من سائر الألبان ، وأن شفقة الأم أتم من شفقة غيرها ، واعلم أن حق الإرضاع لهن ، إلى أن يتزوجن بغير آباء الأولاد ، لأنهن يشتغلن بخدمة الأزواج فلا يتفرغن لحضانتهم على الوجه الأليق ، ﴿ حَوْلَيْنِ ﴾ سنتين ، أصله من حال الشيء يحول إذا انقلب ، ﴿ كَامِلَيْنِ ﴾ تامين ، أكده بصفة الكمال ، لأنه مما يتسامح فيه فيقال : أقمت عند فلان حولين بمكان كذا ، وإنما أقام فيه حولاً وبعض الحول ﴿ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ يحتمل أن يراد بها الوالدات فقط ، أو هن والآباء معاً ، واعلم أن مدة الرضاع عند أبي حنيفة حولان ونصف ، وعندهما حولان فقط ، استدلالاً بهذه الآية ، ولا يباح إرضاع بعد هذا الوقت المخصوص على الخلاف ، لأن إباحته ضرورية لأنه جزء الآدمي ، فيتقدر بقدر الضرورة . ثم إنه تعالى كما وصَّى الأم برعاية جانب الطفل في قوله (وَالْوَالِدَاتُ) الخ ، وصَّى الأب برعاية جانب الأم ، حتى تتقوى على رعاية مصلحة الطفل ، فأمره بأن يرزقها ويكسوها بالمعروف ، سواء كان ذلك المعروف محدوداً بشرط وعقدٍ أم لا ، فقال : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ ﴾ أي وعلى الذي يولد له وهو الوالد ، وإنما لم يقل على الوالد ليعلم أن الأولاد للآباء ، لأن

الزوجة إنما تلد الولد للزوج ، ولذلك يُنْسبون إليهم لا إلى الأمهات (روي) أن المأمون بن الرشيد لما طلب الخلافة عابه هشام بن عليّ فقال : بلغني أنك تريد الخلافة ، وكيف تصلح لها وأنت ابن أمة ؟ فقال : كان إسماعيل عليه السلام ابن أمة ، واسحق ابن حرة ، فأخرج الله من صلب إسماعيل خير ولد آدم ﷺ وأنشد :

لا تزرينْ بفتى من أن يكون له * أم من الروم أو سوداءُ دعجاء
فإنما أمهات الناس أوعية * مستودعاتٌ وللأبناء آباء

﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ أي رزق الأمهات إذا أرضعن أولادهم ، ولباسهن ، لأنهن يحتجن إلى ما يقمن به أبدانهن ، لأن الولد إنما يتغذى باللبن ، فكان هذا من الحوائج الضرورية ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ حسبما يراه الحاكم ويفي به وسعه ، فإن قيل : إذا كانت الزوجية باقية ، فهي مستحقةٌ للنفقة والكسوة بسبب النكاح ، سواء أرضعت الولد أم لم ترضعه ، فما وجه تعلق هذا الاستحقاق بالإرضاع ؟ قلنا : النفقة والكسوة تجبان في مقابلة التمكين ، فإذا اشتغلت بالحضانة والإرضاع لم تتفرغ لخدمة الزوج ، فربما يتوهم متوهم أن نفقتها وكسوتها تسقطان ، فقطع الله ذلك الوَهْم بإيجاب الرزق والكسوة وإن اشتغلت المرأة بالإرضاع ﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا ﴾ التكليفُ : الإلزام وقوله وسعها مفعول ثان كأنه قيل : لِمَ لَمْ تجب مؤونة الأمهات على أنفسهن ولم قيدت بالمعروف ؟ فأجيب بأنهن غير قادرات على الكسب لضعف بنيتهن ، واحتباسهن لمنفعة الأزواج ، فلو أوجب مُؤَنَهنَّ على أنفسهن لزم تكليف العاجز ، ﴿ لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ نهيٌ أصله لا تضارر ، أي لا تفعل المرأة الضرار بالأب بولدها ، أي بسبب إيصال الضرر إلى الولد ، وذلك بأن تمنع المرأة من إرضاعه مع أن الأب يوسع عليها في النفقة والكسوة ، فتلقي الولد عليه ﴿ وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ أي لا يفعل الأب الضرار بالأم ، بأن ينزع الولد منها مع رغبتها في إمساكه ، وشدة محبتها له ، واضافة الولد إلى كل منهما لاستعطافها إليه ، لأنه ليس بأجنبي من كل واحد منهما ، وللتنبيه على أنه جدير بأن يتفقا على استصلاحه ، ولا ينبغي أن يضرا به أو يتضارا بسببه ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ ﴾ أي وارث الصبي عند عدم الأب ، ممن كان ذا رحم محرم منه ﴿ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ما وجب على الأب من الرزق والكسوة ، وأجر الرضاع ﴿ فَإِنْ أَرَادَا ﴾ أي الوالدان ﴿ فِصَالاً ﴾ أي فطاماً للصغير عن الرضاع قبل تمام الحولين ﴿ عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا ﴾ أي من الوالدين لا من أحدهما فقط ، لاحتمال إقدامه على ما يضر بالولد ، بأن تمل المرأة الإرضاع ، ويَبْخلَ الأب بإعطاء الأجرة ، وربما يضر الفطام بجسمه ﴿ وَتَشَاوُرٍ ﴾ في شأن الولد وتفحص عن أحواله ، وإجماع منهما على استحقاقه للفطام ، وإنما اعتبر اتفاق الوالدين لما في الأب من الولاية ، وفي الأم من

الشفقة وهي أعلم بحال الصبي ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ في ذلك ولا حرج ، فالحاصل سواء زادا على الحولين إلى ثلاثين شهراً ، أو نقصا ، فلا جناح عليهما في ذلك ، بعد استقرار رأيهما إلى ما هو خير للصبي ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ ﴾ أيها الآباء ﴿ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا ﴾ المراضع ﴿ أَوْلادَكُمْ ﴾ ، أي إذا طلبتم أن تأخذوا ظئراً لإرضاع أولادكم ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي لا إثم عليكم في الاسترضاع ، وفيه دلالة على أن للأب أن يسترضع للولد ، ويمنع الأم من الإرضاع ﴿ إِذَا سَلَّمْتُمْ ﴾ أي إلى المراضع ﴿ مَا آتَيْتُمْ ﴾ أي ما أردتم إيتاءه ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً ، وليس التسليم بشرط للصحة والجواز ، بل هو ندب إلى ما هو الأليق والأولى ، فإن المراضع إذا أعطين ما قدر لهن ناجزاً ، كان ذلك أدخل في إصلاح شؤون الأطفال ، ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ في شأن مراعاة الأحكام في أمر الأطفال والمراضع ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم بذلك ، وفيه من الوعيد والتهديد ما لا يخفى .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ ﴾ أي يموتون ويقبض أرواحهم بالموت ﴿ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً ﴾ أي يتركون نساء من بعدهم وهو جمع زوج ، ويجمع أزواجاً على لغة التذكير ، وزوجات على لغة التأنيث ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ أي يجعلنها متربصة منتظرة بعد موتهم ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ أي في تلك المدة ، فلا يتزوجن إلى انقضاء العدة وقوله « وعشراً » أي عشرة أيام ، ولعل الحكمة في تقديره عدة الوفاة بأربعة أشهر وعشر ، أن الجنين يتحرك لأربعة أشهر ، فاعتبر أقصى الأجلين وزيد عليه العشرة ، استظهاراً أي استعانة بتلك الزيادة على العلم بفراغ الرحم ، ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ الخطاب للحكام وصلحاء المسلمين ، لأنهن إن تزوجن في مدة العدة ، وجب منعهن عن ذلك ، وإن عجز الوصيُّ وجب أن يستعين بالسلطان ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ ﴾ من التزين والتعرض للخُطَّاب ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ملتبسات بالوجه الذي لا ينكره الشرع ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فيجازيكم عليه ، فلا تعملوا خلاف ما أُمرتم به .

واعلم أن المراد بالتربص هنا الامتناع عن النكاح ، والامتناع عن الخروج من المنزل ، والامتناع عن التزين ، أما الامتناع عن النكاح فمجمع عليه ، وأما الامتناع عن الخروج من المنزل فواجبٌ إلا عند الضرورة والحاجة ، وأما ترك التزين فهو واجب ، لما روي أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر، أن تُحِدَّ على ميِّتٍ فوق ثلاث ليالٍ، إلا على زوجها أربعة أشهر وعشراً »[1] ، وإنما وجب الحداد لأنه لما حرم عليها النكاح في العدة ، أُمرت بتجنب الزينة حتى لا تكون

(١) الحديث أخرجه البخاري والنسائي .

بصفة الملتمسة للأزواج ، ولإظهار التأسف على الزوج ، الذي كان سبب مؤونتها وكفايتها ، من النفقة والسكنى وغير ذلك ، ومن السنّة أن يتوقى رسوم الجاهلية ، من شق الجيوب ، وضرب الخدود ، وحلق الشعر ، كما كان عادة العرب ، وكذا رفع الصوت بالبكاء والنوح ، وقد برىء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ممن يفعل شيئاً من ذلك ، لأنها عادات الجاهلية ، وأكثر أهالي هذا الزمان في أكثر البلدان مبتلون بأمثال هذه العادات ، لا سيما النساء فإنهن يلبَسْنَ الألبسة السود إلى أن تمضي أيام بل شهور كثيرة ، وربما ترى رجلاً لا يلبس لباس الجمع والأعياد ، فلو سئل فيه لأجاب بقوله : مات أبي أو أمي أو غيرهما ، وذلك بعدما مضى من زمان الوفاة شهور ، وكذا الرافضة قد تغالت في الحزن لمصيبة الحسين رضي الله عنه ، وأحدَّت عليها حيث اتخذوا يوم عاشوراء مأتماً لقتله ، فيقيمون في مثل هذا اليوم العزاء ، ويطيلون النوح والبكاء ، ويظهرون الحزن والكآبة ، ويفعلون فعل غير أهل الإصابة ، ويتعدون إلى سب بعض الصحابة ، وهذا عمل أهل الضلال ، المستوجبين من الله الخزي والنكال ، كأنهم لم يسمعوا ما ورد في النهي عن الحداد ، ومن الله الرشاد .

﴿ **وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** ﴾ علم الله تعالى أن المرأة إذا مات زوجها قد يكون لها مال أو جمال أو معنى يرغب الناس فيها فأطلق للراغب أن يُعَرِّض بالخطبة في العدة فقال تعالى « ولا جناح عليكم » ﴿ **فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ** ﴾ التعريض : إفهام المعنى بالشيء المحتمل له ولغيره ﴿ **مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ** ﴾ الخطبة بالكسر التماس النكاح ، وبالضم الكلام المشتمل على الوعظ ، والمراد بالنساء المعتدات للوفاة غير طلاق رجعي ، ثم التعريض بالخطبة أن يقول لها في العدة : إنك لجميلة صالحة ، أو أنا محتاج إلى امرأة صفتها كذا ، أو يقول إني حسن الخلق ، كثير الإنفاق ، جميل العِشْرة ، محسن إلى النساء ، وأمثالها ، فيصف نفسه ليرغب فيه ، أو يقول : ربَّ راغب فيك ، وحريص عليك ، ونحو ذلك مما يوهم أنه يريد نكاحها ، حتى تحبس نفسها عليه إن رغبت فيه، ولا يصرح بالنكاح بأن يقول إني أريد أن أنكحك ، أو أتزوجك ، أو أخطبك أو غير ذلك ، ﴿ **أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ** ﴾ ، أي أضمرتم في قلوبكم من نكاحهن ، فلم تذكروه صريحاً ولا تعريضاً ، ﴿ **عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ** ﴾ أي لا تنفكون عن النطق برغبتكم فيهن ، فالمقصود بيان وجه إباحة الخطبة بطريق التعريض ﴿ **وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً** ﴾ أي فاذكروهن وأظهروا لهن رغبتكم ، ولكن لا تواعدوهن نكاحاً ، بل اكتفوا بما رخص لكم من التعريض ، والتعبير عن النكاح بالسرّ ، لأن مسببه الذي هو الوطىء مما يُسرُّ به ﴿ **إِلا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً** ﴾ استثناء مفرغ أي : لا تواعدوهن مواعدة ، إلا مواعدة معروفة غير منكرة شرعاً ، وهي ما تكون بطريق التعريض والتلويح ﴿ **وَلا تَعْزِمُوا** ﴾ العزم عبارة عن عقد القلب على فعل من الأفعال ،

﴿ عُقْدَةَ النِّكَاحِ ﴾ أي لا تعزموا عقد عقدة النكاح ، والمقصود النهيُ عن تزوج المعتدة في زمان عدتها ، إلا أنه نهى عن العزم على عقد النكاح ، للمبالغة في النهي عن النكاح في زمان العدة ، فإن النهي عن مقدمات الشيء ، يستلزم النهي عن ذلك الشيء بطريق الأولى ، ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ أي حتى تبلغ العدة المفروضة آخرها ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿ فَاحْذَرُوهُ ﴾ بالاجتناب عن العزم ابتداء ، وإقلاعاً عنه بعد تحققه ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ لمن عزم ولم يفعل ، خشيةً من الله تعالى ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة ، فاجتنبوا أسباب العقوبة ، واعملوا بما أمركم به ربكم .

﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ المراد من الجناح في هذه الآية وجوب المهر أي : لا تبعة من مهر ﴿ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ أي غير ماسين لهن ومجامعين ﴿ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أي إلا أن تفرضوا لهن عند العقد مهراً ، والمعنى : لا تبعة على المطلّق بمطالبة المهر أصلاً ، إذا كان الطلاق قبل المسيس ، إلا في تسمية المهر ، فإن عليه حينئذ نصف المسمى ، وأما إذا كان بعد المساس فعليه تمام المسمى ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ ﴾ أي أعطوهن ما يتبلغن وينتفعن به ، والحكمة في إيجاب المتعة ، جبرٌ لما أوحشها الزوج بالطلاق ، وهو درعٌ وملحفة وخمار ﴿ عَلَى المُوسِعِ ﴾ أي الذي له سعة ﴿ قَدَرُهُ ﴾ إمكانه وطاقته ﴿ وَعَلَى المُقْتِرِ ﴾ أي على المقل الضيق الحال ﴿ قَدَرُهُ ﴾ فالمتعة معتبرة بحاله لا بحالها ، لا تنقص عن خمسة دراهم ، ولا تزاد على نصف مهر المثل ، ﴿ مَتَاعاً ﴾ أي تمتيعاً ملتبساً ﴿ بِالمَعْرُوفِ ﴾ أي بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة ﴿ حَقّاً ﴾ أي متاعاً واجباً ﴿ عَلَى المُحْسِنِينَ ﴾ أي الذين يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال ، اعلم أن للمطلقة أربع حالات : الأولى : أن تكون غير ممسوسة ولم يسم لها مهر ، والثانية : أن تكون ممسوسة وسمي لها ، والثالثة : أن تكون ممسوسة ولم يسم لها ، والرابعة : أن تكون غير ممسوسة وسمي لها ، ورفع الجناح بمعنى نفي المهر ، إنما هو في الصورة الأولى لا في البواقي من الصور الثلاث ، فإن فيها وجوب المهر ، ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أي وإن طلقتموهن من قبل المسيس ، حال كونكم مسمين لهن عند النكاح مهراً ﴿ فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ أي فلهن نصف ما سميتم لهن من المهر ، وإن مات أحدهما قبل الدخول فيجب عليه كله ، لأن الموت كالدخول في إيجاب المهر ﴿ إِلا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ أي إلا في حال عفوهن ، أي المطلقات فإنه يسقط ذلك حينئذ بعد وجوبه ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ أي يترك الزوج المالك لعقده وحله ، ما يعود إليه من نصف المهر ، الذي ساقه إليها كاملاً على ما هو المعتاد تكرماً ، فإن ترك حقه عليها عفو بلا شبهة ، فالمراد بقوله ﴿ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ الزوج لا

الولي ، والمراد بعفوه أن يعطيها الصداق كاملاً ، النصف الواجب عليه ، والنصف الساقط العائد إليه بالتنصيف ، فله أن يطالبها بنصف ما ساق إليها ، فإذا ترك المطالبة فقد عفا عنها ﴿ **وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ اللام في « التقوى » تدل على علة قرب العفو ، تقديره العفو أقرب من أجل التقوى ، إذ الأخذ كأنه عوض من غير معوض عنه ، أو ترك المروءة عند ذلك ترك للتقوى ، ﴿ **وَلا تَنْسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ** ﴾ ليس المراد منه النهي عن النسيان لأن ذلك ليس في الوسع بل المراد منه الترك والمعنى لا تتركوا الفضل والإفضال فيما بينكم بإعطاء الرجل تمام الصداق وترك المرأة نصيبها ، أو لا تنسوا المودة والجميل والعرفان بينكم ، حثَّها جميعاً على الإحسان والإفضال .

﴿ **إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ فلا يكاد يضيع ما عملتم من التفضل والإحسان ، ﴿ **حَافِظُوا عَلَىٰ الصَلَوَاتِ** ﴾ بالأداء لوقتها والمداومة عليها ، والمراد بالصلوات المكتوبات الخمس في كل يوم وليلة ، ثبت عددها بغيرها من الآيات ، والأحاديث المتواترة ، ﴿ **وَ** ﴾ حافظوا على ﴿ **الصَّلاةِ الوُسْطَىٰ** ﴾ أي المتوسطة بينها ، وأوسط الشيء خيره وأعدله ، وهي صلاة العصر ، لأنها بين صلاتيْ ليلٍ وصلاتي نهار ، ولقوله عليه الصلاة والسلام يوم الأحزاب : « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً »[1] وفضلها لكثرة اشتغال الناس في وقتها بتجاراتهم ومكاسبهم ، واجتماع ملائكة الليل وملائكة النهار ، قال رسول الله ﷺ : « من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتر أهله وماله »[2] أي ليكن من فوتها حذراً ، كما يحذر من ذهاب أهله وماله ، ثم في حديث يوم الأحزاب حجة على من قال الصلاة الوسطى غير العصر ، ﴿ **وَقُومُوا للهِ** ﴾ أي في الصلاة ﴿ **قَانِتِينَ** ﴾ أي ذاكرين له في القيام ، لأن القنوت هو الذكر فيه ، أو خاشعين ، ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ** ﴾ أي إن كان بكم خوف من عدو أو غيره ﴿ **فَرِجَالاً** ﴾ أي فصلوا راجلين ، والرجال جمع راجل ﴿ **أَوْ رُكْبَاناً** ﴾ أي راكبين وهو جمع راكب ، ﴿ **فَإِذَا أَمِنْتُمْ** ﴾ وزال خوفكم ﴿ **فَاذْكُرُوا اللهَ** ﴾ أي فصلوا صلاة الأمن ﴿ **كَمَا عَلَّمَكُمْ** ﴾ أي ذكراً كائناً كتعليمه إياكم ﴿ **مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ من كيفية الصلاة والمراد بالتشبيه أن تكون الصلاة المؤداة موافقة لما علَّمه الله ، أو اشكروا الله شكراً يوازي تعليمه إياكم ما لم تكونوا تعلمونه من الشرائع والأحكام ، واعلم أن الصلاة بمنزلة الضيافة قد هيأها الله للموحدين في كل يوم خمس مرات ، فكما في الضيافة تجتمع الألوان من الأطعمة ولكل طعام لذة ولون ، فكذلك فيها أركان وأفعال مختلفة لكل فعل لذة وتكفير للذنوب ، ثم اعلم أنه لا يرخص لمن سمع الأذان ترك الجماعة ، فإنها سنّة مؤكدة غاية

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم،ونحوه عند أحمد وأبي داود وابن ماجة .

(٢) الحديث أخرجه النسائي في سننه ، وهو حديث صحيح ، وانظر جامع الأصول ٥ / ٢٠٥ .

التأكيد ، بحيث لو تركها أهل ناحية وجب قتالهم بالسلاح ، لأنها من شعائر الإسلام ، ولا يتخطى رقاب الناس إلى الصف الأول ، ويتلاصقون بحيث يكونون محاذين بالأعناق والمناكب ،والاعتبار في أداء الصلاة بالحضور والتوجه التام .

(يحكى) أن الشيخ أبا العباس الجوالقي كان في بداية حاله يعمل الجوالق ويبيع ، فباع يوماً جوالقاً بنسيئة ونسي المشتري ، فلما قام إلى الصلاة تفكر في ذلك ، ثم لما سلَّم قال لتلميذه : وقعت لي خاطرة في الصلاة ، أني إلى أي شخص بعت الجوالق ؟ فقال تلميذه : يا أستاذ أنت في أداء الصلاة أو في تحصيل الجوالق ؟ فأثَّر هذا القول في الشيخ ، فلبس المرقَّع وترك الدنيا واشتغل بالرياضة ، إلى أن وصل إلى ما وصل .

﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ** ﴾ أي يموتون ﴿ **وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً** ﴾ أي يدعون نساء من بعدهم ﴿ **وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ** ﴾ أي يوصون وصية لهن ﴿ **مَتَاعاً** ﴾ أي يوصون متاعاً ﴿ **إِلَى الحَوْلِ** ﴾ أو متعوهن تمتيعاً إلى الحول ﴿ **غَيْرَ إِخْرَاجٍ** ﴾ أي لا يخرجن من مساكنهن حولاً ، والمعنى يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم ، بأن يمتعن بعدهم حولاً بالنفقة والسكنى ، نزلت الآية في رجل من الطائف ، يقال له « حكيم بن الحارث » هاجر إلى المدينة ، وله أولاد ومعه أبواه وامرأته ، مات فأنزل الله هذه الآية ، فأعطى النبي عليه الصلاة والسلام والديه وأولاده من ميراثه ، ولم يعط امرأته شيئاً ، وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولاً ، وكانت عدة الوفاة في ابتداء الإسلام حولاً ، وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول ، وكان على الرجل أن يوصي بها فكان كذلك حتى نزلت آية الميراث ، فنسخ الله تعالى نفقة الحول ، ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشر ، ﴿ **فَإِنْ خَرَجْنَ** ﴾ من منزل الأزواج باختيارهن ﴿ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** ﴾ أيها الأئمة والحكام ﴿ **فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ** ﴾ لا ينكره الشرع كالتزين والتطيب وترك الحداد والتعرض للخطاب ، ﴿ **وَاللهُ عَزِيزٌ** ﴾ غالب على أمره يعاقب من خالفه ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ يراعي في أحكامه مصالح عباده ﴿ **وَلِلْمُطَلَّقَاتِ** ﴾ سواءٌ كنَّ مدخولاً بهن أم لا ﴿ **مَتَاعٌ** ﴾ أي مطلق المتعة ، الشاملة للمستحبة والواجبة ، ﴿ **بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ أي متاع ملتبس بالمعروف شرعاً وعادة ﴿ **حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾ أي مما ينبغي على من كان متقياً ، تطييباً لقلبها وإزالة للضغن ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح ﴿ **يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ** ﴾ الدالة على أحكامه التي شرعها لعباده ومصالحهم ، ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ لكي تفهموا ما فيها فتستعملوا العقل فيها وتعملوا بموجبها .

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ** ﴾ جمع دار أي منازلهم ، وهذا الخطاب متوجه إلى

جميع من سمع بقصتهم من أهل الكتاب ، وأرباب التواريخ ، وهو تعجيب من حال هؤلاء ، ومعنى الرؤية ههنا رؤية القلب ، وهي بمعنى العلم ، على معنى ألم ينته علمك إليهم ، قال العلماء : كل ما وقع في القرآن ألم تر ولم يعاينه النبي عليه الصلاة والسلام فهو بهذا المعنى ، وفي التيسير وتحقيقه اعلم ذلك ، والمعنى قد علمت خبر الذين خرجوا الآية ، ﴿ **وَهُمْ أُلُوفٌ** ﴾ جمع ألف واختلفوا في عدد مبلغهم ، والوجه أن يكون عددهم أزيد من عشرة آلاف ، لأن الألوف جمع الكثرة ﴿ **حَذَرَ الْمَوْتِ** ﴾ أي خرجوا من ديارهم خوفاً من الموت ﴿ **فَقَالَ لَهُمُ اللهُ** ﴾ على لسان مَلَك ، وإنما أسند إليه تعالى تخويفاً وتهويلاً ﴿ **مُوتُوا** ﴾ التقدير فماتوا ﴿ **ثُمَّ أَحْيَاهُمْ** ﴾ أي أعادهم أحياء ليستوفوا بقية أعمارهم ، وليعلموا أن لا فرار من القدر ، عن الحسن : أماتهم الله قبل آجالهم عقوبة لهم ، ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ، وقصة هؤلاء ما ذكره أكثر أهل التفسير ، أنهم كانوا قوماً من بني إسرائيل في قرية وقع بها الطاعون ، فهرب عامة أهلها ، فخرجوا حتى نزلوا وادياً أفيح بن جبلين ، يبتغون فيه النجاة ، ناداهم ملك من أسفل الوادي ، ومَلَكٌ آخر من أعلاه أن موتوا ، فماتوا جميعاً ، بأمر الله ومشيئته ، فأتت عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا ، فمر عليهم نبي يقال له « حزقيل » بعد موسى عليه السلام ، فلما مر على أولئك الموتى ، وقف عليهم يتفكر متعجباً ، فأوحى الله إليه أتريد أن أريك آية ؟ قال : نعم ، فقال الله : ناد أيتها العظام أن الله يأمرك أن تجتمعي ، فاجتمعت من أعلى الوادي وأدناه ، حتى التزق بعضها ببعض ، ثم أوحى الله إليه أن ناد أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن تقومي فقاموا وبُعثوا أحياء ، يقولون : « سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت » ثم إنهم رجعوا إلى بلادهم وقومهم وعاشوا دهراً حتى ماتوا لآجالهم ، وفائدة القصة تشجيع المسلمين على الجهاد ، والتعرض لأسباب الشهادة ، وحثهم على التوكل والاستسلام ، وأن الموت حيث لم يكن منه بد ، فأولى أن يكون في سبيل الله ﴿ **إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ** ﴾ عظيم ﴿ **عَلَى النَّاسِ** ﴾ قاطبة ، حيث هداهم إلى مسلك الاعتبار والاستبصار ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ فضله كما ينبغي ﴿ **وَقَاتِلُوا** ﴾ الخطاب لهذه الأمة ﴿ **فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ لإعلاء دينه متيقنين أن القدر واقع ، فلا تحرموا من النصر والثواب ، أو الموت في سبيل الله الملك الوهاب ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ** ﴾ يسمع مقالة السابقين إلى الجهاد والمتخلفين عنه ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ بما يضمرونه في أنفسهم ، والآية رد لقبيح حال هؤلاء الذين خرجوا فراراً ، وقد جعل الله جزاء خروجهم الموت ، والخيبة في رجائهم الخلاص ، وكل ذلك يدل على كراهية الفرار .

﴿ **مَنْ** ﴾ استفهام للتحريض على التصدق ﴿ **ذَا** ﴾ إشارة إلى المقرض أي من هذا ﴿ **الَّذِي** ﴾ صفة ذا أو بدل منه ﴿ **يُقْرِضُ اللهَ** ﴾ أصل القرض القطع ، سمي به لأنَّ المعطي يقرضه أي يقطعه من

ماله ، وإقراض الله مثلٌ لتقديم العمل ، الذي يطلب به ثوابه ﴿ **قَرْضاً** ﴾ أي إقراضاً ﴿ **حَسَناً** ﴾ أي مقروناً بالإخلاص وطيب النفس ، ﴿ **فَيُضَاعِفَهُ لَهُ** ﴾ منصوب بإضمار « أن » تقديره من ذا الذي يكون منه إقراض فمضاعفة من الله ، وأصل التضعيف أن يزاد على الشيء مثله أو أمثاله ﴿ **أَضْعَافاً كَثِيرَةً** ﴾ هذا قطع للأوهام عن مبلغ الحساب ، أي لا يعلم قدرها إلا الله ، وحكمةُ تضعيف الحسنات ، لئلا يفلس العبد إذا اجتمع عليه الخصماء ، فمظالم العباد تُوفَّى من التضعيفات لا من أصل الحسنات .

﴿ **واللهُ يَقْبِضُ** ﴾ يقتِّر على بعض ﴿ **وَيَبْسُطُ** ﴾ يوسع على بعض ، أو يقتر تارة ويوسّع أخرى ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، وإذا علم العبد ذلك هان عليه الإعطاء ، فكأن الله تعالى يقول : إذا علمتم أن الله هو القابض والباسط ، وأن ما عندكم إنما هو من بسطه وإعطائه ، فلا تبخلوا عليه فأقرضوه ، وأنفقوا مما وسع عليكم وأعطاكم ، ﴿ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ فيجازيكم على ما قدمتم من الأعمال ، وهو وعد ووعيد ، واجتمع جماعة من الأغنياء والفقراء ، فقال غني : إن الله تعالى رفع درجاتنا حتى استقرض منا ، وقال فقير : بل رفع درجاتنا حتى استقرض لنا ، والواحد قد يستقرض من غير الحبيب ، ولكن لا يستقرض إلا لأجل الحبيب ، وقبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودرعه مرهونةٌ عند يهودي بشعير ، أخذه لقوت عياله ، وفي الحديث : « يقول الله تعالى يوم القيامة : ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ، قال رب : كيف أطعمك وأنت رب العزة ؟ قال استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي »[1] فالقرض لا يقع إلا من المحتاج ، فكأنه ذكر نفسه ونزَّل وصفه منزلة المحتاج كقوله : « مرضتُ فلم تعدني ، جعتُ فلم تطعمني » شفقة وتلطفاً للفقير والمريض ، وهذا من باب التنزلات الرحمانية عند المحققين ، لتكميل محبة العبد وجذبه إلى حضرة أهل الشهود من عباده ، إذ جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين .

والله تعالى من كمال فضله وكرمه مع عباده ، خلق أنفسهم وملّكهم الأموال ، ثم اشترى منهم أنفسهم وأموالهم ، ثم ردها إليهم بالعارية ، ثم أكرمهم فيها بالاستقراض منهم ، ثم بشّر بأضعاف كثيرة عليها ، فالعبد الصادق لا يطلب إلا على قدر همته ، ولا يريد العوض إلا ذاته تعالى ، فيعطيه الله ما هو مطلوبه ، ويضاعف له ما أخفي لهم من قرة أعين ، أضعافاً كثيرة على قدر كرمه ، ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ أي ألم ينته علمك ﴿ **إِلَىٰ** ﴾ قصة ﴿ **الْمَلَإِ** ﴾ أي قد علمت خبرهم بإعلامي إياك فتعجب ، والملأ : جماعة يجتمعون للتشاور ، وسموا بذلك لأنهم أشراف القوم ، يملأون العيون مهابة ، والمجالس بهاءً ، ولا واحد له من لفظه كالقوم ﴿ **مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ أي كائنين بعض بني إسرائيل وهم أولاد يعقوب ، ﴿ **مِنْ**

(١) هذا جزء من حديثٍ قدسي أخرجه مسلم في صحيحه .

﴿ بَعْدِ ﴾ وفاة ﴿ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا ﴾ أي ألم تر إلى قصة الملأ أو حديثهم حين قالوا ﴿ لِنَبِيٍّ لَهُمُ ﴾ اشمويل وهو الأشهر الأظهر ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً ﴾ أي : انصب لنا سلطاناً يتقدمنا ، ويحكم علينا في تدبير الحرب ﴿ نُقَاتِلْ ﴾ معه وهو بالجزم على الجواب ﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ طلبوا من نبيهم ما كان يفعل رسول الله ﷺ من التأمير على الجيوش التي كان يجهزها ومن أمرهم بطاعته وامتثال أوامره ، وروي أنه أمر الناس إذا سافروا أن يجعلوا أحدهم أميراً عليهم ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ قاربتم ﴿ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ ﴾ مع الملك ﴿ أَنْ لا تُقَاتِلُوا ﴾ معه والمعنى هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون ؟ أراد أن يقول : أتوقع جبنكم عن القتال ، فأدخل ﴿ هَلْ ﴾ مستفهماً عما هو متوقع عنده ﴿ قَالُوا وَمَا ﴾ مبتدأ وهو استفهام إنكاري خبره قوله ﴿ لَنَا أَنْ لا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : أي سبب وغرض لنا في ترك القتال ؟ ﴿ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ أي : والحال أنه قد عرض لنا ما يوجب القتال ، من الإخراج من الديار والأوطان ، والاغتراب عن الأهل والأولاد ؟ وكان سبب ذلك ، أنه لما مات موسى عليه السلام ، خلف بعده في بني إسرائيل « يوشع » يقيم فيهم التوراة وأمر الله ، حتى قبضه الله ، ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل ، ونسوا عهد الله ، حتى عبدوا الأوثان فبعث الله إليهم « إلياس » نبياً فدعاهم إلى الله ، وكانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة ، ثم خلف بعده « اليسع » وكان فيهم ما شاء الله حتى قبضه الله ، وخلف فيهم الخلوف وَعَظُمت الخطايا وظهر لهم عدو وهم قوم جالوت ، كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة ، فظهروا على بني إسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم ، وسَبَوْا كثيراً من ذرياتهم ، وضربوا عليهم الجزية ، وأخذوا توراتهم ولقي بنو إسرائيل منهم بلاء شديداً ، وكان قِوام أمرِ بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك ، وطاعة الملوك لأنبيائهم ، فكان الملك هو الذي يسير بالجموع ، والنبي يقيم أمره ويشير عليه ، يرشده ويأتيه بالخبر من عند ربه ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ ﴾ بعد سؤال النبي ذلك وبعث الملك ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ أي أعرضوا وتخلفوا عن الجهاد وضيعوا أمر الله ، ﴿ إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾ وهم الذين عبروا النهر مع طالوت وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، بعدد أهل بدر ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ وعيد لهم على ظلمهم ، بالتولي عن القتال وترك الجهاد ، ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾ اشمويل ، قال لبني إسرائيل ﴿ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ ﴾ اسم أعجمي ممتنع من الصرف ، لتعريفه وعجمته ﴿ مَلِكاً ﴾ أي فأطيعوه وقاتلوا عدوكم معه ، ﴿ قَالُوا ﴾ متعجبين من ذلك ومنكرين وجه الحكمة ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ من أين يكون له ذلك ويستأهل ؟ ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ ﴾ أولى بالرياسة عليه منه ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ ﴾ أي لم يعط ثروة وكثرة من المال ، فيشرف بالمال إذا فاته الحسب ، يعني كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق

منه ، وبعدم ما يتوقف عليه الملك من المال ؟ ، ﴿ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : اختاره فإن لم يكن له نسب ومال ، فله فضيلة أخرى وهو قوله ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً ﴾ أي : سعة وامتداداً ﴿ فِي العِلْمِ ﴾ المتعلق بالملك ﴿ وَالجِسْمِ ﴾ بطول القامة وعظم التركيب ، لأن الإنسان يكون أعظم في النفوس بالعلم ، وأهيب في القلوب بالجسم ، وقد خصه الله تعالى منهما بحظٍ وافر ﴿ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ لأنه مالك الملك فعال لما يريد ، فله أن يؤتيه من يشاء من عباده ﴿ وَاللهُ وَاسِعٌ ﴾ يوسع على الفقير ويغنيه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يليق بالملك ممن لا يليق به ، ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾ طلبوا علامة من نبيهم على كون طالوت ملكاً عليهم فقالوا ما آية ملكه ؟ فقال ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ ﴾ أي علامة سلطته ﴿ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾ من التوب وهو الرجوع وسمي تابوتاً لأنه ظرف توضع فيه الأشياء ، والمراد به صندوق التوراة ، وكان قد رفعه الله بعد وفاة موسى عليه السلام ، سخطاً على بني إسرائيل لما عصوا واعتدوا ، فلما طلب القوم من نبيهم آية تدله على ملك طالوت ، قال لهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت من السماء ، والملائكة يحفظونه ، فأتاهم كما وصف والقوم ينظرون إليه ، حتى نزل عند طالوت ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ، ﴿ فِيهِ ﴾ أي : في إتيان التابوت ﴿ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي سكون لكم وطمأنينة كائنة من ربكم ، ﴿ وَبَقِيَّةٌ ﴾ كائنة ﴿ مِمَّا ﴾ من للتبعيض ﴿ تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ هما رضاض الألواح ، وعصا موسى وثيابه ونعلاه ، وشيء من التوراة ، وألهما أنفسهما أو أتباعهما ﴿ تَحْمِلُهُ المَلَائِكَةُ ﴾ أي إن آية ملكه إتيانه حال كونه محمولاً للملائكة ، ثم إن التابوت لم تحمله الملائكة ، بل نزل من السماء إلى الأرض بنفسه ، والملائكة كانوا يحفظونه أو أتى به على الثورين ، بسوق الملائكة ، وإنما أضيف الحمل إلى الملائكة ، لأن من حفظ شيئاً جاز أن يوصف بأنه حمل ذلك الشيء ، كما يقول القائل : حملت الأمتعة إلى زيد إذا حفظها في الطريق ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي في رد التابوت أيها الفريق ﴿ لَآيَةً ﴾ عظيمة ﴿ لَكُمْ ﴾ دالة على ملك طالوت ، وصدق قول نبيكم في أن الله جعله عليكم ملكاً ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ مصدقين بالله فصدقوا بتمليكه عليكم .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ ﴾ أي : فلما انفصل عن بلده ، مصاحباً لهم لقتال العمالقة ، والجنود جمع جند ، وهم الجيش الأشداء ، (روي) أنهم لما رأو التابوت لم يشكُّوا في النصر ، فتسارعوا إلى الجهاد ، فقال طالوت : لا يخرج معي شيخ ولا مريض ، ولا رجل بنى بناء لم يفرغ منه ، ولا رجل عليه دين ، ولا رجل تزوج امرأة ولم يبن بها ، ولا أبتغي إلا الشاب النشيط الفارغ ، فاجتمع إليه ممن اختاره ثمانون ألفاً ، وكان الوقت شديد الحر ، وسلكوا مفازة فشكوا قلة الماء ، وسألوا أن يجري الله لهم نهراً ﴿ قَالَ ﴾ أي طالوت بإخبار من النبي أشمويل ﴿ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾ أي معاملكم معاملة

المختبر ليظهر لطالوت من كان مخلصاً في نيته من غيره ، لأن من لا يريد القتال ، إذا خالط عسكراً ، يدخل الضعف في العسكر ، فينهزمون بشؤمه .

﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ ﴾ أي : من ماء النهر ، بأن كرع بفيه من موضعه ، من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء ﴿ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي من جملتي وأشياعي المؤمنين ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ ﴾ الطعم هنا بمعنى الذوق ، يقال طعم الشيء إذا ذاقه مأكولاً أو مشروباً ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي من أهل ديني ﴿ إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ الغُرفة بالضم اسم للقدر الحاصل في الكف بالاغتراف ، والغَرْفُ : أخذ ماء بآلة كالكف ، كأن يأخذ القليل فيجعل الله فيه البركة حتى يكفي لكل هؤلاء فيكون معجزة لنبي ذلك الزمان كما أنه تعالى يروي الخلق الكثير من الماء القليل في زمن محمد ﷺ ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ ﴾ أي : فانتهوا إلى النهر وابتلوا به وكرعوا فيه كروعاً مثل الدواب ، ولم يقنعوا بالاغتراف فضلاً عن أن لا يذوقوا منه شيئاً ﴿ إِلا قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾ وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً على عدد أهل بدر ، فإنهم اغترفوا فشربوا بالأكف ، وأما الذين خالفوا فشربوا كرعاً ، فعرف طالوت الموافق من المخالف .

ثم إنه لا خلاف بين المفسرين في أن الذين عصوا رجعوا إلى بلدهم ، ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ ﴾ أي النهر ﴿ هُوَ ﴾ أي : طالوت ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهم القليل الذين أطاعوه ولم يخالفوه ﴿ مَعَهُ ﴾ أي : مع طالوت ﴿ قَالُوا ﴾ أي بعض من معه من المؤمنين القليلين لبعض آخر منهم ، فالمؤمنون الذين جاوزوا النهر صاروا فريقين : فريقاً يحب الحياة ويكره الموت ، وكان الخوف والجزع غالباً على طبعه ، وفريقاً كان شجاعاً قوي القلب لا يبالي بالموت في طاعة الله تعالى ، والقسم الأول هم الذين قالوا ﴿ لا طَاقَةَ ﴾ قوة ﴿ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي بمحاربتهم ومقاومتهم ، فضلاً عن أن يكون لنا غلبة عليهم ، وذلك لما شاهدوا منهم من الكثرة والقوة ، ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللهِ ﴾ أي : قال الذين يعتقدون نصر الله العزيز وتأييده ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ أي كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة ، ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي بحكمه وتيسيره ، فلا يذل من نصره وإن قل عدده ، ولا يعز من خذله وإن كثر أسبابه وعُدَدُه ، ﴿ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بالنصرة على العدو ، والصبر عند الملاقاة ، قال الراغب : في القصة إيماء ومثال للدنيا وأبنائها ، وأن من يتناول قدر ما يتبلغ به اكتفى واستغنى ، وسلم منها ونجا ، ومن تناول منها فوق ذلك ازداد عطشاً ، ولهذا قيل : الدنيا كالملح من ازداد منها عطش ، وفي الحديث : « لو أن لابن آدم واديين من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب »[1] يعني لا يزال حريصاً على الدنيا ، حتى يموت

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب ، أحبَّ أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب =

ويمتلىء جوفه من تراب قبره .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا ﴾ أي : ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين إلى فضاء من الأرض ﴿ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ وشاهدوا ما عليهم من العدد والعُدَد ، وأيقنوا أنهم غير مطيقين لهم ﴿ قَالُوا ﴾ أي : جميعاً متضرعين إلى الله تعالى مستعينين به ﴿ رَبَّنَا ﴾ اعتراف منهم بالعبودية وطلب لإصلاحهم ﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا ﴾ أي : صب علينا وهو استعارة عن الإكمال والإكثار ﴿ صَبْراً ﴾ على مقاساة شدائد الحرب ، واقتحام موارده الضيقة ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ في أماكن القتال ، ومنازل النزال ، وإلقاء الرعب في قلوب العدو ونحو ذلك من الأسباب ، ﴿ وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ بقهرهم وهزمهم ﴿ فَهَزَمُوهُمْ ﴾ أي كسروهم بلا مكث ﴿ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي : بنصره وتأييده ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ كان جالوت الجبار رأس العمالقة ، وكان من أشد الناس وأقواهم ، وكان يهزم الجيش وحده ، وكان داود يرعى الغنم ، فأوحى إلى نبي العسكر وهو « أشمويل » أن داود هو الذي يقتل جالوت ، فطلبه من الله فجاء به ، فقال النبي « أشمويل » لقد جعل الله تعالى قتل جالوت على يدك ، فاخرج معنا إلى محاربته فخرج معهم ، القصة .

﴿ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ ﴾ أي : ملك بني إسرائيل ، ولم يجتمعوا قبل داود على ملك ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي : النبوة ولم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوة قبله إلا له ، بل كان الملك في سبط ، والنبوة في سبط آخر ، وأنزل عليه الزبور ، ﴿ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ أي : مما يشاء الله تعليمه إياه ، من صنعة الدروع ، ومنطق الطير ، وتسبيح الجبل ، والصوت الطيب ، والألحان الطيبة ، فلم يعط الله أحداً مثل صوته ، ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ ﴾ أي : صرفه ﴿ النَّاسَ ﴾ مفعول الدفع ﴿ بَعْضَهُمْ ﴾ الذين يباشرون الشر والفساد ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ آخر منهم بردهم عما هم عليه ، بما قدر الله من القتل ﴿ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ بطلت منافعها وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل ، وسائر ما يعمر الأرض ويصلحها ، وقيل : لولا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفار والفجار لهلكت الأرض ومن فيها ، ولكن الله يدفع بالمؤمنين عن الكفار ، وبالصالح عن الفاجر ، ثم إن فيه تنبيهاً على فضيلة الملك وأنه لولاه لما انتظم أمر العالم ، ولهذا قيل : الدين والملك توأمان ، ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر ، لأن الدين أساس ، والملك حارس ، وما لا أس له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع ، ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ ﴾ عظيم لا يقادر قدره ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ كافة يدفع فساد بعضهم ببعض ، فلا تفسد الأرض ، وبتشريعه تنصلح أحوال الأمم ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى ما سلف ﴿ آيَاتُ اللهِ ﴾ المنزلة من عنده ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أي بواسطة

= ويتوب الله على من تاب » . ورواه أحمد والترمذي بنحوه ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٧ .

جبريل ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي : ملتبسة بالوجه المطابق ، الذي لا يشك فيه أهل الكتاب لما يجدونها موافقة لما في كتبهم ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي : من جملة الذين أُرسلوا إلى الأمم ، لتبليغ رسالتنا وأحكامنا ، وإلا لما أُخبرت بتلك الآيات .

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ ﴾ إشارة إلى الجماعة الذين من جملتهم النبي عليه الصلاة والسلام ، فاللام في الرسل للاستغراق ﴿ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ بأن خصصناه بمنقبة ليست لغيره ، واعلم أن الأنبياء كلهم متساوون في النبوة ، لأن النبوة شيء واحد لا تفاضل فيها ، وإنما التفاضل باعتبار الدرجات ، بلغ بعضهم منصب الخُلَّة كإبراهيم عليه السلام ، وجمع لداود بين الملك والنبوة ، وسخر لسليمان الجن والإنسُ والطير والريح ، ولم يحصل هذا لأبيه داود ، وخص الله محمداً عليه الصلاة والسلام بكونه مبعوثاً إلى الجن والإنس ، وبنسخه لجميع الشرائع المتقدمة ، ومنهم من دعا أمته إلى توحيد الأفعال والصفات والذات . كإبراهيم عليه السلام ، فإنه قطب التوحيد إذ الأنبياء كانوا يدعون إلى المبدأ والمعاد ، وإلى الذات الأحدية الموصوفة ببعض الصفات الإلهية ، إلا إبراهيم عليه السلام ، فإنه دعا إلى الذات الإلهية الأحدية ، ولذا أمر الله نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم باتباعه بقوله (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً) فالأنبياء وإن كانوا متفاوتين في درجات الدعوة ، إلا أن كلهم واصلون فانون في الله ، والنبي لا يكون إلا واصلاً ، محرزاً جميع مراتب التوحيد ، من الأفعال والصفات والذات ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ أي فضله الله بأن كلمه بغير واسطة وهو موسى عليه الصلاة والسلام فهو كليه ، ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ أي : على درجات وذلك بأن فضله على غيره من وجوه متعددة ، وبمراتب متباعدة ، والظاهر أنه أراد محمداً ﷺ ، لأنه هو المفضل عليهم ، حيث أُوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة ، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده ، لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء ، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر ، دون سائر المعجزات .

﴿ وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة ، من إحياء الموتى ، وشفاء المرضى وإبراء الأكمه والأبرص ، وخلق الطير ، والإخبار بالمغيبات ، وجعل معجزاته سبب تفضيله مع أن إيتاء البينات غير مختص بعيسى عليه الصلاة والسلام ، لأنها آيات واضحة ، ومعجزات عظيمة ، لم يستجمعها غيره ، وخصّ عيسى عليه السلام بالتعيين ، تقبيحاً لإفراط اليهود في تحقيره ، حيث أنكروا نبوته مع ما ظهر على يده من البيِّنات القاطعة ، ولإفراط النصارى في تعظيمه حيث أخرجوه عن مرتبة الرسالة ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾ أي قويناه ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي الروح المطهرة التي نفخها الله فيه ، فأبانه بها من غيره ـ ممن خلق من اجتماع نطفتي الذكر والأنثى ـ لأنه عليه السلام لم تضمه أصلاب الفحول ، ولم

يشتمل عليه أرحام الطوامث ، فالقُدُس بمعنى المقدس أو القدس هو الله ، وروحه جبريل ، والإضافة للتشريف ، والمعنى أعانه بجبريل في أول أمره ، وفي وسطه ، وفي آخره ، أما في الأول فلقوله (**فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا**) وأما في وسطه فلأن جبريل عليه السلام علّمه العلوم وحفظه من الأعداء ، وأما في آخر الأمر فحين أرادت اليهود قتله ، أعانه جبريل ورفعه إلى السماء ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾ أي من بعد الرسل من الأمم المختلفة ، والمعنى لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا ، بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل ﴿ **مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ** ﴾ من جهة أولئك الرسل ﴿ **الْبَيِّنَاتُ** ﴾ المعجزات الواضحة ، والآيات الظاهرة ، الموجبة لاتباعهم ، ﴿ **وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا** ﴾ أي : لكن لم يشأ عدم اقتتالهم ، لأنهم اختلفوا اختلافاً فاحشاً ﴿ **فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ** ﴾ أي بما جاءت به أولئك الرسل من البينات ﴿ **وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ** ﴾ بذلك كفراً لا ارعواء له عنه ، فاقتتلوا بموجب اقتضاء أحوالهم ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللهُ** ﴾ عدم اقتتالهم بعد هذه المرة أيضاً ﴿ **مَا اقْتَتَلُوا** ﴾ وما نبض منهم عرق التطاول والتقاتل ، لما أن الكل تحت ملكوته ﴿ **وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ** ﴾ أي : يفعل ما يريد من غير أن يوجبه عليه موجب ، أو يمنعه منه مانع ، وفيه دليل بين على أن الحوادث تابعة لمشيئته تعالى ، خيراً كان أو شراً ، إيماناً كان أو كفراً ، وهذا نذير على المعتزلة ، قال الإمام الغزالي في شرح اسميْ « الضار والنافع » هو الذي يصدر منه الخير والشر ، والنفع والضر ، وكل ذلك منسوب إلى الله تعالى ، إما بواسطة الملائكة والإنس والجمادات ، أو بغير واسطة ، فلا تظن أن السم يقتل ويضر بنفسه ، وأن الطعام يشبع وينفع بنفسه ، وأن الإنسان أو الشيطان أو شيئاً من المخلوقات من فلك الكواكب أو غيرها يقدر على خير أو شر بنفسه ، أو نفع أو ضر ، بل كل ذلك أسباب مسخرة ، لا يصدر منها إلا ما سخرت له وجملة ذلك بالإضافة إلىالقدرة الأزلية ، كالقلم بالإضافة إلى الكاتب ، فكما أن السلطان إذا وقّع عقوبة ، لم يكن ذلك الضرر من القلم ، بل من الذي القلم مسخر له ، فكذلك سائر الوسائط والأسباب ، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ أي : شيئاً مما رزقناكموه ، والمراد به الإنفاق الواجب ، أي : الزكاة والأكثر على أن الأمر يتناول الواجب والمندوب ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ** ﴾ يوم الحساب والجزاء ﴿ **لا بَيْعٌ فِيهِ** ﴾ يتدارك به المقصّر تقصيره ﴿ **وَلا خُلَّةٌ** ﴾ حتى يسامحكم أخلاؤكم بما تصنعون ، والخلة : المودة والصداقة ، والخليل : الصديق لمداخلته إياك ، والخلة تنقطع يوم القيامة بين الأخلاء إلا بين المتّقين لقوله تعالى (**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ**) ﴿ **وَلا شَفَاعَةٌ** ﴾ حتى تتكلوا على شفعاء تشفع لكم ، والشفاعة المنفية يوم القيامة هي التي يستقل فيها الشفيع ، ويأتي بها وإن لم يؤذن له فيها ، فإن الدلائل قائمة على ثبوت الشفاعة للمؤمنين ، بعد أن يؤذن لهم فيها ، وهي لمن مات

لا يشرك بالله شيئاً ﴿ وَالكَافِرُونَ ﴾ أي : والتاركون للزكاة ، وإيثاره عليه للتغليظ والتهديد ، كما قال في آخر آية الحج (وَمَنْ كَفَرَ) مكان ومن لم يحج ، وللإيذان بأن ترك الزكاة من صفات الكفار قال تعالى (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاة) ﴿ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعقاب ، ووضعوا المال في غير موضعه ، وصرفوه إلى غير وجهه .

﴿ اللهُ ﴾ هذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين ، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الإلهية كلها ، حتى لا يشذ منها شيء ، وسائر الأسماء لا تدل آحادها إلا على آحاد المعاني ، من علم أو قدرة أو فعل وغيره ، ولأنه أخص الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره ، لا حقيقة ولا مجازاً ، وسائر الأسماء قد يسمى بها غيره ، كالقادر والعليم والرحيم وغيرها ، وينبغي أن يكون حظ العبد من هذا الإسم التأله ، وأعني به أن يكون مستغرق القلب والهمّة في الله تعالى ، لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه ، ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه ، وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الإسم أنه الموجود الحقيقي الحق ، وكل ما سواه فانٍ وهالك وباطل ، فيرى نفسه أول هالك وباطل ، كما رآه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حيث قال : « أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ ، كلمةُ لبيدٍ (أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ)[1] » .

﴿ لآ إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ الجملة خبر المبتدأ وهو الجلالة ، والمعنى أنه المستحق للعبادة لا غيره ، وللتوحيد ثلاث مراتب : توحيد المبتدئين (لا إله إلا الله) وتوحيد المتوسطين (لا إله إلا أنت) لأنهم في مقام الشهود فمقتضاه الخطاب ، وأما الكُمَّلُ فيسمعون التوحيد من الواحد الأحد وهو (لا إله إلا أنا) لأنهم في مقام الفناء الكلي ، وهم الأنبياءُ ، فلا يصدر منهم شيء أصلاً ، ولفظ « هو » إشارة إلى مقام المقربين ، وهم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي ، فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى الله ، لأن الحق هو الذي لذاته يجب وجوده ، وأما ما عداه فممكن . قال شيخي : الذكر بـ « لا إله إلا الله » أفضل من الذكر بكلمة « الله الله » و « هو هو » عند العلماء بالله ، لأنها جامعة بين النفي والإثبات ، وحاوية لزيادة العلم والمعرفة ، وأفادني أيضاً إذا قلت (لا إله إلا الله) فشاهد بالشهود الحقاني فناء أفعال الخلق وصفاتهم وذواتهم ، أمام أفعال الحق وصفاته وذاته ، وإذا قلت : (محمد رسول الله) فشاهد بالشهود الحقاني أيضاً بقاء هذا الفيض الرباني على سيّد الأنبياء والمرسلين ، فإذا كان توحيد العبد على هذه الماهيَّة ، فلا جرم أن توحيده يكون توحيداً حقيقيّاً حقانياً ، لا رسمياً نفسانياً .

﴿ الحَيُّ ﴾ خبر ثان . وهو في اللغة من له الحياة ، وهي صفة تخالف الموت والجمادية ، وتقتضي

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٩٠ .

الحس والحركة الإرادية ، وأشرف ما يوصف به الإنسان الحياة الأبدية في دار الكرامة ، وإذا وصف الباري عز شأنه بها وقيل : إنه « حيٌّ » كان معناه الدائم الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء ، فهو الموصوف بالحياة الأزلية الأبدية ، ﴿ **القَيُّومُ** ﴾ مبالغة القائم ، فإنه تعالى دائم القيام على كل شيء ، بتدبير أمره في إنشائه وتربيته ، وتبليغه إلى كماله اللائق به ، وحفظه ، قيل : ﴿ **الحَيُّ القَيُّومُ** ﴾ اسم الله الأعظم ، وكان عيسى عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى يدعو بهذا الدعاء : يا حي يا قيوم ، ويقال : دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق « يا حي يا قيوم » وعن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه ، أنه قال : لما كان يوم بدر جئت أنظر ما يصنع النبي ﷺ ، فإذا هو ساجد يقول : « يا حيُّ يا قيوم » فتردَّدت مرات عليه وهو على حاله ، لا يزيد على ذلك ، إلى أن فتح الله له ، وهذا يدل على عظمة هذا الاسم ، ﴿ **لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ** ﴾ السِّنة : ثقلة من النعاس ، وفتور يعتري المزاج قبل النوم ، والنعاس أول النوم ، وتقديم السِّنة عليه ، مع أن قياس المبالغة العكس ، هو ترتيب الوجود الخارجي ، فإن الموجود منهما أولاً هو السِّنة ، ثم يعتري بعدها النوم ، والمعنى لا يعتريه ما يعتري المخلوقين ، من السهو والغفلة والملال ، والفترة في حفظ ما هو قائم بحفظه ، ولا يعرض له عوارض التعب ، المحوجة إلى الاستراحة فيستريح بالنوم ، لأن النوم أخو الموت ، والموت ضد الحياة ، وهو الحي الحقيقي فلا يلحقه ضد الحياة ، فكما أنه موصوف بصفات الكمال ، فهو منزه عن جميع صفات النقصان (روي) أن موسى عليه السلام سأل الملائكة : أينام ربنا ؟ فأوحى الله تعالى إليهم أن يوقظوه ثلاثاً ولا يتركوه ينام ، ثم قال : خذ بيدك قارورتين مملوءتين فأخذهما ، فأخذه النوم فزالتا وانكسرتا ، ثم أوحى الله إليه إني أمسك السموات والأرض بقدرتي ، فلو أخذني نوم أو نعاس لزالتا[1] » وفي الحديث : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام »[1] قال ابن الملك هذا بيان لاستحالة وقوع النوم منه لأنه عجزٌ والله تعالى يتعالى عنه ، قال أبو يزيد البسطامي : لم يفتح لي شيء إلا بعد أن جعلت الليالي أياماً .

وقيل اشترى رجل مملوكة ، فلما دخل الليل قال افرشي الفراش ، فقالت المملوكة يا مولاي : ألك مولى ؟ قال : نعم ، قالت : ينام مولاك ؟ قال : لا ، فقالت : ألا تستحي أن تنام ومولاك لم ينم ؟ .

﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ تقرير لقيوميته تعالى واحتجاج به على تفرده في الألوهية ، لأنه تعالى خلقها بما فيها ، فكل من فيها وما فيها ملكه ، ليس لأحد معه فيه شركة ، ولا لأحد عليه سلطان ، فلا يجوز أن يعبد غيره ، ﴿ **مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ** ﴾ ﴿ **مَنْ** ﴾

(١) هذه القصة رواها الحافظ ابن كثير عن ابن عباس بلفظ : « إن بني إسرائيل سألوا موسى : هل ينام ربك ؟ قال : اتقوا الله ، فناداه ربه : ياموسى : سألوك هل ينام ربك ؟ .. » إلى آخر القصة .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه وفيه : « حجابُه النُّور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهى إليه بصرُه من خلقِهِ ».

مبتدأ وذا خبره ، ولفظ « من » وإن كان استفهاماً فمعناه النفي ، ولذلك دخلت إلا في قوله ﴿ **إِلا بِإِذْنِهِ** ﴾ أي : لا أحد يشفع مستقراً عنده إلا باذنه ، وإذا لم يشفع من هو عنده وقريب منه ، فشفاعة غيره أبعد ، وكان المشركون يقولون أصنامُنا شركاء الله تعالى ، وهم شفعاؤنا عنده ، فوحَّد الله نفسه ونفى الشرك أي : ليس لأحد أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه ، وقد أخبر أنه لا يأذن في الشفاعة للكفار ، وهو رد على المعتزلة في أنهم لا يرون الشفاعة أصلاً ، والله تعالى أثبتها للبعض بقوله ﴿ **إِلا بِإِذْنِهِ** ﴾ فهي للنبي عليه الصلاة والسلام ، لأن الله قد وعده المقام المحمود وهو مقام (الشفاعةِ العظمى) .

روي أن الأنبياء عليهم السلام يُقْصَدون يوم القيامة للشفاعة ، فكل نبيٍّ يقول : نفسي ، نفسي ، إذهبوا إلى غيري ، حتى يأتي الناس نبينا محمداً ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لَهَا » وهو المقام المحمود الذي وعده الله يوم القيامة ، فيأتي ويسجد ويحمد الله بمحامد يلهمه الله تعالى إياها في ذلك الوقت ، لم يكن يعلمها قبل ذلك ، ثم يشفع إلى ربه أن يفتح باب الشفاعة للخلق ، فيفتح الله ذلك الباب ، فيأذن في الشفاعة للملائكة والرسل والأنبياء والمؤمنين ، فدل على عظيم قدره عليه الصلاة والسلام ، حيث أقدم على مناجاة الحق فيما سأله فيه فأجابه الحق سبحانه [١] ، ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ أي يعلم ما كان قبلهم من أمور الدنيا وما يكون بعدهم من أمر الآخرة ، أو « ما بين أيديهم » يعني : ما فعلوه من خير وشر وقدموه ، « وما خلفهم » أي : ما يفعلونه بعد ذلك ، والمقصود بهذا الكلام بيان أنه عالم بأحوال الشافع والمشفوع له ، فيما يتعلق باستحقاق الثواب والعقاب ، ﴿ **وَلا يُحِيطُونَ** ﴾ أي : لا يدركون يعني الملائكة ، والأنبياء وغيرهم ﴿ **بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ** ﴾ أي من معلوماته ﴿ **إِلا بِمَا شَاءَ** ﴾ أن يعلموه وأن يطلعهم عليه ، كأخبار الرسل ، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول .

﴿ **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ الكرسي ما يجلس عليه من الشيء المركب من خشبات موضوعة بعضها فوق بعض ، أي لم يضق كرسيه عن السموات والأرض ، لبسطته وسعته ، والمعتمد كما قال الإمام أن الكرسي جسم بين يدي العرش ، محيط بالسموات السبع ، لأن الأرض كرة ، والسماء الدنيا محيطة بها من جميع الجوانب ، والثانية محيطة بالدنيا ، وهكذا إلى أن يكون العرش محيطاً بالكل قال ﷺ : « ما السموات السبع والأرضون السبع من الكرسي إلا كحلقة في فلاة ، وفضل العرش على الكرسي ، كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة [٢] » .

﴿ **وَلا يَؤُوْدُهُ** ﴾ يقال : آده الشيء يؤودُه إذا أثقله ولحقه منه مشقة ، مأخوذ من الأَودَ بفتح الواو

(١) حديث الشفاعة ورد في الصحيحين والسنن ، وهي الشفاعة العظمى لسيد الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم .

(٢) هذا الحديث ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ١ / ٢٣١ وكذلك ابن جرير والسيوطي في الدر المنثور .

وهو العوج ، أي : لا يثقله عليه تعالى ﴿ حِفْظُهُمَا ﴾ أي : حفظ السموات والأرض ، إذ القريب والبعيد عنده سواء ، وكيف يتعب في خلق الذرة وكل الكون عنده سواء ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ ﴾ أي المتعالي بذاته عن الأشياء والأنداد ﴿ الْعَظِيمُ ﴾ الذي يستحقر بالنسبة إليه كل ما سواه ، وهذه الآية الكريمة ، منطوية على أمهات المسائل الإلهية ، المتعلقة بالذات العلية ، فإنها ناطقة بأنه تعالى موجود منفرد بالإلهية ، متصف بالحياة ، واجب الوجود لذاته موجد لغيره ، لما أن القيوم هو القائم بذاته المقيم لغيره ، منزه عن التحيز والحلول ، مبرأ من التغير والفتور ، لا مناسبة بينه وبين الأشباح ، ولا يعتريه ما يعترى النفوس والأرواح ، مالك الملك والملكوت ، ومبدع الأصول والفروع ، ذو البطش الشديد ، لا ينفع عنده إلا من أذن له فهو العالم وحده بجميع الأشياء ، جليها وخفيها ، كلِّيها وجزئيها ، واسع الملك والقدرة لكل ما من شأنه أن يملك ويقدر عليه ، ولا يشق عليه شاق ولا يشغله شأن عن شأن ، متعال عما تناله الأوهام ، عظيم لا تحدق به الأفهام ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي[1] » .

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ نزلت هذه الآية في أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فإنهم هم الذين تُقبل منهم الجزية ، ولا يكرهون على الإسلام ، ليس كمشركي العرب فإنه لا يقبل منهم إلا السيف أو الإسلام ، ولا تقبل منهم الجزية ، لقوله تعالى (تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) والمعنى لا إجبار في الدين ، لأن من حق العاقل أن لا يحتاج إلى التكليف والإلزام ، بل يختار الدين الحق ، من غير تردد وتلعثم ، لوضوح الحجة ﴿ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ ﴾ المراد به ههنا : الإيمان الموصل إلى السعادة الأبدية ، لتقدم ذكر الدين ﴿ مِنَ الْغَيِّ ﴾ أي : من الكفر المؤدي إلى الشقاوة السرمدية ، ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ﴾ هو كل ما عُبِد من دون الله ، مما هو طاغٍ ومتمرد ، كالإنس والجن والشياطين وغيرهم ، والكفرُ به عبارة عن الكفر باستحقاقه العبادة ﴿ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل ، لأن الكفر بالأنبياء والكتب ، يمنع حقيقة الإيمان بالله ، وتقديمُ الكفر بالطاغوت على الإيمان به تعالى ، لتوقفه عليه فإن التخلية متقدمة على التحلية ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أي : بالغ في التمسك بالحلقة الوكيدة ، وعروة الجسم الثقيل ، الموضع الذي يتعلق به من يأخذ بذلك الجسم ويحمله ، والوثقى تأنيث الأوثق ، كفُضْلى تأنيث الأفضل ، ﴿ لا انْفِصَامَ لَهَا ﴾ أي : لا انقطاع وهو استئناف لبيان قوة دلائل الحق ، بحيث لا يعتريها شيء من الشبه والشكوك ، فإن العروة الوثقى استعارة المحسوس للمعقول ، لأن من أراد إمساك هذا الدين ، تعلق بالدلائل الدالة عليه ، ولما كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وأوضحها ،

---

(١) الحديث أخرجه ابن مردويه بلفظ : « أعظم آية في القرآن : ﴿ اللهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وانظر مختصر ابن كثير ١ / ٢٢٩.

وصفها الله بأنها العروة الوثقى ، ﴿ وَاللهُ سَمِيعٌ ﴾ بالأقوال ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالعزائم والعقائد ، يعلم غيها ورشدها ، وباطلها وحقها .

﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : متولي أمورهم لا يكلهم إلى غيره ، فالولي قد يكون باعتبار المحبة والنصرة ، وقد يكون باعتبار التدبير والأمر ، فيقال لأصحاب الولاية ولي ، والمعنى أن الله ولي الذين أراد إيمانهم ، وثبت في علمه أنهم يؤمنون ، ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ التي هي ظلمات الكفر والمعاصي ، وظلمات الشبه والشكوك ، ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ نور الإيمان ونور الإيقان ، أي : يخرج بهدايته وتوفيقه كل واحد منهم ، من الظلمة التي وقع فيها إلى ما يقابلها من النور ، وجمع الظلمات لأن فنون الضلالة متعددة ، والكفرُ مِلَلٌ ، وأفرد النور لأن الإسلام دين واحد ، ويسمى الكفر ظلمة لالتباس طريقه ، ويسمى الإسلام نوراً لوضوح طريقه ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : الذين ثبت في علمه كفرهم ﴿ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ أي : الشياطين ، وسائر المضلين عن طريق الحق من الكهنة وقادة الشر ﴿ يُخْرِجُونَهُمْ ﴾ بالوساوس وغيرها ﴿ مِنَ النُّورِ ﴾ أي : الإيمان الفطري الذي جبلوا عليه كافة ﴿ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ أي : ظلمات الكفر ، والانهماك في الشهوات ، أو من نور اليقينات إلى ظلمات الشكوك والشبهات ، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى الموصول ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أي : ملابسوها وملازموها بسبب ما لهم من الجرائم ، ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ماكثون أبداً واعلم أن مراتب المؤمنين في الإيمان متفاوتة ، وهم ثلاثة طوائف : عوام المؤمنين ، وخواصهم ، وخواص الخواص ، فالعوام يخرجهم الله من ظلمات الكفر والضلالة ، إلى نور الإيمان والهداية ، كقوله تعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى) ، والخواص : يخرجهم من ظلمات الصفات النفسانية والجسمانية ، إلى نور الروحانية الربانية كقوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ) واطمئنان القلب بالذكر لم يكن إلا بعد تصفيته عن الصفات النفسانية ، وتحليته بالصفات الروحانية ، وخواص الخواص : يخرجهم من ظلمات حدوث الخلقة الروحانية بإفنائهم عن وجودهم كقوله تعالى (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) الآية نسبهم إلى الفتوة ، لَمَّا خاطروا بأرواحهم في طلب الحق ، وآمنوا بالله وكفروا بالطاغوت ، فلما تنورت أنفسهم بأنوار ذكر الله ، وأنست به استوحشت عن محبة أهل الدنيا وما فيها فأحبوا الخلاء كما كان حال النبي عليه الصلاة والسلام في بدء الأمر ، قالت عائشة رضي الله عنها : أول ما بدىء به عليه الصلاة والسلام من الوحي ، الرؤيا الصادقة ، ثم حُبِّب إليه الخلاء[1] .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي ألم ينته علمك ، الذي يضاهي العيان في الإيقان ﴿ إِلَى الَّذِي ﴾ أي إلى قصة

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الوحي « باب بدء نزول الوحي »وهو حديث طويل .

الملك الذي ﴿ حَاجَّ ﴾ أي : جادل وخاصم ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ في معارضة ربوبيته ﴿ فِي رَبِّهِ ﴾ والذي حاجَّ هو « نمرودُ بن كَنْعان » الذي تجبر وادعى الربوبية ﴿ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ ﴾ أي : لأن آتاه ، فإن إيتاء الملك حمله على ذلك ، وأورثه الكبر والبطر ، والمعنى : أعطاه كثرة المال ، واتساع الحال ، و ملك جميع الدنيا على الكمال ، قال مجاهد : لم يملك الدنيا بأسرها إلا أربعة : مسلمان وكافران ، فالمسلمان سليمان ، وذو القرنين ، والكافران : نمرود ،وبختنصَّر ، ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ ظرف لحاجَّ ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي : يخلق الحياة والممات في الأجساد ، وجواب إبراهيم في غاية الصحة ، لأنه لا سبيل إلى معرفة الله ، إلا بمعرفة صفاته وأفعاله ، التي لا يشاركه فيها أحد من القادرين ، والإحياءُ والإماتة من هذا القبيل ، ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ روي أنه دعا برجلين قد حبسهما فقتل أحدهما وأطلق الآخر ، فقال : قد أحييت هذا ، وأمتُّ هَذا ، فجعل ترك القتل إحياءً تلبيساً منه ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ ﴾ جواب شرط مقدر تقديره : قال إبراهيم إذا ادعيت الإحياء والإماتة ، وأتيت بمعارضة موهمة ، ولم تعلم معنى الإحياء ، فالحجة أن الله ﴿ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ﴾ تحريكاً قسرياً حسبما تقتضيه مشيئته ﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ تسييراً طبيعياً فإنه أهون إن كنت قادراً على مثل مقدوراته تعالى ، ولم يلتفت عليه السلام إلى إبطاله مقالة اللعين ، إيذاناً بأن بطلانها من الجلاء والظهور بحيث لا يكاد يخفى على أحد ، وأتى بمثال لا يجد اللعين فيه مجالاً للتمويه والتلبيس ، فهو عدول عن مثال إلى مثال آخر ، لإيضاح كلامه ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ أي : صار مبهوتاً مدهوشاً ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب ، أي : لا يخلق فيهم فعل الهداية ، ولا يهديهم طريق الجنة في الآخرة ، (روي) أن النمرود لما عتا عتواً كبيراً وألقى إبراهيم في النار ، بعد هذه المحاجة ، سلَّط الله على قومه البعوض ، فأكلت لحومهم وشربت دماءهم ، فلم يبق إلا العظام ، والنمرود كما هو لم يصبه شيء ، فبعث الله بعوضة فدخلت في منخره فكان رأسه تضرب بالمطارق ، وهو الذي بنى صرحاً إلى السماء ببابل ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾ عطف على قوله ألم تر وتقديره : أو رأيت مثل الذي فعل كذا أي : ما رأيت مثله ، فتعجب منه ، والمارُّ هو : « عزير بن شرخيا » والقرية : « بيت المقدس » على الأشهر (روي) أن بني إسرائيل لما بالغوا في تعاطي الشر ، والفساد ، سلط الله عليهم بخت نصَّر البابلي ، فسار إليهم في ستمائة ألف حتى وطىء الشام ، وخرب بيت المقدس ، وسبا منهم مائة ألف غلام يافع ، وكان عزير من جملتهم ، فلما نجاه الله منهم بعد حين ، مر بحماره على بيت المقدس فرآه على أفظع مرأى وأوحش منظر ، وذلك قوله تعالى ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ أي : ساقطة على سقوفها ، بأن

سقطت العروش ثم الحيطان سقطت عليها ، من خوت المرأة أي خلا جوفها عند الولادة ، وخوت الدار خواء بالمد وخوى البيت خوى بالقصر أي سقط ، والعرش سقف البيت ، ويستعمل في كل ما هُيِّء ليستظل به ﴿ **قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ أي : يعمر الله هذه القرية بعد خرابها على هذا الوجه ، لم يقله على سبيل الشك في القدرة ، بل على سبيل الاستبعاد بحسب العادة ﴿ **فَأَمَاتَهُ اللهُ** ﴾ أي : جعله ميتاً ﴿ **مِائَةَ عَامٍ** ﴾ (روي) أنه لما دخل القرية نزل تحت ظل شجرة وهو على حماره ، فربط حماره وطاف في القرية ولم ير بها أحداً فقال ما قال ونام ، فأماته الله في منامه وهو شاب ، وكان معه شيء من التين والعنب والعصير ، وكانت هذه الإماتة عبرة ، وأمات حماره أيضاً ثم أعمى الله عن جسده أبصار الإنس والسباع والطير ، فلما تمت المائة من موت العزير ، أحياه الله تعالى وذلك قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ بَعَثَهُ** ﴾ من بعثت الناقة إذا أقمتها من مكانها ،ويوم القيامة يسمى يوم البعث لأنهم يبعثون من قبورهم وإنما قال « ثم بعثه » ولم يقل ثم أحياه لأن قوله ثم بعثه تدل على أنه عاد كما كان أولاً حياً عاقلاً فاهماً مستعداً للنظر والاستدلال في المعارف الإلهية ، ولو قال ثم أحياه لم تحصل هذه الفوائد ﴿ **قَالَ كَمْ** ﴾ يوماً أو وقتاً ﴿ **لَبِثْتَ** ﴾ يا عزير ؟ ليظهر له عجزه عن الإحاطة ، وتنحسم به مادة استبعاده بالمرَّة ، ويطلع على أمر آخر من بدائع آثار قدرته تعالى ، وهو إبقاء الغذاء المتسارع إلى الفساد دهراً طويلاً من غير تغيير ﴿ **قَالَ لَبِثْتُ يَوْمَاً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ قال بناء على التقريب والتخمين أو استقصاراً لمدة لبثه ﴿ **قَالَ** ﴾ ما لبثت ذلك المقدار ﴿ **بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ** ﴾ يعني : كنت ميتاً هذه المدة ﴿ **فَانْظُرْ** ﴾ لتعاين أمراً آخر من دلائل قدرتنا ﴿ **إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ** ﴾ أي : لم يتغير في هذه المدة المتطاولة ، مع تداعيه إلى الفساد ، روي أنه وجد تينه وعنبه كما جُنِيَ ، وعصيره كما عصر ، واستعمال لم يتسنه في معنى لم يتغير ، من قبيل استعمال اللفظ في لازم معناه ، لأن المعنى الأصلي لقولنا تسنه أو تسنَّى مرت عليه السنون والأعوام ، ﴿ **وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ** ﴾ كيف نخرت عظامه ، وتقطعت أوصاله وتمزقت ، ليتبين لك ما ذكر من لبثك المديد ، وتطمئن به نفسك ﴿ **وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ** ﴾ أي : فعلنا ذلك وهو إحياؤك وإحياء حمارك ، وحفظ ما معك من الطعام والشراب ، لنجعلك آية للناس بأن يشاهدوك ويأخذوا منك العبر والعظات ، ﴿ **وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ** ﴾ أي : وانظر إلى عظام الحمار ، لتشاهد كيفية الإحياء في غيرك ، بعدما شاهدته في نفسك ﴿ **كَيْفَ نُنْشِزُهَا** ﴾ أي : نرفع بعضها من الأرض إلى بعض ، ونردها إلى أماكنها من الجسد ، ﴿ **ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمَاً** ﴾ أي : نسترها به كما يستر الجسد باللباس ، وإنما وحَّد اللحم مع جمع العظام لأن العظام متفرقة متعددة صورة ، واللحم متصل متحد مشاهدة . قيل : إنه سمع صوتاً من السماء ، أيتها العظام البالية المتفرقة ، إن الله يأمرك أن ينضم بعضك إلى بعض ، وتكتسي لحماً وجلداً ، فالتصق كل عظم بآخر ، وارتبط بعضها ببعض

بالأعصاب والعروق ، ثم انبسط اللحم عليه ، ثم خرجت الشعور من الجلد ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ أي : ظهر له إحياء الميت عياناً ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التي من جملتها ما شاهده في نفسه ، وفي غيره من تعاجيب الآثار ﴿ قَدِيرٌ ﴾ لا يستعصي عليه أمر من الأمور .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي : واذكر وقت قول إبراهيم ﴿ رَبِّ ﴾ كلمة استعطاف قُدِّمتْ بين الدعاء ، مبالغة في استدعاء الإجابة ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أي : بصِّرْني كيفية إحيائك للموتى ، بأن تحييها وأنا أنظر إليها ، وإنما سأل ذلك ليصير علمه عياناً وقد شرفه الله بعين اليقين ، الذي هو أعلى المقامات ، ﴿ قَالَ ﴾ ربه ﴿ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ﴾ أي : ألم تعلم يقيناً بأني قادر على الإحياء ؟ ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ بَلَىٰ ﴾ علمت وآمنت بذلك ﴿ وَلَكِنْ ﴾ سألت ما سألت ﴿ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ أي : ليسكن ويحصل طمأنينة بالمعاينة ، فإنَّ عين اليقين يوجب الطمأنينة لا علمه ، ﴿ قَالَ ﴾ ربه إن أردت ذلك ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ ﴾ طاووساً وديكاً وغراباً وحمامة ، وإنما خص الطير ، لأنه أقرب إلى الإنسان ، وأجمع لخواص الحيوان ﴿ فَصُرْهُنَّ ﴾ اضممهن واجمعهن ﴿ إِلَيْكَ ﴾ لتتأملها وتعرف أشكالها مفصلة ، حتى تعلم بعد الإحياء أن جزأ من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأول أصلاً ، روي أنه أمر بأن يذبحها وينتف ريشها ويقطعها ، ويفرق أجزاءها ولحومها ، ويمسك رؤسها ، ثم أُمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال ، وذلك قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ ﴾ من الجبال التي بحضرتك وكانت أربعة ، فجزأها أربعة أجزاء ، فقال تعالى ضع على كل جبل ﴿ مِنْهُنَّ ﴾ أي : من كل الطيور ﴿ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ ﴾ قل لهن : تعالين بإذن الله تعالى ﴿ يَأْتِينَكَ سَعْياً ﴾ أي : ساعيات مسرعات طيراناً ففعل كل ما أُمر ، فجعل كل جزء يطير إلى آخر ، حتى صارت جثثاً ثم أقبلن ، فانضمت كل جثة إلى رأسها ، فعادت كل واحدة إلى ما كانت عليه من الهيئة ، وجعل إبراهيم ينظر ويتعجب ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره ، لا يعجزه شيء عما يريده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ذو حكمة بالغة في أفاعيله وأعماله .

﴿ مَثَلُ ﴾ نفقات ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي في وجوه الخيرات ، من الواجب كالزكاة ، والنفل ، وقدر في الكلام حذف لأن الذين ينفقون لا يشبهون الحبة ، لأنه لا يُشَبَّه الحيوان بالجماد ، بل نفقاتهم تُشبَّه بالحبة ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ الفلاح زرعها في أرض عامرة والحبة واحدة الحب وهو ما يزرع للاقتيات وأكثر اطلاقه على البر ﴿ أَنْبَتَتْ ﴾ أي أخرجت ﴿ سَبْعَ سَنَابِلَ ﴾ أي : سامقة تشعب منها سبع شعب ، لكل واحدة منها سنبلة ﴿ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ﴾ كما يشاهد ذلك في الذرة والدخن ، في الأراضي المغلة ، بل أكثر من ذلك ﴿ وَاللهُ يُضَاعِفُ ﴾ تلك المضاعفة إلى ما

شاء الله تعالى ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يضاعف له بفضله ، وعلى حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ﴿ وَاللهُ وَاسِعٌ ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنية المنفق ، ومقدار إنفاقه ، وكيفية تحصيل ما أنفقه ، فمثل المتصدق كمثل الزارع ، إذا كان حاذقاً في عمله ، وكان البذر جيداً ، وكانت الأرض عامرة ، يكون الزرع أكثر ، فكذلك المتصدق إذا كان صالحاً ، والمال طيباً ، ووضع في موضعه ، يكون الثواب أكثر ، كما روي في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يقبلها بيمينه ، ثم يربّيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل »[1] .

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : يضعونها في مواضعها ﴿ ثُمَّ لا يُتبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ العائد محذوف أي : ما أنفقوه ﴿ مَنّاً ﴾ وهو أن يَمُنَّ على من أحسن إليه بإحسانه ، ويريه أنه أوجب بذلك عليه حقاً ، أي : لا يمنون عليهم بما تصدقوا بأن يقول المتصدق المانُّ : اصطنعتك كذا خيراً ، وأحسنت إليك كثيراً ﴿ وَلا أَذىً ﴾ وهو أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه ، أي : لا يؤذيه بأن يقول المتصدق : إني قد أعطيتك فما شكرت ، أو أنت أبداً تجيئني بالإبرام ، فرَّق الله وباعد ما بيني وبينك ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ثوابهم في الآخرة ﴿ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ مما يستقبلهم من العذاب ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما خلفوا من أمور الدنيا ، نزلت هذه الآية والتي قبلها في عثمان وعبد الرحمن رضي الله عنهما ، أما عثمان فجهز جيش العسرة في غزوةِ تبوك ، بألف بعير بأقتابها وألف دينار ، فرفع رسول الله ﷺ يده يقول : « يارب رضيت عنه فارض عنه »[2] وأما عبد الرحمن بن عوف فتصدق بنصف ماله أربعة آلاف دينار ، فقال : عندي ثمانية آلاف فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف ، وأربعة آلاف أقرضتها ربي ، فقال عليه الصلاة والسلام : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » فهذه حال عثمان وعبد الرحمن رضي الله عنهما حيث تصدقا ولم يخطر ببالهما شيء من المن والأذى ، واعلم أن الله تعالى نهى عباده أن يمنُّوا على أحد بالمعروف ، مع أنه تعالى قد منَّ على عباده كما قال (بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ) وذلك لأن الله تعالى تام الملك والقدرة ، وملكه وقدرته ليس بغيره ، والعبد ناقص ، والناقص لا يجوز له أن يمنَّ على أحد ، والمنُّ ينقص قدر النعمة ويكدرها ، لأن الفقير الآخذ منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة غيره ، معترف باليد العليا للمعطي ، فإذا أضاف المعطي إلى ذلك إظهار ذلك الإنعام ، زاد ذلك في انكسار قلبه ، فيكون في حكم المضرّ به بعد أن نفعه ، وفي حكم

---

(١) الحديث رواه الشيخان ومالك في الموطأ والترمذي والنسائي وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٧٨ .

(٢) هذه الرواية أوردها المؤلف بالمعنى ، ورواية الترمذي أن النبي ﷺ قال : « ما ضرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم » .

المسيء إليه بعد أن أحسن إليه ، كما قال الشاعر :

أفسَدْتَ بالمَنِّ ما أسْدَيْتَ مِنْ حَسَنٍ * لَيْسَ الكَرِيمُ إذَا أسْدَى بِمَنَّانِ

﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ رد جميل ، وهو أن يرد السائل بطريق جميل حسن ، تقبله القلوب والطباع ولا تنكره ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ أي : ستر لما وقع من السائل من الإلحاف في المسألة مما يثقل على المسئول ﴿ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ﴾ لأن من جمع بين نفع الفقير وإضراره حُرِمَ الثواب ، ﴿ وَاللهُ غَنِيٌّ ﴾ عما عندكم من الصدقة ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل أصحاب المن والأذى بالعقوبة ، وإنما كان الرد الجميل ، خيراً من صدقة المانّ والمؤذي ، لأن القول الحسن - وإن كان بالرد - يفرح قلب السائل ، ويروِّح روحه ، ونفع الصدقة لجسده ، وسرايةُ السرور لقلبه ، ولا ريب أن ما يروِّح الروح ، خير مما ينفع الجسد ، لأن الروحانية أوقع في النفوس وأشرف ، ثم إن الصدقة لا تنحصر في المال بل تجري في كل معروف ، فالكلمة الطيبة ، والشفاعة الحسنة ، والإعانة في حاجة ، وعيادة مريض ، وتشييع جنازة ، وتطييب قلب مسلم ، كل ذلك صدقة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ فإن من فعل ذلك لا أجر له في صدقته ، وعليه وزر مَنِّه على الفقير ، والمراد بإبطال الصدقة : إحباط أجرها وثوابها ، لأن الأجر يضيع بما يأتيه من المنّ والأذى ﴿ كَالَّذِي ﴾ المراد المنافق ، أي : لا تبطلوها إبطالاً كإبطال المنافق الذي ﴿ يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ أي : لأجل رئائهم ، يعني ليقال : إنه كريم ﴿ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ﴾ لا يريد بإنفاقه رضى الله ولا ثواب الآخرة ، والمرائي في الإنفاق من يراعي رؤية الناس ليحمدوه ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ أي : حالته العجيبة ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ أي : حجر صافٍ أملس ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ﴾ أي : مطر شديد الوقع ، كبير القطر ﴿ فَتَرَكَهُ صَلْداً ﴾ أملس ليس عليه شيء من الغبار ﴿ لا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أي : لا ينتفعون بما فعلوا رئاء ولا يجدون له ثواباً قطعاً كقوله تعالى (فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) . لمَّا ذكر تعالى بطلان أمر الصدقة بالمنّ والأذى ، ذكر لكيفية إبطال أجرها ، مثلين : فمثَّله أولاً بمن ينفق ماله رئاء الناس ، وهو مع ذلك كافر بالله واليوم الآخر ، فإن بطلان أجر ما أنفقه هذا الكافر أظهر من بطلان أجر من يتبعها بالمن والأذى ، ثم مثَّله ثانيا بالصفوان الذي وقع عليه تراب وغبار ، ثم أصابه المطر ، فأزال ذلك الغبار عنه ، حتى صار كأنه ما كان عليه تراب وغبار أصلاً ، فالكافر كالصفوان ، والتراب مثل ذلك الإنفاق ، والوابل كالكفر الذي يحبط عمل الكافر ، وكالمن والأذى اللذين يحبطان عمل هذا المنفق ، فكما أن الوابل أزال التراب الذي وقع على الصفوان ، فكذا المن والأذى يجب أن يكونا مبطلين لأجر الإنفاق بعد حصوله ، وذلك

صريح في القول بالإحباط وذهاب الأجر ، كما ذهب إليه المعتزلة القائلون بأن الأعمال الصالحة توجب الثواب وأن الكبائر تحبط ذلك الثواب وأما أصحابنا القائلون بأن الثواب تفضُّلٌ محض فإنهم قالوا ليس المراد بقوله لا تبطلوا النهي عن إزالة هذا الثواب بعد ثبوته بل المراد النهي عن أن يأتي بهذا العمل باطلاً ، وبيانه أن المن والأذى يخرجانه من أن يترتب عليه الأجر الموعود لأن العمل إنما يؤدي إلى الأجر الموعود إذا أتى به العامل تعبداً وطاعة وابتغاء لما عند الله تعالى من الأجر والرضوان وعملاً بقوله تعالى (**وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً**) وبقوله تعالى (**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ**) فمن كان حامله على العمل ابتغاء ما عند الله مما وعده للمخلصين فقد جرى على سنن المبادلة التي وقعت ﴿ **وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ** ﴾ إلى الخير والرشاد ، وفيه تعريض بأن المن والأذى من خصائص الكفار ، ولابد للمؤمنين أن يجتنبوها (حكي) عن بعض العلماء أنه قال : مثلُ من يعمل الطاعة للرئاء والسمعة ، كمثل رجل خرج إلى السوق وملأ كيسه حصى ، فيقول الناس : ما أملأ كيس هذا الرجل ؟ ولا منفعة له سوى مقالة الناس ، فلو أراد أن يشتري به شيئاً لا يعطى به شيئاً ، وقد بالغ السلف في إخفاء صدقتهم عن أعين الناس ، حتى طلب بعضهم فقيراً أعمى ، لئلا يعلم أحدٌ من المتَصدِّق ، وبعضهم ربط في ثوب الفقير نائماً ليتخلص من الرياء ، وفي الحديث الشريف : « إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم ، وكل أمة جاثية فأول من يدعى به رجل جمع القرآن ، ورجل قُتل في سبيل الله ، ورجل كثير المال فيقول الله للقارىء : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟ قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت فيما علمت ؟ قال : كنت أقرأ آناء الليل وأطراف النهار ، فيقول الله تعالى : كذبت وتقول له الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له : ألم أوسِّعْ عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟ قال : بلى يارب ، قال : فماذا عملت فيما آتيتك ؟ قال : كنت أصل الرحم وأتصدق ، فيقول الله : كذبت وتقول الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك ، ويؤتى بالذي قُتل في سبيل الله ، فيقول له : فيماذا قتلتَ ؟ فيقول : يارب أُمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت ، فيقول الله : كذبت وتقول الملائكة : كذبت ، ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جرىء فقد قيل ذلك ، ثم قال رسول الله ﷺ : أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة »[1] .

﴿ **وَمَثَلُ** ﴾ نفقات ﴿ **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ** ﴾ أي : لطلب رضاه

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه قريباً من هذا اللفظ ، ورواه النسائي والترمذي وحسّنه ، وانظر الترغيب والترهيب ١ / ٦١.

﴿ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي جعل بعض أنفسهم ثابتاً على الإيمان والطاعة ، ليزول عنها رذيلة البخل ، وحب المال وإمساكه ، والامتناع عن إنفاقه ، فإن النفس ـ وإن كانت مجبولة على حب المال ، واستثقال الطاعات البدنية ـ إلا أنها كما عودتها تتعود كما قال الشاعر :

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على * حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فمتى أهملتها فقد تمردت ، واعتادت الكسل والبطالة ، والبخل وإمساك المال عن صرفه إلى وجوه الطاعات ، ومقتضيات الإيمان ، وحيث كلفتها وحملتها على مشاق العبادات البدنية والمالية ، تنقاد لك وتتزكى عن عادتها الجبلية .

ويجوز أن يكون التثبيت بمعنى جعل الشيء صادقاً محققاً ثابتاً والمعنى : تصديقاً للإسلام ناشئاً من أصل أنفسهم فإن الإنفاق أمارة أن الإسلام ناشىء من أصل النفس ، وصميم القلب . فمن لابتداء الغاية ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ ﴾ بستان كائن ﴿ بِرَبْوَةٍ ﴾ مكان مرتفع مأمون من أن يجتاحه البرد أو يفسده للطافة هوائه بهبوب الرياح الملطفة له ، فإن أشجار الرُّبَى تكون أحسن منظراً وأزكى ثمراً وأما الأراضي المنخفضة فقلما تسلم ثمارها من البرد لكثافة هوائها بركود الرياح . وقال بعضهم : إن البستان إذا وقع في موضع مرتفع من الأرض لا تنفعه الأنهار وتضرُّ به الرياح كثيراً فلا يحسن ريعه إلا إذا كان على الأرض المستوية التي لا تكون ربوة ولا وهدة ، فالمراد من الربوة حينئذ كون الأرض لينة جيدة بحيث إذا نزل المطر عليها انتفخت وربت ونمت، فإن الأرض إذا كانت بهذه الصفة يكثر ريعها وتكمل أشجارها ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى (وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ) فإن المراد من ربوها ما ذكر ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ أي وصل إليها مطر كبير القطر شديد الوقع ﴿ فَآتَتْ ﴾ أي : أعطت أهلها ﴿ أُكُلَهَا ﴾ ثمرتها وغلتها وهو بضمتين الشيء المأكول ، ويجوز أن يكون آتت بمعنى أخرجت فيتعدى إلى مفعول واحد هو أُكُلَهَا ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ أي : مثلي ما كانت تثمر في سائر الأوقات وذلك بسبب ما أصابها من الوابل ، قال ابن عباس : حملت في سنة من الريع ما يحمل غيرها في سنتين والمراد بالضعف المثل كما أريد بالزوج الواحد في قوله تعالى (مِنْ كُلِ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) ومن فسره بأربعة أمثال ما كانت تثمر حمل الضعف على أصل معناه وهو مثلا الشيء فيكون ضعفين أربعة أمثال ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ أي : فطل وهو المطر الصغير القطر يكفيها لجودتها وكرم منبتها ولطافة هوائها . والطلُّ إذا ما دام عملَ الوابلَ ، وجاز الابتداء بالنكرة لوقوعها في جواب الشرط وهو من جملة المسوغات للابتداء بالنكرة ومن كلامهم « إن ذهب عَيْرٌ فعير في الرباط » والمعنى تشبيه نفقات هؤلاء الذين ينفقون بسبب ما يحملهم عليه من الابتغاء والتثبيت زاكية عند الله لا تضيع بحال وإن كانت تلك

النفقات تتفاوت في زكائها بحسب تفاوت ما ينضم إليها من أحوالهم التي هي الابتغاء والتثبيت الناشىء من ينبوع الصدق والإخلاص إليها بحال جنة نامية زاكية بسبب الربوة والوابل أو الطل والجامع النمو المرتب على السبب المؤدي إليه ، ويجوز أن يكون التشبيه من قبيل المفرق بأن يشبه زلفاهم من الله تعالى وحسن حالهم عنده بثمرة الجنة ووجه التشبيه الزيادة ويشبه نفقتهم الكثيرة والقليلة بالقويّ من المطر والضعيف منه ، من حيث أن كل واحد منهما سبب الزيادة في الجملة لأن النفقتين تزيدان حسن حالهم كما أن المطرين يزيدان ثمرة الجنة ﴿ **وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ من عمل الإخلاص والرياء لا يخفى عليه شيء ، وهو ترغيب في الإخلاص مع تحذير عن الرياء ونحوه ، فعلى العاقل أن يعبد الله على الإخلاص ويكون دائماً في رجاء الخلاص عن الطاغوت الخفي ، وهو الشرك الخفي ، فإن الخلاص يبتني على الإخلاص .

﴿ **أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ** ﴾ الهمزة لإنكار الوقوع أي : ما كان ينبغي أن يود رجل منكم ﴿ **أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ** ﴾ كائنة ﴿ **مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ** ﴾ والجنة تطلق على الأشجار الملتفة المتكاثفة ، وهو الأنسب بقوله تعالى ﴿ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ أي : من تحت أشجارها ﴿ **لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** ﴾ أي : له رزق من كل الثمرات ، وليس المراد بالثمرات العموم بل إنما هو التكثير ، كما في قوله تعالى (**وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**) فإن قلت كيف قال ﴿ **جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ** ﴾ ثم قال ﴿ **لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ** ﴾ ؟ قلت : النخيل والأعناب لما كانا أكرم الشجر ، ذكرهما تغليباً لهما على غيرهما ﴿ **وَ** ﴾ الحال أنه قد ﴿ **أَصَابَهُ الكِبَرُ** ﴾ أي : كبر السن الذي هو مظنة شدة الحاجة إلى منافعها ، ﴿ **وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعَفَاءُ** ﴾ أي : أصابه الكبر والحال أن له ذرية صغاراً لا يقدرون على الكسب ﴿ **فَأَصَابَهَا** ﴾ أي تلك الجنة ﴿ **إِعْصَارٌ** ﴾ أي : ريح عاصفة تستدير في الأرض ، ثم تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود ﴿ **فِيهِ نَارٌ** ﴾ شديدة ﴿ **فَاحْتَرَقَتْ** ﴾ فصارت خراباً ، فبقي الرجل متحيراً ، لا قوة له أن يغرس مثلها ، ولا خير في ذريته من الإعانة ، لكونهم ضعفاء عاجزين عن أن يعينوه ، وهذا كما ترى تمثيل لحال من يفعل الأفعال الحسنة ، ويضم إليها ما يحبطها ، كرياءٍ وإيذاء في الحسرة والأسف ، إذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها ، ووجدها محيطة بحال من هذا شأنه .

﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي : مثل ذلك البيان الواضح ﴿ **يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ** ﴾ أي : الدلالات الواضحة ، في تحقيق التوحيد وتصديق الدين ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ كي تتفكروا فيها وتعتبروا بما فيها من العِبَر وتعملوا بموجبها ، قال القشيري : هذه آيات ذكرها الله على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق ، والمنفق في سبيل الله والمنفق في الباطل ، هؤلاء تزكوا بأعمالهم ، وهؤلاء حبطت أعمالهم وخسرت أموالهم ، وختمت

بالسوء أحوالهم ، فلابد من إخلاص الأعمال فإن الثمرات تبتني على الأصل ، وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال حين بعث إلى اليمن : يا رسول الله أوصني ، قال : « أخلص دينك يكفك العمل القليل »[1] ، وعلاج الرياء على ضربين : أحدهما : قطع عروقه واستئصال أصوله ، وذلك بإزالة أسبابه ، وأصل أسبابه حب الدنيا واللذة العاجلة ، والثاني : دفع ما يخطر من الرياء في الحال ، ودفع ما يعرض منه في أثناء العبادة .

روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر جدِّد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر من الزاد فإن السفر بعيد ، وأقلَّ من الحمولة فإن الطريق مخوف ، وأخلص العمل فإنَّ الناقد بصير » والمراد من تجديد السفينة : تحقيق الإيمان وتكرير التوحيد ، ومن البحر جهنم قال تعالى (**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**) والمراد بالسفر سفر الآخرة والقيامة ، وزاد النعيم الطاعات ، وزاد الجحيم السيئآت ، والمراد بالحمولة الذنوب والخطايا ، وإنما كان طريق الآخرة مخوفاً ، لأن الزبانية يأخذون أصحاب الحمل الثقيل من الطريق ، وليس هناك أحد يعين على حمل أحد وينصره ، وإن كان من أقربائه قال تعالى (**وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ**) والمراد بالناقد : هو الله تعالى ، وهو طيب لا يقبل إلا الطيب ، قال تعالى (**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً**) أي : خالصاً لوجهه تعالى وفي الحديث قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاءِ عن الشِّركِ ، فمن عمل لي وأشرك فيه غيري ، فإني بريء منه »[2] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ** ﴾ أي : من حلال ما كسبتم أو جيده ، ذكر بعض الأفاضل أنه إنما فسر الطيب بالجيد دون الحلال ، لأن الحل استفيد من الأمر ، فإن الإنفاق من الحرام لا يؤمر به ، ﴿ **وَمِمَّا** ﴾ أي : ومن طيبات ما ﴿ **أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ** ﴾ من الحبوب والثمار والمعادن ﴿ **وَلا تَيَمَّمُوا** ﴾ أي : لا تقصدوا ﴿ **الْخَبِيثَ** ﴾ أي : الرديء الخسيس ، والخبيث نقيض الطيب ، والطيب ما يستطيبه الطبع ، والخبيث ما يستخبثه ﴿ **مِنْهُ تُنْفِقُونَ** ﴾ أي : لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه ، عن ابن عباس أنهم كانوا يتصدقون بحَشَف التمر ، فنهوا عنه ﴿ **وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ** ﴾ أي : والحال أنكم لا تأخذون الخبيث في معاملاتكم بوجه من الوجوه ﴿ **إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ** ﴾ إلا بإغماضكم فيه ، يعني لو كان لكم على رجل حقٌّ ، فجاء برديء ماله بدل حقكم

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا ، والحاكم عن معاذ بن جبل بلفظ : « أخلصْ دينك يكفيك القليلُ من العمل » وانظر الفتح الكبير ١ / ٥٨.

(٢) الحديث أخرجه مسلم بلفظ : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشركَ فيه معي غيري تركتُه وشِرْكه » .

الطيب ، لا تأخذونه إلا في حال الإغماض والتساهل ، مخافة فوت حقكم ، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ ﴾ عن إنفاقكم وإنما يأمركم لمنفعتكم ، وفي الأمر بأن يعلموا ذلك مع ظهور علمهم به ، توبيخ لهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث ، وإيذان بأن ذلك من آثار الجهل بشأنه تعالى ﴿ حَمِيدٌ ﴾ مستحق للحمد على نِعَمه العظام ، واعلم أن المتصدق كالزارع إذا كان له اعتقاد بحصول الثمرة ، يبالغ في الزراعة وجودة البذر ، لتحققه أن جودة البذر مؤثرة في جودة الثمرة وكثرتها ، فكذلك المتصدق إذا ازداد إيمانه بالله ، والبعث والثواب والعقاب ، يزيد في الصدقة وجودتها ، لتحققه أن الله لا يظلم مثقال ذرة (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً) ودلت الآية على جواز الكسب ، وأن أحسن وجوه التعيش هو التجارة والزراعة ، قال رسول الله ﷺ : « إن أطيب ما أكله الرجل من كسبه ، وإنَّ ولده من كسبه » (١) وكذلك أطيب الصدقات ما كانت من عمل اليد .

فقد قال رسول الله ﷺ : « لا يكسب عبد مالاً حراماً فيتصدق منه فيقبل منه فيبارك له فيه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله تعالى لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » (٢) ووجوه الإنفاق والصدقة كثيرة قال ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كانت له صدقة » (٣) .

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ﴾ الوعد هو الإخبار بما سيكون ، والمعنى أن الشيطان يخوفكم بالفقر ، ويقول للرجل : أمسك مالك ، فإنك إذا تصدقت به افتقرت ﴿ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ ﴾ أي : ويغريكم بالبخل ومنع الصدقات ، ﴿ وَاللهُ يَعِدُكُمْ ﴾ أي : في الإنفاق ﴿ مَغْفِرَةً ﴾ لذنوبكم أي : مغفرة كائنة ﴿ مِنْهُ ﴾ عز وجل ﴿ وَفَضْلاً ﴾ أي : خلفاً لما أنفقتم زائداً عليه في الدنيا ، وثواباً في العقبى ﴿ وَاللهُ وَاسِعٌ ﴾ قدرة وفضلاً ، فيحقق ما وعدكم به من المغفرة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم فيعلم إنفاقكم ، فلا يضيع أجركم ﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ ﴾ أي : مواعظ القرآن ، أي : يبينها ويوفق للعمل بها ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده أي : يؤتيها إياه بموجب سعة فضله وإحاطة علمه ، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ ﴾ أي : يعط العلم والعمل ﴿ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ أي : فإنه قد حِيز له خير الدارين ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ ﴾ أي : وما يتعظ بما أوتي من الحكمة ﴿ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ أي : العقول الخالصة من شوائب الوهم ، والركون إلى متابعة الهوى .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ، ورواه الترمذي والنسائي بنحوه .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ، وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٤٠ المختصر .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه .

وفي الحديث : « يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحّاءُ الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض ما في يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى القبض ، يرفع ويخفض » (١) فالمؤمن من يتخلق بأخلاق الله ، ويجود على الفقراء ، ويدفع ما وسوس إليه الشيطان من خوف الفقر ، فإن الله بيده مفاتيح الأرزاق ، وهو المعطي على الإطلاق ﴿ وَمَا ﴾ كلمة شرط وهي للعموم ﴿ أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ ﴾ أي : أيَّ نفقة كانت في سر أو علانية ، قليلة أو كثيرة ، ﴿ أَوْ نَذَرْتُمْ ﴾ النذر عقد الضمير على شيء والتزامه ﴿ مِنْ نَذْرٍ ﴾ أيَّ نذرٍ كان ، بشرطٍ أو بغير شرط ، كالصلاة والصيام ونحوهما ﴿ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾ أي : فإنه تعالى يجازيكم عليه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فهو ترغيب وترهيب ، ووعد ووعيد ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ ﴾ بالإنفاق والنذر في المعاصي ، أو بمنع الصدقات وعدم الوفاء بالنذور ، ﴿ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أي : أعوان ينجونهم من بأس الله وعقابه ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ أي : إن تظهروا الصدقات فنعم شيء إبداؤها ، إن لم يكن رياء وسمعة ، وهذا في الصدقات المفروضة ، وأما في صدقة التطوع فالإخفاء أفضل ، وهي التي أريد بقوله ﴿ وَإِنْ تُخْفُوهَا ﴾ أي : تعطوها خفية ﴿ وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي : فالإخفاءُ خير لكم من الإبداء ، إذا صلحت النية ، ﴿ وَ ﴾ الله ﴿ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ من تبعيضية أي : شيئاً من سيئاتكم ، لأنه يمحو بعض الذنوب بالتصدق في السر والعلانية ، أو زائدة على رأي الأخفش فالمعنى يمحو عنكم جميع ذنوبكم ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ من الإسرار والإعلان ﴿ خَبِيرٌ ﴾ فهو ترغيب في الإسرار ، ذكر الإمام في أن الإخفاء في صدقة التطوع أفضل وجوهاً : الأول : أنها أبعد من الرياء والسمعة ، وقد بالغ قوم في صدقة الإخفاء ، واجتهدوا أن لا يعرفهم أحد ، فكان بعضهم يلقيها في يد أعمى ، وبعضهم يلقيها في طريق الفقير ، حيث يراه ولا يرى المعطي ، وبعضهم كان يشدها في ثوب الفقير وهو نائم ، وثانيها : أنه إذا أخفى صدقته ، لم يحصل له من الناس شهرة ومدح ، فكان ذلك أشق على النفس ، فوجب أن يكون أكثر ثواباً ، وثالثها : قوله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله : .... ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (٢) ، وقال ﷺ : « صدقة السر تطفىء غضب الرب » (٣) ، وأما الوجه في جواز إظهار الصدقة ، فهو أن الإنسان إذا علم أنه إذا أظهرها صار في ذلك سبباً لاقتداء الخلق به ، فالإظهار أفضل .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ أي : لا يجب عليك يا محمد أن تجعلهم مهديين ، وإنما الواجب عليك

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان ومالك ، وهذا جزء من الحديث الشريف .

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٨٧ .

الإرشاد إلى الخير ، بما أوحي إليك من الآيات والذكر الحكيم ، والخطاب خاص والمراد عام يتناول كل أهل الإسلام ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي ﴾ هداية خاصة موصلة إلى المطلوب حتماً ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ هدايته إلى ذلك ، ممن يتذكر ويتبع ويختار الخير ، فهدى التوفيق على الله ، وهدى البيان على النبي ﷺ ، ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ ﴾ أي : أيَّ شيء تتصدقوا من مال ﴿ فَلأَنْفُسِكُمْ ﴾ أي : فهو لأنفسكم لا ينتفع به غيركم فلا تمنوا على من أعطيتموه ولا تؤذوه ، ﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إلا ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ ﴾ (١) أي : ليست نفقتكم لشيء إلا لابتغاء وجه الله ، فما بالكم تمنّون بها ، وتنفقون الخبيث الذي لا يوجّه مثله إلى الله ؟ ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا ﴾ أي : أيَّ شيء تنفقوا ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ في أهل الذمة وغيرهم ﴿ يُوفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ أي : يوفر لكم أجره وثوابه ، أضعافاً مضاعفة ، فلا عذر لكم في أن تبخلوا عن إنفاقه على أحسن الوجوه وأجلها ﴿ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ أي : لا تنقصون شيئاً مما وعدتم من الثواب المضاعف ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ أي : اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ﴿ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : حَبسوا نفوسهم في طاعته للغزو والجهاد ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لاشتغالهم به ﴿ ضَرْباً فِي الأَرْضِ ﴾ أي : ذهاباً فيها وسيراً في البلاد ، للكسب والتجارة وقيل : هم أصحاب الصفة وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجري قريش ، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر ، فكانوا يتعلمون القرآن بالليل ، ويرضخون النوى بالنهار ، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ، فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى ، ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ ﴾ أي : يظنهم الجاهل بحالهم وشأنهم ﴿ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ أي من أجل تعففهم عن المسألة ﴿ تَعْرِفُهُمْ ﴾ أي : تعرف فقرهم واضطرارهم ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي : بما تعاين منهم من الضعف ورثاثة الحال ، والسيما والسيماء : العلامة التي يُعرف بها الشيء ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ أي : لا يسألون الناس أصلاً والإلحاف : الإلحاح ، وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه ، ويجوز السؤال عند الحاجة ، قال رسول الله ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيذهب فيأتي بحزمة من حطب على ظهره ، فيكف بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » (٢) ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزآء ، فهو ترغيب في التصدق ، ثم زاد التحريض عليه بقوله ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً ﴾ أي : يعمُّون الأوقات والأحوال بالخير والصدقة ، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ، ولم يؤخروه ولم يتعللوا بوقت ولا حال ، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ أي : ثوابهم حاضر ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من مكروه آت ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من محبوب فات ، واعلم أن الإنفاق محبَّةً لله واقتداءً بسنّة رسول الله ﷺ أجره عظيم ، وقد

---

(١) الآية إرشاد من الله عز وجل وتنبيهٌ إلى أنه ينبغي للمؤمن ألا يقصد بإنفاقه إلا رضى الله ، لا أن يقصد الشهرة والسمعة فإنه محبط للعمل.

(٢) الحديث أخرجه مسلم والترمذي ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٦ .

قيل : إن حسن ستة أشياء في ستة : « العلم والعدل والسخاوة والتوبة والصبر والحياء » العلم في العمل ، والعدل في السلطان ، والسخاوة في الأغنياء ، والتوبة في الشباب ، والصبر في الفقر ، والحياء في النساء . العلم بلا عمل كبيت بلا سقف ، والسلطان بلا عدل كبئر بلا ماء ، والغنى بلا سخاوة كسحاب بلا مطر ، والشباب بلا توبة كشجر بلا ثمر ، والفقر بلا صبر كقنديل بلا ضياء ، والنساء بلا حياء كطعام بلا ملح ، فعلى الغني أن يمطر من سحاب غنى بركات الدين والدنيا ، لإحياء قلوبٍ ماتت بالفقر والاحتياج ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين .

﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا** ﴾ أي يأخذونه وعبر عنه بالأكل لأنه معظم المقصود من المال ، ولشيوعه في المطعومات ، ﴿ **لا يَقُومُونَ** ﴾ أي : من قبورهم إذا بعثوا ﴿ **إلا كَمَا يَقُومُ** ﴾ أي : إلا قياماً مثل قيام ﴿ **الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ** ﴾ أي : يضربه ويصرعه ﴿ **الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ** ﴾ أي : الجنون متعلق بلا يقومون ، يعني لا يقومون من المسِّ الذي بهم ، إلا كقيام المصروع المختلِّ ، فاسد العقل ، ويكون ذلك سيماهم يعرفون به عند أهل الموقف وقيل : ذلك حين يخرجون من الأجداث ـ القبور ـ فإنهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين ، لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله تعالى في بطونهم ، حتى أثقلهم فلا يقدرون على النهوض ، ﴿ **ذٰلِكَ** ﴾ أي : العذاب النازل بهم ﴿ **بِأَنَّهُمْ قَالُوا** ﴾ أي : بسبب قولهم ﴿ **إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا** ﴾ فنظموا الربا والبيع في سلك واحد ، لإفضائهما إلى الربح فاستحلوه استحلاله ، وقالوا يجوز بيع درهم بدرهمين كما يجوز بيع ما قيمته درهم بدرهمين ، وحقُّ الكلام أن يقال : إنما الربا مثل البيع ، إلا أنه على المبالغة أي : اعتقدوه حلاً حتى ظنوا أنه أصل ، ﴿ **وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** ﴾ أي :كيف يتماثلان والبيع محلَّل بتحليل الله ، والربا محرم بتحريم الله تعالى ؟ ﴿ **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ** ﴾ أي : فمن بلغه وعظ وزجر ﴿ **مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ** ﴾ أي : فاتعظ بلا تراخ وتبع النهي ﴿ **فَلَهُ مَا سَلَفَ** ﴾ أي : ما مضى من ذنبه ، فلا يؤاخذ به ، لأنه أخذ قبل نزول التحريم ﴿ **وَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللهِ** ﴾ يجازيه على انتهائه إن كان عن قبول الموعظة وصدق النية . وقيل يحكم في شأنه يوم القيامة وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به ﴿ **وَمَنْ عَادَ** ﴾ إلى الربا مستحلاً بعد النهي كما استحل قبله ﴿ **فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ أي : ملازموها ﴿ **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ ما كثون أبداً ﴿ **يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا** ﴾ المحق : نقصان الشيء حالاً بعد حال حتى يذهب كله ، كما في محاق الشهر ، وهو حال آخذ الربا فإن الله يذهب بركته ، ويهلك المال الذي يدخل فيه ، ﴿ **وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ يضاعف ثوابها ويبارك فيها ، ويزيد المال الذي أخرجت منه الصدقة ، روي عنه ﷺ : « إن الله يقبل الصدقة

ويربِّيها، كما يربي أحدكم مهره »[١] ﴿ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ ﴾ مصرٌّ على تحليل المحرمات ﴿ أَثِيمٍ ﴾ منهمك في ارتكابها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله ورسوله ﷺ وبما جاءهم به ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : الطاعات ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ تخصيصها بالذّكر مع اندراجها في الصالحات ، لأنافتها على سائر الأعمال الصالحة ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ الموعود لهم ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من مكروه آت ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من محبوب فات ، واعلم أن آكل الربا ، مُثِّل كمثل من به جوع الكَلَب ، فيأكل ولا يشبع ، حتى ينتفخ بطنه ويثقل عليه ، فكلما يقوم يصرعه ثقل بطنه ، فكذا حال أهل الربا يوم القيامة .

قال عليه الصلاة والسلام : « الربا اثنان وسبعون باباً ، أدناها كإتيان الرجل أمه »[٢] يعني كالزنى بأمه والعياذ بالله ، فمن سمع هذا القول العظيم ، فليبادر بالتوبة إلى باب المولى الكريم، ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ومن أقرض شيئاً بشرط أن يرد عليه أفضل ، فهو قرض جر منفعة ، وكل قرضٍ جرَّ منفعة فهو ربا .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ﴾ أي : قوا أنفسكم عقابه ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِن الرِّبَا ﴾ أي : واتركوا ما بقي لكم من مال الربا من عاملتموه به ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ على الحقيقة فإن ذلك مستلزم لامتثال ما أمرتم به البتة ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ أي : ما أمرتم به من الانقياد وترك البقايا ﴿ فَأْذَنُوا ﴾ أي : فاعلموا من أذن بالأمر إذ علم به ﴿ بِحَرْبٍ ﴾ أي : بنوع من الحرب عظيم كائن ﴿ مِنَ ﴾ عند ﴿ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي : بعذاب من عنده ، وحرب رسوله أي : القتال ، فلما نزلت قالت ثقيف : لا طاقة لنا بحرب الله ورسوله ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ ﴾ من الربا مع الإيمان بحرمته ، بعدما سمعتوه من الوعيد ﴿ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ تأخذونها كاملة ﴿ لا تَظْلِمُونَ ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة ﴿ ولا تُظْلَمُونَ ﴾ أنتم من قبلهم بالمطل ، والنقص عن رأس المال ، ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ أي : وإن وقع غريم من غرمائكم ذو عسرة ، والإعسارُ بالإعدام أو كساد المتاع ﴿ فَنَظِرَةٌ ﴾ أي : فالحكم نظرة وهي من الإنظار والإمهال ﴿ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ أي : إلى يسار ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا ﴾ أي : وتصدقكم بإسقاط الدَّيْن كله عمن عسر من الغرماء ، أو بالتأخير والإنظار ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي : أكثر ثواباً ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جوابه محذوف أي : إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتموه ، قال ﷺ :

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان وقد تقدم .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط ، وتتمة الحديث : « وإن أربى الربا استطالةُ الرجل في عِرْض أخيه » وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٣٩.

« من أنظر معسراً أو وضع عنه أنجاه الله من كُرَب يوم القيامة » (١) ، وفي القرض والإدانة فضائل كثيرة (روي) أن أمامة الباهلي رضي الله عنه رأى في المنام على باب الجنة مكتوباً : القرض بثمانية عشر أمثاله ، والصدقة بعشر أمثالها ، فقال : ولم هذا ؟ فأجيب بأن الصدقة ربما وقعت في يد غني ، وإن صاحب القرض لا يأتيك إلا وهو محتاج ، واعلم أن الاستدانة في أحوال ثلاث : في ضعف قوته في سبيل الله ، وفي تكفين فقير مات عن قلة وفقر ، وفي نكاح يطلب به العفة عن فتنة العذوبة ، فيستدين متوكلاً على الله ، فالله تعالى يفتح أبواب أسباب القضاء ، ومهما قدر على قضاء الدين ، فليبادر إليه ولو قبل وقته ، وعن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام : « الشهادة تكفِّر كل شيء إلا الدَّيْنَ » (٢) ، فعلى العاقل أن يقضي ما عليه من الديون ، ويخاف من وبال سوء نيَّته يوم يبعثون ، وهذا حال من أدى الفرض فإنه يهون عليه أن يؤدي القرض ، وأما المرتكب وتارك الفرائض ، فلا يبالي بالفرائض فكيف بالديون والإقراض ؟!

﴿ **واتَّقُوا يَوْمَاً** ﴾ نصب ظرفاً تقديره واتقوا عذاب الله يوماً أو مفعولاً به كقوله (**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمَاً**) أي : كيف تتقون هذا اليوم الذي هذا وصفه مع الكفر بالله ؟ ﴿ **تُرْجَعُونَ فِيهِ** ﴾ أي : تصيرون فيه ﴿ **إِلَىٰ اللهِ** ﴾ لمحاسبة أعمالكم ﴿ **ثُمَّ تُوفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ** ﴾ من النفوس أي تعطى كملاً ﴿ **مَا كَسَبَتْ** ﴾ أي : جزاء ما عملت من خير أو شر ﴿ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ أي : لا ينقصون من ثوابهم ولا يُزادون على عقابهم ، وعن ابن عباس قال : هذه آخر آية نزلت ، ولقي رسول الله ربه بعدها بواحد وثمانين يوماً ، وقال له جبريل عليه السلام ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة ، فجعلت بين آية الدين وآية الربا ، تأكيداً للزجر عن الربا ، روي أن رسول الله ﷺ ولد يوم الإثنين ، وبعث يوم الإثنين ، ودخل المدينة يوم الإثنين ، وقُبِض يوم الإثنين ، فكانت حياته ومماته رحمة قال ﷺ : « إذا أراد الله بأمة رحمة قبض نبيها قبلها فجعله سلفاً وفرطاً لها » ورثاه ﷺ بعض الأنصار فقال :

الصَّبْرُ يُحْمَدُ في المَوَاطنِ كُلِّهَا * إلا عليكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ** ﴾ أي : إذا داين بعضكم بعضاً وعامله نسيئة معطياً أو آخذاً ﴿ **إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾ بالأيام أو الأشهر مما يفيد العلم ويرفع الجهالة ، لا بالحصاد وقدوم الحاج

(١) الحديث أخرجه مسلم وأحمد ولفظه : « من أنظر معسراً أو وضع عنه ، أظلَّه اللهُ في ظلِّه يوم لا ظِلَّ إلا ظلُّه » .

(٢) الحديث أخرجه الشيرازي في الألقاب ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ١٨٣ .

مما لا يرفعها ﴿ فَاكْتُبُوهُ ﴾ أي : الدين بأجله ، لأنه أوثق وأدفع للنزاع ، والجمهور على استحبابه ﴿ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ ﴾ بيان لكيفية الكتابة المأمور بها ، وقوله بينكم للإيذان بأن الكاتب ينبغي أن يتوسط بين المتداينين ، ويكتب كلامهما ولا يكتفي بكلام أحدهما ﴿ بِالْعَدْلِ ﴾ أي : وليكن المتصدي للكتابة ، من شأنه أن يكتب بالتسوية ، من غير ميل إلى أحد الجانبين ، لا يزيد ولا ينقص ، وهو أمر باختيار كاتب فقيه يجيء كتابه موثّقاً به معدلاً بالشرع ﴿ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ ﴾ أي : لا يمتنع أحد من الكتاب ﴿ أَنْ يَكْتُبَ ﴾ كتاب الدين ﴿ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ ﴾ على طريقة ما علمه الله من كتب الوثائق ﴿ فَلْيَكْتُبْ ﴾ تلك الكتابة المطلوبة، أمَرَ بها بعد النهي عن إبائها تأكيداً لها ﴿ وَلْيُمْلِلْ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ الإملال : هو الإملاء ، وهو إلقاء المعنى على الكاتب للكتابة ، أي : وليكن مورد المعنى على الكاتب ، من عليه الحق ، أي : الدين ، لأنه المشهود عليه ، فلابد أن يكون هو المقرّ ﴿ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ﴾ وليتق المملي ربه ﴿ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ ﴾ أي : من الحق الذي يمليه على الكاتب ﴿ شَيْئاً ﴾ فإنه هو الذي يتوقع منه البخس خاصة ، وأما الكاتب فيتوقع منه الزيادة ، وإنما شدد في تكليف المملي ، لأن الإنسان مجبول على دفع الضرر عن نفسه ، وتخفيف ما في ذمته ، ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً ﴾ ناقص العقل مبذراً مجازفاً ، ﴿ أَوْ ضَعِيفاً ﴾ صبياً أو شيخاً مختلاً ﴿ أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ ﴾ أي : غير مستطيع للإملاء بنفسه لخرس أو عِيٍّ أو جهل ، أو غير ذلك من العوارض ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ ﴾ أي : الذي يلي أمره ويقوم مقامه ، من قيم أو وكيل أو مترجم ﴿ بِالْعَدْلِ ﴾ أي من غير نقص ولا زيادة ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ ﴾ أي : اطلبوهما ليتحملا الشهادة ، على ما جرى بينكما من المداينة ﴿ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ أي : من أهل دينكم ، يعني من الأحرار البالغين المسلمين ، إذ الكلام في معاملاتهم ، ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا ﴾ أي : الشهيدان جميعاً ﴿ رَجُلَيْنِ ﴾ لسبب من الأسباب ﴿ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ أي : فليشهد رجل وامرأتان ، وشهادة النساء مع الرجال في الأموال جائزة بالإجماع ، دون الحدود والقصاص فلابد فيهما من الرجال ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ ﴾ أي : كائنون مرضيين عندكم ، وتخصيصهم بالوصف المذكور ، مع تحقق اعتباره في كل شهيد ، لقلة اتصاف النساء به ﴿ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ أي : ممن ترضونهم من بعض الشهداء ، لعلمكم بعدالتهم ، وثقتكم بهم ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ أي : إحدى المرأتين الشاهدتين ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ﴾ وهذا تعليل لاعتبار العدد في النساء ، كأنه قيل : لأجل أن تُذَكِّر إحداهما الأخرى إن ضلت الشهادة بأن نسيت ، ثم حث الشهداء على إقامة الشهادة بقوله ﴿ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ لأداء الشهادة أو لتحملها ﴿ وَلا تَسْأَمُوا ﴾ أي : لا تملوا من كثرة مداياتكم ﴿ أَنْ تَكْتُبُوهُ ﴾ أي : من أن تكتبوا الدين أو الحق ﴿ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً ﴾ أي : حال كونه صغيراً أو كبيراً قليلاً أو كثيراً ﴿ إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾ أي : مستقراً في الذمة إلى وقت حلوله ،

﴿ ذٰلِكُمْ ﴾ أي : كتابةُ الحق إلى أجله أيها المؤمنون ﴿ أَقْسَطُ ﴾ أي : أعدل ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ أي : في حكمه تعالى ﴿ وَأَقْوَمُ لِلْشَّهَادَةِ ﴾ أي : أثبت لها وأعون على إقامتها ﴿ وَأَدْنَىٰ أَنْ لا تَرْتَابُوا ﴾ أي : أقرب إلى انتفاء ريبكم ، في جنس الدين وقدره وأجله ، ﴿ إِلاّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوْنَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ أي : لكن وقت كون تجارتكم تجارة حاضرة تديرونها بينكم بتعاطيها يداً بيد ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ لا تَكْتُبُوها ﴾ أي : فلا بأس بأن لا تكتبوها ، لبعده عن التنازع والنسيان ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ أي : هذا التبايع أو مطلقاً لأنه أحوط ، والأوامر الواردة في الآية الكريمة للندب عند الجمهور[1] ﴿ وَلا يُضَارَّ ﴾ أي : لا يمتنع ﴿ كَاتِبٌ ﴾ عن الكتابة المقصودة ﴿ وَلا شَهِيدٌ ﴾ أي : ولا يمتنع الشاهد عن إقامة الشهادة المعلومة ، ﴿ وَإِنْ تَفْعَلُوا ﴾ ما نهيتم عنه من الضرار ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ أي : فعلكم ذلك ﴿ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ أي : خروج عن الطاعة ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ في مخالفة أوامره ونواهيه التي من جملتها نهيه عن المضارة ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ أحكامه المتضمنة لمصالحكم ﴿ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فلا يخفى عليه حالكم وهو مجازيكم بذلك ، ثم هذه الآية أطول آية في القرآن ، وأبسطها شرحاً وأبينها وجوهاً ، يعلم بذلك أن مراعاة حقوق الخلق واجبة ، والاحتياط على الأموال التي بها أمور الدين والدنيا لازم ، فمن سعى بالحق فقد نجا وإلا فقد غوى .

والله تعالى من كمال رحمته على عباده علَّمهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم ، لئلا يجري من بعضهم على بعض حيف ، ولئلا يتخاصموا ويتنازعوا فيحقد بعضهم على بعض ، فأمر بتحصين الحقوق بالكتابة والإشهاد ، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة ، وأمر الكاتب أن يكتب كما علمه الله بالعدل ، وراعى في ذلك دقائق كثيرة كما ذكرها ، ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى توثيق الدَّيْن بالرهان :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ أي : مسافرين ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً ﴾ في المداينة بأن لا يحسن الكتابة ، أو لا توجد الصحيفة أو الدواة والقلم ﴿ فَرِهَانٌ ﴾ جمع رهن أي : فالتوثق رهن ﴿ مَقْبُوضَةٌ ﴾ أي : مسلمة إلى المرتهن ، ولابد من القبض ، وإنما شرط السفر في الارتهان ، مع أن الارتهان لا يختص به سفر ، لأن السفر لما كان مظنة عدم الكاتب والشاهد ، أمر بالارتهان ليقوم مقامهما تأكيداً وتوثيقاً لحفظ المال ، فالكلام خرج على الأعم الأغلب لا على سبيل الشرط ، وقد رهن رسول الله ﷺ درعه في المدينة من يهودي بعشرين صاعاً من شعير وأخذه لأهله ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾

---

(١) إنما كان الإشهاد للندب لأنه لو كان للوجوب لوقع الناس في الحرج والمشقة ، فكلما أراد الإنسان أن يبيع شيئاً أو يؤجِّره يجب أن يأتي بالشهود ، وحتى ولو كان شيئاً يسيراً ، كأن يشتري السكَّر أو الرزَّ ، أو البناية أو السيارة ، وهذا موجب للمشقة على المسلمين ، فلذلك قال الجمهور : الأمر بالإشهاد للندب وليس للوجوب ، والله أعلم .

أي : بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنه به ، واستغنى بأمانته عن الارتهان فلم يطلب منه الرهن ﴿ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتُمِنَ ﴾ وهو المديون ﴿ أَمَانَتَهُ ﴾ أي : فليقض المطلوب الأمين ، ما في ذمته من الدين ، ﴿ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ﴾ في رعاية حقوق الأمانة وأداء الدين ، من غير مطل ﴿ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ أيها الشهود إذا دعيتم إلى الحاكم لأدائها على وجهها ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ فاعل آثم كأنه قيل : فإنه يأثم قلبه ، وفائدة ذكر القلب : التوكيد كما تقول : هذا مما أبصرته عيني ، ومما سمعته أذني ، ومما عرفه قلبي ، ولأن القلب هو رأس الأعضاء ، والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله ، وإن فسدت فسد الجسد كله ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ فيجازيكم به إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وكتمان الشهادة وشهادة الزور ، من الأعمال التي تجرُّ صاحبها إلى النار .

﴿ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي : كلها له تعالى خلقاً وملكاً وتصرفاً ، لا شركة لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه ، فلا تعبدوا أحداً سواه ، ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا ﴾ أي تظهروا ﴿ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي : ما في قلوبكم من السوء والعزم عليه ، وذلك بالقول أو بالفعل ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ أي : تكتموه عن الناس ولا تظهروه ، ﴿ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ﴾ أي : يجازيكم به يوم القيامة ، وهو حجة على منكري الحساب من المعتزلة والروافض ﴿ فَيَغْفِرُ ﴾ أي : فهو يغفر بفضله ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يغفر له وإن كان ذنبه كبيراً ﴿ وَيُعَذِّبُ ﴾ بعدله ﴿ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يعذبه وإن كان ذنبه حقيراً ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكَم والمصالح ، وتقديم المغفرة على التعذيب ، لتقدم رحمته على غضبه ﴿ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من المغفرة والتعذيب ، قال في التيسير : دل ظاهر قوله ﴿ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ على المؤاخذة بما يكون من القلب ، فأما الهمُّ بالسيئة ثم يمتنع عنه بمانع لا باختياره ، فإنه لا يعاقب عقوبة فعله يعني بالعزم على الزنى لا يعاقب عقوبة الزنى ، وهل يعاقب على الخاطرة عقوبة عزم الزنى ؟ قيل : هو معفو عنه لقوله ﷺ : « إن الله تَجَاوز لي عن أمتي ما حدَّثتْ به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم[1] » وأكثرهم على أن الحديث في الحضرة دون العزمة ، وأن المؤاخذة في العزمة ثابتة وربما يكون للإنسان شركة في الإثم ، مثل القتل والزنى وغيرهما ، إذا رضي به ، كما في الحديث : « من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن حضرها[2] » وفي حديث آخر : « من أحب قوماً حُشر في زمرتهم[3] » فعلى العاقل أن يرفع عن قلبه الخواطر الفاسدة ، ولا يجالس الجماعة الفاسقة ، كيلا يحشر في زمرتهم .

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان وأصحاب السنن من حديث أبي هريرة .

(٢) الحديث أخرجه البيهقي في السنن ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٨٥ .

(٣) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير ، وانظر الفتح ٣ / ١٤٩ .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ أي : صدَّق النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ بِمَا أُنْزِلَ ﴾ أي : بكل ما أُنزل ﴿ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ من آيات القرآن إيماناً تفصيلياً متعلقاً بجميع ما فيه من الشرائع والأحكام ، والقصص والمواعظ ، وأحوال الرسل والكتب وغير ذلك ، ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي : الفريق المعروفون بهذا الاسم ﴿ كُلٌّ ﴾ مبتدأ ثان ﴿ آمَنَ ﴾ خبره والجملة خبر للمبتدأ الأول ، وتوحيد الضمير في آمن مع رجوعه إلى كل المؤمنين لما أن المراد بيان إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع ﴿ بِاللهِ ﴾ وحده من غير شريك له في الألوهية والمعبودية ، ﴿ وَمَلائِكَتِهِ ﴾ أي : من حيث إنهم عباد مكرمون له تعالى ، ﴿ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أي : من الحيثية المذكورة ولم يذكر الإيمان باليوم الآخر لاندراجه في الإيمان بكتبه ، ﴿ لا نُفَرِّقُ ﴾ أي يقول الرسول والمؤمنون لا نميز ﴿ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، كما فعل اليهود والنصارى ، وأحد ههنا بمعنى الجمع أي : الآحاد ، فلذلك أضيف إليه بين لأنه لا يضاف إلا إلى المتعدد ﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على آمن وصيغة الجمع باعتبار المعنى وهو حكاية لامتثالهم الأوامر إثر حكاية إيمانهم ﴿ سَمِعْنَا ﴾ أي : فهمنا ما جاءنا من الحق وتيقنَّا بصحته ﴿ وَأَطَعْنَا ﴾ ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ أي : نسألك غفرانك ذنوبنا المتقدمة أو التقصير في مراعاة حقوقك ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أي : الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك ، فينبغي التخلُّقُ بأخلاق القرآن ، ومجرد قراءة القرآن بغير عمل لا يفيد ، مثاله أن السلطان إذا وهب لأحد إمارة ، وأعطاهُ رياسة أو نيابة ، وكتب له توقيعاً أن يطيعه أهل البلد كلها ، فإذا جاء إلى البلد وقعد على المملكة ، وأطاعه الخلق ، ثم إن السلطان كتب له كتاباً وأمره فيه أن يبني له قصراً أو داراً واسعة ، حتى لو حضر السلطان وجاء إلى تلك المدينة ينزل في تلك الدار أو القصر ، فوصل الكتاب إليه ، وهو لا يبني ما أُمر به في الكتاب ، لكنه يقرأه كل يوم ، فلو حضر السلطان ولم يجد ما أمره به حاضراً ، هل يستحق ذلك الأمير خلعة من السلطان أو أنه يستحق الضرب والشتم ؟ وكذلك القرآن إنما هو مثل ذلك المنشور ، وقد أمر الله فيه بعبيده أن يعمروا أركان الدين ، وبين لهم بما يكون عمارة الدين فقال تعالى (أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) (وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ) فصارت قراءة القرآن كقراءة منشور السلطان ، ولا تحصل الجنة بمجرد القرآن لأنه قال (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلا وُسْعَهَا ﴾ إخبار من الله تعالى ، وليس من كلام المؤمنين ، روي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ﴾ الآية ، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوه عليه الصلاة والسلام ثم بركوا على الركب ، فقالوا : أي رسول الله :

كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق ، الصلاة والصيام والحج والجهاد ، وقد أُنزل عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فقرأها القوم فأنزل الله تعالى ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ ثم نَسَخها الله تعالى فأنزل ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلا وُسْعَهَا** ﴾[1] تهويناً للخطب عليهم ، ببيان أن المراد بما في أنفسهم ما عزموا عليه من السوء خاصة ، لا ما يعمُّ الخواطر التي لا يستطاع الاحتراز عنها ، والتكليف : إلزام ما فيه كلفة ومشقة ، والوُسْع : ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ، أي : سنته أن لا يكلف نفساً من النفوس ، إلا ما يتسع فيه طوقها ، ويتيسر عليها دون مدى الطاقة والمجهود ، فضلاً منه تعالى ورحمة لهذه الأمة كقوله تعالى (**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**) ، ﴿ **لَهَا** ﴾ أي للنفس ثواب ﴿ **مَا كَسَبَتْ** ﴾ من الخير الذي كلفت فعله ﴿ **وَعَلَيْهَا** ﴾ لا على غيرها عقاب ﴿ **مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ من الشر الذي كلفت تركه ، ﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ أي : يقولون ربنا لا تؤخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان أو الخطأ ، من تفريط وقلة مبالاة ونحوهما ، وفي الحديث : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[2] فدل أنهم مخصوصون بها ، والأمم السالفة كانوا مؤاخذين فيهما ﴿ **رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً** ﴾ الإصر : العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه أي : يحبسه مكانه ، والمراد به التكاليف الشاقة ﴿ **كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا** ﴾ أي : حملاً مثل حملك إياه على من قبلنا وهو ما كلفه بنو إسرائيل من قتل النفس في التوبة ، وقطع موضع النجاسة ، وعدم التطهير بغير الماء ، وعدم جواز صلاتهم في غير المسجد ، ومنع بعض الطيبات عنهم بالذنوب ، وكتابة ذنب الليل على الباب بالصبح ، وغير ذلك من التشديدات ، وقد عصم الله عز وجل ورحم هذه الأمة من أمثال ذلك وأنزل في شأنهم (**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**) وقال ﷺ : « بعثت بالحنيفة السهلة السمحة »[3] وعن العقوبات التي عوقب بها الأولون ، من المسخ والخسف وغير ذلك ، ﴿ **رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ** ﴾ استعفاء من العقوبات التي لا تطاق بعد الاستعفاء مما يؤدي إليها من التكاليف الشاقة ، أي : لا تكلفنا ما يشق علينا الدوام عليه ، ﴿ **وَاعْفُ عَنَّا** ﴾ أي : آثار ذنوبنا ﴿ **وَاغْفِرْ لَنَا** ﴾ واستر عيوبنا ، ولا تفضحنا على رؤوس الأشهاد ، ﴿ **وَارْحَمْنَا** ﴾ وتعطَّفْ بنا وتفضل علينا ، وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة ، لما أن التخلية سابقة على التحلية

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، ورواه مسلم . جامع الأصول ٢ / ٦٠ .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٢٥ .

(٣) الحديث أخرجه الخطيب في التاريخ وله تتمة وهي : « ومن خالف سنتي فليس مني » وانظر الفتح ٢ / ٧.

﴿ أَنْتَ مَوْلانَا ﴾ سيدنا ونحن عبيدك ، أو ناصرنا أو متولي أمورنا ﴿ فَانْصُرْنَا عَلَىٰ القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ أي : أعنا عليهم وادفع عنا شرهم ، فإن من حق المولى أن ينصر عبيده ، ومن يتولى أمره على الأعداء ، والنصرة على الكفار تكون بالظفر ، وتكون بالحجة ، وتكون بالدفع ، وهو سؤال العصمة من الشياطين أيضاً لأنهم منهم .

وقال ﷺ : « من قرأ آيتين من آخر سورة البقرة كفتاه »[1] أي : عن قيام الليل ، أو عن حساب يوم القيامة .

« تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة البقرة »

(١) الحديث أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي . جامع الأصول ٨ / ٤٧٣ .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴾ الألف إشارة إلى الله ، واللام إلى اللطيف ، والميم إلى المجيد ﴿ الله ﴾ مبتدأ ﴿ لآ إِلَهَ إِلآ هُوَ ﴾ خبره أي هو المستحق للعبودية لا غير ﴿ الحيُّ القَيُّومُ ﴾ أي الباقي الذي لا سبيل عليه للموت والفناء القائم بتدبير الخلق وحفظه ، وهذا رد على من زعم أن عيسى عليه السلام كان رباً ، فإنه روي « أن وفد نجران قدموا على رسول الله ﷺ وكانوا ستين راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، ثلاثة من أكابرهم فأتوا المدينة ثم دخلوا مسجد رسول الله عليه السلام بعد صلاة العصر ، عليهم ثياب حَبِرَاتٌ ، وأردية فاخرة يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي عليه السلام : ما رأينا وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا ليصلوا في المسجد فقال عليه السلام : دعوهم فصلوا إلى المشرق ، ثم تكلم أولئك الثلاثة مع رسول الله عليه السلام فقالوا تارة : عيسى هو الله لأنه كان يحيي الموتى ، ويبرىء الأسقام ويخبر بالغيوب ، وتارة أخرى هو ابن الله إذ لم يكن له أب يعلم ، وتارة أخرى إنه ثالث ثلاثة لقوله تعالى : فعلنا وقلنا ، ولو كان واحداً لقال : فعلتُ وقلت ، فقال لهم رسول الله ﷺ : أسلموا قالوا أسلمنا قبلك فقال عليه السلام : كذبتم يمنعكم من الإسلام ادِّعاؤكم لله تعالى ولداً ، قالوا إن لم يكن عيسى ولداً لله فمن أبوه ؟ فقال عليه السلام (ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه ، فقالوا بلى ، قال صلى الله عليه وسلم : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا لا فقال عليه السلام : ألستم تعلمون أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ قالوا بلى قال عليه السلام : فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علم ؟ قالوا لا قال ﷺ : ألستم تعلمون أن ربنا صوَّر عيسى في الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يُحدِث ؟ قالوا بلى ، قال ﷺ : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ووضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذي كما يُغَذَّى الصبيُّ ، ثم كان يطعم الطعام ، ويشرب الشراب ، ويُحدث الحدث ؟ قالوا بلى ، قال صلى الله عليه وسلم : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟ فسكتوا فأبوا إلا جحوداً فأنزل الله تعالى من أول السورة إلى نيف وثمانين آية »[1] تقريراً لما احتج به عليه السلام عليهم ، وأجاب به عن شبههم وتحقيقاً للحق الذي فيه يمترون ﴿ نزَّل عليكَ الكِتابَ ﴾ أي القرآن ، عبر عنه باسم الجنس إيذاناً بكمال تفوقه فإن قلت : لم قيل نزَّل الكتاب ، وأنزل التوراة والإنجيل ؟ قلت : لأن التنزيل للتكثير ، والقرآن نزل منجَّماً ، ونزل الكتابان جملة ﴿ بالحَقِّ ﴾ ملتبساً بالعدل في أحكامه ، وبالصدق في أخباره ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا بيْنَ يديْهِ ﴾ أي مصدقاً للكتب قبله في التوحيد والنبوات والأخبار ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَيٰةَ وَالإِنْجِيل مِنْ قَبلُ ﴾ أي أنزلهما جملة على موسى وعيسى عليهما السلام ، من قبل تنزيل الكتاب ﴿ هُدى

(١) انظر أسباب النزول للإمام الواحدي ، وتفسير القرطبي ، وابن كثير ، وروح المعاني .

للنّاسِ ﴾ علة للإنزال أي أنزلها لهداية الناس ﴿ **وأنزَلَ الفُرْقانَ** ﴾ أي جنس الكتب السماوية ، لأنها كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل ، أو هو القرآن كرر ذكره تعظيماً لشأنه ، وإظهاراً لفضله ﴿ **إنّ الّذينَ كَفروا بآيات اللهِ** ﴾ أي بالقرآن ومعجزات النبي عليه السلام ﴿ **لَهُمْ** ﴾ بسبب كفرهم بها ﴿ **عَذابٌ شديدٌ** ﴾ لا يقادر قدره ﴿ **واللهُ عزيزٌ** ﴾ لا يغالب ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ **ذو انتِقام** ﴾ عظيم لا يقدر على مثله منتقم ﴿ **إنّ اللهَ لا يَخْفىٰ عليهِ شَيْءٌ في الأرْضِ ولا في السّماءِ** ﴾ الأشياء كلها ، مطلع على كفر من كفر ، وإيمان من آمن ؛ وعلى جميع أعمالهم فيجازيهم يوم القيامة ﴿ **هُوَ الّذي يُصَوِّرُكُمْ في الأرْحامِ كيْفَ يَشاءُ** ﴾ أي يجعلكم على هيئة مخصوصة في أرحام أمهاتكم ، من ذكر وأنثى ، وأسود وأبيض ، وطويل وقصير ، وحسن وقبيح ، وهو رد على الذين قالوا عيسى هو الله ، أو ابن الله ، لأن من صور في الرحم يمتنع أن يكون إلهاً أو ولداً لله ، لكونه مركباً وفي عرض الفناء والزوال ﴿ **لاَ إلَهَ إلاّهُوَ** ﴾ نزه نفسه أن يكون عيسى ابناً له ﴿ **العَزيزُ الحكيمُ** ﴾ المتناهي في القدرة والحكمة ، فربكم يخلقكم على النمط البديع قال رسول الله ﷺ (إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك بأربع كلمات : فيكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقيٌّ أو سعيد)[1] وقال عليه السلام (يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة ، فيقول يارب أشقي أم سعيد فيكتبان، فيقول أي رب أذكر أم انثى فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره وأجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص ، ثم يقول الملك يارب ما أصنع بهذا الكتاب فيقول علقه في عنقه إلى قضائي عليه فذلك قوله تعالى (**وكُلَّ إنْسانٍ أَلْزمْناهُ طائِرهُ في عُنُقِهِ**)[2] أي عمله من خير وشر ، الصادر عنه باختياره ، حسبما قدر له ، كأنه طار إليه من وكر الغيب والقدر ﴿ **هُوَ الّذي أنْزَلَ عَليْكَ الكِتابَ** ﴾ أي القرآن العظيم ﴿ **مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ** ﴾ أي منه آياتٌ قطعية الدلالة على المعنى المراد ، مكحمة العبارة محفوظة من الاشتباه والاحتمال ﴿ **هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ** ﴾ أي أصل فيه وعُمدةٌ ، يردُّ إليها غيرها بالتأويل ﴿ **وأُخَرُ** ﴾ أي ومنه آيات أُخَر ﴿ **مُتَشَابِهاتٌ** ﴾ أي محتملات لمعان متشابهة ، لا يمتاز بعضها من بعض ، ولا يتضح الأمر إلا بالنظر الدقيق ، والتأمل الأنيق ، ثم إن الله تعالى جعل القرآن كله محكماً في قوله (**الرْ كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ**) ومعناه أنه كله حق لا ريب فيه ، ومتقن لا تناقض فيه ، ومحفوظ من الخلل ، وجعله كله متشابهاً في قوله (**كِتاباً مُتَشابِهاً مثاني**) ومعناه يشبه بعضه بعضاً في صحة المعنى ، وجزالة النظم ، وجعل بعضه محكماً وبعضه متشابهاً في هذه الآية ، وإنما لم يجعل الله القرآن كله محكماً لما في المتشابه من الابتلاء ، والتمييز بين الثابت على الحق

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند .

والمتزلزل فيه ، كابتلاء بني إسرائيل بالنهر في اتباع نبيهم ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ** ﴾ أي ميل عن الحق إلى الأهواء الباطلة ﴿ **فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ** ﴾ أي يتعلقون بظاهر المتشابه من الكتاب أو بتأويل باطل ﴿ **ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ** ﴾ أي طلب أن يفتنوا الناس عن دينهم ، بالتشكيك والتلبيس ﴿ **وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾ أي طلب أن يؤولوه حسبما يشتهونه من التأويلات الزائغة ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ** ﴾ أي تأويل المتشابه ﴿ **إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ أي لا يهتدي إلى تأويله الحق ، الذي يجب أن يحمل عليه ، إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم ، أي ثبتوا فيه وتمكنوا ، ومنهم من يقف على قوله ﴿ **إِلَّا اللَّهُ** ﴾ ويبتدىء بقوله[1] ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ** ﴾ ويفسرون المتشابه بما أستأثر الله بعلمه ، وبمعرفة الحكمة فيه، كعدد الزبانية في قوله (**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**) ومدة بقاء الدنيا ، ووقت قيام الساعة ، والصوم ، وعدد الركعات في الصلوات الخمس ، والأول هو الوجه ، فإن الله تعالى لم ينزل شيئاً في القرآن إلا لينتفع به عباده ، فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزم فيه للطاعن مقال ، وهل يجوز أن يقال: إنَّ رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه ، وإذا جاز أن يعرفه مع قوله تعالى ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** ﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته ، وإن لم يعرفه النبي ﷺ وصحابته والعلماء الراسخون وقالوا علمه عند ربنا لم يكن لهم فضل على الجهال ، لأنهم جميعاً يقولون ذلك ، قالوا : ولم يزل المفسرون إلى يومنا هذا يفسرون ويؤوّلون كلَّ آية ،ولم نرهم وقفوا عن شيءمن القرآن ، فقالوا هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل فسروا نحو حروف التهجي وغيرها ﴿ **يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ** ﴾ أي بالمتشابه ﴿ **كُلٌّ** ﴾ أي كل واحدٍ من المحكم والمتشابه ﴿ **مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا** ﴾ منزل من عنده تعالى لا مخالفة بينهما ﴿ **وَمَا يَذَّكَّرُ** ﴾ حق التذكر ﴿ **إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾ أي العقول الخالصة عن الركون إلى الأهواء الزائغة ، وهو مدح للراسخين بجودة الذهن وحسن النظر ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا** ﴾ أي يقولون لا تمل قلوبنا عن نهج الحق ، إلى اتباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه ﴿ **بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** ﴾ إلى الحق وإلى الإيمان ﴿ **وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ** ﴾ أي من عندك ﴿ **رَحْمَةً** ﴾ واسعة تُزْلفُنا إليك ونفوز بها عندك ﴿ **إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ** ﴾ وإطلاق الوهاب ليتناول كل موهوب ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ** ﴾ بعد الموت ﴿ **لِيَوْمٍ** ﴾ أي لجزاء يوم وحسابه ، وهو يوم القيامة ﴿ **لَا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ أي في وقوعه ، ووقوع ما فيه من الحساب والجزاء ، ومقصودهم بهذا عرض كمال افتقارهم إلى الرحمة ، وأنها المقصد الأسنى عندهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ الوعد ، يعني الألوهية تنافي خلف الوعد في البعث واستجابة الدعاء ، وهذا حال الراسخين في الدعاء ، فإياك والزيغ عن الصراط المستقيم باتباع الهوى والشهوات قال رسول الله ﷺ « **ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء**

(١) هذا هو الأشهر والأصوبُ عند المفسرين ، فإن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، وما اختاره المصنف من معرفة بعض العباد للمتشابه قولٌ مرجوح .

أزاغه »[1] يعني قلب المؤمن بين توفيق وخذلان ، وإنما قال من أصابع الرحمن ، ولم يقل من أصابع الله إشعاراً بأنه هو المتمكن من قلوب العباد ، والمتصرف فيها كيف يشاء ، وكان رسول الله ﷺ يقول (اللهم يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك) والميزان بيد الرحمن يرفع قوماً ويضع آخرين إلى يوم القيامة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ** ﴾ أي لن تنفعهم ﴿ **أَمْوالُهُمْ** ﴾ التي يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضار ، قدم الأموال على الأولاد ، لأنها أول عدة يفزع إليها عند نزول الخطوب ﴿ **وَلا أَوْلادُهُمْ** ﴾ الذين بهم يتناصرون في الأمور المهمة ، وعليهم يعولون في الخطوب الملمة ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ أي عذابه تعالى ﴿ **شَيْئاً** ﴾ أي شيئاً من الإغناء ، ومعناه لا يصرف عنهم كثرة الأموال والأولاد ، والتناصر بها عذابه ، وكانوا يقولون (نَحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحنُ بمُعَذَّبين) قال تعالى في ردهم (**وما أَمْوالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ بالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدنا زُلْفىٰ إِلاّ مَنْ آمنَ وَعَمِلَ صَالِحاً**) ﴿ **وأُولَئِكَ** ﴾ أي أولئك المتصفون بالكفر ﴿ **هُمْ وَقودُ النّارِ** ﴾ حطب النار وحصبها الذي تسعر به ﴿ **كَدأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ** ﴾ الدأب مصدر دأب في العمل إذا كدح فيه وتعب ، غلب استعماله في معنى الشأن والحال والعادة ، أي دأب هؤلاء في الكفر كدأب آل فرعون ﴿ **والَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** ﴾ أي من الأمم الكافرة كقوم نوح وثمود وقوم لوط ﴿ **كَذَّبُوا بآياتِنا** ﴾ أي بكتبنا ورسلنا ﴿ **فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنوبِهِمْ** ﴾ أي فأخذهم الله تعالى وعاقبهم ، ولم يجدوا من بأس الله تعالى محيصاً ، فدأب هؤلاء الكفرة أيضاً كدأبهم ﴿ **واللهُ شديدُ العِقابِ** ﴾ لمن كفر بالآيات والرسل ﴿ **قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ المراد بهم اليهود ، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يهود المدينة لما شاهدوا غلبة رسول الله ﷺ على المشركين يوم بدر ، قالو : والله إنه النبي الأمي الذي بشَّرنا به موسى ، وفي التوراة نعته ، وهَمُّوا بإتباعه ، فقال بعضهم : لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة له أخرى ، فلما كان يوم أحد شكُّوا ، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فنقضوه ، وانطلق كعب بن الأشرف في ستّين راكباً إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فنزلت ﴿ **سَتُغْلَبونَ** ﴾ عن قريب في الدنيا ، وقد صدق الله وعده بقتل بني قريظة وفتح خيبر ، وضرب الجزية على من عداهم ، وهو من أوضح شواهد النبوة ﴿ **وَتُحْشَرُونَ** ﴾ أي في الآخرة ﴿ **إِلىٰ جَهَنَّمَ** ﴾ والحشر : السوق والجمع ، أي يغلبون في الدنيا ويساقون في الآخرة مجموعين إلى جهنم ﴿ **وَبِئْسَ المِهادُ** ﴾ أي بئس الفراش والمقر جهنم ﴿ **قَدْ كَانَ لَكُمْ** ﴾ أي والله قد كان لكم أيها اليهود المغترّون بعَدَدهم وعُدَدهم ﴿ **آيةٌ** ﴾ عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم أنكم ستغلبون ﴿ **في فِئَتَيْنِ** ﴾ أي جماعتين ، فإن المغلوبة منهما كانت معتزة بكثرتها ، معجبة بعزتها ، وقد لقيها ما لقيها فسيصيبكم ما يصيبكم ﴿ **التَقَتا** ﴾ أي تلاقيا بالقتال يوم بدر ﴿ **فِئَةٌ** ﴾ أي إحداهما فئة ﴿ **تُقَاتِلُ** ﴾

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات وهو حديث حسن ، وانظر جامع الأصول ٤ / ٣٤٢ .

تجاهد ﴿ في سبيلِ اللهِ ﴾ وهم لا كثرة فيهم ولا شوكة وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿ وَأُخْرىٰ ﴾ أي وفئة أخرى ﴿ كافِرَةٌ ﴾ بالله ورسوله ﴿ يَرَوْنَهُمْ ﴾ أي ترى الفئةُ الأولى الفئة الأخيرة الكافرة ﴿ مِثْلَيْهِمْ ﴾ أي مثلي عدد الرائين قريباً من ألف ، كانوا تسعمائة وخمسين مقاتلاً ، رأسهم « عتبة بنُ ربيعة » وفيهم « أبو سفيان » وأبو جهل ، وعن سعد بن أبي أوس أنه قال : أسر المشركون رجلاً من المسلمين فسألوه كم كنتم قال : ثلاثمائة وبضعة عشر ، قالوا : ما كنا نراكم إلا تضعفون علينا ، أو مثلي عدد المرئيين أي ستمائة ونيفاً وعشرين حيث كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وكان صاحب راية النبي ﷺ من المهاجرين (علي بن أبي طالب) رضي الله تعالى عنه ، وصاحب راية الأنصار (سعد بن عبادة الخزرجي) رضي الله عنه ، وكان في العسكر تسعون بعيراً وفَرَسان ، وجميع من استشهد يومئذ من المسلمين أربعة عشر رجلاً ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار ، أراهم الله عز وجل كذلك مع قلتهم ليهابوهم ، ويتجنبوا عن قتالهم مدداً لهم منه سبحانه ، كما أمدهم بالملائكة عليهم السلام ، فإن قلت : فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال (وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعيُنِهِمْ) قلت : قلَّلهم أولاً في أعينهم حتى اجترأوا عليهم ، فلما لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا ، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين ، وتقليلهم تارة وتكثيرهم أخرى أبلغ في القدرة وإظهار الآية ﴿ رَأْيَ العَيْنِ ﴾ نصب على المصدر يعني رؤية ظاهرة مكشوفة ، لا لبس فيها ، مُعَاينةً كسائر المعاينات ﴿ واللهُ يُؤَيِّدُ ﴾ أي يقوي ﴿ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ ﴾ أي من يريد من غير توسيط الأسباب العادية ، كما أيد الفئة المقاتلة في سبيله بما ذَكَرَ من النصر ﴿ إنّ في ذلك ﴾ إشارة إلى ما ذكر من رؤية القليل كثيراً ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ عظيمة كائنة ﴿ لأُولِي الأَبْصارِ ﴾ لذوي العقول والبصائر ، فعلى العاقل أن يعتبر بالآيات ، ولا يغتر بكثرة الأعداد من الأموال والأولاد ، وعدم اجتهاده لمعاده ، فإن الله يمتعه قليلاً ثم يضطره إلى عذاب عظيم (زُيِّنَ لِلنَّاسِ) أي حُسِّن لهم ، والمزين هو الله لقوله تعالى (زَيّنا لَهُمْ أعْمَالَهُمْ) وذلك على جهة الامتحان ، أو هو الشيطان لقوله تعالى (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشّيْطانُ أعْمَالَهُمْ) وذلك على جهة الوسوسة ﴿ حُبُّ الشَّهَواتِ ﴾ أي محبة مرادات النفوس ، والشهوة : نزوع النفس إلى ما تريده ، وهي مصدر أريد به المفعول ، أي المشتهيات ، عبر عنها بالمصدر مبالغة كأنها نفس الشهوات ، والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات ، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء ، مذمومٌ من اتبعها،شاهد على نفسه بالبهيمية ، قالوا : خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة ، والبهائم شهوات بلا عقل ، وجعلها في الإنسان ، فمن غلب عقله شهوته فهو أفضل من الملائكة ، ومن غلب عليه شهوته فهو أرذل من البهائم ﴿ مِنَ النِّساءِ ﴾ وإنما بدأ بهن لعراقتهن في معنى الشهوات ، فإنهن حبائل الشيطان ﴿ والبَنينَ ﴾ والفتنة بهم أن الرجل يحرص بسببهم على جمع المال من الحلال والحرام ، ولأنهم يمنعونه عن محافظة حدود الله ، قيل : أولادنا فتنة ، إن عاشوا فتنونا ، وإن ماتوا أحزنونا ﴿ والقَنَاطِيرِ

﴿ **المُقَنْطَرَةِ** ﴾ جمع قنطار وهو المال الكثير ، أي الأموال الكثيرة المجتمعة ، وفي الكشاف : المقنطرة مبنية من لفظ القنطار للتوكيد ، كقولهم ألوف مؤلفة ، وبدر مبدَّرة ﴿ **مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ** ﴾ أي من هذين الجنسين ﴿ **والخَيْلِ** ﴾ جمع لا واحد له من لفظه ، واحده فرس ، وهو مشتق من الخيلاء لاختيالها في مشيها ﴿ **المُسَوَّمَةِ** ﴾ أي المعلمة وهي التي جعلت فيها العلامةُ بالسِّيما واللون وبالكي ﴿ **والأَنْعَام** ﴾ أي الإبل والبقر والغنم ، جمع نَعَمٍ ﴿ **والحَرْثِ** ﴾ أي الزرع ، قيل كل منها فتنة للناس ، أما النساء والبنون ففتنة للجميع ، والذهب والفضة فتنة للتجار ، والخيل فتنة للملوك ، والأنعام فتنة لأهل البوادي ، والحرث فتنة لأهل الزرع ﴿ **ذٰلِكَ** ﴾ أي ما ذكر من الأشياء ﴿ **متاعُ الحَيَاةِ الدُّنيا** ﴾ أي ما يُتمتَّع به في الحياة الدنيا أياماً قلائل ، فيفنى سريعاً ﴿ **واللهُ عِنْدَه حُسْنُ المآبِ** ﴾ أي حسن المرجع وهو الجنة ، وهذا تزهيد في طيبات الدنيا الفانية ، وترغيب فيما عند الله من النعيم المقيم ، فعلى العاقل أن يأخذ من الدنيا الفانية ، قدر البُلغة ، ولا يستكثر بالاستكثار ، الذي يورط صاحبه في المحظور ويورثه المحذور ﴿ **قُلْ** ﴾ يامحمد ﴿ **أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ** ﴾ أي أأخبركم بما هو خير مما فصِّل ، من تلك المستلذَّات المزينة لكم ! ﴿ **لِلَّذِينَ** ﴾ خبر مبتدأ لقوله جنات ﴿ **اتَّقَوا** ﴾ بالتبتل إلى الله تعالى ، والإعراض عما سواه ﴿ **عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾ حال مقدرة ﴿ **وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ** ﴾ أي زوجات مبرأة من العيوب الظاهرة ، كالحيض والامتخاط ، وإتيان الخلاء ، ومن الباطنة كالحسد والغضب والنظر إلى غير أزواجهن ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ** ﴾ أي رضوان وأيُّ رضوان لا يُقادر قدْرهُ ﴿ **واللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ** ﴾ وبأعمالهم ، فيثيب ويعاقب حسبما يليق بها ﴿ **الَّذِينَ** ﴾ كأنه قيل : من أولئك المتقون الفائزون بالكرامات السنية ؟ فقيل : هم الذين ﴿ **يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا** ﴾ أي صدقنا بك وبنبيِّكَ ، وفي ترتيب الدعاء بقوله : ﴿ **فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وقِنَا عَذَابَ النارِ** ﴾ على مجرد الإيمان ، دلالة على كفايته ، في استحقاق المغفرة والوقاية من النار ﴿ **الصَّابِرِينَ** ﴾ نصب على المدح بإضمار أعني والمراد بالصبر : الصبر على مشاق الطاعات ، وعلى البأساء والضراء ﴿ **والصَّادِقِينَ** ﴾ في أقوالهم ونياتهم وعزائمهم ﴿ **والقَانِتِينَ** ﴾ أي المداومين على الطاعات ، المواظبين على العبادات ﴿ **وَالمُنْفِقِينَ** ﴾ أموالهم في سبيل الله ﴿ **والمُسْتَغْفِرِينَ بالأَسْحَارِ** ﴾ والاستغفار سؤال المغفرة من الله ، وتخصيص الأسحار بالاستغفار ، لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة ، إذ العبادة حينئذ أشق ، والنفس أصفى ، والروح أجمع ، لاسيما للمجتهدين ، قال مجاهد: في قول يعقوب عليه السلام (**سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ**) أخَّره إلى وقت السحر ، فإن الدعاء فيه مستجاب ، وقال إن الله تعالى لا يشغله صوت عن صوت ، لكن الدعاء في السحر دعوةٌ في الخلوة وهي أبعد من الرياء والسمعة فكانت أقرب إلى الإجابة قال رسول الله ﷺ (ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة ، حين يبقى ثلث

الليل ، فيقول : أنا الملك ، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ؟)[1] وقال لقمان لابنه : يابني لا تكونن أعجز من هذا الديك ، يُصوِّت بالأسحار وأنت نائم على فراشك .

﴿ **شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ** ﴾ بأنه ﴿ **لاَ إِلَه إِلاّ هُوَ** ﴾ نزلت حين جاء رجلان من أحبار الشام ، فقالا للنبي عليه السلام : أنت محمد ؟ قال : نعم ، فقالا أنت أحمد ؟ قال : أنا محمد وأحمد ، قالا : أخبرنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله ؟ فأخبرهما ، والمعنى أثبت له بالحجة القطعيَّة ، وأعلم بمصنوعاته الدالة على توحيده ، أنه واحد لا شريك له في خلقه ، إذ لا يقدر أحد أن ينشيء شيئاً منها ﴿ **والملائِكَةُ** ﴾ أي ، وأقرت الملائكة بذلك لما عاينت من عظم قدرته ﴿ **وَأُولوا العِلْمِ** ﴾ أي آمنوا به واحتجوا عليه بالأدلة التكوينية والتشريعية ، وهم الأنبياء والمؤمنون الذين علموا توحيده ، وأقروا به اعتقاداً صحيحاً ﴿ **قَائِماً بالقِسْطِ** ﴾ أي مقيماً بالعدل في قسمة الأرزاق والآجال ، وما يأمر به عباده من العدل والتسوية فيما بينهم ، ودفع الظلم عنهم ﴿ **لا إِلَه إِلاّ هُوَ العزيزُ الحكِيمُ** ﴾ كرر المشهود به لتأكيد التوحيد ، ليوحدوه ولا يشركوا به شيئا ، لأنه ينتقم ممن لا يوحِّده ، لا معقب لحكمه ﴿ **إِنّ الّدِينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ** ﴾ أي لا دين مرضياً لله تعالى سوى الإسلام ، الذي هو التوحيد والتشريع بالشريعة الشريفة ، وهو الدين الحق منذ بعث الله آدم عليه السلام ، كما قال تعالى ﴿ **إِنّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ** ﴾ إذْ حقيقة دين الإسلام التوحيد ، وهذا الدين من ذلك الزمان إلى يوم القيامة ، واحدٌ بحسب الحقيقة ، ومختلف بحسب الصورة والشروط ، وعن غالب القطان قال : أتيت الكوفة في تجارة ، فنزلت قريباً من الأعمش فكنت اختلف إليه ، فلما كنت ذات ليلة قام من الليل متهجداً ، فمر بهذه الآية ﴿ **شَهِدَ اللهُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ والملائِكَةُ وَأُوْلوا العِلْمِ** ﴾ الآية قال الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودِعُ الله هذه الشهادة ، وهي لي عند الله وديعة إن الدين عند الله الإسلام ، قالها مراراً قلت : لقد سمع فيها شيئاً ، فصليت معه وودعته ، ثم قلت : آيةٌ سمعتك تردِّدها فما بلغك فيها ؟ قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة ، فلبثتُ على بابه منذُ ذلك اليوم ، فأقمتُ سنةً ، فلما مضت السنة قلتُ : يا أبا محمد قد مضت السنة ، قال : حدثني أبو وائل عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ (يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله : إن لعبدي هذا عندي عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد ، أدخلوا عبدي الجنة)[2] ﴿ **وما اخْتَلَفَ الّذينَ أوتُوا الكِتابَ** ﴾ نزلت في اليهود والنصارى ، حين تركوا الإسلام ، الذي جاء به النبي عليه السلام وأنكروا نبوته ﴿ **إِلاّ مِنْ**

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه ، وأخرجه البخاري بلفظ : « ينزلُ ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدُّنيا حين يبقى ثلثُ الليل الآخر ... » الحديث ، وانظر جامع الأصول ٤ / ١٣٨ .

(١) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير ، وذكر هذه القصة الحافظ ابن كثير في تفسيره ١ / ٢٧٢ .

﴿ بَعدِ مَا جَاءهُمُ العِلْمُ ﴾ أي وما اختلفوا في دين الإسلام ، ونبوة محمد عليه السلام ، في حال من الأحوال إلا بعد أن علموا حقيقة الأمر ، وتمكنوا من العلم بها بالحجج والآيات الباهرة ﴿ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ أي حسداً كائناً بينهم وطلباً للرياسة ، وهو تشنيع إثر تشنيع ﴿ وَمَنْ يَكفُرْ بآياتِ اللهِ ﴾ الناطقة بأن الدين عند الله الإسلام ، ولم يعمل بمقتضاها ﴿ فَإنّ اللهَ سَريعُ الحِسابِ ﴾ أي فإن الله يجازيه ويعاقبه عن قريب ، أو سريع في محاسبة جميع الخلائق ، لأنه يحاسبهم في أقل من لمحة ﴿ فَإنْ حَاجّوكَ ﴾ أي في كون الدين عند الله الإسلام ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ ﴾ أي أخلصت نفسي وقلبي وجملتي ﴿ للهِ ﴾ وحده لم أجعل فيها لغيره شركاً ﴿ وَمَنِ اتّبعَنِ ﴾ أي وأسلم من اتبعني وجوههم أيضاً ﴿ وَقُلْ للّذِينَ أوتُوا الكِتابَ ﴾ أي من اليهود والنصارى ﴿ وَالأُمّيّينَ ﴾ الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ كما فعل المؤمنون فإنه قد آتاكم من البينات ما يوجبه ويقتضيه ، أم أنتم بعد على كفركم ؟ وهو استفهام بمعنى الأمر أي أسلموا ﴿ فَإنْ أَسْلَمُوا ﴾ أي كما أسلمتم وأخلصتم ﴿ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ أي فازوا بالحظ الأوفر ، ونجوا من مهاوي الضلال ﴿ وَإنْ تَوَلّوْا ﴾ أي أعرضوا عن الاتباع وقبول الإسلام ﴿ فَإنّمَا عَليْكَ البَلاغُ ﴾ أي لم يضروك شيئاً إذ ما عليك إلا البلاغ أي التبليغ بالرسالة دون الهداية ، وقد فعلت على أبلغ وجه ، روي أن رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية على أهل الكتاب ، قالوا أسلمنا ، فقال ﷺ لليهود : أتشهدون أن عيسى كلمة الله وعبده ورسوله ؟ فقالوا معاذ الله ، وقال للنصارى : أتشهدون أن عيسى عبد الله ورسوله ؟ فقالوا معاذ الله أن يكون عيسى عبداً ، وذلك قوله عز وجل « وإن تولوا » ﴿ وَاللهُ بَصِيرٌ بالعبادِ ﴾ عالم بجميع أحوالهم ، وهو وعد ووعيد ﴿ إنّ الّذينَ يكْفرونَ بآياتِ اللهِ ﴾ الناطقة بحقية الإسلام ﴿ وَيَقْتُلُوْنَ النَبّيينَ بغيْرِ حَقٍّ ﴾ هم أهل الكتاب قتلوا الأنبياء عليهم السلام وقتلوا أتباعهم ، بغير حق من الحقوق﴿ وَيَقْتُلُوْنَ الّذينَ يأْمُرونَ بالقِسطِ ﴾ أي بالعدل ﴿ مِنَ النّاسِ ﴾ عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قلت يارسول الله : أيُّ الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال (رجل قتل نبياً أو رجلاً أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، ثم قرأها ثم قال : ياأبا عبيدة ، قتلتْ بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبياً ، من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائةٌ واثنا عشر رجلاً من عُبّاد بني إسرائيل ، فأمروا قَتَلَتهم بالمعروف ، ونهوهم عن المنكر ، فقُتلوا جميعاً من آخر النهار[1]) ﴿ فَبَشّرْهُمْ بِعَذابٍ أَليمٍ ﴾ أي وجيع دائم ، جعل لهم بدل البشارة تهكماً وهو كقول القائل « تحية بينهم ضربٌ وجيع » ﴿ أُولئِكَ ﴾ المتصفون بتلك الصفات القبيحة ﴿ الّذينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ ﴾ بطلت أعمالهم من البرِّ والحسنات ، ولم يبق لها أثر في الدارين ﴿ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه ، وفي الآية ذم لمن قتل الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، فبئس

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير ، ورواه ابن كثير أيضاً في تفسيره ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢ / ١٣ .

القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالمعروف ، وبئس القوم قوم لا يقومون بالقسط بين الناس ، ولا يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أبداً ، ولكنه لا ينفع الوعظ والزجر في آخر الزمان ، حين تشتد القلوب قساوة ، وتكون الأنفس مولعة بلذات الدنيا ، روي أن يهودياً قال لهارون الرشيد في سيره مع عسكره : اتق الله ، فلما سمع هارون قول اليهودي نزل عن فرسه ، وكذا العسكر نزلوا تعظيماً لإسم الله العظيم ، ومن أكبر الذنوب أن يقول الرجل لأخيه « اتق الله » فيقول في جوابه عليك نفسك ، أنت تأمرني بهذا ؟ ﴿ **أَلَمَ تَرَ** ﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ من حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم ﴿ **إِلَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً** ﴾ حظاً وافراً ﴿ **مِنَ الكِتابِ** ﴾ أي التوراة ﴿ **يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كتابِ اللهِ** ﴾ الذي أوتوا نصيباً منه وهو التوراة ﴿ **لِيَحْكُمَ** ﴾ ذلك الكتاب ﴿ **بَيْنَهُمْ** ﴾ إي ليفصل بينهم في خصوماتهم ، رُوي أنَّ رسول الله ﷺ دخل مِدْراس اليهود فدعاهم إلى الإيمان فقال له رئيسهم « نعيم بن عمرو » على أي دين أنت ؟ قال ﷺ : عَلَىٰ مِلّةِ إبْراهيمَ ، قال : إن إبراهيم كان يهودياً قال ﷺ : إن بيننا وبينكم التوراة فهاتوها فأبوا)[1] ﴿ **ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ** ﴾ استبعادٌ لرجوعهم بعد علمهم بوجوب الرجوع إلى حكمه ﴿ **وَهُمْ مُعْرِضونَ** ﴾ أي يتولون من المجلس وهم معرضون بقلوبهم ، أو اعتراض أي وهم قوم ديدنهم الإعراض عن الحق ، والإصرار على الباطل ﴿ **ذٰلِكَ** ﴾ أي التولي والإعراض ﴿ **بِأَنَّهُمْ** ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ **قالُوا لَنْ تَمسَّنا النَّارُ** ﴾ باقتراف الذنوب وركوب المعاصي ﴿ **إلاّ أيّاماً معْدوداتٍ** ﴾ أربعين يوماً وهي مدة الأيام التي عبدوا فيها العجل ﴿ **وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمِ ما كانوا يَفْتَرونَ** ﴾ من قولهم ذلك وما أشبهه من قولهم : ان آبائنا الأنبياء يشفعون لنا ، أو إن الله تعالى وعد يعقوب أن لا يعذب أولاده إلا تَحلَّة القسم ، ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح ﴿ **فَكَيْفَ** ﴾ أي فكيف يصنعون وكيف يكون حالهم ؟ ﴿ **إذا جَمعْنَاهُمْ لِيوْمٍ** ﴾ أي لجزاء يوم ﴿ **لا رَيْبَ فِيهِ** ﴾ أي في وقوعه ﴿ **وَوُفِّيت كُلُّ نفْسٍ ما كَسَبَتْ** ﴾ أي جزاء ما كسبت من غير نقص أصلاً ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي كل الناس ﴿ **لا يُظْلَمونَ** ﴾ بزيادة عذاب أو بنقص ثواب ، بل يصيب كلاً منهم مقدار ما كسبه ، فالله تعالى ليس من شأنه العظيم أن يظلم عباده ولو مثقال ذرة ، فعلى العاقل أن لا يقطع رجاءه من الله تعالى ، وإن كانت ذنوبه مثل زبد البحر ، فالله تعالى عند حسن ظن العبد به .

قال رسول الله ﷺ : (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ، ولا في قبورهم ، ولا في منشرهم ، كأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤسهم وهم يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن)[2] فالواجب على من كان مؤمناً أن يحمد الله على ما هداه ، وجعله مسلماً من الأمة الشريفة ، ولذا

(١) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢ / ١٤ .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن عمر ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٦١ .

قيل من علامات سوء العاقبة أن لا يشكر العبد على ما هدي به من الإيمان والتوحيد ، قال الإمام الغزالي رحمه الله في منهاج العابدين : مقدمات التوبة ثلاث : **إحداهما** ذكر غاية قبح الذنوب ، **والثانية** ذكر غاية عقوبة الله تعالى وأليم سخطه وغضبه الذي لا طاقة لك به ، **والثالثة** ذكر ضعفك وقلة حيلتك ، فإن من لا يحتمل حر الشمس ، ولطمة شرطي ، وقرص نملة ، كيف يحتمل حر نار جهنم ، وضرب مقامع الزبانية ، ولسع حيات كأعناق البخت ، وعقارب كالبغال خلقت من النار ، في دار الغضب والبوار ، نعوذ بالله من سخطه وعذابه ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ** ﴾ أصله ياألله ، فالميم عوض عن حرف حرف النداء ، ولذلك لا يجتمعان ، وهذا من خصائص الاسم الجليل ﴿ **مالِكَ الْمُلْكِ** ﴾ أي يامالك الملك على الإطلاق ، ملكاً حقيقياً يتصرف فيه كيف ما يشاء ﴿ **تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ** ﴾ ايتاءه اياه ﴿ **وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ** ﴾ نزعه منه ﴿ **وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ** ﴾ أن تعزه في الدنيا بالنصر والتوفيق ﴿ **وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ** ﴾ أن تذله من غير ممانعة ولا مدافعة ﴿ **بِيَدِكَ الْخَيْرُ** ﴾ أي بقدرتك الخير كله ، تتصرف فيه قبضاً وبسطاً حسبما تقتضيه مشيئتك ، وتخصيص الخير بالذكر وإن كان الكل من الله تعالى لمراعاة الأدب ﴿ **إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ من الإعزاز والإذلال ﴿ **تُولِجُ** ﴾ أي تدخل ﴿ **اللَّيْلَ فِي النَّهارِ** ﴾ بنقص الأول وزيادة الثاني ، حتى يصير النهار خمس عشرة ساعة ، والليل تسع ساعات ﴿ **وَتُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ** ﴾ أي وتدخل النهار في الليل ، حتى يطول الليل ويقصر النهار ﴿ **وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ** ﴾ أي تظهر الحيوان من النطفة ، أو الطير من البيضة ، أو العالم من الجاهل ، أو المؤمن من الكافر ، أو النبات من الأرض اليابسة ﴿ **وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ** ﴾ وهذا عكس الأول ﴿ **وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ** ﴾ بغير عدد وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هاتيك الأفاعيل العظام فقدرته على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ، ويؤتيه العرب ويعزهم ، أهون من كل هين ، وفي بعض الكتب : « أنا الله ملكُ الملوك ، قلوبُ الملوكِ ونواصيهم بيدي ، فإنِ العبادُ أطاعوني جعلتُهم لهم رحمةً ، وإنِ العِبادُ عَصَوْني جعلتهم عقوبةً ، فلا تشتغلوا بسبِّ الملوكِ ، ولكن توبوا إليَّ أُعطِّفهم عليكم » وهو معنى الأثر : « كما تكونون يُوَلَّى عليكم » ، معناه إن كنتم من أهل الطاعة يُولَّ عليكم أهل الرحمة ، وإن كنتم من أهل المعصية يولَّ عليكم أهل العقوبة ، وفيه إشارة إلى أن الولاة إنما يكونون على حسب أعمال الرعايا وأحوالهم ، صلاحاً وفساداً ، فعلى كل واحد من المسلمين التضرع لله تعالى ، والإنابة إليه بالتوبة والاستغفار ، عند فشوّ الظلم وشمول الجور ، ويظهر جور الوالي وعدله ، في الضرع ، والزرع ، والأشجار ، والأثمار ، يعني يقلُّ لبن الضرع ، وتنزع بركة الزرع ، وتنقص ثمار الأشجار ، وتكسد معاملة التجار في الأمصار التي ملك فيها ذلك الملك الجائر ، بشؤم ظلمه وسوء فعله ، ويكون الأمر على العكس إذا عدل ، ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه طاووس : إن أردت أن يكون عملك خيراً كله ،

فاستعمل أهل الخير ، فقال : كفى بها موعظة !

﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُوْنَ الكَافِرِينَ أَوْلِياءَ** ﴾ نهوا عن موالاتهم لقرابة أو صداقة أو جوار ونحوها ، حتى لا يكون حبهم ولا بغضهم إلا لله تعالى ، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية ﴿ **مِنْ دُونِ المؤْمِنِينَ** ﴾ أي متجاوزين المؤمنين إليهم استقلالاً واشتراكاً ، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة ، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكافرين ﴿ **وَمَنْ يفْعَلْ ذٰلكَ** ﴾ أي اتخاذهم أولياء ﴿ **فَلَيْسَ مِنَ اللهِ** ﴾ أي من ولايته تعالى ﴿ **في شَيْءٍ** ﴾ يعني أنه منسلخ من ولاية الله رأساً ، وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الولي ، وموالاة عدوه متنافيان قال الشاعر :

تـــود عـــــدوي ثم تـــزعم أنني * صديقك ليس النَّوْكُ عنك بعازب

النَّوْكُ : الحماقة والجنون ، والعازب : البعيد ، والفرضُ أنَّ الصديق هو من يودك ويبغض عدوك ﴿ **إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا** ﴾ استثناء من أعم الأحوال كأنه قيل لا تتخذوهم أولياء في حال من الأحوال إلا حال اتقاءكم ﴿ **مِنْهُمْ** ﴾ أي من جهتهم ﴿ **تُقاةً** ﴾ أي اتقاء بأن تغلب الكفار ، أو يكون المؤمن بينهم ، فإن إظهار الموالاة حينئذ مع اطمئنان النفس بالعداوة والبغضاء جائز ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ** ﴾ أي يخوفكم الله ذاته المقدسة بموالاة أعدائه ، وهذا وعيد شديد ﴿ **وإلىٰ اللهِ المصِيرُ** ﴾ أي إلى جزاء الله مرجع الخلق ، فيجزي كلاً بعمله ﴿ **قُلْ إنْ تُخْفوا ما في صُدورِكُمْ** ﴾ من الضمائر التي من جملتها ولاية الكفرة ﴿ **أَوْ تُبْدوهُ** ﴾ فيما بينكم ﴿ **يَعْلَمْهُ اللهُ** ﴾ فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه ﴿ **وَيَعْلَمُ ما في السّمواتِ وما في الأَرْضِ** ﴾ لا يخفى عليه منه شيء قط ، فلا يخفى عليه سركم وعلنكم ، وهو من باب إيراد العام بعد الخاص تأكيداً له وتقريراً ﴿ **وَاللهُ علىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ** ﴾ فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عما نهيتم عنه ، وهذا بيان لقوله تعالى ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ** ﴾ ولو علم بعض عبيد السلطان ، أنه أراد الإطلاع على أحواله ونصب عليه عيوناً ، وبثَّ من يتجسس عن بواطن أموره ، لأخذ حذره وتيقظ في أمره ، واتقى كل ما يتوقع فيه الاستراابة به ، فما بال من علم أن الله الذي يعلم السر وأخفى ، مهيمن عليه وهو آمن ، فالعاقل يخاف من الله ويكون حبه وبغضه لله ، يوالي المؤمنين ويعادي الكافرين .

والحب في الله والبغض في الله ، باب عظيم ، وأصل من أصول الإيمان ، والمحبة الصادقة لا تكون إلا عند المصافاة في الباطن ، لأن القلوب تتناسب فتتصافى كما قيل :

عن المرء لا تســـأل وأبصرْ قرينـــه * فكل قرين بـــالمقـــارن يقتـــدى

وينبغي أن يعلم أن المؤمن كما يلزم له أن يقطع الموالاة عن الكفار ، كذلك يقطع ذلك عن الأقرباء الفجار .

كما قال تعالى (**وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلىٰ أَنْ تُشرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا**) فمن تسبب لشقاوتك يجب تقاطعك عنه ، وان كان ذا قرابتك .

﴿ **يوْمَ** ﴾ منصوب بتودُّ ﴿ **تَجِدُ كُلُّ نفْسٍ** ﴾ أي من النفوس المكلفة ﴿ **ما عَمِلتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً** ﴾ عندها بأمر الله تعالى ﴿ **ومَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ** ﴾ عطف على ما عملت ، والإحضار معتبر فيه أيضاً ﴿ **تَوَدُّ** ﴾ أي تحب وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها من الخير والشر محضرة ﴿ **لَوْ أَنّ بيْنَها وَبَينَهُ** ﴾ أي بين النفس وبين العمل السوء ﴿ **أَمَداً بَعيداً** ﴾ أي مسافة واسعة كما بين المشرق والمغرب ولم تعمل ذلك السوء قط ﴿ **ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفسهُ** ﴾ أي يقول الله احذروا من سخطي ﴿ **وَاللهُ رَءُوْفٌ بِالعبادِ** ﴾ يعني أن تحذيره يدعوهم إلى طلب رضاه واجتناب سخطه ، فيحذرهم تحذير الوالد المشفق وَلَدَهُ عما يوبقه .

فعلى العاقل أن يزكي نفسه عن الأخلاق الذميمة ، ويطهر قلبه عن لوث العلائق الدنيوية ، ويجتهد في تحصيل مرضاة الله بالأعمال الصالحة ، كي يجدها عند ربه يوم احتياجه ويفوز بالسعادة ، كان رسول الله ﷺ يقول : « ياحنان يامنان ياذا الجلال والإكرام ، باعد بيني وبين خطيئتي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب ، ونقِّني من الخطايا كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدنس ، واغسلني بماء الثلج البارد ، سبحان الله وبحمده أستغفر الله العظيم وأتوب إليه »[1] ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتّبِعوني** ﴾ أثبت فيه الياء لأنه أصل ﴿ **يُحْبِبْكُمُ اللهُ** ﴾ نزلت حين دعا رسول الله ﷺ « كعب بن الأشرف » ومن تابعه إلى الإيمان فقالوا : نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبّاؤُهُ ، فقال تعالى لنبيه قل لهم : إني رسول الله أدعوكم إليه ، فإن كنتم تحبونه فاتبعوني على دينه وامتثلوا أمري يحببكم الله ويرضَ عنكم ﴿ **وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذنُوبَكُمْ** ﴾ أي بكشف الحجب عن قلوبكم ، والتجاوز عما فرط منكم ، فيقربكم من جنات عزه ، ويبوئكم في جوار قدسه ﴿ **وَاللهُ غَفورٌ رَحيمٌ** ﴾ أي لمن كان يتحبب للرسول ويتبع أمره ﴿ **قُلْ أَطيعُوا اللهَ والرّسولَ** ﴾ أي في جميع الأوامر والنواهي ﴿ **فَإِنْ تَوَلَّوْا** ﴾ أي تتولوا وتعرضوا ﴿ **فَإِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكَافِرِينَ** ﴾ أي لا يرضى عنهم ولا يثني عليهم ، ودلت الآية على شرف النبي عليه السلام ، فإنه جعل متابعته متابعة حبيبه ، وقرن طاعته بطاعته ، فمن ادعى محبة الله وخالف سنة نبيِّه فهو كذَّاب ، بنص كتاب الله تعالى كما قيل :

تعصي الإلـــه وأنت تظهر حبـــه * هـــذا لَعَمْري في الفعـــال شَنيـعُ
لـو كان حبـك صـادقـاً لأطعتـه * إنَّ المحبَّ لمن يُحِبُّ مُطِيـــــعُ

(١) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه .

وإنما كان من ادعى محبة الله وخالف سنة رسوله ، كاذباً في دعواه ، لأن من أحب آخر يحب خواصه والمتصلين به ، من عبيده وغلمانه ، وبيته وبنيانه ، ومحله ومكانه ، وغير ذلك فهذا هو قانون العشق ، وقاعدة المحبة ، وإلى هذا المعنى أشار المجنون العامري حيث قال :

أمرُّ على الديار ديار ليلى * أقبِّلُ ذا الجدارَ وذَا الجِدَارا
وما حبُّ الديارِ شَغَفْنَ قلبي * ولكنْ حبُّ من سكَنَ الديارا

﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ** ﴾ أي إن لم تستطيعوا متابعة حبيبي ، فلا أقل من أن تكونوا مطيعين لما أمرتم به ، فإن المريد يلزمه طاعة المراد وامتثال أمره ﴿ **فَإِنْ تَوَلَّوْا** ﴾ أي إن أعرضوا عن ذلك أيضاً فهم كفار محجوبون ، روي أنّ النبي ﷺ كان آخذاً بيد عمر رضي الله عنه ، فقال عمر : يارسول الله أنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا نفسي ، فقال عليه السلام : والذي نفس محمد بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ، فقال عمر : فإنه الآن والله أنت أحب إليَّ من نفسي فقال عليه السلام : الآن ياعمر[1]وقال رسول الله ﷺ « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى »[2] وعن جابر بن عبد الله أنه قال « جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم ، فقال بعضهم إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً ، فقالوا مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة ، وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ، فقالوا أوِّلوها له يفقهها ، فقالوا : الدار الجنة ، والداعي محمد ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله »[3] ﴿ **إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ** ﴾ الاصطفاء أخذ ماصفا من الشيء كالاستصفاء أي اختار آدم بالنفس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية أو اصطفاه بأن خلقه بيده في أحسن تقويم ، وبتعليم الأسماء ، وإسجاد الملائكة له ، وإسكانه الجنة ﴿ **وَ** ﴾ اصطفى ﴿ **نُوحاً** ﴾ بكونه أول من نسخ الشرائع وبإطالة عمره ، وجعل ذريته هم الباقين ، واستجابة دعوته ﴿ **وَ** ﴾ اصطفى ﴿ **آلَ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ وهو إسماعيل واسحٰق والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبي ﷺ ، ويفهم من اصطفائهم اصطفاء إبراهيم بطريق الأولوية ﴿ **وَ** ﴾ اصطفى ﴿ **آلَ عِمْرانَ** ﴾ وهو عيسى وأمه مريم ابنة عمران ﴿ **عَلَى العَالَمِينَ** ﴾ جمع عالم وهو اسم لنوع من المخلوقين فيه علامة يمتاز بها عن خلافه ، والمراد بالعالمين أهل

(١) أي : الآن صار إيمانك كاملاً ، والحديث أخرجه أبو داود بلفظ : « لا يؤمن عبد حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه ، وأهلي أحب إليه من أهله .. » الحديث وانظر جمع الفوائد ١ / ٢١ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام ١٣ / ٢١٤ وانظر جامع الأصول ٩ / ١٩٤ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ٦ / ٢١٣ ورواه الترمذي بنحوه في الأمثال برقم / ٢٨٦٤ / وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٤١ .

زمان كل واحد منهم ، أي اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه ﴿ ذُرِّيَّةً ﴾ نصب على البدلية من الآلين ﴿ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ يعني أن الآلين ذرية واحدة متسلسلة ، بعضها متشعب من بعض ، فإن آل ابراهيم أعني إسماعيل واسحق ، متشعبان من إبراهيم ، المتشعب من نوح ، المتشعب من آدم ، وأولادهما إلى آخر أنبياء بني إسرائيل متشعبون منهما ، وآل عمران وهو موسى وهارون من ذرية إبراهيم ، وكذا عيسى وأمه مريم عليهما السلام ﴿ واللهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوال العباد ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأعمالهم البادية والخافية ، فيصطفي من بينهم لخدمته من يظهر استقامته قولاً وفعلاً ، فأخصُّ المراتب هو المحبة المشار إليها بقوله ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ فلذلك كان أفضلهم حبيب الله محمداً عليه السلام ، وقد قيل : الآباء ثلاثة : أب ولدك ، وأب ربَّاك ، وأب علَّمك ﴿ إِذْ ﴾ منصوب باذكر ﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ وهي امرأة عمران بن ماثان ، أم مريم البتول ، جدة عيسى عليه السلام ، وهي « حَنَّةَ بنت فاقوذا » روي أنها كانت عاقراً لم تلد إلى أن عجزت ، فبينا هي في ظل شجرة بصرت بطائر يطعم فرخاً له ، فتحركت نفسها للولد وتمنته ، فقالت اللهم إن لك عليَّ نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس ، فيكون من سدنته وخدمه ، فحملت بمريم ، وهلك عمران وهي حامل وذلك قوله تعالى ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ﴾ والنذر ما يوجبه الإنسان على نفسه ﴿ مَا فِي بَطْنِي ﴾ عبر عن الولد بـ « ما » لإبهام أمره ، وقصوره عن درجة العقلاء ﴿ مُحَرَّراً ﴾ أي معتقاً لخدمة بيت المقدس ، أو خالصاً لله ولعبادته ، وكان هذا النذر مشروعاً عندهم ، ولم يكن يحرر إلا الغلمان ، ولا تصح له الجارية ، لما يصيبها من الحيض والأذى ، فتحتاج إلى الخروج ، ولكن حررت « حنة » ما في بطنها مطلقاً فجعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الولد الذكر ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّي ﴾ أي ما نذرته والتقبل : أخذ الشيء على وجه الرضى ، وهذا في الحقيقة استدعاء للولد ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ﴾ لجميع المسموعات التي من جملتها تضرعي ودعائي ﴿ العَلِيمُ ﴾ لكل المعلومات التي من زمرتها ما في ضميري ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ أي ولدت النسمة أنثى ﴿ قَالَتْ ﴾ حنة وكانت ترجو أن تكون غلاماً ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ ﴾ تحسراً على ما رأته من خيبة رجائها وعكس تقديرها ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ ﴾ تعظيم من جهته تعالى لموضوعها ، فإنها لما تحسرت وتحزنت على أن ولدت أنثى ، قال الله تعالى : إنها لا تعلم قدر هذا الموهوب ، والله هو العالم بالشيء الذي وضعته وما علق به من العجائب وعظائم الأمور ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَىٰ ﴾ مقولٌ لله أيضاً مبين لتعظيم موضوعها ورفع منزلته ، أي ليس الذكر الذي كانت تطلبه ، كالأنثى التي وهبت لها ، وهاتان الجملتان من مقول الله تعالى ، اعتراضان بين قول أم مريم ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ﴾ وقولها ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ وفائدتها التسلية لنفس حنة ، والتعظيم لوضعها ﴿ وإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ من مقول حنة أي إني جعلت اسمها « مَرْيَمَ » وغرضها من عرضها على علام الغيوب التقرب إليه تعالى

واستدعاء العصمة لها ﴿ وإنيّ أُعِيذُها بِكَ ﴾ أي أجيرها بحفظك ﴿ وَذُرِّيَتَها ﴾ أي أولادها ﴿ مِنَ الشّيطانِ الرّجِيمِ ﴾ أي المطرود ، وأصل الرجم الرميُ بالحجارة ، وعن النبي ﷺ « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسُّه حين يولد ، فيستهل صارخاً من مسه ، إلا مريم وابنها »[1] ومعناه إن الشيطان يطمع في اغواء كل مولود بحيث يتأثر منه ، إلا مريم وابنها فإن الله تعالى عصمها ببركة هذه الاستعاذة ﴿ فَتَقَبّلَها ﴾ أي أخذ مريم ورضي بها في النذر مكان الذكر ﴿ رَبُّها ﴾ مالكها ومبلغها إلى كالها اللائق ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ بوجه حسن وهو قبول تلك الأنثى مع أنوثتها وصغرها ، وعدم قدرتها على خدمة المسجد ﴿ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً ﴾ مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها مما يصلح في جميع أحوالها ، ثم إن الله تعالى ذكر قبولها منها وذلك لضعفها وصدق نيتها في الابتداء وحيائها في الانتهاء ﴿ وَكَفّلَها زَكَرِيّا ﴾ أي وضمَّها الله إلى زكريا ، وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها ، قائماً بتدبير أمورها ، والكافل هو الذي ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه ، وفي الحديث « أنا وكافل اليتيم كهاتين »[2] .

روي أن « حنَّة » حين ولدت مريم لفتها في خرقة ، وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة أي خذوها ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندي خالتها فقالوا : لا حتى نقرع عليها ، فانطلقوا إلى نهر الأردن ، فألقوا فيه أقلامهم التي كانوا يكتبون بها الوحي ، على أن كل من ارتفع قلمه فهو الراجح ، فألقوا ثلاث مرات ففي كل مرة يرتفع قلم زكريا فوق الماء ، ورسبت أقلامهم فتكفلها ، ﴿ كُلّما ﴾ أي كل وقت ﴿ دَخَلَ عَلَيْها ﴾ أي على مريم ﴿ زَكَرِّيا المِحْرابَ ﴾ أي في المحراب ، قيل : بنى لها محراباً في المسجد ، أي غرفة تصعد إليها بسلم روي أنها كان لا يدخل عليها إلا هو وحده ، فإذا خرج غلّق عليها سبعة أبواب ، فكلما دخل ﴿ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً ﴾ أي نوعاً منه غير معتاد ، كان يجد عندها في الصيف فاكهة الشتاء ، وفي الشتاء فاكهة الصيف ﴿ قالَ يامَرْيَمُ أنّىٰ لَكِ هَذا ﴾ أي من أين يجيء لك هذا ؟ الذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت في غير حينه ﴿ قالَتْ ﴾ مريم وهي صغيرة ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ فلا تعجب ولا تستبعد ﴿ إنّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ ﴾ أن يرزقه ﴿ بِغَيْرِ حِسابٍ ﴾ أي بغير تقدير لكثرته ، أو بلا محاسبة ، وهو تعليل لكونه من عند الله ، وفي الآية دليل على جواز الكرامة للأولياء ، ومن أنكرها جعل هذا إرهاصاً وتأسيساً لرسالته عليه السلام ، عن النبي ﷺ أنه جاع في زمن قحط فأهدت له فاطمة رضي الله عنها رغيفين وبَضْعة لحم ، آثرته بها فرجع بها إليها وقال : « هلمي يابنية » فكشفت عن الطبق فإذا هو مملوء خبزاً ولحماً ، فبهتت وعلمت أنها نزلت من عند الله ، فقال لها ﷺ عنه أنى لك هذا؟ فقالت « هو من

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم بلفظ « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » .

عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » فقال ﷺ : الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة بني إسرائيل » ثم جمع رسول الله ﷺ علياً والحسين رضي الله عنهم وجمع أهل بيته عليه فأكلوا وشبعوا وبقى الطعام كما هو ، فأوسعت فاطمة رضي الله عنها على جيرانها »[1] وقد ظهر على السلف رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين ثم على من بعدهم من الكرامات الشيءُ الكثير ، حج سفيان الثوري مع شيبان الراعي رضي الله عنهما فعرض لهما سبع ، فقال سفيان لشيبان : أما ترى هذا السبع ؟ فقال : لا تخف ، وأخذ شيبان أذنيه فعركها ، فتبصْبصَ وحرَّك ذنبه ، فقال سفيان : ما هذه الشهرة ؟ فقال : لولا مخافة الشهرة لما وضعت زادي إلا على ظهره حتى آتي مكة .

﴿ **هُنالِكَ** ﴾ لما رأى زكريا عليه السلام حال مريم في كرامتها على الله ، رغب في أن يكون له ولد ، مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة على الله ، وإن كانت عاقراً عجوزاً ﴿ **دَعا زَكَرِّيا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هبْ لي مِنْ لَدُنْكَ** ﴾ أي أعطني من محض قدرتك ، من غير طريقٍ معتاد ﴿ **ذُرِّيةً طَيِّبَةً** ﴾ أي ولداً صالحاً مباركاً تقياً رضياً مرضياً ، والذرية : النسل ، تقع على الواحد والجمع ، والمراد ههنا ولد واحد ، والطيب : هو الذي تستطاب أفعاله وأخلاقه ، فلا يكون فيه أمر يستخبث ويعاب ﴿ **إنّكَ سَميعُ الدُّعاءِ** ﴾ أي مجيبه كما في قولهم : سمع الله لمن حمده ، وهذا لأن من لم يجب فكأنه لم يسمع ، فإن قيل : إن زكريا كان عالماً في قدرة الله ذلك ، قبل رؤية حال مريم ، فهلاَّ سأل قبل ذلك ؟ قلنا : قد يزداد الإنسان رغبة في الشيء إذا عاينه ، وإن كان عالماً به قبله ﴿ **فَنادَتْهُ الملائِكَةُ** ﴾ أي جبرائيل ولما كان جبرائيل رئيسهم ، عبر عنه باسم الجماعة تعظيماً له ﴿ **وَهُوَ** ﴾ أي والحال أن زكريا عليه السلام ﴿ **قائِمٌ يُصَلّي في المحْرابِ** ﴾ أي في المسجد أو في غرفة مريم ﴿ **أنّ اللهَ** ﴾ أي بأن الله تعالى ﴿ **يُبشِّرُكِ بِيحْيىٰ** ﴾ أي بولد إسمه يحي ﴿ **مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ** ﴾ أي بعيسى عليه السلام ، وإنما سمي « كلمة الله » وروح منه لأنه مظهر قوله « كنْ » قال السدي : « لقيت أم يحي أم عيسى ، فقالت : يا مريم أشعرت بحبلي ؟ فقالت مريم : وأنا أيضاً حبلى ، قالت : فإني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك » وكان يحي أكبر من عيسى بستة أشهر ، ثم قتل يحي قبل أن رفع عيسى إلى السماء ﴿ **وَسَيِّداً** ﴾ أي رئيساً يسود قومه ، ويفوقهم في الشرف ﴿ **وَحَصُوراً** ﴾ أي مبالغاً في حصر النفس ، وحبسها عن الشهوات مع القدرة ، وروي أنه مر في صباه بصبيان ، فدعوه إلى اللعب ، فقال : ما للَّعبِ خلقتُ !! والحصُور : الممتنعُ من النساء مع القدرة عليهن ﴿ **وَنَبِيّاً** ﴾ أي يوحى إليه إذا بلغ هومبلغه ﴿ **مِنَ الصّالحينَ** ﴾ أي ناشئاً منهم ، لأنه كان من أصلاب الأنبياء عليهم السلام ، ﴿ **قالَ** ﴾ عند نداء الملائكة إياه وبشارتهم له بالولد متعجباً من حيث العادة ﴿ **رَبِّ أنّى يكونُ لي** ﴾ أي كيف يحصل لي ﴿ **غُلامٌ** ﴾ وفيه دلالة على أنه أخبر بكونه

(١) الحديث أخرجه الحافظ أبو يعلى من حديث جابر ، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ١ / ٢٨٠ والقصة مشهورة .

غلاماً عند التبشير ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ ﴾ أي أدركني كبر السن ، وأثر فيّ ، قيل : كان له تسعة وتسعون سنة ، ولامرأته ثمان وتسعون ﴿ وامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ أي ذات عقر وعقيم لا تلد ﴿ قَالَ ﴾ أي الله ﴿ كَذٰلِكَ اللهُ يفْعَلُ ما يَشاءُ ﴾ أي ما يشاء أن يفعله ، من تعاجيب الأفاعيل الخارقة للعادات ، فعلاً مثل ذلك الفعل العجيب ، والصنع البديع ، الذي هو خلق الولد من شيخ فانٍ ، وعجوز عاقر ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعلْ لي آيَةً ﴾ أي علامة تدل على تحقق المسئول ، أو وقوع الحبل ﴿ قَالَ آيَتُكَ ﴾ أي علامة حدوث الولد ﴿ أَنْ لا تُكَلِّمَ النّاسَ ﴾ أي أن لا تقدر على تكليمهم ﴿ ثَلٰثَةَ أَيّامٍ ﴾ أي متوالية مع لياليها لذكر الله وشكره ، قضاء لحق النعمة ﴿ إِلاَّ رَمْزاً ﴾ أي إلاَّ بالإشارة ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ أي اذكره بالمساء والصباح ، فأما في الذكر والتسبيح فقد كان لسانه جيداً ، وكان ذلك من المعجزات الباهرة ، **والقول الثاني** أن المراد منه الذكر بالقلب ، وذلك لأن المستغرقين في محبَّة الله تعالى ، عادتهم في أول الأمر أن يواظبوا على الذكر اللساني مدة ، فإذا امتلأ القلب من نور ذكر الله سكتوا باللسان وبقي الذكر بالقلب ، واعلم أن الذكر على مراتب ، والذكر اللساني بالنسبة إلى الذكر القلبي أنقص ، روي أن عيسى عليه السلام حين ترقى إلى أعلى مراتب الذكر ، جاءه إبليس فقال : ياعيسى اذكر الله ، فتعجب عيسى من أمره بالذكر ، مع أن جبلَّته على المنع منه ، فقال : اغربْ ياعدوَّ اللهِ ، ثم ظهر أنه أراد أن يغويه ، وينزله من مرتبة الذكر القلبي ، إلى مرتبة الذكر اللساني ، وذلك كان تنزلاً بالنسبة إلى مقامه عليه السلام[1].

قال القشيري : فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب ، والتأثير للذكر ، فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه ، فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه ، قال سهل بن عبد الله : ما من يوم إلا والجليل سبحانه ينادي : عبدي ما أنصفتني ، أذكرك وتنساني ، وأدعوك إليّ وتذهب إلى غيري ، وأُذهبُ عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا ، يابن آدم ما تقول غداً إذا جئتني ؟ وقال الحسين : افتقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، والذكر ، والقراءة ، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الملائِكَةُ ﴾ أي اذكر وقت قول الملائكة ، وهو « جبريل » بدلالة قوله تعالى في سورة مريم ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوْحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِّياً ﴾ وإنما جمع تعظيماً له ، لأنه كان رئيس الملائكة ﴿ يامَرْيَمُ ﴾ وكلام جبريل معها لم يكن وحياً إليها ، فإن الله يقول : (**وما أَرْسَلْنا مِنْ قَبلِكَ إِلاّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ**) ولا نبوة في النساء بالإجماع ، فكلَّمها شفاهاً كرامة لها ، وكرامات الأولياء حقٌّ ، ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ ﴾ حيث تقبلك من أمك بقبول حسن ، ورباك في حجر زكريا ، وخصك بالكرامات السنية ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ من الأفعال الذميمة ، والعادات القبيحة ، ومن مسيس الرجال ، ومن

(١) المراد بالذكر القلبي أن يبقى العبد دائم الصلة مع الله عز وجلّ ، وأن يراقبه في كل تصرفاته فلا يغيب عنه ، وهي مرتبة الإحسان التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

الحيض والنفاس﴿ وَاصْطَفَاكِ ﴾ آخراً ﴿ عَلَى نِسَاءِ العَالَمِينَ ﴾ بأن وهب لك عيسى عليه السلام من غير أبٍ ، ولم يكن ذلك لأحد من النساء ، وجعلكما آية للعالمين ﴿ يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ ﴾ أي قومي في الصلاة وأطيلي القيام فيها له تعالى ﴿ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أمرت بالصلاة بالجماعة ، بذكر أركانها: القنوت وهو طول القيام ، والسجود والركوع مبالغة في ايجاب رعايتها ، وتقديم السجود على الركوع لكون السجود أفضل أركان الصلاة ، وأقصى مراتب الخضوع ، ولا يقتضي ذلك كون الترتيب الخارجي كذلك ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي ما ذكرنا في القصص ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ ﴾ أي من أخبار الغيب ، التي لا يوقف عليها إلا بمشاهدة ، أو قراءة كتاب ، أوتعلم من عالم ، أو بوحي من عند الله تعالى ، وانعدمت الثلاثة الأُوَلُ ، فتعينت الرابعة وهو الوحي ﴿ نُوْحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أي ننزله عليك دلالة على صحة نبوتك ، وإلزاماً على من يحاجونك من الكفار ، والوحي في القرآن ورد لمعانٍ للإرسال إلى الأنبياء (نُوحِي إِلَيْهِمْ) وللإلهام (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ) ولإلقاء المعنى المراد (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا) وللإشارة (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) وأصل ذلك كله الإعلام في خفاء ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي عند الذين اختلفوا وتنازعوا في تربية مريم ، وهو تقريرٌ لكونه وحياً على طريقة التهكم بمنكريه أي إنهم عالمون لا يشكون أنك لم تقرأ كتاباً ، ولم تصحب من علم تلك الأنباء حتى تسمع منهم ، فلم يبق إلا المشاهدة وهي منتفية بالضرورة ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ التي كانوا يكتبون بها التوراة ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أي يلقونها ليعلموا أيهم يكفلها ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي في شأنها تنافساً في كفالتها ، وفي الآية دلالة على فضيلة مريم ، حيث اصطفاها الله على العالمين ، وعن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ (سيدة نساء العالمين : مريم، ثم فاطمة ، ثم خديجة ، ثم آسية)[1] حديث حسن ، يوافق الآية في الدلالة على أن مريم أفضل من جميع نساء العالمين ، وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ : (حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون)[2] وهو يدل على أن هؤلاء الأربع أفضل من سائر النساء ، وأعلم أن أهل الكمال من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء غير هذه الأربع ، ومعنى الكمال التناهي في الفضائل والبر والتقوى ، والكمال في شيء ما يكون حصوله للكامل أولى من غيره ، والنبوة ليست أولى للنساء ، لأنَّ مبناها على الظهور والدعوة ، وحالهن الاستتار ، ولا تكون النبوة في حقهن كالاً ، بل الكمال في حقهن « الصديقية » وهي قريب من النبوة ، والصدّيق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فمن النساء كاملات عارفات ، واصلات إلى مقام الرجال ، فهن رجال في المعنى ، قال بعضهم :

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ : « سيّداتُ نساء أهل الجنة أربع .. » الحديث ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٦٩ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في المناقب ، وأحمد في المسند ، وابن حبان ، والحاكم ، وانظر جامع الأصول ٩ / ١٢٥ .

ولـو كان النســـاء كمن ذكرنـــا * لفُضّلتِ النســـاءُ على الرجـــال
فـلا التـــأنيث لاسم الشمس عيب * ولا التـــذكير فخرٌ للهـــلال

﴿ إِذْ قَالَتِ الملائِكَةُ ﴾ المراد بالملائكة جبريل ، وجمعَ تعظيماً له وقد مر ﴿ يامرْيَمُ إِنّ اللهَ يُبَشِّرُكِ ﴾ أي يخبرك بما يُفْرِح ﴿ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ عز وجل وهي ﴿ كُن ﴾ وحدوث كل مخلوق وإن كان بسبب هذه الكلمة ، لكن السبب المتعارف للحدوث لما كان مفقوداً في حق عيسى ، كان إسناد حدوثه إلى الكلمة أتم وأكمل ﴿ اسْمُهُ ﴾ أي اسم المسمى بالكلمة ﴿ المسِيحُ ﴾ لقب من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق ، وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه المبارك ﴿ عِيسىٰ ﴾ بدل من المسيح ﴿ ابنُ مَرْيَمَ ﴾ صفة لعيسى ، وتوجه الخطاب إلى مريم ، يَقتضي أن يقال : عيسى ابنك ، إلا أنه قيل « عيسى بن مريم » تنبيهاً على أن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، فأُعْلِمَتْ بنسبته إليها أنه يولد من غير أب ، فلا ينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت واصطفيت على نساء العالمين ﴿ وَجِيهاً ﴾ الوجيه : ذو الجاه وهو القوة والمنعة والشرف ﴿ فِي الدُّنْيا ﴾ بالنبوة والتقدم على الناس ﴿ والآخِرَةِ ﴾ بالشفاعة وعلو الدرجة في الجنة ﴿ وَمِنَ المقَرَّبِينَ ﴾ أي عند ربه بارتفاعه إلى السماء ، وصحبة الملائكة فيها ﴿ وَيُكَلِّمُ النّاسَ فِي المهْدِ وكَهْلاً ﴾ أي يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً كلام الأنبياء عليهم السلام ، من غير تفاوت يعني أن تكلمه في حالة الطفولية والكهولة على حد واحد وصفة واحدة ، ولا شك أنه من أعظم المعجزات .

روي أنا لما بلغ عمره ثلاثين سنة ، أرسله الله إلى بني إسرائيل ، فمكث في رسالته ثلاثين شهراً ، ثم رفع إلى السماء، والكهل من تجاوز الأربعين وقارب الشيب، رفع شاباً ولا يكلم الناس كهلاً إلا بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان ، فإنه حينئذ يكلم الناس ويقتل الدجال ﴿ وَمِنَ الصّالِحِينَ ﴾ هذه الأربعة أحوال مقدرة من كلمة ، والمعنى يبشرك به موصوفاً بهذه الصفات ، وذكر قوله ومن الصالحين دليل على أنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً على النهج الأصلح والطريق الأكمل ﴿ قَالَتْ ﴾ مريم متضرعة إلى ربها ﴿ رَبِّ أنّى يَكونُ ﴾ أي كيف يكون ﴿ لِي وَلَدٌ ﴾ على وجه التعجب من استعظام قدرة الله ، فإن البشرية تقتضي التعجب مما وقع على خلاف العادة ، إذ لم تجر عادة بأن يولد ولد بلا أب ﴿ ولَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ آدمي وهو كناية عن الجماع ، أي والحال أني على حالة منافية للولد ﴿ قَالَ ﴾ أي الله عز وجل ، أو جبريل عليه السلام ﴿ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي الله يخلق ما يشاء أن يخلقه ، خلقاً مثل ذلك الخلق العجيب الذي هو خلق الولد من غير أب ﴿ إِذا قَضَىٰ أَمْراً ﴾ أي أراد شيئاً ، وأصل القضاء الإحكام ، أطلق على الإرادة الإلهية القطعية ، المتعلقة بوجود الشيء ، لإيجابية إياه البتّةَ ﴿ فإنّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فيكونُ ﴾ من غير تريث ، وهو تمثيل لكمال قدرته تعالى ، وسهولة تأتّي المقدورات

حسبما تقتضيه مشيئته ، وتصوير لسرعة حدوثها ، بما علم فيها من إطاعة المأمور المطيع ، للآمر القوي المطاع ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنَّ مريم رضي الله عنها كانت في غرفة قد ضربت دونها ستراً إذا هي برجل عليه ثياب بيض وهو جبريل، تمثَّل لها بشراً سوياً أي تام الخلق فلما رأته قالت أعوذ بالرحمن منك إن كنتَ تقياً، ثم نفخ في جيب درعها حتى وصلت النفخة إلى الرحم فحملت به ﴿ **وَيُعَلِّمُهُ** ﴾ أي ويعلم الله عيسى ﴿ **الكِتابَ** ﴾ أي الكتابة والخط بالقلم بالإلهام والوحي ، وكان أحسن الناس خطاً في زمانه ﴿ **والحِكْمَةَ** ﴾ أي العلوم العقلية والشرعية ، وتهذيب الأخلاق ، لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ومجموعها هو المسمى بالحكمة ﴿ **والتوْراة والإنجيلَ** ﴾ فيحفظها عن ظهر قلب ، وهذا الكلام سيق تطييباً لقلب مريم ، وإزاحة لما أهمها من خوف اللائمة ، لما علمت أنها تلد من غير زوج ﴿ **و** ﴾ يجعله ﴿ **رَسُولاً إلىٰ بني إسْرائيل أنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ أي يكلمهم ، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف عليه السلام وآخرهم عيسى عليه السلام ﴿ **أنِّي أَخْلُقُ** ﴾ أي أقدر وأشكل ، لأنه قد ثبت أن العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والإبداع ، فوجب أن يكون بمعنى التقدير والتسوية ﴿ **لَكُمْ** ﴾ أي لأجلكم لإيمانكم ورفع تكذيبكم ﴿ **مِنَ الطِّينِ** ﴾ شيئاً ﴿ **كهيْئَةِ الطّيْرِ** ﴾ أي مثل صورة الطير ﴿ **فَأَنْفُخُ فيهِ** ﴾ الضمير للطَّير أي في ذلك الشيء الماثل لهيئة الطير ﴿ **فَيَكُونُ طيْراً** ﴾ حياً طياراً كسائر الطيور ﴿ **بإذْنِ اللهِ** ﴾ بأمره تعالى ، إشار بذلك إلى أن إحياءه من الله تعالى ، لا منه على سبيل إظهار المعجزات روي أن عيسى عليه السلام ، لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات ، طالبوه بخلق خفاش ، فأخذ طيناً وصوَّره ، ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض ﴿ **وَأُبْرِىءُ** ﴾ أي أشفي وأصحح ﴿ **الأَكْمَهَ** ﴾ أي الذي ولد أعمى ﴿ **والأَبْرَصَ** ﴾ وهو الذي به برص أي بياض في الجلد يتطير به ، إذا استحكم فلا برء له ولا يزول بالعلاج ، ولم تكن العرب تنفر من شيء نُفرتها منه ، وإنما خصهما بالذكر للشفاء لأنهما مما أعيا الأطباء وكانوا في غاية الحذاقة في زمن عيسى عليه السلام،روي أنه أبرأ في يوم واحد خمسين ألفاً من المرضى ، من أطاق منهم أتاه ، ومن لم يُطِقْ أتاه عيسى عليه السلام ، وكان يداويهم بالدعاء وحده على شرط الإيمان ، ثم قال عيسى عليه السلام ﴿ **وَأُحْيِي الموْتىٰ بإذْنِ اللهِ** ﴾ طلبوا أن يحي الموتى ، فأحيا أربعة أنفس ، أحيا العازر وكان صديقاً له ،فأرسلت أخته إلى عيسى إن أخاكَ العازر يموت ، فأُتِه فكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام ، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قدمات منذ ثلاثة أيام ، فقال : لأخته : انطلقي بنا إلى قبره فانطلقت معهم إلى قبره ، فقال عيسى عليه السلام : اللهمَّ رب السموات السبع ، والأرضين السبع ، إنك أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك ، وأخبرهم أني أحيي الموتى ، فأحي العازر فقام العازر فخرج من قبره، وأحيا ابن عجوز مُرَّ به ميتا على عيسى على سرير يحمل ، فدعا عيسى الله فجلس على سريره ونزل على أعناق الرجال

ولبس ثيابه ورجع إلى أهله فبقي وَوُلد له ، وأحيا ابنة العاشر ـ الذي يأخذ العشور ـ قيل له أحيها وقد ماتت أمس فدعا الله تعالى فعاشت وبقيت وولد لها بل وأحيا سام بن نوح ﴿ **وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ** ﴾ من أنواع المآكل ﴿ **وَمَا تَدَّخِرُونَ** ﴾ أي وما تخبأون للغد ﴿ **فِي بُيُوتِكُمْ** ﴾ فكان يخبر الرجل بما أكل قبل وبما يأكل بعد ، ويخبر الصبيان وهو في المكتب بما يصنع أهلهم ، وبما يأكلون ويُخبِّئون لهم ، وكان الصبي ينطلق إلى أهله ويبكي حتى يعطوه ما خبأوا له ، ثم قالوا لصبيانهم لا تلعبوا مع هذا الساحر ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ** ﴾ أي ما ذكر من الخوارق والأمور العظام ﴿ **لآيَةً** ﴾ عظيمة ﴿ **لَكُمْ** ﴾ دلالة على صحة رسالتي دلالة واضحة ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ مؤمنِينَ** ﴾ انتفعتم بها ﴿ **وَمُصَدِّقاً** ﴾ أي قد جئتكم ملتبساً بآية ومصدقاً ﴿ **لِما بيْنَ يَدَيَّ** ﴾ أي لما تقدمني ﴿ **مِن التْوراةِ** ﴾ أي موافقاً على ما كان قبلي ﴿ **و** ﴾ جئتكم ﴿ **لأُحِلَّ لَكُمْ** ﴾ لأن أرخص لكم ﴿ **بعْضَ الّذي حُرِّمَ عَليْكُمْ** ﴾ أي في شريعة موسى عليه السلام ، من لحوم السمك ولحوم الإبل ، والشحوم ولحم كل ذي ظفر ﴿ **وَجِئْتُكُمْ** ﴾ ملتبساً ﴿ **بِآيةٍ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ ببرهان بيِّن شاهد على صحة رسالتي ﴿ **فاتَّقُوا اللهَ** ﴾ في عدم قبولها ومخالفة مدلولها ﴿ **وَأَطيعُونِ** ﴾ فيما آمركم به وأنها كم عنه بأمر الله تعالى ، وتلك الآية هي قوله ﴿ **إِنَّ اللهَ رَبِّي وَربُّكُمْ فاعْبُدوهُ** ﴾ ولا تعصوه بالشرك ﴿ **هَذَا** ﴾ أي الإيمان بالله ورسوله والطاعة ﴿ **صِراطٌ مسْتَقيمٌ** ﴾ طريق سوي يؤدي صاحبه إلى الجنة ﴿ **فلَمّا** ﴾ الفاء فصيحة تفصح عن تحقق جميع ما قالته الملائكة وخروجه من القوة إلى الفعل ، كأنه قيل : فحملته فولدته فكان كيت وكيت وقال ذيت وذيت ﴿ **أَحَسّ عِيسىٰ** ﴾ أحسَّ من الإحساس وهو وجدان الشيء بالحاسة ، كأنه قيل : فلما علم : ﴿ **مِنْهُمُ الكُفْرَ** ﴾ علماً لا شبهة فيه ، مما يدرك بالحواس وأرادوا قتله ، وعلم أنهم لا يزدادون على رؤية الآيات إلا الإصرار على الجحود ﴿ **قَالَ** ﴾ لخلّص أتباعه مستنصراً على الكفار ﴿ **مَنْ أَنْصَارِي** ﴾ جمع نصير ﴿ **إِلَى اللهِ** ﴾ من أنصاري متوجّهاً إلى الله ، ومن أعواني على إقامة الدين ؟ ﴿ **قَالَ الحوارِيّونَ** ﴾ جمع حواري أي صفوته وخاصته ، وهم اثنا عشر بعضهم من أبناء الملوك ، وبعضهم من صيادي السمك ، وبعضهم من القصارين ، وبعضهم من الصباغين ، والكل سموا بالحواريين ، لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام وأعوانه ، والمخلصين في محبته وطاعته ﴿ **نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ** ﴾ أي أنصار دينه ورسوله ﴿ **آمنّا باللهِ** ﴾ استئناف جار مجري العلة لما قبله ، فإن الإيمان به تعالى موجب لنصرة دينه ، والذبِّ عن أوليائه والمحاربة لأعدائه ﴿ **واشْهدْ بأنّا مسْلِمونَ** ﴾ مخلصون في الإيمان منقادون لما تريد من أمر نصرتك ﴿ **رَبَّنا آمنّا بما أَنْزلْتَ** ﴾ من الإنجيل على عيسى ، وهو تضرع إلى الله تعالى ﴿ **واتَّبعْنا الرّسُولَ** ﴾ أي عيسى على دينه في كل أمور الدين ﴿ **فاكْتُبْنا مَع الشّاهِدينَ** ﴾ أي مع الذين يشهدون بوحدانيتك ، أو مع أمة محمد ﷺ فإنهم شهداء على الناس قاطبة ﴿ **وَمَكَرُوا** ﴾ أي اليهود بأن وكلوا به من يقتله غِيلَةً ، وهو أن يخدعه فيذهب

به إلى موضع ، فإذا صار إليه قتله ﴿ **ومَكَرَ اللهُ** ﴾ بأن رفع عيسى عليه السلام ، وألقى شبهة على من قصد اغتياله حتى قُتِلَ ﴿ **واللهُ خيْرُ الماكِرينَ** ﴾ أقواهم مكراً ، وأنفذهم كيداً ، وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب .

روي أن ملك بني إسرائيل لما قصد قتله عليه السلام ، أمره أن يدخل بيتاً فيه رَوْزَنة[1] فرفعه جبريل عليه السلام من تلك الروزنة إلى السماء ، وكساه الله الريش وألبسه النور ، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب ، وطار مع الملائكة حول العرش ، وكان إنسياً ملكياً، سماوياً أرضيا ، ثم قال الملك لرجل خبيث منهم ادخل عليه فاقتله فدخل البيت فألقى الله عز وجل شبهه عليه فخرج يخبرهم أنه ليس في البيت فقتلوه وصلبوه ، ثم قالو : وجهه يشبه وجه عيسى ؟ فوقع بينهم مقال عظيم واختلافٌ فيه ، والمكر من المخلوقين : الخبثُ والخديعة والحيلة ، والمكر من الله استدراج العبد وأخذه من حيث لا يعلم ﴿ **إذْ قَالَ اللهُ** ﴾ أي اذكر وقت قول الله ﴿ **ياعِيسَى إنِّي مُتَوفِّيكَ** ﴾ أي مستوفي أجلك ، ومعناه إني عاصمك من أن يقتلك الكفار ، ومؤخرك إلى أجل كتبته لك ، ومميتك حتف أنفك ، لا قتلاً بأيديهم ﴿ **ورافِعُكَ** ﴾ الآن ﴿ **إلَّي** ﴾ أي إلى محل كرامتي ومقر ملائكتي ، وجعل ذلك رفعاً إليه للتعظيم ، ومثله قوله (**إني ذاهِبٌ إلى ربِّي**) وإنما ذهب إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام ، وقد يسمى الحجاج زُوَّار الله ، والمجاورون جيران الله ، وكل ذلك للتفخيم ﴿ **وَمُطَهِّرُكَ** ﴾ أي مبعدك ومنجّيك ﴿ **مِنَ الّذينَ كَفَروا** ﴾ أي من سوء جوارهم ، وخبث صحبتهم ، ودنس معاشرتهم ، وسينزل عيسى عليه السلام من السماء على عهد الدجال حَكَماً عدلاً ، يكسر الصليب ، ويقتل الخنزير[2] ، ويضع الجزية، ويفيضُ المال حتى لا يقبله أحد ، ويهلك في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويقتل الدجال ، ويتزوج بعد قتله امرأة من العرب وتلد منه ، ثم يموت هو بعد ما يعيش أربعين سنة من نزوله ، فيصلي عليه المسلمون ، لأنه سأل ربه أن يجعله من هذه الأمة ، فاستجاب الله دعاءه ﴿ **وَجَاعِلُ الّذينَ اتّبعُوكَ** ﴾ وهم المسلمون لأنهم متبعوه في أصل الإسلام ، وإن اختلفت الشرائع ، دون الذين كذَّبوه وكَذَبوا عليه من اليهود والنصارى ﴿ **فوْقَ الّذينَ كَفَرُوا** ﴾ وهم الذّين مكروا به عليه السلام ، فإن أهل الإسلام فوقهم بالعزة ، والمَنَعة ، والحجة ﴿ **إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ** ﴾غاية للجعل على معنى أن المسلمين يعلونهم إلى تلك الغاية ﴿ **ثُمّ إليَّ مرْجِعُكُمْ** ﴾ أي رجوعكم بالبعث ، والضمير لعيسى والمتبعين له والكافرين برسالته ﴿ **فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ** ﴾ يومئذ إثْر رجوعكم إليَّ ﴿ **فيما كُنْتُمْ فيهِ تختَلِفونَ** ﴾ من أمور الدين ﴿ **فَأَمّا الّذينَ كَفَروا فَأُعَذِّبهُمْ عَذاباً شَديداً في الدُّنْيَا** ﴾ بالسيف والسبي وأخذ الجزية ، وإيصال الأمراض

(١) أي : فيه فتحة تشبه الطاقة أو النافذة .

(٢) حديث نزول عيسى بن مريم في آخر الزمان حديث متواتر ، تواترت به الأخبار ، وقد رواه البخاري وغيره .

والمصائب ، فإنها من العقوبات في حق الكافر ، ومن الكرامات في حق المؤمن ، لأنها ابتلاء محض له ﴿ والآخِرَةِ ﴾ بعذاب النار ﴿ ومَا لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ ﴾ يخلصونهم من عذاب الله في الدارين ﴿ وَأَمَّا الّذين آمنُوا ﴾ بما أرسلت به ﴿ وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ ﴾ كما هو ديدن المؤمنين ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي يعطيهم أجور أعمالهم كاملة ﴿ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ ﴾ أي يبغضهم ولا يرضى عنهم ﴿ ذٰلكَ ﴾ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى عليه السلام وغيره ﴿ نتلُوهُ عَلَيْكَ ﴾ أي نقرأه عليك يامحمد ، وأسند تلاوته إلى نفسه ، مع أن التالي هو الملك المأمور بها ، لأن تلاوة جبريل لما كانت بأمره تعالى من غير تفاوت أصلاً أضيف ذلك إليه تعالى ﴿ مِنَ الآياتِ ﴾ أي من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك ﴿ وَالذِّكْرِ ﴾ أي القرآن ﴿ الحَكِيمِ ﴾ أي المشتمل على الحِكَم ، والمُحْكَم : الممنوع من تطرُّق الخلل إليه ﴿ إنّ مَثَلَ عِيسىٰ ﴾ أي شأنه البديع المنتظم لغرابته في سلك الأمثال ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ أي في تقديره وحكمه ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ أي كحاله العجيبة التي لا يرتاب فيها مرتاب ، ولا ينازع فيها منازع ﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أي خلق قالب آدم من تراب ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ ﴾ أي انشأ بشراً ﴿ فَيَكونُ ﴾ والمقتضي أن يقال فكان ، أي كان كما أمره الله ، ألا أنه عدل إلى المضارع تصويراً لذلك الإيجاد الكامل ، بصورة المشاهد الذي يقع الآن ، روي أن وفد نجران قدموا المدينة، وهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، منهم السيد وهو كبيرهم ، والعاقب وهو صاحب رأيهم ، والثالث أبو حارثة بن علقمة الأسقف فأقبلوا حتى قدموا على النبي عليه السلام ، في مسجد المدينة بعد العصر ، عليهم ثياب حسان فقاموا وصلوا واستقبلوا قبلتهم ، وأراد أصحاب النبي ﷺ أن يمنعوهم فقال ﷺ : دعوهم ، ثم انتهى أبو حارثة هذا وآخر معه إلى النبي عليه السلام فقال لهما ﷺ : أسلما فقالا أسلمنا قبلك ، فقال ﷺ : كذبتما يمنعكما عن الإسلام ثلاث : عبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير ، وزعمكما أن لله ولداً ، قالوا يا محمد : فلم تشتم صاحبنا عيسى ؟ قال : ما أقول ؟ قالوا تقول إنه عبد ، قال : أجل هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول فغضبوا ، وقالوا : هل رأيت إنساناً من غير أب ؟ فحيث سلَّمتَ أنه لا أب له من البشر ، وجب أن يكون هو الله فقال ﷺ : إن آدم عليه السلام ما كان له أب ولا أم ، فنزلت الآية ، ولم يلزم من ذلك كونه ابناً لله تعالى ، فكذا حال عيسى عليه السلام ، فالوجود من غير أب وأم أخرق للعادة من الوجود من غير أبٍ ، فشبه الغريب بالأغرب ليكون أقطع لشبهة الخصم ﴿ الحقُّ ﴾ أي ما قصصنا عليك من نبأ عيسى وأمه هو الحق كائناً ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ لا قولُ لنصارى إنه ابن الله ، وقولهم ولدت مريم إلهاً ونحو ذلك ﴿ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الممْتَرِينَ ﴾ أي من الشاكين في ذلك والمعنى دم على يقينك ، وعلى ما أنت عليه من الإطمئنان على الحق ، والتنزه عن الشك فيه ، قال الإمام أبو منصور : العصمة لا تزيل المحنة ولا ترفع النهي ﴿ فمنْ حَاجّكَ ﴾ أي من النصارى ﴿ فيهِ ﴾ أي في شأن عيسى عليه السلام

وأمه ﴿ مِنْ بَعدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلمِ ﴾ أي ما يوجبه ايجاباً قطعياً من الآيات البينات ، وسمعوا ذلك منك فلم يرعووا عما هم عليه من الضلال والغي ﴿ فَقُلْ ﴾ أي فاقطع الكلام معهم ، وعاملهم بما يعامل به المعاند ، وهو أن تدعوهم إلى الملاعنة فقل لهم ﴿ تَعَالَوْا ﴾ أي هلموا بالرأي والعزيمة لا بالأبدان ، لأنهم مقبلون وحاضرون عنده بأجسادهم ﴿ نَدْعُ أَبْنَاءنا وأَبْنَاءَكُمْ ﴾ اكتفى بهم عن ذكر البنات لظهور كونهم أعز منهن ، والآية تشمل الأولاد ، بنين وبنات ﴿ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ أي ليدع كل منا ومنكم نفسه ، وأعزَّ أهله وألصقهم بقلبه إلى المباهلة ويحملهم عليها ﴿ ثُمّ نبْتَهِلْ ﴾ أي نتباهل بأن نلعن الكاذب، ونقول: لعنةُ الله على الكاذب منا ومنكم ﴿ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ علَى الكاذِبِينَ ﴾ روي أنهم لما دُعُوا إلى المباهلة قالوا حتى نرجع وننظر ، فلما خلا بعضهم ببعض ، قالوا لعبد المسيح ما ترى ؟ فقال : والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أن محمداً نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم ، والله ما بَاهَلَ قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم ، ولئن فعلتم لتهلكن ، فإن أبيتم إلا الإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا رسول الله ﷺ وقد خرج محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن ، وفاطمة تمشي خلفه ، وعلي خلفها وهو يقول : إذا أنا دعوت فأمِّنوا ، فقال أسقف نجران:يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو شاء الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزالَه بها ، فلا تباهلوا فتهلكوا فقالوا ياأبا القاسم : رأينا أن لا نباهلك ولكن نصالحك كل عام على ألفي حلة ، ألف في صفر ، وألف في رجب ، وثلاثين درعاً عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك وكتب لهم كتاباً بذلك ﴿ إنّ هَذا ﴾ أي ما قص من نبأ عيسى عليه السلام وأمه ﴿ لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ ﴾ دون ما عداه من أكاذيب النصارى ﴿ وَما منْ إلهٍ ﴾ ما إله ﴿ إلاّ اللهُ ﴾ صرح فيه بمن الاستغراقية تأكيداً للرد على النصارى في تثليثهم ﴿ وإنَّ اللهَ لَهُوَ العزيزُ الحَكيمُ ﴾ القادر على جميع المقدورات ، الحكيم المحيط بالمعلومات ، لا أحد يشاركه في الألوهية ﴿ فإنْ تَولّوا ﴾ أي أعرضوا عن قبول التوحيد ، بعد ما عاينوا تلك الحجج النيرة ، والبراهين الساطعة ﴿ فَإنّ اللهَ عَليمٌ بالمُفْسِدينَ ﴾ أي فإن الله عليم بفساد المفسدين ، قادر على مجازاتهم ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ تَعَالَوْا ﴾ كان عليه السلام حريصاً على إيمانهم ، فأمره الله تعالى بأن يعدل عن طريق المجادلة والاحتجاج ، إلى نهج يشهد كل عقل سليم ، أنه كلام مبني على الإنصاف فقال : قل ياأهل الكتاب هلمُّوا ﴿ إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْننا وَبَيْنَكُمْ ﴾ لا يختلف فيها الرسل والخَلْقُ ، فيها إنصاف من بعضنا لبعض وهي ﴿ أَنْ لا نَعْبُدَ إلاّ اللهَ ﴾ أي نوحده بالعبادة ونخلص فيها ﴿ ولا نُشْرِكَ بهِ شيْئاً ﴾ ولا نجعل غيره شريكاً في استحقاق العبادة ﴿ ولاَ يتّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً منْ دونِ اللهِ ﴾ بأن نقول عزيرٌ ابن الله ، والمسيح ابن الله ، ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوا من التحليل والتحريم ، لأن كلاً منهم بشر مثلنا ﴿ فإنْ تَوَلَّوْا ﴾

عما دعوتم إليه من التوحيد وترك الإشراك ﴿ **فَقُولوا** ﴾ أي قل لهم أنت والمؤمنون ﴿ **اشْهَدُوا بِأَنَّا مسْلِمونَ** ﴾ أي لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم ، روي أن رسول الله ﷺ كتب إلى قيصر من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسْلِم تَسْلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين « ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً إلى قوله : « فَقُولوا اشْهدوا بأنّا مَسْلِمونَ »[1] وجاء في الخبر الصحيح أن هرقل قد سأل عن حال النبي عليه السلام وعرفها ممن جاء بكتابه ، فقال : لو كنت عنده لقبَّلتُ قدميه ، لمعرفته صدق النبي عليه السلام بعلاماته المعلومة من الكتب القديمة ، لكن خاف من ذهاب الرياسة ، وكتب الرسول إلى كسرى ملك فارس ، فمزَّق كتابه ورجع الرسول بعدما أراد قتله فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال مزَّق الله ملكهم فلا ملك لهم ابداً فكان كذلك ﴿ **يا أَهْلَ الكِتابِ** ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ **لِمَ تُحَاجُّوْنَ** ﴾ تجادلون ﴿ **في إبْرَاهِيمَ** ﴾ تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم عليه السلام ، وزعم كل واحد منهما أنه عليه السلام منهم ، وافتخروا على رسول الله ﷺ فنزلت ، والمعنى لم تدعون أنه عليه السلام كان منكم ﴿ **وَمَا أُنْزِلَتِ التَّورَاةُ** ﴾ على موسى عليه السلام ﴿ **والإنْجيلُ** ﴾ على عيسى عليه السلام ﴿ **إلا مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ أي من بعد موته ، وأنتم سَمِّيتم باليهودية والنصرانية بعد نزول الكتاب ﴿ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ أي : ألا تتفكرون في بطلان مذهبكم ، فتجادلون بالجدال المحال ؟ لأن بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى ألفي سنة ، فكيف يكون إبراهيم على دينٍ لم يحدث إلا بعد عهده بأزمنة متطاولة ؟ ﴿ **هاأَنْتُمْ هؤلاءِ** ﴾ صُدِّرت بحرف التنبيه إشعاراً بكمال غفلتهم أي أنتم هؤلاء الحمقى حيث ﴿ **حَاجَجْتُمْ فيما لَكُمْ بِهِ علْمٌ** ﴾ من التوراة والإنجيل من نبوة محمد عليه السلام ﴿ **فَلِمَ تُحاجّوْنَ فيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ فيما لا ذكر له في كتابكم ، ولا علم لكم به من دين إبراهيم ؟ اذ لا ذكر لدينه عليه السلام في أحد الكتابين ﴿ **واللهُ يَعْلَمُ** ﴾ ما حاججتم فيه فيعلمنا ﴿ **وأَنْتُمْ لا تعْلَمونَ** ﴾ أي محل النزاع ﴿ **ما كَانَ إبْراهِيمُ يَهودِيّاً ولا نصْرانِيّاً** ﴾ تصريح بما نطق به البرهان المقرر ﴿ **وَلَكِنْ كانَ حنيفاً** ﴾ أي مائلاً عن العقائد الزائغة كلها ﴿ **مُسْلِماً** ﴾ أي منقاداً لله تعالى ، وليس المراد أنه كان على ملة الإسلام ﴿ **ومَا كانَ مِنَ المشْرِكينَ** ﴾ تعريض بأنهم مشركون بقولهم عزيرٌ ابن الله ، ورد لادعاء المشركين أنهم على ملته عليه السلام ﴿ **إنَّ أَوْلى النّاسِ بإبْراهِيمَ** ﴾ أي أن أحق الناس بدعواه أنه على دين إبراهيم ﴿ **لَلّذِينَ اتَّبَعوهُ** ﴾ في زمانه ﴿ **وَهَذا النَّبِيُّ** ﴾ أي محمد المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه اتبعه ﴿ **والّذينَ آمنوُا** ﴾ بالله وبمحمد ﷺ من هذه الأمة ، لموافقتهم في أكثر ما شرعه لهم على الأصالة

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه .

﴿ واللهُ وليُّ المؤمنينَ ﴾ ينصرهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ﴾ أي أحبت ﴿ لوْ ﴾ أي أن ﴿ يُضِلّونَكُمْ ﴾ يصرفونكم عن دين الإسلام إلى دين الكفر ، وإنما قال طائفة لأن من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله ﴿ وَمَا يُضِلّون إلاّ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي وما يتخطَّاهم ولا يجاوزهم الضلال ، ولا يعود وباله إلا إليهم ، لما أنه يضاعف به عذابهم ﴿ وما يَشْعُرونَ ﴾ أي باختصاص وباله وضرره بهم . اعلم أنه تعالى لما بين أن من طريقة أهل الكتاب العدول عن الحق ، والإعراض عن قبول الحجة ، بيَّن أنهم لا يقتصرون على هذا القدر ، بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول عليه السلام بإلقاء الشبهات ، والناس في الإعتقاد والعمل متفاوتون . فمنهم من هو متين كالحصن الحصين ، لا يزول عما هو عليه وإن اتفق الناس في إضلاله ، وهو المرتبة القصوى في باب الدين التي نالها الأنبياء والأولياء والأفراد من المؤمنين ، قال علي كرم الله وجهه : لو كشف الغطاء ما ازْدَدْتُ يقيناً !. ومنهم من هو ضعيف تذروه رياح الهوى حيث شاءت ، وفي الحديث (الناس كمعادن الذهب والفضة)[1] يعني أن الناس معادن الأعمال والأخلاق والأقوال ، ولكن يتفاوتون فيها كما تتفاوت معادن الذهب والفضة ، إلى أن تنتهي إالى الأدنى فالأدْنى ، وفيه إشارة إلى أن مافي معادن الطباع ، من جواهر مكارم الأخلاق ، ينبغي أن تستخرج برياضة النفوس ، كما يستخرج الجواهر من المعادن بالمقاساة والتعب ، ولقد أجاد من قال

بقدر الكَدِّ تُكْتَسَبُ المعالي * ومن طلب العلى سهر الليالي
تروم العزَّ ثم تنام ليلاً * يغوصُ البحر من طلب اللآلي

﴿ يأَهْلَ الكِتابِ لِمَ تكْفُرونَ بآياتِ اللهِ ﴾ أي بما نطقت به التوراة والإنجيل ، ودلت على نبوة محمد ﷺ ﴿ وَأَنْتُمْ تَشْهَدونَ ﴾ أي والحال أنكم تشهدون أنها آيات الله ﴿ يـاأَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ ﴾ أي تخلطون ﴿ الحَقَّ بِالباطِلِ ﴾ المراد بالحق كتاب الله الذي أنزله على موسى وعيسى عليهما السلام ، وبالباطل ما حرَّفوه وكتبوه بأيديهم ، وبخلط أحدهما بالآخر إبراز باطلهم في صورة الحق ، بأن يقولوا الكل من عند الله تعالى ﴿ وَتَكْتُمونَ الحَقَّ ﴾ أي نبوة محمد ﷺ ونعته ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمونَ ﴾ أنه حق ثابت في كتابكم ﴿ وَقَالتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ﴾ وهم رؤساؤهم وكبراؤهم لأتْبَاعهم ﴿ آمِنوا بالّذي ﴾ أي أظهروا الإيمان بالقرآن الذي ﴿ أُنْزِلَ عَلىٰ الّذين آمنوا ﴾ أي على المسلمين ﴿ وَجْهَ النّهارِ ﴾ أي في أوله لأن أول النهار هو أول ما ظهر منه ، كما أن الوجه أول ما يظهر من أعضاء الإنسان ، عند الملاقاه ﴿ واكْفُرُوْا آخِرَهُ ﴾ أي أظهروا ما أنتم عليه من الكفر به في آخر

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، وتتمته : « خيارُهم في الجاهليةِ خيارُهم في الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجنّدة .. » الحديث ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٦٦ .

النهار موهمين لهم أنكم آمنتم به بادي الرأي من غير تأمل ، ثم تأملتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأول فرجعتم عنه ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي المؤمنين ﴿ يَرْجِعونَ ﴾ عما هم عليه من الإيمان به كما رجعتم ، والمراد بالطائفة « كعب بن الأشرف » « ومالك ابن الصيف » قالا : لأصحابها لما حُوِّلت القبلة ، آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصَلُّوا إليها أوَّل النهار ، ثم صَلُّوا إلى الصخرة آخره ، لعلهم يقولون هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون ﴿ وَلا تُؤْمِنوا ﴾ أي لا تقروا بتصديقٍ قلبيّ ﴿ إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أي لأهل دينكم ، لا لمن تبع محمداً وأسلم ، ولا تقروا بذلك إلا لأهل دينكم ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للرؤساء ﴿ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللهِ ﴾ يهدي به من يشاء إلى الإيمان ، ويثبته عليه فلا يضر كيدكم وحيلكم ، وهو اعتراض مقيد لكون كيدهم غير مُجدٍ لطائل ﴿ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوْتِيتُمْ ﴾ علة بتقدير اللام أي قلتم ذلك القول ودبرتم الكيد ، لأن يعطى أحد مثل ما أُعطيتم من فضل الكتاب والعلم ﴿ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ ﴾ أي دبرتم ما دبرتم لذلك وأن يحاجوكم عند كفركم بما يؤتى أحد من الكتاب مثل كتابكم[1] ﴿ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ يوم القيامة فيغلبوكم بالحجة ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ ﴾ أي الهدى والتوفيق ﴿ بِيَدِ اللهِ ﴾ أي بقدرته ومشيئته ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده ﴿ وَاللهُ وَاسِعٌ ﴾ أي كامل القدرة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي كامل العلم ، فلكمال القدرة يصح أن يتفضل على أي عبد يشاء ، ولكمال علمه لا يكون شيء من أفعاله إلا على وجه الحكمة والصواب ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ﴾ أي يجعل رحمته مقصورة على ﴿ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ كلاهما تذييل لما قبله مقرر لمضمونه ، فالحسد هو الذي دفع اليهود إلى هذا ، قال الأصمعي : « رأيتُ أعرابياً أتى عليه مائةٌ وعشرون سنة ، فقلت له : ما طوَّل عمرك ؟ فقال : تركتُ الحسد فبقيتُ » وقيل : من علامات الحاسد ، أن يتملَّق إذا شهد ، ويغتاب إذا غاب ، ويشمت بالمصيبة إذا نزلت ، وأنشدوا .

وإذا أراد الله نشر فضيلة * طُويتْ أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جَاوَرتْ * ما كان يُعْرفُ طيبُ عُرْفِ العُود

فالحسد من الأخلاق المذمومة للنفس ، فلابد من إزالته عنها بكثرة التوحيد والأذكار ، ورؤية الآثار من الله الجبار ، فإن تباين مقامات أفراد الإنسان في العلم والعمل ، وسائر الصفات الفاضلة رحمة لهم ، ولم يكن ذلك إلا بتقدير العزيز العليم ، وقد ذم الله الحاسدين في كتابه قال تعالى (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ

(١) لم يظهر معنى الآية بتفسير الشيخ رحمه الله ، وتوضيح الآية أن اليهود يوصي بعضهم بعضاً فيقولون : لا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم ، وانظروا فيمن ادعى النبوة فإن كان متبعاً لدينكم فصدقوه وإلا فكذبوه ، ولا تقروا لأحد بالنبوة إلا إذا كان على دينكم ، خشية أن يُؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، وخشية أن يحاجوكم به عند ربكم ، فإذا أقررتم بنبوة محمد تكون له الحجة عليكم يوم القيامة .

﴿ عَلَىٰ ما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وأما الغبطة فهي محمودة ، نسأل الله أن يُحلِّينا بالصفات الشريفة والأخلاق اللطيفة ، ويجنِّبنا الحسد والبغضاء ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَن إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ ﴾ المراد بالقنطار ههنا العدد الكثير ﴿ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ من غير جحد ونقص ، كعبد الله بن سلام . استودعه قرشيٌّ ألفاً ومائتي أوقية ذهباً فأدَّاها إليه ، فأهل الأمانة من أهل الكتاب هم الذين أسلموا ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ ﴾ والمراد بالدينار ههنا العدد القليل ﴿ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ وهو كعب بن الأشرف استودعه رجل من قريش ديناراً فلم يؤده وجحده . فذمه تعالى ، فأهل الخيانة منهم هم الذين بقوا على اليهودية والنصرانية ، والمعنى أن فيهم من هو في غاية الأمانة ، حتى لو اؤتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها ، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لو اؤتمن في الشيء القليل فإنه يخون ﴿ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ﴾ أي لا يؤده إليك في حال إلاَّ في حال دوام قيامك ، أو في وقت قيامك على رأسه مبالغاً في مطالبته بالتقاضي وإقامة البينة ﴿ ذٰلِكَ ﴾ أي تركهم أداء الحقوق ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ ﴾ أي في شأن من ليس من أهل الكتاب ﴿ سَبِيلٌ ﴾ أي عتاب ومؤاخذة، والأميُّ منسوب إلى الأم ، وسمي النبي عليه السلام أمياً ، لأنه كان لا يكتب ، وذلك لأن الأم أصل الشيء ، فمن لا يكتب فقد بقي على أصل حاله في أن لا يكتب ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ ﴾ بادعائهم أن ذلك في كتابهم ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم كاذبون مفترون على الله ، وذلك لأنهم استحلُّوا ظلم من خالفهم ، وقالوا لم يجعل في التوراة في حقهم حرمة ، فقد كذبوا في ذلك على الله ، فإن أداء الأمانة واجب في الأديان كلها ، وحبس مال الغير والخيانة فيه حرام ﴿ بَلَى ﴾ إثبات ما نفوه أي بلى عليهم في الأميين سبيل ﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ ﴾ أي من أتم بعهد الله الذي عهده إليهم في التوراة ، وأخذ ميثاقهم عليه ، من الإيمان بمحمد وأداء الأمانة ﴿ واتَّقَىٰ ﴾ أي الشرك والخيانة ﴿ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ ﴾ عن الغدر والخيانة ونقض العهد ، أي فإن الله يحبه وفي الحديث الشريف « أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعها : إذا ائتمن ـ أي جعل أميناً ووضع عنده أمانة ـ خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر[1] » أي مال عن الحق ، وليس الغرض أن آية المنافق محصورة فيها ، بل كل من أبطن خلاف ما أظهر فهو من المنافقين ، فعلى العاقل أن يوفي بعهده في السراء والضراء ، ويجتهد في محافظته . حكي أن شاباً عقد مع الله عقداً أن لا ينظر إلى شيء من مستحسنات الدنيا ، فمر يوماً بسوق فرأى منطقة مرصعة بالدر والجوهر ، فنظر إليها فأعجبته ، ثم مضى عنها ، وقد نظر إليه صاحبها ، فلما ذهب عنه افتقدها فلم يجدها ، فوثب مسرعاً حتى تعلق بالشاب وقال يا عيَّار ـ أي سارق ـ منطقتي ، وصفتُها كيت وكيت ، فأمر بتفتيشه

(١) الحديث أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وأبو داود ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٥٦٩ .

فوجدوها على وسطه ، فقال له السلطان : يافتى أما تستحي !! تلبس لباس الأخيار ، وتعمل عمل الفجار ! فنظر الفتى إلى المنطقة فقال: مولاي الإقالة الإقالة ، إلهي لا أعودُ إلى مثلها ، فأمر السلطان أن يضرب فجرد ليضربوه ، فإذا هم بصوت يُسْمع ولا يُرَى ، يقول : دعوه ولا تضربوه ، إنما أردنا تأديبه ، فوثب السلطان إلى الفتى وقبّله بين عينيه ، ثم قال أخبرني عن قصتك فأخبره ، فتعجب من ذلك ثم قرأ **(والموفون بعهدهم إذا عاهدوا)** فقال صاحب المنطقة : سألتك بالله ألا ما قبلتها مني ، واجعلني في حلّ ، فقال إليك عني ليس هذا من صنعتك ، إنما الأمرُ لصاحب الصنع ، ولا مؤثر في الوجود غير الحق ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ** ﴾ أي يستبدلون ويأخذون ﴿ **بِعَهْدِ اللهِ** ﴾ أي بدل ما عاهدوا عليه من الإيمان بالرسول ﷺ ، والوفاء بالأمانات ﴿ **وَأَيْمَانِهِمْ** ﴾ وبما حلفوا به من قولهم لتؤمنن به ولتنصرنه ﴿ **ثَمَناً قَلِيلاً** ﴾ هو حطام الدنيا ﴿ **أُوْلَئِكَ** ﴾ الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ﴿ **لا خَلاقَ** ﴾ لا نصيب ﴿ **لَهُمْ فِي الآخِرَةِ** ﴾ ولا في نعيمها ﴿ **وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ** ﴾ لشدة غضبه وسخطه عليهم ﴿ **وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ** ﴾ وهو مجاز عن الاستهانة بهم والسخط عليهم ﴿ **وَلا يُزَكِّيهِمْ** ﴾ أي لا يثني عليهم ولا يطهّرهم من دنس الذنوب والآثام ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ على ما فعلوه من المعاصي ، والآية نزلت في اليهود الذين حرفوا التوراة ، وبدلوا نعت رسول الله ﷺ ، وأخذوا الرشوة على ذلك ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ** ﴾ أي من اليهود المحرفين ﴿ **لَفَرِيقاً** ﴾ ككعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف وأضرا بها ﴿ **يَلْوُونَ** ﴾ من اللي وهو الفتل ﴿ **أَلْسِنَتَهُمْ بِالكِتَابِ** ﴾ أي يفتلونها بقراءته فيميلونها من المنزل إلى المحرَّف ﴿ **لِتَحْسَبُوهُ** ﴾ أي المحرف ﴿ **مِنَ الكِتَابِ** ﴾ أي من جملته ﴿ **وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ** ﴾ أي والحال إنه ليس منه في الأمر ﴿ **وَيَقُولُونَ** ﴾ على طريقة التصريح ﴿ **هُوَ** ﴾ أي المحرف ﴿ **مِنْ عِنْدِ اللهِ** ﴾ أي منزل من عند الله ﴿ **وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ** ﴾ أي وليس هذا المحرَّف منزلاً من عند الله ، ولا هو من كلامه ﴿ **وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ أنهم كاذبون ومفترون وهو تأكيد وتسجيل عليهم بالكذب على الله تعالى ، والتعمد فيه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما هم اليهود ، قدموا على « كعب بن الأشرف » وغيروا التوراة ، وكتبوا كتاباً بدلوا فيه صفة رسول الله ﷺ ، ثم أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالكتاب ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ** ﴾ بيان لافترائهم على الأنبياء عليهم السلام ، حيث قال نصارى نجران : إن عيسى أمرنا أن نتخذه رباً ـ حاشاه عليه السلام ـ أي ما صح وما استقام لأحد ، سواء كان بشراً أو لا ﴿ **أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ** ﴾ الناطق بالحق ، الآمر بالتوحيد ، كالتوراة والإنجيل ﴿ **وَالحُكْمَ** ﴾ أي الفهم والعلم ﴿ **وَالنُّبُوَّةَ** ﴾ ﴿ **ثُمَّ يَقُوْلَ** ﴾ ذلك البشر ، بعد ما شرَّفه تعالى بما ذكر من التشريفات ، وعرَّفه الحق ، وأطلعه على شؤونه العالية ﴿ **لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً** ﴾ كائنين ﴿ **لِي مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ من متعلق بلفظ عباداً لما فيه من معنى الفعل ﴿ **وَلَكِنْ** ﴾ يقول لهم ﴿ **كُونُوا**

﴿ رَبٰنِيِينَ ﴾ الرباني المنسوب إلى الرب ، والرباني هو الكامل في العلم والعمل ، الشديد التمسك بطاعة الله تعالى ودينه ، كما يقال : رجل إلهيٌّ ، إذا كان مقبلاً على معرفة الإله وطاعته ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ أي بسبب مثابرتكم على تعليم الكتاب ودراسته أي قراءته ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ بالنصب عطف على « ثم يقول » و « لا » مزيدة لتأكيد معنى النفي أي ما كان لبشر أن يستنبئه الله تعالى ، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ، ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيِّين أرباباً ، كما قال قريش : الملائكة بنات الله ، واليهود والنصارى عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ يعني أيأمركم بعبادة الملائكة ، والسجود للأنبياء بعد كونكم مخلصين بالتوحيد لله ؟ فإنه لو أمركم بذلك لكفر ، ونزع منه النبوة والإيمان ، فإنه تعالى لا يؤتي الوحي والكتاب ، إلا نفوساً طاهرة ، وأرواحاً طيبة ، فلا يجمع بشر بين النبوة وبين دعاء الخلق إلى عبادة غير الله ، واعلم أن العلم والدراسة جعلا سبباً للربانية ، وكفى دليلاً على خيبة سَعْي من أجهد نفسه في جمع العلم ، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل ، فكان مثل من غرس شجرة حسناء تعجبه بمنظرها ، ولا تنفعه بثمرها ، فالعمل بغير العلم ، والعمل بغير العمل ، لا يثبت كل منهما بإنفراده النسبة إلى الرب ، فعلم أن العالم الذي لا يعمل بعلمه منقطع النسبة بينه وبين ربه ، كالعامل الجاهل ، فكل منهما ليس من الله في شيء ، حيث لم تثبت النسبة إلا للتمسك بالعمل المبني على العلم ، قال علي رضي الله عنه « قصم ظهري رجلان : عالم مُتَهتِّك ، وجاهل متنسك » نعوذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، فعلى المتعلم أن يطلب بعلمه مرضاة الله ، وبعمله الربانية ، فمن اشتغل بالتعليم والتعلم ، لا لهذا المقصد ضاع سعيه ، وخاب عمله ، والإشارة أن من دأب أهل الحقيقة ، تربية الأتباع والمريدين ، ليكونوا ربانيين ، متخلقين بأخلاق الربانية ، العاملين بما يعلمون من الكتاب ، وبما كانوا يدرسون من العلوم ، ولا يقنعون على دراستها ولا يفترون بمقالات أخذوها من افواه القوم ، وبعض مدعي هذا الشأن ، الذين غلبت عليهم أهواؤهم ،وصفات بشريتهم ، يخدعون الخلق بأنواع الحيل ، ويستتبعون بعض الجهلة ويصيدونهم بكلمات أخذوها من الأفواه ، ويمكرون ببعض أهل الصدق من الطلبة ، ويقطعون عليهم طريق الحق ، بأن يمنعوهم من صحبة أهل الحق ، ومشايخ العلم ، ويأمروهم بالتسليم والرضى فيما يعاملونهم ، ولا يعرفون غيرهم ،فيعبدونهم من دون الله ، كما هو دأب أكثر مشايخ زماننا هذا ، فإنه ليس من دأب من يؤتى الكتاب والحكم والنبوة !! ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ أخذ الله الميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، وأخذ العهد على كل نبي ، أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء ، وينصره إن أدركه ، وإن لم يدركه أن يأمر قومه بالإيمان به وبنصرته إن أدركوه ، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى ، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد عليه السلام ، وإذا كان هذا حكم الأنبياء كان الامم بذلك أولى وأحرى ، أي أذكر

يامحمد وقت أخذ الله ميثاق الأنبياء وأممهم ﴿ لَمَا آتَيْتُكُمْ ﴾ اللام موطئه للقسم تقديره للذي آتيناكموه ﴿ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ وهي بيان أحكام الحلال والحرام والحدود ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ﴾ من الكتاب ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ أي والله لتصدقنه برسالته ، وتنصرنه على أعدائه ، لإظهار دين الحق ، ﴿ قَالَ ﴾ أي الله تعالى بعدما أخذ الميثاق ﴿ أَأَقْرَرْتُمْ ﴾ أي بالإيمان والنصر له ﴿ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ ﴾ الميثاق ﴿ إِصْرِي ﴾ والإصر ههنا العهد الثقيل ﴿ قَالُوا أَقْرَرْنَا ﴾ بذلك ﴿ قَالَ ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ فَاشْهَدُوا ﴾ أيها الأنبياء والأمم بإقرار بعضكم على بعض ﴿ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي وأنا أيضاً شاهد على إقراركم ذلك ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى ﴾ أي أعرض عما ذكر ﴿ بَعْدَ ذٰلِكَ ﴾ الميثاق ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ المتمردون الخارجون عن الطاعة فإن الفاسقُ من كان متجاوزاً عن الحد ، والتولي لا يقع من الأنبياء ولا يصفون بالفسق لكن له وجهان : أحدهما : أن الميثاق كان على الأنبياء وأممهم على التبعية والتولي من الأمم خاصة . والثاني : أن العصمة لا تزيل المحنة انتهى وهذا لما كان مذكوراً في كتبهم وهم كانوا عارفين بذلك فقد كانوا عالمين بصدق محمد ﷺ في النبوة فلم يبق لكفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد فصاروا كإبليس الذي دعاه الحسد إلى الكفر فأعلمهم الله تعالى أنهم متى ما كانوا كذلك ، كانوا طالبين ديناً غير دين الله ومعبوداً سوى الله بقوله تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ﴾ أي أيتولّون فيبغون غير دين الله ويطلبونه ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ أي لله أخلص وانقاد ﴿ مَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي أهلها ﴿ طَوْعاً ﴾ وهم الموحدون ﴿ وَكَرْهاً ﴾ أي بإباءٍ وهم الجاحدون ، بما فيهم من آثار الصنعة ودلائل الحدوث من صحة ومرض ، وغنى وفقر ، وسرور وحزن ، فلا يمكنهم دفع قضائه وقدره ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ أي من فيهما والمراد أن من خالفه في العاجل فسيكون مرجعه إليه إلى حيث لا يَملك الضر والنفع سواه ، وهذا وعيد عظيم لمن خالَفَ الدين الحق ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ ﴾ أمر للرسول ﷺ بأن يخبر عن نفسه بالإيمان بما ذكر ، وجُمع الضمير في « آمنَّا » لإظهار جلالة قدره ﷺ على ديدن الملوك ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ وهو القرآن والنزول كما يعدى بإلى يُعدَّى بـ « عَلَى » لأنه من فوق ﴿ وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ من الصحف ، والأسباط جمع سبط وهو الحافد ، والمراد بهم حفدة يعقوب عليه السلام وذراريهم ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة بأيديها ، وتخصيصها بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿ وَالنَّبِيُّونَ ﴾ أي وما أوتي النبيون من المذكورين وغيرهم ﴿ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ من الكتب والمعجزات ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، بل نؤمن بصحة كل منهم ، وبحقية ما أنزل إليهم في زمانهم ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون ، والإسلام هنا بمعنى الاستسلام وهو الانقياد ، وفيه تعريض بإيمان أهل الكتاب فإنه بمعزل عن ذلك ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ

﴿ الإسْلامِ ﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى ﴿ دِيناً ﴾ مفعول ليبتغ وغير الإسلام حال منه ، لأنه في الأصل صفة له ، فلما قدم انتصب حالاً ﴿ فَلَنْ يُقْبَلَ ﴾ ذلك ﴿ مِنْهُ ﴾ أبداً ﴿ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ ﴾ أي الواقعين في الخسران ، بحرمان الثواب وحصول العقاب ، والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره ، فاقد للنفع واقع في الخسران ، بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ ﴾ إلى الحق ﴿ قَوْماً كَفَروا بعْدَ إيمانِهِمْ ﴾ استبعاد لأن يهدي قوماً هم معاندون للحق ، مكابرون فيه غير خاضعين ، بأن يخلق فيهم الاهتداء ، ويوفقهم لاكتسابه ، وإنما يخلق الاهتداء ويوفق على كسب ذلك إذا كانوا خاضعين متواضعين للحق راغبين فيه ، فالمراد من الهداية خلق الاهتداء ، وقد جرت سنة الله في دار التكليف ، على أن كل فعل يقصد العبد إلى تحصيله ، فإن الله تعالى يخلقه عقيب قصد العبد ، فكأنّ الله تعالى قال : كيف يخلق فيهم المعرفة والاهتداء ، وهم قصدوا تحصيل الكفر وأرادوه ﴿ وَشَهِدوا أنّ الرَّسولَ حَقٌّ ﴾ أي صادق فيما يقول ﴿ وَجَاءَهُمُ البَيِّناتُ ﴾ أي الشاهد من القرآن على صدقه ، وهو دليل على أن الإقرار باللسان خارج عن حقيقة الإيمان ، ضرورة أن المعطوف مغاير للمعطوف عليه ﴿ وَاللهُ لا يهْدِي القَوْمَ الظّالِمينَ ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالإخلال بالنظر ووضع الكفر موضع الإيمان فكيف من جاه الحق وعرفه ثم أعرض عنه ؟ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المذكورون باعتبار اتصافهم بما مر من الصفات الشنيعة ﴿ جَزاؤُهُمْ أنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ ﴾ وهو إبعاده من الجنة ، وإنزال العقوبة به والعذاب ﴿ والمَلائِكةِ ﴾ ولعنهم بالقول كالناس ﴿ والنّاسِ أجْمَعينَ ﴾ والمراد بالناس المؤمنون ، لأنه لو أريد به جميع الناس لزم أن يلعن كل واحد منهم جميع من يوافقهم ويخالفهم ﴿ خَالِدينَ فِيها ﴾ أي في اللعنة والعقوبة ، ومعنى الخلود في اللعن أنهم يوم القيامة لا تزال تلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار ولا يخلوا شيء من أحوالهم من اللعنة ﴿ لا يُخَفَّفُ عنْهُمُ العَذابُ ولا هُمْ يُنْظَرونَ ﴾ الإنظارُ : التأخير أي لا يجعل عذابهم أخف ، ولا يؤخر العقاب من وقت إلى وقت ﴿ إلاّ الّذينَ تَابوا مِنْ بعْدِ ذلكَ ﴾ أي من بعد الارتداد ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ أي ما أفسدوا ﴿ فَإنّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾ فيقبل توبتهم ويتفضل عليهم وعطف قوله ﴿ وأصْلَحُوا ﴾ على قوله ﴿ إلاّ الّذينَ تَابُوا ﴾ يدل على أنّ التوبة وحدها لا تكفي ، حتى ينضاف إليها العمل الصالح أي وأصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات ، ومع الخلق بالمعاملات ، فيتداركه الله برحمته وتوفيقه فيندم ويواظب على الرياضات من باب التزكية والتصفية ـ يحكى ـ عن السري السقطي قدس سره أنه قال : قلت يوماً عجبت من ضعيف عصى قوياً ، فلما كان الغداة وصليت الغداة إذا أنا بشاب قد وافى وخلفه ركبان على دواب بين يديه غلمان ، وهو راكب على دابة فنزل ، وقال : أيكم السري السقطي ؟ فأومأ جلسائي إليّ فسلم عليّ وجلس ، وقال سمعتك تقول : عجبتُ من ضعيف عصى قوياً ، فما أردت به ؟

فقلت ما ضعيف أضعف من ابن آدم ، ولا قويٌّ أقوى من الله تعالى ، وقد تعرض ابن آدم مع ضعفه إلى معصية الله ، قال فبكى ثم قال ياسري هل يقبل ربك غريقاً مثلي ؟ قلت : ومن ينقذ الغرق إلا الله تعالى ؟ قال ياسري إن عليَّ مظالم كثيرة كيف أصنع ؟ قال إذا صحت الانقطاع إلى الله أرضى عنك الخصوم ، قال فبكى ثم قال : صفْ لي الطريق إلى الله ، فقلت إن كنت تريد طريق المقتصدين فعليك بالصيام والقيام وترك الآثام ، وإن كنت تريد طريق الأولياء فاقطع العلائق واتصل بخدمة الخالق ، فعلى السالك أن يتوب من جميع الآثام ولا يشغل سره سوى مشاهدة الله العلاَّم .

وعن عبد الله بن عمر أنه قال : قال لي رسول الله ﷺ « ياعبد الله كنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل » أي لا تركن إليها ولا تتخذها وطناً ، ولا تحدِّثْ نفسك بطول البقاء فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله « وعُدَّ نفسك من أصحاب القبور »[1] وفيه إشارة إلى الفناء عن إضافة الوجود إلى نفسه ، بل الوجود كله لله تعالى ، فالبدن للروح بمنزلة القبر للميت ، فكما أن الميت في قبره يسلم لأمره مولاه كذلك ينبغي أن لا يتعرض العبد لشيء من الآفات البدنية والقلبية ، بل يدور حيث أوقفه الله من الفطرة الأصلية ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ** ﴾ كاليهود ﴿ **كَفَرُوا** ﴾ بعيسى والإنجيل ﴿ **بَعْدَ إِيمَانِهِمْ** ﴾ بموسى والتوراة ﴿ **ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً** ﴾ حيث كفروا بمحمد عليه السلام والقرآن ، أو كفروا به عليه السلام بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ، ثم ازدادوا كفراً بالإصرار عليه والطعن فيه ، والصدِّ عن الإيمان ونقض الميثاق ﴿ **لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ** ﴾ لأنهم لا يتوبون إلا عند إشرافهم على الهلاك ، فكنّى عن عدم توبتهم بعدم قبولها تغليظاً في شأنهم ، وإبرازاً لحالهم في صورة حال الآيسين من الرحمة ﴿ **وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ** ﴾ على سبيل الكمال وإلا فكل كافر ضال ، سواء كفر بعد الإيمان ، أو كان كافراً في الأصل ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ** ﴾ لما كان الموت على الكفر ، سبباً لامتناع قبول الفدية ، دخلت الفاء ههنا ﴿ **مِنْ أَحَدِهِمْ** ﴾ فدية ﴿ **مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً** ﴾ أي ما يملؤها من شرقها إلى غربها ﴿ **وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ** ﴾ أي بملء الأرض ذهباً والكلام واردٌ على سبيل الفرض والتقدير ، وكونه ملء الأرض كناية عن كونه في غاية الكثرة ، والتقدير لو أن الكافر يوم القيامة ، قدر على أعز الأشياء ، بالغاً إلى غاية الكثرة وقدر على بذله لنيل أعز المطالب لا يقدر على أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله تعالى ، والمقصود بيان أنهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ إشارة إلى المذكورين ﴿ **لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ أي مؤلم ﴿ **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** ﴾ في دفع العذاب عنهم أو في تخفيفه وفي الحديث « يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ، لو أن لك ما في

---

(١) الحديث أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه .

الأرض من شيء أكنت تفتدي به ؟ فيقول نعم : فيقول : أردت منك أهون من هذا ، وأنت في صلب آدم ، أن لا تشركَ بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك بي »[١] قال الإمام : اعلم أن الكافر على ثلاثة أقسام : أحدها الذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة ، وهو الذي ذكره الله في قوله ﴿ **إلاّ الّذينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا** ﴾ **وثانيها** الذي يتوب عن ذكر الكفر توبة فاسدة ، وهو الذي ذكره الله تعالى في الآية المتقدمة : فقال ﴿ **لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ** ﴾ . **وثالثها** الذي يموت على الكفر من غير توبة البتة وهو المذكور في هذه الآية ﴿ **إنّ الّذينَ كَفَروا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ** ﴾ واعلم أن المرء إذا كان تابعاً للشرع ، يكون غالباً على هواه ، فلا تجادله الصفات السبعية الشيطانية ، قال رسول الله ﷺ (أخوف ما أخاف على أمتي : اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهَوَى ، فيصدُّ عن الحق ، وأمَّا طول الأمل فينسي الآخرة)[٢] وقال ذو النون المصري : مفتاح العبادة الفكرة ، وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى ، ومخالفتها ترك شهواتها ، قال جعفر بن نصير : دفع إليَّ الجنيد درهماً فقال : اشتر به التين فاشتريته ، فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها في فيه ، ثم ألقاها وبكى ، وقال احمله ، فقلت له في ذلك ، فقال هتف في قلبي أما تستحي شهوة تركتها من أجله تعالى ، ثم تعود إليها !! قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : من أحسن في ليله كوفيء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفيء في ليله ، ومن صدق في ترك شهوة كفي مؤونتها ، والله أكرم من أن يعذب قلباً ترك شهوة لأجله ، واعلم أن النفس عين لطيفة هي معدن الأخلاق الذميمة ، مودعة بين جنبي الإنسان ، وهي أمارة بالسوء ، وهي مجبولة على صد الروحانية ، المخلوقة من الملكوت الأعلى ، فإنهم يأمرون بالخير وينهون عن الشر ، وهي مخلوقة من الملكوت السفلي كالشياطين ، وهم لا يأمرون إلا بالشر ، ومن طبعهم التمرد والإباء والاستكبار ، ولهذا تأبى النفس من قبول الموعظة ، وتظهر التمرد ، كما قال العبد الصالح .

فإن أمَّارتي بالسوء ما اتعظت * من جهلها بنذير الشيب والهرم

يعني أن النفس الأمارة بالسوء والعيب ، ما قبلت بالوعظ من نذير الشيب ، فتمادت في غواية الجهل بعد الهرم ، وما كبحت عنان جماح الشهوة بأيدي الندم ، فمن لم يزك نفسه عن هذه الصفات ، بقي في دركات جهنم خائباً خاسراً كما قال تعالى (**وَقَدْ خَابَ منْ دَسّاها**) عصمنا الله وإياكم من كيد النفس الأمَّارة وشر الشيطان ، وأصلح حالنا مادامت الأرواح في الأبدان آمين ﴿ **لَنْ تَنَالوا البِرَّ** ﴾ أي لن تبلغوا أيها المؤمنون حقيقة البر ، الذي يتنافس فيه المتنافسون ، ولن تدركوا شأوه ، ولن تلحقوا بزمرة

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما وأحمد بن حنبل في المسند .

(٢) أخرجه البغوي ، وأبو نعيم ، وابن مندة ولفظه : « أخافُ على أمتي من بعدي ثلاثاً : ضلالة الأهواء ، واتّباع الشهوات في البطون والفروج ، والغفلة بعد المعرفة » وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ٥٥ .

الأبرار ، أو لن تنالوا برَّ الله تعالى ، وهو ثوابه ورحمته ، ورضاه وجنته ﴿ حَتَّى تُنْفِقُوا ﴾ أي في سبيل الله رغبة فيما عنده ﴿ مِمَّا تَحِبُّوْنَ ﴾ أي بعض ما تهوونه ويعجبكم ، من كرائم أموالكم ، وأحبها إليكم ﴿ وَمَا تُنْفِقوا مِنْ شَيءٍ ﴾ أي أيَّ شيء تنفقونه من طيِّبٍ تحبونه ، أو خبيث تكرهونه ﴿ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أي فمجازيكم بحسبه جيداً كان أو رديئاً ، فإنه تعالى عليم بكل شيء تنفقونه ، علماً كاملاً بحيث لا يخفى عليه شيء وفيه من الترغيب في إنفاق الجيد ، والتحذير من إنفاق الرديء ما لا يخفى وأعلم أن الوصول إلى المطلوب ، لا يحصل إلا بإنفاق المحبوب ، ولذلك كان السلف إذا أحبوا شيأ ، جعلوه لله ذخيرة ليوم يحتاجون إليه ، والإنسان لا ينفق محبوبه ، إلا إذا أيقن أنه يتوصل بذلك إلى وجدان محبوب أشرف من الأول ، روي أنها لما أنزلت جاء « أبو طلحة » فقال يارسول إن أحب أموالي إليّ بيرحاء وهو ضيعة له في المدينة مستقبل مسجد النبي ﷺ فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال له رسول الله ﷺ « بخ بخ ، ذاك مال رابح ذاك مالٌ رابح ، وإني أرى أن تجعلها بين الأقربين ، فقسمها في أقاربه »[1] وفيه دلالة على أن إنفاق أحب الأموال على أقرب الأقارب أفضل ، وروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أنه كانت لزوجته جارية بارعة في الجمال ، وكان عمر راغباً فيها ، وكان قد طلبها منها مراراً فلم تعطه إياها ، ثم لما ولي الخلافة ، زينتها وأرسلتها إليه ، فقالت : وهبتكها ياأمير المؤمنين فلتخدمك ، قال من أين ملكتها ؟ قالت جئت بها من بيت أبي عبد الملك ، ففتش عن تملكه إياها ، فقيل إنه كان على فلان العامل ديون ، فلما توفي أخذت من تركته ، ففتش عن حال العامل وأحضر ورثته وأرضاهم جميعاً بإعطاء المال ، ثم توجه إلى الجارية وكان يهواها هوى شديداً ، فقال : أنت حرة لوجه الله ، فقيل : لم يا أمير المؤمنين ؛ وقد أزحت عن أمرها كل شبهة ؟ قال : لست إذاً ممن نهى النفس عن الهوى ، ويحكى أن الربيع ضربه الفالج ، فكان السائل يقوم على بابه فيسأل ، فيقول الربيع : أطعميه السكر ، فإن الربيع يحب السكر ، يتأول قوله ﴿ لَنْ تَنَالوا البرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّوْنَ ﴾ وطال به وجعه ، فاشتهى لحم الدجاج ، فكفَّ نفسه أربعين يوماً ، فقال لزوجته : قد اشتهيت لحم دجاج منذ أربعين يوماً ، فكففت نفسي رجاء أن تكف فأبت ، فقالت امرأته : سبحان الله ، وأيُّ شيء هذا تكفُّ نفسك عنه وقد أحله الله تعالى لك ؟ فأرسلت امرأته إلى السوق فاشترت له دجاجة بدرهم ودانقين ، فذبحتها وشوتها ، وخبزت له خبزاً ، وجعلت له أصباغا ثم جاءت بالخوان فوضعته بين يديه ، فقام سائل على الباب فقال : تصدقوا عليَّ بارك الله فيكم ، فكَفَّ عن الأكل وقال لامرأته خذي هذا وادفعيه إليه ، فقالت له امرأته : سبحان الله ، قال : افعلي ما آمرك به ، قالت : فأصنع ما هو خير له ، قال وما هو ؟ قالت : نعطيه ثمن هذا ، وتأكل أنت شهوتك ، قال قد أحسنتِ ائتني بثمنه فقال : ضعيه على هذا وخذيه

(١) الحديث أخرجه الشيخان ، وأحمد في المسند ، وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٩٩ .

وادفعيه جميعاً ففعلت ﴿ كُلُّ الطَّعامِ ﴾ لما نزل قوله تعالى (فَبِظُلْمٍ مِنَ الذينَ هَادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِم طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) أنكر اليهود ذلك ، وبرأوا ساحتهم من الظلم ، وجحدوا ما نطق به القرآن ، وقالوا : لسنا بأول من حرمت عليه تلك المطعومات ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعده حتى انتهى التحريم إلينا ، وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغي والظلم ، والصدّ عن سبيل الله فقيل : كل المطعومات ، أو كل أنواع الطعام ﴿ كَانَ حِلاً لبني إسْرائيلَ ﴾ أي حلالاً لهم ، والمراد أكله ، إذ لا يوصف بالحل والحرمة إلا أفعال المكلف لا الأعيان ﴿ إلاّ ما حَرَّمَ إسْرائيلُ علىٰ نفسِهِ ﴾ اي كل المطعومات كانت حلالاً لبني اسرائيل ، إلا ما حرم إسرائيل أي يعقوب عليه السلام على نفسه وهو الإبل وألبانها ، روي أن يعقوب عليه السلام اشتكى فأصابه « عرق النسا » ثم إنه حين ابتلي بذلك المرض ، لقي من ذلك بلاء وشدة ، وكان لا ينام الليل من الوجع ، فحلف لئن شفاء الله ألا يأكل أحب الطعام إليه ، فحرم لحوم الإبل وألبانها ﴿ منْ قبلِ أن تُنَزَّلَ التوْرٰيةُ ﴾ أي كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة ، ثم حرمت بسبب بغيهم وظلمهم ، فكيف يكون ذلك حراماً على نوح وإبراهيم وغيرهما ؟ ﴿ قُلْ فَائتُوا بالتَّوْرَاةِ فاتْلُوهَا ﴾ أمره عليه السلام بأن يحاجهم بكتابهم ، الناطق بأن تحريم ما حرم تحريم حادث ، مرتب على ظلمهم وبغيهم ، ويكلفهم إخراجه وتلاوته ، ليبكتهم ويلقمهم الحجر ، ويظهر كذبهم ﴿ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فائتوا بالتوراة فاتلوها ، روي أنهم لم يجترئوا على إخراج التوراة ، فبهتوا وانقلبوا صاغرين ، وفي ذلك من الحجة النيرة على صدق النبي ﷺ ، وجواز النسخ التي يجحدونه ، مالا يخفى ﴿ فَمَنِ افْتَرىٰ عَلَى اللهِ الكَذِبَ ﴾ أي اختلق عليه سبحانه الكذب بزعمه أنه حرم ما ذكر ، قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ﴿ مِنْ بعْدِ ذٰلِكَ ﴾ أي من بعد ما ذكر من أمرهم ، بإحضار التوراة وتلاوتها ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ المصرون على الافتراء ﴿ هُمُ الظَّالِمونَ ﴾ المفرطون في الظلم والعدوان ﴿ قُل صَدَقَ اللهُ ﴾ أي ظهر وثبت صدقه تعالى ، فيما أنزل في شأن التحريم ﴿ فاتبِعوا مِلَّةَ إبراهِيمَ ﴾ أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم عليه السلام ، فإنكم ما كنتم متبعين لملته كما تزعمون ﴿ حَنيفاً ﴾ أي مائلاً عن الأديان الزائغة كلها ﴿ وَما كانَ مِنَ المشْرِكينَ ﴾ أي في أمر من أمور دينهم أصلاً ، وفيه تعريض بإشراك اليهود ، وتصريح بأنه ليس بينه وبينهم علاقة دينية قطعاً ، والغرض بيان أن النبي عليه السلام على دين إبراهيم في الأصول ، لأنه لا يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة من كل معبود سواه سبحانه وتعالى .

﴿ إنّ أَوّلَ بَيْتٍ ﴾ البيت المكان مطلقاً ﴿ وُضِعَ للنّاسِ ﴾ روي أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة ، طعن اليهود في نبوته عليه السلام ، وقالوا : إن بيت المقدس أفضل من الكعبة ، وأحق بالاستقبال ، لأنه وضع قبل الكعبة ، وهو أرض المحشر ، ومهاجر الأنبياء وقبلتهم فتحويل القبلة منه إلى الكعبة باطل ،

فنزلت ، والمعنى : إن أوّل وضع للعباد ، وجعل متعبداً لهم ﴿ **لَلَّذِي بِبَكَّةَ** ﴾ للبيت الذي في مكة ، وهو علم للبلد الحرام ، من بكّة إذا زحمه الناس فيه ، ولأنها تبكُّ أعناق الجبابرة أي تدقها ، لم يقصدها جبار إلا قصمه الله عز وجل ، وروي أن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفي عام ، فلما أهبط آدم إلى الأرض قالت له الملائكة : طف حول هذا البيت ، فلقد طفنا حوله قبلك بألفي عام ، فطاف به آدم ومن بعده إلى زمن نوح عليه السلام ، فلما كان زمن الطوفان اندرس البيت ، فجاء الخليل فجدَّد بناءه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أول بيت بناه آدم في الأرض فنسبة بناء الكعبة إلى إبراهيم على هذه الروايات ليس لأنه عليه السلام بناها ابتداء ، بل لرفعه قواعدها وإظهاره ما درس منها ، فإن موضع الكعبة اندرس بعد الطوفان وبقي مختفياً ، إلى أن بعث الله جبريل إلى إبراهيم عليه السلام ودلَّه على مكان البيت ، وأمره بعمارته ، ولما كان الآمر بالبناء هو الله ، والمبلغ والمهندس هو جبريل عليه السلام ، والباني هو الخليل ، والتلميذ المعين له اسماعيل ، قيل : ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة ﴿ **مُبَارَكاً** ﴾ أي كثير الخير والنفع ، لمن حجه واعتمره ، وطاف حوله ، ومن الثواب وتكفير الذنوب ﴿ **وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبدهم ، ولأن فيه آيات عجيبة ، دالة على عظيم قدرته ، وبالغ حكمته كما قال ﴿ **فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ** ﴾ واضحات كقهر الله تعالى لكل جبار قصده بسوء كأصحاب الفيل ﴿ **مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ أثر قدميه عليه السلام في الصخرة التي كان عليه السلام يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه ﴿ **وَمَنْ دَخَلَهُ** ﴾ أي حرم البيت ﴿ **كَانَ آمِناً** ﴾ من التعرض له ، وذلك بدعوة ابراهيم عليه السلام (**رَبِ اجْعَل هَذا البَلَدَ آمِناً**)وكان الرجل لو ارتكب كل جريرة ، ثم لجأ إلى الحرم لم يطلب ، ولذلك قال أبو حنيفة : من لزمه القتل في الحل ، بقصاص أوردَّةٍ أو زنى ، فالتجأ إلى الحرم لم يتعرض له ، إلا أنه لا يؤوى ولا يطعم ولا يبايع ، حتى يضطر إلى الخروج ، وهذا في حق من جنى في الحل ثم التجأ إلى الحرم ، وأما إذا أصاب الحد في الحرم فيقام عليه فيه ، فمن سرق فيه قطع ، ومن قتل فيه قتل ، قال تعالى (**ولا تُقَاتِلوهُمْ عِنْدَ المَسجِدِ الحرام حتّى يُقَاتِلوكُمْ فيهِ فإنْ قَاتَلوكُمْ فاقْتلوهُمْ**) أباح لهم القتل عند المسجد الحرام إذا قاتلونا ، ﴿ **وللهِ عَلَى النَّاسِ** ﴾ وهم المؤمنون دون الكفار ، فإنهم غير مخاطبين بأداء الشرائع ، أي استقر لله عليهم ﴿ **حِجُّ البيتِ** ﴾ الحج بالفتح لغة أهل الحجاز ، والكسر لغة نجد ، وهو القصد للزيارة على الوجه المخصوص يعني أنه حق واجب لله في ذمم الناس ﴿ **مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ أي من استطاع منهم وقدر على الذهاب إليه ، وأراد به قدرة سلامة الالآت والأسباب ، فالزاد والراحلة من اسباب الوصول ﴿ **وَمَنْ كَفَرَ** ﴾ وَضَع « من كفر » موضع « من لم يحج » تأكيداً لوجوبه وتشديداً لتاركه أي من لم يحج مع القدرة عليه ، فقد قارب الكفر وعمل ما يعمله من كفر بالحج ﴿ **فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ** ﴾ وعن عبادتهم وفي الحديث « من لم تحبسه

حاجة ظاهرة ، أو مرض حابس ، أو سلطان جائر ، ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً »[١] وإنما خص هذين لأن اليهود والنصارى هم الذين لا يرون الحج ولا فضل الكعبة ، واعلم أنه لا يُؤْثر الإكثار ، من التردد إلى تلك الآثار ، إلا حبيب مختار روي عن علي بن الموفق : أنه حج ستين حجة ، قال : فلما كنت بعد ذلك في الحجر ، أفكّر في حالي وكثرة ترادي إلى ذلك المكان ، ولا أدري هل قبل حجي أو لا ؟ نمت فرأيت قائلاً يقول : يا ابن الموفَّق هل تدعو إلى بيتك إلا من تحب ، فاستيقظت وقد سُرِّي عنّي ، ففيه إشارة إلى أن تُرك عن الدعوة إلى ضيافة الله فلا استحقاق له بها ، وفيه تقبيح لحاله حيث لم يجتهد في تحصيل الاستعداد ، بل اقام على البغي والفساد ، واقتضت حكمة الله تعالى توقان النفس كل عام إلى تلك الأماكن النفيسة ، لإجابة دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال : (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم) أي تحنُّ قال رسول الله ﷺ « أفضل الأعمال إيمان بالله ورسوله ، ثم جهاد في سبيله ، ثم حج مبرور »[٢] قيل مغفرة الذنوب بالحج ، ودخول الجنة به مترتب على كون الحج مبروراً ، وإنما يكون مبروراً باجتماع أمرين فيه : **الأول** : الإتيان فيه بأعمال البر ، والبر هو الإحسان للناس ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، **والثاني** : ما يكمل به الحج وهو اجتناب أفعال الإثم فيه ، من الرفث والفسوق والمعاصي ، قال أبو جعفر الباقر : ما يعبأ من يؤم هذا البيت إذا لم يأت بثلاث : ورع يحجزه ـ أي يمنعه ـ عن محارم الله ، وحلم يكف به غضبه ، وحسن الصحابة لمن يصحبه من المسلمين ، فهذه الثلاث يحتاج إليها من يسافر ، خصوصاً إلى الحج ، فمن كملها فقد كمل حجه ، فعلى السالك ان يخالق الناس بخلق حسن ، قال بعض المشايخ : علامة الحج المبرور ، أن يرجع زاهداً في الدنيا ، راغباً في الآخرة ﴿ **قُل يا أهل الكِتابِ** ﴾ هم اليهود والنصارى ، سموا بذلك نسبة للكتاب المنزل عليهم ﴿ **لِمَ تَكْفُرونَ بآياتِ اللهِ** ﴾ توبيخ وإنكار لأن يكون لكفرهم سبب من الأسباب ، والمراد بآياته تعالى ، ما يعم الآيات القرآنية ، وما في التوراة والإنجيل من شواهد نبوته ﷺ ﴿ **واللهُ شَهيدٌ عَلىٰ ما تَعْمَلُونَ** ﴾ والحال أنه تعالى مبالغ في الإطلاع على جميع أعمالكم ، وفي مجازاتكم عليها ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَصُدُّوْنَ** ﴾ أي تصرفون ﴿ **عنْ سَبيلِ اللهِ** ﴾ أي دينه الحق ، الموصل إلى السعادة الأبدية ، وهو التوحيد وملة الإسلام ﴿ **مَن آمَنَ** ﴾ مفعول تصدون ، كانوا يفتنون المؤمنين ويحتالون لصدهم عنه ، ويمنعون من أراد الدخول فيه ويقولون : إنَّ صفته ليست في كتابهم ، ولا تقدمت البشارة به عندهم ﴿ **تبْغونَها** ﴾ أي تبغون لها أي تطلبون سبيل الله التي هي أقوم السبل ﴿ **عِوَجاً** ﴾ اعوجاجاً وميلاً

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظ : « من مَلَكَ راحلةً وزاداً يبلّغه إلى بيت الله الحرام ، ولم يحجّ ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً » وقال الترمذي : حديث غريب ، وانظر جامع الأصول ٣ / ٦ .

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في المسند ورواه الدارمي في سننه .

عن القصد والاستقامه بأن تلبسوا على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجاً ، بتغييركم صفة رسول الله ﷺ عن وجهها ونحو ذلك والعوج بكسر العين وفتحها الميل والانحراف ، لكنَّ المكسور يختص بالمعاني ، والمفتوح بالأعيان تقول : في دينه وكلامه عِوَج بالكسر ، وفي الجدار والقناة والشجر عَوَج بالفتح ﴿ **وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ** ﴾ أي والحال أنكم شهداء تشهدون بأنها سبيل الله ، لا يحوم حولها شائبة اعوجاج ، وان الصدَّ عنها إخلال ﴿ **وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ أي من الصد عن سبيله ، وكتمان الشهادة لنبيه ولما وبخَّ أهل الكتاب بصد المؤمنين ، نهى المؤمنين عن اتباع هؤلاء الصادين فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً** ﴾ طائفة وإنما خص فريقا لأن منهم من آمن ﴿ **مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** ﴾ قال عكرمة : نزلت في « شاس ابن قيس » اليهودي ، رأى منتدى محتوياً على زحام من أوس وخزرج ، فغاظه ألفتهم ، فأرسل شاباً ينشدهم أشعار يوم بعاث ، وكان ذلك يوماً عظيماً اقتتل فيه الحيان المذكوران ، وكان الظفر فيه للأوس ، فنعر عرق الداء الدفين ، فتشاجروا فأخبر النبي عليه السلام فخرج يصلح ذات بينهم ﴿ **وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ** ﴾ إنكار وتعجب ﴿ **وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ** ﴾ أي القرآن ﴿ **وَفِيكُمْ رَسُولُهُ** ﴾ والمعنى من أين يتطرق إليكم الكفر ، والحال أن القرآن المعجز ، يتلى عليكم على لسان الرسول ، غضاً طرياً ، وبين أظهركم رسول الله ينبهكم ويعظكم ، ﴿ **وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ** ﴾ أي ومن يتمسك بدينه الحق ، وهو الإسلام والتوحيد ﴿ **فَقَدْ هُدِيَ** ﴾ جواب الشرط ، و « قد » لإفادة معنى التحقق ، كأن الهدى حصل فهو يخبر عنه حاصلاً أي وُفِّق وأُرشد ﴿ **إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ موصل إلى المطلوب ، واعلم أن ظاهر الخطاب مع أهل الكتاب ، وباطنه مع العلماء السوء ، الذين يبيعون الدين بالدنيا ، ولا يعملون بما يعلمون ، فهم الذين يكفرون بما جاء به القرآن ، من الزهد في الدنيا ، والتوجه إلى الحق ، وما مثل من هذه أوصافه من العلماء ، إلا كمثل الشمعة ، تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها ، قال فضيل بن عياض : بلغنا أن الفسقة من العلماء ، ومن حملة القرآن ، يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ** ﴾ الاتقاء افتعال من الوقاية ، وهي فرط الصيانة ﴿ **حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ أي حق تقواه ، وهو استفراغ الوسع في القيام بالواجب ، والاجتناب عن المحارم ، يريد بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا منها شيأ ﴿ **وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾ أي مخلصون نفوسكم لله عز وجل ، لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلاً ، فهو في الصورة نهيٌ عن موتهم على غير هذه الحالة ، والمراد دوامهم على الإسلام ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ** ﴾ أي بدين الإسلام أو بكتابه ، فلفظ الحبل مستعار لأحد هذين المعنيين ، فإن كل واحد منهما يشبه الحبل ، فإن من سلك طريقاً صعباً ، يخاف أن تزلق رجله فيه ، فإذا تمسك بحبل ، مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق ، أمن من الخوف ، كذلك طريق السعادة الأبدية ، طريق زلق ، ودواعي الضلال عنها

متكاثرةٌ ، زلق رجل أكثر الخلق فيها ، فمن اعتصم بالقرآن العظيم ، وبقوانين الشرع القويم ، فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم ، وأمن من الغواية المؤدية إلى نار الجحيم ﴿ **جَميعاً** ﴾ أي مجتمعين في الاعتصام ﴿ **وَلا تَفَرَّقُوْا** ﴾ أي لا تتفرقوا عن الحق ، بوقوع الاختلاف بينكم كأهل الكتاب ﴿ **واذْكُروا نِعمَةَ اللهِ عليْكُمْ إذْ كُنْتُمْ** ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم وقت كونكم ﴿ **أعْداءً** ﴾ في الجاهلية بينكم الإحن والعداوة ، والحروب المتواصلة ، وقيل هم الأوس والخزرج وقعتْ بينهم العداوة والبغضاء ، وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة ﴿ **فَألَّفَ بيْنَ قُلوبِكُم** ﴾ بتوفيقكم للإسلام ﴿ **فَأصْبحْتُمْ** ﴾ أي فصرتم ﴿ **بِنِعْمَتِهِ** ﴾ التي هي ذلك التآلف ﴿ **إخْواناً** ﴾ أي إخواناً متحابين مجتمعين على الأخوة في الله ، متراحمين متناصحين ، متفقين على كلمة الحق ﴿ **وَكُنْتُمْ علىٰ شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ** ﴾ شفا الحفرة وشفتها : حرفُها وجانبها ، أي كنتم مشرفين على الوقوع في نار جهنم لكفركم ، إذ لو أدرككم الموت على تلك الحالة لوقعتم فيها ، وهو تمثيل لحياتهم ، التي تتوقع بعد الوقوع في النار ، بالقعود على حرفها مشرفين على الوقوع فيها ﴿ **فَأنْقَذَكُمْ** ﴾ اي خلصكم ونجاكم بأن هداكم للإسلام ﴿ **مِنْها** ﴾ أي الحفرة ﴿ **كَذلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك التبيين الواضح ﴿ **يُبَيّنُ اللهُ لكُم آياتِهِ** ﴾ أي دلائله ﴿ **لَعَلّكُمْ تهْتَدونَ** ﴾ طلباً لثباتكم على الهدى ، وازديادكم فيه واعلم انه تعالى أمر المؤمنين أولا بالتقوى وثانياً بالاعتصام ، وثالثاً بتذكر النعمة ، لأن فعل الإنسان لابد وأن يكون معللاً ، إما بالرهبة ، وإما بالرغبة ، والرهبةَ متقدمة على الرغبة ، لأن دفع الضرر مقدم على جلب النفع ، كما أن التخلية قبل التحلية ، فقوله (اتقوا الله حق تقاته) إشارة إلى التخفيف من عقاب الله ، ثم جعله سبباً للأمر بالتمسك بدين الله ، ثم أردفه بالرغبة وهي قوله تعالى ﴿ **واذْكُروا نعْمَةَ اللهِ عَليْكُمْ** ﴾ فعلى العاقل الانقياد لأمر الله ، والطاعة لحكمه ، والاعتصام بحبله ، وعدم التفرق في الدين قال الشيخ النصر آبادي : علامة المتقي أربعة : حفظ الحدود ، وبذل المجهود ، والوفاء بالعهود ، والقناعة بالموجود ﴿ **وَلْتَكُنْ منكُمْ** ﴾ أي لتوجد منكم ﴿ **أُمّةٌ يَدْعُوْنَ إلىٰ الخَيْرِ ويَأْمُرونَ بالمَعْروفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكرِ وَأولئكَ هم المُفلِحُونَ** ﴾ يعني المراد جماعة داعية إلى الخير ، وتوجيه الخطاب إلى الكل مع اسناد الدعوة إلى البعض ، لتحقيق معنى فرضيتها على الكفاية ، وأنها واجبة على الكل ، لكن بحيث إن أقامها البعض سقطت عن الباقين ، ولو أخل بها الكل أثموا جميعاً ولأنها من عظائم الأمور وعزائمها ، التي لا يتولاها إلا العلماء ، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف ، وأمر بمنكر ، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاه عن جهل ، وقد يغلظ في موْضع اللين ، ويلين في موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده انكاره إلا تمادياً وقد سئل ﷺ وهو على المنبر من خير الناس ؟ قال : « آمرهم بالمعروفْ وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصلهم للرحم »[1] وعن حذيفة

(١) الحديث أخرجه أحمد والطبراني بلفظ : « خيرُ النّاسِ أقرؤهم وأفقهُهم في دِينِ اللهِ ، وأتقاهم لله ، وآمرُهم بالمعروف ، وأنهاهم عن =

يأتي على الناس زمان يكون فيهم جيفة الحمار ، أحبّ إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر،وفي الحديث (مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا سفينة فصار بعضهم في أسفلها وصار بعضهم في أعلاها ، فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذين في أعلاها ، فتأذوابه ، فأخذ فاساً فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا : مالك ؟ قال تأذيتم بي ولا بدلي من الماء ، فإن أخذوا على يديه أَنْجَوْه وأنجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم »[1] قال ﷺ (إن الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعذابه) ثم الأمر بالمعروف تابع للمأمور به ، إن كان واجباً فواجب ، وإن كان ندباً فندب ، وأما النهي عن المنكر فواجب كله ، لأن جميع المنكر تركه واجب لاتصافه بالقبح ، وشرط النهي بعد معرفة المنهي عنه ، أن لا يكون ما ينهى عنه واقعا ، لأن الواقع لا يحسن النهي عنه ، وإنما يحسن الذم عليه ، والنهي عن المعاودة إلى مثله وأن يغلب على ظنه وقوع المعصية ، نحو أن يرى الشارب قد تهيأ لشرب الخمر ، بإعداد آلاته ، وان لا يغلب على ظنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة ، فإن قلت : كيف يباشر الإنكار ؟ قلت يبدأ بالسهل ، فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب ، لأن الغرض كف المنكر قال تعالى (**فَأَصْلِحوا بَيْنَهُما**) ثم قال (**فَقَاتِلوا**) والمباشر كل مسلم تمكن منه واختص بشرائطه ، وأما الانكار الذي بالقتال ، فالإمام وخلفاؤه أولى ، لأنهم أعلم بالسياسة ومعهم عدتها ، فإن قلت : فمن يؤمر وينهى ؟ قلت : كل مكلف وغير المكلف ، إذا همَّ بضرر غيره منع ، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعودوها ، كما يؤمرون بالصلاة ليمرنوا عليها ، والعاصي يجب عليه النهي عما ارتكبه ، إذ يجب عليه تركه ، والإنكار على الجميع ، فلا يسقط بترك احدهما وجوب شيء منهما قال النبي عليه السلام « إن الله ليؤيد هذا الدين بأهل الفسوق »[2] وفي الحديث « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلقُ أقتابه في النار ، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أي فلان ما شأنك ؟ ألست تأمرنا بالمعروف وتنهاناعن المنكر ؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه »[3] ﴿ **وَلا تكُونُوا كَالذينَ تَفَرّقُوا** ﴾ هم أهل الكتابين ، حيث تفرقت اليهود فرقاً ، والنصارى فرقاً ﴿ **واخْتَلَفُوا** ﴾ باستخراج التأليفات الزائغة ، وكتم الآيات الناطقة ، وتحريفها بما أخلدوا إليه من حطام الدنيا الدنية ، قال الإمام : تفرقوا بأبدانهم ، بأن صار كل واحد من أولئك الأحبار رئيساً في بلد ، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعي أنه على الحق ، وأن صاحبه على الباطل ، وأقول : إنك إذا أنصفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان ، صاروا موصوفين بهذه

= المنكر ، وأوصلهم للرحم » وانظر الفتح الكبير ٢ / ٩٨ .

(١) الحديث أخرجه البخاري بلفظ قريب منه ، وانظر جامع الأصول ٣ / ٥٩٧ .

(٢) الحديث ورد بلفظ « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » أخرجه الطبراني وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٤٥ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد .

الصفة ، فنسأل الله العفو والرحمة انتهى ﴿ **مِنْ بعْدِ مَا جَاءهُمُ البينَاتُ** ﴾ أي الآيات الواضحة المبينة للحق ، الموجبة للاتفاق عليه ، واتحاد الكلمة ﴿ **وَأولَئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظيمٌ** ﴾ في الآخرة بسبب تفرقهم ، فإنه يدوم ولا ينقطع ، ولما أمر الله هذه الأمة بأن يكونوا آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر ، ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين ، فلا جرم حذرهم الله عن التفرقة والاختلاف ، لكيلا يصير ذلك سببا لعجزهم عن القيام بهذا التكليف ، قال علي رضي الله عنه : لابد للناس من إمام بار أو فاجر ، ولم يرسل نبي الله رجلين فصاعداً لشأن ، إلاَّ وأمَرَّ أحدهما على الآخر ، وأمرَ الآخر بمتابعته وطاعته ، ليتحد الأمر وينتظم ، وإلاَّ وقع الهرج والمرج ، واضطرب أمر الدين والدنيا ، واختل نظام المعاش والمعاد ، قال عليه السلام (من فارق الجماعة قيد شبر لم ير بحبوحة الجنة)[1] وقال « يدُ الله مع الجماعة ، فإن الشيطان مع الفذِّ ، وهو من الاثنين أبعد »[2] ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ وَتَسْودُّ وُجوهٌ** ﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون ، يوم تبيض وجوه كثيرة وتسود وجوه كثيرة ، وبياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكمون الخوف فيه ، يقال لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه ابيض وجهه أي استبشر ، ولمن وصل إليه مكروه اغبرَّ لونه وتبدلت صورته ، فمعنى الآية أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه فإن كان ذلك من الحسنات استبشر بنعم الله وفضله ، وإذا رأى الكافر أعماله القبيحة اشتد حزنه وغمه ، وقيل بياض الوجه وسواده حقيقتان ، فيوسم أهل الحق ببياض الوجوه ، واشراق البشرة ، وأهل الباطل بأضداد ذلك ﴿ **فَأمّا الذينَ اسْوَدّتْ وُجُوهُهُمْ** ﴾ فيقال لهم ﴿ **أكَفَرْتُم بعْدَ إيمانِكُمْ** ﴾ الهمزة للتوبيخ والتعجب من حالهم حيث كفروا بعد ما أقرُّوا بالتوحيد ﴿ **فَذُوقُوا العَذابَ** ﴾ المعهود الموصوف بالعظم ﴿ **بما كُنْتُمْ تكْفُرونَ** ﴾ بالقرآن ومحمد عليه السلام ﴿ **وأمّا الذينَ ابْيضّتْ وُجُوهُهُمْ فَفي رَحْمةِ اللهِ** ﴾ أي في الجنة ، والنعيم المقيم ، عبر عنها بالرحمة ، تنبيهاً على أن المؤمن وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى ، فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمته تعالى ﴿ **هُمْ فيها خَالدونَ** ﴾ لا يظعنون عنها ولا يموتون ﴿ **تِلكَ** ﴾ إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار وتعذيب الكفار ﴿ **آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ** ﴾ أي ملتبسة بالحق والعدل ﴿ **وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً** ﴾ أي شيأمن الظلم ﴿ **للعالَمينَ** ﴾ لأحد من خلقه ، كيف والظلم تصرف في ملك الغير ، وهو تعالى إنما يتصرف في ملك نفسه ، بل هو المالك على الإطلاق ، وأفعاله محض حكمة وعدل ﴿ **وَللهِ ما في السّمواتِ وَما في الأرْضِ** ﴾ أي له تعالى وحده ، ملكاً وخلقاً ، إحياء وإماتة ﴿ **وَإلى اللهِ** ﴾ أي إلى حكمه

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان بلفظ : « من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فَمِيْتَتُه جاهلية » وفي رواية أبي داود : « فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » وانظر جامع الأصول ٤ / ٦٩ و ١ / ٢٩٠ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي بلفظ : « يدُ اللهِ مع الجماعة ، ومن شذَّ شذَّ إلى النار » وهو حديث حسن بطرقه الكثيرة ، وانظر جامع الأصول ٩ / ١٩٦ .

وقضائه ، لا إلى غيره ﴿ **تُرجَعُ الأُمورُ** ﴾ أي أمورهم فيجازي كلاً منهم من غير دخل في ذلك لأحد قط ﴿ **كُنْتُم خير أُمّةٍ** ﴾ كنتم من كان الناقصة وتُحمل على الدوام أو الانقطاع ، بحسب المقام على الدوام أي كنتم ولا زلتم خير أمة ﴿ **أُخْرِجَتْ للنّاس** ﴾ أظهرت لأجلهم ومصلحتهم ونفعهم ﴿ **تأْمُرونَ بالمعْروفِ وَتنْهَونَ عَنِ المنْكَرِ** ﴾ السبب في كونهم خير الأمم هذه الخصال الحَميدة ، والمقصود بيان علة تلك الخيرية ، كقولك : زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ، لأن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له يشعر بالعلية ﴿ **وَتُؤمِنونَ باللهِ** ﴾ أي إيماناً متعلقاً بكل ما يجب أن يؤمن به ، من رسول وكتاب ، وحساب وجزاء ﴿ **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتابِ لَكَانَ خيْراً لَهُمْ** ﴾ أي لو آمنوا كإيمانكم لكان ذلك خيراً لهم ، مما هم عليه من الرئاسة واستتباع العوام ﴿ **مِنْهُمُ المؤمِنونَ** ﴾ أي منهم المؤمنون الفائزون بخير الدارين ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿ **وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقونَ** ﴾ المتمردون في الكفر الخارجون عن الحدود ﴿ **لنْ يَضرُوكُمْ إلا أذىً** ﴾ أي لن يضروكم أبداً ضرراً ما إلا ضرر أذى ، لا يُبَالي به ، من طعن وتهديد لا أثر له ﴿ **وَإِنْ يُقاتِلوُكُمْ** ﴾ أي إن خرجوا إلى قتالكم ﴿ **يُوَلّوكُمُ الأَدْبارَ** ﴾ أي يجعلوا ظهورهم ما يليكم ويرجعوا إلى أدبارهم منهزمين ، من غير أن ينالوا منكم شيأ من قتل أو أسر ﴿ **ثُمّ لا يُنْصَرونَ** ﴾ عطف أي لا ينصرون من جهة أحد ، ولا يمنعون منكم قتلا وأخذاً ، وفيه تثبيت لمن آمن منهم ، وبشارة لهم بأنهم لا يقدرون على أن يتجاوزوا الأذى بالقول ، وأن عاقبة أمرهم الخذلان والذل كما كان من حال بني قريظة ، والنضير ، ويهود خيبر ﴿ **ضُرِبتْ عَليهِمُ الذِلّةُ أينَما ثُقِفُوا** ﴾ أي في أيّ مكانٍ وأيّ زمانٍ وُجدوا ألزموا الذل ، بحيث صار كشيءٍ يضرب على الشيء فيحيط به ﴿ **إلاّ بحبْلٍ مِنَ اللهِ وَحبْلٍ مِنَ النّاسِ** ﴾ أي ضربت عليهم الذلة إلاّ حال كونهم معتصمين بذمة الله ، وذمة المسلمين ، والأمان الحاصل للذمي قسمان : **أحدهما** : هو الأمان الحاصل له بإعطاء الجزية عن يد ، وقبوله إياها ، **والثاني** : الأمان الذي فوض إلى رأي الإمام واجتهاده فيعطيهم الأمان مجاناً تارة ، وببدل أخرى ، على حسب اجتهاده ، فالأول هو المسمى بحبل الله ، والثاني هو المسمى بحبل المؤمنين ، فالأمانان واقعان بمباشرة المسلمين ، إلا أنهما متغايران بالاعتبار ﴿ **وَبَاؤُا بِغَضبٍ مِنَ اللهِ** ﴾ أي رجعوا بغضبٍ كائن منه تعالى مستوجبين له ﴿ **وَضُرِبَتْ عليْهِمُ المسْكَنَةُ** ﴾ أي صفةُ الافتقار فهي محيطة بهم من جميع جوانبهم ، واليهود في غالب الأمر فقراء إما في نفس الأمر وإما أنهم يظهرون من أنفسهم الفقر وإن كانوا اغنياء موسرين في الواقع ﴿ **ذٰلكَ** ﴾ إشارة إلى ما ذكره ، من ضرب الذلة والمسكنة ﴿ **بِأَنّهُمْ كانُوا يَكْفُرونَ بِآياتِ اللهِ** ﴾ أي بسبب كفرهم المستمر بآيات الله ، الناطقة بنبوة محمد عليه السلام ، وتحريفه ولسائر الآيات القرآنية ﴿ **ويقْتُلونَ الأَنْبِياءَ بغَيْرِ حَقٍ** ﴾ أي في اعتقادهم أيضاً ، وهؤلاء المتأخرون وإن لم يصدر عنهم قتل الأنبياء ، لكنهم كانوا راضين بفعل أسلافهم ، فلذا أسند القتل إليهم ﴿ **ذَلك** ﴾

إشارة إلى ما ذكر من الكفر والقتل ﴿ **بِما عَصَوا وَكانُوا يعْتَدونَ** ﴾ أي كان بسبب عصيانهم ، واعتدائهم حدود الله تعالى على الاستمرار ، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى مباشرة الكبائر ، والاستمرار عليها يؤدي إلى الكفر ، فإن من توغل في المعاصي والذنوب ، تتزايد ظلمات المعاصي على قلبه ، ويضعف نور الإيمان وتحصل ظلمة الكفر ، نعوذ بالله من ذلك ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (**كَلاّ بلْ رانَ عَلىٰ قُلوبِهِمْ مَا كانوُا يكْسِبونَ**) فقوله تعالى ﴿ **ذَلكَ بما عَصَوْا** ﴾ إشارة إلى علة العلة ، ولهذا المعنى قال أرباب الفهم : من ابتلي بترك الأدب وقع في ترك السنن ، ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفريضة ، ومن ابتلي بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة ، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر ، فعلى المؤمن أن لا يفتح باب المعصية على نفسه ، خوفاً مما يؤدي إليه ، بل ويترك أيضاً بعض ما أبيح له في الشرع ، وذلك هو كمال التقوى ، قال عليه السلام (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يَدَع مالا بأس به ، حذراً مما به البأس)[1]وقال ﷺ (الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه)[2] الحديث ، فمنع من الإقدام على الشبهات ، مخافة الوقوع في المحرمات ، وذلك سد للذريعة * قال الجنيد رحمه الله: العبادة على رؤوس العارفين ، كالتيجان على رؤوس الملوك ، ورؤى في يده سبحة فقيل له : أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة ؟ فقال : طريق وصلنا به إلى ما وصلنا ، لا نتركه أبداً ، قال الشيخ ابو طالب رحمه الله : مداومة الأوراد من أخلاق المؤمنين ، وطريق العابدين ، وهي مزيد الإيمان وعلامة الايقان ، وقال الشيخ ابو الحسن رحمه الله : سألت أستاذي عن ورد المحققين فقال : إسقاط الهوى ، ومحبة المولى ، أبت المحبة أن تستعمل محباً لغير محبوبه ، وقال : الورد ورد النفس بالحق عن الباطل ، في عموم الأوقات ، فليواظب العبد على الأوراد والطاعات ، وليجانب المعاصي والسيآت قال رسول الله ﷺ ذات يوم لأصحابه « استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا إنا نستحي يا رسول الله والحمد لله ، قال : ليس ذلك ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما حوى ، وليحفظ البطنَ وما وعى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »[3] .

* قال بعض المشايخ لو أن رجلاً عاش مائتي سنة ولا يعرف هذه الأربعة ،فليس شيء أحق به من النار : **أحدها :** معرفة الله تعالى في السر والعلانية ، وأن لا معطي ولا مانع غيره ، **والثاني :** معرفة

(١) الحديث أخرجه الترمذي عن عطية السعدي وحسّنه،جامع الأصول ٤ / ٦٨٢ .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان وأصحاب السنن ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٦٨ .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل ، وانظر الفتح الكبير ١ / ١٧٨ .

عمل الله ، بأن يعرف أن الله تعالى لا يقبل من العمل ، إلا ما كان خالصاً لرضى الله تعالى ، **والثالث :** معرفة نفسه بأن يعرف ضعفه ، أنه لا يستطيع أن يَرُدَّ شيأ مما قضى الله عليه ، **والرابع :** معرفة عدو الله وعدو نفسه ، فيحاربه بالمعرفة حتى يكسره ، فإن المعرفة سلاح العارف ، فمن كان عنده المعرفة الحقيقية ، كان غالباً على أعدائه الظاهرة والباطنة ، ووصل إلى مراده ، والنفس عينُ العدو فعليك بالاحتراز من شره ، ومحاربته كل آن ، بالذكر والفكر ، والعمل الصالح ، عصمنا الله وإياكم من الشرور ﴿ **لَيْسُوا سَواءً** ﴾ أي ليس أهل الكتاب جميعاً مستوين متعادلين في المساوىء والقبائح ﴿ **مِنْ أَهْلِ الكِتابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ** ﴾ كلام مستأنف لبيان عدم استوائهم ، وتمام الكلام يقتضي أن يقال : ومنهم أمة مذمومة ، إلا أنه أضمر بناء على أن ذكر أحد الضِّدَّين يغني عن الآخر ، أي من أهل الكتاب جماعة مستقيمة عادلة ، وهم الذين أسلموا منهم كعبد الله بن سلام وغيره نزلت حين قالت أحبار اليهود ، لعبد الله بن سلام وغيره ، من الذين أسلموا من اليهود : ما آمن بمحمد إلاَّ شرارنا ، فلو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم ﴿ **يتْلونَ آياتِ اللهِ** ﴾ أي القرآن ﴿ **آنَاءَ اللَّيلِ** ﴾ أي في ساعاته ﴿ **وَهُمْ يسْجدونَ** ﴾ الجملة حال أي يصلون ، إذ لا تلاوة في السجود ، وقال عليه الصلاة والسلام « ألا إني نهيت أن أقرأ راكعاً وساجداً » والمراد بصلاتهم التهجد ﴿ **يُؤمِنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ** ﴾ على الوجه الذي نطق به الشرع ﴿ **ويأْمُرونَ بالمعْروفِ وَينْهوْنَ عَنِ المنْكَرِ** ﴾ تعريض بمداهنتهم في الاحتساب بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناس وصدهم عن سبيل الله فإنه أمر بالمنكر ونهي عن المعروف ﴿ **ويُسارِعونَ في الخَيْراتِ** ﴾ المسارعة في الخير فرط الرغبة فيه ، أي يبادرون مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات ﴿ **وَأُولَئِكَ** ﴾ المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة ﴿ **مِنَ الصَالِحينَ** ﴾ أي من جملة من صلحت أحوالهم عند الله تعالى ، واستحقوا رضاه وثناءه ﴿ **وَمَا يفْعَلوا مِنْ خيرٍ** ﴾ كائنا ما كان ﴿ **فَلَنْ يُكْفَرُوْهُ** ﴾ فلن يضيع ولا ينقص ثوابه البتة ﴿ **واللهُ عليمٌ بالمتّقينَ** ﴾ بشارة لهم بجزيل الثواب ، وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير ، وأن الفائز عند الله هو أهل التقوى وفي الحديث القدسي « أنا جليس من ذكرني » قال أبو بكر الكتاني : رأيت في المنام شاباً لم أر أحسن منه ، فقلت من أنت ؟ فقال : التقوى ، قلت : فأين تسكن ؟ قال في قلبٍ حزين ، ثم التفت إليَّ فإذا امرأته سوداء أوحش ما يكون ، فقلت : من أنت ؟ فقالت الضحك ، فقلت : أي تسكنين ؟ فقالت في كل قلب فرح مرح ، قال : فانتبهت واعتقدت أن لا أضحك إلاَّ غلبة ، فعلى السالك أن يتمسك بحبل التقوى ، ويأنس به في الدنيا ، لعل الله يجعله أنيسأله في قبره ، فالتقوى من ديدن الصلحاء ، وهم الذين يسارعون إلى الخيرات ، ما داموا في الحياة .

وفي الحديث (إنه ليغان على قلبي ، فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة)[1] ووجه الاستغفار منه عليه

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود ، جامع الأصول ٤ / ٣٨٦ .

السلام ، التفريق بين حالين كان فيهما بالعبودية ، إذ لا يلحق النبيَّ نقصٌ بوجه ، ولا فتور بحال ، لثبوت عصمته . ولكن حسناتُ الأبرار سيآت المقربين ، فينبغي للإنسان أن يأخذ على نفسه ، أن لا يضيع لحظة حتى يأخذها بالذكر والشكر ، ومتى رأى خللاً رفعه بالاستغفار ، وذكر الله تعالى علم الإيمان ، وبراءة النفاق ، وحصنٌ من الشيطان ، وحرز من النار ، قال رسول الله ﷺ « لما بعث الله يحيى بن زكريا عليهما السلام إلى بني إسرائيل ، أمره أن يأمرهم بخمس خصال ، ويضرب لكل خصلة مثلاً : **أمرهم أن يعبدوا الله** ولا يشركوا به شيأ ، وضرب لهم مثل الشرك كرجل اشترى عبداً من ماله ، ثم أسكنه داراً وزوَّجه ، ودفع إليه مالاً ، وأمره أن يتجَّر فيه ، ويأكل منه ما يكفيه ، ويؤدي إليه فضل الربح ، فعمد العبد إلى فضل الربح فجعل بعطيه لعدو سيده ، ويعطي لسيده منه شيأ يسيراً ، فأيكم يرضى بفعال هذا العبد ؟ **وأمرهم بالصلاة** وضرب لهم مثلاً للصلاة ، كمثل رجل استأذن على ملك من الملوك ، فأذن له فدخل عليه ، فأقبل عليه الملك بوجهه ليستمع مقالته ، ويقضي حاجته ، فالتفت يميناً وشمالاً ، ولم يهتم لقضاء حاجته ، فأعرض عنه الملك ، فلم يقض حاجته ، **وأمرهم بالصيام** وضرب لهم مثلاً ، فقال : مثل الصائم كمثل رجل لبس جبة للقتال ، وأخذ سلاحه فلم يصل إليه عدوه ، ولم يعمل فيه سلاح عدوه ، **وأمرهم بالصدقة** وضرب لهم مثلاً للمتصدق ، فقال : مثل المتصدق كمثل رجل أسره عدوه م فاشترى منه نفسه بثمن معلوم ، فجعل يعمل في بلادهم ويؤدي إليهم من كسبه القليل والكثير حتى يفتدي منهم نفسه ، فعتق وفك رقبته ، **وأمرهم بذكر الله تعالى** وضرب لهم مثلاً للذكر ، فقال : مثل الذكر كمثل قوم لهم حصن ، وبقربهم عدوّلهم ، فدخلوا حصنهم وأغلقوا بابه ، وحصنوا أنفسهم من العدو »[1] وفي الخبر وأنا آمركم بالخصال الخمس التي أمر الله بها يحيى عليه السلام ، وآمركم بخمس أخرى أمرني الله بها : عليكم بالجماعة ، والسمع ، والطاعة ، والهجرة ، والجهاد .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أي بما يجب أن يؤمن به ﴿ **لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ** ﴾ أي لن تدفع عنهم ﴿ **أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ** ﴾ أي من عذابه تعالى ﴿ **شَيْأً** ﴾ أي شيأ يسيراً منه والآية ردٌّ على الكفَّار ، حيث فاخروا بالأموال والأولاد قائلين : « نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » وكانوا يُعيِّرون رسول الله ﷺ وأتباعه بالفقر ، ويقولون : لو كان محمد على الحق ، لما تركه ربه في الفقر والشدة ، وخص الأموال والأولاد بالذكر ، لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال ، وتارة بالاستعانة بالأولاد ، فالكافر إذا لم ينتفع بهما في الآخرة البتة ، دل ذلك على عدم انتفاعه بسائر الأشياء بالطريق الأولى ﴿ **وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ** ﴾ أي مصاحبوها على الدوام وملازموها ﴿ **هُمْ فِيهَا**

(١) الحديث أخرجه الترمذي والبزار من حديث الحارث الأشعري مرفوعاً ، وانظر جمع الفوائد ١ / ٢٦ .

﴿ خَالِدونَ ﴾ أبداً ، ولما بيَّن أن أموال الكفار لا تغني عنهم شيأ ، ثم ربما أنفقوا أموالهم في وجوه الخيرات ، فيخطر ببال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك ، فأزال الله تلك الشبهة بضرب مثلٍ فقال ﴿ مَثَلُ ما يُنْفِقونَ في هَذهِ الحَيَاةِ الدُّنيا ﴾أي مثل ما ينفقه الكفرة قربة ، أو مفاخرة وسمعة ، وطلباً لحسن الذكر بين الناس ﴿ كَمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ ﴾ اي برد شديد مهلك ﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قومٍ ﴾ أي زرع قوم ﴿ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصي فباؤا بغضب من الله ، وإنما وصفوا بذلك ، لأن الإهلاك عن سخط أشد وأفظع ﴿ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ عقوبة لهم ولم تدع منه أثراً ، والمراد تشبيه ما أنفقوا ، في ضياعه وذهابه بالكلية ، بحرث كفار ضربته الريح فاستأصلته ، ولم يبق لهم فيه منفعة بوجه من الوجوه ﴿ وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ ﴾ بما بين من ضياع ما أنفقوا من الأموال ﴿ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ ﴾ لما أنهم أضاعوها بإنفاقها غير مرضاة الله وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص واعلم أن إنفاق الكفار إما أن يكون لمنافع الدنيا ، أو لمنافع الآخرة ، فإن كان لمنافع الدنيا ، لم يبق منه أثر البتة في الآخرة وإن كان لمنافع الآخرة ، ولعلهم أنفقوا أموالهم في الخيرات ، ببناء الرباطات والقناطر ، والإحسان إلى الضعفاء والأيتام والأرامل ، وكان ذلك المنفق يرجو من ذلك الإنفاق خيراً كثيراً ، فإذا قدم الآخرة ، رأى كفره مبطلاً لآثار الخيرات ، وكان كمن زرع زرعاً وتوقع منه نفعاً كثيراً فأصابه ريح فأحرقه ، ولا يبقى معه إلا الحزن والأسف ، ونظير هذه الآية (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً) قال منصور بن عمار : كان لي أخ في الله ، يزورني في شدتي ورخائي ، وكان كثير العبادة والتهجد والبكاء ، ففقدته أياماً فقيل لي هو ضعيف مريض ، فأتيت بابه فطرقته فخرجت ابنته ، فدخلت فوجدته في وسط الدار وهو مضطجع على فراشه ، وقد اسودَّ وجهه ، وازرقت عيناه ، وغلظت شفتاه فقلت له : يا أخي أكثر من قول « لا إله إلا الله » ففتح عينيه ونظر إليّ شزراً ، ففزعتُ حتى قلت له لئن لم تقلها لاغسّلتك، ولاكفّنتُك ، ولا صلّيتُ عليك ، فقال يا أخي منصور هذه كلمة قد حيل بيني وبينها ، فقلت « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » فأين تلك الصلاة والصيام والتهجد والقيام ، فقال : يا أخي كل ذلك كان لغير وجه الله ، إنما كنت أفعل ذلك ليقال ، وأذكر به وإذا خلوت بنفسي غلّقت الأبواب ، وأرخيت الستور ، وبارزت ربي بالمعاصي » فلا غرور للعاقل بكثرة الأعمال والأموال ، إذا لم تكن نيته صحيحة فيما يجري عليه من الأحوال ، فأين الذين آثروا المولى على كل ما سواه ، فوجدوا الفقر أعز من الغنى ، والذُلَّ ألذَّ من العزة ، وبذلوا أموالهم وأرواحهم في سبيل الله ؟ قرأ رسول الله ﷺ ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَى زُرْتُمْ المَقَابِرَ ﴾ ثم قال « يقول ابن آدم مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت »[1] ؟ فعليك بالقناعة وتقليل الدنيا ، ولا تغتر بأصحاب

(١) الحديث أخرجه مسلم في الزهد ، والترمذي والنسائي ، وانظر جامع الأصول ١ / ٦١٠ .

الأموال والجاه ﴿ **يا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا** ﴾ نزلت في قوم من المؤمنين ، كانوا يصادقون المنافقين فنهاهم الله عن ذلك بقوله ﴿ **لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً** ﴾ بطانة الرجل : صاحب وليجته ، ومن يعرف أسراره ثقة به ، شبه ببطانة الثوب التي تلي بطنه ، كما شبه الأنصار بالشعار ، قال عليه السلام « الأنصار شعار ، والناس دثار »(١) ﴿ **مِنْ دُونِكُمْ** ﴾ أي من دون المسلمين ﴿ **لاَ يألُونَكُمْ خَبالاً** ﴾ يقال ألاَ في الأمر إذا قصَّر فيه ، ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم : لا آلوك نصحاً ، على تضمين معنى المنع ، أي لا أمنعك نصحاً والخبالُ : الفساد أي لا يُقصِّرون لكم في الفساد ، بالمكر والخديعة ، ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر ﴿ **وَدُّوا ما عَنِتُّمْ** ﴾ أي تمنوا عنتكم أي مشقتكم وشدة ضرركم ، ﴿ **قَدْ بَدَتِ البغْضاءُ مِنْ أفْواهِهِمْ** ﴾ أي قد ظهرت علامة العداوة في كلامهم ، الخارج من أفواههم ﴿ **وما تُخْفي صُدورُهُمْ أكْبَرُ** ﴾ مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار ﴿ **قدْ بَيّنَا لكُمْ الآياتِ** ﴾ الدالة على وجوب الإخلاص في الدين ، ومعاداة الكافرين ﴿ **إنْ كُنْتُمْ تعْقِلونَ** ﴾ ما بينا لكم فتعملون به ﴿ **هَا أَنْتُمْ أُوْلاءِ** ﴾ أي أنتم أيها المؤمنون أولاء المخطئون في موالاتهم ﴿ **تُحِبونَهُمْ ولا يُحِبُّونَكُمْ** ﴾ لما بينكم من مخالفة الدين ﴿ **وَتُؤْمِنونَ بِالكِتابِ كُلِّهِ** ﴾ أي بجنس الكتاب جميعاً والمعنى لا يحبونكم والحال أنكم تؤمنون بكتابهم ، فما بالكم تحبونهم وهو لا يؤمنون بكتابكم ؟ وفيه توبيخ بأنهم في باطلهم ، أصلب منكم في حقكم ﴿ **وَإذا لَقُوكُمْ قَالوا آمنَا** ﴾ نفاقا ﴿ **وَإذا خَلَوْا** ﴾ فكان بعضهم مكان بعض ﴿ **عَضّوا عَلَيْكُمُ الأَنامِلَ مِنَ الغَيْظِ** ﴾ أي من أجله تأسفاً وتحسراً ، حيث لم يجدوا إلى التشفي سبيلاً ، والغيظ على المؤمنين ، حتى تبلغ تلك الشدة إلى عض الأنامل ، وإنما حصل لهم هذا الغيظ الشديد ، لما رأوا من ائتلاف المؤمنين ، واجتماع كلمتهم ، وصلاح ذات بينهم ﴿ **قُلْ مُوتُوا بغيظِكُمْ** ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته ، إلى أن يهلكوا به ﴿ **إنّ اللهَ عليمٌ بِذاتِ الصُّدور** ﴾ أي قل لهم إن الله عليم بعداوة الصدور ، فيعلم ما في صدوركم من البغضاء والخلق ﴿ **إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ** ﴾ أي تصبكم أيها المؤمنون حسنة ، بظهوركم على عدو لكم وغنيمة تنالونها ﴿ **تَسُؤْهُمْ** ﴾ أي تحزنهم حسداً إلى ما نلتم من خير ومنفعة ﴿ **وَإنْ تُصِبْكُمْ سيئَةٌ** ﴾ مساءة بإخفاق سرية لكم ، أو إصابة عدو منكم ﴿ **يفْرَحُوا بِها** ﴾ يشمتون مما أصابكم من ضرر وشدة ، وذكر المس مع الحسنة والإصابة مع السيئة للإيذان بأن مدار مساءتهم ادني مراتب اصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام اصابة السيئة ﴿ **وَإنْ تصْبِروا** ﴾ على عداوتهم أو على مشاق التكاليف ﴿ **وَتَتّقُوا** ﴾ ما حرم الله عليكم ونهاكم عنه ﴿ **لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ** ﴾ مكرهم وحيلتهم التي دبروها لأجلكم ﴿ **شَيْئاً** ﴾ لا يضركم شيأ من الضرر ، بفضل الله وحفظه ﴿ **إنّ اللهَ بِما يعْمَلونَ** ﴾ في عداوتكم من الكيد

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه وأحمد بن حنبل ، انظر جامع الأصول ٨ / ٣٨٩ .

﴿ **مُحيطٌ** ﴾ علماً فيعاقبهم على ذلك ، فينبغي للمؤمن أن يجانب أعداء الله ، ويصبر على أذاهم ، فإنه امتحان له ، والطعن لم يتخلص منه الأنبياء والأولياء ، فكيف أنت يارجل ؟

وفي قوله تعالى ﴿ **لا تتخِذوا بِطانةً منْ دُونِكُمْ** ﴾ إشارة إلى أن الحامل لأسرار الرجل ، ينبغي أن يكون من جنسه مؤتمناً ، وربما يفشي الرجل سره إلى من لم يجربه ، فيفتضح عند الناس .

إنَّ الرِّجَالَ صَنَادِيقٌ مُقَفَّلَةٌ * وَمَا مَفَاتيحُهَا إلاَّ التَّجَارِيبُ

فلا تغتر بظاهر إنسان حتى تعرف سريرته ، قال الإمام الغزالي : ولا تعول على مودة من لم تختبره ، بأن تصحبه مدة في دار أو موضع ، أو تسافر معه ، أو تعامله في الدينار والدرهم ، أو تقع في شده فتحتاج إليه ، فإن رضيته في هذه الأحوال ، فاتخذه أباً لك إن كان كبيراً ، أو ابناً إن كان صغيراً ، أو أخاً إن كان مثلاً لك ، وإذا بلغك من الإخوان غيبة ، أو رأيت منهم شراً ، أو أصابك منهم ما يسوءك ، فكِلْ أمرهم إلى الله ، ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر ويضيع العمر لشغله .

اصبر على مضض الحسود * فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها * إن لم تجد ما تأكله

قال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة ، فليسارع العبد إلى تحصيل حسن الخلق ، وتوطين النفس على الصبر على المكاره حتى يفوز مع الفائزين ﴿ **وَإذْ غَدوْتَ** ﴾ أي اذكر لهم يا محمد وقت خروجك غدوة أي أول النهار إلى أحد ﴿ **مِنْ أهْلِكَ** ﴾ من منزل عائشة رضي الله عنها في المدينة ، ﴿ **تُبَوِىءُ المؤْمِنينَ** ﴾ أي تنزلهم ﴿ **مَقَاعِدَ** ﴾ ﴿ **للقِتالِ** ﴾ أي لأجل القتال ، والمقاعد جمع مقعد ، وهو اسم لمكان القعود ، عبر عن تلك الأماكن التي عينت لكل واحد من الصحابة ، روي أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ، ودعا « عبد الله بن أبيّ بن سلول » فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الأنصار يا رسول الله : أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ قط ، إلا أصاب منا ، ولادخلها علينا إلا أصبنا منه ، فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ، ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين ، وقال بعضهم يا رسول الله : اخرج بنا إلى هؤلاء ، لا يرون أنا قد جَبُنَّا عنهم ، وقال عليه السلام : « إني رأيت في منامي بقراً مذبّحة حولي فأولتها خيراً ، ورأيت في ذبان سيفي ثلماً أي كسراً فأولته هزيمة ، ورأيت كأنّي أدخلت يدي في درع حصينة ، فأولتها المدينة ، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم » فقال رجال

من المسلمين قد فاتتهم بدر : اخرج بنا إلى أعدائنا فلم يزالوا به عليه الصلاة والسلام حتى دخل ولبس لأمته ـ أي درعه ـ فلما رأوا ذلك ندموا ، وقالوا بئسما صنعنا ، نشير على رسول الله والوحي يأتيه ؟ وقالوا اصنع يا رسول الله ما رأيت فقال : « ما ينبغي لنبيأن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل » وكان قد أقام المشركون بأحد يوم الأربعاء والخميس ، فخرج رسول الله عليه الصلاة والسلام يوم الجمعة ، بعد ما صلى الجمعة ، فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت ، للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فمشى على راحلته فجعل يصفُّ أصحابه للقتال كأنما يقوِّم بهم القدح ، إن رأى صدراً خارجاً قال تأخر ، وكان نزوله في عدوة الوادي أي طرفه وجانبه ، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وأمرَّ عبد الله بن جبير على الرماة ، وقال لهم « انضحوا عنا بالنبل » ـ أي ادفعوا العدو عنا بالسهم حتى لا يأتونا من ورائنا ـ ولا تبرحوا مكانكم ، فإذا عاينوكم وولوكم الأدبار فلا تطلبوا المدبرين » ثم إن الرسول ﷺ لما خالف رأي عبد الله بن أُبيٍ شق عليه ذلك ، وقال أطاع الولدان وعصاني ، وكان عليه السلام قد خرج في ألف رجل ، فلما بلغوا الشوط رجع ابن أبيّ بثلاثمائة ، وبقيت سبعمائة ، فقال لقومه يا قوم : علاَم نقتل أنفسنا وأولادنا ؟ فتبعهم أبو جابر السلمي وقال : أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم ، فقال عبد الله : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، وكان الحيان من الأنصار « بنو سلمة » من الخزرج ، « وبنو حارثة » من الأوس ، جناحي عسكر رسول الله ﷺ ، فهمَّا باتباع عبد الله فعصمهم الله ، فمضوا مع رسول الله ﷺ ، وقواهم الله تعالى حتى هزموا المشركين ، فلما رأى المؤمنون انهزام القوم ، طمعوا أن تكون هذه الوقعة كوقعة بدر ، فطلبوا المدبرين ، فتركوا الموضع الذي أمرهم النبي عليه السلام بالثبات فيه ، ثم اشتغلوا بطلب الغنائم ، وخالفوا أمر الرسول ﷺ ، فأراد الله أن يفطمهم عن هذا الفعل ، لئلا يقدموا على مخالفة الرسول ﷺ ، وليعلموا أن ظفرهم إنما حصل يوم بدر ببركة طاعتهم لله ولرسوله ، ومتى تركهم الله مع عدوهم لم يقوموا لهم ، فنزع الله الرعب من قلوب المشركين ، وكانوا ثلاثة آلاف رجل ، فحملوا على المؤمنين ، وتفرق العسكر عن رسول الله عليه السلام ، حتى بقي سبعة من الأنصار ورجلان من قريش ، فلما قصد الكفار النبي عليه الصلاة والسلام ، شجوا رأسه ، وكسروا رباعيته ، وثبت معه عليه السلام يومئذ طلحة ، ووقاه بيده فشُلَّت أصبعاه وصار مجروحاً في اربعة وعشرين موضعاً ، ولما أصابه عليه السلام ما أصابه من الشجة وكسر الرباعية ، وغلب عليه الغشي ، احتمله طلحة ورجع القهقرى ، وكان عليه السلام يقول « أوجب طلحة » ووقعت الصيحة في العسكر أن محمداً قد قتل ، وكان في جملة الصحابة رجل يكنى « أبا سفيان » نادى الأنصار وقال : هذا رسول الله ، فرجع إليه المهاجرون والأنصار ، فشمل عزُّ الشهادة اثنين وسبعين من المؤمنين ، واختص بشرائف نعم الله وجلائل كرمه ، « حمزة » سيد الشهداء ، وهنيئاً له أن مُثِّل به ليزداد أجره .. ثم إن كل ذلك يؤكد قوله تعالى (**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا**) وإن المقبل

من أعانه الله ، والمدبر من خذله الله ، ومن الله العصمة ﴿ **واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ سميع لما يقولون عليم بما يسرون ﴿ **إِذْ هَمَّتْ** ﴾ بدل من إذ غدوت مبين لما هو المقصود بالتذكير ، والهمُّ تعلق الخاطر بماله قدر ﴿ **طائِفَتان مِنْكُمْ** ﴾ أيها المؤمنون وهما « بنو سلمة » من الخزرج و « بنو حارثة » من الأوس ﴿ **أَنْ تَفْشَلاَ** ﴾ أي بأن تَجْبُنا وتضعفا ، وترجعا لظنهما الصواب فيه ، والفشل : الضعف ، والظاهر أن همهما ليس بمعنى العزم والقصد ، وإنما هو خطرات وحديث نفس ، كما لا تخلو النفس عند الشدائد من بعض الهلع ، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ، ويوطِّنها على احتمال المكروه ﴿ **واللهُ وَلِيُّهُما** ﴾ أي عاصمهما من اتباع تلك الخطرات ، والجملة اعتراض ﴿ **وَعَلى اللهِ** ﴾ وحده دون ما عداه ﴿ **فَلْيَتَوكّلِ المؤمِنونَ** ﴾ في جميع أمورهم ، فإنه حسبهم وفيه اشعار بأن وصف الإيمان من دواعي التوكل وموجباته ، قال الإمام : وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وآفة ، بالتوكل على الله ، وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل ، ولما زُجَّ بإبراهيم عليه السلام في المنجنيق ، وأتاه جبريل فقال : ألك حاجة ؟ قال : أمَّا إليك فلا ، وأما إلى الله فبلى ، قال : سله قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، وقد قال نبينا عليه السلام « يقول الله تعالى : من شغله ذكري عن مسألتي ، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين »[1] فعلى السالك أن يتوكل على الله ، ويفوض أمره إليه ، فإن كلَّ ما قضي وقدّر لا يُرَدُّ البتة ، وإن نازعتك نفسك في ذلك ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ** ﴾. كانت وقعة بدر في السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة ﴿ **وَأَنتُم أَذِلَّةٌ** ﴾ جمع ذليل وإنما قال أذلة ولم يقل ذلائل بجمع الكثرة ، ليدل على أنهم على ذلتهم كانواقليلاً ، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال ، وقلة السلاح ، والمال والمركوب ، وذلك أنهم خرجوا على النواضح ، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد ، وما كان معهم إلا فرس واحد ، وتسعون بعيراً ، وست أدرع ، وعددٌ محدودٌ من السيوف ، وقلتهم أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وكان عدوهم كثرة ، زهاء ألف مقاتل ، ومعهم مائة فرس وكان صاحب راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه ، وصاحب راية الأنصار « سعد بن عبادة » ﴿ **فاتّقوا اللهَ** ﴾ في الثبات مع رسوله ﴿ **لَعَلَّكُمْ تشْكُرونَ** ﴾ أي راجين أن تشكروه بما ينعم به عليكم من النصرة ﴿ **إِذْ تَقولُ** ﴾ ظرف لنصركم أي وقت قولك ﴿ **للمؤمِنينَ** ﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة ﴿ **أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثلاَثَةِ آلافٍ مِنَ الملائِكَةِ** ﴾ الإمداد : إعانة الجيش بالجيش ، وكلمة « أَلَنْ » للإشعار بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر ، لضعفهم وقلتهم ، وقوة العدو وكثرته ﴿ **مُنْزَلِينَ** ﴾ أي حال كونهم نازلين من السماء بإذنه

(١) الحديث أخرجه الترمذي برقم / ٢٩٢٧ / في ثواب القرآن وقال : حديث حسن غريب ، ورواه الدارمي ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٠٠ .

تعالى ، أمدهم الله أولاً بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم خمسة ، وإنما قدم لهم الوعد بنزول الملائكة ، لتتقوى قلوبهم ويعزموا على الثبات ، ويتقووا بنصر الله ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي بلى يكفيكم ذلك ، ثم وعدهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى ، حثاً لهم عليهما وتقوية لقلوبهم ، فقال : ﴿ إِنْ تَصْبِرُوا ﴾ على لقاء العدو ومناهضتهم ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ معصية الله ومخالفة نبيه ﷺ ﴿ وَيَأْتُوكُمْ ﴾ أي إن يجئكم المشركون ﴿ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا ﴾ أي من ساعتهم هذه ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الملائِكَةِ ﴾ في حال إتيانهم لا يتأخر نزولهم كثيراً ، يريد أن الله يعجّل نصرتكم ، ويسهل فتحكم ، إن صبرتم واتقيتم ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ من التسويم الذي هو إظهار سيما الشيء أي معلّمين أنفسهم ، أو خيلهم في نواصيها بالصوف الأبيض ، رُوي أن الملائكة كانوا بعمائم بيض ، إلا جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام ، ونزلوا على الخيل البلق ﴿ وما جَعَلَهُ اللهُ ﴾ أي وما جعل الله ذلك الإمداد ، بإنزال الملائكة عياناً لشيء من الأشياء ﴿ إِلاَّ بُشْرىٰ لَكُمْ ﴾ بأنكم تنصرون ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ به ﴾ أي بالإمداد وتسكن إليه من الخوف ﴿ وَما النَّصْرُ إِلاَّ ﴾ كائن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ لا من العُدَّة والعَدَد ، وهو تنبيه على أنه لا حاجة في نصرهم إلى مدد ، وإنما أمدهم بشارة لهم ، وربطاً على قلوبهم ، فينبغي للمؤمن أن لا يركن إلى شيء من ذلك ﴿ العَزِيزِ ﴾ الذي لا يُغَالَب في حكمه وقضيته ﴿ الحَكِيمِ ﴾ الذي يفعل كل ما يفعل ، حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ لِيَقْطَعَ ﴾ أي نصركم الله في يوم بدر ليهلك وينقص ﴿ طَرَفاً مِنَ الذّينَ كَفَروا ﴾ أي طائفة منهم بقتل وأسر ، وقد وقع ذلك ، حيث قُتل من رؤسائهم وصناديدهم سبعون ، وأسر سبعون ﴿ أَوْ يَكبِتَهُمْ ﴾ أي يحزنهم ويغيظهم بالهزيمة ، فإن الكبت شدة غيظ، أو وهن يقع في القلب ، من كبته بمعنى كبده إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة ، وأو للتنويع دون الترديد ﴿ فَيَنْقَلِبوا خَائِبِينَ ﴾ غير ظافرين بمبتغاهم ، وينهزموا منقطعي الآمال ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ اعتراض ﴿ أَوْ يتوبَ عليهِمْ أو يُعَذِّبَهُمْ ﴾ والمعنى إن الله مالك أمرهم على الإطلاق ، فإما أن يهلكهم ، أو يكبتهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم تعذيباً شديداً إن أصروا ، وليس لك من أمرهم شيء ، وأنما أنت عبد مأمور ، لإنذارهم وجهادهم ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمونَ ﴾قد استحقوا التعذيب بظلمهم ﴿ وَللهِ ما في السّمواتِ وَما في الأَرْضِ ﴾ من الموجودات خلقاً وملكاً ، لا مدخل فيه لأحد أصلاً ، فله الأمر كله ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يغفر له ﴿ وَيُعَذِّبُ منْ يَشاءُ ﴾ أن يعذبه ، وقدّم المغفرة لسبق رحمته تعالى غضبه ، وهذا صريح في نفي وجوب التعذيب ، والتقييدُ بالتوبة وعدمها كالمنافي له ﴿ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لعباده ، والمقصود بيان أنه وإن حسن كل ذلك منه ، إلا أن جانب الرحمة والمغفرة غالب ، لا على سبيل الوجوب ، بل على سبيل الفضل والإحسان .

﴿ **يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تأكلُوا الربٰوا** ﴾ المرادُ بأكله أخذه ، وإنما عبر عنه بالأكل لأنه معظم ما يقصد بالأخذ ، ولشيوعه في المأكولات ، مع ما فيه من زيادة التشنيع ﴿ **أضْعافاً مُضَاعَفَةً** ﴾ زيادات مكررة ، كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ، ولم يكن المديون واجداً لذلك المال ، قال زدني في المال حتى أزيد في الأجل فربما جعله مائتين ، ثم إذا حلَّ الأجل الثاني فعل مثل ذلك ، ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها ، وقوله « أضعافاً » جمع ضعف أي متضاعفاً ، ولما كان المقصود الكثرة ، أتبعه بما يدل على الكثرة ، حيث وصفه بقوله « مضاعفة » وهذه الحال ليست لتقييد النهي بها ، بل لمراعاة ما كانوا عليه من العادة ، توبيخاً لهم على ذلك ﴿ **واتّقوا اللهَ** ﴾ فيما نهيتم عنه ، خصوصاً الربا وعمله ﴿ **لَعَلكُمْ تُفْلِحونَ** ﴾ راجين الفلاح ﴿ **واتّقوا النّارَ التي أُعِدَّتْ للكافِرينَ** ﴾ بالتحرز عن متابعتهم وتعاطي ما يتعاطونه ، وفيه تنبيه على أن النار معدة للكفار بالذات ، وبالعَرَض للعصاة ، وكان أبو حنيفة رحمه الله يقول : هي أخوف آية في القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار ، المعدة للكافرين ، إن لم يتّقوه في أصناف محارمه ﴿ **وَأَطِيعُوا اللهَ** ﴾ في كل ما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ **وَالرَّسُولَ** ﴾ الذي يبلغكم أوامره ونواهيه ﴿ **لَعَلّكُمْ تُرْحَمونَ** ﴾ راجين لرحمته ، قال القاشاني : ولا يخفى على الفطن ما فيه من المبالغة في التهديد على الربا حيث أتى بـ « لعلَّ » في فلاح من اتقاه ، ثم أوعد عليه بالنار التي أعدت للكافرين مع كونهم مؤمنين ، فما أعظمها من مصيبة توجب عقاب الكفار للمؤمنين ، وما أشده من تغليظ عليه !!

قال رسول الله ﷺ « لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء »[1] والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال وهو قسمان : ربا النسيئة ، وربا الفضل ، أما ربا النسيئة فهو ما كان يتعارفه أهل الجاهلية ويتعاملون به وقد سبق آنفا ، وأما ربا الفضل أي أخذ الفضل عند مقابلة الجنس بالجنس نقداً فهو أن يباع صاع من الحنطة بصاعين منها وما أشبه ذلك ، وقد اتفق جمهور العلماء على تحريم الربا في القسمين ، فإن الربا يضر بإيمان المؤمنين ، وهو وإن كان زيادة في الحال ، لكنه نقصان في الحقيقة ، فإن الفقراء الذين يشاهدون المرابي ، يأخذ أموالهم بسبب الربا يلعنونه ، ويدعون عليه ، وذلك يكون سبباً لزوال الخير والبركة عنه ، في نفسه وماله ، بل عما يتفرع من نقص عرضه وقدره ، وتوجه مذمة الناس إليه ، وسقوط عدالته ، وزوال أمانته ، وفسق القلب وغلظته ، وآخذ الربا لا يقبل الله منه صدقة ولا جهاداً ولا حجاً ولا صلاة ، وقد ثبت في الحديث « أن الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام » فإذا كان الغنى من الوجه الشرعي الحلال كذلك ، فما ظنك بالغنى من الوجه الحرام ؟ فالإنسان مع

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه ، الفتح الكبير ١ / ١٣ .

فقره وحاجته ، إذا توكل على الله وأحسن إلى عبيده ، فالله تعالى لا يتركه ضائعاً جائعاً في الدنيا ، بل يزيد كل يوم في جاهه ، وذكره الجميل،ويُميل قلوب الناس إليه ، وأما إذا كان بخلاف ذلك فيكون أمره عسيراً في الدنيا والآخرة ، والعمل السوء يُنْزع به الإيمان عند الموت ، فيستحق به صاحبه الخلود في النار كالكفار نعوذ بالله من ذلك ، وروى أبو بكر الوراق عن أبي حنيفة رحمه الله : أكثر ما ينزع الإيمان لأجل الذنوب عند الموت ، وأسرعها نزعاً للإيمان ظلم العباد ، فاتق أيها المؤمن اللهَ تعالى ، ولا تظلم عباد الله بأخذ أموالهم من أيديهم بغير حق ، فإنه حوب كبير ، عصمنا الله وإياكم من سوء الحال ﴿ وَسَارِعُوا ﴾أي بادروا وأقبلوا﴿ إِلَى مَغْفِرَةٍ ﴾ كائنة﴿ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾إلى ما يُسْتحقَّان به كالإسلام والتوبة والإخلاص وأداء الواجبات وترك المنهيات ﴿ عَرْضُهَا السَّمواتُ والأَرضُ ﴾ أي كعرضها صفة لجنة ، وذكر العرض للمبالغة في وصفها بالسعة ، على طريقة التمثيل ، فإن العرض في العادة أدنى من الطول ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي هيئت لهم ، وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن ، وأنها خارجة عن هذا العالم ، أما الأول فلدلالة لفظ الماضي ، وأما الثاني فلأن ما يكون عرضه كعرض جميع هذا العالم ، لا يكون داخلاً فيه،روي أن رسول هرقل سأل رسول الله ﷺ فقال : إنك تدعو إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال عليه السلام « سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار »؟ والمعنى والله أعلم إذا دار الفلك حصل النهار في جانب من العالم، والليل في ضد ذلك الجانب ، فكذا الجنة في جهة العلو والنار في جهة السفل ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ ﴾ صفة مادحة للمتقين ﴿ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ﴾ أي في حالتي الرخاء والشدة ، أي الغنى والفقر ، واليسر والعسر ، أي لا يخلون في حالٍ ما بإنفاق ما قدروا عليه ، من قليل أو كثير ﴿ والكَاظِمِينَ الغَيْظَ ﴾ الكظم : الحبس ، والغيظ توقد حرارة القلب من الغضب أي الممسكين عليه ، الكافين عن إمضائه مع القدرة عليه ﴿ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ أي التاركين عقوبة من استحق مؤاخذته ﴿ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ الذين عمَّت فواضلهم ، وتمت فضائلهم ، واعلم أن الإحسان إلى الغير والإنفاق في السراء والضراء ، يدخل فيه إنفاق العلم ، وذلك بأن يشتغل بتعليم الجاهلين ، وهداية الضالين ، ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه الخيرات والعبادات ، وفي الحديث « السخيُّ قريب من الله ،قريبٌ من الناس ،قريب من الجنة ،بعيد من النار »[1] وفي كظم الغيظ قال رسول الله ﷺ :« من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ،ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً »[2] قال الفضيل بن عياض :الإحسان بعد الإحسان مكافأة ، والإساءة مجازاة ، والإحسان بعد الإساءة كرم وجود ، والإساءة بعد الإحسان لؤم وشؤم ، حكي أن خادماً كان قائماً على رأس الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وهو مع أضيافه في المائدة ، فانحرفت قصعة كانت في

(١) الحديث أخرجه الترمذي والبيهقي والطبراني في الأوسط ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٧٠ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب برقم / ٤٧٧٨ / وانظر جامع الأصول ٨ / ٤٤٣ .

يد الخادم فسقط منها شيء على الحسن فقال الخادمُ : ﴿ **والكَاظِمينَ الغَيْظَ والعَافِينَ عن النَّاسِ** ﴾ فقال قد عفوت عنك فقال ﴿ **والله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ** ﴾ قال أنت حُرٌّ لوجه الله .

﴿ **والذينَ إذا فَعَلوا فاحِشَةً** ﴾ أي فعلة بالغة في القبح كالزنى ﴿ **أو ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ** ﴾ بأن أذنبوا أي ذنب كان مما يؤاخذ به الإنسان ، أو الفاحشة الكبيرة ، وظلم النفس الصغيرة ﴿ **ذَكَروا اللهَ** ﴾ تذكروا حقه العظيم وجلاله ، الموجب للخشية والحياء ، أو وعيده ﴿ **فاسْتَغْفَروا لِذُنوبِهِمْ** ﴾ بأن يندموا على ما مضى ، مع العزم على ترك مثله في المستقبل ، وأما مجرد الاستغفار باللسان ، فلا أثر في إزالة الذنب ، وهو توبة الكذابين ﴿ **وَمَنْ** ﴾ استفهام إنكاري أي لا ﴿ **يغفِرُ الذنوبَ** ﴾ أي جنس الذنوب أحد ﴿ **إلا اللهُ** ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه تصويباً للتائبين ، وتطييباً لقلوبهم ، وبشارة لهم بوصف ذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة ، وأن من كرمه أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وتحريضاً للعباد على التوبة ﴿ **وَلَمْ يُصِرُّوا** ﴾ أي لم يقيموا ﴿ **على ما فَعَلوا** ﴾ من الذنوب ، فاحشة كانت أو ظلماً ، فإنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار ﴿ **وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ** ﴾ أي وهم عالمون بقبحه والوعيد عليه ﴿ **أُوْلَئِكَ** ﴾ أي أهل هذه الصفات ﴿ **جَزاؤُهُمْ** ﴾ أي ثوابهم ﴿ **مغْفِرةٌ** ﴾ كائنة ﴿ **منْ رَبِّهِمْ وَجنَّاتٌ تجْري مِنْ تحتِها الأنْهارُ خَالدِينَ فيها** ﴾ أي لهم ذخر لا يُبخس ، وأجر لا يوكس ، وجنات لا تنقضي ، ولذات لا تمضي ﴿ **وَنِعم أَجْرُ العَامِلِينَ** ﴾ المخصوص بالمدح محذوف أي ونعم أجر العاملين ذلك ، أي ما ذكر من المغفرة والجنات ، قال رسول الله عن ربه تبارك وتعالى « ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي ، ابن آدم إنك إن تلقني بقراب الأرض خطايا لقيتك بقرابها مغفرة بعد أن لا تشرك بي شيأ ، ابن آدم إنك إن تذنب حتى يبلغ ذنبك عنان السماء ، ثم تستغفرني أغفر لك »[1] قال ثابت البناني : بلغني أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية : (**والَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً**) ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ، ثم يقوم ويصلي ، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له »[2] روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : « ما أقلَّ حياء من يطمع في جنتي بغير عمل ؟ كيف أجود بجنَّتي على من يبخل بطاعتي ؟ .

تَرْجُو النَّجَاة ولم تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا * إنَّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِي عَلَى اليَبَسِ

﴿ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلكُمْ سُنَنٌ** ﴾ أصل الخلو الانفراد ، والمكان الخالي هو المنفرد عمن يسكن فيه ، والسنن : الوقائع ، أي قد مضت من قبل زمانكم ، وقائع سنها الله في الأمم المكذبة ، أي وضعها طريقة

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، الفتح الكبير ٣ / ١١٦ .

يسلكها على وفق الحكمة ، فالمراد بسنن الله تعالى : معاملات الله في الأمم المكذبة ، بالهلاك والاستئصال ﴿ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أي إن شككتم في ذلك ، فسيروا ، وليس المراد بالمسافرة في الأرض بسير الأقدام بل المقصود تعرف أحوالهم فإنَّ أثر المشاهدة أقوى من أثر السماع كما قيل ليس الخبر كالمعاينة وفي هذا المعنى قيل :

تِلْكَ آثَارُنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا * فَانظُرُوا بَعْدَنَا إلى الآثَارِ

﴿ فانظُروا ﴾ بنظر العين والمشاهدة ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ لرسلي وأوليائي ﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى ما سلف ﴿ بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ وهم المكذبون أي إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب ، والبيان هو الدلالة على الحق ، بإزالة ما فيه من الشبهة ﴿ وَهُدىً ﴾ أي زيادة بصيرة وهو مختص بالدلالة والارشاد إلى طريق الدين القويم والصراط المستقيم ﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ وهو الكلام الذي يفيد الزجر عما لا ينبغي في الدين ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي لكم ، والإظهار للإيذان بعلة الحكم ، فإن مدار كونه هدى وموعظة لهم إنما هو تقواهم ، واعلم أن الأمم الماضية خالفوا الأنبياء والرسل للحرص على الدنيا وطلب لذاتها ، ثم انقرضوا ولم يبق من دنياهم أثر ، وبقي عليهم اللعن في الدنيا والعقاب في الآخرة ، فرغَّب الله تعالى أمة محمد ﷺ المصدقين ، في تأمل أحوال هؤلاء الماضين ، ليصير ذلك داعياً لهم إلى الإنابة ، والإعراض عن الاغترار بالحظوظ الفانية واللذات الهابطة ، فإن الدنيا لا تبقى مع المؤمن ولا مع الكافر ، فالمؤمنُ يبقى له بعد موته الثناء الجميل في الدنيا ، والثواب الجزيل في العقبى ، والكافر بخلافه ، فاللائق أن يجتهد فيما هو خير وأبقى ، ولا ينظر إلى زخارف الدنيا ، ثم في هذا تسلية للمؤمنين فيما أصابهم يوم أحد ، فإن الكفار وإن نالوا من المؤمنين بعض النيل لحكمة اقتضته ، فالعاقبة للمؤمنين قال تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) و (أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) ولو كانت الغلبة كل مرة للمؤمنين ، لصار الإيمان ضرورياً ، وهو خلاف ما تقتضيه الحكمة الإلهية ، فعلى العاقل أن يفوِّض الأمر إلى الله ، ويعتبر بعين البصيرة في الأمور الخفية والجلية (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ) وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ﴿ وَلاَ تَهِنُوا ﴾ من الوهن وهو الضعف أي لا تضعفوا عن الجهاد ، بما أصابكم من الجراح يوم أحد ﴿ ولا تحْزَنوا ﴾ على من قُتل منكم وهي صيغة نهي ورد للتسكين والتصبير ، لا النهي عن الحزن ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ أي والحال أنكم الأعلون الغالبون دون عدوكم ، فإن مصير أمرهم إلى الدمار ، لأن الباطل يكون زهوقاً ﴿ إِنْ كُنْتُم مؤْمِنِينَ ﴾ والجواب محذوف دل عليه المذكور أي إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا ، فإن الإيمان يوجب قوة القلب ، والثقة بصنع الله، وقلة المبالاة بأعدائه

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ ﴾ أي يصبكم ﴿ قَرْحٌ ﴾ أي جراحة ﴿ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ ﴾ أي الكفار ببدر ﴿ قَرْحٌ مِثْلُهُ ﴾ حيث قتل المسلمون من الكافرين ببدر سبعين ، وأسروا سبعين، والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد ، فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال ، فأنتم أولى بأن لا تضعفوا ، فإنكم ترجون من الله مالا يرجون ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ ﴾ إشارة إلى الأيام الجارية ، فيما بين الأمم الماضية والآتية كافة ، والمراد بها أوقات الظفر والغلبة ﴿ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ نُصرّفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ، ولهؤلاء أخرى ، والمداولةُ : نقل الشيء من واحد إلى واحد ، وقالوا : تداولته الأيدي أي تناقلته ، والمراد أنه تعالى تارة يشدد المحنة على الكفار ، وأخرى على المؤمنين ، وأنه لو شدد المحنة على الكفار في جميع الأوقات ، وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات ، لحصل العلم الضروري والاضطراري ، بأن الإيمان حق وما سواه باطل ، ولو كان كذلك لبطل التكليف ، والثواب والعقاب ، فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان ، وأخرى على أهل الكفر .

﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الذينَ آمَنُوا ﴾ عطف على علة محذوفة اي نداولها بينكم ليكون من المصالح كيت وكيت وليعلم الله الذين آمنوا علماً يتعلق به الجزاء ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ جمع شهيد أي ويكرم ناساً منكم بالشهادة ، وهم شهداء أحد ﴿ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالمِينَ ﴾ أي يبغض الذين يضرون خلاف ما يظهرون ، أو الكافرين ، وفيه تنبيه على أنه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة ، وإنما يغلّبهم أحياناً استدراجاً لهم ، وابتلاء للمؤمنين ﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ليصفيهم ويطهرهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم ﴿ وَيَمْحَقَ الكافِرِينَ ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم ، والمحقُ : نقص الشيء قليلاً قليلاً ، والمراد بهم الذين حاربوا رسول الله ﷺ يوم أحد ، وأصروا على الكفر وقد محقهم الله عز وجل جميعاً .

﴿ أَمْ حَسِبْتُم ﴾ أم منقطعة والهمزة للإنكار والاستبعاد ، أي بل أظننتم ﴿ أَنْ تدخُلوا الجَنَّةَ ﴾ وتفوزوا بنعيمها ﴿ ولَمَّا يعْلَمِ اللهُ الذينَ جَاهَدوا منْكُمْ ﴾ أي ولَّما تجاهدوا لأن وقوع الشيء يستلزم كونه معلوماً لله ، فَنُزِّل نفيُ العلم منزلة نفي الجهاد للتأكيد والمبالغة ، وفيه إشعار بأن علمه بالأشياء على ما هي عليه ضروري ، يقول الرجل : « ما علم الله في فلان خيراً » يريد ما فيه خير حتى يعلمه ، و« لَمَّا » بمعنى لم إلا أن فيه ضرباً من التوقع ، فدل على نفي الجهاد فيما مضى وعلى توقعه فيما يستقبل ، تقول : وعدني أن يفعل كذا ولَّما يفعل أي لم يفعل وأنا أتوقع فعله ﴿ ويَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ أي والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد ، والصبر على الشدائد ، فلا ينبغي أن تحسبوا دخولها من غير أن تسلكوا طريقهم ، وتصبروا صبرهم ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الموْتَ ﴾ أي الموت بالشهادة ، والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً ، وكانوا

يتمنون أن يشهدوا مع رسول الله ﷺ مشهداً لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة ، فألحوا على رسول الله في الخروج ، ثم ظهر منهم خلاف ذلك ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ** ﴾ أي من قبل أن تشاهدوه ، وتعرفوا هوله وشدته ﴿ **فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ** ﴾ أي ما تتمنونه من الموت بمشاهدة أسبابه ﴿ **وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** ﴾ معاينين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم ، وشارفتم أن تُقتلوا ، وهو توبيخ لهم على تمنيهم الحرب، ثم جبنهم وانهزامهم ، لا على تمني الشهادة ، واعلم أن حب الدنيا لا يجتمع مع سعادة الآخرة ، فبقدر ما يزداد أحدهما ينتقص الآخر ، وذلك لأن سعادة الآخرة لا تحصل إلا بفراغ القلب من كل ما سوى الله ، وامتلائه من حب الله ، وهذان الأمران مما لا يجتمعان ، فلهذا السر وقع الاستبعاد الشديد في هذه الآية من اجتماعهما ، وأيضاً حب الله لا يتم بالدعوى ، فليس كل من أقر بدين الله ، كان صادقاً ، ولكن الفصل فيه تسليط المكروهات والمحرمات ، فإن الحب هو الذي لا ينتقص بالجفاء ، ولا يزداد بالوفاء ، فإن بقي الحب عند تسلط أسباب البلاء، ظهر أنَّ ذلك الحب كان حقيقياً ، فلهذه الحكمة قال (**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ**) بمجرد تصديقكم الرسول ، قبل أن يبتليكم الله بالجهاد وتشديد المحنة ، قال القشيري : من ظن أنه يصل إلى محل عظيم ، دون مقاساة الشدائد ، ألقته أمانيه في مهْواة الهلاك ، ومن عرف قدر مطلوبه ، سهل عليه بذل مجهوده ، قال الشاعر :

وَمَا جَادَ دهرٌ بلَذَّاتِه * علىَ مَنْ يضِنُّ بِخلْعِ العِذَار

وسئل الشبلي عن نعت العارف فقال : لسانُه بذكر الله ناطق ، وقلبُه بحجة الله صادق ، وسرُّه بوعد الله واثق ، وروحه إلى سبيل الله سابق ، ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ** ﴾ أكرم الله نبيه بوصفه بإسمين مشتقين من اسمه جلَّ جلاله : محمد ، وأحمد ﴿ **إِلاَّ رَسُولٌ** ﴾ روي أن رسول الله ﷺ ، لَمَّا خرج إلى الشعب من أحد ، في سبعمائة رجل ، جعل « عبد الله بن جبير » على الرجَّالة ، وكانوا خمسين راجلاً وقال : أقيموا بأصل الجبل وادفعوا عنا بالنبل ، لا يأتوننا من خلفنا ، ولا تنتقلوا من مكانكم فلا نزال غالبين ما دمتم في مكانكم » فجاء المشركون ودخلوا في الحرب مع النبي عليه السلام وأصحابه ، حتى حميت الحرب ، فأخذ رسول الله ﷺ سيفاً وقال : « من يأخذه بحقه ؟ فأخذه أبو دجانة ، فقاتل في نفرٍ من المسلمين قتالاً شديداً ، وقاتل علي بن أبي طالب حتى التوى سيفه ، وقاتل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وكان النبي عليه السلام يقول لسعد « ارم فداك أبي وأمي » فحمل هو وأصحابه على المشركين ، فأنزل الله نصره عليهم ، فهزموا المشركين ، فلما نظر الرماة إلى القوم هاربين ، أقبلوا على الغنيمة بترك مراكزهم ، فقال لهم عبد الله بن جبير : لا تبرحوا مكانكم فقد عهد إليكم نبيكم ، فلم يلتفتوا إلى قوله ، فبقي عبد الله بن جبير مع ثمانية نفر ، فخرج خالد بن الوليد مع خمسين ومائتي فارس من المشركين من قِبَل الشِعب وقتلوا من بقي من

الرماة ، ودخلوا خلف أقفية المسلمين فهزموهم ، ورمى ابن قميئة النبي عليه السلام بحجرٍ فكسر رباعيته وشجّه ، وفيه يقول حسان بن ثابت :

ألم تر أن الله أرسل عبده * ببرهانه والله أعلى وأمجد
وشق له من اسمه ليجلّه * فذو العرش محمودٌ وهذا محمد

وتفرق عنه أصحابه ، وحمل « ابن قميئة » لقتل النبي عليه السلام ، فذبَّ عنه « مصعب بن عمير » صاحب الراية يومئذ ، فقتله ابن قميئة ورجع ، فظن أنه كان قتل النبي عليه السلام فقال : قتلت محمداً ، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قُتِل ، وكان ذلك إبليس فرجع أصحابه منهزمين متحيرين ، فأقبل « أنس بن النضر » عم أنس بن مالك إلى رجال من المهاجرين والأنصار ، فقال لهم : ما يحبسكم ؟ قالوا : قُتل محمد ﷺ ، فقال ما تصنعون في الحياة بعده ؟ موتوا كراماً على ما مات عليه نبيكم ، ثم أقبل نحو العدو فقاتل حتى قتل ، قال كعب بن مالك : أنا أول من عرف رسول الله ﷺ من المسلمين ، رأيت عينيه من تحت المغفر تزهران ، ينادي بأعلى صوته « إليّ عباد الله ، إليّ عباد الله » فاجتمعوا إليه فلامهم رسول الله على هزيمتهم فقالوا يا رسول الله : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر سوء فرعبت قلوبنا له فولينا مدبرين ، فوبخهم الله تعالى بقوله ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ** ﴾ أي كسائر الرسل ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ فسيمضي كما مضوا فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه ، لأن الغرض من بعثة الرسول إلزام الحجة ، لا وجوده بين أظهر قومه ﴿ **أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ** ﴾ إنكار لارتدادهم وانقلابهم عن الدين ، بخلوه عليه السلام بموتٍ أو قتل ، بعد علمهم بخلو الرسل قبله ، وبقاء دينهم متمسكاً به ﴿ **وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ** ﴾ بإدباره عما كان يقبل عليه رسول الله ﷺ من أمر الجهاد وغيره ﴿ **فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ** ﴾ بما فعل من الانقلاب ﴿ **شَيْئاً** ﴾ أي شيأ من الضرر ، وإنما يضر نفسه بتعريضها للسخط والعذاب ، والله متنزه عن النفع والضرر ﴿ **وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ أي الثابتين على دين الإسلام، الذي هو أجلُّ نعمة وأعز معروفٍ ، سموا بذلك لأن الثبات عليه شكرٌ له وإيفاء لحقه ، وفيه إيماء إلى كفران المنقلبين ، ولما توفي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اضطراب المسلمون ، فمنهم من دُهش ، ومنهم من أُقعِد فلم يطق القيام ، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام ، ومنهم من أنكر موته بالكلية ، حتى غفل عمر رضي الله عنه عن هذه الآية الكريمة عند وفاته ﷺ ، وقام في الناس فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون أنه عليه السلام توفي إن رسول الله ﷺ ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع ، والله ليرجعن رسول الله ﷺ ولأقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات ، ولم يزل يكرر ذلك إلى أن قام أبو بكر فحمد الله وأثنى

عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت ثم تلا ﴿ وَما مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسولٌ ﴾ قال الراوي : والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها أبو بكر رضي الله عنه ، فاستيقن الناس كلهم بموته ﷺ ، وكانت الجمادات تتصدع من ألم مفارقة الرسول ، فكيف بقلوب المؤمنين ؟ ولما فقده الجِذْع الذي كان يخطب عليه قبل اتخاذ المنبر ، حنَّ إليه وصاح كما يصيح الصبي ، فنزل إليه فاعتنقه حتى سكن ، أقول : ما أمرَّ عيش من فارق الأحباب خصوصاً من كانت رؤيته حياة الألباب !؟ ولما نقل النبي عليه الصلاة والسلام جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة رضي الله عنها : واكرب أبتاه فقال لها : ليس على أبيك كرب بعد اليوم ، فلما مات قالت يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، فلما دفن قالت فاطمة : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على نبيكم التراب !! وعاشت فاطمة بعد موته ﷺ ستة أشهر ثم ماتت .

﴿ وما كانَ لِنفسٍ أنْ تَموتَ إلا بإذْنِ اللهِ ﴾ أي وما كان الموت حاصلاً لنفس من النفوس إلا بمشيئته تعالى أو إلا بإذنه والمعنى أن لكل نفس أجلاً مسمى في علمه تعالى وقضائه ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، بالإحجام عن القتال والإقدام عليه ، وفيه تحريض وتشجيع على القتال ، ووعد الرسول بالحفظ وتأخير الأجل ، فالمجاهد لا يموت بغير أجله ، والمتخلف عنه لا يسلم مع حضور أجله .

﴿ كِتَاباً ﴾ المعنى كتب الموت كتاباً ﴿ مُؤجَّلاً ﴾ موقتاً بوقت معلوم ، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ وَمَنْ يُرِد ﴾ أي بعمله ﴿ ثَوابَ الدُّنيا نُؤتِهِ منْها ﴾ أي من ثوابها ما نشاء أن نؤتيه إياه ، وفيه تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَة نُؤْتِهِ منْها ﴾ أي من ثوابها ما نشاء حسبما جرى به الوعد الكريم ﴿ وَسَنجْزي الشّاكِرينَ ﴾ نعمة الإسلام الصارفين ما آتاهم الله من القوى إلى ما خُلِقتْ لأجله من طاعة الله ، والآية وإن وردت في الجهاد خاصة ، لكنها عامة في جميع الأعمال ، فالمقاتل في سبيل الله ، هو الذي يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، لا للذكر الجميل وإصابة الغنيمة .

قال رسول الله ﷺ « من كانت نيته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت نيته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه ، وشتت عليه شمله ، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له »[1] ﴿ وَكَأيِّنْ ﴾ أصله « أي » دخلت الكاف عليها فحدث فيها معنى التكثير ، فهي بمعنى « كم » الخبرية ﴿ منْ نَبِيٍّ ﴾ تمييز لها والغالب في تمييزها أن يكون مجروراً بمن ﴿ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثيرٌ ﴾ الربيُّ : منسوب إلى الرب كالرباني ، وكسر الراء من تغييرات النسب ، والمعنى كثير من الأنبياء قاتل معه لإعلاء كلمة الله ، وإعزاز دينه ، علماء أتقياء أو جماعات كثيرة ﴿ فما وَهَنُوا ﴾ أي فما

(١) الحديث أخرجه الترمذي بلفظ : « من كانت الآخرة همّه ، جعل الله غناه في قلبه .. » الحديث وانظر جامع الأصول ١١ / ١١ .

فتروا وما انكسرت همتهم ﴿ لما أصَابَهُمْ ﴾ في أثناء القتال ﴿ في سَبيلِ اللهِ ﴾ من الجراح وسائر المكاره اللاحقة للكل ﴿ وما ضَعُفُوا ﴾ عن العدوّ أو الجهاد ﴿ وما اسْتَكَانُوا ﴾ أي وما خضعوا وذلُّوا للعدو ، وأصله استكن من السكون ، لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده ، وهذا تعريض لما أصابهم من الوهن والانكسار عند استيلاء الكفرة عليهم ، والإرجاف بقتل النبي عليه السلام ، وبضعفهم عن مجاهدة المشركين ﴿ والله يُحِبُّ الصّابِرِينَ ﴾ أي على مقاساة الشدائد ، ومعاناة المكاره في سبيل الله ، فينصرهم ويعظم قدرهم ﴿ وَمَا كانَ قَوْلَهُمْ إلاّ أنْ قَالُوا ﴾ الاستثناء مفرغ من أعم الأشياء ، أي ما كان قولاً لهم عند لقاء العدو ، واقتحام مضايق الحرب ، شيء من الأشياء إلا أن قالوا ﴿ رَبّنا اغْفِر لَنا ذُنوبَنا ﴾ أي صغائرها ﴿ وَإسْرافَنا في أمْرِنا ﴾ أي تجاوزنا الحدَّ في ارتكاب معاصيك ﴿ وَثَبِّتْ أقْدَامَنَا ﴾ أي في مواطن الحرب بالتقوّي والتأييد من عندك ، أو ثبتنا على دينك الحق ﴿ وانْصُرْنَا على القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ والمعنى لم يزالوا مواظبين على هذا الدعاء ، من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والتزلزل في مواقف الحرب ومراصد الدين ، وفيه من التعريض بالمنهزمين مالا يخفى .

﴿ فَآتيهُمُ اللهُ ﴾ بسبب دعائهم ذلك ﴿ ثَوابَ الدُّنْيا ﴾ أي النصر والغنيمة ، والعز والذكر الجميل ﴿ وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ ﴾ أي وثواب الآخرة الحسن ، وهي الجنة والنعيم المخلد ﴿ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ ومحبةُ الله للعبد رضاه عنه ، وإرادة الخير به ، فهي مبدأ لكل سعادة قال الإمام : فيه لطيفة دقيقة ، وهي أن هؤلاء اعترفوا بكونهم مسيئين ، حيث قالوا (ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا) فلما اعترفوا بذلك سماهم الله محسنين ، كأنه تعالى يقول لهم : إذا اعترفتَ بإساءتك وعجزك ، فأنا أصفك بالإحسان ، وأجعلك حبيباً لنفسي ، حتى يعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله ، إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز ﴿ يا أيُّها الذينَ آمنُوا ﴾ نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة ، ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ، فقال تعالى : يا أيها المؤمنون ﴿ إنْ تُطِيعوا الذينَ كَفَروا ﴾ وهم المنافقون وصفوا بالكفر ، للتنفير عنهم والتحذير من طاعتهم ﴿ يَرُدّوكُمْ عَلَى أعْقابِكُمْ ﴾ يدخلوكم في دينهم ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ تخسروا كرامة الدنيا وسعادة الآخرة ، لأنه يحرم من الثواب المؤبد ، ويقع في العذاب المخلد ﴿ بَلِ اللهُ مَوْلَيكُمْ ﴾ أي ليسوا أنصاركم حتى تطيعوهم ، بل الله ناصركم لا غيره ، فأطيعوه واستغنوا عن موالاتهم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ ﴾ فخصوه بالطاعة والاستعانة ﴿ سَنُلْقي في قُلوبِ الذّينَ كَفَروا الرُّعْبَ ﴾ وهو ما قذف في قلوبهم من الخوف يوم أحد ، حتى تركوا القتال ، ورجعوا من غير سبب ـ ولهم القوة والغلبة ـ والرعبُ : خوفٌ يملأ القلب ﴿ بما أشْرَكُوا بِاللهِ ﴾ أي بسبب إشراكهم به تعالى ، فإنه من موجبات خذلانهم ، ونصر المؤمنين عليهم ﴿ ما لم يُنَزّلْ بِهِ ﴾ أي بإشراكه ﴿ سُلْطاناً ﴾ أي حجة وبرهاناً ، وأصل السلطان : القوة ، فسلطان الملِكِ قوته ، وسلطان المدعي

حجته ﴿ **وَمَأْواهُمُ** ﴾ أي ما يأوون إليه في الآخرة ﴿ **النّارُ** ﴾ لا ملجأ لهم غيرها ﴿ **وَبِئْسَ مثْوىٰ الظّالِمينَ** ﴾ والمخصوص بالذم محذوف أي النار ، وفي جعلها مثواهم ، بعد جعلها مأواهم ، نوع رمز إلى خلودهم فيها .

﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ** ﴾ نزلت حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة ، من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر ؟ حيث قال ﷺ للرُّماة لا تبرحوا مكانكم ، فإنا لا نزال غالبين ما دمتم في هذا المكان ، وقد كان كذلك ، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرشقون نبلهم ، والباقون يضربون بالسيوف ، حتى انهزموا ، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً ، وذلك قوله تعالى ﴿ **إذْ تَحُسّونَهُمْ** ﴾ أي تقتلونهم قتلاً كثيراً فاشياً ، من حسَّه إذا أبطل حسه وذلك يكون بالقتل ﴿ **بإذْنِهِ** ﴾ بمشيئته وتيسيره ﴿ **حَتّى إذا فَشِلتُمْ** ﴾ أي جبنتم وضعف رأيكم ﴿ **وَتَنَازَعْتُمْ في الأمْرِ** ﴾أي في أمر الرسول ﷺ ، فقال بعض الرماة فما موقفنا هذا ؟ وقال رئيسهم عبد الله بن جبير : لا نخالف أمر الرسول عليه الصلاة والسلام ، فثبت مكانه في نفر دون العشرة من أصحابه ، ونفر الباقون للنهب ، وذلك قولُه تعالى ﴿ **وَعَصَيْتُمْ مِنْ بعْدِ مَا أراكُمْ ما تُحِبُّونَ** ﴾ أي من الظفر والغنيمة وانهزام العدو ، فلما رأى المشركون ذلك حملوا عليهم وقتلوا أمير الرماة ، وقيَّد العصيان بما بعده تنبيهاً على عظم المعصية ، وجواب إذا محذوف وهو مَنَعكم نصره ﴿ **مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا** ﴾ وهم الذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : ما علمت أن أحداً منا يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية ﴿ **وَمِنْكُمْ منْ يُرِيدُ الآخِرةَ** ﴾ وهم الذين ثبتوا مكانهم ، حتى نالوا شرف الشهادة ﴿ **ثُمّ صَرَفَكُمْ عنْهُمْ** ﴾ أي ردكم عن الكفار وكفَّكم بالهزيمة ، بعد أن أظفركم عليهم ﴿ **لِيبْتَلِيَكُمْ** ﴾ أي يعاملكم معاملة من يمتحنكم ، ليظهر ثباتكم على الإيمان عندها ﴿ **وَلَقَدْ عَفا عنْكُمْ** ﴾ لَّما علم ندمكم على المخالفة ﴿ **والله ذو فَضْلٍ عَلىٰ المؤْمِنينَ** ﴾ أي شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو ، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال ﴿ **إذْ تُصْعِدونَ** ﴾ الإصعاد : الذهاب والإبعاد في الأرض ﴿ **ولا تَلْوُونَ عَلىٰ أَحَدٍ** ﴾ أي لا تلتفتون إلى ما وراءكم ، ولا يقف واحد منكم لواحد ﴿ **والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ** ﴾ كان ﷺ يدعوهم بقوله إليّ عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكرّ فله الجنة ﴿ **في أخْرٰيكُمْ** ﴾ في ساقتكم وجماعتكم الأخرى ، والمعنى أنه عليه السلام كان يدعوهم وهو واقف في آخرهم ، لأن القوم بسبب الهزيمة قد تقدموه ﴿ **فَأثابَكُمْ** ﴾ أي فجازاكم الله بما صنعتم ﴿ **غَمّاً** ﴾ موصولاً ﴿ **بِغَمٍّ** ﴾ من الاغتمام بالقتل والجرح ، وظفر المشركين ، أو غما بمقابلة غم أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم له ﴿ **لِكَيْلا تَحْزَنُوا على ما فاتَكُمْ ولا مَا أَصَابَكُمْ** ﴾ أي لتتمرنوا على الصبر في الشدائد ، وتعتادوا تجرع الغموم ، فلا تحزنوا على نفعٍ فات ، أو ضرّ

آت ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بما تعْمَلون ﴾ أي عالم بأعمالكم وبما قصدتم بها ، واعلم أن الصبر واليقين والتوكل على الله مستلزم لإمداد النصر والظفر ، والفشل والتنازع والميل إلى الدنيا وعصيان رسول صلى الله تعالى عليه وسلم موجب للابتلاء والصرف عن العدو ، سئل يحيى بن معاذ عن صفة الولي ، فقال : الصبر شعاره ، والشكر دثاره ، والقرآن معينه ، والحكمة علمه ، والفقر مُنْيتُه ، والتقوى مطيته ، والحزن رفيقه ، والذكر جليسه ، والله تعالى أنيسه .

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي أعطى ووهب لكم أيها المؤمنون ﴿ مِنْ بعْدِ الغَمّ ﴾ المذكور ﴿ أَمَنَةً ﴾ أي أمناً ﴿ نُعاساً ﴾ بدل منها وهو الوسن ، قال أبو طلحة : رفعت رأسي يوم أحد فجعلت لا أرى أحداً من القوم إلا وهو يميد تحت جحفته من النعاس ، وكنت ممن ألقي عليه النعاس يومئذ ، فكان السيف يسقط من يدي فآخذه ، ثم يسقط السوط فآخذه ﴿ يغْشىٰ طائِفَةً مِنْكُمْ ﴾ وهم المهاجرون وعامة الأنصار ﴿ وَطَائِفَةٌ ﴾ وهم المنافقون ﴿ قَدْ أَهَمّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أي أوقعتْهم في الهموم والأحزان ﴿ يَظُنّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحقِّ ﴾ غير الظن الحق الذي يجب أن يظن به سبحانه ﴿ ظَنَّ الجَاهِلِيةِ ﴾ بدل منه وهو الظن المختص بالملة الجاهلية وأهلها ﴿ يَقولُونَ ﴾ أي لرسول الله ﷺ على صورة الاسترشاد ﴿ هَلْ لنا مِنَ الأَمْرِ ﴾ أي من أمر الله تعالى ووعده من النصر والظفر ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ من نصيب قط ﴿ قُلْ إنّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ ﴾ أي الغلبة بالآخرة لله تعالى ولأوليائه ، فإن حزب الله هم الغالبون ﴿ يُخْفونَ في أَنْفُسِهِمْ مَالا يُبْدونَ لَكَ ﴾ أي مظهرين أنهم مسترشدون طالبون للنصر ، مبطنين الإنكار والتكذيب ﴿ يَقولُونَ ﴾ يقول بعضهم لبعض فيما بينهم خفية ﴿ لوْ كانَ لنَا مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ ﴾ كما وعد محمد ﷺ من أن الغلبة لله ولأوليائه ، وأن الأمر كله لله ﴿ ما قُتِلْنَا هَهُنا ﴾ ما قُتل من قتل منا في هذه المعركة ، ولو كان لنا اختياراً في الخروج وتدبير لم نبرح كما كان رأي ابن أُبيّ وغيره ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد تكذيباً لهم وإبطالاً لمعاملتهم ﴿ لوْ كُنْتُمْ في بُيوتِكُمْ ﴾ أي لو لم تخرجوا إلى أحد وقعدتم بالمدينة كما تقولون ﴿ لَبَرَزَ ﴾ أي لخرج ﴿ الذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿ إلى مَضاجِعِهِمْ ﴾ إلى مصارعهم التي قدَّرها اللهُ تعالى وقتلوا هناك البتة ، ولم تنفع العزيمة على الإقامة بالمدينة قطعاً ، فإن قضاء الله لا يرد ، وحكمه لا يعقب ﴿ وَلِيبْتَلِيَ اللهُ ما في صُدورِكُمْ ﴾ علة لفعل مقدر قبلها كأنه قيل : فعل ما فعل لمصالح جمة ، وليبتلي أي ليعاملكم معاملة من يبتلي ما في صدوركم من الإخلاص والنفاق ، ويظهر ما فيها من السرائر ﴿ وَلِيُمَحّصَ مَا في قُلوبِكُمْ ﴾ من مخفيات الأمور ويكشفها ﴿ وَاللهُ عَليمٌ بذاتِ الصُّدور ﴾ أي السرائر والضمائر ﴿ إنَّ الذّينَ تَولوّا ﴾ أعرضوا ﴿ مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَىٰ الجَمْعَانِ ﴾ من المسلمين والكافرين ، وهم الذين انهزموا يوم أحد ﴿ إنّما

﴿ اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي إنما كان سبب انهزامهم ، أن الشيطان طلب منهم الزلل ، ودعاهم إليه ﴿ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ من الذنوب والمعاصي التي هي مخالفة أمر النبي عليه السلام ، وترك المركز ، والحرص على الغنيمة والحياة ، فحرموا التأييد وقوة القلب ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ ﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ للذنوب ﴿ حَلِيمٌ ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب ، والشيطان لا يقدر على إغواء المخلصين من أهل اليقين والنورانيين ، وما لم يكن في القلب ظلمة وشوب من الهوى ، بسبب ارتكاب الذنوب ، لم يكن له مجال للوسوسة ، فالسالكون الذين نجوا من ظلمات النفس ، لا يقدر الشيطان أن يقرب منهم فضلاً عن وسوستهم ، قيل : « رأى الجنيد إبليس في منامه عرياناً فقال : ألا تستحي من الناس ؟ فقال : هؤلاء ناس ؟ الناس أقوام في المسجد أفنوا جسدي ، وأحرقوا كبدي ، قال الجنيد : فلما انتبهت غدوت إلى المسجد ، فرأيت جماعة وضعوا رءوسهم على ركبهم متفكرين ، فلما رأوني قالوا لا يغرنك حديث الخبيث » فإذا تنوَّر القلب بنور المعرفة لا يحوم حوله بالوسوسة الشيطان الناري ، وعن أبي سعيد الخراز قال : رأيت إبليس في المنام فأخذت عصاي لأضربه فقيل لي إنه لا يفزع من هذا ، إنما يخاف من نور يكون في القلب ، قال حجة الإسلام الغزالي في الإحياء : حكي أن إبليس بث جنوده في وقت الصحابة فرجعوا إليه مخسورين ، فقال ما شأنكم ؟ قالوا ما رأينا مثل هؤلاء ، ما نصيب منهم شيأ وقد أتعبونا ، فقال : إنكم لا تقدرون عليهم وقد صحبوا نبيهم وشهدوا نزول الوحي ، ولكن سيأتي بعدهم قوم تنالون منهم حاجتكم ، فلما جاء التابعون بثَّ جنوده فرجعوا إليه منكسرين ، فقالوا ما رأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب ، فإذا آن آخر النهار أخذوا في الاستغفار ، فتبدل سيئاتهم حسنات ، فقال إنكم لن تنالوا من هؤلاء شيأ ، لصحَّةِ توحيدهم واتباعهم لسنة نبيهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تقرُّ أعينكم بهم ، تلعبون بهم لعباً وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم ، لا يستغفرون فيغفر لهم ، ولا يتوبون فتبدل سيآتهم حسنات ، قال فجاء قوم بعد القرون الأولى فبث فيهم الأهواء ، وزين لهم البدع ، فاستحلوها واتخذوها ديناً ، لا يستغفرون منها ، ولا يتوبون عنها ، فسلط إبليس عليهم الأعداء ، وقادوهم حيث شاؤا .

﴿ يا أيُّها الذّين آمنوا لا تكُونوا كالذّين كَفَروا ﴾ وهم المنافقون القائلون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴿ وَقَالوا لإِخْوَانِهِمْ ﴾ لأجل إخوانهم وفي حقهم ، ومعنى الأخوة اتفاقهم مذهباً وعقيدة ﴿ إذا ضَرَبُوا في الأرْضِ ﴾ أي سافروا فيها ، وأبعدوا للتجارة وسائر المهام ، فماتوا في سفرهم ﴿ أوْ كانوا ﴾ أي إخوانهم ﴿ غُزًّىً ﴾ جمع غازي ، كسُجَّد جمع ساجد أي إذا خرجوا إلى الغزو فقتلوا ﴿ لوْ كانُوا عِنْدنا ﴾ أي مقيمين بالمدينة ﴿ ما مَاتُوا ﴾ في سفرهم ﴿ وما قُتِلوا ﴾ في الغزو

﴿ لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلوبِهِمْ ﴾ اللام لام العاقبة كما في قوله ربيته ليؤذيني ، وليست لام العلة ، والمعنى أنهم قالوا ذلك القول واعتقدوه لغرض من أغراضهم ، فكان عاقبة ذلك القول ، ومصيره إلى الحسرة ، وهي أشد الندامة ومن اعتقد ذلك ، لا شك أنه تزداد حسرته ، وأما المسلم الذي يعتقد أن الموت والحياة ، لا يكون إلا بتقدير الله وقضائه ، لايحصل في قلبه هذه الحسرة ﴿ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ردلقولهم الباطل أي هو المؤثر في الحياة والممات وحده ، من غير أن يكون للإقامة أو للسفر مدخل في ذلك ، فإنه تعالى قد يحيي المسافر والغازي ، مع اقتحامهما لموارد الحتوف ، ويميت المقيم والقاعد ، مع حيازتهما لأسباب السلامة .

﴿ وَاللهُ بِما تعْملونَ بَصيرٌ ﴾ فلا تكونوا مثل هؤلاء المنافقين ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ ﴾ في سبيله وأنتم مؤمنون ، واللام هي الموطئة للقسم المحذوف ، وجوابه قوله تعالى ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ ﴾ وحذف جواب الشرط لسد جواب القسم مسده ، والمعنى أن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ، ويقدّم الأجل أصلاً ، ولئن وقع ذلك بأمر الله تعالى ، لنفحةٌ يسيرة من مغفرة ورحمة ، كائنتين من الله تعالى بمقابلة ذلك ﴿ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أي الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم ، وهذا وارد على حسب قولهم ومعتقدهم ، أن تلك الأموال خيرات ، فقيل : المغفرة خير من هذه الأشياء التي تظنونها خيرات ﴿ وَلَئِنْ مُتِّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ أي على أي وجه اتفق هلاككم ، حسب تعلق الإرادة الآلهية ﴿ لإِلَى اللهِ ﴾ أي إلى المعبود بالحق ، العظيم الشأن ، الواسع الرحمة الجزيل الإحسان ﴿ تُحْشَرونَ ﴾ لا إلى غيره ، فيوفّيكم أجوركم ، ويجزل لكم عطاياكم ، واعلم أن هذه الآيات على ترتيب أنيق فإنه قال في الآية الأولى ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِن اللهِ ﴾ وهي التجاوز عن السيئات ، وذلك إشارة إلى من يعبد الله خوفاً من عقابه ، ثم قال ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ وهي التفضل بالمثوبات ، وهو إشارة إلى من يعبده رجاء ثوابه ، ثم قال في آخر الآية ﴿ لإِلَى اللهِ تُحْشَرونَ ﴾ وهو إشارة إلى من يعبد الله لمجرد الربوبية والعبودية ، وهذا أعلى المقامات ، فبين الحشر إلى مغفرة الله ، والحشر إلى الله فرق كثير ، حُكي أن عيسى عليه السلام ، مرَّ بأقوام نحفت أبدانهم ، واصفرت وجوههم ، ورأى عليهم آثار العبادة ، فقال ماذا تطلبون ؟ فقالوا : نخشى عذاب الله ، فقال هو أكرم من أن لا يخلصكم من عذابه ، ثم مر بأقوام آخرين ، فرأى عليهم تلك الآثار ، فسألهم فقالوا : نطلب الجنة والرحمة ، فقال هو أكرم من أن يمنعكم رحمته ، ثم مر بقوم ثالث ورأى آثار العبودية عليهم أكثر ، فسألهم فقالوا نعبده لأنه إلهنا ونحن عبيده ، فقال أنتم العبيد المخلصون ، والمتعبدون المحقون ، وحكي أن امرأة قالت لجماعة : ما السخاء عندكم ؟ قالوا : بذل المال ، قالت : هو سخاء أهل الدنيا والعوام ، فما سخاء الخواص ؟ قالوا : بذل المجهود في الطاعة ،

قالت : ترجون الثواب ؟ قالوا نعم ، قالت : تأخذون العشرة بواحد لقوله تعالى ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ فأين السخاء ؟ قالوا فما عندك ؟ قالت : العمل لله ، لا للجنة ولا للنار ، ولا الثواب وخوف العقاب ، وذلك لا يمكن إلا بالتجريد والتفريد ، والوصول إلى حقيقة الوجود ، فعلى المؤمن أن يعرض عن الدنيا ويقبل على الله ، حتى يكشف عن وجهه الحجاب ، ويصل إلى رب الأرباب ، قال الإمام : الإنسان إذا توجه إلى الجهاد ، أعرض قلبه عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإذا مات فكأنه تخلص من العدو ، ووصل إلى المحبوب ، وإذا جلس في بيته خائفاً من الموت ، حريصاً على جمع الدنيا ، فإذا مات فكأنه حجب عن المعشوق ، وألقى في دار الغربة ، ولا شك في كمال سعادة الأول وكمال شقاوة الثاني انتهى .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ ما مزيدة للتأكيد أي فبرحمة عظيمة لهم ، كائنة من الله تعالى ، وهي تخصيصه بمكارم الأخلاق ، كنت ليّن الجانب لهم ، وعاملتهم بالرفق والتلطف ، بعدما كان منهم ما كان ، من مخالفة أمرك ، وإسلامك للعدو ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً ﴾ جافيا في المعاشرة ، قولاً وفعلاً ﴿ غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ قاسيه غير رقيق ، فالفظُّ : سيء الخلق ، وغليظ القلب : هو الذي لايتأثر قلبه من شيء ، فقد لا يكون الإنسان سيء الخلق ولا يؤذي أحداً ، ولكنه لا يرق لهم ولا يرحمهم ، فظهر الفرق بينهما ﴿ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ أي لتفرقوا من عندك ولم يسكنوا إليك ، وتردوا في مهاوي الردى ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ ﴾ فيما يتعلق بحقوقك ، كما عفا الله عنهم ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ فيما يتعلق بحقوقه تعالى إتماماً للشفقة عليهم ، وإكمالاً للبرِّ بهم ، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ أي استخرج آراءهم واعلم ما عندهم في أمر الحرب وفي أمثاله ، مما تجري فيه المشاورة عادة ، استظهاراً بآرائهم ، وتطييباً لقلوبهم ، ورفعاً لأقْدارهم ، وتمهيداً لسنة المشاورة للأمة ﴿ فَإِذا عَزَمْتَ ﴾ أي عقيب المشاورة على شيء ، واطمأنت به نفسك ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ في إمضاء أمرك على ما هو أرشد وأصلح ، فإن ما هو أصلح لك لا يعلمه إلا الله ، لا أنت ولا من تشاور ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ عليه تعالى ، فينصرهم ويرشدهم ، إلى ما فيه خير لهم وصلاح ، والتوكل : تفويض الأمر إلى الله ، والاعتماد على كفايته ، دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه ، كما يقوله بعض الجهال ، وإلا لكان الأمر بالمشاورة ، منافياً للأمر بالتوكل ، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة ، ولكن لا يعول بقلبه عليها ، بل يعول على عصمة الحكمة ، واعلم أن الله تعالى بين أنَّ أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، يتفرقون عنه لو كان فظاً غليظاً مع أن اتّباعه دينٌ ، وفراقه كفر ، فكيف يتوقع من يعامل الناس على خشونة اللفظ ، مع قسوة القلب ، أن ينقاد الناس كلهم له ، ويتابعوه ويطاوعوه ؟ فاللين في القول أنفذ في القلوب ، وأسرع إلى الإجابة ، وأدعى إلى الطاعة ، ولذلك أمر الله موسى وهارون به فقال (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً) قال

الإمام : اللين والرفق ، إنما يجوز إذا لم يفض إلى إهمال حق من حقوق الله ، فأما إذا أدى إلى ذلك لم يجز ، قال الله تعالى (**يا أيُّها النبيُّ جَاهِدِ الكُفّارَ وَالمنافِقينَ واغْلظْ عَليْهِمْ**) وقال للمؤمنين في إقامة حد الزنى (**ولا تأخُذْكُمْ بِهِما رأفةٌ في دينِ اللهِ**) والتحقيق : أن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان ، والفضيلة في الوسط ، فورود الأمر بالتغليظ مرة ، وأخرى بالنهي عنه ، إنما كان لأجل أن يتباعد عن الإفراط والتفريط ، فيبقى على الوسط الذي هو الصراط المستقيم ، ولهذا السر مدح الله تعالى الوسط فقال (**وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أمّةً وَسَطاً**) واعلم أن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكليف الله إلى الخلق ، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه ، وسكنت نفوسهم لديه ، وهذا لا يتم إلا إذا كان كريماً رحيماً ، يتجاوز عن ذنبهم، ويعفو عن إساءتهم ، ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة ، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول متبرئاً من سوء الخلق ، وحيث يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب ، بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء ، كثير القيام بإعانة الفقراء ، كثير التجاوز عن سيآتهم ، كثير الصفح عن زلاتهم فلهذا المعنى قال ﴿ **ولو كُنْتَ فَظّاً غَليظَ القلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حولِكَ** ﴾ ولو انفضوا من حولك فات المقصود من البعثة والرسالة ، وهكذا ينبغي أن يكون علماء الآخرة الوارثون والمشايخ ، فإن الناس على دين متبوعهم، في الظاهر والباطن ، وقلَّما يوجد من يتصف بالأخلاق الحسنة من المشايخ والعلماء في هذا الزمان ، إلا من عصمه الله ، وهداه إلى التمسك بالشريعة ، والتحقق بآداب الحقيقة ، روي أنه خلا بأحنف ـ المضروب به المثل في الحلم ـ رجلٌ فسبه سباً قبيحاً ، فقام الأحنف وهو يتبعه ، فلما وصل إلى قومه ، وقف وقال يا أخي إن كان قد بقي من قولك فضلة ، فقل الآن ولا يسمعك قومي فتُؤْذَى!! فانظر إلى خلق الأحنف ، كيف عامل مع الجاهل وجامل ؟ وقال له رجل : دلني على المرُوءة ؟ فقال : عليك بالخلق الفسيح ، والكف عن القبيح .

﴿ **إنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ** ﴾ أي إن يعنكم الله ويمنعكم من عدوكم ، كما فعل ذلك يوم بدر ﴿ **فَلاَ غَالِبَ لكُمْ** ﴾ فلا أحد يغلبكم ﴿ **وَإنْ يخْذُلْكُمْ** ﴾ الخذلان القعود عن النصرة والإسلام للهلكة أي إن يتركم فلم ينصركم كما فعله يوم أحد ﴿ **فَمنْ ذا الذي ينْصُرُكُمْ** ﴾ استفهام إنكاري ، مفيد لانتفاء الناصر ذاتاً وصفة بطريق المبالغة ﴿ **مِنْ بعْدِهِ** ﴾ أي من بعد خذلانه ؟ وهذا تنبيه على أن الأمر كله لله ، ولذا أمر بالتوكل عليه فقال ﴿ **وَعلىٰ اللهِ فلْيَتَوكّلِ المؤْمِنونَ** ﴾ فليخصوه بالتوكل عليه ، لما علموا أن لا ناصر سواه ، وعن عمران بن حصين قال قال رسول الله ﷺ : « يدخل سبعون ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب ، قيل يا رسول الله من هم ؟ قال : هم الذين لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون ، فقال عكاشة بن محصن : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : أنت منهم ، ثم

قام آخر فقال يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : سبقك بها عكاشة »[١] وقال ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطانا »[٢] .

﴿ **وما كَانَ لِنَبِيٍّ** ﴾ أي وما صح لنبي من الأنبياء عليهم السلام وما استقام له ﴿ **أَنْ يَغُلَّ** ﴾ أي يخون في المغنم ، فإن الغلول هو أخذ شيء من مال الغنيمة خفية وخيانة ، لكونها سبباً للعار في الدنيا ، وللنار في العقبى ، تنافي منصب النبوة ، التي هي أعلى المناصب الإنسانية ﴿ **وَمَنْ يَغْلُلْ يأتِ بما غَلَّ يوْمَ القِيامةِ** ﴾ أي يأت بالذي غل بعينه ، يحمله على عنقه ، فيفتضح به على رؤوس الأشهاد وهو كقوله عليه السلام » « من غصب قدر شبر من الأرض ، طوَّقه الله يوم القيامة من سبع أرضين »[٣] وروي أنه ﷺ قال : « ألا لا أعرفن أحدكم يأتي ببعير له رغاء ، وببقر له خوار ، وشاة لها ثغاء ، فينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيأ فقد بلغتك »[٤] وقيل لأبي هريرة : كيف يأتي بما غلَّ وهو كثير كبير ، بأن غلَّ أموالاً جمة ؟ فقال : أرأيت من كان ضرسه مثل أحد ، وفخذه مثل ودقان ، وساقه مثل جبل ، ومجلسه ما بين المدينة وجدة يحمل مثل هذا ؟ ﴿ **ثُمّ تُوفَّى كُلُّ نفسٍ ما كَسَبتْ** ﴾ أي تُعطى وافياً جزاء ما كسبت ، خيراً أو شراً ، كثيراً أو يسيراً ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي كل الناس المدلول عليهم بكل نفس ﴿ **لا يُظْلَمونَ** ﴾ بزيادة عقاب أو بنقص ثواب ﴿ **أَفَمَنِ اتّبَع رِضْوانَ اللهِ** ﴾ الهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على محذوف ، والتقدير : أمن اتقى فاتبع رضوان الله أي سعى في تحصيله، يفعل الطاعات ، ويترك المنكرات ﴿ **كمَنْ باءَ** ﴾ أي رجع ﴿ **بسَخَطٍ** ﴾ غضب عظيم لا يقادر قدره كائن ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ بسبب معاصيه كالغالِّ ومن تديَّن بدينه ، والمراد أنهما لا يستويان ﴿ **ومأواهُ** ﴾ أي مأوى من باء بسخط من الله ﴿ **جَهَنّمُ وبئسَ المصيرُ** ﴾ والفرق بينه وبين المرجع ، أن المصير يجب أن يخالف الحالة الأولى ، ولا كذلك المرجع ﴿ **هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ** ﴾ أي طبقات مختلفة متفاوتة ، في علمه وحكمه تعالى ، شبهوا في تفاوت الأحوال وتباينها ، بالدرجات مبالغة ، وإيذاناً بأن بينهم تفاوتاً ذاتياً في أعمال المعاصي والطاعات ، متفاوتة ، فوجب أن تتفاوت مراتبهم في درجات العقاب والثواب ، والمعنى أهلُ درجات عند الله يوم القيامة .

﴿ **والله بَصيرٌ بما يعملونَ** ﴾ من الأعمال ودرجاتها فمجازيهم بحسبها فعلى العاقل أن يسارع إلى تكميل الدرجات ، والوصول إلى أحسن الحالات ، قالوا : أهل الجنة أربعة أصناف : الرسل والأنبياء ، ثم

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ، ورواه مسلم ، وانظر جامع الأصول ٧ / ٥٧٠ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد ، جامع الأصول ١٠ / ١٤٠ .

(٣) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي وأحمد ، ولفظ البخاري (من ظلم قِيدَ شبرٍ ..) جامع الأصول ٨ / ٤٤٤ .

(٤) الحديث أخرجه الشيخان والنسائي وأبو داود وأحمد بن حنبل . جامع الأصول ٢ / ٧١٦ .

الأولياء ، ثمَّ الصِدِّيقونَ ، ثم العلماء بتوحيد الله ، وهم المراد في قوله تعالى ﴿ **يَرْفَعِ اللهُ الذّينَ آمنوا مِنْكُمْ والذّينَ أُوتوا العِلْمَ درجاتٍ** ﴾ وهؤلاء الطوائف الأربع يتميزون في جنات عدن ، عند رؤية الحق في الكثيب الأبيض ، وهم فيه على أربعة مقامات : طائفة منهم أصحاب منابر ، وهي الطبقة العليا الرسل والأنبياء ، والطائفة الثانية هم العلماء ورثة الأنبياء قولاً وعملاً وحالاً ، وهم أصحاب الأسرَّة والعرش ، والطبقة الثالثة العلماء بالله من طريق النظر البرهاني العقلي ، وهم أصحاب الكرسي ، والطبقة الرابعة هم المؤمنون المقلدون في توحيدهم ، ولهم المراتب، وهم في الكثيب يتقدمون على غيرهم ، والخلق متفاوتون في الأعمال ، وتفاضلهم على مراتب ، فمنها « بالسن » ولكن في الطاعة والإسلام، فيفضل الكبير السن على الصغير السن ، إذا كانا على مرتبة واحدة من العمل ، ومنها « بالزمان » فإن العمل في رمضان ، وفي يوم الجمعة ، وفي ليلة القدر ، وفي عشر ذي الحجة ، وفي عاشوراء ، أعظم من سائر الأيام والأزمان ، ومنها « بالمكان » فالصلاة في المسجد الحرام أفضل منها في مسجد المدينة ، وهي أفضل منها في سائر المساجد ، ومنها « بالأحوال » فإن الصلاة بالجماعة أفضل من صلاة الشخص وحده ، ومنها « بنفس الأعمال » فإن الصلاة أفضل من إماطة الأذى ، ومنها في « العمل الواحد » فالمتصدق على رحمه صاحبُ صلة رحم وصدقة ، وكذا من أهدى هدية لشريف من أهل البيت ، أفضل من أن يهدي لغيره .

وفي الأثر « ليس من يومٍ يأتي على ابن آدم ، إلا ينادي فيه : يا ابن آدم أنا خَلقٌ جديد ، وأنا فيما تعمل عليك غداً شهيد ، فاعمل فيَّ خيراً أشهد لك به غداً ، فإني لو قد مضيت لم ترني أبداً » ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللهُ علىٰ المؤْمِنينَ** ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله لقد أنعم الله على من آمن مع الرسول عليه السلام من قومه ، وتخصيصهم بالامتنان ، مع عموم نعمة البعثة للأسود والأحمر ، لزيادة انتفاعهم بها ﴿ **إذْ بعَثَ فيهِمْ رَسُولاً مِنْ أنْفُسِهِمْ** ﴾ أي من نسبهم أو من جنسهم عربياً مثلهم ، ليفقهوا كلامه بسهولة ، ويكونوا واقفين على حاله ، في الصدق والأمانة ، مفتخرين به ، وفي ذلك شرفٌ عظيم لهم ، قال تعالى (**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لكَ وَلِقَوْمِكَ**) وقرىء « من أَنْفَسِهِمْ » أي أشرفهم،فإنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان من أشرف قبائل العرب وبطونها ﴿ **يتْلو عَلَيهِمْ آياتِهِ** ﴾ أي القرآن بعدما كانوا جهالاً لم يسمعوا الوحي ﴿ **وَيُزَكيّهِمْ** ﴾ أي يطهرهم من دنس الطباع ، وسوء العقائد والأعمال ، وأوضار الأوزار ﴿ **وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ** ﴾ أي القرآن والسنة ﴿ **وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي من قبل بعثته ﷺ وتزكيته وتعليمه ﴿ **لفي ضَلالٍ مُبينٍ** ﴾ بيِّنٍ لا ريب في كونه ضلالاً ، وإن هي المخففة من الثقيلة ، وضمير الشأن محذوف ، واللام فارقة بينها وبين النافية ، واعلم أن الله تعالى أرسل محمداً إلى أقوام عتاة أشراس ، فذلل منهم كل من عتا وعاس ، ونكس بمولده الأصنام ، وانشق إيوان كسرى ، وخمدت نار فارس ، واختاره مولاه وقدَّمه على الخلق ، فهو بمنزلة العين من الرأس ، فهو رحمة عامة للأنام ، وله خطر جليل

عند الخواص والعوام ، ولَّما خطب به أبو طالب في تزويج خديجة رضي الله عنها وقد حضر معه بنو هاشم ورؤساء مضر قال (الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وعنصر مضر ، وجعلنا حَضَنَةَ بيته ، وخدَّام حرمه ، وجعل لنا بيتاً معظَّماً ، وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم ابن أخي هذا « محمد بن عبد الله » لا يوزن به فتى من قريش إلاَّ رجح به ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم ، وخطر جليل)[1].

﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قد أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا** ﴾ المراد بها ما أصابهم يوم أحد ، من قتل سبعين منهم ، وبمثليها ما أصاب المشركين يوم بدر من قتل سبعين منهم وأسر سبعين ، والمعنى : أحين أصابكم من المشركين ، نصف ما قد أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم ، وقلتم : من أين أصابنا هذا ؟ فالهمزة للتقرير والتقريع على قولهم : من أين هذه المغلوبية للمشركين ، فكيف صاروا منصورين علينا مع شركهم وكفرهم بالله ؟ ونحن ننصر رسول الله ودين الإسلام ؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار ، فأمر الله تعالى رسوله بأن يجيب عن سؤالهم الفاسد فقال ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ أي هذا الانهزام إنما حصل بشؤم عصيانكم ، حيث خالفتم الأمر بترك المركز ، والحرص على الغنيمة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ ومن جملته النصر عند الطاعة ، والخذلان عند المخالفة ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** ﴾ أي جمعكم وجمع المشركين ، يريد يوم أحد ﴿ **فَبِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ أي فهو كائن بقضائه وتخليته الكفار ، سمَّاها إذناً لأنها من لوازمه ﴿ **وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا** ﴾ أي وليتميز المؤمنون والمنافقون فيظهر إيمان هؤلاء وكفر هؤلاء ﴿ **وَقِيلَ لَهُمْ** ﴾ عطف على نافقوا داخل معه في هذه الصلة وهم « عبد الله بن أُبيٍّ » وأصحابه ، حيث انصرفوا يوم أحد عن رسول الله ﷺ ، فقال لهم عبد الله بن حرام : أُذكِّركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم ، ودعاهم إلى القتال ، وذلك قوله تعالى ﴿ **تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا** ﴾ عنا العدو بتكثير سوادنا إن لم تقاتلوا معنا ، فإن كثرة السواد مما يروِّع العدو ويكسر شوكته ﴿ **قَالُوا** ﴾ حين خُيِّروا بين الخصلتين المذكورتين ﴿ **لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ** ﴾ أي لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم فيه ، لكن ما أنتم عليه ليس بقتال ، بل إلقاء النفس إلى التهلكة ، أو لو نحسن قتالاً لاتبعناكم ، وإنما قالوه دخلاً واستهزاء ﴿ **هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ** ﴾ ومعنى كون قربهم إلى الإيمان ، أنهم كانوا قبل ذلك الوقت كاتمين للنفاق ، فكانوا في الظاهر أبعد من الكفر ، فلما ظهر منهم ما كانوا يكتمون صاروا أقرب للكفر ، فإن كل واحد من انخذالهم برجوعهم عن معاونة المسلمين ، وكلامهم المحكي عنهم ، يدل على أنهم ليسوا من المسلمين ﴿ **يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا**

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام .

﴿ **لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ يظهرون خلاف ما يضمرون ، وإضافة القول إلى الأفواه تأكيد وتصوير ، كقوله تعالى (**ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيهِ**) وتصوير لحقيقة القول بصورة فرده الصادر عن آلته التي هي الفم ﴿ **واللهُ أَعْلَمُ بما يَكْتُمونَ** ﴾ من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض ، فإنه يعلمه مفصلاً وأنتم تعلمونه مجملاً بأمارات ﴿ **الذّينَ قَالُوا لإِخْوانِهِمْ** ﴾ لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد ، أو إخوانهم في النسب وفي سكنى الدار ، فيندرج فيهم بعض الشهدآء ﴿ **وَقَعَدُوا** ﴾ حال أي قالوا وقد قعدوا عن القتال بالانخذال ﴿ **لوْ أطاعُونا** ﴾ أي فيما أمرناهم ووافقونا في ذلك ﴿ **ما قُتِلوا** ﴾ كما لم نقتل ، وفيه إيذان بأنهم أمروهم بالانخذال حين انخذلوا وأغووهم كما غووا ﴿ **قُلْ** ﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لكذبهم ﴿ **فَادْرَءُوْا** ﴾ أي ادفعوا ﴿ **عنْ أنفُسِكُمُ الموتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ أي إن كنتم صادقين فيما ينبىء عنه قولكم من أنكم قادرون على دفع القتل عمن كتب عليه ، فادفعوا عن أنفسكم الموت الذي كتب عليكم معلقاً بسبب خاص موقتا بوقت معين بدفع سببه ، فإن أسباب الموت في إمكان المدافعة بالحيل وامتناعها سواء ، وأنفسكم أعزٌّ عليكم من إخوانكم ، وأمرها أهم لديكم من أمرهم ،والمعنى ان عدم قتلكم كان بسبب أنه لم يكن مكتوباً لا بسبب أنكم دفعتموه بالقعود مع كتابه عليكم ، فإن ذلك مما لا سبيل إليه بل قد يكون القتال سببا للنجاة والقعود مؤدياً إلى الموت . واعلم أن الموت ، ليس له سن معلوم ، ولا أجل معلوم ، ولا مرض معلوم ، وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك ، مستعداً لذلك ، وكان بعض الصالحين ينادي بالليل على سور المدينة : الرحيلَ الرحيل ، فلما توفي فقد صوته أمير تلك المدينة ، فسأل عنه فقيل : إنه مات فقال :

ما زال يلهج بالرحيل وذكره * حتى أناخ ببابه الجَمَّالُ
فأصابه متيقظاً متشمراً * ذا أُهْبَةٍ لم تُلْهِهِ الآمال

﴿ **ولا تَحْسَبَنَّ الذّينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ أمْواتاً** ﴾ المراد بهم شهداء أُحد ، وكانوا سبعين رجلاً قال القاشاني : الأفصح الأبلغ أن يُجعل الخطاب في ﴿ **ولا تَحْسَبَنَّ** ﴾ لكل أحد ، لأنه أمر خطير يجب أن يُبشر به كل واحد ، لتتوفر دواعيهم إلى الجهاد ، وليتيقنوا بحسن الجزاء ﴿ **بلْ أحْياءٌ** ﴾ أي بل هم أحياء ﴿ **عنْدَ رَبِّهِمْ** ﴾ خبر ثان للمبتدأ أي أنهم مقربون منه تعالى قرب التكريم والتعظيم ﴿ **يُرْزَقونَ** ﴾ من ثمار الجنة وتحفها ، وفيه تأكيد لكونهم أحياء ، وتحقيق لمعنى حياتهم ﴿ **فَرِحينَ بما آتيهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ وهو شرف الشهادة والتمتع بالنعيم المخلد عاجلاً ﴿ **ويسْتَبْشِرونَ** ﴾ معطوف على قوله فرحين كأنه قيل فرحين ومستبشرين ﴿ **بالذّينَ لم يلْحَقوا بِهِمْ** ﴾ أي بإخوانهم الذين لم يقتلوا في سبيل الله فيلحقوا بهم ﴿ **مِنْ خلْفِهِمْ** ﴾ المعنى انهم بقوا بعدهم وهم قد تقدموهم ﴿ **أنْ لا خَوْفٌ عليْهِمْ ولا هُمْ يحزَنونَ** ﴾ يفرحون بما بشر لهم ، وهو أنهم إذا ماتوا أو قتلوا ، يفوزون بحياة أبدية ،

لا يدركها خوف وقوع محذور ، ولا حزن فوت مطلوب ، والخوف يكون بسبب توقع المكروه النازل في المستقبل ، والحزن يكون بسبب فوت المنافع التي كانت موجودة في الماضي .

فبين الله أنه لا خوف عليهم مما سيأتيهم من أهوال القيامة وأحوالها ، ولا حزن لهم مما فاتهم من نعم الدنيا ولذاتها ﴿ **يَسْتَبْشِرُونَ بِنعمةٍ مِنَ اللهِ** ﴾ كرَّره لبيان أنَّ الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف والحزن ، بل به وبما يقارنه من نعمة عظيمة لايقادر قدرها ، وهي ثواب أعمالهم ﴿ **وفضْلٍ** ﴾ أي زيادة عظيمة كما في قوله تعالى (**للَّذينَ أحْسَنوا الحُسْنَى وَزيادَة**) ﴿ **وأنّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المؤمِنينَ** ﴾ كافة سواء كانوا شهداء أو غيرهم ، واعلم أن ظاهر الآية ، يدل على أن هؤلاء المقتولين ، وإن فارقت أرواحهم أجسادهم ، إلا أنهم أحياء في الحال ، واختلف القائلون بحياتهم في الحال أنها للروح ، أو للبدن ، ولابد ههنا من تقديم مقدمة ليتضح بها المقام ، وهي أن الإنسان ليس عبارة عن مجموع هذه البنية ، بل هو شيء مغاير لها ، وذلك لأن أجزاء هذه البنية في الذوبان والانحلال ، والتبدل والتغير ، بالسمن وضده ، والصغر وخلافه ، فثبت أن الإنسان مغاير لهذا البدن المخصوص ، ثم بعد هذا يحتمل أن يكون جسماً مخصوصاً سارياً في هذه الجثة سريان النار في الحطب ، والدهن في السمسم ، ويحتمل أن يكون جوهراً قائماً بنفسه ، ليس بجسم ولا حالّ في الجسم ، وعلى كلا المذهبين لا يبعد ان ينفصل ذلك الشيء حيا عند موت البدن ، فيثاب ويعذب على حسب أعماله ، والدلائل العقلية والنقلية ، الدالة على بقاء النفوس بعد موت الأجساد ، كثيرة متعاضدة فوجب المصير إليها ، وبه تزول الشبهات الواردة على القول بثواب القبر كما في هذه الآية ، وعلى القول بعذاب القبر كما في قوله تعالى (**أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً**) إذا لم تمت النفوس بموت الأبدان ، أو قلنا بأنه تعالى أماتها ثم أعاد الحياة إليها ، كما يدل عليه ما روي في بعض الأخبار ، أنه قال ﷺ في صفة الشهداء « إن أرواحهم في أجواف طير خضر ، وأنها ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتسرح في الجنة حيث شاءت ، وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش ، فلما رأوا طيب مطعمهم ومسكنهم ومشربهم ، قالوا يا ليت قومنا يعلمون ما نحن فيه من النعيم ، وما صنع الله بنا ، كي يرغبوا في الجهاد فقال الله تعالى : أنا مخبر عنكم ومبلغ إخوانكم ففرحوا بذلك واستبشروا »[1] فأنزل الله هذه الآية ، والذين أثبتوا هذه الحياة للأجساد اختلفوا . فقال بعضهم : إنه تعالى يُصعد أجساد هؤلاء الشهداء إلى السموات إلى قناديل تحت العرش ، ويوصل أنواع السعادات والكرامات إليها ، ومنهم من قال يتركها في الأرض ويحييها ويوصل هذه السعادات إليها كذا في تفسير الإمام .

﴿ **الذينَ اسْتَجابُوا للهِ والرّسولِ** ﴾ أي أجابوا وأطاعوا فيما أُمروا به ونُهوا عنه ﴿ **منْ بعدِ ما**

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه بلفظ : « لما أُصيب إخوانكم في أُحُدٍ ، جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضر .. » الحديث .

﴿ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ أي الجرح في غزوة أحد ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ثواب عظيم والمعنى الذين استجابوا لله والرسول ، لهم أجر عظيم ، إلا أنهم وصفوا بوصفي « الإحسان ، والتقوى » مدحاً لهم ، وتعليلاً لعظم أجرهم بحسن فعالهم لا تقييداً ، روي أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد فبلغوا الروحاء ـ وهو موضع بين مكة والمدينة ـ ندموا وهمُّوا بالرجوع حتى يستأصلوا ما بقي من المؤمنين ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان وقال : لا يخرجنَّ معنا إلا من حضر يومنا بالأمس ، فخرج رسول الله عليه السلام ليريهم من نفسه ومن أصحابه جَلَداً وقوة ، ومعه جماعة حتى بلغوا « حمراء الأسد » وهي من المدينة على ثمانية أميال ، وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم أي حملوا المشقة على أنفسهم كيلا يفوتهم الأجر ، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت ، فهذه هي « غزوة حمراء الأسد » متصلة بغزوة أحد ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ يعني « نعيم بن مسعود الأشجعي » وإطلاق الناس عليه لما أنه من جنسهم ، وكلامه كلامهم ، يقال فلان يركب الخيل ، ويلبس الثياب ، وماله سوى فرس فرد ، وغير ثوب واحد ﴿ إِنَّ النَّاسَ ﴾ يعني أبا سفيان وأصحابه ﴿ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ أي اجتمعوا ﴿ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ روي أن أبا سفيان لما عزم على أن ينصرف من المدينة إلى مكة ، نادى يا محمد موعدنا موسم بدر الصغرى لقابل ، نقتتل بها إن شئت فقال ﷺ (إن شاء الله) فلما كان القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مرَّ الظهران ، فألقى الله في قلبه الرعب وبدا له أن يرجع ، فمر به « نعيم بن مسعود » وقد قدم معتمراً فقال يا نعيم : إني واعدت محمداً أن نلتقي بموسم بدر ، إلا أن هذا العام عام جدب ، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ، ونشرب فيه اللبن ، وقد بدالي أن أرجع ، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده جراءة، فاذهب إلى المدينة فثبطهم ولك عندي عشرة من الإبل ، فجاء نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون للخروج ، فقال لهم : ما هذا بالرأي ، أتوكم في دياركم فلم يفلت منكم أحد ـ أي لم يتخلص إلا شريد وهو الفار النافر المبعد ـ أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ؟ فإن ذهبتم إليهم لم يرجع منكم أحد ، فأثَّر هذا الكلام في قلوب قوم منهم ، فلما عرف رسول الله ﷺ ذلك منهم قال « والذي نفسي بيده لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد ، فخرج في سبعين راكباً كلهم يقولون حسبنا الله ونعم الوكيل » ﴿ فَزَادَهُمْ ﴾ القول ﴿ إِيمَاناً ﴾ والمعنى لم يلتفتوا إلى ذلك بل ثبت به يقينهم بالله ، وازداد اطمئنانهم، وأظهروا حمية الإسلام ، وأخلصوا النية عنده ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾ أي كافينا الله بنصره ومعونته وإمداده ﴿ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ أي الموكول إليه هو أي الله ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي خرجوا إليهم ووافوا الموعد فرجعوا من مقصدهم ملتبسين بنعمة عظيمة لا يقادر قدرها ، كائنة من الله تعالى وهي العافية والثبات على الإيمان والزيادة فيه وحذر العدو منهم ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ أي ربح في التجارة

عظيم ﴿ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوْءٌ ﴾ سالمين من السوء أي لم يصبهم أذى ولا مكروه ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين ﴿ واتَّبَعُوْا رِضْوانَ اللهِ ﴾ الذي هو مناط الفوز بخير الدارين ، بجرأتهم وخروجهم ﴿ وَاللهُ ذو فضلٍ عَظِيمٍ ﴾ حيثُ تفضل عليهم بالتثبيت وزيادة الإيمان ، والتوفيق للمبادرة إلى الجهاد، وحفظهم من كل ما يسوؤهم ، مع إصابة النفع الجليل ، وفيه تحسير لمن تخلف عنهم ، وإظهار لخطأ رأيهم ، حيث حرموا أنفسهم ما فاز به هؤلاء ﴿ إنّما ذٰلِكُمْ ﴾ أي المثبط أيها المؤمنون وهو مبتدأ ﴿ الشّيْطانُ ﴾ خبره ﴿ يُخَوّفُ أوْلياءَهُ ﴾ المنافقين غلبة المشركين وقهرهم ، ليقعدوا عن قتالهم ، فهم المنافقون الذين في قلوبهم مرض ، وقد تخلفوا عن رسول الله في الخروج ، والمعنى أن تخويفه إنما يتعلق بالمنافقين الذين هم أولياؤه ، وأما أنتم أيها المؤمنون ، فأولياء الله وحزبه الغالبون ، لا يتعلق بكم تخويفه ﴿ فَلا تَخافُوهُمْ ﴾ أي الشيطان وأولياءه ﴿ وَخافُونِ ﴾ في مخالفة أمري ﴿ إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان يقتضي إيثار خوف الله عز وجل على خوف غيره ، ويستدعي الأمن من شر الشيطان وأوليائه ، واعلم أن من شعار المسلمين وعادة المؤمنين ، أن يجاهدوا في سبيل الله ، ولا يخافوا لومة اللائمين ، ألا يرى أن الله تعالى كيف مدح قوماً حالهم كذلك بقوله (يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ ولاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ) ؟ فمن كان مع الله ، فهو يعصمه وينصره على أعدائه ، خصوصاً عدو النفس الأمارة بالسوء .

﴿ ولاَ يَحْزُنْكَ الّذِينَ يُسَارِعون في الكُفْرِ ﴾ أي يقعون فيه سريعاً ، لغاية حرصهم عليه وشدة رغبتهم فيه ، وهم المنافقون المتخلفون الذين يسارعون إلى ما أبطنوا من الكفر ، مظاهرة للكفار ، وسعياً في إطفاء نور الله ﴿ إنّهُمْ لنْ يضُرّوا اللهَشَيْئاً ﴾ أي لن يضروا بذلك أولياء الله البتة ، شيأ من الضرر ﴿ يُرِيدُ اللهُ أنْ لا يجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً في الآخِرَةِ ﴾ أي يريد الله بذلك ، أن لا يجعل لهم في الآخرة نصيباً من الثواب ، ولذلك تركهم في طغيانهم يعمهون ، إلى أن يهلكوا على الكفر ، ﴿ وَلَهُمْ ﴾ مع ذلك الحرمان ﴿ عَذابٌ عظيمٌ ﴾ لا يقادر قدره ﴿ إنّ الذّين اشْتَرَوُا الكُفْرَ بالإيمانِ ﴾ أي أخذوه بدلاً منه ، رغبة فيما أخذوه ، وإعراضاً عما تركوه ﴿ لنْ يَضُرّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذابٌ أليمٌ ﴾ ولما جرت العادة باغتباط المشتري بما اشتراه ، وسروره بتحصيله ، عند كون الصفقة رابحة ، وبتألمه عند كونها خاسرة ، وصف عذابهم بالإيلام مراعاة لذلك ﴿ ولا يَحْسَبَنّ الّذِينَ كَفَروا أنّما نُملي لَهُمْ ﴾ الإملاء : الإمهال وإطالة المدة ، أي أن إمهالنا لهم ﴿ خَيْرٌ لأنْفُسِهِمْ ﴾ من منعهم عن إرادتهم ومعنى التفضيل باعتبار زعمهم ﴿ إنّمَا نُمْلي لَهُمْ لِيزْدادُوا إثْماً ﴾ اللام لام الإرادة عند أهل السنة ، القائلين بأنه تعالى فاعل الخير والشر ، فإن الإملاء الذي هو إطالة العمر ، لا شك أنه من أفعاله تعالى ، وأنه ليس بخير لهم ، لأنهم يتوسلون به إلى ازدياد الإثم والطغيان ، فهو تعالى لما أمهلهم،وأطال عمرهم، واكتسبوا بذلك مآثم

من الكفر والطغيان ، كان خالقاً لتلك المآثم أيضاً ، ولا تخلق إلا بالإرادة فهو مريد لها ، وعند المعتزلة لام العاقبة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أي يهانون به في الآخرة قال عليه السلام « خير الناس من طال عمره وحَسُنَ عملُه ، وشر الناس من طال عمره وساء عمله »[1] . ودلت الآية على أن إطالة عمر الكافر والفاسق ، وإيصاله إلى مراداته في الدنيا ليس بخير ، بل هي نعمةٌ في الصورة ، ونقمةٌ في الحقيقة ، ألا يرى أن من أطعم إنساناً خبيصاً مسموماً ، لا يعدُّ ذلك نعمة عند الحقيقة ، لإفضائه إلى الهلاك والعقوبة ، فينبغي للعبد أن لا يغتر بطول العمر وامتداده ، ولا بكثرة أمواله ولا أولاده .

﴿ ما كانَ اللهُ ﴾ مريداً ﴿ لِيَذَرَ ﴾ لأن يترك ﴿ المؤمنينَ ﴾ المخلصين ﴿ عَلىٰ مَا أنتُمْ عَليهِ ﴾ الخطاب لعامة المخلصين والمنافقين في عصره ﴿ حتّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطّيبِ ﴾ ماز الشيءَ : مَيْزاً عزله وأفرزه ، والمعنى ما كان الله ليترك المخلصين منكم ، على الحال التي أنتم عليها من اختلاط بعضكم ببعض ، وأنه لا يُعرف مخلصكم من منافقكم ، حتي يميز المنافق من المخلص ، بالوحي إلى نبيه بأحوالكم ، أو بالجهاد أو بالهجرة ﴿ وَمَا كانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلىٰ الغَيْبِ ﴾ أي وما كان الله ليؤتي أحدكم علم الغيب ، فيطلع على ما في القلوب من كفر وإيمان ﴿ ولَكِنّ اللهَ يَجْتَبي ﴾ يصطفي ﴿ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ بأن تعلموهم عباداً مُصْطَفَيْن لا يعلمون إلا ما علمهم الله ، ولا يعلمون إلا ما أوحي إليهم ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنوا ﴾ حق الإيمان ﴿ وَتَتّقُوا ﴾ النفاق ﴿ فَلَكُمْ ﴾ بمقابلة ذلك الإيمان والتقوى ﴿ أجرٌ عَظيمٌ ﴾ لا يبلغ كنهه ، وهذا الأجر على قدر عظم التقوى ، فإن السير إلى المقصد الأعلى والوصول إلى منازل الاجتباء لا يتهيأ إلا بقدميْ التقى ، فالإيمان بالله وبرسوله هو التصديق القلبي ، والتمسك بالشريعة،والنجاة فيه لا في غيره ، فيا أخي لا تضيع أيامك ، فإن أيامك رأس مالك ، وإنك ما دمت قابضاً على رأس مالك ، فإنك قادر على طلب الربح ، فاجتهد في تحصيله بالتوغل في الطاعات والعبادات ، وإحياء سنة رسول الله ، والصلاة عليه قبل الموت والفوت ، فإن الموتى يتمنون أن يؤذن لهم بأن يصلوا ركعتين ، أو يقولوا مرة لا إله إلا الله ، أو يسبحوا مرة فلا يؤذن لهم ، ويتعجبون من الأحياء كيف يضيعون أيامهم في الغفلة ؟! وكما قيل : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فَتَمَيُّزُ المنافق من المخلص ، كما يكون في الدنيا بالأقوال والأفعال ، كذلك يكون في الآخرة ببياض وجه هذا وسواد وجه ذلك ، كما قال تعالى (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) جعلنا الله ممن تبيضُّ وجوههم يوم القيامة ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتيهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي ولا يحسبن البخلاء بخلهم ﴿ هُوَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ من إنفاقهم ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي البخل ﴿ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ لاستجلاب العقاب عليهم ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ

(١) الحديث أخرجه الترمذي والدارمي وأحمد بن حنبل .

﴿ القِيٰمةِ ﴾ أي سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق في الرقبة وهو على حقيقته ، وأنهم يطوقون حية أو طوقاً من نار ، استدلالاً بالحديث وسيجيء ﴿ وَللهِ ﴾ وحده لا لأحدٍ غيره ﴿ مِيراثُ السّمواتِ والأَرْضِ ﴾ أي ما يتوارثه أهلها من مال وغيره ، فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله !؟ أو أنه يورث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه عند هلاكهم ، وتبقى عليهم الحسرة والندامة ﴿ واللهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴾ من المنع والإعطاء ﴿ خَبيرٌ ﴾ فيجازيكم على ذلك .

وفي الحديث « من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته ، مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع ، له زبيبتان يُطَوَّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - ثم يقول أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا ﴿ ولاَ يَحْسَبَنَّ الّذين يبْخَلون ﴾[1] الآية وفي رواية (يجعل ما بخل به من الزكاة حية يُطَوَّقها في عنقه يوم القيامة ، تنهشه من قرنه إلى قدمه ، وتنقر رأسه وتقول أنا مالك) وقال ﷺ « ما من رجل يكون له إبل أو بقر أو غنم ، لا يؤدي حقها إلا أُتي بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه ، تطأه بأخفافها وتنطحه بقرونها ، كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يُقْضَى بين الناس »[2] .

فمنع الزكاة سبب للعقاب في العقبى ، كما أن إيتاءها سبب للثواب في الأخرى ، وحصن لماله في الدنيا وفي الأثر (حصّنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستعينوا على البلاء بالدعاء)[3].

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الّذينَ قَالُوا إنّ اللهَ فَقيرٌ ونَحْنُ أَغْنياءُ ﴾ قالته اليهود لما سمعوا قوله تعالى (من ذا الذي يُقرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً) وروي أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام ، فدخل أبو بكر ذات يوم بيت مدراسهم ، فوجد ناساً كثيراً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : « فنحاص بن عازوراء » وكان من علمائهم ، فقال أبو بكر لفنحاص : اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عند الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة ، فآمنْ وصدِّقْ وأقرض الله قرضاً حسناً ، يدخلك الجنة ويضاعف لك الثواب ، فقال فنحاص : يا أبا بكر تزعم أن ربنا يستقرض أموالنا وما يستقرض إلا الفقير من الغنيّ ، فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذاً لفقير ونحن أغنياء ، وإنه ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينكم ، لضربت عنقك يا عدوَّ الله ، فذهب فنحاص إلى النبي ﷺ ، فشكاه

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان والنسائي وابن ماجه .

(٣) أخرجه أبو داود عن الحسن مرسلاً ، وفي رواية للطبراني « وأعدُّوا للبلاء الدعاء » وانظر الفتح الكبير ٢ / ٧٣ .

وجحد ما قاله ، فنزلت رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر ، والمعنى : أنه تعالى لم يَخْفَ عليه ما قاله اليهود وأعدَّ لهم من العقاب كفاءه ﴿ **سَنَكْتُبُ ما قَالوا** ﴾ أي سنكتب ما قالوه من الكلام الشنيع في صحائف الحفظة ، والسين للتأكيد أي لن يفوتنا أبداً تدوينه وإثباته ، لكونه في غاية العظم والهول ، كيف لا وهو كفر بالله تعالى ، واستهزاء بالقرآن العظيم ؟! ﴿ **وَقَتْلَهُمُ الأَنْبيَاءَ** ﴾ عطف عليه إيذاناً بأنها في العظم أخوان ، وأن من اجترأ على قتل الأنبياء ، لم يبعد منه أمثال هذه العظائم ، والمراد بقتلهم الأنبياء رضاهم بفعل أسلافهم ﴿ **بِغَيْرِ حَقّ** ﴾ أي كائناً بغير حق وجرم ، في اعتقادهم أيضاً ، كما هو في نفس الأمر ﴿ **وَنَقُولُ** ﴾ عند الموت أو عند الحشر ﴿ **ذُوقُوا عَذابَ الحَريقِ** ﴾ أي وننتقم منهم بأن نقول لهم : ذوقوا العذاب المحرق ، كما أذقتم المرسلين الغصص ﴿ **ذٰلكَ** ﴾ إشارة إلى العذاب المذكور ﴿ **بما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ بسبب ما اقترفتموه من قتل الأنبياء ،والتفوّه بمثل تلك العظيمة وغيرها من المعاصي ، والتعبير عن الأنفس بالأيدي لأن أكثر الأعمال يُزاول بهن ، فجعل كل عمل كالواقع بالأيدي على سبيل التغليب ﴿ **وَأَنّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبيدِ** ﴾ أي والأمر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده ، بغير ذنب من قِبَلهم ، والتعبير عن ذلك بنفي الظلم ، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك ، بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه من الظلم ﴿ **الذّينَ** ﴾ أي هم الذين ﴿ **قَالُوا** ﴾ وهم كعب بن الأشرف ، وحيي بن أخطب ، وفنحاص بن عازوراء ﴿ **إنّ اللهَ عَهِدَ إلَيْنا** ﴾ أي أمرنا في التوراة وأوصانا ﴿ **أَنْ لا نُؤْمِنَ لِرَسولٍ حتّى يأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ** ﴾ فيكون دليلاً على صدقه ، والقربان كلُّ ما يتقرب به العبد إلى الله من نسيكة ، وصدقة ، وعمل صالح ، وهو فعلان من القربة .

﴿ **قُلْ** ﴾ أي تبكيتاً لهم وإظهاراً لكذبهم ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ** ﴾ أي جاء أسلافكم وآباءكم ﴿ **رُسُلٌ** ﴾ كثيرة العدد كبيرة المقدار ﴿ **من قَبْلي بالبَيّناتِ** ﴾ أي المعجزات الواضحة ﴿ **وَبِالَّذي قُلْتُمْ** ﴾ بعينه من القربان الذي تأكله النار فقتلتموهم ﴿ **فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ أي فيما يدل عليه كلامكم ، من أنكم تؤمنون لرسول يأتيكم بما اقترحتموه ، فإن زكريا ويحيي وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام ، قد جاؤكم بما قلتم في معجزات أخر ، فما لكم لم تؤمنوا حتى اجترأتم على قتلهم ؟ ﴿ **فإن كَذّبوكَ** ﴾ شروع في تسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **فقد كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ أي فتسلَّ واصبر فقد كُذِّب الخ ﴿ **جَاؤُا بِالبَيِّنَاتِ** ﴾ المعجزات الواضحات صفة الرسل ﴿ **والزُّبُرِ** ﴾ جمع زبور وهو الكتاب المقصور على الحِكَم،من زبَّرته إذا حَسَّنته ، أو الزُّبُر المواعظ والزواجر من زبرته إذا زجرته ﴿ **وَالكِتابِ المُنيرِ** ﴾ أي التوراة والإنجيل والزبور ، فطوبى لعبد طهَّر نفسه من الصفات الرذيلة ، والعناد والإصرار ، ورأى الحق حقاً والباطل باطلاً ، وانقطع عن ميل الدنيا واتباع الهوى ، وموافقة غير الله ، روي أن عيسى عليه السلام مرَّ بقرية ، فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق ، فقال يا

معشر الحواريين : إن هؤلاء ماتوا على سُخط ، ولو ماتوا على غير ذلك لتدافنوا ، فقالوا يا روح الله : وددنا أنا علمنا خبرهم ، فسأل ربه فأوحى الله إليه إذا كان الليل فنادهم يجيبوك ، فلما كان الليل أشرف على الموتى ، ثم نادى : يا أهل القرية ، فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله ، فقال : ما حالكم ؟ وما قصتكم ؟ قال : بتنا في عافية ، وأصبحنا في هاوية ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي ، قال وكيف كان حبكم الدنيا ؟ قال : كحال حب الصبي لأمه ، إذا أقبلت فرحنا ، وإذا أدبرت حزنا ، قال فما بال أصحابك لم يجيبوني ؟ قال لأنهم ملجمون بلجام من نار ، بأيدي ملائكة غلاظ شداد ، قال كيف أجبتني من بينهم ؟ قال : لأني كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابني ، فأنا معلق على شفير جهنم ، لا أدري أأنجو منها أم أكبكب فيها ؟

﴿ **كُلُّ نفْسٍ ذَائِقَةُ الموْتِ** ﴾ أي تخرج وتنفك من البدن بأدنى شيء من الموت ، وهو وعد ووعيد للمصدق والمكذب ، من حيث إن هذه الدار بعدها دار أخرى ، يتميز فيها المحسن من المسيء ، ويتوفى كل أحد ما يليق به من الجزاء ، وفي الأثر (لما خلق الله آدم اشتكت الأرض إلى ربها لما أخذ منها ، فوعدها أن يرد فيها ما أخذ منها ، فما من أحد إلا ويدفن في التربة التي خلق منها) ﴿ **وإنّما تُوَفّونَ أجُورَكُمْ** ﴾ أي تُعطون جزاء أعمالكم خيراً كان أو شراً ، تاماً وافياً ﴿ **يوْمَ القِيٰمَةِ** ﴾ أي يوم قيامكم من القبور ، وفي الحديث « القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النيران »[1] ﴿ **فَمنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ** ﴾ أي أُبعد عنها يومئذ ونُحّي ، والزحزحة في الأصل : تكريرُ الزحّ وهو الجذب بعجلة ﴿ **وَأُدْخِلَ الجَنّةَ فَقَدْ فَازَ** ﴾ بالنجاة ونيل المراد ، والفوز : الظفر بالبغية ، وعن النبي ﷺ (من أحب أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويأتي إلى الناس بما يحب أن يُؤتى به إليه)[2] ﴿ **ومَا الحيٰوةُ الدُّنيا** ﴾ أي لذاتها وزخارفها ﴿ **إلاّ متاعُ الغُرورِ** ﴾ شبَّهها بالمتاع الذي يدلس به على المستام ، ويُغر حتى يشتريه ، وهذا لمن آثرها على الآخرة ، ومن آثر الآخرة عليها فهي له متاعُ بلاغ أي تبليغ إلى الآخرة ، وإيصال إليها ، فالعاقل لا يغتر بالدنيا ، فإنها لينٌ مسُّها ، قاتلٌ سمُّها ، ظاهرها مطية السرور ، وباطنها مطية الشرور قال رسول الله ﷺ (يقول الله أعددت لعبادي الصالحين ، مالا عينٌ رأت ، ولا أُذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرأوا إن شئتم (**فلا تَعْلَمُ نفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّة أَعْيُنٍ جَزاءً بما كَانُوا يعْملونَ**) وإن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يتطعها ، واقرأوها إن شئتم (**وظِلّ ممْدودٍ**) ولموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما عليها واقرأوا إن شئتم ﴿ **فَمنْ زُحْزِحَ عَنِ النّارِ وأُدْخِلَ الجنةَ فقدْ فازَ ومَا**

(١) الحديث أخرجه الترمذي من حديث طويل في صفة القيامة برقم / ٢٤٦٢ / وانظر جامع الأصول ١١ / ١٧٠ .

(٢) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٠ .

﴿ الحَيَاةُ الدُّنْيا إلاّ متاعُ الغُرورِ ﴾[1]، فمن أتى بالطاعات ، واجتنب عن السيآت ، وأعرض عن الدنيا ولذاتها ، فاز بالجنة ودرجاتها ، ومن عكس الأمر ، عوقب بالحرمان في دركات النيران ، روي أن جبريل عليه السلام جاء النبي ﷺ متغير اللون فسأله النبي ﷺ عن تغير لونه فقال جئتك وقد أمر الله أن ينفخ في نار جهنم فقال عليه السلام صف لي جهنم فقال : لما خلق الله جهنم أو قدَ عليها ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اصفرت ، ثم أوقد عليها ألف سنةٍ حتى اسودت ، والذي بعثك بالحق نبياً لو أن جمرة منها وقعت لأحرقت أهل الدنيا ، ولو أن ثوباً من أثوابها علق بين السماء والأرض لماتوا من نتن رائحته ، لها سبعة أبواب بعضها أسفل بعض ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ أصل الابتلاء : الاختيار بتعريضه لأمر يشقُّ عليه غالباً ، وذلك إنما يتصور ممن لا وقوف له على عواقب الأمور ، وأمّا من جهة العليم الخبير ، فلا يكون إلا مجازاً من تمكينه للعبد من اختيار أحد الأمرين ، قبل أن يرتب عليه شيأ هو من مباديه العادية ، والجملة جواب قسم محذوف أي والله لتعاملن معاملة المختبر ، ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق ، والأعمال الحسنة ﴿ فِي أَمْوالِكُمْ ﴾ بما يقع فيها من ضروب الآفات المؤدية إلى الهلاك ﴿ وأَنْفُسِكُمْ ﴾ بالقتل والأسر والجراح وما يرد عليها من أصناف المتاعب والمخاوف والشدائد ونحو ذلك ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الّذِينَ أُوتوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي من قبل إيتائكم القرآن ، وهم اليهود والنصارى ﴿ وَمِنَ الّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ من العرب كأبي جهل والوليد وأبي سفيان وغيرهم ﴿ أَذىً كَثِيراً ﴾ من الطعن في الدين الحنيف ، والقدح في أحكام الشرع الشريف ، وصدِّ من أراد أن يؤمن ، وتخطئة من آمن ، أخبرهم بذلك قبل وقوعها ليوطِّنوا أنفسهم على الصبر ، والاحتمال على المكروه ، ويستعدوا للقائها ، فإن هجوم الأوجال[2] مما يزلزل أقدام الرجال ، والاستعداد للكروب ، مما يهوّن الخطوب ﴿ وإنْ تصْبِرُوا ﴾ على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها ﴿ وَتَتّقُوا ﴾ أي تتبتَّلوا إلى الله تعالى بالكلية ، معرضين عما سواه بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ، ولقاء المكروه ﴿ فإنّ ذَلِكَ ﴾ يعني الصبر والتقوى ﴿ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ من معزوماتها التي يتنافس فيها المتنافسون أي مما يجب أن يعزم عليه كل أحد ، لما فيه من كمال المزية والشرف ، فعلى العاقل أن يتخلق بأخلاق الأنبياء والأولياء ، ويتأدب بآدابهم ، فإنهم كانوا يصبرون على الأذى ، ولا يقابلون السفيه بمثل مقابلته ، وإذا مروا باللغو مرُّوا كراما .

وقد مدح الله تعالى نبيه ﷺ بقوله (وإنّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عِظِيمٍ) قالت عائشة رضي الله عنها « كان خلق النبي ﷺ القرآن » يعني تأدب بآداب القرآن وفي الحديث « صِلْ من قطعك ، واعف عمن

(١) هذا حديث صحيح أخرج بعضه البخاري ومسلم ، وأخرجه الترمذي بكامله ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٩٥ .

(٢) الأوجال : جمعُ وَجَل وهو الخوف ، مثل عَلَمٍ وأعلام .

ظلمك ، وأحسن إلى من أساء إليك »[1] ﴿ وإذْ أَخذَ اللهُ ﴾ أي اذكُرْ يا محمد وقت أخذه تعالى ﴿ ميثاقَ الذّينَ أُوْتُوْا الكِتَابَ ﴾ وهم علماء اليهود والنصارى ، وذلك أخذ على لسان الأنبياء عليهم السلام ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ ﴾ حكاية لما خوطبوا به كأنه قيل لهم بالله لتبيننه ﴿ لِلنّاسِ ﴾ وتظهرنّ جميع ما فيه من الأحكام والأخبار ، التي من جملتها أمر نبوته ﷺ ، وهو المقصود بالحكاية ﴿ ولاَ تكْتُمونَهُ ﴾ عطف على الجواب ، وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفياً ، كما في قولك : والله لا يقوم زيد ﴿ فَنَبذوهُ ﴾ النبذُ : الرمي والإبعاد أي طرحوا ما أخذ منهم من الميثاق الموثَّق بفنون التأكيد والقوة ﴿ وَراءَ ظُهُوْرِهِمْ ﴾ ولم يراعوه ولم يلتفتوا إليه أصلاً ، فإن نبذ الشيء وراء الظهر ، مَثَلٌ في الاستهانة به والإعراض عنه بالكلية ، كما أن جعله نصب العين ، عَلَمٌ في كمال العناية ﴿ وَاشْتَرَوْا بِهِ ﴾ أي بالكتاب الذي أمروا ببيانه ونهوا عن كتمانه ، والاشتراء مستعار لاستبدال متاع الدنيا بما كتموا ، أي تركوا ما أمروا به وأخذوا بدله ﴿ ثَمَناً قَليلاً ﴾ أي شيأ تافهاً حقيراً من حطام الدنيا ، وهو ما تناولوه من سفلتهم ، فلما كرهوا أن يؤمنوا فينقطع ذلك عنهم ، كتموا ما علموا من ذلك وأمروهم أن يُكذِّبُوه ﴿ فَبِئْسَ ما يشْتَرونَ ﴾ المخصوص بالذم محذوف أي بئس شيأ يشترونه ذلك الثمن ، وظاهر الآية وإن دلَّ على نزولها في حق اليهود والنصارى ، الذين كانوا يخفون الحق إلا أن حكمها يعم من كتم من المسلمين أحكام القرآن ، الذي هو أشرف الكتب ، وأنهم أشراف أهل الكتاب * قال صاحب الكشاف وكفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يُبَيِّنوا الحق للناس وما علموه ، وأن لا يكتموا منه شيأ لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم واستجلاب لمسارهم أو لجر منفعة من حطام الدنيا لنفسه مما لا دليل عليه ولا أمارة ، أو لبخلٍ بالعلم وغيرةٍ أن ينسب إلى غيرهم انتهى بعبارته ، فكل من لم يبين الحق للناس وكتم شيأ من هذه الأمور دخل تحت وعيد الآية كذا في تفسير الإمام * فعلى المرء أن يحسن نيته حال الاضمار والاظهار ، ويطهِّر سريرته من لوث الأعراض والأوزار والانكار .

حكي أن الحجاج أرسل إلى الحسن وقال : ما الذي بلغني عنك ؟ فقال : ما كل الذي بلغك قلته ، ولا كل ما قلته بلغك ؟ قال : أنت الذي قلت : إن النفاق كان مقموعاً فأصبح قد تعمم وتقلد سيفاً ، فقال نعم ، فقال : وما الذي حملك على هذا ، ونحن نكرهه ؟ قال : لأن الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه ولا تكتمونه ، قال قتادة : مَثَل علمٍ لا يُقال به ، كمثل كنز لا ينفق منه ، وَمَثل حكمةٍ لا تخرج ، كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب ، وكان يقول : طوبى لعالم ناطق ولمستمع واع ، هذا عَلِم علماً فبذله، وهذا سمع خيراً فوعاه، قال ﷺ « من كتم علماً على أهله ألجم بلجام من نار)*[2] قال الفضيل رحمه

(١) الحديث أخرجه ابن النجار بنحوه ، وفيه : « وقل الحقّ ولو على نفسك » وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٨٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه بلفظ : « من كتم علماً ممّا ينفع الله به الناسَ ، ألجمه الله بلجام من النار » وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٣٤ .

الله : لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وشحُّوا بدينهم ، وأعزُّوا العلم وصانوه ، وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة ، وانقادلهم الناس وكانوا لهم تبعاً ، عزَّ الإسلام وأهله ولكنهم أذلوا أنفسهم ولم يسألوا ما نقص من دينهم إذا سلمت لهم دنياهم فبذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مما في أيدي الناس فذلوا وهانوا على الناس * ﴿ **لا تَحْسَبَنَّ** ﴾ يا محمد ، أو الخطاب لكل أحد ممن يصلح له ﴿ **الذّينَ يفْرَحونَ بما أَتوْا** ﴾ بما فعلوا من التدليس ، وكتمان الحق ﴿ **وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بما لم يفْعَلوُا** ﴾ من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق ، والإخبار بالصدق ﴿ **فلا تَحْسَبَنَّهُمْ** ﴾ تأكيد لقوله لا تحسبن ﴿ **بِمَفَازَةٍ مِنَ العَذَاب** ﴾ أي ملتبسين بنجاة منه ﴿ **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ بكفرهم وتدليسهم ﴿ **وَللهِ** ﴾ أي خاصة ﴿ **مُلْكُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أي السلطان القاهر فيهما بحيث يتصرف فيهما كيف يشاء ، إيجاداً وإعداماً ، إحياء وإماتة ، ﴿ **وَاللهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ** ﴾ فيقدر على عقابهم ، روي أنه عليه السلام سأل اليهود عن شيء ممافي بالتوراة ، فأخبروه بخلاف ما كان فيه ، وأروه أنهم قد صدقوا ، وفرحوا بما فعلوا فنزلت ، وقيل : هم المنافقون كافة ، وهو الأنسب بظاهر قوله تعالى (**ويُحبون أَنْ يُحمَدوا بما لم يفْعَلوا**) فإنهم كانوا يفرحون بما فعلوه من إظهار الإيمان ، وقلوبهم مطمئنة بالكفر ، وكانوا يظهرون محبة المؤمنين ، وهم في الغاية القاصية من العداوة ، والأولى إجراء الموصول على عمومه ، شاملاً لكل من يأتي بشيء من الحسنات ، فيفرح به فرح إعجاب ، ويود أن يمدحه الناس بما هو عار من الفضائل ، وكون السبب خاصاً لا يقدح في عمومية حكم الآية ، واعلم أن الفرح بمتاع الدنيا ، وحب مدح الناس من صفات أرباب النفس الأمَّارة ، المغرورين بالحياة الدنيا ، المحجوبين عن السعادات الأخروية والقربات المعنوية ، قال الإمام في تفسيره : وأنت إذا أنصفت ، عرفت أن أحوال أكثر الخلق كذلك ، فإنهم يأتون بجميع وجوه الحيل ، في تحصيل الدنيا ، ويفرحون بوجدان مطلوبهم ، ثم يحبون أن يحمدوا بأنهم من أهل العفاف والصدق والدين ، فعلى العاقل أن لايتعدى طوره ولا يفرح بما ليس فيه ، فإنه لا يغني عنه شيأ ، قال بعضهم : الناس يمدحونك لما يظنون فيك من الخير والصلاح ، اعتباراً بما يظهر من ستر الله عليك ، فكن أنت ذامّاً لنفسك ، لما تعلمه منها من القبائح ، والمؤمن إذا مدح استحيى من الله ، أن يثني عليه بوصف لا يشهده من نفسه ، وأجهل الناس من يترك يقين ما عنده من صفات نفسه التي لا شكَّ فيها ، لظنٍّ ما عند الناس من صلاحية حاله ، قال الحارث المحاسبي رحمه الله : الراضي بالمدح بالباطل ، كمن يهزأ به ، ويقال إن العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة كرائحة المسك ، ويفرح بذلك ويرضى بالسخرية به ، والعارف هو الذي يستوي قلبه في المدح والذم ، لا ينقبض من الذم ، ولا ينبسط من المدح ، وكيف ينبسط مما يقوله الخلق ، من هو أعرف بحال نفسه ؟ وإن انبسط فهو المغرور ، قال الشيخ ابو عبد الله القرشي رحمه الله : شكا بعض الناس لرجل من الصالحين ، أنه يعمل البرَّ ولا يجد

حلاوته في القلب ، فقال : لأن عندك ابنة إبليس في قلبك ، وهي الدنيا ولابد للأب أن يزور ابنته في بيتها وهو قلبك ، ولا يورث دخوله إلا فساداً قال الله « يا داود إن كنت تحبني فأخرجْ حب الدنيا من قلبك ، فأن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب أبداً » وروى أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه : لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم ، قالوا : ومن الموتى ؟ قال الراغبون في الدنيا ، المحبون لها ﴿ **إنّ في خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ** ﴾ وذلك أن أهل مكة سألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام أن يأتيهم بآية لصحة دعواهم ، لأنه كان يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فنزلت ، أي إن فيما خلق الله في السموات من الشمس والقمر والنجوم ، وما خلق الله في الأرض من الجبال والبحار والأشجار والوحوش والطيور ﴿ **واخْتِلافِ اللّيلِ والنّهار** ﴾ يعني ذهاب الليل ومجيء النهار ، أو في تفاوتها بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه بازدياده ، باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا ، قرباً وبعداً بحسب الأزمنة ﴿ **لآياتٍ لأُوْلِي الألْبابِ** ﴾ لعبراً كثيرة ، لذوي العقل الخالص من شوائب الأوهام والخيالات ، واللُّب : خالص العقل ، فإن العقل له ظاهر وله لب ، ففي أول الأمر يكون عقلاً ، وفي حال كماله ونهاية أمره يكون لُبّاً ﴿ **الّذينَ يذْكُرونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنوبِهِمْ** ﴾ أي يذكرونه دائماً على الحالات كلها ، قائمين ، وقاعدين ، ومضطجعين ، فإن الإنسان لا يخلو عن هذه الهيآت غالباً ﴿ **وَيَتَفَكّرُون في خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ** ﴾ يعني يعتبرون في خلقها ، وإنما خصص التفكر بالخلق لقوله عليه السلام « تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق »[1] وإنما نهى عن التفكر في الخالق ، لأن معرفة حقيقته المخصوصة غير ممكنة للبشر ، فلا فائدة لهم في التفكر في ذات الخالق ، ولما كان الإنسان مركبا من النفس والبدن كانت العبودية بحسب النفس وبحسب البدن فأشار إلى عبودية البدن بقوله ﴿ **الذين يذكرون الله** ﴾ الخ فإن ذلك لا يتم إلا باستعمال الجوارح والأعضاء ، وأشار إلى عبودية القلب والروح بقوله ﴿ **وَيَتفكّرُوْن في خَلْقِ السّمواتِ والأَرْضِ** ﴾ روي عن عطاء بن أبي رباح قال : دخلت مع ابن عمر ، وعبيد بن عمر ، على عائشة رضي الله عنها . فسلمت عليها ، فقالت : من هؤلاء ؟ فقلت : عبيد الله بن عمر فقالت مرحباً بك يا عبيد الله بن عمر ، مالك لا تزورنا ؟ فقال عبيد الله « زرْغِبّاً تزددْ حباً » قال ابن عمر : دعونا من هذا ، حدّثينا بأعجبِ ما رأيت من رسول الله عليه السلام ، فبكت بكاء شديداً ، فقالت : كلُّ أمره عجيب ، أتاني في ليلتي فدخل في فراشي ، حتى ألصق جلده بجلدي ، فقال (يا عائشةُ أتأذنين لي أن أتعبد لربي) ؟ فقلت : والله إني لأحب قربك وهواك ، قد أذنت لك ، فقام إلى قربة من ماء ، فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى وهو قائم حتى بلغ

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية بلفظ : « تفكّروا في خلق الله ولا تفكّروا في الله » وانظر الفتح الكبير ٢ / ٣٥ .

الدموع حقويه ، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض ، ثم لما انتهى من صلاته اتكأ على شقه الأيمن ووضع يده اليمنى تحت خدِّه الأيمن فبكى، ثم أتاه بلال بعدما أذَّن للفجر، يُؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال لم تبكي يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال:« يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً؟ وما لي لا أبكي وقد أنزلت عليَّ الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ثم قال: ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها »[1] وفي الحديث:«تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة[2]. وفي التفضيل وجهان: أحدهما أن التفكر يوصلك إلى الله، والعبادة توصلك إلى ثواب الله ، والذي يوصلك إلى الله خير مما يوصلك إلى غير الله ، والثاني أن التفكر عمل القلب ، والطاعة عمل الجوارح ، والقلبُ أشرف من الجوارح ، فكان عمل القلب أشرف من عمل الجوارح ، ثم شرع في تعليم الدعاء ، تنبيهاً على أن الدعاء إنما يجدي إذا كان بعد تقديم الوسيلة ، وهي إقامة وظائف العبودية من الذكر والفكر فقال ﴿ رَبَّنَا ﴾ يعني يتفكرون ويقولون ربنا ﴿ مَا خَلَقْتَ هَذَا ﴾ أي السموات والأرض ﴿ بَاطِلاً ﴾ أي خلقا باطلاً عبثاً ، ضائعاً عن الحكمة ، خالياً عن المصلحة ، بل منتظماً لحكم جليلة ، ومصالح عظيمة ، من جملتها أن يكونا مداراً لمعايش العباد ، ومناراً يرشدهم إلى معرفة أحوال المبدأ والمعاد ، حسبما أفصحت عنه الرسل والكتب الآلهية ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي نُنزهك عما لا يليق بك ، من الأمور التي من جملتها خلق مالا حكمة فيه ﴿ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أي من عذاب النار ، الذي هو جزاء الذين لا يعرفون الله ، وفيه إشارة إلى عظم ذكر الله ، وإشارة إلى ثلاث مراتب : أولاها الذِّكرّ باللسان ، وثانيتها التفكر بالقلب ، وثالثتها المعرفة بالروح ، لأن ذكر اللسان يوصل صاحبه إلى ذكر القلب ، فهو التفكر في قدرة الله ، وذكر القلب يوصل إلى مقام الروح ، فيعرف في ذلك حقائق الأشياء ، ويشاهد الحِكَم الآلهية في خلق الله ، فيقول بعد المشاهدة : ﴿ رَبّنا ما خَلَقْتَ هَذَا باطِلاً ﴾ فينبغي للمؤمن أن يلازم ذكر الله بلسانه ، في جميع الأحوال حتى يصل بسبب الذكر باللسان إلى ذكر القلب ، ثم إلى ذكر الروح ، ويحصل له اليقين والمعرفة ، ويخلص من ظلمة الجهل، ويتنور بنور المعرفة ، واعلم أن الآية تدل على جواز ذكر الله تعالى قائماً ، ولهذا قال بعضهم : ولا بأس أن يقوموا ترويحاً لقلوبهم ، ولا يتحركوا في ذلك، ولا يستظهروا بحال ليس عندهم منه حقيقة ، والحاصل أن الذكر إذا قرن بالآداب ، فليس له وضع مخصوص ، يجوز قائماً ، وقاعداً ، ومضطجعاً ، ولكن ورد في الأحاديث ما يدل على استحباب الإخفاء في ذكر الله ، وذكر شارح الكشاف أن هذا بحسب المقام ، والشيخ المرشد يأمر المبتدىء برفع الصوت ، لتنقلع عن قلبه الخواطر الراسخة فيه ، ويوافقه ما ذكر في المظهر حيث قال : الذكر برفع الصوت جائز بل مستحب ، إذا لم يكن عن رياء ، ليرغِّب الناس بإظهار الدين

(١) الحديث أخرجه ابن مردويه وعبد بن حميد ، وانظر تفسير الحافظ ابن كثير ١ / ٣٤٨ .

(٢) الحديث أخرجه أبو الشيخ في العظمة ، وأخرجه الديلمي بلفظ : « تفكر ساعة خيرٌ من عبادة ثمانين سنة » اهـ وانظر الدر المنثور ٢ / ١١١ .

ووصول بركة الذكر إلى السامعين ، في الدور والبيوت والحوانيت ، ويوافق الذاكر من سمع صوته ، ويشهد له يوم القيامة كل رطب ويابس سمع صوته كما ورد في المؤذّن ، وبعض المشايخ اختار الإخفاء لأنه أبعد عن الرياء ، وهذا يتعلق بالنية ، فمن كانت نيته صادقة ، فرفع صوته بقراءة القرآن والذكر أولى ، ومن خاف من نفسه الرياء ، الأولى له إخفاء الذكر ، لئلا يقع في الرياء انتهى . قيل : إذا كان وحده فإن كان من الخواص فالإخفاء في حقه أولى ، وإن كان من العوام فالجهر في حقه أولى ، وإذا كانوا مجتمعين على الذكر ، فالأولى في حقهم رفع الصوت بالذكر ، فإنه أكثر تأثيراً في رفع الحجب ، ومن حيث الثواب ، فلكل واحد ثواب ذكر نفسه ، وسماع ذكر رفقائه[1].

﴿ رَبّنا إنّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّارِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ غاية الإخزاء والمراد به تهويل المستعاذ منه ، تنبيهاً على شدة خوفهم وطلبهم الوقاية منه ﴿ ومَا لِلظّالِمينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أي وما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار ، والمراد به من ينصره بالمدافعة والقهر ، فليس في الآية دلالةٌ على نفي الشفاعة ، لأن نفي النصرة لا يستلزم نفي الشفاعة ﴿ رَبّنا إنّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي للإيمانِ ﴾ المراد به الرسول عليه السلام ، فإنه ينادي ويدعو إلى الإيمان حقيقة قال تعالى (أُدْعُ إلىٰ سَبيلِ رَبّكَ) ﴿ أَنْ آمِنوا ﴾ أي آمنوا على أنْ « أنْ » تفسيرية ، أو بأن آمنوا على أنها مصدرية ﴿ بِرَبّكُمْ ﴾ بالكلم ومتولي أموركم ومبلغكم إلى الكمال ﴿ فآمَنّا ﴾ أي فامتثلنا أمره ، وأجبنا نداءه ﴿ رَبّنا فاغْفِرْ لَنَا ذُنوبَنا ﴾ أي كبائرنا فإن الإيمان يجبُّ ما قبله ﴿ وَكَفِّرْ عَنّا سَيِّئاتِنَا ﴾ أي صغائرنا فإنها مكفرة عن مجتنب الكبائر ﴿ وَتَوَفّنا ﴾ أي اقبض أرواحنا ﴿ مَعَ الأَبْرارِ ﴾ أي بصحبتهم ، مغتنين بجوارهم ، معدودين من زمرتهم ، فالمراد من المعية ليس المعية الزمانية ، بل المراد المعية في الاتصاف بصفة الأبرار حال التوفي ، وفيه إشعار بأنهم كانوا يحبون لقاء الله ، ومن أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه ، فطوبى للذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وطوبى لمن اتعظ بالموعظة الحسنة .

حكي أن حداداً كان يمسك الحديد المحمي بيده ، فسئل عن ذلك ، فقال : عشقتُ امرأة فراودتها وعرضت عليها مالاً ، فقالت إن لي زوجاً لا أحتاج إلى المال ، ثم مات زوجها فطلبتُ أن أتزوجها فامتنعت ، وقالت : لا أريد إذلال أولادي ، ثم بعد زمان احتاجت فأرسلت إليَّ فقلت : لا أعطيك شيأ حتى تعطيني مرادي ، فلما دخلت معها موضعاً ارتعدت ، فقلت مالك ؟ فقالت أخاف الله السميع البصير فتركتها ، فقالت أنجاك الله من النار ، فمن ذلك الوقت لا تحرقني نار الدنيا ، وأرجو من الله تعالى أن لا

(١) مما يؤيد جواز الذكر بالجماعة ما جاء في الصحيح : « أنا عند ظنّ عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملاءٍ خير من ملئه .. » الحديث أخرجه البخاري ومسلم . وحديث : « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلُمّوا إلى حاجتكم ، فيحفُّونهم بأجنحتهم .. » الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

تحرقني نار الآخرة ، فمن خشي الرحمن وذكر أنه بمحضر من الله ، فهو لا يجترىء على الذنب والآثام ، فيسلم من عذاب النار ، ويتنعم في دار السلام ، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل همّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه الله من حيث لا يحتسب[1]) وأما الدعاء فهو مخ العبادة ، وينفع في الدنيا فيدفع الآفات ، وأما في الآخرة فإن الله تعالى يعطيه هدايا على أيدي الملائكة ويقول : إن هذه في مقابلة دعائك في الدنيا .

﴿ رَبَّنَا وَآتِنا ﴾ أعطنا ﴿ ما وَعَدْتَنا عَلىٰ رُسُلِكَ ﴾ على ألسنة رسلك من الثواب والكرامة ﴿ ولا تُخْزِنا ﴾ لا تُهنّا ﴿ يَوْمَ القِيَمةِ ﴾ بأن تعصمنا مما يقتضيه ﴿ إنّكَ لا تُخْلِفُ المِيعادَ ﴾ اسم مصدر بمعنى الوعد ، وهذا الدعوات من كمال الضراعة والابتهال ، لخوفهم أن لا يكونوا من جملة الموعودين ، لقصورهم في الامتثال، فمرجعها إلى الدعاء بالتثبيت ، أو للمبالغة في التعبد والخشوع ، فليسارع المؤمن إلى الطاعات ، ليدخل في زمرة من وعد الله لهم من الكرامات ، عن جابر رضي الله عنه كنا عند رسول الله ﷺ فقال : (ألا أحدثكم بغرف الجنة ؟ قلنا بلى يا رسول الله قال : إن في الجنة غرفاً يُرَى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، وفيها من النعيم واللذات مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، قلت يا رسول الله : لمن هذه الغرف ؟ قال : لمن أفشى السلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام)[2] وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال « آخر من يدخل الجنة ، رجل يمشي مرة ويسقط أخرى ، وتأخذه النار ، فإذا جاوزها التفت إليها ويقول : سبحان من نجاني منك ، قد أعطاني شيأ ما أعطاه لأحد من الأولين والآخرين ، فيرفع له شجرة عظيمة الظل ، فيشتاق إلى ظلها فيقول : أي رب أدنني منها ولا أسألك غيرها ، فيدنيه منها ويشرب من مائها ، ثم يرفع له شجرة أعظم من الأولى فيقول أي رب : ادنني منها ويعاهد أن لا يسأل غيرها ، فيدنيه منها فيرفع له شجرة أعظم مما تقدم فيسأله أن يدنيه ، فإذا أدنى سمع أصوات أهل الجنة ويقول : أي رب لو أوصلتني لها ، لا أسألك غيرها فيقول الله يا ابن آدم ما أغدرك ؟ كم تعاهد وتكذب ؟ أترضى أن أعطيك مثل الدنيا ومثلها فيقول : أتستهزىء بي وأنت رب العالمين ؟ ثم ضحك ابن مسعود ، فقالوا : مم تضحك ؟ فقال هكذا ضحك رسول الله ﷺ ، فقالوا ممّ تضحك يا رسول الله ؟ قال من ضحك رب العالمين ، فيقول الله : لا أستهزىء ولكني على ما أشاء قادر »[3] وقال النبي عليه السلام « ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا شيأ قدّمه ، ثم ينظر عن يساره فلا

(١) الحديث أخرجه أبو داود وابن ماجه في السنن ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٣٧ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وأحمد في المسند .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود في السنن .

يرى إلا شيأ قدمه ، فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل »[1] حكي أن عجوزاً كافرة كانت تطعم الطير ذرة في أيام الشتاء ، فرآها ذو النون المصري ، فقال : إن الله تعالى لا يقبل من عدوٍّ كافر ، ثم رآها في الكعبة وقد أسلمت ، فقالت : يا ذا النون إنه أعطاني الإسلام بما رأيتَه .

﴿ فاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي أجابهم إلى طلبهم ، فاستجاب إنما يقال لتحصيل المطلوب ﴿ أَنِّي ﴾ أي بأني ﴿ لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ﴾ وهو ما حكى عنهم من المواظبة على ذكر الله تعالى والتفكر في مصنوعاته ، والاشتغال بالدعاء ، وجعل هذه الأعمال سبباً للاستجابة ، يدل على أن استجابة الدعاء ، مشروطة بهذه الشروط وبهذه الأمور ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ هذا يدل على أنه لا تفاوت في الإجابة وفي الثواب بين الذكر والأنثى ، إذا كانا جميعاً في التمسك بالطاعة ، والفضلُ في باب الدين بالأعمال ، لا بسائر صفات العالمين ، لأن كون بعضهم ذكراً أو أنثى ، أو من نسبٍ خسيس أو شريف ، لا تأثير له في هذا الباب ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ لأن الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، روت أم سلمة قالت يا رسول الله : إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء ، فنزل قوله تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ ﴾ الآية[2] أي كما أن بعضكم من بعض ، كذلك أنتم في ثواب العمل ، تثاب المرأة كما يثاب الرجل وبالعكس ، فلا أثيب بعضاً وأحرم آخر ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ تفصيل لأعمال العمال منهم ، وما أعد لهم من الثواب على المدح والتعظيم ، كأنه قال : فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفائقة ، وهي المهاجرة من أوطانهم ، فارّين إلى الله بدينهم ، من دار الفتنة ﴿ وَأُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ ﴾ أي اضطروا إلى الخروج من ديارهم بإيذاء المشركين ، ﴿ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي ﴾ في سبيل الحق ودين التوحيد ، بسبب إيمانهم بالله وهو متناول لكل أذية نالتهم من قِبَلِ المشركين ﴿ وَقَاتَلوا ﴾ أي الكفار في سبيل الله ﴿ وَقُتِلوا ﴾ استشهدوا في القتال ﴿ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُم سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي والله لأمحوَنَّ عنهم سيآتهم ﴿ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ ثَواباً ﴾ الثواب في الأصل اسم لما يثاب به ، كالعطاء اسم لما يعطى ، إلا أنه قد يوضع موضع المصدر فهو مصدر مؤكد بمعنى إثابة،لأن تكفير السيآت وإدخال الجنة في معنى الإثابة أي لأثيبنَّهم بذلك إثابة ﴿ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ أي كائنة من عند الله ، قُصد به تعظيم شأنه ، فإن السلطان العظيم الشأن ، إذا قال لعبده : ألبسك خلعة من عندي ، دلَّ ذلك على كون تلك الخلعة في غاية الشرف ، وأكد كون ذلك الثواب في غاية الشرف بقوله ﴿ واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ ﴾ أي حسن الجزاء على الطاعات ، وهو نعيم الجنة الباقي ، لا كنعيم الدنيا الفاني ، ولا يخفى أن هذا الجزاء العظيم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه .

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ١ / ٣٤٨ وانظر أسباب النزول للواحدي .

والأجر الجسيم ، للذين جمعوا بين المهاجرة ، والإخراج من الأوطان ، والتأذي في سبيل الله ، قال الحسن البصري : يا عجباً لأقوام بلا زاد ، وقد نودوا بالرحيل ، وحبس أولهم لآخرهم وهم قعود يلعبون ، حكي أن ملك الموت دخل على بعض الصالحين ليقبض روحه ، فقال : مرحباً أنا والله منذ خمسين سنة أتأهب لك ، ولما بلغ عبد الله بن المبارك النزع فتح عينيْهِ ثم ضحك فقال « لِمثْلِ هَذا فلْيعْمَلِ العَاملونَ » قال بعض العلماء : من أراد أن ينال الجنة فعليه أن يداوم على خمسة أشياء : **الأول** : أن يمنع نفسه من المعاصي قال الله تعالى (**وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوى . فإنّ الجَنّةَ هي المَأْوَىٰ**) **والثاني** : أن يرضى باليسير من الدنيا . **والثالث** : أن يكون حريصاً على الطاعات قال تعالى (**وَتِلْكَ الجَنّةُ التي أُوْرِثْتُموها بما كُنْتُمْ تَعْملونَ**) **والرابع** : أن يحب الصالحين وأهل الخير ، ويخالطهم ويجالسهم ، فإن الصالح إذا غفر له يشفع لإخوانه وأصحابه ، **والخامس** : أن يكثر الدعاء ويسأل الله تعالى أن يختم له بخير ، والحاصل أنه لابد للعاقل من التأهب لمعاده ، بتزكية النفس وإصلاح القلب .

﴿ **لاَ يَغُرَّنَّكَ** ﴾ الخطاب للنبي عليه السلام لأن العصمة لا تزيل النهي ، والمراد تثبيته على ما هو عليه من عدم التفاته إلى الدنيا ، أو الخطاب له والمراد أمته ، كما يخاطب سيد القوم ومقدَّمهم، والمرادبه كلهم كأنه قيل لا يغرنكم ﴿ **تَقَلُّبُ الذّين كَفَروا في البِلادِ** ﴾ النهي للمخاطب ، والمعنى : لا تمدنَّ عينيك ولا تستشرف نفسك ، إلى ما هم عليه من سعة الرزق ، وإصابة حظوظ الدنيا ، ولا تغتر بظاهر حالهم من التبسط والتصرف في البلاد ، يتكسبون ويتجرون ، روي أن بعض المؤمنين ، كانوا يرون المشركين في رخاء ولين عيش ، فيقولون : إن أعداء الله فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهد !! فنزلت ﴿ **مَتَاعٌ قَليلٌ** ﴾ أي ذلك التقلب متاع قليل ، لا قدر له في جنب ما أعد الله للمؤمنين ، قال عليه السلام : « ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمّ ، فلينظرْ بم يرجع ؟ »[1] ﴿ **ثُمَّ مأْوٰيهُمْ** ﴾ أي مصيرهم الذي يأوون إليه لا يبرحونه ﴿ **جَهَنّمُ** ﴾ التي لا يوصف عذابها ، يعني أنه مع قلته ، سبب الوقوع في نار جهنم ، أبد الآباد ، والنعمة القليلة إذا كانت سبباً للمضرة العظيمة ، لم تُعدَّ نعمة ﴿ **وَبِئْسَ المِهادُ** ﴾ أي بئس ما يمهدون لأنفسهم جهنم ﴿ **لَكِنِ الذّينَ اتّقَوا رَبَّهُمْ** ﴾ أي خافوه فلم يخالفوا أمره ولا نهيه ﴿ **لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْري مِنْ تَحتِها الأنْهارُ خَالدينَ فيها** ﴾ وجه الاستدراك أنه تعالى لما وصف الكفار بقلة نفع تقلبهم في البلاد لأجل التجارة ، وجازَ أن يتوهم متوهم أن قلة النفع من لوازم التقلب من حيث هو ، استدرك أن المتقين وإن تقلبوا وأصابوا ما أصابه الكفار أو لم يصيبوا،لهم مثوبات حسنى لا يُقَادر قدرها ﴿ **نُزُلاً مِنْ عِنْدِ الله** ﴾ والنزل ما يعد

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه .

للنازل ، من طعامٍ وشرابٍ وغيرهما ﴿ وما عِنْدَ اللهِ ﴾ لكثرته ودوامه ﴿ خَيْرٌ للأبْرارِ ﴾ مما يتقلب فيه الفجار ، لقلته وسرعة زواله، عن ابن مسعود رضي الله عنه«ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها أما البرة فإن الله تعالى يقول ﴿ وما عِنْدَ اللهِ خيْرٌ للأبْرارِ ﴾ وأما الفاجرة فإنه يقول (إنّما نُمْلي لَهُمْ ليزْدادُوا إثْما) » وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :« جئت فإذا رسول الله ﷺ في مشربة ، وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء ، وتحت رأسه وسادة من أدم ـ أي جلد ـ حشوها ليف ، وعند رأسه أُهُبٌ معلّقة ، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت ، فقال : ما يبكيك ؟ فقلت : يا رسول الله : إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ﷺ تنام على الحصير !! فقال : (أما ترضى أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة ؟ أولئك قوم عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، ونحن قوم أُجِّلت لنا طيباتنا إلى حياتنا الآخرة »[1] .

قال ابن عباس : « يؤتى بالدنيا يوم القيامة ، في صورة عجوز شمطاء زرقاء ، وأنيابها بادية مشوهة خلقها ، وتشرف على الخلائق ، فيقال : أتعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه ، فيقال : هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها ، وبها تقاطعتم ، وبها تحاسدتم وتباغضتم ، ثم تقذف في جهنم فتنادي يارب : أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول الله تعالى : ألحقوا بها أتباعها » قالت عائشة رضي الله عنها : قلت يا رسول الله ألا تستطعم الله فيطعمك ؟ وبكيتُ لما رأيت به من الجوع وشدِّ الحجر على بطنه من السَّغب ، فقال يا عائشة : والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يُجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئتُ من الأرض ، ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها ، وفقر الدنيا على غناها ، وحزن الدنيا على فرحها ، ياعائشة إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ، ولا لآل محمد » فعلى العبد العاقل أن يجتنب الدنيا وأخواتها ، ويرغب في الآخرة وجناتها بل يترقى إلى الوصول إلى الله تعالى ، قال أبو يزيد البسطامي في عباد الله عبدٌ ، لو أعطي الجنات بزينتها ، لهرب كما يهرب أهل النار من النار ، وهو الذي غلب عليه محبة الله ، فلا يميل إلى غيره .

﴿ وإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتابَ لَمَنْ يُؤمِنُ بِاللهِ ﴾ نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه ، كانوا نصارى فأسلموا ، وقيل : في النجاشي فإنه لما مات نعاه جبريل لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه فقال ﷺ لأصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم فصلى عليه وكبر أربع تكبيرات واستغفر له ، فقال المنافقون : أنظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني حبشي ، لم يره قط ، وليس على دينه فأنزل الله هذه الآية[2] ﴿ وما أُنْزِلَ إليْكُم ﴾ من القرآن ﴿ وما أُنزِلَ إلَيهِمْ ﴾ من الكتابين ﴿ خَاشعينَ للهِ ﴾

(١) الحديث أصله في الصحيحين من حديث عمر رضى الله عنه ، ورواه ابن ماجه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٤٩ .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢ / ١١٣ .

أي متواضعين له من خوف عذابه ، ورجاء ثوابه ﴿ لا يشْتَرونَ ﴾ لا يأخذون ﴿ بآياتِ اللهِ ﴾ المكتوبة في التوراة والإنجيل من نعت النبي عليه السلام ﴿ ثَمَناً قَليلاً ﴾ أي عَرَضاً يسيراً من حطام الدنيا خوفاً على الرئاسة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي أهل هذه الصفة ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ أي المختص بهم الموعود لهم ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ نصب على الحال والمراد به التشريف ﴿ إنّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ لنفوذ علمه بجميع الأشياء ، من غير حاجة إلى تأمل وكتب يد ، والمراد أن الأجر الموعود سريع الوصول إليهم ، فإن سرعة الحساب تستدعي سرعة الجزاء، وذكر أن إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، أراد أن يدخل الحمام ، فمنعه الحمامي وقال : لا تدخل إلا بأجرة ، فبكى إبراهيم وقال : لا يؤذن لي أن أدخل بيت الشياطين مجاناً ، فكيف بالدخول إلى بيت النبيين والصديقين مجّاناً ؟ ونعم ما قيل :

بقدر الكدّ تكتسب المعالي * ومن طلب العلى سهر الليالي
تروم العز ثم تنام ليلاً * يغوص البحر من طلب اللآلي

﴿ يَا أَيُّها الذّينَ آمنُوا اصْبِروا ﴾ على مشاق الطاعات ، وما يصيبكم من الشدائد ، كالمرض والفقر والقحط ، وغير ذلك من المشاق ﴿ وَصَابِروا ﴾ وغالبوا أعداء الله ، في الصبر على شدائد الحرب ، والمصابرة نوع خاص من الصبر ، ذكر بعد الصبر تخصيصاً لشدته وصعوبته ، وكونه أكمل وأفضل من الصبر على ما سواه ، والصبر هو حبس النفس عما لا يرضاه الله ، وأوله التصبر وهو التكلف لذلك ، ثم المصابرة وهي معارضة ما يمنعه عن ذلك ، ثم الاصطبار والاعتبار والالتزام ، ثم الصبر وهو كماله وحصوله من غير كلفة ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ أبدانكم وخيولكم في الثغور مترصدين للأعداء ، وعوّدوا أنفسكم على الطاعة كما قال عليه السلام : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط »[1] ﴿ وَاتّقُوا اللهَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحونَ ﴾ واتقوه بالتبري مما سواه ، لكي تفلحوا غاية الفلاح، وحكي عن ابراهيم بن أدهم أنه كان يسير إلى بيت الله راجلاً ، فإذا أعرابي على ناقة فقال : يا شيخ إلى أين ؟ فقال إبراهيم إلى بيت الله ، قال : كيف وأنت راجل لا راحلة لك ؟ فقال إن لي مراكب كثيرة ، فقال ما هي ؟ قال : إذا نزلتْ عليَّ بليةٌ ركبت مركب الصبر ، وإذا نزلت عليَّ نعمة ركبت مركب الشكر ، وإذا نزل في القضاء ركبت مركب الرضى ، وإذا دعتني النَّفسُ إلى شيء علمت أن ما بقي من العمر أقل مما مضى ، فقال الأعرابي : أنت الراكب وأنا الراجل ، سر في برد الله » فالاشتغال طول العمر بالمجاهدة لازم ، حتى تنقلع الأخلاق الذميمة من النفس ، وتتبدل بالأوصاف الشريفة من الصبر

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه والترمذي والنسائي وابن ماجه في السنن .

وغيره ، ومثل هذه المجاهدة هي المرابطة ، روي أن واحداً من الصلحاء كان يختم كل ليلة ، ويجتهد في العبادة ، فقيل له : إنك تتعب نفسك ، وتوقعها في المشقة ، فقال كم عمر الدنيا ؟ فقيل سبعة آلاف سنة ، فقال وكم مقدار يوم القيامة ، فقيل خمسون ألف سنة ، فقال : لو عمَّر المرء بعمر الدنيا ، لَحُقَّ له أن يجتهد في العبادة ، لهذا اليوم الطويل ، فإنه أسهل بالنسبة إليه ، وفقنا الله لطاعته ومرضاته ، وكتبنا في زمرة عباده المرابطين المجاهدين ، إنه سميع الدعاء .

انتهى بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة آل عمران





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **يا أيُّها النّاسُ** ﴾ خطاب عام يتناول الموجودين في زمان الخطاب ومن بعدهم ﴿ **اتّقوا رَبّكُمْ** ﴾ في حفظ ما بينكم من الحقوق ، وما يجب وصله ومراعاته ، ولا تضيعوه ولا تقطعوا ما أُمرتم بوصله ﴿ **الذّي خَلَقَكُمْ** ﴾ أي قدر خلقكم على اختلاف صوركم وألوانكم ﴿ **مِنْ نفْسٍ واحِدةٍ** ﴾ أي من أصل واحد وهو نفس آدم أبيكم ﴿ **وَخَلَقَ منْها** ﴾ أي من تلك النفس يعني من بعضها ﴿ **زوْجَها** ﴾ أمكم حواء بالتخليق من ضلع من أضلاعه اليسرى،روي أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام ، وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم ، فبينما هو بين النائم واليقظان ، خلق حواء من قصيراه ، فلما انتبه وجدها عنده فمال إليها وألفها ، لأنها كانت مخلوقة من جزء من أجزائه ، وأُخّرت حواء في الذكر ، وإن كانت مقدمة في الخلق ، لأن الواو لا ترتيب فيها ﴿ **وَبَثّ** ﴾ أي فرّق ونشر ﴿ **مِنْهُما** ﴾ من تلك النفس وزوجها المخلوقة ، بطريق التوالد والتناسل ﴿ **رِجالاً كَثِيراً** ﴾ تذكيره للحمل على الجمع والعدد ﴿ **وَنِساءً** ﴾ أي بنين وبنات كثيرة ، وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة، لأن المراد به التمهيد للأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها،فكأنه قيل:اتقوا ربكم الذي وصل بينكم حيث جعلكم صنواناً متفرعة من أرومة واحدة ، فيما يجب لبعضكم على بعض من حقوق المواصلة التي بينكم فحافظوا عليها ولا تغفلوا عنها ﴿ **واتّقوا اللهَ** ﴾ أي لا تقطعوا في الدين والنسب ، أغصاناً تتشعب من جرثومة واحدة ﴿ **الّذي تَساءَلونَ بِهِ** ﴾ فيما بينكم حيث يقول بعضكم لبعض أسألك بالله ﴿ **والأرحامَ** ﴾ أي يسأل بعضكم بعضاً بالله فيقول بالله وبالرحم ، وأناشدك الله والرحم افعل كذا ، على سبيل الاستعطاف ، وجرت عادة العرب على أن أحدهم إذا استعطف غيره يقرن الرحم في السؤال والمناشدة بالله ويستعطف به ، فقوله والأرحامَ بالنصب أي اتقوا الله واتقوا الأرحام فصِلُوها ولا تقطعوها ، وقد نبه سبحانه إذ قرن الأرحام باسمه ، على أن صلتها بمكان منه ، وعنه ﷺ (الرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله)[1] فينبغي للعباد مراعاة الحقوق ، لأن الكل أخ لأب وأم هما « آدم وحواء » لا سيما المؤمنين ، لأن فيهم قرابة الإيمان والدين ﴿ **إنّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقيباً** ﴾ الرقيب : هو المراقب الذي يحفظ عليك جميع أفعالك ، أي حافظاً مطلعاً على جميع ما يصدر عنكم من الأفعال والأقوال ، وعلى ما في ضمائركم من النيات ، فبيَّن تعالى أنه يعلم السر وأخفى ،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم واللفظ له ، وأخرجه البخاري بلفظ (خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فقالت يارب : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟!) الحديث .

فيجب أن يكون المرء حذراً ، خائفاً فيما يأتي ويذر ، واعلم أن التقوى هي العمدة ، وهي سبب الكرامة العظمى في الدنيا والعقبى . حكي أنه كان بالبصرة رجل معروف بالمسكي ، لأنه كان يفوح منه رائحة المسك ، فسئل عنه فقال : كنت من أحسن الناس وجهاً ، وكان لي حياء ، فقيل لأبي : لو أجلسته في السوق لانبسط مع الناس ، فأجلسني في حانوت بزارٍ فجاءت عجوز وطلبت متاعاً ، فأخرجت لها ما طلبت ، فقالت : لو توجهت معي لثمنه ، فمضيت معها حتى أدخلتني في قصر عظيم ، فيه قبة عظيمة ، فإذا فيها جارية على سرير عليه فرش مذهبة ، فجذبتني إلى صدرها ، فقلت : الله الله فقالت لا بأس ، فقلت : إني حازق فدخلت الخلاء وتغوطتُ ومسحت به وجهي وبدني ، فقيل : إنه مجنون فخلصت منها ، ورأيت في منامي رجلاً قال لي أين أنت من يوسف بن يعقوب ؟ ثم قال أتعرفني ؟ قلت : لا . قال : أنا جبريل ، ثم مسح بيده على وجهي وبدني ، فمن ذلك الوقت يفوح المسك عليَّ من رائحة جبريل عليه السلام ، وذلك ببركة التقوى ، والتقوى في عرف الشرع : وقايةُ النفس عما يضرها في الآخرة وهي على مراتب : **الأولى** : التوقي عن العذاب المخلد ، بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى : (**وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى**) . **والثانية** : التجنب عن كل إثم ، وهو المتعارف باسم التقوى ، وهو المعنيُّ بقوله تعالى (**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا**) **والثالثة** : التنزه عن جميع ما يشغله عن الله ، وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى (**اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**) ومن هذا القبيل ما حكي عن ذي النون المصري ، أنه لما جاء إليه بعض الوزراء وطلب الهمة ، وأظهر الخشية من السلطان ، قال له : لو خشيت أنا من الله ، كما تخشى أنت من السلطان لكنت من جملة الصديقين ، فينبغي للمؤمن أن يتقي ربه ، ويراقب الله في جميع أحواله كما قال تعالى ﴿ **إِنَّ اللهَ كَانَ عليْكُم رَقيباً** ﴾ والمراقبة : علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه ، فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، وهذا أصل كل خير ، ولا يكاد يصل إلى هذه الرتبة ، إلا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف ، وأصلح حاله في الوقت ، لازم طريق الحق ، وأحسن ما بينه وبين الله ، من مراعاة القلب ، وحفظه مع الله الأنفاسَ ، وراقب الله سبحانه في عموم أحواله ، فيعلم أنه عليه رقيب ، ومن قلبه قريب ، يعلم أحواله ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله ، ومن تغافل عن هذه الجملة ، فهو بمعزل عن بداية الوصلة ، فكيف عن حقائق القربة ؟ كان بعض الصالحين له تلامذة ، وكان يخصُّ واحداً منهم بإقباله عليه أكثر مما يُقْبِل على غيره ، فقالوا له في ذلك ، فقال : أبيّن لكم ، فدفع لكل واحد من تلامذته طائراً ، وقال له اذبحه بحيث لا يراك أحد ، ودفع إلى هذا أيضاً ، فمضوا ورجع كل واحد منهم ، وقد ذبح طيره ، وجاء هذا بالطير حياً ، فقال له : هلاَّ ذبحته ؟ فقال أمرتني أن أذبحه بحيث لا يراه أحد ، ولم أجد موضعاً لا يراه أحد ، فحيثما ذهبتُ فعين الله تراني ، فقال لهذا أخصُّه بإقبالي عليه .

﴿ وآتوا اليَتامىٰ أَمْوالَهُمْ ﴾ اليتامى : جمع يتيم وهو المنفرد عن الأب بموته ، وحق هذا الاسم أن يقع على الصغير والكبير ، لبقاء معنى الانفراد عن الأب ،إلا أنه غلب استعماله في الصغير ، لاستغناء الكبير بنفسه عن الكافل ، والمعنى أيها الأولياء والأوصياء احفظوا أموال اليتامى ، ولا تتعرضوا لها بسوء وسلّموها إليهم ، وقت استحقاقهم تسليمها إليهم ﴿ ولاَ تَتَبدَّلوا الخَبيثَ بالطَّيِّبِ ﴾ تبدل الشيء بالشيء واستبداله به : أخذُ الأول بدل الثاني ، بعد أن كان حاصلاً له أي لا تستبدلوا الحلال المكتسب ، بالحرام المغتصب ، يعني لا تستبدلوا مال اليتامى وهو حرام ، بالحلال وهو مالُكم ، وما أبيح لكم من المكاسب ورزق الله المبعوث في الأرض فتأكلوه مكانه ﴿ ولا تأْكُلوا أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوالِكُمْ ﴾ المراد من الأكل التصرف ، لأن أكل مال اليتيم كما يحرم ، فكذا سائر التصرفات المهلِكَةِ لتلك الأموال محرمة ، وإنما ذكر الأكل لأنه معظم ما يقع لأجله التصرف ، و« إلى » بمعنى « مع » قال تعالى (مَنْ أَنْصارِي إلى اللهِ) أي مع الله ، والأصح أن المعنى لا تأكلوها مضمومة إلى أموالكم ، ولا تسوُّوا بينهما وهذا حلال وذاك حرام ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الأكل المفهوم من النهي ﴿ كانَ حُوباً كَبِيراً ﴾ أي ذنباً عظيماً عند الله ، روي أن رجلاً من بني غطفان ، كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه ، فترافعا إلى النبي عليه السلام ، فنزلت هذه الآية[1]، فلما سمع العم قال : أطعنا الله وأطعنا الرسول ، نعوذ بالله من الحوب الكبير ، فدفع إليه ماله .

وقوله تعالى ﴿ وآتوا اليَتامىٰ أَمْوالَهُمْ ﴾ تزكية من آفة الحرص والحسد ، والدناءة والخسة والطمع ، وتحلية بالأمانة وسلامة الصدر ، وقال ﴿ ولا تأْكُلوا أَمْوالَهُمْ إِلىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ تزكية من الجور والحيف والظلم ، وتحلية بالعدل والإنصاف ، فعلى العاقل أن يزكي نفسه من الأخلاق الرديئة ، ولا يطمع في حق أحد جلَّ أو قلَّ ، بل يكون سخياً باذلاً على الأرامل والأيتام ، ويراعى حقوقهم بقدر الإمكان،روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال عندي يتيم ممَّ أضربه ؟ قال : « مما تضرب ولدك » يعني لا بأس أن تضربه للتأديب ضرباً غير مبرِّحٍ ، مثل ما يضرب الوالد ولده ، وروي عن الفضيل بن عياض أنه قال : ربَّ لطمةٍ أنفع لليتيم من أكلة خبيص ، قال في كتاب تنبيه الغافلين : إن كان يقدر أن يؤدبه بغير ضرب ، ينبغي أن يفعل ذلك ولا يضْرِبَه ، فإن ضرب اليتيم أمر شديد ، وفي الحِكَم : كن لليتيم كالأب الرحيم ، واعلم أنك كما تزرع تحصد * واعلم ان المرأة الصالحة لزوجها كالملك المتوّج بالذهب كلما رآها قرت عينه،والمرأة السوء لبعلها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير .

﴿ وإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لا تُقْسِطُوا في اليَتامىٰ ﴾ الإقساط : العدلُ ، والمراد بالخوف : العلمُ بوقوع الجور ،

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ، وتفسير القرطبي ، والألوسي ، وصفوة التفاسير .

لا الخوف منه ، وسبب النزول أنهم كانوا يتزوجون من يحل لهم من اليتامى ، اللاتي يلونهن لالرغبة فيهن بل في مالهن ، ويسيئون في الصحبة والمعاشرة ، ويتربصون بهن أن يمتن فيرثوهن ، وقيل : هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في مالها وجمالها ، ويريد أن ينكحها بأدنى من سنة نسائها ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن في إكمال الصداق ، وأمروا أن ينكحوا من سواهن من النساء ، والمعنى وأن خفتم أن لا تعدلوا في حق اليتامى إذا تزوجتم بهن ، بإساءة العشرة أو بنقص الصداق ﴿ **فَانْكِحُوْا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ** ﴾ أي غير اليتامى ، بشهادة قرينة المقام ، أي فانكحوا من استطابتها نفوسكم من الأجنبيات ﴿ **مثْنٰى وَثُلاثَ وَرُباعَ** ﴾ أي فانكحوا الطيبات لكم معدودات هذا العدد ، ثنتين ثنتين ، وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً أربعاً حسبما تريدون ، ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لا تَعْدِلوا** ﴾ أي فيما بينهنَّ ولو في أقل الأعداد المذكورة كما خفتموه في حق اليتامى ، أو كما لم تعدلوا فيما فوق هذه الأعداد ﴿ **فوَاحِدَةً** ﴾ أي فالزموا أو فاختاروا واحدة ، وذروا الجمع بالكلية ﴿ **أَوْمَا** ﴾ ولم يقل « من » إيذاناً بقصور رتبة الإماء عن رتبة الحرائر ﴿ **مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ أي من السراري بالغةً ما بلغت من مراتب العدد ، وإنما سوى في السهولة واليسر بين الحرة الواحدة ، وبين السراري من غير حصر في عدد ، لقلة تبعتهنَّ ، وخفة مؤنهن ، وعدم وجوب القسم فيهن ﴿ **ذلكَ** ﴾ إشارة إلى اختيار الواحدة ﴿ **أَدْنى أَنْ لا تَعُوْلُوا** ﴾ العولُ : الميلُ من قولهم : عال الميزان عولاً إذا مال ، وعال في الحكم جار ، والمراد ههنا الميل المحظور المقابل للعدل أي ما ذكر من اختيار الواحدة والتسري ، أقرب بالنسبة إلى ما عداهما من أن لا يميلوا ميلاً محظوراً ﴿ **وآتُوا النِّسَاءَ** ﴾ أي اللاتي أمر بنكاحهن ﴿ **صَدُقَاتِهِنَّ** ﴾ جمع صدقة وهي المهر ﴿ **نِحْلَةً** ﴾ فريضة من الله لأنها مما فرضه الله في النحلة أي الملة والشريعة والديانة من جهة الأزواج ، من نَحَله إذا أعطاه إياه ، ووهبه له عن طيب نفسه نحلة ونحلاً ، والتعبيرُ عن إيتاء المهور بالنِّحلة ، مع كونها واجبة على الأزواج ، لإفادة معنى كمال الرضى وطيب الخاطر ، كأنه قيل : وانحلوا النساء صدقاتهن نحلة أي أعطوهنَّ مهورهنَّ عن طيبة أنفسكم ، فالخطاب للأزواج ، وقيل : للأولياء لأنهم كانوا يأخذون مهور بناتهم ، وكانوا يقولون : هنيئاً لك النافجة ، لمن يُولد له بنت ، يعنون تأخذ مهرها فتنفج به مالك أي تُعَظِّم ﴿ **فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ** ﴾ الضمير للصدقات وفيه بعث لهن إلى تقليل الموهوب ﴿ **نَفْساً** ﴾ أي وهبن لكم شيأ من الصداق ، عن نفوس طيبات ، غير خبيثات ، بما يضطرهن إلى البذل ، من شكاية أخلاقكم وسوء معاشرتكم ﴿ **فَكُلُوْهُ** ﴾ أي فخذوا ذلك الشيء ، الذي طابت به نفوسهن وتصرفوا فيه تملكاً ﴿ **هَنِيئَاً مَرِيئَاً** ﴾ صفتان من هنأ الطعام ومرأ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه ، أي أكلاً هنيئاً مريئاً وهذه عبارة عن التحليل والمبالغة في الإباحة وإزالة التبعة ، روي أن ناساً كانوا يتأثمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيأ مما ساقه إليها فنزلت ، وفي الآية دليل على وجوب الاحتياط ، حيث بنى الشرط على

طيب النفس ، ولذا قيل يجوز الرجوع بما وهبن إن خُدِعْنَ من الأزواج ، وبيان لجواز معروفها وترغيب في حسن المعاشرة بينهما ، فإن خير الناس خيرهم لأهله وأنفعهم لعياله ، وقد رُوي « جهاد المرأة حسن التبَعُّل » وكانت المرأة على عهد السلف الصالح تستقبل زوجها إذا دخل وتقول : « مرحباً بسيدي وسيد أهل بيتي ، وتقصد إلى أخذ ردائه فتأخذه من عنقه ، وتعمد إلى نعله فتخلعه ، فإن رأته حزيناً قالت : ما يحزنك ؟ إن كان حزنك لآخرتك فزادك الله صلاحاً ، وإن كان لدنياك فكفاك الله منها » وعلامة الزوجة الصالحة عند أهل الحقيقة ، أن يكون حسنها مخافة الله ، وغناها القناعة ، وحليها العفة أي التكفف عن الشرور والمفاسد ، وعبادتها بعد الفرائض حسن الخدمة للزوج ، وهمّتها الاستعداد للموت .

﴿ **ولا تُؤْتُوا** ﴾ أيها الأولياء ﴿ **السُّفَهَاءَ** ﴾ أي المبذرين من الرجال والنساء ، والصبيان واليتامى ﴿ **أَمْوالَكُمْ** ﴾ أضاف الأموال إلى الأولياء تنزيلاً لاختصاصها بأصحابها منزلة اختصاصها بالأولياء ، فكأن أموالهم عين أموالهم ، لما بينهم من الاتحاد الجنسي والنسبي ، مبالغة في حملهم على المحافظة عليها ، وقد أيد ذلك بجعلها مناطاً لمعاش الأولياء بقوله ﴿ **التي جَعَلَ اللهُ لَكُم قِياماً** ﴾ أي جعلها شيأ تقومون به وتنتعشون ، فلو ضيعتموها لضعتم ، ولما كان المال سبباً للقيام في الحياة سمَّاه « قِيَاماً » على سبيل المبالغة ﴿ **وارْزُقوهُمْ فِيها واكْسُوهُمْ** ﴾ أي أطعموهم منها وإنما قال « فيها » ولم يقل « منها » لئلا يكون ذلك أمراً بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقاً لهم ، بل أمرهم بأن يتَّجروا فيها ، ويثمّروها فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح ، لا من أصول الأموال ﴿ **وَقُوْلُوْا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً** ﴾ كلاماً ليناً تطيب به نفوسهم ، قال القفال : القول المعروف هو أنه إن كان المولَّى عليه صبياً ، فالولي يعرّفه أن المال ماله ، وهو خازن له ، وأنه إذا زال صباه فإنه يردُّ المال إليه ، وإن كان المولَّى عليه سفيهاً ، وعظه ونصحه ، ورغبَّه في ترك التبذير والإسراف ، وعرَّفه عاقبة التبذير الفقر ، والاحتياج إلى الخلق ، إلى ما يشبه هذا النوع من الكلام ، وفي الآية تنبيه على عظم خطر المال وعظم نفعه ، **قال السلف** : المال سلاح المؤمن ، هُيِّىء للفقر الذي كاد أن يكون كفراً ، وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا ، فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دِينَه ، وربما رأو أرجلاً في جنازة فقالوا له اذهب إلى دكانك ، **قال الإمام** : وقد رغب الله في حفظ المال في آية المداينة ، حيث أمر بالكتابة والشهادات ، والرهن ، والعقلُ أيضا يؤيد ذلك ، لأن الإنسان مالم يكن فارغ البال ، لا يمكنه القيام بتحصيل الدنيا والآخرة ، ولا يكون فارغ البال إلا بواسطة المال ، لأنه يتمكن من جلب المنافع ، ودفع المضار ، فمن أراد الدنيا بهذا الغرض ، كانت الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المعينة على اكتساب سعادة الآخرة ، أما من أرادها لنفسها وعينها ، كانت من أعظم المعوّقات عن كسب سعادة الآخرة ، ﴿ **وابْتَلوا اليتامى** ﴾ أي واختبروا أيها الأولياء والأوصياء ، اليتامى قبل البلوغ ، بتتبع أحوالهم في صلاح الدِّين ، والاهتداء إلى ضبط المال ، وحسن التصرف فيه ، وجربوهم بأن

تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعاً وابتياعاً ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ** ﴾ بأن يحتلموا لأنهم يصلحون عنده للنكاح ﴿ **فَإِنْ آنَسْتُمْ** ﴾ أي شاهدتم وتبينتم ﴿ **مِنْهُمْ رُشْداً** ﴾ صلاحاً في دينهم ، واهتداء إلى وجوه التصرفات ، من غير عجز وتبذير ﴿ **فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ ، وظاهر الآية الكريمة أن من بلغ غير رشيد ، إما بالتبذير أو بالعجز ، لا يُدفع إليه ماله أبداً ، وبه أخذ أبو يوسف ومحمد ﴿ **وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً** ﴾ بغير حق ، أي مسرفين ﴿ **وَبِدَاراً** ﴾ أي مبادرين ومسارعين إلى إنفاقها مخافة ﴿ **أَنْ يَكْبَرُوا** ﴾ فتفرطون في إنفاقها وتقولون : ننفق كما نشتهي ، قبل أن تكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا ، ويلزمنا تسليمها إليهم ﴿ **وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً** ﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿ **فَلْيَسْتَعْفِفْ** ﴾ فليتنزه عن أكلها وليمتنع ، وليقنع بما آتاه الله من الغنى والرزق ، إشفاقاً على اليتيم ، وإبقاء على ماله ، واستعفف أبلغ من عفَّ كأنه يطلب زيادة العفة ﴿ **وَمَنْ كَانَ** ﴾ من الأولياء والأوصياء ﴿ **فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ أي بما عرف في الشرع بقدر حاجته الضرورية ، وأجرة سعيه وخدمته ، وفيه ما يدل على أن للوصيِّ حقاً لقيامه عليها ﴿ **فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** ﴾ بعد ما راعيتم الشرائط المذكورة ﴿ **فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ** ﴾ بأنهم تَسَلَّموها وقبضوها وبرئت منها ذمكم ، ﴿ **وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً** ﴾ محاسباً وحافظاً لأعمال خلقه ، فلا تخالفوا ما أمرتم به ، ولا تجاوزوا ما حُدّ لكم ، واعلموا أن اللائق للعاقل أن يحترز عن حق الغير خصوصاً اليتيم ، فإنه يجره إلى نار الجحيم ، فأكل حقه من الكبائر ، ومن ابتلي بحق من حقوق العباد ، فعليه بالاستحلال قبل الانتقال إلى دار السؤال ، قال رسول الله ﷺ « من كانت عنده مَظْلَمة لأخيه أو شيء فلْيتحلَّله منه اليوم ، من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مَظْلمته ، وإن لم يكن له أُخذ من سيآت صاحبه فحملت عليه »[1] ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها ، وعسر عليه استحلال أرباب المظالم ، فليكثر من حسناته ليوم القصاص ، فعساه يقربه ذلك إلى الله ، فينال به لطفه الذي ادخره لأرباب الإيمان في دفع مظالم العباد عنهم بإرضائه إياهم ، **قال العلماء** : إذا زنى بامرأة ولها زوج ، فما لم يجعل ذلك الرجل في حِلٍّ لا يغفر له ، لأن خصمه الآدمي ، فإذا تاب وجعله في حِلّ فإنه يغفر له ، ويكتفي بحل منه ولا يذكر الزنى ، ولكن يقول : كل حقٍّ لكَ عليَّ فاجعلني في حِلٍّ منه ، ومن كل خصومة بيني وبينك ، وهذا صُلْحٌ بالمعلوم على المجهول ، وذلك جائز كرامة لهذه الأمة ، لأن الأمم السالفة ما لم يذكروا الذنب لا يغفر لهم ، وكذا غصب أموال عباد الله وأكلها ، وضربهم وشتمهم وقتلهم ، كلها من الحقوق التي يلزم فيها إرضاء الخصماء ، والتوبة والمبادرة إلى الأعمال الصالحة ، فإذا لم يتب العبد من أمثال هذه ، ولم يرض

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه وأحمد في المسند ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٣١

خصماءه ، كان خاسراً خالياً عن العمل عند العرض الأكبر .

﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ** ﴾ روي أن « أوس بن الصَّامت » الأنصاري رضي الله عنه خلَّف زوجته « أم كَحَّة » وثلاث بنات ، فزوى ابنا عمه سويد وعرفطة ميراثه عنهن على سُنّة الجاهلية ، فإنهم ما كانوا يورِّثون النساء والأطفال ، ويقولون : إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة ، فجاءت « أم كحة » إلى رسول الله ﷺ فشكت إليه فقال « ارجعي حتى أنظر ما يُحْدِث الله » فنزلت هذه الآية ، فبعث إليهما لا تُفَرِّقا من مال أوسٍ شيأ ، فإن الله قد جعل لهن نصيباً ولم يبين حتى يبين فنزل يوصيكم الله الخ فأعطى أم كحة الثمن ، والبنات الثلثين ، والباقي لابني العم ، والمعنى لذكور أولاد الميت حظٌّ كائن ﴿ **مِّمَّا تَرَكَ الوالِدانِ والأَقْربونَ** ﴾ من ذوي القرابة للميت ، والمراد المتوارثون منهم وهم : الأبوان ، والزوجان ، والابن، والبنت ﴿ **وَلِلنِّساءِ** ﴾ أي لجماعة الإناث ﴿ **نَصيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوالدان والأَقْربونَ مِّمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ** ﴾ فائدة ذكره دفع توهم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة ، كالخيل وآلات الحرب للرجال ، وتحقيق أن لكل من الفريقين حقاً من كل ما جلَّ ودقَّ ﴿ **نَصِيبَاً مَفْرُوْضَاً** ﴾ أي نصيباً مقطوعاً مفروضاً واجباً لهم ، وفيه دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه ، لم يسقط حقه ﴿ **وإذا حَضَرَ القِسْمَةَ** ﴾ أي قسمة التركة والميراث ﴿ **أُوْلُوْاالقُرْبىٰ** ﴾ للميت ممن لا يرث منه ﴿ **واليَتامىٰ والمسَاكينُ** ﴾ من الأجانب ﴿ **فارْزقُوهُمْ منْهُ** ﴾ أي أعطوهم شيأ من المال المقسوم المدلول عليه بالقسمة ، أو مما ترك الوالدان والأقربون ، وهو أمر ندب كلف به البالغون من الورثة ، تطييباً لقلوب الطوائف المذكورة .

﴿ **وَقُوْلُوْا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوْفاً** ﴾ وهو أن يدعوا لهم ويقولوا : خذوا بارك الله عليكم ، ويعتذروا من ذلك ولا يمنُّوا عليهم ، وكل ما سكنت إليه النفس وأحبته لحسنه شرعاً أو عقلاً فهو معروف ، وما أنكرته لقبحه شرعاً أو عقلاً فهو منكر ، وفي الحديث « كل معروف صدقة »[1] وفي المثل اصنع المعروف والقه في الماء ، فإن لم يعرفه السمك يعرفه من سمك السماء * ﴿ **وَلْيَخْشَ الذّينَ لوْ تَرَكُوا** ﴾ أي لو شارفوا أن يتركوا ﴿ **مِنْ خَلْفِهِمْ** ﴾ أي بعد موتهم ﴿ **ذُرِّيَةً ضِعَافاً** ﴾ أولاداً عجزة لا غنى لهم ، وذلك عند احتضارهم ﴿ **خَافُوا عليْهِمْ** ﴾ أي الضياع بعدهم ، لذهاب كافلهم وكاسبهم ، والمراد : هم الأوصياء ، أمروا أن يخشوا الله ، فيخافوا على من في أيديهم من اليتامى ، خوفهم على ذريتهم لو تركوهم ضعافاً ﴿ **فلْيتّقُوا اللهَ** ﴾ في زراري غيرهم ﴿ **وَلْيَقُوْلُوا قَوْلاً سَديداً** ﴾ أي وليقولوا لليتامى مثل ما يقولون لأولادهم ، بالشفقة وحسن الأدب ويدعوهم بـ « يا ابني ويا ولدي » ولا يؤذوهم ﴿ **إنّ الذّين**

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ، ورواه الترمذي وزاد فيه : « وإنَّ من المعروف أن تلقى أخاكَ بوجهٍ طَلْقٍ » وانظر جامع الأحكام ١ / ٤٢٧ .

﴿ يأْكُلونَ أَمْوالَ اليَتامىٰ ظُلْماً ﴾ ظالمين أو على وجه الظلم ، من أولياء السوء وقضاته ﴿ إِنَّما يأْكُلونَ في بُطونِهِمْ ﴾ أي ملء بطونهم ، يقال : أكل في بطنه إذا ملأه وأسرف ﴿ ناراً ﴾ أي ما يجر إلى النار ويؤدي إليها فكأنه نار في الحقيقة ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ ﴾ أي سيدخلون يوم البعث ﴿ سَعيراً ﴾ أي ناراً مسعرة أو هائلة مبهمة الوصف ، روي أنه لما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس ، فاحترزوا عن مخالطة اليتامى بالكلية ، فصعب الأمر على اليتامى فنزل قوله تعالى (وَإِنْ تُخالِطوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ) الآية وفي الحديث قال النبي عليه السلام « رأيت ليلة أسري بي قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل ، وخزنة جهنم يلقمونهم جمر جهنم وصخرها ، فقلت يا جبريل : من هؤلاء ؟ قال الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً » ، وقد أمر الله تعالى أن لا يؤذى اليتيم ، ويقال له القول السديد ، فكيف يكون حال من آذاه وغيره من المؤمنين ، وأكل أموالهم بالغصب والظلم ؟ !

﴿ يُوْصِيكُمُ اللهُ ﴾ أي يأمركم ويعهد إليكم ﴿ في أَوْلادِكُمْ ﴾ أولاد كل واحد منكم ، أي في شأن ميراثهم ، وهو إجمال تفصيله ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ أي يُعدُّ كل ذكر بأنثيين ، حيث اجتمع الصنفان ، فيضَّعف نصيبه ﴿ فَإِنْ كُنَّ ﴾ أي الأولاد ﴿ نِساءً ﴾ أي خُلَّصاً ليس معهن ذكر ﴿ فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ ﴾ أي المتوفي ، وحكم البنتين كحكم ما فوقهما ﴿ وَإِنْ كانَتْ ﴾ أي المولودة ﴿ واحِدَةً ﴾ أي امرأة واحدة ليس معها أخ ولا أخت ﴿ فَلَها النِّصْفُ ﴾ مما ترك ﴿ وَلأَبَوَيْهِ ﴾ أي لأبوي الميت ﴿ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ ﴾ كائناً ذلك السدس ﴿ مِمّا تَرَكَ ﴾ المتوفى ﴿ إِنْ كانَ لَهُ ﴾ أي للميت ﴿ وَلَدٌ ﴾ أو ولد ابن ، ذكراً كان أو أنثى ، واحداً أو متعدداً ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ولا ولد ابن ﴿ وَوَرِثَهُ أَبَواهُ ﴾ فحسب ﴿ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ مما ترك ، والباقي للأب ، هذا إذا لم يكن معهما أحدالزوجين ، أما إذا كان معهما أحد الزوجين ، فلأمه ثلث ما بقي من فرض أحدهما ، لا ثلث الكل،فإنه يفضي إلى تفضيل الأم على الأب ، مع كونه أقوى منها في الإرث ﴿ فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ أي عدد من الإخوة سواء كانت من جهة الأبوين ، أو من جهة أحدهما ، وسواء كانوا ذكوراً وإناثاً أو مختلطين ، وسواء كان لهم ميراث أو محجوبين بالأب ﴿ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ وأما السدس الذي حجبوها عنه فهو للأب ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ ﴾ أي هذه الأنصباء للورثة من بعد ما كان من وصية ﴿ يُوْصِي بِها ﴾ الميت ﴿ أَوْ دَيْنٍ ﴾ عطف على وصية إلا أنه غير مقيد بما قيدت به من الوصف ، بل هو مطلق ، يتناول ما ثبت بالبينة أو الإقرار في الصحة ﴿ آباؤُكُمْ وأَبْناؤُكُمْ لا تَدْرونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ﴾ أي أصولكم وفروعكم الذين يتوفون ، لا تدرون أيهم أنفع لكم ﴿ فَريضَةً مِنَ اللهِ ﴾ أي فرض الله ذلك الميراث فرضاً ﴿ إِنَّ اللهَ كانَ عَليماً ﴾ بالخلق ومصالحهم ﴿ حَكيماً ﴾ في كل ما قضى وقدَّر ودبَّر، فعليكم بالعدل والتجانب عن الجور خصوصاً فيما بين الأقارب ، فإن لهم مزيد فضل على الأجانب ،

ولمكانة صلة الرحم عند الله قرن الأرحام باسمه الكريم في قوله تعالى (**واتّقوا اللهَ الذّي تَساءَلونَ به والأرْحامَ**) حكي أن رجلاً قال لأحد العلماء إن أمي هرمت عندي ، فأطعمها بيدي ، وأسقيها بيدي ، وأوضِّيها وأحملها على عاتقي ، فهل جازيتها حقها ؟ قال : لا ، ولا واحداً من مائة ، قال ولِمَ ؟ قال : لأنها خدمتك في وقت ضعفك مريدة حياتك ، وأنت تخدمها مريداً مماتها ، وجاء رجل إلى النبي عليه السلام ليستشيره في الغزو فقال : ألك والدة ؟ قال نعم قال عليه السلام : « فالزمها فإن الجنة تحت رجليها »[1] .

﴿ **وَلَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ** ﴾ من المال إذا متن وبقيتم بعدهن ﴿ **إنْ لم يكُن لَهُنَّ وَلَدٌ** ﴾ أي ولد وارث من بطنها ، أو من صلب بنيها ، ذكراً كان أو أنثى منكم أو من غيركم ﴿ **فإنْ كانَ لَهُنّ وَلَدٌ** ﴾ على نحو ما فصل ﴿ **فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمّا تَرَكْنَ** ﴾ أي تركت أزواجكم من المال ، والباقي لباقي الورثة ﴿ **مِنْ بعْدِ وَصِيَّةٍ يوُصِينَ بها أوْ** ﴾ من بعد قضاء ﴿ **دَيْنٍ** ﴾ سواء كان ثبوته بالبينة أو بالإقرار ﴿ **وَلَهُنّ الرُّبُعُ مّما تركْتُمْ** ﴾ إن متم وبقين بعدكم ﴿ **إنْ لم يكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ** ﴾ ذكر أو أنثى ، منهن أو من غيرهن ، أو ولد ابن ﴿ **فإنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ** ﴾ على التفصيل المذكور ﴿ **فَلَهُنّ الثُّمُن مّما تركْتُمْ** ﴾ من المال ، والباقي للباقين ﴿ **منْ بعدِ وَصِيّةٍ تُوصُون بِها أوْ دَيْنٍ** ﴾ أي بعد إخراج الوصية وقضاء الدين ﴿ **وإنْ كانَ رَجُلٌ** ﴾ أي ذكر ميت ﴿ **يُورَثُ** ﴾ أي يورث منه من ورث ﴿ **كلاَلَةً** ﴾ أي من لا ولد له ولا والد ، وهي في الأصل مصدر بمعنى الكلال ، وهو الإعياء في التكلم ، ونقصان القوة فيه، فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد ، لضعفها بالنسبة إلى القرابة من جهتها ﴿ **أَوِ امْرأةٌ** ﴾ أي إن كان الميت أنثى يورث منها كلالة ﴿ **وَلَهُ** ﴾ أي وللميت الموروث منه سواء كان رجلاً أو امرأة ﴿ **أخٌ أوْ أُخْتٌ** ﴾ كلاهما من الأم بالإجماع ، لأن حكم غيرهما سَيُبَيَّن في آخر السورة ﴿ **فَلِكُلّ واحدٍ منْهُما** ﴾ أي من الأخ والأخت من الأم ﴿ **السُّدُسُ** ﴾ من غير تفضيل للذكر على الأنثى ، لأن الإدلاء إلى الميت بمحض الأنوثة ﴿ **فَإن كانُوا** ﴾ أي أولاد الأم ﴿ **أكْثَرَ** ﴾ في الوجود ﴿ **مِنْ ذلك** ﴾ أي من الأخ أو الأخت ﴿ **فَهُمْ شُرَكاءُ في الثُّلُثِ** ﴾ يقتسمونه بالسوية لا يزيد نصيب ذكرهم على أنثاهم ، والباقي لبقية الورثة من أصحاب الفروض والعصبات ﴿ **مِنْ بعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصىٰ بِها أوْ دينٍ غيْرَ مُضَارٍ** ﴾ أي يوصي الميت بما ذكر من الوصية والدين حال كونه غير مدخل الضرر على الورثة بما زاد على الثلث ، أو تكون الوصية لقصد الإضرار بهم ﴿ **وَصِيّةً مِنَ اللهِ** ﴾ أي يوصيكم الله وصية بها لا يجوز تغييرها﴿ **وَاللهُ عَليمٌ** ﴾ بالمضار وغيره ﴿ **حَليمٌ** ﴾ لا يعاجل بالعقوبة ﴿ **تِلْكَ** ﴾ أي الأحكام التي تقدمت في أمر اليتامى والوصايا والمواريث ﴿ **حُدودُ اللهِ** ﴾ شرائعه التي هي كالحدود المحدودة ، التي لا يجوز مجاوزتها ﴿ **ومنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ** ﴾ في جميع الأوامر والنواهي التي من

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، والترمذي في سننه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٣١ .

جملتها ما فصل ههنا ﴿ **يُدْخِلْهُ جنّاتٍ تجْري مِنْ تحْتها الأنْهارُ خَالدينَ فِيها** ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ **وَذَلكَ** ﴾ أي هذا الثواب ﴿ **الفَوْزُ العَظيمُ** ﴾ أي النجاة الوافرة يوم القيامة ، والظفر الذي لا ظفر وراءه ﴿ **ومنْ يعْصِ اللهَ ورَسُولَهُ** ﴾ ولو في بعض الأوامر والنواهي ﴿ **وَيَتَعدَّ حُدودَهُ** ﴾ شرائعه المحدودة في جميع الأحكام ﴿ **يُدْخِلْهُ ناراً** ﴾ اي عظيمة هائلة ﴿ **خَالِداً فيها وَلَهُ عَذابٌ مُهينٌ** ﴾ أي وله غير عذاب الحريق الجسماني ، عذاب آخر لا يعرف كنهه وهو العذاب الروحاني كما يؤذن به وصفه ﴿ **واللاّتي** ﴾ جمع التي ﴿ **يأْتينَ الفاحِشَةَ** ﴾ الفاحشة : الفعلة القبيحة أريد بها الزنى ، لزيادة قبحه على كثير من القبائح أي اللاتي يفعلن الزنى كائنات ﴿ **مِنْ نِسائِكُمْ** ﴾ أي من زوجاتكم ﴿ **فاسْتَشهِدوا عَليْهنَّ أربعةً مِنْكُمْ** ﴾ أي فاطلبوا أن يشهد عليهن بإتيانها ، أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم ﴿ **فإن شَهِدوا** ﴾ عليهن بذلك ﴿ **فَأمْسِكوهُنّ في البُيوت** ﴾ فاحبسوهن فيها واجعلوها سجناً عليهن ﴿ **حتّى يَتَوفَّاهُنَّ الموْتُ** ﴾ أي يأخذهن الموت ويستوفي أرواحهن ، ﴿ **أوْ يجْعَلَ اللهُ لَهُنّ سَبيلاً** ﴾ أي طريقاً يخرجن به من الحبس ﴿ **واللّذانِ** ﴾ تثنية الذي ﴿ **يأْتِيانِها** ﴾ أي الفاحشة ﴿ **مِنْكُمْ** ﴾ هما الزاني والزانية بطريق التغليب ، قال السدي : أريد بها البكران منهما ، كما ينبىء عنه كون عقوبتهما أخف من الحبس المخلد ، وبذلك يندفع التكرار ﴿ **فَآذُوْهُمَا** ﴾ فوبخوهما وذموهما ، وقولوا لهما : أما استحييتما أما خفتما الله ؟ وذلك بعد الثبوت ﴿ **فإنْ تابا** ﴾ عما فعلا من الفاحشة ، بسبب ما لقيا من زواجر التوبيخ ﴿ **وَأَصْلَحا** ﴾ أي لعملهما وغيّرا الحال ﴿ **فأعْرِضُوا عنْهُما** ﴾ بقطع الأذية والتوبيخ ، فإن التوبة والإصلاح مما يمنع استحقاق الذم والعقاب ﴿ **إنّ اللهَ كانَ تَوّاباً** ﴾ مبالغاً في قبول التوبة ﴿ **رَحِيماً** ﴾ واسع الرحمة ، واعلم أن الرجل إذا زنى بامرأة وهما محصنان ، فحدهما الرجم لا غير ، وإن كانا غير محصنين ، فحدهما الجلد لا غير ، وإن كان أحدهما محصناً والآخر غير محصن ، فعلى المحصن منهما الرجم ، وعلى الآخر الجلد ، والمحصن هو أن يكون عاقلاً بالغاً مسلماً حراً ، دخل بامرأة بالغة عاقلة حرة مسلمة ، بنكاح صحيح ، فالرجم كان مشروعاً في التوراة ثم نسخ بآية الإيذاء من القرآن، ثم صار الحبس منسوخاً بحديث عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ « البكر بالبكر جلدُ مائةٍ وتغريبُ عامٍ ، والثيِّبُ بالثيبِ جلدُ مائةٍ ورجمٌ بالحجارة »[1] وعليه استقر الحكم ، فالواجب على كل مسلم أن يتوب من الزنى ، وينهى الناس عن ذلك ، فإن كل موضع ظهر فيه الزنى ، ابتلاهم الله بالطاعون ويزيد فقرهم ، قال ابن مسعود سألت رسول الله ﷺ أي الذّنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلتُ : ثم أيٌّ ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك ، قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : أن تزني بحليلة

(١) الحديث أخرجه الشيخان وأصحاب السنن .

جارك »[١] وأشد الزنى الرجل الذي يطلق امرأته وهو يقيم معها بالحرام ، ولا يقر عند الناس مخافة أن يفتضح ، فكيف لا يخاف فضيحة الآخرة ، يوم تبلى السرائر ؟ يعني تظهر الأسرار ؟ فاحذر فضيحة ذلك اليوم ، واجتنب الزنى ولا تصرَّ عليه ، فإنه لا طاقة لك على عذاب الله ، وتب إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده ، إن الله كان تواباً رحيماً .

﴿ **إِنَّمَا التَّوبَةُ عَلَىٰ اللهِ** ﴾ أي إن قبول التوبة ، كالمحتوم على الله بمقتضى وعده ﴿ **لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ** ﴾ أي المعصية صغيرة كانت أو كبيرة ﴿ **بِجَهَالَةٍ** ﴾ يعملون ملتبسين بها أي جاهلين سفهاء فإن ارتكاب الذنب مما يدعو إليه الجهل ، ولذلك قيل من عصى الله فهو جاهل ، حتى ينزع من جهالته ، وليست هذه جهالة عدم العلم ، لكنها التغافل والتجاهل ، وترك التفكر في العاقبة ﴿ **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** ﴾ أي من زمان قريب ، وهو ما قبل حضور الموت ، وسماه قريباً لأن أمد الحياة الدنيا قريب قال تعالى (**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ**) فعمر الدنيا قليل قريب الانقضاء ، فما ظنك بعمر فرد ؟ ﴿ **فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي يقبل توبتهم ﴿ **وَكَانَ اللهُ عَلِيماً** ﴾ بخلقه يعلم إخلاصهم في التوبة ﴿ **حَكِيماً** ﴾ في صنعه ، والحكيم لا يعاقب التائب ، فعلى المؤمن أن يتدارك الزلة بالتوبة والاستغفار ، ويسارع في الرجوع إلى الملك الغفار ، قال ﷺ : « إن الله يقبل توبة عبده ما لم يُغَرْغِرْ »[٢] أي ما لم تبلغ روحه الحلقوم ، وعند ذلك يعاين ما يصير إليه من رحمة أو هوان ، ولا ينفع حينئذ توبة ولا إيمان ، قال تعالى (**فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا**) فيجب على الإنسان أن يتوب قبل المعاينة والغرغرة وهو معنى قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** ﴾ وإنما صحت منه التوبة في هذا الوقت ، لأن الرجاء باقٍ ، ويصح الندم والعزم على ترك الفعل ، والتوبة فرض على المؤمنين ، ولها شروط أربعة : الندم بالقلب ، وترك المعصية في الحال ، والعزم على أن لا يعود إلى مثلها ، وأن يكون ذلك حياءً من الله تعالى ، وخوفاً منه لا من غيره ، قال الحسن البصري : استغفارنا يحتاج إلى استغفار ، **قال القرطبي :** هذا يقوله في زمانه ، فكيف في زماننا هذا ؟ الذي يُرى فيه الإنسان مكباً على الظلم ، حريصاً عليه لا يقلع ، والسُّبْحةُ في يده زاعماً أنه يستغفر من ذنبه ، وذلك استهزاء منه واستخفاف ، ومن أظلم ممن اتخذ آيات الله هزواً ؟ فيلزم حقيقة الندم ، واعلم أن الله إذا أراد بعبد خيراً اصطفاه لنفسه ، وجعل في قلبه سراجاً ، يفرق بين الحق والباطل ، ويبصر عيوب نفسه ، حتى يترك الدنيا وحطامها ، ويُلقي عليها زمامها .

﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ أي الذنوب ﴿ **حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ**

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٢) الحديث أخرجه أحمد والترمذي وحسّنه وابن ماجه والحاكم وصححه ، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢ / ١٣١ .

﴿ الْمَوْتُ ﴾ أي وقع في سكرات الموت وشاهد ملك الموت ﴿ قَالَ ﴾ عند النزع ومشاهدة ما فيه ﴿ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ﴾ من ذنوبي ، يعني لا يقبل التوبة منه ثمة ، لأنها حالة الاضطرار دون حالة الاختيار ﴿ ولا الذّينَ يُموتونَ ﴾ أي وليست التوبة للذين ماتوا ﴿ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ مصرون على كفرهم ، إذا تابوا عند قرب الموت أو عند معاينة العذاب في الآخرة ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أي الفريقان ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ أصله أعددنا أبدلت الدال الأولى تاء ﴿ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً ﴾ أي هيأنا لهم عذاباً وجيعاً دائماً ، اعلم أن الله تعالى سَوّى بين من سوَّف التوبة ، وأخرَّها إلى حضور الموت من الفسقة ، وبين من مات على الكفر ، في نفي التوبة ، للمبالغة في عدم الاعتداد بها في تلك الحالة ، وتلك التسوية لكيلا يهمل المذنب في أمر التوبة ، وإذا هبت من الله رياح العناية ، تجد العبد يسرع إلى التوبة ، ويمد نفسه إلى أسبابها ويتأثر بشيء يسير ، فيتوب عن قبح معاملته ، قال الداراني : اختلفت إلى مجلس قاصٍّ ، فَأَثَّر في قلبي كلامه ، فلما قمت لم يبق في قلبي شيء ، فعدت ثانياً فبقي أثر كلامه في قلبي ، حتى رجعت إلى منزلي وكسرت آلة المخالفات ، ولزمت الطريق ، فحكى هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال : عصفورٌ اصطاد كركياً ، أراد بالعصفور ذلك القاصّ ، وبالكركي أبا سليمان ، فالواجب على كل مسلم أن يتوب إلى الله ، حين يصبح وحين يمسي ، ولا يؤخرها ، قال أبو بكر الواسطي : التأني في كل شيء حسنٌ إلا في ثلاث خصال : عند وقت الصلاة، وعند دفن الميت ، والتوبة عند المعصية ، وكان في الأمم الماضية إذا أذنبوا حرم عليهم حلال ، وإذا أذنب واحد منهم ذنباً ، وجد على بابه مكتوباً إن فلان ابن فلان ، قد أذنب كذا وتوبته كذا ، فسهَّل الله الأمر على هذه الأمة فقال (ومنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يظْلِمْ نفْسَهُ ثُمّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحيماً) حكي أن الله لما لعن إبليس ، سأله النظرة ، فأنظره أي أمهله إلى قيام الساعة فقال انظر ماذا ترى ؟ فقال : وعزتك لا أخرج من صدر عبدك حتى تخرج نفسه ، فقال الرب : وعزتي وجلالي لا أحجب التوبة عن عبدي حتى تخرج نفسه ، فانظر إلى رحمة الله ورأفته على عباده ، أنه سماهم مؤمنين بعدما أذنبوا فقال (وتُوبُوا إِلَىٰ اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ) وأحبهم بعد التوبة فقال (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً ﴾ كان الرجل إذا مات قريبه يلقي ثوبه على امرأته ويقول : أرث امرأته كما أرث ماله ، فيصير بذلك أحق بها من كل أحد ، ثم إن شاء تزوجها بصداقها الأول ، وإن شاء زوَّجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها منه شيأ ، وإن شاء عَضَلها أي حبسها وضيَّق عليها لتفتدي بما ورثت من زوجها ، وإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل إلقاء الثوب ، فهي أحق بنفسها ، فنهوا عن ذلك ، وقيل لهم : لا يحل لكم أن تأخذوهن بطريق الإرث ، كما تحاز المواريث ، وهنَّ كارهات لذلك ﴿ ولا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ لا لتأكيد النفي

والعضلُ : الحبسُ والتضييقُ ، وداء عضال ممتنع عسر العلاج ، وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر ، وضيَّق عليها لتفتدي منه بمالها وتخلع ، فقيل لهم : ولا تعضلوهن أي لا تضيقوا عليهن ﴿ لِتَذْهَبوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ أي من الصداق بأن يدفعن إليكم بعضه اضطراراً فتأخذوه منهن ﴿ إلاّ أنْ يأْتينَ بفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ المراد بالفاحشة القبيح من النشوز ، وشكاسة الخلق ، وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء أي الفحش وحدة اللسان ، أو الفاحشة الزنى ، وهو استثناء من أعم الأحوال أي ولا يحل لكم عضلهن في حال من الأحوال ، إلا في حال إتيانهن بفاحشة ، فإن السبب حينئذ يكون من جهتين ، وأنتم معذورون في طلب الخلع ﴿ وَعاشِروهُنّ بالمعْروفِ ﴾ خطاب للذين يسيئون العِشْرة معهن ، والمعروف : مالا ينكره الشرع والمروءة ، والمراد ههنا النَّصفة في المبيت والنفقة ، والتجمُّل في القول ونحو ذلك ﴿ فَإنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ ﴾ وسئمتم صحبتهن بمقتضى الطبيعة ، من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك ، فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس ، واصبروا على معاشرتهن .

﴿ فَعَسَى أنْ تكْرَهوا شَيْئاً وَيجْعَلَ اللهُ فيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ والمراد بالخير الكثير ههنا : الولدُ الصالح ، أو المحبة والألفة ، كأنه قيل فإن كرهتموهن فاصبروا عليهنَّ مع الكراهة ، فلعل لكم فيما تكرهونه خيراً كثيراً وليس فيما تحبونه ، فإن النفس ربما تكره ما هو أصلح في الدين ، وأدنى إلى الخير ، وتحب ما هو بخلافه ، فليكنْ نظركم إلى ما فيه خير وصلاح ، دون ما تهوى أنفسكم ، واعلم أن معاشرتهن بالمعروف والصبر عليهن ، فيما لا يخالف رضى الله تعالى ، وإلا فالرد من مواضع الغيرة واجب ، فإن الغيرة من أخلاق الله وأخلاق الأنبياء والأولياء ، قال عليه السلام : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أَغْيَرُ منه والله أغير مني ، ومن أجل غيرة الله حرَّم الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن »[1] والطريق المنبيء عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال ، ولا تخرج هي إلى الأسواق ، والحاصل أن المرأة إذا برئت من مواقع الخلل ، واتصفت بالعفة ، فعلى الزوج أن يعاشرها بالمعروف ، ويصبر على سائر أوضاعها وسوء خلقها ، بخلاف ما إذا كانت غير ذلك ، ثم اعلم أن معاملة النساء أصعب من معاملة الرجال ، لأنهن أرقُّ ديناً ، وأضعف عقلاً ، وأضيق خلقاً ، فحسن معاشرتهن والصبر عليهن ، يعدُّ من الجهاد في سبيل الله ، وكان عليه السلام يحسن المعاشرة مع أزواجه المطهرة ، حكي أن بعض المتعبدين كان يحسن القيام على زوجته إلى أن ماتت ، وعرض عليه التزوج فامتنع ، وقال : الوحدة أروح لقلبي ، قال : فرأيت في المنام بعد جمعة من وفاتها ، كأن أبواب السماء قد فتحت ، وكأن رجالاً ينزلون ويسيرون في الهواء ، يتبع بعضهم بعضاً ، وكلما نظر إليَّ واحد منهم يقول لمن وراءه : هذا هو المشئوم ؟ فيقول الآخر : نعم ، ويقول

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في النكاح ، ومسلم في اللعان ، والدارمي وأحمد في المسند ٤ / ٢٤٨ .

الثالث كذلك ، فخفت أن أسألهم إلى أن مرّ بي آخرهم فقلت له : من هذا المشئوم ؟ قال أنت ، قال فقلت وَلِمَ ؟ قال كنا نرفع عملك مع أعمال المجاهدين في سبيل الله ، فمنذ جمعة أُمرنا أن نضع عملك مع المخالفين فلا ندري ما أحدثت ؟ فقال لإخوانه زوجوني فلم يكن يفارقه زوجتان أو ثلاث ، وكثرة النساء ليست من الدنيا ، لأن الزهاد والعباد كانوا يتزوجون ثلاثاً وأربعاً ، قال ﷺ (حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب ، وجُعلت قرةُ عيني في الصلاة)[1].

﴿ **وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ** ﴾ أي تزوج امرأة ترغبون فيها ﴿ **مكانَ زَوْجٍ** ﴾ ترغبون عنها بأن تطلقوها ﴿ **وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ** ﴾ أي إحدى الزوجات ﴿ **قِنطاراً** ﴾ أي مالاً كثيراً ﴿ **فلا تأخُذوا منْهُ** ﴾ أي ذلك القنطار ﴿**شَيْئَاً** ﴾ يسيراً فضلاً عن الكثير ﴿ **أَتأْخُذونَهُ** ﴾ أي شيأ منه ﴿ **بُهْتاناً** ﴾ أي للبهتان والظلم العظيم ، فإن أحدهم كان إذا تزوج امرأة فأعجبه غيرها ، وأراد أن يتزوجها ، بَهَت التي تحته بفاحشة ، حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ، ليصرفه إلى تزويج الجديدة ، والبهتان في اللغة : الكذب الذي يواجه الإنسان به صاحبه على جهة المكابرة ، وأصلة من بهت الرجل إذا تحيَّر ، فالبهتان الكذب الذي يبهت المكذوب عليه ويدهشه ﴿ **وَإِثْماً مُبيناً** ﴾ أي آثمين عياناً أو للذنب الظاهر ﴿ **وَكَيْفَ تأْخُذونَهُ** ﴾ أي لأيّ وجهٍ ومعنى تفعلون هذا؟ ﴿ **وَقَدْ** ﴾ والحال أنه قد ﴿ **أَفْضىٰ بعْضُكُمْ إلى بعْضٍ** ﴾ قد جرى بينكم وبينهن أحوال منافية له ، من الخلوة والمعاشرة ، وثبوت حق خدمتهن لكم وغير ذلك ﴿ **وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَليظاً** ﴾ أي أخذن منكم عهداً وثيقاً ، وهو حق الصحبة والمعاشرة بالمعروف، أو ما أشار إليه النبي عليه السلام بقوله « أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن ، بكلمة الله[2] » واعلم أن هذه المعاملات من تضييق النساء ، ومنعهن من الأزواج ، وأخذ ما في أيديهن ظلماً كلها وأمثالها ليست من أمارة الإيمان وثمراته ، لأن المؤمن أخ المؤمن ، لا يظلمه ولا يشتمه قال عليه السلام (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً)[3] وقد صرح بنفي الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه فقال ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فعلى المرء أن ينصف في جميع أحواله ، خصوصاً الأقارب والأزواج ، فإن تحري العدل لهم من الواجبات ، واعلم أن الآية لادلالة فيها على جواز المغالاة في المهر ، لأن قوله تعالى ﴿ **وآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطاراً** ﴾ لا يدل على جواز ايتاء القنطار ، كما أن قوله (**لوْ كانَ فيهِما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدتا**) لايدل على حصول الآلهة ، والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء شرطاً لشيء آخر ، كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع ، كذا قال الإمام في تفسيره ، وفي

(١) الحديث أخرجه النسائي في سننه ٧ / ٦١ ولفظه : « حُبِّب إلَيَّ النِّسَاءُ ، والطِّيبُ ، وجعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة » ورواه أحمد ٣ / ١٢٨ .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي في باب حجة الوداع ، وانظر جامع الأصول ٣ / ٤٦٥ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٥٦٤ .

الخبر (من بركة المرأة سرعة تزوجها ، وسرعة رحمها إلى الولادة ، ويسر مهرها)[1] ولابد للرجل أن يوفيها صداقها كاملاً أو ينوي ذلك ، فمن نوى أن يذهب بصداقها جاء يوم القيامة غاصباً، كما أن من استدان ديناً وهو ينوي أن لا يقضيه يصير سارقاً ، ولا يماطل مهرها إلا أن يكون فقيراً أو تؤجله المرأة طوعاً ، ويعلمها أحكام الطهارة ، والحيض ، والصلاة وغير ذلك ، بقدر ما تؤدي به الواجب ، ويلقنها اعتقاد أهل السنة ، وإن لم يعلم فليسأل ولينقل إليها جواب المفتي ، وإن لم يسأل فلابد لها من الخروج للسؤال ، ومتى علّمها الفرائض فليس لها الخروج إلى تعلم أو مجلس ذكر إلا برضاه ، فمها أهمل المرء حكماً من أحكام الدين ، ولم يؤدبها ولم يعلمها أو منعها عن التعلم شاركها في الإثم ﴿ **ولاَ تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ** ﴾ كان أهل الجاهلية يتزوجون بأزواج آبائهم ، فنهوا عن ذلك أي لا تنكحوا التي نكحها آباؤكم ﴿**إلا مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ أي لا تنكحوا حلائل آبائكم إلا من ماتت منهن قبل الإسلام ، والمقصود سد طريق الإباحة بالكلية ونظيره قوله تعالى (**حتّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِ الخِياطِ**) ﴿ **إنّهُ** ﴾ أي نكاحهن ﴿ **كانَ فَاحِشَةً** ﴾ أي فعلة قبيحة ومعصية شديدة عند الله ، ما رخص فيه لأمة من الأمم ﴿ **وَمَقْتاً** ﴾ ممقوتاً عند ذوي المروءات ، والمقتُ : أشدُّ البغض ﴿ **وَسَاء سَبِيلاً** ﴾ أي بئس السبيل سبيل من يراه ويفعله ، فإنه يؤدي بصاحبه إلى النار .

﴿ **حُرِّمَتْ عليْكُمْ أُمهَّاتُكُمْ** ﴾ أي نكاحهنَّ لأن المفهوم في العرف من حرمة كل شيء ما هو الغرض المقصود منه ، فيفهم من تحريم النساء تحريم نكاحهن ، كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها ، ومن تحريم لحم الخنزير تحريم أكله ، والأمهات تعم الجدات وإن علون من الأب أو الأم ﴿ **وَبَناتُكُمْ** ﴾ الصلبية وبنات الأولاد وإن سفلْنَ ﴿ **وَأَخَواتُكُمْ** ﴾ من قبل الأب والأم أو من قبل أحدهما ، فيتضمن الأخوات من الجهات الثلاث ، وذكر العلماء أن السبب لهذا التحريم ، أن الوطء إذلال وإهانة ، فإن الإنسان يستحيي من ذكْرِهِ ، فوجب صون الأمهات عنه ، لأن إنعام الأم على الولد أعظم وجوه الإنعام ، والبنت جزؤ من الإنسان وبعض منه ، فيجب صونها عن هذا الإذلال ، ﴿ **وَعَمّاتُكُمْ** ﴾ العمةُ : كل أنثى وَلَدها من وَلَد والدك ، قريباً أو بعيداً ﴿ **وَخَالاتُكُمْ** ﴾ الخالةُ : كل أنثى وَلَدها من وَلَد والدتك ، قريباً أو بعيداً ، والعمات تعم أخوات الآباء والأجداد ، وكذا الخالات تعم أخوات الأمهات والجدات ، سواءكنَّ من قبل الأب والأم ، أو من قبل أحدهما ﴿ **وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ** ﴾ من كل جهة ونوافلها وإن بعدت ، واعلم أن الله تعالى نصَّ على تحريم أربعة عشر صنفاً من النسوان ، سبع منهن من جهة النسب ، وهن هذه المذكورات ، وسبع أخرى من جهة السبب وإلى تعدادها شرع فقال ﴿ **وَأُمَّهَاتُكُمْ اللاّتِي**

---

(١) رواه ابن عساكر عن واثلة بلفظ : « من بركة المرأةِ تبكيرها بالأنثى » وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٤١ .

﴿ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ﴾ أي حرم نكاح الأمهات والأخوات من الرضاعة ، كما حرمتا من النسب ، نزَّل الله الرضاعة منزلة النسب، حتى سمى المرضعة أماً للرضيع ، والمُرْضَعة أختاً ، وكذلك زوج المرضِعة أبوه ، وأبواه جداه ، وأخته عمته ، وكل ولد ولد له من غير المُرْضِعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه ، وأم المرضعة جدته ، وأختها خالته ، وكل من ولد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه ، ومن ولد لها من غيره ، فهم إخوته وأخواته لأمه ، ومنه قوله ﷺ (يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)[1] وهو حكم كلي جار على عمومه ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ﴾ المراد بالنساء المنكوحات على الإطلاق ، سواء كن مدخولاً بهنَّ أو لا ، وعليه جمهور العلماء ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُوْرِكُمْ ﴾ أي وحرّم نكاح الربائب جمع ربيبة ، والربيب ولد المرأة من آخر ، سُمِّي به لأنه يربُّه كما يرب ولده، والحجور جمع حَجْر بالفتح والكسر ،وهو ما يجمع على فخذيه من ثوبه ، والمراد بقوله « في حجوركم » أي في تربيتكم يقال فلان في حَجْر فلان ، إذا كان في تربيته ، والسبب في هذه الاستعارة ، أن كل من ربى طفلاً أجلسه في حجره ، فصار الحجر عبارة عن التربية ، كما يقال فلان في حضانة فلان وأصله من الحضن ، والوصف في الآية خرج على الأغلب ، لأنهن يتزوجن مع الأولاد الصغار ، ليستعنَّ بالأزواج على تربية الأولاد ، فخرج الكلام مخرج الغالب ، لا على الاشتراط ﴿ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ أي كائنة من نسائكم اللاتي دخلتم بهن، ومعنى الدخول بهن إدخالهن الستر ، وهي كناية عن الجماع ، كقولهم بنى عليها ، وضرب عليها الحجاب ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكونُوا ﴾ أي فيما قبل ﴿ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ أصلاً ﴿ فَلا جُنَاحَ عليْكُمْ ﴾ أي في نكاح الربائب إذا فارقتم أمهاتهن ﴿ وحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمْ ﴾ أي وحرم عليكم زوجات أبنائكم ، سميت الزوجة حليلة لحلها للزوج ﴿ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ ﴾ لإخراج الأدعياء فالمتبَنَّى إذا فارق امرأته ، يجوز للمتبنِّي نكاحها ، وقد تزوج النبي عليه السلام « زينب ابنة جحش »بعدأن فارقها« زيدبن حارثة »وكان قدتبناه وادعاه ابناً﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾ أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين في النكاح ، لا في ملك اليمين ﴿ إِلاَّ ما قدْ سَلَفَ ﴾ استثناء منقطع أي لكن ما قد مضى لا تؤاخذون به ﴿ إِنَّ اللهَ كانَ غَفوراً ﴾ لمن فعل ذلك في الجاهلية ﴿ رَحِيماً ﴾ لمن تاب من ذنوبه ، وأطاع لأمر ربه ، ﴿ والمحصَنَاتُ ﴾ هن ذوات الأزواج ، أحصنهن التزويج اي عفهن عن الوقوع في الحرام ، وقد ورد الإحصان في القرآن بإزاء أربعة معان : **الأول** : التزويج كما في هذه الآية ، **والثاني** : العفة كما في قوله (**مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ**) . **والثالث** : الحرية كما في قوله (**ومن لم يستطع منكم طَوْلاً أن ينكح المحصنات**) . **والرابع** : الإسلام كما في قوله (**فَإذا**

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي من حديث ابن عباس ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٤٧٥ .

﴿ أُحْصِنَّ ﴾ قيل في تفسيره أي أسلمن ، وهي معطوفة على المحرمات السابقة أي وحرم عليكم ذوات الأزواج كائنات ﴿ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ وفائدته تأكيد عمومها ﴿ إِلاَّ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ يريد ما ملكت أيمانكم من اللاتي سُبِينَ ولهن الأزواج في دار الكفر ، فهنَّ حلال لغزاة المسلمين. حرَّم الله تعالى المحصنات من النساء على الرجال ، عفةً للحصانة ، وصحةً للنسب ، ونزاهة لعِرض الرجال عن خسة الاشتراك في الفراش ، وعلواً للهمة ، فالله يحب معالي الأمور ، ويبغض سِفْسافها وقال : ﴿ إلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ يعني ملكتم بالقوة والغلبة ، على أزواجهن من الكفار ، ولهذا أوجب الشرع فيها الاستبراء بحيضة ﴿ كِتابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ مصدر مؤكد ، أي كتب الله عليكم تحريم هؤلاء كتاباً ، وفرضه فرضاً ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من المحرمات المعدودة ، أي أحل لكم نكاح ما سواهن ، انفراداً وجمعاً ، وخصَّ منه بالسنة والجمع بين المرأة وعمتها وخالتها ﴿ أَنْ تَبْتَغُوا ﴾ أي بُيّن لكم تحريم المحرمات المعدودة وإحلال ما سواهن إرادة أن تبتغوا النساء أي تطلبوهن ﴿ بِأَمْوالِكُمْ ﴾ بصرفها إلى مهورهن ﴿ مُحْصِنِينَ ﴾ تبتغون العفة ، وتحصين النفس عن الوقوع فيما يوجب اللوم والعقاب ﴿ غَيْرَ مُسافِحِينَ ﴾ السفاحُ : الزنى والفجور ، من السَّفح الذي هو صبُّ المني ، سُمِّي به لأنه الغرض منه أي محصنين فروجكم غير مسافحين الزواني والمعنى لا تضيعوا أموالكم في الزنى ، لئلا يذهب دينكم ودنياكم ، ولكن تزوجوا بالنساء فهو خير لكم ، وذكر الأموال يدل على أن غير المال لا يصلح مهراً ﴿ فَما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ ﴾ أي فالذي انتفعتم به من النساء بالنكاح الصحيح ، من جماع أو خلوة صحيحة أو غير ذلك ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجورَهُنَّ ﴾ مهورهنَّ فإن المهر في مقابلة الاستمتاع ﴿ فَرِيضَةً ﴾ بمعنى مفروضة ﴿ وَلاَ جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ ﴾ أي في ما تراضيتم بعد النكاح على زيادة المهر ، أو على الحطّ من المهر ، وأن تهب المرأة لزوجها جميع مهرها ﴿ مِنْ بَعْدِ الفَرِيضَةِ ﴾ أي بعد المفروض للزوجة ﴿ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً ﴾ بمصالح العباد ﴿ حَكِيماً ﴾ فيما شرع لهم من الأحكام .

﴿ وَمَنْ لم يسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ المُحْصَنَاتِ المؤْمِناتِ ﴾ والطول : القدرة والمراد بالمحصنات الحرائر بدليل مقابلتهن بالمملوكات ، فإن حريتهن أحصنتهن عن ذلك الرق والابتذال ، والمعنى ومن لم يجد طول حرة أي ما يتزوج به الحرة المسلمة ﴿ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فلينكح امرأة أو أمة من النوع الذي ملكته أيمانكم ﴿ مِنْ فَتَياتِكُمُ المؤْمِناتِ ﴾ أي من إمائكم المسلمات ، والفتاة أصلها الشابة والأمة تسمى فتاة ، والعبد يسمى فتى للرق ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ ﴾ تأنيس بنكاح الإماء أي أعلم بتفاصيل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان ، فربما كان إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرة ، وإيمان المرأة من إيمان الرجل ، فلا ينبغي للمؤمن أن يطلب الفضل والرجحان ، إلا باعتبار الإيمان والإسلام ، لا

بالأحساب والأنساب ﴿ **بعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** ﴾ أنتم وأرقاؤكم نسبكم من آدم ، ودينكم الإسلام كما قيل :

النـاس من جهـة التمثـال أكْفَـاء * أبـوهمـو آدمٌ والأم حـواء

فبينكم وبين أرقائكم المؤاخاة الإيمانية ، لا يفضل حرٌّ عبداً إلا برجحان في الإيمان ، وَقِدَمٍ في الدين ﴿ **فَانْكِحُوْهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ** ﴾ أي فانكحوهن بإذن مواليهن ولا تترفعوا عنهن ، وفي اشتراط إذن المولى دون مباشرتهن للعقد ، إشعار بجواز مباشرتهنَّ له ﴿ **وَآتوهُنَّ أُجورَهُنَّ بالمعْروفِ** ﴾ أي أدوا إليهن مهورهن بغير مطل وضرار ، وإلجاء إلى الافتداء ﴿ **مُحْصَناتٍ** ﴾ أي حال كونهن عفائف عن الزنى ﴿ **غَيْرَ مُسافِحاتٍ** ﴾ أي غير مجاهرات به والمسافحُ : الزاني من السفح ، وهو صب المنيِّ ، لأن غرضه مجرَّدُ صب الماء ﴿ **ولا مُتّخِذاتِ أَخْدانٍ** ﴾ جمع خِدْن وهو الصديق سراً أي غير مجاهراتٍ بالزنى ولا مسَّراتٍ له ، وكان زناهن في الجاهلية من وجهين : السفاح وهو بالأجر من الراغبين فيها ، والمخادنة وهي مع صديق لها على الخصوص ، وكان الأول يقع إعلاناً ، والثاني سراً ، وكانوا لا يحكمون على ذات الخدن بكونها زانية ، ولذا أفرد الله كل واحد من هذين القسمين بالذكر ، ونص على حرمتهما معاً ﴿ **فإذا أُحْصِنَّ** ﴾ أي بالتزويج ﴿ **فإن أَتَيْنَ بفاحِشَةٍ** ﴾ أي فعلن فاحشة وهي الزنى ﴿ **فَعَلَيْهِنَّ** ﴾ فثابت عليهنَّ شرعاً ﴿ **نِصْفُ ما عَلَى المحصَناتِ** ﴾ أي الحرائر الأبكار ﴿ **مِنَ العَذابِ** ﴾ من الحد الذي هو جلد مائة ، فنصفه خمسون كما هو كذلك قبل الإحصان ، ولا رجم عليهن لأن الرجم لا يُتنصَّف ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي نكاح المملوكات عند عدم الطول ﴿ **لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ** ﴾ أي خاف الزنى ، وهو في الأصل انكسار العظم بعد الجبر ، فاستعير لكل مشقة وضرر ، وإنما سُمي الزنى به لأنه سبب المشقة ، بالحد في الدنيا والعقوبة في العقبى ﴿ **وَأَنْ تَصْبِروا** ﴾ أي عن نكاحهن متعففين ، كافين أنفسكم عما تشتهيه من المعاصي ﴿ **خيرٌ لَكُمْ** ﴾ من نكاحهن ، وإن سبقت كلمة الرخصة فيه لما فيه من تعريض الولد للرق ، ولأن حق المولى فيها فلا تخلص للزوج خلوص الحرائر ، ولأن المولى يقدر على استخدامها كيف ما يريد ، في السفر والحضر ، وعلى بيعها للحاضر والبادي ، وفيه من اختلال حال الزوج وأولاده مالا مزيد عليه ، ولأنها ممتهنة مبتذلة ، خرَّاجة ولاَّجة ، وذلك كله ذل ومهانة ، سارية إلى الناكح ، والعزَّةُ هي اللائقة بالمؤمنين ، ولأن مهرها لمولاها فلا تقدر على التمتع به ، ولا على هبته للزوج ، فلا ينتظم أمر المنزل ﴿ **وَاللهُ غَفورٌ** ﴾ لمن لم يصبر ﴿ **رَحيمٌ** ﴾ بالرخصة والتوسعة ، فنكاح الأمة عند الطَّوْل ، والقدرة على نكاح الحرة ، لا يحل عند الشافعي ، وعند الحنفية يحلُّ ما لم يكن عنده امرأة حرة ، ومحصَّله أن الشافعي أخذ بظاهر الآية ، وقال : لا يجوز نكاح الأمة إلا بثلاثة شرائط : اثنان في الناكح : عدمُ طَوْل الحرة ، وخشية العنت ، **والثالث** في المنكوحة وهي أن تكون أمة مؤمنة لا كافرة ، وعند أبي حنيفة شيء من

ذلك ليس بشرط ، فهو حمل عدم استطاعة الطول ، على عدم ملك فراش الحرة ، بأن لا يكون تحته حرة ، فحينئذ يجوز نكاح الأمة ، وحمل النكاح على الوطء ، وحمل قوله (**مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المؤْمِنَاتِ**) على الأفضل أي نكاح الأمة المؤمنة أفضل من نكاح الكتابية ، فجعله على الندب ، واستدل عليه بوصف الحرائر مع كونه ليس بشرط ، قال في التيسير ، وأما قوله (**مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المؤْمِنَاتِ**) ففيه إباحة المؤمنات ، وليس فيه تحريم الكتابيات ، فالغني والفقير سواء في جواز نكاح الأمة، سواء كانت مؤمنة أو يهودية أو نصرانية ، ثم اعلم أن النكاح من سنن المرسلين وشرعة المخلصين ، إلا أن الحال يختلف فيه باختلاف أحوال الناس ، فهو واجب بالنسبة إلى صاحب التوقان ، ومستحب بالنسبة إلى من كان في حد الاعتدال ، ومكروه بالنسبة إلى من عجز عن الوقاع والإنفاق ، ويختار للتزوج المرأة ذات الدين ، فإن المرأة الصالحة خير متاع الدنيا ، فإن بها يحصل تفريغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكلف بشغل الطبخ والكنس والفرش ، وتنظيف الأواني وتهيئة أسباب المعيشة ، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع ، لتعسر عليه العيش في منزله وحده ، إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاعت أكثر أوقاته ، ولم يتفرغ للعلم والعمل ، فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل ، معينة على الدين بهذا الطريق ، واختلال هذه الأسباب شواغل ، ومشوشات للقلب ومنغصات للعيش ، ولذلك قال أبو سليمان الداراني : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فإنها تفرّغك للآخرة ، ثم إن بعضهم اختاروا البكر ، وقالوا : إنها تكون لك : فأما الثيِّبُ فإن لم يكن لها ولد فنصفها لك ، وإن كان لها ولد فكلها لغيرك ، تأكل رزقك وتحب غيرك ، والحاصل أن اختيار نكاح المملوكات رخصة ، والصبر عنه عزيمة ، ولا ريب أن العزيمة أولى ، لأنه بالصبر يترقى العبد إلى الدرجات العلى ، ثم إن رحمته تعالى لعباده أوسع من أن تذكر ، ولذلك قال (**وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**) ومن جملة رحمته بيان طرائق من سلف وتقدم من أهل الرشاد ، ليسلكوا مناهجهم وينالوا المراد ، ﴿ **يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ** ﴾ أي يريد أن يبين لكم ، ما هو خفيٌ عنكم من مصالحكم ، وما تَعبَّدكم به من الحلال والحرام ﴿ **وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُمْ** ﴾ أي يدلكم على مناهج من تقدمكم ، من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿ **وَيتُوبَ عَلَيْكُمْ** ﴾ يرجع بكم عن معصيته إلى طاعته ، بالتوفيق للتوبة مما كنتم عليه من الخلاف ﴿ **وَاللهُ عَلِيمٌ** ﴾ بكم ﴿ **حَكِيمٌ** ﴾ فيما يريده لكم ﴿ **وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ** ﴾ بيانٌ لكمال منفعة ما أراده الله تعالى ، وكمال مضرة ما يريد الفجرة ، فلا تكرار ﴿ **وَيُرِيدُ الذّينَ يتَّبِعونَ الشّهواتِ** ﴾ يعني الفجرة ، فإن اتباع الشهوات الائتمار لها ﴿ **أَنْ تَميلُوا** ﴾ عن القصد والحق وتكونوا زناة مثلهم ﴿ **مَيْلاً عَظِيماً** ﴾ أي بالنسبة إلى ميل من اقترف خطيئة بلا استحلال ﴿ **يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ** ﴾ ما في عهدتكم من مشاق التكاليف ، فلذلك شرع لكم الحنيفة السمحة السهلة ، ورخَّص لكم في نكاح الأمة وغيره من الرخص ﴿ **وَخُلِقَ الإنْسانُ ضَعِيفاً** ﴾ عاجزاً عن مخالفة هواه ،

حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات ، قال الكلبي : لا يصبر عن النساء ، قال سعيد بن المسيب : ما أيس الشيطان من ابن آدم ، إلا أتاه من قبل النساء ، وقد أتى عليّ ثمانون سنة ، وذهبتْ إحدى عينيَّ وأنا أعشو بالأخرى ، وإنَّ أخوف ما أخاف على نفسي فتنة النساء ، وقال أبو هريرة : اللهمَّ إني أعوذ بك من أن أزني وأسرق ، فقيل له : كَبُرَ سنُّك وأنت صاحبُ رسول الله ﷺ ، أتخاف على نفسك من الزنى والسرقة ؟ قال : كيف آمنُ على نفسي وإبليس حيٌّ ؟

﴿ **يا أيُّها الذّينَ آمنُوا لا تأكُلوا** ﴾ أي لا تأخذوا وعبَّر عن الأخذ بالأكل ، لأن المقصود الأعظم من الأموال الأكل ، فكما أن الأكل محرم فكذلك سائر وجوه التصرفات ﴿ **أَمْوالَكُمْ بيْنَكُمْ بالباطِلِ** ﴾ أي بوجه غير شرعي كالغصب ، والسرقة ، والخيانة ، والقمار ، وعقود الربا ، والرشوة ونحوها ﴿ **إلاّ أنْ تَكونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ منْكُمْ** ﴾ استثناء منقطع أي إلا أن تكون الأموال أموال التجارة وتلحق بها أسباب الملك المشروعة كالهبة والصدقة والإرث لخروجها عن الباطل ، وإنما خصَّ التجارة بالذكر ، لكونها أغلب أسباب المكاسب وقوعاً ، وأوفقها لذوي المروآت ، والمراد بالتراضي مراضاة المتبايعين بما تعاقدا عليه في حال المبايعة ﴿ **ولا تَقْتُلوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ بإلقاء النفس إلى الهلكة أو بارتكاب المعاصي المؤدية إلى هلاكها في الدنيا والآخرة ، وقيل : المرادُ بالنفس من كان من جنسهم من المؤمنين ، فإن كلهم كنفس واحدة ﴿ **إنّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحيماً** ﴾ أي أمر بما أمر ، ونهى عما نهى ، لفرط رحمته بكم ﴿ **وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ** ﴾ أي القتل وسائر المحرمات المذكورة فيما قبل ﴿ **عُدْواناً وَظُلْماً** ﴾ إفراطاً في التجاوز عن الحد ، وإتياناً بمالا يستحقه أي متعدياً وظالماً ﴿ **فَسَوْفَ نُصْليهِ** ﴾ أي نُدخله ﴿ **نَاراً** ﴾ أي ناراً هائلة شديدة العذاب ﴿ **وكانَ ذَلكَ** ﴾ أي إصلاء النار ﴿ **عَلى اللهِ يَسيراً** ﴾ لتحقق الداعي وعدم الصارف ومعناه المبالغة في التهديد ، وهو أن أحداً لايقدر على الهرب منه ، ولا على الامتناع عليه ، فعلى العاقل أن يتجنب عن الوقوع في المهالك ، ويبالغ في حفظ الحقوق ، وقد جمع الله في التوصية بين حفظ النفس وحفظ المال ، لأنه شقيقها من حيث إنه سبب لقوامها ، وتحصيل كمالاتها ، واعلم أن أكل المال بالباطل ، مما يفسد دين الرجل ودنياه ، بل يضر بنفسه ويكون سبباً لهلاكه ، فإن بعض الأعمال يظهر أثره في الدنيا .

حكي أن بعض الملوك أرسل إلى الشيخ علاء الدولة غزالاً ، وقال إنها حلال ، فقال الشيخ : كنت بمشهد طوس فجاء إليَّ بعض الأمراء بأرنب ، قال : كل منها فإني رميتها بيدي ، فقلت الأرنب حرام على قول الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ، ثم إنه جاء يوماً بغزال ، فقال : كل منها فإني رميتها بسهم عملته بيدي على فرسٍ ورثتها عن أبي ، فقلت خطر ببالي أن واحداً من الأمراء جاء إلى مولانا الجمال

بأوزتين ، وقال : كل منهما فإني قد أخذتها ببازي ، فقال مولانا : ليس الكلام في الأوزتين وإنما الكلام في قوت البازي ، من دجاجة أي عجوز أكل حتى قوي للاصطياد ؟ فالغزال التي رميتها على فرسك ، وإن كانت من الصيد لكن قوت الفرس من شعير أي مظلوم حصل ؟ فلم يأكل منها ، وحكي أن خياطاً قال لبعض الكبار : هل أكون معيناً للظلمة بخياطة ثيابهم ؟ فقال : ليس الكلام فيك ، وإنما الكلام في الحدّاد الذي يعملُ الإبرة[1] ؟ والحاصل أنه لابد من الاهتمام في طلب الحلال ، وإن كان في زماننا هذا نادراً ، والوصول إليه عزيزاً .

﴿ **إن تَجْتَنِبوا** ﴾ الاجتناب التباعد ومنه الأجنبي ﴿ **كَبائِرَ ما تُنْهوْنَ عنْهُ** ﴾ كبائر الذنوب التي نهاكم الله ورسوله عنها ﴿ **نُكفِّرْ عنْكُمْ** ﴾ التكفير : إماطةُ المستحق من العقاب بثواب أزيد أو بتوبة ﴿ **سَيِّآتِكُمْ** ﴾ صغائركم ونمحها عنكم ﴿ **وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً** ﴾ بضم الميم اسم مكان هو الجنة ﴿ **كَرِيماً** ﴾ أي حَسَناً مرضياً ، قال المفسرون في قوله ﷺ « الصلاة إلى الصلاة ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفِّرات لما بينهن ـ أي من الصغائر ـ إذا اجتنبت الكبائر »[2] واختلف في الكبائر ، والأقرب أن الكبيرة كل ذنب ، رتَّب الشارع عليه الحد ، أو صرح بالوعيد فيه ، قال أنس بن مالك : « إنكم تعملون اليوم أعمالاً هي في أعينكم أدقُّ من الشعر ، كنا نُعدها على عهد رسول الله ﷺ من الكبائر » واعلم أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر ، وعند انتفاء الصغائر والكبائر، يمكن الدخول في المدخل الكريم وهو حضرة أكرم الأكرمين قال عليه السلام : (إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً)[3] ، وجملة الكبائر مندرجة في ثلاثة أشياء : **أحدهما** : اتباع الهوى ، والهوى ميلان النفس إلى ما يستلذ من الشهوات ، قال تعالى (**وَلاَ تتَّبَعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ**) **وثانيها** : حب الدنيا ، فإنه مطية كثير من الكبائر ، مثل القتل والظلم ، والغصب والنهب ، والسرقة والربا ، وأكل مال اليتيم ومنع الزكاة ، وأمثالها ، واليمين الغموس ولهذا قال تعالى (**وَمنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤتِهِ مِنْها وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ**) وقال عليه السلام (حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة)[4] **وثالثها** : رؤية التأثير لغير الله تعالى ، فإن منها ينشأ الشرك ، والنفاق ، والرياء وأمثاله ، ولهذا قال تعالى (**إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**) .

﴿ **وَلاَ تَتَمَنَّوْا** ﴾ التمني : عبارةٌ عن إرادة ما يُعلم أو يظن أنه لا يكون ﴿ **ما فضَّلَ اللهُ بهِ**

---

(١) هذا من الشيخ مبالغة في الورع والبعد عن الشبهات ، لينبّه المسلم إلى ضرورة التحري في أمور الحلال والحرام .

(٢) الحديث أخرجه مسلم والترمذي بلفظ : « الصلوات الخمس .. » الحديث وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٩٧ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم والترمذي وهو جزء من حديث طويل ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٥٦٥ .

(٤) أخرجه البيهقي عن الحسن مرسلاً وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ٦٨ .

﴿ بَعْضَكُمْ علىٰ بعْضٍ ﴾ أي عليكم أن لا تتمنوا ما أعطاه الله بعضكم ، من الأمور الدنيوية كالجاه والمال وغير ذلك ، مما يجري فيه التنافس ، فإن ذلك قسمة من الله تعالى ، صادرة عن تدبير لائق بأحوال العباد ، فعلى كل أحد من المفضَّل عليهم أن يرضى بما قسم الله له ، ولا يتمنى حظ المفضَّل ولا يحسده ، قيل : لما جعل الله تعالى في الميراث للذكر مثل حظ الأنثيين ، قالت النساء : نحن أحوج أن يكون لنا سهمان وللرجال سهم واحد ، لأنا ضعفاء وهم أقوياء ، وهم أقدر على طلب المعاش منا ، فنزلت الآية ﴿ للرِجالِ نَصيبٌ مّمّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ والمعنى لكلٍ من الفريقين في الميراث نصيب معين المقدار ، مما أصابه بحسب استعداده ، وقد عبر عنه بالاكتساب على طريقة الاستعارة التبعية تأكيداً لاستحقاق كل منهما لنصيبه ، وتقوية لاختصاصه به بحيث لا يتخطاه إلى غيره ﴿ واسْئَلوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي لا تتمنوا ما يختص بغيركم من نصيبه المكتسب له ، واسألوا الله تعالى ما تريدون من خزائن نعمه التي لا نفاذ لها فإنه يعطيكموه ﴿ إنّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ فهو يعلم ما يستحقه كل إنسان ، ففضَّله عن علم وحكمة وتبيان ، وقد يقال معناه : إنه لا يغتم لتفاوت الناس في المراتب والصنائع ، بأن يكون مثلاً بعضهم أميراً وبعضهم وزيراً ، وبعضهم أهل الصنائع ، لتوقف النظام عليه .

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ أي لكل تركةٍ ومال ﴿ جَعَلْنا مَوالِيَ ﴾ جمع مَوْلى أي ورثة متفاوتون في الدرجة ، يلونها ويحرزون منها أنصباءهم ، بحسب استحقاقهم ﴿ مِمَّا تَرَكَ الوالِدانِ والأقْربونَ ﴾ بيان لكل مع الفصل بالعامل وهو « جَعَلْنَا » والموالي : هم أصحاب الفرائض والعصبات وغيرهما من الورَّاث ، ويجوز أن يكون المعنى : ولكل قوم جعلناهم موالي ـ أي وُرَّاثاً ـ نصيبٌ معين ، مما ترك الوالدان والأقربون ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدتْ أيمانُكُمْ ﴾ هم موالي الموالاة ، كان الحليف يرثُ السدس من مال حليفه ، فنسخ بقوله تعالى (وَأُولُوا الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ) والمعنى عقدت أيمانكم عهودهم ، وهو مبتدأ متضمن لمعنى الشرط ، ولذلك صُدِّر الخبر ﴿ فآتوهُمْ نَصيبَهُمْ ﴾ بالفاء أي حظهم من الميراث ﴿ إنّ اللهَ كَانَ عَلىٰ كُلّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التي من جملتها الإيتاء والمنع ﴿ شَهيداً ﴾ أي شاهداً ففيه ترغيب في الإعطاء ، وتهديد على منع نصيبهم ، قال بعضهم : المرادُ (مِنَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ) الحلفاء ، والمراد بقوله ﴿ فآتُوهُمْ ﴾ النصرة والنصيحة والمصافاة في العشرة ، فعلى كل أحد أن ينصر أخاه المؤمن ، ويخالطه على وجه الخلوص والنصيحة ، لا على النفاق والعداوة ، قال ﷺ (مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[1] فالواجب أن يحبَّ المرءللناس ما يحبُّ لنفسه من الخير ، وينصح لهم في ظاهر الأمر ، فإن النصيحة عماد الدين ، ويزيل ما

(١) الحديث أخرجه الشيخان والإمام أحمد ، جامع الأصول ٦ / ٥٤٧ .

يوجب التأذي بالموعظة والزجر ، أي المنع عما لا يليق ، ويعاملهم بالرحمة والشفقة ، ولا يذكر أحداً بما يكره ، فإن مَلَكاً وُكِّل بالعبد يرد عليه ما يقول لصاحبه ، ولا يستبشر بمكروه أحدٍ كائناً من كان ، ويتودد إلى الناس بالإحسان إلى برهم وفاجرهم ، ويتحمل الأذى منهم ، وبه يظهر جوهر الإنسان ، ﴿ **الرِّجالُ قوَّامونَ عَلىٰ النِّسَاءِ** ﴾ قائمون بالأمر بالمصالح ، والنهي عن الفضائح ، قيام الولاة على الرعية ، مسلطون على تأديبهن ، وعلَّل ذلك بأمرين : وهبي، وكسبي فقال ﴿ **بما فَضَّلَ اللهُ بعْضَهُمْ على بَعْضٍ** ﴾ أي بسبب تفضيله الرجال على النساء ، بالحَزْم والعزة والقوة ، والحماسة والسماحة ﴿ **وَبِما أَنْفَقوا مِنْ أَمْوالِهِمْ** ﴾ أي وبسبب إنفاقهم من أموالهم في نكاحهن ، كالمهر والنفقة ، روي أن « سعد بن الربيع » أحد نقباء الأنصار رضي الله عنهم نشزت عليه امرأته « حبيبة بنت زيد » فلطمها ، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ . وشكا فقال عليه السلام : (لنقتصن منه ، فنزلت ، فقال ﷺ « أردنا أمراً وأراد الله أمراً ، والذي أراد الله خير) ورفع القصاص بينهما ﴿ **فَالْصَّالِحَاتُ** ﴾ منهن ﴿ **قَانِتَاتٌ** ﴾ مطيعات لله تعالى ، قائمات بحقوق الأزواج ﴿ **حَافِظاتٌ للغَيْبِ** ﴾ أي لما يجب عليهن حفظه ، في حال غيبة الأزواج ، من الفروج والأموال والبيوت ، وعن النبي ﷺ « خير النساء امرأة إن نظرت إليها سَرَّتك ، وإن أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها »[1] ﴿ **بما حَفِظَ اللهُ** ﴾ ما مصدرية أي بحفظ تعالى إياهن ، أي بالأمر بحفظ الغيب ، والحث عليه بالوعد والوعيد ﴿ **واللاتِي تَخافُونَ نُشوزَهُنَّ** ﴾ خطاب للأزواج وإرشاد لهم إلى طريق القيام عليهن ، أي تظنون عصيانهن وترفعهنَّ عن مطاوعتكم ﴿ **فَعِظُوْهُنَّ** ﴾ فانصحوهن بالترغيب والترهيب ، والعظةُ : كلام يلين القلوب القاسية ، ويُلطِّف الطبائع النافرة ، وهي بتذكير العواقب ﴿ **واهْجُروهُنَّ** ﴾ إن لم ينفع الوعظ والنصيحة ﴿ **في المضَاجِعِ** ﴾ أي في المراقد ، فلا تدخلوهن تحت اللحف ، ولا تباشروهن ﴿ **واضْرِبُوْهُنَّ** ﴾ إن لم ينجح ما فعلتم من العظة والهجران ضرباً ، غير مبرح ولا شائن ، ولا كاسر ولا خادش ، فالأمور الثلاثة مترتبة ينبغي أن يتدرج فيها ﴿ **فَإِنْ أَطعْنَكُمْ** ﴾ بذلك كما هو الظاهر ﴿ **فلا تَبْغُوا عَليْهِنّ سَبيلاً** ﴾ بالتوبيخ والأذية أي فأزيلوا عنهن التعرض ، واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ **إنّ اللهَ كانَ عَلِيّاً** ﴾ أي أعلى عليكم قدرةً منكم عليهنَّ ﴿ **كَبِيراً** ﴾ أي أعظم منكم عليهن ، فاحذروا مخالفته واعفوا عنهن إذا رجعن ، لأنكم تعصونه على علو شأنه وكبرياء سلطانه ، ثم تتوبون فيتوب عليكم ، فأنتم أحق بالعفو عمن جنى عليكم إذا رجع . وإذا وقف واطَّلع من زوجته على فجور - أي فسق أو فسادٍ أو ميل إلى الباطل - فإنه يطلقها إلا أن لا يصبر عنها فيمسكها ، روي أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله « إنَّ لي امرأة لا تردّ يد لامس ، قال :

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو داود بلفظ : « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرّته .. » الحديث وانظر جامع الأصول ٢ / ١٦٣ .

طلقها ، قال أخشى أن تتبعها نفسي ، قال : فأمسكها »[١] خوفاً عليه بأنه إن طلقها اتبعها وفسد هو أيضاً معها ، فرأى ما في دوام نكاحه من دفع الفساد عنه مع ضيق قلبه أولى ، فلابد للرجال من تحمل المكاره قال رسول الله ﷺ (أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة)[٢] وقال أيضاً (لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجه من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا)[٣].

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ أي ظننتم أيها الحكام ﴿ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾ أي خلافاً بين المرأة وزوجها ، ولا تدرون من قِبَل أيهما يقع النشوز ؟ ﴿ فَابْعَثُوا ﴾ أي إلى الزوجين لإصلاح ذات البين ﴿ حَكَماً ﴾ رجلاً عادلاً صالحاً للحكومة والإصلاح ﴿ مِنْ أَهْلِهِ ﴾ من أهل الزوج ﴿ وَحَكَماً ﴾ آخر على صفة الأول ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أي أهل الزوجة ، فإن الأقارب أعرف ببواطن أحوالهم ، وأطلب للصلاح بينهم ، وأنصح لهم وأسكن لنفوسهم ، لأن نفوس الزوجين تسكن إليهما ، وتُبرز ما في ضمائرهما من حب أحدهما الآخر وبغضه ﴿ إِنْ يُرِيدَا ﴾ أي الزوج والزوجة ﴿ إِصْلاحاً ﴾ لهما أي ما بينهما من الشقاق ﴿ يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا ﴾ يوقع بين الزوجين الموافقة والألفة ، بحسن سعي الحكمين ، ويلقي في نفوسهما المودة والرأفة ، وفيه تنبيه على أن من أصلح نيته فيما يتحراه ، وفّقه الله لما ابتغاه ﴿ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴾ بالظواهر والبواطن ، فيعلم كيف يرفع الشقاق ويوقع الوفاق ، وفي الآية حثٌّ على إصلاح ذات البين قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا بلى قال : إصلاح ذات البين »[٤] وقال ﷺ : « ألا إنما الدين النصيحة ـ قالها ثلاثاً ـ قالوا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المؤمنين ولعامتهم »[٥] فالنصيحة لله تعالى أن تؤمن بالله ولا تشرك به شيئاً ، وتعمل بما أمر الله تعالى به وتنتهي عما نهى عنه ، وتدعو الناس إلى ذلك وتدلهم عليه ، وأما النصيحة لرسوله أن تعمل بسنته وتدعو الناس إليها ، وأما النصيحة لكتابه أن تؤمن به وتتلوه ، وتعمل بما فيه وتدعو الناس إليه ، وأما النصيحة للأئمة أن لا تخرج عليهم بالسيف ، وتدعو لهم بالعدل والإنصاف ، وتدل الناس عليه ، وأما النصيحة للعامة فهو أن تحب لهم ما تحب لنفسك ، وأن تصلح بينهم ولا تهجرهم ، وتدعو لهم بالصلاح ، ولا شك أن المصلحين هم خيار الناس ، بخلاف المفسدين فإنهم شرار

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود والنسائي ٦ / ٦٧ في النكاح بلفظ : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إن امرأتي لا تردُّ يد لامس .. » الحديث وانظر جامع الأصول ١١ / ٥٣٣ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . جامع الأصول ٦ / ٤٩٥

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في الرضاع وإسناده حسن ، جامع الأصول ٦ / ٤٩٦ .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي ومالك في الموطأ وأحمد في المسند . جامع الأصول ٦ / ٦٦٨ .

(٥) الحديث أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي .

الخلق ، إذ هم يسعون في الأرض بالفساد ، وإيقاظ الفتنة دون إزالتها ، وقد ورد (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها)[1] ﴿ **واعْبُدوا اللهَ** ﴾ العبادةُ : عبارة عن كل فعلٍ وترك يُؤمر به ، بمجرد أمر الله تعالى بذلك ، وهذا يدخل فيه جميع أعمال القلوب ، وجميع أعمال الجوارح ﴿ **وَلا تُشْرِكوا بِهِ شَيْئاً** ﴾ من الأشياء صنماً أو غيره ، أو شيئاً من الإشراك جليّاً وهو الكفر ، أو خفيّاً وهو الرياء ﴿ **وَبِالوَالِدَيْنِ إحْساناً** ﴾ أي وأحسنوا إليهما إحساناً، وبدأ بهما لأن حقهما أعظم حقوق البشر ، فالإحسان إليهما بأن يقوم بخدمتهما ، ولا يرفع صوته عليهما ، ولا يخشن في الكلام معهما ، ويسعى في تحصيل مطالبهما ، والإنفاق عليهما بقدر القدرة ﴿ **وَبِذِي القُرْبىٰ** ﴾ وبصاحب القرابة من أخ أو عم أو خال أو نحو ذلك ﴿ **وَاليَتَامَىٰ** ﴾ بإنفاق ما هو أصلح لهم ،أو بالقيام على أموالهم إن كان وصيّاً ﴿ **وَالمَسَاكِينِ** ﴾ بأنواع البرّ والصدقات وإطعام الطعام ﴿ **وَالجَارِ ذِي القُرْبَىٰ** ﴾ أي القريب جوارُه ،أو الذي له مع الجوار اتصال بنسب أو دين ﴿ **وَالجَارِ الجُنُبِ** ﴾ أي البعيد أو الذي لا قرابة له ،وعنه عليه السلام« الجيران ثلاثة :فجارٌ له ثلاثة حقوق : حق الجوار ، وحق القرابة ، وحق الإسلام » وجار له حقان « حق الجوار ، وحق الإسلام ، وجار له حق واحد ، هو حق الجوار وهو الجار من أهل الكتاب »[2] ﴿ **والصَّاحِبِ بِالجَنْبِ** ﴾ أي الرفيق في أمر كتعلم وصناعة وسفر ، فإنه صحبك وحصل بجانبك ، ومنهم من قعد بجنبك في مسجد أو مجلس ، فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه ، وتجعله ذريعة إلى الإحسان ﴿ **وابْنِ السَّبِيلِ** ﴾ هو المسافر الذي سافر عن بلده ، والإحسان بأن تؤويه وتزوده ﴿ **وَما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ من العبيد والإماء ، والإحسان إليهم بأن يؤدبهم ، ولا يكلفهم مالا طاقة لهم ، ولا يؤذيهم بالكلام الخشن، بل يعاشرهم معاشرة حسنة ويعطيهم من الطعام والكسوة ما يحتاجون إليه ﴿ **إنّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً** ﴾ أي متكبراً يأنف من أقاربه وجيرانه وأصحابه ، ولا يلتفت إليهم ﴿ **فَخُوراً** ﴾ بما لا يليق به أي يتفاخر عليهم ولا يقوم بالحقوق ﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ** ﴾ بما منحوا به ﴿ **وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبُخْلِ** ﴾ أي يدعونهم إلى البخل وعدم الإنفاق ﴿ **وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ أي من المال والغنى ﴿ **وَأَعْتَدْنَا لِلكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً** ﴾ وَضْعُ الظاهر موضع المضمر ، إشعارٌ بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله ، والآية نزلت في طائفة من اليهود ، كانوا يقولون للأنصار بطريق النصيحة : لا تنفقوا أموالكم فإنّا نخشى عليكم الفقر ﴿ **وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النّاسِ** ﴾ أي للفخار ، وليقال : ماأسخاهم وما أجودهم ؟ لا لابتغاء وجه الله ، وإنما شاركهم في الذم والوعيد ، لأن البخل والسرف طرفا نقيضٍ ، بين تفريط وإفراط ، وهما سواء في القبح ، واستتباع الذم واللوم ﴿ **وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِاليَوْمِ الآخِرِ** ﴾ ليحوزوا بالإنفاق مراضيه وثوابه ، وهم

(١) رواه الرافعي عن أنس رضي الله عنه ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٨٠ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام الطبراني والبزار ، وأبو نعيم في الحلية بنحوه ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ٦٧ .

مشركو مكة المنفقون أموالهم في عداوة رسول الله ﷺ ﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً ﴾ أي بئس الصاحب والمقارن الشيطان وأعوانه ، حيث حملوهم على تلك القبائح وزينوها لهم ﴿ ومَاذا عَلَيْهِمْ ﴾ أي على من ذكر من الطوائف ﴿ لو آمَنُوا بِاللهِ واليوم الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ ﴾ أي وما الذي عليهم في الإيمان بالله تعالى ، والإنفاق في سبيله ؟ وهو توبيخ لهم على الجهل بمكان المنفعة ، وتحريض على التفكر لطلب الجواب ﴿ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ ﴾ وبأحوالهم المحققة ﴿ عَلِيماً ﴾ عالماً بشئونهم فهو وعيد لهم بالعقاب ، فقد أخبر الله تعالى بدناءة همه الأشقياء وقصور نظرهم ، وأنهم يقنعون بقليل من الدنيا الدنيّة ، ويحرمون من كثير من المقامات الأخروية السنية ، قال بعض الحكماء : مَثَل من يعمل الطاعات للرياء والسمعة ، كمثل رجل خرج إلى السوق وملأ كيسه حصى ، فيقول الناس : ما أملأ كيس هذا الرجل ، ولا منفعة له سوى مقالة الناس ، ولو أراد أن يشتري به شيئاً لا يُعْطى له شيء ، كذلك الذي عمل للرياء والسمعة ، **قال حامد اللفَّاف** : إذا أراد الله هلاك امرىء عاقبه بثلاثة أشياء : **أولها** : يرزقه العلم ويمنعه من عمل العلماء ، **والثاني** : يرزقه صحبة الصالحين ويمنعه عن معرفة حقوقهم ، **والثالث** : يفتح عليه باب الطاعة ويمنعه الإخلاص ، وإنما يكون ذلك المذكور لخبث نيته ، وسوء سريرته ، لأن النية لو كانت صحيحة لرزقه الله منفعة العلم ، وإخلاص العمل .

﴿ إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ لا يُنقص من الأجر ولا يزيد في العقاب شيئاً مقدار ذرة ، وهي النملة الصغيرة الحمراء التي لا تكاد ترى من صغرها ، أو الصغير جداً من أجزاء التراب ، أو ما يظهر من أجزاء الهباء المنبث الذي تراه في البيت من ضوء الشمس ، وهو الأنسب بمقام المبالغة ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً ﴾ أي وإن يك مثقال الذرة حسنة ﴿ يُضَاعِفْهَا ﴾ أي يضاعف ثوابها ﴿ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ ويعط صاحبها من عنده ، على سبيل التفضُّل ﴿ أَجْراً عَظِيماً ﴾ عطاءً جزيلاً ، وإنما سماه أجراً لكونه تابعاً للأجر مزيداً عليه ، ورد في الخبر الصحيح (إن الله تعالى يقول لملائكته حين دخل أهل الجنة : أطعموا أوليائي فيُؤتون بألوان الأطعمة ، فيجدون لكل لقمةٍ لذّةً غير ما يجدون للأخرى ، فإذا فرغوا من الطعام ، يقول الله تعالى : اسقوا عبادي فيُؤتون بأشربة فيجدون لكل شربة لذة بخلاف الأخرى ، فإذا فرغوا يقول الله تعالى : أنا ربكم قد صدقتكم وعدي ، فاسألوني أعطكم ، قالوا ربنا : نسألك رضوانك مرتين أو ثلاثا ، فيقول رضيت عنكم ولديَّ المزيد ، فاليوم أكرمكم بكرامة أعظم من ذلك كله ، فيكشف الحجاب فينظرون إليه ما شاء الله ، فيخرون إليه سُجَّداً ، فيكونون في السجود ما شاء الله تعالى ، ثم يقول لهم : ارفعوا رءوسكم ليس هذا موضع عبادة ، فينسون كل نعمة كانوا فيها ، ويكون النظر إليه

أحب إليهم من جميع النعم)[١].

﴿ فَكَيْفَ ﴾ أي فكيف يصنع هؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى وغيرهم ﴿ إذا جِئْنَا ﴾ يوم القيامة ﴿ مِنْ كُلّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم ﴿ بِشَهِيدٍ ﴾ يشهد عليهم وهو نبيهم ﴿ وَجِئْنا بِكَ ﴾ أحضرناك يا محمد ﴿ عَلىٰ هَؤلاءِ ﴾ إشارة إلى العُصاة والمجرمين ﴿ شَهِيداً ﴾ تشهد عليهم بالكفر والعصيان ، كما يشهد سائر الأنبياء على أممهم ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذّينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ ﴾ أي يتمنى الذين جمعوا بين الكفر وعصيان الرسول ﴿ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ ﴾ لو بمعنى « أن » المصدرية أي يودون أن يدفنوا فتسوَّى بهم الأرض كالموتى ، أو يودون أنهم لم يبعثوا ولم يخلقوا وكأنهم والأرض سواء ﴿ ولا يَكْتُمونَ اللهَ حَدِيثاً ﴾ ولا يقدرون على كتمانه ، لأن جوارحهم تشهد عليهم ، إذ روي أنهم إذا قالوا ذلك ختم الله على أفواههم ، فتشهد عليهم جوارحهم ، فيشتد الأمر عليهم فيتمنون أن تُسوَّى بهم الأرض ، قال رسول الله ﷺ (يُدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك فيقول اللهُ له هل بلغت ؟ فيقول نعم ياربّ ، فيقال لأمته : هل بلَّغكم ؟ فيقولون : ما جاءنا من نذير ، فيقول من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلَّغ ، فذلك قوله تعالى (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُم شَهِيداً) ثم يدعى غيره من الأنبياء عليهم السلام)[٢] الحديث * وذكر أبو حامد[٣] أن هذا يكون بعد ما يحكم الله تعالى بين البهائم ، ويقتص للجماء من القرناء ، ويفصل بين الوحوش والطير ثم يقول لهم : كونوا تراباً فتُسوَّى بهم الأرض ، فحينئذ يودُّ الذين كفروا وعصو الرسول لو تُسوَّى بهم الأرضُ ، ويتمنى الكافر أن يكون تراباً فيقول : (يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً) . واعلم أنه يعرض على النبي عليه السلام أعمال أمته ، فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم ، وتُعرض على رسول الله يوم الخميس ويوم الإثنين ، وعلى الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة . فتفكر يا أخي - وإن كنت شاهداً عدلاً - بأنك مشهود عليك ، في كل أحوالك من فعلك ومقالك ، وأعظم الشهود لديك المطلع عليك ، الذي لا يخفى عنه زمان ولا أين ، فاعمل عمل من يعلم أنه راجع إليه وقادم عليه ، يجازي على الصغير والكبير ، والقليل والكثير ، فلا تضيِّعْ أيامك ، فإن أيامك رأس مالك ، فإن كنتَ قابضاً على رأس مالك ، فإنك قادر على طلب الربح ، لأن بضاعة الآخرة كاسدة في يومك هذا ، فاجتهد حتى تجمع بضاعة الآخرة في وقت الكساد ، فإنما يجيء يوم تصير هذه البضاعة عزيزة ، فأكثرُ منها في يوم الكساد ليوم العزة فإنك لا تقدر على طلبها في ذلك اليوم ، روي أن الموتى يتمنون أن يُؤذن لهم بأن يصلّوا ركعتين أو يؤذن لهم أن يقولوا مرة واحدة لا إله

---

(١) هذا الخبر لم أره بهذا اللفظ ، وله شواهد في الصحيح في باب رؤية الله عز وجل في الجنة ، وانظر جمع الفوائد ٢ / ٤٨٧ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري والترمذي والنسائي بنحوه ، ورواه أحمد في المسند ، وانظر تفسير ابن كثير ١ / ١٣٦ .

(٣) المراد به الإمام الغزالي رحمه الله في كتاب « إحياء علوم الدين » .

إلا الله ، أو يؤذن لهم في تسبيحة واحدة فلا يؤذن لهم ، ويتعجبون من الأحياء كيف أنهم يضيعون أيامهم في الغفلة ؟!

﴿ يا أيُّها الذّينَ آمنُوا لا تَقْرَبُوا الصّلٰوةَ وأنْتُمْ سُكارىٰ حتّى تَعْلَموا ما تَقُولُونَ ﴾ روي أن « عبد الرحمن بن عوف » صنع طعاماً وشراباً ، فدعا نفراً من أفاضل الصحابة رضي الله عنهم ـ حين كانت الخمر مباحة ـ فأكلوا وشربوا ، فلما ثملوا وجاء وقت صلاة المغرب قدَّموا أحدهم ليصلي بهم ، فقرأ « قل يا أيها الكافرون . أعبد ما تعبدون . وأنتم عابدون ما أعبد » إلى آخرها بطرح اللاآت فنزلت ، فكانوا لا يشربون في أوقات الصلاة ، فإذا صَلَّوا العشاء شربوها ، فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر ، وعلموا ما يقولون ، ثم نزل تحريمها القاطع ، وتوجيهُ النهي إلى قربان الصلاة مع أن المراد هو النهي عن إقامتها ، للمبالغة في ذلك ، قال في التيسير : ثم النهي ليس عن عين الصلاة ، فإنها عبادة فلا ينهى عنها ، بل هو نهي اكتساب السكر ، الذي يعجز به عن الصلاة على الوجه الشرعي الصحيح ، قال الإمام أبو منصور : وكذلك قول رسول الله ﷺ (لا صلاة للعبد الآبق ولا للمرأة الناشزة) ليس فيه النهي عن الصلاة ، لكن النهي عن الإباق والنشوز ، وهذا لأن الإباق والنشوز والسكر ليست بالتي تعمل في إسقاط الفرض ، فالمعنى لا تقيموها حالة السكر ، حتى تعلموا قبل الشروع ما تقولون ، إذ بهذه التجربة يظهر أنهم يعلمون ما سيقرءونه في الصلاة ، والسكر اسم لحالة تعرض بين المرء وعقله ، وأكثر ما يكون من الشراب ، وقد يكون من العشق والنوم والغضب والخوف ، لكنه حقيقة في الأول فيحمل عليه هنا ، والسكارى : جمع سكران ، كالكسالى جمع كسلان ، وأجمعوا على أنه لا يجوز بيع السكران وشراؤه ، ويؤاخذ بالأعمال والقتل والحدود ، وصحَّ طلاقه وعتقه عقوبةً له عندنا ، خلافاً للشافعي ﴿ وَلا جُنُباً ﴾ عطف على قوله وأنتم سكارى كأنه قيل : لا تقربوا الصلاة سكارى ولا جنباً ، والجُنُب : من أصابته الجنابة يستوي فيه المؤنث والمذكر ، والواحد والجمع ، لجريانه مجرى المصدر ، وأصل الجنابة : البعدُ ، والجنبُ مبعد عن القراءةِ ، والصلاةِ وموضعها ﴿ إلاّ عَابِري سَبيلٍ ﴾ استثناء مفرغ أي لا تقربوا الصلاة جنباً في حال من الأحوال ، إلا حال كونكم مسافرين ، فتعذرون بالسفر ﴿ حتّى تَغْتَسِلوا ﴾ غاية للنهي عن قربان الصلاة حالة الجنابة ، وفي الآية الكريمة إشارة إلى أن المصلي حقُّه أن يتحرز عما يلهيه ويشغل قلبه ، وأن يُزكِّي نفسه عما يدنسها ، ولا يكتفي بأدنى مراتب التزكية .

﴿ وَإنْ كُنْتُمْ مَرْضىٰ ﴾ جمع مريض ، والمرض على ثلاثة أقسام : **أحدها** : أن يكون بحيث لو استعمل الماء لمات ، كما في القروح[1] العظيمة ، **وثانيها** : أن لا يموت باستعمال الماء ، ولكنه يجد الآلام

(١) المراد بها الجروح الخطيرة ، وأكثر ما تكون في زماننا من إجراء العمليّات الجراحية التي يُجريها الأطباء .

العظيمة ، ويشتد مرضه أو يمتد ، **وثالثها** : أن لايخاف الموت ولا الآلام الشديدة ، لكنه يخاف بقاء عيب في البدن ، فالفقهاء جوَّزوا التيمم في القسمين الأولين ، وما جوَّزوه في القسم الثالث ﴿ **أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ** ﴾ أو كنتم على سفر ،وتعليق التيمم بالمرض والسفر - مع أن الحكم كذلك في كل موضع تحقق العجز ، حتى قال أبو حنيفة : يجوز التيمم للجنابة في المصر إذا عدم الماء الحار - لأن العجز عن استعمال الماء يقع فيهما غالباً ﴿ **أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ** ﴾ وهو المكان المنخفض المطمئن ، والمجيء منه كناية عن الحدث ، لأن المعتاد أن من يريده يذهب إليه ، ليواري شخصه عن أعين الناس ﴿ **أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ** ﴾ أي جامعتموهن يعني إذا أصابكم المرض ، أو السفر ، أو الحدث ، أو الجنابة ﴿ **فَلَمْ تَجِدوا ماءً** ﴾ أي لم تقدروا على استعماله ، لعدمه أو لبعده ، أو لفقد آلة الوصول إليه ، من الدلو والرشاء ، أو المانع عنه من حية أو سبع أو عدوٍّ ﴿ **فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً** ﴾ فاقصدوا شيأ من وجه الأرض طاهراً ، قال الزجاج :الصعيدُ: وجه الأرض ، تراباً أو غيره ، وإن كان صخراً لا تراب عليه ، لو ضرب المتيمم يده عليه ومسح لكان ذلك طهوره ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ﴿ **فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيديكُمْ** ﴾ إلى المرفقين ، لما روي أنه ﷺ تيمَّ ومسح يديه إلى مرفقيه ، ولأنه بدل من الوضوء فيتقدر بقدره ، والباء زائدة أي فامسحوا وجوهكم وأيديكم منه ، أي من الصعيد ﴿ **إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً** ﴾ تعليل للترخيص والتيسير ، فإن مَنْ عادتُه المستمرة أن يعفو عن الخطائين ، ويغفر للمذنبين ، لابد من أن يكون ميسِّراً لا معسِّراً ، ولهذا قال ﷺ : « بعثتُ بالحنيفيَّة السَّمحة »[1].

﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ الخطاب لكل من يتأتى منه الرؤية من المؤمنين ﴿ **إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً** ﴾ حظّاً كائناً ﴿ **مِنَ الكِتابِ** ﴾ من علم الكتاب وهو التوراة ، والمراد بهم أحبار اليهود ، أي ألم تنظر إليهم فإنهم أحقاء بأن تشاهدهم وتتعجب من أحوالهم ؟ نزلت في حَبْرين من أحبار اليهود ، كانا يأتيان رئيس المنافقين « عبد الله بن أبيٍّ » ورهطه يثبطانهم عن الإسلام ﴿ **يَشْتَرونَ الضَّلالَةَ** ﴾ يأخذون الضلالة ويتركون ما أوتوه من الهداية ﴿ **وَيُرِيدونَ** ﴾ أي لا يكتفون بضلالة أنفسهم ، بل يريدون ﴿ **أَنْ تَضِلُّوا** ﴾ أنتم أيضا أيها المؤمنون ﴿ **السَّبيلَ** ﴾ المستقيم الموصل إلى الحق ، وإنما أرادوا ذلك لتكون لهم الرياسة على الكل ﴿ **وَاللهُ أَعلَمُ** ﴾ أي منكم ﴿ **بِأَعْدَائِكُمْ** ﴾ جميعاً وقد أخبركم بعدواتهم وما يريدون لكم ، لتكونوا على حذر منهم ومن مخالطتهم ، أو هو أعلم بحالهم ومآل أمرهم ﴿ **وَكَفَىٰ بِاللهِ وَلِيّاً** ﴾ متكفلاً في جميع أموركم ومصالحكم ﴿ **وَكَفَىٰ بِاللهِ نَصيراً** ﴾ فثقوا به واكتفوا بولايته ونصرته ، ولا تتولوا غيره، فإنه تعالى معين يكفيكم مكرهم وشرهم ، ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا** ﴾ أي من الذين هادوا قوم

(١) الحديث أخرجه الخطيب عن جابر بن عبد الله مرفوعاً ولفظه : « بعثتُ بالحنيفية السمحة ، ومن خالف سنتي فليس منّي » وانظر الفتح الكبير ٢ / ٧ .

﴿ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ أي يزيلونه عن مكانه ؛ لأنهم غيّروه ووضعوا مكانه غيره ، فقد أزالوه عن مواضعه التي وضعه الله فيها ، وأمالوه عنها ، والتحريف نوعان : **أحدهما** : صرف الكلام إلى غير المراد ، بضرب من التأويل الباطل ، كما يفعل أهل البدعة في زماننا هذا ، بالآيات المخالفة لمذاهبهم ، **والثاني** : تبديل الكلمة بأخرى وكانوا يفعلون ذلك ، نحو تحريفهم في نعت النبي ﷺ أسمر ربعة ، بوضعهم آدم طوال مكانه ، ونحو تحريفهم الرجم ، بوضعهم الحدَّ بدله ﴿ وَيَقولونَ ﴾ في كل أمر مخالف لأهوائهم الفاسدة ﴿ سَمِعْنا ﴾ قولك ﴿ وَعَصَيْنَا ﴾ أمرك ، عناداً وتحقيقاً للمخالفة ﴿ واسْمَعْ ﴾ أي قولنا ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ وهو كلام ذو وجهين : **أحدهما** : المدح بأن يحمل على معنى اسمع غير مسمع مكروهاً ، **والثاني** : الذم بأن يحمل على معنى اسمع حال كونك غير مسمع كلاماً أصلا بصم أو موت ، أي مدعواً عليك بلا سمعتُ، لأنه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع فكان أصم غير مسمع، فكأنهم قالوا ذلك تمنّياً لإجابة دعوتهم عليه، كانوا يخاطبون به النبي عليه السلام مظهرين له إرادة المعنى الأول، وهم مضمرون في أنفسهم المعنى الأخير مطمئنون به ﴿ وَرَاعِنَا ﴾ كلمة ذات جهتين أيضا ، محتملة للخير بحملها على معنى ارقبنا وانتظرنا ، واصرف سمعك إلى كلامنا نكلمك ، وللشر بحملها على السب بالرعونة أي الحمق أو بإجرائها مجرى الشتيمة والإهانة ، ويظهرون التوقير والاحترام ﴿ لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ أي يقولون ذلك للفتل بها ولصرف الكلام عن نهجه ﴿ وَطَعْناً فِي الدِّينِ ﴾ أي قدحاً فيه بالاستهزاء والسخرية ﴿ ولوْ أَنَّهُمْ ﴾ عندما سمعوا شيأ من أوامر الله ونواهيه ﴿ قَالوا ﴾ مكان قولهم سمعنا وعصينا ﴿ سَمِعنا وَأَطَعْنا ﴾ وبدل قولهم«واسمع غير مسمع»﴿ واسْمعْ ﴾ ولا يلحقون به غير مسمع ، وبدل قولهم راعنا ﴿ وانْظُرْنا ﴾ ولم يدسوا تحت كلامهم شراً وفساداً ، أي لو ثبت أنهم قالوا هذا مكان ما قالوا من الأقوال ﴿ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ ﴾ مما قالوا ﴿ وَأَقْوَمَ ﴾ أي أعدل وأسدَّ في نفسه وأصوب ، من القيِّم أي المستقيم ﴿ ولكنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي ولكن قالوا ذلك واستمروا على كفرهم فخذلهم الله، وأبعدهم عن الهدى بسبب كفرهم وضلالهم ﴿ فَلاَ يُؤمِنونَ ﴾ بعد ذلك ﴿ إلاَّ قَليلاً ﴾ أي لا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً ، وهو إيمانهم بموسى وكفرُهم بمحمد عليه السلام ، وفي هذه الآية تقبيح لعلماء السوء الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة قال ﷺ في الحديث : (من تعلَّم علماً ممَّا يُبْتغى به وجهُ الله تعالى ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة)[1]أي ريحها ، قال الشيخ الشاذلي : العلم النافع هو الذي يستعان به على طاعة الله ، ويُلزمكَ المخافةَ من الله والوقوف على حدود الله ، وهو علم المعرفة بالله ، وقال الشيخ أبو الحسن : العلوم كالدنانير والدراهم ، إن شاء نفعك بها وإن شاء أضرك معها ، والعلم إن قارنَتْه الخشية فلك أجره ، وثوابه ، وإلا فعليك وزره وعقابه ، وقيام الحجة به ، وعلامةُ خشية الله تركُ الدنيا والخلق ، ومحاربة

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب العلم رقم / ٣٦٦٤ / وابن ماجه رقم / ٢٥٢ / وانظر جامع الأصول ٤ / ٥٤٤ .

النفس والشيطان ، قال الشاعر :

لَـوْ كَـانَ فِي العِلْمِ مِنْ دُونِ التُّقَى شَرَفٌ * لَكَـــانَ أَشْرفَ خَلْـــقِ اللهِ إِبْلِيسُ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوْتُوْا الكِتَابَ ﴾ أي التوراةَ ﴿ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا ﴾ من القرآن حال كونه ﴿ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ ﴾ من التوراة ، ومعنى تصديقه إياها كونه موافقاً لها في القصص والمواعيد ، والدعوة إلى التوحيد ، والعدل بين الناس ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً ﴾ الطمسُ : محو الآثار وإزالة الأعلام ، أي آمنوا مِن قبل أن نمحو تخطيط صورها ، ونزيل آثارها ، من عينٍ، وحاجبٍ، وأنفٍ وفم ﴿ فنرُدَّها عَلَىٰ أَدْبارِها ﴾ فنجعلها على هيئة أدبارها ، وهي الأقفاء مطموسة مثلها ، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما : نجعلها كخفِّ البعير وحافر الدابة ، ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ ﴾ أو نخزي أصحاب الوجوه بالمسخ ﴿ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ مسخناهم قردة وخنازير ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ ﴾ أي عذابه ﴿ مَفْعولاً ﴾ كائناً لا محالة ، وهذا وعيد شديد لهم ، يعني فكونوا على حذر من هذا الوعيد ، وارجعوا عن الكفر إلى الإيمان ، والإقرار بالتوبة والاستغفار .

﴿ إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ أي لا يغفر الكفر بلا توبة وإيمان ، لأن الحكمة مقتضية لسد باب الكفر ، ولأن ظلمات الكفر والمعاصي ، إنما يسترها نور الإيمان ، فمن لم يكن له إيمان لم يغفر له شيء من الكفر والمعاصي ﴿ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذلكَ ﴾ أي ويغفر ما دون الشرك من المعاصي ، صغيرة كانت أو كبيرة ، تفضلاً من لدنه وإحساناً من غير توبة عنها ، لكن لا لكل أحد بل ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يغفر له ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً ﴾ أي من افترى واختلق مرتكباً إثماً فلا تتعلق به المغفرة قطعاً ، وهذه الآية تُؤذن بأن ما دون الشرك من الذنب مغفور ، بالوعد المعلّق بالمشيئة من الكريم ، خصوصاً لعباده الموحدين المخلصين كما قال سبحانه (إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) وقال رسول الله ﷺ (من مات لا يشركُ بالله شيأ دخل الجنة)[1] ورأى شريح في مرض موته كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه وتعالى يقول : أين العلماء ؟ فجاؤا فقال : ماذا عملتم فيما علمتم ؟ فقلنا : يا ربّ قصَّرنا وأسأنا ، فأعاد السؤال فكأنه لم يرض به ، وأراد جواباً آخر ، فقلت : أما أنا فليس في صحيفتي شرك ، وقد وعدَت أن تغفر ما دونه ، فقال الله تعالى : إذهبوا فقد غفرت لكم ، ومات شريح بعده بثلاث ليال ، وهذا من حسن الظن بالله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفسَهُمْ ﴾ خطاب للنبي عليه السلام على وجه التعجيب ، أي ألم تنظر إلى اليهود ، الذين يطهّرون نفوسهم من الذنوب ، بقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وبقولهم نحن كالأولاد الصغار فهل علينا ذنب ؟ أي انظر اليهم وتعجَّبْ

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه رقم / ٩٢ / في الإيمان ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٦٤ .

من حالهم ، وادعائهم أنهم أزكياء عند الله ، مع ما هم عليه من الكفر والإثم العظيم ، واللفظ عام يشمل كل من زكّى نفسه ، ووصفها بزيادة التقوى والطاعة ، ففيه تحذير من إعجاب المرء بعمله ﴿ **بَلِ اللهُ** ﴾ يعني هم لا يزكونها في الحقيقة ، لكذبهم وبطلان اعتقادهم ، بل الله ﴿ **يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ** ﴾ تزكيته ممن يستأهلها من المرتضين من عباده المؤمنين ، فإنه العالم بما ينطوي عليه الإنسان من حسن وقبيح ، وقد وصفهم بما هم متصفون به من القبائح ﴿ **ولا يُظْلَمونَ** ﴾ أي يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب ﴿ **فَتِيلاً** ﴾ أي أدنى ظلم وأصغره ، وهو الخيط الذي في شق النواة ، يضرب به المثل في القلّة والحقارة ﴿ **انْظر كَيْفَ يفْتَرونَ عَلىٰ اللهِ الكَذِبَ** ﴾ في زعمهم أنهم أبناء الله ، وأزكياء عنده ، والتصريح بالكذب للمبالغة في تقبيح حالهم ﴿ **وَكَفىٰ بِهِ** ﴾ بافترائهم هذا مع قطع النظر عن سائر آثامهم العظام ﴿ **إِثْماً مُبيناً** ﴾ ظاهراً بيّناً كونه إثماً ، ولو لم يكن لهم من الذنوب إلا هذا الافتراء ، لكان إثماً عظيماً ، قال الإمام أبو منصور رحمه الله : قول الرجل أنا مؤمن ليس بتزكية النفس ، بل إخبار عن شيء أكرم به ، وإنما التزكية أن يرى نفسه تقياً صالحاً ويمدح به ، قال السري : من تزّين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى ، فيجب على العبد المؤمن أن يمتنع عن مدح نفسه ، ألا يرى إلى قوله عليه السلام « أنا سيد ولد آدم »[1] كيف عقّبه بقوله « ولا فخر » أي لست أقول هذا تفاخراً ، كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم ، لأن افتخاره عليه السلام كان بالله ، لا بكونه مقدّماً على أولاد آدم .

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلىٰ الذّينَ** ﴾ إلى اليهود الذين ﴿ **أُوتُوا نَصيباً مِنَ الكِتابِ** ﴾ حظاً من علم التوراة أي انظر يا محمد وتعجّبْ من حالهم ﴿ **يُؤمِنونَ بِالجِبْتِ** ﴾ اسم صنم واستعمل في كل ما عُبد من دون الله ﴿ **وَالطَّاغُوتِ** ﴾ الشيطان ويطلق لكل باطل من معبود أو غيره ، روي أن « حيَّ بن أخطب » و« كعب بن الأشرف» اليهوديين ، خرجا إلى مكة في سبعين راكباً من اليهود ليحالفوا قريشاً على محاربة رسول الله ﷺ ، وينقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه عليه السلام فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأنتم أقرب إلى محمد فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم ، ففعلوا ، فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت ، لأنهم سجدوا للأصنام وأطاعوا إبليس فيما فعلوا ، وقال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميُّون لا نعلم ، فأينا أهدى طريقاً نحن أم محمد ؟ فقال وماذا يقول محمد : قال يأمر بعبادة الله تعالى وحده ، وينهى عن الشرك ، قال وما دينكم ؟ قالوا : نحن ولاة البيت نسقي الحاج ، ونقري الضيف ، ونفكُّ العاني، فقال: أنتم أهدى سبيلاً وذلك قوله تعالى ﴿ **وَيَقُوْلُونَ للذّينَ كَفَرُوا** ﴾ أي لأجلهم وفي حقهم ﴿ **هَؤُلاءِ أَهْدىٰ مِنَ الذّينَ آمنوا سَبيلاً** ﴾ أي أقوم ديناً ، وأرشد طريقة ﴿ **أُوْلَئِكَ الذّينَ**

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذي في سننه .

﴿ لَعَنَهُمُ اللهُ ﴾ أي أبعدهم عن رحمته وطردهم ﴿ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ ﴾ أي يبعده عن رحمته تعالى ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ يدفع عنه العذاب ، لا بشفاعة ولا بغيرها ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ ﴾ انكار أن يكون لهم نصيب من الملك ، وجحد لما زعمت اليهود من أن ملك الدنيا سيصير إليهم ﴿ فَإِذَنْ لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ أي لو كان لهم نصيب من الملك ، فإذن لا يؤتون أحداً مقدار نقير ، وهو النقرة في ظهر النواة ، يضرب به المثل في القلة والحقارة ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ﴾ بل أيحسد هؤلاء اليهود رسول الله ﷺ وأصحابه ﴿ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يعني النبوة والكتاب ، وازدياد العز والنصر ، يوماً فيوماً ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا ﴾ يعني إن حسدهم المذكور في غاية القبح والبطلان ، فإنا قد آتينا من قبل هذا ﴿ آلَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الذين هم أسلاف محمد ﷺ وأبناء أعمامه ﴿ الْكِتَابَ ﴾ المنزل من السماء ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة والعلم ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ مُلْكاً عَظِيماً ﴾ لا يُقادر قدره ، فكيف يَسْتبعِدون نبوته ﷺ ويحسدونه على إيتائها ؟ ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ من اليهود ﴿ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ بمحمد عليه السلام ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ أي أعرض عنه ولم يؤمن به ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴾ ناراً مسعورة أي موقدة يُعذَّبون بها ، أي إن لم يُعجَّلوا بالعقوبة ، فقد كفاهم ما أُعِدَّ لهم من سعير جهنم ، واعلم إن الله تعالى وصف اليهود في الآية المتقدمة بالجهل الشديد ، وهو اعتقادهم أن عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله تعالى ، ثم وصفهم بالبخل والحسد ، فالبخل والحسد يشتركان في من يريد منع النعمة عن الغير ، فأما البخيل فيمنع نعمة نفسه عن غيره ، وأما الحاسد فيريد أن يمنع نعمة الله عن عباده ، فهما شر الرذائل وسببهما الجهل، ولا يسود الحسود والبخيل في جميع الزمان ، وقد شبه بعض الحكماء ابن آدم ، في حرصه على الجمع ووخامة عاقبته ، بدود القزّ الذي يكاد ينسج على نفسه بجهله ، حتى لا يكون له مخلص ، فيقتل نفسه ويصير الحريرُ لغيره ، فاللائق بشأن المؤمن القناعة بما رزقه الودود ، وترك الحرص والبذل من الموجود .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : بالقرآن وسائر المعجزات ﴿ سَوْفَ ﴾ كلمة تذكر للتهديد والوعيد يقال سوف أفعل ﴿ نُصْلِيهِمْ نَاراً ﴾ ندخلهم ناراً عظيمة هائلة ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ ﴾ أي احترقت ﴿ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ﴾ أي أعطيناهم مكان كل جلد محترق ، جلداً جديداً مغايراً للمحترق ، والحاصل أنه يعاد ذلك الجلد بعينه على صورة أخرى ، كقولك صغت من خاتمي خاتماً غيره ، فالخاتم الثاني هو الأول وإنما الصياغة اختلفت * فإن قلت : الجلود العاصية إذا احترقت فلو خلق تعالى مكانها جلوداً أخرى وعذبها كان ذلك تعذيباً لمن لم يعص وهو غير جائز ؟ قلتُ : العذاب للجلدة الحساسة وهي التي عصت لا للجلد مطلقا والذات واحدة فالعذاب لم يصل إلا إلى العاصي ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ أي ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع ، كقولك للعزيز أعزك الله أي أدامك على عزك وزادك فيه ، قال

الحسن : تأكلهم النار في كل يوم سبعين مرة ، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا ، وروي مرفوعاً أن جلد الكافر أربعون ذراعاً ، وضرسه مثلُ أحد ، وشفته العليا تضرب سُرَّته ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً** ﴾ لا يمتنع عليه شيء ﴿ **حَكِيماً** ﴾ يعاقب من يعاقب عن علمٍ وحكمة . روي أن أصحاب الكبائر من موحدي الأمم كلها ، الذين ماتوا على كبائرهم غير تائبين ولا نادمين فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى عنقه ، قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ثم إن منهم من يمكث فيها شهراً ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً كقدر الدنيا منذ خلقت إلى يوم تفنى ، وكان ابن السماك يقول فيما يعاتب نفسه : يا نفس تقولين قول الزاهدين ، وتعملين عمل المنافقين ، وفي الجنة تطمعين ، هيهات هيهات ، إن للجنة قوماً آخرين ، ويحكِ أخذتِ بزي كسرى وقيصر والفراعنة ، وتريدين أن ترافقي رسول الله ﷺ في دار الجلال ؟ وذكر عن يزيد بن مرثد أنه كان لا تنقطع دموع عينيه ساعة ، ولا يزال باكياً فسئل عن ذلك فقال : لو أن الله تعالى أوعدني بأني لو أذنبتُ لحبسني في الحمام أبداً ، لكان حقيقاً عليَّ أن لا تنقطع دموعي ، فكيف وقد أوعدني أن يحبسني في نار أُو قد عليها ثلاثة آلاف سنة ، « أوقد عليها ألفُ سنة حتى احمرَّتْ ، ثم أوقد عليها ألفُ سنة حتى ابيضَّتْ ، ثم أوقد عليها ألفُ سنة حتى اسودت ، فهي سوداء كالليل المظلم » قال أبو هريرة رضي الله عنه : لا تغبطَنَّ فاجراً بنعمته ، فإن وراءه طالباً حثيثاً ، وهي جهنم (**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً**) وفي الحديث (من كانت همته الآخرة ، جمع الله شمله وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت همته الدنيا فرَّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له)[1] ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ أي صدَّقوا بالله وبمحمد والقرآن ، وسائر الآيات والمعجزات ﴿ **وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ التي أمر الله بها ﴿ **سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً** ﴾ اي مقيمين فيها لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿ **لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ** ﴾ أي من الأحوال المستقذرة البدنية ، والأدناس الطبيعية ، كالحيض ، والنفاس ، والحقد ، والحسد ، وغير ذلك ﴿ **وَنُدْخِلُهُم ظِلّاً ظَلِيلاً** ﴾ دائماً لا تنسخه الشمس أي لا تزيله ، والظليلُ : صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه ، كما يقال ليلٌ أليل وما أشبه ذلك ، * فإن قلت : إذا لم يكن في الجنة شمس تؤذي بحرها ، فما فائدة وصفها بالظل الظليل ؟ وأيضاً أن المواضع التي يدوم فيها ولا يصل نور الشمس إليها يكون هواؤها عفناً فاسداً مؤذياً ، فما معنى وصف هواء الجنة بذلك ؟ قلت : إن بلاد العرب كانت في غاية الحرارة ، فكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة ، وهذا المعنى جعلوه كناية عن الراحة ، قال عليه السلام (السلطان ظل الله في

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد بلفظ « من كان همُّه الآخرة جمع الله شمله ، وجعل غناه في قلبه .. » إلخ ، ورواه الترمذي أيضاً بنحوه ، وانظر جامع الأصول ١١ / ١١ .

الأرض[١]) فإذا كان الظل عبارة عن الراحة كان الظل الظليل كناية عن المبالغة العظيمة في الراحة ، قال الإمام : هذا ما يميل إليه خاطري قال رسول الله ﷺ (إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مائة سنة ما يقطعها ، اقرأوا إن شئتم **(وَظِلٍّ مَمْدُودٍ)** وفي الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، اقرأوا إن شئتم **(فلاَ تعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**[٢]**)** ﴿ **إِنَّ اللهَ يأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمانَاتِ إِلىٰ أَهْلِها** ﴾ نزلت في « عثمان بن عبد الدار » وكان سادن الكعبة ، وذلك أن رسول الله ﷺ حين دخل مكة يوم الفتح ، أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح ، وأبى أن يدفع المفتاح إليه ، وقال : لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه ، فلوى « علي بن أبي طالب » يده وأخذه منه وفتح ، ودخل رسول الله ﷺ ، وصلى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ، ويجمع له السقاية والسدانة ، فنزلت ، فأمر علياً أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه ، فقال عثمان لعَليٍّ : أكرهتَ وآذيتَ ثم جئتَ ترفقُ ؟ فقال : لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآناً ، وقرأ عليه الآية ، فقال عثمان : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فهبط جبريل فأخبر رسول الله ﷺ أن السدانة في أولاد عثمان أبداً ، ثم إن عثمان لَمَّا هاجر دفع المفتاح إلى ابنه شيبة ، فبقي في ولده إلى اليوم ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُمْ** ﴾ أي : ويأمركم إذا قضيتم ﴿ **بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ** ﴾ والإنصاف والتسوية ﴿ **إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ** ﴾ أي : نعم شيئاً ينصحكم به تأدية الأمانة ، والحكم بالعدل ، فما نكرة بمعنى شيء ، والمخصوص بالمدح محذوف ﴿ **إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً** ﴾ لما يقوله الخَلْق ﴿ **بَصِيراً** ﴾ بأفعال العباد أي : اعملوا بأمر الله ووعظه ، فإنه أعلم بالمسموعات والمبصرات ، وسيجازيكم على ما يصدر منكم ، واعلم أن نزول هذه الآية عند القصة المذكورة ، لا يوجب كونها مخصوصة بهذه القصة ، بل يدخل فيها جميع أنواع الأمانات ، ومعاملة الإنسان إما أن تكون مع ربه ، أو مع سائر العباد ، أو مع نفسه ، ولابد من رعاية الأمانة في جميع هذه الأقسام الثلاثة ، أما رعاية الأمانة مع الرب ، فهي فعل المأمورات وترك المنهيات ، وهذا بحر لا ساحل له ، قال ابن مسعود : الأمانةُ في كل شيء لازمة ، في الوضوء ، والجنابة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، وغيرذلك ، مثلاً إن أمانة اللسان أن لا يستعمله في الكذب والغيبة ، والنميمة والكفر ، والبدعة والفحش وغيرها ، وأمانة العينين أن لا يستعملها في النظر إلى الحرام ، وأمانة السمع أن لا يستعمله في سماع الملاهي والمناهي ، واستماع الفحش والأكاذيب وغيرها ، وكذا القول في جميع الأعضاء ، وأما القسم الثاني وهو رعاية الأمانة مع سائر الخلق ، فيدخل فيه ردُّ الودائع ، ويدخل فيه ترك التطفيف في الكيل والوزن ، ويدخل فيه أن لا يفشي على الناس عيوبهم ، ويدخل فيه عدل الأمراء مع رعيتهم ، ويدخل

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني والبيهقي ، وفي رواية ابن النجار « يأوي إليه كل مظلوم من عباده .. » الحديث وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٧١ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه والدارميُّ .

فيه أمانة الزوجة للزوج في حفظ فرجها ، وأما القسم الثالث : وهو أمانة الإنسان مع نفسه ، فهو أن لا يفعل إلا ما هو الأنفع والأصلح له في الدين والدنيا ، وأن لا يُقْدِم - بسبب الشهوة والغضب - على ما يضره في الآخرة ، ولهذا قال ﷺ « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[١] وقال عليه السلام « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »[٢] فعلى العبد المؤمن أن يؤدي الأمانات كلها ما استطاع ، ويتعظ بمواعظ الحق ، في كل زمان ، فإن الوعظ نافع جداً ، ثم إن من كان حاكماً وجب عليه أن يحكم بالعدل ، ويؤدي الأمانات إلى أهلها ، قال الحسن : إن الله أخذ على الحكام ثلاثاً ، أن لا يتبعوا الهوى ، وأن يخشوه ولا يخشوا الناس ، وأن لا يشتروا بآياته ثمناً قليلاً .

﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وهم أمراء الحق وولاة العدل ، وأما أمراء الجور فهم بمعزل من استحقاق الطاعة ، فإنهم اللصوص المتغلبة ، لأخذهم أموال الناس بالقهر والغلبة ، وإنما أفرد بالذكر طاعة الله ، ثم جمع طاعة الرسول مع طاعة أولي الأمر حيث قال : ﴿ أَطيعُوا اللهَ ، وأطيعُوا الرَّسُولَ وأُوْلِي الأَمْرِ منكُمْ ﴾ ولم يقل وأطيعوا أولي الأمر منكم ، تعليماً للأدب ، وهو أن لا يجمعوا في الذكر بين اسمه سبحانه وبين اسم غيره ، وأما إذا آل الأمر إلى المخلوقين فيجوز ، لأن الرسول من البشر ، والحكام من البشر ، فلا حرج في الجمع بينهما .

﴿ فَإنْ تَنَازعْتُمْ في شَيءٍ ﴾ أصل النزع : الجذبُ ، لأن المتنازعين يجذب كل واحد منهما إلى غير جهة صاحبه ، أي إن اختلفتم أنتم وأولو الأمر منكم ، في أمر من أمور الدين ﴿ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ ﴾ فارجعوا فيه إلى كتاب الله ﴿ وَالرَّسُولِ ﴾ أي إلى سنته ﷺ ، والآية دليل على حجِّية القياس ، كيف لا وردُّ المختلف فيه إلى المنصوص عليه ، إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه ، وهو المعنيُّ بالقياس ، ويؤيده الأمر به بعد الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة : ثابتٌ بالكتاب ، وثابتٌ بالسنة ، وثابتٌ بالرد إليهما بالقياس ﴿ إنْ كُنْتُمْ تُؤمِنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ ﴾ فإن الإيمان بهما يوجب ذلك ، أما الإيمان بالله فظاهر ، وأما الإيمان باليوم الآخر ، فلما فيه من العقاب على المخالفة ﴿ ذٰلِكَ ﴾ أي الردُّ إلى الكتاب والسنة ﴿ خيرٌ ﴾ لكم من التنازع وأصلح ﴿ وَأَحْسَنُ ﴾ في نفسه ﴿ تَأويلاً ﴾ أي عاقبةً ومآلا * ودلت الآية على أن طاعة الأمراء واجبة ، إذا وافقوا الحق ، فإن خالفوه فلا طاعة لهم ، قال ﷺ (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[٣] ولابد للأمراء من خوف الله وخشيته ،

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد ، وهو جزء من حديث شريف .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود بلفظ : « لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف » في قصة طويلة ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٤١٦ .

بإجراء الشرائع والأحكام ، واتباع سنن النبي عليه السلام ، حتى يملأ الله قلوب الناظرين إليهم هيبة ، فحينئذ لا يحتاجون إلى المحافظة عليهم بالجند والأتباع ، روي أن ملك الروم ، أرسل إلى عمر رضي الله عنه هدايا من الثياب والجبة ، فلما دخل الرسول إلى المدينة قال : أين دار الخليفة وبناؤه ؟ فقيل : ليس له دار عظيم كما توهمت ، إنما له بيت صغير ، فدلوه عليه فأتاه فوجد له بيتاً صغيراً حقيراً ، قد أسودَّ بابه لطول الزمان ، فطلبه فلم يصادفه ، وقيل إنه خرج إلى السوق لحاجته وحوائج المسلمين ، فخرج الرسول إلى طلبه فوجده نائماً تحت ظل حائط ، وقد توسد بالدرة ، فلما رآه قال : عدلتَ ، فأمنتَ ، فنمتَ حيث شئتَ ، وأمراؤنا ظلموا فاحتاجوا إلى الحصون والجيوش. ومن كلام أردشير : الدينُ أساس الملك ، والعدلُ حارسه ، فما لم يكن له أسٌّ فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع ، وبالجملة فالظلم عار ، وجزاؤه نار ، والاجتناب منه واجب على كل عاقل ، وإذا كانت نية المؤمن العدل ، فليجانب أهل الظلم ، وليجتنب طاعتهم ، فإن الطاعة لأهل الحق لا لغيرهم ، قال عليه السلام (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير العادل فقد أطاعني ، ومن يَعْصِ الأمير فقد عصاني)[1] * روي أنه قيل للحجاج : لم لاَ تعدل مثل عمر ، وأنت قد أدركتَ خِلافته ، أفلم تر عدله وصلاحه ؟ فقال : تباذروا أي كونوا كأبي ذر في الزهد والتقوى ، أتعمَّر لكم أي أعاملكم معاملة عمر في العدل والإنصاف .

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ** ﴾ أي يدَّعون ، والمراد بالزعم هنا الكذب ، لأن الآية نزلت في المنافقين ﴿ **أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ أي بالتوراة وغيرها من الكتب المنزَّلة ، ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ** ﴾ عن ابن عباس « أن منافقاً خاصمَ يهودياً ، فدعاه اليهودي إلى النبي عليه السلام ، لأنه كان يقضي بالحق ، ودعاه المنافق إلى « كعب بن الأشرف ، لأنه كان شديد الرغبة إلى الرشوة ، واليهوديُ كان محقاً ، والمنافقُ كان مبطلاً ، ثم أصرَّ اليهوديُّ على قوله ، فاحتكما إلى الرسول ﷺ ، فحكم لليهودي فلم يرض المنافق ، وقال : نتحاكم إلى عمر ، فقال اليهودي لعمر : قضى لي رسول الله فلم يرض بقضائه ، وخاصم إليك ، فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ فقال نعم فقال : مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل فاشتمل على سيفه ، ثم خرج فضرب به عنق المنافق حتى مات ، وقال هكذا أقضي بمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله »فنزلت الآية[2] فهبط جبرائيل عليه السلام وقال : إن عمر فرق بين الحق والباطل ، فسمي « الفاروق » فالطاغوت « كعب بن الأشرف » سُمِّي به لإفراطه في الطغيان وعداوة الرسول ﷺ ﴿ **وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ** ﴾ أي والحال أنهم قد أُمروا أن يتبرأوا من الطاغوت ﴿ **وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً** ﴾ أي إضلالاً بعيداً لا غاية له ، فلا

(١) الحديث أخرجه الشيخان والنسائي ، وانظر جمع الفوائد ١ / ٤٩٣ . ولم يرد لفظ « العادل » في البخاري .

(٢) انظر تفسير القرطبي ، والألوسي ، والرازي ، وكتابنا « صفوة التفاسير » ففيه بيانٌ وتفصيل .

يهتدون ﴿ وإذا قِيل لَهُمْ ﴾ أي للمنافقين ﴿ تَعَالَوا ﴾ أي جيئوا ﴿ إلىٰ ما أَنْزَلَ اللهُ ﴾ أي إلى ما أمره في كتابه ﴿ وإلىٰ الرَّسُولِ ﴾ وإلى ما أمر به رسوله ﴿ رَأَيْتَ المنافِقِينَ ﴾ إظهار المنافقين في مقام الإضمار ، للتسجيل عليهم بالنفاق ، وذمهم به ﴿ يَصُدُّونَ عنكَ صُدُوْداً ﴾ أي يُعرضون عنك إعراضاً ﴿ فَكيْفَ ﴾ يكون حالهم وكيف يصنعون؟ ﴿ إذا أَصَابتهُمْ مُصيبةٌ ﴾ أي وقت أصابة المصيبة إياهم ، بافتضاحهم بظهور نفاقهم ﴿ بما قَدَّمَتْ أيديهِمْ ﴾ بسبب ما عملوا من الجنايات ، التي من جملتها التحاكم إلى الطاغوت ، وعدم الرضى بحكم الرسول ﴿ ثُمّ جَاءُوْكَ ﴾ للاعتذار عما صنعوا من القبائح ﴿ يَحْلِفُونَ باللهِ إنْ أردْنَا إلاَّ إحْسَاناً وتَوْفيقاً ﴾ أي ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك ، إلا الفصل بالوجه الحسن ، والتوفيق بين الخصمين ، ولم نرد مخالفة ولا سَخَطاً لحكمك ، فلا تؤاخذنا بما فعلنا ، وهذا وعيد لهم على ما فعلوا ، وأنهم سيندمون عليه حين لا ينفعهم الندم ، ولا يغني عنهم الاعتذار ﴿ أولَئِكَ ﴾ اي المنافقون ﴿ الَّذِينَ يعْلَمُ اللهُ ما في قُلوبِهِمْ ﴾ من النفاق فلا يغني عنهم الكتمان ، والحلف الكاذب من العقاب ﴿ فَأَعْرِضْ عنهُمْ ﴾ أي لا تقبلْ اعتذارهم ﴿ وَعِظْهُمْ ﴾ أي ازجرهم عن النفاق والكيد ﴿ وقلْ لَهُمْ في أنْفُسِهِمْ ﴾ أي في حق أنفسهم الخبيثة ، أو في أنفسهم خالياً بهم ، مُسَارّاً بالنصيحة لأنها في السر أنجع ﴿ قَوْلاً بليغاً ﴾ مؤثراً واصلاً إلى كنه المراد، والقول البليغ بأن يقول : إن الله يعلم سركم وما في قلوبكم ، فأصلحوا أنفسكم ، وطهّروا قلوبكم من رذيلة الكفر ، وأغلظْ عليهم عسى أن تنجع فيهم الموعظة ﴿ وَما أَرْسَلنَا مِنْ رَسولٍ إلاَّ ليُطَاع بإذنِ اللهِ ﴾ أي وما أرسلنا رسولاً من الرسل ، إلا ليُطاع بسبب إذنه تعالى وأمره بأن يطيعوه ، لأنه مؤدٍّ عنه تعالى ، وطاعته طاعةُ الله ، ومعصيتُه معصيةُ الله ﴿ ولو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنفسَهُمْ ﴾ وعرضوها للعذاب بترك طاعتك ، والتحاكم إلى غيرك ﴿ جَاؤكَ ﴾ تائبين من النفاق ﴿ فاسْتغْفَروا اللهَ ﴾ بالتوبة والإخلاص ﴿ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُوْلُ ﴾ بأن يسأل الله أن يغفر لهم عند توبتهم ﴿ لَوَجَدوا اللهَ ﴾ لصادفوه حال كونه تعالى ﴿ تَوَّاباً ﴾ مبالغاً في قبول التوبة ﴿ رَحيماً ﴾ مبالغاً في التفضل عليهم بالرحمة ﴿ فَلا ﴾ أي ليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا ﴿ وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتّى يُحكّموكَ ﴾ أي يجعلونك حكماً يا محمد ويترافعوا إليك ﴿ فيما شَجَر بيْنَهُمْ ﴾ أي فيما اختلف بينهم من الأمور واختلط ﴿ ثُمّ لا يَجِدوا ﴾ أي فتقضي بينهم ثم لا يجدوا ﴿ في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً ﴾ ضيقاً ﴿ ممّا قَضَيْتَ ﴾ أي ممّا قضيت به ، يعني يرضون بقضائك ، ولا تضيق صدورهم من حكمك ﴿ ويُسَلِّموا تَسْليماً ﴾ وينقادوا لك انقياداً ، بظاهرهم وباطنهم ، وفي هذه الآيات دلائل ، على أن من ردَّ شيأ من أوامر الله ، وأوامر الرسول ﷺ ، فهو خارج عن الإسلام ، فالنبي ﷺ هو الدليل في طريق الحق ، ومخالفة الدليل ضلالة ، قال رسول الله ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى

يكون هواهُ تابعاً لما جئتُ به)[1] عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله موعظةً ، وجلتْ منها القلوب ، وذرفتْ منها العيونُ ، فقلنا يا رسول الله : كأنها موعظةُ مودِّع فأوصنا ، قال : (أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإنْ تأمَّر عليكم عبدٌ ، وإنه من يعشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين ، عضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثةٍ بدعة ، وكلَّ بدعة ضلالة)[2] فعلى المؤمن أن يتبع سنّة الرسول ، ويجتنب عن كل ما هو بدعة وضلالة ، ويصلح ظاهره وباطنه ، حتى ينال شفاعته ﷺ يوم القيامة ، ويتخلص من عذاب النار ، ويدخل الجنة مع الأبرار .

﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ** ﴾ أي فرضنا على هؤلاء المنافقين ﴿ **أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ** ﴾ كما أوجبناه على بني إسرائيل ، حين طلبوا التوبة من ذنوبهم ، ﴿ **ما فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ** ﴾ إلاَّ ناسٌ قليل منهم وهم المخلصون ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ** ﴾من متابعة الرسول وطاعته ، والمشي تحت رايته ، والانقياد لما يراه ، ويحكم به ظاهراً وباطناً ﴿ **لَكانَ خَيْراً لَهُمْ** ﴾ أي أحمد عاقبةً في الدارين ﴿ **وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً** ﴾ لهم على الإيمان ، وأبعد من الاضطراب فيه ﴿ **وَإِذاً** ﴾ أي وإذاً لو ثبتوا ﴿ **لآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا** ﴾ من عندنا ﴿ **أَجْراً عَظِيماً** ﴾ ثواباً كثيراً في الآخرة ، لا ينقطع ﴿ **وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً** ﴾ يَصِلون بسلوكه إلى عالم القدس ، ويفتح لهم أبواب الغيب، قال بَعض الصالحين لايكونَنَّ أحدكم كالعبد السوء ، إن خاف عمل ، ولا كالأجير السوء ، إن لم يُعْطَ لم يعمل، وكما قيل : من لَمْ يركب الأهوال ، لم ينل الأموال ، فيا أيها العبد الذي لا يفعل ما يوعظ به ، ولا يخاف من ربه ، كيف تركت ما هو خير لك، وأعرضت عما ينفعك ؟ فليس لك الآن إلا التوبة عما يوقعك في المعاصي والمنهيات ، والرجوع إلى الله بالطاعات والعبادات ﴿ **وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ** ﴾ المراد بالطاعة : هو الانقيادُ التام ، والامتثال الكامل ، لجميع الأوامر والنواهي روي أن « ثوبان » مولى رسول الله ، أتاه يوماً وقد تغيَّر وجهه ونحل جسمه ، فسأله عن حاله فقال : ما بي من وجع ، غير أني إذا لم أرك اشتقتُ إليك ، ثم ذكرتُ الآخرة فخفتُ أن لا أراك هناك ، لأني عرفت أنك ترفع مع النبيين ، وإن أُدْخلتُ الجنة كنتُ في منزل دون منزلتك ، وإن لم أدخل فذاك حين لا أراك أبداً فنزلت الآية ، ﴿ **فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي أتَّم الله عليهم النعمة ، وهذا ترغيب للمؤمنين في الطاعة ، حيث وُعِدُوا مرافقة أقرب عباد الله ، وأرفعهم درجات عنده ﴿ **مِنَ النَّبِيينَ** ﴾ وهم الفائزون بكمال العلم والعمل ، المتجاوزون حد الكمال ﴿ **والصِدِّيقينَ** ﴾ المبالغين في الصدق والإخلاص ، في

(١) الحديث تقدم ذكره وتخريجه .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في لزوم السنة ، والترمذي في العلم ، وأحمد في المسند ٤ / ١٢٦ وانظر جامع الأصول ١ / ٢٧٨ .

الأقوال ﴿ **والشُّهداءِ** ﴾ الذين بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله ﴿ **والصّالحينَ** ﴾ الذين صرفوا أعمارهم في طاعته ، وليس المراد بالمعية الاتحاد في الدرجة ، لأن التساوي بين الفاضل والمفضول لا يجوز ، بل كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر ، وزيارته متى أراد ﴿ **وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً** ﴾ فيه معنى التعجب ، كأنه قيل : وما أحسن أولئك رفيقاً ؟ أي النبيين ومن بعدهم ، والرفيقُ : الصاحبُ مأخوذ من الرفق ، وهو لين الجانب واللطافة ﴿ **ذٰلِكَ الفَضْلُ** ﴾ الإشارة إلى ما للمطيعين من عظيم الأجر ، ومزيد الهداية ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ أي لا من غيره ﴿ **وكَفَى باللهِ عليماً** ﴾ بجزاء من أطاعه ، وهذه الآية عامة في جميع المكلفين ، فكل من أطاع الله وأطاع الرسول ، فقد فاز بالدرجات والمراتب الشريفة عند الله تعالى ، روي عن بعض الصالحين أنه قال : أخذتني ذات ليلة سِنَةٌ فنمت ، فرأيت في منامي كأنَّ القيامة قد قامت ، وكأنَّ الناس يحاسبون فقوم يُمضى بهم إلى الجنة ، وقومٌ يُمضى بهم إلى النار ، قال : فأتيت الجنة فناديتُ يا أهل الجنة بماذا نلتم سكنى الجنان في محل الرضوان ؟ فقالوا : لي بطاعة الرحمان ومخالفة الشيطان ، ثم أتيت باب النار فناديت يا أهل النار بماذا نلتم النار ؟ قالوا : بطاعة الشيطان ومخالفة الرحمن ، قال رسول الله ﷺ : « كل أمتي يدخلون الجنة إلاَّ من أبى ، قيل : ومن يأبى ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى »[1] فعلى المرء أن يتبع الرسول ويتبع أولياء الله فإن (المرء مع من أحبَّ)[2] كما قال عليه السلام ، فإن أحبَّ الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين كان معهم في الجنة .

﴿ **يا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ** ﴾ أي تيقظوا واحترزوا من العدو ، ولا تمكّنوه من أنفسكم ﴿ **فانْفِروْا** ﴾ فاخرجوا إلى جهاد العدو ﴿ **ثُبَاتٍ** ﴾ جماعاتٍ متفرقة ، سريةً بعد سرية جمع ثبة وهي جماعة من الرجال فوق العشرة ﴿ **أَوِ انْفِروا جَميعاً** ﴾ مجتمعين كوكبة واحدة ، وذلك إذا خرج النبي عليه السلام ﴿ **وَإِنَّ مِنْكُمْ** ﴾ خطاب لعسكر المسلمين المؤمنين والمنافقين ﴿ **لَمَنْ** ﴾ الذي أقسم بالله ﴿ **لَيُبَطِّئَنَّ** ﴾ ليتأخرنَّ عن الغزو ويتخلفنَّ تثاقلاً ، والمرادُ بالمبطئين : المنافقون من العسكر ، لأنهم كانوا يغزون نفاقاً ﴿ **فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصيبَةٌ** ﴾ نالتكم نكبة من الأعداء كقتلٍ وهزيمة ﴿ **قَالَ** ﴾ أي المبطىء فرحاً بصنعه وحامداً لربه ﴿ **قَد أَنْعمَ اللهُ عَليَّ** ﴾ أي بالقعود والتخلف عن القتال ﴿ **إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهيداً** ﴾ أي حاضراً في المعركة فيصيبني ما أصابهم ﴿ **وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ** ﴾ كفتح وغنيمة ﴿ **لَيَقُولَنَّ** ﴾ ندامةً على تثبيطه وقعوده وتهالكاً على حطام الدنيا ﴿ **كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ** ﴾ اعتراضٌ وُسِّط بين الفعل ومفعوله ، الذي هو ﴿ **يَا** ﴾ قوم ﴿ **لَيْتَني كُنْتُ مَعَهُمْ** ﴾ في تلك

(١) الحديث أخرجه البخاري والإمام أحمد ، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٩ / ١٩٤ .

(٢) حديث « المرء مع من أحبَّ » أخرجه البخاري ومسلم ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٥٥٨ .

الغزوة ﴿ فَأَفوزَ فوْزاً عَظِيماً ﴾ أي آخذ حظاً وافراً من الغنيمة ﴿ فلْيقاتِلْ في سَبيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرونَ الحْيوةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ ﴾ أي يبيعونها بها ويأخذون الآخرة بدلها وهم المؤمنون ، فالفاء جواب شرط مقدر ، أي إنْ بطَّأ هؤلاء عن القتال فليقاتلْ المخلصون ، الباذلون أنفسهم في طلب رضى الله ﴿ ومَنْ يقاتلْ في سَبيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فَسَوفَ نُؤْتيهِ أجراً عظِيماً ﴾ لا يُقادر قدرُه ، وعدلُهُ بالأجر العظيم ، غَلَب أو غُلِب وإنما قال ﴿ فَيُقْتَلْ أو يَغْلِب ﴾ تنبيهاً على أن المجاهد ينبغي أن يثبت في المعركة ، حتى يعز نفسه بالشهادة ، وأن لا يكون قصدُه بالذات إلى القتل ، بل إلى إعلاء الحق ، وإعزاز الدين ، قال رسول الله ﷺ « تكفَّلَ اللهُ لمن جاهد في سبيله ، لا يُخرجه إلا جهاد في سبيله،وتصديق كلمته ، أن يُدخِله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أوغنيمة »[١] وفي الحديث « من جهَّز غازياً في سبيل الله فقد غزا ،ومن خلف غازياً في سبيل الله بخيرٍ فقد غزا »[٢] أي كان خلفاً لأهل بيته ، في إقامة حوائجهم وتتميم مصالحهم . وفضائلُ الجهاد لا تكاد تضبط ، والآية وإن نزلت في الحرب ، لكنْ يقتضي إطلاق لفظها وجوب المبادرة إلى الخيرات كلها ، كيفما أمكن قبل الفوات ، قال رسول الله ﷺ « بادروا بالأعمال قبل أن تجيء فتنٌ كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويُمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيعُ دينه بِعَرَضٍ من الدنيا »[٣] وعن الزبير بن عدي قال : أتينا أنس بن مالك ، فشكونا إليه ما نلقى من الحجَّاج ، فقال : « اصبروا فإنه لا يأتي زمان ، إلا والذي بعده شرٌّ منه حتى تَلْقوا ربكم ، سمعتُه من نبيكم ﷺ »[٤] واعلم أن العدة والسلاح في جهاد النفس والشيطان ، يعني آلة قتالها ذكرُ الله ، وبه يتخلص الإنسان من كونه أسير الهوى النفساني ، قال رسول الله ﷺ « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[٥] وعن أبي واقد الحارث بن عوف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناسُ معه ، إذْ أقبل ثلاثةُ نفر ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد ، فوقف على رسول الله ﷺ ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه »[٦].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي ومالك في الموطأ .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٣) الحديث أخرجه الإمام مسلم والترمذي .

(٤) الحديث أخرجه البخاري والترمذي ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٩٨ .

(٥) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه ، بلفظ « وما جلس قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله .. » إلخ

(٦) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي ، وانظر جامع الأصول ٨ / ١١ .

﴿ وَمَا لَكُمْ ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ حصل لكم من العلل أيها المؤمنون ﴿ لا تُقَاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ ﴾ أي تاركين القتال ، يعني لا عذر لكم في ترك المقاتلة ، وهذا استفهام بمعنى التوبيخ ﴿ والمسْتَضْعَفينَ ﴾ عطف على السبيل والمعنى مالكم لا تقاتلون في سبيل الله وفي خلاص الذين استضعفهم الكفار ، بالتعذيب والأسر ، وهم الذين أسلموا بمكة ، وصدَّهم المشركون عن الهجرة ، فبقوا بين أظهرهم مستذلين مستضعفين ، يلقون منهم الأذى الشديد ، وإنما خصهم بالذكر ، لأن تخليص ضعفة المسلمين من أيدي الكفار ، من أعظم الخير وأخصه ﴿ مِنَ الرِّجَالِ والنِساءِ وَالْوِلْدَانِ ﴾ بيانٌ للمستضعفين ، والوالدانُ : الصبيان جمع ولد ، وإنما ذكرهم معهم تسجيلاً بإفراط ظلمهم ، حيث بلغ أذاهم الأطفال غير المكلفين ، ودلت الآية على أن استنقاذ الأسارى من أيدي الكفار ، واجب بما قدروا عليه من القتال أو إعطاء المال ﴿ الَّذِينَ يَقولُونَ ﴾ يعني لا حيلة لهؤلاء المستضعفين ولا ملجأ إلا الله ، فيقولون داعين ، ﴿ رَبَّنا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذهِ القَرْيةِ ﴾ مكة ﴿ الظَّالمِ أَهْلُهَا ﴾ بالشركِ وبأذية المسلمين ﴿ واجْعلْ لَنا منْ لَدُنْكَ وَليّاً ﴾ أي وَلِّ علينا والياً من المؤمنين ، يقوم بمصالحنا ، ويحفظ علينا ديننا ﴿ واجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصيراً ﴾ ينصرنا على أعدائنا ، ولقد استجاب الله دعاءهم ، حيث يسَّر لبعضهم الخروج إلى المدينة قبل الفتح ، وجعل لمن بقي منهم خير ولي وأعزَّ ناصر ، ففتح مكة على يديْ نبيه ﷺ ، فتولاهم ونصرهم ، ثم استعمل عليهم « عتَّاب ابن أسيد » فرأوا منه الولاية والنصرة ، حتى صاروا أعزَّ أهلها ﴿ الَّذِينَ آمنُوا يُقَاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ ﴾ أي المؤمنون إنما يقاتلون لإعلاء كلمة الله ، فهو وليهم وناصرهم لا محالة ﴿ والَّذينَ كَفَرُوا يُقَاتِلونَ في سَبيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ أي فيما يوصلهم إلى الشيطان فلا ناصر لهم سواه ﴿ فَقَاتِلُوا أولياءَ الشَّيْطَانِ ﴾ كأنه قيل : إذا كان الأمر كذلك ، فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان ﴿ إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ ﴾ الكيد : السعيُ في فساد الحال على جهة الاحتيال ﴿ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ أي إن كيده للمؤمنين ضعيفٌ لا يُؤبه به ، فلا تخافوا أولياءه ، فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه ، وهذا كما يُقال : للحق دولة ، وللباطل جولة، قيل : إن كيد الشيطان بمثابة الكلب ، إن قاومته مزَّق الإهاب وقطَّع الثياب ، وإن رجعتَ إلى ربه صرفه عنك برفق ، فالله تعالى جعل الشيطان عدواً للعباد ، ليوحشهم به إليه، وليدوم إقبالهم عليه ، قال أحمد بن سهل : أعداؤك أربعة : « الدنيا وسلاحها لقاء الخلق ، وسجْنَها العزلة ، والشيطان وسلاحه الشبع ، وسجنُه الجوع والنفس وسلاحها النوم ، وسجنُها السهر ، والهوى وسلاحه الكلام وسجنُه الصمت » واعلم أن كيد الشيطان ضعيف في الحقيقة ، فإن الله ناصر لأوليائه كل حين ، ويظهر ذلك الإمداد بسبب تزكيتهم النفس، وامتلاء أسرارهم بنور التوحيد ، فإن الشيطان ظلماني يهرب من النوراني ، روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استأذن يوماً على النبي عليه السلام ، وعنده نساء من قريش يسألنه ، عالية أصواتهن على صوته ، فلمَّا دخل ابتدرن الحجاب ، فجعل ﷺ يضحك ، فقال

ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ فقال ﷺ : عجبتُ من هؤلاء اللاتي كنَّ عندي ، فلما سمعن صوتك بادرن الحجاب !! فقال عمر : أنت أحق أن يهبن يا رسول الله ، ثم أقبل عليهنَّ فقال : أيْ عَدُوَّاتِ أنفسهن ، أتهبنني ولا تهبن رسول الله ﷺ ؟ فقلن : أنتَ أفظُّ وأغلظُ فقال عليه السلام : إيه يا ابن الخطاب ، فوالذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلاَّ سلكَ فجاً غير فجك »[1] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ روي أن ناساً أتوا النبي ﷺ بمكة ، قبل أن يهاجر إلى المدينة ، وشكوا إليه ما يلقون من أذى المشركين ، قالوا : كنا في عزٍّ في حالة الجاهلية ، والآن صرنا أذلة ، فلو أذنت لنا قتلنا هؤلاء المشركين على فرشهم ، فقال ﷺ « كُفّوا أَيْدِيَكُمْ » أي أمسكوا عن القتال ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَآتُوا الزَّكٰوةَ ﴾ واشتغلوا بما أمرتم به ، فإني لم أومر بقتالهم ، وكانوا في مدة إقامتهم بمكة مستمرين على تلك الحالة ، فلما هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأُمروا بالقتال كرهه بعضهم وشقَّ ذلك عليه ، وذلك قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ ﴾ أي فُرض عليهم الجهاد ﴿ إِذَا فَرِيقٌ ﴾ إذا للمفاجأة وفريق مبتدأ ﴿ مِنْهُمْ ﴾ صفة ﴿ يَخشَوْنَ النَّاسَ ﴾ خبره والجملة جواب«لَمَّا»أي فاجأ فريق منهم أن يخشوا سطوة الكفار أن يقتلوهم ﴿ كَخَشْيَةِ اللهِ ﴾ أي يخشونهم متشبهين بأهل خشية الله تعالى ﴿ أو أشدَّ خَشْيَةً ﴾ عطف عليه بمعنى أو أشد خشية من أهل خشية الله ﴿ وقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَينَا القِتَالَ ﴾ في هذا الوقت على طريقة تمني التخفيف ﴿ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أي هلاَّ أمهلتنا وتركتنا إلى الموت ، حتى نموت بآجالنا على الفراش ، قالوا ذلك حذراً من الموت وحباً للحياة ﴿ قُلْ ﴾ أي تزهيداً لهم فيما يؤملونه بالقعود من المتاع الفاني ، وترغيباً فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقي ﴿ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ أي ما يُتمتع وينتفع به في الدنيا سريع الزوال والانصرام ، ولو استشهدتم في القتال صرتم أحياء ، فتتصل الحياة الفانية بالحياة الباقية ﴿ وَالآخِرَةُ ﴾ أي ثوابها الذي من جملته الثواب المنوط بالقتال ﴿ خيرٌ ﴾ لكم من ذلك المتاع القليل ، لكثرته وعدم انقطاعه ، وإنما قيل ﴿ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ حثاً لهم على اتقاء العصيان ، والإخلاص في طلب الشهادة ﴿ ولا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ أي ولا تنقصون أدنى شيء من أجور أعمالكم * اعلم أن الآخرة خير من الدنيا ، لأن نِعَم الدنيا قليلة ، ونعم الآخرة كثيرة ، ونِعم الدنيا منقطعة ، ونعم الآخرة مؤبدة ، ونعم الدنيا مشوبة بالهموم والغموم والمكاره ، ونعم الآخرة صافية عن المكدورات ، ونِعَم الدنيا مشكوكةٌ فإن أعظم الناس تنعماً لا يعرف أنه كيف تكون عاقبته في اليوم الثاني ، ونعم الآخرة يقينية ، فعلى العاقل أن يختار ما هو خير من كل وجه وهو الآخرة ، على ما هو شر من كل جهة وهو الدنيا . روي أن رجلاً اشترى داراً فقال

(١) الحديث أخرجه الشيخان والإمام أحمد جامع الأصول ٨ / ٦٢٠ .

لرجل : اكتب الصكّ فكتب [بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد : فقد اشترى مغرور من مغرور داراً دخل فيها في سكة الغافلين ، لا بقاء لصاحبها ، فيها الحدُّ الأول ينتهي إلى الموت ، والثاني إلى القبر ، والثالث إلى الحشر ، والرابع إلى الجنة أو إلى النار والسلام] فقرأ على الرجل فرد الدار وتصدق بالدنانير كلها ، وتزهدَّ في الدنيا، فهذا هو حال العارفين حقيقة الحال ، قال بعض المشايخ : إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين ، لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم ، ظاهراً وباطناً ، وكل ما في الجنة لا يوافق ما في الدنيا ، إلا من حيث التسمية ، ولأنه تعالى أجلّ أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء لها ، قال تعالى (**وَمَا عِندَ اللهِ خيرٌ وأبْقَىٰ**) ثم الجزاء في تلك الدار دليل على وجود القبول ، لأن الجزاء على ذلك مقصور ، قال إبراهيم بن أدهم : لو يعلم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف ، وإنما يطيع العبد ربه ، على قدر منزلته منه فمن سره أن يعرف منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله في قلبه ، وقيل لبعضهم : هل تعرف الله ؟ فغضب وقال : تراني أعبد من لا أعرف ، فقال له السائل : أو تعصي من تعرف ؟

﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ** ﴾ المقدَّر بالأجل ، وفي لفظ الإدراك إشعار بأنهم جادُّون في الهرب منه ، وهو مجدٌّ في طلبهم ﴿ **وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ** ﴾ أي وإن كنتم في قصور عالية البناء ، لا يصعد إليها بنو آدم،وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سنّ معلوم ، ولا أجلّ معلوم ، ولا مرض معلوم ، وذلك ليكون المرء على أُهبة من الموت مستعداً لذلك ، قال عليه السلام (أكثروا ذكر هاذم اللذات)[1] يعني الموت ، وهو كلام مختصر وجيز ، قد جمع التذكرة ، وأبلغ في الموعظة ، فإن من ذكَر الموت حقيقة ذكره ، نغَّص عليه اللذة الحاضرة ، ومنعه من تمنيها في المستقبل ، وزهَّده فيما كان منها يؤمل ، ولكن النفوس الراكدة ، والقلوب الغافلة ، تحتاج إلى تطويل الوَعَّاظ ، وتزويق الألفاظ ، وإلا ففي قوله عليه السلام (أكْثِرُوا ذكر هاذم اللذات) مع قوله تعالى (**كُلُّ نفْسٍ ذَائِقَةُ الموْتِ**) ما يكفي السامع ، ويشغل الناظر فيه ﴿ **وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ** ﴾ أي نعمة كخصب ﴿ **يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ** ﴾ نسبوها إلى الله ﴿ **وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ** ﴾ بلية كقحط ﴿ **يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ** ﴾ أضافوها إليك يا محمد . وقالوا : إن هي إلا بشؤمك ، كما قالت اليهود منذ دخل محمد المدينة : نقصت ثمارها ، وغَلَت أسعارها ﴿ **قُلْ كلٌّ** ﴾ من الحسنة والسيئة ﴿ **مِنْ عِنْدِ اللهِ** ﴾ يبسط ويقبضُ، حسب إرادته ﴿ **فَمَالِ هَؤلاءِ الْقَوْمِ** ﴾ أي أيُّ شيء حصل لليهود والمنافقين من العلل ، حال كونهم ﴿ **لا يَكَادُونَ يفْقَهونَ حَدِيثاً** ﴾ أي لا يقربون من فهم حديث كالبهائم ، ولو فهموا لعلموا أن الكل من

(١) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه في سننهما .

عند الله ، والفقهُ : هو الفهم ، ثم اختص من جهة العرف بعلم الفتوى ﴿ مَا أَصَابَكَ ﴾ يا إنسان ﴿ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ من خير ونعمة ﴿ فَمِنَ اللهِ ﴾ تفضلاً منه ، فإنَّ كل ما يفعله الإنسان من الطاعة ، لا يكافىء نعمة الوجود ، فكيف يقتضي غيره ولذلك قال عليه السلام « ما أحدٌ يدخل الجنة إلا برحمة الله ، قيل : ولا أنت ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[1] ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ ﴾ من بلية وشيء تكرهه ﴿ فَمِنْ نفْسِكَ ﴾ لأنها السبب فيها لاستجلابها المعاصي ، وهو لا ينافي قوله (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ) فإن الكل منه إيجاداً وإيصالاً ، غير أن الحسنة إحسان وامتنان ، والسيئة مجازاة وانتقام ، كما قالت عائشة رضي الله عنها « ما من مسلم يصيبه وَصَبٌ ، ولا نَصَبٌ ، حتى الشوكة يشاكها ، وحتى انقطاع شسع نعله ، إلا بذنب وما يغفر الله أكثر[2] » واعلم أن للأعمال أربع مراتب : منها مرتبتان لله تعالى وليس للعبد فيهما مدخل، وهما: التقدير والخلق ، ومنها مرتبتان للعبد هما الكسب والفعل ، فإن الله تعالى منزه عن الكسب وفعل السيئة وانها يتعلقان بالعبد ، ولكنَّ العبد وكسبه مخلوق خلقه الله تعالى كما قال (وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ) فهذا تحقيق قوله ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ أي خلقاً وتقديراً ، لا كسباً وفعلاً، فافهم واعتقده فإنه مذهب أهل الحق ، وأرباب الحقيقة ، قال الضحاك : ما حفظ الرجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب ثم قرأ (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) قال فنسيان القرآن من أعظم المصائب ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ أي رسولاً للناس جميعاً ، لست برسول للعرب وحدهم ، بل أنت رسول العرب والعجم كقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ) ﴿ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ على رسالتك ، بنصب المعجزات .

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ لأنه في الحقيقة مبلّغ ، والآمر هو الله تعالى ﴿ وَمَنْ تَوَلَّى ﴾ أي أعرض عن طاعته ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيهِمْ حَفِيظاً ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿ وَيَقُوْلُونَ ﴾ إذا أمرتهم بأمر ﴿ طَاعَةٌ ﴾ أي أمرنا وشأننا طاعة ﴿ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أي خرجوا ﴿ بَيَّتَ طَائِفَةٌ منهمْ غَيْرَ الَّذي تَقُوْلُ ﴾ أي زوَّرتْ خلاف ما قلت لها يا محمد ، ولما كان غالب الأفكار التي يُدبِّرها الإنسان واقعاً في الليل ،إذ هناك يكون الخاطر أصفى ،والشواغل أقل ، سمي الفكر المدبَّر مُبَيَّتاً ولهذا يقولون :أمرٌ دبِّر بليل﴿ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ يثبته في صحائف أعمالهم للمجازاة ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ قلل المبالاة بهم ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ في الأمور كلها لا سيما في شأنهم ﴿ وَكَفَى بِاللهِ وكيلاً ﴾ يكفيك معرتهم وينتقم لك منهم ، إذا قوي أمر الإسلام وعز أنصاره ، والوكيلُ: هو العالم بما يُفوَّض إليه من التدبير ﴿ أَفَلاَ يَتَدبَّرُوْنَ القُرْآنَ ﴾ يتأملون

(١) الحديث أخرجه الشيخان وابن ماجه والدارمي وأحمد .

(٢) الحديث أخرجه مسلم بنحوه من حديث عائشة ، وروى البخاري بعضه ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٥٨٠ .

في معانيه ويتبصرون ما فيه ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ** ﴾ أي ولو كان من كلام البشر ، كما زعم الكفار ﴿ **لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً** ﴾ من تناقض المعنى ، وتفاوت النظم ، وكان بعضه فصيحاً ، وبعضه ركيكاً ، وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض ، على ما دل عليه الاستقراء ، لنقصان القوة البشرية ، وهل يجوز أن يقال بعض كلام الله أبلغ من بعض ؟ قال الإمام السيوطي في الإتقان : جوَّزه قومٌ لقصور نظرهم ، فينبغي أن يعلم معنى قول القائل : هذا الكلام أبلغ من هذا الكلام ، وأن هذا في موضعه له حسن ولطف وبلاغة ، وذاك في موضعه له حسن ولطف ، وهذا الحسن في موضعه أكمل وأبلغ من ذلك في موضعه ، فلا ينبغي أن يقال إن (**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**) أبلغ من (**تَبَّتْ**) بل ينبغي أن يقال : (**تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ**) دعاءٌ عليه بالخسران ، فهل توجد عبارة للدعاء بالخسران أحسن من هذه ؟ وكذلك في (**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**) لا توجد عبارة تدل على وحدانيته أبلغ منها ، وقال بعض المحققين : كلام الله في الله أفضل من كلامه في غيره فـ (**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**) أفضل من (**تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ**) لأن فيه فضيلة الذكر وهو كلام الله ، وفضيلة المذكور وهو اسم ذاته وتوحيده ، وصفاته الإيجابية والسلبية ، وسورة تبت فيها فضيلة الذكر فقط وهو كلام الله تعالى ، قال الغزالي في جوهر القرآن : ومن توقَّف في تفضيل الآيات أوّل قوله عليه السلام « أفضلُ سورة » و« أعظمُ سورة » بأنه أراد في الأجر والثواب ، لا أن بعض القرآن أفضل من بعض ، فالكل في فضل الكلام واحد ، والتفاوتُ في الأجر لا في كلام الله تعالى ، من حيث هو كلام الله القديم ، القائم بذاته تعالى انتهى .

قال العلماء : القرآن يدل على صدقه عليه السلام من ثلاثة أوجه : **أحدها** اطِّرادألفاظه في الفصاحة ، **وثانيها** اشتماله على الأخبار عن الغيوب ، **والثالث** سلامته من الاختلاف ، وسبب سلامته منه على ما ذهب إليه أكثر المتكلمين ، أن القرآن كتاب كبير ، مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم ، فلو كان ذلك من عند غير الله ، لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة ، لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك ، ولمَّا لم يوجد فيه ذلك علمنا أنه ليس من عند غير الله ، وإنما هو وحي أوحي إليه عليه السلام من عند الله بوساطة جبريل ﴿ **وَإِذا جَاءَهُمْ** ﴾ أي بلغ ضعفة المسلمين ﴿ **أَمرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ** ﴾ أي خبر من السرايا من ظفر وغنيمة ، أو نكبة وهزيمة ﴿ **أَذَاعُوا بِهِ** ﴾ أي أفشوا ذلك الخبر وأظهروه ، وكانت إذاعتهم مفسدة ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ** ﴾ أي ذلك الخبر ﴿ **إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ** ﴾ بترك التعرض له وتفويض أمره إلى رأي الرسول ﷺ ورأي كبار أصحابه ﴿ **لَعَلِمَهُ** ﴾ أي لعلم تدبير ما أخبروا به ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ أي يستخرجون تدبيره بتجاربهم وأنظارهم الصحيحة ، ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها ، وأصل الاستنباط : إخراج النبط ، وهو الماء يخرج من البئر أول ما تحفر ، وقيل : كانوا يقفون من رسول الله ﷺ على بعض الأعداء ، أو على خوف واستشعار

فيذيعونه فينشر ، فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم ، وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا ، لعلمه الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون منه ، فالمراد بالمستنبطين منهم على كلا الوجهين الرسول وأولوا الأمر ، وفي الآية نهي عن إفشاء السر . قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك للسر ؟ قال : أنا قبره ، ومن هذا قيل : صدورُ الأبرار قبورُ الأسرار ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ** ﴾ بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ﴿ **لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ** ﴾ بالكفر والضلال ﴿ **إلاَّ قَلِيلاً** ﴾ أي قليلاً منكم ، فإن من خصَّه الله بعقل راجح ، وقلب غير متكدر بالانهماك في اتباع الشهوات ، يهتدي إلى الحق والصواب ، ولا يتبع الشيطان ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سبيلِ اللهِ** ﴾ أي إن تثبط المنافقون وقصَّر الآخرون وتركوك وحدك ، فقاتل أنت يا محمد وحدك في الطريق الموصل إلى رضى الله ، وهو الجهاد ولا تبال بما فعلوا ﴿ **لا تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ** ﴾ أي إلاّ فعل نفسك ، لا يضرك مخالفتهم وتقاعدهم ، فتقدم إلى الجهاد وإن لم يساعدك أحد ،فإن الله ناصرك لا الجنود .

﴿ **وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ** ﴾ أي رغبهم فيه ، بذكر الثواب والعقاب وما عليك في شأنهم إلا التحريض فحسب ، لا التعنيف بهم ﴿ **عَسَى اللهُ أنْ يَكُفَّ** ﴾ أي يمنع ﴿ **بأسَ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ البأسُ : في الأصل المكروه ، ثم وضع موضع الحرب والقتال ، قال تعالى (**لا يأتونَ البأسَ إلاَّ قليلاً**) وعسى من الله واجب ، لأنه في اللغة الإطماع ، والكريمُ إذا أطمع أنجز ﴿ **واللهُ أشدُّ بأساً** ﴾ أي من قريش ﴿ **وأشَدُّ تَنْكِيلاً** ﴾ أي تعذيباً وعقوبة ،ومعناه أن عذاب الله تعالى أشد من جميع ما ينالكم بقتالهم ، لأن مكروههم ينقطع ثم تصيرون إلى الجنة ، فهو سبحانه يدفعهم عنكم ويكفيكم أمرهم ﴿ **مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها** ﴾ وهو ثواب الشفاعة ، والشفاعة الحسنة : هي التي روعي بها حق مسلم ، وابتغي بها وجه الله تعالى ، وكانت في أمر جائز ، لا في حدٍ من حدود الله ﴿ **ومَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً** ﴾ وهي ما كانت بخلاف الحسنة ﴿ **يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها** ﴾ أي نصيب من وزرها ، من غير أن ينقص منه شيء ، وعن مسروق أنه شفع شفاعة فأهدى إليه المشفوع له جارية ، فغضب وردَّها وقال: لو علمت ما في قلبك لما تكلمت في حاجتك، ومن بلاغات الزمخشري : شيآن شينان : الشفاعة في الحدود ، والرشوة في الأحكام، وبالجملة ينبغي للمؤمن أن يشفع للجاني إلى المجني عليه ، بل من حقوق الإسلام أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين ، إلى من له عنده منزلة ، ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه ، ومن الشفاعة الحسنة الدعاء للمسلم ، فإنه شفاعة إلى الله تعالى ، وعن النبي عليه السلام (من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب ، استجيب له وقال له الملك : ولكَ مثل ذلك)[1] ﴿ **وَكَانَ**

(١) أخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود في سننه ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٩٠ .

﴿ اللهُ علَى كلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً ﴾ أي مقتدراً مجازياً بالحسنة والسيئة ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ ﴾ أصل التحية : الدعاءُ بالحياة وطولها ، ثم استعملت في كل دعاء ، وكانت العرب إذا لقى بعضهم بعضاً يقول : حيَّاك الله أي جعل الله لك حياة ، وأطال حياتك ، ويقول بعضهم عش ألف سنة ، ثم استعملها الشرع في السلام قال تعالى (فَسَلِّموا عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ) وفي السلام مزية على تحية العرب ، لما أنه دعاء بالسلامة من الآفات الدينية والدنيوية ، فإنه إذا قال الإنسان لغيره : السلام عليك ، فقد دعا له بالسلامة ، ويتضمن الوعد بسلامة ذلك الغير وأمانه منه ، كأنه قال أنت سليم مني فاجعلني سليماً منك ، والسلامة مستلزمة لطول الحياة ، وليس في الدعاء بطول الحياة ذلك ، ولأن السلام من أسمائه تعالى ، ومعنى الآية إذا سُلّم عليكم من جهة المؤمنين ﴿ فَحيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ﴾ أي بتحية أحسن منها بأن تقولوا : وعليكم السلام ورحمة الله ، وبأن تزيدوا وبركاته لكونه مستجمعاً لجميع فنون المطالب ، التي هي السلامة من المضار ، ونيل المنافع ودوامها، روي عنه عليه السلام أنه قال (من قال السلام عليكم كتب له عشر حسنات ، ومن قال السلام عليكم ورحمة الله كتب له عشرون حسنة ، ومن قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتب له ثلاثون حسنة)[1] والمبتدىء بالسلام إن شاء يقول : السلام عليكم ، وإن شاء يقول : سلام عليكم ، لأن كل واحد من التعريف والتنكير وارد في ألفاظ القرآن ، قال الله تعالى (والسَّلامُ عَلىٰ مَنِ اتَّبَعَ الهُدىٰ) (وَسَلامٌ عَلىٰ عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفىٰ) ﴿ أَوْ رُدُّوها ﴾ أي ردوا مثلها وأجيبوا به، وجواب التسليم واجب ، وإنما التخيير بين الزيادة وتركها ﴿ إِنَّ اللهَ كانَ على كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ﴾ الحسيب : بمعنى المحاسب على العمل ، كالجليس بمعنى الجالس أي إنه تعالى كان على كل شيّ من أعمالكم محاسباً مجازياً ، فحافظوا على مراعاة التحية ، حسبما أمرتم به ، والسنة أن يسلم الراكب على الماشي ، والصغير على الكبير ، والقليل على الكثير ، ويسلم على الصبيان وهو أفضل من تركه ، قال القرطبي : ولا يسلم على النساء الشابات الأجانب ، خوف الفتنة من مكالمتهن ، بنزغة شيطان أو خائنة عين ، وأما السلام على المحارم والعجائز فحسن ، ويسلم على أهل الإسلام من عَرَف منهم ومن لم يعْرف ، ولا يسلم على لاعب النرد والشطرنج ، والمغني والقاعد لحاجته ، والعاري في الحمام وغيره ولا يبادر بالسلام على الذمي ، إلالضرورة أو حاجة له عنده ، ولا بأس بالدعاء للكافر بما يصلحه في دنياه قال النووي : الصواب أن ابتداء أهل الكتاب بالسلام حرام ، لأنه إعزاز ولا يجوز إعزاز الكفار اهـ والمختار أن المبتدع لا يُبدأ بالسلام ، وأما الآكل مع الكافر فإن كان مرة أو مرتين لتأليف قلبه على الإسلام فلا بأس ، فإنه ﷺ أكل مع كافر مرة ، فحملناه على أنه كان لتأليف قلبه على الإسلام، ولكن

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الأدب ، والترمذي في الاستئذان ، بلفظ « كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل فسلّم فقال : السلام عليكم ... » الحديث وانظر جامع الأصول ٦ / ٦٠٢ .

تكره المداومة عليه ، وإذا سلم الذمي فقل عليك ، قال عليه السلام : (إذا سلم عليكم أحد من اليهود فإنما يقول : السامُ عليكم فقل : وعليكَ)[١] أي عليك مثله ، وروي أنه عليه السلام أتاه ناس من اليهود ، فقالوا : السام عليكم يا أبا القاسم ، فقال (عليكم) فقالت عائشة : بل عليكم السَّامُ والزَّام ، فقال عليه السلام : « يا عائشة إن الله لا يحبُّ الفُحْش والتفحش ، قالت فقلت : أما سمعت ما قالوا ؟ قال : أو ليس قد رددت عليهم ، فيستجاب لي فيهم ، ولا يُستجاب لهم فيَّ »[٢] والسنة الجهر في السلام لقوله عليه السلام : (أفشوا السلام) وإذا بلغ المقابر ومرَّ بها قال : « السلام عليكم ، أهل الديار ، من المسلمين والمؤمنين ، رحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين ، أنتم لنا سلف ، ونحن لكم تبع ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية »وفي الحديث (ما من عبد يمر بقبر رجل ، كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه ، إلا عرفه وردَّ عليه السلام[٣]) قال ابن السيد : ولعل المراد أنه يرد السلام بلسان الحال لا بلسان المقال ، يؤيده ما ورد في بعض الأخبار ، من أنهم يتأسفون على انقطاع الأعمال عنهم ، حتى يتحسرون على رد السلام انتهى .

قال الإمام السيوطي رحمه الله : الأحاديث والآثار تدل على أن الزائر متى جاء علم به المزور ، وسمع كلامه ، وأنس به وردَّ عليه ، وهذا عام في حق الشهداء وغيرهم ، وأنه لا توقيت في ذلك ، وهو الأصح لأن رسول الله ﷺ شرع لأمته أن يسلموا على أهل القبور ، سلام من يُخَاطبون من يسمع ويعقل ، قال أرباب الحقيقة : للروح اتصال بالبدن ، فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان ، وإنما يأتي الغلط من قياس الغائب على الشاهد ، فيعتقد أن الروح التي إذا شغلت مكاناً لم يمكن أن تكون في غيره ، وقد مثَّل بعضهم بالشمس في السماء ، وشعاعها في الأرض ، كالروح المحمدي يردُّ على من يصلي عليه عند قبره دائماً كما قال عليه السلام (ما من أحدٍ يُسلِّم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام)[٤] ﴿ اللهُ ﴾ مبتدأ وخبره قوله ﴿ لا إلَـه إلاَّ هُوَ ﴾ أي لا إله في الأرض ولا في السماء غيره ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ أي والله ليحشرنكم من قبوركم ﴿ إلىٰ ﴾ حساب ﴿ يوْم القِيٰمةِ ﴾ والقيامة بمعنى القيام والتاء للمبالغة ، لشدة ما يقع فيه من الهول ﴿ لا رْيبَ فيهِ ﴾ أي حال كون ذلك اليوم لا شك فيه أنه كائن لا محالة ﴿ ومَنْ أَصْدَقُ من اللهِ حَدِيثاً ﴾ إنكار لأن يكون أحد أكثر صدقاً منه ، فإنه لا يتطرق الكذب إلى خبره ، لأنه نقص

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٦٠٩ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم ، ورواه البخاري بنحوه ، وفيه فقالت عائشة : « السَّامُ عليكم ، ولعنكم اللهُ ، وغضب عليكم » . ومعنى السَّام : الموت ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٦١٢ .

(٣) الحديث أخرجه ابن عساكر والخطيب في التاريخ ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١١٧ .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ، وأورده النووي في كتاب الأذكار صـ ٩٩ .

وهو على الله محال وفي الحديث (كذَّبني ابنُ آدم - أي نسبني إلى الكذب - ولم يَكُنْ لهُ ذلكَ - يعني لم يكن التكذيب لائقاً بل كان خطأ - وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إيَّاي فقولُه لن يعيدني كما بدأني ، وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته ، وأما شتمُه إيَّاي فقوله « اتخذ الله ولداً » وأنا الأحد الصَّمَدُ ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفُوَاً أحد)[1] .

﴿ **فَمَالَكُمْ** ﴾ أيها المؤمنون والمراد بعضهم ﴿ **فِي الْمُنَافِقِينَ** ﴾ أيْ أيُّ شيءٍ كائن لكم فيهم ، أي في أمرهم وشأنهم ﴿ **فِئَتَيْنِ** ﴾ أي فرقتين ؟ والمراد إنكار اختلافهم في أمر المنافقين ، وبيان وجوب بتّ القول بكفرهم في جميع الأحكام ، وذلك أن ناساً من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ في الخروج إلى البادية ، لاجتواء[2] المدينة، فلما خرجوا لحقوا بالمشركين بمكة ، فاختلف المسلمون فيهم ، فقال بعضهم : هم كفار ، وقال بعضهم : هم مسلمون فأنزل الله تعالى الآية ﴿ **وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ** ﴾ أي والحال أنه تعالى ردهم إلى الكفر وأحكامه ، من الذل والصغار والسبي والقتل ، والإركاسُ : الردُّ والرجع ، يقال ركست الشيء وأركسته لغتان إذا رددته وقلبت آخره على أوله ﴿ **بِمَا كَسَبُوا** ﴾ أي بسبب ما كسبوا من الارتداد واللحوق بالمشركين ، والاحتيال على رسول الله ﷺ ﴿ **أَتُرِيدُونَ** ﴾ أيها المخلصون القائلون بإيمانهم ﴿ **أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ** ﴾ أي تجعلوه من المهتدين ، ففيه توبيخ لهم على زعمهم ذلك ، لأن الحكم بإيمانهم وادعاء اهتدائهم وهم بمعزل من ذلك سعي في هدايتهم وإرادة لها ﴿ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ** ﴾ أي ومن يخلق فيه الضلال كائناً من كان ﴿ **فَلَنْ تَجِدَ لهُ سَبِيلاً** ﴾ فضلاً عن أن تهديه إليه،وتوجيه الخطاب إلى كل واحد من المخاطبين للإشعار بشمول عدم الوجدان للكل على طريق التفصيل زيادةً في البيان ﴿ **وَدّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** ﴾ بيان لغلوهم وتماديهم في الكفر ، وتصديهم لإضلال غيرهم إثر تباين كفرهم وضلالهم ، أي تمنوا أن تكفروا ﴿ **كَمَا كَفَرُوا** ﴾ أي كفراً مثل كفرهم ﴿ **فَتَكُونُونَ سَوَاءً** ﴾ أي ودوا كفركم لتكونوا مستوين معهم في الضلال ، وفيه إشارة إلى أن أمارات الكفر في باطنه ، والرضى بالكفر كفرٌ ﴿ **فَلا تَتَّخِذوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ** ﴾ أي فلا توالوهم ﴿ **حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سبيلِ اللهِ** ﴾ أي حتى يؤمنوا ويحققوا إيمانهم بهجرة لله تعالى ورسوله ، لا لغرض من أغراض الدنيا ﴿ **فَإِنْ تَوَلَّوا** ﴾ أي عن الإيمان ﴿ **فَخُذُوهُمْ** ﴾ إذا قدرتم عليهم ﴿ **واقْتُلوهُمْ حيْثُ وَجدْتُمُوهُمْ** ﴾ من الحلّ والحرام ، فإن حكمهم حكم سائر المشركين ﴿ **ولا تَتّخِذوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً** ﴾ أي جانبوهم مجانبة كلية ، ولا تقبلوا منهم ولاية ولا نصرة أبداً ﴿ **إلاَّ الذينَ يَصِلُوْنَ إلى قَوْمٍ بيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ** ﴾ أي إلا الذين

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٤٤٣

(٢) اجتواء المدينة : أي استوخامها لعدم ملاءمتها لنفوسهم الخبيثة يقال : اجتوى الشيء إذا استوخمه .

يتصلون وينتهون إلى قوم عاهدوكم ولم يحاربوكم ﴿ أَوْ جَاؤُكُمْ ﴾ أي والذين جاؤكم كافين عن قتالكم وقتال قومهم ، اسْتُثني من المأمور بأخذهم وقتلهم فريقان : أحدهما من ترك المحاربين ولحق بالمعاهدين ، والآخر من أتى المؤمنين وكفَّ عن قتال الفريقين ﴿ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ أي وقد ضاقت صدروهم ﴿ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ ﴾ أي ضاقت عن أن يقاتلوكم مع قومهم ﴿ أو يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ معكم والمراد بالجائين الذين حصرت صدورهم عن المقاتلة بنو مدلج ، وهم كانوا عاهدوا أن لا يقاتلوا المسلمين ، وعاهدوا قريشاً أن لا يقاتلوهم ، فضاقت صدورهم عن قتالكم للعهد الذي بينكم ، وضاقت صدورهم عن قتال قومهم لكونهم على دينهم ، نهى الله تعالى عن قتل هؤلاء المرتدين إذا اتصلوا بأهل عهد للمؤمنين ، لأن من انضم إلى قوم ذوي عهد فله حكمهم في حقن الدم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لسَلَّطهُمْ ﴾ أي بني مدلج ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ بأن قوَّى قلوبهم وبسط صدورهم ، وأزال الرعب عنهم ﴿ فَلَقَاتلوكُمْ ﴾ ولم يكفوا عنكم واللام جواب لو على التكرير ﴿ فإنْ اعتَزَلوكُمْ فَلمْ يُقاتلوكُمْ ﴾ أي لم يتعرضوا لكم ﴿ وأَلْقَوْا إليكُمُ السَّلَمَ ﴾ أي الانقياد والاستسلام ﴿ فما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَليهِمْ سَبِيلاً ﴾ أي طريقاً بالأسر أو بالقتل ، فإن إلقاءهم إليكم السلم كافٍ في استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم ﴿ سَتَجِدُوْنَ ﴾ قوماً ﴿ آخَرِينَ يُرِيدونَ أَنْ يَأْمنوكُمْ ﴾ أي يظهرون لكم الصلح ، يريدون أن يأمنوا منكم بكلمة التوحيدَ ﴿ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ﴾ أي من قومهم بالكفر في السر ، وهو قوم من أسد وغطفان ، إذا أتوا المدينة أسلموا وعاهدوا ليأمنوا المسلمين ، فإذا رجعوا إلى قومهم كفروا ونكثوا عهودهم ليأمنوا قومهم ﴿ كُلَّما رَدُّوْا إلى الفِتْنَةِ ﴾ دُعوا من جهة قومهم إلى قتال المسلمين ﴿ أُرْكِسُوا فِيهَا ﴾ عادوا إليها، وقُلبوا فيها أقبح قلب وأشنعه ، وكانوا فيها شراً من كل عدوٍّ شرير ﴿ فَإنْ لَمْ يَعْتزِلُوْكُمْ ﴾ بالكفّ عن التعرض لكم ﴿ ويُلْقُوا إليكُمُ السَّلَمَ ﴾ أي لم يلقوا إليكم الصلح والعهد بل نبذوه إليكم ﴿ ويَكُفُّوا أيديَهُمْ ﴾ أي لم يكفوها عن قتالكم ﴿ فَخُذُوْهُمْ واقْتلُوْهُمْ حيثُ ثَقِفْتُمُوْهُمْ ﴾ أي تمكنتم منهم ﴿ وأُولئِكُمْ ﴾ الموصوفون بما عُدَّ من الصفات القبيحة ﴿ جَعَلْنَا لكُمْ عَليهِمْ سُلْطَانَاً مُبِيناً ﴾ أي حجة واضحة في التعرض لهم بالقتل والسبي ، لظهور عداوتهم ، وانكشاف حالهم ، وإضرارهم بأهل الإسلام ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ﴾ أي وما صحَّ له ولا لاق بحاله ﴿ أن يَقْتُلَ مُؤْمِناً ﴾ بغير حق فإن الإيمان زاجر عن ذلك ، ﴿ إلاَّ خَطأً ﴾ أي ليس من شأنه ذلك إلا حال الخطأ ، والخطأ مالا يقارنه إلى الفعل أو لا يقصد به زهوق الروح، كرمي مسلم في صف الكفار مع الجهل بإسلامه ، روي أن عياش بن أبي ربيعة » وكان أخا أبي جهل لأمه ، أسلم وهاجر إلى المدينة خوفاً من أهله وذلك قبل هجرة النبي عليه السلام ، فأقسمت أمه لا تأكل ولا تشرب ولا يؤويها سقف حتى يرجع ، فخرج أبو جهل ومعه « الحارث بن زيد » فأتياه وهو في أطم أي جبل فقالا له : أليس محمد يحثك على صلة الرحم ؟ انصرفْ وبرّ أمك ، ولك علينا أن لا نكرهك على شيء ،

ولا نحول بينك وبين دينك ، حتى نزل وذهب معها، فلما بعدا من المدينة شدًّا يديه إلى خلف بحبل ، وجلده كل واحد منهما مائة جلدة ، فقال للحارث : هذا أخي فمن أنت يا حارث ؟ لله عليَّ إن وجدتك خالياً أن أقتلك ، وقدما به على أمه فحلفت لا يحل وثاقه ، حتى يرجع عن دينه ، ففعل بلسانه مطمئناً قلبه على الإيمان ، ثم هاجر بعد ذلك ، وأسلم الحارث وهاجر فلقيه عياش فقتله ، ثم أخبر بإسلامه ، فأتى رسول الله ﷺ فقال قتلته ولم أشعر بإسلامه فنزلت الآية ﴿ **وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً** ﴾ صغيراً كان أو كبيراً ﴿ **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ** ﴾ أي فعليه إعتاق نسمة ﴿ **مُؤْمِنَةٍ** ﴾ محكوم بإسلامها وهذا التحرير هو الكفارة ، وهي حق الله تعالى . ﴿ **وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ** ﴾ أي مؤداة إلى ورثته يقتسمونها كسائر المواريث ﴿ **إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا** ﴾ أي يتصدق أهله عليه ، لأن الدية حق الورثة فيملكون إسقاطها بخلاف التحرير فإنه حق الله تعالى ، فلا يسقط بعفو الأولياء وإسقاطهم .

واعلم أن الدية بدل النفس وهي في الخطأ من الذهب ألف دينار ، ومن الفضة عشرة آلاف درهم ، وهي على العاقلة في الخطأ ، وهم الإخوة وبنو الإخوة ، والأعمام وبنو الأعمام ، ويكون القاتل كواحد من العاقلة ، يعني يعطي مقدار ما أعطاه واحد منهم ، وسميت الدية عقلاً لأنها تعقل الدماء أي تمسكه من أن يسفك الدم ﴿ **فَإِنْ كَانَ** ﴾ أي المقتول ﴿ **مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ** ﴾ كفار محاربين ﴿ **وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ ولم يعلم به القاتل لكونه بين أظهر قومه ﴿ **فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مؤمِنةٍ** ﴾ أي فعلى قاتله الكفارة دون الدية ، إذ لا وراثة بينه وبين أهله لكونهم كفاراً ﴿ **وإِنْ كَانَ** ﴾ أي المقتول المؤمن ﴿ **مِنْ قَوْمٍ** ﴾ كفرة ﴿ **بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ** ﴾ أي عهد مؤقت أو مؤبد ﴿ **فَدِيَةٌ** ﴾ أي فعلى قاتله دية ﴿ **مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ** ﴾ من أهل الإسلام إن وجدوا ﴿ **وَتَحْرِيرُ رقبةٍ مؤمنةٍ** ﴾ كما هو حكم سائر المسلمين ﴿ **فَمَنْ لَمْ يَجِدْ** ﴾ أي رقبة لتحريرها ، بأن لم يملكها ولا ثمنها فاضلاً عن نفقته ونفقة عياله ﴿ **فَصِيَامُ** ﴾ فعليه صيام ﴿ **شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ** ﴾ وإيجاب التتابع يدل على أن المكفر بالصوم لو أفطر يوماً في خلال شهرين فعليه الاستئناف ، إلا أن يكون الفطر بحيض أو نفاس أو نحوهما ، مما لا يمكن الاحتراز عنه فإنه لا يقطع التتابع ، والإطعام غير مشروع في هذه الكفارة ﴿ **تَوْبَةً** ﴾ كائنة ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ أي شرع لكم ذلك توبة أي قبولاً لها ، فقوله ﴿ **توبة من الله** ﴾ تنبيه على أنه كان مقصّراً في ترك الاحتياط ﴿ **وكانَ اللهَ عليماً** ﴾ بحاله أي بأنه لم يقصد القتل ولم يتعمد فيه ﴿ **حكيماً** ﴾ فيما أمر في شأنه ﴿ **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً** ﴾ حال كون ذلك القاتل ﴿ **مُتَعَمِّداً** ﴾ في قتله أي قاصداً غير مخطىء ، روي أن « مقيس الكناني » كان قد أسلم هو وأخوه هشام ، فوجد أخاه قتيلاً في بني النجار ، فأتى رسول الله عليه السلام وذكر له القصة ، فأرسل عليه السلام معه « الزبير بن عياض الفهري » وكان من أصحاب بدر إلى بني النجار يأمرهم بتسليم القاتل إلى مقيس ، ليقتص منه إن علموه ، وبأداء الدية إن لم يعلموه ، فقالوا : سمعاً وطاعة لله تعالى ولرسوله عليه السلام ، ما نعلم له قاتلاً ولكنا نؤدي ديته ، فأتوه بمائة من الإبل ، فانصرفا راجعين إلى المدينة ، حتى إذا كانا ببعض الطريق

أتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه فقال : أتقبل دية أخيك فتكون مسبة عليك ؟ أي عاراً ، أقتل هذا الفهري الذي معك ، فتكون نفس مكان نفس ، وتبقى الديةُ فضلة ، فرماه بصخرة فشدخ رأسه فقتله ، ثم ركب بعيراً من الإبل وساق بقيتها إلى مكة كافراً وهو يقول :

قتلت بـــه فهراً وحمّلتُ عقلـــه ... سَرَاةَ بني النجـار أصحـاب قـارع
وأدركتُ ثـأري واضطجعتُ مـوَسَّـداً * وكنت إلى الأوثـــان أول راجـــع

﴿ **فَجَزَاؤُه** ﴾ الذي يستحقه بجنايته ﴿ **جَهَنَّمُ خالداً فِيها** ﴾ كأنه قيل فجزاؤه أن يدخل جهنم خالداً فيها ﴿ **وغَضِبَ اللهُ عليهِ** ﴾ أي انتقم منه ﴿ **وَلَعَنَهُ** ﴾ أي أبعده عن الرحمة بجعل جزآئه ما ذكر ﴿ **وأعدَّ لَهُ** ﴾ في جهنم ﴿ **عَذاباً عظيماً** ﴾ لايقادر قدره ، واعلم أن العبرة بعموم اللفظ دون خصوص السبب ، والكلام في كفر من استحل دم المؤمن وخلوده في النار حقيقة ، فأما المؤمن إذا قتل مؤمناً متعمداً غير مستحل لقتله فلا يكفر بذلك ، ولا يخرج من الإيمان ، لأن الكفر أعظم من هذا القتل ، فإذا قبلت توبة الكافر ، فتوبة هذا القاتل أولى بالقبول ، وإن مات بلا توبة فأمره إلى الله تعالى إن شاء غفر له وأرضى خصمه ، وإن شاء عذبه على فعله ثم يخرجه بعد ذلك إلى الجنة التي وعده بإيمانه ، لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد ، فالمراد بالخلود في حقه المكث الطويل لا الدوام ، مع أن هذا إخبار منه تعالى بأن جزاءه ذلك ، لا بأنه يجزيه بذلك ، كيف لا وقد قال الله عز وجل (**وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها**) ولو كان هذا إخباراً بأنه تعالى يجزي كل سيئة مثلها لعارضه قوله تعالى (**وَيعفُو عَنْ كَثيرٍ**) وقد يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر : إن فعلته فجزاؤك القتل والضرب ، ثم إن لم يجازه بذلك لم يكن ذلك منه كذباً ، فهذا التشديد والتغليظ لايتعلق بالقاتل التائب ، ولا بمن قتل عمداً بحق كما في القصاص ، بل يتعلق بمن لم يتب وبمن قتل ظلماً وعدواناً وفي الحديث (لزوالُ الدنيا أهونُ على الله من قتل رجل مسلم)[1] وورد أيضاً (من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيسٌ من رحمة الله تعالى)[2] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة ، بصلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل انقضاء ما عليه ، أخذ من خطاياهم

(١) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه والنسائي ، جامع الأصول ١٠ / ٢٠٨
(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه ، الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ١٦٤

فطُرحت عليه ، ثم طرح في النار)[1] ثم اعلم أن المقتول إذا اقتص منه الولي ، فذلك جزاؤه في الدنيا ، وفيما بين القاتل والمقتول الأحكام باقية في الآخرة ، لأن الولي وإن قتله فإنما أخذ حق نفسه للتشفي ودرء الغيظ ، فأما المقتول فلم يكن له في القصاص منفعة ، والولي مخيَّر بين ثلاث في القتل العمد : القصاص ، والدية ، والعفو ، وذلك لأن في شرع موسى عليه السلام القصاص وهو القتل فقط ، وفي دين عيسى عليه السلام العقل أو العفو فحسب ، وفي ملتنا القصاص والدية ، وللتكرم العفو وهو أفضل .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ نزلت الآية في شأن مرداس بن نهيك وكان أسلم ولم يسلم من قومه غيره ، وكان عليه السلام بعث سرية إلى قومه فلما وصلت السرية إليهم هربوا ، وبقي مرداس معهم ، وكان في سفح جبل ومعه غنمه ، فنزل إليهم وقال « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، السلام عليكم ، فقتله « أسامة بن زيد » وساق غنمه ، فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك ، فوجد وجداً شديداً وقال (قتلتموه وهو يقول لا إله إلا الله) فقال أسامة : إنه قالها بلسانه دون قلبه ، فقال عليه السلام : هلاَّ شققتَ عن قلبه ؟ ثم قرأ الآية على أسامة فقال يا رسول الله استغفر لي فقال : فكيف بلا إله إلا الله ؟ قال أسامة : فما زال ﷺ يعيده حتى وددت أن لم أكن أسلمت إلا يومئذ ، ثم استغفر لي وأمر بردِّ الأغنام ، وتحرير رقبة مؤمنة ﴿ **إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي سافرتم وذهبتم للغزو ﴿ **فَتَبَيَّنُوا** ﴾ أي اطلبوا بيان الأمر في كل ما تأتون وما تذرون ، ولا تعجلوا فيه بغير تدبر وروّية ﴿ **وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ** ﴾ أي لمن حياكم بتحية الإسلام ﴿ **لَسْتَ مُؤْمِناً** ﴾ بل اقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه ﴿ **تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا** ﴾ أي لا تقولوا له ذلك ، حال كونكم طالبين لماله الذي هو حطام سريع النفاد ، وعرض الدنيا ما يتمتع به فيها ، وتسميته عَرَضاً تنبيه على أنه سريع الفناء قريب الانقضاء ﴿ **فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ** ﴾ تغنيكم عن قتل أمثاله لماله ، وهو تنبيه على أن ثواب الله تعالى ، موصوفٌ بالدوام والبقاء ﴿ **كَذَلِكَ** ﴾ أي مثل ذلك الذي ألقى إليكم السلام ﴿ **كُنْتُمْ** ﴾ أنتم أيضاً ﴿ **مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي في مبادي إسلامكم ﴿ **فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ** ﴾ بأن قبل منكم تلك المرتبة ، وعصم بها دماءكم وأموالكم ، ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم ﴿ **فَتَبَيَّنُوا** ﴾ الفاء فصيحة أي إذا كان الأمر كذلك ، فاطلبوا بيان هذا الأمر البيِّن ، وقيسوا حاله بحالكم ، وافعلوا به ما فُعل بكم في أوائل أموركم من قبول ظاهر الحال ﴿ **إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ من الأعمال الظاهرة والخفية ﴿ **خَبِيراً** ﴾ فيجازيكم بحسبها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فلا تتهافتوا في القتل واحتاطوا فيه * قال الإمام الغزالي: الخبير هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجري في الملك والملكوت شيء ، ولا تتحرك ذرة ، ولا تسكن ولا تضطرب نفس

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب البرّ رقم / ٢٥٨١ / والترمذي في القيامة / ٢٤٢٠ / وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٣١ .

ولا تطمئن ، إلا ويكون عنده خبر ، وهو بمعنى العليم ، لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا للباطنة سمى خِبْرَة ، ويُسمَّى صاحبه خبيراً، ودلت الآية على أن المجتهد قد يخطىء ، كما أخطأ أسامة ، وأن خطأه قد كان مغتفراً ، حيث لم يقتص منه ، على أن الذكر اللساني معتبر ، لكن ينبغي للمؤمن أن يترقى من الذكر اللساني إلى الذكر القلبي ، ثم إلى الذكر الروحي ، ويخلص من ظلمة الجهل ، ويتنور بنور المعرفة .

﴿ **لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ** ﴾ عن الجهاد ﴿ **مِنَ المُؤْمِنِينَ** ﴾ أي كائنين من المؤمنين ﴿ **غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ** ﴾ الضرر : المرضُ والعاهة ، من عمى أو عرج ، أو شلل أو زمانة أو نحوها ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال :«كنت إلى جنب رسول الله ﷺ فغشيته السكينة ، فوقعت فخذه على فخذي حتى خشيت أن ترضَّها أي تكسرها ، ثم سُرّي عنه وأزيل ما عرض له من شدة الوحي فقال : اكتب فكتبت (**لا يَسْتَوِي القَاعِدونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ والمجاهِدُونَ**) فقال ابن مكتوم وكان أعمى يا رسول الله : وكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين ؟ فغشيته السكينة كذلك ثم سُرّي عنه فقال اكتب ﴿ **لا يستَوِي القَاعِدونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غيْرُ أوْلي الضَّرَرِ** ﴾ فألحقتُها »[1] فالمراد بالقاعدين هم الأصحاء القاعدون عن بدر ﴿ **والمجاهِدونَ** ﴾ عطف على القاعدون ﴿ **فِي سَبيلِ اللهِ بأمْوالِهِمْ وَأنْفُسِهِمْ** ﴾ أي لا مساواة بينهم وبين من قعد عن الجهاد ، من غير علة في الأجر والثواب ﴿ **فضَّلَ اللهُ المجاهِدينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأنْفُسِهِمْ** ﴾ جملة موضحة لما نفي الاستواء فيه كأنه قيل : ما لهم لا يستوون فأجيب بذلك ﴿ **عَلَى القَاعِدينَ** ﴾ غير أولي الضرر ﴿ **دَرجةً** ﴾ تنوينُها للتفخيم أي بدرجة عظيمة ﴿ **وَكُلاًّ** ﴾ من القاعدين والمجاهدين ﴿ **وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى** ﴾ أي المثوبة الحسنى وهي الجنة ، لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم ، وإنما التفاوت في زيادة العمل المقتضي لمزيد الثواب قال الفقهاء : وهذا يدل على أن الجهاد فرض كفاية ، وليس مفروضاً على كل أحد بعينه ، لأنه تعالى وعد القاعدين عنه الحسنى كما وعد المجاهدين ، ولو كان الجهاد واجباً على كل أحد على التعيين لما كان القاعد أهلاً لوعد الله تعالى إياه بالحسنى ﴿ **وفضَّلَ اللهُ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدينَ** ﴾ عطف على قوله فضل الله ﴿ **أَجْراً عَظِيماً** ﴾ أي آجرهم أجراً عظيماً ﴿ **دَرَجَاتٍ مِنْهُ** ﴾ أي درجات كائنة منه تعالى ، وهي سبعون درجة وفي الحديث (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض)[2] ﴿ **وَمغْفِرَةً** ﴾ أي مغفرة لما يفرط منهم من الذنوب ﴿ **وَرَحْمَةً** ﴾ أي غفر لهم مغفرة ، ورحمهم رحمة ﴿ **وَكَانَ اللهُ غَفوراً** ﴾ لذنوب من جاهد في سبيله ﴿ **رَحِيماً** ﴾ يدخله الجنة برحمته ، وهو تذييلٌ

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ، وتفسير القرطبي ، والبحر المحيط ، وصفوة التفاسير ١ / ٢٩٧ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند والبخاري ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٤٠٠

مقرر لما وعد من المغفرة والرحمة ، قال القشيري رحمه الله : إن الله سبحانه جمع أولياءه في الكرامات لكنه غاير بينهم في الدرجات ، فمن غني وغيره أغنى منه ، ومن كبير وغيره أكبر منه ، هذه الكواكب منيرة لكن القمر فوقها ، وإذا طلعت الشمس بهرت أي غلبت جميعها بنورها انتهى . ودلت الآية على أن أولي الضَّرر مُساوون للمجاهدين في الأجر والثواب ، روي عنه عليه السلام أنه لما رجع من غزوة تبوك ودنا من المدينة قال : (إن في المدينة لأقواماً ما سرتم من مسير ، ولا قطعتم من واد إلا كانوا معكم فيه ، قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة ؟ قال : نعم وهم بالمدينة ، حبسهم حابس العذر)[1] وهم الذين صحت نياتهم وتعلقت قلوبهم بالجهاد ، وإنما منعهم عن الجهاد الضرر ، ولهذا قيل : نيَّة المرء خيرٌ من عمله ، واعلم أن الجهاد من أفاضل المكاسب ، وأماثل الحِرَف ، فلا ينبغي للعاقل أن يترك الجهاد ، أو التحدث به ، فقد ورد « من مات ولم يغز ، ولم يحدِّث به نفسه ، فقد مات ميتة جاهلية »[2] ومعنى التحدث طلبه الغزو وإخطاره بالبال ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ** ﴾ أصله تتوفاهم ولفظ المضارع ههنا على حكاية الحال الماضية ، والقصد استحضار صورتها وكأنها مشاهدة ، والمراد بتوفي الملائكة إياهم قبض أرواحهم عند الموت ، والملكُ الذي فُوِّض إليه هذا العمل هو ملك الموت ، وله أعوان من الملائكة ، وإسناد التوفي إلى الله تعالى في قوله (**اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ**) وفي قوله (**هُوَ الَّذِي يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**) مبنيٌّ على أن خالق الموت هو الله تعالى ﴿ **ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ** ﴾ في حال ظلمهم أنفسهم ، بترك الهجرة واختيار مجاورة الكفرة ، فإنها نزلت في ناس في مكة ، قد أسلموا ولم يهاجروا حين كانت الهجرة فريضة ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة بقوله عليه السلام (لا هجرة بعد الفتح[3]) ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي الملائكة للمتوفين توبيخاً لهم ﴿ **فِيمَ كُنْتُمْ** ﴾ أي في شيء كنتم من أمور دينكم ؟ ﴿ **قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أي في أرض مكة ، عاجزين عن القيام بموجب الدين فيما بين أهلها ﴿ **قَالُوا** ﴾ إبطالاً لتعللهم وتبكيتاً لهم ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** ﴾ إلى قطر آخر منها تقدرون فيه على إقامة أمور الدين ، كما فعله من هاجر إلى المدينة وإلى الحبشة ﴿ **فَأُولَئِكَ** ﴾ الذين حكيت أحوالهم الفظيعة ﴿ **مَأْوَاهُمْ** ﴾ أي في الآخرة ﴿ **جَهَنَّمُ** ﴾ لتركهم الواجب ومساعدتهم الكفار ﴿ **وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾ مصيرهم جهنم ﴿ **إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ** ﴾ الاستثناء منقطع وهؤلاء المستضعفون أي المستذلون المقهورون تحت أيدي الكفار ، ليسوا بقادرين عليها ، فلم يدخلوا فيهم ، فكان الاستثناء منقطعاً ﴿ **لا**

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه .

(٢) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي بصيغة « مات على شعبةٍ من النفاق » .

(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ولفظه : « لا هجرةَ بعد الفتح ، ولكنْ جهادٌ ونيَّة ، وإذا استُنْفرتم فانفروا » . وانظر جامع الأصول ٢ / ٥٦٥ .

﴿ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ صفة للمستضعفين ، واستطاعة الحيلة : وجدانُ أسباب الهجرة وما تتوقف عليه ، واهتداءُ السبيل : معرفةُ طريق الموضع المهاجر إليه بنفسه أو بدليل ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى المستضعفين الموصوفين بما ذكر من صفات العجز ﴿ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ ذكر بكلمة الإطماع « عسى » ولفظ العفو ، إيذاناً بأن ترك الهجرة أمر خطير ، حتى إن المضطر من حقه أن لا يأمن ويترصد الفرصة ويعلق بها قلبه ﴿ وَكَانَ اللهُ عَفُواً غَفُوراً ﴾ معنى كونه « عفواً » صفحهُ وإعراضه عن العقوبة ، ومعنى كونه « غفوراً » ستر القبائح والذنوب في الدنيا والآخرة ، فهو كامل العفو ، تام الغفران ، وفي الآية الكريمة إرشاد إلى وجوب المهاجرة ، من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة أمور دينه بأي سبب كان ، قال الحدادي : في قوله تعالى (أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها) دليل أنه لاعذر لأحد في المقام على المعصية في بلده ، لأجل المال والولد والأهل ، بل ينبغي أن يفارق وطنه إن لم يمكنه إظهار الحق فيه ، ولهذا روى عن سعيد بن جبير انه قال : إذا عمل بالمعاصي بأرضٍ فاخرج منها ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سبيلِ اللهِ ﴾ ترغيب في المهاجرة وتأنيس لها ، وسبيلُ الله ما أمر بسلوكه ﴿ يَجِدْ فِي الأرضِ مُرَاغَماً كَثِيراً ﴾ أي متحَولاً يتحول إليه ومهاجراً ، وإنما عبر عنه بذلك تأكيداً للترغيب إلى ما يكون سبباً لرغم أنف قومه الذين هاجرهم ، والرغم : الذل والهوان، وأصله لصوق الأنف بالرغام وهو التراب ، ولما كان الأنف من جملة الأعضاء في غاية العزة ، والتراب في غاية الذلة ، جعل قولهم رغم أنفه كناية عن الذلة ﴿ وَسَعَةً ﴾ في الرزق وإظهار الدين ﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً ﴾ أي مفارقاً قومه وأهله وولده ﴿ إلى اللهِ ورَسُولِهِ ﴾ أي إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﴿ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ ﴾ أي قبل أن يصل إلى المقصد ﴿ فقدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ ﴾ أي ثبت أجره عند الله ، ثبوت الأمر الواجب ﴿ وَكانَ اللهُ غفوراً ﴾ مبالغا في المغفرة فيغفر له ما فرط منه الذنوب ﴿ رَحِيماً ﴾ مبالغا في الرحمة فيرحمه بإكمال ثواب هجرته ، روي أن رسول الله ﷺ لما بعث بالآيات إلى مسلمي مكة ، قال جندب بن ضمرة لبنيه ـ وكان شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يركب الراحلة ـ احملوني فإني لست من المستضعفين ، وإني لأهتدي إلى الطريق ، والله لا أبيت الليلة بمكة ، فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة ، فلما بلغ التنعيم ـ وهو موضع قريب من مكة ـ أشرف على الموت ، فأخذ يصفق بيمينه على شماله ثم قال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايعك عليه رسولك ، فمات حميداً، وقال المشركون وهم يضحكون: ما أدرك هذا ما طلب ، فأنزل الله هذه الآية وفي الكشاف : قالوا كل هجرة لغرض ديني ، من طلب علمٍ ، أوحج ، أو جهاد ، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة ، وزهداً في الدنيا ، أو ابتغاء رزق طيب ، فهي هجرة إلى الله ورسوله ، وإن أدركه الموت في طريقه ، فأجره واقع على الله انتهى .

﴿ وإذا ضَرَبْتُمْ في الأرْضِ ﴾ شروع في بيان كيفية الصلاة عند الضرورات من السفر ، ولقاء العدو، والمطر أي إذا سافرتم للهجرة أو لغيرها ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ أي حرج ومأثم في ﴿ أَنْ تَقْصُرُوا ﴾ شيأ ﴿ مِنَ الصَلوةِ ﴾ القصرُ : خلاف المد يقال : قصرتُ الشيء أي جعلته قصيراً بحذف بعض أجزائه والمراد قصر الرباعيات بالتنصيف فإنها تُصلَّى في السفر ركعتين ، فالقصر إنما يدخل في صلاة الظهر والعصر والعشاء ، دون المغرب والفجر ، وأدنى مدة السفر الذي يجوز فيه القصر عند أبي حنيفة رحمه الله مسيرة ثلاثة أيام ولياليها ، الأيام للمشي والليالي للاستراحة بسير الإبل ومشي الأقدام بالاقتصاد ، ولا اعتبار بإبطاء المسافر وإسراعه ، فلو سار مسيرة ثلاثة أيام ولياليهن في يوم قصر ، ولو سار مسيرة يوم في ثلاثة أيام لم يقصر ، وظاهر الآية الكريمة التخييرُ بين القصر والإتمام ، وأن الإتمام أفضل ، لكن عندنا يجب القصر بحيث لا مساغ للإتمام ، قال رسول الله ﷺ (صدقة تصدَّق الله بها عليكم)[1] وهو يدل على عدم جواز الإكمال ، لأن التصدق بما لا يحتمل التمليك إسقاط محض لا يحتمل الردَّ ، فإن قلت : فما تصنع بقوله ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا ﴾ فلمَ وردَ ذلك بنفي الجناح ؟ قلتُ : لِمَا أنهم ألفوا الإتمام فكانوا مظنة أن يخطر ببالهم أن عليهم نقصاناً في القصر ، فصرح بنفي الجناح عنهم ، لتطيب به نفوسهم ويطمئنوا إليه ، كما في قوله تعالى (فَمَنْ حَجَّ البَيْتَ أَو اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أن يَطَّوفَ بهما) مع أن ذلك الطواف واجب عندنا ، ركن عند الشافعي ، ﴿ إن خفتُمْ أنْ يَفْتِنَكُمُ الذينَ كَفَرُوْا ﴾ أي إن خفتم أن يتعرضوا لكم بما تكرهون من القتال ، فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ، والقصر ثابت بهذا النص في حال الخوف خاصة ، وأما في حال الأمن فبالسنة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سافر رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ، لا يخاف إلا الله فصلَّى ركعتين ﴿ إنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوّاً مُبِيناً ﴾ أي ظاهري العداوة ، وكمالُ عداوتهم من موجبات التعرض لكم بقتال ﴿ وإذا كُنْتَ ﴾ يا محمد ﴿ فِيهِمْ ﴾ أي مع المؤمنين الخائفين ﴿ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصلٰوةَ ﴾ أي إذا أردت أن تقيم بهم الصلاة ، قال ابن عباس : لما رأى المشركون رسول الله ﷺ وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر وهو يؤمهم ، وذلك في غزوة ذات الرقاع ، ندموا على تركهم الإقدام على قتالهم ، فقال بعضهم : دعوهم فإن لهم بعدها صلاةً هي أحب إليهم من آبائهم وأولادهم وأموالهم - يريدون صلاة العصر - فإن رأيتموهم قاموا إليها فشدُّوا عليهم فاقتلوهم ، فنزل جبرائيل عليه السلام بهؤلاء الآيات بين الصلاتين ، فعلَّمه كيفية أداء صلاة الخوف وأطلعه الله على قصدهم ومكرهم وذهب، الجمهور إلى أن صلاة الخوف ، ثابتة مشروعة بعده ﷺ في حق كل الأمة .

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٨٨ .

﴿ فلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ﴾ بعد أن جعلتهم طائفيتن ، ولتقفْ الطائفة الأخرى بإزاء العدو ليحرسوكم منهم ﴿ وَلْيَأْخُذُوا ﴾ أي الطائفة القائمة معك وهم المصلُّون ﴿ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ أي لا يضعوها ولا يلقوها ﴿ فإذا سَجَدُوا ﴾ أي القائمون معك وأتموا الركعة ﴿ فلْيكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ ﴾ أي فلينصرفوا إلى مقابلة العدو للحراسة ﴿ ولْتأتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لم يُصَلُّوا ﴾ بعد وهي الطائفة الواقفة تجاه العدو للحراسة ﴿ فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ﴾ الركعة الباقية ولم يبين في الآية الكريمة حال الركعة الباقية لكل من الطائفتين ، وقد بين ذلك بالسنة حيث روي عن ابن عمر وابن مسعود أن النبي عليه السلام حين صلى صلاة الخوف صلى بالطائفة الأولى ركعة ، وبالطائفة الأخرى ركعة كما في الآية ، ثم جاءت الطائفة الأولى وذهبت هذه إلى العدو حتى قضت الأولى الركعة الأخرى بلا قراءة وسلموا ، ثم جاءت الطائفة الأخرى وقضوا الركعة الأولى بقراءة ، حتى صار لكل طائفة ركعتان ، هذا إذا كان مسافراً أو في صلاة الفجر ، لأن الركعة الواحدة شطر صلاته ، وأما إذا كان مقيماً أو في المغرب ، فيصلي بالطائفة الأولى الركعتين ، لأنها الشطر ﴿ وَلْيَأْخُذُوا ﴾ أي هذه الطائفة ﴿ حِذْرَهُمْ ﴾ وهو التحذر والتيقظ ﴿ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ أي ليكونوا حَذِرِينَ متسلحين ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ الخطاب للفريقين بطريق الالتفات أي تمنوا أن ينالوا منكم غِرَّة ، وينتهزوا فرصة فيشدُّوا عليكم شدة واحدة ﴿ ولا جُنَاحَ عليكُمْ إنْ كَانَ بكُمْ أَذًىً مِنْ مَطَرٍ أو كُنْتُمْ مَرْضىٰ أن تَضَعُوا أسلِحَتَكُمْ ﴾ رخصة لهم في وضع الأسلحة إن ثقل عليهم حملها ، بسبب ما يبلهم من مطر أو يضعفهم من مرض ، وهذا يؤيد أن الأمر بالأخذ للوجوب دون الاستحباب ، وقال الفقهاء : حمل السلاح في صلاة الخوف مستحب ، لأن الحمل ليس من أعمال الصلاة والأمر في قوله تعالى (وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ) محمول على الندب ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ أمرهم مع ذلك بأخذ الحذر أي بالتيقظ والاحتياط لئلا يهجم عليهم العدو غيلة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : غزا رسول الله ﷺ بني أنمار ، فهزمهم الله تعالى ، فنزل النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمون ولا يرون من العدو أحداً ، فوضعوا أسلحتهم وخرج رسول الله يمشي لحاجة له ، وقد وضع سلاحه حتى قطع الوادي والسماء ترش ، فحال الوادي بينه عليه السلام وبين أصحابه ، فجلس في أصل شجرة فبصر به « غورث بن الحارث المحاربي » فانحدر من الجبل ومعه السيف ، وقال لأصحابه : قتلني الله إن لم أقتل محمداً ، فلم يشعر رسول الله إلا وهو قائم على رأسه ، وقد سلَّ سيفه من غمده فقال يا محمد من يعصمك مني الآن ؟ فقال عليه السلام : الله عز وجل،ثم قال : اللهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت ، ثم أهوى بالسيف إلى رسول الله ليضربه فانكب على وجهه فقام رسول الله فأخذه ثم قال : يا غورث من يمنعك مني ؟ قال لا أحد ، قال عليه السلام : تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأعطيك سيفك ، قال : لا ، ولكنْ أشهد أن لا أقاتلك أبداً ولا

أعين عليك عدواً فأعطاه سيفه ، فقال غورث : والله لأنت خير مني ، فرجع غورث إلى أصحابه فقص عليهم قصته فآمن بعضهم ، قال : وسكن الوادي ، فرجع رسول الله إلى أصحابه وأخبرهم بالخبر .

﴿ **إن الله أعدَّ للكافِرينَ عَذَاباً مُهيناً** ﴾ أي أعدَّ لهم عذاباً مهيناً ، بأن يخذلهم وينصركم عليهم ، فاهتموا بأموركم ولا تهملوا في مباشرة الأسباب ، كي يُحِلَّ بهم عذابه بأيديكم ﴿ **فإذا قَضَيْتُمْ الصَلَوةَ** ﴾ صلاة الخوف أي أديتموها على الوجه المبين وفرغتم منها ﴿ **فَاذْكُرُوْا اللهَ قِياماً** ﴾ أي قائمين ﴿ **وَقُعُوداً** ﴾ أي قاعدين ﴿ **وَعَلَىٰ جُنُوْبِكُمْ** ﴾ أي مضطجعين أي فداوموا على ذكر الله تعالى ، وحافظوا على مراقبته ومناجاته ودعائه في جميع الأحوال ، حتى في حال المسابقة والقتال كما في قوله تعالى ﴿ **إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لَعَلَكُمْ تُفْلِحُوْنَ** ﴾ ﴿ **فإذَا اطْمَأْنَنْتُمْ** ﴾ سكنت قلوبكم من الخوف ، وأمنتم بعد ما تضع الحرب أوزارها ﴿ **فَأَقِيموا الصَلَوة** ﴾ أي أدوها بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها ، ومن حمل الذكر على ما يعم الذكر باللسان والصلاة فله أن يقول في تفسير الآية : فداوموا على ذكر الله في جميع الأحوال ، وإذا أردتم أداء الصلاة فصلوها قائمين حال الصحة والقدرة على القيام ، وقاعدين حال المرض والعجز عن القيام ، ومضطجعين على الجنوب حال العجز عن القعود ﴿ **إنَّ الصَّلاةَ كانتْ عَلَى المؤمنينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً** ﴾ أي فرضاً موقتاً وقتَّه تعالى ، وقيل مفروضاً مقدراً في الحضر أربع ركعات ، وفي السفر ركعتين ، فلابد أن تؤدى في كل وقت حسبما قدر فيه ، ولما علم الله تعالى ما في العباد من وجود الملل القاطع عن بلوغ العمل ، جعل الطاعات في الأوقات ، إذ جعل في اليوم خمساً ، وفي السنة شهراً ، وفي المائتين خمساً ، وفي العمر حجة رحمة بهم ، وتيسيراً للعبودية عليهم ، ولو لم يقيد الطاعات بأعيان الأوقات ، لمَنعهم عنها وجود التسويف ، وهذا سر الوقت ، وكان الواجب على الأمة ليلة المعراج خمسين صلاة ، فخفف الله عنهم وجازاهم بكل وقت عشراً ، فأجر خمسين في خمسة أوقات ، قالوا:وجه كون يوم القيامة على الكافر خمسين ألف سنة لأنه لما ضيع الخمسين عوقب بكل صلاة ألف سنة كما أقروا على أنفسهم بقولهم (**لَمْ نَكُ مِنَ المصَلّينَ**) ﴿ **وَلاَ تَهِنُوا في ابتِغَاءِ القَوْمِ** ﴾ نزلت في بدر الصغرى ، روي أن أبا سفيان قال عند انصرافه من أحد : يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت ، فقال ﷺ : « إن شاء الله تعالى » فلما كان القابل ، ألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان فندم على ما قال ، فبعث « نعيم بن مسعود » ليخوّف المؤمنين من الخروج إلى بدر ، فلما أتى نعيم المدينة وجد المؤمنين يتجهزون للخروج ، فقال لهم « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » فأنزل الله هذه الآية والمعنى لا تفتروا ولا تضعفوا في طلب الكفار بالقتال ، ولا يورثنكم ما أصابكم يوم أحد ، من القتل والجراحات فتوراً وضعفاً ﴿ **إنْ تكونُوا تَأْلمونَ** ﴾ من الجراح ﴿ **فَإنَّهُمْ** ﴾ أي القوم ﴿ **يَأْلمونَ كَمَا تَأْلمونَ** ﴾ أي إن كان لكم صارف عن الحرب ، وهو أنكم تألمون من الجراح ، فلهم مثل ذلك من الصارف ، ولكم أسباب

داعية إلى الحرب ليست لهم ، كما أشار إليها بقوله ﴿ **وَتَرْجُوْنَ مِنَ اللهِ** ﴾ من الثواب والنصر ﴿ **مالا يَرْجُونَ** ﴾ والحاصل ليس ما تقاسونه من الآلام مختصابكم ، بل هو مشترك بينكم وبينهم ، فما لكم لا تصبرون مع أنكم أولى به منهم ؟ حيث ترجون من الله من الثواب مالا يخطر ببالهم قطعاً ﴿ **وكانَ اللهُ عليماً** ﴾ مبالغاً في العلم فيعلم أعمالكم وضمائركم ﴿ **حَكِيماً** ﴾ فيما يأمر وينهى ، فجدّوا في الامتثال ، فإن فيه عواقب حميدة وفي الآية الكريمة حث على الشجاعة والتجلد وإظهار الغلظة كما قال تعالى (**وَلْيجدوا فيكم غلظة**) ﴿ **إنَّا أَنْزلنَا إليكَ الكِتَابَ** ﴾ أي القرآن إنزالاً ﴿ **بالحقِ** ﴾ روي أن رجلاً من الأنصار يقال له « طعمة بن أبيرق » سرق درعاً من جاره « قتادة بن النعمان » في جراب دقيق ، فجعل ينتثر من خَرْق فيه ، فخبأها عند « زيد بن السمين » اليهودي ، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها وما له بها علم ، فتركوه واتّبعوا أثر الدقيق ، حتى انتهوا إلى منزل اليهودي ، فأخذوها فقال دفعها إليَّ طعمة ، وشهد له ناس من اليهود على ذلك ، فقالت « بنو ظفر » انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ ، فسألوه أن يجادل اليهودي ليدفع فضيحة البهتان عن صاحبهم طعمة ، وقالوا له : إن اليهودي هو السارق ، فلذلك مال طبعه ﷺ إلى صدقهم بقرينة الحال ، فنزلت الآية منبهة على أن طعمه وشهوده كاذبون ، وأن اليهودي بريء من ذلك الجرم ﴿ **لِتَحْكُمَ بينَ النَّاسِ بما أَرٰيكَ اللهُ** ﴾ أي بما عرَّفك وأوحى به إليك ، وسميت المعرفة المذكورة رؤية لكونها جارية مجرى الرؤية في القوة والظهور ﴿ **ولا تَكُنْ** ﴾ أي فاحكم به ولا تكن ﴿ **لِلْخَائِنِينَ** ﴾ أي لأجلهم والذبّ عنهم ، وهم طعمة ومن يعينه ، فإنه روي أن قومه علموا أن تلك السرقة عمل طعمة لكنهم بَيَّتُوا طول ليلهم ، واتفقوا على أن يشهدوا بالسرقة على اليهودي دفعاً عن طعمة عقوبة السرقة ، فلذلك وصفهم الله جميعاً بالخيانة ﴿ **خصيماً** ﴾ أي مخاصماً للبراء ، أي لا تخاصم اليهودي لأجلهم ﴿ **واسْتَغْفِرِ اللهَ** ﴾ مما هممتَ به تعويلاً على شهادتهم * قال ابن الشيخ : ولما صدر عنه عليه السلام الهمُّ بذلك الحكم الذي لو وقع لكان خطأ في نفسه ، أمر الله تعالى إياه عليه السلام بأن يستغفر لهذا العذر وإن كان معذوراً فيه عند الله ، بناء على أن حسنات الأبرار سيآت المقربين ﴿ **إنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً** ﴾ مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يستغفره ﴿ **ولا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانونَ أَنْفُسَهُمْ** ﴾ الاختيان والخيانة بمعنى أن يخونوها بالمعصية ، وإنما قال يختانون أنفسهم وإن كانوا ما خانوا أنفسهم، لأن مضرة خيانتهم راجعة إليهم ، كما يقال فيمن ظلم غيره ، ما ظلم إلا نفسه ﴿ **إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً** ﴾ مفرطاً في الخيانة مصراً عليها ﴿ **أَثِيماً** ﴾ منهمكاً فيها وقد روي أنه هرب إلى مكة وارتد ، ونقب حائطاً بها ليسرق متاع أهله ، فسقط الحائط عليه فقتله ، قيل: إذا عثرتَ من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات ، وعن عمر رضي الله عنه أنه أمر بقطع يد سارق ، فجاءت أمه تبكي وتقول : هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه ، فقال كذبتِ ، إنَّ الله لا يؤاخذ عبده في

أول مرة ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ﴾ يستترون منهم حياء وخوفاً من ضررهم ﴿ ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ ﴾ أي لا يستحيون منه سبحانه ، وهو أحق بأن يستحي منه ، ويخاف من عقابه ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ عالم بهم وبأحوالهم ، فلا طريق إلى الاستخفاء منه ﴿ إِذْ يُبَيِّتُونَ ﴾ يدبرون ويزوِّرون ﴿ مَالا يَرْضَى ﴾ الله ﴿ مِنَ القَوْلِ ﴾ من رمي البريء ، والحلف الكاذب ، وشهادة الزور ، فإن « طعمة » رمى اليهودي بأنه سارق الدرع ، وقال قوم طعمة : نشهد زوراً لندفع شَيْن السرقة وعقوبتها عن واحد منا ﴿ وكانَ اللهُ بما يَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال الظاهرة والخافية ﴿ مُحِيطاً ﴾ لا يفوت عنه شيء ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ ﴾ والهاء في أول كل منهما للتنبيه ، والخطاب مع قوم من المؤمنين ، كانوا يذبُّون عن طعمة وعن قومه ، بسبب أنهم كانوا في الظاهر من المسلمين ﴿ جَادَلْتُمْ عنْهُمْ في الحيٰوةِ الدُّنيْا ﴾ المجادلة أشد المخاصمة ، والمعنى هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وعن قومه في الدنيا ﴿ فمنْ يُجَادِلُ اللهَ عنهمْ يَوْمَ القِيمَةِ ﴾ فمن يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذهم الله بعذابه ؟ ﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ حافظاً وحامياً من بأس الله وانتقامه ؟

﴿ ومَنْ يَعْمَلْ سُوءً ﴾ عملاً قبيحاً متعدياً، يسوء به غيره ويخزيه ، كما فعل طعمة بقتادة واليهودي ﴿ أو يَظْلِم نَفْسَهُ ﴾ كالحلف الكاذب ﴿ ثم يَسْتَغْفِرِ اللهَ ﴾ بالتوبة الصادقة لأن الاستغفار لا يكون توبة ما لم يقل معه : تَبتُ وأسأتُ ، ولا أعود إليه أبداً ، فاغفر لي يارب ﴿ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً ﴾ لذنوبه كائنة ما كانت ﴿ رَحِيماً ﴾ متفضلاً عليه ، وفيه مزيد ترغيب لطعمة وقومه في التوبة والاستغفار ، عن علي رضي الله عنه قال : حدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - رضي الله عنه قال : (ما من عبدٍ يذنب ذنباً ، ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ويستغفر الله ، إلا غفر الله له). وتلا هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوْءً أَوْ يَظْلِمْ نَفسَهُ .. ﴾[1] الآية .

﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إثْماً ﴾ من الآثام ﴿ فإنما يكسِبُهُ عَلَى نَفْسِه ﴾ بحيث لا يتعدى ضرره ووباله إلى غيره ﴿ وَكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ فهو عالم بفعله ، حكيم في مجازاته ﴿ ومَنْ يكسِبْ خَطِيئَةً ﴾ صغيرة أو ما لا عمد فيه من الذنوب ﴿ أَوْ إثْماً ﴾ كبيرة أو ما كان عن عمد ﴿ ثُمَّ يَرْمِ بِهِ ﴾ أي يقذف بأحد المذكورين ﴿ بريئاً ﴾ أي مما رماه به ، كما فعل طعمة ﴿ فَقَدِ احْتَمَلَ ﴾ أي بما فعل من تحميل جريرته على البري ﴿ بُهْتاناً ﴾ لا يقادر قدره ﴿ وإثماً مُبِيناً ﴾ أي بيناً فاحشاً لأنه بكسب الإثم آثم ، وبرمي البريء بهت ، فهو جامع بين الأمرين ، وسمي رمي البريء بهتاناً ، لكون البريء متحيراً عند سماعه لعظمه في الكذب ، يقال : بُهِت الرجل بالكسر إذا دهش وتحير ، ويقال : بَهَتَهُ بُهتَاناً إذا قال

(١) الحديث أخرجه أبو داود في السنن .

عنه ما لم يقله، أو نسب إليه ما لم يفعله ، روي عنه عليه السلام أنه قال (الغيبة ذكرك أخاك بما يكره فقيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتَّه)[1] .

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ ﴾ بالعصمة ﴿ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ﴾ أي من«بني ظَفَر» وهم الذابون عن طعمة ﴿ أَنْ يُضِلُّوكَ ﴾ أي بأن يضلوك عن القضاء بالحق بتلبيسهم عليك ، مع علمهم بأن الجاني هو صاحبهم ﴿ وما يُضِلُّون إلا أنفسهم ﴾ لأن وباله عليهم ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي وما يضرونك شيأ من الضرر ، لأن الله عاصمك ﴿ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ ﴾ أي القرآن ﴿ والحِكْمَة ﴾ أي ما في القرآن من الأحكام ، وعرفك الحلال والحرام ﴿ وعلَّمَكَ ﴾ بالوحي من الغيب وخفيات الأمور ﴿ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ ذلك إلى وقت التعليم ﴿ وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً ﴾ إذ لا فضل أعظم من النبوة العامة والرياسة التامة ، ومن ذلك الفضل العظيم عصمته وتعليمه ما لم يعلم ، وفي هذه الآيات دلالة أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم لغيره ، في إثبات حق أو نفيه ، وهو غير عالم بحقيقة أمره ، وأنه لا يجوز للحاكم الميل إلى أحد الخصمين ، وإن كان أحدهما مسلماً والآخر كافراً ، وإن وجود السرقة في يدي إنسان لا يوجب الحكم بها عليه انتهى ، واعلم أن هذه الآية جامعة لفضائل كثيرة : منها بيان أن وبال الشر يعود على صاحبه ، كما أن منفعة الخير تعود على فاعله ، حكي أن امرأة وضعت لقمة في فم سائل ، ثم ذهبت إلى مزرعة فوضعت ولدها في موضع فأخذه الذئب ، فقالت يارب ولدي : فأخذ رجل عنق الذئب ، واستخرج ولدها من غير أذى ، ثم قال : هذه اللقمة لتلك اللقمة ، التي وضعتها في فم السائل » فكلٌّ يرى صنعه في الدنيا أيضاً ، ومنها أن العلم والحكمة من أعظم الفضائل ، والمراد « العلم النافع » المقرب إلى الله تعالى (وأعوذ بك من علم لا ينفع) فإن العلم النافع لا ينقطع مدده في الآخرة أيضاً ، على ما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له)[2] ومنها أن لا يرى العبد الفضائل والخيرات من نفسه، بل من فضل الله ورحمته ، وليس للعبد أن يزكي نفسه فإن الأنفس ليست بمحل التزكية ، فمن استحسن من نفسه شيئاً، فقط أسقط من باطنه أنوار اليقين ، والكامل لا يرى لنفسه قدراً فكيف لعمله ، وكلُّ ما يعمله العبد من بدايته إلى نهايته ، لا يقابل نعمةَ الوجود .

﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾ أي لا خير في كثير من تناجي الناس ، وهو في اللغة سرٌّ بين اثنين

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وأحمد .
(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ، وأحمد في المسند ، وانظر فيض القدير .

﴿ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ ﴾ أي إلا في نجوى من أمر ﴿ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ ﴾ المعروف : كلُّ ما يستحسنه الشرع ، ولا ينكره العقل ، فينتظم أصناف الجميل ، وفنون أعمال البر ، وقد فُسّر هنا بالقرض ، وإغاثة الملهوف ﴿ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ عند وقوع المشاقة والمعاداة بينهم، من غير أن يجاوز في ذلك حدود الشرع الشريف وفي الحديث « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشَّعرَ ، ولكنْ تحلق الدين »[1] ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ اشارة إلى الأمور المذكورة ، أعني الصدقة ، والمعروف ، والإصلاح ﴿ ابتغاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ﴾ أي طلب رضى الله تعالى، والتقييد به لأن الأعمال بالنيات ، وأن من فعل خيراً رياء وسمعة ، لم يستحق به غير الحرمان ﴿ فَسَوْفَ نُؤتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ يقصر عنه الوصف ، ويُستحقر دونه ما فات من أعراض الدنيا ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ﴾ يخالفه ، من الشق فإن كلاً من المتخالفين في شق غير شق الآخر ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ﴾ ظهر له الحق ، بالوقوف على المعجزات الدالة على نبوته ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي غير ما هم عليه من اعتقاد وعمل ، وهو الدين القيم ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ أي نجعله والياً لما تولاه من الضلال ، ونخذله بأن نخلي بينه وبين ما اختار ﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ أي ندخله فيها ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ أي جهنم فعلى العاقل أن لا يخالف الجماعة وهم المؤمنون ، فإن الشاة الخارجة عن القطيع يأكلها الذئب ، وسبيلُ المؤمنين هو السبيل الحق، الموصل إلى الجنة والقُرْبة ، والوصلة واللقاء .

﴿ إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ جاء شيخ إلى رسول الله ﷺ وقال : إني شيخ منهمك في الذنوب ، إلا أني لم أشرك بالله شيأ منذ عرفته وآمنت به فنزلت هذه الآية ، فالشرك غير مغفور إلا بالتوبة ، وما سواهُ مغفور لكنْ لا لكل أحد ، بل لمن يشاء الله مغفرته ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ عن الحق فإن الشرك أعظم أنواع الضلالة ، وأبعدها عن الصواب والاستقامة * قال الحدادي : أي فقد ذهب عن الصواب والهدى ذهاباً بعيداً ، وحرم الخير كله ، فالشرك أقبح الرذائل ، كما أن التوحيد أحسن الحسنات .

﴿ إِنْ ﴾ بمعنى ما النافية ﴿ يَدْعُونَ ﴾ أي المشركون وهو بمعنى يعبدون ، لأن من عبد شيأ فإنه يدعوه عند احتياجه إليه ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾الضمير راجع إلى الله تعالى ﴿ إِلاَّ إِنَاثاً ﴾ جمع أنثى والمراد الأوثان ، وسميت أصنامهم إناثاً لأنهم كانوا يصورونها بصورة الإناث ، ويلبسونها أنواع الحلل التي تتزنين بها النساء ، ويسمونها غالباً بأسماء المؤنثات ، نحو اللاَّت ، والعُزَّى ، ومَنَاة ، وهذا دليل على تناهي جهلهم ،

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود وأحمد والطبراني .

وفرط حماقتهم ، وقيل : المراد الملائكة فإن من المشركين من يعبد الملائكة ، ويقول الملائكة بنات الله تعالى ، قال الله تعالى (**إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَىٰ**) مع اعترافهم بأن إناث كل شيء أخسُّه وأرذله ﴿ **وَإِنْ يَدْعُونَ** ﴾ أي وما يعبدون بعبادة الأصنام ﴿ **إِلاَّ شَيطَاناً مَرِيداً** ﴾ لأنه الذي أمرهم بعبادتهم وأغراهم عليها ، وكأنَّ طاعته في ذلك عبادة له ، والمراد بالشيطان ههنا « إبليس » بشهادة قوله تعالى بعد هذه الآية (**لأَتَّخِذَنَّ**) وهو قول إبليس ، والمَريدُ : هو الذي تجرَّد للشر ، وتعرى من الخير ، يقال شجرة مرداء أي لا ورق عليها وغلام أمرد إذا لم يكن على وجهه شعر ﴿ **لَعَنَهُ اللهُ** ﴾ أي أبعده من رحمته إلى عقابه بالحكم له بالخلود في جهنم ﴿ **وَقَالَ** ﴾ عطف عليه أي شيطاناً مريداً جامعاً بين لعنة الله وهذا القول الشنيع ، الدال على فرط عداوته للناس ﴿ **لأَتَّخِذَنَّ** ﴾ هذه اللام للقسم ﴿ **مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً** ﴾ أي مقطوعاً واجباً قُدِّر لي وفُرض ، قال الحسن : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون كما في الحديث الشريف يقول الله تعالى : (يا آدم فيقول : لبيك وسعديك والخير في يديك ، فيقول : أَخْرِج بعثَ النار ، قال وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، قال النبي عليه السلام فذلك حين يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها[1] » ﴿ **وَلأُضِلَّنَّهُمْ** ﴾ عن الحق ، وإضلاله : وسواس ودعاء إلى الباطل ﴿ **وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ** ﴾ الأماني الباطلة بأن يخيل للإنسان إدراك ما يتمناه ، من المال وطول العمر ، وقيل : يوهمه أنه لا جنة ولا نار ، ولا بعث ولا عقاب ولا حساب ﴿ **وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ** ﴾ أي فلَيقطِّعُنَّها بموجب أمري وَيَشُقُنَّها ، وأجمع المفسرون على أن المراد به ههنا قطع آذان البحائر والسوائب ، والأنعام : الإبل والبقر والغنم أي لأحملنهم على أن يقطعوا آذان هذه الأشياء ، ويُحرِّموها على أنفسهم بجعلها للأصنام ، وتسميتها بحيرة ، وسائبة ، ووصيلة ، وحامياً ، وكان أهل الجاهلية إذا أنتجت ناقة أحدهم خمسة أبطن ، وكان آخرها ذكراً بحروا أذنها ، وامتنعوا من ركوبها وحلبها وذبحها ، ولا تطرد عن ماء ولا تمنع عن مرعى ، والسائبة المخلاة تذهب حيث شاءت ، وكان الرجل منهم يقول : إن شفيتُ فناقتي سائبة ، أو يقول إن قدم غائبي من السفر فناقتي سائبة فكانت كالبحيرة ﴿ **وَلآمُرَنَّهُمْ** ﴾ بالتغيير ﴿ **فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ** ﴾ عن نهجه صورةً وصفة ، ويندرج فيه أمور : منها خصاء العبيد ، ومنها الوشم وهو أن يغرز الجلد بإبرة ثم يُحْشى بكحل حتى يخضر ، ومنها الوشر وهو أن تحدد المرأة أسنانها وترققها تشبهاً بالشواب ، ومنها التنمص وهو نتف شعور الوجه ، وقد لعن النبي عليه السلام (النامصة والمتنمصة والواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة)[2] والجمل الأربع هي (**لأَتَّخِذَنَّ ، وَلأُضِلَّنَّهُم ، وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ ، وَلآمُرَنَّهُمْ**) كل

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، ومسلم في الإيمان ، والترمذي في التفسير ، وأحمد في المسند ١ / ٣٨٨ .

(٢) حديث « لعن اللهُ النامصة والمتنمصة .. » أخرجه الشيخان وأحمد في المسند بألفاظ متقاربة ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٤ .

واحدة منها مقول للشيطان ﴿ **وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ ولياً مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ بإيثار ما يدعو إليه على ما أمره الله به ﴿ **فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً** ﴾ لأنه ضيَّع رأس ماله بالكلية ، وبدَّل مكانه من الجنة بمكانه من النار ﴿ **يَعِدُهُمْ** ﴾ مالا ينجزه من طول العمر ، ونيل لذائذ الدنيا من الجاه والمال ، وقضاء شهوات النفس ﴿ **وَيُمَنِّيهِمْ** ﴾ مالا ينالون نحو أن لا بعثَ ولا حساب ولا جزاء ﴿ **وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلا غُروراً** ﴾ وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر ، وهذا الوعد إما بإلقاء الخواطر الفاسدة ، أو بألسنة أوليائه. واعلم أن العمدة في إغواء الشيطان ، أن يزين زخارف الدنيا ، ويلقي الأماني في قلب الإنسان ، مثل أن يلقي في قلبه أنه سيطول عمره وينال من الدنيا أمله، ويحصل له ما تيسر لأرباب المناصب والأموال ، وكل ذلك غرور ، لأنه ربما لا يطول عمره ، وإن طال فربما لا ينال أمله ومطلوبه ، فنبَّه سبحانه وتعالى على أن الشيطان إنما يعدويُمنِّي، لأجل أن يغرّ الإنسان ويخدعه ، ويفوّت عنه أعز المطالب وأنفع المآرب ، فالعاقل من لا يتبع وسواس الشيطان ، ويبتغي رضى الرحمن ، بالتمسك بكتابه العظيم وسنن رسوله الكريم، والعمل بهما ليفوز فوزاً عظيماً وكفى بذلك نصيحة ﴿ **أولَئِكَ** ﴾ إشارة إلى أولياء الشيطان ﴿ **مَأْوَيٰهُمْ** ﴾ أي مستقرهم ﴿ **جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُوْنَ عنْها مَحِيصاً** ﴾ أي معدلاً ومهرباً من حاص يحيص إذا عدل ، والإشارة أن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم السعداء ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم الأشقياء ، وخلق الشيطان مزيناً وداعياً وآمراً بالهوى ، فافهم تفز إن شاء الله .

﴿ **وَالَّذِينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ** ﴾ صلاح الأعمال في إخلاصها ، فالعمل الصالح هو ما أُريد به وجه الله تعالى ، وينتظم جميع أنواعه من الصلاة والزكاة وغيرهما ﴿ **سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** ﴾ أي أنهارُ الماء ، واللبن ، والخمر ، والعسل ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً** ﴾ أي مقيمين في الجنة إلى الأبد ، وإنما ذكر الطاعة مع الإيمان وجمع بينهما فقال « آمنوا وعملوا الصالحات » ليتبين بطلان توهم من يتوهم أنه لا تضر المعصية مع الإيمان ، كما لا تنفع الطاعة مع الكفر ، وليتبين استحقاق الثواب على كل واحدٍ من الأمرين ﴿ **وَعْدَ اللهِ حَقّاً** ﴾ أي وعد الله لهم هذا وعداً ، وحق ذلك حقاً ﴿ **ومَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً** ﴾ استفهام إنكاري ، أي ليس أحد أصدق من الله قولاً ووعداً ، وأنه تعالى أصدق من كل قائل ، فوعده أولى بالقبول ﴿ **ليسَ بأمانِيّكُمْ ولا أَمَانِيّ أَهْلِ الكِتَابِ** ﴾ أي ليس ما وعد الله من الثواب يحصل بأمانيكم أيها المسلمون ، ولا بأماني أهل الكتاب ، وإنما يحصل بالإيمان والعمل الصالح، قال الحسن : ليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وَقَر في القلب وصدَّقه العمل ، إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحسن الظنَّ بالله ، وكذبوا، لو أحسنوا الظن بالله ، لأحسنوا العمل ﴿ **منْ يعْمَلْ سُوْءً** ﴾ عملاً قبيحاً ﴿ **يُجْزَ بِهِ** ﴾ عاجلاً أو آجلاً ﴿ **ولا يَجِدْ لَهُ منْ دونِ اللهِ ولياً ولا نَصِيراً** ﴾ أي ولا يجد لنفسه من يواليه وينصره في دفع العذاب عنه ﴿ **وَمَنْ يعمَلْ مِنَ**

﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ أي بعضها وشيئاً منها على ما في وُسْعه ، وكم من متكلِّف لا حج عليه ولا جهاد ولا زكاة ﴿ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأنه لا اعتداد بالعمل بدون الإيمان الصحيح ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ المؤمنون العاملون ﴿ يدْخُلونَ الجنّةَ ولا يُظْلَمونَ نقيراً ﴾ أي لا ينقصون مما استحقوه من جزاء أعمالهم ، مقدار النقير ، وهي النقرة أي الحفرة التي في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة ، وهو عَلَمٌ في القلة والحقارة ، وإذا لم ينقص ثواب المطيع ، فبالحري أن لا يزداد عقاب العاصي ، لأن المجازي أرحم الراحمين، قال النيسابوري : حكمة تضعيف الحسنات ، لئلا يفلس العبد إذا اجتمع الخصماء، فيدفع إليهم واحدة ويبقى له تسع ، فمظالم العباد توفَّى من التضعيفات لا من أصل حسناته ، لأن التضعيف فضل من الله تعالى ، وأصل الحسنة الواحدة عدل منه واحدة بواحدة ، واعلم أن جميع الأعمال الصالحة ، يزيد في نور الإيمان ، فعليك بالطاعات والحسنات ، والوصول إلى المعارف الإلهية ، فإن العلم بالله أفضل الأعمال ﴿ ومَنْ ﴾ استفهام إنكاري ﴿ أَحْسَنُ دِيناً ﴾ الدين والملة متحدان بالذات ﴿ مِمَّنْ أَسلَمَ وجهَهُ للهِ ﴾ أي جعل نفسه وذاته سالمة خالصة لله تعالى ، بأن لم يجعل لأحد حقاً فيها ، لا من جهة الخالقية والمالكية ، ولا من جهة العبودية والتعظيم ﴿ وَهُوَ مُحسِنٌ ﴾ الجملة حال أي والحال أنه آت بالحسنات تارك للسيآت ، وقد فسره النبي عليه السلام بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) والإحسان حقيقة الإيمان ، واعلم أن دين الإسلام مبنيٌ على أمرين : الاعتقاد ، والعمل ، فالله سبحانه أشار إلى الأولى بقوله (أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ) وإلى الثاني بقوله ﴿ وَهُوَ مُحْسنٌ ﴾ أي في الانقياد لربه بأن يكون آتياً بجميع ما كُلِّف به ، على وجه الإجلال والخشوع ﴿ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيمَ ﴾ الموافقة لدين الإسلام ، المتفق على صحتها وقبولها بين الأديان كلها ﴿ حَنيفاً ﴾ أي مائلاً عن الأديان الزائغة ، ثم إن الله تعالى رغب في اتباع ملته فقال ﴿ واتَّخذَ اللهُ إبراهيمَ خَليلاً ﴾ أي اصطفاه وخصصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله ، والخلة : من الخلال فإنه ودٌّ تخلَّل النفسَ وخالَطَها ﴿ ولله ما في السّمواتِ وما في الأَرْضِ ﴾ أي جميع ما في السموات وما في الأرض ، من الموجودات له تعالى ، خلقاً وملكاً ، يختار منها ما يشاء ﴿ وكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحيطاً ﴾ إحاطة علم وقدرة ، فكل واحد من علمه وقدرته محيط بجميع ما يكون داخلاً فيها ، وما يكون خارجاً عنها مما لا نهاية له، قال القاضي في الشفاء : الخلة هنا أقوى من البنوَّة لأن البنوة قد يكون فيها العداوة كما قال تعالى (إنّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وأَوْلادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ) ولا يصح أن تكون عداوة مع خلة ، ومن شرط الخلة استسلام العبد في عموم أحواله لله بالله ، وأن لا يدخر شيأ مع الله ، لا من ماله وجسده ، ولا من نفسه ، ولا من أهله وولده ، وهكذا كان حال إبراهيم عليه السلام ، ومن شرط المحبة فناء المحِبِّ في المحبة وهذا حال محمد ﷺ .

وفي الحديث (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذتُ أبا بكر خليلاً)[1] يعني لو جاز لي أن أتخذ صديقاً من الخلق ، يقف على سري ، لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن لا يطَّلع على سري إلا الله، فكل الكائنات متصل به ، وهو غير متصل بشيء أصلاً، سوى الله سبحانه وتعالى ، اللهم ارزقنا شفاعته ﴿ **وَيَسْتَفْتُونَكَ** ﴾ أي يطلبون منك الفتوى ﴿ **فِي** ﴾ حق توريث ﴿ **النِّسَاءِ** ﴾ إذ سببُ نزولها أن « عيينة بن حصين » أتى النبي عليه السلام ، فقال : أُخْبِرْنا أنك تعطي الابنة النصف ، والأخت النصف ، وإنما كنا نورِّث من يشهد القتال ويحوز الغنيمة ؟ فقال عليه السلام : كذلك أُمرت[2] ﴿ **قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ** ﴾ يبين لكم حكمه في حقهن ، والافتاء تبيين المبهم وتوضيح المشكل ﴿ **وما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الكِتابِ** ﴾ عطف على اسم الله أي يفتيكم اللهُ وكلامُهُ ، فيكون الإفتاء مسنداً إلى الله وإلى ما في القرآن من قوله (**يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أولادِكُمْ**) ﴿ **فِي** ﴾ شأن ﴿ **يَتَامى النِّساءِ الَّلاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ** ﴾ أي فرض لهنَّ من الميراث وغيره ﴿ **وتَرْغَبُونَ أن تَنْكِحُوهُنَّ** ﴾ أي في نكاحهن لجمالهن ومالهن ، فإن كانت اليتيمة جميلة موسرة ، رغب وليها في تزوُّجها ﴿ **و** ﴾ في ﴿ **المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدانِ** ﴾ عطف على يتامى النساء ، والعربُ ما كانوا يورثونهم كما لا يورثون النساء ، وإنما يورثون الرجال القوامين بالأمور ﴿ **و** ﴾ في ﴿ **أن تَقُومُوا لليتامى** ﴾ في أموالهم وحقوقهم ﴿ **بالقِسْطِ** ﴾ أي العدل ، وما يتلى في حقهم قوله تعالى (**ولا تَتَبَدلوا الخَبيثَ بالطَيبِ ، ولا تأْكُلوا أمْوالَهُمْ إلى أمْوالِكُمْ**) ونحو ذلك ﴿ **وما** ﴾ شرطية ﴿ **تَفْعَلوا مِنْ خيرٍ** ﴾ على الإطلاق سواء كان في حقوق المذكورين أو غيرهم ﴿ **فإنَّ اللهَ كانَ بِهِ عليماً** ﴾ فيجازيكم بحسبه ، فعلى العاقل أن يطيع الله تعالى فيما أمر ، ولا يأكل مال الغير ، بل يجتهد في أن ينفقَ ما قدر عليه على اليتامى والمساكين ، قال حاتم الأصم : من ادَّعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب : من ادَّعى حبَّ الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب ، ومن ادَّعى محبة الله من غير ورع عن محارم الله فهو كذاب ، ومن ادَّعى محبة النبي عليه السلام من غير محبة الفقراء فهو كذاب ، وفي قوله ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا** ﴾ حث على فعل الخير وترغيب ، حكي أن امرأة جاءت إلى حانوت أبي حنيفة تريد شراء ثوب ، فأخرج أبو حنيفة ثوباً جديداً قيمته أربعمائة درهم ، فقالت المرأة : إني امرأة ضعيفة ولي بنت أريد تسليمها إلى زوجها ، فبعني هذا الثوب بما يقومُ عليك ، فقال أبو حنيفة : خذيه بأربعة دراهم ، فقالت المرأة لِمَ تسخر بي ؟ فقال أبو حنيفة : معاذ الله أن أكون من الساخرين ، ولكني كنت اشتريتُ ثوبين فبعتُ أحدهما برأس المال إلا أربعة دراهم ، فبقي هذا عليَّ بأربعة دراهم ، فأخذت المرأة الثوب بأربعة دراهم ، ورجعت مستبشرة فرحة ».

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي وابن ماجه والدارمي .

(٢) انظر تفسير الطبري ، والقرطبي ، وابن كثير ، وروح المعاني للألوسي .

واعلم أن النفس بمثابة المرأة لزوج الروح ، فكما أوجب الله على الرجال من الحقوق للنساء فكذلك أوجب على العبد الحقوق للنفس ، كما قال عليه السلام لعبد الله بن عمر حين جاهد نفسه بالليل بالقيام ، وبالنهار بالصيام : (إن لنفسك عليك حقاً فصمْ ، وأفطرْ ، وقمْ ونم)[1] والرياضة الشديدة تقطع عن السير قال عليه السلام (إن هذا الدِّينَ متينٌ فَأوغلْ فيه برفق)[2] يريد لا تحملوا على أنفسكم ولاتكلفوها مالا تطيق ، فتعجز فتترك الدين والعمل ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتوسط في إعطاء نفسه حقها ، ويعدل فيها غاية العدل ، فيصوم ويفطر ، ويقوم وينام ، وينكح النساء ، ويأكل في بعض الأحيان ما يجد كالحلوى والعسل والدجاج ، وتارة يجوع حتى يشدَّ الحجر على بطنه من الجوع ، فيا أيها الغافل تنبه لرحيلك ومسراك ، واحذر أن تكون عبداً لهواك ، انتقل إلى الصلاح قبل أن تنقل ، وحاسب نفسك على ما تقول وتفعل ، فإن الله سبحانه بكل شيء عليم ، وبكل شيء محيط ، فإياك من الإفراط والتفريط ﴿ **وإنِ امرَأَةٌ خافتْ مِنْ بَعْلِهَا** ﴾ أي إن خافت امرأة وتوقعت من زوجها ﴿ **نُشُوزاً** ﴾ تجافياً عنها وترفعاً من صحبتها ، كراهةً لها من النشز وهو ما ارتفع من الأرض ﴿ **أو إعراضاً** ﴾ بأن يُقلّل مجالستها ومحادثتها، وذلك لبعض الأسباب ، من طعن في سن، أو دمامة أو طموح عين إلى أخرى أو غير ذلك ، روي أن الآية نزلت في خويلة ابنة محمدبن مسلمة » وزوجها « سعد بن الربيع » تزوجها وهي شابة ، فلما علاها الكبر تزوج شابة ، وآثرها عليها وجفاها ، فأتت رسول الله ﷺ واشتكت إليه فنزلت ﴿ **فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا** ﴾ حينئذ ﴿ **أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحَاً** ﴾ أي في أن يصلحا بينهما إصلاحاً ، بأن تحط له المهر أو بعضه ، أو القسم كما فعلت سودة رضي الله عنها ، وكانت كبيرة مسنة ، وذلك أن أم المؤمنين « سودة ابنة زمعة » التمست من رسول الله حين أراد عليه السلام أن يُطلّقها أن يمسكها وتجعل نوبتها لعائشة رضي الله عنها ، لما عرفت مكان عائشة من قلبه عليه السلام ، فأجازه النبي عليه السلام ولم يطلقها ، وكان عليه السلام بعد هذا الصلح يقسم لعائشة يومها ويوم سودة ، قال الحدادي : مثلُ هذا الصلح لا يقع لازماً، لأنها إذا أبت بعد ذلك إلا المقاسمة على السواء كان لها ذلك ﴿ **والصُّلْحُ** ﴾ الواقع بين الزوجين ﴿ **خَيْرٌ** ﴾ أي من الفرقة أو من سوء العِشْرة، أو من الخصومة قال السيوطي في حسن المحاضرة في أحوال مصر والقاهرة : إن شئت أن تصير من الأبدال فحوّل خُلُقَك إلى بعض خُلُقِ الأطفال ، ففيهم خمس خصال لو كانت في الكبار لكانوا أبدالاً : « لا يهتمون للرزق ، ولا يشكون من خالقهم إذا مرضوا ، ويأكلون الطعام مجتمعين ، وإذا خافوا جرت عيونهم، بالدموع ، وإذا تخاصموا تسارعوا إلى الصلح »

---

(١) الحديث أصله في الصحيحين .

(٢) الحديث أخرجه البزار ولفظه : « إن هذا الدينَ متينٌ ، فأوغِلْ فيه برفقٍ ، فإن المنبتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » وانظر فيض القدير ٢ / ٥٤٤ فقد أشار إلى ضعفه .

﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ أي جعلت حاضرة له مطبوعة عليه ، لا تنفك عنه أبداً ، فلا المرأة تسمح بحقوقها، ولا الرجل يجود بحسن المعاشرة مع دمامتها وكبر سنها، وأصل الكلام : أحضر اللهُ الأنفس الشح ، والشحُّ :البخلُ مع حرص ، فهو أخص من البخل، عن الليث قال : بلغني أن إبليس لقي نوحاً فقال له إبليس يا نوح : اتق الحسد والشح ، فإني حسدت آدم فخرجت من الجنة ، وشُحَّ آدم على شجرة واحدة مُنِعها حتى خرج من الجنة ﴿ وَإِنْ تُحْسِنُوْا ﴾ أيها الأزواج بإمساكهن بالمعروف وحسن المعاشرة ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ ظلمهن بالنشوز والإعراض ﴿ فَإِنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلونَ ﴾ من الإحسان والتقوى ﴿ خَبِيراً ﴾ عليماً به وبالغرض فيه ، فيجازيكم ويثيبكم عليه ، روي أن رجلاً دمياً كانت له امرأة من أجمل النساء ، فنظرت إليه يوماً فقالت : الحمد لله ، قال زوجها مالك ؟ فقالت : حمدت الله على أني وأنك من أهل الجنة ، لأنك رزقت فشكرت ، ورزقتُ مثلكَ فصبرتُ ، وقد وعد الله بالجنة للصابرين والشاكرين ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاءِ ﴾ أي محال أن تقدروا على أن تعدلوا وتسوُّوا بينهنَّ ، بحيث لا يقع ميل إلى جانب إحداهن البتة ، لذلك كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : (اللهم هذا قَسْمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك)[1]وأراد به التسوية في المحبة ، وكان له فرط محبة لعائشة رضي الله عنها ﴿ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أي على إقامة العدل وبالغتُم في ذلك ﴿ فَلاَ تَمِيلُو كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ أي فلا تجوروا على المرأة المرغوب عنها كل الجور ، واعدلوا ما استطعتم ، وفي الحديث (استَقيموا ولَنْ تحصوا) أي لن تستطيعوا أن تستقيموا في كل شيء حتى تميلوا ﴿ فَتَذَرُوْهَا ﴾ أي فلا تتركوا التي ملتم عنها ﴿ كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ وهي المرأة التي ليست بذات زوج ، ولا مطلّقة ، كأنها عُلّقت في الفضاء ، بين الأرض والسماء ، وفي الحديث (من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وأحدُ شِقَّيه مائلٌ)[2] ﴿ وَإِنْ تُصْلِحُوا ﴾ ما كنتم تفسدون من أمورهن ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ الميل فيما يستقبل ﴿ فَإِنَّ اللهَ كانَ غفوراً ﴾ يغفر لكم ما مضَى من ميلكم ﴿ رحيماً ﴾ يتفضل عليكم برحمته ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا ﴾ أي وإن يفارق كل واحد منهما صاحبه ، بأن لم يتفق بينهما وفاق بوجه ما ، من الصلح أو غيره ﴿ يُغْنِ اللهُ كُلاً ﴾ منهما أي يجعله مُسْتغنياً عن الآخر ويكفه مهماته ﴿ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ من غناه وقدرته ، وفيه زجر لهما عن مفارقة أحدهما رغماً لصاحبه .

﴿ وكانَ اللهُ واسعاً حكيماً ﴾ أي مقتدراً في أفعاله وأحكامه ، وله حكمة بالغة فيما يحكم ، فعلى المؤمن ترك حظ النَّفْس ، والدور مع الأمر الإلهي في جملة أموره وأحكامه ، والعمل في حق النساء بقوله تعالى

(١) الحديث أخرجه أصحاب السنن والإمام أحمد في المسند ، وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٤٥ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٢٣٣ .

﴿ فإمْساكٌ بمعْروفٍ أوْ تَسْريحٌ بإحسانٍ ﴾ والاستحلال قبل أن يجيء يوم لا بيعٌ فيه ولا خلال ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : « يؤخذ بيد العبد أو الأمة فينصب على رؤوس الأولين والآخرين ، ثم ينادي مناد هذا فلان ابن فلان ، فمن كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على ابنها أو أخيها ، أو على أبيها أو على زوجها ، ثم قرأ ابن مسعود رضي الله عنه (فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ) فيقول الرب تعالى : آتِ هؤلاء حقوقهم ، فيقول رب لست في الدنيا فمن أين أوتيهم ؟ فيقول للملائكة خذوا من أعماله الصالحة، فأعطوا كل إنسان منهم بقدر طَلِبَته ، فإن كان ولياً لله فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل من خير ضاعفها حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ ﴿ إنّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ منْ لدنهُ أجْراً عظيماً ﴾ وإن كان عبداً شقياً قالت الملائكة : رب فنيت حسناته وبقي الطالبون ، فيقول للملائكة : خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلى سيئاته، وصكُّوا له صكاً إلى النار »فلابد من التوبة والاستغفار ، والرجوع إلى الملك الغفار. حكي أن أبا منصور بن ذكير ، كان رجلاً زاهداً صالحاً ، فلما دنت وفاته أكثر البكاء ، فقيل له : لم تبكي عند الموت ؟ قال أسلكُ طريقاً لم أسلكه قط ، فلما توفي رآه إبنه في المنام في الليلة الرابعة ، فقال يا أبت مافعل الله بك ؟ فقال يا بني إن الأمر أصعب مما ترى أي تظن ، لقيتُ مَلِكاً عادلاً أعدل العادلين ، ورأيت خصماء مناقشين ، فقال لي ربي يا أبا منصور قد عمرتك سبعين سنة : فما معك اليوم ؟ فقلت يا ربي حججت ثلاثين حجة، وتصدقت بأربعين ألف درهم بيدي ، وغزوتُ أربعين غزوة ، فقال لم أقبل منك ، فقلت إذاً قد هلكتُ ، فقال الله تعالى : ليس من كرمي أن أعذِّب مثل هذا يا أبا منصور ، أما تذكر اليوم الفلاني نحيَّتَ الحجر والأذى عن الطريق، كيلا يعثر بها مسلم ، فإني قد رحمتك بذلك ، فإني لا أضيع أجر المحسنين » فظهر من هذه الحكاية أن دفع الأذى عن الطريق ، إذا كان سبباً للرحمة والمغفرة ، فلأن يكون دفع الأذى عن الناس ، نافعاً للدافع يوم الحشر أولى ، خصوصاً عدم الأذية للمؤمنين ، وخصوصا للأهل والعيال « والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »[1]، اللهم اجعلنا من النافعين لا من الضارين ﴿ وَللهِ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أي من الموجودات كائناً ما كان ، من الخلائق وأرزاقهم وغير ذلك ﴿ ولقَدْ وَصَّيْنَا الّذِينَ أوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أي قد أمرناهم في كتابهم ، وهم اليهود والنصارى ومن قبلهم من الأمم ، واللام في الكتاب للجنس يتناول الكتب السماوية ﴿ وإيّاكُمْ ﴾ أي وصيناكم يا أمة محمد في كتابكم ﴿ أنِ اتَّقُوا اللهَ ﴾ أي بأن اتقوا الله أي أمرناهم وإياكم بالتقوى ﴿ و ﴾ قلنا لهم ولكم ﴿ إنْ تكفُرُوا فإنَ للهِ ما في السمواتِ وما في الأرضِ ﴾ أي فإن الله مالك الملك كله ، لا يتضرر بكفركم ومعاصيكم ، كما لا ينتفع بشكركم وتقواكم ﴿ وكانَ اللهُ غنياً ﴾ أي

(١) حديث : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » أخرجه الشيخان وتتمته (والمهاجرُ من هَجَر ما نَهَى اللهُ عنه) جامع الأصول ١ / ٢٤٠

عن الخلق وعبادتهم ﴿ حَمِيداً ﴾ محموداً في ذاته ، حمدوه أو لم يحمدوه ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ ذكره ثالثاً للدلالة على كونه غنياً ، فإن جميع المخلوقات تدل بحاجتها على غناه ، وبما أفاض عليها من الوجود وأنواع الخصائص والكمالات ، على كونه حميداً فلا تكرار ، فإنَّ كل واحد من هذه الألفاظ مقرونٌ بفائدة جديدة ﴿ وكَفَى بالله وكيلاً ﴾ في تدبير أمور الكل ، فلابد أن يتوكل عليه ﴿ إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها النَّاسُ ﴾ أي يفنكم ويستأصلكم بالمرة ﴿ ويأتِ بآخَرِينَ ﴾ أي يوجد مكانكم قوماً آخرين من البشر ، أو خلقاً آخرين مكان الإنس ، يعني أن إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان ، إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم ، لا لعجزه سبحانه وتعالى ، ففيه تهديد للعصاة ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ ﴾أي إفنائكم بالمرة ، وإيجاد آخرين دفعة مكانكم ﴿ قَديراً ﴾ بليغ القدر ، لا يعجزه مراد ، فأطيعوا الله واتقوا عقابه ، والآية تدل على كمال قدرته حيث لا يؤاخذ على العجلة ، وفي الحديث : (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يشركون به ويجعلون له الولد ، ثم هو يعافيهم ويرزقهم)[1] يعني يقول بعضهم : إن له شريكاً في ملكه ، وينسب له ولداً ، ثم الله تعالى يعطيهم من أنواع النعم من العافية والرزق وغيرهما ، فهذا كرمه ومعاملته مع من يؤذيه،فما ظنك بمعاملته مع من يثني عليه ؟ قال ابن عطاء : للتقوى ظاهرٌ وباطن ، فظاهرها حفظ حدود الشرع ، وباطنها الإخلاص في النية ، وحقيقةُ التقوى : الإعراضُ عن الدنيا ، والإقبال والتوجه إلى الحضرة العليا ، فمن وصل إليه فقد صار حراً عن رقية الكونين ، وعبداً لله تعالى ﴿ مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنيَا ﴾ كالمجاهد يريد بمجاهدته الغنيمة ﴿ فعندَ اللهِ ثوابُ الدنيَا والآخِرَةِ ﴾ أي فعنده تعالى ثوابها إن أراده ، فماله يطلب أخسها فليطلبها أو ليطلب الأشرف منها ، فإن من جاهد خالصاً لوجه الله تعالى لم تخطئه الغنيمة كقوله تعالى (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَة نَزِدْ لَهُ في حَرْثِهِ ومنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤتِهِ مِنْها وَمَالَهُ في الآخِرَةِ منْ نَصيبٍ) ﴿ وكانَ اللهُ سَمِيعاً بصيراً ﴾ عالماً بجميع المسموعات والمبصرات ، عارفاً بالأغراض وما يطلبون من الجهاد ، وفي الآية تهديد للمنافقين المرائين وفي الحديث (لما خلق الله تعالى جنة عدن ، خلق فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعتْ،ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال لها : تكلَّمي ، فقالت:قد أفلح المؤمنون ثلاثاً ، ثم قالت إني حرام على كل بخيل مراء)[2] فينبغي للمؤمن أن يحترز من الرياء ، ويسعى في تحصيل الإخلاص في العمل ، وهو أن لا يريد بعمله سوى الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ ﴾ مبالغين في العدل ، وإقامة القسط في جميع الأمور ، مجتهدين في ذلك حق الاجتهاد ﴿ شُهَدَاءَ للهِ ﴾ بالحق تقيمون شهاداتكم لوجه الله تعالى ، كما أمرتم بإقامتها

(١) الحديث أخرجه البخاري بلفظ « ما أحدٌ أصبر على أذى .. » الحديث رواه مسلم وأحمد بن حنبل في المسند .

(٢) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٤ .

﴿ وَلَوْ ﴾ كانت الشهادة ﴿ عَلَى أَنفسِكُمْ ﴾ بأن تقروا عليها ، لأن الشهادة على النفس إقرار ، والشهادة عبارة عن الإخبار بحق الغير ، سواء كان ذلك عليه أو على غيره ﴿ أو الوَالدَيْنِ والأَقْرَبينَ ﴾ أي ولو كانت على والديكم وأقاربكم ، بأن تُقرُّوا وتقولوا مثلاً : أشهد أن لفلان على والدي كذا ، وفي هذا بيان أن شهادة الابن على الوالدين لا تكون عقوقاً ، ولا يحل للابن الامتناع عن الشهادة على أبويه ، لأن في الشهادة عليهما بالحق منعاً لهما من الظلم ، وأما شهادته لهما وبالعكس ، فلا تقبل لأن المنافع بين الأولاد والآباء متصلة ، ولهذا لا يجوز أداء الزكاة إليهم ، فتكون شهادة أحدهما شهادةً لنفسه ، أو لتمكن التهمة ﴿ إِنْ يَكُنْ ﴾ أي المشهود عليه ﴿ غَنِيًّا ﴾ يبتغي في العادة رضاه ، ويتقي سخطه ﴿ أو فَقِيراً ﴾ يترحم عليه غالباً ، وجواب الشرط محذوف لدلالة قوله تعالى ﴿ فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا ﴾ أي فلا تمتنعوا عن إقامة الشهادة طلباً لرضى الغنيِّ ، أو ترحماً على الفقير ، فإن الله تعالى أولى بجنسي الغني والفقير ، بالنظر لهما، ولولا إن الشهادة عليهما مصلحة لهما لما شرعها وفي الحديث (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قيل يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ قال : تردُّه عن ظلمه ، فإنَّ ذلكَ نصره)[1] فمنع الظالم عن ظلمه عونٌ له على مصلحة دينه ، ولذا سمي نصراً ﴿ فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوىَ أَنْ تَعْدِلُوْا ﴾ أي فلا تتبعوا الهوى كراهة أن تعدلوا بين الناس ﴿ وإِنْ تَلْوُوْا ﴾ ألسنتكم عن شهادة الحق ، بأن تأتوا بها لا على وجهها ﴿ أو تُعْرِضُوا ﴾ أي عن أدائها وإقامتها ، فالإعراض عنها كتمها ﴿ فإنَّ اللهَ كانَ بما تعْمَلونَ ﴾ من ليّ الألسنة والإعراض بالكلية ﴿ خَبِيراً ﴾ فيجازيكم لا محالة على ذلك ، وعن ابن عباس أن المراد بالآية:القاضي يتقدم إليه الخصمان ، فيعرض عن أحدهما أو يدافع في إمضاء الحق ، أو لا يسوِّي بينهما في المجلس والنظر ، ولا يمتنع أن يكون المراد بالآية القاضي والشاهد وعامة الناس ، فإن اللفظ محتمل للجميع[2]، قال الفقهاء : وستر الشهادة في الحدود أفضل من أدائها ، لقوله عليه السلام للذي شهد عنده في الحد : (لو سترته بثوبك لكان خيراً لك)[3] وقوله عليه السلام : (من ستر على مسلم ستر الله عليه في الدنيا والآخرة)[4] وقال عليه السلام (ما من امرىء ينصر مسلماً في موضع يُنْتَهك فيه عرضه ، وتُسْتحل حرمته ، إلاّ نصره الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرىء يخذل مسلماً في موضع تُنتهك فيه حرمته ، إلا خَذَله الله تعالى في موضع يحب فيه نصرته)[5] .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري وأحمد في المسند ، انظر جامع الأصول ٦ / ٥٦٨

(٢) انظر أقوال السلف في هذه الرواية في تفسيري الطبري ٥ / ٣٢٤ .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود والطبراني وأحمد .

(٤) الحديث مرويّ بالمعنى وأصله في الصحيحين .

(٥) الحديث أخرجه أبو داود وأحمد في المسند .

﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ﴾ خطاب لكافة المسلمين ﴿ آمِنُوْا باللهِ ورسُولِهِ والكتَابِ الذّي نَزَّل عَلَى رسولِهِ والكتابِ الذي أنزلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي اثبتوا على الإيمان بذلك ودوموا عليه ، وازدادوا فيه طمأنينة ويقيناً، والمراد بالكتاب الأول القرآن ، وبالثاني الجنس المنتظم لجميع الكتب السماوية ﴿ ومَنْ يَكْفُرْ باللهِ وملائكتِهِ وكتُبه ورسُلِهِ واليْومِ الآخِرِ ﴾ أي بشيء من ذلك ، لأن الكفر ببعضه كفر بكله ، وتقديم الملائكة والكتب على الرسل ، لأنهم وسائط بين الله وبين الرسل في إنزال الكتب ﴿ فَقَدْ ضلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ عن المقصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه ، قالوا : أول ما يجب على المرء من أمور الدّين ، معرفة الله تعالى بالدليل والبرهان ، فإن إيمان المقلد وإن كان صحيحاً عند الإمام الأعظم ، لكن يكون آثماً بترك النظر والاستدلال ، فأول الأمر هو الحجة والبرهان ، ثم المشاهدة والعيان ، ثم الفناء عن سوى الرحمان ﴿ إنّ الذينَ آمنُوا ﴾ يعني اليهود بموسى ﴿ ثُمّ كَفَرُوا ﴾ بعبادتهم العجل ﴿ ثم آمنُوا ﴾ بعد عوده إليهم ﴿ ثُمّ كَفَرُوا ﴾ بعيسى والإنجيل ﴿ ثم ازْدادُوا كُفْراً ﴾ بكفرهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ لَمْ يَكُنِ اللهُ ﴾ مريداً ﴿ ليغْفِرَ لَهُمْ ﴾ أي ما داموا على كفرهم ﴿ ولا لِيهْدِيَهمْ سَبيلاً ﴾ أي ولا ليوفقهم طريقاً إلى الإسلام ، ولكن يخذلهم مجازاة لهم على كفرهم ﴿ بَشِّرِ المُنَافِقِينَ ﴾ وضع « بشّرْ » موضع « أنذرْ » تهكماً بهم ﴿ بأنّ لَهُمْ عَذاباً أليماً ﴾ أي وجيعاً يخلص ألمه ووجعه إلى قلوبهم ، وهذا يدل على أن الآية نزلت في المنافقين ، وهم قد آمنوا في الظاهر وكفروا في السر ، مرة بعد أخرى ، ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق ﴿ الَّذِينَ ﴾ أي هم الذين ﴿ يَتَّخِذُونَ الكافِرِينَ ﴾ أي اليهود ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ أحباء في العون والنصرة ﴿ مِنْ دُوْنِ المُؤْمنينِ ﴾ أي متجاوزين ولاية المؤمنين المخلصين ، وكانوا يوالونهم ويقولون: لا يتمُّ أمر محمد ، فتولوا اليهود ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهمُ العِزَّةَ ﴾ أي أيطلبون بموالاة الكفرة القوة والغلبة ؟ وهم أذلاء في حكم الله تعالى ؟ ﴿ فإن العِزَّةَ للهِ جَميعاً ﴾ تعليل لما يفيده الاستفهام الإنكاري من بطلان رأيهم، وخيبة رجائهم ، فإن انحصار جميع أفراد العزة في جنابه تعالى ، بحيث لا ينالها إلا أولياؤه الذين كتب الله لهم العزة والغلبة بقوله (وللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ خطاب للمنافقين بطريق الالتفات ، كان مشركو مكة يخوضون في ذكر القرآن ويستهزئون به في مجالسهم ، ثم إن أحبار اليهود بالمدينة كانو يفعلون ما فعله المشركون بمكة ، وكان المنافقون يقعدون معهم ويوافقونهم على ذلك الكلام الباطل ، فقال الله تعالى مخاطباً لهم (وقد نَزَّلَ عليْكُمْ) أي والحال أنه تعالى قد نزل عليكم قبل هذا ﴿ في الكِتاب ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ أنْ ﴾ مخففة أي أن الشأن ﴿ إذَا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ ﴾ فيه دلالة على أن مدار الإعراض عنهم ، هو العلم بخوضهم في آيات الله، تارة بالرؤية وأخرى بالسماع ﴿ يُكْفَرُ بهَا ويُسْتَهْزأ بِهَا ﴾ أي يكفر بها أحد أو يستهزىء بها ﴿ فلا تَقْعُدوا مَعَهُمْ ﴾ أي الكفرة ﴿ حتّى يَخُوضُوا في حديثٍ غيْرِهِ ﴾ أي حتى يتحدثوا في حديث غير القرآن

والمعنى:أنه تجوز مجالستهم عند خوضهم وشروعهم في غير الكفر، والمراد بالإعراض القيام عن مجالسهم ، لا الإعراض بالقلب أو بالوجه فقط ﴿ **إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ** ﴾ أي لا تقعدوا معهم في ذلك الوقت ، إنكم إنَّ فعلتوه كنتم مثلهم ، أي مثل اليهود في الكفر، واستتباع العذاب ، فإن الرضى بالكفر كفر ﴿ **إِنَّ اللهَ جَامِعُ المنافقينَ والكافِرينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً** ﴾ يعني القاعدين والمقعود معهم مشتركون في العذاب ، واعلم أن الائتلاف ههنا نتيجة تعارف الأرواح هناك ، لقوله عليه السلام (الأرواح جنود مجندة)[1] . ذُكِر أن الله تعالى أوحى إلى « يوشع بن نون » عليه السلام إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم ، وستين ألفاً من شرارهم ، قال يارب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار ؟ قال إنهم لم يغضبوا لغضبي ، وآكلوهم وشاربوهم » وإذا كان الرجل مبتلى بصحبة الفجار في سفره للحج أو الغزو ، لا يترك الطاعة بصحبتهم ، لكن يكرهه بقلبه ولا يرضى به ، فلعل الفاسق يتوب ببركة كراهة قلبه ، ومن دعي إلى ضيافة فوجد ثمة لعباً أو غناءً ، يقعد إن كان غير قدوة ، ويمنع إن قدر ، وإن كان قدوة كالقاضي والمفتي ونحوهما يمنع ويقعد فإن عجز خرج ، وإن كان ذلك على المائدة أو كانوا يشربون الخمر ، خرج، وإن لم يكن قدوة ، وإن علم قبل الحضور لا يحضر في الوجوه كلها ﴿ **الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ** ﴾ أي المنافقون هم الذين ينتظرون وقوع أمر لكم ﴿ **فَإِنْ كانَ لَكُمْ** ﴾ أيها المؤمنون ﴿ **فتحٌ مِنَ اللهِ** ﴾ أي ظفر ودولة وغنيمة ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي لكم ﴿ **أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ** ﴾ على دينكم مظاهرين لكم ؟ فاسهموا لنا فيما غنمتم ﴿ **وَإِنْ كانَ للكافِرينَ نَصِيبٌ** ﴾ أي ظهور على المسلمين ﴿ **قَالوا** ﴾ أي للكفرة ﴿ **أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عليْكُمْ** ﴾ أي ألم نغلبكم ونُمكّن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم ؟ ﴿ **وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ بأن ثبطناهم عنكم وتوانينا في مظاهرتهم عليكم ، وإلا لكنتم نهبة للنوائب ، فهاتوا نصيباً مما أصبتم ﴿ **فاللهُ يَحْكُمُ بينكُمْ** ﴾ أي بين المؤمنين والمنافقين ﴿ **يومَ القيامةِ** ﴾ أي يحكم حكماً يليق بشأن كل منكم من الثواب والعقاب ﴿ **ولَنْ يَجْعلَ اللهُ للكافِرينَ على المؤْمِنينَ سَبِيلاً** ﴾ أي ظهوراً يوم القيامة ، كما قد يجعل ذلك في الدنيا ، بطريق الابتلاء والاستدراج ، وأما إن كان المعنى سبيلاً في الدنيا فيراد بالسبيل الحجة ، وحجة المسلمين غالبة على حجة الكل ، وليس لأحد أن يغلبهم بالحجة ، وقد قيل : الباطلُ يفور ثم يغور ، فعلى المؤمن شرف علو الهمة في الدين ، وفي تحصيل علم اليقين ﴿ **إِنَّ المنافقينَ يُخَادِعُونَ اللهَ** ﴾ أي يفعلون ما يفعل المخادع ، من إظهار الإيمان وإبطان الكفر ﴿ **وَهُوَ خَادِعُهُمْ** ﴾ أي الله تعالى فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع ، حيث تركهم في الدنيا معصومي الدماء والأموال ، وأعدَّ لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار ﴿ **وإذا قَامُوا إِلىٰ الصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالىٰ** ﴾ أي متثاقلين متقاعسين، كما ترى من يفعل شيأ عن

(١) الحديث أخرجه الشيخان وأحمد وأبو داود ولفظه : « الأرواح جنودٌ مجنّدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » وانظر الفتح الكبير ١ / ٥٠٦ .

كره لا عن طيب نفس ﴿ يُرَاؤُوْنَ النَّاسَ ﴾ أي يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ﴿ ولاَ يذْكُرونَ اللهَ ﴾ ﴿ إلاّ ﴾ ذكراً ﴿ قَليلاً ﴾ إذِ المرائي لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه ، وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالإسلام ، لو صحبته الأيام والليالي ، لم تسمع منه تهليلةً ولا تحميدة ، ولكن حديث الدنيا يستغرق أوقاته لايفتر عنه ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذٰلِكَ ﴾ أي مردَّدين بينهما متحيرين ، قد ذبذبهم الشيطان والهوى بينهما ، وحقيقة المذبذب ما يذب ويدفع عن كلا الجانين مرة بعد أخرى ﴿ لا إلىٰ هَؤُلاءِ وَلا إلىٰ هَـؤلاءِ ﴾ أي لا منسوبين إلى المؤمنين فيكونون مؤمنين ، ولا إلى الكافرين فيكونون مشركين ﴿ ومن يُضْلِلِ اللهُ ﴾ لعدم استعداده للهداية والتوفيق ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبيلاً ﴾ موصلاً إلى الحق والصواب ، فضلاً عن أن تهديه إليه ، ومثل المنافقين والكافرين ، كمثل ثلاثة أشخاص دفعوا إلى نهر ، فقطعه المؤمن ، ووقف الكافر ، ونزل فيه المنافق ، حتى إذا توسط عجز فناداه الكافر هلمَّ إليَّ لا تغرقْ ، وناداه المؤمن هلمَّ إليَّ لتخلص ؟ فما زال المنافق يتردد بينهما ، إذ أتى عليه ماء فغرَّقه ، فكذلك المنافق لم يزل في شكٍّ حتى يأتيه الموت ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَوْلِياءَ منْ دُونِ المؤْمنينَ ﴾ أي لا تتشبهوا بالمنافقين في اتخاذهم اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام أحباء ، وقوله ﴿ منْ دُونِ المؤْمِنينَ ﴾ أي متجاوزين ولاية المؤمنين ﴿ أَتُريدونَ أن تَجْعَلُوا للهِ عَلَيْكُمْ سُلطاناً مُبيناً ﴾ أي أتريدون بذلك أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة على أنكم منافقون ، فإن موالاتهم أوضح أدلة النفاق ، فالسلطان هو الحجة ﴿ إنَّ المنافِقينَ في الدَّرْكِ الأَسْفل مِنَ النَّارِ ﴾ هو الطبقة التي في قعر جهنم وهي الهاوية ، والنار سبع دركات ، سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض ، والدركات في النار مثل الدرجات في الجنة ، وسئل ابن مسعود عن الدَّرْك الأسفل فقال : هو توابيتُ من حديد لا أبواب لها ، فإن قلت : لم كان المنافق أشد عذاباً من الكافر ؟ قلت : لأنه مثله في الكفر ، وضَمَّ إلى كفره الاستهزاء بالدين، والخداع للمسلمين ، فالمنافقون أخبث الكفرة ، فإن قلت : من المنافق ؟ قلت : هو في الشريعة من أظهر الإيمان ، وأبطن الكفر ، وأما تسمية من ارتكب ما يفسق به بالمنافق ، فللتغليظ والتهديد والتشبيه ، مبالغة في الزجر كقولهم: من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام (ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلَّى وزعم أنه مسلم : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان)[1] والمنافق في اللغة مأخوذ من النفق وهو السرب ، أي يستتر بالإسلام كما يستتر الرجل بالسرب ، ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصيراً ﴾ أي مانعاً يمنع عنهم العذاب ، ويخرجهم من الدرك الأسفل من النار ﴿ إلاّ الذّينَ تابُوْا ﴾ أي عن النفاق ، هو استثناء من المنافقين ﴿ وَأَصْلَحُوا ﴾ ما

(١) الحديث أخرجه النسائي في سننه في كتاب الإيمان ، وأخرجه البخاري ومسلم بلفظ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر » وانظر جامع الأصول ١١ / ٥٧٠ .

أفسدوا من أحوالهم من حال النفاق ﴿ **واعْتَصَمُوْا بالله** ﴾ أي وثقوا به ، وتمسكوا بدينه وتوحيده ﴿ **وأَخْلَصُوا دِينَهُمْ** ﴾ أي جعلوه خالصاً ﴿ **لله** ﴾ لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه ﴿ **فأُوْلَئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر من الصفات الحميدة ﴿ **مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي معهم في الدرجات العالية من الجنة ، لا يضرهم النفاق السابق ، وقد بين ذلك بقوله تعالى ﴿ **وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ المؤْمِنينَ أَجْراً عظيماً** ﴾ لا يقادر قدره فيشار كونهم فيه ويساهمونهم ، وسوف كلمة ترجئة وإطماع ، وهي من الله سبحانه إيجاب ، لأنه أكرم الأكرمين، ووعد الكريم إنجاز ﴿ **مَا** ﴾ استفهامية بمعنى النفي أيْ أيُّ شيء ﴿ **يفْعَلُ اللهُ بعذابِكُمْ** ﴾ أي بتعذيبكم ﴿ **إنْ شكرْتُمْ وآمَنْتُمْ** ﴾ أي أيتشفى به من الغيظ ، أم يدرك به الثأر ؟ أو يستجلب به نفعاً ؟ أم يستدفع به ضرراً ؟ أي لا يفعل بعذاب المؤمن الشاكر شيأ من ذلك ، لأنه تعالى غنيٌّ عن الحاجات ، منزه عن جلب المنفعة ودفع المضرة، والمقصود حمل المكلفين على الإيمان ، وفعل الطاعات ، والاحتراز عن القبيح وترك المنكرات ، فكأنه قيل : إذا أتيتم الحسنات وتركتم المنكرات ، فكيف يليق بكرمه أن يعذبكم ؟ وتعذيبه عباده لا يزيد في ملكه ، وتركه عقوبتهم على فعلهم القبيح لا ينقص من سلطانه ﴿ **وكانَ اللهُ شَاكِراً** ﴾ أي راضياً باليسير من طاعة عباده ﴿ **عَلِيماً** ﴾ بحق شكركم وإيمانكم ، فيستحيل أن لا يوفيكم أجوركم، فعلى العبد أن يشكر ربه ، فبالشكر والإيمان يتخلص المرء من النيران ، وإلا فقد عرض نفسه للعذاب ، واستحق الهوان والعتاب ، وجه التعذيب أن التأديب في الحكمة واجب ، فخلق الله النار ليعلم الخلق قدر جلال الله وكبريائه ، وليكونوا على هيبة وخوف من صنع جلاله ، ويؤدب بها من لم يتأدب بتأديب رسله إلى خلقه ، وليعتبر أهل العقل بالنظر إليها في الدنيا ، وبالاستماع لها في الآخرة ﴿ **لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ** ﴾ أي لا يحب الجهر من أحد في حق غيره بالسوء كائناً من القول ﴿ **إلاَّ مَنْ ظُلِمَ** ﴾ أي إلا جهر المظلوم ، فإن المظلوم له أن يجهر برفع صوته بالدعاء على من ظلمه ، أو يذكر ما فيه من السوء تظلماً منه ، مثل أن يذكر أنه سرق متاعي أو غصبه مني ﴿ **وكانَ اللهُ سميعاً** ﴾ لكلام المظلوم ﴿ **عَليماً** ﴾ بحال الظالم ﴿ **إنْ تُبدُوا خَيْراً** ﴾ أيَّ خير كان من الأقوال والأفعال ﴿ **أو تُخْفوهُ أو تَعْفوا عَنْ سُوء** ﴾ ذكر إبداء الخير وإخفائه تمهيد وتوطئة للعفو ، يدل عليه ﴿ **فإنَّ اللهَ كانَ عَفُوّاً قَديراً** ﴾ فإن إيراده يدل على أن العمدة هو العفو مع القدرة ، أي كان مبالغاً في العفو عن العصاة، مع كال قدرته على المؤاخذة والانتقام ، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله ، وفي الآية حث المظلوم على العفو بعدما رخص له في الانتصار والانتقام ، حملاً على مكارم الأخلاق، واعلم أن الله تعالى لا يحب إظهار الفضاح والقبائح ، إلا في حق ظالم عظم ضرره ، وكثر كيده ومكره ، فعند ذلك يجوز إظهارُ فضائحه ، ولهذا قال عليه السلام (اذكروا الفاسق بما فيه كي

يحذره الناس)[١] ثم إن أكثر السوء قوليٌّ ، فإن اللسان صغير الجرم كبير الجرم ، وفي الحديث (البلاء موكَّلٌ بالمنطق)[٢] يحكى أن ابن السكيت جلس مع المتوكل يوماً ، فجاء المعتز والمؤيد ابنا المتوكل ، فقال : أيما أحب إليك : ابنايَ أم الحسن والحسين ؟ قال : والله إن قنبر خادم علي رضي الله عنه خيرٌ منك ومن ابنيك ، فقال سلُّوا لسانه من قفاه ، ففعلوا فمات ، ومن العجب أنه أنشد قبل ذلك للمعتز والمؤيد ، وكان يُعَلِّمهما فقال :

يُصاب الفتى من عَثْرةٍ بلسانه * وليس يُصاب المرءُ من عَثْرةِ الرِّجْلِ
فعثرتُه في القول تُذْهِبُ رأسَه * وعثرتُه في الرِّجْلِ تبرا على مَهْلِ

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ أي يجحدون وحدانية الله ،ويكذبون رسله الكرام ﴿ **وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقوا بَينَ اللهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ أي بأن يؤمنوا به تعالى ويكفروا بهم ، لكن لا بأن يصرحوا بالإيمان به تعالى وبالكفر بهم قاطبة بل بطريق الالتزام كما يحكيه قوله تعالى ﴿ **وَيَقولونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنكْفُرُ بِبَعْضٍ** ﴾ أي نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم ، كما قالت اليهود : نؤمن بموسى والتوراة ونكفر بما وراء ذلك ، وما ذلك إلا كفرٌ بالله تعالى ورسله ، وتفريقٌ بين الله ورسله في الإيمان ، لأنه تعالى قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء ، وما من نبي من الأنبياء إلا وقد أخبر قومه بحقيه دين نبينا ﷺ ، فمن كفر بواحد منهم كفر بالكل من حيث لا يحتسب .

﴿ **وَيُريدونَ** ﴾ بقولهم ذلك ﴿ **أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلكَ سَبيلاً** ﴾ أي طريقاً وسطاً بين الإيمان والكفر ، ولا واسطة بينهما قطعاً فإن الإيمان بالله إنما يتم برسله وتصديقهم فيما بلغوا تفضيلاً وإجمالاً ، فالكافر ببعض كالكافر بالكل في الضلال ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بالصفات القبيحة ﴿ **هُمُ الكَافِرُونَ** ﴾ أي الكاملون في الكفر ﴿ **حَقّاً** ﴾ أي حق ذلك بمعنى أنه صار يقيناً محققاً لا شك فيه ﴿ **وأَعْتَدْنَا للكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً** ﴾ سيذوقونه عند حلوله ، ويُهانون فيه ، ثم إنه تعالى لَمَّا ذكر وعيد الكفار ، أتبعه بذكر وعد المؤمنين فقال : ﴿ **والذّينَ آمنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بيْنَ أَحَدٍ منْهُمْ** ﴾ بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بآخرين كما فعله الكفرة ﴿ **أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤتيهِمْ** ﴾ أي الله تعالى ﴿ **أُجُورَهُمْ** ﴾ الموعودة لهم ، و« سَوْف » لتأكيد الوعد أي أنه كائن لا محالة وإن تأخر ﴿ **وَكانَ اللهُ غَفُوراً** ﴾ لما فَرَط منهم ﴿ **رَحِيماً** ﴾ مبالغاً في الرحمة عليهم بتضعيف حسناتهم ، يحكى أنه كان شاب

---

(١) الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي والخطيب ، ولفظه « أترعون عن ذكر الفاجر ، اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس » وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٢ .

(٢) الحديث أخرجه ابن السمعاني والقضاعي . ورواه البيهقي والخطيب بلفظ : « البلاء موكّل بالقول » وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٠ .

حسن الوجه وله أحباب ، وكانوا في الأكل والشرب والتنعم والتلذذ ، فنفدت دراهمهم ، فاجتمعوا يوماً وأجمعوا على أن يقطعوا الطريق ، فخرجوا إلى طريق وترقبوا القافلة ، فلم يمر أحد من هذا الطريق إلى ثلاثة أيام ، ورأى الشاب شيخاً قال له : يا ولدي ليس هذا صنعتك ، فاستغفر الله تعالى ، فإن طلبتني فأنا أقرأ القرآن في جامع السيد البخاري « ببروسة » فاحترق قلب الشاب من تأثير الكلام ، فقال لرفقائه : لو تبعتم رأيي تعالوا نروح إلى « بروسة » ونتجسس عن بعض التجار ، فنخرج خلفهم فنأخذ أموالهم ، فقبلوا قوله فلما جاؤا إلى بروسة قال لهم : تعالوا نصلّ في جامع السيد البخاري وندع عنده ليحصل مرادنا ، فلما جاء إلى الجامع ورأى الشيخ هناك يقرأ القرآن ، سقط على رجله وتاب ، وبقي عنده سنتين ، ثم بعد السنتين أرسله هذا الشيخ إلى حضرة الشيخ « شمس الدين » فرباه وصار كاملاً ، بعد أن كان مؤمناً ناقصاً ، قاطع الطريق ، ولذا ينظر إلى الخاتمة ، ولكن حسن العاقبة من سبق العناية في البداية ، اللهم اجعلنا من المهديين آمين يا معين ﴿ **يَسْأَلُكَ أَهلُ الكتابِ أن تُنَزِّلَ عليهمْ كِتاباً من السَّماءِ** ﴾ نزلت في أحبار اليهود ، حين قالوا لرسول الله عليه السلام : إن كنت نبياً صادقاً ، فأئتنا بكتاب من السماء جملة ، كما أتى به موسى عليه السلام ﴿ **فَقَدْ سألوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ** ﴾ أي إن استكبرت ما سألوه منك واستعظمت ، فقد سألوا موسى شيأ أكبر منه وأعظم ، وإن ما اقترحوا عليك ليس بأول جهالتهم ﴿ **فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً** ﴾ أي أرناه عياناً ، وهم النقباء السبعون الذين كانوا مع موسى عليه السلام عند الجبل ، حين كلّمه الله تعالى ، سألوه أن يروا ربهم بأبصارهم في الدنيا ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ** ﴾ نار جاءت من السماء فأحرقتهم ﴿ **بِظُلْمِهِمْ** ﴾ أي بسبب ظلمهم ، وهو تعنتهم وسؤالهم لما يستحيل ، وما طلبوا الرؤية على موجب التعظيم والتصديق ، ولا حملهم عليها شدة الاشتياق كما كان لموسى عليه السلام حين قال (**رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ**) وإنما كان من سوء الأدب ، لأنهم كانوا أشقياء ، والسعيدُ من وُعظ بغيره ، ومن طُبع كافراً ولو رأى الله جهرة ، فإنه لا يؤمن به ، ومن طبع مؤمناً عند رُشاش النور بإصابته ، فإنه يؤمن بنبي لم يره ، وكتاب لم يقرأه، بغير معجزة أو بينة ، كما كان أمر الصدّيق رضي الله عنه حين قال النبي ﷺ له « بُعِثْتُ » فقال : صدقتَ ﴿ **ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ** ﴾ أي عبدوه واتخذوه إلهاً ﴿ **مِنْ بَعْدِ ما جاءتْهُمُ البَيِّنَاتُ** ﴾ أي المعجزات التي أظهرت لفرعون ، من العصا واليد البيضاء وفلق البحر ونحوها ، وهذه هي الجناية الثانية التي اقترفها أوائلهم ﴿ **فَعَفَوْنَا عَنْ ذٰلِكَ** ﴾ أي تجاوزنا عنهم بعد توبتهم ، مع عظم جنايتهم وجريمتهم ، ولم نستأصلهم وكانوا أحقاء به ، ودلت الآية على سعة رحمة الله ومغفرته ، وتمام نعمته ومنته ، وأنه لا جريمة تضيق عنها مغفرة الله ، وفي هذا منع من القنوط ﴿ **وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً** ﴾ أي تسلطاً واستيلاء ظاهراً عليهم ، حيث أمرهم بأن يقتلوا أنفسهم توبة عن معصيتهم ، فأختبأوا بأفنيتهم والسيوف تتساقط

عليهم ، فياله من سلطان مبين ﴿ وَرَفَعْنَا فوقَهُمُ الطُّورَ بميثَاقِهِمْ ﴾ الباء سببية والمعنى لأجل أن يعطوا الميثاق لقبول الدين رفعنا فوقهم جبل الطور ، روي أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة ، فرأوا ما فيها من التكاليف الشاقة ، كبرت عليهم فأبوْا قبولها ، فأمر جبريل عليه السلام بقلع الطور ، فظللّه عليهم حتى قبلوا فرفع عنهم ﴿ وقُلْنَا لَهُمُ ﴾ على لسان موسى ﴿ ادْخُلُوا البَابَ ﴾ أي باب القرية وهي « أريحا » على ما روي ﴿ سُجَّداً ﴾ أي منحنين شكراً على إخراجهم من التيه ، فدخلوها زحفاً وبدّلوا ما قيل لهم ﴿ وقُلْنا لَهُمْ ﴾ على لسان داودَ ﴿ لا تَعْدُوا ﴾ أي لا تظلموا باصطياد الحيتان ، يقال: عَدَا يعدو عدوانا أي ظلم وجاوز الحد ﴿ في ﴾ يوم ﴿ السَّبْتِ ﴾ وكان يوم السبت يوم عبادتهم ، فاعتدى فيه أناس منهم فاشتغلوا بالصيد ﴿ وَأَخَذْنا مِنْهمْ ﴾ على الامتثال بما كلفوه ﴿ مِيثاقاً غَلِيظاً ﴾ أي عهداً مؤكداً غاية التأكيد ﴿ فَبِما ﴾ ما مزيدة للتأكيد ﴿ نَقْضِهِمْ ميثَاقَهُمْ ﴾ أي فبسبب نقضهم ميثاقهم ، فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والمسخ ﴿ وَكُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ ﴾ أي بالقرآن أو بما في كتابهم عندهم ﴿ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ كَزَكَرِيَّا، يا ويحيى عليهما السلام ﴿ وقَولِهِمْ قلوبُنَا غُلْفٌ ﴾ جمع أغلف أي هي مغشاة بأغشية ، لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد ولا تفقه ما يقوله ﴿ بلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ كلام معترض أي ليس كفرهم وعدم وصول الحق إلى قلوبهم ، لكونها غلفاً ، بل الأمر بالعكس ، حيث ختم الله عليها بسبب كفرهم ، وليست قلوبهم كما زعموا ﴿ فلا يُؤْمِنونَ إلاّ قليلاً ﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأضرا به، أو إيماناً قليلاً لا يُعبأ،وهو إيمانهم ببعض الرسل دون بعض ، واعلم أن نقض الميثاق صار سبباً لغضب الخلاّق ، فعلى المؤمن أن يراعي أحكام عهده وميثاقه ليسلم من البلاء ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أقبل علينا رسول الله فقال : (يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قومٍ قط حتىَ يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم ، ولم يُنْقِصوا الكيل والميزان إلا أُخذوا بالسنين ، وشدة المؤونة ، وجور السلطان ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يُمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم ، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)[1].

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ أي عَاقبنا اليهود بسبب كذا وكذا ، وبسبب كفرهم بعيسى أيضاً ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهتاناً عظيماً ﴾ يعني نسبتها إلى الزنى ﴿ وَقَوْلِهِمْ إنا قَتَلْنا المسيحَ عيسىَ ابنَ مريمَ رسولَ اللهِ ﴾ وصفُهم له عليه الصلاة والسلام « برسول الله » إنما هو بطريق الاستهزاء به ، كما في قوله تعالى

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في باب الفتن .

(يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ) فإنهم متفقون على عداوته وقتله ، فكيف يقولون في حقه إنه رسول الله ؟ ونظمُ قولهم هذا في سلك سائر جناياتهم ، ليس لمجرد كونه كذباً ، بل لتضمنه لابتهاجهم وفرحهم بقتل النبي والاستهزاء به ﴿ وَمَا ﴾ أي والحال أنهم ما ﴿ قَتَلُوهُ وما صَلَبوهُ ولَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي وقع لهم التشبيه بين عيسى والمقتول ،روي أن رهطاً من اليهود سبوه ، بأن قالوا هو الساحر ابن الساحرة ، والفاعل ابن الفاعلة، فقذفوه وأمه ، فلما سمع عليه الصلاة والسلام ذلك دعا عليهم فقال (اللهم أنت ربي وأنا من روحك خرجت ، وبكلمتك خلقتني ، ولم آتهم من تلقاء نفسي ، اللهم فالعن من سبَّني وسب أمي) فاستجاب الله دعاءه ، ومَسَخَ الذين سبُّوه وسبوا أمه قردة وخنازير ، فلما رأى ذلك أميرهم فزع لذلك وخاف دعوته عليه أيضاً ، فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى عليه السلام ، فبعث الله تعالى جبريل فأخبره بأنه يرفعه إلى السماء فقال لأصحابه : أيكم يرضى بأن يُلْقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة ؟ فقال رجل منهم أنا ، فألقى الله عليه شبهه فقتل وصُلب ، وقيل : كَان رجلٌ ينافق عيسى عليه السلام ، فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم عليه ، فدخل بيت عيسى فرفع عليه السلام ، وألقي شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى[1] ، وأمثال هذه الخوارق لا يستبعد في عصر النبوة، لا يقال: إن النصارى ينقلون عن أسلافهم بالتواتر أنهم شاهدوه مقتولاً ، لأنا نقول : إن تواتر النصارى ينتهي إلىأقوام قليلين، لا يبعد اتفاقهم على الكذب ، (وإنَّ الَّذِينَ اختَلَفُوا فيهِ) أي في شأن عيسى عليه السلام ، فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس . فقال بعضهم : إن كان هذا المقتول عيسى فأين صاحبنا ؟ وإن كان صاحبنا فأين عيسى ؟ وقال بعضهم : الوجه وجه عيسى ، والبدنُ بدن صاحبنا، فإن الله تعالى لما ألقى شَبَه عيسى علي المقتول ، ألقاه على وجهه دون جسده ، وقيل أن الذين اختلفوا فيه هم النصارى ، فقال قوم منهم : إنه ما قُتل وما صُلب ، بل رفعه الله إلى السماء ، وقال قوم منهم : إن اليهود قتلوه ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ﴾ أي لفي تردد من الأمر ﴿ ما لَهُمْ بهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتّباعَ الظَّنِّ ﴾ استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من حنس العلم ، والمعنى لكنَّهم يتبعون الظن ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ قتلاً ﴿ يَقيناً ﴾ كما زعموا بقولهم إنا قتلنا المسيح ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إليهِ ﴾ ردٌّ وإنكار لقتله ، وإثبات لرفعه ، قال الحسن البصري : أي إلى السماء التي هي محل كرامة الله تعالى ، ومقر ملائكته ﴿ وكانَ اللهُ عَزِيزاً ﴾ لا يغالب فيما يريده فإن رفع عيسى عليه السلام إلى السموات ، وإن كان متعذراً بالنسبة إلى قدرة البشر ، لكنه سهلٌ بالنسبة إلى قدرة الله تعالى ﴿ حَكِيماً ﴾ في جميع أفعاله فيدخل فيها تدبير أمر عيسى عليه السلام دخولاً أولياً ﴿ وإنْ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ ﴾ أي ما من اليهود

(١) هذا القول هو الأظهر والأشهر ، فإن الذي أُلقي عليه شَبَه عيسى إنما هو رجلٌ من المنافقين ، وهو الذي دلَّ اليهود على مكان عيسى عليه السلام ، فألقى الله شَبَهَه عليه ، وقُتل عقوبةً له .

والنصارى أحد ﴿ **إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ** ﴾ أي بعيسى ﴿ **قَبْلَ مَوْتِهِ** ﴾ أي قبل موت ذلك الأحد من أهل الكتاب ، روي أن اليهودي إذا عاين أمر الآخرة وحضرته الوفاة ، ضربت الملائكة وجهه ودبره ، وقالت : أتاك عيسى عليه السلام نبياً فكذَّبتَ به ، فيؤمن حين لا ينفعه إيمانه ، لانقطاع وقت التكليف ، وتقول للنصراني : أتاك عبدُ الله ورسوله ، فزعمت أنه هو الله وابن الله ، فيؤمن بأنه عبد الله ، حين لا ينفعه إيمانه ، وقيل :«لا يموت يهودي ولا صاحب كتاب ، حتى يؤمن بعيسى ، وإن احترق أو غرق، أو سقط عليه جدار،حتى قيل لابن عباس : لو خرَّ من بيته ؟ قال : يتكلم به في الهواء» وقيل : الضميران لعيسى ، والمعنى وما من أهل الكتاب ، الموجودين عند نزول عيسى من السماء ، أحد إلا ليؤمنن به قبل موت عيسى ، حتى لا يبقى أحد من أهل الكتاب وقت نزوله إلا يؤمن به ، ثم يلبث في الأرض أربعين سنة ، ثم يموت ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه ، ﴿ **وَيَوْمَ القِيٰمَةِ يَكونُ** ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿ **عَلَيْهِمْ** ﴾ أي على أهل الكتاب ﴿ **شَهِيداً** ﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب ، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِنَ الذّينَ هادُوا** ﴾ أي بسبب ظلم عظيم صادر عن اليهود ﴿ **حَرَّمْنَا عليهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ** ﴾ فإنهم كانوا كلما ارتكبوا معصية من المعاصي التي اقترفوها ، حُرِّم عليهم نوع من الطيبات التي كانت محللة لهم ، عقوبة لهم ، كلحوم الإبل وألبانها والشحوم ﴿ **وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سبيلِ اللهِ** ﴾ أي بسبب منعهم عن دين الله ، وهو الإسلام ناساً ﴿ **كَثِيراً** ﴾ أو صداً كثيراً ﴿ **وَأَخْذِهِمُ الربٰوا وَقَدْ** ﴾ أي والحال أنهم قد ﴿ **نُهُوا عنْهُ** ﴾ فإن الربا كان محرماً عليهم ، كما هو محرم علينا ﴿ **وأكْلِهِمْ أموالَ النَّاسِ بالباطِلِ** ﴾ بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة ﴿ **وأعتَدْنا** ﴾ أي خلقنا وهيأنا ﴿ **للكافِرينَ مِنهُمْ** ﴾ أي للمصرّين على الكفر لا بمن تاب وآمن من بينهم ﴿ **عَذاباً أليماً** ﴾ وجيعاً يخلص وجعه إلى قلوبهم ، سيذقونه في الآخرة ﴿ **لكِنِ الرّاسِخونَ في العِلْمِ منْهُمْ** ﴾ أي التائبون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ، وسماهم راسخين في العلم لثباتهم في العلم ، بمنزلة الشجرة الراسخة بعروقها في الأرض ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ** ﴾ أي من غير أهل الكتاب من المهاجرين والأنصار ﴿ **يُؤْمِنونَ بما أُنْزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبلِكَ** ﴾ خبر المبتدأ وهو الراسخون ، كان عبد الله بن سلام عالماً بالتوراة ، وقد قرأ فيها صفة النبي عليه السلام ، فلما كان راسخاً في العلم قال : لما رأيت وجه رسول الله ﷺ ، عرفتُ أنه ليس بوجه كذاب،فآمن به ﴿ **وَ** ﴾ أعني ﴿ **المُقيمينَ الصَّلوةَ** ﴾ فنصبه على المدح لبيان فضل الصلاة ﴿ **والمُؤْتونَ الزَّكٰوةَ** ﴾ فرفعه على المدح أيضا وكذا رفع قوله تعالى ﴿ **وَالمؤْمِنونَ بالله واليَوْمِ الآخِرِ** ﴾ قدَّم عليه الإيمان بالأنبياء والكتب ، لأنه المقصود بالآية ﴿ **أُوْلَئكَ سَنُؤْتيهِمْ أجراً عَظِيماً** ﴾ أي ثواباً وافراً في الجنة ، على جمعهم بين الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ **إنَّاأوْحَيْنَا إليكَ** ﴾ جواب لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن يُنَزِّلَ عليهم كتاباًمن السماء ،

أي أنزلنا جبرائيل عليك يا محمد بهذا القرآن ﴿ **كَمَا أَوحَيْنَا** ﴾ أي إيحاء مثل إيحائنا ﴿ **إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ بدأ بذكر نوح لأنه أبو البشر ، وقد أهلك الله بدعائه أهل الأرض ، قيل : إن نوحاً عليه السلام عمَّر ألف سنة ، لم ينقص له سن ولا قوة ، ولم يشب له شعر ، ولم يُبالغ أحد من الأنبياء في الدعوة ما بالغ ، ولم يصبر على أذى قومه ما صبر ، وكان يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، وكان يضرب من قومه حتى يُغمى عليه ، فإذا أفاق عاد وبلّغ ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ عطف على « إنَّا » أي كما أوحينا إلى إبراهيم ﴿ **وإِسْمٰعِيلَ وإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ والأسبَاطِ** ﴾ وهم أولاد يعقوب عليه السلام ، وهم اثنا عشر رجلاً ﴿ **وعِيسَى وَأَيُّوبَ ويُونسَ وهَرُونَ وسُلَيمانَ** ﴾ خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم ، تشريفاً لهم، وإظهاراً لفضلهم ، فإن إبراهيم أول أولي العزم منهم ، وعيسى آخرهم ، والباقين أشراف الأنبياء ومشاهيرهم ﴿ **وآتَيْنَا** ﴾ أي كما آتينا ﴿ **دَاوُدَ زَبُوراً** ﴾ الزبور هو الكتاب ، مأخوذٌ من الزبر وهو الكتابة قال القرطبي : كان فيه مائة وخمسون سورة ، ليس فيها حكمٌ من الأحكام ، وإنما هي حِكَم ومواعظ ، وتحميد وتمجيد ، وثناء على الله عز وجل ، وكان داود حسن الصوت ، إذا قرأ الزبور تحيط به الطير فتظلله بأجنحتها، وتستمع لحسن صوته ، وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري قال قال لي رسول الله ﷺ (لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لقراءتك ، لقد أعطيتَ مزماراً من مزامير آل داود ؟! قال فقلت : أما والله يا رسول الله لو علمتُ أنك تسمع ، لحبَّرته لك تحبيراً)[1] .

﴿ **وَرُسُلاً** ﴾ نصب بمضمر أي وكما أرسلنا رسلاً ﴿ **قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ** ﴾ أي سميناهم لك ﴿ **مِنْ قَبلُ** ﴾ أي من قبل هذه السورة ، وعرَّفناك قصتهم فعرفتهم ﴿ **وَرُسُلاً لم نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** ﴾ أي لم نسمّهم لك،عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله : كم كانت الأنبياء وكم كان المرسلون ؟ قال (كانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين ألفاً ، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر)[2] ﴿ **وكَلَّمَ اللهُ موسَى تَكْلِيماً** ﴾ عطف على أنا أوحينا إليك عطف القصة على القصة ، وتأكيد كلَّم بالمصدر يدل على أنه عليه السلام سمع كلام الله حقيقة ، لا كما يقوله القَدَريَّة من أن الله تعالى خلق كلاماً في محل فسمع موسى ذلك الكلام، لأن ذلك لا يكون كلام الله القائم به ، والأفعال المجازية لا تُؤكد بذكر المصادر لا يقال : أراد الحائط أن يسقط إرادة ، قال الفراء : العربُ تسمي ما وصلَ إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر ، فإذا أُكِّدَ به لم يكن إلا حقيقة الكلام ، والمعنى أن التكليم بغير واسطة منتهى مراتب الوحي ، خُصَّ به موسى من بينهم ، فلم يكن ذلك قادحاً في نبوة سائر الأنبياء ، فكيف يتوهم

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٢) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٥ / ٢٦٦ .

كون نزول التوراة عليه جملة ، قادحاً في صحة من أنزل عليه الكتاب مفصلاً ، مع ظهور أن نزولها كذلك لحِكَمٍ مقتضية لذلك ؟ روي أن موسى عليه السلام لما أتى طور سيناء طرد عنه الشيطان ، وطرد عنه الهوام ، وكشف له السماء فرأى الملائكة قياماً ، وكلَّمه الله وناجاه حتى أَسْمَعه كلامه ﴿ **رُسُلاً** ﴾ نصب على المدح أعني رسلاً ﴿ **مُبشِّرينَ** ﴾ لأهل الطاعة بالجنة ﴿ **ومُنْذِرينَ** ﴾ للعصاة بالنار ﴿ **لئلا يَكونَ للنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ** ﴾ المعنى لئلا يكون للناس معذرة يوم القيامة ، يعتذرون بها قائلين : لولا أرسلت إلينا رسولاً ، فيبين لنا شرائعك ، ويعلمنا أحكامك ؟ ففيه تنبيه على أن بعثة الأنبياء إلى الناس ضرورة وإنما سميت المعذرة حجة ، مع استحالة أن يكون لأحد عليه سبحانه حجة ، للتنبيه على أن المعذرة في القبول عنده تعالى ، بمقتضى كرمه ورحمته بمنزلة الحجة القاطعة التي لا مردَّ لها ، ولذلك قال (**وما كنا معذبين حتى نبعثَ رسولاً**) قال النبي ﷺ (ما أحدٌ أغير من الله عز وجل ، لذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وما أحد أحبَّ إليه المدح من الله عز وجل ، ومن أجل ذلك مدح نفسه ، وما أحد أحب إليه العذر من الله تعالى ، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتاب)[1] ﴿ **بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾ أي بعد إرسالهم ، وتبليغ الشرائع إلى الأمم ﴿ **وكانَ اللهَ عَزيزاً** ﴾ لا يُغالب في أمر من الأمور ﴿ **حَكِيماً** ﴾ في جميع أفعاله ، التي من جملتها إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ﴿ **لَكِنِ اللهُ** ﴾ استدراك على سؤالهم على وجه التعنت ، أن ينزل عليهم الكتاب ، فهو بمنزلة قولهم : لا نشهد بأن الله تعالى بعثك إلينا رسولاً ، فقال تعالى إنهم لا يشهدون بصدقك فيدعوى الرسالة لكن الله ﴿ **يَشْهَدُ بما أَنْزَلَ إليْكَ** ﴾ من القرآن المعجز ، الدال على نبوتك ، فإن إنزال هذا القرآن ، البالغ في الفصاحة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضته ، وإتيان ما يدانيه ، شهادة له عليه السلام بنبوته وصدقه في دعوى الرسالة ﴿ **أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ﴾ أي ملتبساً بعلمه الخاص ، الذي لا يعلمه غيره ، وهو تأليف على نمط بديع ، يعجز عنه كل بليغ ﴿ **وَالملائِكَةُ يشْهَدونَ** ﴾ أيضاً بنبوتك ﴿ **وكَفَى باللهِ شَهِيداً** ﴾ على صحة نبوتك ، كأنه تعالى قال : يا محمد إن كذبك هؤلاء اليهود ، فلا تبال بهم ، فإن الله تعالى وهو إله العالمين يصدقك في دعواك ، وملائكة السموات أيضاً يصدقونك في ذلك ﴿ **إنَّ الذينَ كَفَرُواْ** ﴾ أي بما أنزل الله وهم اليهود ﴿ **وَصَدُّوا عنْ سَبيلِ اللهِ** ﴾ وهو دين الإسلام ﴿ **قَدْ ضَلُّوا** ﴾ بما فعلوا من الكفر والصدّ عن طريق الحق ﴿ **ضَلالاً بَعِيداً** ﴾ لأنهم جمعوا بين الضلال والإضلال ﴿ **إنّ الذّينَ كَفَرُوا** ﴾ أي بما ذكر ﴿ **وظَلَموا** ﴾ أي محمداً ﷺ بإنكار نبوته ، وكتمان نعوته الجليلة ﴿ **لَمْ يَكُنِ اللهُ** ﴾ مريداً ﴿ **لِيغفرَ لَهُمْ** ﴾ لاستحالة تعلق المغفرة بالكافر ﴿ **ولا لِيهْديَهُمْ طَريقاً إلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ** ﴾ لعدم استعدادهم للهداية إلى الحق ، والأعمال الصالحة التي هي طريق الجنة ﴿ **خالدينَ فيها** ﴾ حال كأنه

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما وأحمد في المسند .

قيل : يدخلهم جهنم خالدين فيها ﴿ أَبَداً ﴾ على الدوام ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ ﴾ أي جعلهم خالدين فيها ﴿ عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ لاستحالة أن يتعذر عليه شيء من مراداته تعالى * واعلم أن من كان فيه ذرة من النور المرشوش على الأرواح يوم خلقها يخرج به من النار كما قال عليه السلام (يخرج من النار من كان في قلبه ذرة من الإيمان)[1].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ خطاب لعامة الخلق ﴿ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ ﴾ يعني محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم ملتبساً ﴿ بِالحَقِّ ﴾ وهو القرآن المعجز ، الذي شهد إعجازه على حقيته ﴿ مِنْ ﴾ عند ﴿ رَبِّكُمْ ﴾ أي جاء من عند الله وإنه مبعوث مرسل ﴿ فآمِنوا ﴾ بالرسول وبما جاءكم به من الحق ﴿ خَيْراً لَكُمْ ﴾ أي خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر ﴿ وإنْ تكفُرُوا ﴾ أي إن تصروا وتستمروا على الكفر ﴿ فإنَّ للهِ ما في السَّمَواتِ والأَرْضِ ﴾ من الموجودات خلقاً وملكاً وتصرفاً ، لا يخرج من ملكوته وقهره شيء منها ، فمن هذا شأنه فهو قادر على تعذيبهم بكفركم لا محالة ﴿ وكَانَ اللهُ عليماً ﴾ مبالغاً في العلم ، فهو عالم بأحوال الكل ﴿ حَكيماً ﴾ مراعياً للحكمة ، في جميع أفعاله ، واعلم أن النبي ﷺ صورة النور الغيبي ، المرسل إلى الأجساد ، فمن كان قابلاً لإفاضة نور دعوته فقد اهتدى ، ومن أخطأ فقد ضل ، ولا يمكنك الوصول إلى الهداية إلا بأمرين : أحدهما بمحبته ﷺ ، بأن تؤثر حبه على نفسك وأهلك ومالك ، والثاني بمتابعته ﷺ ، في جميع ما أمر به ونهى عنه ، وبذلك يحصل لك الارتفاع إلى أوج الكمال ، قال رسول الله ﷺ (إن مَثَلي ومَثَلَ ما بعثني الله به ، كمثل رجلٍ أتى قوماً فقال يا قوم : إني رأيت الجيش بعينيَّ ، وإني أنا النذيرُ العُريان ، فالنَّجاءَ النَّجاءَ - أي اطلبوا النجاء وهو الإسراع - فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا - أي ساروا من أول الليل - فانطلقوا علي مهلهم ، وكذبتْ طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مَثَلُ من أطاعني ، واتَّبع ما جئتُ به من الحق)[2] ﴿ يَا أَهْلَ الكِتابِ ﴾ الخطاب للنصارى خاصة ﴿ لا تَغْلُوا في دينِكُمْ ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في دينكم ، فالإفراط في رفع شأن عيسى ، وادعاء ألوهيته ، والغلوُّ : مجاوزة الحد * واعلم أن الغلو والمبالغة في الدين والمذهب حتى يجاوز حده غير مرضي ، كما أن كثيراً من هذه الأمة غلوا في مذهبهم فمن ذلك مذهب الغلاة من الشيعة في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، حتى ادعوا ألوهيته ، وكذلك المعتزلة غلوا في التنزيه حتى نفوا صفات الله ، وكذا المشبِّهة غَلَوْا في إثبات الصفات حتى جسَّموه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ولدفع الغلو كان رسول الله ﷺ يقول (لا تُطْروني كما أطرتِ النصارى عيسى بن مريم - أي لا تتجاوزوا الحدَّ في مدحي كما بالغ النصارى في مدح عيسى ، حتى ضلوا وقالوا إنه ولد الله - ولكنْ قولوا عبد الله

(١) الحديث أخرجه الترمذي في باب صفة جهنم ، وأخرجه الشيخان مطوّلاً ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٥٧ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١٤ / ٩٨ ومسلم في الفضائل برقم / ٢٢٨٣ / وانظر جامع الأصول ١ / ٢٨٥ .

ورسوله)[1] ﴿ وَلاَ تَقُولُوا على اللهِ إلاَّ الحَقَّ ﴾ أي لا تصفوه بما يستحيل اتصافه من الحلول والاتحاد ، واتخاذ الصاحبة والولد بل نزهوه عن جميع ذلك .

﴿ إنَّما المَسِيحُ ﴾ مبتدأ وهو لقبٌ من الألقاب المشرفة ، كالصديق والفاروق ﴿ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ ﴾ في نسبته لأمه تنبيهٌ لبطلان ما وصفوه به من بنوَّته له تعالى ، ومريم بمعنى العابدة ﴿ رَسُولُ اللهِ ﴾ خبر للمبتدأ وهذا هو القول الحق ﴿ وَكَلِمَتُهُ ﴾ أي تكوَّن بكلمته وأمره الذي هو « كنْ » من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿ ألقٰيها إلى مَرْيَمَ ﴾ أي أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ منه صفة لروح و « من » لابتداء الغاية مجازاً ، لا تبعيضية كما زعمت النصارى ، لاستحالة التجزي على الله تعالى ، وروي أنه كان لهارون الرشيد طبيب نصراني ، وكان غلاماً حسن الوجه جداً ، وكان كامل الأدب جامعاً للخصال التي يتوصل بها إلى الملوك ، وكان الرشيد مولعاً بأن يُسلم وهو يمتنع ، وكان الرشيد يمنِّيه الأماني إن أسلم فأبى ، فقال له ذات يوم : مالك لا تؤمن ؟ قال : إن في كتابكم حجة عليَّ من أن أنتحله ، قال وما هي ؟ قال قوله تعالى ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ يعني بهذا أن عيسى عليه السلام جزءٌ منه ، فضاق قلب الرشيد ، وجمع العلماء فلم يكن فيهم من يزيل شبهته ، حتى قيل : قد وفد حُجَّاج من خراسان ، وفيهم رجل يقال له « علي بن الحسين بن واقد » من أهل مرو ، وهو إمام في علم القرآن ، فدعاه فجمع بينه وبين الغلام ، فسأله الغلام عن ذلك ، فاستعجم عليه الجواب في الوقت ، وقال قد علم الله يا أمير المؤمنين أن هذا الخبيث يسألني في مجلسك هذا ، وإنه لم يخل كتابه عن جوابه ، وإنه ليس يحضرني الآن ، ولله عليَّ أن لا أطعم ولا أشرب ، حتى أؤدي الذي يجب من الحق إن شاء الله تعالى ، ودخل بيتاً مظلماً وأغلق عليه بابه ، واندفع في قراءة القرآن ، حتى بلغ من سورة الجاثية (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ) فصاح بأعلى صوته افتحوا الباب ، فقد وجدت الجواب ، ففتحوا ودعا الغلام فقرأ عليه الآية بين يدي الرشيد ، وقال إن كان قوله « وَرُوحٌ مِنْهُ » يوجب أن يكون عيسى بعضاً منه ، وجب أن يكون ما في السموات وما في الأرض بعضاً منه ، فانقطع النصراني وأسلم ، وفرح الرشيد فرحاً شديداً ، ووصلَ علي بنَ الحسين الواقدي المروزي بصلة جيدة ، فلما عاد علي بن الحسين إلى مرو ، وصنَّف كتاباً سماه كتاب النظائر في القرآن ، وهو كتاب لا يوازيه كتاب ، قيل : معنى كونه روحاً أنه ذوروح صادر منه تعالى ، إلا أنه تعالى أضاف روحه إلى نفسه تشريفاً ، وقيل : المراد بالروح هو الذي نفخ جبرائيل عليه السلام في درع ، فدخلت تلك النفخة بطنها ، فحملت بإذن الله من ذلك النفخ ، سمي النفخ روحاً لأنه كان رحياً من

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ٦ / ٣٥٤ في كتاب الأنبياء ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٥١ .

الروح ، وأضاف تعالى نفخة جبريل إلى نفسه حيث قال « وروح منه » بناء على أن ذلك النفخ الواقع من جبريل كان بإذن الله تعالى وأمره فهو منه ﴿ **فَآمِنوا باللهِ** ﴾ خصوه بالألوهية ﴿ **وَرُسُلِهِ** ﴾ أجمعين ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية ، يعني عيسى من رسله ولا تجعلوه إلهاً ﴿ **وَلاَ تَقُولوا ثَلَثَةٌ** ﴾ أي الآلهة ثلاثة الله والمسيح ومريم أو الله ثلاثة أقانيم ، أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وااقنوم روح القدس ﴿ **انتَهُوْا** ﴾ أي عن التثليث ﴿ **خَيْراً لَكُمْ** ﴾ أي انتهاء خيراً لكم ﴿ **إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ واحِدٌ** ﴾ أي واحد بالذات ، منزه عن التعدد منفرد في آلهيته ﴿ **سُبْحانَهُ أَنْ يكونَ لَهُ وَلَدٌ** ﴾ أي أسبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد ، فإن التوالد إنما هو لحفظ النوع من الانقراض ، فمن كان نشأته وتكوّنه للبقاء ، إذاً لم يكن له ولد أن لا يتخذ الله تعالى ولدا وهو ازلي منزه عن الامثال والأشياه .

﴿ **لهُ مَا فِي السَّمَواتِ ومَا فِي الأَرْضِ** ﴾ أي له ما فيها من الموجودات ، خلقاً وملكاً وتصرفاً ، لا يخرج من ملكوته شيء من الأشياء ، التي من جملتها عيسى ، فكيف يتوهم كونه ولداً له تعالى ، قال ابن الشيخ في حواشيه : إنه تعالى في كل موضع نزه نفسه عن الولد ، ذكر أن جميع ما في السموات والأرض مختص به خلقا وملكاً ، للإشارة إلى أن ما زعمه المبطلون أنه ابن الله وصاحبته مملوك مخلوق له ، لكونه من جملة ما في السموات وما في الأرض ، فلا تتصور المجانسة والمماثلة ، بين الخالق والمخلوق ، والمالك والمملوك ، فكيف يعقل مع هذا توهم كونه ولداً له وزوجة ؟ ﴿ **وَكَفَىٰ باللهِ وَكيلاً** ﴾ يكل كلٌّ الخلق أمورهم إليه وهو غني عن العالمين ، فأنى يتصور في حقه اتخاذ الولد الذي هو شأن العجزة المحتاجين ؟

كل شيء ذاته لي شاهد * إنما الله إله واحد

﴿ **لَنْ يسْتنكِفَ المسيحُ** ﴾ استنكف منه : امتنع وانقبض أنفةً وحمية ﴿ **أَنْ يكونَ عبْداً للهِ** ﴾ أي من أن يكون عبداً له تعالى ، فإن عبوديته شرف ، وإنما المذلة في عبودية غيره ، روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ : لم تعيب صاحبنا ؟ قال : ومن صاحبكم ؟ قالوا : عيسى قال : وأيُّ شيء أقول ؟ قالوا تقول إنه عبد الله قال : إنه ليس بعارٍ أن يكون عبد الله ؟ قالوا بلى فنزلت ﴿ **ولا الملائِكةُ المقَرَّبونَ** ﴾ أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً ﴿ **وَمَنْ يَسْتنْكِفْ** ﴾ أي يترفع ﴿ **عَنْ عِبَادَتِهِ** ﴾ أي عن طاعته ﴿ **ويَسْتكْبِرْ** ﴾ الاستكبار دون الاستنكاف ولذلك عطف عليه ﴿ **فَسَيَحْشرهُمْ إليهِ** ﴾ أي فسيجمعهم إليه يوم القيامة ﴿ **جَميعاً** ﴾ المستنكف والمستكبر ، والمقر والمطيع ، فيجازيهم ﴿ **فأَمّا الَّذِينَ آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ فَيُوفّيهمْ أُجُورَهُمْ** ﴾ أي ثواب أعمالهم من غير أن ينقص منها شيأ أصلاً ﴿ **وَيزيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ** ﴾ بتضعيفها اضعافا مضاعفة ، وبإعطاء مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ **وأَمّا الذّينَ استنْكَفُوْا** ﴾ أي عن عبادته تعالى

﴿ واسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ ﴾ بسبب استنكافهم واستكبارهم ﴿ عَذاباً أليماً ﴾ وجيعاً لا يحيط به الوصف ﴿ ولاَ يَجِدُوْنَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي غيره تعالى ﴿ وَلِيّاً ﴾ يلي أمورهم ويدبر مصالحهم ﴿ ولا نَصِيراً ﴾ بنصرهم من بأسه تعالى ، وينجيهم من عذابه ﴿ يَا أَيُّها النّاسُ ﴾ خطاب لعامة المكلفين ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهانٌ ﴾ كائن ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إليْكُمْ ﴾ بواسطة النبي عليه السلام ﴿ نُوراً مُبيناً ﴾ عنى بالبرهان المعجزات ، وبالنور القرآن ، أي جاءكم دلائل العقل وشواهد النقل ، ولم يبق لكم عذر ولا علة ، وسمي القرآن نوراً لكونه سبباً لوقوع نور الإيمان في القلوب ، ولأنه تتبين به الأحكام كما تتبين بالنور الأعيان ﴿ فأمَّا الَّذِينَ آمنُوا بالله ﴾ حسبما يوجبه البرهان الذي أتاهم ﴿ واعْتَصَمُوا بهِ ﴾ أي امتنعوا به عن اتباعِ النفس الأمارة ، وتسويلات الشيطان ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ في رَحْمةٍ منهُ ﴾ في ثواب قدره بإزاء إيمانه ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ إحسان زائد عليه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ ويَهْدِيهم إليهِ ﴾ أي إلى الله ﴿ صِرَاطاً مُسْتقيماً ﴾ هو الإسلام والطاعة في الدنيا ، وطريق الجنة في الآخرة ، أعطى اللهُ لكل نبي آية وبرهاناً ليقيم به الحجة على الأمة ، وجعل نفس النبي عليه السلام برهاناً منه ، وذلك لأن برهان الأنبياء كان في الأشياء غير أنفسهم ، مثل ما كان برهان موسى في عصاه ، وفي الحجر الذي انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وكان نفس النبي عليه السلام برهاناً بالكلية ، فكان برهان عينيه ما قال عليه السلام (لا تسبقوني بالركوع والسجود فإني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي)[1] . وبرهان بصره (ما زاغَ البَصَرُ وما طَغَى) . وبرهان أنفه قال (إني لأجد نَفَس الرحمانِ من قبلِ اليمن)[2] . وبرهان لسانه (وما ينْطِقُ عَنِ الهَوَى إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوْحَىٰ) وبرهان بصاقه ما قال جابر رضي الله عنه : إنه قال يوم الخندق لا تخبزن عجينكم ، ولا تنزلن بُرْمتكم حتى أجيء ، فجاء فبصق في العجين ، وبارك ثم بصق في البرمة وبارك ، فأقسمُ بالله إنهم لأكلوا وهم ألف حتى تركوه وانصرفوا ، وإن برمتنا لتغطُّ أي تغلي ، وإن عجيننا ليخبز كما هو ، وبرهان تفله أنه تفل في عين علي كرم الله وجهه وهي ترمد ، فبرىء بإذن الله يوم خيبر ، وبرهان يده ما قال تعالى (وما رَمَيْتَ إذْ رميتَ ولكنَّ اللهَ رَمىٰ) وإنه سبح الحصى في يده وبرهان ما بين أصابعه أنه كان الماء ينبع من بين أصابعه ، حتى شرب منه خلق عظيم ، وبرهان صدره أنه كان يصلي ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء ، وبرهان قلبه أنه تنام عيناه ولا ينام قلبه ، وأمثال هذه البراهين كثيرة فمن أعظمها أنه عرج به إلى السماء ، حتى جاوز قاب قوسين أو أدنى ، وذلك برهان لنفسه بالكلية ، وما أعطي نبي قبله مثله قط ، وكان بعد أن أوحي إليه أفصح العرب والعجم ، وكان من قبل أمياً لا يدري ما الكتاب ولا

(١) الحديث أخرجه مسلم والنسائي بنحوه ، وانظر جامع الأصول ٥ / ٦٢٧ .

(٢) الحديث جزء من حديث شريف أخرجه أحمد في المسند ٢ / ٥٤١ .

الإيمان ، وأيُّ برهانٌ أقوى وأظهر وأوضح من هذا ؟ .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ أي يطلبون منك الفتوى في حق الكلالة ﴿ قُلِ اللهُ يُفتيكُمْ فِي الكَلاَلَةِ ﴾ الإفتاء : تبيين المبهم وتوضيح المشكل ، والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال ، وهو ذهاب القوة من الإعياء ، استعيرت للقرابة من غير جهة الوالد والولد ، وتطلق على من لم يخلف ولداً ولا والداً والمراد هنا الذي مات ولم يرثه أحدٌ من الوالدين ولا أحد من الأولاد ، لما روي أن جابر بن عبد الله كان مريضاً ، فعاده رسول الله ﷺ فقال إني كلالة أي لا يخلفني ولد ولا والد ، فكيف أصنع في مالي ؟ فنزلت ﴿ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيسَ لَهُ ولَدٌ ﴾ أي إن هلك امرؤ غير ذي ولد ذكراً كان أو أنثى ﴿ وَلَهُ أُخْتٌ ﴾ والمراد بالأخت من ليست لأم فقط ، فإن فرضها السدس فقط ﴿ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ ﴾ أي بالفرض والباقي للعصبة ﴿ وَهُوَ ﴾ أي الأخ الشقيق ﴿ يَرِثُهَا ﴾ أي أخته إن فرض هلاكها ﴿ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ ﴾ ذكراً كان أو أنثى ، فالمراد بإرثه لها إحراز ما لها ، إذ هو المشروط بانتفاء الولد بالكلية ، لا إرثه لها في الجملة فإنه يتحقق مع وجود بنتها ﴿ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ ﴾ أي اثنتين فصاعداً ﴿ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ الضمير لمن يرث بالأخوَّة والمعتبر في اختلاف الحكم هو العدد ، دون الصغر والكبر وغيرهما ﴿ وإِنْ كَانُوا ﴾ أي من يرث بطريق الأخوَّة ﴿ إِخْوَةً ﴾ أي مختلطة ﴿ رِجالاً ونِساءً ﴾ أي وإن كانوا إخوة وأخوات ، فغلَّب المذكر على المؤنث ﴿ فَلِلذَّكَرِ ﴾ منهم ﴿ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾يقسمون التركة على طريقة التعصيب ، وهذا آخر ما نزل في كتاب الله من الأحكام ، روي أن الصدّيق رضي الله عنه قال : إن الآية التي أنزلها الله تعالى في سورة النساء في الفرائض ، أولها في الولد والوالد ، وثانيها في الزوج والزوجة والأخوة من الأم ، والآية التي ختم بها السورة في الأخت لأبوين أو لأب ، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولى الأرحام ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لكم ﴾ أي حكم الكلالة ، أو أحكامه وشرائعه ﴿ أَنْ تَضِلُّواْ ﴾ أي كراهة أن تضلوا في ذلك فهو مفعول لاجله ﴿ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من الأشياء التي من جملتها أحوالكم المتعلقة بمحياكم ومماتكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم ، فيبين لكم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم .

انتهت بعون الله وتيسيره سورة النساء

• • •



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **يا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا أَوْفُوا بالعُقودِ** ﴾ الوفاء : هو القيام بمقتضى العهد ، والعقد : هو العهد الموثق ، المشبّه بعقد الحبل ونحوه ، والمراد بالعقود : ما يعمُّ جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم ، من التكاليف والأحكام الدينية ، وما يعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به .

ثم شرع في ذكر التكاليف مفصلة ، فبدأ بذكر ما يحلُّ ويحرم من المطعومات ، فقال عزَّ من قائل ﴿ **أُحِلَّتْ لَكُم بهيمةُ الأَنْعامِ** ﴾ البهيمة كل ذات أربع أي أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام وهي : الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز ، ﴿ **إلاَّ ما يُتْلَى عليكُمْ** ﴾ أي إلا محرم المتلو عليكم من القرآن في قوله تعالى (**حُرِّمَتْ عَليْكُمُ المَيْتَةُ**) بعد هذه الآية ﴿ **غَيْرَ مُحِلّي الصَّيْدِ** ﴾ الصيد بمعنى المصدر أي الاصطياد ، ومعنى عدم إحلالهم له : تقرير حرمته عملاً واعتقاداً ، وهو شائع في الكتاب والسنة ﴿ **وَأَنْتُمْ حُرُمٌ** ﴾ أي محرمون جمع حرام بمعنى محرم ، وفائدة تقييد إحلال بهيمة الأنعام بما ذُكر ، إتمام النعمة وإظهار الامتنان ، بتذكير احتياجهم إليه ، كأنه قيل : أحلت لكم الأنعام مطلقاً حال كونكم ممتنعين عن تحصيل ما يغنيكم عنها في بعض الأوقات ﴿ **إنَّ اللهَ يحْكُمُ ما يُريدُ** ﴾ من تحليل وتحريم ، على ما توجبه الحكمة ﴿ **يا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللهِ** ﴾ نزلت في شريح بن ضبيعة أتى المدينة من اليمامة ، وخلَّف خيله خارج المدينة ، ودخل وحده على النبي ﷺ فقال له : إلى ما تدعو الناس ؟ فقال (إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة) فقال : حسنٌ ، إلاّ أن لي أمراء لا أقطع أمراً دونهم ، لعلي أسلم وآتي بهم ، وقد كان النبي عليه السلام قال لأصحابه : يدخل عليكم رجل من ربيعة ، يتكلم بلسان شيطان ، ثم خرج شريح من عنده فقال عليه السلام : لقد دخل بوجه كافر ، وخرج بقفا غادر ، وما الرجل بمسلم ، فمر بسرح المدينة فاستاقه ، فتبعوه فلم يدركوه ، فلما كان العام المقبل ، خرج حاجاً من اليمامة ومعه تجارة عظيمة ، وقد قلَّد الهَدْي ، فقال المسلمون للنبي عليه السلام هذا شريح قد خرج حاجاً فخلِّ بيننا وبينه ، فقال النبي عليه السلام : إنه قد قلَّد الهدي ، فقالوا يارسول الله : هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية ، فأبى النبي عليه السلام »[1] فأنزل الله هذه الآية ، وكان المشركون يحجون ويهدون ، فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم ، فنهاهم الله عن ذلك ، والشعائر : جمع شعيرة وهي اسم لما أشعر أي جُعل علماً للنسك ، من الإحرام والطواف ، والسعي ، والحلق ، والنحر ، والمعنى : لا تتهاونوا بحرمتها ، ولا تقطعوا أعمال من يحج بيت الله ، ويُعَظِّم مواقف الحج ﴿ **ولاَ الشَّهْرَ الحَرَامَ** ﴾ أي

(١) انظر أسباب النزول للواحدي وتفسير الطبري ، والقرطبي ، والشوكاني .

ولا تستحلوا القتل والغارة في الشهر الحرام ، وهو شهر الحج ، والأشهر الأربعة الحرم ، وهي : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ﴿ **وَلاَ الهَدْيَ** ﴾ وهو ما أُهدي إلى الكعبة من إبل أو بقر أو شاة ، تقرباً إلى الله تعالى ، جمع هدية ﴿ **ولا القَلاَئِدَ** ﴾ أي ذوات القلائد من الهدي أي ولا تحلوا ذوات القلائد منها خصوصاً جمع قلادة ، وهي ما يشد على عنق البعير وغيره من نعل أو لحاء شجرة أو غيرهما ، ليعلم به أنه هديٌ فلا يتعرض له ﴿ **ولا آمِّينَ البَيْتَ الحَرَام** ﴾ أي ولا تحلُّوا قوماً قاصدين زيارة الكعبة ، بأن تصدوهم عن ذلك ﴿ **يَبْتَغُونَ فَضْلاً منْ ربِّهِمْ وَرِضْوَاناً** ﴾ أي قاصدين زيارته طالبين الرزق بالتجارة والرضوان أي رضى الله تعالى وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى (**فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم**) وبقوله (**فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا**) فلا يجوز أن يحج مشرك ، ولا يأمن كافر بالهَدْي والقلائد ﴿ **وإذَا حَلَلْتم فَاصْطَادُوْا** ﴾ أي وإذا حللتم من الإحرام فلا جناح عليكم في الاصطياد ﴿ **ولا يَجْرِمَنَّكُمْ** ﴾ يقال جرمني فلان على أن صنعتُ كذا أي حملني ، والمعنى : لا يحملنكم ﴿ **شَنَآنُ قَوْمٍ** ﴾ أي شدة بغضهم وعداوتهم ﴿ **أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ** ﴾ أي لأن منعوكم عن زيارته والطواف به للعمرة عام الحديبية ﴿ **أَنْ تَعْتَدُوْا** ﴾ أي لا يحملنكم شدة بغضكم لهم ، لصدّهم إياكم عن المسجد الحرام ، على اعتدائكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفي ﴿ **وَتَعَاوَنُوا** ﴾ أي ليُعِنْ بعضكم بعضاً ﴿ **عَلَى البِرِّ والتَّقوَى** ﴾ أي على العفو والإغضاء ، ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى ﴿ **وَلاَ تَعَاوَنُوْا على الإثمِ والعُدْوانِ** ﴾ أي لا يعن بعضكم بعضاً على شيء من المعاصي والظلم ، للتشفي والانتقام ، بل الواجب أن يعين بعضهم بعضاً على ما فيه البرُّ والتقوى ، وأصل « لا تعاونوا » لا تتعاونوا فحذف منه إحدى التاءين تخفيفاً ، وسئل رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : (البرُّ حسن الخُلُق ، والإثمُ ما حاك في نفسك ، وكرهتَ أن يطَّلع عليه الناس)[1] ﴿ **واتّقوا اللهَ** ﴾ في جميع الأمور ﴿ **إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ** ﴾ فانتقامه أشد لمن لا يتقيه ، وفي الآية إشارة إلى تعظيم ما عظَّمه الله من الزمان والمكان ، وقد فضَّل الأشهر والأيام والأوقات بعضها على بعض ، كما فضل الرسل والأمم بعضها على بعض ، لتتسارع القلوب إلى احترامها ، وتتشوق الأرواح إلى إحيائها بالتعبد فيها ، ويرغب الخلق في فضائلها ، وفضَّل الأمكنة بعضها على بعض ، ليعظم الأجر بالإقامة فيها ، وخلق الله الناس سعيداً وشقياً ، والعبرة بالخاتمة، وكان ﷺ موصوفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، فعليك أن تقتدي به ، ولما مدح الله الأنبياء عليهم السلام ووصف كل نبي بصفة قال له تعالى : (**فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ**) ففعل ، فصار مستجمعاً لكمال خصال الخير ، وكان كل واحد منهم مخصوصاً بخصلة ، مثل نوح بالشكر ، وإبراهيم بالحلم ، وموسى بالإخلاص ، وإسماعيل بصدق الوعد ، ويعقوب وأيوب بالصبر ، وداود بالفضل ، وسليمان بالتواضع ، وعيسى

(١) الحديث أخرجه البخاري في الأدب ، ومسلم ، والترمذي ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ١٨ .

بالزهد ، فلما اقتدى بهم اجتمع له الكل ، فأنت أيها المؤمن من أمة ذلك الرسول ﷺ ، فاتق الله كي تنجو من العقاب الشديد والعذاب المديد ، وتظفر بالخلد الباقي بالنعيم المقيم ﴿ **حُرِّمَتْ عليكُمُ المَيْتَةُ** ﴾ أي تناولها ، فإن التحليل والتحريم إنما يتعلقان بالأفعال دون الأعيان ، والميتةُ : ما فارقه الروح من غير ذبح ﴿ **والدَّمُ** ﴾ أي الدم المسفوح أي المصبوب لا الكبد والطحال ، وكان أهل الجاهلية يصبونها في أمعاء ويشوونها ، ويقولون : لم يحرم من فَصِدله ﴿ **وَلَحْمُ الخِنْزيرِ** ﴾ لعينه حتى لا يحل تناوله مع وجود الذكاة فيه ، وفائدة تخصيص لحم الخنزير بالذكر أن كثيراً من الكفار ألفوا لحم الخنزير ، والغذاء يصير جزأ من جوهر المغتذي ، ولابد وأن يحصل للمغتذي أخلاق وصفات من جنس ما كان حاصلاً في الغذاء ، والخنزير مطبوع على حرص عظيم ورغبة شديدة في المشتهيات ، فحرم أكله على الإنسان لئلا يتكيف بتلك الكيفية ، ومن جملة خبائث الخنزير أنه عديم الغيرة ، فإنه يرى الذكر من الخنازير ينزو على أنثى له ، ولا يتعرض له لعدم غيرته ، فأكل لحمه يورث عدم الغيرة ﴿ **وَمَا أُهِلَّ لغيْرِ اللهِ بهِ** ﴾ أي رفع الصوت لغير الله عند ذبحه كقولهم : باسم اللات والعزى ، قال الفقهاء : ولو سمى الذابح النبي عليه السلام مع الله فقال : باسم الله ومحمد ، حرمت الذبيحة ، وفي الحديث (لعن الله من لعن والديه ، ولعن الله من ذبح لغير الله)[1] قال النووي : المرادُ به الذبح باسم غير الله ، كمن ذبح للصنم ، أو لموسى أو لغيرهما ، ذكر الشيخ الماوردي : أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه ، أفتى أهل بخارى بتحريمه ، لأنه مما أُهِلَّ به لغير الله ، وقال الرافعي : هذا غير محرم ، لأنهم إنما يذبحونه استبشاراً بقدومه ، فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ، ومثل هذا لا يوجب التحريم ﴿ **والمُنْخَنِقَةُ** ﴾ أي التي ماتت بالخنق ، وكان أهل الجاهلية يخنقون الشاة ، فإذا ماتت أكلوها ، وهذه المنخنقة من جنس الميتة لأنها ماتت من غير تذكية ﴿ **والمَوْقُوذَةُ** ﴾ المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى تموت ﴿ **والمُتَرَدِّيَةُ** ﴾ التي تردَّت من مكانٍ عال ، أو في بئر فماتت قبل الذكاة ، قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم (إذا تردت رميتك من جبل فوقعت في ماء ، فلا تأكل ، فإنك لا تدري أسهمك قتلها أم الماء)[2] فصار هذا الكلام أصلاً في كل موضع اجتمع فيه معنيان ، أحدهما حاظر ، والآخر مبيح ، أنه يُغلَّب جهة الحظر ، ولهذا قال ﷺ (الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناس ...)[3] الحديث ﴿ **والنَّطيحَةُ** ﴾ التي نطحتها أخرى فماتت بالنطح ﴿ **وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ** ﴾ أي وما أكل منه السبع فمات ، والسبع اسم يقع على ماله ناب ، ويعدو على الإنسان والدواب ويفترسها ، كالأسد وما دونه وهو يدل على أن جوارح الصيد إذا كلت مما اصطادته

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والنسائي وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير ٣ /١٥ .

(٢) هذا جزء من حديث رواه البخاري في كتاب الصيد من حديث عدي بن حاتم ، وانظر جامع الأصول ٧ /٢٦ .

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم ، وانظر الفتح الكبير ٢ /٨٢ .

لم يحل ﴿ **إلاَّ ما ذَكَّيْتُمْ** ﴾ أي إلا ما أدركتم ذكاته من هذه الأشياء ، وفيه بقية حياة ، يضطرب اضطرب المذبوح ، فإنه يحل لكم ، والذكاة في الشرع بقطع الحلقوم والمريء وهو اسم لما اتصل بالحلقوم وهو الذي يجري فيه الطعام والشراب ، وأقلُّ الذكاة في الحيوان قطع الحلقوم والمريء ، وكماله أن يُقْطع الودجان معها ، ويجوز بكل محدَّد من حديد أو قصب أو زجاج أو حجر ، وكل ما أفرى الأوداج وأنهر الدم فهو من آلات الذكاة ﴿ **وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ** ﴾ النُّصب : واحد الأنصاب ، وهي أحجار كانت منصوبة حول البيت ، يذبحون عليها ويعدون ذلك قربة ﴿ **وأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلاَمِ** ﴾ جمع زلم وهو القدح أي وحرم عليكم الاستقسام بالقداح ، وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلاً ، ضربوا ثلاثة قداح : مكتوب على أحدها أمرني ربي ، وعلى الآخر نهاني ربي ، والثالث غُفْل أي خال عن الكتابة ، فإن خرج الأمر مضوا على ذلك ، وإن خرج الناهي اجتنبوا عنه ، وإن خرج الغفل أجالوها ثانياً ، فمعنى الاستقسام : طلب معرفة ما قُسِم لهم بواسطة ضرب القداح ﴿ **ذٰلكُمْ** ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام ﴿ **فِسْقٌ** ﴾ أي تمردٌ وخروج عن الحدّ ، ودخول في علم الغيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله . واعلم أن استعلام الغيب بالطريق غير المشروع ، كاستعلام الخير والشر من الكهنة والمنجمين ، منهيٌ عنه ، بخلاف استعلام الغيب بالاستخارة بالقرآن وبصلاة الاستخارة ودعائها ، لأنه استعلام بالطريق المشروع ، وإن طلب ما قسم له من الخير ليس منهياً عنه مطلقاً ، بل المنهي عنه هو الاستقسام بالأزلام ، وفي الحديث (العيافةُ والطرق والطيرةُ من الجبت)[1] والمراد بالطرق الضرب بالحصى ﴿ **اليَوْمَ** ﴾ المراد به الزمان الحاضر ، ونظيره قولك : كنت بالأمس شاباً واليوم قد صرت شيخاً ، فإنك لا تريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ، ولا باليوم اليوم الذي أنت فيه ، وقيل : أراد يوم نزولها بعد عصر يوم الجمعة ، يوم عرفة ، في حجة الوداع والنبي عليه السلام واقف بعرفات ﴿ **يَئِسَ الذّينَ كَفَرُوا منْ دينِكُمْ** ﴾ أي من أن يغلبوكم عليه ، لما شاهدوا من أن الله عز وجل وفى بوعده ، حيث أظهره على الدين كله ﴿ **فلا تَخْشَوْهُمْ** ﴾ أي من أن يظهروا عليكم ﴿ **واخْشَوْنِ** ﴾ وأخلصوا إليَّ الخشية ﴿ **اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينَكُمْ** ﴾ بالنصر والإظهار على الأديان كلها ﴿ **وَأَتْمَمْتُ عليْكُمْ نِعْمتي** ﴾ بالهداية والتوفيق وبإكمال الدين والشرائع ﴿ **وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلاَمَ ديناً** ﴾ أي اخترته لكم من بين الأديان ، وهو الدين المقبول عند الله لا غير ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال له يا أمير المؤمنين : آيةٌ في كتابكم تقرأونها ، لو علينا معشرَ اليهود نزلت ، لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال أيَّ آية ؟ قال : ﴿ **اليَوْمَ أَكْمَلْتُ** ﴾ الخ قال عمر : قد عرفنا ذلك اليوم ، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم الجمعة »[2] أشار

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود من حديث قبيصة ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ٢٥٣ .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان في صحيحيهما ، والإمام أحمد في المسند ، ولفظ البخاري : قالت اليهود لعمر .. الحديث .

عمر إلى أن ذلك اليوم كان عيداً لنا ، وروي أنه لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه ، فقال النبي عليه السلام : (ما يبكيك يا عمر ؟ قال : أبكاني أنا كنا في زيادةٍ من ديننا ، فإذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص قال : صدقت)[1] فكانت هذه الآية تنعي رسول الله ﷺ وعاش بعدها إحدى وثمانين يوماً، ومات يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول وكانت هجرته في الثاني عشر منه ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ** ﴾ أي فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات ﴿ **فِي مَخْمَصَةٍ** ﴾ أي مجاعة يخاف منها الموت ﴿ **غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ** ﴾ أي فليتناول مما حرم غير مائل ومنحرف إليه بأن يأكلها تلذذاً ، أو مجاوزاً حد الرخصة ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ لا يؤاخذه بأكلها ، ورُوي أن رجلاً قال يا رسول الله : إنّا نكون بأرض فتصيبنا المخمصة فمتى تحلُّ لنا الميتة ؟ فقال (ما لم تَصْطبِحوا أو تَغْتبِقُوا أو تجنفوا بها)[2] ومن امتنع من الميتة حال المخمصة ، ولم يأكل حتى مات أثم ، بخلاف من امتنع من التداوي حتى مات ، فإنه لا يأثم لأنه لا يقين بأن هذا الدواء يشفيه ، ولعله يصح من غير علاج ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ** ﴾ ما للاستفهام وذا بمعنى الذي والمعنى ما الذي أُحلَّ لهم من المطاعم ؟ ﴿ **قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ** ﴾ أي ما لم تستخبثه الطباع السليمة ولم تنفر منه ، كما في قوله تعالى ﴿ **وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ** ﴾ والطيِّب في اللغة : المستلذُّ المشتهى أي كل ما يستلذ ويشتهى ، والعبرة في الاستلذاذ والاستطابة بأهل المروءة والأخلاق الجميلة ، فإن أهل البادية يستطيبون أكل جميع الحيوانات ﴿ **وَمَا عَلَّمْتُمْ** ﴾ أي وصيد ما علمتموه ﴿ **مِنَ الْجَوَارِحِ** ﴾ جمع جارحة والمراد بالجوارح كل ما يكسب الصيد على أهله من سباع البهائم كالفهد والنمر والكلب ، ومن سباع الطير كالصقر والبازي والعقاب والنسر ، ونحوها مما يقبل التعليم ، فإن صيد جميعها حلال ﴿ **مُكَلِّبِينَ** ﴾ أي معلمين لها الصيد ، والمكلِّب : مؤدّب الجوارح فكأنه قيل : وما علمتم ماهرين في تعليم الجوارح حاذقين فيه ﴿ **تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ** ﴾ من الحيل ، وطرَق التعليم والتأديب ، بإرسال صاحبه ، وأن ينزجر بزجره ، وينصرف بدعائه ، ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه ، قال صاحب الكشاف : قوله تعالى ﴿ **تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ** ﴾ فيه تنبيه على أن كل من يأخذ علماً ، ينبغي أن يأخذه ممن هو متبحِّر في ذلك العلم ، غواص في بحار لطائفه وحقائقه ، وإن احتاج في ذلك إلى ارتكاب سفر بعيد ، فكم من آخذ من غير متقن ، ضيَّع أيامه ، وعضَّ عند لقاء النحارير أنامله ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي فكلوا بعض ما أمسكنه عليكم ، وهو الذي لم يأكلن منه ، وأما ما أكلن منه فهو مما أمسكن على أنفسهن ، لقوله عليه السلام لعدي بن حاتم : (وإن

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٨٢ ، وروح المعاني للألوسي .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ، قال ابن كثير ١ / ٤٨٣ : وإسناده صحيح على شرط الشيخين ، والمراد بقوله « تصطبحوا » : الغداء ، و « تغتبقوا » العشاء .

أكل منه فلا تأكلْ ، إنما أمسكه على نفسه)[١] وإليه ذهب أكثر الفقهاء ﴿ **واذْكُرُوْا اسمَ اللهِ عليهِ** ﴾ أي سموا عليه عند إرساله عن أبي ثعلبة قال قلت يا نبي الله (إنّا بأرض قومٍ أهل كتاب ، أفنأكل في آنيتهم ؟ وبأرض صيد ، أصيد بقوسي ، وبكلبي الذي ليس بمعلم ، وبكلبي المعلم فما يصلح لي ؟ قال : أمّا ما ذكرت من آنية أهل الكتاب ، فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها ، وإن لم تجدوا فاغسلوها وكلوا فيها ، وما صدتَ بقوسك فذكرتَ اسم الله فكلْ ، وما صدت بكلبك المعلَّم فذكرت اللهعليه فكل ، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل)[٢] ﴿ **واتَّقُوا اللهَ** ﴾ في شأن محرماته ﴿ **إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ** ﴾ سريع إتيان حسابه ، أو سريع تمامه إذا شرع فيه يتم في أقرب ما يكون من الزمان ، والمعنى على التقديرين أنه يؤاخذكم سريعاً في كل ما جلَّ ودقَّ ، ولما نزلت هذه الآية أذن رسول الله ﷺ في اقتناء الكلاب التي يُنتفع بها ، وأمر بقتل الكلب العقور ، وبما يضر ويؤذي وفي الحديث (من اتخذ كلباً إلا كلب ماشيةٍ ، أو صيد ، أو زرع ، انتقص من أجره كل يوم قيراط)[٣] والحكمة في ذلك : أنه ينبح الضيف ، ويروِّع السائل ، وهو من عادات الكفار ، فإنهم يعتنون بتربية الكلاب ، وهم عندهم كالأبناء ، والجنسُ يألفه الجنسُ . وفي الحديث (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب)[٤] والمراد بالملائكة ملائكة الرحمة والاستغفار ، لا الكتبة فإنهم لا يفارقون المكلفين طرفة عين ، والمراد بالصورة صورة ذي الروح لمشابهته بيوت الأصنام ، وأما الكلب فلأنه نجس فأشبه المتبرز ﴿ **اليَوْمَ** ﴾ أراد به الزمان الحاضر ، أو يوم النزول ﴿ **أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ** ﴾ وهي ما لم تستخبثه الطباع السليمة ، وهي طباع أهل المروءة والأخلاق الجميلة ، أو ما لم يدل نص شارع ولا قياس مجتهد على حرمته ﴿ **وطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ** ﴾ أي اليهود والنصارى ، والمراد بطعامهم ما يتناول ذبائحهم وغيرها ﴿ **حِلٌّ لَكُمْ** ﴾ أي حلال وعن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال : لا بأس ، وهو قول عامة التابعين ، ولو ذبح يهودي أو نصراني على اسم غير الله كالنصراني يذبح باسم المسيح ، فذهب أكثر أهل العلم إلى أنه يحل ، فإن الله قد أحلَّ ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون ، وقال الحسن : إذا ذبح اليهودي أو النصراني فذكر اسم غير الله وأنت تسمع فلا تأكله ، وإذا غاب عنك فكل ، فقد أحل الله لك ﴿ **وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ** ﴾ فلا عليكم أن تطعموهم وتبيعوه منهم ﴿ **والمحصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ** ﴾ أي حلٌّ لكم أيضاً ، والمراد بهن الحرائر والعفائف ﴿ **والمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ** ﴾ أي هن أيضاً حلٌّ لكم وإن كنَّ

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي بروايات متعددة ، وانظر جامع الأصول ٧ / ٢٥ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ، وانظر جامع الأصول ٧ / ٣١ .

(٣) الحديث أخرجه النسائي في كتاب الصيد ، وهو حديث صحيح ، وانظر جامع الأصول ٧ / ٥١ .

(٤) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ، وزاد في بعض الروايات الصحيحة « ولا تماثيل » وانظر جامع الأصول ٤ / ٨٠٨ .

حربيات ، وقال ابن عباس ، لا تحل الحربيات ، وإنما خص الله المحصنات بإباحة نكاحهن ، لأن الآية خرجت مخرج الامتنان ، والمنة في نكاح الحرائر العفائف أعظم وأتم ، يدل على ذلك أنه لا خلاف في جواز النكاح بين المسلم والأمة المؤمنة ، والأفضل لمن أراد النكاح أن لا يعدل عن نكاح الحرائر ، وذلك أن نكاح الأمة يؤدي إلى إرقاق الولد ، لأن الولد يتبع أمه في الرق والحرية ، ولا ينبغي لأحد أن يختار رقّ ولده ، كما لا ينبغي أن يختار رقّ نفسه ﴿ **إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ أي مهورهن ﴿ **مُحْصِنِينَ** ﴾ أي حال كونكم أعفاء بالنكاح ﴿ **غَيْرَ مُسَافِحِينَ** ﴾ أي غير مجاهرين بالزنى ﴿ **وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ** ﴾ أي ولا مُسِرِّين به ، والخِدْن : الصديق يقع على الذكر والأنثى ، قال الشعبي : الزنى ضربان : السفاح وهو الزنى على سبيل الإعلام ، واتخاذ الخدن وهو الزنى في السر ، والله تعالى حرمهما في هذه الآية ﴿ **وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ** ﴾ أي ومن ينكر شرائع الإسلام ، ويمتنع عن قبولها ﴿ **فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ** ﴾ أي بطل عمله الصالح الذي عمله قبل ذلك ﴿ **وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ** ﴾ أي وهو في الآخرة من المغبونين ، حيث صار إلى النار ، ولا يغني عن المرأة الكتابية إسلام زوجها ، ولا ينفعها ذلك ، ولا يضر المسلم كفر زوجته الكتابية *واعلم أن الكفر أقبح القبائح ، كما أن الإيمان أحسن المحاسن ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما (لَمّا خلق الله جنة عَدْن ، خلق فيها مالا عين رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال لها تكلمي : فقالت قد أفلح المؤمنون ثلاثاً)[1] ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ** ﴾ أي إذا أردتم القيام لها وقصدتم الصلاة ، وهذا الخطاب خاص بالمُحْدِثين ، بقرينة دلالة الحال ، فلا يلزم الوضوء على كل قائم إلى الصلاة ، سواء كان محدثاً أم لا ﴿ **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ الغسل إجراء الماء على المحل ، والوجه ما يواجهك من الإنسان ، وحدُّه من قصاص الشعر إلى أسفل الذقن طولاً ، ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضاً ، فيجب غسل جميعه في الوضوء .

﴿ **وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ** ﴾ الجمهور على دخول المرفقين في المغسول ، والمرافق جمع مرفق وهو مجتمع طرفي الساعد والعضد ، ويسمى مرفقاً لأنه الذي يرتفق به أي يتكأ عليه من اليد ﴿ **وَامْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ** ﴾ والمسح الإصابة ، وقدر الواجب عند أبي حنيفة ربع الرأس ، لأنه عليه السلام مسح على ناصيته ، وهو قريب من الربع ، فإن للرأس جوانب أربعة : ناصية ، وقذال ، وفودان ، والقَذال مؤخر الرأس ، خلف الناصية ، وفودا الرأس جانباه ﴿ **وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَينِ** ﴾ بالنصب عطفاً على وجوهكم ، ويؤيده السنة الشائعة ، وعمل الصحابة ، وقول الأئمة ، والتحديد إذ المسح لم يعهد محدوداً ، إنما جاء التحديد في المغسولات ، والحكمة في تخصيص الأعضاء الأربعة في الوضوء ، أن آدم عليه السلام لما توجه

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، وانظر الفتح ٣ / ٣٤ .

إلى الشجرة بالوجه ، وتناولها باليد ، ومشى إليها بالرجل ، ووضع يده على رأسه ، أمره بغسل هذه الأعضاء تكفيراً للخطايا ، وقد جاء في الحديث (إن العبد إذا غسل وجهه خرجت خطاياه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه)[١] وقيل : خَصَّ بغسل هذه الأعضاء الأمة المحمدية ليكونوا غُرَّاً محجَّلين بين الأمم لحديث (فإنهم يأتون يوم القيامة غُرَّاً مُحَجَّلين من الوضوء ، وأنا فَرَطُهم على الحوض)[٢] واعلم أن النبي ﷺ صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد ، فقال عمر رضي الله عنه : صنعتَ شيئاً لم تكن تصنعه؟ فقال عليه السلام : (عمداً فعلته ياعمر)[٣] يعني بياناً للجواز ، غير أنه يستحب تجديد الوضوء لكل فرض ، وللتجديد أثر ظاهر في تنوير الباطن ، وكان بعض أهل الله يتوضأ عند الغِيبَةِ ، والكذب ، والغضب ، فالوضوء هو النور الذي به تضمحل ظلمات النفس والشيطان ، والسنة أن يصلي بعد الوضوء ركعتين ، روي أن رسول الله ﷺ قال لبلال (يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، فإني سمعت دف نعليك بين يديَّ في الجنة ؟ قال ما عملتُ عملاً أرجى عندي من أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار ، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي)[٤] ﴿ **وَإِنْ كُنْتُم جُنُباً فَاطَّهَّرُوا** ﴾ أي فتطهروا وهذا التطهير عبارة عن الاغتسال ، فلا يكون إلا بغسل جميع ظاهر البدن ، حتى لو بقي العجين بين أظفاره ويبس لم يجز غُسْله ، لأن الماء لا يصل تحته ، إلا أن ما تعذر إيصال الماء إليه كداخل العين ساقط ، بخلاف باطن الأنف والفم حيث يمكن غسلهما ولا ضرر فيه فيجب ، وفي الاغتسال منافع بدنية وفوائد دينية ، منها : مخالفة الكفار فإنهم لا يغتسلون ، وإزالة الدنس والأبخرة الرديئة النفسانية التي تورث بعض الأمراض ، وتسكين حرارة الشهوات الطبيعية ، قال في بدائع الصنائع في أحكام الشرائع : إنما وجب غسل جميع البدن بخروج المني ، ولم يجب بخروج البول والغائط لوجوه : **أحدها** أن قضاء الشهوة بإنزال المني استمتاعٌ بنعمة يظهر أثرها في جميع البدن وهي اللذة ، فأمر بغسل جميع البدن شكراً لهذه النعمة ، وهذا لا يتقدر في البول والغائط ، **والثاني** أن الجنابة تأخذ جميع البدن ، لأن الوطء الذي هو سببها لا يكون إلا باستعمال جميع ما في البدن من القوة ، حتى يضعف الإنسان بالإكثار منه ، ويقوى بالامتناع عنه ، وإذن فقد أخذت الجنابة جميع البدن الظاهر والباطن بقدر الإمكان ولا كذلك الحدث ، فإنه لا يأخذ إلا الظاهر من الأطراف ، لأن سببه يكون بظواهر الأطراف من الأكل والشرب ،ولا يكون

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه النسائي ومالك في الموطأ ، وأوله « إذا توضأ العبد المؤمن فتمضض ، خرجت خطاياه من فيه ... وإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه ، حتى تخرج من تحت أشفار عينيه » الحديث أي من تحت أجفانه ، وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٧٥ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود بلفظ « إن أمتي يُدعون يوم القيامة غُرّاً محجّلين ، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرّته فليفعل » وللشيخين بنحوه .

(٣) الحديث أخرجه مسلم وأصحاب السنن من حديث بُرَيدة ، وانظر جمع الفوائد من مجمع الزوائد ١ / ٦٢ .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه بلفظ متقارب ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٧٦ والفتح الكبير ٣ / ٣٩١ .

باستعمال جميع البدن ، فأوجب غسل ظاهر الأطراف لا سائر البدن ، **والثالث** أن غسل الكل أو البعض وجب وسيلة إلى الصلاة ، التي هي خدمة الرب سبحانه ، والقيام بين يديه وتعظيمه ، فيجب أن يكون المصلي على أطهر الأحوال وأنظفها ، ليكون أقرب إلى التعظيم وأكمل في الخدمة ، وكمال تعظيم النظافة إنما يحصل بغسل جميع البدن ، وهذا هو العزيمة في الحدث أيضاً إلا أن ذلك مما يكثر وجوده ، فاكتفي منه بأكثر النظافة ، وهي تنقية الأطراف التي تنكشف كثيراً ، ويقع عليها الإبصار أبداً ، وأقيم ذلك مقام غسل كل البدن ، دفعاً للحرج وتيسيراً وفضلاً من الله ورحمة ، ولا حرج في الجنابة لأنها لا تكثر ، فبقي الأمر فيها على العزيمة انتهى كلام البدائع .

﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ** ﴾ مرضاً يخاف منه الهلاك أو ازدياده باستعمال الماء ﴿ **أَوْ** ﴾ كنتم مستقرين ﴿ **عَلَىٰ سَفَرٍ** ﴾ طال أو قصر ﴿ **أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ** ﴾ هو المكان الغائر المطمئن ، والمجيء منه كناية عن الحدث ، لأن المعتاد أن من يريده يذهب إليه ليواري شخصه عن أعين الناس ﴿ **أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ** ﴾ ملامسة النساء مماسة بشرة الرجل بشرة المرأة ، وهي كناية عن الجماع ، ومثل هذه الكناية من الآداب القرآنية ، إذِ التصريح مستهجنٌ ﴿ **فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً** ﴾ المراد من عدم وجدان الماء عدم التمكن من استعماله ، لأن مالا يتمكن من استعماله كالمفقود ﴿ **فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً** ﴾ أي فتعمدوا شيأ من وجه الأرض طاهراً ، فالصعيد هو وجه الأرض تراباً أو غيره ، سمى صعيداً لكونه صاعداً طاهراً ﴿ **فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ** ﴾ أي من ذلك الصعيد أي إلى المرفقين ، لما روي أنه ﷺ تيمم ومسح يديه إلى مرفقيه ، ولأنه بدل من الوضوء فيُقدَّر بقدره ، والباء مزيدة ، والمعنى فانقلوا بعد وضعها على الصعيد ، إلى الوجوه والأيدي من غير أن يتخللها ما يوجب الفصل ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ** ﴾أي تضييقاً عليكم في الدين ﴿ **وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ** ﴾ أي لينظفكم أو ليطهركم من الذنوب فإن الوضوء مكفِّرٌ لها ﴿ **وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ** ﴾ أي وليتم برخصته إنعامه عليكم ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ نعمته ، واعلم أن المقصود من طهارة الثوب ، ومن طهارة البدن ـ وهو القشر القريب ـ طهارة القلب وهو لب الباطن ، وطهارة القلب من نجاسات الأخلاق أهم الطهارات ، ولكن لا يبعد أن يكون لطهارة الظاهر أيضاً تأثير في إشراق نورها على القلب ، فإذا أسبغتَ الوضوء ، واستشعرت نظافة ظاهرك ، صادفت في قلبك انشراحاً وصفاء ، كنت لا تصادفه قبله ، وذلك لسر العلاقة التي بين عالم المُلْك وعالم الملكوت ، فإن ظاهر البدن من عالم الشهادة ، والقلب من عالم الملكوت ، وكما ينحدر من معارف القلب آثار إلى الجوارح ، فكذلك قد يرتفع من أحوال الجوارح التي هي من عالم الشهادة ، آثار إلى القلب ، ولذلك أمر الله بالصلاة مع أنها حركات الجوارح ، التي من عالم الشهادة ، ولذلك جعلها رسول الله ﷺ في الدنيا ومن الدنيا فقال (حُبِّب إليَّ من دنياكم الطِّيبُ ، والنساءُ ، وجُعلت قُرَّةُ عيني في

الصلاة)[1] ولا يستبعد أن يفيض من الطهارة الظاهرة أثرٌ على الباطن ﴿ **واذْكُرُوْا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ** ﴾ بالإسلام ، لتذكّركم المنعم ، وترغبكم في شكره ﴿ **وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ** ﴾ أي عهده المؤكد الذي أخذه عليكم ﴿ **إِذْ قُلتُمْ سَمِعْنَا وأَطَعْنَا** ﴾ وهو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة ، في حال اليسر والعسر ، والمنشط والمكره ﴿ **وَاتَّقُوْا اللهَ** ﴾ في نقض ميثاقه ﴿ **إِنَّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ** ﴾ أي بخفياتها فيجازيكم عليها ، فما ظنكم بجليات الأعمال ؟ واعلم أن أول النعم التي أنعم الله بها على المؤمنين ، إخراجهم من ظلمة العدم إلى نور الوجود ، وخلقهم في أحسن تقويم لقبول الدين القويم ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، وتوفيقهم للسمع والطاعة ، ولو لم تكن نعمة التوفيق لقالوا : سمعنا وعصينا ، كما قال أهل الخذلان والعصيان ، وعن عبد الرحمن بن عوف قال : « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ ـ وكنا حديثي عهد ببيعته ـ فقلنا بايعناك يا رسول الله قال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلُّوا الخمس ، وتطيعوا أوامر الله جلية وخفية ، ولا تسألوا الناس ، فلقد رأيت بعضَ أولئك النفر يسقط سوط أحدهم ، فما يسأل أحداً يناوله إياه ، حتى يكون هو ينزل فيأخذه)[2] .

﴿ **يا أَيُّها الذينَ آمنُوا كُونُوا قَوّامينَ للهِ** ﴾ مقيمين لأوامره متمسكين بها ، مراعين لحقوقها ﴿ **شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ** ﴾ أي بالعدل ﴿ **وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ** ﴾ أي ولا يحملنكم ﴿ **شَنَآنُ قومٍ** ﴾ أي شدة بغضكم للمشركين ﴿ **عَلَى أَنْ لا تَعْدِلُوا** ﴾ أي على ترك العدل فيهم ، فتعتدوا عليهم بارتكاب مالا يحل ﴿ **إِعْدِلُوْا هُوَ** ﴾ أي العدل ﴿ **أَقْرَبُ للتَّقْوَى** ﴾ التي أمرتم بها ، وإذا كان وجوب العدل في حق الكفار بهذه المثابة ، فما ظنك بوجوبه في حق المسلمين ؟ ﴿ **واتَّقُوا اللهَ** ﴾ فإنه ملاك الأمر ، وزادُ سفر الآخرة ﴿ **إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ من الأعمال فيجازيكم بذلك ﴿ **وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ التي من جملتها العدلُ والتقوى ﴿ **لَهُمْ مَغْفِرَةٌ** ﴾ لذنوبهم ﴿ **وَأَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ أي ثواب عظيم في الجنة ﴿ **والذينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوْا بآياتِنَا** ﴾ الناطقة بالأمر بالعدل والتقوى ﴿ **أولَئِكِ**

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ، والنسائي ، والحاكم من حديث أنس ، وانظر الفتح الكبير ٢ / ٦٨ .

ولم يقل ﷺ : أحبُّ من دنياكم الطيبَ والنساءَ إلخ ، وإنما قال : حُبِّب إليَّ من دنياكم الطيبُ والنساء ، وذلك لينبه صلوات الله عليه على أن هذه الأمور فُطر الإنسان عليها ، وجُبل على حبِّها ، والإسلام هو دين الفطرة ، لا يصادم الغريزة والفطرة ، وإنما يهذِّبها ويسمو بها ، فميله للنساء فطريٌّ ، جِبِلِيٌّ كما قال سبحانه ﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهواتِ من النساء والبنين .. ﴾ الآية وفرقٌ كبير بين من يكون عبداً للشهوة ، وبين من يكون متمشياً مع قانون الفطرة !.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي ، وانظر جامع الأصول ١ / ٢٥٤ .

أَصْحَابُ الجَحِيمِ ﴾ ملابسوها ملابسة مؤبدة ، وفيه مزيد وعد للمؤمنين ، فإن الإنسان يفرح بأن يُهَدَّد أعداؤه ﴿ يا أَيُّهَا الذينَ آمنُوْا اذكُرُوْا نِعْمَةَ اللهِ عَليكُمْ إذْ هَمَّ قَوْمٌ ﴾ أي اذكروا إنعامه عليكم في وقت همهم وقصدهم ﴿ أنْ يَبْسُطُوْا إليكُمْ أَيدِيَهُمْ ﴾ أي بأن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك ، يقال : بسط إليه يده إذا بطش به ، وبسط إليه لسانه إذا شتمه ﴿ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾ وهو ما روي أن رسول الله ﷺ أتى بني قريظة ، ومعه الشيخان[1] وعلي رضي الله عنهم ، يستقرضهم لدية مسلِمَيْن ، قتلهما عمرو ابن أمية الضمري خطأ يظنُّهما مشركَيْن ، فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، إجلس حتى نطعمك ونعطيك ما سألت ، فأجلسوهُ في صفة وهمُّوا بقتله ، وعمد « عمرو بن جحاش » إلى رحى عظيمة يطرحها عليه ، فأمسك الله تعالى يده ونزل جبريل فأخبره فخرج النبي عليه السلام ﴿ وَاتَّقُوْا اللهَ ﴾ اي اتقوه في رعاية حقوق نعمته ، فلا تُخِلُّوا بشكرها ﴿ وَعَلَى اللهِ ﴾ أي عليه تعالى خاصة دون غيره ﴿ فَلْيَتوكَّلْ المُؤْمِنُونَ ﴾ فإنه يكفيهم في إيصال كل خير ودفع كل شر ، واعلم أن التوكل عبارة عن الاعتصام بالله تعالى ، في جميع الأمور ، ومحلُه القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي توكل القلب ، بعدما تحقق للعبد أن التقدير من قبل الله ، فإن تعسر شيء فبتقديره ، وأعلى مراتب التوكل أن يكون بين يديْ الله تعالى ، كالميت بين يدي الغاسل ، تحركه القدرة الأزلية وهو الذي قوي يقينه ، ألا ترى إلى إبراهيم عليه السلام ، لما همَّ نمرود وقومه أن يبسطوا إليه أيديهم فرموه في النار ، جاءه جبريل وهو في الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، ثم قال : « حسبي الله ونعم الوكيل » وانظر إلى حقيقة توكل النبي عليه السلام ، حيث كفَّ الله عنه وعن أصحابه أيدي المشركين رأساً ، فلم يقدروا أن يتعرضوا له * ثم اعلم أن كل شيء بقضاء الله تعالى ، وأن الله يختبر عباده بما أراد ، فعليهم أن يعتمدوا عليه في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعن أبي عثمان قال : كان عيسى عليه السلام يصلي على رأس جبل ، فأتاه إبليس فقال : أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء ؟ قال : نعم ، قال ألق نفسك من الجبل ، وقلْ قدَّر اللهُ عليَّ؟ قال يالعين الله يختبرُ العبادَ ، وليس العبادُ يختبرون الله »!! وما على العبد إلا التوكل والشكر على الإنعام ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بني إسرَائيلَ ﴾ أي بالله لقد أخذ الله عهد طائفة اليهود ﴿ وَبَعَثْنَا منهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً ﴾ أي كفيلاً يكفل عليهم بالوفاء بما أُمروا به ، والنقيبُ والعريف نظيران ﴿ وَقَالَ اللهُ ﴾ أي لبني اسرائيل ﴿ إنّي مَعَكُمْ ﴾ أي بالعلم والنصرة أسمع كلامكم ، وأرى أعمالكم فأجازيكم بذلك ، وتم الكلام هنا ، ثم ابتدأ مخاطباً لبني اسرائيل أيضاً ﴿ لَئِنْ أَقَمتُمُ الصَّلَوةَ وآتيْتُم الزَّكَاةَ وآمنتُمْ برُسُلي ﴾ أي بجميعهم ، واللام موطِّئَةٌ للقَسَم المحذوف ﴿ وَعَزَّرتمُوهُمْ ﴾ أي نصرتموهم وقويتموهم

(١) المراد بالشيخين : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وهذه القصة ذكرها المفسرون ، الطبري ، والقرطبي ، والألوسي ، وصاحب البحر المحيط وغيرهم ،

﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ ﴾ بالإنفاق في سبيل الخير ، أو بالتصديق بالصدقات المندوبة ﴿ قَرْضاً حَسَناً ﴾ وهو أن يكون من حلال المال ، برغبة وإخلاص لا يشوبها رياء ولا سمعة ، ولا يكدرها مَنٌّ ولا أذى ﴿ لأُكَفِّرَنَّ عنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ جواب للقسم المدلول عليه باللام ﴿ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ أي بساتين ﴿ تَجْرِي منْ تحتِهَا ﴾ أي من تحت أشجارها ومساكنها ﴿ الأَنْهَارُ ﴾ الأربعة ﴿ فَمَنْ كَفَرَ ﴾ أي برسلي ﴿ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ ﴾ أي بعد ذلك الشرط المؤكد ، المعلّق به الوعد العظيم ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبيلِ ﴾ أي وسط الطريق الواضح ، ضلّ ضلالاً بيناً ، وأخطأ خطأ فاحشاً ، لا عذر معه أصلاً ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ أي فبسبب نقض اليهود عهدهم ، وهو أنهم كذبوا الرسل ، وقتلوا الأنبياء ، ونبذوا الكتاب ، وما مزيدة لتأكيد الكلام وتمكينه في النفس ﴿ لَعَنَّاهُمْ ﴾ أي طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ أي غليظة شديدة ، بحيث لا تتأثر من الآيات والنذر ﴿ يُحَرِّفُوْنَ الكَلِمَ عنْ مَواضِعِهِ ﴾ استئناف لبيان قسوة قلوبهم فإنه لا قسوة أشد من تغيير كلام الله والافتراء عليه ، والمراد بالتحريف إمّا تبديلهم نعت النبي ﷺ وإمّا تبديلهم بسوء التأويل وقد سبق في سورة البقرة ﴿ وَنَسُوْا حَظّاً ﴾ أي وتركوا نصيباً وافراً ﴿ مِمَّا ذُكِّرُوْا بِهِ ﴾ من التوراة والمعنى أنهم حرفوا التوراة وتركوا حظهم مما أنزل عليهم فلم ينالوه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قد ينسى المرء بعضَ العلم بالمعصية ، وتلاهذه الآية ﴿ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ﴾ أي خيانة وغدراً ، والمعنى أن الغدر والخيانة عادة مستمرة لهم ولأسلافهم ، بحيث لا يكادون يتركونها أو يكتمونها ، فلا تزال ترى ذلك منهم ﴿ إلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾ لم يخونوا وهم الذين آمنوا منهم كعبد الله بن سلام وأضرابه ﴿ فاعْفُ عنْهُمْ واصْفَحْ ﴾ أي أعرضْ عنهم ولا تتعرض لهم بالمعاقبة والمؤاخذة إن تابوا وآمنوا ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ تعليل للأمر بالصفح ، وحث على الامتثال ، وتنبيه على أن العفو عن الكافر الخائن ، إحسان فضلاً عن العفو عن غيره ﴿ وَمِنَ الذينَ قَالوا إنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ أي وأخذنا من النصارى ميثاقهم كما أخذنا ممن قبلهم من اليهود ، وإنما قال ﴿ قَالُوا إنّا نَصَارىٰ ﴾ ولم يقل ومن النصارى ، تنبيهاً على أنهم نصارى بتسميتهم أنفسهم بهذا الاسم ، ادعاء لنصرة الله ، وليسوا موصوفين بأنهم نصارى بتوصيف الله إياهم بذلك ، ومعنى أخذ الميثاق هو ما أخذ الله عليهم في الإنجيل ، من العهد المؤكد باتباع محمد ﷺ وبيان صفته ونعته ﴿ فَنَسُوا حَظّاً ﴾ أي تركوا نصيباً وافراً ﴿ مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ من الإيمان وما يتفرع عليه من أفعال الخير ﴿ فَأَغْرَيْنَا ﴾ أي ألزمنا وألصقنا ﴿ بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ ﴾ وهي تباعد القلوب والنيات ﴿ والبَغْضَاءَ ﴾ أي البغض ﴿ إلى يومِ القِيَمَةِ ﴾ أي يتعادون ويتباغضون إلى يوم القيامة ﴿ وسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ ﴾ أي يخبرهم في الآخرة ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ وعيد شديد بالجزاء والعذاب ، كقول الرجل لمن يتوعده : سأخبرك بما فعلت ، أي يجازيهم

بما عملوا على الاستمرار ، من نقض الميثاق ، و « سَوْفَ » لتأكيد الوعيد ، وبقيت العداوة بينهم إلى يوم القيامة، وهم ثلاث فرق : منهم النسطورية قالوا المسيح ابن الله ، والثانية الملكانية قالوا إن الله تعالى ثالث ثلاثة المسيح ، وأمُّه ، والله ، والفرقة الثالثة اليعقوبية قالوا إن الله هو المسيح .

﴿ **يَا أَهْلَ الكِتَابِ** ﴾ يعني اليهود والنصارى ، والكتابُ جنس شاملٌ للتوراة والإنجيل ﴿ **قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا** ﴾ الإضافة للتشريف والإيذان بوجوب اتباعه ﴿ **يُبَيِّنُ لكُمْ** ﴾ أي حال كونه مبيناً لكم على التدريج حسبما تقتضيه المصلحة ﴿ **كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ** ﴾ أي كثيراً كائناً من الذي كنتم تخفونه من الكتاب أي التوراة والإنجيل الذي أنتم أهله والمتمسكون به كنعت محمد عليه السلام وآية الرجم في التوراة وبشارة عيسى بأحمد عليهما السلام في الإنجيل ﴿ **وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ** ﴾ مما تخفونه أي لا يظهره ولا يخبر به صيانة لكم عن زيادة الافتضاح ﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ من اللهِ نورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ** ﴾ المراد بالنور والكتاب هو « القرآن » لما فيه من كشف ظلمات الشرك والشك ، وإبانة ما خفي على الناس من الحق ، أو الإعجاز الواضح ، وقيل : المراد بالنور الرسول ﷺ ، وبالكتاب القرآن ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللهُ** ﴾ وحَّد الضمير لأن المقصود منهما دعوة الخلق إلى الحق ، وأحدهما رسول إلهي ، والآخر معجزته وبيان ما يدعو إليه من الحق ﴿ **مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ** ﴾ أي رضاه بالإيمان به ﴿ **سُبُلَ السَّلاَمِ** ﴾ أي طرق السلامة من العذاب ، والنجاة من العقاب ﴿ **وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ** ﴾ أي ظلمات الكفر والضلال ﴿ **إلى النُّورِ** ﴾ إلى الإيمان ، وسمي الإيمان نوراً لأن الإنسان إذا آمن ، أبصر به طريق نجاته فطلبه ، وطريق هلاكه فحذره ﴿ **بِإِذْنِهِ** ﴾ أي بتيسيره وإرادته ﴿**وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ أي طريق هو أقرب الطرق إلى الله تعالى .

﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الذِّينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المسيحُ ابنُ مَرْيَمَ** ﴾ نزلت في نصارى نجران ،. وهم اليعقوبية القائلون بأنه تعالى قد يحل في بدن إنسان معين أو في روحه ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد تبكيتاً لهم ، إن كان الأمر كما تزعمون ﴿ **فَمَنْ** ﴾ استفهامية إنكارية ﴿ **يَمْلِكُ** ﴾ أي يمنع ﴿ **مِنَ اللهِ** ﴾ أي من قدرته وإرادته ﴿ **شَيْئَاً** ﴾ وحقيقته فمن يستطيع أن يمسك شيئاً منها ؟ ﴿ **إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ومَنْ في الأَرْضِ جَمِيعَاً** ﴾ احتج بذلك على فساد قولهم ، وتقريره أن المسيح مخلوق مقهور ، قابل للفناء كسائر الممكنات ، ومن كان كذلك فهو بمعزل عن الألوهية ، وكيف يكون إلهاً من لايقدر على دفع الهلاك عن نفسه ولا عن غيره ؟ والمراد بالإهلاك الإماتة والإعدام مطلقاً ﴿ **وَللهِ مُلْكُ السَّمواتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ أي ما بين قطريْ العالم فيتناول ما في السموات من الملائكة ، وما في أعماق الأرض والبحار من المخلوقات ، فله تعالى وحده ، ملك جميع الموجودات ، والتصرف المطلق فيها ،

إيجاداً وإعداماً وإحياء وإماتةً ، لا لأحدٍ سواه ، فهو تحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى ﴿ **يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ** ﴾ أي يخلق ما يشاء من أنواع الخلق ، فتارة يخلق من غير أصل ، كخلق السموات والأرض ، وأخرى من أصل كخلق كثير من الحيوانات والبشر ، يخلقه من ذكر وحده كخلق حواء ، أو أنثى وحدها كخلق عيسى ، أو منهما كخلق سائر الناس ﴿ **وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ** ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله أي لا يعجزه شيء ، عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)[1] وعن الحارث الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله تعالى أوحى إلى يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات ، أن يعمل بهن ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فكأنه أبطأ بهن فأتاه عيسى فقال : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهنَّ ، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تخبرهم وإما أن أخبرهم ؟ فقال : يا أخي لا تفعل ، فإني أخاف إن سبقتني بهنَّ أن يُخْسف بي أو أعذب ، قال : فجمع بني إسرائيل في بيت المقدس ، حتى امتلأ المسجد وقعدوا على الشرفات ، ثم خطبهم فقال : إن الله أوحى إليَّ بخمس كلمات ، أن أعمل بهن وآمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن : **أولاهن** أن لا تشركوا بالله شيأ ، فإنَّ مَثَل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله ، بذهب أو وَرِق - أي فضة - ثم أسكنه داراً فقال : اعملْ وارفع إليَّ ، فجعل يعمل ويرفع إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ فإن الله خلقكم ورزقكم فلا تشركوا به شيأ ، ٢ - وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا ، فإن الله يُقبل بوجهه إلى وجه عبده ما لم يلتفت ، ٣ - وآمركم بالصيام ومَثَلُ ذلك ، كمثل رجلٍ في عصابة معه صرة من مسك ، كلهم يحب أن يجد ريحها ، وإن الصيام عند الله أطيب من ريح المسك ، ٤ - وآمركم بالصدقة ومثل ذلك ، كمثل رجل أَسَرَه العدوُّ فأوثقوا يده إلى عنقه ، وقرَّبوه ليضربوا عنقه فجعل يقول : هل لكم أن أفدي نفسي منكم ؟ فجعل يعطي القليل والكثير حتى فدى نفسه ، ٥ - وآمركم بذكر الله كثيراً ، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره ، حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه ، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان الذي هو أكبر الأعداء إلا بذكر الله)[2] .

﴿ **وَقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُهُ** ﴾ أي قالت اليهود والنصارى عند المفاخرة نحن من الله بمنزلة الأبناء للآباء ، وحبنا إياه كحب الوالد لولده ، والوالد إذا سخط على ولده

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم والترمذي ، وفي رواية لمسلم « أدخله الله من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء » وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٩ / ٣٥٥ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ٣٢٥ .

في وقت يرضى عنه في وقت آخر ، فقد كانوا يدَّعون أن لهم فضلاً ومزية عند الله على سائر الخلق فردَّ سبحانه عليهم ذلك ﴿ قُلْ ﴾ إلزاماً لهم وتبكيتاً ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ أي إن صح ما زعمتم ، فلأيّ شيء يعذبكم ؟ وقد اعترفتم بأنه سيعذبكم في الآخرة أياماً معدودة ؟ ولو كان الأمر كما زعمتم لما وقع عليكم ما وقع ﴿ بَلْ ﴾ أي لستم كذلك ﴿ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ أي جنس ما خلق الله تعالى ، من غير مزية لكم عليهم ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ من أولئكم المخلوقين ، وهم الذين آمنوا بالله تعالى وبرسله ﴿ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أن يعذبه منهم وهم الذين كفروا به تعالى وبرسله ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الموجودات لا ينتمي إليه تعالى شيء منها إلا بالمملوكية والعبودية ، فأنَّى لهم ادعاء ما زعموا ؟ ﴿ وَإِلَيهِ المَصِيرُ ﴾ في الآخرة خاصة فيجازي كلاً من المحسن والمسيء ، وليست المحبة بالدعوى بل لها علامات ، ولله درُّ من قال :

تعصي الإلَـــه وأنتَ تُظهرُ حبَّـــه * هــذا لعمري في الفعــال شَــنِيـعُ
لَــو كانَ حبُّــك صــادقــاً لأطعتــه * إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيـــــــعُ

والله تعالى لا يحب من خالف شيأ من شريعة النبي عليه السلام ، وإنما يحب من أطاع أمره ، ولا فرق بين الناس من حيث الصورة البشرية ، وإنما تفاوتهم من حيث العلم والعمل ، وإنما يظهر التفاوت في الآخرة ، لأنها دار الجزاء ، فطوبى لعبد تفكر في حاله ومصيره ، فرغب في الزهد والطاعة قبل مضي الوقت ﴿ يا أَهْلَ الكتابِ قدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾ حال كونه ﴿ يُبيِّنُ لكُمْ ﴾ الشرائع والأحكام ﴿ عَلَى فَتْرةٍ منَ الرُّسُلِ ﴾ أي جاءكم على حين فتور من الإرسال ، وانقطاع من الوحي ، وسميت المدة بين الأنبياء فترة ، لفتور الدواعي في العمل بتلك الشرائع ، ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم بُعث بعد انقطاع الرسل ، لأن الرسل كانت متواترة بعضها في إثر بعض ، إلى وقت رفع عيسى عليه السلام ﴿ أَنْ تَقُوْلُواْ ﴾ أي كراهة أن تقولوا معتذرين عن تفريطكم في مراعاة أحكام الدين ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بشيرٍ ﴾ يبشرنا بالجنة ﴿ ولا نَذِيرٍ ﴾ يخوفنا بالنار ، وقد انطمست آثار الشرائع السابقة ، وانقطعت أخبارها ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ ونَذِيرٌ ﴾ متعلق بمحذوف أي لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم بشيرٌ أيُّ بشير ، ونذيرٌ أيُّ نذير ، وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم السراجَ المنير حين انطمست آثار الوحي ، وكانوا أحوج ما يكونون إليه ﴿ واللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على الإرسال كما أرسل محمداً ﷺ فقد بعثه إليهم عند كمال حاجتهم إليه ، بسبب مضي دهر طويل بعد انقطاع الوحي ، ليعدُّوا ذلك أعظم نعمة من الله ، وفتح باب الرحمة لتلزمهم الحجة ، فلا يتعللوا غداً بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم من غفلتهم ، واتفق العلماء على أنه ﷺ ولد بمكة عام الفيل ، في عاشر شهر ربيع الأول في ليلة يوم الاثنين منه ، فلما تشرف

العالم بوجوده الشريف ، وعنصره اللطيف ، أضاءت قلوب الخلق ، واستنارت ، فهداهم الله به عليه السلام ، فأبصر من أبصر ، وعمي من عمي ، وبقي في الكفر والضلال ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ** ﴾ أي اذكر يا محمد لأهل الكتاب ، ما حدث وقت قول موسى لبني إسرائيل ناصحاً لهم ﴿ **يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عليكُمْ** ﴾ أي إنعامه عليكم ﴿ **إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ** ﴾ في وقت جعله فيما بينكم من أقربائكم أنبياء ، فأرشدكم وشرَّفكم بهم ، ولم يبعث في أمة من الأمم ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء ، وكثرة الأشراف شرفٌ وفضل لهم ، وذلك كُله من شرف النبوة ﴿ **وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً** ﴾ أي جعل فيكم ملوكاً كثيرة ، فإنه قد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء ، وقال السدي : وجعلكم أحراراً تملكون أنفسكم بعدما كنتم في أيدي القبط ، في مملكة فرعون عبيداً قال ابن عباس : يعني أصحاب خدم وحشم ، وكانوا أول من ملك الخدم ، ولم يكن لمن قبلهم خدم ، وقال بعضهم : من له امرأة يأوي إليها ، ومسكن يسكنه ، وخادم يخدمه فهو من الملوك ﴿ **وَآتيكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العَالمِينَ** ﴾ من إغراق العدو ، وتظليل الغمام ، وإنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك مما آتاهم الله من الأمور العظام ، والمراد بالعالمين الأمم الخالية إلى زمانهم ﴿ **يا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المقدَّسَةَ** ﴾ هي أرض بيتِ المقدس جعلت قرار الأنبياء ومسكن المؤمنين ﴿ **التي كَتَبَ اللهُ لكُمْ** ﴾ أي كتب في اللوح المحفوظ أنها تكون مسكناً لكم إن آمنتم وأطعتم ﴿ **ولا تَرْتَدُّوا** ﴾ لا ترجعوا ﴿ **عَلىٰ أَدْبارِكُمْ** ﴾ أي مدبرين خوفاً من الجبابرة ﴿ **فَتَنْقَلِبوا** ﴾ فتنصرفوا حال كونكم ﴿ **خَاسِرِينَ** ﴾ أي مغبونين بفوات ثواب الدارين ﴿ **قَالُوا يا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ** ﴾ أي متغلبين لا تتأتى مقاومتهم ، والجبَّارُ : العالي الذي يجبر الناس ويكرههم ، وذلك أن النقباء خرجوا لتجسس الأخبار وانتهوا إلى مدينة الجبارين ، فلما رجعوا إلى موسى وأخبروه بما عاينوا من قوتهم وشوكتهم وطول أجسامهم ، قال لهم موسى : اكتموا شأنهم ، ولا تخبروا به أحداً من أهل المعسكر فيفشلوا ، فأخبر كل واحد منهم قريبه وابن عمه ، إلاّ رجلين وفيا بما قال لهما موسى ، أحدهما « يوشع بن نون » والآخر « كالب بن يوفنا » فشاع الخبر بين بني إسرائيل ، فلذا قالوا إن فيها قوماً جبارين ﴿ **وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حتّى يَخْرُجُوا مِنْها** ﴾ من غير صنع من قِبَلنا ، فإنه لا طاقة لنا بإخراجهم منها ﴿ **فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فإِنَّا داخِلونَ** ﴾ حينئذ ﴿ **قَالَ رَجُلانِ** ﴾ وهما كالب ويوشع ﴿ **مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ** ﴾ الله تعالى دون العدو ، ويتقونه في مخالفة أمره ونهيه ﴿ **أَنْعَمَ اللهُ عليهما** ﴾ بالتثبيت والثقة بوعده .

﴿ **ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البابَ** ﴾ أي باب الجبارين وهو « أريحا » أي باغتوهم وامنعوهم من البروز إلى الصحراء ، لئلا يجدوا للحرب مجالاً ﴿ **فإِذا دَخَلْتُمُوهُ** ﴾ أي باب بلدهم وهم فيه ﴿ **فَإِنَّكُمْ غَالِبُوْنَ** ﴾ من غير حاجة إلى القتال ، فإنا قد رأيناهم وشاهدناهم أن قلوبهم ضعيفة وإن كانت أجسادهم عظيمة ، فلا

تخشوهم واهجموا عليهم في المضايق ، فإنهم لا يقدرون فيها على الكرّ والفرّ ﴿ وَعَلَى اللهِ ﴾ خاصة ﴿ فَتَوَكَّلُوا ﴾ بعد ترتيب الأسباب ، ولا تعتمدوا عليها فإنها بمعزل من التأثير ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ به تعالى مصدقين لوعده فإن ذلك مما يوجب التوكل عليه حتماً ﴿ قَالُوا ﴾ غيرمبالين بقول ذينك الرجلين مصرين على القول الأول ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا ﴾ أي أرض الجبابرة ﴿ أَبَداً ﴾ أي دهراً طويلاً ﴿ مَا دَامُوا فِيهَا ﴾ أي في أرضهم ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا ﴾ أي فقاتلاهم ، وإنما قالوا ذلك استهانة واستهزاء ، لا أنهم قصدوا ذهابهما حقيقة ﴿ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ أرادوا بذلك عدم التقدم[1] ﴿ قَالَ ﴾ موسى عليه السلام لما رأى منهم ما رأى من العناد على طريقة البث والحزن والشكوى ﴿ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾ أي إلا طاعة نفسي وأخي ﴿ فَافْرُقْ بَيْنَنَا ﴾ يريد نفسه وأخاه ﴿ وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ الخارجين عن طاعتك ، المصرين على عصيانك ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ فَإِنَّهَا ﴾ أي الأرض المقدسة ﴿ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لا يدخلونها ولا يملكونها ، لأن كتابتها لهم كانت مشروطة بالإيمان والجهاد ، وحيثُ نكصوا على أدبارهم حرموا ذلك ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ طيلة هذه المدة لا مؤبداً ، فالمراد بتحريمها عليهم أنه لا يدخلها أحد منهم في هذه المدة ﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يتحيرون في البرية استئناف لبيان كيفية حرمانهم ﴿ فَلَا تَأْسَ ﴾ فلا تحزن ، والأسى : الحزنُ ﴿ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ روي أنه عليه السلام ندم على دعائه عليهم ، فقيل : لا تندم ولا تحزن عليهم ، فإنهم أحقاء بذلك لفسقهم ، فلبثوا أربعين سنة وهم ستمائة ألف مقاتل ، وكانوا يسيرون كل يوم جادين ، فإذا أمسوا كانوا في الموضع الذي ارتحلوا منه ، وكان الغمام يظللهم من حر الشمس ، ويطلع عليهم بالليل عمود من نور يضيء لهم ، وينزل عليهم المنّ والسلوى ، ومَاؤُهم من الحجر الذي يحملونه ، وهذه الإنعامات عليهم مع أنهم معاقبون ، لما أن عقابهم كان بطريق التأديب ، وأصح الأقاويل أن موسى وهارون كانا معهم في التيه ، ولكن كان ذلك لهما روحاً وسلامة ، كالنار لإبراهيم ، وملائكة العذاب حين نزلت لإهلاك قوم لوط .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على أهل الكتاب ﴿ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ ﴾ أي خبر ابني أبي البشر وهما « قابيل وهابيل » ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي تلاوة ملتبسة بالحق والصحة ، ذكر العلماء أن حواء كانت تلد في كل بطن ولدين ذكراً وأنثى ، فولدت أول بطن قابيل وأخته إقليماً ، ثم ولدت في البطن الثانية هابيل وأخته ليوذا وكانت توأمةً قابيل أجمل ، فحسده عليها أخوه وسخط ، فقال لهما آدم : قرّبا قرباناً ، فمن أيكما قبل تزوجها

(١) أين هذا الموقف المتخاذل من موقف أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ؟! فقد قالوا له حين دعاهم للخروج إلى بدر ، واستشارهم في الأمر : لو خضتَ بنا البحر لخضناه معك ، ما تخلّف منا واحدٌ عنك ، إنا لَصُبّرٌ عند اللقاء ، صُدُقٌ عند الحرب ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لنبيّهم « اذهبْ أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، ولعلّ الله يريك منا ما تقرُّ به عينُك يارسول الله .. ! إلخ .

ففعلا ، فنزلت نار على قربان « هابيل » فأكلته ، ولم تتعرض لقربان « قابيل » فازداد قابيل حسداً وسخطاً ، وفعل ما فعل ﴿ **إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً** ﴾ القربان : اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبيحة أو صدقة ، والمعنى إذ قرب كل منهما قرباناً ﴿ **فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما** ﴾هو هابيل وكان صاحب ضرع ، وقرب كبشاً ولبناً فنزلت نار من السماء بيضاء لا دخان لها فأكلته ، وكانت القرابين إذا كانت مقبولة نزلت من السماء نار فأكلتها ، وإن لم تكن مقبولة لم تنزل النار ، وأكلتها الطير والسباع ، ﴿ **ولم يُتَقبَّلْ مِنَ الآخَرِ** ﴾ وهو قابيل كان صاحب زرع ، وقرب أردأ ما عنده من القمح ، ولم تتعرض له النار أصلاً ، لأنه سخط حكم الله ، ولم يخلص النية في قربانه ، وقصد إلى أخس ما عنده ، وغضب قابيل لرد قربانه وكان يضمر الحسد في نفسه ﴿ **قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ** ﴾ أي والله لأقتلنك قال ولم ؟ قال : لأن الله قبل قربانك وردَّ قرباني ، ﴿ **قَالَ إِنَّما يتَقَبَّلُ اللهُ** ﴾ أي القربان ﴿ **مِنَ المتَّقِينَ** ﴾ لا من غيرهم ، وإنما أُتيتَ من قِبَل نفسك لا من قبلي ، فلم تقتلني ؟ ﴿ **لَئِنْ بَسَطْتَ إِليَّ يَدَكَ لِتقْتُلَني ما أنا بباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ** ﴾ أي والله لئن مددت إليَّ يدك ، وباشرتَ قتلي ، وتحقَّق ذلك منك ، ما أنا بفاعل مثله لك في وقت من الأوقات ، ثم علل ذلك بقوله ﴿ **إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ العالَمِينَ** ﴾ قيل كان « هابيل » أقوى ، ولكن تحرّج عن قتله ، واستسلم له ، خوفاً من الله تعالى ﴿ **إِنِّيَ أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ** ﴾ والمعنى إني أريد باستسلامي لك ، وامتناعي عن التعرض لك ، أن ترجع بإثمي لو بسطت يدي إليك لأدافع عن نفسي ، وبإثمك ببسط يدك إليَّ ﴿ **فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ** ﴾ في الآخرة ﴿ **وَذَلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي عقوبة من لم يرض بحكم الله تعالى ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نفْسُه قَتْلَ أَخِيه** ﴾ أي سهَّلت له نفسه وصورت له أن قتل أخيه سهل عليه ، لا ضيق فيه ولا حرج ، فإن قتل النفس بغير حق ـ لا سيما قتل الأخ ـ إذا تصوره الإنسان ، يجده شيأ عاصياً نافراً كل النفرة عن دائرة الشرع والعقل ، فكأن النفس صيرته كالمطيع لها ، بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليها ﴿ **فَقَتَلَهُ** ﴾ قيل : لم يدر قابيل كيف يقتل هابيل ، فتمثل إبليس وأخذ طائراً ووضع رأسه على الحجر ، ثم شدخها بحجر آخر ، وقابيل ينظر فتعلم منه ، أو اغتاله وهو نائم وغنمه ترعى ﴿ **فأَصْبَحَ مِنَ الخاسِرِينَ** ﴾ خسر دينه ودنياه ، قال ابن عباس : خسر دنياه وآخرته ، أما الدنيا فإنه أسخط والديه ، وبقي مذموماً إلى يوم القيامة ، وأما الآخرة فهو العقاب العظيم ﴿ **فَبَعَثَ اللهُ غُراباً** ﴾ أرسله ﴿ **يَبْحَثُ في الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي** ﴾ يستر ﴿ **سَوْأَةَ أَخِيهِ** ﴾ أي جسده الميت ، فإنه مما يستقبح أن يرى ، وقيل عورته لأنه كان قد سلب ثيابه ، روي أنه لما قتله تركه بالعراء أي الأرض الخالية عن الأشجار ، ولم يدر ما يصنع به ، لأنه كان أول ميت على وجه الأرض من بني آدم ، فخاف عليه السباع فحمله في جراب على ظهره ، فبعث الله غرابين فاقتتلا ، فقتَلَ أحدهما الآخر ، فحفر له بمنقاره ورجليه حفرة ، فألقاه فيها وواراه ، وقابيل ينظر إليه ﴿ **قَالَ يا وَيلَتا** ﴾ هي كلمة

جزع وتحسر ، والألف بدل من ياء المتكلم ، والمعنى يا ويلتي احضري فهذا أوانك ﴿ **أَعَجَزْتُ أَنْ أَكونَ** ﴾ أي عن أن أكون ﴿ **مِثْلَ هَذا الغُرابِ فأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخي** ﴾ تعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب ، أي أعجزت عن كوني مشبهاً بالغراب ، فمواريا جُثَّة أخي في التراب ﴿ **فَأَصْبَحَ مِنَ النّادِمينَ** ﴾ أي على قتله ، لما كان من التحير في أمره وحمله على رقبته مدة طويلة وغير ذلك ، فلما كان ندمه لأجل هذه الأسباب ، لا للخوف من الله بسبب ارتكاب المعصية ، لم يكن ندمه توبة ولم ينتفع به ، وهو أول من عصى الله في الأرض من ولد آدم ، وفي الحديث (لا تُقْتَل نفس ظلماً ، إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها ، لأنه أول من سنّ القتل)[1] ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ** ﴾ شروع فيما هو المقصود بتلاوة النبأ أي من أجل كون القتل على سبيل العدوان ، مشتملاً على أنواع المفاسد ، من خسارة جميع الفضائل الدينية والدنيوية ﴿ **كَتَبْنَا عَلَى بني إسْرَائيلَ** ﴾ أي قضينا عليهم في التوراة وبيّنا ﴿ **أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً** ﴾ واحدة من النفوس ﴿ **بِغَيْرِ نَفْسٍ** ﴾ أي بغير قتل نفس يوجب الاقتصاص ﴿ **أَوْ فَسادٍ في الأَرْضِ** ﴾ أي فساد يوجب إهدار دمها ، كالشرك وقطع الطريق ﴿ **فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَميعاً** ﴾ من حيث إنه هتك حرمة الدماء ، وسن القتل ، وجرأ الناس عليه ، وقتلُ الواحد والجميع سواء ، في استجلاب غضب الله والعذاب العظيم ﴿ **وَمَنْ أَحْيَاهَا** ﴾ أي تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل ﴿ **فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَميعاً** ﴾ فكأنما فعل ذلك بالناس جميعاً ، والمقصود من التشبيه المبالغة في تعظيم أمر القتل بغير حق ، ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ** ﴾ أي أهل الكتاب ﴿ **رُسُلُنا بالبيِّناتِ** ﴾ أي لقد جاءتهم رسلنا بالآيات الواضحة بتقرير ما كتبنا عليهم ﴿ **ثُمّ إنّ كثيراً منْهُمْ بعْدَ ذَلكَ** ﴾ أي بعد ما ذكر من الكتب ، وتأكيد الأمر بإرسال الرسل ، وتجديد العهد مرة بعد أخرى ﴿ **في الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** ﴾ في القتل غير مبالين به ﴿ **إنَّما جَزاءُ الَّذينَ يُحَاربونَ اللهَ ورسُوْلَهُ** ﴾ أي يحاربون أولياءهما وهم المسلمون ، جعل محاربتهم محاربة لله ، تعظيماً لهم ، والمرادُ بالمحاربة : قطع الطريق ، وهو إنما يكون من قوم اجتمعوا في الصحراء ، وتعرضوا لدماء المسلمين وأموالهم ﴿ **وَيَسْعَوْنَ في الأرضِ فَسَاداً** ﴾ أي مفسدين ، نزلت في قوم « هلال الأسلمي » وكان وادعه رسول الله ﷺ على أن لا يعينه ولا يعين عليه ، ومن أتاه من المسلمين فهو آمن ، فمرَّ قومٌ من بني كنانة يريدون الإسلام بناسٍ من قوم هلال ـ ولم يكن هلال يومئذ حاضراً ـ فقطعوا عليهم الطريق وقتلوهم ، وأخذوا أموالهم ، ولما كانت المحاربة والفساد على مراتب متفاوتة من القتل بدون أخذ المال ، ومن القتل مع أخذه ، ومن الإخافة بدون قتل ، شرع لكل مرتبة من تلك المراتب عقوبة معينة ، بطريق التوزيع فقال : ﴿ **أَنْ يُقَتَّلُوْا** ﴾ أي حداً من غير صلب ، إن أفردوا القتل ، ولو عفا الأولياء ، لا يلتفت إلى ذلك لأنه حق الشرع ﴿ **أَوْ يُصَلَّبُوا** ﴾ أي يصلبوا مع القتل ،

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه ، وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٥٠٨ .

إن جمعوا بين القتل والأخذ ، بأن يصلبوا أحياء وتبعج بطونهم برمح إلى أن يموتوا ، ولا يصلبوا بعدما قتلوا ، لأن الصلب حياً أبلغ في الردع والزجر لغيره ، على الإقدام على مثل هذه المعصية ﴿ **أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ** ﴾ أي أيديهمُ اليمنى من الرسغ ، وأرجلهم اليسرى من الكعب ، إن اقتصروا على أخذ مال المسلم ، أما قطع أيديهم فلأخذ المال ، وأما قطع أرجلهم فلإخافة الطريق ﴿ **أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ** ﴾ إن لم يفعلوا غير الإخافة والسعي للفساد ، والمراد بالنفي عندنا هو الحبس ، فإنه نفي عن وجه الأرض بدفع شرهم عن أهلها ، ويعزرون أيضاً لمباشرتهم إزالة الأمن ﴿ **ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدنيا** ﴾ أي ذل وفضيحة ﴿ **وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ** ﴾ غير هذا ﴿ **عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ لا يُقادر قدرُه لغاية عظم جنايتهم ، ﴿ **إِلاَّ الذينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوْا عَلَيهِمْ** ﴾ استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله عز وجل كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ **فَاعْلَمُوا أَنّ الله غفورٌ رَحِيمٌ** ﴾ أما ما هو من حقوق الآدميين ، فإنه لا يسقط بهذه التوبة ، فإن قطاع الطريق إن قتلوا إنساناً ، ثم تابوا قبل القدرة عليهم ، يسقط بهذه التوبة وجوب قتلهم حداً ، وكان ولي الدم على حقه في القصاص أوالعفو ، وإن أخذوا مالاً ثم تابوا قبل القدرة عليهم يسقط بهذه التوبة وجوب قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وكان حق صاحب المال باقياً في ماله ، وجب عليهم ردُّه ، وأما إذا تاب بعد القدرة عليه فظاهر الآية أن التوبة لا تنفعه ، ويقام الحد عليه في الدنيا ، كما يضمن حقوق العباد وإن سقط عنه العذاب العظيم في العقبى ، والآية في قطاع الطريق من المسلمين ، لأن توبة المشرك تدرأ عنه العقوبة قبل القدرة وبعدها ، وأما المسلمون المحاربون فمن تاب منهم قبل القدرة عليه أي قبل أن يظفر به الإمام ، سقطت عنه العقوبة التي وجبت حقاً لله ، ولا يسقط ما كان من حقوق العباد ، وقال بعضهم : إذا جاء تائباً قبل القدرة عليه ، لا يكون لأحد تبعة في دم ولا مال ، إلا أن يوجد معه مال بعينه فيرده على صاحبه ، روي عن علي رضي الله عنه أن « الحارث بن بدر » جاءه تائباً بعد ما كان يقطع الطريق ، ويسفك الدماء ، ويأخذ الأموال ، فقبل توبته ولم يجعل عليه تبعة أصلاً ، وأما من تاب بعد القدرة عليه فلا يسقط عنه شيء من الحقوق ، واعلم أن قطع الطريق ، وإخافة المسافرين ، من أقبح السيئات ، كما أن دفع الأذى عن الطريق من أحسن الصالحات ، وفي الحديث (عُرضتْ عليَّ أعمالُ أمتي ، حسنها وسيئها ، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق ، ووجدت في مساوىء أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن)[1] .

﴿ **يا أَيُّها الذِّينَ آمنُوا اتَّقُوا اللهَ** ﴾ أي اخشوا عذابه ، واحذروا معاصيه ﴿ **وابتَغُوا** ﴾ أي اطلبوا لأنفسكم ﴿ **إِليْهِ** ﴾ أي إلى ثوابه والزلفى منه ﴿ **الوَسِيلةَ** ﴾ أي القربة بالأعمال الصالحة قال

(١) الحديث أخرجه مسلم في المساجد برقم / ٥٥٣ / وانظر جامع الأصول لابن الأثير ١ / ٤٢٠ .

عطاء : الوسيلةُ أفضل درجات الجنة ، وفي الحديث (سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها درجة في الجنة لا ينالها إلا عبد واحد وأرجو أن أكون أنا هو)[١] ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ** ﴾ بمحاربة الأعداء الظاهرة والباطنة ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ** ﴾ بالوصول إلى الله والفوز بكرامته ، والإشارة في الآية أن الله تعالى جعل الفلاح الحقيقي في أربعة أشياء : **أحدها** الإيمان وبه يخلص العبد من حجب ظلمة الكفر ، **وثانيها** التقوى وبه يخلص العبد من ظلمة المعاصي ، **وثالثها** ابتغاء الوسيلة وبه يتخلص العبد من ظلمة الدنيا الدنيّة ، **ورابعها** الجهاد في سبيل الله وبه يتخلص العبد من ظلمة الوجود ويظفر بنور الشهود ، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : كنت أنا وصاحب لي قد أوينا إلى مغارة ، لطلب الدخول إلى الله ، وأقمنا فيها ونقول : يُفْتح لنا غداً أو بعد غد ، فدخل علينا يوماً رجل ذو هيبة ، وعلمنا أنّه من أولياء الله ، فقلنا له : كيف حالك ؟ فقال : كيف يكون حال من يقول يفتح لنا غداً أو بعد غد ؟ يا نفسُ لِمَ لا تعبدينَ الله للهِ ؟ فتيقظنا وتبنا إلى الله ، وبعد ذلك فتح علينا ، فلابد من قطع التعلق من كل وجه ، لينكشف حقيقة الحال ، وفي صحبة الأخيار والصلحاء شرف عظيم ، وسعادة عظمى ﴿ **إِنَّ الذينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ** ﴾ أي لكل واحد منهم ﴿ **ما فِي الأَرْضِ** ﴾ أي من أصناف أموالها وذخائرها وسائر منافعها ﴿ **جَميعاً** ﴾ توكيد للموصول ﴿ **وَمِثْلَهُ** ﴾ أي ضعفه ﴿ **مَعَهُ** ﴾ ﴿ **لِيفْتَدُوْا بِهِ مِنْ عَذَابِ يومِ القِيَمةِ** ﴾ أي لو أن ما في الأرض ومثله ثابت لهم ، لجعلوه فديةً لأنفسهم ، من العذاب الواقع يومئذ وافتدوا به ﴿ **مَا تُقُبِّلِ مِنْهُمْ** ﴾ ذلك الفداء ، وهو جواب « لو » والجملةُ تمثيلٌ للزوم العذاب لهم ، واستحالة نجاتهم منه بوجه من الوجوه ، وفي الحديث (يُجاء بالكافر يوم القيامة ، فيقال له : أرأيت لو كان لك ملءُ الأرض ذهباً ، أكنتَ تفتدي به ؟ فيقول : نعم ، فيُقال له : إنك كنتَ سئلت ما هو الأيسر من ذلك ، سُئِلتَ ألاَّ تشرك بي فأبيتَ إلا الشرك)[٢] أي ما هو أسهل من الافتداء المذكور ، وهو ترك الإشراك بالله تعالى ، وإتيان كلمة الشهادة ﴿ **وَلَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ** ﴾ وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم ﴿ **يُرِيدُوْنَ أَنْ يَخْرُجوا منَ النَّار** ﴾ يقصدون ويطلبون المخرج ، فيلفحهم لهب النار ويرفعهم إلى فوق ، فهناك يريدون الخروج ولات حين مناص ، ﴿ **وَمَاهُمْ** ﴾ أي يريدون ذلك والحال أنهم ليسوا ﴿ **بِخارجينَ منها** ﴾ لأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴿ **وَلَهُمْ عَذابٌ مُقيمٌ** ﴾ أي دائم لا ينقطع ، وهو تصريحٌ بعدم تناهي مدته ، بعد بيان شدته ، وفي الحديث (يقال لأهل الجنة : ياأهل الجنة خلودٌ ولا موت ، ولأهل النار : ياأهل النار خلود ولا موت)[٣] أي لكم خلود في النار ، روي أن هذين القولين

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي ، وفي آخره « فمن سأل لي الوسيلة حلَّتْ له الشفاعة » وانظر جامع الأصول ٩ / ٣٨٠ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم وأحمد والنسائي بألفاظ متقاربة ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٠٦ .

(٣) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ، وأوله « يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح .. » الحديث وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٩٢.

يكونان بعد أن يؤتى بالموت في صورة كبش ، فيذبح بين الجنة والنار ، وإنما يُمثَّل الموت بهذا المثال ليشاهدوا بأعينهم ويستقر في أنفسهم أن الموت ارتفع ، فيزداد أهل الجنة فرحاً ، وأهل النار تَرَحاً

قال بعض الصلحاء : رأيت في منامي كأني واقف على قناطر جهنم ، فنظرت إلى هول عظيم ، فجعلت أفكر في نفسي كيف العبور على هذه ؟ فإذا قائل يقول : ياعبد الله ضعْ حملكَ وأعْبُر ، قلتُ ماحملي ؟ قال : دع الدنيا عنك ، وأقبلْ على الله .

وفي الحديث (يُؤتى بأنعم أهل الدنيا ـ أي بأكثرهم نعمة من أهل النار يوم القيامة ـ فيصبغ في النار صبغة ـ يعني يُغمس فيها مرة بإصابة نفحة من النار ـ ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مرَّ بكَ نعيمٌ قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى بأشدّ الناس بؤساً من أهل الجنة ، فيصبغ صبغة من الجنة ، فيقال له : ياابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مرَّ بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله ما مر بي بؤس قط ، ولا رأيت شدةً قط)[1] .

﴿ **والسَّارِقُ والسّارقةُ** ﴾ أي حكم السارق والسارقة ثابت فيما يتلى عليكم ﴿ **فاقْطعُوا أيْدِيَهُما** ﴾ بيان لذلك الحكم المقدر ، والمراد بأيديهما أيمانهما ﴿ **جَزاءً بما كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهَ** ﴾ المعنى فاقطعوهما مكافأة لهما على ما فعلا من فعل السرقة ، وعقوبة رادعة لهما من العود ، والنكال : بمعنى التنكيل ﴿ **واللهُ عَزيزٌ** ﴾ غالبٌ على أمره ، يمضيه كيف يشاء ، من غير ندّ ينازعه ، ولا ضدّ يمانعه ﴿ **حَكيمٌ** ﴾ في شرائعه لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ **فَمنْ تَابَ** ﴾ من السراق إلى الله تعالى ﴿ **مِنْ بَعْدِ ظُلْمِه** ﴾ أي من بعد أن ظلم غيره بأخذ ماله ﴿ **وأصْلَحَ** ﴾ أي أمره بالعزم على أن لا يعود إلى السرقة ﴿ **فإنَّ اللهَ يتوبُ عَلَيْهِ** ﴾ أي يقبل توبته فلا يعذبه في الآخرة ، وأما القطع فلا تسقطه التوبة ، لأن فيه حق المسروق منه ، قال الحدادي : لا تقطع يده إذا ردَّ المال قبل المرافعة إلى الحاكم ، وأما إذا رفع إلى الحاكم ثم تاب فالقطع واجب ، فإذا كانت توبته حقيقية كان ذلك زيادة درجات له ، كما أن الله تعالى ابتلى الصالحين والأنبياء ، بالبلايا والمحن والأمراض ، زيادة لهم في درجاتهم ، وإن لم تكن توبته حقيقة ، كان الحد عقوبة له على ذنبه ﴿ **إنَّ اللهَ غفُورٌ رَحيمٌ** ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة ، ولذلك يقبل التوبة ﴿ **أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ لهُ مُلْكُ السَّموَات والأرض** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد به الجميع أي ألم تعلم أن الله له السلطان القادر ، والاستيلاء الباهر ، المستلزمان للقدرة التامة ، على التصرف الكلي فيهما ، إيجاداً وإعداماً ، وإحياء وإماتة ؟ ﴿ **يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ أن يعذبه ﴿ **وَيغْفِرُ لمن يَشاءُ** ﴾ أن يغفر له ﴿ **والله علَى كُلِّ شيء قديرٌ** ﴾ فيقدر على ما ذكر من التعذيب والمغفرة ، قال ابن الشيخ : إنه

(١) الحديث أخرجه مسلم وأحمد والنسائي وابن ماجه ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٤٠٧ .

تعالى لما أوجب قطع يد السارق ، ثم ذكر أنه يقبل توبته إن تاب ، أردفه ببيان أنه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فيعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، لأنه مالك جميع المحدثات وربهم وإلههم ، والمالك له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء وأراد ، لا كما زعمت المعتزلة يجب عليه فعل ما هو الأصلح لهم . انتهى

ويقطع يمين السارق من مفصل الذراع في الكف ، ويحسم بأن يدخل في الدهن الحار بعد القطع لقطع الدم ، لأنه لو لم يحسم لأفضى إلى التلف ، والحدُّ زاجر لا متلف ، وإن سرق ثانياً بعدما قطعت يده اليمنى ، تقطع رجله اليسرى من المفصل ، وإن سرق ثالثاً لا يقطع بل يحبس حتى يتوب ويظهر عليه سيما الصالحين ، لقول علي رضي الله عنه فيمن سرق ثلاث مرات[1] : أني لأستحيي من الله أن لا أدع له يداً يأكل بها ، ورجلاً يمشي عليها ، وتثبت السرقة بما يثبت به شرب الخمر ، أي بالشهادة أو بالإقرار مرة ، ونصابها رجلان لأن شهادة النساء غير مقبولة في الحدود ، وطلب المسروق منه شرط القطع ، لأن الجناية على ملك الغير لا تظهر إلا بخصومته ، ولا فرق في القطع بين الشريف والوضيع ، سرقت امرأة مخزومية فأراد النبي ﷺ أن يقطع يدها فاستشفع لها أسامة بن زيد وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحبه فلم يقبل له وقال (ياأسامة أتشفع في حد من حدود الله ؟ إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها)[2] وفي الحديث نهي عن الشفاعة في الحدود بعد بلوغ الإمام ، ولهذا ردَّ رسول الله ﷺ شفاعة أسامة ، وأما قبله فالشفاعة من المجني عليه جائزة ، والستر على الذنب مندوب ، إذا لم يكن صاحب شر وأذى .

وفي الحديث أيضاً دلالة على وجوب العدل في الرعية ، وإجراء الحكم على السوية ، فإن قيل : ما الحكمة في قطع يد قيمتها ألوف بسرقة عشرة دراهم ؟ فكيف يكون قطعها جزاءً لفعل السارق ؟ وقد قال تعالى (**وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجزى إلاَّ مِثْلَهَا**) قلنا : جزاء الدنيا محنة يمتحن بها المرء ، ولله تعالى أن يمتحن بما شاء ، ولأنَّ القطع ليس بجزاء ما أخذ من المال ، ولكن لما هتك من الحرمة ، ألا يرى أنه قال (**جزاءً بما كَسَبا**) فيجوز أن يبلغ جزاء هتك تلك الحرمة قطع اليد ، ولردع النَّاس عن العدوان ، فإن قطع يد واحدة كفيلٌ بتأمين الناس على أموالهم ، وإذا كان الأمرُ كذلكَ فالحق التسليم والانقياد .

---

(١) هذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله ، لأنه لو قطع في المرة الثالثة ، لأصبح كَلاًّ على الناس ، يحتاج إلى من يُطعمه ، ويسقيه ، ويوضّئه ، وقال الشافعي رحمه الله ؛ لو سرق في المرة الثالثة قُطعت يده اليسرى ، وفي الرابعة رجله اليمنى ، ولكلٍّ حجته ودليله .

(٢) الحديث أخرجه البخاري وأبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٧٨ .

ثم أن الله تعالى إنما بدأ بالسارق في هذه الآية قبل السارقة ، وفي آية الزنى بدأ بالزانية ، لأن السرقة تفعل بالقوة ، والرجلُ أقوى من المرأة ، والزنى يفعل بالشهوة ، والمرأة أكثر شهوة ، والمرأة أدعى من الرجل إلى نفسها منه إليها ، ولهذ لو اجتمع جماعة على امرأة لم يقدروا عليها إلا بمرادها ، وإنما قطعت يد السارق لأنها باشرت ، ولم يقطع ذكر الزاني للمباشرة خوفاً لقطع النسل ، وتحصل أيضاً لذة الزنى بجميع البدن ﴿ **يـاأيُّهـا الرَّسُوْلُ** ﴾ خاطبه صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة للتشريف ﴿ **لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ** ﴾ أي صنع الذين ، فإن الذوات لا توجب الحزن والفرح ﴿ **يُسَارِعُوْنَ فِي الكُفْرِ** ﴾ أي يقعون في الكفر سريعاً في إظهاره إذا وجدوا منه فرصة ، والمقصود نهيه عليه السلام عن أن يتحزن بصنيعهم ، بناء على أنه تعالى ناصره عليهم ، والمعنى لا تحزنْ ولا تبال بتهافتهم في الكفر سريعاً ﴿ **مِنَ الَّذِينَ قَالُوْا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ** ﴾ الفائدة في بيان تعلقه بالأفواه ، مع أن القول لا يكون إلا بالفم ، الإشارة إلى أن ألسنتهم ليست معبِّرة عما في قلوبهم ، وإنما نطقوا به غير معتقدين له بقلوبهم ﴿ **ولم تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ جملة حالية من ضمير « قالوا » جيء بها للتصريح بما أشار إليه بقوله بأفواههم ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوْا** ﴾ عطف على من الذين قالوا ، وبه يتم بيان المسارعين في الكفر ، بتقسيمهم إلى قسمين ، المنافقين ، واليهود ﴿**سَمَّاعُوْنَ** ﴾ أي المنافقون واليهود سماعون ﴿ **لِلْكَذِبِ** ﴾ المعنى هم مبالغون في سماع الكذب ، وفي قبول ما تفتريه أحبارهم من الكذب على الله سبحانه وتحريف كتابه ﴿ **سَمَّاعُوْنَ لِقَوْمٍ آخرِينَ** ﴾ خبر ثان للمبتدأ والمعنى مبالغون في قبول كلام قول آخرين ﴿ **لَمْ يَأْتُوكَ** ﴾ أي لم يحضروا مجلسك وتجافوا عنك ، تكبراً وإفراطاً في البغضاء ، قيل : هم يهود خيبر ، والسماعون بنو قريظة ﴿ **يُحرّفون الكَلِم منْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ** ﴾ أي يميلونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها ، إما لفظاً بإهماله ، أو تغيير وصفه وإجرائه في غير مورده ﴿ **يَقُولُونَ** ﴾ أي يقولون لأتباعهم السماعين لهم ﴿ **إنْ أُوتِيتُمْ** ﴾ من جهة الرسول ﴿ **هَذا** ﴾ المحرَّف ﴿ **فَخُذُوْهُ** ﴾ واعملوا بموجبه فإنه الحق ﴿ **وَإنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوْا** ﴾ قبوله ، وإياكم من طاعته ، روي أن شريفاً من خيبر زنى بشريفة وكانا محصنين ، وحدُهما الرجم في التوراة ، فكرهوا رجمها لشرفها ، فأرسلوها إلى بني قريظة فقالوا لهم : قد حدث فينا حدث ، فلان وفلانة فَجَرا وقد أُحصِنا ، فنحبُّ أن تسألوا لنا محمداً عن قضائه فيه ، فقالت لهم قريظة : إذاً والله يأمركم بما تكرهون ، ثم انطلق قوم منهم إلى رسول الله ﷺ فقالوا يامحمد : أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أُحصِنا ما حدهما في كتابك ؟ فقال الرجم فأبوا أن يأخذوا به فدعا رسول الله رئيسهم «ابن صوريا » فقال له : (أنشدك بالله الذي لا إله إلا هو ، الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجدون في كتابكم الرجم على من أحصن ؟ قال ابن صوريا : نعم ولولا أنك نشدتني ما اعترفت لك ، ولكننا كنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فكثر الزنى في أشرافنا ، فقلنا : تعالوا نجتمع فلنضع شيئاً

دون الرجم ، يكون على الشريف والوضيع فوضعنا الجلد والتحميم ، فقالت اليهود لابن صوريا ما أسرع ما أخبرته به ؟ فقال لهم إنه قد نشدني بالتوراة ، ولولا خشية التوراة أن تهلكني لما أخبرته ، فأمر بهما النبي صلى الله عليه وسلم فرجما عند باب المسجد وقال : اللهم إني أول من أحيا أمرك إذْ أماتوه)[1] فأنزل الله تعالى الآية ﴿ **وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ** ﴾ ضلالته أو فضيحته كائناً من كان ﴿ **فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ** ﴾ فلن تستطيع له ﴿ **مِنَ اللهِ شَيْئاً** ﴾ في دفعها ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ المنافقون واليهود ﴿ **الَّذين لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ** ﴾ أي من رجس الكفر وخبث الضلالة ، لانهماكهم فيهما وإعراضهم عن تحصيل الهداية ﴿ **لَهُمْ** ﴾ أي للمنافقين واليهود ﴿ **فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ** ﴾ أمَّا المنافقون فخزيهم فضيحتهم وهتك سترهم بظهور نفاقهم فيما بين المسلمين ، وأما خزي اليهود فالذل والجزية والافتضاح بظهور كذبهم في كتمان نص التوراة ﴿ **وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ** ﴾ أي مع الخزي الدنيوي ﴿ **عَذابٌ عَظِيمٌ** ﴾ هو الخلود في النار ﴿ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ** ﴾ أي الحرام كالرُّشَى ، من سَحَته إذا استأصله ، لأنه مسحوتُ البركة ﴿ **فَإِنْ جَاؤُكَ** ﴾ فإن جاؤك متحاكمين إليك فيما شجر بينهم من الخصومات ﴿ **فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ** ﴾ بيان لحال الأمرين إثر التخيير ﴿ **فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً** ﴾ من الضرر بأن يعادوك لإعراضك عنهم ، فإن الله يعصمك من الناس ﴿ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ** ﴾ بالعدل الذي أُمرت به كما حكمت بالرجم ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ العادلين فيحفظهم من كل مكروه ومحذور ، ويعظم شأنهم وفي الحديث (المقسطون عند الله على منابر من نور)[2] ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرِيَةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ** ﴾ تعجب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه ، والحال أن الحكم منصوص عليه في كتابهم الذي يدَّعون الإيمان به ، وتنبيه على أنهم ما قصدوا بالتحكيم معرفة الحق وإقامة الشرع ، وإنما طلبوا به ما هو أهون عليهم ﴿ **ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ** ﴾ أي ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم ، من بعد ما رضوا بحكمك ﴿ **وَمَا أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي بكتابهم لإعراضهم عنه أولاً ، وعن حكمك الموافق لكتابهم ثانياً ، وفي الآيات ذم للظلم ، ومدحٌ للعدل ، وقدح في الحرام والرشوة ، وفي الحديث (كل لحم أنبته السحتُ فالنار أولى به)[3] وفيه (لعن الله الراشي والمرتشي والرائش)[4] وأراد بالرائش الذي يمشي بينهما ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ** ﴾

---

(١) الحديث أخرجه مسلم بنحوه ورواه أيضاً أبو داود من حديث البراء بن عازب ، وانظر تمام القصة في جامع الأصول ٢ / ١١٥ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، والنسائي في القضاء ، وأحمد في المسند ٢ / ١٦٠ وفي رواية « إن المقسطين .. » الحديث .

(٣) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية بلفظ « كلُّ جسدٍ نبت من سُحْت - أي حرام - فالنَّارُ أولى به » وانظر الفتح الكبير ٢ / ٣٢٤ .

(٤) الحديث أخرجه أحمد في المسند عن ثوبان وفيه « والرائش الذي يمشي بينهما » ورواه الترمذي والحاكم بلفظ « لعن الله الراشي والمرتشي في الحكم » .

حال كونها ﴿ **فيهَا هُدَىً** ﴾ تهدي شرائعها وأحكامها إلى الحق ، وترشد الناس إليه ﴿ **وَنُورٌ** ﴾ تكشف ما انبهم من الأحكام المستورة بظلمات الجهل ﴿ **يَحْكُم بِهَا النَّبِيُّونَ** ﴾ أنبياء بني اسرائيل أي يحكمون بأحكامها ويحملون الناس عليها ﴿ **الذينَ أَسْلَمُوا** ﴾ إن قلت : كيف يمدح نبي بأنه رجل مسلم ؟ وما الوصف به بعد الوصف بالنبوة إلا تنزلٌ من الأعلى إلى الأدنى ؟ قلت : قد يذكر الوصف مدحاً للوصف ، كما وصف الأنبياء بالصلاح ، والملائكة بالإيمان ، وقد قيل : أوصاف الأشراف أشراف الأوصاف

ما إن مدحت محمداً بمقالتي * لكنْ مدحتُ مقالتي بمحمد

﴿ **لِلَّذِينَ هَادُوا** ﴾ أي يحكمون فيما بينهم ، واللام لبيان اختصاص الحكم بهم ، أعم من أن يكون لهم أو عليهم ، كأنه قيل لأجل الذين هادوا ﴿ **والرَبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ** ﴾ أي هم أيضاً يحكمون بأحكامها وهم الزهاد والعلماء الذين التزموا طريقة النبيين ، وجانبوا دين اليهود ﴿ **بِما اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ** ﴾ أي بالذي استحفظوه من جهة النبيين وهو التوراة ، حيث سألوهم أن يحفظوها من التضييع والتحريف والباء سببية متعلقة بيحكم أي ويحكم الربانيون والأحبار أيضاً بسبب ما حفظوه من كتاب الله حسبما وصّاهم به أنبياؤهم وسألوهم أن يحفظوه ﴿ **وكَانُوا عليهِ شُهَداءَ** ﴾ أي رقباء لا يتركونهم أن يغيروا فهو من الشهود بمعنى الحضور ﴿ **فَلاَ تَخْشَوْا النَّاسَ** ﴾ كائناً من كان أيها الرؤساء والأحبار ﴿ **واخْشَوْنِ** ﴾ في الإخلال بحقوق مراعاتها ، نُهوا أن يخشوا غير الله في حكوماتهم ، ويداهنوا فيها خشية ظالم ، أو مراقبة كبير ، ودلالة الآية تتناول حكام المسلمين ﴿ **ولا تَشْتَرُوا بآياتي** ﴾ أي لا تستبدلوا بآياتي وتتركوا العمل بها ، وتأخذوا لأنفسكم بدلاً منها ﴿ **ثمناً قليلاً** ﴾ من الرشوة والجاه وسائر الحظوظ الدنيوية ﴿ **ومَنْ لم يَحْكُمْ بِمَا أَنزلَ اللهُ** ﴾ مستهيناً به منكراً له ﴿ **فأولئكَ هُمُ الكَافِرُونَ** ﴾ لاستهانتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره ، ولذلك وصفهم بقوله : « الظالمون ، والفاسقون » فكفرُهم بإنكاره ، وظلمُهم بالحكم على خلافه ، وفسقُهم بالخروج عنه ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمِ** ﴾ أي فرضنا على الذين هادوا ﴿ **فِيها** ﴾ أي في التوراة ﴿ **أَنَّ النَفْسَ بالنَّفْسِ** ﴾ أي تُقاد بها إذا قتلها بغير حق ﴿ **والعَيْنَ** ﴾ تفقأ ﴿ **بالعَيْنِ** ﴾ إذا فقئت بغير حق ﴿ **والأنْفَ** ﴾ تجدم ﴿ **بالأنْفِ** ﴾ المقطوعة بغير حق ﴿ **والأُذُنَ** ﴾ تُقطع ﴿ **بالأُذُنِ** ﴾ المقطوعة ظلماً ﴿ **والسِّنَّ** ﴾ تقلع ﴿ **بالسِنِّ** ﴾ المقلوعة بغير حق ﴿ **والجروحَ قِصاصٌ** ﴾ أي ذات قصاص بحيث تعرف المساواة ، وأما مالا يمكن الاقتصاص منه ، من كسر عظم ، أو جرح لحم كالجائفة ونحوها ، فلا قصاص فيه لأنه لا يمكن الوقوف على نهايته ففيه أرشٌ أو حكومة ﴿ **فَمَنْ تَصَدَّقَ** ﴾ أي من المستحقين ﴿ **بِهِ** ﴾ أي بالقصاص أي فمن عفا عنه فالتعبير بالتصدق للمبالغة في الترغيب فيه ﴿ **فَهُوَ** ﴾ أي التصدق ﴿ **كَفَّارَةٌ لَهُ** ﴾ أي للمتصدق يُكفِّر الله تعالى بها ما سلف من

ذنبه ، وفي الأثر (من أصيب من جسده فتركه لله كان كفارة له) ﴿ وَمنْ لَمْ يحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ ﴾ من الأحكام والشرائع ﴿ فأولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ ﴾ المبالغون في الظلم المتعدون لحدوده تعالى ، الواضعون للشيء في غير موضعه ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثارِهِمْ ﴾ أي آثار النبيين المذكورين ﴿ بِعيسَى ابنِ مريمَ ﴾ أي أرسلناه عقيبهم وجئنا به بعدهم يقال : قفوت أثره أي اتبعته فهو يتعدى الواحد ، وإذا قلت قفيت على أثره بفلان يكون المعنى اتبعته إياه ، وحقيقة التقفية الإتيان بالشيء في قفا غيره أي أتبعنا النبيين الذين ذكرناهم بعيسى ، وجعلناه ممن يقفوهم ﴿ مُصَدِّقاً لما بينَ يَدَيهِ مِنَ التَّورَاةِ وآتَينَاهُ الإنْجِيلَ ﴾ عطف على قفينا ﴿ فيهِ هُدَى وَنُورٌ ﴾ كما في التوراة مشتملاً على هدى ونور ﴿ ومصَدِّقاً لما بينَ يَديهِ من التَّوْرَاةِ ﴾ عطف عليه داخل في حكم الحالية ، وتكرير « ما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاة » زيادة تقرير ﴿ وَهُدَىً ومَوْعِظَةً للمتَّقِينَ ﴾ جعله كله هدى بعدما جعل مشتملاً عليه حيث قيل (فيه هدى) وتخصيص كونه هدى وموعظة للمتقين ، لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه ﴿ وَلْيحكُمْ أهلُ الإنجيلِ بِمَا أنزلَ اللهُ فيهِ ﴾ أي آتيناه الإنجيل وقلنا: ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴿ ومنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنزلَ اللهُ ﴾ منكراً له مستهيناً به ، وفي الآية دلالة على أن عيسى عليه السلام كان مستقلاً بالشرع ، مأموراً بالعمل بما فيه من الأحكام ، وفيه تهديد عظيم للحكام ، وفي الحديث (يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة ، فيَلْقى من شدة العذاب ما يتمنى أنه لم يفصل بين أحد في تمرتين) فإذا كان هذا حال القاضي العدل ، فما ظنك بالجائر والمرتشي ؟ ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ ﴾ الخارجون عن طاعة الله عزَّ وجل .

وفي الحديث (القضاةُ ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، قاض قضى بغير حق وهو يعلم فذاك في النار ، وقاض قضى وهو لا يعلم فأهلك حقوق الناس فذاك في النار ، وقاض قضى بحق فذاك في الجنة)[1] ﴿ وَأَنْزَلْنَا إليْكَ ﴾ يا محمد ﴿ الكِتابَ ﴾ أي القرآن حال كونه ملتبساً ﴿ بالحقِ ﴾ والصدق حال كونه ﴿ مُصَدِّقاً لما بيْنَ يديهِ مِنَ الكِتَابَ ﴾ أي مصدقاً لما تقدمه من جنس الكتب المنزلة ، وموافقاً له في التوحيد وأصول الشرائع ﴿ ومُهَيْمِناً عليهِ ﴾ أي رقيباً على سائر الكتب فإنه يشهد لها ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أي فاحكم بين أهل الكتاب عند تحاكمهم إليك ﴿ بما أنزَلَ اللهُ ﴾ أي بما أنزله إليك فإنه مشتمل على جميع الأحكام الشرعية ﴿ ولا تَتَّبِعْ أهْواءَهُمْ عمَّا جاءَكَ مِنَ الحقِّ ﴾ بالانحراف عنه إلى ما يشتهونه ، ولا تعدل عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا منكمْ شِرْعَةً ومنْهَاجاً ﴾ الخطاب بطريق الالتفات للناس كافة ، أي لكل أمة كائنة منكم أيها الأمم الباقية والخالية ، وضعنا شرعة ومنهاجاً خاصين بتلك الأمة ، فالأمة من مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليهما السلام

(١) رواه أبو داود في الأقضية برقم / ٣٥٧٣ / وهو حديث صحيح ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ١٦٦ .

شرعتهم التوراة ، ومن مبعث عيسى إلى مبعث النبي عليهما السلام شرعتهم الإنجيل ، وأما أنتم أيها المؤمنون فشرعتكم القرآن ، والشرعة والشريعة هي الطريقة ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أمةً واحدةً** ﴾ أي جماعة واحدة متفقة على دين واحد ، في جميع الأعصار ، من غير اختلاف بينكم في شيء من الأحكام الدينية ﴿ **وَلَكِنْ** ﴾ لم يشأ أن يجعلكم أمة واحدة ، بل شاء ما عليه السنة الإلهية الجارية فيما بين الأمم ﴿ **لِيَبْلوكُمْ** ﴾ أي ليعاملكم معاملة من يبتليكم ﴿ **فيما آتيكُمْ** ﴾ من الشرائع المختلفة ، المناسبة لأعصارها وقرونها ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ** ﴾ فسارعوا إلى ما هو خير لكم في الدارين من العقائد الحقة والأعمال الصالحة المندرجة في القرآن الكريم ، وابتدروها انتهازاً للفرصة واحرازاً لمسابقة الفضل ﴿ **إلى اللهِ مَرْجعكُمْ جميعاً** ﴾ أي مرجع من آمن ومن لم يؤمن ﴿ **فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُم فيهِ تَخْتَلِفونَ** ﴾ أي فيفعل بكم من الجزاء الفاصل بين المحق والمبطل ، بما لا يبقى لكم معه شائبة شك ، فيما كنتم تختلفون فيه في الدنيا من أمر الدين والشريعة ، وإنما عبر عن ذلك بما ذكر ، لوقوعه موقع إزالة الاختلاف التي هي من وظيفة الإخبار ﴿ **وَأَنِ احْكُمْ بيْنَهُمْ بما أَنْزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ** ﴾ أي أنزلنا عليك الكتاب والحكم بما فيه ﴿ **واحْذَرْهُمْ** ﴾ مخافة ﴿ **أنْ يفْتِنوكَ عنْ بعْضِ ما أَنْزَلَ اللهُ إليْكَ** ﴾ أي يضلوك ويصرفوك عن بعضه ، فالمراد بالفتنة ههنا الميل عن الحق والوقوع في الباطل ، روي أن أحباراليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد فلعلنا نفتنه عن دينه ، فذهبوا إليه صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم ؟ قد عرفت أنا أحبار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعك اليهود كلهم ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فاقض لنا عليهم ، ونحن نؤمن بك ونصدّقك ، فأبى ذلك رسول الله فنزلت ، واستدل العلماء بهذه الآية على أن الخطأ والنسيان جائز على الرسل لأنه تعالى قال ﴿ **واحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ الله إليْكَ** ﴾ والتعمد في مثل هذا غير جائز على الرسل فلم يَبق إلا الخطأ والنسيان ﴿ **فإنْ تَوَلّوا** ﴾ أي أعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره ﴿ **فاعْلَمْ أنّما يُريدُ اللهُ** ﴾ أي فاعلم أن إعراضهم من أجل أن الله يريد ﴿ **أَنْ يُصيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنوبِهِمْ** ﴾ أي يعجل بهم العقوبة في الدنيا فالمراد ببعض ذنوبهم ذنب توليهم عن حكم الله تعالى ، وإنما عبر عنه بذلك تنبيهاً على أن لهم ذنوباً كثيرة ، هذا ـ مع عِظَمه ـ واحد من جملتها ﴿ **وإنّ كثيراً مِنَ النّاسِ لفَاسِقونَ** ﴾ أي متمردون في الكفر مصرون عليه خارجون عن الحدود المعهودة ﴿ **أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُوْنَ** ﴾ ؟ إنكار وتعجب من حالهم وتوبيخ لهم ، أي أيتولون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية ، وهي الملة الجاهلية التي هي هوى وجهل ﴿ **ومَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً** ﴾ إنكار أيضاً والتقدير ومن حكمه أحسن من حكم الله ؟ ﴿ **لِقَوْمٍ يُوقِنونَ** ﴾ أي عندهم فإنهم الذين يتدبرون الأمور بأنظارهم ، فيعلمون يقيناً أن حكم الله عز وجل أحسن الأحكام وأعدلها ، فقد دلت الآيات على أن الدين واحد من حيث الأصول ، مختلف من جهة

الفروع ، ولله أن يحكم في كل عصر وزمان بما أراد ، ففيه حكم ومصالح فعلينا بالتسليم والانقياد ، وترك الاعتراض والمسارعة إلى الخيرات قبل الموت وفي الحديث (اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل مماتك)[1] .

﴿ **يا أيُّها الذّين آمنوا** ﴾ خطاب يعمُّ حكمه كافة المؤمنين ، وإن كان سبب وروده بعضاً منهم ، إذ روي أن عبادة بن الصامت قال لرسول الله ﷺ : إن لي موالي من اليهود وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم ، وألجأ إلي الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية مواليّ ، وهم يهود بني قينقاع فنزلت ﴿ **لا تَتّخِذوا اليَهودَ والنّصارىٰ أوْلياءَ** ﴾ أي لا تتخذوا أحداً منهم ولياً ، بمعنى لا تصافوهم ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ومعاشرتهم ﴿ **بعضُهم أولياءُ بعْضٍ** ﴾ أي بعض كل فريق من الفريقين أولياء بعض آخر من ذلك الفريق ، والكلُّ مجمعون على مضاركم ، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاة ؟ ﴿ **وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ** ﴾ أي من يتخذهم أولياء ﴿ **فإنّهُ مِنْهُمْ** ﴾ أي هو على دينهم ومعهم في النار ، وهذا إذا تولاهم لدينهم ، وأما الصحبة لمعاملة شراء مع المخالفة في الاعتقاد فليس فيه هذا الوعيد ﴿ **إنّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الظّالمينَ** ﴾ أي لا يرشد الذين ظلموا أنفسهم بترك إخوانهم المؤمنين ، وبموالاة أعداء الله ، بل يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلالة ، ومن الدعاء المأثور « اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك » ﴿ **فَتَرىَ** ﴾ يا محمد ﴿ **الّذِينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ** ﴾ أي مرض النفاق ﴿ **يُسارِعونَ فِيهِمْ** ﴾ أي مسارعين في موالاتهم ومعاونتهم والمراد بهم « عبد الله بن أبيّ » وأضرابه الذين كانوا يسارعون في مصادقة اليهود ونصارى نجران ، وكانوا يعتذرون إلى المؤمنين بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم صروف الزمان ، كما قال تعالى ﴿ **يَقولُونَ** ﴾ معتذرين ﴿ **نَخْشىٰ أنْ تُصِيبَنَا دَائرةٌ** ﴾ أي تدور علينا دائرة من دوائر الدهر ، بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار ﴿ **فَعَسىٰ اللهُ أنْ يَأْتي بالفَتْحِ** ﴾ رد من جهة الله تعالى لعللهم الباطلة ، وقطع لأطماعهم الفارغة ، والمراد بالفتح : فتح مكة والنصر على الأعداء ، ﴿ **أوْ أمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ** ﴾ بقطع شأفة اليهود من القتل والإجلاء ﴿ **فيُصْبِحوا** ﴾ أي أولئك المنافقون ﴿ **عَلىٰ ما أسَرُّوا في أنْفُسِهِمْ نادِمينَ** ﴾ وهو ما كانوا يكتمون في أنفسهم من الكفر والشك في أمره ﷺ ﴿ **ويقولُ الّذينَ آمنُوا** ﴾ أي ويقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود ، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ، ويرجون دولتهم ويظهرون لهم غاية المحبة عند مشاهدتهم لخيبة رجائهم ﴿ **أهَؤُلاءِ الّذينَ أقْسَموا باللهِ جَهْدَ أيْمانِهِمْ إنّهُمْ لمعكُمْ** ﴾ أي بالنصرة والمعونة ، والمعنى إنكار ما فعلوه واستبعاده وتخطئتهم في ذلك ، وجَهْد الأيمان : أغلظها أي مجتهدين في أيمانهم

(١) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان ورواه أحمد بن حنبل في الزهد وأبو نعيم في الحلية وانظر الفتح الكبير ١ / ٢٠٣ .

﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ أي بطلت أعمالهم التي عملوها في شأن الموالاة ، حيث لم يكن لليهود دولة ، فغبنوا بما صنعوا وتحملوا من مكاره المشاق ، واعلم أن للحق دولة وللباطل صولة ، والباطل يفور ثم يغور ، فعلى المؤمن أن لا يميل إلى جانب الباطل وأهله أصلاً كائنا من كان ، روي عن أبي موسى الأشعري أنه قال : (قلت لعمر بن الخطاب إن لي كاتباً نصرانياً ، فقال مالك قاتلك الله ، هلاَّ اتخذت حنيفاً ؟ أما سمعت قوله تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ**) قلت : له دينُه ، ولي كتابه ، قال لا تكرموهم إذ أهانهم الله ، ولا تأمنوهم إذ خوَّنهم الله ، ولا تدنوهم إذْ أقصاهم الله ، وروي أنه قال : مات النصراني والسلام)[1] يعني هب أنه مات فما كنت تكون صانعاً حينئذ ؟.

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ هذا من الأمور التي أخبر عنها القرآن قبل وقوعها ، روي أنه ارتد عن الإسلام في عهد رسول الله ﷺ بنو مدلج ورئيسهم ذو الخمار وهو « أسود العنسي » كان كاهنا تنبأ باليمن واستولى على بلاده ، حتى أخرج عمال رسول الله ﷺ فكتب عليه السلام إلى معاذ بن جبل ومن معه من المسلمين وأمرهم بالنهوض إلى حرب الأسود ، فقتله فيروز الديلمي على فراشه ، فأتى الخبر النبيَّ عليه السلام من السماء فبشر عليه السلام أصحابه بهلاك الأسود ، والفرقة الثانية من المرتدين بنو حنيفة باليمامة ورئيسهم « مسيلمة الكذاب » وكان قد تنبأ في حياة رسول الله ﷺ في آخر سنة عشر من الهجرة زعم أنه أشرك مع رسول الله في النبوة وكتب إلى النبي عليه السلام من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد : فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك ، وبعث بذلك الكتاب مع رجلين من أصحابه فقال لهما رسول الله عليه السلام (لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما ثم أجاب من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) فمرض عليه السلام وتوفي ، فبعث أبو بكر « خالد بن الوليد » إلى مسيلمة الكذاب في جيش كثير حتى أهلكه الله على يدي وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب بعد حرب شديدة ، وكان وحشي يقول : قتلت خير الناس في الجاهلية ، وشر الناس في الإسلام ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ** ﴾ مكانهم بعد إهلاكهم ﴿ **بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ قيل : هم أهل اليمن قال عليه السلام (الإيمان يمان والحكمة يمانية) وإنما نسب الإيمان إليهم إشعاراً بكماله فيهم ، ثم إن المراد بذلك الموجودون منهم في ذلك الزمان ، لا كل أهل اليمن في كل الأحيان ، وقيل : هم الأنصار رضي الله عنهم ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ جمع ذليل أي متذللين ومتواضعين لهم ﴿ **أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ أي أشداء متغلبين عليهم ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ**

(١) هذا من عمر رضي الله عنه من السياسات الشرعية ، وقد ذكر هذه القصة الحافظ ابن كثير في تفسيره .

﴿ اللهِ ولا يَخَافونَ لوْمةَ لائم ﴾ بمعنى أنهم جامعون بين المجاهدة في سبيل الله ، وبين التصلب في الدين ﴿ ذٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الأوصاف الجليلة ، التي وصف بها القوم ، من المحبة ، والذلة ، والعزة ، والمجاهدة في سبيل الله ﴿ فَضْلُ اللهِ ﴾ أي لطفه وإحسانه لا أنهم مستقلون في الاتصاف بها ﴿ يُؤْتيهِ منْ يَشاءُ ﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ واللهُ واسِعٌ ﴾ كثير الفواضل والألطاف ﴿ عَليمٌ ﴾ مبالغ في العلم ، يعلم من هو أهل للفضل والتوفيق .

﴿ إنّما وَليّكُمُ اللهُ ورَسُولُه والذّين آمنُوا ﴾ أي لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء إنما أولياؤكم الله ورسوله والمؤمنون ، فاختصوهم بالموالاة ، فموالاة الله في معاداة ما سوى الله ، كما قال الخليل عليه السلام (فإنّهُمْ عَدُوٌّ لي إلاّ ربَّ العَالمينَ) وموالاة الرسول في معاداة النفس ومخالفة الهوى كما قال عليه السلام (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به)[1] وقال ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين)[2] وموالاة المؤمنين في مؤاخاتهم في الدين كقوله تعالى (إنّما المؤْمِنونَ إخْوةٌ) وقال عليه السلام (لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه)[3] ﴿ الذينَ يقيمونَ الصلوةَ ويُؤْتون الزَّكَوٰةَ وهُمْ رَاكِعونَ ﴾ أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى ، والمقصود تمييز المؤمن المخلص ، ممن يدعي الإيمان ويكون منافقاً ، لأن الإخلاص إنما يعرف بكونه مواظباً على الصلاة والزكاة ، في حال الركوع أي في حال الخشوع والإخبات لله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَولَّ اللهَ ورَسُولَه والذّينَ آمنُوا ﴾ أي ومن يتخذهم أولياء ﴿ فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغالِبونَ ﴾ أي فإنهم الغالبون ، ولكن وضع الظاهر موضع المضمر تكريماً وتشريفاً لهم بإضافتهم إليه تعالى ، وتعريضاً بمن يوالي غير هؤلاء بأنهم حزب الشيطان ، وحزبُ الرجل : أصحابه ، والحزبُ : الطائفة يجتمعون لأمر حزبهم أي أصابهم ، واعلم أن الغلبة على أعداءِ الله إنما تحصل بنصرة اللهتعالى كما قال تعالى (إنْ تَنْصُروا اللهَ ينْصُرْكُمْ) وليست النصرة والغلبة ، إلا بتأثير الله تعالى ، وهو المعز وكل العزة منه تعالى ﴿ يا أيُّها الذّينَ آمنُوا ﴾ روي أن « رفاعة بن زيد » و « سويد بن الحارث» أظهرا الإسلام ثم نافقا ، وكان رجال من المؤمنين يوادونهما ، فنهاهم الله تعالى عن الموالاة وقال ﴿ لا تتّخِذوا الّذِينَ اتّخَذوا دِينكُمْ هُزُواً وَلعِباً ﴾ والهزؤ : السخريةُ والاستهزاء ، ومعنى اتخاذهم

---

(١) الحديث أخرجه البغوي في شرح السنة ١ / ١٢٣ باب رد البدع والأهواء ، وفي سنده ضعفٌ لضعف « نعيم بن حماد » .

(٢) أخرجه الشيخان والنسائي وابن ماجه بلفظ « لا يؤمنُ أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من وَلَده ، ووالده ، والناس أجمعين » وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٥١ .

(٣) الحديث أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه ، والمراد بقوله « لا يؤمنُ أحدكم » أي لا يكمل ولا يتمُّ إيمانه ، وليس المراد منه نفي الإيمان مطلقاً ، وانظر الفتح الكبير ٣ / ٣٥١ .

دين المسلمين مهزؤاً به وتلاعبهم به : إظهارهم ذلك باللسان ، مع الإصرار على الكفر في القلب ، ﴿ مِنَ الذّينَ أُوْتُوْا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ بيان للمستهزئين ﴿ وَالكُفَّارَ ﴾ بالنصب عطف على الموصول الأول ، والمراد المشركون خصوا به لتضاعف كفرهم ، فالنهي عن موالاة من ليس على الحق رأساً ، سواء من كان ذا دين تبع فيه الهوى ، وحرّفه عن الصواب كأهل الكتاب ، ومن لم يكن كالمشركين ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ وجانبوهم كل المجانبة ﴿ واتّقوا اللهَ ﴾ في ذلك بترك موالاتهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مؤْمِنِينَ ﴾ أي حقاً لأن الإيمان يقتضي الاتقاء ﴿ وإذا نَادَيتُمْ إِلَى الصّلوة اتَّخَذُوها ﴾ أي الصلاة أو المناداة ﴿ هُزُوَاً وَلَعِباً ﴾ كان المؤذنون إذا أذنوا للصلاة ، تضاحكت اليهود فيما بينهم ، وتغامزوا سفهاً واستهزاءً بالصلاة ، وتجهيلاً لأهلها وتنفيراً للناس عنها ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يعْقِلونَ ﴾ أي بسبب عدم عقلهم ، فإن السفه يؤدي إلى الجهل بمحاسن الحق ، والهزء به ، ولو كان لهم عقل في الجملة لما اجترأوا على تلك العظيمة .

قال العلماء : ثبوتُ الأذان ليس بالمنام وحده ، بل هو ثابت بنص هذه الآية ، فإن المعنى إذا دعوتم الناس إلى الصلاة بالأذان ، والنداء : الدعاءُ بأرفع الصوت ، وفي الأذان حِكَم منها إظهار شعائر الإسلام ، وكلمة التوحيد ، والإعلام بدخول وقت الصلاة ، والدعاء إلى الجماعة ، إلى غير ذلك ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الكِتابِ ﴾ روي أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن دينه فأجابهم ، فحين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام ، قالوا : لا نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديناً شراً من دينكم ، فأنزل الله هذه الآية أي قل لهؤلاء اليهود الفجرة ﴿ هَلْ تَنْقِمون مِنّا ﴾ أي ما تعيبون وما تنكرون علينا ديننا لعلةٍ من العلل ﴿ إلاّ أنْ آمنّا باللهِ ﴾ أي إلا لأننا آمنا بالله ﴿ ومَا أُنْزِلَ إليْنا ﴾ من القرآن المجيد ﴿ ومَا أُنْزِلَ منْ قَبلُ ﴾ من التوراة والإنجيل ، وسائر الكتب الإلهية ﴿ وأنّ أكثرَكُمْ فَاسِقونَ ﴾ أي ولأن أكثركم متمردون خارجون عن الإيمان ، حتى لو كنتم مؤمنين بكتابكم الناطق بصحة كتابنا لآمنتم به ﴿ قُلْ هلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ الخطاب لليهود ﴿ بِشَرٍّ منْ ذٰلكَ ﴾ أي هل أخبركم بما هو شر في الحقيقة ، لا ما تعتقدونه شراً وإن كان في نفسه خيراً محضاً ؟ ﴿ مَثوبةً عِندَ اللهِ ﴾ أي جزاء ثابتاً في حكمه تعالى ، والمثوبة مختصة بالخير ، كالعقوبة مختصة بالشر ، فوضعت ههنا موضعها على طريق التهكم ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عليهِ ﴾ أي هو من لعنه الله وهم اليهود ، وأبعدهم الله من رحمته ، وسخط عليهم بكفرهم وانهماكهم في المعاصي ، بعد وضوح الآيات ﴿ وجَعَلَ منهمُ القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ ﴾ أي مسخ بعضهم قردة حين اعتدوا في السبت ، ومسخ بعضهم خنازير حين كفروا بعد ما رأوا الآيات البينة ، ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لليهود : يا إخوة القردة والخنازير ، فنكسوا رؤسهم وافتضحوا ﴿ وَعَبدَ الطّاغوتَ ﴾ أي وأطاع الشيطان فيما سوّل له ﴿ أولَئِكَ ﴾ الموصوفون بتلك القبائح والفضائح ﴿ شرٌّ مكاناً ﴾ جعل

مكانهم شراً ، ليكون أبلغ في الدلالة على شرارتهم ﴿ وَأَضَلُّ عنْ سَواءِ السَّبيلِ ﴾ أي أكثر ضلالة عن الطريق المستقيم ، وفيه دلالة على كون دينهم شراً محضاً بعيداً عن الحق ، واعلم أن كل صنف من الناس يفرح بما لديه ، ويبغض الآخر بما هو عليه ، ولكنَّ الحق أحق أن يتبع ، فالمؤمن يحب المؤمن ، فإن المحبة من الأخلاق الحسنة ، والأوصاف الشريفة ، وفي الحديث (إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة ، لمكانهم من الله تعالى ، قالوا يا رسول الله : أخبرنا من هم ؟ وما أعمالهم فلعلنا نحبهم ؟ قال : هم قوم تحابُّوا في الله ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنورٌ ، وإنهم لَعَلَى منابر من نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس)[1] * وسئل عبد الله السالمي : بأي شيء يعرف أولياء الله من بين عباده ؟ فقال : بلطافة اللسان ، وحسن الخُلُقِ ، وبشاشة الوجه ، وسخاوة النفس ، وقبول الاعتذار ، وكمال الشفقة على عامة الخلق .

﴿ وإذا جَاؤُكُمْ قَالوا آمنَّا ﴾ نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ يظهرون له الإيمان نفاقاً ، أي إذا جاؤكم أظهروا الإسلام ﴿ وَقَدْ ﴾ أي والحال أنهم قد ﴿ دَخَلوا ﴾ ملتبسين ﴿ بالكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجوا ﴾ من عندك ملتبسين ﴿ بِهِ ﴾ أي بالكفر كما دخلوا ، لم يؤثر فيهم ما سمعوا منك ﴿ وَاللهُ أعْلَمُ بما كَانُوا يكْتُمونَ ﴾ من الكفر ﴿ وَتَرىٰ ﴾ يا محمد رؤية بصرية ﴿ كَثِيراً منْهُمْ ﴾ أي من اليهود والمنافقين ﴿ يُسارعونَ في الإثمِ ﴾ أي الكذب على الإطلاق ﴿ والعُدْوانِ ﴾ أي الظلم المتعدي إلى الغير ﴿ وأكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ أي الحرام ﴿ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي لبئس شيأ يعملونه ﴿ لوْلا ﴾ حرف تحضيض ﴿ ينْهٰيهُمُ الرَبّانيّونَ والأحْبارُ ﴾ المراد بهم العلماء ، إلا أن الرباني : الزاهدُ العارف الواصل ، والحبرُ : العالم العامل ﴿ عنْ قَوْلِهِمُ الإثْمَ ﴾ وهو قولهم آمنا وليسوا بمؤمنين ﴿ وَأكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ مع علمهم بقبحها ومشاهدتهم لمباشرتهم لها ﴿ لَبِئْسَ ما كانُوا يصْنَعونَ ﴾ هو أبلغ من قوله ﴿ لَبِئسَ ما كانُوا يعْملونَ ﴾ لأن الصنع أقوى من العمل ، قال عمر بن عبد العزيز : إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، ولكن إذا أظهروا المعاصي فلم ينكروا ، استحق القوم جميعاً للعقوبة انتهى .

والعلماء العاملون المتجردون عن الغرض ، سوى إعلاء كلمة الله تعالى ، محفوظون في أقوالهم وأفعالهم ، حكي أن زاهداً من التابعين ، كسر ملاهي لخليفة من الخلفاء ، فأمر بأن يُلقى بين يدي الأسد ، فألقي فلما دخل ذلك الموضع ، افتتح صلاة فجاء الأسد وجعل يحرك ذنبه حتى اجتمع عليه ما كان في ذلك الموضع

(١) أخرجه أبو داود في سننه برقم / ٣٥٢٧ / ورواه ابن حبان في صحيحه رقم / ٢٥٠٨ / وهو حديث حسن ، وانظر جامع الأصول ٦ / ٥٥٢ .

من الأسود ، فجعلت تلحسه بألسنتها وهو يصلي ولا يبالي ، فلما أصبح الخليفة قال ما فُعل بزاهدنا ؟ قيل : ألقي بين يدي الأسود ، قال انظروا هل أكلته ؟ فجاؤا فوجدوا الأسود قد أستأنست به ، فتعجبوا من ذلك فأخرجوه وحملوه إلى الخليفة ، فقال له : أما كنت تخاف منها ؟ قال : لا كنت مشغولاً متفكراً طول الليل ، فقال له : فماذا تتفكر ؟ قال في هذه الأسود حيث جاءتني تلحسني بألسنتها ، فكنت أتفكر ألَعَابُها طاهر أو نجس ؟ فتفكري منعني من الخوف منها ، فتعجب منه فخلّى سبيله ﴿ **وَقَالَتِ اليَهودُ** ﴾ قال المفسرون : إن الله تعالى قد بسط النعمة على اليهود ، حتى كانوا من أكثر الناس مالاً وأخصبهم عيشاً ، فلما عصوا الله كفَّ الله عنهم ما بسط عليهم من النعمة ، فعند ذلك قالت اليهود ﴿ **يَدُ اللهِ مغْلولةٌ** ﴾ أي مقبوضة ممسكة عن العطاء ، وغَلُّ اليد وبسطها مجاز عن محض البخل والجود ﴿ **غُلَّتْ أيديهم** ﴾ دعاء عليهم أي أُمسكت أيديهم عن الإنفاق في الخير ، وجعلوا بخلاء ، واليهود أبخل الناس ، ولا أمة أبخل منهم ﴿ **وَلُعِنوا** ﴾ أي أبعدوا وطُردوا من رحمة الله تعالى ﴿ **بما قَالُوا** ﴾ أي بسبب ما قالوا من الكلمة الشنعاء ، وهذا الدعاء عليهم تعليم للعباد ، وإلا فهو أثر العجز ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ **بلْ يَدَاهُ مبسوطَتَانِ** ﴾ أي ليس شأنه عز وجل كما وصفتوه ، بل هو موصوف بغاية الجود ونهاية الفضل والإحسان ﴿ **يُنفِقُ كيْفَ يَشاءُ** ﴾ أي هو مختار في إنفاقه ، يوسِّع تارة ويضيّق أخرى ، على حسب مشيئته ومقتضى حكمته ، وقد اقتضت الحكمة بسبب ما فيهم من شؤم المعاصي أن يُضيِّق عليهم ﴿ **وَلَيزِيدَنَّ كَثيراً مِنْهُمْ** ﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم ﴿ **ما أُنزلَ إليْكَ مِنْ رَبِّكَ** ﴾ وهو القرآن وما فيه من الأحكام ، وهو فاعل « يَزِيدنَّ » ﴿ **طُغْياناً وَكُفْراً** ﴾ أي ليزيدنهم طغياناً على طغيانهم ، وكفراً على كفرهم ، إذ كلما نزلت آية كفروا بها ، فيزداد طغيانهم وكفرهم ، كما أن الطعام للأصحاء ، يزيد المرض مرضاً ﴿**وَأَلْقيْنا بيْنَهُمُ** ﴾ أي بين اليهود ﴿ **العَداوَةَ والبغْضَاءَ** ﴾ أي جعلناهم مختلفين في دينهم متباغضين ، كما قال تعالى (**تَحْسَبُهُمْ جَميعاً وَقُلوبُهُمْ شَتّى**) فلا تكاد تتوافق قلوبهم ولا تتطابق أقوالهم ﴿ **إلىٰ يَوْمِ القِيٰمةِ كُلّما أَوْقَدوا ناراً للحَرْبِ** ﴾ أي كلما أرادوا محاربة الرسول ﷺ ، وإثارة شر عليه ﴿ **أطْفأَها اللهُ** ﴾ أي ردهم الله وقهرهم ، بأن أوقع بينهم منازعة ، كفَّ بها عنه شرهم ﴿ **وَيَسْعونَ في الأَرْضِ فَساداً** ﴾ أي يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله ، وإثارة الشر والفتنة فما بينهم ﴿ **وَاللهُ لا يُحِبُّ المفْسِدينَ** ﴾ ولذلك أطفأ ثائرة إفسادهم ولا يجازيهم إلاّ شراً ﴿ **وَلَوْ أنّ أَهْلَ الكِتابِ** ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ **آمنُوا** ﴾ بما يجب به الإيمان ﴿ **واتَّقَوْا** ﴾ من المعاصي مثل الكذب وأكل السحت ونحو ذلك ﴿ **لَكفَّرنَا عنْهُمْ سيّآتِهِمْ** ﴾ أي لعفونا عنهم وسترنا عليهم ذنوبهم ، وهو الخلاص من العذاب ﴿ **ولأدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النّعيمِ** ﴾ أي ولجعلناهم خالدين فيها وهو الظفر بالثواب ﴿ **ولو أَنَّهُمْ أقامُوا التَوْرٰية والإنْجيلَ** ﴾ أي عملوا بما فيهما من التصديق بسيد

المرسلين ، والوفاء لله تعالى بما عاهدوا فيها ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ من القرآن المجيد المصدق لكتبهم ﴿ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تحتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ أي لوسَّع الله عليهم أرزاقهم ، بأن يفيض عليهم بركات السماء والأرض ، بإنزال المطر ، وإخراج النبات ، وفيه تنبيه على أن ما أصابهم من الضنك والضيق ، إنما هو من شؤم جناياتهم ، لا لقصورٍ في فيض الفياض ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ﴾ أي طائفة عادلة غير غالية ولا مقصّرة ، كعبد الله بن سلام وأضرابه ممن آمن من اليهود ، والاقتصاد في اللغة : الاعتدال في العمل من غير غُلوٍّ ولا تقصير ﴿ وَكثيرٌ منهُمْ سَاءَ ما ﴾ كانوا ﴿ يعْمَلونَ ﴾ وفيه تعجيب بحسب المقام ، أي ما أسوء عملهم من العناد والمكابرة ، وتحريف الحق والإعراض عنه ؟ وفي الآية بيان أن التقوى سبب لتوسعة الرزق ، واستقامة الأمر في الدنيا والآخرة ﴿ يَا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾ جميع ﴿ مَا أُنْزِلَ إِليكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ مما يتعلق بمصالح العباد ﴿ وإِنْ لَمْ تفْعلْ ﴾ أي إن لم تبلغ جميعه ، خوفاً من أن ينالك مكروه ﴿ فما بلَّغْتَ رسالتَهُ ﴾ لأن كتمان بعضها ككتمان الكل ، ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ أمان من الله تعالى للنبي عليه السلام كيلا يخاف ولا يحذر ، كما روي في الخبر أن رسول الله ﷺ (لَّما دخل المدينة كان يحرسه مائة من المهاجرين والأنصار ، يبيتون عنده ويخرجون معه ، خوفاً من اليهود ، فلما نزل قوله تعالى ﴿ وَاللهُ يعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ ﴾ علم أن الله يحفظه من كيد اليهود وغيرهم ، فقال للمهاجرين والأنصار : انصرفوا إلى رحالكم ، فإن الله قد عصمني من اليهود ، فكان ﷺ بعد ذلك يخرج وحده في أول الليل وعند السحر ، إلى أودية المدينة يعصمه الله ، مع كثرة أعدائه وقلة أعوانه ، والمراد العصمة من القتل وقد حفظه من ذلك ، وأما سائر البلايا والمحن فذلك مما يجري على سائر الأنبياء والأولياء ، قال الكرماني: ما وقع من الابتلاء والسقم في الأنبياء عليهم السلام لنيل جزيل الأجر ، وليعلم أنهم بشر تصيبهم محن الدنيا ، وأنهم مخلوقون فلا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات انتهى .

﴿ إِنّ اللهَ لا يَهْدي القَوْمَ الكَافِرِينَ ﴾ تعليل لعصمته عليه السلام أي لا يمكنهم مما يريدون لك من الإضرار ، وفيه إشارة إلى أن من سنة الله تعالى ابتلاء الأنبياء والأولياء ليوصلوهم إلى الله تعالى « سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » وأن من امتثل لأمر الخالق ، يعصمه الله من مضرة المخلوق ، كما عُصم النبي عليه السلام وأبو بكر الصديق رضي الله عنه في الغار حين الهجرة ، حكي أن « سُفَيْنة » مولى رسول الله ﷺ ، أخطأ الجيش بأرض الروم وأسر ، فانطلق هارباً يلتمس الجيش ، فإذا بالأسد فقال يا أبا الحارث أنا « سفينة » مولى رسول الله ، فكان مرادي كيت وكيت ، فأقبل الأسد يتبصبص حتى قام إلى جنبه ، كلما سمع صوتاً أهوى إليه ، فلم يزل كذلك حتى بلغ الجيش ثم رجع الأسد ، وعن جابر رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ في بعض الغزوات ، فنزل مع قومه في واد ،

فتفرق الناس يستظلون بالأشجار وينامون ، واستظل عليه السلام بشجرة معلقاً سيفه بغصنها ، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا ، فلما حضرنا رأينا أعرابياً ، فقال عليه السلام (إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً ، فقال : من يمنعك مني ؟ فقلت الله ، فسقط السيف من يده ، فأخذته فقلت من يمنعك مني ؟ فقال : كن خير آخذ ، فقال له النبي عليه السلام : أتشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قال : لا ولكن أعاهدك على أن لا أقاتلك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى عليه السلام سبيله)[1] ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد مخاطباً اليهود والنصارى ﴿ **يا أَهْلَ الكِتابِ لَستُمْ عَلَى شَيءٍ** ﴾ أي دين يعتدُّ به ويليق بأن يسمى شيأ ، لظهور بطلانه ، ووضوح فساده ﴿ **حَتَّى تُقِيموا التَّوْرَاةَ والإنجِيلَ** ﴾ ومن إقامتها الإيمان بمحمد والإذعان لحكمه ، فإن الكتب الآلهية بأسرها آمرة بالإيمان بما صدقته المعجزة ، ناطقة بوجوب الطاعة له ، والمرادُ إقامة أصولها وما لم ينسخ من فروعها ﴿ **وَمَا أُنزِلَ إِلَيكُمْ مِنْ ربِّكُمْ** ﴾ أي القرآن المجيد بالإيمان به ، ونسب الإنزال إليهم لأنهم كانوا يدعون عدم نزوله إلى بني اسرائيل ﴿ **وَلَيزِيدَنّ كَثِيراً مِنْهُمْ** ﴾ وهم علماؤهم ورؤساؤهم ﴿ **ما أُنزِلَ إليكَ منْ رَبّكَ** ﴾ أي القرآن ﴿ **طُغْيَاناً وَكُفْراً** ﴾ على طغيانهم وكفرهم القديمين ﴿ **فلا تأس عَلَىٰ القَوْمِ الكَافِرِينَ** ﴾ أي فلا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم وكفرهم ، فإن ضرر ذلك لاحق بهم لا يتخطاهم ﴿ **إنّ الذّينَ آمنُوا** ﴾ أي بألسنتهم فقط وهم المنافقون ﴿ **والذين هَادُوا** ﴾ أي دخلوا في اليهودية ﴿ **والصّابِئونَ** ﴾ أي الذين صَبَت قلوبهم ومالت إلى الجهل ، وهم صنف من النصارى يحلقون أوساط رؤسهم ﴿ **والنَّصارىٰ** ﴾ جمع نصران ﴿ **مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ** ﴾ أي من أحدث من هذه الطوائف إيماناً خالصاً لا يشوبه ضلال ﴿ **وَعَمِلَ صَالِحاً** ﴾ حسبما يقتضيه الإيمان ﴿ **فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِم** ﴾ حين يخاف الكفار العقاب ﴿ **ولا هُم يَحْزَنونَ** ﴾ حين يحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب ، واعلم أن أولياء الله لا خوف عليهم لأنهم يقيمون القرآن عملاً بالظاهر والباطن ، ولا هم يحزنون على ما يقاسون من شدائد في ترك الدنيا وقمع الهوى ، ولا على ما أصابهم من البلاء والمحن ، لأنهم تخلصوا من التقليد وفازوا بالتحقيق ، قال إبراهيم الخواص : دواء القلب خمسة : قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع إلى الله عند السحر ، ومجالسة الصالحين ، وفي الأثر عن علي رضي الله عنه (يأتي على الناس زمانٌ لا يبقى من الإسلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه ، يعمرون مساجدهم وهي خراب من ذكر الله ، هم شر أهل ذلك الزمان ، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود) .

﴿ **لَقَدْ أَخذْنا ميثاقَ بني إسْرائيلَ** ﴾ أي بالله لقد أخذنا عهدهم بالتوحيد ، وسائر الشرائع

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان والنسائي وأحمد في المسند ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ٤٢٤ .

والأحكام المكتوبة عليهم في التوراة ﴿ وَأَرْسلنا إليْهم رُسُلاً ﴾ ذوي عدد كثير وأولي شأن خطير ، ليبينوا لهم أمر دينهم ﴿ كلما جَاءَهُمْ رَسُولٌ بما لا تَهْوىٰ أنفُسُهم ﴾ كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما يخالف هواهم ، عصوه وعادوه ﴿ فَريقاً كَذّبُوا ﴾ أي فريقاً منهم كذبوهم ﴿ وَفَرِيقاً يقْتلُونَ ﴾ أي وفريقاً آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم بل قتلوهم أيضا كزكريا ويحيى عليهما السلام .

﴿ وَحَسِبوا أنْ لا تَكونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي ظنَّ بنو إسرائيل أن لا يصيبهم من الله تعالى بلاء وعذاب ، بقتل الأنبياء وتكذيبهم ، فقد كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وكانوا يعتقدون أن نبوة أسلافهم وآبائهم تدفع عنهم العذاب ﴿ فَعَمُوا ﴾ فتمادوا في فنون الغي والفساد ، وعموا عن اتباع الهدى أي عملوا معاملة الأعمى الذي لا يبصر ﴿ وَصَمّوا ﴾ عن استماع الحق أي عملوا معاملة الأصم الذي لا يسمع ، ولذلك فعلوا بهم ما فعلوا ﴿ ثُمَّ تابَ اللهُ عَليْهِمْ ﴾ حين تابوا ورجعوا عما كانوا عليه من الفساد ﴿ ثُمّ عَموا وَصَمّوا ﴾ وهو اجتراؤهم على قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ﴿ كَثيرٌ مِنْهُمْ ﴾ بدل من الضمير في الفعلين ، وفي المرة الثانية يقتضي أنهم لم يكفروا كلهم وإنما كفر أكثرهم ﴿ وَاللهُ بَصيرٌ بما يعْمَلونَ ﴾ فيجازيهم وفق أعمالهم ، ومن أين لهم ذلك الحسبان الباطل ؟ والعصيان وإن كان سبباً للنسيان ، ورين العمى والصمم ، إلا أن ما قضاه الله وقدّره لا يتغير ، فلْيبكِ على نفسه من ضاع عمره في الهوى وتتبع الشهوات ، فلم يجد إلى طلب الحق سبيلاً ، وإلى طريق الرشد دليلاً ﴿ لقد كفرَ الذينَ قالوا إنَّ الله هو المسيح ابنُ مريمَ ﴾ نزلت في نصارى نجران ، قالوا : إن الله حلَّ في ذات عيسى واتحد بذاته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَقَالَ المسيحُ ﴾ أي والحال قد قال المسيح مخاطباً لهم ﴿ يا بني إسْرائيلَ اعْبُدوا اللهَ رَبّي وَرَبّكُمْ ﴾ فإني عبد مربوب مثلكم ، فاعبدوا خالقي وخالقكم ﴿ إنّه ﴾ أي الشأن ﴿ مَنْ يُشرِكْ بِاللهِ ﴾ أي شيأ في عبادته أو فيما يخص به من الصفات والأفعال ﴿ فقدْ حرَّمَ اللهُ عليهِ الجنّةَ ﴾ فلن يدخلها أبداً لأنها دار الموحدين ﴿ وَمأوْيه النارُ ﴾ فإنها هي المعدة للمشركين ﴿ وما للظّالمينَ ﴾ بالإشراك ﴿ من أنْصارٍ ﴾ أي من أحد ينصرهم بإنقاذهم من النار ، وهو من تمام كلام عيسى ، ثم حكى ما قاله النسطورية والملكانية من النصارى فقال ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الذّينَ قالوا إنّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ ﴾ أي أحد ثلاثة آلهة ، والإلهية مشتركة بينهم وهم « الله ، وعيسى ، ومريم » ﴿ وما منْ إله إلاّ إلـهٌ واحدٌ ﴾ أي والحال ليس في الوجود واجب مستحق للعبادة ، موصوف بالوحدانية إلا الله ﴿ وإنْ لم يَنْتَهُوا عمّا يقولونَ ﴾ عن مقالتهم الأولى والثانية ﴿ لَيَمسَنَّ الذّين كَفَروا مِنْهُمْ ﴾ أي والله ليمسنَّهم ﴿ عَذابٌ أليمٌ ﴾ نوع شديد الألم من العذاب ، يخلص وجعه إلى قلوبهم ﴿ أفَلا يتوبُون إلىٰ اللهِ ﴾ أي أيصرون فلا يتوبون عن تلك العقائد الزائغة ، والأقاويل الباطلة ؟ وفيه تعجيب من إصرارهم وتحضيض على التوبة ﴿ وَيسْتَغْفِرونَهُ ﴾ بالتوحيد والتنزيه عما نسبوه إليه

من الاتحاد والحلول ﴿ **واللهُ غفورٌ رحيمٌ** ﴾ أي والحال أنه تعالى مبالغ في المغفرة ، يغفر لهم عند استغفارهم ، ويمنحهم من فضله ﴿ **ما المسيحُ ابنُ مريمَ إلاَّ رسولٌ قدْ خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ أي ما هو إلا مقصور على الرسالة كالرسل قبله ، خصه الله تعالى بآيات كما خصهم بها ، فإن أحيا الموتى على يده ، فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى على يد موسى وهو أعجب ، وإن خلقه من غير أب فقد خلق آدم من غير أب وأم وهو أغرب منه ﴿ **وأمُّه صِدِّيقةٌ** ﴾ أي ما أمه أيضاً إلا كسائر النساء اللاتي يلازمن الصدق ﴿ **كانا يأْكُلانِ الطّعامَ** ﴾ ويفتقران إليه افتقار العبد المخلوق ، فكيف يكون إلهاً من لا يقيمه إلا أكل الطعام[1] ؟ ﴿ **انْظُرْ كيفَ نبيّنُ لهم الآيَاتِ** ﴾ الباهرة المنادية ببطلان ما تقوّلوا عليها ، نداء يكاد يسمعه صُمُّ الجبال ﴿ **ثُمّ انْظُرْ أنّى يُؤْفَكونَ** ﴾ أي كيف يصرفون عن استماعها والتأمل فيها ؟ ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد إلزاماً لهؤلاء النصارى ﴿ **أتعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ مالا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ولا نفْعاً** ﴾ يعني عيسى فهو لا يملك دفع ضر ولا جلب نفع ، فكيف يكون إلهاً ؟ ﴿ **واللهُ هُوَ السّميعُ العَليمُ** ﴾ فيجازي كلاً بما يستحقه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الكِتابِ لا تَغْلوا في دينِكُمْ غيْرَ الحَقِ** ﴾ أي غلواً باطلاً ، فترفعوا عيسى إلى أن تدَّعوا له الألوهية ﴿ **ولا تَتّبِعوا أَهْواءَ قَوْمٍ قدْ ضَلّوا مِنْ قبْلُ** ﴾ يعني أسلافهم وأئمتهم الذين قد ضلوا قبل مبعث محمد عليه السلام في شريعتهم ﴿ **وَأَضَلّوا كَثيراً** ﴾ أي من تابعهم على بدعهم وضلالهم ﴿ **وضلُّوا عنْ سَواءِ السّبيلِ** ﴾ عن قصد السبيل الذي هو الإسلام بعد مبعثه عليه السلام .

﴿ **لُعِنَ الذّينَ كَفَروا مِنْ بني إسْرائيلَ** ﴾ أي طردوا وأبعدوا من رحمة الله تعالى ﴿ **علىٰ لسانِ داوُدَ** ﴾ لما اعتدوا في السبت قال داود عليه السلام : اللهم العنهم ، واجعلهم آية وَمَثلاً لخلقك فمسخوا قردة ﴿ **وَعيسىٰ ابن مَرْيم** ﴾ أي على لسان عيسى ابن مريم ، يعني أصحاب المائدة لما أكلو من المائدة ولم يؤمنوا ، قال عيسى : اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت واجعلهم آية ، فمسخوا خنازير ﴿ **ذلكَ بما عَصَوْا وَكانُوا يعْتَدونَ** ﴾ أي ذلك اللعن الشنيع المقتضي للمسخ ، بسبب عصيانهم واعتدائهم ما حَرَّم الله عليهم ﴿ **كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عنْ مُنْكَرٍ فَعَلوه** ﴾ أي لا ينهي بعضهم بعضاً عن قبيح يعملونه ﴿ **لبِئْسَ ما كانوا يفْعَلونَ** ﴾ تعجيب من سوء فعلهم ﴿ **تَرىٰ كثيراً منْهُمْ** ﴾ أي من أهل الكتاب ، ككعب بن الأشرف وأضرابه ، حيث خرجوا إلى مشركي مكة ليتفقوا على محاربة النبي عليه السلام ﴿ **يَتَوَلَّوْنَ الذّينَ كَفَرُوا** ﴾ أي يوالون المشركين بغضاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين ﴿ **لَبِئْسَ ما قَدّمَتْ**

---

(١) في الآية إشارة لطيفة ودقيقة ، إلى أنَّ من يتناول الطعام والشراب ، لابدَّ إلا وأن يُحدث الحدث ويُخرج الفضلات ، ولا يصلح أن تقع هذه الأمور من الإله ، لأنه غنيٌّ لا يحتاج إلى شيء من الأشياء ، وقد تنزَّه القرآن وتسامى أن يقول عن عيسى إنه كان يبول ويتغوَّط ، فعبَّر بتلك الكناية اللطيفة (**كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ**)، فللَّه ما أسمى تعبير القرآن ، وما أروع حجته وبيانه !!

﴿ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ أي لبئس شيأ قدموا ﴿ أَنْ سَخِطَ اللهُ عليهِمْ وفي العَذَابِ هُمْ خَالدونَ ﴾ هو المخصوص بالذم أي موجب سخط الله والخلود في العذاب ﴿ وَلَو كَانُوا يؤْمِنونَ باللهِ والنّبي ﴾ أي نبيهم ﴿ وما أُنْزِلَ إليْهِ ﴾ أي إلى ذلك النبي من التوراة والإنجيل ﴿ ما اتّخذُوهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ أَوْلياءَ ﴾ فالإيمان يمنع من التولي قطعاً ﴿ ولكنَّ كثيراً مِنْهُمْ فاسِقونَ ﴾ خارجون عن الدين ، والإيمان بالله وبنبيهم وكتابهم ﴿ لَتَجِدنَّ ﴾ يا محمد ﴿ أَشدَّ النّاسِ عداوةً لِلَّذِينَ آمنوا اليَهودَ ﴾ مفعول ثان للوجدان ﴿ والَّذينَ أَشْرَكوا ﴾ يعني مشركي العرب معطوف على اليهود ﴿ وَلَتَجِدَنّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدّةً للَّذينَ آمَنُوْا الَّذِينَ قَالوا إنّا نَصَارَىٰ ﴾ أما عداوة اليهود والمشركين المنكرين للمعاد فلشدة حرصهم على الدنيا ، الذي هو معدن الأخلاق الذميمة ، فإن من كان حريصاً على الدنيا أقدم على كل محظور ومنكر ، وأما مودة النصارى فإنه لم يرد به جميع النصارى ، لأنهم في عداوتهم للمسلمين كاليهود ، في قتلهم المسلمين وأسرهم ، وتخريب بلادهم وهدم مساجدهم ، لا مودة ولا كرامة لهم ، بل الآية نزلت فيمن أسلم منهم ، مثل النجاشي وأصحابه[1] ، وكان النجاشي ملك الحبشة نصرانياً قبل ظهور الإسلام ، ثم أسلم هو وأصحابه قبل الفتح ومات قبله أيضاً .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي كونهم أقرب مودة للمؤمنين ﴿ بأنّ مِنْهُمْ ﴾ أي بسبب أن منهم ﴿ قِسّيسّينَ ﴾ وهم علماء النصارى وعُبّادهم ورؤساؤهم ﴿ وَرُهْباناً ﴾ جمع راهب كراكب ، والترهب التعبد مع الرهبة في صومعة ﴿ وَأَنّهم لا يَسْتكْبِرُونَ ﴾ أي وبأنهم لا يستكبرون عن قبول الحق ، ويتواضعون ولا يتكبرون كاليهود ، وفيه دليل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل ، والإعراض عن الشهوات محمود ، وإن كان من كافر .

﴿ وَإذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلىٰ الرَّسُولِ ﴾ عطف على لا يستكبرون أي ذلك الصلاح بسبب أنهم لا يستكبرون وأن أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا عند سماع القرآن ، وهو بيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ، ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم تأنفهم عنه ﴿ تَرىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ أي تمتلىء بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب من الامتلاء مبالغة ، ومن الدمع متعلق بتفيض ، ومن لابتداء الغاية والمعنى تفيض من كثرة الدمع والرؤية بصرية وتفيض حال من المفعول ﴿ مِمَّا عَرَفوا مِنَ الحَقِ ﴾ أي حال كونه ناشئاً ومبتدأ من معرفة الحق ، حاصلاً من أجله وبسببه ، كأنه قيل : ماذا

(١) هذا هو الصحيح أن الآية نزلت في نصارى مخصوصين ، هم نصارى الحبشة زمن النجاشي ، فإنهم لما سمعوا القرآن بكَوْا حتى اخضلّت لحاهم بالدمع ، وآمنوا مع النجاشي بالقرآن والرسول ، ويدل عليه قوله تعالى بعده ﴿ وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحقّ يقولون ربنا آمنا ... ﴾ الآية وليست الآية امتداحاً للنصارى عامة كما يظن البعض ، فإن النصارى أعداء للإسلام ، وهم إخوة اليهود في المكر والخبث والعداء ، فتنبه لذلك رعاك الله .

يقولون عند سماع القرآن فقيل ﴿ **يَقولونَ رَبّنا آمنّا** ﴾ بهذا القرآن ﴿ **فاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدينَ** ﴾ أي اجعلنا في جملة الذين شهدوا بأنه حق ﴿ **وَمَا لَنَا** ﴾ أيْ أيُّ شيء حصل لنا ﴿ **لا نُؤْمِنُ بِاللهِ** ﴾ حال من الضمير في لنا أي غير مؤمنين على توجيه الإنكار والنفي إلى السبب والمسبب جميعاً ﴿ **وَما جَاءَنا مِنَ الحَقِ** ﴾ عطف على الجلالة أي بالله وما جاءنا من الحق ، حال من فاعل جاءنا أي جاءنا في حال كونه من جنس الحق ، أو من لابتداء الغاية متعلقة بجاءنا ويكون المراد بالحق الباري تعالى ﴿ **وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ القَوْمِ الصّالِحينَ** ﴾ حال أخرى من الضمير المذكور بتقدير مبتدأ أي أي شيء حصل لنا غير مؤمنين ونحن نطمع في صحبة الصالحين ؟ وإنما قدر المبتدأ ليكون الحال هو الجملة الاسمية ، لأن المضارع المثبت لا يقع حالاً بالواو إلا بتأويل تقدير المبتدأ ﴿ **فَأَثَابَهُمُ اللهُ** ﴾ أي أعطاهم وجازاهم ﴿ **بِمَا قَالُوا** ﴾ أي عن اعتقادهم بدليل قوله مما عرفوا من الحق ﴿ **جَنّاتٍ** ﴾ بساتين ﴿ **تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ** ﴾ أي تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها أنهار الماء والعسل والخمر واللبن ﴿ **خَالِدِينَ فِيها وذلِكَ** ﴾ الثواب ﴿ **جَزاءُ المُحْسِنينَ** ﴾ أي الذين أحسنوا النظر والعمل أو الذين اعتادوا الإحسان في الأمور ﴿ **والّذينَ كَفَرُوا وَكذّبوا بآياتِنا** ﴾ فاتوا على ذلك ، عطف التكذيب بآيات الله على الكفر ، مع أنه ضرب منه ، لما أن القصد بيان حال المكذبين ﴿ **أُولَئِكَ أَصْحابُ الجَحِيمِ** ﴾ أهل النار الشديدة الوقود وهم الذين استتروا بحجب أوصاف البهيمية والسبعية والشيطانية ، فأصمهم الله وأعمى أبصارهم ﴿ **يا أَيُّها الذينَ آمنُوا لا تُحرِّموا طَيِّبَاتِ ما أَحَلَّ اللهُ لكُمْ** ﴾ أي لا تمنعوا ما طاب ولذَّمنه أنفسكم كمنع التحريم ﴿ **وَلا تعْتَدُوا** ﴾ أي لا تتجاوزوا حدود ما أحل لكم ﴿ **إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ** ﴾ أي المتجاوزين حدود الله ﴿ **وَكُلوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً** ﴾ أي ما أحل لكم وطاب مما رزقكم الله ، قال ابن المبارك : الحلال ما أخذته من وجهه ، والطيب ما غَذَّى ونَمَّى ، ومالا يغذي فمكروه إلا على وجه التداوي ﴿ **واتَّقُوا اللهَ الذي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنونَ** ﴾ تأكيد للوصية بما أمر به ، فإن الإيمان يوجب التقوى بالانتهاء عما نهى عنه ، وعدم التجاوز عما حد له * قال الإمام قوله تعالى ﴿ **كلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ** ﴾ يدل على أنه تعالى قد تكفل برزق كل أحد فإنه لو لم يتكفل برزقه لما قال ﴿ **كُلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اللهُ** ﴾ وإذا تكفل بالرزق ، وجب أن لا يُبَالغ في الطلب ، وإن يعول على وعده وإحسانه فإنه أكرم من أن يخلف الوعد ولذلك قال عليه السلام (فاتقوا اللهَ وأجملوا في الطلب)[1] قال أهل التفسير : ذكر النبي عليه السلام يوماً النار ، ووصف القيامة وبالغ في الإنذار ، فرَّق له الناس وبكوا ، فاجتمع بعض الصحابة في بيت (عثمان بن مظعون) الجمحي ، وتشاوروا

(١) هذا جزء من حديث رواه أبو نعيم في الحلية وأوله « إن روح القُدُسِ نَفث في رُوعي أنَّ نفساً لن تموت ، حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجْملوا في الطلب .. » الحديث وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٩٣ .

واتفقوا على أن يترهبوا ويلبسوا المسوح ويصوموا الدهر ، ويقوموا الليل ، ولا ينـاموا على الفرش ، ولا يـأكلوا اللحم ، فبلغ ذلـك رسول الله ﷺ فجمع النـاس وخطبهم وقـال : (مـا بـال قـوم حرمـوا النسـاء والطعام ، والطيب وشهوات الدنيا ؟ أما إني لا آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهباناً ، فإنـه ليس من ديني ترك اللحم والنساء ، ولا اتخاذ الصوامع ، وإن سياحة أمتي الصوم ، ورهبانيتهم الجهاد ، فـاعبـدوا الله ولا تشركوا بـه شيـأ ، وحجوا واعتمروا ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصومـوا رمضـان ، واستقيمـوا يستقم لكم ، فإنما هلك من هلك قبلكم بالتشديد ، شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم ، فأولئك بقايـاهم في الـديـارات والصوامع) فأنزل الله هذه الآية .

وجاء رجل إلى الحسن فقـال لـه : « إن لي جـاراً لا يـأكل الفـالوذج ، قـال ولم ؟ قـال يخـاف أن لا يؤدي شكره ، قال أفيشرب الماء البارد ؟ قال نعم قال : إن جارك هذا جاهل ، إن نعمة الله عليه في الماء البـارد أكثر من نعمتـه في الفـالوذج » وسئل فضيل عن ترك الطيبـات من اللحم والخبيص للـزهـد ، فقـال لمن قـال لا آكل الخبيص : « ليتـك تـأكل وتتقي ! إن الله لا يكره أن تـأكل الحـلال الصرف ، كيف برُّك لـوالـديـك وصلتـك للرحم ؟ كيف عطفـك على الجـار ؟ كيف رحمتـك للمسلمين ؟ كيف كظمـك للغيـظ ؟ كيف عفوك عمن ظلمك ؟ كيف إحسانك إلى من أساء إليك ؟ كيف صبرك واحتمالـك للأذى ؟ أنت إلى أحكام هـذا أحوج منـك إلى ترك الخبيص » والحـاصـل أن الإفراط في الرهبـانيـة ، والاحتراز التـام عن اللـذات والطيبـات ، ممـا يوقـع الضعف في الأعضـاء الرئيسية التي هي القلب والـدمـاغ ، وإذا وقـع الضعف فيهـا اختلت الفكرة ، وباختلالها تفوت عنهـا الكمـالات ، وأيضـاً الرهبـانيـة التـامـة توجب خراب الـدنيـا ، وانقطاع الحرث والنسل ، فلما كانت عمارة الدنيا والآخرة منوطـة بترك تلـك الرهبـانيـة ، والمواظبـة على المعرفة والمحبة والطاعة ، اقتضت الحكمة أن لا يحرم الإنسان ما طاب ولـذَّ ، ممـا أحل الله كما نطقت الآيـة به ، ولكن أشارت الآية أيضاً إلى حدّ الاعتدال كما قال ﴿ **ولا تعْتَدوا** ﴾ فاعتدال في التناول ، وكـذا في الرياضة ممدوح جداً ، ولذا ترى المرشد الكامل ، يأمر في ابتداء أمره بترك اللحم والـدسم والجمـاع وغيرهـا ولكن على الاعتدال بحسب مزاجه ، فإن للرياضيات تأثيراً عظيماً في إصلاح الطبيعة ، وهو أمر مهم جـداً فلا متمسك لأرباب الظاهر في ترك للرِّياضات مطلقـاً ، وقـد أشـار النبي عليـه الصلاة السلام في وصـايـاه لعثمان بن مظعون إلى جملة من الأمر ، فـافهم وارشـد إلى طريق الصواب ، ولا تفريـط ولا إفراط في كل باب ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ في أَيْمانِكُمْ** ﴾ اللغو في اليمين : الساقط الـذي لا يتعلق بـه حكم ، وهو عند الإمام الأعظم أن يحلف على شيء يظن أنه كذلـك وليس كما يظن ، مثل أن يرى الشيء من بعيـد ، فيظن أنه كذا فيقول والله إنه كذا ، فإذا هو بخلافه ، فلا مؤاخـذة في هـذا اليمين بـإثم ولا كفـارة ، وأمـا الغموس وهي حلفه على أمرٍ ماض أو حال كـذبـاً عمـداً مثل قولـه : والله لقـد فعلت كـذا وهو لم يفعلـه

وعكسه ، ومثل والله ما لهذا عليَّ دينٌ ، وهو يعلم أن له عليه ديناً ، فحكمها الإثم لأنها كبيرة قال عليه السلام (من حلف كاذباً أدخله الله النار)[١] أي لا يؤاخذكم في حق أيمانكم بسبب ما كان لغواً منها ، بأن لا يتعلق بها حكم دنيوي ولا أخروي ﴿ **ولكنْ يُؤاخِذُكُمْ بما عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ** ﴾ أي ولكن يؤاخذكم بما عقدتموها إذاحنثتم وهذه اليمين هي اليمين المنعقدة ، وهي الحلف على فعل أمر أو تركه في المستقبل ﴿ **فَكَفّارَتُهُ** ﴾ أي الفعلة التي تذهب إثمه وتستره ﴿ **إطعامُ عَشَرَةِ مساكينَ منْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمون أَهْليكُمْ** ﴾ أي أن تطعموا عشرة مساكين ، طعاماً كائناً من أوسط ما تطعمون عيالكم من الزوجة والأولاد والخدم ، أي من أقصده في النوع أو المقدار ، وهو نصف صاع من بُرّ ، لكل مسكين كالفطرة ، ولو أطعم فقيراً واحداً عشرة أيام أجزأه ، ولو أعطاه دفعة لا يجوز إلا عن يوم واحد ﴿ **أَوكسْوَتُهُمْ** ﴾ أي يكسو كل واحد من العشرة ثوباً ، يستر عامة بدنه وهو الصحيح ، ولا يجزىء السراويل لأنَّ لابسه يسمى عرياناً عرفاً ﴿ **أو تَحريرُ رَقَبَةٍ** ﴾ أي أو إعتاق إنسان كيف ما كان مؤمنا كان أو كافراً ، ذكراً أو أنثى ، صغيراً أو كبيراً ، ولا يجوز الأعمى والأصم الذي لا يسمع أصلاً ، والأخرس لفوات جنس المنفعة ، ومتى أتىبواحدة منها فإنه يخرج عن العهدة ﴿ **فمنْ لم يَجِدْ** ﴾ أي شيأ من الأمور المذكورة ﴿ **فَصِيامُ** ﴾ أي فكفارته صيام ﴿ **ثَلثةِ أيامٍ** ﴾ متتابعات عند الإمام الأعظم ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي الذي ذكرت لكم وأمرتكم به ﴿ **كَفّارةُ أَيْمانِكُمْ إذا حَلَفْتُمْ** ﴾ وحنثتم ﴿ **واحْفَظوا أَيْمَانَكُمْ** ﴾ بأن تبرّوا فيها ما استطعتم ، فإن عجز عن البرّ ، أو رأى غير المحلوف عليه خيراً منه ، فله حينئذ أن يحنث ويُكفِّر ، كما قال الفقهاء : من اليمين المنعقدة ما يجب فيه البر كفعل الفرائض وترك المعاصي ، لأن ذلك فرض عليه فيتأكد باليمين ، ومنها ما يجب فيه الحنثُ كفعل المعاصي وترك الواجبات ، وفي الحديث (من حلف أن يطيع الله فلْيُطِعْه ، ومن حلف أن يعصيه فلا يعصِه)[٢] .

﴿ **كَذلِكَ** ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الآتي ، أي مثل ذلك البيان البديع ﴿ **يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ** ﴾ أعلام شريعته وأحكامه ﴿ **لعلّكُمْ تَشْكُرونَ** ﴾ نعمته فيما يعلمكم ويسهل عليكم المخرج ﴿ **يا أيها الذّينَ آمنُوْا إنّما الخمْرُ** ﴾ هذه هي الآية الرابعة من الآيات الأربع التي نزلت في الخمر ، وقد سبق التفصيل في سورة البقرة ويدخل في الخمر كل مسكر ﴿ **والميْسِرُ** ﴾ أي القمار كله فيدخل فيه النرد والشطرنج وغير ذلك مما يقامرون به ﴿ **والأَنْصَابُ** ﴾ أي الأصنام المنصوبة للعبادة واحدها نَصْب بفتح النون وسكون

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود بلفظ « من حلف على يمينٍ مصبورةٍ كاذباً ، فليتبوّأْ بوجههِ مقعده من النار » ومعنى « مصبورة » أي لازمة له من جهة الحاكم ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٦٥٨ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري والترمذي وأبو داود والنسائي بلفظ « من نذر أن يطيع اللهَ فَليطعْهُ ، ومن نذر أن يعصي اللهَ فلا يعصه » وهو في الترمذي وأبي داود في كتاب الأيمان والنذور ، وانظر جامع الأصول ١١ / ٥٥٢ .

الصاد ﴿ **والأَزْلاَمُ** ﴾ هي سهام مكتوب على بعضها أمرني ربي ، وعلى بعضها نهاني ربي ، يطلبون بها علم ما قُسِم لهم من الخير والشر ، قال المفسرون : كان أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً ، أو غزواً ، أو تجارة ، أو غير ذلك طلب معرفةَ علم أنه خير أو شر من الأزلام ، وهي قداح كانت في الكعبة عند سدنة البيت ، على بعضها أمرني ربي ، وعلى بعضها نهاني ربي ، وبعضها غُفْل لا كتابة عليها ولا علامة ، فإن خرج السهم الآمر مضوا على ذلك ، وإن خرج الناهي يجتنبون عنه ، وإن خرج الغُفْل أجالوها ثانياً ، فمعنى الاستقسام بالأزلام : طلب معرفة ما قسم لهم ، وهي جمع زلم ﴿ **رِجْسٌ** ﴾ قذر تنفر منه العقول السليمة ، والرجسُ : بمعنى النجس ، إلا أن النجس يقال في المستقذر طبعاً ، والرجس أكثر ما يقال في المستقذر عقلاً ، وسميت هذه المعاصي رجساً لوجوب اجتنابها ، كما يجب اجتناب الشيء المستقذر ﴿ **مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ** ﴾ أي رجس كائن من عمله أي من تزيينه ، لأنه هو الداعي إليه والمرغب فيه ، والمزيّن له في قلوب فاعليه ﴿ **فاجْتَنبوهُ** ﴾ أي الرجس ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ** ﴾ أي راجين فلاحكم ، أمر بالاجتناب وهو تركه جانباً ﴿ **إنَّما يُريدُ الشَّيْطانُ أنْ يُوقِعَ بيْنَكُمُ العَداوَةَ والبغْضَاءَ في الخَمْرِ والميْسِرِ** ﴾ وهو إشارة إلى المفاسد الدنيوية ، أما العداوة في الخمر ، فهي أن الشاربين إذا سكروا عربدوا وتشاجروا ، كما فعل الأنصاري الذي شجَّ « سعد بن أبي وقاص » بلَحْي الجمل ، وأما العداوة في الميسر فهي أن الرجل كان يقامر على الأهل والمال ، ثم يبقى حزيناً مسلوب الأهل والمال ، مغتاظاً على حرفائه ، وتخصيص الخمر والميسر للتنبيه على أنهما المقصودان بالبيان ، لأن هذه الآية خطاب مع المؤمنين والمقصود نهيهم عن الخمر والميسر ، وإنما ضمَّ الأنصاب والأزلام إليهما مع أن تعاطيهما مختص بأهل الجاهلية تأكيداً لقبح الخمر والميسر وإظهاراً لكون هذه الأربعة متقاربة في المفسدة ﴿ **وَيَصُدَّكُمْ عنْ ذِكْرِ اللهِ وعَنِ الصَّلوٰةِ** ﴾ أي يمنعكم عنهما وهو إشارة إلى المفاسد الدينية فإن شرب الخمر يورث الطرب واللذة الجسمانية ، والنفس إذا استغرقت في اللذة غفلت عن ذكر الله وعن الصلاة ، وكذا من يقامر بالميسر إن كان غالباً صار استغراقه في لذة الغلبة يورثه الغفلة عن العبادة ، وإن صار مغلوباً صار شدة اهتمامه بأن يحتال بحيلة يصير بها غالباً مانعاً من أن يخطر بباله شيء سواه ، وتخصيص الصلاة بالإفراد مع دخولها في الذكر للتعظيم ، والإشعار بأن الصادَّ عنها كالصادِّ عن الإيمان لما أنها عماده ﴿ **فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهونَ** ﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر أي انتهوا ، وهذا نهي بألطف الوجوه ليكون أدعى إلى الانتهاء ، فلما سمعها عمر رضي الله عنه قال : انتهينا يارب انتهيْنَا ، وحرمت الخمر في سنة ثلاث من الهجرة بعد وقعة أحد ﴿ **وَأَطيعُوا اللهَ وأطيعُوا الرَّسولَ** ﴾ فيما أمرا به ﴿ **واحْذَروا** ﴾ عما نهيا عنه ﴿ **فإنْ تَوَلَّيْتُمْ** ﴾ أي أعرضتم عن الامتثال والطاعة ﴿ **فاعْلَموا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنا البَلاغ المُبينُ** ﴾ وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه ، وخرج عن عهدة الرسالة أيَّ خروج ، وقامت عليكم الحجة وانتهت الأعذار وانقطعت العلل ، وما بقي

بعد ذلك إلا العقاب ، اعلم أن الله تعالى قرن الخمر والميسر بالأصنام ، ففيه تحريم بليغ لهما ، وفي الحديث (لعنَ اللهُ الخمر وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها)[1] ﴿ **ليسَ علَى الذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ جُنَاحٌ** ﴾ أي إثم وحرج ﴿ **فيما طَعِمُوْا** ﴾ أي تناولوا أكلاً أو شرباً فيتناول شرب الخمر وأكل مال الميسر[2] ﴿ **إذا ما اتَّقَوْا وآمنُوا وعَمِلوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أي استمروا على الإيمان وامتنعوا عن الشراب بعد ذلك مع كونه مباحاً فيما سبق ﴿ **ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمنُوا** ﴾ أي بتحريمه ﴿ **ثُمّ اتَّقَوْا** ﴾ أي ما حرم عليهم بعد ذلك كان مباحاً من قبل ﴿ **وأحْسَنُوا** ﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة الجميلة ، المنتظمة لجميع ما ذكر من الأعمال ﴿ **وَاللهُ يُحِبُّ المحْسِنِينَ** ﴾ فلا يؤاخذهم بشيء ، وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ، ومن صار محسناً صار للهِ محبوباً ، ومقام المحبوبية فوق جميع المراتب ، ولذا كان رسول الله ﷺ حبيب الله .

﴿ **يَا أيُّها الذّينَ آمنُوا** ﴾ نزلت عام الحديبية في السنة السادسة من الهجرة أراد عليه السلام زيارة الكعبة ، فسارع مع أصحابه من المدينة وهم ألف وخمسمائة وأربعون رجلاً ، فنزلوا بالحديبية فابتلاهم الله بالصيد وهم محرمون ، كانت الوحوش تغشاهم في رحالهم بحيث كانوا متمكنين من صيدها ، أخذاً بأيديهم وطعناً برماحهم فهمُّوا بأخذها فأنزل الله ﴿ **يا أيُّها الذينَ آمنُوا لَيبْلُوَنّكُمُ اللهُ** ﴾ يقال بلوته بلواً جربته واختبرته ، واللام جواب قسم محذوف ، أي والله ليعاملنكم معاملة من يختبركم ليتعرف أحوالكم ﴿ **بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ** ﴾ أي بتحريم شيء من الصيد ، والمراد صيد البر مأكولاً وغير مأكول ، ما عدا المستثنيات من الفواسق وفي الحديث (خمسٌ فواسق يقتلن في الحل والحرم : الحيةُ ، والعقرب ، والغراب ، والفأرة ، والكلب العقور)[3] وأراد بالكلب العقور الذئب على ما ورد في بعض الروايات ﴿ **تَنَالُه أيديكُمْ وَرِماحُكُمْ** ﴾ أي تصل إليه أيديكم ورماحكم ، بحيث تأخذون بأيديكم وتطعنون برماحكم ، وتنكير « شيء » للتحقير المؤذن بأن ذلك ليس من الفتن الهائلة ، التي تزل فيها أقدام الراسخين كالابتلاء بقتل الأنفس وإتلاف الأموال .

﴿ **لِيَعْلَمَ اللهُ منْ يَخَافُهُ بِالغَيْبِ** ﴾ أي ليتميز الخائف من عقاب الله لقوة إيمانه ، فلا يتعرض

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في الأشربة برقم / ٣٦٧٤ / ورواه ابن ماجه برقم / ٣٣٨٠ / والترمذي في كتاب البيوع برقم / ١٢٩٥ / وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٥ / ١٠٤ .

(٢) قال ابن عباس : لَمّا نزل تحريم الخمر ، قال قوم : كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر ؟ فنزلت الآية الكريمة ترفع الإثم عمّن فعل ذلك قبل التحريم ، وانظر صفوة التفاسير ١ / ٣٦٤ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث عائشة ، ورواه البخاري بلفظ « خمسٌ من الدوابّ ليس على المحرم في قتلهن جناح .. » الحديث وانظر الفتح ٢ / ٩١ وجامع الأصول ٣ / ٧٧ .

للصيد ، ممن لا يخاف كذلك لضعف إيمانه فيقدم عليه ﴿ فَمَنِ اعْتَدىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ ﴾ أي فمن تعرض للصيد ، بعد ما بينا أن ما وقع من كثرة الصيد وعدم توحشه منهم ، ابتلاءً مؤدّ إلى تميز المطيع من العاصي ﴿ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾لأن الاعتداء بعد ذلك مكابرة صريحة ، وخروج عن طاعته وخشيته ، والمراد عذاب الآخرة أن مات قبل التوبة والتعزير والكفارة في الدنيا ﴿ يَا أَيُّهَا الذّينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ ﴾ وهو اسم لكل ممتنع متوحش من الحيوانات ، سواء كان مأكول اللحم أو لم يكن ، والمراد ما عدا الفواسق وهي « العقرب والحية والغراب والفأرة والكلب العقور » فإنها تقتل في الحل والحرم ﴿ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾ جمع حَرَام وهو المحرم ، وإن كان في الحلّ ، فالمحرم لا يتصيد أصلاً ، سواء كان في الحل أو في الحرم ، بالسلاح أو بالجوارح ، والحلال يتصيد في الحلّ دون الحرم والمعنى : لا تقتلوه والحال أنتم محرمون ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ ﴾ أي الصيد المعهود البري مأكولاً كان أو غير مأكول ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي من المؤمنين ﴿ مُتَعَمِّداً ﴾ أي ذاكراً لإحرامه ، عالماً بحرمة قتل ما يقتله ﴿ فَجزاءٌ ﴾ أي فعليه جزاء وفدية ﴿ مِثْلُ مَا قَتَلَ ﴾ أي مماثل لما قتل ، والمراد به المثل باعتبار القيمة ، لا باعتبار الخلقة والهيئة ، فإن بلغت قيمته قيمة هدي ، تخير الجاني بأن يشتري بها ما قيمته قيمة الصيد فيهديه إلى الحرم ، وبين أن يشتري بها طعاماً فيعطي كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من تمر ، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً ، فإن فضَل مالا يبلغ طعام مسكين تصدق به أو صام عنه يوماً كاملاً ، لأن الصَّوم مما لا يتبعض فيكون قوله تعالى ﴿ مِنَ النَّعَمِ ﴾ بياناً للهدي المشترىٰ بالقيمة على أحد وجوه التخيير ، والنَّعم في اللغة : من الإبل والبقر والغنم ، فإذا انفردت الابل قيل إنها نَعَم ، وإذا انفردت البقر والغنم لم تسم نَعَماً ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ﴾ أي بمثل ما قتل صفة لجزاء ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي رجلان عدلان من المسلمين ﴿ هدْياً ﴾ الهَدْيُ : ما يُهدى إلى البيت تقرباً إلى الله تعالى من النَّعَم ، أيسره شاة ، وأوسطه بقرة ، وأعلاه بدنة أي ناقة ﴿ بَالِغَ الكَعْبَةِ ﴾ صفة لهدياً ومعنى بلوغه الكعبة : ذبحه بالحرم ﴿ أو كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أو عَدْلُ ذلكَ صِيَاماً ﴾ أي فعليه جزاء مماثل للمقتول هو من النعم ، أو إطعام مساكين أو صيام أيام بعددهم ، فحينئذ تكون المماثلة وصفاً لازماً للجزاء ، يقدَّر به الهَدْي والطعام والصيام ، فيختار الجاني كَلاً منها بدلاً من الآخرين قال الفراء : العِدْل بالكسر : المِثْلُ من جنسه ، والعَدْل بالفتح المثل من غير جنسه ﴿ ليَذوقَ وَبَالَ أمرِه ﴾ أي سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام ، والوبال : المكروه والضرر ﴿ عَفَا اللهُ عمّا سَلَفَ ﴾ منْ قتل الصيد محرماً قبل التحريم ﴿ ومَنْ عَادَ ﴾ إلى قتل الصيد بعد النهي عنه وهو محرم ﴿ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنهُ ﴾ أي فهو ممن ينتقم الله منه ، والمراد بالانتقام التعذيب في الآخرة ، وإذا أُضيف إلى الله تعالى أريد به المعاقبة والمجازاة ﴿ واللهُ عزيزٌ ﴾ غالب لا يغالب ﴿ ذُوْ انتقامٍ ﴾ شديد ممن أصر على العصيان والاعتداء ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ ﴾ الخطاب للمحرمين ﴿ صَيْدُ البَحْرِ ﴾ أي ما يصاد في المياه

كلها ، بحراً كان أو نهراً أو غديراً ، وهو مالا يعيش إلا في الماء ، وما يعيش في البر والبحر كالبط ، والضفدع ، والسرطان ، والسلحفاة ، وجميع طيور الماء لا يسمى صيد البحر ، بل كل ذلك صيد البر ، ويجب الجزاء على قاتله ، قال الإمام : جميع ما يصطاد في البحر ثلاثة أجناس : السمك وجميعُه حلال ، والضفادع وجميع أنواعها حرام ، واختلفوا فيما سوى هذين الجنسين ، فقال أبو حنيفة : إنه حرام ، وقال الأكثرون : إنه حلال لعموم هذه الآية .

﴿ **وَطَعَامُهُ** ﴾ أي طعام البحر وهو ما قذفه البحر وَلَفَظه ، فيؤخذ من غير معالجة في أخذه ، وقال أبو السعود : ﴿ **وَطَعَامُهُ** ﴾ أي ما يُطعم من صيده وهو تخصيص بعد التعميم ، والمعنى أحل لكم التعرض لجميع ما يصاد في المياه والانتفاع به ﴿ **مَتَاعاً لَكُمْ** ﴾ أي أُحلَّ طعامه تمتُّعاً للمقيمين يأكلونه طرياً ﴿ **وَلِلسَّيَّارَةِ** ﴾ منكم يتزودونه قديداً[1] ﴿ **وَحُرِّمَ عليكُمْ صيدُ البَرِّ** ﴾ وهو ما يُفرِّخُ فيه وإن كان يعيش في الماء في بعض الأوقات كطير الماء ﴿ **ما دُمْتُمْ حُرُماً** ﴾ أي مدة دوامكم محرمين وظاهر الآية يوجب حرمة ما صاد الحلال على المحرم ، وإن لم يكن له مدخل فيه ، لكن مذهب أبي حنيفة أنه يحل له ما صاده الحلال وإن صاده لأجله ، إذا لم يُشر إليه ولم يَدلّه عليه ، وكذا ما ذبحه قبل إحرامه ، لأن الخطاب للمحرمين ، وكأنه قيل : حُرّم عليكم ما صدتم في البر ، فيخرج منه مصيد غيرهم ﴿ **واتّقوا اللهَ** ﴾ فيما نهاكم عنه من جميع المعاصي ﴿ **الذّي إليْهِ تُحْشَرونَ** ﴾ لا إلى غيره ، حتى يتوهم الخلاص من أخذه تعالى ﴿ **جَعَلَ اللهُ الكَعْبَةَ** ﴾ أي صيَّرها وإنما سُمِّي البيت كعبة لتكعبه أي لتربعه ، وقيل سميت كعبة لارتفاعها عن الأرض ، وأصلها من الخروج والارتفاع ، ومنه قيل للجارية إذا قَارَبت البلوغ وخرج ثدياها : كَاعِبٌ ، والكعبة لَمّا ارتفع ذكرها في الدنيا ، واشتهر أمرها في العالم سميت بهذا الاسم ، ولذلك إنهم يقولون لمن عَظُم قدرُه وارتفع شأنه : فلانٌ علا كعبه ﴿ **البَيْتَ الحَرامَ** ﴾ عطف بيان على جهة المدح دون التوضيح كما تجيء الصفة كذلك ، وسمي البيت الحرام لأن الله تعالى حرمه وعظم حرمته فالحرام بمعنى المحرَّم وفي الحديث (إن الله تعالى حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض)[2] ﴿ **قِياماً للنَّاسِ** ﴾ معنى كونه قياماً لهم : أنه مدار لقيام أمر دينهم ودنياهم ، أما الأول فلأنه يتوجه إليه الحجاج والعمار ، فيكون ما في البيت من المناسك العظيمة ، والطاعات الشريفة سبباً لحط الخطيئآت ، وارتفاع الدرجات ، ونيل الكرامات ، وأما الثاني فلأنه يُجْبىٰ إلى الحرم ثمرات كل شيء ، يربح فيه التجار ، وكانوا

---

(١) المراد بالسيارة : القومُ المسافرون ، فإنهم يحتاجون في سفرهم إلى زادٍ ، فأحلَّ الله لهم صيد البحر ليكون لهم طعاماً وزاداً في مسيرهم.

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ، وتتمه « فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لم تحلَّ لأحدٍ قبلي ، ولا تحلُّ لأحدٍ بعدي ، ولم تحلَّ لي قطُّ إلاَّ ساعةً من الدهر .. » الحديث وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٣٢ .

يأمنون فيه من النهب والغارة ، ولا يتعرض لهم أحد بسوء في الحرم ، حتى إن الرجل إذا قتل قتيلاً ولجأ إلى الحرم يأمن فيه ﴿ **والشَّهْرَ الحَرَامَ** ﴾ أي وجعل الشهر الحرام الذي يؤدى فيه الحج ، وهو ذو الحجة قياماً لهم أيضاً ، ووجه كون الشهر الحرام سبباً لقيام الناس ، أن العرب كان يتعرض بعضهم لبعض بالقتل والغارة ، في سائر الأشهر ، فإذا دخل الشهر الحرام زال الخوف ، وقدروا على سفر الحج والتجارات ، آمنين على أنفسهم وأموالهم ، فكان سبباً لاكتساب منافع الدين والدنيا ، ومصالح المعاش والمعاد ﴿ **والهَدْيَ** ﴾ أي وجعل الله الهدي أيضاً قياماً لهم ، وهو ما يُهدى إلى البيت ، ويُذبح ويفرق لحمه بين الفقراء ، فإنه نسك المهدي ، وقوام لمعيشة الفقراء ، فكان ذلك سبباً لقيام أمر الدين والدنيا ﴿ **وَالقَلائِدَ** ﴾ أي وجعل الله القلائد أيضاً قياماً للناس وهي جمع قلادة وهي ما يُقلَّد به الهدي من نعل أو لحاء شجر ، ليعلم به أنه هَدْي فلا يتعرض له بركوب أو حمل ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي شرع الله ذلك وبين ﴿ **لِتَعْلَموا أنَّ اللهَ يعْلَمُ ما في السّمواتِ وما في الأَرْضِ** ﴾ فإن تشريع هذه الشرائع من أوضح الدلائل على حكمة الشارع ، وعلى عدم خروج شيء من علمه المحيط ﴿ **وأنّ اللهَ بِكُلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ تعميم بعد تخصيص للتأكيد ﴿ **اعْلَموا أنّ اللهَ شَديدُ العِقابِ** ﴾ وعيد لمن انتهك محارمه وأصرَّ على ذلك ﴿ **وَأنّ اللهَ غَفورٌ رحيمٌ** ﴾ وعد لمن حافظ على مراعاة حرماتِهِ تعالى ﴿ **ما عَلَى الرَّسُولِ إلا البَلاغُ** ﴾ أي تبليغ الرسالة في أمر الثواب والعقاب ، فالرسول قد أتى بما وجب عليه من التبليغ ، وقامت عليكم الحجة ولزمتكم الطاعة ، فلا عذر لكم من بعد في التفريط ﴿ **وَاللهُ يعْلَمُ ما تُبْدونَ ومَا تكْتُمونَ** ﴾ أي ما تظهرون من القول والعمل ، وما تخفون فيؤاخذكم بذلك ﴿ **قُلْ لا يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ** ﴾ نزلت في حجاج اليمامة ، لَما هَمَّ المسلمون أن يوقعوا بهم ، بسبب أنه كان فيهم الحطيم ، وسبب النزول وإن كان خاصاً لكن حكمه عام ، في نفس المساواة عند الله بين الرديء وبين الجيد ، ففيه ترغيب في الجيد وتحذير عن الرديء ، فالطيب القليل خيرٌ عند الله من ملءِ الدنيا من الحرام لأن الحرام خبيث مردود ، والحلال طيب مقبول . فهما لا يستويان أبداً كما أن طالبهما كذلك ، والله تعالى يسوق الطيب إلى الطيب ، كما أنه يسوق الخبيث إلى الخبيث كما قال تعالى (**الخَبيثاتُ للخَبيثينَ وَالخبيثُونَ للخَبيثاتِ والطّيباتُ للطّيبينَ والطّيبونَ للطّيباتِ**) ومنها المؤمن والكافر ، والعادل والفاسق ، فالمؤمن كالعسل ، والكافر كالسم ، والعادل كشجرة الثمرة ، والفاسق كشجرة الشوك ، فلا يستويان على كل حال ، ومن أخلاق النفس حب المال ، والكبار قد عَدُّوا المال الطيب حجاباً ، فما ظنك بالخبيث منه ؟ فلابد من تصفية الباطن ، وتخليته عن حب ما سوى الله تعالى ﴿ **وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرةُ الخَبيثِ** ﴾ أي إن الخبيث ولو أعجبتك كثرته ، يمتنع أن يكون مساوياً للطيب ، فإن العبرة بالجودة والرداءة دون القلة والكثرة ، فإن المحمود القليل خير من المذموم الكثير ، بل كلما كثر الخبيث كان أخبث ﴿ **فاتّقوا اللهَ** ﴾ في تحري الخبيث وإن

كثر ، وآثروا الطيب وإن قلَّ ﴿ **يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ يا ذوي العقول الصافية ﴿ **لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ** ﴾ راجين أن تنالوا الفلاح وهو سعادة الآخرة ، ومن وصايا بعض الصالحين قبيل وفاته (أوصيكم بتقوى الله في السر والعلانية ، وبقلة الطعام ، وقلة المنام ، وقلة الكلام ، وهجر المعاصي والآثام ، وترك الشهوات على الدوام ، واحتمال الجفاء من جميع الأنام ، وترك مجالسة السفهاء والعوام ، ودوام مصاحبة الصالحين الكرام ، فإن خير الناس من ينفع الناس ، وخير الكلام ما قلَّ ودلَّ) واعلم أن النافع هو التقوى ، والسبب المنجي هو الإيمان والعمل الصالح ، دون الحسب والنسب ، فلا يغرنك الشيطان بكثرة أموالك وأولادك ، ووفرة مفاخر آبائك وأجدادك ، فأصل البول الماء العذبُ الصافي ، والله تعالى يخرج الميت من الحي ﴿ **يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُم وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ** ﴾ روي أنه لما نزلت (**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ**) قال الأقرع بن حابس : أكلَّ عام ؟ فأعرض عنه رسول الله ﷺ حتى أعاد ثلاثاً فقال : لا ولو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لما استطعتم ، فاتركوني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)[1] فنزلت ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه السلام كان يخطب ذات يوم غضبان ، من كثرة ما يسألون عنه مما لا يعنيهم ، فقال : لا أسأل عن شيء إلا أجبت ، فقال رجلٌ أين أبي ؟ فقال (في النار) وقال آخر من أبي ؟ فقال (حذافة) وكان يُدعى لغيره فنزلت[2] ﴿ **إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ** ﴾ أي لا تسألوا عن أشياء إن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم ، وإن تظهر لكم تغمكم ، والعاقل لا يفعل ما يغمُّه ، ﴿ **عَفَا اللهُ عَنْهَا** ﴾ أي عفا الله عن مسألتكم السالفة ، حيث لم يفرض عليكم الحج في كل عام جزاء بمسألتكم ، وتجاوز عن عقوبتكم الأخروية بسبب مسألتكم فلا تعودوا إلى مثلها ﴿ **وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ أي مبالغ في مغفرة الذنوب والإغضاء عن المعاصي ولذلك عفا عنكم ولم يؤاخذكم بعقوبة ما فرط منكم ، فالجملة اعتراض تذييلي مقرر لعفوه تعالى ﴿ **قَدْ سَأَلَهَا قَومٌ** ﴾ أي سألوا هذه المسألة لكن لا عينها بل مثلها في كونها محظورة ومستتبعة للوبال ، وعدمُ التصريح بالمثل للمبالغة في التحذير ﴿ **مِنْ قَبْلِكُمْ** ﴾ متعلق بسألها ﴿ **ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا** ﴾ أي بسببها ﴿ **كَافِرِينَ** ﴾ فإن بني اسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم في أشياء ، فإذا أمروا تركوا فهلكوا ، كما سأل قوم ثمود صالحاً الناقة ، وسأل قوم عيسى المائدة ، وفي الحديث (إن الله فرض فرائض فلا تضيِّعوها ، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها ، وعفا عن أشياء رحمةً بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها[3] ،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الحج برقم / ١٣٣٧ / والنسائي في سننه ٥ / ١١٠ ورواه أبو داود أيضاً برقم / ١٧٢١ / وانظر جامع الأصول ٣ / ٣ .

(٢) انظر سبب النزول للواحدي ، وتفسير القرطبي ، والبحر المحيط ، والألوسي .

(٣) الحديث أخرجه الدارقطني في سننه في الرضاع ص ٥٠٢ وله شواهد عند البزار والحاكم ، وانظر جامع الاصول ٥ / ٥٩ ،

وكان رجل يحضرمجلس « أبي يوسف » كثيراً ، ويطيل السكوت ، فقال له يوماً مالك ، لا تتكلم ولا تسأل عن مسألة ؟ قال أخبرني أيها القاضي : متى يفطر الصائم ؟ قال إذا غابت الشمس ، قال فإن لم تغب إلى نصف الليل ؟ فتبسم وتمثَّل بيتَ جرير :

وفي الصَّمْتِ زَيْنٌ لِلخَلِيّ وإنَّمَـــــا * صحيفـــةُ لبِّ المرءِ أن يتكلمـــا

وفي الأثر (عجبت من بني آدم وملكاه على نابيه ، فلسانه قلمُها ، وريقه مدادها ، كيف يتكلم فيما لا يعنيه ؟) ﴿ **مَا جَعَلَ اللهُ** ﴾ أي ما شرع وما وضع وما سنَّ ﴿ **مِنْ بَحِيرَةٍ** ﴾ كان أهل الجاهلية إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر ، بحروا أذنها أي شقُّوها وحرَّموا ركوبها ودرَّها ، ولا تطرد عن ماء ولا مرعى ﴿ **ولا سَائِبَةٍ** ﴾ كان الرجل منهم يقول إذا قدمتُ من سفري أو برئتُ من مرضي فناقتي سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها ﴿ **وَلاَ وَصِيلَةٍ** ﴾ كانوا إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم ، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها ، واستحيوا الذكر من أجل الأنثى فلا يذبح لآلهتهم ﴿ **ولا حَامٍ** ﴾ كانو إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن ، قالوا : قد حمى ظهره ، فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى ﴿ **وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ** ﴾ أي يكذبون عمداً حيث يفعلون ما يفعلون ، ويقولون الله أمرنا بهذا ﴿ **وأكثرهُمْ لا يَعْقِلون** ﴾ أنه افتراء باطل ﴿ **وإذا قِيلَ لَهُمْ** ﴾ أي للأكثر على سبيل الهداية والارشاد ﴿ **تَعَالَوْا إلىٰ ما أنْزَلَ اللهُ** ﴾ من الكتاب المبين للحلال والحرام ﴿ **وَإلىٰ الرَّسُولِ** ﴾ الذي أنزل هو عليه لتقفوا على حقيقة الحال وتميزوا الحرام من الحلال ﴿ **قَالوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيهِ آباءنا** ﴾ بيان لعنادهم واستعصائهم على الهادي إلى الحق ، وانقيادهم للداعي إلى الضلال ، أي كافينا الذي وجدنا عليه آباءنا ﴿ **أَوَلَوْ كَانَ آباؤُهُمْ لاَ يعْلَمونَ شيئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ** ﴾ ؟ أي أيقولون هذا القول ، ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيأ من الدين ، ولا يهتدون للصواب ؟ والمعنى أن الاقتداء إنما يكون بمن عُلم أنه عالم مهتد ، وذلك لا يعرف إلا بالحجة ، فكيف يتَّبعون أباءهم على العمى من غير بصيرة ولا هدى؟ أما ما ورد في الأحاديث النبوية في حق « الدجاجلة » وظهورها بين الأمة ، فلا شك عند أهل العلم أن « الدجاجلة » هم الأئمة المضلون ، لاسيما من متصوفة الزمان ، وقد شاهدناهم في عصرنا هذا ، قال بعضهم : قلت لمتشبه بالصوفية ظاهراً : بعْني جُبَّتك ؟ لما علم من أحواله ! فقال : إذا باع الصيَّاد شبكته فبأي شيء يتصيد ؟ ﴿ **يا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا عَلَيْكُمْ أنْفُسَكُمْ** ﴾ أي الزموا إصلاح أنفسكم وحفظها ، مما يوجب سخط الله وعذاب الآخرة ﴿ **لا يَضُرُّكُمْ** ﴾ ضلال ﴿ **مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ إذا كنتم مهتدين ، والآية نزلت لَّما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم ﴿ **إلىٰ اللهِ** ﴾ لا لأحد

سواه ﴿ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رجوعكم يوم القيامة ﴿ جَمِيعاً ﴾ الضّال والمهتدي ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي فيجازيكم على ذلك ، فهو وعدٌ ووعيدٌ للفريقين ، المهتدين والضالين ، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بعمل غيره ، ولا يتوهمنّ أن في الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتها ؟ كيف لا ومن جملة الاهتداء أن يُنكر على المنكر حسب الطاقة ، وفي الحديث (من رأى منكم منكراً إن استطاع أن يغيره فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[1] وقد روي أن الصدّيق قال يوماً على المنبر : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها غير موضعها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه عمّهم الله بعقابٍ منه)[2] فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض ، لا يسقط إلا عند العجز عن ذلك وكان السلف معذورين في بعض الأزمان في ترك الإنكار باليد واللسان ، والحاصل أن هذا يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأوقات ، فعلى المسلم أن لا يتجاوز عن الحد ، ويراعي حكم الوقت فإن لكل زمان دولة ورجالاً .

﴿ يا أَيُّها الذّينَ آمنُوا ﴾ روي أن (تميم بن أوس الداري) و (عدي بن زيد) خرجا إلى الشام للتجارة ، ومعهما « بُدَيل بن أبي مريم » مولى عمرو بن العاص ، وكان مسلماً فلما قدما إلى الشام مرض « بُدَيل » فكتب كتاباً فيه أسماء جميع ما معه ، وطرحه في درج الثياب ولم يخبرهما بذلك ، وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ، ومات ففتشاه فوجدا فيه إناءً من فضة منقوشاً بالذهب فغيّباه ، ودفعا المتاع إلى أهله، فأصابوا فيه الكتاب ، فسألوهما هل باع صاحبكما شيأ من متاعه ؟ قالوا : لا ، قالوا فهل طال مرضه فأنفق شيأ على نفسه ؟ قالا : لا ، إنما مرض حين قدم البلد فلم يثبت أن مات ، قالوا فإنا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية متاعه ، وفيها إناء منقوش مموّه بالذهب ، قالا : ما ندري ، إنما أوصى إلينا بشيء وأمرنا أن ندفعه إليكم ففعلنا ، وما لنا بالإناء من علم ، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ فنزلت[3] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فاستحلفهما بعد صلاة العصر عند المنبر بالله الذي لا إله إلاهو إنهما لم يخونا شيأ مما دفع ، ولا كتما فحلفا ، وهما تميم وعدي فنزلت الآية ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ أي شهادة الخصومات الجارية بينكم ﴿ إذا حَضَرَ أحدَكُمُ الموتُ ﴾ أي شارفه وظهرت علائمه ﴿ حِينَ الوَصِيَّةِ اثْنَانِ ﴾ أي شهادة بينكم حينئذ شهادة اثنين أو يشهد بينكم اثنان ، واختلفوا في هذين الاثنين ، فقال قوم : هما الشاهدان اللذان يشهدان على وصية الموصي ، وقال آخرون هما الوصيان لأن الآية نزلت فيهما ، ولأنه قال « تَحْبِسُونَهُمَا من بَعْدِ الصَّلاَةِ

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي والنسائي بلفظ « من رأى منكم منكراً فلْيغيّرْه بيده .. » الحديث انظر جامع الأصول ١ / ٣٢٤ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند عن أبي بكر الصدّيق ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٧١ .

(٣) انظر سبب النزول في تفسير الطبري ، والقرطبي ، وابن كثير ، والألوسي .

فَيُقْسِمَانِ » ولا يلزم الشاهدين الإيصاء وإن صح إلى واحد إلا أنه ورد في الآي الايصاء إلى اثنين احتياطاً واعتضاداً لأحدهما بالآخر ، فعلى هذا تكون الشهادة بمعنى الحضور كقولك شهدت وصية فلان بمعنى حضرتُ ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي صاحبا أمانة وعقل من أقاربكم ، لأنهم أعلم بأحوال الميت ، وأنصح له وأقرب إلى تحري ما هو أصلح له ! أو من أهل دينكم يا معشر المؤمنين ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أو شهادة عدلين آخرين من غيركم أي من الأجانب أو من غير أهلِ دينكم أي من أهل الذمة ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي سرتم وسافرتم فيها ﴿ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ أي إن سافرتم فقاربكم الأجل حينئذ ، وما معكم من الأقارب أو من أهل الإسلام من يتولى لأمر الشهادة ، كما هو الغالب المعتاد في الأسفار ، فشهادة بينكم شهادة آخرين ، أو فإنه يشهد آخران فقوله تعالى ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ ﴾ تقييد لقوله ﴿ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا ﴾ أي تقفونها وتصبرونها للتحليف ﴿ مِنْ بَعْدِ الصَّلَوٰةِ ﴾ أي بعد صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس ، وقد روي أن النبي عليه السلام وقتئذ حلَّفَ من حلَّف ، قال الشافعي : الإيمان تغلظ في « الدماء ، والطلاق ، والعتاق ، والمال إذا بلغ مائتي درهم » بالزمان والمكان ، فيحلف بعد صلاة العصر بمكة بين الركن والمقام ، وفي المدينة عند المنبر ، وفي بيت المقدس عند الصخرة ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ ﴾ أي إن ارتاب فيهما الوارث منكم بخيانة ، وأخذ شيء من التركة ، فاحسبوهما وحلفوهما بالله ﴿ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً ﴾ جواب القسم أي المقسم عليه والمعنى لا نأخذ لأنفسنا بدلاً من الله عرضاً من الدنيا أي لا نحلف بالله كاذبين لأجل المال وطمع الدنيا ﴿ وَلَوْ كَانَ ﴾ أي المقسم له وهو الميت ﴿ ذَا قُرْبَىٰ ﴾أي قريباً منافي الرحم ، تأكيد لتبرئهم من الحلف كاذباً ، ومبالغة في التنزه ، كأنها قالا : لا نأخذ لأنفسنا بدلاً من حرمة اسمه تعالى مالاً ، ولو انضم إليه رعاية جانب الأقرباء ، فقد انضم إليها ما هو أقوى منها ، وأدعى إلى عدم الحلف كاذباً ﴿ وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ أضيف إليه تعالى لأنه هو الآمر بها وبحفظها ، وعدم كتمانها وتضييعها ﴿ إِنَّا إِذاً ﴾ أي إذا كتمناها ﴿ لَمِنَ الآثِمِينَ ﴾ أي العاصين ﴿ فَإِنْ عُثِرَ ﴾ أي اطّلع بعد التحليف ﴿ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً ﴾ أي فعلاً ما يوجب إثماً من تحريفٍ وكتم ﴿ فَآخَرَانِ ﴾ أي رجلان آخران ﴿ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ أي مقام اللذين عثر على خيانتهما ، ﴿ مِنَ الَّذِينَ ﴾ أي من أهل الميت الذين ﴿ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ ﴾ من بينهم أي الأقربان إلى الميت الوارثان له ، الأحقَّان بالشهادة أي باليمين ، ومفعول استحق محذوف أي استحق عليهم أن يجردوهما للقيام بالشهادة ، ويظهروا بهما كذب الكاذبين ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ ﴾ عطف على يقومان ﴿ لَشَهَادَتُنَا ﴾ المراد بالشهادة اليمين أي ليميننا على أنهما كاذبان فيما ادعيا من الاستحقاق ، مع كونها حقة صادقة في نفسها ﴿ أَحَقُّ ﴾ بالقبول ﴿ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ﴾ أي من يمينهما مع كونها كاذبة في نفسها ، لما أنه قدظهر للناس استحقاقهما للإثم ، ويميننا منزهة عن الريب والريبة ﴿ وَمَا اعْتَدَيْنَا ﴾ أي

ما تجاوزنا فيها شهادة الحق وما اعتدينا عليهما بإبطال حقهما ﴿ **إِنَّا إِذاً** ﴾ أي إذا اعتدينا في يميننا ﴿ **لَمِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعذابه ، بسبب هتك حرمة اسم الله تعالى ، ومعنى النظم الكريم أن المحتضر ينبغي أن يشهد على وصيته عدلين من ذوي نسبه أو دينه ، فإن لم يجدهما بأن كان في سفر فآخرين من غيرهم ، ثم إن وقع ارتياب بهما أقسما على أنهما ما كتما من الشهادة ، ولا من التركة شيأ بالتغليظ في الوقت ، فإن اطلع بعد ذلك على كذبهما ، بأن ظهر بأيديهما شيء من التركة وادعيا تملكه من جهة الميت ، حلف الورثة وعمل بأيمانهم ، وإنما انتقل اليمين إلى الأولياء لأن الوصيين ادعيا أنهما ابتاعاه ، والوصي إذا أخذ شيئاً من مال الميت ، وقال : إنه أوصى به ، حلف الوارث إذا أنكر ذلك، وتحليف المُنْكِر ليس بمنسوخ ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ أي الحكم الذي تقدم تفصيله ﴿ **أَدْنَى أَنْ يَأْتُوْا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا** ﴾ أي أقرب إلى أن تؤدي الشهودُ الشهادة على وجهها الذي تحملوها عليه ، من غير تحريف ولا خيانة، خوفاً من العذاب الأخروي ﴿ **أَوْ يَخافوا أن تُردَّ أَيْمَانٌ بعدَ أَيْمَانِهِمْ** ﴾ بيان لحكمة شرعية في ردّ اليمين على الورثة أي أو يخافوا الافتضاح على رؤس الأشهاد بإبطال أيمانهم والعمل بايمان الورثة ، فينزجروا عن الخيانة المؤدية إليه .

﴿ **واتّقوا اللهَ** ﴾ في شهادتكم فلا تحرّفوها ، وفي أيمانكم فلا تحلفوا أيماناً كاذبة ، وفي أماناتكم فلا تخونوها ﴿ **واسْمَعوا** ﴾ ما توعظون به سماع طاعة وقبول ﴿ **وَاللهُ لا يَهْدي القَوْمَ الفَاسِقِينَ** ﴾ الخارجين عن الطاعة أي فإن لم تتقوا ولم تسمعوا كنتم فاسقين ، والله لا يهدي القوم الفاسقين إلى طريق الجنة أو إلى ما فيه نفعهم ، واعلم أن الشهادة الإخبار عن أمر حضره الشهود وشاهدوه ، إما معاينة كالأفعال نحو القتل والزنى ، أو سماعاً كالعقود والإقرارات ، فلا يجوز أن يشهد إلا بما حضره وعلمه وسمعه ، ولهذا لا يجوز أداء الشهادة حتى تذكر الحادثة ، وفي الحديث (إذا علمت مثل الشمس فاشهد ، وإلاّ فدع) وفي الشهادة إحياءُ حقوق الناس ، وصونُ العقود عن التجاحد ، وحفظ الأموال على أربابها ، ومن تعيَّن للتحمل لا يسعه أن يمتنع إذا طلب لما فيه من تضييع الحقوق ، إلا أن يقوم الحق بغيره ، بأن يكون في الصك سواه ، ممن يقوم الحق به ، فيجوز له الامتناع لأن الحق لا يضيع بامتناعه ، وهو مخيَّرٌ في الحدود بين الشهادة والستر ، لأن إقامة الحدود حسبة ، والستر على المسلم حسبة ، والستر أفضل وفي الحديث (من ستر على مسلم ستره الله عليه في الدنيا والآخرة)[1] ﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ** ﴾ أي اذكروا يوم يجمع الله الرسل ، وهو يوم القيامة ، والمراد جمعهم وجمع أممهم ، وإنما لم يذكر الأمم لأنهم أتباع لهم ﴿ **فَيَقُولُ** ﴾ أي الله تعالى للرسل ﴿ **ماذا أُجِبْتُم** ﴾ أي أيَّ إجابة أجبتم من جهة الأمم حين دعوتموهم

(١) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وأوله « من نفَّس عن مؤمنٍ كربةً من كُرَب الدنيا نفَّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر ... » الحديث وانظر جامع الأصول ٦ / ٥٦٢ .

إلى توحيدي ؟ إجابة إقرار وتصديق ، أم إجابة إنكار وتكذيب ؟ فإن قلت : ما وجه السؤال مع أنه تعالى لا يخفى عليه شيء ؟ قلت : توبيخ القوم كما أن قوله تعالى (**وإذا الموْؤُدَةُ سُئِلَتْ بأيِّ ذَنْب قُتِلتْ**) المقصود منه توبيخ من فعل ذلك الفعل بها ﴿ **قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا** ﴾ بما كنت أنت تعلم ﴿ **إنَّكَ أنتَ علاَّمُ الغُيُوبِ** ﴾ أي لأنك تعلم ما أضمروه وما أظهروه ، وهذا الجواب يتضمن التشكي من الأمم ، كأنه قيل : علمك محيط بجميع المعلومات ، فتعلم بما ابتلينا من قبلهم ، وكابدنا من سوء إجابتهم ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا الجواب إنما يكون في بعض مواطن القيامة ، وذلك عند زفرة جهنم وجُثُوِّ الأمم على الركب ، لا يبقى مَلَك مقرب ، ولا نبي مرسل ، إلا قال : نفسي نفسي ، فعند ذلك تطير القلوب من أماكنها ، فيقول الرسل من شدة هول المسألة وهول الموطن ﴿ **لاَ عِلْمَ لَنَا إنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ** ﴾ وقيل قولهم ﴿ **لا عِلْمَ لَنا** ﴾ ليس المقصود منه نفي العلم بجوابهم حال التبليغ ، ولا وقت حياة الأنبياء ، بل المقصود نفي علمهم بما كان من الأمم بعد وفاة الأنبياء ، في العاقبة وآخر الأمر الذي به الاعتبار، لأن الثواب والعقاب إنما يدوران على الخاتمة وذلك غير معلوم لهم ، فلهذا المعنى قالوا ﴿ **لا عِلْمَ لَنا** ﴾ وفي الحديث (إني علي الحوض أنظر من يَرِدُ عليّ منكم ، والله ليقطعنَّ دوني رجالٌ فلأقولنَّ أيْ ربِّ مني ومن أمتي ؟ فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، ما زالوا يرجعون على أعقابهم)[1] وفي الحديث (يُدعى نوح يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يارب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأمته هل بلَّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقول من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلَّغ) فذلك قوله تعالى (**وَكذٰلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكونُوا شُهَداءَ عَلىٰ النَّاسِ**) ثم يؤتى بمحمد فيُسْأل عن حال أمته ، فيزكيهم ويشهد بصدقهم ، فذلك قوله تعالى (**وَيَكونَ الرسُّولُ عَلَيْكُمْ شَهيداً**)[2] ﴿ **إذْ قَال اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾ أي اذكروا أيها المؤمنون ، وقت قول الله تعالى لعيسى ابن مريم وهو يوم القيامة ﴿ **اذْكُرْ نِعْمَتِي** ﴾ أي إنعامي ﴿ **عَلَيْكَ وعَلَى والِدَتِكَ** ﴾ حيث أظهر الله على يده معجزات كثيرة ، فكذبته طائفة وسموه ساحراً ، وغلا آخرون فاتخذوه إلهاً ، فيكون ذلك حسرة وندامة عليهم يوم القيامة ، والفائدة في ذكر أمه أن الناس تكلموا فيها ما تكلموا ، ثم عدَّد الله تعالى عليه نِعَمه العديدة نعمةً نعمة فقال ﴿ **إذْ أَيَّدتُّكَ** ﴾ أي اذكر إنعامي عليكما وقت تأييدي لك ﴿ **بِرُوحِ القُدُسِ** ﴾ أي بجبريل الطاهر ، وأضيف إليه الروح مدحاً له بكمال اختصاصه بالطهر ﴿ **تُكَلِّمُ النَّاسَ في المهْدِ وَكهْلاً** ﴾ والمعنى تكلمهم في الطفولة والكهولة على حدٍّ سواء أي

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الفضائل رقم / ٢٢٩٤ / ورواه البخاري بنحوه ، وانظر جامع الأصول ١٠ / ٤٧١ .

(٢) الحديث أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد الخدري ، ورواه البخاري والترمذي والنسائي بنحوه ، وهو حديث مشهور .

من غير أن يوجد تفاوت بين كلامه طفلاً وبين كلامه كهلاً ، في كونه صادراً عن كمال العقل ، وموافقاً لكمال الأنبياء والحكماء ، فإنه تكلم حال كونه في المهد بقوله ﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً** ﴾ وتكلم كهلاً بالوحي والنبوة ، فتكلمه في الحالتين على حدٍ واحد ، وصفة واحدة من غير تفاوت ، معجزةٌ عظيمة حصلت له وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده ، والكهلُ من الرجال الذي جاوز الثلاثين ووخطه الشيب أي خالطه ، وقيل : المراد بتكلمه كهلاً أن يكلم الناس بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان ، بناء على أنه رفع قبل أن أكمل عمره ، فيكون قوله تعالى ﴿ **وَكَهْلاً** ﴾ دليلاً على نزوله[1] ﴿ **وإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتابَ والحِكْمَةَ والتَّوْرٰيةَ وَالإِنْجِيلَ** ﴾ أي اذكر نعمتي عليكما وقت تعليمي لك جنس الكتب المنزلة ، والمراد بالحكمة العلم ، والفهم لمعاني الكتب المنزلة وأسرارها ، وقيل هي استكمال النفس بالعلم بها وبالعمل بمقتضاها ﴿ **وإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ** ﴾ أي تُصوِّر منه هيئة مماثلة لهيئة الطير ﴿ **بِإِذْنِي** ﴾ أي بتسهيلي وتيسيري ﴿ **فَتَنْفُخُ فِيهَا** ﴾ أي في الهيئة المصورة ﴿ **فَتَكونُ** ﴾ أي تلك الهيئة ﴿ **طيراً بإذني** ﴾ فالخلق حقيقة لله تعالى ، ظاهرٌ على يده عليه السلام عند مباشرة الأسباب ، كما أن النفخ في مريم كان من جبريل ، والخلق من الله تعالى ، سألوه عليه السلام على وجه التعنت فقالوا له : اخلق لنا خفاشاً واجعل فيه روحاً إن كنت صادقاً في مقالتك ، فأخذ طيناً وجعل منه خفاشاً ، ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، ﴿ **وتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ بِإِذْنِي** ﴾ الأكمه الذي وُلد أعمى ، والأبرص : هو الذي به برص أي بياض في الجلد وكلاهما مما أعيا الأطباء : ﴿ **وإِذْ تُخْرِجُ المَوْتَى بإذني** ﴾ أي تحيي الموتى وتخرجهم من قبورهم أحياء بتيسيري وأمري ﴿ **وإِذْ كَفَفْتُ بني إِسْرائيلَ عنْكَ** ﴾ أي منعت اليهود الذي أرادوا لك السوء عن التعرض لك ﴿ **إِذْ جِئْتَهُمْ بالبيّناتِ** ﴾ بالمعجزات الواضحة ظرف لكففت ﴿ **فَقالَ الذّينَ كَفَروا منْهُم إِنْ هَذا إِلاَّ سحرٌ مبينٌ** ﴾ أي ما هذا الذي جئتَ به إلا سحر ظاهرٌ ، فبقوا على مرض الكفر ، ولم يعالجوا بعلاج الإيمان على يد الحكيم الحاذق ، حكي عن الشبلي أنه اعتل فحمل إلى المستشفى وكتب الوزير إلى الخليفة في ذلك ، فأرسل الخليفة إليه مقدم الأطباء ليداويه ، فما نجحت مداواته ، قال الطبيبُ للشبلي : والله لو علمت أن مداواتك في قطعة لحم من جسدي ما عسر عليَّ ذلك ، قال الشبلي : دوائي فيما دون ذلك ، قال الطبيب وما هو ؟ قال : بقطعك الزنار[2] فقال الطبيب : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول

---

(١) نزول عيسى بن مريم أمر مقطوع به ، وهو من علامات الساعة ، وقد دلت عليه الأحاديث النبوية المتواترة كما في صحيح البخاري « يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكماً مقسطاً .. » الحديث .

(٢) الزنار من شعائر القسس والرهبان عند النصارى ، وهو من مراسم الطقوس الكهنوتية ، ولهذا قال الفقهاء : شدُّ الزنار مكفّرٌ أي لأنه تشبه بالنصارى ، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم .

الله ، فأخبر الخليفة بذلك فبكى ، وقال : نفذنا طبيباً إلى مريض ، وما علمنا أنا نفذنا مريضاً إلى طبيب ﴿ **وَإِذْ أَوحيتُ إلى الحَوَارِيِّين** ﴾ جمع حواري ، يقال : فلان حواريٌ فلان أي صفوته وخالصته ، من الحَوَر وهو البياض الخالص ، سمي به أصحاب عيسى عليه السلام ، لخلوص نياتهم ونقاء سرائرهم ، والمعنى اذكر يا محمد وقتَ أن أمرتهم على ألسنة رسلي وألقيتُ في قلوبهم ﴿ **أن** ﴾ مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول ﴿ **آمِنُوا بي** ﴾ أي بوحدانيتي في الربوبية والألوهية ﴿ **وَبِرَسُولي** ﴾ أي وبرسالة رسولي ﴿ **قَالُوا آمنّا واشْهَدْ بأنّنا مُسْلِمون** ﴾ أي مخلصون في إيماننا ﴿ **إذْ قالَ الحَوارِيُّونَ** ﴾ منصوب باذكر ﴿ **يا عيسىَ ابن مرْيمَ هلْ يسْتَطيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عليْنا مَائدةً مِنَ السّماءِ** ﴾ هذا السؤال كان في ابتداء أمرهم ، قبل أن يستحكم معرفتهم بالله ، ولذلك أساؤا الأدب مع عيسى عليه الصلاة والسلام ، حيث لم يقولوا : يا رسول الله أو يا روح الله ، وخاطبوه باسمه ونسبوه إلى أمه ، ولو وُفِّقوا للأدب لقالوا : يا روح الله ونسبوه إلى الله ، ثم أساءوا الأدب مع الله وقالوا : هل يستطيع ربك ؟ كالمتشكك في استطاعته وكمال قدرته على ما يشاء ، ثم أظهروا دناءة همتهم وخساسة نهمتهم ، إذ طلبوا بواسطة نبيّهم عيسى من الله تعالى « مائدة دنيوية » فانية ، وما رغبوا في فائدة دينية باقية ، ولو رغبوا في الفائدة الدينية لنالوا المائدة الدنيوية أيضاً ، والمائدة : الخوان الذي عليه الطعام ﴿ **قَالَ اتّقُوا اللهَ** ﴾ أي من أمثال هذا السؤال ﴿ **إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ** ﴾ أي بكمال قدرته تعالى ﴿ **قَالوا نُريدُ أنْ نأكُلَ مِنْها** ﴾ أي قالوا لا نريد بالسؤال إزالة شبهتنا في قدرته تعالى على تنزيلها ، بل نريد أن نأكل منها أكل تبرك ، يتشفى بسببها مرضانا ، ويتقوى بها أصحاؤنا ﴿ **وَتَطْمئِنَّ قُلُوبنا** ﴾ لكمال قدرته تعالى بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال ﴿ **وَنَعْلَمَ** ﴾ علماً يقينياً ﴿ **أنْ** ﴾ مخففة أي أنه ﴿ **قَدْ صَدَقْتَنَا** ﴾ في دعوى النبوة ، وأن الله يجيب دعوتنا إذا دعوناه وسألناه تلك المائدة . ﴿ **وَنَكونَ عَليْها مِنَ الشّاهدينَ** ﴾ نشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل ، ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقيناً ﴿ **قَالَ عيسى ابنُ مَرْيمَ** ﴾ لما رأى عليه السلام أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك ، وأنهم لا يقلعون عنه أزمع على استدعائها واستنزالها ، وأراد أن يلزمهم الحجة بكمالها ﴿ **اللهُمَّ** ﴾ أي يا أالله ، والميم عوض عن حرف النداء ﴿ **رَبَّنا** ﴾ ناداه سبحانه مرتين إظهاراً لغاية التضرع ، ومبالغة في الاستدعاء ﴿ **أَنْزِل عَلَيْنا مائدةً مِنَ السّماءِ تَكونُ لنَا عِيداً** ﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً نعظمه ، وإنما أسند ذلك إلى المائدة لأن شرف اليوم مستفاد من شرفها ﴿ **لأوّلِنا وآخِرنا** ﴾ أي عيداً لمتقدمينا ومتأخرينا ، روي أنها نزلت يوم الأحد ، ولذلك اتخذه النصارى عيداً ﴿ **وَآيةً** ﴾ كائنة ﴿ **مِنْكَ** ﴾ دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي ﴿ **وارْزُقْنا** ﴾ أي المائدة والشكر عليها ﴿ **وَأَنْتَ خيْرُ الرّازِقينَ** ﴾ تذييل جار مجرى التعليل أي خير من يرزق ، لأنه خالق الأرزاق ومعطيها بلا عوض ﴿ **قَالَ اللهُ إني مُنَزِّلُها عَليْكُمْ** ﴾ إجابة إلى سؤالكم

﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ ﴾ أي بعد تنزيلها ﴿ مِنْكُمْ ﴾ حال من فاعل يكفر ﴿ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ ﴾ بسبب كفره بعد معاينة هذه الآية الباهرة ﴿ عَذَاباً ﴾ أي تعذيباً ﴿ لا أُعَذِّبُهُ ﴾ صفة لعذابا أي أعذبه تعذيباً لا أعذّب مثل ذلك التعذيب ﴿ أَحداً مِنَ العَالمِينَ ﴾ أي من عالمي زمانهم أو من العالمين جميعاً ، فإنهم مسخوا قردة وخنازير ، ولم يعذب مثل ذلك غيرهم ، روي أن عيسى عليه السلام اغتسل ولبس المسح وصلّى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصره ، ثم دعا فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون حتى سقطت بين أيديهم ، فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلني من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة للعالمين ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ أي اذكر يا محمد للناس وقت قول الله تعالى لعيسى عليه السلام في الآخرة ، توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم بإقراره عليه السلام على رؤوس الأشهاد بالعبودية وأمره لهم بعبادته تعالى ﴿ ءأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهين منْ دُوْنِ اللهِ ﴾ أي هل أنت ياعيسى قلت للناس اعبدوني أنا وأمي ، واتخذوني إلهين معبودين من دون الله بطريق الإشراك به سبحانه ؟ ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ أي أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن أقول ذلك ، أو من أن يقال في حقك ذلك ﴿ ما يكونُ لي أنْ أَقُولَ ما ليْسَ لي بحَقٍّ ﴾ أي ما يستقيم وما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿ إن كنتُ قلتُه ﴾ أي هذا القول ﴿ فَقدْ علمتَهُ ﴾ لأني لا أقدر على هذا القول ، وصدورُه عني مستلزم لعلمك به قطعاً ﴿ تعْلَمُ ما في نفْسي ﴾ أي ما أخفيه في نفسي ﴿ وَلا أعْلَمُ ما في نفْسِكَ ﴾ أي ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك ، فعبر عما يخفيه الله من معلوماته ، بقوله « ما في نفسك »: للمشاكلة ﴿ إِنَّكَ أنتَ علاّمُ الغُيوبِ ﴾ ما كان وما يكون ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أَمرْتَنِي به ﴾ أي ما أمرتُهم إلا بما أمرتني به ، وإنما قيل لهم نزولاً على قضية حسن الأدب ، ومراعاة لما ورد في الاستفهام ﴿ أنِ اعْبُدوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ أي إلا ما أمرتني به بلفظ هو قولك ﴿ أن اعْبُدوا اللهَ رِبي وَرَبّكُمْ ﴾ ﴿ وكنتُ عَليهِمْ شَهيداً ﴾ رقيباً أراعي أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك ، وأمنعهم عن المخالفة ﴿ ما دُمْتُ فيهمْ ﴾ أي مدة دوامي فيما بينهم ﴿ فلمّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أي قبضتني إليك من بينهم ورفعتني إلى السماء ﴿ كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم ﴾ أي أنت لا غيرك كنت الحافظ لأعمالهم والمراقب لها ﴿ وأنتَ عَلىٰ كُلّ شَيْءٍ شَهيدٌ ﴾ مطلع عليه مراقب له ﴿ إنْ تُعذّبْهُمْ فإنّهُمْ عِبادُكَ ﴾ أي فإنك تعذب عبادك ، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه ، وفيه تنبيه على أنهم استحقوا التعذيب حيث عبدوا غيره تعالى ﴿ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ أي فلا عجز ولا استقباح ، فإنك القادر والقوي على الثواب والعقاب ، الذي لا يثبت ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب ، فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم ، فإن عَذَّبتَ فعدلٌ ، وإن غفرت ففضل ، روي أنه لما نزلت

هذه الآية قال رسول الله ﷺ (أمتي أمتي يارب) فبكى فنزل جبرائيل عليه السلام فقال له : إنَّ الله يقرئك السلام ، ويقول لك إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك[1] ﴿ **قَالَ اللهُ** ﴾ أي يقول الله تعالى يوم القيامة عقيب جواب عيسى عليه السلام ، مشيراً إلى صدقه في ضمن بيان حال الصادقين الذين هو في زمرتهم ﴿ **هٰذا** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **يومُ يَنْفَعُ الصّادِقِينَ صِدْقُهُمْ** ﴾ المراد الصدق في الدنيا فإن النافع ما كان حال التكليف ، والصادقون الرسل الناطقون الداعون إلى ذلك ، والأمم المصدقون لهم المعتقدون بهم عقداً وعملاً ﴿ **لَهُمْ جَنّاتٌ تجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خَالدينَ فيها أَبَداً** ﴾ أي لهم نعيم دائم ، وثواب خالد وهو الفوز الكبير ، قوله ﴿ **أبداً** ﴾ أي إلى الأبد تأكيد للخلود ﴿ **رَضِيَ اللهُ عنْهُمْ** ﴾ بالطاعة ﴿ **وَرَضُوا عنْهُ** ﴾ بنيل الكرامة والرضوان ﴿ **ذٰلكَ** ﴾ أي نيل الرضوان ﴿ **هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ** ﴾ أي النجاة الوافرة ، وحقيقة الفوز نيل المراد ، وإنما عظم الفوز لعظم شأن المطلوب ، الذي أنعم الله به عليهم وهو الرضى الذي لا مطلب وراءه أصلاً ﴿ **للهِ مُلْكُ السّمواتِ وَالأَرْضِ وَما فيهِنَّ** ﴾ تحقيق للحق وتنبيه على كذب النصارى ، وفساد ما زعموا في حق المسيح وأمه ، أي له تعالى خاصة ملك السموات والأرض وما فيهما من العقلاء وغيرهم ، يتصرف فيها كيف يشاء ، إيجاداً وإعداماً ، وإماتة وإحياء ، وأمراً ونهياً ، من غير أن يكون لشيء من الأشياء مدخل في ذلك ﴿ **وَهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ بالغ في القدرة ، منزّه عن العجز والضعف ، تبارك وتعالى وتقدَّس عن أن يعجزه شيء في الأرض أو في السماء .

انتهت بعونه تعالى سورة المائدة

● ● ●

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان رقم / ٢٠٢ / عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : تلا رسولُ الله ﷺ قول الله تعالى ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضلَلْنَ كَثِيرًا من النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فإنَّهُ منِّي وَمَنْ عَصَانِي فإنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وإِنْ تَغْفِرْ لهمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ فرفع يده وقال : اللهم أمّتي ، أمّتي ، وبكى .. » الحديث ، وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٤٦ .



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة ليلاً معها سبعون ألف ملك ، قد سدّوا ما بين الخافقين ولهم زَجَلٌ أي : صوت بالتسبيح والتحميد والتمجيد ، حتى كادت الأرض ترتج فقال النبي ﷺ : « سبحان ربي العظيم سبحان ربي العظيم » وخرَّ ساجداً .

﴿ **الحَمْدُ للهِ** ﴾ الألف واللام في الحمد لاستغراق الجنس ، واللام في لله للاختصاص ، يعني كل حمد يحمده أهل السموات والأرض في الدنيا والآخرة ملك له ، وهو الذي أعطاهم استعداد الحمد ليحمدوه بآثار قدرته ، على قدر استعدادهم واستطاعتهم ، فلا محسن في الحقيقة إلا الله ، ولا مستحق للحمد إلا هو تعالى ، وفي تعليق الحمد باسم الذات ، المستجمع لجميع الصفات ، إشارة إلى أنه المستحق له بذاته ، سواء حمده حامد أو لم يحمده ، قال البغوي : حَمَدَ اللهُ نفسه تعليماً لعباده أي : احمدوه .

﴿ **الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ** ﴾ بما فيها من الشمس والقمر والنجوم ﴿ **وَالأَرْضَ** ﴾ بما فيها من البر والبحر ، والسهل والجبل ، والنبات والشجر ، وتخصيصُ خلق السموات والأرض بالذكر ، لأنها أعظم المخلوقات فيما يرى العباد ، وفيهما العبرة والمنافع لهم ، وجَمَعَ السموات دون الأرض وهي مثلهن ، لأن طبقاتها مختلفة بالذات متفاوتة الآثار والحركات ، قالوا ما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام ، ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾ الجعل هو الإنشاء والإبداء كالخلق ، والظلماتُ بخلاف النور ، قال الحدادي : وإنما جمع الظلمات ووحَّد النور ، لأن النور يتعدى والظلمة لا تتعدى ، روي أن هذه الآية نزلت تكذيباً للمجوس في قولهم : الله خالقُ النور ، والشيطانُ خالق الظلمات ، ﴿ **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾ « ثُمَّ » لاستبعاد الشرك بعد وضوح ما ذكر من الآيات التكوينية ببطلانه ، ويعدلون من العدل وهو التسوية ، يقال : عدلت هذا بهذا إذا ساويته ، والمعنى إنه تعالى مختص باستحقاق الحمد والعبادة ، باعتبار ما فصل من شؤونه العظيمة الخاصة به ، الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ، التي هي أقصى غايات الشكر ، مع كون كل ما سواه مخلوقاً له ، غير متصف بشيء من مبادي الحمد . حكي أنه جاء جماعة من فقهاء اليمن إلى الشيخ العارف بالله « أبي الغيث بن جميل » يمتحنونه في شيء ، فلما دنوا منه قال : مرحباً بعبيد عبدي ،

فاستعظموا ذلك ، فلحقوا شيخ الطريقين وإمام الفريقين «إسماعيل بن محمد الحضرمي » فأخبروه بما قاله الشيخ أبو الغيث المذكور لهم ، فضحك وقال : صَدَق الشيخ ، أنتم عبيد الهوى ، والهوى عبدُه .

﴿ هُوَ ﴾ أي الله تعالى ﴿ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ أي : ابتدأ خلقكم أيها الناس ﴿ مِنْ طِينٍ ﴾ أي : تراب مخلوط بالماء ، فإنه المادة الأولى للكل ، لما أنه منشأ لآدم ، الذي هو أصل البشر ، ومنه تناسلت ذريته.

خلق الله آدم من تراب وجعله طيناً ، ثم تركه حتى كان حمأ مسنوناً ، أي : أسود متغيراً منتناً ، ثم خلقه وصوَّره وتركه حتى كان صلصالاً كالفخار أي : يابساً مصوتاً ، كالمطبوخ بالنار ، ثم نفخ فيه من روحه ، وإنما خلق من تراب لأن مقام التراب مقام التواضع والمسكنة ، ومقام التواضع الرفعة والثبات ولذا ورد : « من تواضع لله رفعه » وكان دعاؤه ﷺ : « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً » ، ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ ﴾ أي كتب لموت كل واحد منكم ﴿ أَجَلاً ﴾ خاصاً به أي : حداً معيناً من الزمان يفنى عند حلوله لا محالة ، ﴿ وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أي : حد معين لبعثكم جميعاً ﴿ عِنْدَهُ ﴾ أي : هذا الأجلُ مثبتٌ معيَّنٌ في علمه لا يتغير ، ولا يقف على وقت حلوله أحد ، وأما أجل الموت فمعلوم إجمالاً وتقريباً بناء على ظهور أماراته ، أو على ما هو المعتاد في أعمار الإنسان ، والأجلُ : هو الوقتُ المضروب لطريان الزوال ، على كل ذي روح ، ولا يطرأ عليه إلا عند حلول ذلك الوقت ، لا يتأخر عنه ولا يسبقه ، كما يدل عليه قوله تعالى (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) ، ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ استبعاد لامترائهم في البعث ، بعد ما تبين أنه تعالى خالقهم وخالق أصولهم ، ومُحييهم إلى آجالهم ، فإن من قدر على خلق المواد وجمعها ، وإبداع الحياة فيها وإبقائها ، كان أقدر على جميع تلك المواد وإحيائها ثانياً ، والمريةُ : هي الشك المجتلب بالشبهة ، أصلها من مريت الناقة إذا مسحتُ ضرعها ليدرَّ لبنها للحلب ، وصفهم بالامتراء الذي هو الشك وتوجيه الاستبعاد إليه كما ينبىء عنه قولهم (**عَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**) للدلالة على أن جزمهم المذكور في أقصى مراتب الاستبعاد والاستنكار.

﴿ وَهُوَ ﴾ أي : الله تعالى ، مبتدأ خبره قوله ﴿ اللهُ ﴾ أي : المعبود ولذا تعلق به قوله ﴿ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الأَرْضِ ﴾ والمعنى وهو المعبود والمستحق للعبادة فيهما ، ولا يلزم من كونه تعالى معبوداً فيهما كونه متحيزاً فيهما فإنه منزه عن الزمان والمكان [1] ، ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ أي : ما أسررتموه وما جهرتم به من الأقوال ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي : ما تفعلون لجلب نفع أو دفع ضرر من الأعمال المكتسبة بالقلوب أو بالجوارح سراً وعلانية فيجازيكم على كل ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

---

(١) الله جلَّ جلاله له العلو المطلق ، وهو على عرشه كما أخبر سبحانه ، وهذا هو مذهب السلف رضوان الله عليهم .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ المراد بالآيات إما الآيات التنزيلية ، فإتيانها نزولها ، والمعنى ما ينزل إلى أهل مكة آية من الآيات القرآنية ﴿ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ غير ملتفتين أي : على وجه التكذيب والاستهزاء ، وإما الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات ، وغيرها من تعاجيب المصنوعات ، فإتيانها ظهورها لهم ، والمعنى ما يظهر لهم آية من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى ، إلا كانوا عنها معرضين تاركين للنظرالصحيح فيها ، المؤدي إلى الإيمان بكونها ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ الحق عبارة عن القرآن الذي أعرضوا عنه ، حيث أعرضوا عن كل آية منه ، وعبر عنه بذلك لكمال قبح ما فعلوا ، فإن تكذيب الحق مما لا يتصور صدوره عن أحد ، ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ﴾ الأنباءُ جمع نبأ ، وهو الخبر الذي له عِظَم وشأن ، وأنباؤه عبارة عما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة ، أي : سيعلمون ما يؤول إليه عاقبة استهزائهم بالآيات ، فَقَتلَهم الله يوم بدر بالسيف ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ لما ذكر تعالى قبائحهم ، من الإعراض والتكذيب والاستهزاء أتبعه بما يجري مجرى الموعظة ، فوعظهم بالقرون الماضية فقال ﴿ أَلَمْ يَرَوْا ﴾ وهمزة الإنكار لتقرير الرؤية ، أي : ألم يعرفوا بمعاينة الآثار وسماع الأخبار ﴿ كَمْ ﴾ استفهامية للتكثير ﴿ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ المراد من قبل خلق أهل مكة ، أو من قبل زمانهم ﴿ مِنْ قَرْنٍ ﴾ عبارة عن أهل عصر من الأعصار ، سُمُّوا بذلك لاقترانهم برهة من الدهر ، كما في حديث : « خير القرون قرني » وقيل : هو عبارة عن مدة من الزمان ثمانين سنة ، أو مائة فالمضاف على هذا محذوف أي من أهل قرن ﴿ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ استئناف لبيان كيفية الإهلاك وتمكينُ الشيء في الأرض جعله قاراً فيها ، ﴿ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ﴾ أي : مكناهم تمكيناً لم نمكنه لكم ، ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ ﴾ أي : المطر أو السحاب ﴿ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً ﴾ أي : كثير الدرور والصب ، المدرار مفعال وهو من أبنية المبالغة للفاعل ، من درَّ اللبن دروراً ، يقال : سحاب مدرار ، ومطر مدرار ، إذا تتابع منه المطر في أوقات الاحتياج إليه ﴿ وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ أي : من تحت أشجارهم ومساكنهم وقصورهم ، والمعنى أعطيناهم من البسط في الأجسام والامتداد في الأعمار ، والسعة في الأموال ما لم نعط أهل مكة ، ففعلوا ما فعلوا من الكفران والعصيان ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : أهلكت كل قرن من تلك القرون ، بسبب ما يخصهم من الذنوب ، فما أغنى عنهم تلك العدد والأسباب ، فسيحل بهؤلاء مثل ما حل من العذاب ﴿ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي : أحدثنا من بعد إهلاك كل قرن ﴿ قَرْناً آخَرِينَ ﴾ بدلاً من الهالكين ، وهو لبيان كمال قدرته تعالى وسعة سلطانه ، وأن ما ذكر من إهلاك الأمم الكثيرة ، لم ينقص من ملكه شيئاً ، كلَّما أهلك أمة أنشأ بدلها أخرى ، يعمر بهم بلاده ، ومن عادته تعالى إذهاب أهل الظلم بعد الإمهال ومجيئه بأهل العدل والإنصاف.

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ﴾ روي أن بعض المشركين قالوا يا محمد : لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة ، يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله فأنزل الله تعالى قوله ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ ﴾ أي : مكتوباً في ورق ﴿ فَلَمَسُوهُ ﴾ أي : الكتاب ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ بعد ما رأوه بأعينهم ، بحيث لم يبق لهم في شأنه اشتباه ، فذكر اللمس لأن التزوير لا يقع فيه ، فلا يمكنهم أن يقولوا إنما سكرت أبصارنا أي : سُدَّت ، وذكر الأيدي مع أن اللمس لا يكون عادة إلا بها لدفع التجوز ﴿ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تعنتاً وعناداً للحق بعد ظهوره ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي : الكتاب ﴿ إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : بيّن كونه سحراً على كل أحد ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ لولا تحضيضية بمعنى الأمر أي : هلا أنزل عليه ملك بحيث نراه ويكلمنا أنه نبي ﴿ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ ولو أنزلنا ملكاً على هيئته حسبما اقترحوه ، والحال أنه من هول المنظر بحيث لا يطيق مشاهدته البشر (لَقُضِيَ الأَمْرُ) أي هلاكهم بالكلية ﴿ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ ﴾ أي : لا يمهلون بعد نزوله طرفة عين ، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ أي : لمثَّلنا ذلك الملك رجلاً ، لما مر من عدم استطاعة الآحاد لمعاينة الملَك على هيكله ، فإن القوة البشرية لا تقوى على رؤية الملك وصورته ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي : لخلطنا عليهم بتمثيله رجلاً ﴿ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ على أنفسهم حينئذ بأن يقولوا له إنما أنت بشر ، ولست بمَلَك ، ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ تسلية لرسول الله عليه الصلاة والسلام عما يلقاه من قومه ، أي : وبالله لقد استهزىء برسل أولي شأن خطير ، وذوي عدد كثير ، من زمان قبل زمانك ﴿ فَحَاقَ ﴾ أي : أحاط ونزل ﴿ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي : فأحاط بهم الذي كانوا يستهزئون به ، وأهلكهم الله بسبب استهزائهم بالرسل ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أي : سافروا في الأرض لتعرُّفِ أحوال الأمم الماضية ﴿ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي : تفكروا في أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال ، والعاقبةُ : مصدر وهي منتهى الأمر ومآله ، واعلم أن الاستهزاء من شيم النفوس المتمردة بأرباب الدين في كل زمان وحين ، يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان جالساً في المسجد الحرام ، مع جماعة من المستضعفين « بلال ، وصهيب ، وعمار » وغيرهم فمربهم أبو جهل في ملأ من قريش ، فقال : يزعم محمد أن هؤلاء ملوك الجنة !! فاستهزأ بفقراء المسلمين ، وقد فعل الله به ما فعل يوم بدر ، فنال جزاء استهزائه ، وذلك محل العبرة لأولي الأبصار .

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ للهِ ﴾ إلجاء لأهل مكة إلى الإقرار بأن الكل لله خلقاً وملكاً وتصرفاً ، يقول هل لكم سبيل إلى عدم الإقرار بذلك ؟ مع كونه من الظهور بحيث لا يقدر أحد على إنكاره ؟ ، وحقه أن يبادر إلى الاعتراف بالجواب ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ جملة مستقلة

لبيان أنه تعالى رؤف بالعباد ، لا يعجل عليهم بالعقوبة ، ومعنى كتب الرحمة على نفسه التزمها وأوجبها تفضلاً وإحساناً ، لأنه تعالى منزه عن أن يجب عليه شيء حقيقة ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾ جواب قسم محذوف أي : والله ليجمعنكم في القبور ، محشورين إلى يوم القيامة ، فيجازيكم على شرككم وسائر معاصيكم ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي : في اليوم المذكور ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي بتضييع رأس مالهم وهو العقل السليم ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ فإن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم ، والانهماك في التقليد أدى بهم إلي الإصرار على الكفر ، والامتناع من الإيمان ، والخروج عن دائرة الرحمة الخاصة ، قال القاضي : والمراد بالرحمة ما يعم الدارين ، ومن ذلك الهداية إلى معرفته ، والعلم بتوحيده ، بنصب الأدلة وإنزال الكتب .

وفي الحديث : « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق ، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه »[1] فهذا مما يدل على كمال الرجاء والبشارة للمسلمين ، لأنه حصل في هذه الدار من رحمة واحدة ما حصل من النعم الظاهرة والباطنة ، فما ظنك بمائة رحمة في الدار الآخرة ؟ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قدم على النبي عليه الصلاة والسلام سبيٌ فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها وتسعى ، فإذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبي عليه الصلاة والسلام : « أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟ قلنا : لا وهي قادرة على أن لا تطرحه ، فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها »[2] .

اللهم ارحمنا إذا عرق الجبين ، وكثر الأنين ، وبكى علينا الحبيب ويئس منا الطبيب ، اللهم ارحمنا إذا وارانا التراب ، وودعنا الأحباب ، وفارقنا النعيم ، وانقطع النسيم ، اللهم ارحمنا إذ نُسي اسمنا ، وبلى جسمنا ، واندرس قبرنا ، وانطوى ذكرنا ، اللهم ارحمنا يوم تبلى السرائر ، وتبدى الضمائر ، وتنشر الدواوين ، وتحشر الموازين ، اللهم يا حي يا قيوم يا رحمن يا رحيم برحمتك نستعين ، ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ والنَّهَارِ ﴾ المعنى ولله تعالى خاصة جميع ما استقر فيهما واشتملا عليه ، فإن أراد أعطى رسوله مالاً كثيراً ليكون أغنى الخلق ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ المبالغ في سماع كل مسموع ﴿ العَلِيمُ ﴾ المبالغ في العلم بكل معلوم ، فلا يخفى عليه شيء من الأقوال والأفعال .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لكفار مكة ، نزلتْ حين دعوه إلى الشرك ودين آبائه ﴿ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾

---

(١) الحديث أخرجه البخاري .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في باب التوبة .

أي : معبوداً بطريق الاستقلال أو الاشتراك ؟ أي لا أتخذ فالمنكر هو اتخاذ غير الله ولياً ، لا نفس اتخاذ الولي ﴿ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ مبدعها وخالقهما ابتداء لا على مثال سبق ﴿ وَهُوَ ﴾ أي : والحال أنه ﴿ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ ﴾ أي : يرزق الخلق ولا يُرزق ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ وجهه لله مخلصاً لأن النبي إمام أمته في الإسلام ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : وقيل لي لا تكونن من المشركين به تعالى ، في أمر من أمور الدنيا ، ومعناه أمرت بالإسلام ، ونُهيتُ عن الشرك ، ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ أي : بمخالفة أمره ونهيه ، أيَّ عصيانٍ كان ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : عذاب يوم القيامة ، وفيه قطع لأطماعهم ، وتعريض بأنهم عصاة مستوجبون للعذاب العظيم ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي : من يصرف عنه العذاب في ذلك اليوم العظيم ﴿ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ أي : نجا وأُنعم عليه ﴿ وَذٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ أي : النجاة الظاهرة ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾ أي : ببلية كمرض وفقر ونحو ذلك ﴿ فَلا كَاشِفَ لَهُ ﴾ أي : فلا قادر على كشف ذلك الضر ورفعه عنك ﴿ إِلا هُوَ ﴾ تعالى وحده ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ من صحة ونعمة ونحو ذلك ﴿ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فكان قادراً على حفظه وإدامته فلا يقدر غيره على رفعه .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ ﴾ أي : القادر الذي لا يعجزه شيء ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في كل ما يفعله ويأمر به ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بأحوال عباده ، وخفايا أمورهم ، فعلى العبد أن يعرف مولاه ويشتغل بعبوديته ، وهو الله تعالى الذي خلق كل شيء وأوجده وقهره ، ـ حكي ـ عن الشيخ عبد الواحد بن زيد قدس سره ، قال : كنتُ في مركب فطرحنا الريح إلى جزيرة ، وإذا فيها رجل يعبد صنماً ، فقلنا له : يا رجل من تعبد ؟ فأومأ إلى الصنم ، فقلنا له : إن آلهك هذا مصنوع ، عندنا من يصنع مثله ، ما هذا بإله يعبد ، قال : فأنتم من تعبدون ؟ قلنا : نعبد الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض بطشه ، وفي الأحياء والأموات قضاؤه ، تقدست أسماؤه ، وجلت عظمته وكبرياؤه ، قال ومن أعلمكم بهذا ؟ قلنا : وجَّه إلينا رسولاً كريماً فأخبرنا بذلك ، قال : ما فعل الرسول فيكم ؟ قلنا : لما أدى الرسالة قبضه الملك إليه واختار ما لديه ، قال : فهل ترك عندكم من علامة ؟ قلنا : نعم ، ترك عندنا كتاباً للملك ، قال فأروني كتاب المَلِك ، فإنه ينبغي أن تكون كتب الملوك حساناً فأتيناه بالمصحف فقال : ما أعرف هذا ، فقرأنا عليه سورة فلم يزل يصغي حتى ختمنا السورة ، فقال : ينبغي لصاحب هذا الكلام أن لا يُعصى ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، ثم مات بعد أيام على أحسن حال ، والحمد لله الملك المتعال في الغدو والآصال ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ ـ روي ـ أن قريشاً قالوا لرسول الله : يا محمد ، لقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ، فأرنا من يشهد أنك رسول الله فإنهم أنكروك ؟

فأنزل الله تعالى هذه الآية ، أمر حبيبه عليه الصلاة والسلام بأن يقول لهم : أيُّ شيء أعظم من جهة الشهادة ؟ ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ أي : الله أكبر شهادة ، فشهادته أكبر من شهادة الخلق ، فإن شهادة الخلق وعلومهم لا تحيط بحقائق الأشياء كلها ، والحق سبحانه هو الذي يحيط علمه بجميع حقائق الأشياء ﴿ شَهِيدٌ ﴾ أي : هو شهيد ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ على صدقي ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ من جهته تعالى ﴿ هَذَا الْقُرْآنُ ﴾ الشاهد بصحة رسالتي ﴿ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ ﴾ أي : أخوفكم بما فيه من الوعيد ﴿ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أي : بلغه القرآن من الإنس والجن إلى يوم القيامة ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ ﴾ إلجاء لهم إلى الإقرار بإشراكهم ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لا أَشْهَدُ ﴾ بذلك وإن شهدتم به ، فإنه باطل صرف ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ تكرير الأمر للتأكيد أي : منفرد بالألوهية ﴿ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ به من الأصنام ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ ﴾ المراد بالموصول اليهود والنصارى ، وبالكتاب الجنس المنتظم للتوارة والإنجيل ﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾ أي : محمداً عليه الصلاة والسلام بحليته ونعوته في كتابهم ﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ - روي - أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ، قال عمر لعبد الله بن سلام : أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآية ، فكيف هذه المعرفة ؟ فقال : يا عمر ، لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف إبني ، ولأنا أشد معرفة بمحمد مني بإبني ، لأني لا أدري ما صنع النساء ، وأشهد أنه حق من الله تعالى ، فقال عمر : وفقك الله يا ابن سلام ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي : غبنوا أنفسهم بأن ضيعوا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وأعرضوا عن البينات الموجبة للإيمان بالكلية ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ لما أنهم مطبوع على قلوبهم ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ لوصفهم النبي بخلاف أوصافه عليه الصلاة والسلام فإنه افتراء على الله تعالى ، وبقولهم الملائكة بنات الله ، ونحو ذلك ، أي : لا أحد أظلم منه ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ كأن كذبوا بالقرآن وبالمعجزات ، وسموها سحراً ، ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي : الشأن ﴿ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب ، وإذا كان حال الظالمين هذا ، فما ظنك بمن هو في الغاية القاصية من الظلم ؟ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ الحشرُ : جمع الناس إلى موضع معلوم ، والمعنى ويوم نحشر الناس كلهم ، ثم نقول للمشركين خاصة للتوبيخ والتقريع على رؤس الأشهاد ما نقول ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ ﴾ أي : آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله ، ﴿ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي : تزعمونها شركاء شفعاء ، والزعم : القول الباطل والكذب في أكثر الكلام ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا ﴾ أي : لم تكن عاقبة كفرهم ، الذي التزموه مدة أعمارهم شيئاً من الأشياء ، إلا جحوده والتبري منه بأن يقولوا ﴿ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وإنما يقولون ذلك من فرط الحيرة والدهش

﴿ انْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ بإنكار صدور الإشراك عنهم في الدنيا ، وتَعجَّبْ من كذبهم فإنه أمر عجيب ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : وكيف زال وذهب وبطل افتراؤهم ، فإنهم كانوا يفترون في حق الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله ، فبطل ذلك بالكلية يوم القيامة .

ـ يروى ـ أن المشركين إذا رأوا يوم القيامة مغفرة الله تعالى ، وتجاوزه عن أهل التوحيد ، قال بعضهم لبعض : تعالوا نكتم الشرك لعلنا ننجو مع أهل التوحيد ، فيقولون « والله ربنا ما كنا مشركين » فيختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالكفر فلا يفلحون .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ إذا قرأتَ القرآن ، ـ روي ـ أنه اجتمع « أبو سفيان ، والوليد ، والنضر ، وعتبة ، وشيبة ، وأبو جهل » وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله ﷺ فقالوا للنضر ـ وكان صاحب أخبار ـ : يا أبا قتيلة ما يقول محمد ؟ فقال : والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول ، إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين ، مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية ، فقال أبو سفيان : إني أرى بعض ما يقول حقاً ، فقال أبو جهل : كلا فنزلت الآية ، ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ أي : أنشأنا ﴿ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي : أغطية كثيرة خارجة مما يتعارفه الناس ، جمع كنان بالكسر وهو ما يستر به الشيء ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أي : كراهة أن يفقهوا ما يستمعون من القرآن ﴿ وَ ﴾ جعلنا ﴿ فِي آذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ أي : صَمَماً وثقلاً كراهة أن يسمعوه حق الاستماع ، وهذا تمثيل معرب عن كمال جهلهم وفرط نبوّ قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ، ومج أسماعهم له ، وهذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى ، ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن به .

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ ﴾ من الآيات القرآنية أي يشاهدوها بسماعها ﴿ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أي : كفروا بكل واحدة منها ، وسموها سحراً وافتراء وأساطير ، لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم ﴿ حَتَّى ﴾ أي : بلغ بهم ذلك المنع من فهم القرآن إلى أنهم ﴿ إِذَا جَاؤُكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ أي : حال كونهم مجادلين لك ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي : لا يكتفون بمجرد عدم الإيمان بما سمعوا من الآيات الكريمة بل يقولون ﴿ إِنْ هَذَا ﴾ أي : ما هذا القرآن ﴿ إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ أي : أباطيلهم وأكاذيبهم ، جمع أسطورة بالضم كالأضاحيك والأعاجيب جمع أضحوكة وأعجوبة .

﴿ وَهُمْ ﴾ أي : الكفار ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ الناس ﴿ عَنْهُ ﴾ أي : عن القرآن والإيمان به ﴿ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ أي : يتباعدون عنه بأنفسهم إظهاراً لغاية نفورهم منه ، والنأيُ : البعد ﴿ وَإِنْ يُهْلِكُونَ ﴾ أي : ما يهلكون بالنهي والنأي ﴿ إِلا أَنْفُسَهُمْ ﴾ لأن ضرره عليهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي : والحال

أنهم ما يعلمون بإهلاك أنفسهم ، ولا باقتضاء ذلك عليها ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ الخطاب لكل أحد من أهل المشاهدة والعيان ، والوقفُ : الحبسُ ، وجواب « لو » محذوفٌ أي : لو تراهم حين يوقفون على النار لرأيت ما لا يساعده التعبير ﴿ فَقَالُوا يا ﴾ للتنبيه ﴿ لَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا ﴿ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ القرآنية ﴿ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بها العاملين بمقتضاها ، حتى لا نرى هذا الموقف الهائل ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبلُ ﴾ أي : ليس الأمر على ما قالوه من أنهم لو رُدّوا إلى الدنيا لآمنوا ، فإن التمني الواقع منهم يوم القيامة ليس لأجل كونهم راغبين في الإيمان ، بل لأنه ظهر لهم في موقفهم ذلك ما كانوا يخفون في الدنيا ، وهي النار ، والمراد بإخفائها تكذيبهم لها ، فإن التكذيب بالشيء كفر به وإخفاء له ﴿ وَلَوْ رُدُّوا ﴾ إلى الدنيا فرضاً ﴿ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ من الشرك ونسوا ما عاينوه بالكلية ، لاقتصار أنظارهم على الشاهد دون الغائب ، كإبليس قد عاين من آيات الله تعالى ، ثم عاند ، فلا راد لما قضاه الله تعالى ، ولا مبدّل لما حكم في الأزل ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : ديدنهم الكذب ، في كل ما يأتون وما يذرون .

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ ﴾ أي : ما الحياة فالضمير للحياة ﴿ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ بعد مفارقتنا هذه الحياة ، كأن لم يروا ما رأوا من الأحوال ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ أي : حبسوا للسؤال ، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعتاب ، والجواب محذوف أي : لرأيت أمراً عظيماً ﴿ قَالَ ﴾ لهم على لسان الملائكة موبخاً ﴿ أَلَيْسَ هَذَا ﴾ البعث والحساب ﴿ بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ إنه لحق ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ الذي عاينتموه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : بسبب كفركم في الدنيا بذلك ، ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ ﴾ أي : قد غبن الذين كذبوا بالبعث بعد الموت ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ ﴾ غاية لتكذيبهم لا لخسرانهم فإنه أبديّ لا حدّ له ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي : مفاجأةً من غير انتظار ، والبغتُ والبغتة : مفاجأة الشيء بسرعة من غير أن يشعر به الإنسان ، والوقت الذي تقوم فيه القيامة يفجأ الناس في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله تعالى ، فلذلك سميت ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم ، وسميت الساعة ساعة لسعيها إلى جانب الوقوع ، ومسافته الأنفاس والمعنى أنهم قد كذبوا إلى أن ظهرت الساعة بغتة ﴿ قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا ﴾ الحسرةُ : هي شدة الندم والتألم ، ﴿ عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾ أي : على تفريطنا في شأن الساعة ، وتقصيرنا في مراعاة حقها ، والاستعداد لها بالإيمان بها واكتساب الأعمال الصالحة والتفريطُ : التقصير في الشيء مع القدرة على فعله ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ الجملة حاليَّة ، والأوزار : جمع وزر ، وهو في الأصل الحمل الثقيل ، سمي به الإثم والذنب ، لغاية ثقله على صاحبه ، على سبيل التمثيل

والتشبيه ، والمعنى أنهم يتحسرون على ما لم يعملوا من الحسنات ، والحال أنهم يحملون أوزار ما عملوا من السيئات ﴿ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي : بئس شيئاً يزرون ويحملون وزرهم ، قال السدي : إن المؤمن إذا خرج من قبره ، استقبله أحسن شيء صورة وأطيبه ريحاً ، فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فاركبني فقد طالما ركبتك في الدنيا ، وأما الكافر فيستقبله أقبح شيء صورةً وأنتنه ريحاً فيقول : هل تعرفني ؟ فيقول : لا فيقول : أنا عملك الخبيث طالما ركبتني في الدنيا وأنا اليوم أركبك ، فهو معنى قوله تعالى ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ ﴾ الخ . فيكون الحمل على حقيقته لأن للأعمال صوراً تظهر في الآخرة ، وإن كان نفسها أعراضاً .

قال الشيخ الترمذي الحكيم : ذكرُ الله تعالى يرطّب القلب ويلينه ، فإذا خلا عن الذكر أصابته حرارة النفس ونار الشهوات فقسا ويبس ، وامتنعت الأعضاء من الطاعة ، فإذا مددتها انكسرت كالشجرة إذا يبست لا تصلح إلا للقطع ، وتصير وقوداً للنار ، أعاذنا الله منها فالذكر والتوحيد هو أصل الأصول ، ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي : ما أعمال الدنيا من حيث هي ﴿ إِلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ يلهي الناس ويشغلهم بمنفعته الزائلة ، عن الإيمان والعمل الصالح ، المؤدي إلى اللذة الدائمة ، واللعب : هو ما يشغل النفس وينفرها عما تنتفع به ، واللهو : صرفها عن الجد إلى الهزل ﴿ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ ﴾ التي هي محل الحياة الأخرى ﴿ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ لأن منافعها خالصة عن المضار ، ولذاتها غير منغصة بالآلام ﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أي : أتغفلون فلا تعقلون أيَّ الأمرين خير ؟ وسميت الدنيا بالدنيا لدنوها قبل الآخرة أو لدناءتها ، وسميت الآخرة بالآخرة لتأخرها عن خلقها ، وإنما جعل الله الآخرة غائبة عن الأبصار ، لأنها لو كانت حاضرة لما جحدوها ، ولارتفعت التكاليف والمحن ، فجعل ما على الأرض زينة للابتلاء ، وحقيقة الدنيا ما يشغلك عن ربك . **حكي** أن قاضياً من أهل بغداد ، كان ماراً بزقاق كلخان مع خدمه وحشمه كالوزير ، فطلع الكلخاني وهو يهودي في صورة جهنمي كأن القطران يقطر من جوانبه ، فأخذ بلجام بغلة القاضي ، فقال : أيَّد الله القاضي ما معنى قول نبيكم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » أما ترى أن الدنيا جنة لك وأنت مؤمن ، والدنيا سجن لي وأنا كافر يهودي ، والحديث دلالته بالعكس ؟ فأجاب القاضي وكان من فضلاء الدنيا : وما ترى من زينتها وحشمها سجن لي ، بالنسبة إلى ما وعد الله في الجنة ، وجنة لك بالنسبة إلى الدركات الموعود بها في النيران ، قيل : مثل الدنيا والآخرة مثل رجل له امرأتان إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى .

فالدنيا لا تبقى ، والآخرة خير وأبقى ، يحكى أن « جعفر بن سليمان » قال : مررت أنا ومالك ابن دينار رضي الله عنه بالبصرة ، فبينما ندور فيها مررنا بقصر يعمَّر ، وإذا بشاب حسن يأمر ببناء القصر ،

ويقول : افعلوا واصنعوا ، فدخلنا عليه وسلمنا فرد السلام ، قال مالك : كم نويت أن تنفق على هذا القصر ؟ قال : مائة ألف درهم ، قال : ألا تعطيني هذا المال ، فأضعه في حقه ، وأضمن لك على الله تعالى قصراً خيراً من هذا القصر ، بولدانه ، وخدمه ، وقبابه وخيمه ، من ياقوتة حمراء مرصع بالجواهر ، ترابه الزعفران ، ملاطه المسك ، لم تمسه يدان ولم يبنِه بان ، فأثر في الشاب كلامه ، فأحضر له المال ، ودعا بدواة وقرطاس ، ثم كتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما ضمن « مالك بن دينار » لفلان بن فلان ، إني ضمنت لك على الله قصراً بدل قصرك ، صفته كما وصفتَ والزيادة على الله ، واشتريت لك بهذا المال قصراً في الجنة أفسح من قصرك ، في ظلٍّ ظليل ، بقرب العزيز الجليل ، ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الشاب ، وأنفق ما أخذه من المال على الفقراء ، وما أتى على الشاب أربعون ليلة حتى مات ، ووصى أن يجعل الكتاب بين كفنه وبدنه .

﴿ **قَدْ نَعْلَمُ** ﴾ قد هنا للتكثير ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ أي : الشان ﴿ **لَيَحْزُنُكَ** ﴾ يا محمد ﴿ **الَّذِي يَقُولُونَ** ﴾ أي : الذي يقوله كفار مكة ﴿ **فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ** ﴾ أي : لا تعتد بما يقولون فإنهم في تكذيبهم آيات الله ، لايكذبونك في الحقيقة ﴿ **وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ** ﴾ أي : ولكنهم يكذبون بآيات الله ، وينكرونها فما يفعلون في حقك فهو راجع إليَّ في الحقيقة ، وأنا أنتقم منهم لا محالة أشد انتقام ، والمراد بالظلم جحودهم ، والجحود : عبارة عن الإنكار مع العلم ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ** ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ ، فإن البلية إذا عمت هانت أي : وبالله لقد كذبت من قبل تكذيبك رسل ، أولو شأن خطير ، وذوو عدد كثير ، ﴿ **فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا** ﴾ أي : على تكذيبهم وإيذائهم ﴿ **حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا** ﴾ أي : كان غاية صبرهم نصر الله تعالى إياهم ، فتأسَّ بهم ، واصطبر على ما نالك من قومك .

﴿ **وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ** ﴾ أي : مواعيده بالنصرة والغلبة كما قال تعالى (**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**) ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ أي : من خبرهم ما يسكن به قلبك ، وهو نصره تعالى إياك ، ﴿ **وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ** ﴾ أي : عظُم عليك وشقَّ إعراضهم عن الإيمان ، بما جئت به من القرآن ، وأحببت أن تجيبهم إلى ما سألوا اقتراحاً لحرصك على إسلامهم ﴿ **فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً** ﴾ أي : سرباً ومنفذاً ﴿ **فِي الأَرْضِ** ﴾ تنفذ فيه إلى جوفها ، النفق : سربٌ في الأرض له مخلص إلى مكان آخر ﴿ **أَوْ سُلَّماً** ﴾ مصعداً ﴿ **فِي السَّمَاءِ** ﴾ تعرج به فيها ﴿ **فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ** ﴾ مما اقترحوه ، والجواب محذوف أي : فافعل ، والمقصود بيان حرصه البالغ على إسلام قومه ، وأنه لو قدر أن يأتيهم بآية من تحت

الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء لإيمانهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ ﴾ هدايتهم ﴿ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴾ ولكن لم يشأ ذلك ، لعدم صرف اختيارهم إلى جانب الهدى ، مع تمكنهم منه ، ومشاهدتهم للآيات الداعية إليه ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ بالحرص على ما لا يكون ، فإن ذلك من دأب الجهلة بدقائق شؤونه تعالى ، التي من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم ، وفي الآية تربية وتأديب للنبي عليه الصلاة والسلام من الله كما قال عليه الصلاة والسلام : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » لئلا يبالغ في الشفقة على غير أهلها ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ﴾ أي : يقبل دعوتك إلى الإيمان ﴿ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ ما يلقى إليهم سماع فهم وتدبر ، دون الموتى الذين هؤلاء منهم .

﴿ وَالْمَوْتَىٰ ﴾ أي : الكفار شبههم بهم في عدم السماع ﴿ يَبْعَثُهُمُ اللهُ ﴾ من قبورهم ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ ﴾ تعالى لا إلى غيره ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ أي : يردون للجزاء فحينئذ يستجيبون ، وأما قبل ذلك فلا سبيل إليه ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي : رؤساء قريش ﴿ لَوْلا ﴾ تحضيضية بمعنى هلاً ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ كالناقة والعصا والمائدة ، من الخوارق الملجئة إلى الإيمان ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً ﴾ كما اقترحوا ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أن نزولها بلاء عليهم ، لوجوب هلاكهم إن جحدوها ، فإن قلت : ما الحكمة في أن الله تعالى خلق الخلق سعيداً وشقياً ؟ وقال (وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَىٰ الْهُدَىٰ) (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) ؟ قلنا : إن الله تعالى علم في الأزل أن فلاناً في خلقه يعصي ، لعدم سبق استعداده للسعادة ، فجعله شقياً لسبق القضاء عليه ، بمقتضى استعداده وعلم سبحانه وتعالى أن عبده يطيع ، فجعله سعيداً ، أي : بمقتضى استعداده للسعادة والقابلية المودعة في النشأة الإنسانية ، فإذا عرفت أن الإنسان سعيد وشقي ، فاستعداد السعيد لا يعطي إلا الأقوال المرضية ، والأخلاق الحميدة ، التي تورث الانبساط ، واستعداد الشقي لا يعطي إلا التي تورث الانقباض ، فلذا أمر الله تعالى حبيبه بالصبر ، وتحمل الإيذاء من أهل الشقاوة ، والابتلاء في الدنيا سبب للغفران ، وتكميل الدرجات التي لا تنال في الجنان إلا على قدر البلاء ، فإن الرجل يبتلى على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي وما عليه خطيئة ، والبلاء سوط الله على عباده كيلا يركنوا إلى الدنيا ولا يشغلوا بها ويفروا إلى الله من ضرب سوطه كما يفر الخيل إلى مستقره والآخرة هي دار القرار .

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ ﴾ من زائدة لتأكيد الاستغراق ، أي : وما من أفراد الدواب يستقر في قطر من أقطار الأرض ﴿ وَلا طَائِرٍ ﴾ من الطيور في ناحية من نواحي الجوّ ﴿ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ كما هو المشاهد المعتاد ، فقيدُ الطيران بالجناح تأكيد ، كما يقال نظرت بعيني وأخذتُ بيدي ، ﴿ إِلا أُمَمٌ

﴿ أَمْثَالُكُمْ ﴾ محفوظة أحوالها ، مقدرة أرزاقها وآجالها ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فرَّط في الشيء : ضيَّعه وتركه ، أي : ما تركنا في القرآن شيئاً من الأشياء المهمة ، التي بيَّن تعالى أنه مراع فيها لمصالح جميع مخلوقاته ، بل قد بينا كل شيء ، إما مفصَّلاً أو مجملاً ، ـ روي ـ أن الإمام الشافعي كان جالساً في المسجد الحرام ، فقال : لا تسألوني عن شيء إلا أجيبكم فيه من كتاب الله تعالى ! فقال رجل : ما تقول في المحرم إذا قتل الزنبور ؟ فقال : لا شيء عليه ، فقال : أين هذا في كتاب الله ؟ فقال : قال الله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) الآية ، ثم ذكر إسناداً إلى عمر رضي الله عنه أنه قال : « للمحرم قتل الزنبور » ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ أي : الأمم ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾ يوم القيامة لا إلى غيره ، فيقضي بينهم ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : بالقرآن ﴿ صُمٌّ ﴾ لا يسمعونها سماع تدبر وفهم ، فلذلك يقترحون غيرها ، وهو جمع أصم ، والمقصود تشبيه حالهم بحال الأصم ، ﴿ وَبُكْمٌ ﴾ لا يقدرون على أن ينطقوا الحق ، ولذلك لا يستجيبون دعوتك ، وهو جمع أبكم ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أي : ظلمات الكفر ﴿ مَنْ يَشَأِ اللهُ ﴾ إضلاله أي : أن يخلق فيه الضلال ﴿ يُضْلِلْهُ ﴾ أي : يخلقه فيه ، لكن لا بطريق الجبر ، بل عند صرف اختياره إلى كسبه وتحصيله ﴿ وَمَنْ يَشَأْ ﴾ هدايته ﴿ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ لا يضل من ذهب إليه ، ولا يزلُّ من ثبت قدمه عليه . وفي الآيات أمور : الأول : أن غير الإنسان من الأمم أيضاً وفي الحديث : « لولا أن الكلاب أمة لأمرتُ بقتلها ، فاقتلوا منها كل أسود بهيم » (١) ، والثاني : أن الحشر عام كما قال أبو هريرة رضي الله عنه : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائم ، والدواب ، والطير ، وكل شيء ، فيأخذ للجماء من القرناء ، كما في الحديث : « لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامَة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » (٢) أي : يقتص للشاة التي لا قرن لها من التي لها قرن ، وفيه دلالة على حشر الوحوش كما قال تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) لكن القصاص فيها قصاص مقابلة ، لا قصاص تكليف . والثالث : أن الذين ختم الله على قلوبهم ، فهم كالأصم والأبكم ، ومن خاصة الأبكم أن يكون أصم .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ ﴾ الكاف حرف خطاب ، أكد به ضمير الفاعل المخاطب ، أي : أخبروني ، فجعل العلم الذي هو سبب الإخبار ، مجازاً عن الإخبار ، ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ ﴾ في الدنيا كما أتى من قبلكم من الأمم ﴿ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ أي : القيامة المشتملة على ذلك العذاب ، والساعة اسم لوقت تقوم فيه القيامة ، سمي بها لأنها ساعة خفيفة ، يحدث فيها أمر عظيم ﴿ أَغَيْرَ اللهِ

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي وأحمد .
(٢) الحديث أخرجه مسلم في البر وأحمد والترمذي .

﴿ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ جواب الشرط محذوف أي : إن كنتم صادقين في أن أصنامكم آلهة ، فأخبروني أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله ؟ ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ عطف على جملة منفية كأنه قيل لا غيره تعالى تدعون بل إياه تدعون ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي : إلى كشفه أي : فيكشف إثر دعائكم ﴿ إِنْ شَاءَ ﴾ كشفه ، فقبول الدعاء تابع لمشيئته تعالى ، فقد يقبله وقد لا يقبله ﴿ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أي : تتركون ما تشركون به تعالى من الأصنام ، لما ركز في العقول أنه القادر على كشف العذاب دون غيره ، فالنسيان هنا بمعنى الترك لا بمعنى الغفلة ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ أي : وبالله لقد أرسلنا رسلاً ﴿ إِلَىٰ أُمَمٍ ﴾ كثيرة ﴿ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ أي : كائنة من زمان قبل زمانك ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ الفاء فصيحة تفصح أن الكلام مبني على اعتبار الحذف أي : فكذبوا رسلهم فأخذناهم ﴿ بِالبَأْسَاءِ ﴾ أي : بالشدة والفقر ﴿ والضَّرَّاءِ ﴾ أي : الضر والآفات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي : لكي يدعوا الله في كشفها بالتضرع ، والتذلل ، ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم ﴿ فَلَوْلا ﴾ هلا ﴿ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ تَضَرَّعُوا ﴾ أي : لم يفعلوا ذلك مع قيام المقتضي له ، ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ استدراك على المعنى ، أي : لم يتضرعوا ولكن يبست وجفت قلوبهم ، ولو كان في قلوبهم رقة وخوف لتضرعوا ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : حسَّن لهم الكفر والمعاصي ، بأن أغواهم ودعاهم إلى اللذة والراحة ، دون التفكر والتدبر أن ما اعتراهم من البأساء والضراء ما اعتراهم إلا لأجله ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي : فانهمكوا فيه ونسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من فنون النعماء على منهاج الاستدراج ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ أي : صاروا معجبين بحالهم ، فالفرح ، فرح البطر ، كفرح قارون بما أصابه من الدنيا ﴿ أَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي : فجأة ليكون أشد عليهم وقعاً ، وأفظع هولاً ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ متحسرون غاية الحسرة ، آيسون من كل خير ، والإبلاسُ : بمعنى اليأس من النجاة عند ورود المهلكة ، ومعناه الحسرة والحزن ، ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي : آخرهم بحيث لم يبق منهم أحد ، قال البغوي : معناه أنهم استؤصلوا بالعذاب ، فلم يبق منهم باقية ، ووضع الظاهر موضع الضمير ، للإشعار بعلة الحكم ، فإن هلاكهم بسبب ظلمهم ، الذي هو وضع الكفر موضع الشكر ، وإقامة المعاصي مقام الطاعات ﴿ وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ على إهلاكهم ، فإن هلاك الكفار والعصاة ، نعمة جليلة ، يَحقُّ أن يُحمد عليها ، وفي الآيات أمور : منها أن الله تعالى هو المرجع في كل أمر ، حال الاختيار والاضطرار ، والعاقل لا يلتجىء إلى غيره تعالى ، لأن ما سوى الله آلات وأسباب ، والمؤثر في الحقيقة هو الله تعالى ، ومنها أن الله تعالى يقلّب الإنسان ، تارة من البأساء والضراء إلى الراحة والرخاء ، وأخرى يعكس الأمر ،

كما يفعله الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى ، طلباً لصلاحه ، ففي هذه المعاملة تربية له وفائدة عظيمة في دينه ودنياه .

ومنها أن الهلاك بقدر الاستدراج ، ونعوذ بالله تعالى من المكروه ، وفي الحديث : « إذا رأيت الله تعالى يعطي عبداً في الدنيا على معصيته ما يحبُّ ، فإن ذلك منه استدراج »(١) ، ثم قرأ ﷺ : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ** ﴾ الآية ، ومنها أن العجب مذموم مهلك وفي الحديث : « ثلاثٌ مهلكات : شح مطاع ، وهوىً مُتَّبع ، وإعجاب المرء بنفسه »(٢) .

ومنها أن النعمة لابد لها من الحمد والشكر ، فلابد من الحمد على السلامة ، سواء كانت من جهة الدين أو من جهة الدنيا ، إذ كل منهما نعمة ، ودخل رجل على (سهل بن عبد الله) فقال : إن اللص دخل داري وأخذ متاعي ، فقال : اشكر الله ، لو دخل اللص قلبك وهو الشيطان ، وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟.

﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿ **أَرَأَيْتُمْ** ﴾ أي : أخبروني أيها المشركون ﴿ **إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ** ﴾ أي : أصمكم ﴿ **وَأَبْصَارَكُمْ** ﴾ أي : أعماكم بالكلية ﴿ **وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ** ﴾ بأن غطَّى عليها ما يزول به عقلكم وفهمكم ، بحيث تصيرون مجانين ﴿ **مَنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ** ﴾ أي : أخبروني إن سلب الله عنكم أشرف أعضائكم ، مَنْ أَحَدٌ غير الله يأتيكم بها ؟ ومن المعلوم أنه لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، فهو المستحق للعبادة والتعظيم ، وهو احتجاج آخر على المشركين ﴿ **انْظُرْ** ﴾ يا محمد وتعجب ﴿ **كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ** ﴾ أي : نكررها ونقررها مصروفة من أسلوب إلى أسلوب ، تارة بطريق الترغيب والترهيب ، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين ، قال الحدادي : التصريف توجيه المعنى في الجهات التي تظهرها أتم الإظهار ﴿ **ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ** ﴾ أي : يُعرضون عنها فلا يؤمنون ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ** ﴾ أي : أخبروني أيها المشركون ﴿ **إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً** ﴾ أي : ليلاً أو نهاراً لما أن الغالب فيما أتى ليلاً البغتة أي : الفجأة ، وفي ما أتى نهاراً الجهرة ، وهو المناسب لما في سورة الأعراف ، (**أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ أَمِنَ أَهْلُ القُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ**) والقرآن يفسر بعضه بعضاً ﴿ **هَلْ يُهْلَكُ إِلا القَوْمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ الاستفهام بمعنى النفي أي : أخبروني إن أتاكم عذابه العاجل ، بغتة أو جهرة كما أتى من قبلكم ما يُهلك

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه بلفظ : « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً .. » الحديث ، وأما بهذا اللفظ فقد أخرجه الطبراني في الأوسط وسنده ضعيف .

بذلك العذاب الخاص إلا أنتم ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أي : ما نرسلهم لأن يُقترح عليهم الآيات ويتلهى بهم ، بل لأنهم يبشرون قومهم بالثواب على الطاعة ، وينذرونهم بالعقاب على المعصية ، والتبشير : الإخبار بالخبر السار ، والإنذار : الإخبار بالخبر الضار ﴿ فَمَنْ آمَنَ ﴾ بهم ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ عمله ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من العذاب الذي أنذروه دنيوياً كان أو أخروياً ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بفوات ما بُشروا به من الثواب العاجل والآجل ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ وهي ما ينطق به الرسل ويبلغونه إلى الأمم ﴿ يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الأليم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي : بسبب فسقهم المستمر ، الذي هو الإصرار على الخروج عن التصديق والطاعة ، وفي الآيات ترغيب وترهيب ، عن مالك بن دينار قال : دخلت جبانة البصرة فإذا أنا بسعدون المجنون ، فقلت : كيف حالك ؟ وكيف أنت ؟ قال يا مالك : كيف يكون حال من أمسى وأصبح يريد سفراً بعيداً بلا أهبة ولا زاد ، ويقدم على رب عدل حاكم بين العباد ، ثم بكى بكاءً شديداً ، فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : والله ما بكيتُ حرصاً على الدنيا ، ولا جزعاً من الموت والبلى ، لكن بكيتُ ليوم مضى من عمري لم يحسن فيه عمل ، أبكاني والله قلة الزاد ، وبُعْدُ المفازة ، والعقبة الكؤود ، ولا أدري بعد ذلك ، أصير إلى الجنة أم إلى النار ؟ فسمعت منه كلام حكمة ، فقلت : إن الناس يزعمون أنك مجنون فقال : ما بي جنة ، ولكن حب مولاي خالط قلبي وأحشائي وجرى بين لحمي ودمي وعظامي .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للكفرة الذين يقترحون عليك تارة تنزيل الآيات وأخرى غير ذلك ﴿ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ ﴾ أي : لا أدعي أن خزائن مقدوراته تعالى ، مفوضة إليّ أتصرف فيها كيف أشاء ، حتى تقترحوا عليّ تنزيل الآيات ، أو إنزال العذاب ، أو قلب الجبال ذهباً أو غير ذلك ، كانوا يقولون إن كنت رسولاً من عند الله تعالى ، فوسع علينا منافع الدنيا وخيراتها ، فالمعنى لا أدعي أن مفاتيح الرزق بيدي فأقبض وأبسط ﴿ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أي : ولا أدعي أيضاً أني أعلم الغيب من أفعاله تعالى ، حتى تسألوني عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب أو نحوها ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ من الملائكة حتى تكلّفوني ما لا يطيق البشر ، من الرقي إلى السماء ونحوه ، وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة ، ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أي : ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إليّ ، من غير أن يكون لي مدخل في الوحي ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ مثل للضال والمهتدي ، فإنه عليه الصلاة والسلام لما وصف نفسه بكونه متبعاً للوحي الإلهي ، لزم منه أن يصف نفسه بالاهتداء ، ويصف من عانده واستبعد دعواه بالضلال ، فالعمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى ، والعمل بمقتضى الوحي يجري مجرى عمل البصير ﴿ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

أي : ألا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه فتهتدوا باتباع الوحي والعمل بمقتضاه ؟ فمناط التوبيخ عدم الأمرين معاً أي الاستماع والتفكر ﴿ **وَأَنْذِرْ بِهِ** ﴾ أي : خَوِّف من العذاب ﴿ **الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ** ﴾ أي : يبعثوا ويجمعوا إلى ربهم ، إلى موضع لا يملك أحد فيه نفعهم ولا ضرهم إلا الله تعالى ، ﴿ **لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ** ﴾ قريب ينفعهم ﴿ **وَلا شَفِيعٌ** ﴾ يشفع لهم ، والمراد بالموصول المؤمنون العاصون ، ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ تعليل للأمر أي أنذرهم لكي يتقوا الله بإقلاعهم عما هم فيه ، أو يتقوا الكفر والمعاصي .

﴿ **وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ** ﴾ - روي - أن رؤساء قريش قالوا لرسول الله ﷺ حين رأوا في مجلسه الشريف فقراء المؤمنين مثل : « صهيب وعمار وخباب وبلال وسلمان » وغيرهم لو طردتَ هؤلاء الأعبد لجالسناكَ وحادثناك فقال عليه الصلاة والسلام : « ما أنا بِطَارِدِ المؤمنين » فقالوا : فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا حتى يعرف العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء ، فإذا قمنا عن مجلسك فأقعدهم معك إن شئت ، فهمَّ عليه الصلاة والسلام أن يفعل ذلك طمعاً في إيمانهم فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والمراد بذكر الوقتين الدوام ، ومن دام ذكره دام جلوسه مع الله كما قال : « أنا جليس من ذكرني » ﴿ **يُرِيدُونَ** ﴾ بذكرهم وعبادتهم ﴿ **وَجْهَهُ** ﴾ تعالى ورضاه لا شيئاً من أغراض الدنيا ، أي : يدعونه تعالى مخلصين له ، وقيد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر . وإشعاراً بأنه من أقوى موجبات الإكرام المنافي للإبعاد ﴿ **مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ** ﴾ لما لم يقتصر المشركون في طعن فقراء المسلمين على وصفهم بكونهم موالي ومساكين ، بل طعنوا في إيمانهم أيضاً حيث قالوا : يا محمد إنهم إنما قبلوا دينك لأنهم يجدون عندك مأكولاً وملبوساً بهذا السبب ، ﴿ **مَا عَلَيْكَ** ﴾ أي : ليس عليك إلا اعتبار ظاهر حالهم وهو اتسامهم بسمة المتقين ، فالمقصود منه دفع طعن الكفار وتثبيت رسول الله ﷺ على تربية الفقراء وإدنائهم ، ﴿ **فَتَطْرُدَهُمْ** ﴾ جواب النفي ﴿ **فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ جواب النهي وهو ﴿ **وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ** ﴾ الآية ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا** ﴾ أي : ابتلينا ﴿ **بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ** ﴾ أي : بعض الناس ببعضهم ﴿ **لِيَقُولُوا** ﴾ اللام للعاقبة أي : ليكون عاقبة أمرهم أن يقول البعض محقرين للمؤمنين نظراً إلى ما بينهما من التفاوت الفاحش الدنيوي ﴿ **أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا** ﴾ بأن وفقهم لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده تعالى من دوننا ، ونحن المتقدمون والرؤساء ، وهم العبيد والفقراء ؟ قال الكلبي : إن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد أسلم قبله ، استنكف وأنف أن يسلم وقال : قد سبقني هذا بالإسلام فلا يسلم ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ رد لقولهم ذلك وإبطال له أي : أليس الله بأعلم بالشاكرين

لنعمه ، حتى تستبعدوا إنعامه عليهم ؟ وفيه إشارة إلى أن أولئك الضعفاء عارفون لحق نعمة الله تعالى في تنزيل القرآن والتوفيق للإيمان ، شاكرون له تعالى على ذلك .

وفي الآية الكريمة بيان فضل الفقراء ، عن أبي سعيد الخدري قال : جلست في نفر من ضعفاء المهاجرين ، وكان بعضهم يستتر ببعض من العُرْي وقارىء يقرأ علينا إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا فلما قام سكت القارىء فسلم رسول الله ﷺ وقال : « ما كنتم تصنعون » ؟ قلنا : يا رسول الله كان قارىء يقرأ علينا وكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى . فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم » ثم قال : « أبشروا يا معاشر صعاليك المهاجرين بالفوز التام يوم القيامة ، تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، وذلك مقدار خمسمائة سنة »[1] وقد ورد : « يؤتى بالعبد الفقير يوم القيامة فيعتذر الله عز وجل إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا ، فيقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك عليَّ ، ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة ، اخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف وانظر إلى من أطعمك أو كساك وأراد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل به ذلك في الدنيا فيأخذه بيده ويدخل الجنة » .

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾ - روي - أن قوماً جاؤا إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً فما تدارك الاستغفار ؟ فسكت عنهم ولم يرد عليهم شيئاً ، فانصرفوا يائسين فنزلت ، وكل من آمن بالله دخل هذا التشريف ﴿ فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ من كل مكروه وآفة والسلام بمعنى التسليم ، أي : الدعاء بالسلامة أي : دعوت بأن يسلمكم الله من الآفات في دينكم ونفسكم ، ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ أي : قضاها وأوجبها على ذاته المقدسة ، بطريق التفضل والإحسان ، ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوأً بِجَهَالَةٍ ﴾ أي : عمله ملتبساً بجهالة بأن يفعله وهو لا يعلم ما يترتب عليه من المضرة والعقوبة ، ﴿ ثُمَّ تَابَ ﴾ أي : رجع عنه ﴿ مِنْ بَعْدِه ﴾ أي : من بعد عمله ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ أي : ما أفسده ، والإصلاح هو أن لا يعود ولا يفسد ﴿ فَأَنَّهُ ﴾ أي : فأمره أن الله تعالى ﴿ غَفُورٌ ﴾ له ﴿ رَحِيمٌ ﴾ به .

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ الكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الفخامة أي : مثل هذا التفصيل البديع نفصل الآيات القرآنية ، ونبينها في صفة أهل الطاعة وأهل الإجرام ، المصرين منهم

(١) الحديث أخرجه الترمذي والإمام أحمد .

والأوابين ، ليظهر الحق ويعمل به ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : تظهر طريقتهم فيجتنب عنها ، فعلى العاقل أن يسلك طريق الفوز والفلاح ، ويصل إلى ما وصل إليه أهل الصلاح ، وأول الطريق هو التوبة والاستغفار ، قال العلماء : تذكر أولاً قبح الذنوب وشدة عقوبة الله ، ثم تذكَّرْ ضعفك وقلة حيلتك في ذلك ، فمن لم يتحمل قرص نملة ، وحرَّ شمس ، كيف يتحمَّل نار جهنم ولسع حيات ، فينبغي أن تجتهد في الخروج من الذنوب على أقسامها التي بينك وبين عباد الله بالاستحلال ورد المظالم ، وأما التي هي من ترك الواجبات من صلاة وصيام وزكاة فتقضي ما أمكن منها ، وأما التي بينك وبين الله كشرب الخمر وضرب المزامير وأكل الربا فتندم على ما مضى منها وتوطن قلبك على ترك العود إلى مثلها أبداً ، فإذا أرضيت الخصوم بما أمكن وقضيت الفوائت بما تقدر عليه ، وبرأت قلبك من الذنوب ، فينبغي أن ترجع إليه بحسن الابتهال والضراعة ليكفيك ذلك بفضله كما في الحديث الصحيح : « ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له »[1] ، وما الميت في قبره إلا كالغريق المنتظر ، ينتظر دعوة تلحقه من أب أو أم أو أخ أو صديق ، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها ، وإن الله تعالى ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الأرض أمثال الجبال ، وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم « ربنا اغفر لي ولوالديَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ ﴾ كان كفار قريش يدعونه عليه السلام إلى دين آبائه فنزلت أي صُرفت وزُجرت ﴿ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ أي عن عبادة ما تعبدونه ﴿ مِن دُونِ اللهِ ﴾ كائناً ما كان ﴿ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾ إشارة إلى الموجب كأنه يقول : إن ما أنتم عليه هوى ، وليس بهدى ، فكيف أتبع الهوى وأترك الهدىٰ ؟ ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً ﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت أي تركت سبيل الحق ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ من الذين سلكوا طريق الهدى ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ البينة : الحجة الواضحة ، التي تفصل بين الحق والباطل ، يقال : أنا على بينة من هذا الأمر ، وأنا على يقين منه ، إذا كان ثابتاً عندك بحجة واضحة وشاهد صدق ، والمراد بها القرآن والوحي ﴿ وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾ المعنى إني على بينة عظيمة كائنة من ربي وكذبتم بها وبما فيها من الأخبار ، التي من جملتها الوعيد بمجيء العذاب ﴿ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ كان رؤساء قريش يستعجلون العذاب بطريق الاستهزاء أو بطريق الإلزام والمعنى ليس ما تستعجلون به من العذاب الموعود في قدرتي حتى أجيء به وليس أمره بمفوض إليَّ ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ أي ما الحكم في ذلك وغيره تعجيلاً وتأخيراً ﴿ إِلاَّ للهِ ﴾ وحده من غير أن يكون لي دخل فيه ﴿ يَقُصُّ الْحَقَّ ﴾ أي يقول الحق ولا يحكم إلا بما هو حق ، فتأخير العذاب حق ثابت جارٍ على

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي في كتاب الصلاة وابن ماجة وأحمد في المسند ١ / ١٠ .

حكمة بليغة ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ ﴾ اعتراض تذييلي مشير إلى أن قص الحق ههنا بطريق خاص ، وهو الفصل بين الحق والباطل ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ﴾ أي في قدرتي ومكنتي ﴿ ما تَسْتَعجِلونَ بِهِ ﴾ من العذاب الذي ورد به الوعيد ، بأن يكون أمره مفوضاً إليَّ من جهته عز وجلَ ﴿ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبيْنَكُمْ ﴾ أي بأن ينزل ذلك عليكم إثر استعجالكم ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بالظّالِمينَ ﴾ أي بحالهم وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب ، ولذلك لم يفوض الأمر إليّ ، فعابد الأصنام يذوق العذاب ، ولا يتخلص منه أصلاً ، وكذا عابد الدنيا والنفس والشيطان والهوى وجاء جماعة من فقهاء اليمن إلى الشيخ الكبير أبي الغيث يمتحنونه في شيء ، فلما دنوا منه قال : مرحباً بعبيد عبدي ، فاستعظموا ذلك فلحقوا شيخ العلم « إسماعيل بن محمد الحضرمي » فأخبروه بما قال الشيخ أبو الغيث لهم ، فضحك الشيخ وقال صدق الشيخ ، أنتم عبيد الهوى ، والهوى عبده ، وإنما يتخلص المرء من الهوى بالتقوى .

واعلم أن الهوى من أوصاف النفس ، ومن كان على بينة من ربه - وهي في الحقيقة النور الذي ينشرح به الصدر - يكون على الهدى لا على الهوى ، وله علامات كما لا يخفى ، حكي أن بعض الصالحين كان يتكلم على الناس ويعظهم ، فمر عليه في بعض الأيام يهوديٌّ ، وهو يخوفهم ويقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُها كانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ﴾ فقال اليهودي : إن كان هذا الكلام حقاً ، فنحن وأنتم سواء ، فقال له الشيخ : لا ما نحن سواء ، بل نحن نرد ونصدر ، وأنتم تردون ولا تصدرون ، ننجو نحن منها بالتقوى ، وتبقون أنتم فيها جثياً بالظلم ثم قرأ الآية الثانية ﴿ ثُمْ نُنَجِي الّذينَ اتّقَوا وَنَذرُ الظّالِمينَ فِيها جِثِياً ﴾ فقال اليهودي : نحن المتقون فقال له الشيخ كلا بل نحن ، وتلا قوله تعالى ﴿ وَرَحْمَتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها للّذينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكوٰةَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ الّذينَ يَتَّبِعونَ الرَّسُولَ النَبيَّ الأُمّي ﴾ ﴿ وَعِنْدَهُ ﴾ أي الله تعالى خاصة ﴿ مَفَاتِحُ الغَيْبِ ﴾ أي خزائن غيوبه ، جمع مَفْتح بفتح الميم وهو المخزن ويجوز أن يكون جمع مِفْتح بكسر الميم وهو المفتاح أي آلة الفتح شبَّه الغيب بالخزائن المستوثق بها بالأقفال ، وأثبت لها مفاتح على سبيل التخييل ﴿ لا يَعْلَمُها إلاّ هُوَ ﴾ تأكيد لمضمون ماقبله ، وهي الخمسة التي في قوله تعالى ﴿ إِنّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ ﴾ الآية قال رسول الله ﷺ « مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما في الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ، ولا يدري بأي أرض تموت النفس إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله [1] ﴿ وَيَعْلَمُ ما في البَرِّ والبَحْرِ ﴾ من الموجودات مفصلة على اختلاف

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه وأحمد بن حنبل في المسند من حديث عبد الله بن عمر ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ١٣٧ .

أجناسها وأنواعها ﴿ **وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا** ﴾ يريد أنه تعالى يعلم عدد ما يسقط من ورق الشجر ، وما يبقى عليه ، وهي مبالغة في إحاطة علمه بالجزئيات ﴿ **ولا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ** ﴾ أي كائنة في بطونها إلاَّ يعلمها ﴿ **وَلا رَطْبٍ ولاَ يابِسٍ** ﴾ أي ما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه ، قال الحدادي : الرَطب واليابس عبارة عن جميع الأشياء التي تكون في السموات وفي الأرض لأنها لاتخلو من إحدى هاتين الصفتين انتهى فيختصان بالجسمانيات إذِ الرطوبة واليبوسة من أوصاف الجسمانيات ﴿ **إلاّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ** ﴾ هو اللوح المحفوظ أو هو علمه تعالى فهو بدل منه بدل الكل . وقرىء ﴿ ولا رطبٌ ولا يابسٌ ﴾ بالرفع على الابتداء والخبر إلا في كتاب وهو الأنسب بالمقام لشمول الرطب واليابس حينئذ لما ليس من شأنه السقوط .

قال الحدادي : فإن قيل ما الفائدة في كون ذلك في اللوح مع أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء وإن كان عالماً بذلك قبل أن يخلقه وقبل أن يكتبه لم يكتبها لحفظها ويدرسها ؟ قيل : فائدته أن الحوادث إذا حدثت موافقة للمكتوب إزدادت الملائكة بذلك علماً ويقيناً بعظيم صفات الله تعالى .

﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ** ﴾ الخطاب عام للمؤمن والكافر أي ينيمكم في الليل ويجعلكم كالميت في زوال الإحساس والتمييز ، ﴿ **وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ** ﴾ أي : ما كسبتم فيه وجوارح الإنسان أعضاؤه التي يكسب بها الأعمال ﴿ **ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ** ﴾ أي : يوقظكم في النهار ، وفي الآية التنبيه على أن بعد علم ما يكتسبونه من السيئات ، يفيض عليهم الحياة ويمهلهم ، كأنه قيل هو الذي يتوفاكم في جنس الليل ، ثم يبعثكم في جنس النهار ، مع علمه بما ستجرحون فيه ﴿ **لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى** ﴾ أي : ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا ، والأجل آخر مدة الحياة ﴿ **ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ** ﴾ أي : رجوعكم بالموت لا إلى غيره ﴿ **ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيام ﴿ **وَهُوَ القَاهِرُ** ﴾ مستعلياً ﴿ **فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ أي : المتصرف في أمورهم لا غيره يفعل بهم ما يشاء ، إيجاداً وإعداماً ، وإحياء وإماتة ، وتعذيباً وإثابة ، إلى غير ذلك .

﴿ **وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً** ﴾ أي : يرسل عليكم خاصة أيها المكلفون ملائكة تحفظ أعمالكم ، وهم الكرام الكاتبون ، والحكمة فيه أن المكلف إذا علم أن أعماله تكتب عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد ، كان أزجر عن المعاصي ، وأن العبد إذا وثق بلطف سيده ، واعتمد على عفوه وستره ، لم يحتشم منه احتشامه من خدمة المطَّلعين عليه .

ورد في الخبر « أن على كل واحد منا ملكين بالليل وملكين بالنهار ، يكتب أحدهما الحسنات والآخر

السيئات ، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال ، فإذا عمل العبد حسنة كتبت له بعشر أمثالها ، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتب ، قال له صاحب اليمين : أمسك فيمسك عنه ست ساعات أو سبع ساعات ، فإن هو استغفر الله لم يكتب عليه ، وإن لم يستغفر كتب سيئة واحدة »[1] فإن قلت : هل تعرف هؤلاء الملائكة العزم الباطن ، كما يعرفون الفعل الظاهر ؟ قلت : نعم لأن الحفظة تنتسخ من السفرة التي وكلت باللوح وقد كتب فيه أحوال العوالم ، وقيل : إذا همَّ العبد بحسنة فاح من فيه رائحة المسك ، فيعلمون بهذه العلامة فيكتبونها ، وإذا هم بسيئة فاح منه ريح النتن ، والظاهر أنَّ ملكي الإنسان لا يتغيران عليه ما دام حياً ، ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ** ﴾ أي : حتى إذا انتهت مدة أحدكم كائناً من كان ، وجاءه أسباب الموت ومباديه ﴿ **تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا** ﴾ الآخرون والمفوض إليهم ذلك وهم ملك الموت وأعوانه ، وانتهى هناك حفظ الحفظة ﴿ **وَهُمْ** ﴾ أي : الرسل ﴿ **لا يُفَرِّطُونَ** ﴾ أي : لا يقصرون فيما يؤمرون بالتواني والتأخير طرفة عين ، وأعوان ملك الموت أربعة عشر ملكاً ، سبعة منهم ملائكة الرحمة وإليهم يسلم روح المؤمن بعد القبض ، وسبعة منهم ملائكة العذاب وإليهم يسلم روح الكافر بعد الوفاة ، قال مجاهد : « قد جعلت الأرض لملك الموت كالطشت يتناول من حيث يشاء » وليس على ملك الموت صعوبة في قبض الأرواح وإن كثرت وكانت في أمكنة مختلفة ، وكيفيته لا تُعرفُ بهذا العقل الجزئي كما لا تعرف كيفية وسوسة الشيطان في قلوب جميع أهل الدنيا .

قال العلماء : الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته ، وتبدُّل حال وانتقال من دار إلى دار ، وطول الأمل ينسيهم الموت حتى يكون منهم أخذ الدنيا وشهوة النساء ، ولذلك قيل : الموت من أعظم المصائب وأعظم منه الغفلة عنه ﴿ **ثُمَّ رُدُّوا** ﴾ عطف على ﴿ **تَوَفَّتْهُ** ﴾ . أي : ردَّتهم الملائكة بعد البعث ﴿ **إِلَىٰ اللهِ** ﴾ أي : إلى حكمه وجزائه في موقف الحساب حيث لا مالك ولا حاكم فيه سواه ﴿ **مَوْلاهُمُ** ﴾ أي : مالكهم الذي يملك أمورهم على الإطلاق ، وأما قوله تعالى (**وَأَنَّ الكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ**) فالمولى فيه بمعنى الناصر فلا تناقض ﴿ **الحَقِّ** ﴾ الذي لا يقضي إلا بالعدل ﴿ **أَلا** ﴾ أي : اعلموا وتنبهوا ﴿ **لَهُ الحُكْمُ** ﴾ أي القضاء بين العباد يومئذ لا حكم لغيره فيه بوجه من الوجوه ﴿ **وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ** ﴾ يحاسب جميع الخلائق في أسرع زمان وأقصره ، لا يشغله حساب عن حساب ، ولا شأن عن شأن ، لا يتكلم بآلة ولا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد ، ومعنى المحاسبة تعريف كل واحد ما يستحقه من ثواب وعقاب ، واعلم أن الحشر والحساب لا

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير بلفظ (إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلاَّ كُتبت واحدة) وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٩٥ .

يكون على وجه الأرض ، وإنما يكون في الأرض المبدلة وهي أرض بيضاء كالفضة ، لم يسفك فيها دم ، ولم يظلم عليها أحد ، فإذا ثبت الحشر والحساب وأن الله تعالى هو المحاسب وجب على العاقل أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش في الحساب ، لأنه هو التاجر في طريق الآخرة ، وبضاعته عمره ، وربحه صرف عمره في الطاعات والعبادات ، وخسرانه صرفه في المعاصي والسيئات ، ونفسه شريكه في هذه التجارة ، وهي إن كانت تصلح للخير والشر ، لكنها أميل إلى المعاصي والشهوات ، فلابد له من مراقبتها ومحاسبتها .

﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿ **مَنْ** ﴾ استفهام ﴿ **يُنَجِّيكُمْ** ﴾ أي : يخلصكم ويعطي لكم نجاة من ﴿ **مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ** ﴾ من شدائدها وأهوالها في أسفاركم ، استعيرت الظلمة للمشقة لمشاركتها في الهول وإبطال الإبصار ، فقيل لليوم الشديد يوم مظلم ، ﴿ **تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً** ﴾ أي : معلنين ومسرين ، والتضرع إظهار الضراعة وهي شدة الفقر والحاجة إلى الشيء ﴿ **لَئِنْ أَنْجَانَا** ﴾ أي : تدعونه قائلين والله لئن خلصنا ﴿ **مِنْ هَذِهِ** ﴾ الظلمات والشدائد ﴿ **لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ أي : الراسخين في الشكر المداومين عليه لأجل هذه النعمة ، والشكر : الاعتراف بالنعمة مع القيام بحقها ، وحق نعمة الله أن يطاع منعمها ولا يعصى ، فضلاً عن أن يشرك به ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم ﴿ **اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ** ﴾ أي : غم سواها ، والكربُ : غاية الغم الذي يأخذ بالنفس ﴿ **ثُمَّ أَنْتُمْ** ﴾ بعدما تشاهدون من هذه النعم الجليلة ﴿ **تُشْرِكُونَ** ﴾ بعبادته تعالى غيره ، والمناسب لقولهم ﴿ **لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ أن يقال : ثم أنتم لا تشكرون أي لا تعبدون ، لكن وضع تشركون موضعه تنبيهاً على إن الإشراك بمنزلة ترك الشكر رأساً ﴿ **قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً** ﴾ لأجل إشراككم ﴿ **مِنْ فَوْقِكُمْ** ﴾ كما فعل بقوم لوط وأصحاب الفيل بأن أمطر عليهم حجارة ﴿ **أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ** ﴾ أي : من جهة السفل كما أغرق فرعون وخسف بقارون ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ** ﴾ من لَبَسْتُ عليه الأمر أي : خلطتهُ من باب ضرب والمعنى : أو يخلطكم ﴿ **شِيَعاً** ﴾ جمع شيعة كسِدْرة وسِدَر ، والشيعة : كل قوم اجتمعوا على أمر أي : يخلطكم فرقاً متجزئين على أهواء شتى ، ومذاهب مختلفة ، كل فرقة مشايعة لإمام ، فينشب بينكم القتال ، فهذا خلط اضطراب لا خلط اتفاق ﴿ **وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ يقاتل بعضكم بعضاً ، ومن سنّة الله تعالى أن يذيق الكافرين بأس المؤمنين وبالعكس ، على حسب التربية المبنية على جماله وجلاله وفي الحديث : « سألتُ ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها »[1] أراد بالسنة قحطاً يعم أمته ، وبالغرق ما يكون على سبيل العموم كطوفان نوح عليه

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه بأطول من هذا وأوله : « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها .. » الحديث .

السلام ، وأراد بالبأس الحرب والفتن وفي الحديث : « فناء أمتي بالطعن والطاعون »[١] وفي آخر : « إذا وُضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة »[٢] وفيه معجزة للنبي عليه الصلاة والسلام حيث كان الأمر كما أخبر به ، والبأسُ : الشدة في الحرب ، وسبب دخول البأس بينهم عدم حكم الأئمة بكتاب الله تعالى ﴿ انْظُرْ ﴾ يا محمد ﴿ كَيْفَ نُصَرِّفُ ﴾ لهم ﴿ الآيَاتِ ﴾ القرآنية من حال إلى حال بالوعد والوعيد ، أي : نبين لهم آية على إثر آية ونوردها على وجوه مختلفة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ كي يفقهوا ويقفوا على جلية الأمر ، فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ أي : بالعذاب الموعود أو القرآن المجيد الناطق بمجيئه ﴿ قَوْمُكَ ﴾ أي : المعاندون منهم ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أي : والحال أن ذلك العذاب واقع لا محالة أو أنه الكتاب الصادق في كل ما نطق ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظ لأمنعكم من التكذيب ، وأجبركم على التصديق ، إنما أنا منذر ﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ ﴾ أي : خبر من أخبار القرآن ﴿ مُسْتَقَرٌّ ﴾ أي : وقت يقع فيه ويستقر زمن عذابكم ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عند وقوعه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً ، فعلى العاقل أن يتضرع إلى الله تعالى في دفع الشدائد ، ولا يصر على ذنبه فإنه سبب للابتلاء ، وكل ظلمة إنما تجيء من ظلمات النفس الأمارة .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ الخوض : الشروع في الشيء مطلقاً إلا أنه غلب في الشروع في الشيء الباطل ، والآيات : القرآن ، والمعنى إذا رأيت الذين يشرعون في القرآن بالتكذيب والاستهزاء به والطعن فيه ، كما هو دأب كفار قريش ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ بترك مجالستهم والقيام عنهم عند خوضهم في الآيات ﴿ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أي : استمر على الإعراض إلى أن يشرعوا في حديث غير آياتنا ﴿ وَإِمَّا ﴾ أصله إن ما فأدغمت نون إن الشرطية في ما المزيدة ﴿ يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ أي : ما أمرت به من ترك مجالستهم ﴿ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ ﴾ أي : بعد أن تذكره ، فهو مصدر بمعنى الذكر ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين وضعوا التكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم ، والمرادُ بالشيطان إبليس أو واحد من أكابر جنوده ، ولما قال المسلمون لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ونطوف بالبيت ، لأنهم يخوضون أبداً ، رخص الله تعالى في مجالستهم على سبيل الوعظ والتذكير فقال ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي : وما على المؤمنين الذين يجتنبون قبائح أعمال الخائضين شيء مما يحاسبون عليه من الجرائم

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند والطبراني في الكبير ولفظه (فناء أمتي بالطعنِ ، والطاعونُ وخزُ أعدائكم من الجن ، وفي كلٍ شهادةٌ) وانظر الفتح الكبير ٢ / ٢٧١ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ١٥٩ .

والآثام ﴿ وَلَكِنْ ذِكْرَىٰ ﴾ أي : ولكن عليهم أن يذكروهم ذكرى ، ويمنعوهم عن الخوض وغيره من القبائح ، بما أمكن من العظة والتذكير ويظهروا لهم الكراهة والنكير ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : يجتنبون الخوض حياء وكراهة لمساءتهم ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ المراد بالموصول الكفار الخائضون في الآيات ومعنى اتخاذ الدين لعباً ولهواً أنهم سخروا به واستهزؤا ، واللعبُ : عمل يشغل النفس وينفرها عما تنتفع به ، واللهو : صرفها عن الجد إلى الهزل ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ واطمأنوا بها حتى زعموا أن لا حياة بعدها أبداً ، والمعنى أعرض عنهم واترك معاشرتهم وملاطفتهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ، ولا تشغل قلبك بهم ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أي : بالقرآن من يصلح للتذكر ﴿ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ ﴾ أي : لئلا تُسلم إلى الهلاك وترهن ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ بسبب ما عملت من القبائح ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ ﴾ أي : ليس لتلك النفس غيره تعالى من يدفع عنها العذاب ﴿ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ أي : تفد تلك النفس كل فداء ، بأن جاءت مكانها بكل ما كان في الأرض جميعاً ﴿ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ أي : لا يقبل منها ، والمقصود من هذه الآية بيان أن وجوه الخلاص منسدَّة على تلك النفس ، ومن أيقن بهذا كيف لا ترتعد فرائصه إذا أقدم على المعصية ؟ ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المتخذون دينهم لعباً ولهواً المغترون بالحياة الدنيا ﴿ الَّذِينَ أُبْسِلُوا ﴾ أي : أسلموا إلى العذاب ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة ، ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أي : من ماء مغلي يتجرجر في بطونهم ، وتتقطع به أمعاؤهم ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي : بسبب كفرهم المستمر في الدنيا ، واعلم أن التكذيب بآيات الله تعالى والاستهزاء بها هو الكفر ، وعاقبة الكفر هو العذاب الأليم ، وكذا الإصرار على المعاصي يجر كثيراً من عصاة المؤمنين إلى الموت على الكفر والعياذ بالله .

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا ﴾ أنعبد ، والاستفهامُ للإنكار ﴿ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي : متجاوزين عبادة الله تعالى ﴿ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا ﴾ أي : ما لا يقدر على نفعنا ولا على ضرنا وهو الأصنام ﴿ وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا ﴾ أي : نرجع من الإسلام إلى الشرك ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ﴾ إلى الإسلام وأنقذنا من الشرك ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ﴾ أي : نردُ على أعقابنا مشبهين بالذي ذهبت به مردة الجن إلى المهامه وأضلته ﴿ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ أي : متحيراً ضالاً عن الطريق ﴿ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ﴾ أي : يهدونه إلى الطريق المستقيم ﴿ ائْتِنَا ﴾ أي : يقولون له ائتنا ، شبَّه الله تعالى من أشرك وعبد غير الله ، مع قيام البرهان الفاصل بين الحق والباطل ، بشخص موصوف بثلاثة أوصاف الأول : استهوته مردة الجن والغيلان في المهامه والمفاوز . والثاني : كونه حيران تائهاً ضالاً عن الجادة لا يدري كيف يصنع . والثالث : أن يكون له أصحاب يدعونه قائلين له ائتنا فقد ضللت عن الجادة وهو لا

يجيبهم ولا يترك متابعة الجن والشياطين . والجنُّ : أجسام لطيفة تتشكل بأشكال مختلفة ، وتقدر على أن تنفذ في بواطن الحيوان ، نفوذ الهواء في خلال الأجسام المتخلخلة ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ ﴾ الذي هدانا إليه وهو الإسلام ﴿ هُوَ الْهُدَى ﴾ وحده وماعداه ضلال محض ، وغيٌّ بحتٌ ﴿ وَ ﴾ قل أيضاً ﴿ أُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : بأن نسلم فاللام بمعنى الباء والعرب تقول أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل ﴿ وَأَنْ ﴾ أي : بأن ﴿ أَقِيمُوا الصَّلاةَ واتَّقُوه ﴾ تعالى ، فالإسلام رئيس الطاعات الروحانية ، والصلاة رئيس الطاعات الجسمانية ، والتقوى : الاحتراز عن كل ما لا ينبغي ﴿ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ تجمعون يوم القيامة للحساب ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أي : العلويات والسفليات وما فيهما ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي : قائماً بالحق والحكمة ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحقُّ ﴾ والمعنى : وأمره المتعلق بكل شيء الحقُّ المشهود له بالحقية المعروف بها ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ لا ملك فيه لغيره ولو مجازاً كما في الدنيا ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ ﴾ أي : هو عالم ما غاب وما شوهد ﴿ وَهُوَ الحَكِيمُ ﴾ في كل ما يفعله ﴿ الخَبِيرُ ﴾ بجميع الأمور الجلية والخفية . والنفخة ثلاث : أولها : نفخة الفزع فإنهم إذا سمعوا النفخة يعلمون أنهم يموتون يقيناً ، ولم يبق من أيام الدنيا شيء فيأخذهم الفزع لأجل العرض والحساب والعذاب ، والنفخة الثانية : الصعق وهو موت الخلائق أجمعين حتى لا يبقى إلا الله تعالى ، كل شيء هالك إلا وجهه . والنفخة الثالثة : نفخة البعث من القبور ، فعند موت جميع الخلائق تجعل أرواحهم في الصور ، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً لا تأكله الأرض أبداً وهو « عَجْبُ الذَّنب » ومنه يُرَكَّب الخلق يوم القيامة ، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح[1] .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ أي : واذكر يا محمد لأهل مكة ، وقت قول إبراهيم لأبيه آزر ، موبخاً له على عبادة الأصنام ، فإن ذلك مما يبكتهم ، وآذر عطف بيان لأبيه وهو تارح بفتح الراء وسكون الحاء المهملة علمان لأب إبراهيم ، كإسرائيل ويعقوب ، أو آزر لقبه وتارح اسم له ، ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً ﴾ أي : أتجعلها لنفسك آلهة ؟ ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ ﴾ الذين يتبعونك في عبادتها ﴿ فِي ضَلالٍ ﴾ عن الحق ﴿ مُبِينٍ ﴾ أي : بيّن كونه ضلالاً لا اشتباه فيه ، والجملة تعليل للإنكار والتوبيخ ، ثم اعلم أن عبادة الأصنام كفر ، فدلت الآية على أن آزر كان كافراً وذلك لا يقدح في شأن نسب نبينا ﷺ وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » فذلك محمول على أنه ما وقع في نسبه مَنْ وُلد من الزنى ، ونكاح أهل الجاهلية صحيح كما

---

(١) أخرج ابن ماجه الحديث بلفظ (ليس شيء من الإنسان إلاّ يبلى ، إلاّ عظمٌ واحد وهو عجب الذنب ، ومنه يُركّب الخلقُ يوم القيامة) الفتح الكبير ٣ / ٦٠ .

يدل قوله عليه الصلاة والسلام : « ولدت من نكاح لا من سفاح » أي : زنى .

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي : كذلك التبصير نبصره عليه الصلاة والسلام ﴿ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : ربوبيته تعالى ومالكيته لهما ، وسلطانه القاهر عليهما ، والملكوت مصدر على زنة المبالغة ، كالرهبوت والجبروت ومعناه : الملكُ العظيمُ ، والسلطان القاهر ، أي : عرفناه . ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ أي : وليكون من زمرة الراسخين من معرفة الله تعالى فعلنا ما فعلنا ، ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أي : ستره بظلامه ﴿ رَأَىٰ كَوْكَباً ﴾ قيل : كان ذلك هو الزهرة ، وقيل هو المشتري وكلاهما من الكواكب السبعة السيارة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب ، والمستدل على فساد قوله ، يحكيه على رأي خصمه ، ثم يكرُّ عليه بالإبطال ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ أي : غرب ﴿ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ أي : الأرباب المنقلين من مكان إلى مكان المتغيرين من حال إلى حال ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِغاً ﴾ أي : مبتدئاً في الطلوع إثر غروب الكواكب ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ كما أفل النجم ﴿ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ إلى جنابه ﴿ لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ تعريض لقومه بأنهم على ضلال ، ولعله عليه الصلاة والسلام كان إذ ذاك في موضع كان من جانبه الغربي جبل شامخ يستتر به الكواكب والقمر ، وإلا فطلوع القمر بعد أفول الكوكب ثم أفوله قبل طلوع الشمس مما لا يكاد يتصور ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾ أي : مبتدئة في الطلوع ﴿ قَالَ هَذَا ﴾ الجرم المشاهد ﴿ رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ من الكوكب والقمر ، وهو تأكيد لما رَامَه من إظهار النَّصَفَ بقوله ﴿ لأَكُونَنَّ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ كما أفل الكوكب والقمر وقويت عليهم الحجة ولم يرجعوا ﴿ قَالَ ﴾ مخاطباً للكل صادعاً بالحق بين أظهرهم ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ بالله تعالى من الأصنام والأجرام المحتاجة إلى محدث ، فقالوا له ما تعبد ؟ قال : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ أي : أخلصت ديني وعبادتي وجعلت قصدي ﴿ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أي : لله الذي خلقهما ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي : مائلاً عن الأديان الباطلة كلها إلى الدين الحق ، ميلاً لا رجوع فيه ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ به تعالى في شيء من الأفعال والأقوال ، وهذه حال من صفتْ مرآة قلبه عن طبع الطبع ، وتنزهت عن ظلمة هوى النفس وشهواتها .

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ أي : جادلوه في دينه وهددوه بالأصنام أن تصيبه بسوء إن تركها ﴿ قَالَ أَتَحَاجُّونِّي ﴾ بنون ثقيلة أصله أتحاجونني بنونين أولاهما نون الرفع ، والثانية نون الوقاية فاستثقل اجتماعهما ، فأدغم الأولى في الثانية أي : أتجادلونني ﴿ فِي اللهِ ﴾ أي : في شأنه تعالى ووحدانيته ﴿ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ أي : والحال أن الله تعالى هداني إلى الحق ﴿ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أي : ما تشركون

به تعالى من الأصنام أن تصيبني بسوء لعدم قدرتها على شيء ﴿ إِلا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً ﴾ إلا وقت مشيئته تعالى شيئاً من إصابة مكروه بي من جهتها ، وذلك من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلاً ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أي : أحاط بكل شيء علماً ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : أتعرضونَ عن التأمل في أن آلهتكم جمادات ، غير قادرة على شيء من نفع ولا ضر ، فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضراري ؟ ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ بالله من الأصنام وهي لا تضر ولا تنفع ؟ ﴿ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ ﴾ أي : وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخلوقات وأهولها ، وهو إشراككم بالله الذي ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء ؟ ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ﴾ أي : بإشراكه ﴿ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ﴾ أي : حجة وبرهاناً ﴿ فَأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ ﴾ أنحن أم أنتم ؟ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ من أحق به فأخبروني ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : أحد الفريقين الذين آمنوا ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ ﴾ أي : لم يخلطوه ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي : بشرك كما يفعله الفريق المشركون ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ ﴾ من العذاب ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ إلى الحق ، ومن عداهم في ضلال مبين ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله ﴿ فَلَمَّا جَنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ﴿ حُجَّتُنَا ﴾ الحجة عبارة عن الكلام المؤلف للاستدلال على الشيء ﴿ آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ أي : أرشدناه إليها أو علّمناه إياها ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ ﴾ أي رتباً عظيمة عالية من العلم والحكمة ﴿ مَنْ نَشَاءُ ﴾ رفعه كما رفعنا درجات إبراهيم ، حتى فاق في زمن صباه شيوخ أهل عصره ، اهتدى إلى ما لم يهتد إليه إلا أكابر الأنبياء عليهم السلام .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ في كل ما فعل من رفع وخفض ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بحال من يرفعه واستعداده له ، ثم إن المقصود من المباحث الجارية بين إبراهيم وبين قومه ، إنما هو إلزام القوم وإرشادهم إلى طريق النظر والاستدلال ، وتنبيههم على ضلالهم في أمر دينهم ، كما هو المختار عند أجلاء المفسرين ، وعلى هذا المسلك جريت في تفسير الآيات وقال بعضهم : المقصود مما حكى الله عن إبراهيم من الاستدلال على وحدانية الله تعالى ، وإبطال ألوهية ما سواه ، نظره واستدلاله في نفسه ، وتحصيل المعرفة لنفسه ، فيحمل على أن ذلك في زمان مراهقته وأول أوان بلوغه[1] ، وأن المراد بالملكوت الآيات .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ الهبة في اللغة : التبرع والعطية الخالية عن تقدم الاستحقاق ، والضمير لابراهيم عليه

---

(١) الصحيح القول الأول وهو أن إبراهيم عليه السلام كان مناظراً لقومه ، واستدرجهم بقوله (هذا ربي) لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة الكواكب ، ويدل عليه قوله تعالى ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ فالموقف كان موقف مناظرة لا موقف نظر واستدلال ، وانظر كتابنا صفوة التفاسير ١ / ٤٠٢ ففيه التوضيح والبيان .

السلام ﴿ إِسْحٰقَ ﴾ ابنه الصلبي وهو أب أنبياء بني إسرائيل ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ ابن إسحق ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ أي : كل واحد منهما وفقنا وأرشدنا إلى الفضائل الدينية ، والكمالات العلمية والعملية ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل إبراهيم ، وعدَّ هداه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه ، وشرف الوالد يتعدى إلى الولد ﴿ وَ ﴾ هدينا ﴿ مِنْ ذُرِّيَتِهِ ﴾ أي : ذرية نوح ولم يرد من ذرية إبراهيم لأنه ذكر في جملتهم يونس ولوطاً ولم يكونا من ذرية إبراهيم كذا قال البغوي . ﴿ دَاوُدَ ﴾ ابن إيشا ﴿ وَسُلَيْمَانَ ﴾ ابنه ، وسلسلتها تنتهي إلى يهودا بن يعقوب ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ ابن أموص ﴿ وَيُوسُفَ ﴾ ابن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ﴿ وَمُوسَىٰ ﴾ ابن عمران ﴿ وَهَارُونَ ﴾ هو أخو موسى أكبر منه بسنة ، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : كما جزيناهم برفعة الدرجات ﴿ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ على إحسانهم على قدر استحقاقهم ﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ أي : هديناه أيضاً وسلسلته تنتهي إلى سليمان ﴿ وَيَحْيٰى ﴾ ابنه ﴿ وَعِيسَىٰ ﴾ ابن مريم ابنة عمران ، وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت ، فيكون الحسن والحسين من ذرية سيد المرسلين محمد ﷺ مع انتسابها إليه بالأم ، ومن آذاها فقد آذى ذريته عليه السلام ﴿ وَإِلْيَاسَ ﴾ ابن أخ هارون أخي موسى ﴿ كُلٌّ ﴾ منهم ﴿ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الكاملين في الصلاح ، وهو الإتيان بما ينبغي ، والتحرز عما لا ينبغي ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ عطف على نوحاً أي : وهدينا إسماعيل بن إبراهيم كما هدينا نوحاً ، ولعل الحكمة في إفراد إسماعيل عن باقي ذرية إبراهيم ، أن رسول الله ﷺ كان من ذرية إسماعيل ، فلذا أفرده عنهم وأخره في الذكر.

﴿ وَالْيَسَعَ ﴾ ابن أخطوب بن العجوز ﴿ وَيُونُسَ ﴾ ابن متى ﴿ وَلُوطاً ﴾ ابن هاران بن أخي إبراهيم ﴿ وَكُلاًّ ﴾ منهم ﴿ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أي : عالمي عصرهم بالنبوة لا بعضهم دون بعض ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ ﴾ من تبعيضية أي : وفضلنا بعض آباء المذكورين كآدم وشيث وإدريس ، إذ من الآباء من لم يكن نبياً ولا مفضلاً مهدياً ﴿ وَذُرِّيَاتِهِمْ ﴾ أي : وبعض ذرياتهم كأولاد يعقوب ﴿ وَإِخْوَانِهِمْ ﴾ كأخوة يوسف في عصرهم ويحتمل أن يكون المراد بهم كل من آمن معهم فإنهم كلهم دخلوا في هداية الإسلام ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ ﴾ أي : اصطفيناهم ﴿ وَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ أي : أرشدناهم ﴿ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ لا يضل من سلك إليه ﴿ ذٰلِكَ ﴾ الهدى ﴿ هُدَى اللهِ ﴾ الإضافة للتشريف ﴿ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم مستعدون للهداية والإرشاد ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا ﴾ أي : لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو شأنهم ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُمْ ﴾ أي : بطل وذهب ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال المرضية الصالحة ، فكيف بمن عداهم ؟ وهذا غاية التوبيخ والترهيب للعوام والخواص ، لئلا يأمنوا مكر الله ﴿ أُولٰئِكَ ﴾ المذكورون من الأنبياء الثمانية عشر ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أي : جنس الكتاب المتحقق في ضمن أيِّ فرد من أفراد الكتب السماوية ، والمراد بإيتائه التفهيم التام بما فيه من

الحقائق والدقائق ، فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معينٌ ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ أي : الحكمة ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ أي : الرسالة ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أي : بهذه الثلاثة ﴿ هَؤُلاءِ ﴾ أهل مكة ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾ أي : أمرنا بمراعاتها ووفقنا للإيمان بها والقيام بحقوقها ﴿ قَوْمَاً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ وهم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الأنبياء المتقدم ذكرهم ﴿ الَّذِينَ هَدَى اللهُ ﴾ أي : هداهم الله إلى الحق والنهج المستقيم ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ أي : فاختص هداهم بالاقتداء ، ولا تقتد بغيرهم ، والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله تعالى ، وتوحيده وأصول الدين ، واحتج العلماء بهذه الآية على أنه عليه الصلاة والسلام أفضل من جميع الأنبياء عليهم السلام ، لأن خصال الكمال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة ، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلية ، ويوسف كان جامعاً بينهما ، وموسى كان صاحب المعجزات القاهرة ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس كانوا أصحاب الزهد ، وإسماعيل كان صاحب الصدق ، فكل منهم قد غلب عليه خصلة معينة ، فجمع الله كل خصلة في حبيبه عليه الصلاة والسلام ، لأنه إذا كان مأموراً بالاقتداء لم يقصّر في التحصيل.

﴿ قُلْ ﴾ لكفار قريش ﴿ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي : على القرآن ﴿ أَجْراً ﴾ أي : جُعْلاً من جهتكم ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي : ما القرآن ﴿ إِلا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : إلا عظة وتذكير لهم من جهته سبحانه ، وعلى هذا جرى الأولياء من أهل الإرشاد ، إذ لا أجر للتعليم والإرشاد ، وإنما خدمة الدين مجردة عن الأغراض مطلقاً ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أصل القدرة : السيرُ والحزر ، يقال : قدَرَ الشيءَ يقدُرُه بالضم قدراً ، إذا سَبَره وحزره ليعلم مقداره ، ثم استعمل في معرفة الشيء ، مقداره وأحواله وأوصافه ، أي : وما قدروا الله قدره الحق ، روي أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم ، خرج مع نفر إلى مكة معاندين ، ليسألوا رسول الله ﷺ عن أشياء ، وكان رجلاً سميناً فأتى رسول الله ﷺ بمكة فقال له عليه الصلاة والسلام : « أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله تعالى يبغض الحبر السمين ؟ » قال : نعم . قال : « فأنت الحبر السمين وقد سمنت من مأكلتك التي تطعمك اليهود » ، فغضب حينئذٍ فقال : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فنزلت الآية . والمعنى ما عرفوه تعالى حق معرفته ، ولم يراعوا حقوقه تعالى في ذلك بل أخلوا بها إخلالاً ﴿ إِذْ قَالُوا ﴾ منكرين لبعثة الرسل وإنزال الكتب ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي : كتاب ولا وحي ، مبالغة في إنكار إنزال القرآن ﴿ قُلْ ﴾ لهم على طريق التبكيت وإلقام الحجر : ﴿ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ﴾ يعني التوراة حال كونه ذلك الكتاب ﴿ نُوراً ﴾ بيناً بنفسه ومبيناً لغيره ﴿ وَهُدَىً ﴾ بياناً ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ وحال كونه ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ ﴾ أي : تضعونه في قراطيس

مقطعة وورقات مفرقة بمعنى الصحيفة ﴿ تُبْدُونَهَا ﴾ أي : تظهرون ما تحبون إبداءه منها ﴿ وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ مما فيها كنعوت النبي عليه الصلاة والسلام ، وآية الرجم ، وسائر ما كتموه من أحكام التوراة ﴿ وَعُلِّمْتُمْ ﴾ أيها اليهود على لسان محمد ﴿ مَا لَمْ تَعلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ ﴾ وهو ما أخذوه من الكتاب من العلوم والشرائع ، ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ أي : أنزله الله . أُمِرَ عليه الصلاة والسلام بأن يجيب عنهم ، تنبيهاً على أنهم بهتوا وأفحموا ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ أي : دعهم واتركهم ﴿ فِي خَوْضِهِمْ ﴾ أي : في باطلهم الذي يخوضون فيه أي يشرعون ، فلا عليك بعد إلا التبليغ وإلزام الحجة ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ ويقال لكل من عمل ما لا ينفعه إنما أنت لاعب ﴿ وَهَذَا ﴾ القرآن ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ وصفه به ليعلم أنه هو الذي تولى إنزاله بالوحي على لسان جبريل عليه السلام وليس تركيب ألفاظه على هذه الفصاحة من قبل الرسول ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أي : كثير الفائدة والنفع ، كيف وقد أحاط بالعلوم النظرية والعملية ، فإن أشرف العلوم النظرية ، هو معرفة ذات الله ، وصفاته وأفعاله وأحكامه ، ولا يوجد كتاب يفيد معرفة هذه الأمور مثل ما أفاده القرآن ، وأما العلوم العملية فالمطلوب منها إما أعمال الجوارح ، وإما أعمال القلوب ، وهي المسمى بعلم الأخلاق وتزكية النفس ، فإنك لا تجد شيئاً منها مثل ما تجده في القرآن العظيم.

﴿ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من التوراة لنزوله حسبما وصف فيها ﴿ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَىٰ ﴾ أي : ولإنذارك أهل أم القرى والمراد بأم القرى مكة وسميت بها لأن الأرض دحيت من تحتها ، فهي أصل الأرض كلها ، كالأم أصل النسل ، ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أهل الشرق والغرب ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ وبما فيها من أنواع العذاب ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : بالكتاب لأنهم يخافون العاقبة ، ولا يزال الخوف يحملهم على النظر والتأمل حتى يؤمنوا به ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ يعني : يداومون على الصلوات الخمس ، التي هي أشرف التكاليف والطاعات ، ولذا خصص محافظتها من سائر العبادات ، وفي الآيات أمور . الأول : أن المخلوق لا يقدر قدر الخالق ، ولا يدركه باعتبار كنه ذاته .

فكل من عرف الله بآلة مخلوقة فهو على الحقيقة غير عارف ، فالذي يقدر الله حق قدره هو الله تعالى لا غيره .

والثاني : ذم السمن كما عرف في سبب النزول ، والسمن المذموم ما يكون مكتسباً بالتوسع في المأكل ، لا ما يكون خلقة ، وفي الحديث : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة ، واقرأوا إن شئتم (فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً) »[1] . قال القرطبي في تذكرته وفيه

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وانظر جامع الأصول ٢ / ٢٣٥ .

من الفقه ذم السمن لمن تكلفه ، لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم ، بل يدل على تحريم كثرة الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسمن انتهى . وفي الفروع أن الأكل فرض إن كان لدفع هلاك نفسه ، ومأجور عليه إن كان لتمكينه من صومه وصلاته ، ومباح إلى الشبع ليزيد قوته ، وحرام فوق الشبع إلا لقصد قوة صوم الغد ولئلا يستحي ضيفه .

وفي الحديث : « إن الله يكره الحبر السمين » وفي التوراة : (إن الله ليبغض الحبر السمين) وفي رواية : (إن الله يبغض القارىء السمين) ، قال الشافعي رحمه الله : ما أفلح سمين قط ، فقيل له : ولِمَ ؟ قال : لأنه لا يفكر ، والعاقل لا يخلو من إحدى حالتين : إما أن يُهَمَّ لآخرته ومعاده ، أو لدنياه ومعاشه ، والشحم مع الهمِّ لا ينعقد ، فإذا خلا من المعنيين صار في حد البهائم بعقد الشحم ، ثم قال الشافعي : كان ملك في الزمان الأول كثير اللحم جداً ، فجمع المتطببين وقال : احتالوا حيلة تخفف عني لحمي ! فما قدروا ، فنقبوا له رجلاً عاقلاً أديباً متطبباً وبعثوه ، فأشخص إليه بصره وقال أيعالجني ذلك الفتى ؟ قال : أصلح الله الملك ، أنا رجل متطبب منجم دعني أنظر الليلة في طالعك أي دواء يوافق فأشفيك ؟ فهدأ عليه ، فقال : أيها الملك . الأمان قال لك الأمان ، قال : رأيتُ طالعك يدل على أن عمرك شهر . فمتى أعالجك ؟ وإن أردت بيان ذلك فاحبسني عندك ، فإن كان لقولي حقيقة فخلِّ عني ، وإلا فاقتصَّ مني ، قال فحبسه ، ثم رفع الملك الملاهي واحتجب عن الناس ، وخلا وحده مغمَّاً ما يرفع رأسه يعد الأيام ، كلما انسلخ يوم ازداد غماً ، حتى هزل وخف لحمه ، ومضى لذلك ثمانية وعشرون يوماً ، فبعث إليه فأخرجه ، فقال : ما ترى ؟ فقال : أعز الله الملك ، أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب ، والله ما أعرف عمري فكيف أعرف عمرك ؟ إنه لم يكن عندي دواء إلا الهمُّ ، فلم أقدر أن أجلب إليك الهمَّ إلا بهذه العلة ، فأذابت شحم الكلى ، فأجازه وأحسن إليه ، والثالث : ما في قوله تعالى ﴿ **قُلْ اللهُ** ﴾ من لطائف العبارات من أهل الإشارات .

فالآية بإشارتها تدل على أن من أراد الوصول إلى الله تعالى ، فلينقطع عما سواه ، فإنه لعب ولهو واللاهي واللاعب ليس على شيء ، نسأل الله سبحانه أن يحفظنا من اشتغال بما سواه ، والرابع : مدح القرآن وبيان فضيلته وفائدته ، قال أحمد بن حنبل : رأيت رب العزة في المنام فقلت : يارب ؛ ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك ؟ قال : « كلامي يا أحمد » قلت : يارب ، بفهم أم بغير فهم ؟ قال : « بفهم وبغير فهم »[1] ، وفي الحديث : « خيركم من تعلم القرآن وعلَّمَهُ »[2] وينبغي أن يقتدي برسول الله

(١) ذكرها الإمام أحمد في المسند .

(٢) الحديث أخرجه البخاري والترمذي وأبو داود وابن ماجه ، وانظر جامع الأصول ٢ / ٤٥٢ .

ﷺ ، فلا يطلب عوضاً ولا يقصد جزاء ولا شكوراً ، بل يُعَلِّم للتقرب إلى الله تعالى ، ويقتدي بالأنبياء حيث قدم كل واحد منهم على دعوته قوله ﴿ **لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرَاً** ﴾ قال في الأسرار المحمدية : من أخذ الجراية ليتعلم فهي له حلال ، ولكن من تعلم ليأخذ الجراية فهي عليه حرام ، وينبغي لقارىء القرآن أن يُجوِّد ويُحسِّن صوته ، وفي الحديث : « ليس منَّا من لم يتغن بالقرآن وحسنوا القرآن بأصواتكم » [١] ، قيل : أراد بالتغني الاستغناء ، وقيل : الترنم وترديد الألحان وهو أقرب عند أهل اللغة . فمن أحب الله وأنس بكلامه ، وتجرد عن الأغراض ، وكان القارىء متحاشياً من الأنغام الموسيقية ، وألحان أهل الفسق ، قارئاً على لحون العرب ، محسناً صوته فلا مجال للطعن فيه ظاهراً وباطناً والله أعلم . ﴿ **وَمَنْ** ﴾ استفهام مبتدأ أي : لا أحد ﴿ **أَظْلَمُ** ﴾ خبره ﴿ **مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً** ﴾ أي : اختلق كذباً فزعم أنه تعالى بعثه نبياً ، كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي . قال قتادة : كان مسيلمة يسجع ويتكهن ، كما قال في معارضة سورة الكوثر : إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وهاجر ، إن كفيناك المكابر والمجاهر . فانظر كيف كان سافل الألفاظ ، فاسد المعاني ، فادعى النبوة . وفي الحديث : « بينا أنا نائمٌ ، أتيت بخزائن الأرض ، فوضع في يديَّ سواران من ذهب ، فكبرا عليَّ وأهمَّاني ، فأوحي إليَّ أن أنفخهما فنفختهما فذهبا ، فأولتهما بالكذابين اللذين أنا بينهما ، صاحب صنعاء وصاحب اليمامة » [٢] ، قال القاضي : وجه تأويلهما بالكذابين أن السوار كالقيد لليد يمنعها عن البطش ، فكذا الكذابان يقومان بمعارضة شريعته ، ويصدان عن نفاذ أمرها ، قتل صاحب صنعاء وهو « الأسود العنسي » في مرض موت النبي عليه الصلاة والسلام قتله فيروز الديلمي ، وقتل صاحب اليمامة وهو « مسيلمة » في عهد الصديق قتله « وحشي » قاتل حمزة ، فلما قتله قال : قتلتُ خير الناس في الجاهلية ، وشر الناس في إسلامي . ﴿ **أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ** ﴾ من جهته تعالى ﴿ **وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ** ﴾ أي : والحال أنه لم يوح إليه شيء أصلاً ، ﴿ **وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ** ﴾ وهم المستهزئون الذين قالوا : لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ** ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أي : ولو ترى الظالمين إذ هم . وجواب ﴿ **لَوْ** ﴾ محذوفٌ ، أي : لرأيت أمراً عظيماً ﴿ **فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ** ﴾ أي : شدائده وسكراته ، جمع غمرة وهي الشدة الغالبة ، من غمره الماء إذا علاه وغطَّاه ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ** ﴾ أي : ملك الموت وأعوانه من ملائكة العذاب ﴿ **بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ** ﴾ بقبض أرواحهم كالغريم الملازم الملح الذي يبسط يده إلى من عليه الحق ، ويعنفه عليه ولا يمهله ، أو باسطوها بالعذاب قائلين ﴿ **أَخْرِجُوا**

(١) أخرجه البخاري بلفظ (ليس منا من لم يتغنَّ بالقران) وأخرجه أبو داود والنسائي وزاد (وزينو القرآن بأصواتكم) وانظر جامع الأصول ٢ / ٤٥٤ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وانظر جامع الأصول ٢/ ٥٣٧ .

﴿ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي : أرواحكم إلينا من أجسادكم وهذا القول منهم تغليظ وتعنيف ، أو أخرجوها من العذاب وخلصوها من أيدينا ﴿ اليَوْمَ ﴾ أي : وقت الإماتة ﴿ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُوْنِ ﴾ أي : العذاب المتضمن للشدة ، والهونُ : الهوان أي : الحقارة ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الحَقِّ ﴾ كاتخاذ الولد ونسبة الشريك وادعاء النبوة والوحي كذباً ﴿ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ للحساب والجزاء ، وهو بمعنى المستقبل أي : تجيئوننا وإنما أبرز في صورة الماضي لتحققه كقوله تعالى (أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ) ﴿ فُرَادَىٰ ﴾ أي : منفردين عن الأموال والأولاد ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي : على الهيئة التي ولدتم عليها عراة حفاة وفي الخبر : « إنهم يحشرون يوم القيامة عراة حفاة غُرْلاً » قالت عائشة : وأسَوْءتاهُ الرجل والمرأة كذلك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (لِكُلِّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) لا ينظر الرجال إلى النساء ، ولا النساء إلى الرجال ، شغل بعضهم عن بعض »[1] ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا ، فشغلتم به عن الآخرة ، والتخويل تمليك الخدم والاتباع أو الإعطاء على غير جزاء ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ ما قدمتم منه شيئاً ولم تحملوا نقيراً ، بخلاف المؤمنين فإنهم صرفوا همتهم إلى الأعمال الصالحة فبقيت معهم وحضرت معهم في محفل القيامة .

﴿ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ ﴾ الأصنام ﴿ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي : شركاء لله في استحقاق العبادة ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي : وقع التقطع بينكم ﴿ وَضَلَّ عَنْكُمْ ﴾ أي : بطل وضاع ﴿ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أنها شفعاؤكم فلم يقدروا على دفع شيء من العذاب عنكم ، أو أنها شركاؤكم لله في ربوبيتكم وهو الأنسب لسياق النظم . واعلم أن للإنسان أعداء أربعة هي : المال ، والأهل ، والأولاد ، والأصدقاء . وهي لا تدخل في القبر مع الميت ، فيبقى فريداً وحيداً منهم ، وأصدقاء أربعة هي : كلمة الشهادة ، والصلاة ، والصوم ، وذكر الله ، وهي تدخل في القبر وتشفع عند الله تعالى ، فتصحب الميت فلا يبقى وحيداً ، فعلى العاقل أن يتفكر في تجرده وتفرده فيسعى في تحصيل لباس له هو التقوى ومصاحب هو العمل الصالح .

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ ﴾ الفلقُ : الشقُّ بإبانة ، والحبُّ : جمع حبة ، وهي اسم لجميع البزور كالبر والشعير والذرة ونحوها ، والمعنى شاق الحب بالنبات أي : يشق الحبة اليابسة ، فيخرج منها ورق أخضر

---

(١) الحديث أصله في الصحيحين .

﴿ **والنَّوَى** ﴾ واحدتها نواة هي الشيء الموجود في داخل الثمر ، مثل نواة الخوخ والمشمش والتمر ونحوها ، والمعنى شاق النوى بالشجر أي : يشق النواة الصلبة ، فيخرج شجرةً ذات أوراق وأغصان ﴿ **يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ** ﴾ يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات مما لا ينمو من النطفة والحب ﴿ **وَمُخْرِجُ المَيِّتِ** ﴾ كالنطفة والحب ﴿ **مِنَ الحَيِّ** ﴾ كالحيوان والنبات ، فالحي والميت مجاز عن النامي والجامد ، تشبيهاً للنامي بالحي ، والحيُّ حقيقة فيما يكون موصوفاً بالحياة المستتبعة للحس والحركة الإرادية ، والميت حقيقة فيما يكون خالياً عن صفة الحياة ممن تكون الحياة من شأنه ، ومنهم من حمل اللفظ على الحقيقة وقال يخرج من النطفة الميتة بشراً حياً ، ومن الدجاجة بيضة ميتة ، قال ابن عباس : يخرج المؤمن من الكافر كما في حق إبراهيم عليه السلام ، والكافر من المؤمن كما في حق ولد نوح عليه السلام ، والعاصي من المطيع وبالعكس ، والعالم من الجاهل وبالعكس ، والعاقل من الأحمق وبالعكس ، ﴿ **ذٰلِكُمُ** ﴾ القادر العظيم الشأن ﴿ **اللهُ** ﴾ المستحق للعبادة وحده ﴿ **فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته إلى غيره ؟ والإفكُ في اللغة : قلب الشيء وصرفه ، والخطاب لكفار قريش لأن السورة مكية ﴿ **فَالِقُ الإِصْبَاحِ** ﴾ الإصباحُ : الدخول في ضوء النهار ، أي : فالق عمود الفجر عن بياض النهار ﴿ **وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً** ﴾ يسكن إليه التَّعِبُ لاستراحته ، من سكن إليه إذا اطمأن إليه استئناساً به ﴿ **والشَّمْسَ وَالقَمَرَ** ﴾ أي والنَيِّرانِ وجعلها ﴿ **حُسْبَاناً** ﴾ أي : على أدوار مختلفة يحسب بها الأوقات ، فإنه تعالى قدَّر حركة الشمس بمقدار من السرعة والبطىء ، بحيث تتم دورتها في سنة ، وقدَّر حركة القمر بحيث تتم الدورة في شهر ، وبهذا التقدير تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة ، كنضج الثمار وأمور الحرث والنسل ، ونحو ذلك مما يتوقف عليه قوام العالم ، والحُسْبان : بالضم مصدر بمعنى الحساب والعدِّ ، وأما الحِسْبان بكسر الحاء : فهو بمعنى الظن والتخمين ، ﴿ **ذٰلِكَ** ﴾ أي : ذلك التسيير البديع بالحساب المعلوم ﴿ **تَقْدِيرُ العَزِيزِ** ﴾الذي قهرها وسيَّرها على الوجه المخصوص ﴿ **العَلِيمِ** ﴾ بما فيها من المنافع والمصالح المتعلقة بمعاش الخلق ومعادهم .

﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ** ﴾ أي : أنشأ لأجلكم وأبدع ﴿ **النُّجُومَ** ﴾ التي تختلف مواضعها من جهة الشمال والجنوب ، والصبا والدبور ﴿ **لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البَّرِ والبَحْرِ** ﴾ أي : في ظلمات الليل ، في البر والبحر ، لتعرفوا بها الطرق من بلد إلى بلد ، في المفاوز ولجج البحار ، في الليالي المظلمة ، فإن من النجوم ما يجعله السائر تلقاء وجهه ، ومنها ما يجعله على يمينه ، ومنها ما يجعله على يساره ، ومنها ما يجعله خلفه ليظهر له الطريق التي تؤديه إلى بغيته ، وللنجوم فوائد أخر وهي أنها زينة السماء ، ورمى الشياطين وغير ذلك ﴿ **قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ** ﴾ أي : بينا الآيات الدالة على قدرتنا فصلاً فصلاً ﴿ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ فإنهم المنتفعون بها ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ** ﴾ مع كثرتكم ﴿ **مِنْ نَفْسٍ**

﴿ وَاحِدَةٍ ﴾ من نفس آدم وحدها ، فإنه خلقنا جميعاً منه ، وخلق أُمّنا حواء من ضلع من أضلاع آدم ، فصار كل الناس مخلوقين من نفس واحدة ، وإنما منّ علينا بهذا ، لأن الناس إذا رجعوا إلى أصل واحد ، كانوا أقرب إلى أن يألف بعضهم بعضاً ، ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أي : فلكم استقرار في الأصلاب ، واستيداع في الأرحام ، وجعل صلب الأب مستقر النطفة ، ورحم الأم مستودعاً لها ، لأن النطفة حصلت في صلب الأب لا من قبل الغير ، وحصلت في رحم الأم بفعل الغير ، فأشبهت الوديعة ، كأن الرجل أودعها ما كان مستقراً عنده ، وقال الحسن : يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك ، ويوشك أن تلحق بصاحبك ، وأنشد قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا وديعة * ولابدَّ يوماً أن تُرَدُّ الودائع

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ ﴾ المبينة لتفاصيل خلق البشر ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ غوامض الدقائق ، باستعمال الفطنة وتدقيق النظر ، وإنما ذكر مع النجوم ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ومع تخليق بني آدم ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ لأن ذلك إشارة إلى آيات الآفاق ، وهذا إلى آيات الأنفس ، ولا شك أن آيات الآفاق أظهر وأجلى ، وآيات الأنفس أدقُّ وأخفى ، فكان ذكر الفقه لها أنسبَ وأولى ، لأن الفقه عبارة عن الوقوف على المعنى الخفي ، والفقيه العالم الذي يشقُّ الأحكام ويفتش عن حقائقها ، ويفتح ما استغلق منها ، فالفقه إنما يطلق حيث يكون فيه حذاقة وتدقيق نظر ، ثم هذه الآيات الآفاقية والأنفسية تفصح عن صنع الله البديع ، وتدعو أهل الشرك إلى التوحيد والإيمان ، وأهل الإخلاص إلى الشهود والعيان ، وأهل المعصية إلى التوبة باللسان والجَنَان ، فإن الامتنان بذكر النعم الجليلة يستدعي شكراً لها ، فعلى العاقل أن يجتهد في طلب الحق ، وإنما أصل الحجاب هو الغفلة ، ـ وحكي ـ أن الشَّاه أبا الفوارس الكرماني خرج للصيد ، فأمعن في الطلب حتى وقع في برية مقفرة وحده فإذا هو بشاب راكب على سبع وحوله سباع ، فلما رأته ابتدرت نحوه فزجرها الشاب عنه ، فلما دنا إليه سلم عليه وقال له : يا شاه ما هذه الغفلة عن الله ؟ اشتغلت بدنياك عن آخرتك ، وبلذتك وهواك عن خدمة مولاك ، إنما أعطاك الله الدنيا لتستعين بها على خدمته ، فجعلتها ذريعة إلى الاشتغال عنه ، فبينما الشاب يحدثه إذ خرجت عجوز بيدها شربة ماء فناولتها الشاب ، فشرب فدفع باقيه إلى الشاه ، فشربه فقال ما شربت شيئاً ألذ منه ولا أبرد ولا أعذب ، ثم غابت العجوز فقال الشاب : هذه الدنيا وكلها الله إلى خدمتي ، فما احتجت إلى شيء إلا أحضرته إليَّ حين يخطر ببالي ، أما بلغك أن الله تعالى لما خلق الدنيا قال لها : « يا دنيا من خدمني فاخدميه ، ومن خدمك فاستخدميه » فلما رأى ذلك تاب الشَّاه ورجع وأناب .

﴿ وَهُوَ ﴾ أي : الله تعالى ﴿ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هو المطر ، ثم التفت من الغيبة إلى

التكلم فقال ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ بعظمتنا فالنون للعظمة لا الجمع ، فإن الملك العظيم يعبر عن نفسه بلفظ الجمع تعظيماً له ﴿ بِهِ ﴾ أي : بسبب ذلك الماء مع وحدته ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ينبت كنبات الحنطة والشعير ، والرمان والتفاح وغيرها ، والنابت والنبات ما يخرج من الأرض من الناميات ، سواء كان له ساق كالشجر أو لم يكن كالنجم ، ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ أي : فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له شيئاً غضاً ﴿ خَضِراً ﴾ بمعنى أخضر ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ ﴾ أي : نخرج من ذلك الخضر المتشعب ﴿ حَبّاً مُتَرَاكِباً ﴾ هو السنبل المنتظم للحبوب ، المتراكبة بعضها فوق بعض ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ ﴾ شروع في تفصيل حال الشجر إثر بيان حال النبات ﴿ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ أي : وحاصلة من طلع النخل قنوان ، جمع قنو وهو للثمر بمنزلة العنقود للعنب ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ سهلة المجتنى قريبة من القاطف فإنها وإن كانت صغيرة ينالها القاعد ، تأتي بالثمر لا تنتظر الطول ، ومنها ما هي بعيدة ، فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة ، لأن النعمة في القريبة ، أكمل وأكبر ﴿ وَ ﴾ أخرجنا به ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ بساتين كائنة ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ ولعل زيادة الجنات هنا من غير اكتفاء بذكر اسم الجنس لما أن الانتفاع بهذا الجنس لا يتأتى غالباً إلا عند اجتماع طائفة من أفراده ، وكل نبت متكاثف يستر بعضه بعضاً فهو جنة ، من جن إذا استتر ، والأعناب جمع عنب ، ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ﴾ أي : وأخرجنا أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان ﴿ مُشْتَبِهاً ﴾ أوراقهما ومشتملاً على الغصن من أوله إلى آخره ﴿ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ ثمرها ﴿ انْظُرُوا ﴾ يا مخاطبين نظر اعتبار ﴿ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ إذا خرج ثمره ، كيف يخرجه ضئيلاً لا يكاد ينتفع به ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ وإلى حال نضجه ، كيف يعود ضخماً ذا نفع ولذة ؟ أمر بالنظر في أول حال حدوث الثمرة ، وفي كمال نضجها مع كونها نابتة من أرض واحدة ، وتُسقى بماء واحد ، ليعلم كيف تتبدل وتنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة ، وحصول هذه التغيرات مسند إلى القادر الحكيم العليم ، المدبر لهذا العالم ، على وفق الرحمة والحكمة والمصلحة ، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى ما أمر بالنظر إليه ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمة دالة على وجود القادر الحكيم ووحدانيته ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بالاستدلال بها والاعتبار .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ نزلت في الزنادقة أعني المجوس ويقال لهم : الثنوية أيضاً ، قالوا : إن الله تعالى وإبليس أخوان ، فالله تعالى خالق الناس والدواب وكل خير ، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب وكل شر ، والمعنى وجعلوا الجن شركاء لله في اعتقادهم الباطل ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ أي : والحال أنهم قد علموا أن الله خالقهم دون الجن ، وأنه تعالى خلق الجن ، فكيف يجعلون مخلوقه شريكاً له ؟ ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ ﴾ أي : افتعلوا وافتروا له تعالى ، يقال خرق واختلق وافترى إذا كذب ﴿ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ فقالت اليهود : عزيرٌ بن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقالت طائفة من العرب

الملائكة بنات الله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بحقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، بل رمياً بقول عن عمى وجهالة ، من غير فكر وروية ، ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي : تنزه تعالى بذاته تنزهاً لائقاً به ﴿ وَتَعَالَىٰ ﴾ من العلو أي : استعلى ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي : تباعد عما يصفونه من أن له شريكاً أو ولداً ﴿ بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : هو مبدع من غير مثال سبق ، منزه عن الانفعال بالمرة ، والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه ، فكيف يكون له ولد ؟ والإضافة حقيقيةٌ ، وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، أي : بديع سمواته وأرضه على نمط عجيب ، وشكل فائق ، وحسن رائق ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أي : من أين أو كيف يوجد له ولد ؟ والحال أن أسباب الولادة منتفية ؟ فإن وجود الولد بلا والدة محال ، وإن أمكن بلا والد كعيسى عليه السلام ، والمراد بالصاحبة الزوجة .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من الموجودات التي من جملتها ما سموه ولداً له تعالى ، فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه ؟ .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ مخلوقاً أو غير مخلوق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم أزلاً وأبداً ، فلا يخفى عليه خافية مما كان وما سيكون ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي : ذلك الموصوف بتلك الصفات العظيمة أيها المشركون ﴿ اللهُ ﴾ المستحق للعبادة خاصة ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ أي : مالك أمركم ، ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلا هُوَ ﴾ أي : لا شريك له أصلاً ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما كان وما سيكون ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ فإن من جمع هذه الصفات استحق العبادة خاصة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي : متولي أموركم فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم الدنيوية والأخروية ، والوكيل من يفي بما وكل إليه وفاء تاماً من غير قصور وذلك هو الله تعالى .

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ إدراك الشيء عبارة عن الوصول إليه والإحاطة به أي : لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ أي : يحيط بها علمه ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار ، لأن الأبصار لا تدرك نفسها ، والخلق لا يدركون بالأبصار كنه حقيقة البصر ، وهو الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه ، دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه ، واعلم أن الإدراك غير الرؤية لأن الإدراك هو الوقوف على كنه الشيء والإحاطة به ، والرؤية المعاينة وقد تكون الرؤية بلا إدراك ، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم ، فإنما تتعذر الرؤية والإدراك باعتبار تجرد الذات عن المظاهر ، وأما من وراء حجابية المراتب فالإدراك ممكن ، كما قيل :

كالشمس تمنعك اجتلاءَك وجهها * فإذا اكتست برقيق غيمٍ أمكنا

وقال بعض المفسرين : الإدراكُ إذا قرن بالبصر كان المراد منه الرؤية ، فإنه يقال أدركت ببصري ورأيت ببصري بمعنى واحد فمعنى قوله ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ أي : لا تراه في الدنيا ، وهذا لا ينفي رؤية المؤمنين له في الآخرة لقوله تعالى ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ وحديث الشيخين : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » والمراد تشبيه الرؤية بالرؤية في الجلاء والوضوح ، لا تشبيه المرئي بالمرئى ، فالرؤية غاية الكرامة فيها ، وغاية الكرامة لأكرم الخلق وهو سيدنا محمد ﷺ صاحب المقام المحمود ، الذي شاهد ربه ليلة المعراج بعينَيْ رأسه ، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

﴿ **قَدْ جَاءَكُمْ** ﴾ أي : قل يا محمد للناس وخصوصاً لأهل مكة قد جاءكم ﴿ **بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ أي : دلائل التوحيد وحقية النبوة ، ودلائل البعث والحساب والجزاء وغير ذلك ، والبصائر جمع بصيرة ، وهي نور تبصر به النفس ، كما أن البصر نور تبصر به العين ، فاستعير لفظ البصيرة للحجة البينة لكون كل واحدة منهما سبب الإدراك ﴿ **فَمَنْ أَبْصَرَ** ﴾ أي : الحق بتلك البصائر وآمن به ﴿ **فَلِنَفْسِهِ** ﴾ أبصر لأن نفعه لها ﴿ **وَمَنْ عَمِيَ** ﴾ أي : لم يبصر الحق بعد ما ظهر له بالبراهين ظهوراً بيناً وضل عنه ، وإنما عبَّر بالعمى عنه تقبيحاً له وتنفيراً عنه ﴿ **فَعَلَيْهَا** ﴾ وباله ، ﴿ **وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ** ﴾ وإنما أنا منذر ومبلغ ، والله هو الحفيظ عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ** ﴾ أي : ومثل هذا التصريف البديع نصرف الآيات الدالة على المعاني الرائقة ، الكاشفة عن المعاني الفائقة ، من الصرف وهو نقل الشيء من حال إلى حال ﴿ **وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ** ﴾ أي : وليقولوا في عاقبة أمرهم درست أي : قرأت وتعلمت من غيرك ﴿ **وَلِنُبَيِّنَهُ** ﴾ والضمير للآيات باعتبار القرآن ﴿ **لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ وتخصيص التبيين بهم لما أنهم المنتفعون به ﴿ **اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** ﴾ أي : دم يا محمد على ما أنت عليه من اتباع القرآن ، الذي عمدة أحكامه التوحيد ﴿ **لا إِلَٰهَ إِلا هُوَ** ﴾ لا شريك له أصلاً ﴿ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ ولا تبال بأقوالهم ، ولا تلتفت إلى آرائهم ، فإنه لا يجوز الفتور في تبليغ الدعوة بسبب جهل الجاهلين .

﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ** ﴾ توحيدهم وعدم إشراكهم ﴿ **مَا أَشْرَكُوا** ﴾ وهو دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر ، لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه مع توجهه إليه ، بل لعدم صرف اختياره نحو الإيمان وإصراره على الكفر ﴿ **وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً** ﴾ رقيباً مهيناً من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم ﴿ **وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** ﴾ من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالحهم ، وإنما جمع بين حفيظ ووكيل

لاختلاف معناهما ، فإن الحافظ للشيء هو الذي يصونه عما يضره ، والوكيل بالشيء هو الذي يجلب الخير إليه ، فقد ظهر أن عدم قبول الحق من الشقاوة الأصلية ، ولذا لم يشأ الله سعادتهم وهدايتهم ، وعلامة الشقاوة جمود العين ، وقساوة القلب ، وحب الدنيا ، وطول الأمل ، وعلامة السعادة حب الصالحين والدنو منهم ، وتلاوة القرآن وسهر الليل ، ومجالسة العلماء ، ورقة القلب . .

والواجب على العبد أن يسارع إلى الأعمال الصالحة فإنها من علامات السعادة ، والتأخير وطول الأمل من علامات الشقاوة ، ـ حكي ـ أن بعض العُبَّاد كان يسأل الله تعالى أن يريه إبليس في المنام فأظهره الله تعالى له ، فلما رآه العابد قصده بالضرب ، فقال له إبليس : لولا أنك تعيش مائة سنة لأهلكتك ولعاقبتك ، فاغتر بقوله فقال في نفسه : إن عمري بعيد فأفعل ما أريد ثم أتوب ، فوقع في الفسق وترك العبادة وهلك ، وهذه الحكاية تحذرك طول الأمل فإنه آفة عظيمة .

﴿ **وَلا تَسُبُّوا** ﴾ أي : لا تشتموا أيها المؤمنون ﴿ **الَّذِينَ** ﴾ أي : الأصنام ﴿ **يَدْعُونَ** ﴾ أي : يدعونها آلهة ويعبدونها ﴿ **مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي : متجاوزين عبادة الله تعالى . والمعنى لا تشتموهم من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا تباً لكم ولما تعبدونه مثلاً ﴿ **فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً** ﴾ أي : تجاوزاً عن الحق إلى الباطل ﴿ **بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ أي : يسبونه غير عالمين بالله تعالى ، وبما يجب أن يذكر به ، وفي الآية دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية وجب تركها ، فإن ما يؤدي إلى الشر شر ، ألا يرى أن سب الأصنام من أصول الطاعات ، وقد نهى الله تعالى عنه لكونه مؤدياً إلى معصية عظيمة ، وهي شتم الله وشتم رسوله وفتح باب السفاهة .

﴿ **كَذٰلِكَ** ﴾ أي : مثل ذلك التزيين القوي ﴿ **زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ** ﴾ من الخير والشر والطاعة والمعصية ﴿ **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ** ﴾ مالك أمرهم ﴿ **مَرْجِعُهُمْ** ﴾ أي : رجوعهم بالبعث بعد الموت ﴿ **فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ في الدنيا على الاستمرار في السيئات المزينة لهم ، وهو وعيد بالجزاء والعذاب، كقول الرجل لمن يتوعده سأخبرك بما فعلت ، وفيه نكتة وهي أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض ، فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية ، التي بها يظهر في النشأة الآخرة ، فإن المعاصي سموم قاتلة قد برزت في الدنيا بصورة يستحسنها نفوس العصاة ، كما نطقت به هذه الآية الكريمة ، وكذا الطاعات فإنها مع كونها أحسن المحاسن ، قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات »[1] فأعمال الكفرة قد

---

(١) الحديث أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وأحمد .

برزت لهم في هذه النشأة بصورة مزينة يستحسنها الطغاة ، وستظهر في النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة ، فعند ذلك يعرفون أعمالهم بصورها الحقيقية .

وعن بعض الصالحين قال : كانت في جانبي عجوز قد أضنتها العبادة ، فسألتها أن ترفق بنفسها فقالت : يا شيخ أما علمت أن رفقي بنفسي غيبني عن باب المولى ، ومن غاب عنه مشتغلاً بالدنيا عرض نفسه للمحن والبلوى ، وما قدر عملي إذا اجتهدت ؟ فكيف إذا قصرت ، ثم قالت واسوأتاه من حسرة السباق وفَجْعةِ الفراق ، فأما حسرة السباق فإذا قام القائمون من قبورهم وركب الأبرار نجائب الأنوار ، وساروا إلى قصر من العز والجلال ، ورفعت لهم منازل المحبين ، وقدمت بين أيديهم نجائب المقربين ، وبقي المسبوق في جملة المحزونين ، فعند ذلك ينقطع فؤاده حسرة وتأسفاً ويذوب ندامة وتلهفاً ، وأما فجعة الفراق فعند تمييز الناس والافتراق وذلك أن الله سبحانه إذا جمع الخلق في صعيد واحد ، أمر ملكاً فنادى : (**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**) فيتميز الرجل من زوجته ، والولد من والدته ، والحبيب من حبيبه ، هذا يُحْمل مبجلاً إلى رياض النعيم ، وهذا يساق مسلسلاً مغلغلاً إلى عذاب الجحيم ، وقد طال منهم التلفت والوداع ودموعهم تجري كالأنهار بفجعة الفراق ، وأنشدوا :

لَوْ كُنْتَ سَاعَةَ بَيْنِنَا ما بَيْنَنَا * ورأيتَ كَيْفَ نُكَرِّرُ التَّوْدِيعا
لَعَلمتَ أنَّ مِنَ الدمُوعِ لأبحُراً * تَجْري وعَاينت الدِّمَاءَ دُمُوعاً

﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللهِ** ﴾ - روي - أن قريشاً قالوا : يا محمد إنك تخبرنا أن موسى عليه السلام كانت معه عصا فيضرب بها الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً وتخبرنا أن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى ، وأن صالحاً عليه السلام أخرج الناقة من الجبل ، فائتنا أنت أيضاً بآية بينة فإن فعلت ذلك لَنُصَدِّقَنَّك ونؤمن لك ، وحلفوا على ذلك وبالغوا في تأكيد الحلف ، فأنزل الله تعالى هذه الآية أي : حلف كفار قريش بالله تعالى ﴿ **جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ** ﴾ أي : جاهدين في أيمانهم ، وجهد الأيمان أغلظها وأشدها ﴿ **لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ** ﴾ من مقترحاتهم ﴿ **لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ** ﴾ لهم ﴿ **إِنَّمَا الآيَاتُ** ﴾ كلها ﴿ **عِنْدَ اللهِ** ﴾ أي : هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء ، وليس شيء منها بقدرتي وإرادتي ، وإنما أنا نذير ، ثم بين تعالى الحكمة في عدم مجيء الآيات فقال مخاطباً للمسلمين ﴿ **وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ أي : أيُّ شيء يعلمكم أن الآية التي يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بل يبقون على ما كانوا عليه من الكفر والعناد ؟ أي : لا تعلمون ذلك فَتَتَمنَّون مجيئها طمعاً في إيمانهم ، وفيه بيان أن أيمانهم فاجرة ، وأنه لا يغني وضوح الأدلة لمن لم يساعده سوابق الرحمة ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ** ﴾ أي : وما يشعركم أنا حينئذ نحوّل قلوبهم عن الحق فلا يفهمون ﴿ **وَأَبْصَارَهُمْ** ﴾ عن اجتلائه فلا يؤمنون ﴿ **كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ** ﴾ أي : بما جاء من

الآيات ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ من انشقاق القمر ونحوه ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ أي : ندعهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ ضلالهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي : متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين ، ووجه هذا التقليب والترك فساد استعدادهم وإعراضهم عن الحق بالكلية .

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ ﴾ أي : ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة كما سألوا ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ ﴾ وشهدوا بحقية الإيمان بعد أن أحييناهم حسبما اقترحوه فكلموهم بأن شهدوا لك بالنبوة ﴿ وَحَشَرْنَا ﴾ أي : جمعنا ﴿ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ﴾ جمع قبيل بمعنى كفيل ، أي : كفلاء بصحة الأمر وصدق النبي عليه الصلاة والسلام ، ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ في حال من الأحوال الداعية إلى الإيمان ﴿ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ أي : إلا في حال مشيئة الله لإيمانهم ، وهيهات ذلك وحالهم من التمادي في العصيان ، والغلو في الطغيان ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ أي : ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمانهم ، فيتمنون مجيئها طمعاً فيما لا يكون .

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي : كما جعلنا لك عدواً من كفار قريش ﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ قبلك ﴿ عَدُوًّا ﴾ وفيه تسلية لرسول الله ﷺ حيث إن عداوتهم ليس مختصاً به عليه الصلاة السلام ، بل كما ابتلي هو وأمته بكيد الأعداء ابتلي جميع الأنبياء ﴿ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ أي : مردة الفريقين والشياطين جمع شيطان وهو يطلق على كل عات متمرد من الإنس والجن ، والشيطان من الجن إذا أعياه المؤمن وعجز عن إغوائه ، ذهب إلى متمرد من الإنس فأغراه على المؤمن ليفتنه ، وعن مالك بن دينار أنه قال : شياطين الإنس أشد عليّ من شياطين الجن ، وذلك أني إن تعوذت بالله من شياطين الجن ذهبت عني ، وشياطين الإنس تجيئني فتجرني إلى المعاصي عياناً ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ الوحيُ : الكلام الخفي السريع الذي يُلقى سراً أي : يوسوس بعضهم إلى بعضٍ ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ ﴾ أي : المموه منه المزين ظاهره ، يقال فلان زخرف كلامه إذا زينه بالكذب والباطل ﴿ غُرُوراً ﴾ أي : ليغرّوهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ عدم ما ذكر من العداوة والإيحاء ﴿ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي : ما ذكر ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي : فاتركهم ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ وافتراءهم أي : كفرهم وسائر مكايدهم فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة ، ولك عواقب حميدة ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ ﴾ إلى زخرف القول ، علة أخرى للإيحاء ، أي : يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروهم به ولتميل إليه ﴿ أَفْئِدَةُ ﴾ قلوب ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ وأما المؤمنون بها فلا يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات ، لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ لأنفسهم بعدما مالت إليه أفئدتهم ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا ﴾ أي : يكتسبوا بموجب ارتضائهم له ﴿ مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ له من القبائح التي لا يليق ذكرها وهي ما قضي عليهم في اللوح المحفوظ .

﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾ روي أن مشركي مكة قالوا : يا محمد ، اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ، يفصل بين المحق والمبطل ، فإنهم قرأوا الكتب قبلك فأنزل الله هذه الآية وقال : قل يا محمد أأميلُ عن الحق فأطلب غير الله تعالى قاضياً بيني وبينكم ؟ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ ﴾ أي : والحال أن الله تعالى هو الذي أنزل إليكم وأنتم أمة أمية لا تدرون ما تأتون وما تذرون القرآن الناطق بالحق والصواب ﴿ مُفَصَّلاً ﴾ أي : مبيناً فيه الحق والباطل والحلال والحرام ، وغير ذلك من الأحكام بحيث لم يبق في أمر الدين شيء من التخليط والإبهام ، فأيُّ حاجة بعد ذلك إلى الحَكَم ؟ وهذا كما ترى صريح في أن القرآن الكريم كاف في أمر الدين مغن عن غيره ببيانه وتفصيله ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ ﴾ والمعنى : وعلماء اليهود والنصارى الذين فهمناهم التوراة والإنجيل ، يعلمون أن ذلك الكتاب أي : القرآن منزل من ربك حال كونه ملتبساً ﴿ بِالحَقِّ ﴾ والصدق ، ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ ﴾ أي : من الشاكين في أنهم يعلمون بحقية القرآن ، لما لا تشاهد منهم آثار العلم وأحكام المعرفة ، ثم إنه تعالى لَمَّا بيَّن كمال الكتاب المذكور من حيث إضافته إليه تعالى بكونه منزلاً منه بالحق ، بيَّن أيضاً كماله من حيث ذاته فقال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي : القرآن ﴿ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ أي : صادقة وعادلة ، والمعنى أنها بلغت الغاية القاصية صدقاً في الأخبار والمواعيد ، كالخبر عن وجود ذات الله تعالى وصفاته ، وكالخبر عن أحكام الله تعالى في الوعد والوعيد والثواب والعقاب ، وكالخبر عن أحوال المتقدمين وعن الغيوب المستقبلة ، وعدلاً في الأقضية والأحكام المتعلقة بالمكلفين كالصلاة والصوم والزكاة والحج وسائر التكاليف الشرعية سواء كانت أمراً أو نهياً ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ لا أحد يبدل شيئاً من ذلك بما هو أصدق وأعدل ، فكيف يتصور ابتغاء حَكَمٍ غيره تعالى ؟ ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿ العَلِيمُ ﴾ بكل ما يمكن أن يعلم ، ومحصول الآية أن القرآن حكم الله تعالى وحجته الغالبة بين الناس ، فلا عدول عنه إلى غيره ، إذ لا يعدل عنه إلا الكافر ، ولا ترتفع التكليفات عن العبد وإن وصل إلى تجلي الذات مادام في عالم الدنيا ، لا كما زعمه بعض الزاعمين ، وأما في عالم الآخرة فترتفع التكليفات .

واعلم أن هذه الآية متعلقة بمرتبة النفس وإصلاحها ، فإن ابتغاء حكم غير الله تعالى من هوى النفس ، فإصلاحها بالانقياد والتسليم ، وكل من له حظ من علم القرآن ظاهراً أو باطناً فهو وارث النبي عليه الصلاة والسلام بقدر حاله ، وسئل الشعبي عن مسألة فقال : لا أعلم ، فقيل : ألا تستحي وأنت فقيه العراقين ؟ قال : ولم أستحي مما لا تستحي منه الملائكة حيث قالت : (لا عِلْمَ لَنَا إلا مَا عَلَّمْتَنَا) ؟ ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : إن تطع الكفار يا محمد لأنهم أكثر من في

الأرض ﴿ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : دينه وشريعته ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ أي : ما يتبعون في أمور دينهم ومجادلتهم لك في أمر الميتة ﴿ إِلا الظَنَّ ﴾ وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق ، فهم على آثارهم يهتدون ، ولا ريب أن الضال المتصدي للإرشاد إنما يرشد غيره إلى مسلك نفسه ، فهم ضالون مضلون ، فإن سبيل الحق لا يُسلك بالظن والتقليد والهوى ، وإنما يسلك بالصدق والتحقيق والهدى ، ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ ﴾ أي : ما هم إلا يكذبون على الله تعالى في تحليل الميتة وغيره ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ يعلم ﴿ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ فيجازي كلاً منهم بما يستحقُّ فاحذر أن تكون من الفريق الأول ، وإنما قال ﴿ أَعْلَمُ ﴾ لأن الله تعالى يعلم الشيء من كل جهاته ، وغيره يعلم الشيء من بعض جهاته ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ والمعنى كلوا أيها المؤمنون مما ذكر اسم الله تعالى خاصة على ذبحه ، لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط ، أو مات حتف أنفه ، فإن الإيمان بالآيات القرآنية يقتضي استباحة ما أحلَّه الله ، والاجتناب عما حرمه ﴿ وَمَا لَكُمْ أَنْ لا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ﴾ وأيُّ سبب حاصل لكم في أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ ، ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ﴾ أي : والحال أنه تعالى قد بيَّن لكم ﴿ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ مما لم يحرمه بقوله تعالى في هذه السورة ﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ الآية فبقي ما عدا ذلك على الحل ، ﴿ إِلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي : وقد فصل لكم الأشياء التي حرمت عليكم ، في جميع الأوقات إلا وقت الاضطرار إليها ، ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً ﴾ من الكفار ﴿ لَيُضِلُّونَ ﴾ الناس ﴿ بِأَهْوَائِهِمْ ﴾ بما تهواه أنفسهم من تحليل الميتة وغيرها ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مقتبس من الشريعة الشريفة مستند إلى الوحي ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ المتجاوزين الحق إلى الباطل ، والحلال إلى الحرام . اعلم أن أهل الهوى على أنواع : فالمعتزلة والشيعة ونحوهما من أهل القبلة أهل هوى ، لأنهم يخالفون أهل السنّة والجماعة بتأويل الكتاب والسنّة على حسب هواهم ، فيضلون الناس بهواهم كما يضل الكفار وأهل الشرك ، وأما أخذ الإشارات من الآيات والأحاديث على وجه يطابق الشرع الشريف ، فذلك ليس بهوى بل هو عرفان محض .

فالتقليد لأصحاب الإشارات ليس كالتقليد لأصحاب الضلالات ، لأنهم بنوا أمرهم على العيان واليقين ، لا على الظن والتخمين ، وكذا أهل الدنيا أهل هوى بالنسبة إلى أهل العقبى ، فإن الكون كله خيال ، وتابع الخيال لا يعد من العقلاء والرجال ، وعن بهلول رحمه الله قال : بينما أنا ذات يوم في بعض شوارع البصرة ، إذ بالصبيان يلعبون بالجوز واللوز وإذا أنا بصبي ينظر إليهم ويبكي فقلت : هذا صبي يتحسر على ما في أيدي الصبيان ولا شيء معه فيلعب به فقلت له : أي بني ما يبكيك ؟ اشتر لك من

الجوز واللوز ما تلعب به مع الصبيان فرفع بصره إليّ وقال : يا قليل العقل ما للّعب خلقنا ، فقلت : أي بني فلماذا خلقنا ؟ فقال : للعلم والعبادة ، فقلت : من أين لك ذلك بارك الله فيك ؟ قال : من قول الله عز وجل ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** ﴾ . فقلت هذا أعقلُ مني .

﴿ **وَذَرُوا** ﴾ أي : اتركوا أيها المؤمنون ﴿ **ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ** ﴾ أي : الإثم الظاهر والإثم الباطن ، والمراد المعاصي كلها ، لأنها لا تخلو من هذين الوجهين فيدخل فيه ما يُعلن وما يُسر من أعمال القلوب والجوارح ، ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ** ﴾ أي : يعملون المعصية ظاهراً وباطناً ﴿ **سَيُجْزَوْنَ** ﴾ سيعاقبون في الآخرة ﴿ **بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ** ﴾ أي : يكسبون في الدنيا كائناً ما كان فلابد من اجتنابها ، اعلم أن العصاة كلهم في خطر المشيئة ، فيا أيها العاصي لا تغتر فإن العناية لا تحصل لكل عاص ، ولا تدري أنك ممن أراد الله عفوه ، فإن المعفو من أول الأمر وقع قليلاً - كما حكي - عن مالك بن دينار قال رأيت بالبصرة قوماً يحملون جنازة وليس معهم أحد ممن يشيع الجنازة ، فسألتهم عنه قالوا : هذا رجل من كبار المذنبين ، قال : فصليت عليه وأنزلته في قبره ثم انصرفت إلى الظل فنمت ، فرأيت ملكين قد نزلا من السماء فشقا قبره ، ونزل أحدهما إليه وقال لصاحبه اكتبه من أهل النار ، فما فيه جارحة سلمت من المعاصي والأوزار ، فقال له صاحبه : لا تعجل عليه اختبر عينيه قال قد اختبرتها فوجدتها مملوءتين بالنظر إلى محارم الله ، قال : فاختبر سمعه ، قال : قد اختبرته فوجدته مملوأ بسماع الفواحش والمنكرات ، قال : فاختبر لسانه ، قال : اختبرته فوجدته مملوأ بالخوض في المحظورات وارتكاب المحرمات ، قال : فاختبر يديه ، قال قد اختبرتها فوجدتها مملوءتين بتناول الحرام وما لا يحل من الشهوات واللذات ، قال : فاختبر رجليه ، قال : قد اختبرتها فوجدتها مملوءتين بالسعي في النجاسات والأمور المذمومات ، قال لا تعجل عليه ودعني أنزل إليه فنزل إليه الملك الثاني وأقام عنده ساعة وقال : يا أخي قد اختبرت قلبه فوجدته مملوأ إيماناً فاكتبه مرحوماً سعيداً ، ففضل الله تعالى يستغرق ما عليه من الذنوب والخطايا ، فهذا وإن حصل بسبب الإيمان ، لكنه قليل ، ولا يأمن مكر اللهِ إلا القوم الخاسرون .

﴿ **وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ** ﴾ أي : عمداً إذ الناسي حال نسيانه لا يكون مكلفاً ، وذكر الله تعالى في قلب كل مؤمن ، ويدخل فيه الميتة لأنها مما لم يذكر اسم الله عليه ، وكذا ما ذبح على اسم غيره تعالى ﴿ **وَإِنَّهُ** ﴾ أي : الأكل منه ﴿ **لَفِسْقٌ** ﴾ أي : خروج لما لا يحل فإن من ترك التسمية عامداً حال الذبح لا يحل أكل ذبيحته عند الإمام الأعظم ، واعلم أن المشركين جادلوا المسلمين فقالوا :

أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتله الله ؟ فأنزل الله الآية ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ ﴾ أي : إبليس وجنوده ﴿ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ أي : يوسوسون إلى المشركين ، والوحيُ : إلقاء المعنى إلى النفس مع الخفية ﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ أيها المؤمنون في تحليل الميتة بالوساوس الشيطانية ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ في استحلال الحرام وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ ضرورة أن من ترك طاعة الله إلى طاعة غيره ، فقد أشرك به تعالى ، وقد ورد : « إن الشيطان يستحل الطعام إلا بذكر اسم الله عليه »[1] أي : لأنه لا يذكر اسم الله عليه بعد الشروع وما لم يشرع فيه أحد لا يتمكن الشيطان من استحلاله ، وفيه إشارة إلى أنه إن سمى واحد من الآكلين حصل أصل السنّة ، ومن نسي التسمية في أول الطعام فإنه يقول حين يذكر بسم الله أوله وآخره ، فإذا قال ذلك فقد تدارك تقصيره .

﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً ﴾ - روي - أن أبا جهل رمى النبي عليه الصلاة والسلام بفرث ، فأُخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من الصيد بيده قوس ، وكان يومئذ لم يؤمن بعد ، فلقي أبا جهل فضرب رأسه بالقوس ، فقال أبو جهل : أما ترى ما جاء به ؟ سفَّه عقولنا وسب آلهتنا ، فقال حمزة : وأنتم أسفه الناس تعبدون الحجارة من دون الله تعالى ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، فنزلت هذه الآيات وفيها تمثيل للمشرك بالميت ﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ أعطيناه الحياة وما يتبعها من القوى المدركة ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ ﴾ مع ذلك من الخارج ﴿ نُوراً ﴾ عظيماً ﴿ يَمْشِي بِهِ ﴾ أي : بسببه ﴿ فِي النَّاسِ ﴾ أي : فيما بينهم آمناً من جهتهم ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ ﴾ أي : صفته العجيبة ﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أي : هو في الظلمات ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ بحال ، والآية تمثيلٌ لمن هداه الله تعالى وأنقذه من الضلال ، وجعل له نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء ، فيميز بين الحق والباطل ، ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي : كما زين للمؤمن إيمانه ﴿ زُيِّنَ ﴾ أي : من جهة الله تعالى بطريق الخلق ، أو من جهة الشيطان بطريق الوسوسة ﴿ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصي ، وبهذا التزيين بقوا في ظلمات الكفر والضلالة ، ولم يهتدوا إلى نور الإيمان والهداية .

فظهر أن للعارف نوراً يمشي به إلى حيث يشاء ، والجاهل يبقى في وادي الحيرة ولا يجد سبيلاً ، فكما أن الأعمى والبصير ليسا على سواء ، فكذلك البصير والجاهل والعالم ، فالله تعالى باينَ بين أهل الحال كما باين بين أهل المقال ، وعظم النور وسعته بالنسبة إلى فسحة القلب ومعرفته ، فالقلب بيد الله تعالى

---

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد عن حُذيفة ولفظه (إن الشيطان ليستحلُّ الطعام الذي لم يُذكر اسم الله عليه ..) في قصة طويلة ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٠٧ .

يقلبه كيف يشاء ، ولذلك زين لأهل الإيمان وجوه الخير والطاعات ، وزين لأهل الكفر صنوف الشر والسيئات ، لكن العباد ليسوا بمجبورين ، فلهم اختيار في الخروج من الظلمات ، فإذا لم يصرفوا استعداداتهم إلى ما خلقوا لأجله بقوا في ظلمات الطبيعة والنفس ، ﴿ وَكَذٰلِكَ ﴾ أي : كما صيرنا في مكة فساقها أكابر ﴿ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ ﴾ جمع أكبر بمعنى عظيم ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ جمع مجرم ﴿ لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ أي : ليفعلوا المكر في تلك القرية ، لأنهم لأجل رياستهم أقدر على المكر والغدر ، وترويج الأباطيل على الناس من غيرهم ، وكان صناديد قريش ومجرموها أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ، ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ ، يقولون لكل من تقدم : إياك وهذا الرجل ، فإنه كاهن ساحر كذاب ، وذلك سنّة الله تعالى أن جعل في كل قرية اتباع الرسل ضعفاءهم كما قال في قصة نوح (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) وجعل فساقهم أكابرها ليمكروا فيها ، والمكر: السعيُ بالفساد في خفية ومداجاة ، والآية تسلية لرسول الله ﷺ ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ لأن وباله عليهم ﴿ وَمَا ﴾ والحال أنهم لا ﴿ يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك أصلاً بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ﴾ لما بين أن فساق كل قرية يكونون رؤساءها المتميزين بكثرة المال والجاه ، بيَّن ما كان من رؤساء مكة من الجرم والفسق وهو أنه إذا جاءتهم ﴿ آيَةٌ ﴾ دالة على صحة النبوة ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ﴾ من الوحي والكتاب ، لما روي أن أبا جهل قال : زاحمنا بني عبد مناف في الشرف ، حتى إذا صرنا كفرسَيْ رهان قالوا : منا نبيٌّ يوحى إليه ، والله لا نرضى به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت[1]، فأراد قوم مكة أن تحصل لهم النبوة والرسالة كما حصلتا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين ، وهذه غاية السفه أن يقال لرجلٍ آمنْ ، فيقول : لا أومنُ حتى يجعلني الله نبياً ، والمراد برسل الله هو حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ، وصيغة الجمع للتعظيم.

﴿ اللهُ أَعْلَمُ ﴾ من كل شيء يعلم ﴿ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ أي : الموضع الصالح لوضعها فيه ، وهؤلاء ليسوا أهلاً لها ، لأن الأهلية بالفضائل النفسانية لا بالنسب والمال ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ أي : يصيبهم مكان ما تمنوه من عز النبوة وشرف الرسالة ﴿ صَغَارٌ ﴾ أي : ذلة وحقارة بعد كبرهم ﴿ عِنْدَ اللهِ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ أي : بسبب مكرهم المستمر ، واعلم أن النبوة اختصاص إلهي غير كسبي ، فلا ينالها المجاهد وإن أتى بجميع الشرائط والأسباب .

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ﴾ أي : يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ص ١٣١ وتفسير البحر المحيط ٤ / ٢١٦ .

﴿ لِلإِسْلاَمِ ﴾ فيتسع له وينفسح فالمعنى من أراد الله منه الإيمان جعل قلبه قابلاً لحلول الإيمان ، مهيئاً لتحليه به صافياً خالياً عما ينافيه ويمنعه ، ولما نزلت هذه الآية سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر فقال : « نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح » فقالوا : هل لذلك أمارة يعرف بها ؟ فقال : « نعم الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله »[1] ، ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ ﴾ أي : يخلق فيه الضلال لصرف اختياره إليه ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان ، أي : من أراد الله منه الكفر قوى صوارفه عن الإيمان ، وقوّى دواعيه إلى الكفر ، والحَرَج بالفتح مصدر وصف به مبالغة ، وهو المتزايد في الضيق ، ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ قال الإمام في كيفية هذا التشبيه وجهان : الأول كما أن الإنسان إذا كلف الصعود إلى السماء ثقل ذلك التكليف عليه ، وعظم وقعه عليه ، وقويت نفرته منه ، فكذلك الكافر يثقل عليه الإيمان ، وتعظم نفرته منه ، والثاني : أن قلبه يتباعد عن الإسلام ويتباعد عن قبول الإيمان ، فشبه ذلك البعد ببعد من يصعد من الأرض إلى السماء انتهى .

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي : مثل الجعل المذكور ﴿ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ ﴾ أي : العذاب والخذلان أو اللعنة ﴿ عَلَىٰ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : عليهم فوضع الظاهر موضع المضمر ، للإشعار بكمال نبوهم عن الإيمان ، وإصرارهم على الكفر والطغيان ﴿ وَهَـٰذَا ﴾ أي : البيان الذي جاء به القرآن ﴿ صِرَاطُ رَبِّكَ ﴾ أي : طريقه الذي ارتضاه حال كونه ﴿ مُسْتَقِيماً ﴾ لمن يسلكه فلا يعوج به حتى يورده إلى الجنة ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ ﴾ أي : ذكرناها فصلاً فصلاً بحيث لا يختلط واحد منها بالآخر ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي : يتعظون وخصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بتفصيل الآيات ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلامِ ﴾ أي : السلامة من كل مكاره وهي الجنة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أي : في كرامته وضيافته ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ أي : مولاهم ومحبهم ، وناصرهم على أعدائهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : بسبب الأعمال الصالحة ، واعلم أن الله تعالى بيَّن حسن الإيمان وقبح الكفر ، وحال السعيد والشقي ، ورغَّب في طريق الأنبياء والأولياء ، وجعل العمل الصالح سبباً لمحبة الله ودخول دار السلام ، وهي دار القرار التي يأمن من دخلها من العذاب مطلقاً فالله تعالى ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، اللهم اجعلنا من الذين سلكوا الصراط المستقيم ، ووصلوا إلى جنابك بالقلب السليم ، فنجوا من عذابك الأليم آمين يا كريم يا رحيم ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ أي : واذكر يا محمد لأهل مكة وغيرهم يوم يحشر الله الثقلين جميعاً ويجمعهم في موقف القيامة ، فيقول بطريق التوبيخ ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ ﴾ أي : يا جماعة الشياطين ،

(١) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم قال ابن كثير : وله طرقٌ كثيرة مرسلة ومتصلة يشدُّ بعضها بعضاً .

فإن المعشر الجماعة ، ويجمع على معاشر وسُمِّي الجن جناً لاجتنانهم أي : استتارهم عن أعين الناس ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ ﴾ أي : من إغوائهم وإضلالهم أي أضللتم خلقاً كثيراً من الإنس ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ ﴾ أي : أولياء الشياطين الذين أطاعوهم ﴿ مِنَ الإِنْسِ ﴾ فهو حال من « أولياؤهم » ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ أي : انتفع الإنس بالجن ، والجن بالإنس ، أما انتفاع الإنس بالجن . فمن حيث أن الجن كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات ، ويسهلون طرق تحصيلها عليهم ، وأما انتفاع الجن بالإنس ، فمن حيث أن الإنس أطاعوهم ولم يضيعوا سعيهم ، والرئيس المطاع ينتفع بانقياد أتباعه له ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ أي : أدركنا الوقت الذي وقت لنا وهو يوم القيامة ، قالوه اعترافاً بما فعلوا من طاعة الشياطين واتباع الهوى ، وإظهاراً للندامة عليها وتحسراً على حالهم .

﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ أي : منزلتكم فهو اسم مكان بمعنى مكان الإقامة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن يتوب ويرجع إلى الله فلا تكون النار مثواه فالاستثناء راجع إلى أهل التوبة في الدنيا لا إلى أهل الخلود في النار انتهى . وقال بعضهم ﴿ ما ﴾ مصدرية بتقدير مضاف ، كأنه قيل يخلدون في عذاب النار الأبد كله ، إلا أوقات مشيئة الله تعالى أن ينقلوا من النار إلى الزمهرير ، - فقد روي - أنهم ينقلون من عذاب النار ويدخلون وادياً فيه من الزمهرير ، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم ، ففي الاستثناء تهكم بهم ، وفي تفسير الجلالين ﴿ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ من الأوقات التي يخرجون فيها لشوب من حميم فإنه خارجها كما قال الله (ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَىٰ الْجَحِيمِ) وقيل : ﴿ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ قبل الدخول كأنه قيل النار مثواكم أبداً إلا وقت إمهالكم إلى وقت الإدخال والخلود ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال الثقلين وأعمالهم ، وبما يليق بها من الجزاء ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : كما خذلنا عصاة الجن والإنس ﴿ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً ﴾ أي : نسلط بعضهم على البعض ، فنأخذ من الظالم بالظالم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بسبب ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي ، فمن أعان ظالماً سلطه الله عليه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : (إذا أراد الله بقوم خيراً ولّى أمرهم خيارهم ، وإذا أراد بقومٍ شراً ولى أمرهم شرارهم) وجاء في بعض الكتب الإلهية : « إني أنا اللهُ ملك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتُهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك ، ولكن توبوا إليَّ أعطِّفهم عليكم » .

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ أي : يقول الله تعالى يوم القيامة للثقلين جميعاً : ألم يأتكم في الدنيا ﴿ رُسُلٌ ﴾ أي : رسول معين من الله تعالى ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي : كائنة منكم ، اعلم أن الجن والإنس مكلفون بالاتفاق ، لكن الرسول إليهم يحتمل أن يكون من جنسهم ، ويحتمل أن يكون من غير

جنسهم بأن يكون من البشر ، وذلك لا يمنع الاستفادة لأنه يجوز أن يستفيد خواصهم من الرسل ، ويكونوا رسل الرسول إلى قومهم ، وقد قام الإجماع على أن نبينا محمداً ﷺ مرسل إلى الثقلين ، وقد كان الأنبياء قبله يبعثون إلى قومهم خاصة ، وأما سليمان عليه السلام فإنه لم يبعث إلى الجن بالرسالة العامة ، بل بالملك والضبط والسياسة التامة ، فقوله تعالى : ﴿ **رُسُلٌ مِنْكُمْ** ﴾ إما محمول على المعنى الأول بأن يكون الرسل من جنس الفريقين ، وإما محمول على المعنى الثاني ، فالرسل من الإنس خاصة لكن لما جمعوا مع الجن في الخطاب صحَّ ذلك ، ونظيره (**يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ**) والمرجان يخرج من الملح دون العذب ، ﴿ **يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي** ﴾ أي : يقرأون عليكم كتبي ﴿ **وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا** ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ **قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا** ﴾ وهو اعتراف منهم بالكفر واستحقاق العذاب ﴿ **وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾ فلم يؤمنوا ﴿ **وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ** ﴾ في الآخرة ﴿ **أَنَّهُمْ كَانُوا** ﴾ في الدنيا ﴿ **كَافِرِينَ** ﴾ أي : بالآيات والنذر ، وهو ذم لهم على سوء نظرهم وخطأ رأيهم ، فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية ، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية ، حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد ، ﴿ **ذَٰلِكَ** ﴾ أي : إرسال الرسل ﴿ **أَنْ** ﴾ اللام مقدرة وهي مخففة أي : لأن الشأن ﴿ **لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ** ﴾ أي : بسبب ظلم منها ﴿ **وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** ﴾ لم يرسل إليهم رسول يبين لهم ، فالله تعالى أجرى السنّة أن لا يأخذ أحداً إلا بعد وجود الذنب ، وإنما يكون مذنباً إذا أمر فلم يأتمر ، ونهي فلم ينته ، ويكون ذلك بعد إنذار الرسل .

﴿ **وَلِكُلٍّ** ﴾ من المكلفين من الثقلين مؤمنين كانوا أو كفاراً ﴿ **دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا** ﴾ أي : مراتب كائنة من أعمالهم صالحة كانت أو سيِّئة ، فلأهل الخير درجات في الجنة بعضها فوق بعض ، ولأهل الشرك دركات في النار بعضها أشد من بعض ، وفسروا الدرجات بالمراتب لأن الدرجات غلب استعمالها في الخير والثواب ، والكفار لا ثواب لهم ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** ﴾ فيخفى عليه عمل من أعمالهم ، والمقصود أن الله يجزي كل عامل بما عمل ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ** ﴾ عن العباد والعبادة ، والغنيُّ هو الذي لا يحتاج إلى شيء ، ﴿ **ذُو الرَّحْمَةِ** ﴾ يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على المعاصي .

﴿ **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ** ﴾ أيها العصاة أي : يهلككم ﴿ **وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ** ﴾ أي : من بعد إذهابكم وإهلاككم ﴿ **مَا يَشَاءُ** ﴾ أي : خلقاً آخر أطوع لله منكم ، ﴿ **كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** ﴾ أي : من قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم ، وهم أهل سفينة نوح عليه السلام ، لكنه أبقاكم ترحماً عليكم ، ﴿ **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ** ﴾ أي : الذي توعدون من البعث والعذاب ﴿ **لَآتٍ** ﴾ لواقع لا محالة لا خلف فيه ﴿ **وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ** ﴾ أي : بفائتين ذلك ، وإن ركبتم في الهرب متن كل صعبٍ

وذلول ﴿ قُلْ ﴾ لأهل مكة ﴿ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي : اعملوا على غاية تمكنكم ونهاية استطاعتكم ، يعني اعملوا ما أنتم عاملون واثبتوا على كفركم وعداوتكم ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ ما كتب عليَّ من المصابرة والثبات على الإسلام ، والاستمرار على الأعمال الصالحة ، والأمر للتهديد ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أي : أيُّنا تكون له العاقبة المحمودة ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي إن الشأن ﴿ لا يُفْلِحُ ﴾ يسعد ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : الكافرون والمراد أنهم لا يظفرون بمرادهم .

وليس الفلاح إلا في العلم والعمل ، وترك الدنيا والكسل ، ـ حكي ـ عن بعضهم أنه دخل عليه بعض الفقراء ولم يجد في بيته شيئاً من المتاع ، فقال : أما لكم شيء ؟ قال : بلى ، لنا داران أحدهما دار أمن ، والأخرى دار خوف ، فما يكون لنا من الأموال ندخره في دار الأمن ـ يعني نقدمه للدار الآخرة ـ فقال له : إنه لابد لهذا المنزل من متاع ، فقال : إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه ، وذلك أن الدنيا عارية ولابدَّ للمعير أن يرجع في عاريته ، فعاقبة الدار إنما هي للأخيار الأبرار ، الذين عملوا لله في ليلهم ونهارهم ، ولم ينقطعوا عن التوجه إليه حال سكونهم وقرارهم .

﴿ وَجَعَلُوا ﴾ أي : مشركوا العرب ﴿ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أي : خلق ﴿ مِنَ الْحَرْثِ ﴾ أي : الزرع ﴿ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً ﴾ ولشركائهم أيضاً نصيباً ﴿ فَقَالُوا هَذَا ﴾ النصيب ﴿ لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ أي : بادعائهم الباطل ، من غير أن يكون ذلك بأمر الله تعالى ﴿ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ أي : آلهتنا التي شاركونا في أموالنا من المتاجر والزروع والأنعام وغيرها ، فهو من الشركة لا من الشرك ، ـ روي ـ أنهم كانوا يعينُّون شيئاً من الحرث والنتاج لله ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين ، وشيئاً منهما لآلهتهم وينفقونه على سدنتها ويذبحونه عندها ثم إن رأوا ما عينوا لله أزكى رجعوا وجعلوه لآلهتهم ، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه معتلين بأن الله تعالى غني ، وما ذلك إلا لحب آلهتهم وإيثارهم لها ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ ﴾ من نماء الحرث والأنعام ﴿ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : إلى المساكين والأضياف ، وقالوا لو شاء الله زكى نصيب نفسه ﴿ وَمَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ من ذلك النماء ﴿ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴾ لأنهم إذا لم يتم نصيب الآلهة ، يبدلون ذلك النامي الذي عينوه لله تعالى ويجعلونه لآلهتهم ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : ساء حكمهم فيما فعلوا من إيثار آلهتهم على الله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ ومثل ذلك التزيين ﴿ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ أي : أوليائهم من الجن أو من السدنة ، وكان أهل الجاهلية يدفنون بناتهم أحياء خوفاً من الفقر أو من التزويج ، وكان الرجل منهم يحلف بالله لئن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرنَّ أحدهم ، ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ أي : ليهلكوهم بالإغواء ﴿ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام ، واللام للتعليل إن كان التزيين من

الشياطين ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ ﴾ أي : عدم فعلهم ذلك ﴿ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي : ما فعل المشركون ما زين لهم من القتل ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ فدعهم وافتراءَهم على الله ، أنه أمرهم بدفن بناتهم أحياء ، فإن الله تعالى مع قدرته عليهم تركهم ، فاتركهم أنت فإن لهم موعداً يحاسبون فيه ، ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ ﴾ إشارة إلى ما جعلوه لآلهتهم ﴿ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ أي : حرام ﴿ لا يَطْعَمُهَا إلا مَنْ نَشَاءُ ﴾ يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾ أي : قالوه ملتبسين بزعمهم الباطل من غير حجة ﴿ وَأَنْعَامٌ ﴾ أي : وهذه أنعام ﴿ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يعنون بها البحائر والسوائب والحوامي ﴿ وَأَنْعَامٌ ﴾ أي : وهذه أنعام وقوله تعالى ﴿ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا ﴾ صفةٌ لأنعام كأنه قيل : وأنعام ذبحت على الأصنام ، فإنها التي لا يذكر عليها اسم الله ، وإنما يذكر عليها الأصنام ﴿ افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴾ أي : افتروا على الله افتراء ﴿ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : بسبب افترائهم ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ ﴾ يعنون به أجنة البحائر والسوائب ﴿ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ﴾ أي : حلال للرجال خاصة دون الإناث ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً ﴾ أي : ولدت ميتة ﴿ فَهُمْ فِيهِ ﴾ أي : ما في بطون الأنعام ﴿ شُرَكَاءُ ﴾ يأكلون منه جميعاً ذكورهم وإناثهم ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي : جزاء وصفهم الكذب على الله تعالى في أمر التحليل والتحريم ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ فإن الحكيم العليم بما صدر عنهم ، لا يكاد يترك جزاءهم الذي هو من مقتضيات الحكمة ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ ﴾ جواب قسم محذوف وهم ربيعة ومضر وأضرابهم من العرب ، الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر أي : خسروا دينهم ودنياهم ﴿ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله تعالى هو الرازق لهم ولأولادهم ﴿ وَحَرَّمُوا ﴾ على أنفسهم ﴿ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ ﴾ من البحائر ونحوها ﴿ افْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ ﴾ أي : كذباً حيث قالوا إن الله أمرهم بها ﴿ قَدْ ضَلُّوا ﴾ عن الطريق المستقيم ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ إليه ، - روي - عن رسول الله ﷺ أن رجلاً من أصحابه ، كان لا يزال مغتماً بين يديه ، فقال عليه الصلاة والسلام :ما لك تكون محزوناً ؟ » فقال : يا رسول الله ، إني قد أذنبت في الجاهلية ذنباً فأخاف أن لا يغفر لي وإن أسلمت ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أخبرني عن ذنبك ؟ » فقال : يا رسول ا لله ، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فولدت لي بنت فشفعت إليَّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبرت وأدركت ، فصارت من أجمل النساء فخطبوها فدخلت عليَّ الحميةُ ، ولم يتحمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج ، فقلت للمرأة : إني أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي ، فسُرَّت بذلك وزيَّنتها بالثياب والحلل ، وأخذت عليَّ المواثيق بأن لا أخونها ، فذهبت بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطنت الجارية بأني أريد أن ألقيها في البئر ، فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول : يا أبي أيَّ شيء تريد أن تفعل بي ؟ فرحمتها ثم

نظرت في البئر فدخلت عليَّ الحمية ، ثم التزمتني وجعلت تقول : يا أبي لا تضيِّعْ أمانة أمي ، فجعلتُ مرة أنظر إلى البئر ، ومرة أنظر إليها وأرحمها ، وغلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة ، وهي تنادي في البئر يا أبي قتلتني ، فمكثت هناك حتى انقطع صوتها ، فرجعتُ ، فبكى رسول الله ﷺ وقال : « لو أُمرتُ أن أعاقبَ أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك بما فعلت » (١) .

﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ** ﴾ أي : خلق يقال نشأ الشيء إذا ظهر وارتفع ، وأنشأه الله تعالى أي : أظهره ورفعه ﴿ **جَنَّاتٍ** ﴾ أي : بساتين من الكروم ﴿ **مَعْرُوشَاتٍ** ﴾ أي : مرفوعات على ما يحملها من خشب ونحوه ﴿ **وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ** ﴾ ملقيات على وجه الأرض ، والمعروشات : الأعناب التي يجعل لها عروش ، وغير المعروشات : كل ما نبت منبسطاً على وجه الأرض مثل القرع والبطيخ ، ﴿ **وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ** ﴾ أي : أنشأهما ، والمراد بالزرع ههنا جميع الحبوب التي يُقتات بها ﴿ **مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ** ﴾ أي : أنشأ كل واحد منهما في حال اختلاف ثمره وطعمه ، منها الحلو والحامض ، والجيد والرديء ﴿ **وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ** ﴾ أي : أنشأهما ﴿ **مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ** ﴾ أي : يتشابه بعض أفرادهما في اللون والهيئة ، لونها واحد وطعمها مختلف ﴿ **كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ** ﴾ أي : من ثمر كل واحد من ذلك ﴿ **إِذَا أَثْمَرَ** ﴾ فائدة التقييد بقوله ﴿ **إذا أَثْمَرَ** ﴾ إباحة الأكل منه قبل إدراكه وينعه ﴿ **وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** ﴾ يوم الحصاد : أي يوم قطع العنب والنخل ونحوهما ﴿ **وَلا تُسْرِفُوا** ﴾ أي : في التصدق كما روي أن « ثابت بن قيس » جذَّ خمسمائة نخلة فقسمها في يوم واحد ، ولم يترك لأهله شيئاً ، ﴿ **إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾ أي : لا يرضى فعلهم ﴿ **وَمِنَ الأَنْعَامِ** ﴾ أي : أنشأ من الأنعام ﴿ **حَمُولَةً** ﴾ ما يحمل عليه الأثقال ﴿ **وَفَرْشاً** ﴾ وما يفرش للذبح ، أو يتخذ من صوفه ووبره وشعره ما يفرش ﴿ **كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ** ﴾ أي : كلوا بعض ما رزقكم الله أي : حلاله ، ﴿ **وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** ﴾ أي : لا تسلكوا الطريق التي سولها الشيطان لكم في أمر التحليل والتحريم فإنه لا يدعوكم إلا إلى المعصية ﴿ **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** ﴾ أي : ظاهر العداوة وقد أبان عداوته لأبيكم آدم عليه السلام ﴿ **ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** ﴾ الزوج : ما معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل ، والمراد بالأزواج الثمانية الأنواع المذكورة هنا ﴿ **مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ** ﴾ أي : أنشأ من الضأن زوجين : الكبش والنعجة ، ﴿ **وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ** ﴾ أي : أنشأ من المعز زوجين : التيس والعنز ، ﴿ **قُلْ** ﴾ لهم يا محمد ﴿ **آلذَّكَرَيْنِ** ﴾ من ذينك النوعين وهما الكبش والتيس ﴿ **حَرَّمَ** ﴾ أي : الله تعالى كما تزعمون ﴿ **أَمِ الأُنْثَيَيْنِ** ﴾ وهما النعجة والعنز ؟ ﴿ **أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ** ﴾ أي : أم ما حملت إناث النوعين حرَّم ذكراً كان

---

(١) هذه القصة فيها عظة وعبرة وبيان الحالة المرأة في الجاهلية ، وقد ذكرها الإمام القرطبي في تفسيره ٧ / ٩٧ .

أو أنثى ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ أي : أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى من الكتاب ، أو إخبار الأنبياء يدل على أنه تعالى حرم شيئاً مما ذكر ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعوى التحريم ﴿ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ ﴾ أي : وأنشأ من الإبل اثنين هما الجمل والنَّاقة ﴿ وَمِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ ذكراً وأنثى ﴿ قُلْ ﴾ إفحاماً لهم أيضاً ﴿ آلذَّكَرَيْنِ ﴾ منهما ﴿ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ من ذينك النوعين ، والمعنى إنكار أن الله تعالى حرم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعة ، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة ويحرمون إناثها تارة أخرى ، ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴾ أم منقطعة بمعنى بل والهمزة ، ومعنى الهمزة للإنكار والتوبيخ ، أي : بل أكنتم حاضرين شاهدين ﴿ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا ﴾ أي : حين وصاكم بهذا التحريم ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ﴿ لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يضلهم ملتبساً بغير علم ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ إلى ما فيه صلاح حالهم عاجلاً وآجلاً ﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ طعاماً ﴿ مُحَرَّماً ﴾ من المطاعم التي حرموها ﴿ عَلَىٰ طَاعِمٍ ﴾ أي طاعم كان ، من ذكر أو أنثى رداً على قولهم « ومحرم على أزواجنا » وقوله تعالى ﴿ يَطْعَمُهُ ﴾ لزيادة التقرير ﴿ إلا أَنْ يَكُونَ ﴾ ذلك الطعام ﴿ مَيْتَةً ﴾ لم تذكَّ وهي التي تموت حتف أنفها ﴿ أَوْ دَماً مَسْفُوحاً ﴾ أي : مصبوباً كالدماء التي في العروق ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ ﴾ أي : الخنزير ﴿ رِجْسٌ ﴾ أي : قذر لتعوده أكل النجاسة ، وكل ما استقذرته فهو رجس ﴿ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ أي : ذبح على اسم الأصنام ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أي : أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء من ذلك ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ على مضطر مثله ﴿ وَلا عَادٍ ﴾ قدر الضرورة ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة لا يؤاخذه بذلك ، وفي التأويلات النجمية : يشير بالميتة إلى ميتة الدنيا ، فإنها جيفة كما قال بعضهم :

ومن يعرف الدنيا فإني بلوتُها * وسِيقَ إليَّ عَذْبُها وعَذابُها

وما هي إلا جيفة مستحيلة * عليها كلاب همهن اجتذابها

فإن تجتنبها كنت سِلْماً لأهلها * وإن تجتذبها نازعتك كلابها

وفي الأثر : « أوحى الله إلى داود : يا داود مثل الدنيا كمثل جيفة اجتمعت عليها الكلاب يجرونها ، أفتحب أن تكون كلباً مثلهم فتجر معهم ؟ » .

فعلى العاقل أن يكون أزهد الناس في الدنيا ، كالأنبياء وكُمَّل الأولياء ، ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أي : على اليهود خاصة لا على من عداهم من الأولين والآخرين ﴿ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ كل ماله أصبع سواء كان ما بين أصابعه منفرجاً كأنواع السباع والكلاب أو لم يكن منفرجاً كالإبل والأوز والبط ،

وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم ، فلما ظلموا عمَّ التحريم ﴿ وَمِنَ البَقَرِ والغَنَمِ ﴾ متعلق بقوله ﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ لا لحومهما والشحوم الثروب وشحوم الكليتين ﴿ إلا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ استثناء من الشحوم أي : إلا ما اشتملت على الظهور والجنوب من شحم الكتفين إلى الوركين ﴿ أَوْ الحَوَايَا ﴾ الذي حملته الأمعاء واشتمل عليها ، جمع الحوية وهي المباعر والمصارين ﴿ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ وهو شحم الإلية واختلاطه بالعظم اتصاله بالعصص وهو عجب الذنب أي : عظمه ﴿ ذَلِكَ ﴾ الجزاء ﴿ جَزَيْنَاهُمْ ﴾ أي : اليهود ﴿ بِبَغْيِهِمْ ﴾ أي : بسبب ظلمهم وهو قتلهم الأنبياء بغير حق ، وأخذهم الربا ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وكانوا كلما أتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شيء مما أحل لهم ، وقد أنكروا ذلك وادعوا أنها لم تزل محرمة على الأمم الماضية ، فرد الله عليهم ذلك وأكده بقوله تعالى ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أي : في الإخبار عن كل شيء وفي الإخبار عن بغيهم ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ أي : اليهود والمشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم ﴿ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم ، فلا تغتروا بذلك فإنه إمهال لا إهمال ﴿ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ ﴾ عذابه ﴿ عَنِ القَوْمِ المُجْرِمِينَ ﴾ حين ينزل ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ ﴾ عدم إشراكنا ﴿ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ نحن ﴿ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ أرادوا به أن ما فعلوه حق مرضيٌ عند الله تعالى ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي : كهذا التكذيب ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : متقدموهم ﴿ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على ما زعمتم ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ فتظهروه لنا ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ ﴾ أي : ما تتبعون فيما أنتم عليه من الشرك والتحريم ، إلا الظن الباطل من غير علم ويقين ﴿ وَإِنْ أَنْتُمْ إلا تَخْرُصُونَ ﴾ تكذبون على الله تعالى ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ ﴾ أي : البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والثبات ﴿ فَلَوْ شَاءَ ﴾ هدايتكم جميعاً ﴿ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بالتوفيق لها ولكن شاء ضلال آخرين ، لصرف همهم إلى طريق الضلال ﴿ قُلْ هَلُمَّ ﴾ اسم فعل أمرٍ أي : أحضِروا ﴿ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ وهم قدوتهم الذين ينصرون قولهم ومذهبهم ، وإنما أمروا باستحضارهم ليلزمهم الحجة ويظهر أنه لا متمسك لهم ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا ﴾ بعدما حضروا بأن الله تعالى حرَّم هذا ﴿ فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي : فلا تصدقهم فإنه كذب محض ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ كعبدة الأوثان ، فإن من يكذب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة ﴿ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : يجعلون له عديلا ، والمعنى لا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله ، وبين الكفر بالآخرة ، وبين الإشراك به سبحانه وتعالى ، واعلم أن الله تعالى أحل الطيبات ، ورد ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من تحريم من عند أنفسهم ، لأن الدين يبتني على الوحي لا على الهوى ، وحرَّم الخبائث

كالخمر والميتة والدم والخنزير وغير ذلك أي : تناولها وبيعها ، لأن ما يحرم تناوله يحرم بيعه ، وما حرمه الله تعالى إما أن يكون بلاء ونقمة ، كما فعل باليهود وإما أن يكون رحمة منه ، لعلمه أن فيه ضرراً نفسانياً أو روحانياً فالنفساني كضرر السم وأمثاله ، والروحاني كضرر لحم السباع والمؤذيات وأمثالها ، فإنه بفساد أخلاقها تغير الأخلاق الروحانية كما قيل : « الرضاع يُغيّر الطباع » .

قال الفقيه أبو الليث : يُستحبُّ للرجل أن يعرف من الطب مقدار ما يمتنع به عما يضر ببدنه ، لأن العلم علمان : علم الأبدان ، ثم علم الأديان ، وأجاز عامة العلماء التداوي بالمحرمات عند الضرورة ، كإساغة اللقمة بالخمر إذا غصَّ ، وأما إذا لم يصل إلى حدّ الضرورة فلا يجوز .

﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد لكفار مكة ﴿ **تَعَالَوْا** ﴾ أمر من تعالى ﴿ **أَتْلُ** ﴾ جواب الأمر أي : أقرأ ﴿ **مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ** ﴾ أي : الذي حرمه ربكم أي : الآيات المشتملة عليه ﴿ **عَلَيْكُمْ** ﴾ متعلق بحرم ﴿ **أَنْ لا** ﴾ ناهية ﴿ **تُشْرِكُواَ بِهِ شَيْئاً** ﴾ من الأشياء ، فتقدير الكلام ذلك التحريم هو قوله : ﴿ لا تشركوا به شيئاً ﴾ اعلم أن هذه الآيات الثلاث إلى قوله ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ تشتمل على عشر خصال ، جامعة للخير كله ، لم ينسخهنّ شيء من جميع الكتب ، فهن محرمات على بني آدم كلهم ، لم يختلفن باختلاف الأمم والأعصار ، من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار ، أولاهن قوله ﴿ **لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً** ﴾ قدم الشرك لأنه رأس المحرمات ولا يقبل الله تعالى معه شيئاً من الطاعات ، وهو ينقسم إلى جلي وخفي ، فالجليُّ عبادة الأصنام ، والخفي رؤية الأغيار مع الله الواحد القهار .

﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً** ﴾ أي : وأحسنوا بهما إحساناً أي : لا تسيئوا إليهما ، لأن المحرم هو الإساءة والأمر بالشيء مستلزم للنهي عن ضده ، وإنما وضع الأمر موضع النهي للمبالغة في إيجاب مراعاة حقوقهما ، فإن مجرد ترك الإساءة غير كاف في قضاء حقوقهما ، وهذا هو الأمر الثاني من الأحكام العشرة .

﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ** ﴾ أي : لا تدفنوا بناتكم حية ﴿ **مِنْ إِمْلاقٍ** ﴾ من أجل فقر ، والإملاق : نفاد الزاد والنفقة ، يقال أملق الرجل إذا نفد زاده ونفقته ﴿ **نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** ﴾ فلا تخافوا الفقر بناء على عجزكم عن تحصيل الرزق ، وهذا هو الحكم الثالث من الأحكام العشرة ، وإنما حرم قتل الأولاد لما فيه من هدم بنيان الله ، وملعون من هدم بنيانه .

﴿ **وَلا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ** ﴾ أي : الزنى وجيء بصيغة الجمع قصداً إلى النهي عن أنواعها ﴿ **مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾ أي : ما يفعل منها علانية كما هو دأب أرذالهم ، وما يفعل سراً باتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم ، وهذا هو الحكم الرابع منها وتوجيه النهي إلى قربانها للمبالغة في النهي عنها ، ومن

الزنى زنى النظر .

وعن ابن عباس : إن الشيطان من الرجل في ثلاثة منازل : في عينيه ، وفي قلبه ، وفي ذَكَره ، وهو من المرأة في ثلاثة منازل : في عينيها ، وفي قلبها ، وفي عجزها ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ** ﴾ أي : حرَّم قتلها ﴿ **إلا بِالحَقِّ** ﴾ أي : لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق الذي هو أمر الشرع بقتلها ، وذلك بالكفر بعد الإيمان ، والزنى بعد الإحصان ، وقتل النفس المعصومة ، وهذا هو الحكم الخامس .

﴿ **ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ** ﴾ أي : أمركم ربكم بحفظه أمراً مؤكداً ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ أي : تستعملون عقولكم التي تعقل نفوسكم ، وتحبسها عن مباشرة القبائح المذكورة ﴿ **وَلا تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ** ﴾ أي : لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه ، واليتيم من الإنسان من لا أب له والخطاب للأولياء والأوصياء ﴿ **إلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ إلا بالخصلة التي هي أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثميره ﴿ **حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** ﴾ حتى يصير بالغاً رشيداً فحينئذ سلموه إليه ، وهذا هو الحكم السادس ، وإنما وصى الله تعالى بحفظ مال اليتيم ، لأنه عاجز فتولى الله أمره ، وأمر بالشفقة والنظر في حقه .

﴿ **وَأَوْفُوا الكَيْلَ** ﴾ في المكيلات أي : أتموه ولا تنقصوا منه شيئاً ﴿ **وَالمِيزَانَ** ﴾ في الموزونات ﴿ **بِالقِسْطِ** ﴾ أي : أوفوهما ملتبسين بالقسط وهو العدل ، أمر المعطي بإيفاء ذي الحق حقه من غير نقصان ، وأمر صاحب الحق بأخذه من غير طلب زيادة ﴿ **لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا** ﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ، وذكره عقيب الأمر للإيذان بأن مراعاة العدل عسير ، فعليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم ، فإذا اجتهد الإنسان في الكيل والوزن ، ووقعت فيه زيادة يسيرة ، أو نقصان يسير لم يؤاخذ به ، وهذا هو الحكم السابع .

﴿ **وَإِذا قُلْتُمْ** ﴾ قولاً في حكومة أو شهادة ﴿ **فَاعْدِلُوا** ﴾ فيه ﴿ **وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ** ﴾ أي : ذا قرابة منكم ، ولا تميلوا نحوهم أصلاً ، لأن مدار الأمر اتباع الحق المشروع وطلب مرضاة الله تعالى ، فلا فرق بين ذي قرابة وأجنبي ، وهذا هو الحكم الثامن .

﴿ **وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا** ﴾ أيّ عهد كان ، من ملازمة العدل ، وتأدية أحكام الشرع وغيرهما ، ويحتمل أن يراد به العهد بين الإنسانين ، ويكون إضافتُه إلى الله تعالى من حيث إنه أمر بحفظه والوفاء به . وهذا هو الحكم التاسع .

﴿ **ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ** ﴾ أمركم به أمراً مؤكداً ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ تتذكرون وتعملون بمقتضاه

﴿ وَأَنَّ ﴾ بتقدير اللام أي : ولأن ﴿ هَـٰذَا ﴾ أي : ما ذكر في هذه السورة من إثبات التوحيد ، والنبوة ، وبيان الشريعة ﴿ صِرَاطِي ﴾ أي : مسلكي وشريعتي ، وسمي الشرع طريقاً لأنه يؤدي إلى الثواب في الجنة ﴿ مُسْتَقِيماً ﴾ أي : مستوياً قويماً ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ أي : الطرق المختلفة التي عدا هذا الطريق ، مثل اليهودية والنصرانية وسائر الملل ﴿ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ ﴾ فتتفرق بكم أي : فتفرقكم وتزيلكم ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي : عن دين الله الذي ارتضى ، وبه أوصى وهو الإسلام ، وفيه تنبيه على أن صراطه عليه الصلاة والسلام عين سبيله تعالى ، وهذا هو العاشر من الخصال .

﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي : اتباع سبيله وترك اتباع سائر السبل ﴿ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لكي تجتنبوا اتباع سبيل الكفر والضلالة ، ولما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية خطَّ خطاً فقال : « هذا سبيل الله » ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، وقال : « هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه »[1]، واعلم أن الشرع ههنا هو الصراط المستقيم ، ولذا لا نزال في كل ركعة من الصلاة نقول : (**اهدنا الصراط المستقيم**) ومن زلَّ عن هذا الصراط في الدنيا زلَّ عن صراط الآخرة أيضاً .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ ثم آتينا موسى التوراة ، وثم للتراخي في الأخبار كما في قولك بلغني ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس أعجب ﴿ تَمَاماً ﴾ أي : إتماماً للكرامة والنعمة ﴿ عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ أي : على من أحسن القيام من الأنبياء والمؤمنين ﴿ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وبياناً مفصلاً لكل ما يحتاج إليه في الدين ، ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ نجاة من العذاب لمن آمن به وعمل بما فيه ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أي : بني إسرائيل المدلول عليهم بذكر موسى ﴿ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : كي يؤمنوا بالبعث ويصدقوا بالثواب والعقاب ﴿ وَهَذَا ﴾ أي : القرآن ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ليس من قبل الرسول كما يزعم المنكرون ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أي : كثير النفع ديناً ودنيا ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ واعملوا بما فيه ﴿ وَاتَّقُوا ﴾ مخالفته ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ بواسطة اتباعه والعمل بموجبه ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ أي : أنزلناه كراهة أن تقولوا يا أهل مكة يوم القيامة ﴿ إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ ﴾ أي : التوراة والإنجيل ﴿ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ وهما اليهود والنصارى ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة أي : وإنه ﴿ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ ﴾ قراءتهم ، ولم يقل عن دراستها لأن كل طائفة جماعة ﴿ لَغَافِلِينَ ﴾ لا ندري ما في كتابهم إذْ لم يكن على لغتنا فلم نقدر على قراءته ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ ﴾ كما أُنزل عليهم ﴿ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأقصى ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ ﴾ أي : لا تعتذروا بذلك

---

(١) رواه أحمد والحاكم والنسائي ، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ١ / ٦٣٣ .

القول فقد جاءكم ﴿ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : حجة واضحة ﴿ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ ﴾ جاء بالهدى والرحمة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي : لا أحد أظلم ﴿ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أي : القرآن ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ أي : صرف الناس عنها ، فجمع بين الضلال والإضلال ﴿ سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ ﴾ أي : يصرفون الناس ﴿ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ وعيد لهم ببيان جزاء إضلالهم ﴿ سُوءَ العَذَابِ ﴾ أي : شدته ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ أي : بسبب ما كانوا يفعلون من إضلال الناس وصرفهم عن الإسلام .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ هل استفهامية معناها النفي وينظرون بمعنى ينتظرون كأنه قيل : أنزلت عليهم الكتاب فلم يؤمنوا فما ينتظرون ؟ ﴿ إلا أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلائِكَةُ ﴾ أي : ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ أي : أمره بالعذاب والانتقام ، أو لفصل القضاء في موقف القيامة ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ يعني أشراط الساعة التي هي الدخان ، ودابة الأرض ، والدجال ، وطلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا ﴾ كالمحتضر فإن معاينة أشراط الساعة يمنع قبول الإيمان ، لأنه إنما يقبل إذا كان بالغيب ﴿ لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبل إتيان بعض الآيات ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً ﴾ الآية تقتضي أن لا ينفع الإيمان بدون العمل الصالح ، ومذهب أهل السنّة أنه نافع حيث إن صاحبه لا يخلد في النار كما دلَّ عليه الشرع ، ﴿ قُلِ انْتَظِرُوا ﴾ ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أي شيء تنتظرون ﴿ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ لذلك وحينئذ لنا الفوز وعليكم الوبال بما حل بكم من سوء العاقبة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ﴾ أي : اليهود والنصارى ﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ أي : بدَّدوه فتمسك بكل بعضٍ منه فرقة منهم ﴿ وَكَانُوا شِيَعاً ﴾ أي : فرقاً تشيع كل فرقة إماماً لها قال عليه الصلاة والسلام : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة »[1] ، ﴿ لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ لست عن تفرقهم والمؤاخذة في شيء ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَىٰ اللهِ ﴾ أي : هو يتولى وحده أمرهم ويدبرهم كيف يشاء ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أي : يظهر لهم على رؤوس الأشهاد ويعلمهم أيَّ شيء شنيع كانوا يفعلونه في الدنيا ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء ، واعلم أن كل فعل شنيع وعمل قبيح في الدنيا ، يتصور بصورة قبيحة في الآخرة ، وهو قد كان في الدنيا بصورة مستحسنة امتحاناً وابتلاءً ، فصار كالشهد المختلط بالسم ، نعوذ بالله من سيئات الأعمال .

﴿ مَنْ جَاء بِالحَسَنَةِ ﴾ أي : من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين ، إذ لا حسنة بغير

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

إيمان ، قال القاضي عياض : انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ، ولا يثابون عليها بنعيم ، لكن بعضهم يكون أشد عذاباً من بعض ، بحسب جرائمهم انتهى . نعم إذا أسلموا يثابون على الخيرات المتقدمة ﴿ **فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا** ﴾ أي : فله عشر حسنات أمثالها ، فضلاً من الله تعالى ، ﴿ **وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ** ﴾ أي : بالأعمال السيئة كائناً من كان من العاملين ﴿ **فَلا يُجْزَىٰ إِلا مِثْلَهَا** ﴾ بحكم الوعد واحدة بواحدة ، فإن قيل : كفر ساعة يوجب عقاب الأبد ، فما وجه المماثلة ؟ وأجيب بأن الكافر على عزم أنه لو عاش أبداً لبقي على ذلك الاعتقاد ، فلما كان العزم مؤبداً عوقب بعقاب الأبد ، بخلاف المسلم المذنب فإنه يكون على عزم الإقلاع عن ذلك الذنب ، فلا جرم كانت عقوبته منقطعة ﴿ **وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ بنقص الثواب وزيادة العقاب .

وقد جاء الوعد بسبعين ، وسبعمائة ، وبغير حساب ، وحكمة التضعيف لئلا يفلس العبد إذا اجتمع الخصماء عليه ، فيدفع إليهم واحدة ويبقى له تسع ، فمظالم العباد توفى من التضعيفات .

﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد لكفار مكة الذين يدعون أنهم على الدين الحق وقد فارقوه بالكليَّة ﴿ **إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي** ﴾ أي : أرشدني بالوحي ، وبما نصب في الآفاق والأنفس من الآيات التكوينية ﴿ **إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ موصل إلى الحق ﴿ **دِيناً** ﴾ بدل من محل « إلى صراط » والمعنى هداني صراطاً ﴿ **قِيَماً** ﴾ مصدر بمعنى القيام وصف به الدين مبالغة ، والقياس قِوَماً كعِوَض ﴿ **مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ الملة : من أمللت الكتاب أي : أمليته ، وما شرعه الله لعباده يسمى ملة ، من حيث إنه يدوّن ويملى ويكتب ، ويسمى ديناً باعتبار طاعتهم لمن شرعه وسنّه أي : جعله لهم سنناً وطريقاً ﴿ **حَنِيفاً** ﴾ أي : مائلاً عن الأديان الباطلة ميلاً لا رجوع فيه ﴿ **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ أي : ما كان إبراهيم منهم أصلاً وإنما أضاف الدين إلى إبراهيم ، لأن إبراهيم كان معظماً في عيون العرب ، وفي قلوب أهل سائر الأديان ، إذ أهل كل دين يزعمون أنهم ينتحلون دين إبراهيم عليه السلام ، فرد الله عليهم .

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي** ﴾ يعني الصلوات الخمس المفروضة ﴿ **وَنُسُكِي** ﴾ أي : عبادتي كلها ، وأصل النسك : كل ما تقربت به إلى الله تعالى ، ومنه قولهم للعابد ناسك ، ﴿ **وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي** ﴾ أي : وما أنا عليه في حياتي وعند موتي ، من الإيمان والطاعة ﴿ **لله رَبِّ العَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ** ﴾ أي : خالصة له تعالى لا أشرك فيها غيره ﴿ **وَبِذَلِكَ** ﴾ الإخلاص ﴿ **أُمِرْتُ** ﴾ لا بشيء غيره ﴿ **وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته ، وفيه بيان مسارعته عليه الصلاة والسلام إلى الامتثال بما أُمر به ، وأن ما أمر به ليس من خصائصه عليه الصلاة والسلام بل الكل مأمورون به يقتدى به عليه الصلاة والسلام من أسلم منهم ، وفي الآية حث على التوحيد والإخلاص ، وعلامتها التبري من

كل شيء سواه تعالى ، ظاهراً وباطناً .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لمن يقول من الكفار : ارجع إلى ديننا ﴿ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي ﴾ أطلب ﴿ رَبّاً ﴾ آخر فأشركه في عبادته ﴿ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : والحال أن ما سواه عبد له مثلي ، فكيف يتصور أن يكون شريكاً له ؟ ﴿ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلا عَلَيْهَا ﴾ أي : ولا تكون جناية نفس من النفوس إلا عليها ، ومحال أن يكون صدورها عن شخص وقرارها على شخص آخر ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أي : ولا تحمل يومئذ نفس حاملة ، حمل نفس أخرى حتى يصح قولكم (وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ) والوزر في اللغة هو الثقل ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي : إلى مالك أمركم رجوعكم يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ يومئذ ﴿ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : يبين الرشد من الغيّ ، ويميز المحق من المبطل ، فإن قلت : قوله عليه الصلاة والسلام « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضٍ أو شيء ، فليستحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ثم طُرح في نار جهنم »[1] ، فكيف يجوز في حكم الله وعدله ، أن يضع سيئات من اكتسبها على من لم يكتسبها ؟ وتؤخذ حسنات من عملها فتعطى من لم يعملها ؟ فالجواب : أن الذنب ذنبان ، ذنب لازم ، وذنب متعد ، فالذنب اللازم كشرب الخمر مثلاً يؤخذ به صاحبه دون غيره ، فهذا الذنب له جهة واحدة فقط ، والذنب المتعدي كقتل النفس مثلاً فهذا وإن كان يؤخذ به صاحبه أيضاً لكن له جهتان ، جهة التجاوز عن حد الشرع ، وجهة وقوع الجناية على العبد ، فحمل سيئاته وطرح حسناته عليه ، حمل سيئات نفسه في الحقيقة وما طرح حسنات غيره في نفس الأمر ولا ظلمه أصلاً ، فالآية والحديث متحدان في المآل . وأشارت الآية إلى أن الاختلاف في أمر الدين كما يقع بين أهل الكفر والإيمان ، كذلك يحدث بين أهل الإخلاص والرياء ففي الحديث الشريف : « يخرج في آخر الزمان أقوام يختلون الدنيا بالدين - يعني : يأخذونها - ويلبسون جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله تعالى : « أبي يغترُّون أم عليَّ يجترئون ؟ فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيران »[2] فعلى المؤمن أن يصحح الظاهر والباطن ، ويرفع الاختلاف فإن الحق واحد (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ) وأما اختلاف الأئمة فرحمة لعامة الناس ، وليس ذلك من قبيل الاختلاف بحسب المراء والجدال ، بل بحسب اختلاف الأشخاص والأحوال ، فالحق أحق أن يتبع عصمنا الله وإياكم من الاختلاف المفسد للدين ، والجدل المزيل لأصل اليقين ، وجعلنا من أهل التوفيق للصواب إنه الكريم المفيض الوهاب ﴿ وَهُوَ ﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والدارمي وانظر الفتح الكبير للسيوطي ٣ / ٤١٩ .

أي : الله تعالى ﴿ **الَّذِي جَعَلَكُمْ** ﴾ أيها الناس ﴿ **خَلَائِفَ الأَرْضِ** ﴾ خلائف الأمم السابقة البشرية أو خلفاء الله في أرضه تتصرفون فيها ، والخلائف : جمع الخليفة كالوصائف جمع الوصيفة ، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفته ، لأنه يخلفه .

﴿ **وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ** ﴾ في الشرف والغنى ﴿ **فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** ﴾ كثير متفاوتة ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ** ﴾ من المال والجاه أي : ليعاملكم معاملة من يبتليكم ويمتحنكم لينظر ماذا تعملون من الشكر وضده ؟ - حكي - أن جنيداً كان يلعب مع الصبيان في صباوته ، فمر به السرى السقطي فقال : ما تقول في حق الشكر يا غلام ؟ قال : الشكر أن لا تستعين بنعمه على معاصيه ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ** ﴾ يا محمد ﴿ **سَرِيعُ العِقَابِ** ﴾ أي : عقابه سريع الإتيان لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله ولم يشكره ، ﴿ **وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ لمن راعاها كما ينبغي ، واعلم أن الله تعالى كما أعطى المال والجاه ليتميز من هو على الشكر ، ومن هو على الكفر ، كذلك أعطى استعداد الخلافة ، ليظهر من المتخلق بأخلاق الله ، القائم بأوامره في العباد والبلاد ، ومن الذي رجع القهقرى إلى صفات البهائم والأنعام ، فمن أضاع صفات الحق بتبديلها بصفات الحيوانات ، عوقب بالختم على قلبه وسمعه وبصره ، بل حبس في أسفل سافلين ، ومن تاب عن متابعة النفس والهوى ومخالفة الحق والهدى ، وآمن وعمل عملاً صالحاً في الدنيا ، فقد اهتدى ولم يرجع القهقري - حكي - عن إبراهيم بن أدهم أنه حج إلى بيت الله الحرام ، فبينما هو في الطواف إذ بشاب حسن الوجه ، قد أعجب الناس حسنه وجماله ، فصار إبراهيم ينظر إليه ويبكي فقال بعض أصحابه : يا سيدي ما هذا النظر الذي يخالطه البكاء ؟ فقال له إبراهيم يا أخي إني عقدت مع الله تعالى عقداً ، لا أقدر على فسخه ، فإنه ولدي وقرة عيني ، تركته صغيراً وخرجت فاراً إلى الله تعالى ، وها هو قد كبر كما ترى ، وإني لأستحي من الله سبحانه أن أعود لشيء خرجت عنه ، قال : ثم قال لي امض وسلم عليه لعلي أتسلى بسلامك عليه وأبرد ناراً على كبدي ، قال فأتيت الفتى فقلت له : بارك الله لأبيك فيك ، فقال : يا عم وأين أبي ؟ إن أبي خرج فاراً إلى الله تعالى ، ليتني أراه ولو مرة واحدة وخنقته العبرة ، قال : ثم رجعت إلى إبراهيم وهو ساجد في المقام ، وقد بلَّ الحصى بدموعه وهو يتضرع إلى الله تعالى ويقول :

هجرتُ الخلقَ طراً في هواك * وأيتمت العيال لكي أراك
فلو قطَّعتني في الحب إرْباً * لما سكن الفؤادُ إلى سواك

قال : فقلت له ادع له ، فقال حجبه الله عن معاصيه ، وأعانه على ما يرضيه انتهى . فانظر إلى حال من ترك السلطنة واختار الفقر والقناعة . جعلنا الله وإياكم من المقتفين لآثار سنّة سيد المرسلين ، وحقق آمالنا من الوصول إلى مقام التوكل واليقين .

تمت سورة الأنعام بمعونة الملك العلام



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ المص ﴾ (أ) إشارة إلى الذات الأحدية (ل) إلى الذات مع صفة العلم (م) إلى معنى محمد ﷺ نفسه وحقيقته (ص) إلى الصورة المحمدية وهي جسده وظاهره [١] ﴿ كِتَابٌ ﴾ أي : هذا كتاب ﴿ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي : من جهته تعالى ﴿ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾ أي : شك في حقيته ، خاطب به النبي عليه الصلاة والسلام والمراد الأمة ، أي : لا ترتابوا ولا تشكوا ، ويجوز أن يكون الحرج على حقيقته أي : لا يكن فيك ضيق صدر من تبليغه مخافة أن يكذبوك ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يخاف تكذيب قومه له وإعراضهم عنه ، فكان يضيق صدره من الأداء [٢] ﴿ لِتُنْذِرَ بِهِ ﴾ أي : بالكتاب المنزل ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : ولتذكر المؤمنين تذكيراً ﴿ اتَّبِعُوا ﴾ أيها المكلفون ﴿ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني القرآن ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ ﴾ أي : من دون ربكم ، لا تتبعوا متجاوزين الله تعالى ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ من الجن والإنس بإطاعتهم في معصية الله ﴿ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ بحذف إحدى التاءين أي : تذكراً قليلاً أو زماناً قليلاً تتذكرون حيث لا تتأثرون بذلك ولا تعملون بموجبه وتتركون دين الله تعالى وتتبعون غيره ، ثم شرع في التهديد إن لم يتعظوا بما جرى على الأمم الماضية بسبب إصرارهم على اتباع دين أوليائهم فقال ﴿ وَكَمْ ﴾ للتكثير مبتدأ ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ أي : وكثير من القرى أردنا إهلاكها ﴿ فَجَاءَهَا ﴾ أي : فجاء أهلها ﴿ بَأْسُنَا ﴾ أي : عذابنا ﴿ بَيَاتاً ﴾ أي : بائتين كقوم لوط ، سُمّيَ الليل بياتاً لأنه يُباتُ فيه ﴿ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ أي : نائمون من القيلولة نصف النهار كقوم شعيب أهلكهم الله في نصف النهار وفي حر شديد وهم قائلون ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أي : دعاؤهم وتضرعهم ﴿ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا وعاينوا أماراته ﴿ إِلا أَنْ قَالُوا ﴾ جميعاً ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أي : إلا اعترافهم بظلمهم تحسراً وندامة ، وطمعاً في الخلاص وهيهات لأنه لا تنفع التوبة وقت نزول العذاب .

---

(١) الصحيح ما عليه المحققون من أهل التفسير أن الحروف المقطعة في أوائل السور الكريمة إنما وردت للتنبيه على إعجاز القرآن ، وانظر كتابنا صفوة التفاسير ، الجزء الأول ص ٣١ .

(٢) هذا هو الصحيح في تفسير الآية أن المعنى : لا يضقْ صدرك من تبليغ القرآن خشية تكذيبهم لك .

﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي : فلنسألن الأمم قاطبة يوم الحشر ، قائلين ماذا أجبتم المرسلين ؟ ﴿ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ عما أجيبوه أو المراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم ﴿ فَلَنَقُصَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على الرسل حين يقولون لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴿ بِعِلْمٍ ﴾ أي : عالمين بظواهرهم وبواطنهم ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ عنهم في حال من الأحوال ، فيخفى علينا شيء من أعمالهم وأحوالهم ، واعلم أن الرسل يقولون يوم الحشر : اللهم سلِّم سلم ، ويخافون أشد الخوف على أممهم ، والمخلصون الذين ما تدنست بواطنهم بالشبه المضلة ولا بالمخالفات الشرعية ، فإنهم يغبطهم النبيون ، فمن لقي الله تعالى في ذلك اليوم شاهداً له بالإخلاص ، مقراً بنبيه ﷺ ، بريئاً من الشرك ومن إهراق دماء المسلمين ، ناصحاً لله تعالى ولرسوله ، محباً لمن أطاع الله ورسوله ، مبغضاً لمن عصى الله ورسوله ، استظل تحت عرش الرحمن ، نجا من الغم ، ـ روي ـ أن ملكاً من ملوك كندة ، كان طويل المصاحبة للهو واللذات ، ركب يوماً للاصطياد ، فانقطع عن أصحابه ، فإذا هو برجل جالس ، قد جمع عظاماً من عظام الموتى وهي بين يديه يقلبها ، فقال : ما قصتك أيها الرجل ؟ وما الذي بلغ بك ما أرى من سوء الحال ؟ فقال : إنني على جناح سفر بعيد ، وبي موكلان مزعجان ، يحدوان بي إلى منزل كبيت النمل ، مظلم القعر كريه المقر ، يسلماني إلى مجاورة الهلكى تحت أطباق الثرى ، فلو تركت بذلك المنزل مع ضيقه ووحشته ، لكان للبلى انقضاء وللشقاء نهاية ، ولكني أدفع بعد ذلك إلى صيحة الحشر ، ثم لا أدري إلى أيّ الدارين يؤمر بي ، فأيُّ حال يلتذ به من يكون هذا الأمر مصيره ؟ فلما سمع الملك كلامه ألقى نفسه عن فرسه ، وجلس بين يديه وقال : أيها الرجل لقد كدّر مقالك عليَّ صفو عيشي وملك قلبي ، فأعد عليّ بعض قولك ، فقال له : أما ترى هذه التي بين يديَّ ؟ هذه عظام ملوك غرَّتهم الدنيا بزخرفها ، واستحوذت على قلوبهم بغرورها ، فألهتهم عن التأهب لهذه المصارع ، حتى فاجأتهم الآجال وهذلتهم الآمال ، وسلبتهم بهاء النعمة ، وستنشر هذه العظام فتعود أجساماً ثم تجازى بأعمالها ، فإما إلى دار النعيم والقرار ، وإما إلى دار العذاب والبوار ، ثم غاب الرجل فلم يدر أين ذهب ، وتلاحق أصحاب الملك به وقد تغيَّر لونه وتواصلت عبراته ، فلما جنَّ عليه الليل نزع ما عليه من لباس الملك ، ولبس طمرين وخرج تحت الليل ، وأنشدوا :

أفنى القرونَ التي كانت منعمـــــة * كرُّ الجديدَيْن إقبالاً وإدباراً
يا راقدَ الليل مسروراً بأوله * إن الحوادث قد يطرقن أسحاراً
لا تأمنَنَّ بليل طابَ أوله * فربَّ آخر ليل أجَّج النارا

قال الإمام زين العابدين : عجبت للمتكبر الفخور الذي كان بالأمس نطفة ويكون غداً جيفة ،

وعجبت كل العجب لمن شك في الله وهو يرى خلقه ، وعجبت كل العجب لمن أنكر النشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبت كل العجب لمن عمل لدار الفناء وترك دار البقاء ، فعلى العاقل أن يعتبر بمن مضى قبل أن يجيء على رأسه القضا ، ويتهيأ للموت قبل نزوله ، والوقت يمضي كالريح ، وسنقضي الزمان ، فلا يبقى أحد على بساط العالم ، وتُطوى صحائف الأعمال ويظهر كل جليل ودقيق ، فيا شقاوة أهل الخذلان ، ويا سعادة أهل التوفيق ﴿ **وَالوَزْنُ** ﴾ أي : وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها ، وجيدها ورديئها ﴿ **يَوْمَئِذٍ** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **الحقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** ﴾ أي : حسناته التي توزن فهو جمع موزون ، وإنما قال موازينه بالجمع ، لأن كل عبد ينصب له موازين بالقسط تناسب حالاته ، فلبدنه ميزان يوزن به أوصافه ، ولروحه ميزان يوزن به نعوته ، ولسره ميزان يوزن به أحواله ، ولسرِّه ميزان يوزن به أخلاقه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « ما وضع في الميزان شيءٌ أثقل من حسن الخلق »[1]، ﴿ **فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ** ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب ﴿ **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ** ﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فطرت عليها ، واقتراف ما عرضها للعذاب ، والخسران إذهاب رأس المال ، ورأس المال الإنسان نفسه ، فإذا هلك بسوء عمله فقد خسر نفسه ﴿ **بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ** ﴾ يعني وضعوا التكذيب بها موضع التصديق ، ـ روي ـ أنه يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب ، فيوزن فلا يزن جناح بعوضة[2] انتهى ، وهذه الرواية تدل على أن الموزون هو الأشخاص ، كما ذهب إليه بعض العلماء ، ولكن الجمهور على أن صحائف الأعمال هي التي توزن ، بميزان له لسان وكفتان ، ينظر إليه الخلائق ، إظهاراً للمعدلة وقطعاً للمعذرة ، كما يسألهم عن أعمالهم فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم ، وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد ، وكما تثبت في صحائفهم فيقرأونها في موقف الحساب ، ويؤيده ما روي أن رجلاً يؤتى به إلى الميزان ، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كلُّ سجل مدُّ البصر ، فتخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة ، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، فتطيش السجلات ، وتثقل البطاقة[3]،ـ حكي ـ أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان الذي ينصب يوم القيامة ، فرأى كل كفة تملء ما بين المشرق والمغرب ، فغشي عليه فلما أفاق قال : إلهي من يقدر أن يملأ كفته بالحسنات ؟ فقال الله تعالى : « يا داود إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة من صدقة ، ويحكى عن بعضهم أنه قال : رأيت بعضهم في المنام ، فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال :

---

(١) الحديث أخرجه أحمد وأبو داود بلفظ (ما من شي في الميزان أثقل من حسن الخُلُق) الفتح الكبير ٣ / ١١١ .

(٢) الحديث في الصحيحين بلفظ (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة) جامع الأصول ٢ / ٢٣٥ .

(٣) الحديث هنا مروي بالمعنى وأصله في مسند أحمد وسنن الترمذي ، وانظر الفتح الكبير للسيوطي ١ / ٣٣٧.

وزنت حسناتي فرجحت السيئات على الحسنات ، فجاءت صرة من السماء وسقطت في كفة الحسنات فرجحت ، فحللت الصرة فإذا فيها تمرات كنت تصدقت بها على فقير .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : جعلنا لكم منها مكاناً وقراراً ، وأقدرناكم على التصرف فيها على أيِّ وجه شئتم ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ أي : أنشأنا وأبدعنا لمصالحكم ومنافعكم فيها أسباباً تعيشون بها ، جمع معيشة وهي ما يعاش به من المطاعم والمشارب ، والخطاب لقريش فإنه تعالى فضلهم على العرب ، بأن مكنهم من الرحلة إلى الشام في الصيف ، ومن الرحلة إلى اليمن في الشتاء آمنين ، بسبب كونهم سكان حرم الله تعالى ومجاوري بيته الشريف ، فكانوا يكسبون ما يكون سبباً لحياتهم من المآكل والمشارب والملابس وغيرها ﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ فيما صنعت إليكم .

واعلم أن النعمة إنما سلبت ممن لا يعرف قدرها ولا يؤدي شكرها ، ـ روي ـ أن بعض الأنبياء عليهم السلام سأل الله تعالى عن أمر « بلعم » وطرده بعد تلك الآيات والكرامات ، فقال الله تعالى : لم يشكرني يوماً من الأيام على ما أعطيته ، ولو شكرني على ذلك مرة لما سلبته ، فتيقظ أيها الرجل واحتفظ بركن الشكر ، واحمد الله على مننه التي أعلاها الإسلام ، وأدناها توفيق لتسبيحة عسى أن يتم نِعَمه عليك ولا يبتليك بمرارة الزوال ، فإن أمرَّ الأمور وأصعبها ، الإهانة بعد الإكرام ، والطرد بعد التقريب .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ أي : خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور بصورته المخصوصة ، ثم صورناه ، عبَّر عن خلق نفس آدم بخلق الكل ، من حيث إن المقصود من خلقه تعمير الأرض بأولاده ، فكان خلقه بمنزلة خلق أولاده ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ ﴾ كلهم لعموم اللفظ وعدم المخصص ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ سجدة تحية وتكريم ، لأن السجود الشرعي وهو وضع الجبهة على قصد العبادة ، إنما هو لله تعالى حقيقة ﴿ فَسَجَدُوا ﴾ أي : الملائكة بعد الأمر من غير تلعثم ﴿ إلا إِبْلِيسَ ﴾ أي : لكن إبليس ﴿ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أي : ممن سجد لآدم ، وإلا فهو كان ساجداً لله تعالى ﴿ قَالَ مَا ﴾ أي : أيّ شيء ﴿ مَنَعَكَ أَنْ لا تَسْجُدَ ﴾ أي : أن تسجد ﴿ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ أي : وقت أمرى إياك به ﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ أي : الذي منعني من السجود هو أني أفضل منه لأنك ﴿ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ والنار جوهر لطيف نوراني ، والطين جسم كثيف ظلماني ، فهو خير منه ، ولقد أخطأ اللعين حيث لاحظ الفضيلة باعتبار المادة والعنصر ، ولم يلاحظها باعتبار الفضيلة ، والأمر الموجه من حضرة الرب جل وعلا .

وشرفُ مسجودية آدم وفضيلته على الملائكة ، لم يكن بمجرد خواصه الطينية ، وتشرفه بشرف التخمير بغير واسطة كقوله تعالى (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) ، ثم إن فضيلة آدم لاختصاصه

بنفخ الروح ، المشرف بالإضافة إلى الحضرة الإلهية من غير واسطة ، كما قال ﴿ **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي** ﴾ ولاختصاصه بالتجلي فيه عند نفخ الروح ، ولهذا السر ما أمر الملائكة بالسجود بعد تسوية قالب آدم من الطين ، بل أمرهم بالسجود بعد نفخ الروح فيه ، كما قال الله تعالى (**إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**) وذلك لأن آدم بعد أن نفخ فيه الروح صار مستعداً للتجلي ، لما حصل فيه من لطافة الروح ونورانيَّته ، التي يستحق بها التجلي ، فاستحق سجود الملائكة ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **فَاهْبِطْ** ﴾ يا إبليس ﴿ **مِنْهَا** ﴾ أي : من الجنة ، وهذا أمر عقوبة على معصية ﴿ **فَمَا يَكُونُ لَكَ** ﴾ أي : فما يصح ويستقيم لك ولا يليق بشأنك ﴿ **أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا** ﴾ أي : في الجنة ﴿ **فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** ﴾ أي : من الأذلاء وأهل الهوان لتكبرك ، وفي الآية تنبيه على أن الله تعالى إنما طرده وأهبطه لتكبره ، لا لمجرد عصيانه وفي الحديث : « من تواضع لله رفعه الله ، ومن تكبر وضعه الله »[1] .

وكان العارفون يبكون دماً من أخلاق النفس ، فقد ذُكِرَ أن قاضياً جاء إلى أبي يزيد البسطامي يوماً فقال : نحن نعرف ما تعرفه ولكن لا نجد تأثيره ! فقال أبو يزيد : خذ مقداراً من الجوز ، وعلق وعاءه في عنقك ، ثم ناد في البلد كل من يلطمني أدفع له جوزة حتى لا تبقي منه شيئاً ، فإذا فعلت ذلك تجد التأثير ، فاستغفر القاضي ، فقال أبو يزيد : قد أذنبت لأني أذكر ما يخلصك من كِبْر نفسك ، وأنت تستغفر من ذلك لكمال كبرك !! قال أبو جعفر البغدادي : ست خصال لا تحسن بست رجال : لا يحسن الطمع في العلماء ، ولا العجلة في الأمراء ، ولا الشح في الأغنياء ، ولا الكبر في الفقراء ، ولا السفه في المشايخ ، ولا اللؤم في ذوي الأحساب ، فعليك بالتوحيد فإنه سيف صارم يقطع عرق كل خُلُق مذموم ﴿ **قَالَ** ﴾ الشيطان بعد كونه مطروداً ﴿ **أَنْظِرْنِي** ﴾ أي : أمهلني ولا تمتني ﴿ **إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ أي : آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وهو وقت النفخة الثانية ، وأراد اللعين بذلك أن يجد فسحة من إغوائهم ، ويأخذ منهم ثأره ، وينجو من الموت ، لاستحالته بعد الموت ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى ﴿ **إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ** ﴾ أي : من جملة الذين أخرت آجالهم إلى وقت النفخة الأولى ، لا إلى وقت البعث الذي هو المسئول كما بين مدة المهلة في قوله تعالى (**إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**) وهو يوم النفخة الأولى يموت الخلق فيه ويموت إبليس معهم ، وبين النفخة الأولى والثانية أربعون سنة ، فاستجيب بعض دعائه .

وإنما أنظره ابتلاء للعباد ، وتمييزاً بين المخلص لله ومتبع الهوى ، وقيل أمهله وأبقاه إلى آخر الدهر

---

(١) الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية وانظر الفتح الكبير ٣ / ١٨٠ .

استدراجاً له من حيث لا يعلم ، ليتحمل من الأوزار ما لا يتحمله غيره من الأشرار والكفار ، فأنظره ليحصل الاعتبار ، لذوي الأبصار بأن أطول الأعمار في هذه الدار لرئيس الكفار وقائد زمرة الفجار ، ﴿ قَالَ ﴾ إبليس ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ أي : بسبب أن صيرتني غاوياً ضالاً عن الهدى محروماً من الرحمة لأجلهم أقسم بعزتك ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ أي : لآدم وذريته ترصداً بهم ، كما يقعد القطاع للقطع على السابلة ﴿ صِرَاطَكَ ﴾ أي : على صراطك ﴿ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الموصل إلى الجنة وهو دين الإسلام ، فالقعود كناية عن الاجتهاد في إغواء بني آدم ﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : من قبل الآخرة فأشككهم فيها ، وأزين لهم الحسد ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ من جهة الدنيا أرغبهم فيها ، ﴿ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ﴾ من جهة الحسنات وأوقعهم في العجب والرياء ، ﴿ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ من جهة السيئات فأزينها لهم ، والمقصود من الجهات الأربع التي يعتاد هجوم العدو منها ، ولذلك لم يذكر الفوق والتحت ﴿ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ أي : مطيعين ، وإنما قال ذلك ظناً لا علماً لقوله تعالى (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) لما رأى فيهم مبدأ الشر وهو الشهوة والغضب والحسد والبغضاء .

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لإبليس ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي : من الجنة حال كونك ﴿ مَذْؤُماً ﴾ أي : مذموماً من ذأمه إذا ذمه ﴿ مَدْحُوراً ﴾ أي : مطروداً فاللعين مطرود من الجنة ومن كل خير لعجبه ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ اللام لتوطئة القسم ومن شرطية ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ جواب القسم ، ومعنى منكم أي : منك ومن ذريتك ومن كفار ذرية آدم وفي الحديث : « تحاجَّت النار والجنَّةُ فقالت هذه : يدخلني الجبارون المتكبرون ، وقالت هذه : يدخلني الضعفاء والمساكين ، فقال الله تعالى لهذه : أنت عذابي أعذب بك من أشاء وقال لهذه : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها »[1] والتابعون للشيطان هم الذين يأتيهم من الجهات الأربع المذكورة فيقبلون منه ما أمره ، فليحذر العاقل عن متابعته وليجتهد في طاعة الله وعبادته حتى لا يدخل النار مع الداخلين .

﴿ وَيَا آدَمُ ﴾ أي : وقلنا لآدم بعد إخراج إبليس من الجنة يا آدم ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ ﴾ أي : لازم الإقامة على طريق الإباحة والتكريم ﴿ وَزَوْجُكَ ﴾ حواء والزوج في كلام العرب هو العدد الفرد المازوج لصاحبه ، فأما الاثنان المصطحبان فيقال لهما زوجان ﴿ الْجَنَّةَ ﴾ أي : فيها وهي جنة الخلد التي جعلت دار الجزاء وعليه أكثر أهل العلم ، ﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ من أي مكان شئتما ومن أي شيء شئتما من نعم الجنة وثمارها موسعاً عليكما ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ اختلفوا في هذه الشجرة

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، ومسلم والترمذي في الجنة ، وأحمد في المسند ٣ / ٣١٤ .

وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها ، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ الوسوسةُ : الكلامُ الخفي المكرر يلقيه الشيطان إلى قلب البشر ، ليزين له ما هو المنكر شرعاً وأول ما ابتدأها به من كيده إياهما أنه ناح عليهما نياحة أحزنتهما حين سمعاها فقالا له : ما يبكيك ؟ قال : أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة فوقع ذلك في نفسهما ثم أتاهما فوسوس إليهما مرة ثانية ﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا ﴾ أي : ليظهر لهما ، وأراد بوسوسته أن يسوءهما أي : يخزيها بانكشاف عورتها عند الملائكة ، وفيه دليل على أن كشف العورة من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع ، ﴿ مَا وُورِيَ عَنْهُمَا ﴾ أي : الذي ستر عنهما ﴿ مِنْ سَوْآتِهِمَا ﴾ أي : عوراتهما وكانا لا يريانها من أنفسهما لأنهما قد ألبسا ثوباً يستر عورتها ، والسوآت جمع السوءة ، وسميت العورة سوءة لأنه يسوء الإنسان إنكشافها ﴿ وَقَالَ ﴾ عطف على وسوس بياناً وتفصيلاً لكيفية وسوسته ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ﴾ أي : عن أكلها ﴿ إِلا ﴾ كراهة ﴿ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ أي : كالملائكة في لطافة البنية ، والاستغناء عن التغذي بالأطعمة والأشربة ونحوهما ، وفضل الملائكة من بعض الوجوه ، لا يدل على فضلهم على الأنبياء مطلقاً ، لجواز أن يكون لنوع البشر فضائل أخر ، ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ الذين لا يموتون ويخلدون في الجنة ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ أي : أقسم لهما ، فالقسم إنما وقع من إبليس فقط ، عبر عن إقسامه بزنة المفاعلة ، لأنه اجتهد في القسم اجتهاد المقاسم ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ فيما أقول ، والنصحُ : بذل المجهود في طلب الخير في حق غيره ﴿ فَدَلاَّهُمَا ﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة ، وحطهما من المرتبة العالية إلى المنزلة السافلة ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ أي : بسبب تغريره إياهما باليمين بالله كاذباً ، وكان اللعين أول من حلف بالله كاذباً ، وظن آدم أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً فاغتر به ، فإن شأن المؤمن أن يعتقد بصدق من حلف بالله ، لتمكُّنِ عظمة اسم الله تعالى في قلبه ، وكان بعض العلماء يقول : مَن خادعنا بالله خدعنا وفي الحديث : « المؤمنُ غِرٌّ كريم ، والفاجرُ خبٌّ لئيم »(١) ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا ﴾ أي : فلما وجدا طعمها آخذين في الأكل منها أخذتها العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما لباسهما وظهرت لهما عوراتهما فاستحييا ، وكان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر إلى حد البدن ، وقيل كان حلة من حلل الجنة ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ أي : أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة ﴿ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ قيل كان ذلك ورق التين ولم يستره من الشجر إلا شجر التين ، وفي الآية دليل على أن كشف العورة قبيح من لدن آدم عليه السلام ، ألا ترى أنها كيف بادرا إلى الستر ، لما تقرر في عقلهما من قبح كشف العورة ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ بطريق العتاب والتوبيخ ،

(١) الحديث أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد .

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ إشارة إلى قوله تعالى (إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) ـ روي ـ أن الله تعالى قال لآدم : ألم يكن فيما منحتك من شجر الجنة ، مندوحة عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى وعزتك ، ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً ، قال : فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كداً ، فأهبط وعلم صنعة الحديد ، وأمر بالحرث فحرث وسقى وعجن وخبز ﴿ قَالا ﴾ اعترافاً بالخطيئة وتسارعاً إلى التوبة ﴿ رَبَّنَا ﴾ أي : يا ربنا ﴿ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ أي : ضررناها بالمعصية وعرضناها للإخراج من الجنة ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا ﴾ تستر علينا ذنبنا ﴿ وَتَرْحَمْنَا ﴾ بقبول توبتنا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي : الهالكين الذين باعوا حظهم في الآخرة بشهوة ساعة ، وكان ذنب آدم صغيرة ، لأنه لم يأكل من الشجرة قصداً لمخالفة حكم الله تعالى ، بل إنما أكل بناء على مقالة اللعين وأنه إنما أقدم عليه بسبب اجتهاد أخطأ فيه ، فإنه ظن أن الإشارة في قوله ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ إلى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها ، وقد كان المراد بها الإشارة إلى النوع ، كما روي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ حريراً وذهباً بيده وقال : « هذان حرامان على ذكور أمتي ، حلٌّ لإناثها »(١) ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ اهْبِطُوا ﴾ خطاب لآدم وحواء وذريتهما ، أو لهما ولإبليس ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ أي : متعادين ، فطبْعُ إبليس على العداوة كطبع العقرب على اللدغ ، والذئب على السلب، وأمرنا بمعاداة إبليس لأن الإبن يعادي عدو أبيه ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ ﴾ أي : تمتع وانتفاع ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ هو حين انقضاء آجالهم ، فاغتم آدم وظن أنه لا يرجع إلى الجنة ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ ﴾ أي : في الأرض تعيشون ﴿ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ﴾ وتقبرون ﴿ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ للجزاء ، فعلم آدم من مضمون هذا الخطاب أنه يعود إلى الجنة ، فصار متسلياً بفضل الله تعالى ووعده .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ خطاب للناس كافة ، ـ روي ـ أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون : لا نطوف في ثياب عَصَيْنا الله فيها ، فنزلت إلى آخر الآيات الثلاث ﴿ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً ﴾ أي : خلقنا لكم بإنزال سببه من السماء ، وهو ماء المطر ، فما تنبته الأرض من القطن والكتان من ماء السماء ، وما يكون من الكسوة أصواف الأنعام أيضاً من ماء السماء ﴿ يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ﴾ أي : يستر عوراتكم فكشف العورة مع وجود ما يسترها من اللباس في غاية القباحة ، ولا شك أن الشيطان أغوى من فعل ذلك ، كما أغوى آدم وحواء فبدت لهما سوآتهما ، ونستعيذ بالله من شره ﴿ وَرِيشاً ﴾ ولباساً ذا ريش وزينة يتجملون به ، عبر عن الزينة بالريش تشبيهاً لها بريش الطائر ، لأن الريش زينة

(١) الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي بألفاظ متقاربة ا هـ جامع الأصول ١٠ / ٦٧٨ .

الطائر ، كما أن اللباس زينة لبني آدم ، كأنه قيل أنزلنا عليكم لباسين : لباساً يواري سوآتكم ، ولباساً يزينكم ، فإنَّ الزينة غرض صحيح قال تعالى (لِتَرْكَبُوهَا وِزِينَةً) ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ﴾ أي : خشية الله تعالى ﴿ ذٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ شبهت التقوى باللبوس ، من حيث إنها تستر صاحبها وتحفظه مما يضره ، كما يحفظ الملبوس ، كأنه قال لباس التقوى خير من الثياب ، لأن الفاجر وإن كان حسن الثياب فهو بادي العورة ، قال الشاعر :

إني كأني أرى من لا حياء لـــه * ولا أمانة وسط القوم عُرْيانـاً

﴿ ذٰلِكَ ﴾ أي : إنزال اللباس ﴿ مِنْ آيَاتِ اللهِ ﴾ على فضله ورحمته ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيعرفون نعمته حيث أغناهم باللباس عن خصف الورق ، أو يتعظون فيتورعون عن القبائح نحو كشف العورة ، وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالتستر في الخلوة ، وأن لا يجامع الرجل امرأته عريانين ، وينوي بلبس الثياب ستر العورة ، والتزين بها تودداً إلى أهل الإسلام ، لا لحظ النفس ، فإنَّ اللبس بتلك النية يصفي وينور العقل عن الكدورات ، بحيث لا يشوبه شيء من أهوية النفس وحظوظها ويؤجر عليه بتلك النية ، ﴿ يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أي : لا يوقعنكم في الفتنة والمحنة بأن يمنعكم من دخول الجنة بإغوائكم ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ ﴾ أي : لا يفتننكم فتنة مثل فتنة إخراج أبويكم آدم وحواء من الجنة ، فإنه إذا قدر على إزلالهما ، فَلأنْ يقدر على إزلال أولاده أولى ، فوجب عليكم أن تحترزوا عن قبول وسوسته ﴿ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾ عن ابن عباس أن لباسهما كان من الظفر ، أي : كان يشبه الظفر فإنه كان مخلوقاً عليهما خلقة الظفر ﴿ لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ﴾ أي : ليظهر لهما عوراتهما وكانا قبل ذلك لا يريانها من أنفسهما ، كما روي أن آدم كان رجلاً طوالاً ، وكأنه نخلة سحوق ، كثير شعر الرأس ، فلما وقع بالخطيئة بدت سوأته فانطلق هارباً في الجنة ، فناداه ربه يا آدم أمنّي تفرّ ؟ قال : لا ولكني استحييتُ ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي : الشيطان ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ أي : جنوده وذريته ﴿ مِنْ حَيثُ لا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ورؤيتهم إيانا في بعض أحوالهم ، لا يقتضي إمتناع رؤيتنا إياهم ، بأن يتمثلوا لنا كما تواتر من أن بعض الناس رأى الجن جهاراً علناً ، فلو كشَّف الله أجسامهم ، وقوَّى شعاع أبصارنا لرأيناهم ، ولم يمتنع دخولهم في أبداننا كما يدخل النَّفَسُ المتردد وهو الروح في أبداننا من التخرق والتخلخل ، وفي الحديث : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »[1] ، ثم قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ ﴾ تعليل للنهي ببيان أنه عدو صعب الاحتراز عن ضرره ، فإن العدو الذي يراك ولا تراه شديد المؤونة لا يتخلص منه إلا من عصمه الله ، فلابد أن يكون العاقل على حذر عظيم من ضرره ، فإن قيل :

(١) الحديث أخرجه البخاري وأبو داود وابن ماجه وأحمد .

كيف نحاربهم ونحترز عنهم ونحن لا نراهم ؟ قلنا : لم نؤمر بمحاربة أعيانهم ، وإنما أمرنا بدفع وسوستهم وعدم قبول ما ألقاه في قلوبنا بالاستعاذة منه إلى الله تعالى ، ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ بما أوجدنا بينهم من الخذلان والغواية ، فصار بعضهم قرين بعض وأغواه ، ـ يحكى ـ أن الخبيث إبليس تبدَّى ليحيي بن زكريا عليهما السلام ، فقال : إني أريد أن أنصحك ، قال : كذبت أنت لا تنصحني ولكن أخبرني عن بني آدم ، قال : هم عندنا على ثلاثة أصناف : أما الصنف الأول : منها فأشد الأصناف علينا ، نفتنه ونتمكن منه ثم يفزع إلى الاستغفار والتوبة ، فيفسد علينا كل شيء أدركنا منه ، ثم نعود له فيعود ، فلا نحن نيأس منه ولا نحن ندرك منه حاجتنا ، فنحن من ذلك في عناء ، وأما الصنف الثاني : فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم ، نتلقفهم كيف شئنا قد كفونا أنفسهم ، وأما الصنف الآخر : فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء ، قال يحيي بعد ذلك : هل قدرت مني على شيء ؟ قال : لا إلا مرة واحدة ، فإنك قدمت طعاماً تأكله فلم أزل أشهيه إليك حتى أكلت منه أكثر مما تريد ، فنمت تلك الليلة فلم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها ، فقال له يحيي : لا جرم أني لا أشبع من طعام أبداً ، قال له الخبيث : وأنا لا أنصح آدمياً بعدك . ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا** ﴾ أي كفار قريش ﴿ **فَاحِشَةً** ﴾ أي : فعلة متناهية في القبح ، كعبادة الصنم ، وكشف العورة في الطواف ونحوهما ﴿ **قَالُوا** ﴾ محتجين على حسنها بأمرين : الأول : تقليد الآباء وهو قولهم ﴿ **وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا** ﴾ والثاني : الافتراء على الله وهو قولهم ﴿ **وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا** ﴾ فأعرض الله تعالى عن رد احتجاجهم الأول لظهور فساده ، فإن التقليد لا يعتبر دليلاً على صحة الفعل الذي قام الدليل على بطلانه وردَّ الثاني بقوله ﴿ **قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ** ﴾ لأنَّ عادته تعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال ، والحث على مكارم الخصال ﴿ **أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ أنه أمركم بذلك ، وذلك لأن طريق العلم إما السماع وإما المعرفة بواسطة الأنبياء ، وهم ينكرون نبوة الأنبياء فلا طريق لهم إلى العلم بأحكام الله تعالى .

﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ** ﴾ القسط : العدل ، وهو الوسط من كل شيء ، المتجاوز عن طرفي الإفراط والتفريط وفي الخبر (خير الأمور أوساطها) :

تـوسَّـطْ إذا مـا شئت أمراً فـإنـه * كـلا طرفيْ قصـــدِ الأمـــور ذميم

﴿ **وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ** ﴾ أي : وقل لهم توجهوا إلى عبادته مستقيمين غير عادلين إلى غيرها ، وأقيموا وجوهكم نحو القبلة ﴿ **عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ أي : في كل مكان سجود ، والمراد بالسجود الصلاة ، بطريق ذكر الجزء وإرادة الكل ، وهذه الآية تدل على وجوب فعل الصلاة المكتوبة في الجماعة ، قال العلماء : كل ما شرعت فيه الجماعة كالفرائض والتراويح ، فالمسجد فيه أفضل من ثواب المصلين في البيت بالجماعة ، لأن

فيه إظهار شعائر الإسلام ، كما أن ثواب المصلين في البيت وحداناً ، دون ثواب المصلين في البيت بالجماعة ﴿ **وَادْعُوهُ** ﴾ أي : واعبدوه فهو من إطلاق الخاص على العام ، فإن الدعاء من أبواب العبادة وهو الخضوع للباري مع إظهار الافتقار والاستكانة وهو المقصود من العبادة والعمدة فيها ﴿ **مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ أي : الطاعة فإن مصيركم إليه في الآخرة .

﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ** ﴾ أي : أنشأكم ابتداء ﴿ **تَعُودُونَ** ﴾ إليه بإعادته فيجازيكم على أعمالكم وإنما شبه الإعادة بالإبداء تقريراً لإمكانها ، فإن من قدر على الإنشاء ، قدر على الإعادة ، إذ ليس بعثكم أشد من ابتداء خلقكم ﴿ **فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ** ﴾ بمقتضى القضاء السابق ، التابع للمشيئة أي : وأضل فريقاً ﴿ **إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي : حقت عليهم الضلالة لاتخاذهم الشياطين أولياء ، وقبولهم ما دعوا إليه بدون التمييز بين الحق والباطل ، وكل واحد من الهدى والضلال ، وإن كان يحصل بخلق الله تعالى ابتداء ، إلا أنه يخلق ذلك حسبما اكتسبه العبد ، وسعى في حصوله فيه ﴿ **وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ** ﴾ أي : يظنون أنهم على الهدى ، وفيه دلالة على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفي في صحة الدين ، بل لابد فيه من الجزم واليقين ، لأنه تعالى ذم الكفار بأنهم يحسبون أنهم مهتدون ، ولو كفى مجرد الحسبان فيه لما ذمَّهم بذلك ، ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ** ﴾ الزينة وإن كانت اسماً لما يتزين به من الثياب الفاخرة ، إلا أن المفسرين أجمعوا على أن المراد بالزينة ههنا الثياب التي تستر العورة ، استدلالاً بسبب نزول الآية وهو أن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وقالوا : لا نطوف في ثياب أصبنا فيها من الذنوب ودنسناها بها ، فكان الرجال يطوفون بالنهار ، والنساء بالليل عراة ، فأمرهم الله تعالى ، أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعروا عند كل مسجد ، سواء دخلوه للصلاة أو للطواف ، وكانوا إذا قدموا منى طرح أحدهم ثيابه في رحله ، فإن طاف وهي عليه ضُرِب وانتزعت منه ، وكانت المرأة تطوف بالليل عريانة ، إلا أنها كانت تتخذ سيوراً مقطعة تشدها في حقويْها ، فكانت السيور لا تسترها ستراً تاماً ، وهذه الآية أصل في وجوب ستر العورة في الصلاة ، والمعنى خذوا ثيابكم لمواراة عورتكم عند كل مسجد لطواف أو صلاة ، واللبس من أحسن الثياب مستحب حالة الصلاة ، لأن المراد من الزينة الثوب ، فأخذ الثوب واجب ، ولباس التجمل مسنون ، وكان أبو حنيفة رحمه الله اتخذ لباساً لصلاة الليل ، وهو قميص وعمامة ورداء وسراويل ، قيمة ذلك ألف وخمسمائة درهم ، يلبسه كل ليلة ويقول : التزينُ لله تعالى أولى من التزين للناس .

﴿ **وَكُلُوا وَاشْرَبُوا** ﴾ ما طاب لكم من الأطعمة والأشربة ، ـ روي ـ أن بني عامر في أيام حجهم كانوا لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً ، يعظمون بذلك حجهم ، فهمَّ المسلمون به فنزلت

﴿ وَلا تُسْرِفُوا ﴾ بالتعدي إلى الحرام ، أو بإفراط الطعام والشره عليه ، بأن يتناول ما لا يحتاج إليه البدن في قوامه ، فإن ذلك من قبيل الإسراف ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ لا يرتضي فعلهم ولا يثني عليهم ، ومن الإسراف أن يأكل الرجل كل ما يشتهيه .

يروى أن هارون الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق ، فقال لعلي بن حسين : ليس في كتابكم من علم الطب شيء ، والعلم علمان : علم الأديان ، وعلم الأبدان ، فقال له : إن الله تعالى قد جمع الطب كله في نصف آية من كتابنا ، قال : وما هي ؟ قال قوله تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا ﴾ فقال النصراني وهل يؤثر عن رسولكم شيء من الطب ؟ قال : نعم جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة . قال : وما هي ؟ قال قوله ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شر من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »[1] الحديث ، فقال النصراني : ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً ، وعن ابن عباس : كلْ ما شئت ، والبس ما شئت ، ما أخطأتك خصلتان : سرفٌ ومخيلة ، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ ﴾ من الثياب وسائر ما يُتَجَمَّلُ به ﴿ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ من النبات كالقطن والكتان ، ومن الحيوان كالحرير والصوف ، ومن المعادن كالدروع ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ أي : من حرم أيضاً المستلذات من المآكل والمشارب كاللحوم والدسوم والألبان ؟ اعلم أن الرجل إذا أدى الفرائض وأحبَّ أن يتنعم بمنظر حسن وملابس جميلة فلا بأس ، فمن قنع بأدنى المعيشة ، وصرف الباقي إلى ما ينفعه في الآخرة فهو أولى ، لأن ما عند الله خير وأبقى ، ﴿ قُلْ هِيَ ﴾ أي : الزينة والطيبات ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : مستقرة لهم ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ متعلق بآمنوا والمقصود الأصلي من خلق الطيبات تقوية المكلفين على طاعة الله تعالى ، لا تقويتهم على الكفر والعصيان ، فهي مختصة بالأصالة للمؤمنين ، والكفار تبع لهم في ذلك ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ لا يشاركهم فيها غيرهم ، وإن اشترك فيها المؤمنون والكفار في الدنيا ، ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : كتفصيلنا هذا الحكم ، نفصّل سائر الأحكام ، لقوم يعلمون ما في تضاعيفها من المعاني الرائقة ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ﴾ أي : ما تفاحش قبحه من الذنوب وتزايد وهي الكبائر ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ أي : جهرها وسرها كالكفر والنفاق وغيرهما ﴿ وَالإِثْمَ ﴾ أي : ما يوجب الإثم وهو يعم الصغائر والكبائر ﴿ وَالْبَغْيَ ﴾ أي : الظلم أو الكبر ، أفرده بالذكر مع دخوله في الإثم للمبالغة في الزجر عنه ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ متعلق بالبغي مؤكد له ، لأن البغي لا يكون بالحق ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ ﴾ أي : وحرم عليكم إشراككم به تعالى ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ﴾ أي : بإشراكه وعبادته ﴿ سُلْطَانًا ﴾ أي : حجة وبرهاناً ، وهو تهكُّمٌ بالمشركين لأنه لا

(١) الحديث أخرجه الترمذي وأحمد .

برهان عليه حتى ينزل ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ بالإلحاد في صفاته والافتراء عليه كقولهم : ﴿ واللهُ أَمَرَنا بِهَا ﴾ ، ثم هدد المشركين المكذبين للرسل بقوله ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم المهلكة ﴿ أَجَلٌ ﴾ حد معين من الزمان مضروب لمهلكهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ أي : إذا جاء الوقت المعين لنزول عذاب الاستئصال عليها ﴿ لا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عن ذلك الأجل ﴿ سَاعَةً ﴾ أي : شيئاً قليلاً من الزمان ﴿ وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أي : لا يتقدمون .

روي أن بعض الملوك كان متنسكاً ، ثم رجع ومال إلى الدنيا ورياسة الملك ، وبنى داراً وشيَّدها ، وأمر بها ففرشت ونجدت واتخذ مائدة ووضع طعاماً ، ودعا الناس فجعلوا يدخلون عليه ويأكلون ويشربون ، وينظرون إلى بنائه ويتعجبون ، ويدعون له وينصرفون ، فمكث بذلك أياماً ثم جلس هو ونفر من خاصة أصحابه ، فقال : ترون سروري بداري هذه ، وقد حدثت نفسي أن أتخذ لكل واحد من أولادي مثلها ، فأقيموا عندي أياماً استأنس بحديثكم وأشاوركم ، فأقاموا عنده أياماً يلهون ويلعبون ، ويشاورهم كيف يبني وكيف يصنع ذلك ، فبينما هم ذات ليلة في لهوهم إذ سمعوا قائلاً من أقصى الدار يقول:

يا أيها البانيَ الناسي لميتتهِ * لا تأمننَّ فإن الموت مكتوب
هذى الخلائق إن سروا وان فرحوا * فالموت حتف لَدَى الآمال منصوب
لا تبنين ديـاراً لست تسكنهـا * وراجع النسك كيما يُغْفر الحوبُ

ففزع لذلك فزعاً شديداً فقال : هل سمعتم ما سمعتُ ؟ قالوا : نعم ، قال : فهل تجدون ما أجده قالوا : وما تجد ؟ قال : مسكة على فؤادي ، وما أراها إلا علة الموت ، فقالوا : كلا بل البقاء والعافية ، فبكى ثم أمر بالشراب فأهريق ، وبالملاهي فكسرت ، وتاب إلى الله سبحانه ، ولم يزل يقول : الموت الموت حتى خرجت نفسه رحمه الله .

﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ خطاب لكافة الناس ﴿ إِمَّا ﴾ أصله إن ما ضُمَّتْ كلمة ﴿ ما ﴾ إلى ﴿ إن ﴾ الشرطية تأكيداً لما فيها من معنى الشرط ﴿ يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ أي : من جنسكم ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ أي : يبينون لكم أحكامي وشرائعي ، ﴿ فَمَنْ ﴾ شرطية ﴿ اتَّقَىٰ ﴾ منكم التكذيب ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ عمله وأطاع رسوله ﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : لا يخافون ما يلحق العصاة في المستقبل ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما فاتهم في الدنيا ، لاستغراقهم في الاستلذاذ بما أعد للمتقين ، في دار الكرامة والرضوان ﴿ والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ أي : جحدوا بآياتنا وتكبروا عن الإيمان بها ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي : فهم في جهنم مخلَّدون فيها أبداً لا يخرجون منها ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي : فمن أعظم ظلماً أي : لا أحد ﴿ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾

أي : ممن تقوَّل عليه ما لم يقل ، ويدخل فيه إثباتُ الشريك ، والصاحبة ، والولد ﴿ **أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ** ﴾ أي : كَذَّب ما قاله ، وقد جعل الله الكذب عليه ، والتكذيب بآياته ، مساوياً في الإثم حيث قال ﴿ **أُولَئِكَ** ﴾ الموصوفون بما ذكر من الافتراء والتكذيب ﴿ **يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ** ﴾ أي : ينالهم حظُّهم ﴿ **مِنَ الكِتَابِ** ﴾ أي : مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار ﴿ **حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا** ﴾ أي : ملك الموت وأعوانه ﴿ **يَتَوَفَّوْنَهُمْ** ﴾ أي : حال كونهم متوفين لأرواحهم ، قابضين لها ، والمعنى : ينالهم نصيبهم من الكتاب إلى أن تأتيهم ملائكة الموت فإذا جاءتهم ﴿ **قَالُوا** ﴾ توبيخاً لهم ﴿ **أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ** ﴾ أي : أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدنيا ؟ ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي : الكفار ﴿ **ضَلُّوا عَنَّا** ﴾ أي : غابوا عنَّا ولا ندري مكانهم ﴿ **وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ** ﴾ أي : اعترفوا على أنفسهم ﴿ **أَنَّهُمْ كَانُوا** ﴾ أي : في الدنيا ﴿ **كَافِرِينَ** ﴾ أي : عابدين لمن لا يستحق العبادة أصلاً ، حيث شاهدوا مآله وضلاله ، ﴿ **قَالَ** ﴾ الله تعالى يوم القيامة ﴿ **ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ** ﴾ في جملة أمم مصاحبين لهم ﴿ **قَدْ خَلَتْ** ﴾ أي : مضت ﴿ **مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ** ﴾ يعني كفار الأمم الماضية من النوعين ﴿ **فِي النَّارِ** ﴾ متعلق بقوله ادخلوا وإنما قدم الجن على الإنس لتقدمهم عليهم في الخلقة وذلك أن الله تعالى لما خلق الجن فمنهم مؤمن ومنهم كافر فلما استولى أهل الكفر منهم على أهل الإيمان حتى استأصلوهم بعث الله إليهم جنداً من الملائكة ، وكان معهم إبليس فسلطهم الله عليهم حتى أهلكوا جميعهم ثم خلق الله آدم بعدهم فخلق منه ذريته ، فمنهم كافر كقابيل ومنهم مؤمن كهابيل إذ كان في كل زمان منهم أمة كافرة مستحقة لدخول النار وأمة مؤمنة مستحقة لدخول الجنة حتى الآن إلى انقراض العالم كما قال عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول الله الله »[1] ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ** ﴾ من الأمم السابقة واللاحقة أي : في النار ﴿ **لَعَنَتْ أُخْتَهَا** ﴾ التي ضلت بالاقتداء بها ، فيلعن المشركون المشركين ، واليهود اليهود ، والنصارى النصارى ، والمجوس المجوس ، ويلعن الأتباع القادة ، يقولون : لعنكم الله أنتم غررتمونا ، فالمراد الأخت في الدين والملة ، ولم يقل أخاها لأنه أراد الأمة والجماعة ، ﴿ **حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوْا فِيهَا جَمِيعاً** ﴾ والمعنى : أنهم يدخلونها فوجاً فوجاً ، لاعناً بعضهم بعضاً إلى انتهاء تداركهم وتلاحقهم في النار واجتماعهم فيها ، وأصل ﴿ **ادَّارَكُوا** ﴾ تداركوا أدغمت التاء في الدال فاجتلبت همزة الوصل ﴿ **قَالَتْ أُخْرَاهُمْ** ﴾ أي : دخولاً وهم الأتباع ﴿ **لأُولاهُمْ** ﴾ أي : لأجل أولاهم إذ الخطاب مع الله تعالى ﴿ **رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا** ﴾ أي : سنوا لنا الضلال عن الهدى ، بإلقاء الشبهة علينا فاقتدينا بهم ﴿ **فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً** ﴾ أي : مضاعفاً ﴿ **مِنَ النَّارِ** ﴾ لأنهم ضلوا

---

(١) رواية مسلم (لا تقوم الساعة على أحدٍ يقول : اللهُ ، اللهُ) ورواه الترمذي بلفظ لا يُقال في الأرض الله الله) .

وأضلوا ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ لِكُلٍّ ﴾ من الأولين والآخرين ﴿ ضِعْفٌ ﴾ أما القادة فبكفرهم وتضليلهم ، وأما الأتباع فبكفرهم وتقليدهم ، ﴿ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ ما لكم وما لكل فريق من العذاب ﴿ وَقَالَتْ أُولاهُمْ ﴾ أي : مخاطبين ﴿ لأُخْرَاهُمْ ﴾ حين سمعوا جواب الله لهم ﴿ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ فكيف تطمعون أن يكون عذابكم أهون من عذابنا ، ويكون عذابنا ضعف عذابكم ؟ ونحن ما ألجأناكم على الكفر ، بل كفرتم لكون الكفر موافقاً لهواكم ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ المعهود المضاعف ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ بسبب كفركم وضلالكم ، واعلم أن الكفار أهل الإنكار ، أعرضوا عن إرشاد الأخيار ، ثم آل أمرهم إلى الاعتراف بجرائمهم وضلالهم حين لا ينفع الإقرار .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ وهي الحجج الدالة على التوحيد ، ونبوة الأنبياء ، والبعث والجزاء ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ أي : تعظَّموا وترفَّعوا عن الإيمان بها والعمل بمقتضاها وهم الكفار ﴿ لا تُفَتَّحُ ﴾ التشديد لكثرة الأبواب ﴿ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ أي : لا تقبل أدعيتهم ولا أعمالهم ، أو لا تعرج إليها أرواحهم ، وفي الأثر : « إن روح المؤمن يعرج بها إلى السماء فَيُسْتَفْتَح لها فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة ، التي كانت في الجسد الطيب ، إلى أن تنتهي إلى السماء السابعة ، ويُسْتَفْتَح لروح الكافر فيقال لها ارجعي ذميمة فيهوى بها إلى سجين » وهو مقر إبليس الأبالسة تحت الأرض السابعة ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ أي : حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة ، وذلك مما لا يكون ، والعرب إذا أرادت تأكيد النفي ، علقته بما يستحيل كونه ، كما قال الشاعر :

إذا شـــــاب الغراب أتيت أهلي * وصـــــار القـــــار كاللبن الحليب

والجملُ : زوج الناقة ، والخياطُ : ما يخاط به ، وقُرىء ﴿ الجُمَّلُ ﴾ بضم الجيم وتشديد الميم وهو الحبل الغليظ من القنب ، أو حبل السفينة ، وهي حبال مجموعة مفتولة ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : جنس المجرمين ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ فراش من النار يضطجعون ويقعدون فيه ﴿ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ أي : أغطية جمع غاشية وهو ما يغشى الشيء ويستره ، ومعنى الآية الإخبار عن إحاطة النار بهم من كل جانب ، حيث كانت غطاء لهم ووطاء ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك الجزاء الشديد ﴿ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ ولما كان التعذيب المؤبد بنار جهنم ، أشد العقوبات ، دل ذكر الظلم معه على أنه أعظم الإجرام ، واعلم أن فوت النعيم أيسر من مقاساة الجحيم ، والمصيبة العظمى هي الخلود ، ذكر عن إبراهيم ابن أدهم أنه لما أراد أن يدخل البادية ، أتاه الشيطان فخوفه أن هذه بادية مهلكة ، ولا زاد معك ولا مركب فعزم على نفسه رحمه الله أن يقطع البادية ، حتى إن الرشيد حج في بعض تلك السنين ، فرآه يصلي ، فقيل له : هذا إبراهيم بن أدهم ، فأتاه

فقال : كيف تجدك يا أبا اسحق ؟ فأنشد يقول :

نرقِّع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقِّع
فطوبى لعبدٍ آثر الله ربَّهُ * وجاد بدنياه لما يتوقع

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : الأعمال الصالحات التي أريد بها وجه الله تعالى ﴿ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا ﴾ أي : طاقتها وقدرتها ـ وهو اعتراض بين المبتدأ والخبر ـ للدلالة على أن استحقاق الخلود في النعيم المقيم بسبب اتصافهم بالإيمان والعمل الصالح وإن لم يبذلوا مجهودهم فيه ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ حال من أصحاب الجنة ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ النزع قلع الشيء عن مكانه ﴿ مَا فِي صُدُورِهِمْ ﴾ قلوبهم ﴿ مِنْ غِلٍّ ﴾ وهو الحقد الكامن ، أي : نخرج من قلوبهم أسباب الحقد الذي كان في الدنيا فإن ذلك الحقد إنما نشأ من التعلق بالدنيا وما فيها ، وبانقطاع تلك العلاقة انتهى ما يتفرع عليه من الحق ، ومن جملة أسبابه أيضاً أن الشيطان كان يلقي الوساوس إلى قلوب بني آدم في الدنيا ، وقد انقطع ذلك في الآخرة ، فليس بينهم إلا التواد ، ولا يحسد أهل الجنة بعضهُم بعضاً إذا رآه أرفع درجة منه ، ولا يغتم بسبب حرمانه من الدرجات الرفيعة العالية .

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ﴾ أي : من تحت شجرهم وغرفهم ﴿ الأَنْهَارُ ﴾ زيادة في لذتهم وسرورهم ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي : أهل الجنة إذا رأوا منازلهم ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا ﴾ بفضله ﴿ لِهَذَا ﴾ أي : لدين وعمل جزاؤه هذا ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ ﴾ أي : لهذا المطلب الأعلى ﴿ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ ﴾ ووفقنا له.

روي عن السدي أنه قال : إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان ، فشربوا من إحداهما فينزع ما في صدورهم من غل وهو الشراب الطهور ، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعده أبداً ، وتبشرهم خزنة الجنة قبل أن يدخلوها بأن يقولوا لهم (أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فإذا دخلوها واستقروا في منازلهم منها قالوا الحمد لله الآية ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا ﴾ جواب قسم مقدر أي والله لقد جاؤا ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبسين بالحق ، يقوله أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عياناً ، شهادةً منهم بتبليغ الرسل للحق إليهم أي : جاؤا بالصدق فصدقناهم ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ ﴾ يعني : أن الملائكة ينادونهم حين رأى المؤمنون الجنة من بعيد بأن يقولوا لهم إن تلك التي رأيتموها هي الجنة التي وعدتم بها في الدنيا ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ أي : أعطيتموها ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة أي : بسبب أعمالكم ، فإن قيل هذه الآية تدل على أن العبد يدخل الجنة بعمله ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لن يدخل الجنة أحدكم بعمله » فما وجه التوفيق بينهما ؟ أجيب بأن العمل لا يوجب دخول الجنة

لذاته ، وإنما يوجبه من حيث إنه تعالى وعد للعاملين أن يتفضل بها بمحض رحمته وكمال فضله وإحسانه ، ولما كان الوعد بالتفضل في حق العاملين بمقابلة عملهم ، كان العمل بمنزلة السبب المؤدي إليها فلذلك قيل أورثتموها بأعمالكم ، والتفاضل على مراتب : فمنها بالسن في الطاعة والإسلام ، فيفضل الكبير السن على الصغير السن ، إذا كانا على مرتبة واحدة من العمل ، ومنها بالزمان : فإن العمل في رمضان وفي يوم الجمعة ، وفي ليلة القدر ، وفي عشر ذي الحجة وفي عاشوراء أعظم من سائر الزمان ، ومنها بالمكان : فالصلاة في المسجد الحرام أفضل منها في مسجد المدينة ، وهي من الصلاة في المسجد الأقصى ، وهي منها في سائر المساجد ، ومنها بالأحوال : فإن الصلاة بالجماعة أفضل من صلاة الشخص وحده ، ومنها بنفس الأعمال : فإن الصلاة أفضل من إماطة الأذى ومنها في العمل الواحد : فالمتصدق على رحمه صاحب صلة رحم وصدقة ، وكذا من أهدى هدية لشريف من أهل البيت ، أفضل ممن أهدى لغيره أو أحسن إليه ، ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ** ﴾ سروراً بحالهم ، وشماتة بأصحاب النار ، ﴿ **أَنْ** ﴾ تفسيرية للمنادى له ﴿ **قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا** ﴾ من الثواب والكرامة ﴿ **حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ** ﴾ من العذاب ، والوعد يستعمل في الخير والشر ﴿ **حَقّاً** ﴾ حذف المفعول من الفعل الثاني حيث لم يقل ما وعدكم إسقاطاً لهم عن رتبة التشريف بالخطاب ﴿ **قَالُوا نَعَمْ** ﴾ أي : وجدناه حقاً فاعترفوا في وقت لا ينفعهم الاعتراف .

﴿ **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ** ﴾ وهو مَلَكٌ ينادي من قبل الله تعالى نداء يسمعه كل واحد من أهل الجنة وأهل النار ﴿ **بَيْنَهُمْ** ﴾ أي : بين الفريقين في وسطهم ﴿ **أَنْ لَعْنَةُ اللهِ** ﴾ استقرت ﴿ **عَلَىٰ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي : على الكافرين ، لأن الظلم إذا ذكر مطلقاً يصرف إلى الكمال ، وكمال الظلم هو الشرك ﴿ **الَّذِينَ يَصُدُّونَ** ﴾ يعرضون فهو لازم ﴿ **عَنْ سَبِيلِ اللهِ** ﴾ أي : عن الدين الذي هو طريق الله إلى جنته ، والسبيلُ : الطريق وما وضح منه ﴿ **وَيَبْغُونَهَا عِوَجَاً** ﴾ أي : يبغون لها عوجاً ، بأن يصفوها بالزيغ والميل عن الحق ، وهي أبعد شيء منها ﴿ **وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ** ﴾ جاحدون بالبعث بعد الموت ، والظالم وصف في الآية بثلاث صفات مختصة بالكفار : الأولى : كونهم صادين معرضين عن سبيل الله ، والثانية : كونهم طالبين إمالة سبيل الله ودينه الحق وتغييره إلى الباطل بإلقاء الشكوك والشبهات في دلائل حقيته ، والثالثة : كونهم منكرين للآخرة وكل واحدة من هذه الصفات الثلاث مقررة لظلمهم بمعنى الكفر .

﴿ **وَبَيْنَهُمَا** ﴾ أي : بين الفريقين ﴿ **حِجَابٌ** ﴾ سورٌ كسور المدينة حتى لا يقدر أهل النار أن يخرجوا إلى الجنة ، ولا يتنعم أهل النار بنعيم الجنة لأن الحجاب يمنع وصول أحدهما إلى الآخر ، لأنه قد

جاء أن الحور العين لو نظرت واحدة منهن إلى الدنيا نظرة لامتلأت الدنيا من ضوئها وعطرها ، وجاء في وصف النار أن شرارة منها لو وقعت في الدنيا لأحرقتها ، ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ ﴾ أي : أعراف ذلك الحجاب أي : أعاليه جمع عرف ، وهو كل عال مرتفع ومنه عرف الديك ، ﴿ رِجَالٌ ﴾ طائفة من المؤمنين ، تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فهم ينظرون إلى النار وينظرون إلى الجنة ، وما لهم رجحان بما يدخلهم أحدى الدارين ، ﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ ﴾ أي : كل فريق من أصحاب الجنة وأصحاب النار ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي : بسبب علاماتهم كبياض الوجه وسواده ، وهذا قبل دخول الجنة والنار ، وأما النداء والصرف والإتيان فبعد الدخول ﴿ وَنَادَوْا ﴾ أي : الرجال ﴿ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ ﴾ تفسيرية أو مخففة ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : إذا نظروا إليهم سلموا عليهم ، سلام التحية والإكرام ، وبشروهم بالسلامة من جميع المكاره والآفات ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا ﴾ أي : نادَوْهم حال كونهم لم يدخلوها ﴿ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ أي : والحال أنهم طامعون في دخولها ، وسبب طمعهم أنهم من أهل لا إله إلا الله ، ويعلمون أن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة ، فيطمعون في كرم الله وعدله ، وهم آخر من يدخل الجنة وإذا أراد الله أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة فألقوا فيه ، حتى تصلح ألوانهم ، ثم يؤتى بهم فيدخلون الجنة ، كما ورد في الحديث .

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أي : إلى جهنم ، روي أن الملك يصرف أبصارهم إليهم بأمر الله تعالى ﴿ قَالُوا ﴾ متعوذين بالله تعالى من سوء حالهم ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : في النار ، يدعون بذلك خوفاً من الله تعالى لأجل معاصيهم .

روي عن بعض الصالحين أنه قال : أخذتني ذاتَ ليلةٍ سِنَةٌ من النوم ، فنمت فرأيت في منامي كأن القيامة قد قامت ، وكأن الناس يحاسبون فقومٌ يُمْضى بهم إلى الجنة ، وقوم يُمْضى بهم إلى النار قال فأتيت إلى الجنة فناديت يا أهل الجنة : بماذا نلتم سكنى الجنان في محل الرضوان ؟ فقالوا : بطاعة الرحمن ومخالفة الشيطان ، ثم أتيت إلى باب النار فناديت يا أهل النار بماذا نلتم النار ؟ قالوا : بطاعة الشيطان ومخالفة الرحمن ، قال : فنظرت فإذا بقوم موقوفون بين الجنة والنار فقلت : ما بالكم موقوفون بين الجنة والنار ؟ فقالوا : لنا ذنوب وحسنات قلَّتْ ، فالسيئات منعتنا من دخول الجنة ، والحسنات منعتنا من دخول النار وأنشدوا :

نحن قوم لنا ذنوب كبار * منعتنا من الوصول إليه
تركتنا مذبذبين حيارى * أمسكتنا عن القدوم عليه

قال : فاستيقظتُ فقلتُ : أتوب وأستغفر وأتدارك تقصيري .

واعلم أن بين أهل النار وأهل الجنة حجاباً وهو من أوصاف البشرية والأخلاق الذميمة النفسانية فلا يرى أهل النار أهل الجنة من وراء ذلك الحجاب ، وبين أهل الجنة وأهل الله وهم أصحاب الأعراف حجاباً وهو من الأوصاف الخلقية والأخلاق الحميدة الروحانية فلا يرى أهل الجنة أهل الله من وراء ذلك الحجاب كما قال الله تعالى (**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَىٰ الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ**) يعني : أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة والنار بما يتوسمون في سيماهم من آثار نور القلب وظلمته وسميت الأعراف أعرافاً لأنها مواطن أهل المعرفة وإنما سمى الله أهل المعرفة رجالاً لأنهم بالرجولية يتصرفون فيما سوى الله تصرف الرجال في النساء ولا يتصرف فيهم شيء منه كقوله (**رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ**) وحيث ما ذكر الله الخواص ذكرهم برجال كقوله (**رِجَالٌ صَدَقُوا**) وكقوله (**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا**) لأن وجه الامتياز بين الخواص والعوام بالرجولية في طلب الحق وعلو الهمة فإن أصحاب الأعراف بعلو همهم ترقوا عن حضيض البشرية ودركات النيران وصعدوا على ذروة الروحانية ودرجات الجنان .

ثم حكى تعالى ما يجري بين أصحاب الأعراف وبعض أهل النار من الحوار فقال سبحانه : ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ** ﴾ وهم الذين علت درجاتهم ، من الأنبياء وأشراف أهل الموقف[1] ، وهو الأنسب بما بعد الآية إذ قولهم : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ لا يليق بالمقصرين في العمل ﴿ **رِجَالاً** ﴾ من رؤساء الكفار حين رأوهم فيما بين أصحاب النار وهم « أبو جهل بن هشام » « والوليد بن المغيرة » « والعاص بن وائل » وأضرابهم ﴿ **يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ** ﴾ أي : علاماتهم الدالة على سوء حالهم ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي : أصحاب الأعراف وهم على السور مخاطبين لرؤساء الكفار توبيخاً وشماتة ﴿ **مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ** ﴾ ما استفهامية للتقريع ﴿ **جَمْعُكُمْ** ﴾ أي : أتباعكم وأشياعكم أو جمعكم للمال ﴿ **وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ ما مصدرية أي : واستكباركم المستمر على الخلق ﴿ **أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ** ﴾ هو من تمام قول أصحاب الأعراف ، للرجال الذين هم رؤساء الكفر ، والإشارة إلى ضعفاء المؤمنين الذين كانت الكفرة يحتقرونهم في الدنيا ، ويحلفون صريحاً أنهم لا يدخلون الجنة ، ﴿ **أُدْخُلُوا الْجَنَّةَ** ﴾ أي : فالتفت أصحاب الأعراف إلى فقراء المسلمين وقالوا لهم ادخلوا الجنة على رغم أنوف رؤساء الكفار ﴿ **لا خَوْفٌ**

---

(١) هذا القول خلاف الظاهر ، فإن قوله تعالى في أصحاب الأعراف ﴿ **لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾ لا يدلُّ على أنهم أصحاب الدرجات الرفيعة بل هم أناس محسنون ولكنهم مقصّرون ، فقد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فكانوا من أصحاب الأعراف .

﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ حين يخاف أهل النار ﴿ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ حين يحزن أهل النار ، وفي الآية ذم المال ، والاستكبار والافتخار ، بكثرة الأعوان والأنصار .

واعلم أن حب المال والاستكبار من أخلاق النفس ، فلابد من تزكيتها ، وكان من دعاء النبيّ عليه الصلاة والسلام : « اللهم حسِّنْ خَلْقِي وَخُلُقِي » وقد مدحه الله بقوله (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) وكان عليه الصلاة والسلام يجالس الفقراء والمساكين ويؤاكلهم ، وكان يمر على الصبيان ويسلم عليهم ، وأتى رجل فارتعد من هيبته فقال ﷺ : « هَوِّنْ عليك فلست بَمَلِك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » وكان يجلس مختلطاً بأصحابه كأنه أحدهم ، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل ، وكان لا يدعوه أحد إلا قال لبيك وكل ذلك من تواضعه ﷺ ، قال ذو النون المصري : « علامة السعادة حب الصالحين والدنو منهم وتلاوة القرآن وسهر الليل ومجالسة العلماء ورقة القلب » .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ بعد الاستقرار في الدارين ﴿ أَنْ ﴾ مفسرة أو مخففة كما سبق غير مرة ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا ﴾ أي : صبُّوا ﴿ مِنَ الْمَاءِ ﴾ أي : ماء الجنة حتى يطفىء عنا حر ما نجد من العطش ، وذلك أنهم لما بقوا فيها جياعاً عطاشاً ، قالوا : يا ربنا إن لنا قرابات في الجنة فائذن لنا حتى نراهم ونكلمهم ، فيؤذن لهم ، فينظرون إلى قراباتهم في الجنة ، وإلى ما هم فيه من أنواع النعيم فيعرفونهم ولا يعرفهم أهل الجنة لسواد وجوههم فينادون قراباتهم من أهل الجنة بعد إخبارهم بقرابتهم ويقولون أفيضوا علينا من الماء ﴿ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ من سائر الأشربة أو من الأطعمة فنأكلها لعلها تدفع عنا الجوع ، على أن الإفاضة عبارة عن الإعطاء بكثرة ، قال أبو حيان : الصحيح تضمين أفيضوا معنى ألقوا ، وهؤلاء القائلون كانوا في الدنيا عبيد البطون ، حريصين على الطعام والشراب ، حتى ماتوا على ما عاشوا فيه فحشروا على ما ماتوا عليه ، وفي الآية بيان أن الإنسان لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب ، قال أبو الجوزاء : سألت ابن عباس رضي الله عنهما أي الصدقة أفضل ؟ قال : الماء ، أرأيت أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء ، ﴿ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أي : منع طعام الجنة وشرابها عنهم ، فلا سبيل إلى ذلك قطعاً ، وجعل شراب الكافرين الحميم الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود وطعامهم الضريع والزقوم ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ ﴾ الذي أمروا بالتدين به وهو دين الإسلام ﴿ لَهْواً وَلَعِباً ﴾ ملعبة يتلاعبون به يحرمون ما شاؤا ويحلون ما شاؤا ، ولا يتبعون أمر الله تعالى وإنما يتبعون أهواءهم التي زينها الشيطان لهم ، ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ بزخارفها العاجلة وطول الأمل ، ولذلك كانوا يستهزئون بالمسلمين ، كما روي في الخبر أن أبا جهل بعث إلى النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يستهزىء به : أن

أطعمني من عنب جنتك ، أو شيئاً من الفواكه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن الله حرمهما على الكافرين ، فعلى العاقل أن لا يغتر بالدنيا لأنها غدارة مكارة .

﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ أي : يوم القيامة والفاءُ فصيحة ﴿ نَنْسَاهُمْ ﴾ نفعل بهم ما يفعل الناسي بالمنسي من عدم الاعتداد بهم ، وتركهم في النار ، تركاً كلياً ، شبَّه معاملته تعالى مع الكفار بمعاملة من نسي عبده من الخير ولم يلتفت إليه ، وإلا فالله تعالى منزه عن حقيقة النسيان ﴿ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ أي : ننساهم نسياناً مثل نسيانهم لقاء يومهم هذا فلم يخطروه ببالهم ، ولم يستعدوا له ، شبه عدم إخطارهم لقاء الله تعالى ببالهم ، وعدم مبالاتهم به ، بحال من عرف شيئاً ونسيه ، ومثل هذه الاستعارات كثير في القرآن ، لأن تفهيم المعاني الواقعة في عالم الغيب ، إنما يكون بأن يعبر عنها بما يماثلها من عالم الشهادة ﴿ وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أي : وكما كانوا منكرين بأنها من عند الله إنكاراً مستمراً فما مصدرية ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ ﴾ أي : بينا معانيه من العقائد ، والأحكام ، والمواعظ ، مفصلة ، والضمير للكفرة قاطبة ، والكتاب هو القرآن ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أي : عالمين بوجه تفصيله حتى جاء حكيماً ، أي : مشتملاً على حِكَم كثيرة ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ أي : حال كون ذلك الكتاب هادياً وذا رحمة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يصدقون أنه من عند الله ، لأنهم المنتفعون بآثاره ، المقتبسون من أنواره ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ ﴾ أي : ما ينتظر هؤلاء الكفرة بعدم إيمانهم ، إلا ما يؤول إليه أمره من تبين صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ أي : يوم يأتيهم عاقبة ما وعدوا فيه وهو يوم القيامة وشاهدوا إتيانه عياناً ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوْهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : تركوه ترك المنسي من قبل إتيان تأويله ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي : ملتبسين به يعني اعترفوا بأن ما جاءهم الرسل به ، من حقية البعث والحساب والجزاء حق ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ اليوم ويدفعوا عنا العذاب ﴿ أَوْ نُرَدُّ ﴾ أي : أو هل نُردُّ إلى الدنيا ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي : في الدنيا يعني نصدق بالرسل ، ونعمل الأعمال الصالحة ، فبين الله تعالى أن الذي تمنوه لا يحصل لهم البتة حيث قال ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بصرف أعمارهم التي هي رأس ما لهم إلى الكفر والمعاصي ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : ظهر بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شركاء الله تعالى ، وشفعاؤهم يوم القيامة .

فعلى العاقل أن يتدارك حاله ولا يطول آماله ، قال الإمام الغزالي قدس سره : من زرع واجتهد وجمع بيدراً ثم يقول أرجو أن يحصل لي منه مائة قفيز فذلك منه رجاء ، والآخر لا يزرع زرعاً ولا يعمل يوماً فذهب ونام وأغفل سنته فإذا جاء وقت البيادر يقول أرجو أن يحصل لي مائة قفيز فهو

أمنية بلا أصل ، فكذلك العبد إذا اجتهد في عبادة الله تعالى والانتهاء عن معصية الله يقول أرجو أن يتقبل الله هذا اليسير ، ويتم هذا التقصير ويعظم الثواب ويعفو عن الزلل ، فهذا منه رجاء ، وأما إذا اغفل ذلك وترك الطاعات فارتكب المعاصي ولم يبال سخط الله ولا رضاه ووعده ووعيده ثم أخذ يقول أنا أرجو من الله الجنة والنجاة من النار ، فذلك منه أمنية لا حاصل تحتها ويبين هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجزُ من يتبع نفسه هواها ويتمنى على الله عز وجل الأماني » (١) ، قال يوسف بن أسباط : دخلت على سفيان فبكى ليله أجمع ، فقلت : بكاؤك هذا على الذنوب ؟ فحمل تبناً وقال : الذنوب أهون على الله تعالى من هذا إنما أخشى أن يسلبني الله الإسلام ، جعلنا الله وإياكم من العاملين بكتابه ، والواصلين إلى جنابه دون من نسي الله واتبع هواه ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمْ** ﴾ الخطاب لكفار مكة المتخذين أرباباً ، ﴿ **اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوات وَالأَرْضَ** ﴾ لا على مثال سبق ﴿ **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** ﴾ ولو شاء لخلقها في أسرع من لحظة ، ولكنَّه علّم عباده التأني في الأمور.

قالوا لا يحسن التعجيل إلا في أمور : في التوبة من الذنوب ، وقضاء الدين بعد انقضاء مدته ، وقرى الضيف ، وتزويج البكر بعد بلوغها ، ودفن الميت ، والغسل من الجنابة ، ﴿ **ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ** ﴾ العرش يطلق على السرير الذي يجلس عليه الملوك ، فجعل الاستواء على العرش كناية عن نفس الملك والعز والسلطنة ، على طريق ذكر اللازم وإرادة الملزوم ، وهذا معنى قول القاضي استوى أمره أي : استقر أمر ربوبيته ، وجرى أمره وتدبيره ، ونفذ قدرته في مصنوعاته (٢) ، وتخصيص العرش لأنه أعظم المخلوقات ، فإنه الجسم المحيط بجميع الأجسام ، فالاستواء على ما عداه أيضاً ، ثم إنه تعالى لما ذكر استواءه على العرش وأخبر بما أخبر من نفاذ أمره وإطراد تدبيره ، بين ذلك بطريق الاستئناف فقال ﴿ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ** ﴾ أي : يجعل الليل غاشياً يغشى النهار بظلمته فيذهب بنور النهار ويغطيه بظلمة الليل ، ولم يذكر العكس اكتفاء بأحد الضدين ، ﴿ **يَطْلُبُهُ حَثِيثاً** ﴾ أي : يجعل الليل غاشياً للنهار ، حال كون الليل طالباً له أي : لمجيئه عقيب الليل سريعاً ، وحثيثاً منصوب على أنه صفة مصدر محذوف ، أي : يطلبه طلباً حثيثاً أي : سريعاً ولما كان كل واحد من الليل والنهار يعقب الآخر ويجيء بعده من غير أن يفصل بينهما بشيء صار كأنه يطلب الآخر على منهاج واحد ﴿ **وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ** ﴾ أي : خلق كل هذه المخلوقات حال كونها مسخرات بقضائه وتصرفه أي : مذللات لما يراد منها من الطلوع والأفول ، والحركات المقدرة والأحوال الطارئة عليها ﴿ **أَلا** ﴾

(١) الحديث رواه الترمذي عن أبي يعلى شداد بن أوس رضي الله عنه .

(٢) الصحيح ما عليه علماء السلف أن الله تعالى مستوٍ على عرشه كما أخبر استواءً يليق بجلاله ، من غير تكييفٍ ، ولا تشبيهٍ ، ولا تمثيلٍ ، ولا تعطيلٍ ، ومعنى استوائه : علوُّه على العرش كما قال الإمام الطبري رحمه الله .

تنبيه معناه اعلموا ﴿ لَهُ ﴾ أي : لله تعالى والتقديم للتخصيص ﴿ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ فإنه الموجد للكل والمتصرف فيه على الإطلاق ، ذكر الإمام : أن العالم وهو ما سوى الله تعالى ، منحصر في نوعين : عالم الخلق ، وعالم الأمر ، وأن المراد بعالم الخلق : عالم الأجساد والجسمانيات ، وبعالم الأمر : عالم الأرواح والمجردات ، وأن قوله تعالى ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ إشارة إلى هذين العالمين ، وعالم الخلق تابع لعالم الأمر إذ هو أصله ومبدأه (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) ثم قال تعالى ﴿ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : تعالى بالوحدانية في الألوهية ، وتعظم بالتفرد في الربوبية ، قال ابن الشيخ : أي : تعاظم الإله الواحد الموجد للكل ، المتصرف فيه بالربوبية ، رد به على الكفرة الذين كانوا يتخذون أرباباً ، فدعاهم إلى التوحيد بالحكمة والحجة ، وصدَّر الآية بـ ﴿ إنَّ ﴾ رداً لإنكارهم فقال ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ ﴾ المستحق للربوبية ليس إلا واحداً ، وهو الله الموجد للكل على الترتيب المحكم المتقن الدال على كمال العلم والحكمة والقدرة وهو الذي أنشأ ملكه على ما يشاهد ، ثم أخذ في تدبيره ، كالملك المتمكن في مملكته بتدبير ملكه .

إلى الله كل الأمر في خلقه معاً * وليس إلى المخلوق شيء من الأمر

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ ﴾ بمعنى المربي من التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً ، وهو تعالى مربي الظواهر بالنعمة وهي النفوس ، ومربي البواطن بالرحمة وهي القلوب ، ومربي نفوس العابدين بأحكام الشريعة ، ومربي المشتاقين بآداب الطريقة ، ومربي أسرار المحبين بأنوار الحقيقة ، وهو أي : الرب اسم الله الأعظم ، ولذلك كل اسم قلبته بطل معناه ، إلا الرب فإن مقلوبه البر ، ﴿ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ يقال : ضرع الرجل يضرع ضراعة من باب فَتَح أي : خضع وذلَّ ، أي : متضرعين متذللين مخفين الدعاء ، ليكون أقرب إلى الإجابة ، لكون الإخفاء دليل الإخلاص والاحتراز عن الرياء ، ـ روي ـ عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا في غزوة ، فأشرفوا على واد ، فجعلوا يكبرون ويهللون رافعي أصواتهم فقال عليه الصلاة والسلام لهم : « اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً قريباً »[1] وفي الحديث استحباب الإخفاء في ذكر الله .

وعن عمر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لا يردهما حتى يمسح بهما وجهه وذلك ليصل شيء من البركة الفائضة على اليد إلى الوجه ، والسنّة للداعي في طلب الحاجة له أن ينشرهما يعني : كفيه إلى السماء ، وللمكروب أن ينصب ذراعيه حتى يقابل بكفيه وجهه ، وإذا دعا على أحد أن يقلب كفيه ويجعل ظهرهما إلى السماء ، والسنّة أن يخرج يديه حين الدعاء من كميه .

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤ / ٤٠٢ .

والمستحب أن يرفع يديه عند الدعاء بحذاء صدره ، كذا روى ابن عباس رضي الله عنهما فعل النبي عليه الصلاة والسلام ، ﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ أي : المجاوزين ما أُمروا به في الدعاء وغيره ، نبه به على أن الداعي ينبغي أن لا يطلب ما لا يليق ، كرتبة الأنبياء ، والصعود إلى السماء ، وقيل هو الصياح في الدعاء والإسهاب فيه ، وعن النبي ﷺ : « سيكون قوم يعتدون في الدعاء »[1] وحسبُ المرء أن يقول : « اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل » ، فاللائق للداعي أن يدعو بأهمّ الأمور ، وهو الفوز بالجنة والنجاة من النار ، ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ ببعث الأنبياء وشرع الأحكام ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ أي : خائفين من الرد لقصور أعمالكم ، وطامعين في إجابته تفضلاً وإحساناً ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ والمعنى إن رحمة الله قريب من الداعين بلسان ذاكر شاكر ، وقلب حاضر طاهر ، وفيه ترجيح للطمع وتغليب لجانب الرحمة ، وتنبيه على وسيلة الإجابة أعني الإحسان وفي الحديث : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة »[2] يعني ليكن الداعي ربه على يقين بأن الله يجيب ، لأن رد الدعاء إما للعجز في إجابته ، أو لعدم كرم في المدعو ، أو لعدم علم المدعو بدعاء الداعي ، وهذه الأشياء منفية عن الله تعالى ، فإنه عالم كريم قادر ، لا مانع له من الإجابة ، قال سهل : ما أظهر عبد فقره إلى الله تعالى في وقت الدعاء ، في شيء يحل به إلا قال الله تعالى لملائكته : لولا أنه لا يحتمل كلامي لأجبته لبيك ، وحكي أن موسى عليه السلام مرّ برجل يدعو ويتضرع ، فقال موسى : لو كانت حاجته بيدي لقضيتها ، فأوحى الله تعالى إليه أنا أرحم به منك ، ولكنه يدعوني وله غَنَمٌ وقلبه في غَنَمه ، وأنا لا أقبل دعوة عبد قلبه عند غيري ، فذكر ذلك للرجل فتوجه إلى الله بقلبه فقضيت حاجته ، فيلزم حضور القلب ، وحسن الظن بالله في إجابة الدعاء . وإذا وفّق الله عبداً إلى نطق بأمر ما فما وفقه إليه إلا وقد أراد إجابته فيه وقضاء حاجته ، وعدم الدعاء بكشف الضر مذموم لأنه كالمقاومة مع الله ، ودعوى التحمل لمشاقّهِ غير مستحسن كما قيل :

ويحسن إظهار التجلد للعِدَى * ويقبح غير العجز عند الأحبة

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ كل ما كان في القرآن من ذكر الرياح فهو للرحمة وما كان من ذكر الريح فهو للعذاب ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام كان يجثو على ركبتيه عند هبوب الرياح ويقول : « اللهم اجعلها لنا رياحاً ولا تجعلها ريحاً ، اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ،

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ، وأحمد في المسند ا هـ الفتح الكبير ٢ / ١٦٦ .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ورواه أحمد في المسند .

وعافنا قبل ذلك »[١] ، وفي الحديث : « لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أُمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها وشر ما أُمرت به »[٢] ، ﴿ بُشْراً ﴾ أي : مبشرات ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي : قدام رحمته التي هي المطر ، قال ابن عباس : يرسل الله الرياح فتحمل السحاب ، فتُمْريه ـ أي : تَعْصِره ـ كما يمري الرجل الناقة والشاة حتى تدرَّ ، وفي الآية إطلاق الرحمة على المطر ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ﴾ أي : حملته ورفعته باليسر والسهولة ﴿ ثِقَالاً ﴾ جمع ثقيل أي : بالماء ، مع كونه وصفاً للسحاب لأن السحاب هو الغيم الجاري في السماء ﴿ سُقْنَاهُ ﴾ من السوق والضمير للسحاب والإفراد باعتبار اللفظ ﴿ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ أي : لإحياء بلد لا نبات فيه ، والبلد يطلق على كل موضع من الأرض ، سواء كان عامراً أو غير عامر ، خالياً أو مسكوناً ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾ أي : بالبلد ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ أي : بسبب ذلك الماء ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي : من كل أنواعها ﴿ كَذٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ أي : كما نحييه بإحداث القوة النباتية فيه ، وتطريته بأنواع النبات والثمرات ، نخرج الموتى من الأجداثِ ونحييها برد النفوس إلى أبدانها ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ ﴾ بطرح إحدى التاءين أي : تتذكرون فتعلمون أن من قدر على هذا قادرٌ على كل شيء ، قال ابن عباس وأبو هريرة : إذا مات الناس كلهم في النفخة الأولى مطرت السماء أربعين يوماً قبل النفخة الأخيرة مثل مني الرجال فينبتون من قبورهم بذلك المطر كما ينبتون في بطون أمهاتهم وكما ينبت الزرع من الماء حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيها الروح ثم يلقى عليهم نومة فينامون في قبورهم فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث جاشوا وخرجوا من قبورهم وهم يجدون طعم النوم في رؤسهم كما يجده النائم إذا استيقظ من نومه فعند ذلك يقولون : من بعثنا من مرقدنا ؟ فيناديهم المنادي : « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » .

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ ﴾ أي : الأرض الكريمة التربة ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ بمشيئته وتيسيره غزير النفع ﴿ وَالَّذِي خَبُثَ ﴾ والبلد الذي خبث ترابه كالحرة والسبخة ، الحرّة : أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار ، والسبخة : الأرض المالحة التي لا تنبت شيئاً ﴿ لا يَخْرُجُ ﴾ نباته في حال من الأحوال ﴿ إِلا نَكِداً ﴾ قليلاً عديم النفع ، والنكد : بكسر الكاف القليل الخير ، الممتنع عن إفادة النفع على جهة البخل والضنة ، والمصدر النكَد بفتحتين يقال نِكد عيشهم بكسر الكاف ينكد بالفتح نَكَداً

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ،وفي رواية الترمذي : « كان إذا سمع صوت الرعد قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك .. » الحديث من جامع الأصول ٤ / ٣٢٠ .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وفي الفتوحات الربانية لابن علان : هذا حديث حسن صحيح .

اذا اشتد عيشهم وضاق ﴿ كَذٰلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك التصريف البديع ﴿ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ نرددها ونكررها ﴿ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ نعمة الله فيتفكرون فيها ويعتبرون بها ، وتخصيصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بها ، والآية مثلٌ لإرسال الرسل بالشرائع التي هي ماء حياة القلوب إلى المكلفين ، المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها والمحرومين من مغانم آثارها .

وعن عبد الله بن مهران قال : حجَّ الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياماً ثم أمر بالرحيل فخرج الناس ، وخرج بهلول المجنون فيمن خرج ، فجلس بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به ، إذ أقبلت هوادج هارون فكفَّ الصبيان عن الولوع به ، فلما جاء هارون ناداه بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين يا أمير المؤمنين ، فكشف هارون السِّجاف بيده وقال : لبيك يا بهلول ، فقال : يا أمير المؤمنين حدثنا أيمن بن نائل عن قُدامة بن عبد الله العامري قال : « رأيت النبي ﷺ يمضي على جمل ، وتحته رَحْلٌ رثٌّ » فلم يكن ضربٌ ولا طرد ولا إليك إليك ، وتواضعك في سفرك هذا يا أمير المؤمنين خيرٌ لك من تكبرك ، فبكى هارون حتى سقطت الدموع على الأرض وقال : يا بهلول زدنا يرحمك الله ، فقال :

هبْ أنَّك قد ملكت الأرض طُرّاً * وأنَّ لكَ العبادَ فكان ماذا ؟
أليس غداً مصيرُك جوفَ قبرٍ * ويحثو التُّربَ هذا ثم هذا ؟

فبكى هارون ثم قال : أحسنت يا بهلول ، ثم أمر له بجائزة ، فقال : أردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لي فيها ، قال : يا بهلول إن يكن عليك دين قضيناه ، قال : يا أمير المؤمنين لا يُقضى دين بدين ، أردد الحق إلى أهله واقض دين نفسك ، قال : يا بهلول فنجري عليك ما يكفيك ، فرفع بهلول رأسه إلى السماء ثم قال : يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله تعالى ، فمحال أن يذكرك وينساني ، فأسبل هارون السجاف ومضى ، والمقصود من هذه الحكاية بيان استماع هارون الحق وقبوله وذلك لأنه كان كالمكان الزاكي ، وقلبه كان حياً بالحياة الطيبة فلذا لم يخرج منه إلا الأخلاق الحميدة .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ جواب قسم محذوف تقديره والله لقد أرسلنا نوحاً ، ونوح أول نبي بعد إدريس ، وكان نجاراً بعثه الله إلى قومه على رأس أربعين سنة ، وعمَّر ألفاً ومائتين وأربعين سنة ، ﴿ فَقَالَ ﴾ أي : نوح ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ وحده فإن العبادة بالإشراك ليس من العبادة في شيء ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ أي : من مستحق للعبادة غير الله تعالى ، ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : إن لم تعبدوه ، وهو بيان للداعي إلى عبادته ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : عذاب يوم القيامة أو يوم الطوفان ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي : قال الرؤساء من قومه ، والأشراف الذين يملأون صدور المحافل بجلالهم وهيبتهم ، والأبصار بجمالهم وبهجتهم ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ ﴾ يا نوح ﴿ فِي

﴿ ضَلَالٍ ﴾ ذهاب عن طريق الحق والصواب لمخالفتك لنا ، والرؤية قلبية ﴿ مُبِينٍ ﴾ بين كونه ضلالاً ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ﴾ ناداهم بإضافتهم إليه ، استمالة لقلوبهم نحو الحق ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ بالغ في النفي حيث نفى عن نفسه ملابسة ضلالة واحدة ، أي : ليس بي شيء من أفراد الضلال وجزئياته ، فضلاً عن أن يكون بي ضلال عظيم بين ، كما بالغوا في الإثبات حيث جعلوه مستقراً في الضلال الواضح كونه ضلالاً ﴿ وَلَكِنِّي رَسُولٌ ﴾ أي : رسول كائن ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ كأنه قال ولكني على هدى كامل في الغاية ، لأني رسول من رب العالمين ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ﴾ الرسالة صفة قائمة بذات الرسول ، إلا أنها جُمعت نظراً إلى تعددها بحسب تنوع معانيها ، كالعقائد والمواعظ والأحكام ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ زيادة اللام مع تعدي النصح بنفسه ، يقال : نصحتك ، للدلالة على إخلاص النصح لهم ، وأنها لمنفعتهم ومصلحتهم خاصة ، ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أي : أعلم من قدرته القاهرة ، وبطشه الشديد على أعدائه ، ما لا تعلمونه ، قيل : كانوا لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا غافلين آمنين لا يعلمون ما علمه نوح عليه السلام بالوحي ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر ، أي : استبعدتم وعجبتم من أن جاءكم وحي أو موعظة ، من مالك أموركم ومربيكم ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي : على لسان رجل من جنسكم ، فإنهم كانوا يتعجبون من إرسال البشر ، ويقولون لا مناسبة بينه تعالى وبين البشر ، ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ ﴾ علة للمجيء أي : ليحذركم عاقبة الكفر والمعاصي ﴿ وَلِتَتَّقُوا ﴾ منها بسبب الإنذار ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي : ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم وفائدة حرف الترجي التنبيه على عزة المطلب ، وأن التقوى غير موجبة للرحمة ، بل هي منوطة بفضل الله تعالى ، وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ، ولا يأمن من عذاب الله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ واستمروا على ذلك في هذه المدة المتطاولة ، إذ هو الذي يعقبه الإغراق لا مجرد التكذيب ، ـ روي ـ أن نوحاً عليه السلام دعا بهلاك قومه ، فأمره الله تعالى بصنع الفلك فلما تم دخل فيه مع المؤمنين ، فأرسل الله الطوفان وأغرق الكفار وأنجى نوحاً مع المؤمنين ، فذلك قوله تعالى ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ من المؤمنين وكانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة ﴿ فِي الْفُلْكِ ﴾ أي : والذين استقروا معه في السفينة ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : استمروا على تكذيبها وليس المراد بهم الملأ المتصدين للجواب فقط ، بل كل من أصر على التكذيب منهم ومن أعقابهم ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ ﴾ أصله عميين جمع عَمٍ أصله عمي ، على وزن خضر ، فأعل كإعلال قاض ، قال أهل اللغة : يقال رجل عَمٍ في البصيرة ، وأعمى في البصر ، والمعنى عميتْ قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد ، غير مستبصرين ، وهذا العمى مانع عن رؤية الآيات ، ومشاهدة البينات ، بخلاف أعمى البصر إذا كان مستعداً للنظر ، فإنه كم من أعمى قادر على الرؤية ، بخلاف أعمى البصيرة فإن مصيبته أعظم وأكبر .

حكي أن الشيخ بقا كان يوماً جالساً على شط نهر الملك ، فمرت به سفينة فيها جند ، ومعهم خمر وفواكه ، ونساء متبرجات وصبيان ومغاني ، وهم في غاية من اللهو والطغيان ، فقال الشيخ بقا للملاح : اتق الله وقدم إلى الله ، فلم يلتفتوا إلى كلامه ، فقال : أيها النهر المسخر خذ الفجرة ، فنما الماء عليهم حتى طلع إلى السفينة فأشرفوا على الغرق ، فصاحوا بالشيخ وأعلنوا بالتوبة ، فعاد الماء إلى حاله وحسنت توبتهم ، وكانوا بعد ذلك يكثرون من زيارته .

فعلى العاقل أن يقبل النصيحة ممن فوقه ودونه ، فإن النصيحة سهلة والمشكل قبولها .

﴿ **وَإِلَىٰ عَادٍ** ﴾ أي : وأرسلنا إلى عاد ﴿ **أَخَاهُمْ** ﴾ أي : واحداً منهم في النسب لا في الدين ، كقولهم يا أخا العرب ﴿ **هُودًا** ﴾ وإنما جعل الرسول من تلك القبيلة ، لأنهم أفهم لكلامه ، وأعرف بحاله ، وأقرب إلى اتباعه ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ** ﴾ وحده ﴿ **مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ أي : ليس لكم ربٌ غيره تعالى ﴿ **أَفَلَا تَتَّقُونَ** ﴾ الهمزة للإنكار ، أي : لا تتفكرون فلا تتقون عذاب الله تعالى ؟ ﴿ **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ** ﴾ استئناف كما مر ، وإنما وصف الملأ بالكفر ، إذ لم يكن كلهم على الكفر ، كملأ قوم نوح بل كان منهم من آمن به عليه السلام ، والملأ : أشراف القوم وهو في الأصل بمعنى الجماعة ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ** ﴾ أي : في خفة عقل ، راسخاً فيها ، حيث فارقت دين آبائك ، والسفاهة في اللغة : خفة الحلم والرأي ﴿ **وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ أي : فيما ادعيت من الرسالة ، وفيه إشارة إلى أن قلوب قوم هود وسخة خبيثة كقلوب قوم نوح .

﴿ **قَالَ** ﴾ أي : هود عليه السلام سالكاً طريق حسن المجادلة ، مع ما سمع منهم من الكلمة الشنعاء ، وهكذا ينبغي لكل ناصح ﴿ **يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ** ﴾ أي : شيء منها ولا شائبة من شوائبها ﴿ **وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أي : لكني في غاية الرشد والصدق ، لأني رسول رب العالمين ، فالاستدراك باعتبار ما يلزمه ، وهو كونه في الغاية القصوى من الرشد والصدق ، والرشد هو الاهتداء لمصالح الدين والدنيا وهو إنما يكون بالعقل التام ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** ﴾ معروف بالنصح والأمانة مشهور بين الناس بذلك ، ﴿ **أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ أي : استبعدتم وعجبتم من أن جاءكم وحي من مالك أموركم ومربيكم ﴿ **عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ** ﴾ أي : على لسان رجل من جنسكم ﴿ **لِيُنْذِرَكُمْ** ﴾ ويحذركم عاقبة ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ** ﴾ أي : اذكروا وقت استخلافكم ، ولعله معطوف على مقدر كأن قيل : لا تعجبوا من ذلك وتدبروا في أموركم ، واذكروا وقت جعله تعالى إياكم خلفاء ﴿ **مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ** ﴾ أي : في مساكنهم أو في الأرض ، بأن جعلكم ملوكاً فإن « شداد بن عاد » ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شحر

عمان ، ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ ﴾ أي : في الإبداع والتصوير ، ﴿ بَصْطَةً ﴾ قامة ، وقوة فإنه لم يكن في زمانهم مثلهم في عظم الأجرام ، كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع وقامة الصغير ستين ذراعاً ، قال وهب : كان رأس أحدهم كالقبة العظيمة ، وكان عين أحدهم يفرخ فيها الطير وكذلك مناخرهم ، ﴿ فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ ﴾ جمع « إلى » بمعنى النعمة وهو تعميم بعد تخصيص ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لكي يؤديكم ذكرُ النعم إلى الشكر ، المؤدي إلى النجاة من الكروب والفوز بالمطلوب ﴿ قَالُوا ﴾ مجيبين عن تلك النصائح الجليلة ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ يا هود ﴿ لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ ﴾ أي : لنخصه بالعبادة ﴿ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أي : نترك الآلهة التي كان آباؤنا يعبدونها ؟ قالوا أتريد منا أن نعبد الله وحده وتقصد أن تكلفنا بذلك ، ﴿ فَائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي : في الإخبار بنزول العذاب ﴿ قَالَ ﴾ هود عليه السلام ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : قد وجب ، فإن نزوله في علمه تعالى ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : من جهته تعالى ﴿ رِجْسٌ ﴾ عقاب من الارتجاس الذي هو الاضطراب ﴿ وَغَضَبٌ ﴾ إرادة إنتقام ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ ﴾ عارية عن المسمى ، كانوا يسمون الأصنام آلهة ويزعمون كونهم مستحقين للعبادة ، والحال أنهم بمعزل عن الألوهية واستحقاق العبادة ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أي : سميتم بها ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي : حجة وبرهان في عبادتها ، والمعنى : أتجادلونني في مسميات لها اسم بدون ما يليق بها ، وتوجه الذم للتسمية الصرفة الخالية عن المعنى فلا يلزم أن يكون الاسم هو المسمى ، ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ أي ؛ فانتظروا ما تطلبونه ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ لما يحل بكم من العذاب ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ الفاء فصيحة كما في قوله تعالى (فَانْفَجَرَتْ) أي : فوقع العذابُ فأنجينا هوداً ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أي : في الدين ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ أي : برحمة عظيمة كائنة من جهتنا عليهم ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ ﴾ القوم ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : استأصلناهم وأهلكناهم جميعاً بأن قطعنا عرقهم وأصلهم ، لأن دابر الشيء آخره ، فقطعُ دابر القوم إهلاكهم من أولهم إلى آخرهم ﴿ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرْعَوُوا عن ذلك أبداً ، وفيه تنبيه على أن مناط النجاة هو الإيمان بالله تعالى ، وتصديق آياته ، كما أن مدار البوار هو الكفر والتكذيب .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أي : أرسلنا إلى ثمود وهي قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الأكبر « ثمود بن عاد » بن أرم ابن سام بن نوح ، وكانت مساكنهم « الحِجْر » بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ من حيث النسب ﴿ صَالِحاً ﴾ وهو صالح بن عبيد بن آسف ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ﴾ بحذف ياء المتكلم ﴿ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ وحده ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى وإن غاير

بين الرسل من حيث الشرائع ، إلا أنه جمع بينهم في التوحيد ، حيث سلك كل واحد منهم في الدعوة مسلك الآخر ، فقال نوح وهود وصالح ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ، ـ روي ـ أنه لما هلكت عاد عمرت ثمود بلادها ، وخلفوهم في الأرض وكثروا في خصب وسعة ، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض ، وعبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم صالحاً ، وكانوا قوماً عرباً وصالح من أوسطهم نسباً ، فدعاهم إلى الله تعالى ، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم فسألوه آية تكون مصداقاً لقوله ، فقال : أَيَّةَ آيةٍ تُرِيدون ؟ قالوا وأشاروا إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل : أَخْرِجْ لنا من هذه الصخرة ناقة عشراء ، فإن فعلت صدقناك وأجبناك ، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن ، قالوا : نعم فصلى ركعتين ودعا ربه ، فانصدعت عن ناقة عشراء ، وهم ينظرون ثم نتجت ولداً مثلها في العظم ، فآمن به رهط من قومه ، وامتنع الباقون من قومه من الإيمان .

فمكثت الناقة مع ولدها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء ، فبعد ظهور هذه المعجزة قال لهم صالح : ﴿ **قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ** ﴾ أي : آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنبوتي ﴿ **مِنْ رَبِّكُمْ** ﴾ متعلق بجاءتكم ، وليس هذا الكلام منه عليه السلام أول ما خاطبهم إثر دعوتهم إلى التوحيد ، بل إنما قاله بعدما نصحهم وذكرهم بنعم الله ، فلم يقبلوا كلامه وكذبوه ﴿ **هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً** ﴾ استئناف كأنه قيل ما هذه البينة ، فقال : هذه ناقة الله أنبهكم عليها أو أشير إليها في حال كونها آية وعلامة دالة على صحة نبوتي ، وإضافة الناقة إلى الاسم الجليل لتعظيمها كما يقال : بيت الله ، ﴿ **فَذَرُوهَا** ﴾ تفريع على كونها آية من آيات الله تعالى ، أي : دعوها ﴿ **تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ** ﴾ أي : الناقة ، فليس لكم أن تحولوا بينها وبين المرعى ، وعدم التعرض للشرب للاكتفاء عنه بذكر الأكل ﴿ **وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ** ﴾ أي : لا تمسوها ولا تتعرضوا لها بشيء مما يسوءها أصلاً من قتل أو ضرب أو مكروه إكراماً لآية الله تعالى ، والسوء اسم جامع لأنواع الأذى ، ﴿ **فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ جواب للنهي ، ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ** ﴾ أي : اذكروا وقت جعله تعالى إياكم خلفاء في أرض الحجر ، أو خلفاء لقوم عادٍ من بعد إهلاكهم ﴿ **وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾ أي : أنزلكم وجعل لكم مباءة ومنزلاً في أرض الحجر ، بين الحجاز والشام ﴿ **تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً** ﴾ أي : تبنون في سهولها قصوراً رفيعة ﴿ **وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ** ﴾ أي : الصخور والنحت نجر الشيء الصلب ﴿ **بُيُوتاً** ﴾ قيل : كانوا يسكنون السهول في الصيف ، والجبال في الشتاء ، وقيل : إنهم لطول أعمارهم كانوا يحتاجون إلى أن ينحتوا من الجبال بيوتاً ، لأن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ﴿ **فَاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ** ﴾ أي : احفظوا نعم الله عليكم ، فإن حق آلائه تعالى أن تشكر ولا يغفل عنها ﴿ **وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ العَثْيُ : أشد

الفساد ، فقيل لهم لا تتمادوا في الفساد حال كونكم مفسدين ، ﴿ قَالَ ﴾ استئناف ﴿ الْمَلأُ ﴾ أي : الأشراف والرؤساء ﴿ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي : تعظموا عن الإيمان به ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ أي : للذين استضعفوهم واستذلوهم ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ بدل من الذين استضعفوا بدل الكل ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قالوه بطريق الاستهزاء بهم ﴿ قَالُوا ﴾ أي : المؤمنون المستضعفون ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ ﴾ من التوحيد والعبادة ﴿ مُؤْمِنُونَ ﴾ عدلوا عن الجواب بأن يقولوا : نعم ، تنبيهاً على إن إرساله أمر معلوم ، أظهر من أن يشك فيه عاقل ، لما أتى به من هذا المعجز العظيم الخارق ، فهذا الجواب من الأسلوب الحكيم وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ عدلوا عن الجواب المطابق وهو إنا بما أرسل به كافرون ، فكأنهم قالوا : ليس إرساله معلوماً لنا مسلماً عندنا ، وليس هناك إلا دعواه وإيمانكم به ، ونحن بما آمنتم به كافرون ، واعلم أن الله تعالى ذم الكفار بوجهين : أحدهما : الاستكبار وهو رفع النفس فوق قدرها وجحود الحق ، والآخر : أنهم استضعفوا من كان يجب أن يعظموه ويبجلوه ، ومدح المؤمنين حيث ثبتوا على الحق ، وأظهروه مع ضعفهم عن مقاومة الكفار ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ أي : نحروها ، أسند العقر إلى الكل ، لأن ذلك كان برضاهم فكأنه فعلهم كلهم ، ـ روي ـ أن الناقة كانت ترد الماء ، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها ، لا تدع قطرة واحدة ثم تتفحج فيحلبون ما شأوا حتى تمتلىء أوانيهم كلها فيشربون ويدخرون ، ثم تصدر من أعلى الفج الذي وردت منه لأنها لا تقدر أن تصدر من حيث ترد لضيقه ، ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي : استكبروا عن امتثاله وهو ما بلّغهم صالح من النهي بقوله ولا تمسوها أو استكبروا عن اتباع أمر الله وهو شرعه ودينه ، ﴿ وَقَالُوا ﴾ مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والإفحام ﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من العذاب على قتل الناقة ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ فإن كونك من جملتهم يستدعي صدق ما تقول من الوعد والوعيد ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أي : الزلزلة الشديدة ، ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ ﴾ أي : صاروا في أراضيهم وفي مساكنهم ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أي : خامدين موتى لا حراك بهم ، وأصل الجثوم : البروك ، يقال : الناس جثوم أي : قعود لا حراك بهم ، قيل : حيث ذكرت الرجفةُ وحّدت الدار ، وحيث ذُكرت الصيحة جمعت ، لأن الصيحة كانت من السماء فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة ، فقرن كل منهما بما هو أليق به ، ـ روي ـ أنهم لما عقروا الناقة هرب ولدها إلى الجبل ، فقال لهم صالح : أبشروا بعذاب الله ونقمته ، فقالوا له : وما علامة ذلك ؟ فقال : تصبحون غداة يوم الخميس ووجوهكم مصفرة ، ثم تصبحون يوم الجمعة ووجوهكم محمرة ، ثم تصبحون يوم السبت ووجوهكم مسودة ، ثم يُصَبِّحكم العذاب أول يوم الأحد ، فكان الأمر كما وصف نبيهم ، فأتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له

صوت ورجفة من الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك ، ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ إثر ما شاهد من الهلاك ، تولى حزيناً مغتماً متحسراً على ما فاتهم من الإيمان متحزناً عليهم ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ وقت الدعوة بالترغيب والترهيب وبذلت فيكم وسعي ﴿ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ صيغة المضارع حكاية حال ماضية أي : شأنكم الاستهزاء على بعض الناصحين لأن قول الناصح ثقيل ، والحق مُرٌّ .

وذلك أيضاً من خباثة أرض النفس الخبيثة ، لم تقبل بذر النصح ولم ينبت فيها ، روي عن جابر ابن عبد الله أنه قال لما مر النبي عليه الصلاة والسلام بالحِجْر في غزوة تبوك ، قال لأصحابه : « لا يدخلَّن أحد منكم هذه القرية ، ولا تشربوا من مائها ، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم »[1] .

﴿ وَلُوطاً ﴾ أي : وأرسلنا لوطاً وهو لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم ، كان من أرض بابل العراق ، فهاجر مع عمه إبراهيم إلى الشام ونزل الأردن فأرسله الله إلى أهل سدوم ، ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أي : وقت قوله لهم ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ إنكار وتقريع على تلك الفعلة المتمادية في القبح ، أي : البالغة إلى غاية القبح وهي اللواطة ، والمعنى أتفعلونها ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا ﴾ ما فعلها قبلكم ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ من مزيدة لتأكيد النفي وإفادة الاستغراق ﴿ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ وبخهم أولاً بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فإنه أسوأ ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ بيان لتلك الفاحشة ، مبالغة في التوبيخ ﴿ شَهْوَةً ﴾ مفعول له وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصِّرْفة ، وتنبيه على أن العاقل ينبغي أن يكون الداعي له إلى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع ، لا قضاء الشهوة ﴿ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴾ أي : متجاوزين النساء اللاتي أباح الله لكم ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ يعني أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحد في كل شيء ، فمن ثمة أسرفوا في باب قضاء الشهوة وتجاوزوا عما عُيِّن لها إلى غيره ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ﴾ أي : ما كان جواباً من جهة قومه شيء من الأشياء إلا قول بعضهم لبعض ﴿ أَخْرِجُوهُمْ ﴾ أي : لوطاً ومن معه من المؤمنين ﴿ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾ أي : إلا هذا القول ، وقوله (مِنْ قَرْيَتِكُمْ) أي : من بلدكم فإن العرب تسمى المدينة قرية والمراد بلدة سدوم ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي : يطلبون الطهارة من الفواحش ، قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية بهم ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ أي : لوطاً ﴿ وَأَهْلَهُ ﴾ ابنتيه وسائر من آمن به ، فإن الأهل خاصته الذين ينسبون إليه ﴿ إِلا امْرَأَتَهُ ﴾ وهو

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد .

استثناء من أهله ﴿ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِينَ ﴾ أي : الباقين في ديارهم الهالكين فيها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً ﴾ نوعاً من المطر عجيباً وهي الحجارة ، أي : أرسلنا عليهم الحجارة إرسال المطر ﴿ فَانْظُرْ ﴾ خطاب لكل من يتأتى منه التأمل والنظر ، تعجيباً من حالهم وتحذيراً من أعمالهم ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِينَ ﴾ أي : تفكر في آخر أمر الكافرين المكذبين كيف فعلنا بهم ، دلت الآية على أن اللواطة أفحش الفواحش وأقبحها ، لأن الله تعالى ما أمطر الحجارة على أهل الذنوب العظام ، مثل الزنى والسرقة والقتل بغير الحق حتى الشرك ، قال ابن سيرين : ليس شيء من الدواب يعمل هذا العمل ، إلا الخنزير والحمار ، فاللواطة ذنب عظيم يجب أن يحترز عنها وعن مباديها أيضاً كاللمس والقبلة ، والإتيان في دبر الذَّكر هو اللواطة الكبرى ، وفي دبر المرأة هو اللواطة الصغرى وفي الحديث : « ملعون من أتى امرأة في دبرها »[1] .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ أي : وأرسلنا إلى قبيلة مدين وهم أولاد مدين بن إبراهيم خليل الله عليه السلام ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ في النسب أي : واحداً منهم ﴿ شُعَيْباً ﴾ وهو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين ، وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين مع كفرهم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾ وحده ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ مر تفسيره ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ ﴾ معجزة ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي : بينة عظيمة كائنة من مالك أموركم ، ولم يذكر معجزته في القرآن ، كما لم يذكر أكثر معجزات نبيِّنا عليه السلام ، ﴿ فَأَوْفُوا الكَيْلَ ﴾ الكيل : مصدر قولك كلت الطعام كيلاً ، والمراد المكيال ، ﴿ وَالمِيزَانَ ﴾ والمعنى : أدوا حقوق الناس بالمكيال والميزان على التمام ﴿ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ ﴾ أي : لا تنقصوا ﴿ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ التي يشترونها ، فإنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير ، والقليل والكثير ، واعلم أن بخس الناس أشياءهم في المكيل والموزون من خساسة النفس ، ودناءة الهمة ، وغلبة الحرص ، ومتابعة الهوى والظلم ، وهذه الصفات الذميمة من شيم النفوس ، وقد ورد الشرع بتبديل هذه الصفات وتزكية النفس ، فإن الله تعالى يحب معالي الأمور ، ويبغض سفسافها وفي الحديث : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف »[2] ، ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أي : بالكفر والحيف ﴿ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ بعدما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم بإجراء الشرائع ﴿ ذٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من التطفيف والبخس والإفساد ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : مصدقين بي في قولي هذا ﴿ وَلا تَقْعُدُوا

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود في باب النكاح وله شواهد بمعناه وانظر جامع الأصول ٣ / ٥٥١ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الزهد وقال : حديث صحيح .

﴿ بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ الباء للإلصاق أو المصاحبة ، لأن القعود ملصق بالمكان ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ حال من فاعل لا تقعدوا والمعنى ولا تقعدوا بكل طريق من طرق الدين مُوْعِدِين أي : مخوِّفين كالشيطان ، حيث قال : (لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمِ) وكانوا إذا رأوا أحداً يسعى للدين منعوه ، وقيل : كانوا يجلسون على المرصد فيقولون لمن يريد شعيباً : إنه كذابٌ لا يفتننك عن دينك ، ويتوعدون من آمن به ﴿ وَتَصُدُّونَ ﴾ أي : تمنعون وتصرفون ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي : شرعه ودينه الذي ارتضاه لعباده ﴿ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ أي : بكل صراط ﴿ وَتَبْغُونَهَا ﴾ أي : وتطلبون لسبيل الله ﴿ عِوَجاً ﴾ زيغاً وعدولاً عن الحق بإلقاء الشبه أو بوصفها بأنها معوجة ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ بالبركة في النسل والمال ، فصار ضعفكم قوة ، وفقركم غنى ﴿ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ من الأمم الماضية كقوم نوح ومن بعدهم من عاد وثمود وأضرابهم ، واعتبروا بهم واحذروا من سلوك مسالكهم ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ من الشرائع والأحكام ﴿ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ أي : به ﴿ فَاصْبِرُوا ﴾ فتربصوا ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا ﴾ أي : الفريقين بنصر المحقين على المبطلين ، فهو وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ إذ لا معقب لحكمه ولا حيف فيه ، وهو أعدل القاضين .

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾بعدما سمعوا هذه المواعظ من شعيب عليه السلام وهو استئناف بياني ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عطف على الكاف في لنخرجنك ويا شعيب اعتراض بين المتعاطفين ﴿ مَعَكَ ﴾ متعلق بالإخراج ، والمعنى : والله لنخرجنك وأتباعك ﴿ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ بغضاً لكم ، ودفعاً لفتنتكم ، وفيه إشارة إلى أن شأن المتكبرين ودأب المتجبرين الاستعلاء ، وذلك لما فيهم من بطر النعم وطغيان الاستغناء ، ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ العود هو الرجوع الى الحالة الأولى ومن المعلوم أن شعيباً لم يكن على دينهم وملتهم ، إلا أنه أسند العود إليه وإلى من معه من المؤمنين تغليباً لهم عليه ، لأن العود متصور في حقهم ، والمعنى والله ليكونن أحد الأمرين البتة ، كأنهم قالوا : لا ندعكم فيما بيننا حتى تدخلوا في ملتنا ، ﴿ قَالَ ﴾ شعيب رداً لمقالتهم الباطلة وتكذيباً لهم في أيمانهم الفاجرة ﴿ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ تقديره أنعود فيها ولو كنا كارهين ؟ أي : كيف نعود فيها ونحن كارهون لها ؟ ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ عظيماً ﴿ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ التي هي الشرك ، ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ فقد افترينا على الله كذباً عظيماً ، حيث نزعم حينئذ أن لله تعالى نداً ، وأيُّ افتراء أعظم من ذلك ؟ ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا ﴾ أي : وما يصح وما يستقيم لنا ﴿ أَنْ نَعُودَ فِيهَا ﴾ في حال من الأحوال أو في وقت من الأوقات ﴿ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ أي : إلا حالة

مشيئة الله تعالى لعودنا فيها ، وذلك مما لا يكاد يكون ، ﴿ رَبُّنَا ﴾ التعرض لعنوان ربوبيته تعالى مما ينبيء عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعاً ، وقيل : معناه إلا أن يشاء الله خذلاننا وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله تعالى ، ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أي : وسع علم ربنا كل شيء ، والمعنى إحاطة علمه بكل ما كان وما سيكون من الأشياء التي من جملتها أحوال عباده وعزائمهم ونياتهم ، فمحال من لطفه أن يشاء عودنا فيها بعدما نجانا منها ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ في أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار ، ثم أعرض عن المعاندين وتوجه إلى مناجاة رب العالمين فقال ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ احكم بيننا وبينهم ، واقض بما يدل على أنا على الحق وهم على الباطل ، وافصل بما يليق بحال كل من الفريقين ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ الفاتح : هو الحاكم سمي فاتحاً لأن يفتح المشكلات ، ويفصل الأمور ، والمعنى : أظهرْ أمرنا حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ، ويتميز المحق من المبطل ، ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي : قال أشرافهم الذين أصروا على الكفر ، لأعقابهم بعدما شاهدوا صلابة شعيب عليه السلام ومن معه من المؤمنين في الإيمان ، وخافوا أن يستتبعوا قومهم تثبيطاً لهم وتنفيراً منه ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً ﴾ ودخلتم في دينه وتركتم دين آبائكم ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ أي : لاشترائكم الضلالة بهداكم ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ أي : الزلزلة الشديدة وهكذا في سورة العنبكوت وفي سورة هود (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ) أي : صيحة جبريل ولعلها من مبادي الرجفة ، فأسند هلاكهم إلى السبب القريب تارة ، وإلى البعيد أخرى ، قال ابن عباس : رجفت بهم الأرض وأصابهم حر شديد ، فرفعت لهم سحابة فخرجوا إليها يطلبون الروح منها ، فلما كانوا تحتها سالت عليهم بالعذاب ، ومعها صيحة جبريل عليه السلام ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ ﴾ أي : صاروا في مدينتهم ﴿ جَاثِمِينَ ﴾ أي : ميتين على وجوههم وركبهم ، لازمين لأماكنهم لا براح لهم منها ، قال ابن عباس : فتح الله عليهم باباً من جهنم فأرسل عليهم منه حراً شديداً ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا جوف البيوت ، فلم ينفعهم ماء ولا ظل ، وأنضجهم الحر فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة ، فوجدوا برد الريح وطيبها وظل السحابة فتنادوا عليكم بها فخرجوا نحوها ، فلما اجتمعوا تحتها رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ، ألهبها الله عليهم ناراً ، ورجفت بهم الأرض ، فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي وصاروا رماداً وهو عذاب يوم الظلة ، ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً ﴾ استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم ، والموصول مبتدأ وخبره قوله تعالى ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي : استُأصلوا بالمرة وصاروا كأنهم لم يقيموا بقريتهم أصلاً ، أي : عوقبوا بقولهم ذلك وصاروا هم المخرجين من القرية إخراجاً لا دخول بعده أبداً ، والمغنى : المنزل ، يقال غنينا بمكان كذا أي : نزلنا فيه ، وفيه إشارة إلى أن المكذبين والمتكبرين ، وإن كانت لهم غلبة في وقتهم ولكن تنقضي أيامهم بسرعة ويخمل ذكرهم ويضمحل آثارهم ويكون أهل الحق مع الحق غالباً في كل أمر ،

والباطل زاهق بكل وصف .

﴿ **الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الخَاسِرِينَ** ﴾ أي : الذين كذبوه عليه السلام ، عوقبوا بمقالتهم الأخيرة ، فصاروا هم الخاسرين للدنيا والدين ، لا الذين اتبعوه ﴿ **فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ** ﴾ قاله عليه السلام بعدما هلكوا تأسفاً بهم ، لشدة حزنه عليهم ، ثم أنكر على نفسه ذلك فقال ﴿ **فَكَيْفَ آسَىٰ** ﴾ أي : أحزن حزناً شديداً ﴿ **عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ** ﴾ مصرين على الكفر ليسوا أهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بكفرهم أو قاله اعتذاراً من عدم تصديقهم له وشدة حزنه عليهم ، والمعنى لقد بالغت في الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعي في النصح والإشفاق ، فلم تصدقوا قولي فكيف آسى عليكم ؟

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ** ﴾ كذبه أهلها ﴿ **إلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا** ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، والمعنى وما أرسلنا في قرية من القرى المهلكة نبياً من الأنبياء في حال من الأحوال ، إلا في حال كوننا آخذين أهلها ﴿ **بِالبَأْسَاءِ** ﴾ بالبؤس والفقر ﴿ **وَالضَّرَّاءِ** ﴾ بالضر والمرض ، لاستكبارهم عن اتباع نبيهم وتعززهم عليه ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ** ﴾ كي يتضرعوا ويتذللوا ، ويحطوا أردية الكبر والعزة عن أكتافهم ، فإن الشدة خصوصاً الجوع يؤدي إلى التواضع والانقياد في حق أكثر العباد ، ﴿ **ثُمَّ بَدَّلْنَا** ﴾ عطف على أخذنا ﴿ **مَكَانَ السَّيِّئَةِ** ﴾ التي أصابتهم ﴿ **الحَسَنَةَ** ﴾ أي : أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة ، الرخاء والسعة ، لأن ورود النعمة بعد الشدة يدعوا إلى الانقياد والاشتغال بالشكر ، ﴿ **حَتَّى عَفَوْا** ﴾ كثروا عدداً وأبطرتهم النعمة ، يقال عفا النبات إذا كثر وتكاثف ، قال الشاعر :

عَفَوْا من بعد إقلالٍ وكانوا * زماناً ليسَ عندهم بعيرُ

﴿ **وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ** ﴾ كما مسنا ذلك ، فكما أن آباءنا قد ثبتوا على دينهم مع ما أصابهم ، فاثبتوا أنتم على دينكم ولا تنتقلوا عنه ﴿ **فَأَخَذْنَاهُمْ** ﴾ إثر ذلك ﴿ **بَغْتَةً** ﴾ فجأة أشد الأخذ وأفظعه ﴿ **وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾ بنزول العقاب ، وهو أشد وحسرته أعظم ، لأن المرء إذا رأى مقدمات الابتلاء ، يوطّن نفسه عليها ، بخلاف حال الفجأة ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَىٰ** ﴾ أي : القرى المهلكة ﴿ **آمَنُوا واتَّقَوْا** ﴾ مكان كفرهم وعصيانهم ﴿ **لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ لوسَّعنا عليهم الخير ، ويسرناه لهم من كل جانب ، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات ، وأكثر أهل التفسير على أن بركات السماء هي المطر ، وبركات الأرض النبات والثمار ﴿ **وَلَكِنْ كَذَّبُوا** ﴾ الرسل

﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من أنواع الكفر والمعاصي ، وفي الآية دلالة على أن الكفاية والسعة في الرزق من سعادة المرء إذا كان شاكراً .

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَىٰ ﴾ الهمزة لإنكار الواقع واستقباحه ، والمعنى أبعد ذلك الأخذ أمن أهل مكة ومن حولها من المكذبين ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ بَيَاتاً ﴾ ليلاً ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ في فرشهم ومنازلهم ، لا يشعرون بالعذاب لغفلتهم ﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحَىً ﴾ ضحوة النهار ، وهو في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي : يلهون من فرط الغفلة فيما لا ينفع ، أو يشتغلون بما لا ينفعهم من أمور الدنيا ، فإن من اشتغل بدنياه وأعرض عن آخرته فهو كاللاعب ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ﴾ مكرُ الله : استعارةٌ لاستدراجه العبد وأخذه من حيث لا يحتسب ، والمراد به إتيان بأسه تعالى في الوقتين المذكورين ، وإنما سمي العذاب مكراً على جهة الاتساع والمجاز ، لأن المكر ينزل بالمكور من جهة الماكر من حيث لا يشعر ، وأما المكر الذي هو الاحتيال فذلك لا يجوز على الله ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ ﴾ أي : إذا كان استدراجه وأخذه على هذا الوجه فلا يأمن مكره بهذا المعنى ﴿ إِلا القَوْمُ الخَاسِرُونَ ﴾ الذين ليسوا من القوم الرابحين ، ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾ عدي فعل الهداية باللام لأنها بمعنى التبيين ، أي : يخلفون من خلا قبلهم من الأمم المهلكة ويرثون ديارهم ، والمراد بهم أهل مكة ، والمعنى أو لم يبين ويوضح لهم عاقبة أمرهم أن سلكوا طريق أسلافهم ﴿ أَنْ ﴾ مخففة أي : أنَّ الشأن ﴿ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : بسبب ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي : نختم عليها عقوبة لهم ﴿ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ أي : أخبار الأمم المهلكة ، فضلاً عن التدبر والنظر فيها والاغتنام بما في تضاعيفها من الهدايات .

﴿ تِلْكَ القُرَىٰ ﴾ يعني قرى الأمم المار ذكرهم ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ﴾ أي : بعض أخبارها التي فيها عظة وتذكير ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ ﴾ أي : وبالله لقد جاء كل أمة من تلك الأمم المهلكة ، رسولهم الخاص بهم ، بالمعجزات الواضحة ، الدالة على صحة رسالته ، الموجبة للإيمان حتماً ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أي : فما صح وما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمنوا عند مجيء الرسل بها ﴿ بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : بما كذبوه من قبل مجيء الرسل ، بل كانوا مستمرين على التكذيب ، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ﴾ أي : مثل ذلك الطبع الشديد المحكم يطبع ﴿ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الكَافِرِينَ ﴾ أي : من المذكورين وغيرهم فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر ، أي : مثل ذلك الطبع الذي طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية ، يطبع على قلوب الكفرة الذين كتب عليهم أن لا يؤمنوا

أبداً ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ﴾ ﴿ مِنْ ﴾ مزيدة والمضاف محذوف إذ لا وجه لنفي نفس العهد أي : ما وجدنا لأكثرهم من وفاء عهد ، فإنهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه عند مساس البأساء والضراء ، قائلين : (لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة أي : إنَّ الشأن ﴿ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ ﴾ أي : علمنا أكثر الأمم ﴿ لَفَاسِقِينَ ﴾ خارجين عن الطاعة ناقضين للعهود :

أيا سامعاً ليس السماع بنافع * إذا أنت لم تفعل فما أنت سامع
إذا كنت في الدنيا عن الخير عاجزاً * فما أنت في يوم القيامة صانع ؟

ولا كلام في وفاء الأنبياء بعهودهم ، ونقض الفاسقين لمواثيقهم ، وإنما الكلام فيمن ادعى الإيمان والاستسلام ، ثم لم يف بعهده يوماً من الأيام .

عن عبد الرحمن بن عوف قال : « كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ وكنا حديثي عهد ببيعته ، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتقيموا الصلوات الخمس ، وتطيعوا ـ وأسرَّ كلمة خفية ـ ولا تسألوا الناس ، فلقد رأيت بعض أولئك النفر ، يسقط سَوْطُ أحدهم لا يسأل أحداً يناوله إياه »[1] ، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ ﴾ أي : أرسلنا من بعد انقضاء وقائع الرسل المذكورين ، وهم نوح ، وهود ، ولوط ، وصالح ، وشعيب عليهم السلام ، والتصريح بذلك للإيذان بأن بعثه عليه السلام جرى على سنن الإلهية من إرسال الرسل تترى ، فإن الله تعالى من كمال رحمته على خلقه ، يبعث عند انقراض كل قوم نبياً بعد نبي ، كما يخلف قوماً بعد قوم ، وقرناً بعد قرن ، ويظهر المعجزات على يدي النبي ، ليخرجهم بظهور المعجزات من ظلمات الطبيعة إلى نور الحقيقة ، فإن أغلب أهل كل زمان وأكثرهم غافلون عن الدين وحقائقه ، مستغرقون في بحر الدنيا مستهلكون في أودية الشهوات واللذات النفسانية الحيوانية ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أي : بعثناه عليه السلام ملتبساً بآياتنا ، وهي الآيات التسع المفصلات التي هي : « العصا ، واليد ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم » كما سيأتي ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ هو لقب لكل من ملك مصر من العمالقة ، كما أن كسرى لقب لكل من ملك فارس ، وقيصر لكل من ملك الروم ، واسمه قابوس وقيل : « الوليد بن مصعب بن ريان » وكان من القبط ، وعمَّر أكثر من أربعمائة سنة ﴿ وَمَلَائِهِ ﴾ أي : أشراف قومه ، ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أي : كفروا بالمعجزات ، وظلموا بأن جعلوها سحراً فوضعوها في غير موضعها ﴿ فَانْظُرْ ﴾ بعين عقلك يا من شأنه

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، وأبو داود والنسائي ، إلا أن لفظ النسائي أخصر ، ورواه ابن ماجه في الجهاد « باب البيعة » رقم / ٢٨٦٧ / وانظر جامع الأصول ١ / ٢٥٤ .

النظر والتأمل ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ إلى كيفية ما فعلنا بهم ، ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ أي : لما دخل على فرعون ومعه أخوه هارون بعثهما الله بالرسالة قال ﴿ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ ﴾ أي : إليك ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أدعوك إلى عبادة رب العالمين ، وأنهاك عن دعوى الربوبية ، فقال له فرعون : كذبتَ ما أنت برسول ، فقال موسى : ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللهِ إلا الْحَقَّ ﴾ أي : جدير بأن لا أقول على الله إلا الحق ، ويجوز تعلق على بمعنى الفعل في الرسول أي : إني رسول « حقيقٌ » جدير بالرسالة ، أرسلت على أن لا أقول على الله إلا الحق ، ثم إن موسى لما ادعى أنه رسول من رب العالمين ، ذكر ما يدل على صحة دعواه فقال : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ ﴾ أي : بمعجزة ظاهرة كائنة ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يعني : العصا واليد ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي : فخلهم حتى يذهبوا معي إلى الأرض المقدسة ، التي هي وطن آبائهم ، وكان قد استعبدهم ، وكان يستعملهم في الأعمال الشاقة مثل ضرب اللبن ، ونقل التراب ، وبناء المنازل وأشباه ذلك ، فلما جاء موسى أراد أن يرجع بهم إلى موطن آبائهم ، وهو الأرض المقدسة ، وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر ، واليوم الذي دخل فيه موسى أربعمائة عام ﴿ قَالَ ﴾ فرعون ﴿ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ﴾ أي : من عند من أرسلك كما تدعيه ﴿ فَأْتِ بِهَا ﴾ فأحضرها عندي ليثبت بها صدقك ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في دعواك ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ من يده ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴾ وهو الحية الصفراء الذكر ، أعظم الحيات ، لها عرف كعرف الفرس ﴿ مُبِينٌ ﴾ أي : ظاهرٌ أمره ، لا يشك في كونه ثعباناً ، روي أنه لما ألقاها ، صارت ثعباناً أشعر ، فاغراً فاه ، ثم توجه نحو فرعون فهرب منه ، وانهزم الناس مزدحمين ، فصاح فرعون يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بني إسرائيل ، فأخذه فعاد عصا ، ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أي : أخرجها من جيبه أو من تحت إبطه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أي : بيضاء بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة ، غلب شعاعها شعاع الشمس ، وكان عليه السلام آدم شديد الأدمة ، ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : الأشراف منهم وهم أصحاب مشورته ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في علم السحر ماهر فيه ، ولما كان السحر غالباً في ذلك الزمان ، زعم القوم أن موسى كان حاذقاً في علم السحر ، بالغاً فيه إلى أقصى الغاية ، وأنه جعل علمه وسيلة إلى طلب الملك والرسالة فلذلك قالوا ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ ﴾ بسحره ﴿ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ مصر ويجعل الحكومة لبني إسرائيل ، فلما سمع فرعون هذا قال ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ بأي : شيء تأمرونني أي : فإذا كان كذلك فماذا تشيرون ﴿ قَالُوا ﴾ لفرعون ﴿ أَرْجِهْ ﴾ أصله أرجئه والإرجاء : التأخير ﴿ وَأَخَاهُ ﴾ هارون ، والمعنى أخر أمرهما ولا تعجل ﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ ﴾ المدائن : جمع مدينة ، والمدائن صعيد مصر وكان له مدائن فيها السحرة ، والمعنى وابعث الشرط إلى هذه المدائن ﴿ حَاشِرِينَ ﴾ أي : حاشرين السحرة ، والمعنى

ليحشروا ويجمعوا إليك من فيها من السحرة ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ أي : ماهر في السحر ، والسحر في اللغة لطف الحيلة في إظهار الأعجوبة ، ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ بعدما أرسل إليهم الحاشرين ﴿ قَالُوا ﴾ واثقين بغلبتهم ﴿ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ ﴾ بطريق الإخبار بثبوت الأجر ، كأنهم قالوا لابد لنا من أجرٍ عظيم حينئذ ، ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ أي : إن لكم لأجراً ﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ مع ذلك ﴿ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ عندي في المنزلة ، قال الكلبي : قال لهم تكونون أول من يدخل مجلسي ، ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ أي : عصاك أولاً ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ أي : حبالنا وعصينا أولاً خيروا موسى عليه السلام فإن كلمة إما فيها للتخيير ، قال المفسرون : تأدبوا مع موسى عليه السلام فكان ذلك سبب إيمانهم ﴿ قَالَ أَلْقُوا ﴾ أمرهم بالإلقاء لتأكيد المعجزة ، وتسامحاً وازدراء بهم ، وتوثقاً بشأنه ، والمعنى ألقوا ما تلقون ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ ما ألقوه ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ بأن خيلوا إليهم ما لا حقيقة له ، بسبب ما فعلوه من التمويهات ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أي : بالغوا في إرهابهم ﴿ وَجَاؤُا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ في وقته ، روي أنهم جمعوا حبالاً غلاظاً كأنها حيات جسام غلاظ ، ولطخوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا الزئبق داخل تلك العصيِّ فلما أثرت حرارة الشمس فيها تحركت والتوى بعضها ببعض ، وكانت كثيرة جداً تخيل الناس أنها تتحرك وتتلوى باختيارها ، وصار الميدان كأنه مملوء بالحيات ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ الفاء فصيحة ، أي : فألقاها فصارت حية فإذا هي تلقم وتبتلع بسرعة ما يزوّرون من الإفك ، وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه ، روي : أنها لما تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعتها بأسرها أقبلت على الحاضرين ، فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم ، ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت ، فقالت السحرة لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصيُّنا ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ ﴾ أي : ثبت وصدق موسى عليه السلام في قوله (إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) حيث صدقه الله تعالى بما أظهر على يده من المعجزة الباهرة ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : ظهر بطلان ما كانوا مستمرين على عمله وهو السحر ﴿ فَغُلِبُوا ﴾ أي : فرعون وأتباعه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ أي : في مجلسهم ﴿ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ أي : صاروا أذلاء مبهوتين ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ أي : خروا سجداً كأنما ألقاهم ملق لشدة خرورهم ، كيف لا وقد بهرهم الحق ، واضطرهم إلى ذلك ؟! ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ قال ابن عباس : آمنت السحرة واتبع موسى من بني إسرائيل ستمائة ألف ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ منكراً على السحرة موبخاً لهم على ما فعلوه ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ بهمزة واحدة على الاستفهام التوبيخي ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أي : بغير إن آذن لكم لا أن الإذن منه ممكن في ذلك

﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ ﴾ يعني : إن ما صنعتموه ليس مما اقتضى الحال صدوره عنكم لقوة الدليل وظهور المعجزة ، بل هو حيلة احتلتموها أنتم وموسى ﴿ فِي المَدِينَةِ ﴾ يعني مصر قبل أن تخرجوا إلى الميعاد ﴿ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ يعني : القبط وتخلص لكم ولبني إسرائيل ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبةَ ما فعلتم وهو تهديد مجمل ، تفصيله ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ﴾ أي : من كل شق طرفاً يعني أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى ﴿ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ على شاطىء نهر مصر على جذوع النخل تفضيحاً لكم وتنكيلاً لأمثالكم ، ﴿ قَالُوا ﴾ ثابتين على ما أحدثوا من الإيمان ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ راجعون بالموت لا محالة ، فلا نبالي بوعيدك ، كأنهم استطابوه شغفاً على لقاء الله تعالى .

﴿ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا ﴾ أي : وما تنكر وما تعيب منا ﴿ إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ وهو خير الأعمال ليس مما يتأتى لنا العدول عنه طلباً لمرضاتك ، ثم فزعوا إلى الله تعالى فقالوا ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ أي : أفضْ علينا من الصبر ، على وعيد فرعون ما يغمرنا ، كما يغمر الماء ، فإفراغ الماء أي : صبه من قبيل الاستعارة ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ ثابتين على ما رزقتنا من الإسلام غير مفتونين ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فأخذ فرعون السحرة فقطعهم ثم صلبهم على شاطىء نيل مصر .

﴿ وَقَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ روي : أن فرعون بعد ما رأى من موسى عليه السلام ما رأى ، من معجزة العصا واليد خافه أشد الخوف ، فلذلك لم يجب ولم يتعرض له بسوء ، بل خلَّى سبيله فلذلك قال له أشراف قومه ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ ﴾ أي : أتتركهم ﴿ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ أي : يفسدوا على الناس دينهم في أرض مصر ، ويصرفوهم عن متابعتك ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ معبوداتك ، قيل : صنع لقومه أصناماً على صورته ، وأمرهم بأن يعبدوها تقرباً إليه ، ولذلك قال أنا ربكم الأعلى ﴿ قَالَ ﴾ فرعون مجيباً لهم ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ أي : نتركهن أحياء ولا نقتلهن ، بل نستخدمهن ، والمقصود سنعود إلى قتل أبناءهم ، واستخدام نسائهم ، كما كنا نفعل وقت ولادة موسى ، ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ، ولا يتوهم أنه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يديه ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ أي : مستعلون عليهم بالقوة ، وهم مقهورون تحت أيدينا ، ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ تسلية لهم حين سمعوا قول فرعون ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا ﴾ على ما سمعتم من أقاويله الباطلة ﴿ إِنَّ الأَرْضَ للهِ ﴾ أي : أرض مصر ﴿ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي : يجعلها إرثاً لعباده المؤمنين ، ﴿ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الذين أنتم منهم ، لأنه روي أنه لما غلب

سحرة فرعون ، وتبين نبوة موسى بسطوع حجته ، آمن بموسى من بني إسرائيل ستمائة ألف نفس ، واتقوا الشرك والعصيان ، وفيه إيذان بأن الاستعانة بالله تعالى والصبر من باب التقوى .

﴿ قَالُوا ﴾ أي : بنو إسرائيل ﴿ أُوْذِينَا ﴾ أي : من جهة فرعون ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ أي : بالرسالة ، يعنون بذلك قتل أبنائهم قبل مولد موسى عليه السلام وبعده ﴿ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ أي : رسولاً يعنون به ما توعدهم به من إعادة قتل الأبناء وسائر ما كان يفعل بهم لعداوة موسى عليه السلام من فنون الجور والظلم والعذاب ، ﴿ قَالَ ﴾ أي : موسى عليه السلام لما رأى شدة جزعهم مما يشاهدونه مسلياً لهم ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ أي : يرجى أن ربكم قارب إهلاك عدوكم ، الذي توعدكم بالعذاب ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ أي : يجعلكم خلفاء في أرض مصر ، ﴿ فَيَنْظُرَ ﴾ أي : فيرى ﴿ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أحسناً أم قبيحاً ؟ فيجازيكم حسبما يظهر منكم من شكر وكفران ، وطاعة وعصيان ، وفي الحديث : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون »[1] أي : فناظر هل تعتبرون بحالهم وتتدبرون في مآلهم ؟

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : قوم فرعون وأهل دينه ، وآل الرجل خاصته الذين يؤول أمره إليهم ﴿ بِالسِّنِينَ ﴾ جمع سنة إلا أنها غلبت على عام القحط ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ بإصابة العاهات زيادة في القحط ، لأن الثمار قوت الناس وغذاؤهم ، وعن كعب يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة ، قال ابن عباس : أما السنون فكانت لباديتهم وأهل ماشيتهم ، وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ كي يتذكروا ويتعظوا بذلك ، ويتيقنوا أن ذلك لأجل معاصيهم ، وينزجروا عما هم عليه من العتو والعناد ، ودلت الآية على أن المحن والشدائد موجبات الانتباه والاعتبار ، ولكن لأهل السعادة وأولي الأبصار ، فأما أهل الشقاوة فلا ينبههم كثرة النعمة ولا يوقظهم شدة النقمة .

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ أي : السعة والخصب وغيرهما من الخيرات ﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ أي : لأجلنا واستحقاقنا لها ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي : جدب وبلاء ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ أي : يتشاءموا بموسى وأصحابه ، ويقولوا : ما أصابتنا إلا بشؤمهم ، وأصله يتطيروا أدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجها ، ﴿ أَلا ﴾ اعلموا ﴿ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ ﴾ أي : سبب ما أصابهم من الخير والشر ، إنما هو عند الله تعالى ، وهي قضاؤه وتقديره ومشيئته ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما يصيبهم من الله تعالى ، أو من شؤم أعمالهم فيقولون ما يقولون ، واعلم أن الطير بمعنى التشاؤم ، والاسمُ

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وتمامه : « فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » .

منه الطيرة على وزن العِنَبة ، وهو ما يتشاءم به من الفأل الرديء ، والأصل في هذا أن العرب كانوا يتفاءلون بالطير ، فإن خرج أحدهم إلى مقصده وأتى الطير من ناحية يمينه يتيَمَّنُ به ويتبرك ، وإن أتى من ناحية شماله يتشاءم به فيرجع إلى بيته ، وأبطل النبي عليه الصلاة والسلام الطيرة بقوله : « الطِّيَرَةُ شرك » [١] قاله ثلاثاً ، وإنما قال شرك لاعتقادهم أن الطيرة تجلب لهم نفعاً ، أو تدفع عنهم ضراً ، إذا عملوا بموجبها فكأنهم أشركوها مع الله تعالى قال ابن مسعود : لا تضرُّ الطيرة إلا من تطيَّر ، ومعناه أن من تطيَّر تطيراً منهياً عنه فإنه قد يصيبه ما يكرهه ، فأما من توكل على الله ووثق به ، بحيث علَّق قلبه بالله خوفاً ورجاء ، وقطعه عن الالتفات إلى الأسباب المخوفة وقال ما أمر به من الكلمات ومضى فإنه لا يضره ، فالمراد بالكلمات ما ورد : « اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ما شاء الله كان ، لا يأتي بالحسنات إلا الله ، ولا يذهب بالسيئات إلا الله ، وأشهد أن الله على كل شيء قدير » [٢] ثم يمضي إلى حاجته ، ومعنى « لا طير إلا طيرك » أي : كل ما أصاب الإنسان من الخير والشر ، واليمن والشؤم ، ليس إلا بقضائك وتقديرك ، وحكمك ومشيئتك وفي الحديث : « الشؤم في المرأة والفرس والدار » [٣] فشؤم المرأة سوء خلقها ، أو غلاء مهرها ، وقيل : أن لا تلد ، وشؤم الفرس عدم انقياده أو أنه لا يغزى عليه ، وشؤم الدار ضيقها أو سوء جارها ، واعترض عليه بحديث « لا طيرة » أجاب ابن قتيبة بأن هذا مخصوص منه ، أي : لا طيرة إلا في هذه الثلاث .

ولا بأس بأن يتفاءل بالفأل الحسن ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يحب الفأل ، ويكره الطيرة ، والفأل الحسن هي الكلمة الصالحة يسمعها من أخيه ، نحو أن يسمع أحد وهو طالب أمرٍ يا واجد يا نجيح ، أو يكون في سفر فيسمع يا راشد ، يعني يا واجد الطريق المستقيم ، أو مريضاً فيسمع يا سالم ، فالتفاؤل بالأمور المشروعة مشروع ، والطيرة منهي عنها ، فبعض الأوضاع يدل على بعض الأحوال ، كما أن بعض الأسماء يدل على بعض الأمور ، كما حكي أن عمر رضي الله عنه قال لرجل : ما اسمك ؟ قال : جمرة ، قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب ، قال : من أين ؟ قال : من الحرقة ؟ قال : أين تسكن ؟ قال : في الحرة ، وهي أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت ، فقال عمر : أدرك أهلك فقد احترقوا ، فرجع فوجدهم قد احترقوا ، وأراد عمر رضي الله عنه الاستعانة برجل فسأله عن اسمه فقال : ظالم بن سراق ، فقال : تظلم أنت ، ويسرق أبوك ؟ ولم يستعن ، ودل هذا على تبديل الأسماء القبيحة بالأسماء

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم بلفظ : « إنما الشؤم في ثلاثة : في الفرس ، والمرأة ، والدار » .

الحسنة ، فإن في الأسماء الحسنة التفاؤل .

والله الهادي إلى الحسنات وهو دافع السيئات ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي : فرعون وقومه بعدما رأوا من شأن العصا والسنين ونقص الثمرات ﴿ **مَهْمَا** ﴾ اسم شرط يجزم فعلين ، أي : أيَّ شيء ﴿ **تَأْتِنَا بِهِ** ﴾ تظهر لدينا وتحضره ﴿ **مِنْ آيَةٍ** ﴾ سموها آية على زعم موسى لا لاعتقادهم ﴿ **لِتَسْحَرَنَا بِهَا** ﴾ أي : لتسحر بتلك الآية أعيننا ﴿ **فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ أي : بمصدقين لك ، ومؤمنين بنبوتك ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم** ﴾ روي : أن القوم لما عالجهم موسى بالآيات فكفروا ، دعا عليهم فقال : يارب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا ، وإن قومه نقضوا عهدك فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ، ولقومي عظة ، ولمن بعدهم عبرة ، فأرسل الله عليهم عقوبة لجرائمهم ﴿ **الطُّوفَانَ** ﴾ أي : الماء الذي طاف بهم ، وغشي أماكنهم وحرثهم ، من مطر أو سيل ﴿ **وَالْجَرَادَ** ﴾ وهو الجراد البري ، وليس في الحيوان أكثر فساداً لما يقتاته الإنسان من الجراد ، وأجمع المسلمون على إباحة أكله ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « أحلت لنا ميتتان ودمان : الكبد والطحال ، والسمك والجراد »[1] ﴿ **وَالْقُمَّلَ** ﴾ هو كبار القردان ، وهو جمع قراد مسلط على البعير ، وقيل : هو السوس الذي يخرج من الحنطة ، وقيل : إنه شيء يقع في الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهي غضة قبل أن تقوى فيطول الزرع ولا سنبل له ، ﴿ **وَالضَّفَادِعَ** ﴾ جمع ضفدع في اللغة والأنثى ضفدعة ، والضفادع أنواع كثيرة ، وفيها ما ينق وفيها ما لاينق ، وتوصف بحدة السمع إذا تركت النقيق ، وإذا أرادت أن لا تنق أدخلت فكها الأسفل في الماء ، ومتى دخل الماء في فيها لا تنق ، وما أظرف قول بعض الشعراء وقد عوتب في كلامه :

قالت الضفدعُ قولاً * فسَّرَتْه الحكماء

في فمي ماء وهل * ينطق من في فيه ماء ؟

قال سفيان : يقال إنه ليس شيء أكثر ذكراً لله منه ، قال الزمخشري : تقول في نقيقها : « سبحان الملك القدوس » ، ﴿ **وَالدَّمَ** ﴾ روي : أن الله أرسل عليهم الضفادع ، بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه ، وكانت تمتلىء منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلى ، وإلى أفواههم عند التكلم ، وكان بعضهم لا يسمع كلام بعض من كثرة صراخ الضفادع ، وكانوا إذا قتلوا واحداً منها خافوا ما حول محله حتى لا يستطيعون الجلوس فيه ، ففزعوا إلى موسى وتضرعوا ، فأخذ عليهم العهود فدعا فكشف الله عنهم بريح عظيمة نبذتها في البحر ، فنقضوا العهد ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم وآبارها وأنهارها دماً أحمر عبيطاً ، حتى كان يجتمع القبطي والإسرائيلي على إناء ، فيكون ما يليه دما وما يلي

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في الأطعمة وأحمد في المسند ٢ / ٩٧ .

الإسرائيلي ماء على حاله .

وكانوا لا يأكلون ولا يشربون سبعة أيام إلا الدم ، فقال فرعون : أقسم بإلهك يا موسى لئن كشفت عنا هذا الدم لنؤمنن لك ، فدعا الله فعَذُبَ ماؤهم ، فعادوا لكفرهم ، إلى أن كان من أمر الغرق ما كان ﴿ **آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ** ﴾ أي : أرسلنا عليهم هذه الأشياء حال كونها آيات وعلامات مبينات ، لا يشكل على عاقل أنها آيات الله ونقمته ، ﴿ **فَاسْتَكْبَرُوا** ﴾ أي : تعظموا عن الإيمان بها ﴿ **وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ** ﴾ أي : تعودوا الإجرام وارتكاب الذنوب العظام ﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ** ﴾ أي : العذاب المذكور من الطوفان وغيره أي : كلما وقع عليهم عقوبةٌ من تلك العقوبات ﴿ **قَالُوا** ﴾ في كل مرة ﴿ **يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ** ﴾ المراد بالعهد : النبوة ، أي : ادع لنا ربك يكشف عنا العذاب ، بحق ما عندك من عهد الله تعالى وهو النبوة ، فإن حق النبوة ومقتضاها أن يدعو النبيُّ لأمته ، لدفع ما أصابهم من البلايا والمحن ، ﴿ **لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ** ﴾ الذي وقع علينا ﴿ **لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ إلى موطن آبائهم وهو الأرض المقدسة ، ولنطلقنهم من التسخير والأعمال الشاقة ﴿ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ** ﴾ أي : إلى حد من الزمان ، وهو وقت الغرق ﴿ **إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ** ﴾ أي : فلما كشفنا عنهم فاجأوا النكث من غير تأمل وتوقف ﴿ **فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ** ﴾ أريد بالانتقام الإهلاك ، وإنما أسند الانتقام إلى ذاته لأن الأنبياء كانوا فانين عما سوى الله ، فكان الله خليفتهم في أخذ الانتقام من أعدائهم ، والمعنى : فأردنا الانتقام من فرعون وقومه ، لما أسلفوا من المعاصي والجرائم ﴿ **فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ** ﴾ أي : أغرقناهم في البحر الذي لا يدرك قعره ﴿ **بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ** ﴾ تعليل للإغراق أي : إنما كان بسبب تكذيبهم بالآيات التسع ، التي جاء بها موسى وإعراضهم عنها ، وعدم تفكرهم فيها بحيث صاروا كالغافلين عنها بالكلية ، ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ** ﴾ يعني : بني إسرائيل ﴿ **كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ** ﴾ أي : يستضعفهم القبط ، ويقهرونهم ويستذلونهم ، بذبح الأبناء ، واستخدام النساء ﴿ **مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا** ﴾ مفعول ثانٍ لأورثنا ، والأرض : أرض الشام ومشارقها ومغاربها : جهاتها الشرقية والغربية ، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، ﴿ **الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا** ﴾ بالخصب وسعة الأرزاق ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ** ﴾ المراد بالكلمة : وعدهُ تعالى إياهم بالنصر والتمكين ، وهو ما ذكره بقوله (**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ**) وتمامها مضيها وانتهاؤها إلى الإنجاز لأن العدة بالشيء التزام لإيقاعه بالعبارة واللسان ، وتمامها لا يكون إلا بوقوع الموعود في الخارج

والعيان ﴿ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أي : بسبب صبرهم على الشدائد ، التي كابدوها من جهة فرعون وقومه ﴿ ودَمَّرْنَا ﴾ أي : خرَّبْنا وأهلكنا ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ ﴾ من العمارات والقصور أي : ودمرنا الذي كان فرعون يصنعه ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ أي : يرفعون من الجنات أي : الكروم والأشجار ، وأشارت الآية إلى أن العزيز من أعزه الله ، والذليل من أذله الله ، ومن صبر على مقاساة الذل في الله ، تَوَّجَهُ اللهُ بتاج العزة ، وجعل له حسن العاقبة ، والله تعالى كما وعد لبني إسرائيل وأنجز وعده فاستخلفهم في مشارق الأرض ومغاربها كذلك وعد لهذه الأمة كما قال تعالى (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) والمراد بالأرض : أرضُ الكفار من العرب والعجم ، وفي الحديث : « إن الله زوى لي الأرض فرأيتُ مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها »[1] ، ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ البَحْرَ ﴾ يقال : جاوز وجاز بمعنى واحد ، وجاوز الوادي إذا قطعه ، وجاوز بغيره البحر عبر به ، فكأنه قال : وجزنا ببني إسرائيل البحر ، والمراد بحر القلزم ، وأخطأ من قال إنه نيل مصر ، روي : أنه عبر بهم موسى عليه السلام يوم عاشوراء فصاموا شكراً لله تعالى ﴿ فَأَتَوْا ﴾ أي : مروا ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ كانوا من العمالقة الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم ﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ أي : يواظبون على عبادتها ويلازمونها ﴿ قَالُوا ﴾ عندما شاهدوا أحوالهم ﴿ يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً ﴾ مثالاً نعبده ﴿ كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ يعبدونها ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ وصفهم بالجهل المطلق ، بعدما شاهدوا من الآية الكبرى والمعجزة العظمى ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ ﴾ يعني القوم الذين يعبدون تلك التماثيل ﴿ مُتَبَرٌّ ﴾ أي : مكسَّر ومهلك ﴿ مَا هُمْ فِيهِ ﴾ أي : من الدين الباطل ، يعني إن الله تعالى يهدم دينهم الذي هم عليه عن قريب ، ويحطم أصنامهم ويجعلها رضاضاً أي : فتاتاً ﴿ وَبَاطِلٌ ﴾ أي : مضمحل بالكليَّةِ ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من عبادتها وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى ، فإنه كفر محض ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ أَغَيْرَ اللهِ ﴾ أغيرَ المستحق للعبادة ﴿ أَبْغِيكُمْ ﴾ أي : أبغي لكم أي : أطلب لكم ﴿ إِلَهاً ﴾ أي : رباً تعبدونه ﴿ وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ أي : والحال أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم ، وهي الآيات القاهرة والمعجزات الباهرة ؟ نبَّههم على سوء معاملتهم حيث قابلوا النعم بأن قصدوا إلى أخس شيء من مخلوقاته فجعلوه شريكاً له تعالى .

ثم ذكر نعمة الإنجاء فقال : ﴿ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أي : واذكروا يا بني إسرائيل

(١) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ، ورواه أبو داود والترمذي وأحمد وابن ماجه ، وانظر الفتح الكبير ١ / ٣٣٦

صنيعة الله معكم ، في وقت إنجائكم وتخليصكم من أيدي آل فرعون ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ ﴾ أي : يبغونكم أشد العذاب وأفظعه ، من سام السلعة إذا طلبها ﴿ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ أي : يذبحونهم ﴿ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ أي : يستبقونهن للاستخدام ﴿ وَفِي ذٰلِكُمْ ﴾ أي : الإنجاء أو سوء العذاب ﴿ بَلاءٌ ﴾ أي : نعمة أو محنة فإن البلاء يطلق على كل واحد منهما قال تعالى (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ) ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ من مالك أموركم فإن النعمة والنقمة كليهما منه سبحانه وتعالى ﴿ عَظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره ﴿ وَوَاعَدْنَا ﴾ الوعد عبارة عن الإخبار بإيصال المنفعة قبل وقوعها ﴿ مُوسَىٰ ﴾ اسم عجمي لا اشتقاق فيه ﴿ ثَلاثِينَ لَيْلَةً ﴾ أي تمام أو مكث ثلاثين ليلة ﴿ وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ أي : زدنا على تلك الثلاثين عشر ليال ﴿ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ ﴾ ما وُقِّت له في الوقت الذي ضُرب له ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ أي : تم بالغاً هذا العدد ، روي : أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر ، إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ، فأمره بصوم ثلاثين وهو ذو القعدة بتمامه ليكلمه ويوحي إليه ويكرمه بما يتم به أمر نبوته ، فصامهن موسى عليه السلام ، ثم لما أتم الثلاثين وانسلخ الشهر ، أنكر خلوف فيه أي : كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم ، فتسوَّك بعود خرنوب ، وتناول شيئاً من نبات الأرض فمضغه ، فأوحى الله تعالى إليه : أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك ؟ فأمره الله تعالى بأن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة ، ثم إن موسى عليه السلام لما أراد الانطلاق إلى الجبل للمناجاة ، أمره الله تعالى أن يختار سبعين رجلاً من قومه ، من ذوي الحِجَى والعقل ، ليشهدوا له على ما يشاهدونه من كرامة الله تعالى إياه ففعل ، واستخلف هارون أخاه في قومه كما قال تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ ﴾ قبل انطلاقه إلى الجبل ﴿ اخْلُفْنِي ﴾ كن خليفتي وقم مقامي ﴿ فِي قَوْمِي ﴾ وراقبهم فيما يأتون ويذرون ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ ما يحتاج إلى الإصلاح من أمورهم ، وسر فيهم السيرة الصالحة التي لا فساد فيها ﴿ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ المُفْسِدِينَ ﴾ أي : ولا تتبع من سألك الإفساد ، ولا تطع من دعاك إليه ، وذلك أن موسى عليه السلام كان يشاهد كثرة خلافهم حالاً بعد حال فأوصاه في أمرهم ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا ﴾ أي : لوقتنا الذي وقتناه وحددناه له ، وهو تمام الأربعين ﴿ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ من غير واسطة وكيفية ، كما يكلم الملائكة وكان جبريل معه فلم يسمع ما كلمه ربه ولذا خص باسم الكليم لاختصاصه بذلك من بين البشر ، فإن سائر الأنبياء عليهم السلام ، إنما يكلمهم الله بواسطة الكتاب والملك . إن قيل : لِمَ لَمْ يكلم الله سائر الأنبياء مشافهة إلا موسى ؟ قيل : لأنه لم يكن لهم من الأعداء ما لموسى « كفرعون ، وهامان ، وقارون ، واليهود » ولم يكن قوم أسوأ أدباً وأقسى قلباً من قومه ، فخصه الله بكلامه ، ألا ترى سحرة القبط آمنوا في أول دعوته ، وكفر قوم من اليهود بعد مشاهدتهم معجزات

كثيرة ، فأيده الله بكلامه ليتحمل به ما امتحن به من البلايا في قومه ، ولما سمع موسى كلام ربه غلب عليه الشوق إلى رؤيته ، وقال هذه لذة الخبر ، فكيف لذة النظر ؟ فسأل الرؤية ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي ﴾ ذاتك أي مكنّي من رؤيتك ﴿ أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أرك فالنظر بمعنى الرؤية ، إلا أن المطلوب بقوله (أَرِنِي) ليس أن يخلق الله تعالى رؤية ذاته المقدسة في موسى ، بل المطلوب به أن يمكنه من رؤية ذاته المقدسة ، وتمكينه تعالى إياه من الرؤية سبب لرؤية موسى إياه تعالى ، واعلم أن الأجساد تنمو بناء الأقوات ، كذلك الأحوال تصفو بصفاء الأوقات ، فقوت جسدك ما غذيته من الطيبات ، وقوت روحك ما ربيت من أقوات الطاعات في أوقات الخلوات ، وكلما صفت الأواني جلت ما فيها من جواهر المعاني ، فإذا كانت عين بصيرتك منطمسة ، فما لك والتطاول إلى منازل قوم عيون قلوبهم منبجسة ، وسرائرهم لأنوار معارفهم مقتبسة ، فلا تَدَّعِ بما ليس فيك ، وحسبك ما يعلم الله منك ويكفيك ، فينبغي لك أن تقف وقوف الأصاغر وتتأدب بآداب الأكابر ، والآية حجة أهل السنّة والجماعة على جواز رؤية الله تعالى ، فإن موسى اعتقد جوازها حين سألها ، واعتقاد جواز ما لا يجوز على الله تعالى كفر ، ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى وهو استئناف بياني ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ لم يقل لن تنظر إليَّ كقوله (أَنْظُرْ إِلَيْكَ) لأن المطلوب هي الرؤية ، التي معها إدراك ، لا النظر الذي هو عبارة عن تقليب الحدقة نحو المرئي لأنه قد تخلف عنه الإدراك في بعض الصور ، وهو دليل لنا أيضاً لأنه لم يقل « لن أُرَى » ليكون نفياً للجواز ، ولو لم يكن مرئياً لأخبر بأنه ليس بمرئي إذِ الحالةُ حالة الحاجة إلى البيان ، فهو لا يدل على امتناع رؤيته في نفس الأمر ، بل يدل على قصور الطالب عن رؤيته ، لتوقف الرؤية على حصول ما يستعد به الطالب لرؤيته ، والمراد لن تراني ببشريتك ووجودك ، لأن البشرية تنافي الرؤية ، وموسى عليه السلام إنما سأل الرؤية بالنسبة إلى ظاهر البشرية والوجود الكوني ، وهي لا تمكن أبداً ، فإن قلت ما الحكمة الربانية في منعه الرؤية في الموطن الدنيوي ؟ قلت : لأن الرؤية غاية الكرامة في الدنيا ، وغاية الكرامة فيها لأكرم الخلق ، وهو سيدنا محمد ﷺ صاحب المقام المحمود ، الذي شاهد ربه ليلة المعراج بعيني رأسه[1]، وقول المعتزلة : كلمة « لن » مفيدة لتأبيد النفي ، دعوى باطلة على أهل اللغة ، لا يشهد لصحتها كتاب معتبر ولا نقل صحيح ، ويدل على فسادها قوله تعالى في صفة اليهود (وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً) مع أنهم يتمنون الموت يوم القيامة ويقولون فيه (يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) (وَيَالَيْتَهَا كَانَتْ القاضية ﴾ أي: الموت فالإخبار بأن موسى لا يرى الله لا يدل على أنه لا يراه أبداً كما ذهبت إليه المعتزلة .

---

(١) هذا القول ورد عن ابن عباس بسند صحيح ، وما رأى محمد ربه في عالم الدنيا إنما في عالم الملكوت ، وأنكرت عائشة الرؤية وإلى رأي ابن عباس ذهب أحمد والجمهور .

﴿ وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ﴾ أي : لا تطلب النظر إليَّ فإنك لا تطيقه ، ولكن اجعل بيني وبينك ما هو أقوى منك وهو الجبل الذي بحضرتك ، ﴿ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ﴾ أي : سكن وثبت ﴿ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ فسوف تطيق أن تنظر إليَّ ، وإن لم يستقر مكانه فإنك لا تطيق النظر إليَّ ، فإن الجبل مع صلابته لَّما تأثر من التجلي ولم يُطِقْ ذلك ، بل أندك وتفتت وتلاشى ، فكيف يطيق الإنسان الذي يدهش عند مشاهدة الأمور الهائلة ؟ فكيف عند مشاهدة ذي العظمة والجلال ؟ ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ ﴾ ظهر له عظمته ، وتصدى له اقتداره وأمره ، وكشف نوره من حجبه ، قدر ما بين الخنصر والإبهام ، وعن سهل بن سعد الساعدي أن الله أظهر من سبعين ألف حجاب ، نوراً قدر الدرهم ، ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أي : صيَّره مدكوكاً مفتتاً ، وإذا حلَّ بالجبل ما حلَّ مع عظم خلقه ، فما ظنك بابن آدم الضعيف ؟ قال بعض العلماء : جعل الله الجبل فداء لموسى ، ولولا أن موسى كان مدهوشاً لذاب كما ذاب الجبل ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ أي : سقط مغشياً عليه من هول ما رأى ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ ﴾ من صعقته ، والإفاقة : رجوع العقل والفهم إلى الإنسان بعد ذهابها ﴿ قَالَ ﴾ تعظيماً لما شاهده ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أي : تنزيهاً لك من أسألك بغير إذن منك ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ أي : من الجراءة والإقدام على السؤال في الدنيا ، فإنك إنما وعدتها في الآخرة ﴿ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : بعظمتك وجلالك أو أول من آمن بأنك لا تُرى في الدنيا ، واعلم أن المعتزلة أنكروا رؤية الله تعالى ، حتى قال صاحب الكشاف تشنيعاً وتقبيحاً وتضليلاً لأهل السنّة والجماعة :

لَجَاعَةٌ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً * لكنهم حمرٌ لعمري مؤكفه
قد شبَّهوه بخلقه وتخوفوا * شُنْع الورى فتستروا بالبلكفه

وقال بعضهم جواباً عنهم :

عجباً لقوم ظالمين تلقبوا * بالعدل ما فيهم لعمري معرفة
قد جاءهم من حيث لا يدرونه * تعطيل ذات اللهِ مَعْ نَفْيِ الصِّفَةْ

قال المولى إبراهيم الأروسقي :

رضينا كتاب الله للفصل بيننا * وقول رسول الله أوضح فاصل
وتحريف آيات الكتاب ضلالة * وليس بعدل رد نص الدلائل
وتضليل أصحاب الرسول وذمهم * وتصويب آراء النظام وواصل
ولو كان تكذيب الرسول عدالة * فاعدل خلق الله عاص بن وائل

فلولاك جار الله من فرقة الهوى * لكنت جديراً باجتماع الفضائل

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى لموسى حين قال (تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) ﴿ يَا مُوسَىٰ ﴾ إن منعتك الرؤية لصلاح حالك وبقاء ذاتك ، فلا تكن مغموماً محزوناً لذلك ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ ﴾ أي : اخترتك واتخذتك صفوة وآثرتك ﴿ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : الموجودين في زمانك ﴿ بِرِسَالاتِي ﴾ جمع الرسالة ، والمراد هنا أسفار التوراة جمع سفر بمعنى الكتاب ، ﴿ وَبِكَلامِي ﴾ أي : وبتكليمي إياك بلا واسطة ، ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ ﴾ أي : أعطيتك من شرف النبوة والحكمة ﴿ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ على النعمة ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ ﴾ أي : في تسعة ألواح من الزمرد الأخضر وفيها التوراة كنقش الخاتم ، واللوح كل صفيحة عريضة خشباً أو عظماً جمعه ألواح ، ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يحتاجون إليه من أمور دينهم ﴿ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام ، ﴿ فَخُذْهَا ﴾ أي : فقلنا خذها أي : الألواح ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد وعزيمة ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ ﴾ أي : على طريق الندب والحث على اختيار الأفضل ﴿ يَأْخُذُوا ﴾ أي : ليأخذوا ﴿ بِأَحْسَنِهَا ﴾ قال قطرب : أي : بحسنها وكلها حسن كقوله تعالى (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) ﴿ سَأُرِيكُمْ ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ دار فرعون وقومه بمصر ، خاوية على عروشها ، لتعتبروا فلا تفسقوا ، بمخالفة ما أُمرتم به من العمل بأحكام التوراة ، وأرض فرعون بمصر ، وأرض الجبابرة والعمالقة بالشام .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ المراد بالآيات ما كتب في ألواح التوراة من المواعظ والأحكام ، وغيرها من الآيات التكوينية ، ومعنى صرفهم عنها : الطبعُ على قلوبهم ، بحيث لا يكادون يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها ، لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر ، والمعنى سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ، ويرون لهم على الخلق مزية وفضلاً ، فلا ينتفعون بآياتي التنزيلية والتكوينية ، المنصوبة في الأنفس والآفاق ، ولا يغتنمون بمغانم آثارها فلا تسلكوا يا بني إسرائيل مسلكهم ، فتكونوا أمثالهم ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أي : يتكبرون بما ليس بحق وهم ظلمهم المفرط ، ولما كان التكبر مؤدياً إلى الحرمان من الانتفاع بالآيات المذكورة ، كان المقصود من الآية تحذير بني إسرائيل عن التكبر ، المفضي إلى أن يصرفهم الله عن التفكر في الآيات والاهتداء بها ، حتى يأخذوا أحكام التوراة بجد ورغبة.

﴿ وَإِنْ يَرَوْا ﴾ يشاهدوا ﴿ كُلَّ آيَةٍ ﴾ من الآيات التي هي معجزة ﴿ لا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أي : كفروا بكل واحدة منها ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ أي : لا يتوجهون إلى الحق ولا يسلكون سبيله أصلاً ، لاستيلاء الضلال عليهم ، وطبعهم على الانحراف والزيغ ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ أي : يختارونه لأنفسهم مسلكاً لا يكادون يعدلون عنه ، لموافقته لأهوائهم

الباطلة ، وإفضائه بهم إلى شهواتهم ﴿ ذٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر وإعراضهم عن سبيل الرشد ، وإقبالهم التام على سبيل الغي ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي : حاصل بسبب أنهم ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الدالة على بطلان ما اتصفوا به من القبائح ، وعلى حقية اضدادها وهي الآيات المنزلة والمعجزة ﴿ وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ لا يتفكرون فيها وإلا لما فعلوا من الأباطيل ، فالمراد بالغفلة عنها عدم التفكر والتدبر فيها ، عبَّر عن عدم تدبر الآيات بالغفلة عنها تشبيهاً للمعرض عن الشيء بمن غفل عنه ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ ﴾ أي : ولقائهم الدار الآخرة ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أي : ظهر بطلان أعمالهم التي كانوا عملوها من صلة الأرحام ، وإغاثة الملهوف ونحو ذلك ، فلا ينتفعون بها ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ ﴾ استفهام بمعنى النفي والإنكار يعني لا يجزون ﴿ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : إلا جزاء ما كانوا يعملون من الكفر والمعاصي .

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أي : من بعد ذهابه إلى الطور ﴿ مِنْ حُلِيِّهِمْ ﴾ وهو ما تزين به من الذهب والفضة ، وإضافة الحلي إليهم مع أنها كانت للقبط ، لأدنى الملابسة حيث كانوا استعاروها من أربابها حين هموا بالخروج من مصر ﴿ عِجْلاً ﴾ أي : صيروه إلهاً ، والعجلُ ولد البقر ، وكانت مدة عبادتهم له أربعين يوماً فعوقبوا في التيه أربعين سنة ﴿ جَسَداً ﴾ أي : جثة وجسداً من ذهب لا روح معه ﴿ لَهُ خُوَارٌ ﴾ أي : صوت البقر ، وذلك أن موسى كان وعد قومه بالانطلاق إلى الجبل ثلاثين يوماً ، فلما تأخر رجوعه قال لهم السامري ، إنكم أخذتم الحلي من آل فرعون فعاقبكم الله بتلك الجناية ومنع موسى عنكم ، فاجمعوا الحلي حتى أحرقها لعل الله يرد علينا موسى ، فجعل الحلي بعد جمعها في النار ، وصاغ لهم من ذلك عجلاً ، وألقى في فمه تراباً من أثر فرس جبريل عليه السلام ، فظهر فيه خوار وحركة ، فقال السامري : (هَـٰذَا إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ) فعبدوه ، وقيل : إنه جعل ذلك العجل مجوفاً ، وجعل في جوفه أنابيب على شكل مخصوص ، وكان وَضَع ذلك التمثال على مهب الريح ، فكانت الريح تدخل في تلك الأنابيب فظهر منه صوت مخصوص يشبه خوار العجل ، فأوهم بني إسرائيل أنه حي يخور فرقصوا حوله ، نقل القرطبي عن الطرسوسي أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان يقرأون شيئاً من القرآن ، ثم ينشد لهم منشد شيئاً من الشعر ، يرقصون ويطربون ويضربون بالدف هل الحضور معهم حلال أو لا ؟ قال : مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري ، فلما اتخذوا عجلاً جسداً له خوار ، قاموا يرقصون حوله ويتواجدون فهو دين عُبّاد العجل ، وإنما كان يجلس النبي عليه الصلاة والسلام مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار ، فينبغي للسطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في

المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم هذا مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم من أئمة المسلمين كذا في حياة الحيوان (١) .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ ﴾ أي : العجل ﴿ لا يُكَلِّمُهُمْ ﴾ أي : ليس فيه شيء من أحكام الألوهية ، حيث لا يقدر على كلام ولا أمر ولا نهي ﴿ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ﴾ أي : ولا يرشدهم طريقاً إلى خير ليأتوه ﴿ اتَّخَذُوهُ ﴾ إلهاً ولو كان إلهاً لكلمهم وهداهم ، لأن الإله لا يهمل عباده ، اتخذوه إلهاً وحسبوا أنه خالق الأجسام والقوى والقدر ﴿ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ أي : واضعين الأشياء في غير موضعها ، فلم يكن اتخاذ العجل بدعاً منهم .

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ كناية عن شدة ندمهم فإن الذي يشتد ندمه وتحسره يعض يده ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ باتخاذ العجل إلهاً أي : تبينوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأوه بأعينهم ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ بإنزال التوراة هدى ﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ بالتجاوز عن الخطيئة ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ بعبادتنا العجل ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ من جبل الطور ﴿ إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ أي : شديد الغضب ، وهو يدل على أنه عليه السلام كان عالماً باتخاذهم العجل إلهاً ، بسبب أنه تعالى أخبره بما كان من قومه من عبادة العجل ﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ﴾ أي : ساء ما عملتم خلفي أيها العبدة بعد غيبتي وانطلاقي الى الجبل ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ الهمزة للإنكار أي : أعجلتم عن أمر ربكم ، وهو انتظار نبيكم حافظين لعهده وما وصاكم به ﴿ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ ﴾ التي كانت فيها التوراة من يده ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴾ أي : بشعر رأس هارون ﴿ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ توهماً أنه قصَّر في كفِّهم ، وهارون كان أكبر منه بثلاث سنين وكان ليناً ﴿ قَالَ ابنَ أُمَّ ﴾ بحذف حرف النداء وأصله يا ابن أُمَّا ، وكان هارون أخاه لأب وأم ، ولكنه ذكر الأم ليرفقه عليه أي يحمله على الرفق والشفقة ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ﴾ إزاحة لتوهم التقصير في حقه ، والمعنى بذلت وسعي في كفِّهم حتى قهروني ، واستضعفوني وقاربوا قتلي ﴿ فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ ﴾ أي : فلا تفعل بي ما يكون سبباً لشماتتهم بي ، يقال : شمت به إذا فرح ببلية أصابت عدوه ، وشماتة

---

(١) هذا هو القول الفصل ، فلا يجوز العبث بكتاب الله وإنما يجب تكريمه وتعظيمه وإجلاله ، وذلك بالاستماع والاتباع ، والخشوع عند تلاوة آياته ، كما كان يفعل السلف الصالح ، وأما ما يفعله جهلة المتصوفة فهو بعدٌ عن الدين ، وإخلالٌ بحرمة القرآن العظيم، الذي حقه أن يبكي الإنسان عند سماعه ، لا أن يرقص ويطرب كما ذكر تعالى عن مؤمني أهل الكتاب من نصارى الحبشة : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ . اللهم اجعلنا ممن عظَّم كتابك ، واتبع شرعك المستقيم !!.

العدو أشد من كل بلية ، فلذلك قيل : « والموتُ دون شماتة الأعداء » ﴿ **وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي : معدوداً في عدادهم بالمؤاخذة أو النسبة إلى التقصير ، ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى ﴿ **رَبِّ اغْفِرْ لِي** ﴾ أي : ما فعلت بأخي من غير ذنب ﴿ **وَلأَخِي** ﴾ أي : إن فرَّط في كفهم ، استغفر عليه السلام لنفسه ليرضي أخاه ، ويظهر للشامتين رضاه عنه ، ﴿ **وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ** ﴾ بمزيد الإنعام علينا بعد غفران ما سلف منا ، قال الحدادي أي : في جنتك ﴿ **وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ** ﴾ وأنت أرحم بنا منا على أنفسنا ومن آبائنا وأمهاتنا ، حكي : أنه اعتقل لسان فتى عن الشهادة حين أشرف على الموت ، فأخبروا النبي عليه الصلاة والسلام فدخل عليه وعرض الشهادة فاضطرب ولم ينطق لسانه فقال عليه الصلاة والسلام : « أما كان يصلي ؟ أما كان يزكي ؟ أما كان يصوم ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فهل عقَّ والديه » قالوا : نعم ، قال : « هاتوا أمه » ، فجاءت وهي عجوز عوراء ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هلا عفوت عنه » فقالت : لا أعفو لأنه لطمني ففقأ عيني ، قال ﷺ : « هاتوا بالحطب والنار » قالت : ما تصنع ؟ قال ﷺ : « أحرقه بالنار بين يديك جزاء لما عمل » قالت : عفوت عفوت ، أللنار حملته تسعة أشهر ؟ أللنار أرضعته سنتين ؟ فأين رحمة الأم ، فعند ذلك انطلق لسانه بالكلمة .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ** ﴾ أي : إلهاً كالسامري وأشياعه ، من الذين أُشربوه في قلوبهم ﴿ **سَيَنَالُهُمْ** ﴾ أي : في الآخرة ﴿ **غَضَبٌ** ﴾ عظيم كائن ﴿ **مِنْ رَبِّهِمْ** ﴾ أي : مالكهم لما أن جريمتهم أعظم الجرائم وأقبح القبائح ﴿ **وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ هي ذلة الاغتراب والمسكنة ، المنتظمة لهم ولأولادهم ، ﴿ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ** ﴾ على الله ﴿ **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ** ﴾ أية سيئة كانت ﴿ **ثُمَّ تَابُوا** ﴾ من تلك السيئات ﴿ **مِنْ بَعْدِهَا** ﴾ أي : من بعد عملها ﴿ **وَآمَنُوا** ﴾ إيماناً صحيحاً خالصاً ، واشتغلوا بما هو من مقتضياته من الأعمال الصالحة ، ولم يصروا على ما فعلوا كالطائفة الأولى ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا** ﴾ أي : من بعد تلك التوبة المقرونة بالإيمان ﴿ **لَغَفُورٌ** ﴾ للذنوب وإن عظمت وكثرت ﴿ **رَحِيمٌ** ﴾ مبالغ في إفاضة فنون الرحمة الدنيوية والأخروية ، واعلم أن التوبة موجبة للمغفرة ، والتوبة : الرجوعُ فإذا وصف بها العبد كان المراد بها الرجوع عن المعصية ، وإذا وصف بها الباري تعالى أريد بها الرجوع عن العذاب بالمغفرة ، والتوبة على ضربين : ظاهر وباطن ، فالظاهر هو التوبة من الذنوب الظاهرة ، وتوبتها ترك المخالفات ، واستعمال الجوارح بالطاعات ، والباطن هو توبة القلب من ذنوب الباطن ، وهي الغفلة عن الذكر ، بحيث لو صمت لسانه لم يصمت قلبه ، وتوبة النفس قطع علائق الدنيا والأخذ باليسير والتعفف ، وتوبة الروح التحلي بالمعارف الإلهية ، وتوبة السر التوجه إلى الحضرة العليا بعد الإعراض عن الدنيا .

والعبد إذا رجع عن السيئة وأصلح عمله ، أصلح الله تعالى شأنه وأعاد عليه نعمه الفائتة ، فينبغي للمؤمن أن يسارع إلى التوبة والعمل الصالح ، فإن الحسنات يذهبن السيئات . ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ** ﴾ أي : لما سكن عنه الغضب ، باعتذار أخيه وتوبة القوم ، والسكوت قطع الكلام ، وهو لا يتصور في الغضب ، فلا يتصور قطعه أيضاً ، فهو محمول على المعنى المجازي ، ففيه استعارة مكنية و﴿ سَكَتَ ﴾ قرينة الاستعارة ﴿ **أَخَذَ الأَلْوَاحَ** ﴾ التي ألقاها وهو دليل على أنها لم تتكسر حين ألقاها ﴿ **وَفِي نُسْخَتِهَا** ﴾ أي : وفيما نسخ فيها وكتب نقلاً عن اللوح المحفوظ ، فإن النسخ عبارة عن نقل أشكال الكتابة وتحويلها من الأصل المنقول عنه فإذا كتبت كتاباً من كتاب آخر حرفاً بعد حرف قلت نسخت هذا الكتاب من ذلك الكتاب أي : نقلته منه ﴿ **هُدًى** ﴾ أي : بيان للحق ﴿ **وَرَحْمَةٌ** ﴾ للخلق بإرشادهم إلى ما فيه الخير والصلاح كائنة ﴿ **لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** ﴾ أي : يخشون ، وإنما خص أهل الرهبة بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بآيات الكتاب ، واعلم أن الخشية إنما تنشأ عن العلم بصفات الحق سبحانه ، وعلامة خشية الله تعالى ترك الدنيا والخلق ، ومحاربة النفس والشيطان .

﴿ **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ** ﴾ أي : من قومه بحذف الجار وإيصال الفعل إلى المجرور وهو مفعول ثان ﴿ **سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا** ﴾ أي : للوقت الذي وقتناه له وعيناه ، ليأتي فيه بسبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل ، ليعتذروا عن ما كان من القوم من عبادة العجل ، فهذا الميقات ميقات التوبة لا ميقات المناجاة والتكليم ﴿ **فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ** ﴾ من طلب الرؤية حيث قالوا (**لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً**) والرجفة : هي الارتعاد والحركة الشديدة ، والمراد أخذتهم رجفة الجبل فصعقوا منها أي : ماتوا ﴿ **قَالَ** ﴾ موسى ﴿ **رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ** ﴾ أي : حين فرطوا في النهي عن عبادة العجل وما فارقوا عبدته حين شاهدوا إصرارهم عليها ﴿ **وَإِيَّايَ** ﴾ أي : لو شئت إهلاكنا بذنوبنا لأهلكتنا ﴿ **أَتُهْلِكُنَا** ﴾ الهمزة لإنكار وقوع الإهلاك أي : لا تهلكنا ﴿ **بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا** ﴾ من العناد والتجاسر على طلب الرؤية ، أي : لا يليق بشأنك أن تهلك جمعاً غفيراً بذنب صدر عن بعضهم ممن كان سفيهاً خفيف الرأي ﴿ **إِنْ هِيَ** ﴾ أي : ما الفتنة التي وقع فيها السفهاء ﴿ **إِلا فِتْنَتُكَ** ﴾ أي : محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك .

﴿ **تُضِلُّ بِهَا** ﴾ أي : بسبب تلك الفتنة ﴿ **مَنْ تَشَاءُ** ﴾ ضلاله فيتجاوز عن حده بطلب ما ليس له ﴿ **وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ** ﴾ هدايته إلى الحق فلا يتزلزل في أمثالها فيقوى بها إيمانه ﴿ **أَنْتَ وَلِيُّنَا** ﴾ أي : القائم بأمورنا وناصرنا وحافظنا لاغير ﴿ **فَاغْفِرْ لَنَا** ﴾ أي : ما اقترفناه من المعاصي ﴿ **وَارْحَمْنَا** ﴾ بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية ، والمغفرة : هي إسقاط العقوبة ، والرحمة إيصال

الخير ، وقدم الأول على الثاني لأن دفع المضرة مقدم على تحصيل المنفعة ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الغَافِرِينَ ﴾ تغفر السيئة وتبدلها بالحسنة ، وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم بحسب المقام ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا ﴾ أي : أثبت وعين لنا ﴿ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ حسن معيشة وتوفيق طاعة ﴿ وَفِي الآخِرَةِ ﴾ أي : واكتب لنا فيها أيضاً حسنة وهي المثوبة الحسنى أو الجنة ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ تعليل لطلب الغفران ، أي : تبنا ورجعنا إليك عما صنعنا من المعصية العظيمة ، قيل : لما أخذتهم الرجفة ماتوا جميعاً فأخذ موسى عليه السلام يتضرع إلى الله حتى أحياهم ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ تعذيبه من غير دخل لغيري فيه ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ المؤمن والكافر ، بل المكلف وغيره ، وما من مسلم ولا كافر ، إلا وعليه آثار رحمته ونعمته في الدنيا ، فبها يتعيَّشون وبها ينقلبون ، ولكنها تختص في الآخرة بالمؤمنين كما قال تعالى ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ أي : أثبتها وأعينها في الآخرة ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والمعاصي ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ خصها بالذكر لأنها كانت أشق عليهم ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ جميعاً ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إيماناً مستمراً فلا يكفرون بشيء منها ، ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ ﴾ يعني : محمداً ﷺ الذي نوحي إليه كتاباً مختصاً به ﴿ النَّبِيَّ ﴾ أي : صاحب المعجزة ، قال البيضاوي : إنما سماه رسولاً بالإضافة إلى الله ، ونبياً بالإضافة إلى العباد ﴿ الأُمِّيَّ ﴾ الذي لا يكتب ولا يقرأ ، وكونه عليه الصلاة والسلام أمياً من جملة معجزاته ، فإنه عليه الصلاة والسلام لو كان يحسن الخط والقراءة ، لصار متهماً بأنه طالع في كتب الأولين والآخرين ، فحصل هذه العلوم بتلك المطالعة ، فلما أتى بهذا القرآن العظيم ، المشتمل على علوم الأولين والآخرين ، من غير تعلم ومطالعة ، كان ذلك من جملة معجزاته الباهرة .

﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً ﴾ باسمه وصفته ﴿ عِنْدَهُمْ ﴾ متعلق بمكتوباً وكذا قوله ﴿ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ﴾ اللذين تعبد بهما بنو إسرائيل سابقاً ولاحقاً .

﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي : بالتوحيد وشرائع الإسلام ﴿ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أي : عن كل ما لا يعرف في شريعة ولا سنّة ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ التي حرمت عليهم بشؤم ظلمهم كالشحوم ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ كالدم ولحم الخنزير ، فالمراد بالطيبات : ما يستطيبه الطبع ويستلذه ، وبالخبائث : ما يستخبثه الطبع ويتنفر منه ، ومدلول الآية ، أن ما يحكم الشرع بحله فهو حلال ، وما يحكم بحرمته فهو حرام ، ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : يخفف عنهم ما كلفوا به من التكاليف الشاقة ، كتعين القصاص في العمد والخطأ من غير شرع الدية ، وقرض موضع النجاسة من الثوب وعدم الاكتفاء بغسله ، وإحراق الغنائم ، وتحريم العمل يوم السبت بالكلية ، شبهت هذه التكاليف الشاقة بالحمل الثقيل وبالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق ، وأصل الأصر الثقل الذي يأصر

صاحبه أي : يحبسه من الحراك لثقله ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ﴾ أي : بنبوة الرسول النبي الأمي وأطاعوه في أوامره ونواهيه ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي : عظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه ﴿ وَنَصَرُوهُ ﴾ على أعدائه في الدين ﴿ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ﴾ يعني القرآن الذي ضياؤه في القلوب كضياء النور في العيون ، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ المنعوتون بتلك النعوت الجليلة ﴿ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : الفائزون بالمطلوب ، الناجون من الكروب ، لا غيرهم من الأمم المعاندين ، واعلم أن المقصود الإلهي من ترتيب سلسلة الأنبياء عليهم السلام ، هو بعثة سيد الوجود محمد ﷺ ، فوجود الأنبياء قبله كالمقدمة لوجوده الشريف ، فهو الخلاصة والنتيجة والزبدة ، وأشرف الأنبياء والمرسلين ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « فُضِّلتُ على الأنبياء بست : أعطيتُ جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون »[1] ، وكذلك المقصود من الكتب الإلهية السالفة هو القرآن ، الذي أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام ، فهو زبدة الكتب الإلهية وأعظمها ، ومصدق لما بين يديه ، لأنه بلفظ قد أعجز البلغاء أن يأتوا بسورة من مثله وبمعناه ، جامع لما في الكتب السالفة من الأحكام والآداب والفضائل ، متضمن للحجج والبراهين والدلائل ، وكذا المقصود من الأمم السالفة هو هذه الأمة المرحومة ، أعني أمة محمد ﷺ فهي كالنتيجة لما قبلها وهي الأمة الوسط كما قال تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ الخطاب عام وكان رسول ﷺ مبعوثاً إلى الكافة من الثقلين ، إلى من وجد في عصره وإلى من سيوجد بعده إلى يوم القيامة ، بخلاف سائر الرسل ، فإنهم بعثوا إلى أقوامهم أهل عصرهم ولم تستمر شرائعهم إلى يوم القيامة ، والمعنى : إني رسول الله إليكم كافة ، أدعوكم إلى طاعة الله وتوحيده ، فيما أؤديه إليكم ، والناس لغة من ناس ينوس إذا تحرك ، قال الجوهري : الناس يكون من الإنس ومن الجن ، جمع أنس أصله أناس جمع عزيز أدخل عليه أل ﴿ الَّذِي ﴾ أي : أعني الله الذي أو هو الذي ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : هو المالك والمتصرف فيهما ﴿ لا إِلَهَ إِلا هُوَ ﴾ لأن من ملك العالم كان هو الإله المتفرد بالألوهية ، ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ زيادة تقرير للألوهية ، لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة إلا الذي لا إله إلا هو ، والمعنى : يحيي الخلق من النطفة ويميتهم عند انقضاء آجالهم ، وقيل معناه : يحيي الأموات للبعث ، ويميت الأحياء في الدنيا ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﴾ مدح له عليه الصلاة والسلام ، ومعنى الأمي :

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في كتاب المساجد ، والترمذي في السير ، ورواه البخاري بلفظ : « أُعطيتُ خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي .. » الحديث وانظر جامع الأصول ٨ / ٥٣٠ .

الذي لا يقرأ ولا يكتب ﴿ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ ﴾ أي : ما أنزل عليه من أخبار سائر الرسل ، ومن كتبه ووحيه ، ﴿ وَاتَّبِعُوهُ ﴾ أي : في كل ما يأتي وما يذر من أمور الدين ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أي : رجاء لاهتدائكم إلى المطلوب أو راجين له ، قال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ ، واتبع سنته ولزم طريقته ، لأن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه وعلى المقتفين أثره والمتابعين سنته . حكي : عن أبي يزيد البسطامي قدس سره أنه قال ذات يوم لأصحابه : قوموا بنا حتى ننظر إلى ذلك الذي قد شهر نفسه بالولاية ، قال : فمضينا فإذا بالرجل قد قصد المسجد ، فرمى بصاقه نحو القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصدّيقين ؟! وحكي : عن أحمد ابن حنبل رحمه الله قال : كنت يوماً مع جماعة تجردوا ودخلوا الماء ، فعملت بالحديث وهو : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر » ولم أتجرد فرأيت تلك الليلة قائلاً يقول لي : يا أحمد أبشر فإن الله قد غفر لك باستعمالك السنّة ، وجعلك إماماً يقتدى بك ، فقلت : من أنت ؟ قال : جبريل عليه السلام . وعن عباس بن ربيعة قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقبل الحجر الأسود ويقول : إني لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك .

فإذا اتبعت فاتَّبِع سيد المرسلين محمداً ﷺ الذي آدم ومن دونه من الأنبياء والأولياء تحت لوائه ، فإذا اتبعت واحداً من أمته فلا تتبعه لمجرد كونه رجلاً مشهوراً بين الناس مقبولاً عند الأمراء والسلاطين ، بل الواجب عليك أن تعرف أولاً الحق ، ثم تزن الرجال به ، وفيه قال باب العلم « علي » رضي الله عنه : من عرف الحق بالرجال حار في متاهات الضلال ، بل اعرف الحق تعرف أهله ، وبقدر متابعتك للنبي ﷺ تستحكم مناسبتك به وتتأكد علاقة المحبة بينك وبينه ، وبكل ما يتعلق بالرسول ﷺ .

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ لما ذكر الله تعالى عَبَدَة العجل وهم الأشقياء ، أتبع ذكرهم بذكر أضدادهم السعداء فالمراد بالقوم بنو إسرائيل الموجودون في زمن موسى عليه السلام ﴿ أُمَّةٌ ﴾ أي : جماعة ﴿ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ ملتبسين به أي : محقين ﴿ وَبِهِ ﴾ أي : بالحق ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : في الأحكام الجارية بينهم ، وصيغةُ المضارع في الفعلين لحكاية الحال الماضية .

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ ﴾ أي : قوم موسى لا الأمة المذكورة منهم ﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ﴾ أي : صيرناهم اثنتي عشرة أمة أو قطعة ، متميزاً بعضها من بعض ﴿ أَسْبَاطاً ﴾ وهي جمع سبط والسبطُ : من ولد إسحق كالقبيلة من ولد إسماعيل ، وهو في الأصل ولد الولد ﴿ أُمَماً ﴾ جمع أمة وهي بمعنى الجماعة ، وانحصر فرق بني إسرائيل في اثنتي عشرة فرقة ، لتنتظم أحوالهم ويتيسر عيشهم ، وكانوا أقواماً متباغضة متعصبة

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ﴾ أي : طلبوا منه الماء حين استولى عليهم العطش ، في التيه الذي وقعوا فيه بسوء صنيعهم ﴿ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ ﴾ كان عصاه من آس الجنة ، وكان آدم حملها معه من الجنة إلى الأرض ، فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب ، فأعطاها موسى ﴿ الْحَجَرَ ﴾ قد سبق في البقرة على الاختلاف الواقع فيه ، ﴿ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾ بعدد الأسباط . الانبجاس : خروج الماء قليلاً ، والانفجار خروجه واسعاً ، وإنما قال : فانبجست لأن الماء كان يخرج من الحجر في الابتداء قليلاً ثم يتسع ، فاجتمع فيه صفة الانبجاس والانفجار ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ ﴾ كل سبط ﴿ مَشْرَبَهُمْ ﴾ أي : عينهم الخاصة بهم ، وكان كل سبط يشربون من عين لا يخالطهم فيها غيرهم للعصبية التي كانت بينهم ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ﴾ أي : جعلناها بحيث تلقي عليهم ظلها لتقيهم حر الشمس في النهار ، وكان ينزل بالليل عمود من نار يسيرون بضوئه ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ ﴾ قال في القاموس : المنُّ كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر ، ويحلو وينعقد عسلاً ، ويجف جفاف الصمغ ﴿ وَالسَّلْوَىٰ ﴾ السماني : وهو لحم الطير ، سمي سلوى لأن الإنسان يسلوبه عن سائر الإدام ، قيل : كان ينزل عليهم المن مثل الثلج من الفجر إلى الطلوع ، لكل إنسان صاع ، وتبعث الجنوب عليهم السماني فيذبح الرجل منه ما يكفيه ﴿ كُلُوا ﴾ أي : قلنا لهم كلوا ﴿ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أي : مستلذاته من المن والسلوى ، ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ عطف على جملة محذوفة للإيجاز ، أي : فظلموا بأن كفروا بتلك النعم الجليلة ، وما ظلمونا بذلك ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ إذ لا يتخطاهم ضرره ، يضرون أنفسهم باستحقاقهم عذاب الله وقطع مادة الرزق عنهم ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ أي : واذكر لهم يا محمد وقت قوله تعالى لأسلافهم ﴿ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ وهي بيت المقدس أو إريحاء وهي قرية الجبارين بقرب بيت المقدس ، وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ، رأسهم عوج بن عنق ﴿ وَكُلُوا مِنْهَا ﴾ أي : من مطاعمها وثمارها ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ أي ، نواحيها من غير أن يزاحمكم فيها أحد ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ أي : مسألتنا حطة ذنوبنا عنا ، والمراد بالحط المغفرة وحط الذنوب ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ ﴾ أي : باب القرية ﴿ سُجَّداً ﴾ منحنين متواضعين ، أو ساجدين شكراً على إخراجهم من التيه ، ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ ما سلف من ذنوبكم باستغفاركم وخضوعكم ﴿ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ استئناف . أي : سنزيد المحسنين إحساناً وثواباً ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ ما أُمروا به من التوبة والاستغفار حيث أعرضوا عنه ووضعوا موضعه ﴿ قَوْلاً ﴾ آخر مما لا خير فيه ، روي : أنهم دخلوا زاحفين على أستاههم وقالوا : مكان « حطة » حنطة استخفافاً بأمر الله تعالى ، واستهزاء بموسى عليه السلام وعدولاً عن طلب عفو الله تعالى ورحمته ، إلى طلب ما يشتهون من أعراض الدنيا الفانية الدنية ﴿ غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ نعت لقولاً صرح بالمغايرة مع دلالة التبديل عليها قطعاً تحقيقاً

للمخالفة وتنصيصاً على المغايرة من كل وجه ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على الذين ظلموا إثْرَ ما فعلوا من غير تأخر والإرسال من فوق كالإنزال ﴿ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ عذاباً كائنا منها والمراد الطاعون ، روي : أنه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً ﴿ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ بسبب ظلمهم المستمر ، السابق واللاحق ، لا بسبب التبديل فقط ، واعلم أن الذين ظلموا من بني إسرائيل أفسدوا عليهم النعمتين : نعمة الدنيا وهي المن والسلوى ، ونعمة العقبى وهي المغفرة والإثابة ، وبعد فوت زمان التدارك لا ينفع نفساً إيمانها ولا تحسرها وندمها .

﴿ وَاسْأَلْهُمْ ﴾ الضمير البارز عائد إلى اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ ، وليس المقصود من السؤال استعلام ما ليس معلوماً للسائل ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان قد علم هذه القصة من قِبَل الله تعالى بالوحي ، بل المقصود منه أن يحملهم الرسول ﷺ على أن يُقرّوا بقديم كفرهم ، وتجاوزهم لحدود الله تعالى ، وتقريعهم بذلك ، وأن يظهر بذلك معجزة دالة على أنه نبي حق ، فإنه عليه الصلاة والسلام لما كان أمياً ولم يخالط أهل الكتب السابقة ، وبيَّن هذه القصة على وجهها من غير زيادة ولا نقصان ، تعين أنه علم ذلك بالوحي ، فكان بيانها معجزة ظاهرة من جملة معجزاته عليه الصلاة والسلام ﴿ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ أي : عن حالها وخبرها وما جرى على أهلها من الداهية الدهياء ، وهي « أيلة » بين مدين والطور ، والعرب تسمِّي المدينة قرية ﴿ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ أي : قريبة منه مشرفة على شاطئه ﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ أي : يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد يوم السبت ، وهم منهيون عن الاشتغال فيه بغير العبادة ، ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ﴾ والحيتان جمع حوت ، وإضافتها إليهم لأن المراد بالحيتان الكائنة في تلك الناحية ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ أي : تأتيهم يوم تعظيمهم لأمر السبت ، سبتت اليهود إذا عظمت السبت بالتجرد للعبادة ، ﴿ شُرَّعاً ﴾ أي : تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء قريبة من الساحل ﴿ وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ ﴾ أي : لا يراعون أمر السبت ، أي : لا سبت ولا مراعاة ﴿ لا تَأْتِيهِمْ ﴾ كما كانت تأتيهم يوم السبت حذاراً من صيدهم ، فإن الله تعالى قوَّى دواعيها إلى الشروع في يوم السبت ، معجزة لنبي ذلك الوقت ، وابتلاء لتلك الأمة ﴿ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ ﴾ أي : مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع ، نعاملهم معاملة من يختبرهم ، ليظهر عدوانهم ونؤاخذهم به ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي : بسبب فسقهم المستمر ، ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ ﴾ أي : جماعة من صلحائهم ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أي : مستأصلهم ومطهر الأرض منهم ﴿ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ﴾ دون الاستئصال بالمرة ، والمراد عذاب الدنيا ، قالوه مبالغة في أن الوعظ لا ينجح فيهم ﴿ قَالُوا ﴾ أي : الوعاظ ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي : نعظهم معذرة إليه تعالى . والمعذرة اسم مصدر بمعنى العذر .

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي : ورجاء لأن يتقوا ويتركوا المعصية ، لأن قبول الحق الواضح يرجى من العاقل ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي : تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ، ترك الناس للشيء وأعرضوا عنه إعراضا كلياً ﴿ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ أي : خلصنا الذين ينهون عن الاصطياد وهم الفريقان المذكوران ، قال الحسن : نجت فرقتان وهلكت فرقة ، ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالاعتداء ومخالفة الأمر ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ أي : شديد ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي : أخذناهم بما ذكر من العذاب بسبب تماديهم في الفسق ، الذي هو الخروج عن الطاعة ، وهو الظلم والعدوان ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أي : تمردوا وتكبروا ، وأبوا عن ترك ما نهوا عنه ، ﴿ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ صاغرين أذلاء بعداء عن الناس ، خَسَأ الكلب كمنع طرده . روي : أن اليهود أمروا باليوم الذي أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت وهو المعني بقوله تعالى (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ) فابتلوا به ، وحرم عليهم الصيد وأمروا بتعظيمه ، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت ، لا يرى وجه الماء لكثرتها ، ولا تأتيهم في سائر الأيام ، فاتخذوا حياضاً سهلة الورود صعبة الصدور ، فجعلوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت ، فلا تقدر على الخروج ويأخذونها يوم الأحد ، واستمروا على ذلك فصادوا وأكلوا وباعوا وكانوا نحواً من سبعين ألفاً ، فكان أهل القرية أثلاثاً : ثلث استمروا على النهي ، وثلث ملّوا التذكير وقالوا للواعظين لم تعظون ؟ وثلث باشروا الخطيئة ، فلما لم ينتهوا قال المسلمون : نحن لا نساكنكم ، فاقتسموا القرية بجدار ، للمسلمين باب وللمعتدين باب ، ولعنهم داود عليه السلام ، فأصبح الناهون ذات يوم فخرجوا من أبوابهم وانتشروا لمصالحهم ، ولم يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا لعل الخمر غلبتهم ، فعلوا الجدار فنظروا فإذا الشبان قردة ، والشيوخ خنازير ففتحوا الباب ودخلوا عليهم ، فعرفت القردة أنسابهم من الإنس وهم لا يعرفونها فجعل القرد يأتي نسيبه فيشم ثيابه فيبكي ، ثم ماتوا عن مكث ثلاثة أيام ، كما قال ابن عباس : لم يعش ممسوخ قط أكثر من ثلاثة أيام وعليه الجمهور ، وعن مجاهد إنما مسخت قلوبهم فقط ، وردت أفهامهم كأفهام القردة ، وهذا قول تفرد به عن جميع المسلمين ، يقول الفقير : مسخ القلب مشترك بين عصاة جميع الأمم ، وعادة الله تعالى تعجيل عقوبة الدنيا على أقبح وجه وأفظعه ، ولا عقوبة أدهى من تبديل الصورة الحسنة الإنسانية إلى صورة أخس الحيوانات ، وهي صورة القردة والخنازير القبيحة ، نعوذ بالله .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ﴾ بمعنى آذَن والإيذان : الإعلام ، والمعنى : واذكر يا محمد لليهود وقت إيجابه تعالى على نفسه ﴿ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ ﴾ كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من فنون العذاب ، وقد بعث اللهُ تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام بختنصر فخرب

ديارهم وقتل مقاتليهم وسبي نساءَهم وذراريهم وضرب الجزية على من بقي منهم ، وكانوا يؤدونها إلى المجوس حتى بعث الله محمداً ﷺ ففعل بهم ما فعل ثم ضرب الجزية فلا تزال مضروبة إلى آخر الدهر ، وفي هذه الآية دلالة على أن اليهود لا ترفع لهم راية عز إلى يوم القيامة ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ** ﴾ يعاقبهم في الدنيا ﴿ **وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ لمن تاب وآمن منهم .

﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ** ﴾ أي : فرقنا بني إسرائيل ﴿ **فِي الأَرْضِ** ﴾ وجعلنا كل فرقة منهم في قطر من أقطارها تتميماً لجزاء إدبارهم وإعراضهم عن الحق ، حتى لا يكون لهم شوكة بالاجتماع أبداً ﴿ **أُمَماً** ﴾ أي : حال كونهم جماعات ﴿ **مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ** ﴾ وهم المتدينون بدين موسى عليه السلام ﴿ **وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ** ﴾ تقديره ومنهم ناس دون ذلك ، أي : ومنهم دون أهل الصلاح منحطون عنهم ، وهم كفرتهم وفسقتهم ﴿ **وَبَلَوْنَاهُمْ** ﴾ أي : عاملناهم معاملة المبتلي المختبر ﴿ **بِالحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ** ﴾ بالنعم والنقم ، حيث فتحنا عليهم تارة باب الخصب والعافية ، وتارة باب الجدب والشدائد ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ ينتهون فيرجعون عما كانوا عليه من الكفر والمعاصي ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴾ من بعد المذكورين ﴿ **خَلْفٌ** ﴾ أي : بدل سوء ، وهم الذين كانوا في عصر النبي ﷺ ، الذين خلفوا من اليهود الذين فرقهم الله في الأرض ، والخلف مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد والجمع ، يقال : خَلَفَ فلان فلاناً إذا كان خليفته ، وخَلَفَه في قومه خلافة ، أي : قام مقامه في تدبير أحوال قومه ، قال ابن الأعرابي : الخَلَف : بفتح اللام الصالح ، وبإسكان اللام الطالح ، ﴿ **وَرِثُوا الكِتَابَ** ﴾ أي : التوراة من أسلافهم يقرأونها ويقفون على ما فيها ﴿ **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ** ﴾ أي : يأخذون حطام هذا الشيء الأدنى يعني الدنيا ، وهو من الدنو أي : القرب ، سميت هذه الدار وهذه الحياة دنيا ، لدنوها وكونها عاجلة ، والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشى في الحكومات وعلى تحريف الكلام ، سمى متاع الدنيا عَرَضاً لقلة بقائه كأنه يعرض فيزول ﴿ **وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا** ﴾ لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه ، ﴿ **وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** ﴾ أي : يأخذون الرشى في الأحكام ويقولون : إنه تعالى لا يؤاخذنا بأخذ ما أخذناه من عرض الدنيا ويتجاوز عنه ، والحال إنهم مصرون على أخذه غير تائبين عنه ﴿ **أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الكِتَابِ** ﴾ أي : العهد المذكور في التوراة ﴿ **أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلا الحَقَّ** ﴾ أي : لا يفتروا على الله ﴿ **وَدَرَسُوا مَا فِيهِ** ﴾ أي : أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه ﴿ **وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴾ المعاصي والشرك ، وأكل الحرام ، والافتراء على الله تعالى ﴿ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ تعلمون ذلك ؟ فلا تستبدلوا الأدنى المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلد ﴿ **وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ** ﴾ أي : يتمسكون به في أمور دينهم ، يقال : مَسَك بالشيء وتمسَّك به ، قال

مجاهد : هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ، تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة أي : وسيلة وسبباً لأكل أموال الناس ، وقال عطاء : هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام فالمراد بالكتاب القرآن ﴿ **وَأَقَامُوا الصَّلاةَ** ﴾ من قبيل ذكر الخاص بعد ذكر العام للتنبيه على شرف الخاص وفضله ، فإن إقامة الصلاة أعظم العبادات وأفضلها بعد الإيمان فأفردت بالذكر لعلو قدرها بالنسبة إلى سائر أنواع التمسكات .

﴿ **إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ** ﴾ أي : نعطيهم أجرهم في القول والعمل ، واعلم أن الغالب في آخر الزمان ترك العمل بالقرآن ، ولقد خلف من بعد السعداء أشقياء اطمأنوا إلى زخارف الدنيا ، قال الحسن : رأيت سبعين بدرياً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم ، وكانوا بالبلاء أشد منكم فرحاً بالرخاء ، لو رأيتموهم قلتم مجانين ، ولو رأوا أخياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق ، ولو رأوا أشراركم حكموا بأنهم ما يؤمنون بيوم الحساب ، إذا عرض عليهم الحلال من المال تركوه خوفاً من فساد قلوبهم .

﴿ **وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ** ﴾ النتقُ : قلعُ الشيء من موضع ، والجبل هو الطور ، أي : رفعنا الجبل فوق بني إسرائيل بنتقه وقلعه من مكانه ﴿ **كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ** ﴾ أي : سقيفة وهي كل ما أظلك ﴿ **وَظَنُّوا** ﴾ أي : تيقنوا ﴿ **أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ** ﴾ أي : ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت في الجو ، ولأنهم كانوا يوعدون به على تقدير عدم قبولهم أحكام التوراة ، روي : أن موسى عليه السلام لما أتى بني إسرائيل بالتوراة وقرأها عليهم وسمعوا ما فيها من التكاليف الشاقة ، أبوا أن يقبلوها ويتدينوا بما فيها ، فأمر الله الجبل فانقلع من أصله حتى قام على رؤوسهم ، وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم ، فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجداً على جانبه الأيسر ، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على جانبه الأيسر ، ويقولون هي السجدة التي رفعت بها عنا العقوبة ، فقبلوها جبراً ﴿ **خُذُوا** ﴾ على إضمار القول أي : قلنا خذوا ﴿ **مَا آتَيْنَاكُمْ** ﴾ من الكتاب ﴿ **بِقُوَّةٍ** ﴾ بجد وعزم على تحمل مشاقه ﴿ **وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ** ﴾ بالعمل ولا تتركوه كالمنسي ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ بذلك قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق .

﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ** ﴾ أي : واذكر يا محمد لبني إسرائيل وقت أخذ ربك ﴿ **مِنْ بَنِي آدَمَ** ﴾ أي : آدم وأولاده نسلاً بعد نسل ، ﴿ **مِنْ ظُهُورِهِمْ** ﴾ أي : من أصلابهم ، وفيه تنبيه على أن الميثاق قد أخذ منهم وهم في أصلاب الآباء ﴿ **ذُرِّيَّتَهُمْ** ﴾ أي : نسلهم قرناً بعد قرن ، يعني أخرج بعضهم من بعض كما يتوالدون في الدنيا ﴿ **وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ** ﴾ أي : أشهد كل واحد من أولئك الذريات على نفسه تقريراً لهم بربوبيته التامة ، ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ** ﴾ أي : قائلاً ألستُ بربكم ومالك أمركم ، من غير أن

يكون لأحد مدخل ؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ أي : على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ، وهذا تمثيل نُزّل تمكينهم من العلم بربوبيته بنصب الدلائل الآفاقية والأنفسية ، وخلق الاستعداد فيهم ، منزلة الإشهاد ، فلم يكن هناك أخذ وإشهاد وسؤال وجواب ، وبابُ التمثيل باب واسعٌ ، وارد في القرآن والحديث وكلام البلغاء ، قال الله تعالى (فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ أي : فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا ﴿ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾ عند ظهور الأمر ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا ﴾ أي : عن وحدانية الربوبية وأحكامها ﴿ غَافِلِينَ ﴾ لم ننبه عليه ﴿ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا ﴾ أي : اخترعوا الإشراك وهم سنُّوه ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ من قبل زماننا ﴿ وَكُنَّا ﴾ نحن ﴿ ذُرِّيَةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ لا نهتدي إلى السبيل ، ولا نقدر على الاستدلال بالدليل فاقتدينا بهم ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ ﴾ أي : أتؤاخذنا فتهلكنا بما فعل المبطلون من آبائنا المُضِلّين ؟ بعد ظهور أنهم المجرمون ، فإن ما ذكر من استعدادهم الكامل يسد عليهم باب الاعتذار .

﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي : مثل ذلك التفصيل البليغ المستتبع للمنافع الجليلة ﴿ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ المذكورة لا غير ذلك ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وليرجعوا عما هم عليه من الإصرار على الباطل ، وتقليد الآباء ، والأكثر على أن المقاولة المذكورة في الآية حقيقة ، لما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنه لما خلق الله آدم عليه السلام مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فقال : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى فنودي يومئذ جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه سئل عن الآية الكريمة فقال : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : « إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : وخلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون »[1] . فإن قيل : كيف يكون الميثاق حجة على الكفار منهم . وهم لا يذكرون ذلك حين أخرجهم من صلب آدم ؟ قيل : لما أرسل الله الرسل فأخبروهم بذلك الميثاق ، صار قول الرسل حجة عليهم ، وإن لم يذكروا ، ألا ترى أن من ترك من صلاته ركعة ونسي ذلك ، فذكرت له ذلك الثقات كان قولهم حجة عليه ؟ قال أبو السعود : والمعنى فعلنا ما فعلنا من الأمر بذكر الميثاق وبيانه ، كراهة أن تقولوا أيها الكفرة يوم القيامة إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاق ، لم ننبه عليه في دار التكليف ، وإلا لعملنا بموجبه ، انتهى .

﴿ وَاتْلُ ﴾ اقرأ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على اليهود ﴿ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ أي : خبره الذي له شأن وخطر فإن النبأ خبر عن أمر عظيم ، ومعنى (آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) أي : علمناه دلائل

(١) الحديث أخرجه الطبراني وأبو داود .

ألوهيتنا ووحدانيتنا ، وفهمناه تلك الدلائل ، وهو أحد علماء بني إسرائيل ، وهو « بلعم بن باعورا » كان عابداً من عُبَّاد بني إسرائيل ، وكان في المدينة التي قصدها موسى عليه السلام ، وكان أهل تلك المدينة كفاراً وكان عنده اسم الله الأعظم فسأله ملكهم أن يدعو على موسى بالاسم الأعظم ليدفعه عن تلك المدينة فقال لهم : دينه وديني واحد وهذا شيء لا يكون ، وكيف أدعو عليه وهو نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون ، وأنا أعلم من الله ما أعلم وإني إن فعلت ذلك أذهبت دنياي وآخرتي ، فلم يزالوا به يفتنونه بالمال والهدايا حتى فتنوه فافتتن . ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أي : من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة والحية ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ أتبع وتبع بمعنى واحد كأردف وردف ، والمعنى إن الشيطان كان وراءه طالباً لإضلاله ، ثم لما انسلخ من الآيات لحقه وأدركه ﴿ فَكَانَ ﴾ أي : فصار ﴿ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ من زمرة الضالين ، الراسخين في الغواية ، بعد أن كان من المهتدين .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا ﴾ رفعه ﴿ لَرَفَعْنَاهُ ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء ﴿ بِهَا ﴾ أي : بسبب تلك الآيات وملازمتها ، ﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ﴾ أي : مال إلى الدنيا ، ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ في إيثار الدنيا ، فانحط أبلغ انحطاط ، وارتد أسفل سافلين وإلى ذلك أشير بقوله تعالى ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ أي : فصفته التي هي مثل في الخسة والرذالة ، ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ أي : كصفته في أخس أحواله وهو ﴿ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ الخطاب لكل أحد ممن له حظ من الخطاب ، فإنه أدخل في إشاعة فظاعة حاله ﴿ يَلْهَثْ ﴾ اللهث : اندلاعُ اللسان أي : إخراجه بالنفس الشديد ﴿ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ أي : يلهث دائماً سواء حمل عليه بالزجر والطرد ، أو ترك ولم يتعرض له ، فإن في الكلاب طبعاً لا تقدر على نفض الهواء الساخن ، وجلب الهواء البارد بسهولة ، لضعف قلبها وانقطاع فؤادها بخلاف سائر الحيوانات ، فإنها لا تحتاج إلى النفس الشديد ، ولا يلحقها الكرب والمضايقة إلا عند التعب والإعياء ، فكما أن الكلب دائم اللهث ضيق الحال فكذا هذا الكافر ، إن زجرته ووعظته لم ينزجر ولم يتعظ ، وإن تركته لم يهتد ولم يعقل فهو متردد إلى ما لا غاية وراءه في الخسة والدناءة ، فانظر حب الدنيا وشؤمها ماذا يجلب للعلماء خاصة ، والنعمة إنما تسلب ممن لا يعرف قدرها وهو الكفور الذي لا يؤدي شكرها ، وكما أن الكلب لا يعرف الإكرام من الإهانة ، والرفعة من الحقارة ، وإنما الكرامة كلها عنده في كسرة يطعمها أو فضلة مائدة يرمى بها إليه سواء تقعده على سرير معك ، أو في التراب والقذر ، فكذا العبد السوء لا يعرف قدر الكرامة ، ويجهل حق النعمة فينسلخ عن لباس الفضل والكرم ، ويرتدي رداء القهر والمكر .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : ذلك المثل السيء ﴿ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ وهم اليهود وكما أن « بَلْعَم » بعدما أوتي آيات الله ، انسلخ منها ومال إلى الدنيا حتى صار كالكلب ، كذلك اليهود بعدما أوتوا

التوراة ، انسلخوا مما اعتقدوا في حقه عليه الصلاة والسلام وكذبوه وحرفوا اسمه ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ ﴾ القصص مصدر سمي به المفعول ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ راجياً تفكرهم تفكراً يؤدي بهم إلى الاتعاظ ﴿ سَاءَ مَثَلاً ﴾ ساء بمعنى بئس ومثلاً تمييز ﴿ الْقَوْمُ ﴾ مخصوص بالذم ، أي : ساء مثلاً مثل القوم ، وبئس الوصف وصف القوم ، وهذا السوء إنما يرجع إلى فعلهم ، لا إلى نفس المثل ، كأنه قال ساء فعلهم الذي جلب إليهم الوصف القبيح ، فأما المثل فهو من الله حكم وصواب ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بعد قيام الحجة عليها وعليهم بها ﴿ وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ أي : ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم فإن وباله لا يتخطاها ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ ﴾ أي : يخلق فيه الاهتداء ﴿ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾ لاغير كائناً من كان ، وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية في حصول الاهتداء ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ ﴾ بأن لم يخلق فيه الاهتداء ، بل خلق الله فيه الضلالة ، لصرف اختياره نحوها ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي : الكاملون في الخسران لاغير ، ومن أدركته العناية ، ولحقته الهداية لم ينزل عن المراتب العلوية إلى المدارك السفلية ، ومن خذله حتى اتبع هواه فأضله الهوى عن سبيل الله ، فهم الذين أخطأهم ذلك النور ولم يصبهم ، فوقعوا في الضلالة والخسران ، وكان سفيان الثوري يقول : اللهم سلِّمْ سلم ، كأنه في سفينة يخشى الغرق ، ولما قدم البشير يعقوب عليه السلام . قال له : على أي دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة ، وليس أبلغ عند الله في الشكر ، من أن يقول العبد : الحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا إلى الإسلام ، وإياك أن تغفل عن الشكر ، وتغتر بما أنت عليه من المعرفة والتوفيق والعصمة ، فإنه مع ذلك لا موضع للأمن والغفلة ، فإن الأمور بالعواقب ، فمن كان له جوهر نفيس يمكنه أن يأخذ في ثمنه ألف دينار ، فباعه بفلس ، أليس يكون ذلك خسراناً عظيماً وغبناً فظيعاً ، ودليلاً بيناً ، على ضعف الرأي وقلة الغفلة ، فتيقظ حتى لا تذهب عنك الآخرة ، وتنبه فإن الأمر خطير ، والعمر قصير ، والناقد بصير ، ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ أي : وبالله قد خلقنا ﴿ لِجَهَنَّمَ ﴾ أي : لدخولها والتعذيب بها ، وهي سجنُ الله في الآخرة ، سميت جهنم لبعد قعرها ﴿ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ يعني المصرين على الكفر في علم الله تعالى ، والجنُّ أجسام هوائية ، قادرة على التشكل بأشكال مختلفة ، لها عقول وأفهام ، وقدرة على الأعمال الشاقة ، وهي خلاف الإنس ، سميت بذلك لاستجنانهم واستتارهم عن العيون ، يقال جنه الليل ستره ، والإنس : البشر كالإنسان من آنس الشيء أبصره ، وقدم الجن على الإنس لأنهم أكثر عدداً وأقدم خلقاً ، ولأن لفظ الإنس أخف بمكان النون الخفيفة والسين المهموسة ، فكان الأثقل أولى بأول الكلام من الأخف لنشاط المتكلم وراحته والإجماع على أن الجن متعبدون بهذه الشريعة على الخصوص وأن نبينا ﷺ مبعوث إلى الثقلين ، ولا شك أنهم مكلفون في الأمم الماضية كما هم مكلفون في هذه الأمة لقوله تعالى (فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ) ﴿ لَهُمْ

﴿ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ أي : لا يعقلون بها إذ لا يلقونها إلى معرفة الحق والنظر في دلائله ، والقلب كالمرآة يصدأ من الإنكار والغفلة ، وجلاؤه التصديق والإنابة ، ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ أي : لا ينظرون إلى ما خلق الله نظر اعتبار ، ﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر ، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بالأوصاف المذكورة ﴿ كَالأَنْعَامِ ﴾ في عدم الفقه والأبصار للاعتبار ، والأنعام هي الإبل ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ بل للإضراب وليس إبطالاً بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام ، إلى حكم آخر وهو كونهم أضل من الأنعام طريقاً ، فإنها تدرك المنافع والمضار ، وتَجْهدُ في جلبها ودفعها غاية جهدها وهم ليسوا كذلك ، وقيل لأنها تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه ، وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ ﴾ عن أمر الآخرة وماأُعدَّ فيها للعصاة ، وفي الإنسان جهة روحانية وجهة جسمانية وقد ركب فيه عقل وشهوة فإن كان عقله غالباً على هواه كان أفضل من الملائكة ، وإن كان مغلوباً للنفس والهوى كان أخس وأرذل من البهائم .

﴿ وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ ﴾ تأنيث الأحسن أي : الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها ، لأنها دالة على معاني هي أحسن المعاني وأشرفها ، والمراد بها الألفاظ الدالة على المعاني المختلفة دل على أن الإسم غير المسمى ، ولو كان هو المسمى لكان المسمى عدد الأسماء وهو محال ، قال الغزالي : الحق أن الاسم غير التسمية وغير المسمى ، فإن هذه أسماء متباينة غير مترادفة ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ فسموه بتلك الأسماء واذكروه بها ، وفي الحديث : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة » [1] هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المُعِزُ المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدىء المعيد المحي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور » واستحسن المشايخ المتقدمون أن يبدأ أولاً ويقول : اللهم إني أسألك يا رحمن يا رحيم إلى آخره ، فيجيء بجميع الأسماء بحرف النداء ، ثم يقول في آخر الكل أن تصلي على محمد وآله وأن ترزقني .

---

(١) الحديث أخرجه الشيخان وابن ماجه والترمذي ، وزاد الترمذي ذكر الأسماء الحسنى .

﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ الإلحادُ : الميلُ والانحراف عن القصد أي : واتركوا الذين يميلون في شأنها عن الحق إلى الباطل ، روي : أن رجلاً من الصحابة دعا الله تعالى في صلاته باسم الله وباسم الرحمن ، فقال رجل من المشركين : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا الرجل يدعو ربين اثنين ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية (قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) فإن تعدد الاسم لا يستلزم تعدد المسمى ﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي : اجتنبوا إلحادهم كيلا يصيبكم ما أصابهم ، فإنه سينزل بهم عقوبة إلحادهم .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا ﴾ أي : وبعض من خلقنا أو وبعض ممن خلقنا ﴿ أُمَّةٌ ﴾ أي : طائفة كثيرة ﴿ يَهْدُونَ ﴾ الناس ملتبسين ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي : يهدونهم بكلمة الحق ، ويدلونهم على الاستقامة ﴿ وَبِهِ ﴾ أي وبالحق ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : يحكمون في الحكومات الجارية فيما بينهم ولا يجورون . واعلم أن أهل الحق إنما نالوا ما نالوا بهدايتهم للناس ، وعدلهم فيما بين الخلق ، بعدما كانوا مهديين وعادلين في أنفسهم ، وروي : عن عبد الله بن المبارك أنه كان يتجر ويقول : لولا خمسةٌ ما اتجرت ، السفيانان ، وفضيل ، وابن السماك ، وابن علية ، ليصلهم فقدم سنة فقيل له : قد وُلِّي ابن علية القضاء ، فلم يأته ولم يصله بشيء ، فأتاه ابن علية فلم يرفع رأسه إليه ، ثم كتب إليه ابن المبارك :

يا جَاعِلَ العلمِ له بازياً * يصطاد له أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها * بحيلة تذهب بالدين
فصرتَ مجنوناً بها بعدما * كنتَ دواءً للمجانين
أين رواياتك في سَرْدها * لترك أبواب السلاطين
إن قلتَ : أُكرهتُ فذا باطلٌ * زلَّ حمار العلم في الطين

فلما وقف إسماعيل بن علية على الأبيات، ذهب إلى الرشيد ولم يزل به إلى أن استعفاه من القضاء فأعفاه.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي : بآياتنا التي هي معيار الحق ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾ أي : سنقرّبهم البتة إلى الهلاك على التدريج ، وأصل الاستدراج الاستنزال ، وهو النقل من علو إلى أسفل ، إلى درجات المهالك ، ليبلغ أقصى مراتب العقوبة والعذاب ﴿ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : سنستدرجهم استدراجاً يحسبون أنه إكرام من الله تعالى ، فيزدادوا بطراً وانهماكاً في الغي ، إلى أن تحق عليهم كلمة العذاب .

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ الإملاء : التأخير وعدم الاستعجال في مؤاخذة الإنسان ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي : إن أخذي شديد وإنما سماه كيداً لأن ظاهره إحسان ، وباطنه خذلان ، وقيل : سماه كيداً لنزوله

بهم من حيث لا يشعرون ، والكيد الأخذ بخفية ، وقال سهل : في معنى هذه الآية : نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها ، فإذا ركنوا إلى النعمة وحجبوا عن المنعم أُخذوا ، وقال الشيخ : الاستدراج تواتر المنة بغير خوف الفتنة . فإن قلت : ما الحكمة في إمهال الله العصاة في الدنيا ؟ قلت : ليرى العباد أن العفو والإحسان ، أحب إليه من الأخذ والانتقام ، وليعلموا شفقته وبره وكرمه ، وأن رحمته سبقت غضبه .

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ الهمزة للإنكار والتعجب والتوبيخ والواو للعطف على مقدر ، والمعنى : أكذَّبوا بالآيات ولم يتفكروا في أنه ليس بصاحبهم شيء من الجنون ، حتى يؤديهم التفكر إلى صحة نبوته فيؤمنوا به ؟ فالتصريح بنفي الجنود للرد على عظيمتهم الشنعاء ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي : ما هو عليه الصلاة والسلام ﴿ إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أي : مبالغ في الإنذار مظهر له غاية الإظهار ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا ﴾ الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر أكذَّبوا ولم ينظروا نظر تأمل واستدلال ﴿ فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فيما تدل عليه السموات والأرض ، من عظم الملك ، وكمال القدرة ، فيعلموا أنه لم يخلقها عبثاً ، ولم يترك عباده سدى ؟ والملكوتُ : الملك العظيم الواسع ، كالرهبوت من الرهب زيدت التاء للمبالغة . أي : الملك الأعظم ﴿ وَمَا خَلَقَ اللهُ ﴾ أي : وفيما خلق الله ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي : من جليل ودقيق ، مما يقع عليه اسم الشيء من الأجناس التي لا يمكن حصرها أي أن كل فرد من الموجودات ، محل للنظر والاعتبار ، والاستدلال على الصانع ووحدانيته كما قيل :

وفي كل شيء لـــــه آيـــــة * تـــــدل على أنـــــه واحـــــد

﴿ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ والمعنى : أو لم ينظروا في أن الشأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، لعلهم يموتون عن قريب ، فما لهم لا يسارعون إلى طلب الحق ، والتوجه إلى ما ينجيهم ، قبل مجيء الموت ونزول العذاب ؟ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ﴾ أي : كلام ﴿ بَعْدَهُ ﴾ أي : بعد القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا لم يؤمنوا به ، وهو النهاية في البيان ، وليس بعده كتاب منزل ولا نبي مرسل ؟ ﴿ مَنْ يُضْلِلِ اللهُ ﴾ أي : من يزغ الله قلبه فلا أحد يستطيع أن يهديه إلى الإيمان ﴿ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ ﴾ أي : وهو تعالى يتركهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ في مجاوزتهم الحد في كفرهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ مترددين ومتحيرين . وفي الآية حثٌّ على التفكر ، ودلالة على أن العاقل لو تفكر بالعقل السليم ، من آفات الوهم والخيال والتقليد ، في حال النبي ﷺ وأخلاقه وسيره ، فضلاً عن معجزاته ، لتحقق عنده أنه النبي الصادق ، وأن ما يدعوه إليه كله حق وصدق ، وأنه لينجو بهذا التفكر من النار كما أخبر الله تعالى عن حال أهل النار بقوله (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي

أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ أي : عن القيامة وهي من الأسماء الغالبة فيها وسميت القيامة ساعة لوقوعها بغتة ، أو لكون الحساب الواقع فيها يتم وينقضي في ساعة يسيرة ، لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ، وأصلها ساعة قيام الناس من الأجداث ، فلما غلبت تعينت فاستغنت عن الإضافة ، روي : أن قوماً من اليهود قالوا : يا محمد أخبرنا عن الساعة ؟ إن كنت نبياً وكان ذلك امتحاناً منهم فنزلت ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ أيّان : ظرف زمان متضمن لمعنى الاستفهام أي : متى إرساؤها أي : إتيانها وتقريرها ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا ﴾ أي : علم وقت إرسائها ﴿ عِنْدَ رَبِّي ﴾ خاصة قد استأثر به ، لم يُطلع عليه ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلاً ﴿ لا يُجَلِّيهَا ﴾ أي : لا يظهر أمرها من التجلية وهو إظهار الشيء ﴿ لِوَقْتِهَا ﴾ أي : في وقتها ﴿ إِلا هُوَ ﴾ والمعنى أنه تعالى يخفيها على غيره ، إخفاء مستمراً إلى وقت وقوعها ، ولا يظهرها إلا في ذلك الوقت ، كتم الله وقت قيام الساعة عن الخلق ، ليصير المكلف مسارعاً إلى التوبة والطاعة في جميع الأوقات ، فإنه لو عُلم وقت قيام الساعة لتقاصر الخلق عنها ، وكذلك أخفى ليلة القدر ليجتهد المكلف في العبادة في ليالي الشهر كلها ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي : كبرت وشقت على أهلها من الملائكة والثقلين ، وقيل : عظمت على أهلها خوفاً من شدائدها وما فيها من الأهوال ، ﴿ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً ﴾ إلا فجأة على غفلة ، فتقوم والرجل يسقي ماشيته ، والرجل يصلح حوضه ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه ، والرجل يهوي لقمة في فمه فما يدرك أن يضعها ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أي : عالم بها ، من حفى عن الشيء إذا بالغ في السؤال عنه ، فلذلك كنى بقوله تعالى (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا) عن كونه عليه الصلاة والسلام عالماً بها بأقصى ما يمكن . أي : يسألونك مشبها حالك عندهم بحال من هو حفي عنها أي : مبالغ في العلم بها ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ ﴾ الفائدة في إعادته رد المعلومات كلها إلى الله تعالى فيكون التكرار على وجه التأكيد والتمهيد للتعريض بجهلهم بقوله ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ اختصاص علمها به تعالى فبعضهم ينكرونها ، وبعضهم يدّعون أن العلم بذلك من موجبات الرسالة ، فيتخذون السؤال عنها ذريعة إلى القدح في رسالتك ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً ﴾ أي : جلب نفع ، ولا دفع ضر ، فمن لا يعلم أن نفعه في أي الأشياء ومضرته في أيها كيف يعلم وقت قيام الساعة ؟ ﴿ إِلا مَا شَاءَ اللهُ ﴾ أن أملكه من ذلك ، فيمكنني منه ويقدرني عليه ، ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ ﴾ أي : جنس الغيب ﴿ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ ﴾ أي : لجعلت المال والمنافع كثيراً ، ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ من كيد العدو والفقر والضر وغيرها ﴿ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أي : ما أنا إلا عبد مرسل للإنذار والبشارة ، شأني ما يتلعق بها

من العلوم ، الدينية والدنيوية ، لا الوقوف على الغيوب ، ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم ينتفعون بالإنذار كما ينتفعون بالبشارة ، وفي الآية دلالة على بطلان قول من يدعي العلم بمدة الدنيا ، ويستدل بما روي أن الدنيا سبعة آلاف سنة ، لأنه لو كان كذلك لكان وقت قيام الساعة معلوماً ، وأما قوله ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار إلى السبابة والوسطى ، فمعناه تقريب الوقت لا تحديده كما قال تعالى (**فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا**)

﴿ هُوَ ﴾ أي : الله تعالى ﴿ الَّذِي ﴾ أي : العظيم الشأن الذي ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ جميعاً وحده من غير أن يكون لغيره مدخل في ذلك بوجه من الوجوه ﴿ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ هو آدم عليه السلام . ﴿ وَجَعَلَ ﴾ أنشأ ﴿ مِنْهَا ﴾ أي : من جنس تلك النفس الواحدة ﴿ زَوْجَهَا ﴾ حواء أو من جسدها ، لما يروى أن الله تعالى خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه الصلاة والسلام ، والأول هو الأنسب إذ الجنسية هي المؤدية إلى الغاية الآتية لا الجزئية ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أي : إلى الزوج وهي حواء أي : ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئناناً مصححاً للإزدواج ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ التغشي والتشغية التغطية ، كنى به عن الجماع لأن الرجل يغطي المرأة ويسترها حال الوقاع لاستعلائه عليها ﴿ حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً ﴾ في مبادىء الأمر ، فإنه عند كونه نطفة أو علقة أخف عليها ، بالنسبة إلى ما بعد ذلك من المراتب ، والمشهور أن الحَمْل بالفتح ما كان في البطن أو على رأس الشجرة ، وبالكسر ما كان على ظهر إنسان أو على الدابة ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ أي : فاستمرت به كما كان قبل ، حيث قامت وقعدت ، وأخذت وتركت ، ولم تكترث بحملها فمرت من المرور بمعنى الذهاب والمضي ، ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ أي : صارت ذا ثقل ، بكبر الولد في بطنها ﴿ دَعَوَا اللهَ ﴾ أي : آدم وحواء عليهما السلام ﴿ رَبَّهُمَا ﴾ أي : مالك أمرهما الحقيق بأن يخص به الدعاء ، أي : دعواه تعالى في أن يؤتيهما ولداً صالحاً ، ووعدا بمقابلته الشكر وقالا ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً ﴾ أي : ولداً سويّ الأعضاء ، أو صالحاً في أمر الدين ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لك على هذه النعمة المجددة ، ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً ﴾ أي : فلما أعطى أولادهما المشركين ولداً صالحاً سويّ الأعضاء ﴿ جَعَلا ﴾ أي : جعل هذان الأبوان ﴿ لَهُ ﴾ أي : لله تعالى ﴿ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ بأن سميا أولادهما بعبد العزى وعبد مناف ونحو ذلك ، والأظهر تقرير أبي السعود حيث قال في تفسيره (**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً**) أي : لما آتاهما ما طلباه أصالة واستتباعاً من الولد وولد الولد ما تناسلوا ، (جَعَلا) أي : جعل أولادهما (لَهُ) تعالى (**شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**) أي : فيما آتى أولادهما من الأولاد ، ففي الكلام حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وإلا لزم نسبتها أي : آدم وحواء إلى الشرك ، وهما بريئان منه بالاتفاق ، ويدل على الحذف المذكور صيغة الجمع في قوله تعالى

﴿ فَتَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : عن إشراكهم وهو تسميتهم المذكورة ، ولو كان المراد بالآية آدم وحواء ، لقال عما يشركان ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ به تعالى ﴿ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً ﴾ أي : لا يقدر على أن يخلق شيئاً من الأشياء أصلاً ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ عطف على ما لا يخلق يعني الأصنام ﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ ﴾ أي : لعبدتهم إذا حَزَبهم أمر مهم ﴿ نَصْراً ﴾ أيَّ نصر ، إما بجلب منفعة أو دفع مضرة ﴿ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ فيدفعون عنها ما يعتريها من الحوادث ، كما إذا أراد أحد أن يكسرها أو يلطخها بالألواث والأرواث ، وكانوا يلطخون أفواه الأصنام بالخلوف والعسل ، وكان الذباب يجتمع عليها فلا تقدر على دفع الذباب عن أنفسها ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ أيها المشركون ﴿ إِلَى الْهُدَىٰ ﴾ إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم ﴿ لا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ إلى مرادكم ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أيها المشركون ﴿ أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ أي : الأصنام ﴿ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ ساكتون أي : مستوي عليكم دعاؤكم لهم وسكوتكم ، فإنه لا يتغير حالكم في الحالتين ، كما لا يتغير حالهم بحكم الجمادية ، ولم يقل أم صمتم لرعاية رؤوس الآي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي : تعبدونهم من دونه تعالى من الأصنام وتسمونهم آلهة ﴿ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أي : مماثلة لكم من حيث إنها مملوكة لله تعالى ، مسخرة لأمره ، عاجزة عن النفع والضر ، سماها عباداً لأنهم صوروها على صورة الإنسان ﴿ فَادْعُوهُمْ ﴾ في جلب نفع وكشف ضر ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ صيغته صيغة الأمر ومعناه التعجيز ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في زعمكم أنهم قادرون على ما أنتم عاجزون عنه ﴿ أَلَهُمْ ﴾ أي : للأصنام ﴿ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ حتى يمكن استجابتهم لكم ؟ ووصف الأرجل بالمشي بها للإيذان بأن مدار الإنكار هو الوصف ﴿ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ أم منقطعة مقدرةٌ ببل والهمزة ، والبطشُ : الأخذ بقوة ، والمعنى بل ألهم أيد يأخذون بها ما يريدون أخذه ؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ قدم المشي لأنه حالهم في أنفسهم ، والبطش حالهم بالنسبة إلى الغير ، وأما تقديمه على قوله (أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ) إلخ مع أن الكل سواء في أنها من أحوالهم بالنسبة إلى الغير ، فلمراعاة المقابلة بين الأيدي والأرجل ، وأما تقديم الأعين فلما أنها أشهر من الآذان وأظهر عيناً وأثراً ، ثم إن الكفار كانوا يخوّفونه عليه الصلاة والسلام بآلهتهم ، قائلين : نخاف أن يصيبك بعض آلهتنا بسوء ، فقال الله تعالى ﴿ قُلْ ادْعُوا ﴾ أيها المشركون ﴿ شُرَكَاءَكُمْ ﴾ واستعينوا بهم في عداوتي ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ ﴾ فبالغوا فيما تقدرون عليه من مكر وضرر أنتم وشركاؤكم فالخطاب في ﴿ كِيدُونِ ﴾ للأصنام وعبدتها ﴿ فَلا تُنْظِرُونَ ﴾ فلا تمهلون ساعة فإني لا أبالي بكم لوثوقي على ولاية الله وحفظه . ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ﴾ تعليل لعدم المبالاة . الولي : هنا بمعنى الناصر والحافظ ، أضيف إلى ياء المتكلم ، والمعنى إن الذي يتولى نصرتي وحفظي ، هو الذي أكرمني

بتنزيل القرآن وإيحائه إليّ ، ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ أي : ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده ، وينصرهم ولا يخذلهم فضلاً عن أنبيائه ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ يا عبدة الأصنام ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي : متجاوزين الله تعالى ، ودعاءه ، ومضمون هذه الآية ذكر أولاً لتقريع عبدة الأصنام ، وذكر ههنا إتماماً لتعليل عدم مبالاته بهم ، فلا تكرار ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ﴾ في أمرٍ من الأمور ﴿ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ إذا نابتهم نائبة ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ أي : الأصنام ﴿ إِلَى الْهُدَى ﴾ إلى أن يهدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم من الكيد وغيره ﴿ لا يَسْمَعُوا ﴾ أي : دعاءكم فضلاً عن المساعدة والإمداد .

﴿ وَتَرَاهُمْ ﴾ أي : وترى الأصنام أيها الرائي رأي العين ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي : يشبهون الناظرين إليك ويخيل إليك أنهم يبصرونك ، لما أنهم صنعوا لها أعيناً مركبة بالجواهر المضيئة المتلالئة ، وصوَّروها تصوير من قلَّب حدقته إلى الشيء ينظر إليه ﴿ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ أي : والحال أنهم غير قادرين على الإبصار ، وهو بيان عجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع ، وقيل المعنى : وترى المشركين يا محمد ينظرون إليك بأعينهم ، وهم لا يبصرونك ببصائرهم كما أنت عليه ، فهم غائبون عنك في الحقيقة إلا أن يقروا بالتوحيد وصدق الرسالة . حكي : أن السلطان محمود الغازي دخل على الشيخ أبي الحسن الخرقاني لزيارته ، وجلس ساعة ثم قال يا شيخ ما تقول في حق أبي يزيد البسطامي ؟ فقال الشيخ : هو رجل من رآه اهتدى واتصل بسعادة لا تخفى ، فقال محمود : وكيف ذلك وأبو جهل رأى رسول الله ﷺ ولم يتصل بالسعادة ولم يتخلص من الشقاوة ؟ فقال الشيخ في جوابه : إن أبا جهل ما رأى رسول الله ﷺ وإنما رأى « محمد بن عبد الله » يتيم أبي طالب حتى لو كان رأى رسول الله ﷺ لخرج من الشقاوة ودخل في السعادة ثم قال الشيخ ومصداق ذلك قول الله تعالى (**وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ**) .

ثم إن الرؤية تتناول ما في اليقظة وما في المنام ، والمنام الحق هو الذي يريه الملك الموكل على الرؤيا ، فإن الله تعالى قد وكل بالرؤيا ملكاً يضرب من الحكمة والأمثال ، وقد أطلعه الله سبحانه على قصص ولد آدم ، فهو يضرب لكل قصة مثلاً فإذا نام يمثل له تلك الأشياء على طريق الحكمة ، لتكون بشارة له أو نذارة أو معاتبة ليكونَ الناسُ على بصيرة من أمرهم . واعلم أن جميع الأنبياء معصومون من أن يظهر شيطان بصورهم في النوم واليقظة لئلا يشتبه الحق بالباطل . ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ روي أن رسول الله ﷺ سأل جبريلَ : « ما الأخذ بالعفو ؟ » فقال : لا أدري حتى أسأل ربَّ العِزَّة ، ثم رجع فقال : يا محمد إن ربك أمرك أن تعطي من حَرَمَك ، وتَصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك .

قال سعيد بن هشام : دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام ، قالت : أما تقرأ القرآن قلت : بلى ! قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ، وإنما أدبه بالقرآن بمثل قوله تعالى (**خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِض عَنِ الجَاهِلِينَ**) وبقوله (**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**) وبقوله (**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ**) وغير ذلك من الآيات الدالة على مكارم أخلاقه ﴿ **وَأْمُرْ بِالعُرْفِ** ﴾ بالجميل المستحسن من الأفعال ، لأنها قريبة من قبول الناس من غير نكير مثل : تقوى الله وصلة الأرحام ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض البصر عن المحارم ، وكف الجوارح عن المآثم ﴿ **وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ** ﴾ ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ، واحلم عنهم واغضض عما يسوءك منهم ، وذلك لأنه ربما أقدم بعض الجاهلين ، عند الترغيب والترهيب على السفاهة والأذى ، والضحك والاستهزاء ، فلهذا السبب أمر الله تعالى حبيبه في آخر الآية بتحمل الأذى والحلم عمن جفا ، فظهر بهذا أن الآية مشتملة على مكارم الأخلاق ، ولم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ﴿ **وَإِمَّا** ﴾ كلمتان إن التي هي للشرط ، وما التي هي صلة زائدة ﴿ **يَنْزَغَنَّكَ** ﴾ النزغ : الغرز يقال نزغه طعن فيه ، ونزغ بينهم أفسد وأغرى ووسوس ، ونخس الدابة غرز مؤخرها أو جنبها بعود ونحوه ﴿ **مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ** ﴾ أي : نازغ شبهت وسوسته للناس ، وإغراؤه لهم على المعاصي ، بغرز السائق لما يسوقه ، والمعنى وإما يحملنك من جهته وسوسة ﴿ **فَاسْتَعِذْ بِاللهِ** ﴾ فالتجىء إليه تعالى من شره واعتصم ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ تعالى ﴿ **سَمِيعٌ** ﴾ يسمع استعاذتك به قولاً ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾ يعلم تضرعك إليه قلباً في ضمن القول أو بدونه فيعصمك من شره ، واختلفوا هل المراد الشيطان أو القرين فقط ، والظاهر أنه في حق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إبليس ، فإن قرينه قد أسلم فلا يستعيذ منه ، فالاستعاذة من غيره ، ويتعين أن يكون إبليس أو أكابر جنوده ، لأنه قد ورد في الحديث : « أن عرش إبليس على البحر الأخضر وجنوده حوله ، وأقربهم إليه أشدهم بأساً ويسأل كلاً منهم عن عمله وإغوائه ، ولا يمشي هو إلا في الأمور العظام »[1] والظاهر أن أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أهم المهمات عنده فلا يؤثر به غيره من ذريته كما ورد : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل

---

(١) ذكره بالمعنى ولفظه كما في صحيح مسلم : « إن عرش إبليس على البحر ، فيبعث سراياه فيفتنون الناس ، فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : فعلتُ كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً ، ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرَّقت بينه وبين امرأته ، فيدنيه منه ويلتزمه ويقول : نعم أنت » .

المدينة »[١] ، وعن بعض العلماء أن الخطاب في قوله ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ ﴾ وإن كان للنبي عليه الصلاة والسلام إلا أن المراد أمته ، وتشريع الاستعاذة لهم ، واعلم أن الغضب لغير الله من نزغات الشيطان ، وأنه بالاستعاذة يسكن ، روي : أنه ﷺ رأى رجلاً يخاصم أخاه قد احمر وجهه ، وانتفخت أوداجه من الغضب ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان لذهب عنه ما يجده »[٢] وفي الحديث : « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ »[٣] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ أي : اتصفوا بوقاية أنفسهم مما يضرهم ﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ أدنى لمة منه وهي الوسوسة والطائف اسم فاعل من طاف يطوف إذا دار حول الشيء ، كأنها تطوف بهم وتدور حولهم لتوقع بهم ، أو من طاف به الخيال يطيف طيفاً أي : ألمّ فالطائف بمعنى الجاني والنازل ، ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ أي : ما أمر به ونهى عنه ، أو الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ بسبب ذلك التذكر ﴿ مُبْصِرُونَ ﴾ مواقع الخطأ ومكائد الشيطان ، فيتحرزون عنها ولا يتبعونه فيها ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ ﴾ أي : إخوان الشياطين وهم المنهمكون في الغي ، المعرضون عن وقاية أنفسهم عن المضار ﴿ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ﴾ أي : يكون الشياطين مدداً لهم فيه بالتزين والحمل عليه ، والغيُّ : الضلال ﴿ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾ أي : لا يمسكون عن الإغواء يقال أقصر عن الشيء إذا كف عنه وانتهى ، فعلى العاقل مباعدة أهل الطغيان ، ومجانبة وسوسة الشيطان ، واعلم أن أصل الخواطر اثنان : ما يكون بإلقاء المَلَك ، وما يكون بإلقاء الشيطان ، والفرق أن كل ما يكون سبباً للخير ، ويحصل بعده توجه تام إلى الحق ولذة عظيمة مرغبة في العبادة فهو ملكي ، وبالعكس شيطاني .

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ ﴾ أي : أهل مكة ﴿ بِآيَةٍ ﴾ من القرآن أو بآية مما اقترحوه كقولهم أحي لنا فلاناً الميت يكلمنا ويصدقك فيما تدعو إليه ونحو ذلك ﴿ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ اجتبى الشيء بمعنى جباه لنفسه أي : جمعه ، فالمعنى هلا جمعتها من تلقاء نفسك تقولاً ، كسائر ما تقرأه من القرآن ، فإنهم يقولون كله إفك ؟ ﴿ قُلْ ﴾ رداً عليهم ﴿ إِنَّمَا أَتَّبِعُ ﴾ أي : ما أفعل إلا اتباع ﴿ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ لست بمختلق للآيات ولست بمقترح لها ﴿ هَذَا ﴾ القرآن ﴿ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ بمنزلة البصائر للقلوب ، بها تبصر الحق وتدرك الصواب ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذ هم المقتبسون

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد رقم / ٥٤٢ / والنسائي في السهو ٣ / ١٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ، ومسلم في البر ، وأبو داود برقم / ٤٧٨١ / .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب رقم / ٤٧٨٤ / وأحمد في المسند ٤ / ٢٢٦ وهو حديث حسن .

من أنواره والمغتنون من آثاره ، والجملةُ من تمام القول المأمور به .

﴿ وَإِذَا قُرِىءَ الْقُرْآنُ ﴾ الذي ذكرت شؤونه العظيمة ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ استماع قبول وعمل بما فيه ، فإن شأنه يوجب الاستماع مطلقاً ، وفرقوا بين المستمع والسامع ، بأن المستمع من كان قاصداً للسماع مصغياً إليه ، والسامع من اتفق سماعه من غير قصد إليه ﴿ وَأَنْصِتُوا ﴾ أي : واسكتوا في خلال القراءة ، وراعوها إلى انقضائها ، تعظيماً وتكميلاً للاستماع ، والفرق بين الإنصات والسكوت : أن الإنصات مأخوذ في مفهومه الاستماع ، وأما السكوتُ فلا يقتصر في معناه على الاستماع والتدبر ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي : تفوزون بالرحمة التي هي أقصى ثمراته ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، كان المسلمون قبل نزول هذه الآية يتكلمون في الصلاة ، ويأمرون بحوائجهم ويأتي الرجل الجماعة وهم يصلون فيسألهم كم صليتم وكم بقي ؟ فيقولون كذا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأمرهم بالإنصات عند الصلاة بقراءة القرآن لكونها أعظم أركانها ، استدل الإمام أبو حنيفة بهذه الآية على أن إنصات المقتدي واجب ، وأن قراءة الإمام قراءةٌ للمأموم ، فلا يقرأ خلف الإمام سواء أسَّر الإمام أم جهر ، لأنه تعالى أوجب عليه أمرين : الاستماع والإنصات ، فإذا فات الاستماع بقي الإنصات واجباً ، والآية نزلت في الصلاة خاصة ، حين كانوا يقرأون القرآن خلفه عليه الصلاة والسلام ، وأسقط أبو حنيفة القراءة عن المأموم بل منعه منها شفقة على الإمام ، دفعاً للتخليط عليه كما يشاهد بالجامع الأزهر ، قال عليّ رضي الله عنه : من قرأ خلف الإمام فقد أخطأ الفطرة أي : السنّة . يحكى : أن جماعة من أهل السنّة جاؤا إلى أبي حنيفة رضي الله عنه لينـاظروا في القراءة ، خلف الإمام ، ويبكّتوه ويشنّعوا عليه ، فقال لهم : لا يمكنني مناظرة الجميع ، ففوضوا أمر المناظرة إلى أعلمكم لأناظره ، فأشاروا إلى واحد ، فقال : هذا أعلمكم ؟ فقالوا : نعم ، قال : والمناظرة معه مناظرة لكم ، قالوا : نعم ، قال وكيف ؟ قالوا لأنا رضينا به إماماً فكان قوله قولنا ، فقال أبو حنيفة فنحن لما اخترنا الإمام في الصلاة كانت قراءته قراءة لنا ، وهو ينوب عنا فأقرُّوا له بالإلزام ، قال الفقهاء : المطلوب من القراءة التدبر والتفكر والعمل به ولا يحصل ذلك إلا بالاستماع والإنصات ، فيجب على المؤتم ذلك ، وهو كالخطبة يوم الجمعة لما شرعت وعظاً وتذكيراً وجب الاستماع ليحصل فائدتها ، لا أن يخطب كل لنفسه ، بخلاف سائر الأركان لأنها شرعت للخشوع ولا يحصل لهم الخشوع ، إلا بالسجود معه والركوع ، واعلم أن ظاهر النظم الكريم يقتضي وجوب الاستماع ، والإنصات ، عند القراءة في الصلاة وغيرها ، وعامة العلماء على استحبابها خارج الصلاة قال الحدادي : ولا يجب على القوم الإنصات لقراءة كل من يقرأ في غير الصلاة . وكُره للقوم أن يقرأوا القرآن جملة ، لتضمنها ترك الاستماع والإنصات ، وقيل : لا بأس به ، قال في القُنية : ولا بأس باجتماعهم على قراءة الإخلاص جهراً عند ختم القرآن ، ولو

قرأ واحد واستمع الباقون فهو أولى .

﴿ وَاذْكُرْ ﴾ يا محمد ﴿ رَبَّكَ ﴾ والذكر طرد الغفلة ولذا لا يكون في الجنة ، لأنها مقام الحضور الدائم ﴿ فِي نَفْسِكَ ﴾ وهو الذكر بالكلام الخفي ، فإن الإخفاء أدخلُ في الإخلاص ، وأقرب من الإجابة ، وهذا الذكر يعم الأذكار كلها من القراءة والدعاء وغيرها ، وليس منحصراً في التهليل والتسبيح والتكبير والدعاء ، بل كل مطيع لله في عمل فهو ذاكر ﴿ تَضَرُّعاً ﴾ أي : متضرعاً ومتذللاً ، والضراعة : الخضوع والذل والاستكانة قال بعض العلماء العارفين : الصلاة أفضل الحركات ، والصوم أفضل السكنات ، والتضرع في هياكل العبادات ، يحل ما عقدته الأفلاك الدائرات .

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه * من فضل جودك ما علمتني الطَّلَبا

﴿ وَخِيفَةً ﴾ بكسر الخاء أصلها خوفة أي : والحال كونك خائفاً ، قال ابن الشيخ : وهذا الخوف يتناول خوف التقصير في الأعمال ، وخوف الخاتمة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة » (١) .

﴿ وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ صفة لمحذوف أي : ومتكلماً كلاماً هو دون الجهر ، فإنه أقرب إلى حسن التفكر ، ولما رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمر رضي الله عنه يقرأ رافعاً صوته فسأله ، فقال : أوقظ الوسنان ، وأطرد الشيطان ، قال عليه الصلاة والسلام : « اخفض من صوتك قليلاً » وأتى أبا بكر رضي الله عنه فوجده يقرأ خافضاً صوته فسأله ، فقال : قد أسمعتُ من ناجيتُ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ارفع من صوتك قليلاً » ، وقد جمع النووي بين الأحاديث الواردة في استحباب الجهر بالذكر ، والواردة في استحباب الإسرار به ، بأن الإخفاء أفضل حيث خاف الرياء ، وتأذى المصلون أو النائمون ، والجهر أفضل في غير ذلك لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ، ولأنه يوقظ قلب الذاكر ، ويجمع همه إلى الفكر ، ويصرف سمعه إليه ، ويطرد النوم ويزيد في النشاط ، وبالجملة أن المختار عند الأخيار أن المبالغة والاستقصاء في رفع الصوت بالتكبير في الصلاة ونحوه ، مكروه والحالة الوسطى بين الجهر والإخفاء مع التضرع والتذلل والاستكانة الخالية عن الرياء جائز غير مكروه باتفاق العلماء ، كذا في أنوار المشارق وقد سبق من شارح الكشاف أن الشيخ المرشد قد يأمر المبتدىء برفع الصوت لتقلع من قلبه الخواطر الراسخة فيه ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ أي : اذكره في هذين الوقتين ، فإن الغدو جمع غدوة ، وهي ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، والآصال جمع أصيل وهو

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الترمذي بلفظ « جفّ القلم على علم الله عز وجل » وانظر جامع الأصول ١٠ / ١١٩ .

الوقت بعد العصر إلى المغرب ، وخص هذان الوقتان لأن فيهما تتغير أحوال العالم تغيراً عجيباً ، يدل على أن المؤثر فيه هو الإله الموصوف بالحكمة الباهرة والقدرة القاهرة ، فكل من شاهد هذه التغيرات ينبغي له أن يذكر المؤثر فيها بالتضرع والابتهال ، والخوف من تحويل حاله إلى سوء الحال ، وقيل الغدو والآصال عبارتان عن الليل والنهار اكتفى عن ذكرهما بذكر طرفيهما ، والمراد بذكره تعالى فيهما المواظبة عليه بقدر الإمكان ﴿ **وَلا تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ** ﴾ عن ذكر الله تعالى ، أمر أولاً بأن يذكر ربه على وجه يستحضر في نفسه معاني الأذكار التي يقولها بلسانه ، فإن المراد بذكر الله في نفسه ، أن يذكره تعالى عارفاً بمعاني ما يقول من الأذكار ، ثم أتبعه بقوله (**وَلا تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ**) للدلالة على أن الإنسان ينبغي له أن لا يغفل قلبه عن استحضار جلال الله تعالى وكبريائه .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ** ﴾ أي : الملائكة ، المقربين لديه قرب الشرف والمكانة ، لا قرب المسافة والمكان ﴿ **لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ** ﴾ بل يؤدونها حسبما أمروا به ﴿ **وَيُسَبِّحُونَهُ** ﴾ أي : ينزهونه عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه ﴿ **وَلَهُ يَسْجُدُونَ** ﴾ أي : يخصونه بغاية العبودية والتذلل . لا يشركون به شيئاً وهو تعريض بسائر المكلفين ولذلك شرع السجود عند قراءتها ، واعلم أن السجدة نهاية الخضوع وإنما شرعت في موضعٍ جبراً للنقصان كسجود السهو وفي موضع لمخالفة الكفار والموافقة للمسلمين ، ويكره تأخير السجدة من غير ضرورة ، وكان ﷺ يقول في سجود التلاوة : « سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره فأحسن صورته ، وشقَّ سمعه وبصره بحوله وقوته ، فتبارك الله أحسن الخالقين » ويزيد عليها اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، وضع عني بها وزراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود عليه الصلاة والسلام » .

وليس الإنسان بمعصوم من إبليس في صلاته إلا في سجوده ، لأنه حينئذ يذكر الشيطان معصيته فيحزن فيشتغل بنفسه عنك ، ولهذا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد لها ، اعتزل الشيطان يبكي ويقول : يا ويلتي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأُمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار »[1] فالعبد في سجوده معصوم من الشيطان غير معصوم من النفس ، فخواطر السجود كلها إما ربانية ، أو ملكية ، أو نفسية ، وليس للشيطان عليه من سبيل ، فإذا قام من سجوده غابت تلك الصفة عن إبليس ، فزال حزنه فاشتغل بك ، اللهم اصرف عنا شر الشيطان ووساوسه .

تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف

● ● ●

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

فهارس المجلد الأول

أولاً : فهرس المواضيع

ثانياً: فهرس أطراف الحديث

ثالثاً: فهرس الأبيات الشعرية

فهارس المجلد الأول

أولاً : فهرس المواضيع

« سورة الفاتحة »

الموضوع **الصفحة**

- مقدمة المحقق الشيخ محمد علي الصابوني ٥
- مقدمة المُؤلف الشيخ إسماعيل حقي ٧
- الحكمة من الاستعاذة وأسرارها وفوائدها ٧
- معنى الاستعاذة وهل هي آية من القرآن ؟ ٩
- الفرق بين الشياطين والجن في الصورة والخلق ٩
- قصة شراء إبليس للدنيا وبيعها لجنده وأتباعه ٩
- وسوسة الشيطان للمؤمن وما أجاب عنه النبي ﷺ وتشبيه الشيطان بالسارق ٩
- قصة التلميذ مع شيخه بعد تلقيه الأحاديث ، وتعليه كيف يدفع وسوسة الشيطان ١٠
- معنى البسملة ، وهل هي آية مستقلة من القرآن ؟ أم هي للتبرك وللفصل بين السور ١١
- المختار في اسم الله الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وبيان أن أسماء الله توقيفيَّة ١١
- للدعاء آداب وشرائط ، أولها إصلاح الباطن باللقمة الحلال ، وآخرها الإخلاصُ وحضورُ القلب ١١
- ما الفرق بين « الرحمن » و « الرحيم » ورحمة الله تعالى في الدنيا تَعُمُّ البرَّ والفاجر ١١
- مقاصد سورة الفاتحة ، ولماذا سميت « فاتحة الكتاب » و « أمُّ القرآن » ؟ ١٣
- كلام حجة الإسلام الغزالي في « منهاج العابدين » لبيان مقام الحمد والشكر ١٤
- في لفظ « الرب » معنى الربوبية ، وطريقة تربية الله جل وعلا لبعاده ، ظاهراً وباطناً ؟ ١٤
- من مظاهر التربية أنه تعالى أسمع بعظم ، وبصَّر بشحم ، وأنطق بلحم ، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى ١٤
- الحكمة من التكاليف الشرعية ، تطهير الظاهر والباطن ، وتخليص العبد من العوائق الجسمانية ١٤
- الابتلاء والامتحان من سنن الله الكونية ، وكل بليَّة ومحنة ، تحتها رحمة ومِنْحَة ١٥
- ما يكرهه طبع الإنسان تحته أسرار خفية ، وحكمة بالغةُ ، وشأن العاقل أن يبني على الحقائق ١٥
- قيل لبعضهم : جئتك لحاجة يسيرة ، فقال : اطلب لها رجلاً يسيراً ، واطلبني لمهاتك ١٥
- الفرق بين قراءة « مَلِك يوم الدين » و « ومَالِكِ يوم الدين » وقصة الإمام الثلجي مع قطرب ١٥
- من لطائف أسرار الفاتحة ﴿ **الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين** ﴾ كأن الله تعالى يقول : « خلقتك فأنا إلـه ، ربَّيتُك بالنعم فأنا ربّ ، ثم عصيتَ فسترتُ عليك فأنا رحمن ، ثُمَّ تُبتَ فغفرتُ لك فأنا رحيم .. » ١٦

الموضوع — الصفحة

- السرُّ في مجيء قول العبد ﴿ إياك نعبدُ ﴾ بصيغة الجمع ، إظهار الضعف ، ومزج حاجة العبد بحاجة إخوانه ١٦
- في الجمع بين قوله ﴿ إياك نعبد ﴾ و ﴿ إياك نستعين ﴾ وافتخار وافتقار ، بكونه عَبْداً ذليلاً .. إلخ ١٦
- ينبغي استحضار عظمة الله عند تلاوة القرآن في الصلاة ، وقصة سفيان الثوري حين صلَّى إماماً في صلاة المغرب . ١٧
- في تقديم الاستعانة وتخصيصها بالله سبحانه ، اقتداءً بالخليل إبراهيم حين سأله جبريل : ألك حاجة ١٧
- معنى طلب المؤمن الهداية إلى الصراط المستقيم ، مع أنه مهتدٍ ، هو طلبُ التثبيت على الإيمان والدين ١٧
- أقسام الهداية : العامة ، والخاصة ، والهداية الحقيقية من الله ، وهي هداية الأنبياء والمرسلين ١٨
- الشيطان قاطع طريق ، والصراط صراطان : من العبد إلى الرب ، ومن الرب إلى العبد .. إلخ ١٩
- الطريق من العبد إلى الربِّ طريقٌ مخوف ، ولهذا تكرر ذكر الصراط في سورة الفاتحة ١٩
- تخصيص الضالين « بالنصارى » والمغضوب عليهم « باليهود » وردت به الآيات ، واللفظ للعموم ١٩
- لفظة « آمين » ليست آية من القرآن ، وإنما وردت بها السُنَّة المطهرة ، ومعناها : استجب دعاءنا ٢٠
- معرفة أطول سورة في القرآن ، وأقصر سورة في القرآن ، وأطول آية وأقصرها .. إلخ ٢١

« سورة البقرة »

- لماذا كانت سورة البقرة أعظم سورة من القرآن بعد سورة الفاتحة ٢١
- ما الحكمة من ابتداء سورة البقرة بالحروف الهجائية المقطَّعة ، وأقوال المفسرين في ذلك ٢١
- قال بعض العلماء : إن الله تعالى طوى علم أسرار الحروف عن أكثر هذه الأمة ، لما في ذلك من الحكم .. إلخ ٢٢
- كيف نفى الريب عن القرآن مع أن الكفار شكُّوا فيه ؟ والجواب أن الشمس شمسٌ وإن لم يرها الضرير .. إلخ ٢٣
- معنى التقوى ، ومراتبها الثلاث ، وحقيقتها أن تجعل بينك وبين ما تخافه حاجزاً ، وأهمها التوقي من الشرك ٢٣
- الإيمان ليس مجرد التصديق فحسب ، بل هو إقرار باللسان ، وعملٌ بالأركان ، واعتقادٌ بالجَنَان ٢٤
- سِرُّ مجيء الأمر بالصلاة بلفظ « إقامة الصلاة » في جميع القرآن ، هو الأمر بتحسينها والقيام بأركانها ٢٥
- لماذا فُرضت الصلاة في السماء ، ليلة الإسراء والمعراج دون سائر الفرائض ؟ ٢٦
- اقتران الزكاةِ بالصلاة لأنها شقيقتها وأختها ، فالصلاة حقُّ الله ، والزكاة حقُّ العبد ، ولابدَّ منهما لكمال الإيمان ٢٦
- اليقين ثلاثة أوجه : يقين عيان ، ويقينٌ خبر ، ويقين دلالة ، وأمثلة ذلك ٢٧
- من ثمرة اليقين بالآخرة : الاستعدادُ لها ، والعمل بما ينجيه من عذاب الله ٢٧
- عشرةٌ من المغرورين : من أيقن أن الله خالقه ولا يعبده ، ومن أيقن أن الدنيا زائلة ويجمع لها .. إلخ ٢٧
- حاصل أمر الفلاح يرجع إلى أمور ثلاثة : الظفر على النفس والدنيا والشيطان ، والنجاة من عذاب النار .. إلخ . ٢٨
- الكفر على أربعة أنواع : كفرُ الإنكار ، وكفر الجحود ، وكفر النفاق ، وكفر العناد ٢٨
- الختم على القلوب والأسماع ، إنما جاء بطريق التمثيل لما عليه الكفار من السَّفه والضلال ٣٠
- صفات المنافقين وأحوالهم ، والسرُّ في الإسهاب بذكر قبائحهم في ثلاث عشرة آية ؟ ٣١

الموضوع **الصفحة**

- قصة الشيخ الذي امتحن تلميذه ، فذبح كبشاً وألقاه في كيس ، ليختبر أمانة الطالب ٣٢
- كيفية استهزاء الله عز وجل بالمنافقين في الآخرة ، وفتح أبواب النار ليخرجوا منها .. إلخ ٣٣
- قصة حارثة ، وقوله « أصبحتُ مؤمناً حقاً ، عزفتْ نفسي عن الدنيا فأظمأتُ نهارَها ، وأسهرتُ ليلها .. إلخ ٣٥
- عبد الله بن أُبَي بن سلول ، رأس النفاق والمنافقين ، وقصته مع أبي بكر وعمر وبعض الصحابة ٣٦
- ضرب الله المثل للمنافقين ، لكشف حالهم ، بمثلين عظيمين ، في غاية الوضوح والبيان ٣٨
- قال رجل للحسن البصري : كيف أصبحتَ ؟ قال : بخيرٍ ، قال : وكيف حالك ؟ قال : لا تسأل عن حالي !! ما ظنك بناس ركبوا في سفينة ، حتى توسّطوا البحر فانكسرت بهم ..؟ ٤٠
- معنى الجنة ؟ وإنما جمعت لأنها كثيرة « جنة عدن ، وجنة المأوى ، وجنة النعيم ، والفردوس .. » إلخ ٤٣
- كيف يتنعم أهل الجنة بالأكل والشرب ولا يبولون ولا يتغوطون ؟ وقصة اليهودي الذي سأل الرسول عن ذلك ٤٤
- من لطف الله عز وجل أنه خلق الأسد في غاية القوة ، والبعوض والذباب في غاية الضعف ، وأعطى البعوض الحشرة .. إلخ ٤٥
- سؤال الخليفة المأمون لبعض العلماء : لم خلق الله الذباب ؟ فقال : ليُذلَّ به الجبابرة .. إلخ ٤٥
- قال القشيري : سيَّان في قدرته العرشُ والبعوضة ، فلا خلقُ العرش عليه أعسرُ ، ولا خلق البعوضة ٤٥
- الردُّ على جهلة المتصوفة في ادعائهم الإباحة على الإطلاق ، وقولهم إذا تحققت المعرفة سقطت التكاليف .. إلخ ٤٧
- في إخبار الملائكة بخلق آدم تعليمٌ للعباد للتشاور في الأمور ، وقد قالوا : أعقل الرجال لا يستغني عن مشاورة أولي الألباب ٤٨
- علَّم الله آدم جميع الأشياء في الكون ، هذا فرسٌ ، وهذا بعيرٌ ، علَّمه أسماء المدن والقرى ، وجميع اللغات ٤٨
- ينبغي أن يقول الإنسان : لا أدري ، إذا سئل عن شيء لا يعلمه ، وقصة أبي يوسف القاضي مع السائل ٤٩
- أشارت الآيات إلى فضيلة العلم وشرفه على العباد ، لأن الملائكة أكثر عبادة من آدم ، ولم يستحقوا الخلافة ٤٩
- سجود الملائكة لآدم إنما كان سجود تحية وتكريم ، لا سجود عبادة وتعظيم ، ولا يجوز السجود لغير الله ٥٠
- الصحيح أن إبليس كان من الجن ، ولم يكن من الملائكة ، والاستثناء في الآية منقطع ، وكلام الحسن البصري ٥٠
- كلام « رابعة العدوية » أيها الإنسان إنما أنت أيام معدودة ، وأنفاس محدودة ، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك .. إلخ ٥١
- قال الحسن البصري : ابن آدم لا تحمل همَّ سنةٍ على يوم ، كفى يومَك بما فيه ، فإن تكن السنة من عمرك يأتك رزقك .. إلخ ٥١
- أين خلقت حواء ؟ ولماذا سميت بهذا الاسم ؟ وكلام ابن مسعود في قدرة الله على الخلق ٥٢
- الجنة والنار ليستا بدار تكليف ، فكانت أكلةُ آدم من الشجرة سبباً للهبوط إلى الأرض ، لأنها دار التكليف ٥٣
- التوبة بمنزلة الصابون ، فكما أن الصابون يزيل الأوساخ ، فكذلك التوبة تزيل المعاصي ٥٣

الموضوع **الصفحة**

- قصة سليمان بن عبد الملك مع أبي حازم ، وسؤاله : ما لنا نكره الموت ؟ فقال لأنكم خربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم .. إلخ ٥٦
- الذي يعظ غيره ولا يعظ نفسه ، أحمق خالٍ عن العقل ، كحجر السّنان يسنُّ الحديد ولا يقطع ٥٨
- نُعيت ابنةٌ لابن عباس وهو في سفره ، فاسترجع ثم قال : عورةٌ سترها الله ، ومؤنةٌ كفاها الله .. ثم وقف يصلي ٥٨
- إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ، فيقول يابنيَّ كنت لك أباً في الدنيا ، وإني محتاج إلى حسنة واحدة .. إلخ ... ٥٩
- سبب تقتيل فرعون لأبناء بني إسرائيل ، وقصة الرؤيا المنامية التي أفزعته ٦٠
- الحكمة في أن الله عز وجل لا يُرى في الدنيا من وجوه : أن الدنيا دار الزوال ، ولو رآه الخلق لانشغلوا عن معايشهم .. » إلخ ٦٤
- معنى العدوي التي نفاها الإسلام ، هي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من التأثير بالطبيعة .. إلخ ٦٦
- قال الشافعي : أنفسُ ما يُداوىٰ به الطاعون التسبيحُ ، لأن الطاعون عذاب وبالذكر يرتفع العذاب ٦٦
- معجزة نبع الماء من بين أصابع النبي ﷺ أعظم من معجزة موسى بضربه الحجر وخروج الماء منه .. إلخ ٦٧
- قصة الأعرابي الذي طلب من الرسول ﷺ وهو يخطب على المنبر أن يدعو الله لإغاثة البلاد بالمطر ٦٧
- لابدَّ في الاستسقاء من تقديم التوبة والصدقة والصوم ، وتقديم الصالحين من العباد ٦٧
- المراد بالمؤمن في آية ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا ..** ﴾ هم الذين آمنوا بلسانهم من المنافقين ٦٩
- مثل القرآن الكريم كمثل منشور بعثه السلطان إلى أحد أمرائه ، فكان يقرؤه كل يوم ولا ينفذ الوصية .. إلخ ٧٠
- المسخ كان في اليهود وهو مسخ الصورة ، ومن أكل الحرام فقلبه ممسوخ ، وعلامته ثلاث أشياء .. إلخ ٧١
- لا بأس بالممازحة ، وقصة القاضي عبيد الله مع الرجل حين سأله : جبتك هذه من صوف نعجة أو كبش ؟ ٧١
- تشديد بني إسرائيل في الأسئلة ، كان سبباً للتشديد عليهم في الأحكام ، ولو ذبحوا أيَّ بقرةٍ لأجزأتهم ٧٢
- قصة البقرة التي أمر بذبحها اليهود ، وكان سبباً لمعرفة القاتل ، وهي إحدى المعجزات الباهرة ٧٣
- قصة حنين الجذع لرسول الله ﷺ حين صُنع المنبر ، وضمه إلى صدره حتى سكن ٧٤
- قصة الراعي مع الذئب الذي عدا على الغنم ، وتكلم الذئب حين قال : من لها يوم السبع .. إلخ ٧٤
- تحريف اليهود اللعناء لأوصاف النبي عليه الصلاة والسلام كان عن قصدٍ وعمد ٧٦
- العالم المعاند ، والعاميُّ المقلِّد ، سواء في الضلال ، لأن الغرض من العلم العمل .. إلخ ٧٧
- الراضي بالمدح بغير ما فيه كمن يُسخر منه فيقال : العذرة التي تخرج من جوفك لها رائحة المسك .. إلخ ٧٨
- زعم اليهود أن النار لن يدخلوها إلا سبعة أيام ، وتكذيب القرآن الكريم لهم ٧٨
- أصل اليهود خبيث ، ولا تلِد الحيَّةُ إلا الحيَّة ، وقد قيل : إذا طاب أصل المرء طابت فروعه ٧٩
- قصة الشاة المسمومة التي دبَّرها اليهود للرسول ﷺ وأصحابه بقصد قتله ٨٢
- الصفات المقتضية للَّعن ثلاثة : الكفرُ ، والبدعةُ ، والفسقُ ، ومتى يجوز اللعن ؟ ٨٣
- تحدي القرآن لليهود بطلب تمنيهم الموت ، وتكذيبهم في ادعائهم أن الآخرة لهم ٨٥

الموضوع **الصفحة**

- قال سهيل : لا يتمنى الموتَ إلا ثلاثة : رجلٌ جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يَفِرُّ من قدر الله .. إلخ ٨٦
- مداواة القلوب القاسية بأمور : حضور مجالس الوعظ ، وذكر هاذم اللذّات ، ومشاهدة المحتضر .. إلخ ٨٧
- قصة العبد الصالح الذي كان يقف كل يوم على أسوار المدينة وينادي : الرحيل ، الرحيل ٨٧
- زعم اليهود أن سليمان عليه السلام كان ساحراً ، وتكذيب القرآن الكريم لهم في تلك المزاعم ٨٨
- السحر أكثر ما يكون في النساء وخاصة وقت الحيض ، لأن الأرواح الخبيثة تتفق مع الطبائع الرذيلة ٩٠
- الفرق بين السحر ، والمعجزة ، والكرامة ، وهل للسحر حقيقة أم هو تمويهٌ وتخييل ؟ ٩٠
- الحاسد بارز ربه من خمسة وجوه : سخط قسمته تعالى ، أبغض كل نعمة ظهرت على غيره .. إلخ ٩٢
- قصة الحاسد والملك ، وما سعى به لإهلاك الرجل المقرّب لديه ، وكيف عاد الضرر على الحاسد ٩٢
- الحكمة من النسخ ، وتمثيله بالطبيب المعالج لإصلاح البدن ، يُغيِّر الأغذية والأدوية بحسب الأزمنة ٩٣
- بحث مهم عن حديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث .. » وبيان المراد بها بالتفصيل ٩٦
- تخريب ملك النصارى لبيت المقدس ، وقتله لليهود ، ومازال خراباً حتى بناه عمر رضي الله عنه ٩٨
- معنى آية ﴿ **فأينما تولوا فثمّ وجهُ اللهِ** ﴾ وسبب نزولها ؟ ٩٩
- سبب ضلال النصارى أن أصحاب الشرائع المتقدمة كانوا يطلقون على الله اسم الأب .. إلخ ١٠٠
- لا يرضى اليهودي والنصراني عن المسلم حتى ينسلخ عن دينه ويترك شرع الله ١٠١
- من سنة السلف الصالح الانقطاع عن مجالس أهل الغفلة واللهو ، ورؤية ابن المبارك في المنام .. إلخ ١٠٣
- حلق اللحية قبيح وهو مُثلة ، ولا بأس بأخذ الزائد على القبضة ، وما ورد من فعله ﷺ ١٠٣
- قصة إبراهيم وإسماعيل وهاجر ، وبناء البيت العتيق ، ودعوة إبراهيم لحجّ بيت الله الحرام ١٠٥
- معنى تمتيعهم قليلاً وقول سهل : نمدهم بالنعم وننسيهم الشكر عليها .. إلخ ١٠٦
- عمارة الدنيا بثلاثة أشياء : الزراعة ، والحماية ، وجلب الأرزاق من مصر إلى مصر ، وقد قيل : لولا الحمقى لخربت الدنيا ١٠٧
- دعوة إبراهيم تحققت ببعثة خاتم النبيين ، وما ورد عن رسول الله « أنا دعوة أبي إبراهيم .. » الحديث ١٠٨
- كلام حجة الإسلام في معنى « العزيز الحكيم » كلام نفيس ، والحكمةُ معرفة أفضل الأشياء ١٠٩
- وصية يعقوب لبنيه عند احتضاره تمثيلٌ للشفقة على الأنبياء بما ينفعهم ويصلحهم ١١٠
- قول الحسن البصري : إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ومالهم حسنة .. إلخ ١١٠
- الافتخار بالأعمال لا بالأنساب ، فلا ينفع الفاجر شرف نسبه ، لأنه لا أنساب في الآخرة ١١٢
- قصة السَّرِيِّ السَّقطي مع الشاب التائب ، وقول الشاب : هل يقبل ربك غريقاً مثلي .. إلخ ١١٤
- قصة بهلول مع هـارون الرشيد حين خرج للحج ، وما نصحه به بهلول من بدائع النصائح ١١٥
- قال بعض الحكماء : مثلُ من يعمل الطاعة للرياء ، كمثل من خرج إلى السوق وقد ملأ كيسه حصى .. إلخ ١١٥
- قال الجنيد : الإخلاص سرٌّ بين العبد والرب ، لا يعلمه مَلَكٌ فيكتبه ، ولا شيطانٌ فيفسده ١١٥

الموضوع **الصفحة**

- سؤال الأنبياء يوم القيامة عن تبليغ الدعوة ، وإنكار الأمم ، وشهادة أمة محمد لهم بالتبليغ ١١٦
- قصة القاتل في زمن داود الذي صلب على خشبة ليقتل ، وما حدث من نجاته ، وما فيها من الكرامة ١١٧
- كلام الإمام الغزالي حول الذكر ، وأنه قد يكون باللسان ، أو بالقلب ، أو بالجوارح .. إلخ ١٢٠
- فوائد قول المؤمن عند المصيبة « إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون » التسليم بقضاء الله وقطع طمع الشيطان .. إلخ ١٢٢
- قول سعيد بن جبير : ما أُعطيت أمة في المصيبة ما أُعطيت هذه الأمة ، يعني الاسترجاع ١٢٢
- مشروعية السعي بين الصفا والمروة فيه إحياء لذكرى حادثة أم اسماعيل « هاجر » ونبع زمزم ١٢٣
- قصة حُصَيْن حين سأله الرسول : كم تعبد اليوم من إله ؟ قال : أعبد سبعاً .. ثم إسلامه ١٢٦
- كان العرب يعبدون الصنم زماناً فإذا رأوا صنماً أعجبهم أخذوه وطرحوا الأول ، وقصة باهلة لما صنعوا إلهاً من تمر ثم أكلوه عام المجاعة ١٢٧
- كيف تصل وسوسة الشيطان إلى قلوب الناس ؟ ١٢٨
- ينحصر ما يوسوس به الشيطان في ستة مراتب : الكفر ، البدعة ، الكبائر ، الصغائر .. إلخ ١٢٨
- إنما خلق الله إبليس ليتميز به الخبيثُ من الطيِّب ، وإبليس دلاَّل وسمسار على النار ، وبضاعتهُ الدنيا ١٢٩
- فوائد طلب الكسب الحلال : منها الاقتداء بالأنبياء ، والاشتغال بالكسب عن البطالة ، والصدقة في الفرس..إلخ ١٢٩
- مثل رائع للرسول مع الكفار ، كمثل الراعي الذي يصيح بالغنم ويكلّمها فيقول : كلي واشربي ، وهي لا تفهم شيئاً ١٣٠
- معنى الطيبات اللذائذ المباحة ، والأمر بالأكل منها لفائدتين : أن أكلهم بالأمر لا بالطبع .. إلخ ١٣٠
- قال الحسن البصري : الزبانيةُ إلى فسقة حملة القرآن ، أسرع منهم إلى عَبَدة الأوثان ١٣٢
- نزول آية القصاص ، دفعت مظالم أهل الجاهلية ، حيث كانوا يقتلون غير القاتل ، ويقتلون بالواحد عشرة ١٣٢
- قصة المقتول الذي يأتي يوم القيامة وقد لبَّبَ القاتل بإحدى يديه يقول يارب فيم قتلني ؟ ١٣٦
- الذنوب على ثلاثة أنواع : فيما بين العبد وربه ، وفيما بين العبد والعبد .. إلخ ١٣٦
- أراد رجل أن يوصى فسألته عائشة : كم مالك ؟ قال : ثلاثة آلاف ، قالت : كم عيالك ؟ ١٣٧
- قصة الإمام الشافعي حين احتضر ، فقال : مروا فلاناً يغسّلني .. إلخ ١٣٨
- الكلام على صلاة التراويح ، وأنها هي المراد بقيام رمضان ، وجمع عمر المسلمين عليها ١٤٢
- كان ابن المبارك ينفق على طلاب العلم في كل سنة مائة ألف درهم ، ويقول للفضيل وأصحابه : اشتغلوا بطلب العلم وأنا أكفيكم المؤنة ١٤٢
- قول سفيان الثوري : اللهم إن يحيى كفاني أمر الدنيا فاكفه أمر آخرته ، وقصته مع يحيى البرمكي ١٤٢
- عدم الدعاء لكشف الضرِّ مذموم ، لأنه كالمقاومة مع الله ، ودعوى التحمل للبلايا من حبائل الشيطان ١٤٣

الموضوع **الصفحة**

- قصة أهل الكوفة في استجابة دعاء بعض الصالحين ، وما دبَّره لهم الحجاج من مكيدة في إطعامهم الحرام ١٤٤
- حادثة عمر رضي الله عنه في معاشرته لزوجته بعد العشاء في الليل ، وما نزل من التيسير على المؤمنين في ليالي رمضان ١٤٤
- معنى الآية الكريمة ﴿ هنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ ﴾ من ألطف الاستعارات الرائعة ١٤٥
- مثل المعتكف كرجلٍ له حاجةٌ عند عظيم ، فيجلس على بابه ويقول : لا أبرح حتى يقضي حاجتي ١٤٦
- قصة أبي حنيفة مع المجوسي الذي استدان منه ، وما حدث من إسلام المجوسي بسبب ورع الإمام ١٤٧
- قصة حاتم الطائي وما اشتهر به من الكرم ، فقد أعطاهم الفرس ، والفصيل ، والجارية ١٥١
- قصة مالك بن دينار مع الشاب في طريقه إلى مكة ١٥٤
- الإنسان فيه قوى ثلاث : « شهوانية ، وغضبية ، وعقلية » والمقصود قهر القوى كلها بالعبادات ١٥٥
- قصة صهيب الرومي عندما أراد الهجرة فلحقه المشركون ليمنعوه فافتدى منهم بماله ١٦٠
- قصة عيسى عليه السلام مع اليهودي الذي تبعه في السفر ، وما فيها من عظاتٍ وعبر ١٦٢
- قصة سرية عبد الله بن جحش وما نزل من الآيات بسبب قتلهم في الشهر الحرام ١٦٥
- قال ذو النون المصري : دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء .. إلخ ١٦٥
- رؤية الجنيد لإبليس في المنام وهو عُريان .. إلخ ١٦٧
- كأن يوم موت الحَجَّاج يسمى عرس العراق ، ولم يعلم بموته الناسُ حتى بكته الجواري ١٦٨
- حلف رجل بالطلاق أن الحَجَّاج بالنار ، فاستفتى طاووس والحسن البصري .. إلخ ١٦٨
- قصة التلميذ مع شيخه الذي طلب أن يعلمه الاسم الاعظم ، وما ورد من ذكر الخطاب .. إلخ ١٦٨
- قال بعض السلف : من زوَّج ابنته لشارب خمر ، فكأنما ساقها إلى الزنى .. إلخ ١٦٩
- من مضار الخمر أنها تُذهب العقل ، مرَّ رجل على سكران وهو يبول ويمسح وجهه ويقول .. إلخ ١٦٩
- طريقة الميسر في الجاهلية وما كانوا يتفاخرون به من إنفاق ما يربحونه على الفقراء ١٦٩
- يؤدب اليتيم كما يؤدب الولد ، وطرق التأديب متعددة ، والكافل له مأجور على التأديب ١٧٠
- تشبيه النساء بالحرث من روائع الأسلوب البياني في القرآن الكريم ١٧٢
- معنى الإيلاء وهو الحلف على عدم معاشرة الزوجة لمدة معينة وحكمه في الإسلام ١٧٥
- المرأة مثل الحمامة إذا نبت لها جناح طارت ، كذلك إذا تزينت بالثياب لا تجلس في البيت ١٧٧
- قصة الرجل الصالح مع امرأته التي كان يحبها حباً شديداً ، وكان له دعوة مستجابة ١٧٧
- قصة امرأة ثابت بن قيس مع زوجها الذي كانت تبغضه ، وخلعها منه وهو أول خلع في الإسلام ١٧٨
- كان بعض المتعبدين يحسن معاملة زوجته ، فلما ماتت آثر الوحدة والعزوبية وما رآه في المنام ١٧٩
- الحكمة في اشتراط إصابة الزوج الثاني في التحليل : الردعُ عن المسارعة إلى الطلاق .. إلخ ١٨٠

الموضوع — الصفحة

- قصة معقل بن يسار وتزويجه لأُخته ، وماحدث من الطلاق بينها وبين زوجها ونزول الآية في شأنه ١٨١
- ينبغي توقي أعمال الجاهلية ، من شق الجيوب ، وضرب الخدود ، وحلق الشعر ، عند الوفاة ١٨٥
- الصلاة بمنزلة الضيافة ، قد هيأها الله للمؤمنين ، فكما في الضيافة تجتمع الألوان ، كذلك الصلاة فيها أركان ١٨٧
- قصة أبي العباس الجوالقي ، وتفكره في الصلاة في أمر التجارة ، وما حدث له بعد ذلك من الكرامة ١٨٨
- قصة الذين خرجوا من ديارهم خوف الموتِ وما حدث لهم من الإماتة ثم الإحياء ١٨٩
- قصة طالوت وجالوت وما فيهما من العِظات والعبر بنصر الفئة القليلة من المؤمنين ١٩٢
- قال بعض الصالحين : الدنيا كالملح من ازداد منها عطش ، وعلى العاقل أن يأخذ ما يكفيه ١٩٣
- دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق : ياحيُّ ، ياقيوم ، وكان هذا دعاء النبي في بدر ١٩٨
- قصة بني إسرائيل حين سألوا موسى : هل ينام ربك ؟ فأوحى الله إليه أن خذ قارورتين .. إلخ ١٩٨
- اشترى رجل مملوكة فلما دخل الليل قال : افرشي الفراش ، فقالت : ألك مولى ؟ ١٩٨
- المقام المحمود للنبي عليه الصلاة والسلام هو « الشفاعة العظمى » وهذا من خصوصياته ﷺ ١٩٩
- محاجة إبراهيم الخليل عليه السلام مع نمرود الجبار الذي ادعى الربوبية ٢٠٢
- قصة عُزير لما مرَّ على بيت المقدس وقد خـرَّبَهُ بختنصر المجوسي وقد أماته ٢٠٢
- قصة إبراهيم عليه السلام حين طلب رؤية إحياء الله للموتى .. إلخ ٢٠٤
- عثمان رضي الله عنه وتجهيزه لجيش العُسرة ، وقصة عبد الرحمن بن عوف وما تصدق به ٢٠٥
- المنُّ والأذى في الصدقة يحبطان الأجر والثواب ، وما مثل القرآن الكريم به ٢٠٦
- قصة الثلاثة الذين تُسعَّرُ بهم النار يوم القيامة ، وهم العالم ، والمجاهد ، والمتصدق المرائون ٢٠٧
- علاج الرياء بأمرين : أحدهما قطع عروقه واستئصال أصوله ، والثاني دفع ما يعرض للإنسان ٢١٠
- وصية النبي ﷺ لأبي ذر ، وقوله : جدَّد السفينة فإن البحر عميق .. إلخ ٢١٠
- الإخفاء في صدقة التطوع أفضل لوجوه : الأول أنها أبعد عن الرياء .. إلخ ٢١٢
- قصة أصحاب الصفة وهم فقراء المهاجرين ، وخروجهم في كل غزوة ، وتعففهم عن المسألة ٢١٣
- حسنٌ ستة أشياء في ستة أمور : العلم في العمل ، والعدل في السلطان .. إلخ ٢١٤
- بيان فضل القَرْض والصدقة ، وقد يكون القرض في الأجر أعظم من الصدقة ٢١٦
- شهادة النساء في الأموال جائزة ، ولا تجوز في الحدود ولا في القصاص .. إلخ ٢١٧
- الأمر بالإشهاد في البيوع والمعاملات ، للندب وليس للوجوب لئلا يشق على المسلمين ٢١٨
- مجرد قراءة القرآن بغير عمل لا يفيد ، ومثله كالسلطان الذي يأمر الوزير بأمر فيقرأه ولا ينفذ ما فيه ٢٢٠
- شكوى الصحابة للرسول عليه السلام حين نزلت آية ﴿ **وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ .. إلخ ٢٢١
- فضل قراءة أواخر سورة البقرة في اليوم والليلة ٢٢٢

« سورة آل عمران »

الموضوع **الصفحة**

- قصة وفد نصاري نجران ، حين قدموا المدينة المنورة وجادلوا الرسول في شأن عيسى ٢٢٣
- الحكمة في جعل القرآن محكماً ومتشابهاً ، وما معنى المتشابه ؟ ٢٢٤
- هل الراسخون في العلم يعلمون معنى المتشابه في القرآن ؟ والراجح من ذلك ٢٢٥
- معنى الحديث الشريف « قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن » ٢٢٦
- من هو المزين للشهوات ، هل هو الله أم الشيطان ٢٢٧
- قصة غالب القطان مع الأعمش ، وما ورد في فضل آية ﴿ شهد الله .. ﴾ ٢٢٩
- من أكبر الذنوب أن يقول الرجل لأخيه : اتَّقِ اللهَ ، فيقول : عليك بنفسك ٢٣١
- قصة هارون الرشيد لما قال له يهودي : اتق الله ، فنزل عن فرسه تعظيماً لاسم الله ٢٣١
- قال الغزالي : مقدمات التوبة ثلاث : ذكر قبح الذنب ، وذكر ضعفك وقلة حيلتك .. إلخ ٢٣٢
- أنا اللهُ ملك الملوكِ ، قلوبُ الملوكِ ونواصيهم بيدي ، فإن العبادُ أطاعوني جعلتهم لهم رحمة .. إلخ ٢٣٢
- كتب طاووس إلى عمر بن عبد العزيز : إن أردتَ أن يكون عملُكَ خيراً ، فاستعمل أهل الخير .. إلخ ٢٣٣
- لو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله ، لأخذ حذره واتقى ، فكيف بمن يعتقد بأن الله يراه ؟ ٢٣٣
- من ادَّعى محبَّة الله ، وعصى أمر رسول الله ، فهو كذَّاب ، لأن الله جعل طاعته في طاعة رسول الله ﷺ ٢٣٤
- قصة عمر مع الرسول ﷺ وقولُه : واللهِ يا رسول الله أنتَ أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا نفسي .. إلخ ٢٣٥
- قصة مريم حين حملت بعيسى عليه السلام ، وما كان من العجائب والخوارق ٢٣٦
- إثبات كرامات الأولياء من قصة مريم ، وما كان يراه زكريا عليه السلام عندها من الفواكه والثمار ٢٣٧
- قصة فاطمة الزهراء لما أهدت للنبي ﷺ رغيفين مع شيء من اللحم ، ثم رأته مملوءاً بالخبز واللحم ٢٣٧
- التقت أم يحيى مع أم عيسى ، فقالت يا مريمُ : أشعرتِ أنني حبلى ؟ قالت : وأنا أيضاً حبلى .. إلخ ٢٣٨
- مرَّ يحيى عليه السلام في صباه على صبيانٍ يلعبون ، فدعوه للعب ، فقال : ما للَّعب خُلقتُ ٢٣٨
- حجَّ سفيان الثوري مع شيبان الراعي ، فعرَض لهما سبع ، فأخذ شيبان أذنيه فعركهما .. إلخ ٢٣٨
- عرض إبليس لعيسى بن مريم عليه السلام فقال : اذكر الله ، فقال : أغرب يا عدوّ الله .. إلخ ٢٣٩
- قال سهل : ما من يوم إلا والجليل ينادي : عبدي أذكرك وتنساني ، وأدعوك وترجو غيري .. إلخ ٢٣٩
- قال الحسين : افتقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، والذِّكر ، والقراءة للقرآن .. إلخ ٢٣٩
- النبوَّة لا تكون للنساء ، لأن مبناها على الكشف والظهور ، وحالهنَّ على الاستتار ، وكمالُهن بالصدِّيقيّة ٢٤٠
- أحيا عيسى أربعة أنفس : العازر ، وابن العجوز ، وابنة العاشر .. إلخ ٢٤٣
- مكر اليهود بعيسى لقتله ، وقد نجَّاه اللهُ ورفعه إلى السماء فهو حيٌّ بجسده وروحه ٢٤٤

الموضوع **الصفحة**

- جَادَل النصارى الرسول ﷺ فقالوا : لم تشتمُ صاحبنا عيسى ، وتقول : إنه عبد ؟ .. إلخ ٢٤٥
- دعوة النصارى إلى المباهلة ، وتخوفهم من ذلك ومصالحتهم للرسول عليه السلام .. إلخ ٢٤٦
- كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام ، وتمزيق كسرى كتابه ﷺ ٢٤٧
- قال الأصمعي : سألت أعرابياً قد عمَّر / ١٢٠ / سنة ، فقلتُ : ما طوَّل عمرك ؟ فقال : تركتُ الجسد فبقيتُ ٢٤٨
- حكاية الشاب الذي عاهد ربه ألا يستحسن شيئاً من الدنيا ، ورأى حزاماً مرصَّعاً بالدرر والجواهر .. إلخ ٢٥٠
- قال عليٌّ رضي الله عنه : قصم ظهري رجلان : عالمٌ متهتِّكٌ ، وجاهلٌ متنسِّكٌ ٢٥٢
- قصة سري السقطي مع الشاب التائب ، وقوله : عجبتُ من ضعيفٍ عصى قوياً .. إلخ ٢٥٤
- قال ذو النون : مفتاحُ العبادة الفكر ، وعلامة القبول مخافةُ النفس والهوى .. إلخ ٢٥٦
- قصة عمر بن عبد العزيز مع زوجته وجاريتها الحسناء التي وهبتها له .. إلخ ٢٥٧
- قصة الربيع حين مرض واشتهى دجاجة مشوية .. إلخ ٢٥٧
- اشتكى يعقوب عِرْق النَّسَا ، فحلف لئن شفاه الله ألا يأكل أحب الطعام إليه .. إلخ ٢٥٨
- بناء الكعبة المشَّرفة ، الآمر بالبناء رب العالمين ، والمهندس جبريل ، والباني إبراهيم ، والتلميذ المعين إسماعيل .. إلخ ٢٥٩
- قصة علي بن الموفَّق الذي حجَّ ستين حجة ، ورأى في المنام من يقول له : هل تدعو إلى بيتك غير من تحب ؟ .. إلخ ٢٦٠
- قصة « شاس بن قيس » اليهودي الذي أثار الفتنة بين الأوس والخزرج ، والآيات التي نزلت بالحادثة ٢٦١
- جزاء من دعا إلى الخير ولم يعمل به ، وتصويره بالحمار الذي يدور بالرحى .. إلخ ٢٦٣
- سببُ ما أصاب اليهود من الذل والهوان ، ومعنى « حبلٍ من الله وحبلٍ من الناس » ٢٦٥
- من توغَّل في المعاصي ، تزايدت ظلماتها على قلبه ، فضعف نور الإيمان وربما جاءت ظلمة الكفر ٢٦٦
- قال الجنيد : العبادة على رءوس العارفين ، كالتيجان على رءوس الملوك .. إلخ ٢٦٦
- المعرفة سلاح العارف ، فمن كانت عنده المعرفة الصحيحة ، كان غالباً على أعدائه الظاهرة والباطنة ٢٦٧
- قال أبو بكر الكتاني : رأيتُ في المنام شاباً لم أر أحسن منه ، فقلت : من أنت ؟ قال : التقوى .. إلخ ٢٦٧
- قصة يحيى بن زكريا لما جمع بني إسرائيل في بيت المقدس وأمرهم بخمس خصال .. إلخ ٢٦٨
- قصة منصور بن عمار مع صديقه الذي صار في مرض الموت وكان كثير العبادة والتهجد ولكنه كان مرائياً .. إلخ ٢٦٩
- قال ذو النون : لا تصحبْ مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة .. إلخ ٢٧١
- قصة عبد الله بن أبي بن سلول لَمَّا رجع مع جماعته المنافقين ولم يشهدوا غزوة أحد وسبب ذلك ٢٧١
- قصة أنس بن النضر لما انهزم المسلمون في أحد ، وأذاع المشركون أن محمداً قد قتل ، واستشهاده في الغزوة ٢٨١
- حادثة عمر رضي الله عنه حين بلغه وفاة النبي ﷺ وما أصابه من الذهول وموقف أبي بكر الصديق ٢٨١

الموضوع **الصفحة**

- قول فاطمة الزهراء : واكرب أباه ، يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه .. إلخ ٢٨٢
- سئل بعضهم عن صفة الوليِّ فقال : الصبر شعارهُ ، والشكر دثاره ، والحكمة علمه ، والذكر جليسه .. إلخ ٢٨٥
- حكاية الغزالي عن إبليس لَمَّا بثَّ جنوده في عهد الصحابة فرجعوا مخسورين .. إلخ ٢٨٦
- قصة عيسى عليه السلام لَمَّا مرَّ بأقوام يعبدون الله ، وقد نحفت أبدانهم .. إلخ ٢٨٧
- قصة الأحنف مع الشخص الذي سبَّه ، وما كان من معاملته الحسنة له ٢٨٩
- أهل الجنة على أربعة مقامات ، ومنازل أهل الجنة بحسب الأعمال ، وتفاضل الأمكنة والأزمنة ٢٩١
- قصة شهداء أحد ، وما أكرمهم الله به من أنواع الكرامات ، فهم أحياء عند ربهم يرزقون ٢٩٤
- غزوة حمراء الأسدِ ، وما كان المؤمنون عليه من المشقة والجهد ، وما نزل فيهم من آيات ٢٩٥
- يتمنى الموتى أن يُؤذن لهم في صلاة ركعتين ، أو في تسبيحة واحدة ، فأيام الإنسان رأس ماله ٢٩٧
- عقوبة مانع الزكاة أن يُطوَّق يوم القيامة بثعبان في عنقه ويقول له : أنا مالُكَ أنا كنزك ٢٩٨
- قصة أبي بكر الصديق مع اليهودي الخبيث « فنحاص بن عازوراء » وما نزل من الآيات ٢٩٨
- قصة عيسى لما مرَّ على أهل قرية ماتوا في أفنيتهم وطرقهم ، وسبب سخط الله عليهم ٢٩٩
- نار جهنم أوقد عليها ثلاثة آلاف سنة ، ولو أن جمرة منها وقعت لأحرقت أهل الدنيا ٣٠١
- قال المحاسبي : الراضي بالمدح بالباطل كمن يُهزأ به ويقال له : إن العذرة منك لها رائحة المسك ٣٠٣
- شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه لا يجد حلاوة العبادة في قلبه ، فقال له : لأن عندك ابنة إبليس .. إلخ ٣٠٤
- خبر عائشة عن أعجب ما رأته من الرسول ﷺ وفيها قصة من روائع القصص في حياته ﷺ ٣٠٤
- الذكر ليس له وضع مخصوص ، يجوز قائماً ، وقاعداً ومضطجعاً ، وله آداب ينبغي مراعاتها ٣٠٥
- قصة الحداد الذي كان يمسك الحديد المحمي بيده ، وما حدث له بسبب خوفه من الله تعالى ٣٠٦
- قصة آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة ، وما يكرمه الله به من النعيم في دار الخلد ٣٠٧
- نوم الرسول ﷺ على الحصير حتى أثر في جنبه الشريف ، وبكاء عمر لما رآه من شدة عيش النبي ﷺ ٣١٠
- حكاية إبراهيم بن أدهم مع الأعرابي ، وكان رضي الله عنه يريد الحج ماشياً على قدميه ٣١١

« سورة النساء »

- قصة خلق حواء ٣١٣
- قصة المسكي الذي توقى الفاحشة ٣١٤
- مراتب التقوىٰ الثلاث ٣١٤
- قول ذي النون لوزير لو خشيتُ أنا من الله كما تخشى أنت من السلطان لكنت من جملة الصديقين ٣١٤
- فوائد المراقبة ومعناها وقصة التلميذ الذي قال لشيخه لم أجد موضعاً لا يراه أحد ٣١٤

الموضوع	الصفحة

- سبب نزول قوله تعالى ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم .. ﴾ الآية ٣١٥
- طرق تأديب اليتيم ، ومثل المرأة الصالحة لزوجها ٣١٥
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى .. ﴾ الآية ٣١٦
- الخطاب في قوله تعالى﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ للأزواج وقيل للأولياء ٣١٦
- ما روى من قول نساء السلف الصالح لأزواجهن ، وعلامة المرأة الصالحة ٣١٧
- الدنيا وأثرها في سعادة آخرة المؤمن ٣١٧
- من ابتلي بحق من حقوق العباد فعليه بالاستحلال ، وبيان العلماء كيفية الاستحلال ٣١٨
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ للرجال نصيب ﴾ ٣١٩
- فائدة قوله تعالى ﴿ مما قلّ منه أو كثر ﴾ ٣١٩
- الأمر في قوله ﴿ فارزقوهم منه ﴾ للندب ٣١٩
- ما روى في سبب نزول قوله تعالى ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ ٣٢٠
- قصة الرجل الذي سئل الشيخ عن خدمته لوالدته هل جازيتها حقها ؟ فأجابه الشيخ لا ٣٢١
- الحكم بحبس الزاني منسوخ بحديث عبادة « البكر بالبكر جلد مائة ... » ٣٢٢
- أشد الزنى الرجل الذي يطلق امرأته وهو يقيم معها بالحرام ٣٢٣

شروط التوبة أربعة ٣٢٣

- قول الحسن البصري : استغفارنا يحتاج إلى استغفار ، وقول القرطبي فكيف في زماننا هذا ؟ ٣٢٣
- قول أبي بكر الواسطي : التأني في كل شيء حسن إلا في ثلاث خصال ٣٢٤
- حكم نكاح الأمة عند القدرة على نكاح الحرة ٣٣٠
- قول أبي سليمان الداراني : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فإنها تفرغك للآخرة ٣٣١
- قول سعيد بن المسيب : ما أيس الشيطان من ابن آدم إلا أتاه من قبل النساء ٣٣٢
- قصة للشيخ علاء الدولة في الكف عن أموال الظلمة ٣٣٢
- جملة الكبائر مندرجة في ثلاث أشياء ٣٣٣
- مثل من يعمل الطاعات للرياء والسمعة كمثل رجل خرج إلى السوق وملأ كيسه حصى ٣٣٤
- قول حامد اللفاف : إذا أراد الله هلاك امرىء عاقبه بثلاثةِ أشياء ٣٣٤
- النهي في قوله تعالى ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارىٰ .. ﴾ ... الآية عن اكتساب السكر ٣٤٠
- رؤيا شريح في مرض موته كأن القيامة قد قامت ٣٤٣
- قول السري : مَنْ تزين للناس بما ليس فيه سقط منْ عين الله ٣٤٤

الموضوع **الصفحة**

- تشبيه بعض الحكماء ابن آدم ، في حرصه على الجمع ووخامة عاقبته بدود القز ينسج على نفسه ويصير الحرير لغيره ٣٤٥
- العذاب للجلدة الحساسة وهي التي عصت ٣٤٥
- قول ابن السماك يعاتب نفسه : يانفس تقولين قول الزاهدين ، وتعملين عمل المنافقين ، وفي الجنة تطمعين ٣٤٦
- قول يزيد بن مرثد في عذاب النار ٣٤٦
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ ٣٤٧
- أقسام الأمانة ثلاثة ٣٤٧
- لابد للأمراء من خوف الله وخشيته ٣٤٨
- قصة رسول ملك الروم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٣٤٩
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ..** ﴾ الآية ٣٤٩
- قول ثوبان لرسول الله ﷺ وقد تغير وجهه ونحل جسمه إذا لم أرك اشتقت إليك ٣٥١
- مزايا نعيم الآخرة على نعيم الدنيا ٣٥٥
- للأعمال أربع مراتب مرتبتان لله وهما التقدير والخلق ، ومرتبتان للعبد وهما الكسب والفعل ٣٥٦
- هل يجوز أن يقال كلام الله أبلغ من بعض ؟ وجواب السيوطي رحمه الله على ذلك وغيره من العلماء ٣٥٧
- في بلاغة الزمخشري : شيئان شيّنان : الشفاعة في الحدود ، والرشوة في الأحكام ٣٥٩
- مزية السلام المشروع على تحية العرب وأحكام السلام ٣٦٠
- عذاب القاتل العمد ، وحكمه ٣٦٥
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتَبَيَّنُوا** ﴾ الآية ٣٦٦
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ...** ﴾ الآية ٥٦٩
- قصة غورث بن الحارث عندما سلَّ سيفه مِن غمده وقال يا محمد من يعصمك مني الآن وقول الرسول عليه السلام الله عز وجل ٣٧١
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ..** ﴾ الآية ٣٧٢
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله** ﴾ ٣٧٣
- إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات ٣٧٣
- قول عمر لأم جاءت تشفع لولدها السارق : كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة ٣٧٣
- قول أبي بكر رضي الله عنه ما من عبد يذنب ثم يتوضأ ويصلي ركعتين ٣٧٤
- لا ينبغي لأحد أن يخاصم لأحد وهو لا يعلم حقيقة أمره ، ووجوده السرقة عند إنسان لا يوجب الحكم بها عليه . ٣٧٥
- قصة المرأة التي تصدقت واستنقاذ ولدها من الذئب ، فكل يرى صنعه في الدنيا ٣٧٥

الموضوع **الصفحة**

- قال النيسابوري : حكمه تضعيف الحسنات لئلا يفلس العبد إذا اجتمع الخصماء ٣٧٩
- الإسلام مبني على أمرين الاعتقاد والعمل ٣٧٩
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **ويستفتونك في النساء ..** ﴾ الآية ٣٨٠
- قال حاتم الأصم من ادعى ثلاثاً بغير ثلاثٍ فهو كذاب ٣٨٠
- قصة المرأة التي جاءت إلى حانوت أبي حنيفة تشتري ثوباً ٣٨٠
- رُؤي أبو منصور بعد وفاته ، فأخبر ولده بفضل دفع الأذى عن الناس ٣٨٣
- قول ابن عطاء عن ظاهر التقوى وباطنها ٣٨٤
- رُوي أن نبي الله يوشع أخبره ربه بإهلاك خيار قومهم قال يارب فما بال الأخيار ؟ ٣٨٧
- المنافق أشد عذاباً من الكافر لأنه مثله في الكفر وضم إليه الاستهزاء بالدين ٣٨٨
- سأل المتوكل ابن السكيت عن ولديه أيما أحب إليك ابناي أم الحسن والحسين ؟ ٣٩٠
- وصف اليهود عيسى عليه السلام برسول الله بطريق الاستهزاء به ٣٩٢
- قصة عزم اليهود على قتل عيسى عليه السلام ومعجزة رفعه إلى السماء ٣٩٣
- الغلو والمبالغة في الدين والمذهب غير مرضي ٣٩٤
- حكاية على بن الحسين بن واقد مع طبيب الرشيد النصراني في شبهته ٣٩٨

« سورة المائدة »

- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ألا تُحِلُّوا شعائِر الله ..** ﴾الآية ٤٠٢
- الإشارة إلى تعظيم ما عظَّمه الله من الزمان والمكان ٤٠٣
- تحريم الذبح لغير الله ، وحكم الذبح عند استقبال السلطان ٤٠٤
- العبرة في استطابة المطعومات بأهل المروءة والأخلاق الجميلة ٤٠٦
- ينبغي على كل راغب في العلم أن يأخذه مِمَّنْ هو متبحر في ذلك العلم ، فكم من آخذ مِن غير متقن ضيع أيامه .. ٤٠٦
- حكم اقتناء الكلاب ، وحكمة النهي عنه لغير حاجة ، وعادة الكفار في ذلك ٤٠٧
- قال الشعبي : الزنا ضربان السفاح وهو الزنى مع الإعلام واتخاذ الخدن وهو الزنى في السر ٤٠٨
- منافع الإغتسال من الجنابة الدينية والدنيوية ٤٠٨
- قال صاحب بدائع الصنائع (الكاساني) إنما وجب غسل البدن في الجنابة ولم يجب في خروج البول والغائط لوجوه ٤٠٨
- قول عيسى عليه السلام للشيطان : الله يختبر العباد ، وليس العباد يختبرون الله ٤١٢
- قول ابن مسعود : قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية ٤١٣
- إنما قال تعالى ﴿ **قالوا إنا نصارى** ﴾ ولم يقل ومن النصارى ، تنبيهاً على أنهم ليسوا موصوفين بتوصيف الله لهم ٤١٣

الموضوع **الصفحة**

- أصح الأقاويل أن موسى وهارون عليهما السلام كانا معهم في التيه لكنه كان سلاماً لهم كالنار لإبراهيم ٤١٨
- ندم قابيل كان على حيرته في أمر أخيه ، ولم يكن عن توبة ٤٢٠
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ..** ﴾ الآية ٤٢٠
- أحكام المفسدين المحاربين بعد توبتهم ٤٢١
- الإشارة إلى أن العشياء ٤٢٢
- من حكم حد السرقة ٤٢٤
- كيف يُمدح نبي بأنه مسلم ؟ قد يذكر الوصف مدحاً للوصف كما وصف الأنبياء بالصلاح ٤٢٧
- تهديد عظيم للحكام الذين لا يلتزمون شرع الله في أحكامهم ٤٢٨
- في سياسة عمر رضي الله عنه : إكتفاء الأمة الإسلامية بأبنائها عن أهل الكتاب وغيرهم في مختلف المجالات ٤٣١
- من أخبار مدعي النبوة مسيلمة والأسود العنسي ٤٣١

العلماء العالمون المتجردون عن الغرض ، سوى إعلاء كلمة الله تعالى ، محفوظون في أقوالهم وأفعالهم ٤٣٤

- حكاية العالم الذي أنكر الملاهي وألقي إلى أسد وأسود فاستأنست به ، فسئل قال كنت أفكر ألعابها طاهر أم نجس ؟ ٤٣٥
- وقوع الابتلاء للأنبياء ليُعلم أنهم مخلوقون فلا يفتتن بما ظهر على أيديهم ٤٣٦
- قصة سفينة مولى رسول الله ﷺ عندما أخطأ الطريق ووجد أسداً فأخبره أنه مولى رسول الله ٤٣٦
- نصيحة إبراهيم الخواص لدواء القلوب بخمسة أشياء ٤٣٧
- قول علي رضي الله عنه يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه في الإسلام إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه ..إلخ ٤٣٧
- كيف يكون إلهاً من لا يقيمه إلا الطعام ، والكناية اللطيفة في قوله تعالى ﴿ **كانا يأكلان الطعام ..** ﴾ ٤٣٩
- آية مودة النصارى نزلت في نصارى الحبشة الذي بكوا لسماع القرآن وآمنوا ٤٤٠
- قول الفضيل لمن سأله عن ترك الطيبات كيف رحمتك للمسلمين وصبرك ، وبرك لوالديك أنت إلى أحكام هذا أحوج ٤٤٢
- الرهبانية توجب خراب الدنيا ، وعمارة الدنيا والآخرة منوطة بترك الرهبانية ٤٤٢
- من الأيمان المنعقدة ما يجب فيه البر ، ومنها ما يجب الحنث ٤٤٣
- في حِكم تحريم الخمر ، والنهي عنها بألطف الوجوه ليكون أدعى إلى الانتهاء ٤٤٤
- قول الإمام الرازي : جميع ما يصطاد في البحر ثلاثة أجناس : السمك وجميعه حلال ، والضفادع حرام ٤٤٧
- من الدجاجلة الأئمة المضلون والمتصوفة ٤٥٠
- قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ..** ﴾ الآية . لا يترخص به لترك الأمر بالمعروف ٤٥١

الموضوع **الصفحة**

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط إلا عند العجز ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص والأحوال ٤٥١
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكمُ الموتُ حين الوصية .. ﴾** الآية ٤٥١
- حكمة سؤال الحق سبحانه للرسل في قوله تعالى ﴿ **ماذا أجبتم ﴾** لتوبيخ الأمم المكذبة ٤٥٤
- في قوله تعالى ﴿ **تُكَلِّم الناس في المهد وكهلاً ﴾** دليل على نزول عيسى قبل القيامة ٤٥٥
- قصة الشبلي مع الطبيب النصراني لما مرض وإسلام الطبيب على يديه وقول الخليفة نفذنا طبيباً إلى مريض وما علمنا أنا نفذنا مريضاً إلى طبيب ٤٥٦

« سورة الأنعام »

- الاستهزاء من شيم النفوس المتردة بأرباب الدين في كل زمان ومكان ٤٦٢
- دعاء بديع مطلعه اللهم أرحنا إذا عرق الجبين ، وكثر الأنين ، وبكى علينا الحبيب ويئس منا الطبيب ٤٦٣
- الوقت الذي تقوم فيه القيامة يفجأ الناس في ساعة لا يعلمها إلا الله ، لذلك سميت الساعة ٤٦٧
- قول الترمذي الحكيم : الذكر يرطب القلب ويلينه فإذا خلا عن الذكر قسا ، ويصير وقوداً للنار كالشجرة اليابسة ٤٦٨
- قيل مثل الدنيا والآخرة مثل رجل له امرأتان إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى ٤٧٠
- الحكمة في خلق الخلق صنفين سعداء وأشقياء ٤٧٠
- هلاك الكفار والعصاة نعمة يحق أن يحمد الله عليها ٤٧٢
- مثل الضال والمهتدي كالأعمى والبصير ٤٧٤
- سبب نزول قوله تعالى ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي .. ﴾** الآية ٤٧٥
- ما ينبغي على التائب فعله عند توبته وبعدها ٤٧٧
- قال يهودي لمسلم نحن وأنتم ورود جهنم سواء ، نحن نَرِد ونصدر ٤٧٨
- كتابة ما في اللوح مع علم الله به لتوافق الحوادث المكتوب ٤٧٩
- قال مجاهد : جعلت الأرض لملك الموت كالطشت يتناول منها حيث يشاء ٤٨٠
- الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف ، بل هو انقطاع تعلق البدن بالروح ٤٨٠
- رخص الله للمسلمين مجالسة الكافرين على سبيل الوعظ والتذكير ٤٨٢
- وجوه الخلاص منسدة على الكافرين يوم الدين ٤٨٣
- كون آزر كافراً لا يقدح في شأن نسب نبينا ﷺ ٤٨٤
- استدل العلماء بقوله تعالى ﴿ **فبهداهم اقتدِهْ ﴾** على فضل النبي عليه الصلاة والسلام عليهم جميعاً ٤٨٨
- قول القرطبي في ذم السمن لمن تكلفه لما في ذلك من الاشتغال بالمطاعم عن المكارم ٤٩٠
- قصة حدَّث بها الشافعي تدلُّ على أن الهمَّ يذهب السمن ٤٩٠

الموضوع — الصفحة

- رؤيا الإمام أحمد في المنام لرب العزة جل وعلا ٤٩٠
- ما ينبغي على القارىء فعله إذا قرأ القرآن ٤٩١
- وجه تأويل رُؤيا النبي ﷺ لسواري الذهب في المنام ٤٩١
- الإدراك غير الرؤية لأن الإدراك هو الوقوف على كنه الشيء والإحاطة به ٤٩٦

قصة العابد الذي ضرب الشيطان في رؤياه فأغراه بالأمل فوقع في الفسق ٤٩٨

- قصة عابدة عجوز أضنتها العبادة فقيل لها أرفقي بنفسك ٤٩٩
- قول مالك بن دينار : شياطين الإنس أشد عليَّ من شياطين الجن وذلك أني ٥٠٠
- لا حاجة للمؤمن أن يبتغي حكماً إذ شرع ربنا كافٍ عن غيره ٥٠١
- سئل الشعبي عن مسألة فقال لا أعلم فقيل له ألا تستحي وأنت فقيه العراقيين ؟ ٥٠١
- أنواع الهوى ، ومراتب السالكين لطريق الهوى والشهوات ٥٠٢
- قصة الصبي الذي يقول ما للعب خلقنا ٥٠٣
- العصاة كلهم في خطر المشيئة ٥٠٣
- سبب إسلام حمزة رضي الله عنه ٥٠٤
- وجهان في كيفية التشبيه في قوله تعالى ﴿ كأنما يَصَّعَّدُ في السماء ﴾ ٥٠٦
- وجه انتفاع الجن بالإنس والإنس بالجن ٥٠٧
- قصة تظهر مدى امتهان الفتاة في الجاهلية بالوأد والفتاة تقول يا أبي قتلتني ٥١١
- سبب تحريم بعض الطيبات على بني إسرائيل ٥١٣
- شريعتنا أباحت الطيبات وحرمت الخبائث ٥١٣
- ما حرمه الله إما بلاء أو نعمة أو رحمة ٥١٤
- قول الفقيه أبو الليث في تعلم الطب : يستحب للرجل أن يعرف من الطب مقدار ما يمتنع به عما يضر بدنه ٥١٤
- حكم التداوي بالمحرمات ٥١٥
- الوصايا الإلهية العشرة لهذه الأمة ٥١٥
- قال القاضي عياض : انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ولا يثابون عليها بنعيم ٥١٨
- سبب تخليد الكفار في النار عزمهم على الكفر أبداً ٥١٨
- مسارعة الرسول عليه السلام إلى امتثال ما يؤمر به ٥١٨
- شرح حديث « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض .. » ٥١٩
- اختلاف أئمة المذاهب الفقهية ليس من قبيل الاختلاف الجدلي ٥١٩

« سورة الأعراف »

الموضوع **الصفحة**

- قصة الملك الذي كان كثير اللهو والملذات ٥٢٢
- ناح إبليس نياحة أحزنت آدم وحواء ٥٢٧
- حكاية إبليس اللعين الذي أراد أن ينصح يحيى بن زكريا ٥٣٠
- طواف المشركين عُراة حول البيت في الجاهلية وما نزل في ذلك ٥٣١
- حكاية طبيب هارون الرشيد مع علي بن حسين ٥٣٢
- حكاية الأمير الذي بنى داراً وشيَّدها ولم يتنعم بسكناها ٥٣٣
- حكاية هارون الرشيد مع إبراهيم بن أدهم لما خرج للحج ٥٣٥
- المحاورة التي ستكون بين أهل الجنة وأهل النار ٥٣٧
- لا يحسن التعجيل إلا في أمور : التوبة ، وقضاء الدين ، وتزويج البكر ٥٤٢
- حكي أن موسى مرَّ برجلٍ يدعو ويتضرع ٥٤٤
- قصة هارون مع بهلول وما نصحه به حتى بكى وأبكى ٥٤٦
- قصة الشيخ بقا الذي رأى سفينة فيها جنود وخمر ونساء متبرجات ٥٤٨
- قصة ناقة نبي الله صالح عليه السلام وما كان من أمرها العجيب ٥٥٠
- قصة قوم شعيب عليه السلام وما أُهلكوا به من أنواع العذاب ٥٥٥
- إيمان السحرة وسجودهم لله رب العالمين ٥٦٠
- قصة عمر الذي سأل رجلاً ما اسمك ؟ قال : جمرة ، قال ابنُ من ؟ قال : ابن شهاب .. إلخ ٥٦٣
- ما يفعله الجهلة من بعض المتصوفة عند تلاوة القرآن ، بعدّ عن الدين .. إلخ ٥٧٢
- حكاية الشاب الذي احتضر واعتقل لسانُه عن النطق بالشهادة ٥٧٣
- قصة الإمام أحمد رحمه الله وورعه واستماكه بالسنة المطهرة ٥٧٧
- قصة أصحاب القرية الذين اصطادوا يوم السبت وما حدث لهم ؟ ٥٧٩
- قصة بلعم بن باعوراء الذي باع دينه طلباً لحطام الدنيا وما مثَّل له القرآن ٥٨٣
- قصة السلطان محمود الغازي مع أبي يزيد البسطامي ٥٩٢
- حكاية الذين جاءوا إلى أبي حنيفة ليناظروه في أمر القراءة خلف الإمام ٥٩٥
- يقول في سجود التلاوة « سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره ، وشقَّ سمعه وبصره .. » إلخ ٥٩٧
- ليس للشيطان على الإنسان سبيل إذا احتمى بحمى الرحمن ٥٩٧

* * *

ثانياً : فهرس أطراف الحديث

« سورة الفاتحة »

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٩	« سُئل النبيُّ ﷺ عن وسوسة الشيطان فقال : تلك محضُ الإيمان .. »	صحيح مسلم
١٨	« إنَّ لنفسك عليك حقّاً ، ولزوجك عليك حقّاً ، ولربك عليك .. »	الشيخان
١٩	« إنَّ اللهَ خلقَ الخَلْقَ في ظُلْمةٍ ، ثم رشَّ عليهم من نوره ، ... »	سنن الترمذي
٢٠	« إذا قال الإمام : ولا الضَّالين فقولوا : آمين ، فمن وافق تأمينه ... »	الترمذي وأبو داود
	« سورة البقرة »	
٢٢	« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها .. »	سنن الترمذي
٢٣	« دعْ ما يَريبُك إلى مالا يَريبُك ، فإن الصِّدق طمأنينة ... »	أحمد والترمذي
٢٣	« كنا إذا احمَرَّ البأسُ ، وحَمِيَ الوطيس ، اتَّقينا برسول الله ﷺ .. »	الشيخان
٢٥	« إن لربِّكم في أيّام دهركم لنفحات ، ألا فتعرَّضوا لها ، لعلَّه أن ... »	الطبراني في الكبير
٢٥	« لقد هَمَمْتُ أن آمرَ رجلاً يصلي بالناس ، وأنظر إلى أقوام يتخلفون ... »	صحيح مسلم
٣٣	« إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، ... »	أحمد والبيهقي
٣٤	« لم أسمعه يرخص في شيء ممّا يقول الناس إلا في ثلاث : ... »	صحيح مسلم
٣٥	« كيف أصبحتَ يا حارثة ؟ قال : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، ... »	أبو نعيم وابن عبد البر
٤٣	« بَشِّر المشَّائين إلى المساجد في الظُّلَم ، بالنور التام يوم القيامة »	أبو داود والترمذي
٤٤	« جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال يَا أبا القاسم : أتزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ..؟ »	النسائي وأحمد
٥٠	« لو أمرتُ أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .. »	الترمذي وأبو داود
٥٥	« من تعلَّمَ علماً ممَّا يُبتغى به وجهُ الله ، لا يتعلمه إلا ... »	أبو داود وابن ماجه
٥٧	« إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله ... »	البخاري وابن ماجه
٥٨	« من أحبَّ لقاء الله ، أحبَّ الله لقاءَه ، ومن كره ... »	الشيخان والترمذي
٥٩	« لا أحدَ أصبر على أذى سمعه من الله تعالى ، إنهم ... »	الشيخان
٥٩	« شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي »	الترمذي وأبو داود وابن ماجه
٦١	« قدم ﷺ المدينة ، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ... »	الشيخان وابن ماجه
٦٥	« الكمأةُ من المنِّ ، وماؤها شفاء للعين »	الشيخان

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٦٥	« لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ، ولولا حواء ... »	الشيخان
٦٦	« إذا سمعتم بالطاعون بأرضٍ فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرضٍ ... »	الشيخان
٦٦	« الشهداء سبعةٌ سوى القتل في سبيل الله ، المطعون ، والمبطونُ ، ... »	مالك والنسائي
٦٧	« بينما رسول الله يخطب يوم الجمعة ، إذْ دخل أعرابي فقال يا رسول الله : ... »	الشيخان والنسائي
٧٤	« كان الرسول ﷺ إذا خطب استند إلى جذع نخلة ، فلما صنع له المنبر ... »	الشيخان
٧٤	« بينما راعٍ في غنمه عدا عليها الذئب فأخذ منها شاة ، ... »	البخاري
٧٥	« لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر ... »	الترمذي
٧٥	« أربعة من الشقاء : جمود العين ، وقسوةُ القلب ، ... »	ابن عدي وأبو نُعيم
٧٧	« ألا إن مَن قبلكم من أهل الكتاب ، افترقوا على ثنتين وسبعين ملة .. »	أحمد وأبو داود
٨٢	« مازالتْ أكلةُ خيبر تعاودني ، حتى آن أن قطعتْ أبهري »	البخاري
٨٣	« من احتكر طعاماً فهو خاطىء .. »	مسلم وأبو داود والترمذي
٨٣	« يا معشر النساء تصدَّقن وأكثرن من الاستغفار ، فإني رأيتُكنَّ ... »	الشيخان
٨٦	« لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضرٍّ نزل به ، فإن كان لابدَّ فاعلاً .. »	الشيخان والنسائي
٨٦	« أكثروا ذكر هاذم اللذات »	الترمذي والنسائي
٩١	« المسلمُ من سَلِم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من ... »	الترمذي والنسائي
٩٢	« لا يبلغ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به .. »	الترمذي وحسَّنه
٩٢	« إن من الكبائر أن يشتم الرجل والديه .. »	مسلم والترمذي وأحمد
٩٦	« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقةٍ جارية .. »	مسلم وأبو داود والنسائي
٩٦	« من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها .. »	مسلم والنسائي
٩٦	« من مات يُختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمو له عمله .. »	أبو داود والترمذي وأحمد
٩٧	« قال : فأخبرني على الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه .. »	مسلم في صحيحه
٩٨	« إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان .. »	ابن ماجه والترمذي
١٠٠	« كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك .. »	البخاري وأحمد
١٠٢	« من كانت عنده مظلمة لأخيه ، فليستحلل منه اليوم قبل ... »	البخاري والترمذي
١٠٣	« كان النبي ﷺ يأخذ من لحيته من طولها وعرضها »	الترمذي في سننه
١٠٣	« جزُّوا الشارب واعفوا اللحى »	الشيخان والترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
١٠٣	« من حضر معصيةً فكرهها كان كمنْ غاب عنها ، ومن غاب ... »	البيهقي في السنن
١٠٦	« إن الله يُنزل في كل يوم مائة وعشرين رحمة على هذا البيت ، ... »	ابن عدي والبيهقي
١٠٨	« إني عند الله لمكتوب خاتم النَّبيِّينَ ، وإن آدم لمنجدلٌ في طينته .. »	الترمذي في سننه
١٠٩	« الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من .. »	الترمذي في سننه
١١١	« أما شعرتَ أن عمَّ الأب صنو أبيه » أي نظيره ومثله	مسلم وأبو داود
١١١	« يا بني هاشم لا يأتيني الناسُ بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم .. »	أحمد والترمذي
١١٢	« من أبطأ به عَملُه ، لم يُسْرِعْ به نَسبُه »	أبو داود والترمذي
١١٥	« أخلصوا أعمالكم لله تعالى ، فإن الله لا يقبل إلا ما خلص له .. »	الدارقطني في السنن
١٢٢	« إذا مات ولدُ العبد ، قال الله للملائكة ماذا قال عبدي ؟ ... »	الترمذي وأحمد
١٢٢	« ما من مصيبةٍ تصيبُ عبداً فيقول : إنَّا للهِ وإنا إليه راجعون ، ... »	مسلم وأبو داود
١٢٦	« لا تقوم الساعةُ حتى لا يُقال في الأرض : اللهُ ، اللهُ »	مسلم في صحيحه
١٢٦	« سأل الرسول حُصَيْناً : كَمْ تَعبد اليوم من إله ؟ قال : سبعاً ، ... »	الترمذي
١٢٩	« إياكم ومحقّرات الذنوب ، فإن مثَل ذلك مثلُ قومٍ نزلوا بفلاةٍ .. »	الطبراني وأحمد
١٣٢	« أفضل الجهاد كلمةُ حقٍّ عند سلطان جائر أو أمير جائر »	ابن ماجه والطبراني وأحمد
١٣٠	« سُئِل أيُّ الصدقةِ أفضل ؟ قال : أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح .. »	الشيخان
١٣٠	« صدقتُكَ على المسلمين صدقة ، وعلى ذوي رحمك اثنتان »	الطبراني في الأوسط
١٣٣	« أفضلُ الصدقة على ذي الرحم الكاشح »	أبو داود والترمذي
١٣٣	« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه »	النسائي وابن ماجه
١٣٣	« للسائل حقٌّ ولو جاء على ظهر فرسه »	أبو داود وأحمد
١٣٥	« المسلمون تتكافأُ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، ... »	أبو داود وابن ماجه
١٣٦	« يأتي المقتول معلقاً رأسه بإحدى يديه ، مُلَبِّباً قاتله باليد الأخرى ... »	أخرجه ابن جرير
١٣٨	« إن الله تصدَّق عليكم بثلث أموالكم ، في آخر أعماركم ، ... »	ابن ماجه وأحمد
١٣٩	« يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه ... »	الشيخان
١٤٠	« ليس من البِّر الصيامُ في السفر »	أبو داود والنسائي
١٤٠	« الصومُ لي وأنا أجزي به »	الشيخان
١٤٢	« أتاكم شهر رمضان ، شهر بركة ، يغشاكم الله فيه ، ... »	أحمد والنسائي
١٤٣	« أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تَدْعون أصمَّ ولا غائباً ، ... »	الشيخان وأحمد

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
١٤٣	« ما من عبد مسلم يدعو بدعاء ، إلا آتاه اللهُ ما سأله ، مالم ... »	الترمذي في سننه
١٤٤	« ثم ذكر الرجل ، يطيل السفر أشعث أغبر ، يمدُّ يديه إلى ... »	مسلم في صحيحه
١٤٥	« تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة »	ابن حبان
١٤٥	« إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار ، ... »	الشيخان
١٤٦	« إنَّ الحلال بيِّنٌ وإن الحرام بيِّنٌ ، وبينهما أمور متشابهات .. »	مسلم والترمذي
١٤٧	« لا يبلغ العبد درجة المتقين ، حتى يَدَع مالا بأس به ، ... »	الترمذي في سننه
١٤٧	« إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعلَّ بعضكم أن يكون ألحن ... »	الشيخان وابن ماجه
١٥٢	« تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب والفقر كما ... »	النسائي والترمذي
١٥٧	« انظروا إلى عبادي ، جاءوا من كل فج عميق شعثاً غُبْراً ، ... »	أبو يعلي والبزار
١٥٧	« ما رؤي الشيطان في يوم هو أصغر ولا أحقر ولا أذل ... »	مالك والحاكم
١٦٠	« بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء »	الترمذي وأحمد
١٦١	« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من ... »	النسائي وابن حبان
١٦٢	« قمتُ على باب الجنة فرأيتُ أكثر أهلها المساكين ، ... »	الشيخان
١٦٤	« حُفت الجنة بالمكاره ، وحُفَّت النارُ بالشهوات »	الشيخان واللفظ لمسلم
١٦٤	« شكونا إلى رسول الله ﷺ ما نلقي من المشركين ، ... »	البخاري والنسائي
١٦٨	« لا هجرة بعد الفتح ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ ، وإذا استُنفرتم فانفروا »	الشيخان
١٧٠	« أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين ، وأشار بالسبَّابة والوسطى »	مسلم في صحيحه
١٧١	« كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ... »	الشيخان
١٧١	« أحبُّ الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي »	ابن حبان والبيهقي
١٧١	« قالوا يارسول الله : إنا نأكل ولا نشبع ، ... »	ابن ماجه وأحمد
١٧٤	« من حلف على يمين فرأى غيرَها خيراً منها ، فليكفِّر عن يمينه ... »	مسلم والترمذي
١٧٥	« من حلف بغير الله فقد أشرك »	الترمذي وحسَّنه
١٧٥	« مِن حلف بِملَّةٍ غير ملَّة الإسلام كاذباً فهو كما قال »	الترمذي والنسائي
١٧٧	« لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها »	الترمذي في سننه
١٧٧	« أيُّما امرأةٍ ماتت وزوجُها راضٍ عنها دخلت الجنة »	الترمذي وحسَّنه
١٧٨	« أتت امرأة ثابت بن قيس إلى رسول الله ﷺ فقالت : لا يجمع رأسي .. »	البخاري والنسائي
١٧٩	« إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق »	أبو داود والحاكم
١٨٠	« أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة ؟ قالت نعم ، قال : لا حتى ... »	البخاري في صحيحه
١٨٠	« لعن الله المحلِّل والمحلَّل له »	النسائي وأحمد

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
١٨٠	« ألا أنبئكم بالتيس المستعار ؟ هو المحلِّلُ .. »	ابن ماجه والحاكم
١٨٤	« لا يحل لامرأةٍ تؤمن باللهِ واليوم الآخر ، أن تُحدَّ على ميِّت .. »	البخاري والنسائي
١٨٧	« شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ... »	الشيخان وأحمد
١٨٧	« من فاتتة صلاة العصر فكأنما وُتر أهله وماله »	النسائي في سننه
١٩٠	« ابن آدم استطعمتُك فلم تُطعمني ، قال ... »	مسلم في صحيحه
١٩٣	« لو أن لابن آدم واديين من ذهب ، لابتغى لهما ثلاثاً ... »	الشيخان وأحمد
١٩٧	« أصدق كلمةٍ قالها شاعر كلمة لبيد « ألا كلُّ شيءٍ ما خَلاَ اللهَ باطِلُ »	الشيخان وابن ماجه
١٩٨	« إن بني إسرائيل سألوا موسى : هل ينام ربك ؟ فناداه الله ياموسى ... »	الحافظ ابن كثير
١٩٩	« ما السموات السبعُ والأرضون السبع من الكرسي إلا كحلقةٍ في فلاة ... »	الحافظ ابن كثير
٢٠٠	« إن أعظم آيةٍ في القرآن آية الكرسي »	ابن مردويه
٢٠١	« أول ما بُدىء به رسول الله ﷺ من الوحي : الرؤيا الصادقة ... »	البخاري
٢٠٥	« من تصدَّق بعدل تمرةٍ من كسبٍ طيِّب ، فإن اللهَ يقبلها بيمينه ، ثم ... »	الشيخان ومالك
٢٠٥	« جهَّز عثمان جيش العُسْرة في غزوة تبوك بألف بعير ، وقول النبي « ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم »	الترمذي
٢٠٧	« أول من يُدعى يوم القيامة : رجلٌ جمع القرآن ، ورجلٌ ... »	مسلم والنسائي
٢١٠	« أخلصْ دينك يكفك القليل من العمل »	الحاكم وابن أبي الدنيا
٢١٠	« أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه ... »	مسلم في صحيحه
٢١١	« إن أطيب ما أكله الرجل من كسْبِهِ ، وإن وَلَده من كسْبِه »	أبو داود والترمذي
٢١١	« لا يكسب عَبدٌ مالاً حراماً فيتصدَّق منه فَيُقبل منه ، ... »	أحمد في المسند
٢١١	« ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً ، .. »	مسلم في صحيحه
٢١٢	« يمينُ الله ملأى ، لا يغيضها نفقة ، سحَّاءُ الليلَ والنهار ... »	الشيخان والترمذي
٢١٢	« سبعةٌ يظلُّهم اللهُ في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله : إمام عادل ... »	الشيخان ومالك
٢١٢	« صدقة السر تطفىءُ غضب الرب »	البيهقي في الشُّعَب
٢١٣	« لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيذهب ويأتي بحزمة من حطب ... »	مسلم والترمذي
٢١٥	« الربا اثنان وسبعون باباً ، أدناها كإتيان الرجل أمه ، ... »	الطبراني في الأوسط
٢١٦	« الشهادة في سبيل الله تكفِّر كل شيء إلا الدَّيْن ... »	الشيرازي في الألقاب
٢١٦	« من أنظر معسراً أو وضع عنه ... »	مسلم وأحمد

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٢١٩	« إنَّ اللهَ تجاوز لي عن أمتي ما حدَّثتْ به أنفسها ، ما لم ... »	الشيخان وأصحاب السنن
٢١٩	« من حضر معصيةً فكرهها كان كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها ... »	البيهقي في السنن
٢١٩	« من أحبَّ قوماً حُشِر معهم »	الطبراني في الكبير
٢٢١	« أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ ... »	مسلم وأحمد
٢٢١	« رُفع عن أمتي الخطأ ، والنسيانُ ، وما استكرهوا عليه »	الطبراني في الكبير
٢٢١	« بُعثت بالحنيفية السهلة السمحة ومن خالف سنتي فليس مني »	الخطيب في التاريخ
٢٢٢	« من قرأ آيتين من آخر سورة البقرة كفتاه »	الشيخان والترمذي
	« سورة آل عمران »	
٢٢٤	« إنَّ خَلْقَ أحدِكُمْ يُجْمَع في بطنِ أمهِ أربعينَ يوماً نطفة ... »	الشيخان والترمذي
٢٢٤	« يدخل المَلَكُ على النطفة بعد ما تَستقر في الرَّحمِ أربعين يوماً .. »	أحمد في المسند
٢٢٥	« ما من قلبٍ إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن .. »	الترمذي في سننه
٢٢٩	« ينزل ربنا كل ليلةٍ إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر .. »	الشيخان
٢٢٩	« إن لعبدي عندي عهداً وأنا أحقُّ من وفي بالعهد ، أدخلوا عبدي الجنة »	الطبراني وابن كثير
٢٣٠	« أيُّ الناس أشدُّ عذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبياً .. »	ابن أبي حاتم والطبري
٢٣١	« دخل الرسول مدارس اليهود فدعاهم إلى الإيمان ، فقال رئيسهم على أي دينٍ أنت .. »	ابن المنذر وابن أبي حاتم
٢٣١	« ليس على أهل لا إله إلا الله وحشةٌ عند الموت ، ولا في قبورهم .. »	الطبراني في الكبير
٢٣٤	« اللهم باعدْ بيني وبين خطيئتي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب ، ونقِّني .. »	الترمذي وابن ماجه
٢٣٥	« كان النبي ﷺ آخذاً بيد عمر، فقال عمر : واللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من كل .. »	أبو داود
٢٣٥	« كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي .. »	البخاري
٢٣٥	« جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائمٌ ، فقالوا إنَّ لصاحبكم هذا مَثَلاً .. »	البخاري والترمذي
٢٣٧	« أنا وكافل اليتيم كهاتَيْن في الجنة »	الشيخان
٢٣٧	« ما من مولودٍ إلا والشيطانُ يمسُّه حين يُولد ، فيستهلُّ صارخاً من .. »	الشيخان وأحمد
٢٣٨	« الحمد الله الذي جعلكِ شبيهةً بسيدة بني إسرائيل - يعني مريم - »	أبو يعلي وابن كثير
٢٣٩	« سيِّداتُ نساء أهل الجنة أربعٌ : مريم ، وفاطمة ، وخديجة ، وآسية »	الحاكم في المستدرك
٢٤٠	« حسبُك من نساء العالمين ، مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خُوَيْلِد ، .. »	الترمذي وأحمد
٢٤٧	« من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلامٌ على من اتَّبع الهدى ،... »	البخاري
٢٤٨	« الناسُ معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في .. »	مسلم
٢٥٠	« أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً : إذا حدَّث كذب ، وإذا ائتُمنَ .. »	الشيخان والترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٢٥٥	« كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعُدَّ نفسك من أهل القبور »	البخاري والترمذي
٢٥٦	« يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة : لو أن لكَ ما في الأرض .. »	الشيخان وأحمد
٢٥٦	« أخوفُ ما أخافُ على أمتي : اتباعُ الهوى ، وطول الأمل .. »	البغوي وأبو نُعيم
٢٥٧	« لما نزلت الآية جاء أبو طلحة إلى الرسول فقال : إن أحبَّ أموالي إليَّ .. »	الشيخان وأحمد
٢٦٠	« من مَلَك راحلةً وزاداً يبلِّغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج .. »	الترمذي في سننه
٢٦٠	« أفضلُ الأعمال : إيمان الله ، ثم جهاد في سبيله ، ثم حجٌ مبرور »	أحمد والدارمي
٢٦٢	« خيرُ الناس : آمرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصاهم .. »	أحمد والطبراني
٢٦٣	« مثلُ القائم على حدود اللهِ ، والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا على سفينة .. »	البخاري
٢٦٣	« إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »	الطبراني
٢٦٣	« يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه ـ .. »	الشيخان وأحمد
٢٦٤	« من كره من أميره شيئاً فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات .. »	الشيخان وأبو داود
٢٦٤	« يد الله مع الجماعة ، ومن شذَّ شذَّ إلى النار »	الترمذي في سننه
٢٦٦	« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ مالا بأس به ، حَذَراً ممَّا .. »	الترمذي في سننه
٢٦٦	« الحلال بيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ ، وبينهما أمورٌ مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثير من .. »	الشيخان وأصحاب السنن
٢٦٦	« استحيوا من الله حقَّ الحياء ، قالوا : إنا نستحي يارسول الله والحمدُ .. »	الترمذي وأحمد
٢٦٧	« إنه لَيُغانُ على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة »	مسلم وأبو داود
٢٦٨	« لمَّا بعث الله يحيى بن زكريا إلى بني إسرائيل ، أمره أن يأمرهم .. »	الترمذي والبزار
٢٦٩	« قرأ رسول الله ﷺ ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ ثم قال : يقول ابنُ آدم مالي ، .. »	مسلم والنسائي
٢٧٠	« الأنصار شعارٌ ، والنَّاسُ دِثَار »	الشيخان وابن ماجه
٢٧٣	« من شغله ذكري عن مسألتي ، أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السائلين »	الترمذي والدارمي
٢٧٥	« لعن الله آكل الربا ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء »	مسلم وأبو داود
٢٧٦	« السَّخِيُّ قريبٌ من الله قريبٌ من الناس ، قريب من الجنة .. »	الترمذي والبيهقي
٢٧٦	« من كَظَم غيظاً وهو قادر على أن يُنفذه ، ملأ اللهُ قلبَه أمناً وإيماناً .. »	أبو داود
٢٧٧	« ابنَ آدم إنك ما دعوتني ورجوتني ، إلا غفرتُ لك ما كان منك ولا .. »	الترمذي وأحمد
٢٧٧	« ما من عبدٍ يُذنب ذنباً فيحسن الطهور ، ثم يقوم ويصلي .. »	أبو داود والترمذي
٢٨٢	« من كانت الآخرةُ همّه ، جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله .. »	الترمذي في سننه
٢٩٠	« لو أنكم توكلتم على الله حقَّ توكّله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً .. »	الترمذي وابن ماجه

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٢٩٠	« يدخل سبعون ألفاً من أمتي الجنة بغير حساب .. »	مسلم وأحمد
٢٩٠	« من ظلم قيد شبر من الأرض ، طوّقه الله يوم القيامة من سبع أرضين »	الشيخان والترمذي
٢٩٠	« ألا لا أعرفنّ أحدكم يأتي ببعير له رُغاء ، وببقر بها خوار ، فينادي يا.. »	الشيخان والنسائي
٢٩٤	« لما أصيب إخوانكم في أُحد ، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر .. »	مسلم في صحيحه
٢٩٧	« خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، وشرُّ الناس من طال عمره وساء..»	الترمذي وأحمد
٢٩٨	« من آتاه الله مالاً يؤدِّ زكاته ، مُثِّل له ماله يوم القيامة شجاعاً ... »	البخاري
٢٩٨	« ما من أحدٍ يكون له إبلٌ ، أوبقرٌ ، أو غنمٌ لا يؤدي حقها ... »	الشيخان والنسائي
٢٩٨	« حصّنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة .. »	أبو داود
٣٠٠	« من أحبَّ أن يُزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلْتدركه منيَّته وهو .. »	مسلم والنسائي
٣٠٠	« القبر إما روضةٌ من رياض الجنة ، أو حفرةٌ من حفر النار »	الترمذي في سننه
٣٠٠	« أعددت لعبادي الصالحين مالا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت .. »	الشيخان والترمذي
٣٠٢	« صِلْ من قطعك ، واعفُ عمن ظلمك ... »	ابن النجار
٣٠٢	« من كتم علماً ممَّا ينفع الله به الناس ، ألجمه الله بلجامٍ من نار »	ابن ماجه
٣٠٧	« من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل همٍّ فرجاً ، ومن كل ضيقٍ .. »	أبو داود وابن ماجه
٣٠٧	« إن في الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها .. لمن أفشى السلام ، وأطعم .. »	الترمذي وأبو داود
٣٠٧	« آخر من يدخل الجنة رجل يمشي مرة ويسقط مرة ، فإذا جاوزها .. »	الترمذي وأبو داود
٣٠٨	« ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان .. »	الشيخان والترمذي
٣٠٩	« ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ ، فَلْينظر .. »	الشيخان وابن ماجه
٣١٠	« أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا .. »	ابن ماجه
٣١٠	« لما مات النجاشي نعاه جبريل لرسول الله ﷺ ، فقال لأصحابه اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات .. »	ابن جرير الطبري
٣١١	« ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ قالوا بلى يارسول الله .. »	مسلم والترمذي

« سورة النساء »

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣١٣	« الرَّحمُ معلَّقةٌ بالعرش تقول : من وصلني وصله اللهُ ، ومن قطعني قطعه الله . »	الشيخان
٣١٨	« من كانت عنده مظلمةٌ لأخيه ، فلْيتحلله منه اليوم ، من قبل ألا يكون دينارٌ ولادرهم .. »	البخاري وأحمد
٣١٩	« كلُّ معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجهٍ طَلْقٍ »	الشيخان والترمذي
٣٢١	« ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال : فالْزمها ، فإن الجنة تحت رجليها »	الترمذي وأحمد
٣٢٢	« البكر بالبكر جلدُ مائةٍ وتغريب عام ، والثيِّبُ بالثيب جلدُ مائة ورجمٌ بالحجارة »	الشيخان وأصحاب السنن
٣٢٣	« أيُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل للهِ نِدّاً وهو خلقك .. »	الشيخان والنسائي
٣٢٣	« إن الله يقبل توبة العبد مالم يُغَرغر »	أحمد والترمذي
٣٢٥	« أتعجبون من غَيْرةِ سعد ؟ فواللهِ لأنا أغيرُ منه ، واللهُ أغيرُ مني .. »	الشيخان وأحمد
٣٢٦	« حُبِّب إليَّ النساءُ ، والطيبُ ، وجعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة »	النسائي وأحمد
٣٢٦	« أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله »	مسلم وأبو داود
٣٢٦	« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً »	الشيخان والترمذي
٣٢٧	« من بركة المرأة تبكيرها بالأنثى »	ابن عساكر
٣٣٨	« يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب »	الشيخان والنسائي
٣٣٣	« الصلاة إلى الصلاة ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفراتٌ لما بينهن .. »	مسلم والترمذي
٣٣٣	« إن الله تعالى طيب لا يقبل إلاَّ طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين .. »	مسلم في صحيحه
٣٣٣	« حبُّ الدنيا رأسُ كل خطيئة »	البيهقي مرسلاً
٣٣٤	« مثل المؤمنين في توادِّهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو .. »	الشيخان وأحمد
٣٣٥	« ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرَّته .. »	الحاكم والبيهقي
٣٣٦	« جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله : إنَّ امرأتي لا تردُّ يدَ لامسٍ .. »	أبو داود والنسائي
٣٣٦	« أيما امرأةٍ ماتت ، وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة »	الترمذي وحسَّنه

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٣٦	« لا تؤذي امرأةٌ زوجها في الدنيا ، إلاّ قالت زوجته من الحور العين ، لا تؤذيه قاتلك الله .. »	الترمذي في سننه
٣٣٦	« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام ؟ إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ »	أبو داود والترمذي
٣٣٦	« الدين النصيحة ، لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم »	الشيخان والنسائي
٣٣٧	« الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها »	الرافعي عن أنس
٣٣٧	« الجيران ثلاثة : جار له ثلاثة حقوق ، وجار له حقان .. »	الطبراني والبزار
٣٣٩	« يُدعى نوحٌ يوم القيامة ، فيقول لبيك وسعديك .. »	البخاري والنسائي
٣٤١	« بعثت بالحنيفية السمحة ، ومن خالف سنتي فليس مني »	الخطيب
٣٤٢	« من تعلَّم علماً يُبتغى به وجهُ الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضاً .. »	أبو داود وابن ماجه
٣٤٣	« من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة »	مسلم في صحيحه
٣٤٤	« أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر .. »	الترمذي في سننه
٣٤٦	« من كان همُّه الآخرة جمع الله شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة »	أحمد والترمذي
٣٤٧	« السلطان ظلُّ الله في أرضه يأوي إليه كل مظلوم من عباده »	الطبراني وابن النجار
٣٤٧	« إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، واقرءوا ﴿ وظلٍّ ممدود ﴾	الشيخان والترمذي
٣٤٨	« كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راعٍ ومسئول عن رعيته .. »	الشيخان والترمذي
٣٤٨	« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »	أحمد في المسند
٣٤٨	« لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، إنما الطاعة في المعروف .. »	الشيخان وأبو داود
٣٤٩	« من أطاعني فقد أطاع اللهَ ، ومن عصاني فقد عصى اللهَ ، ومن يُطع الأمير فقد أطاعني »	الشيخان والنسائي
٣٥١	« أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمَّرَ عليكم عبد حبشي .. »	أبو داود والترمذي
٣٥٢	« كل أمتي يدخلون الجنة إلاّ من أبى ، قالوا ومن يأبى يارسول الله .. ؟ »	البخاري وأحمد
٣٥٢	« المرءُ مع أن أحب »	الشيخان
٣٥٣	« تكفَّل الله لمن خرج في سبيله ، لا يُخرجه إلا جهادٌ في سبيلي .. »	الشيخان والنسائي
٣٥٣	« من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا »	الشيخان والترمذي
٣٥٣	« بادروا بالأعمال قبل أن تجيء فتنٌ كقطع الليل المظلم .. »	مسلم والترمذي

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٥٣	« اصبروا فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه حتى تلقوا ربكم »	البخاري والترمذي
٣٥٣	« لا يقعد قوم يذكرون الله إلاّ جفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة .. »	الترمذي وابن ماجه
٣٥٣	« ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله .. »	الشيخان ومالك
٣٥٥	« إيه ياابن الخطاب فوالذي نفسي بيده ما لقيتك الشيطان سالكاً فجاً إلاّ سلك فجّاً غير فجك »	الشيخان وأحمد
٣٥٦	« أكثروا ذكر هاذم اللّذات »	الترمذي وابن ماجه
٣٥٧	« ما يصيبُ المسلمَ من نَصَب ، ولا همّ ، ولا أذى حتى الشوكة يشاكها .. »	مسلم في صحيحه
٣٥٧	« لن يُدخل أحدَكم عملُه الجنة ، قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله »	الشيخان
٣٥٩	« من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له ، وقال له المَلَكُ : ولكَ مثل ذلك »	مسلم وأبو داود
٣٦٠	« كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل فسلّم فقال : السلام عليكم .. »	أبو داود والترمذي
٣٦١	« إذا سلّم عليكم أحدٌ من اليهود فإنما يقول : السّامُ عليكم فقولوا : وعليك »	الشيخان وأبو داود
٣٦١	« ياعائشة إن الله لا يحب الفُحش ولا التفحش .. »	الشيخان
٣٦١	« ما من عبدٍ يمُرّ بقبر رجلٍ كان يعرفه في الدنيا فيسلّم عليه ، إلاّ عرفه وردَّ عليه السلام »	ابن عساكر والخطيب
٣٦١	« ما من أحدٍ يُسلّم عليَّ إلاّ ردَّ الله عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام »	« أبو داود في سننه
٣٦٢	« كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك .. »	البخاري والنسائي
٣٦٥	« لِزَوالُ الدنيا أهونُ على اللهِ من قتل امرىء مسلم »	الترمذي وابن ماجه
٣٦٥	« من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينية آيس من رحمة الله »	ابن ماجه
٣٦٦	« أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع .. »	مسلم والترمذي
٣٦٧	« إن في الجنة مائة درجة ، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله .. »	أحمد والبخاري
٣٦٨	« إن في المدينة لأقواماً ، ما سرتم من مسير ، ولا قطعتم من وادٍ ، إلا كانوا معكم .. »	الشيخان وأبو داود
٣٦٨	« من مات ولم يَغْزُ ، ولم يُحدّث نفسه بغزوٍ ، مات على شعبة من النفاق »	مسلم والنسائي
٣٦٨	« لا هجرة بعد الفتح ، ولكنْ جهادٌ ونيّة ، وإذا اسْتُنفِرتم فانفروا »	الشيخان
٣٧٤	« ما من عبدٌ يُذنب ذنباً ثم يتوضأ ويصلي ركعتين .. »	أبو داود

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٧٥	« أتدرون ما الغيبة ؟ ذكرك أخاكَ بما يكره ، قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول .. ؟ »	مسلم والترمذي
٣٧٥	« إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلاَّ من ثلاثٍ : صدقةٍ جارية ، أو علمٌ يُنتفع به .. »	البخاري وأحمد
٣٧٦	« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصدقة ؟ إصلاحُ ذات البين .. »	الترمذي وأبو داود
٣٧٧	« ياآدمُ ، أخرجْ بعث النار من ذريتك ، قال : وما بعثُ النار ؟ .. »	الشيخان والترمذي
٣٧٧	« لعن الله النامصة والمتنمِّصة والمستوصلة .. »	الشيخان وأحمد
٣٨٠	« لو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً .. »	الشيخان والترمذي
٣٨١	« إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولزوجك عليك حقاً .. »	الشيخان
٣٨١	« إن هذا الدين متينٌ فأوغلْ فيه برفق ، فإن المنبتَّ .. »	البزار
٣٨٢	« من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما .. »	أبو داود والنسائي
٣٨٢	« اللهم هذا قسْمي فيما أملكُ ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملِكُ »	أصحاب السنن وأحمد
٣٨٣	« المسلمُ من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجرُ .. »	الشيخان والنسائي
٣٨٤	« لما خلق الله جنة عَدَن ، خلق فيها مالا عينٌ رأت ، ثم قال لها تكلمي ، فقالت قد أفلح المؤمنون »	الطبراني في الكبير
٣٨٤	« ما أحدٌ أصبر على أذى من الله ، إنهم يشركون به ويجعلون له الولد ، ثم هو يعافيهم ويرزقهم »	الشيخان وأحمد
٣٨٤	« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قيل يارسول الله : أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً ؟ »	البخاري وأحمد
٣٨٤	« لو سترته بثوبك لكان خيراً لك »	الطبراني وأحمد
٣٨٤	« من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة »	الشيخان
٣٨٤	« ما من امرىءٍ مسلم ينصر مسلماً في موضع يُنتهك فيه عرضه .. »	أبو داود وأحمد
٣٨٧	« الأرواح جنود مجنَّدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف »	الشيخان وأبو داود
٣٨٨	« آية المنافق ثلاث : إذا حدَّث كذب ، وإذا وعد أخلف .. »	الشيخان والنسائي
٣٩٠	« أترعون عن ذكر الفاجر ، اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس »	الطبراني والبيهقي
٣٩٠	« البلاء موكَّلٌ بالمنطق »	البيهقي والقضاعي
٣٩٢	« يامعشر المهاجرين ، خمسٌ خصالٍ إذا ابتليتم بهن .. »	ابن ماجه

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٣٩٥	« لو رأيتني وأنا أستمع إلى قراءتك ، لقد أعطيتَ مزماراً من مزامير آل داود »	الشيخان والترمذي
٣٩٥	« كانت الأنبياء مائة ألفٍ وأربعة وعشرين ألفاً ، وكان المرسلون ثلاثمائة وثلاثة عشر »	أحمد في المسند
٣٩٦	« ما أحدٌ أغيرُ من الله عز وجل ، لذلك حرَّم الفواحش .. »	الشيخان وأحمد
٣٩٧	« يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبةٍ من خردل من إيمان .. »	الشيخان والترمذي
٣٩٧	« لا تُطروني كما أطرت النصارى المسيحَ عيسى بن مريم ، ولكن قولوا عبد الله ورسوله »	البخاري في صحيحه
٣٩٧	« إن مثلي ومثَلَ ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قوماً فقال ياقوم : إني رأيت الجيش .. »	البخاري ومسلم
٤٠٠	« لا تسبقوني بالركوع والسجود فإني أراكم من خلفي »	مسلم والنسائي
٤٠٠	« إني لأجد نَفَسَ الرحمن من قِبَل اليمن »	أحمد في المسند
	« سورة المائـدة »	
٤٠٣	« البِرُّ حسنُ الخُلُق ، والإثمُ ما حاك في صدرك .. »	الشيخان والترمذي
٤٠٤	« لعن اللهُ من لعن والديه ، ولعن اللهُ من ذبح لغير الله »	مسلم والنسائي
٤٠٤	« إذا تردَّتْ رميَّتك من جبل فوقعت في الماء فلا تأكل .. »	البخاري في صحيحه
٤٠٤	« الحلالُ بيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ ، وبينهما أمورٌ مشتبهات .. »	الشيخان
٤٠٥	« العيافةُ ، والطَّرقُ ، والطِّيَرَةُ من الجبتِ »	أبو داود في سننه
٤٠٥	« آيةٌ في كتابكم تقرءونها ، ولو علينا معشر اليهود نَزلت ، لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً »	الشيخان وأحمد
٤٠٦	« يارسول الله إنا نكون بأرض فيصيبنا المخمصة فمتى تحل لنا الميتة ؟ فقال مالم تصطبحوا »	أحمد في المسند
٤٠٧	« وإن أكل منه فلا تأكل ، إنما أمسكه على نفسه »	البخاري ومسلم وأبو داود
٤٠٧	« أما ما ذكرت من آنية أهل الكتاب ، فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها »	الشيخان والترمذي
٤٠٧	« من اتخذ كلباً إلا كلب ماشيةٍ ، أو صيد أو زرع ، انتقص من أجره كل يوم قيراط »	النسائي
٤٠٧	« لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ، ولا كلب ، ولا جنب »	الشيخان

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٠٨	« لما خلق الله جنة عدن ، خلق فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »	الطبراني في الكبير
٣٠٩	« إذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه .. »	النسائي ومالك
٤٠٩	« إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين .. »	أبو داود
٤٠٩	« عمداً فعلته ياعمر »	مسلم وأصحاب السنن
٤٠٩	« يابلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام .. »	الترمذي
٤١٠	« حبب إليّ من دنياكم الطيب ، والنساء ، وجُعلت قُرة عين في الصلاة »	أحمد والنسائي
٤١١	« أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الخمس .. »	مسلم وأبو داود
٤١٥	« من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله .. »	الشيخان والترمذي
٤١٥	« إن الله أوصى إلى يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات .. »	أحمد والترمذي والنسائي
٤٢٠	« لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل	الشيخان
٤٢٢	« سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا ينالها إلا عبد واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو »	مسلم والترمذي
٤٢٢	« يجاء بالكافر يوم القيامة ، فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً ، أكنت تفتدي به »	مسلم وأحمد
٤٢٢	« يقال لأهل الجنة خلود ولا موت ، ولأهل النار : ياأهل النار .. »	الشيخان
٤٢٣	« يؤتي بأنعم أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال : ياابن آدم هل رأيت خيراً قط .. »	مسلم وأحمد
٤٢٤	« ياأسامة أتشفع في حد من حدود الله ؟ إنما أهلك الذين قبلكم .. »	البخاري وأبو داود
٤٢٥	« يامحمد أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدهما في كتابك ؟ فقال الرحم .. »	مسلم
٤٢٦	« المقسطون عند الله على منابر من نور »	مسلم والنسائي
٤٢٦	« كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به »	الطبراني في الكبير
٤٢٦	« لعن اللهُ الراشي والمرتشي والرائش »	أحمد والترمذي
٤٢٨	« القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاض في الجنة .. »	أبو داود

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٣٠	« أغتنم خمساً قبل خمس ، شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك .. »	الحاكم والبيهقي
٤٣٢	« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً كما جئت به »	البغوي
٤٣٢	« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »	الشيخان والنسائي
٤٣٢	« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده .. »	الشيخان والنسائي
٤٣٤	« إن في عباد الله لأناساً ما هم بالأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة »	أبو داود
٤٣٧	« إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم ، فاستيقظت وهو في يده صلتاً ، فقال : من يمنعك مني ؟ فقلت : الله »	الشيخان
٤٤١	« فاتقوا الله وأجملوا في الطَّلب »	أبو نعيم
٤٤٣	« من حلف كاذباً أدخله الله النار »	أبو داود
٤٤٣	« من حلف أن يطيع الله فليطعه ، ومن حلف أن يعصيه فلا يعصيه »	البخاري والترمذي
٤٤٥	« لَعَنَ الله الخمر ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومُبتاعها ، وعاصرها .. »	أبو داود وابن ماجه
٤٤٥	« خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الحية ، والعقرب ، والغراب ، والفأرة ، والكلب العقور »	مسلم والنسائي
٤٤٥	« قول الأقرع لما نزلت آية الحج أكل عام يارسول الله ثلاثاً فقال : لا ولو قلت نعم لوجبت ... »	مسلم والنسائي
٤٤٩	« إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها .. »	الدارقطني
٤٥١	« إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيِّروه عمهم الله بعقاب منه »	أحمد في المسند
٤٥٣	« من ستر على مسلم ستره الله عليه في الدنيا والآخرة »	مسلم وأبو داود
٤٥٣	« اللهم أمتي ، أمتي ، وبكى فنزل جبريل فقال إن الله يقرئك السلام ويقول لك إنا سنرضيك في أمتك »	مسلم
	« سورة الأنعام »	
٤٦٣	« جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً .. »	البخاري
٤٦٣	« أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟ قلنا : لا وهي قادرة على أن تطرحه ، فقال : الله أرحم .. »	مسلم

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٤٧١	« لولا أن الكلاب أمة لأمرت بقتلها ، فاقتلوا منها كل أسود بهيم »	مسلم والترمذي
٤٧١	« لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من .. »	مسلم وأحمد
٤٧٣	« إذا رأيت الله تعالى يعطي عبداً في الدنيا على المعصية ما يحب ، فإن ذلك منه استدراج »	أحمد
٤٧٣	« إذا رأيت شحاً مُطاعاً وهوى متبعاً .. »	الترمذي وابن ماجه
٤٧٦	« الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم »	الترمذي وأحمد
٤٧٧	« ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له »	أبو داود والترمذي
٤٧٨	« مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما في الأرحام إلا الله .. »	البخاري وأحمد
٤٨٠	« إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء .. »	الطبراني في الكبير
٤٨١	« سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنين ومنعني واحدة .. »	مسلم
٤٨٢	« فناء أمتي بالطعن والطاعون وخز أعدائكم من الجن وفي كل شهادة »	أحمد والطبراني
٤٨٤	« ليس في الإنسان شيء إلا يبلى إلاّ عظم واحد وهو عجب الذَنَبِ ، ومنه يركب الخَلْقُ يوم القيامة »	الفتح الكبير
٤٨٩	« إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله .. »	الشيخان
٤٩٠	« خيركم من تعلم القرآن وعلمه »	البخاري والترمذي
٤٩١	« ليس منا من لم يتغنَ بالقرآن »	البخاري
٤٩١	« بينا أنا نائم ، أتيت بخزائن الأرض ، فوضع في يدي سواران من ذهب .. »	الشيخان والترمذي
٤٩٨	« حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات »	مسلم والترمذي
٥٠٤	« إن الشيطان يستحل الطعام الذي لم يُذكر اسم الله عليه »	مسلم وأبو داود
٥٠٦	« نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح »	ابن أبي حاتم
٥١٦	« هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان »	أحمد
٥١٧	« افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة .. »	أبو داود
٥١٩	« من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض .. »	الشيخان
٥١٩	« أبي يغترون أم عليَّ يجترئون ؟ فبي حلفت لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم حيران »	الترمذي والدارمي

« سورة الأعراف »

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٥٢٣	« ما وضع في الميزان شيءٌ أثقل من حسن الخلق »	أحمد وأبو داود
٥٢٣	« إنه ليأتي بالرجل العظيم السمين يوم القيامة .. »	البخاري ومسلم
٥٢٥	« من تواضع لله رفعه .. »	أبو نعيم
٥٢٦	« تحاجّت النار والجنة ، فقالت هذه : يدخلني الجبارون المتكبرون .. »	البخاري ومسلم
٥٢٧	« المؤمن غرٌّ كريم ، والفاجر خبٌّ لئيم »	أبو داود وأحمد
٥٢٨	« هذان حرامان على ذكرور أمتي ، حلٌّ لإناثها »	أبو داود والنسائي
٥٢٩	« إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »	البخاري وأحمد
٥٣٢	« ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه .. »	الترمذي وأحمد
٥٣٤	« لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله ، الله : »	مسلم
٥٤٢	« الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .. »	الترمذي
٥٤٣	« أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً .. »	أحمد
٥٤٤	« سيكون قوم يعتدون في الدعاء »	أبو داود وأحمد
٥٤٤	« ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة »	الترمذي وأحمد
٥٤٥	« اللهم اجعلها لنا رياحاً ولا تجعلها ريحاً .. »	أحمد والترمذي
٥٤٥	« لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون .. »	أبو داود والترمذي
٥٥٢	« لا يدخلن أحد منكم هذه القرية .. »	البخاري ومسلم
٥٥٣	« ملعون من أتى امرأةً في دبرها »	أبو داود
٥٥٣	« ماذئبان جائعان أرسلا في غنم .. »	الترمذي
٥٥٨	« كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال .. »	مسلم وأبو داود
٥٦٢	« إن الدنيا حلوة خضرة .. »	مسلم
٥٦٣	« الطِّيَرَةُ شرك »	أبو داود وابن ماجه
٥٦٣	« اللهم لا طير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك .. »	أحمد
٥٦٣	« الشؤم في المرأة والفرس والدار »	البخاري
٥٦٤	« أحلت لنا ميتتان ودمان .. »	ابن ماجه وأحمد
٥٦٦	« إن الله زوى لي الأرض .. »	مسلم والترمذي
٥٧٦	« أعطيت خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي .. »	البخاري
٥٨٣	« إن الله تعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه .. »	الطبراني

الصفحة	أطراف الحديث	الراوي
٥٨٦	« إن لله تسعة وتسعين اسماً .. »	الشيخان
٥٩٣	« إن عرش إبليس على البحر ، فيبعث سراياه فيفتنون الناس .. »	مسلم
٥٩٣	« إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار .. »	مسلم والنسائي
٥٩٤	« إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد .. »	البخاري ومسلم
٥٩٤	« إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان من النار .. »	أبو داود وأحمد
٥٩٦	« جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة »	الترمذي
٥٩٧	« إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد لها ، اعتزل الشيطان يبكي .. »	مسلم

* * *

ثالثاً : فهرس الأبيات الشعرية

البيت		الصفحة
إن الشبـــاب والفراغ والجـــده	مفســـــدة للمرء أي مفســـــدة	١٥
• • •		
ولقـــد علمتُ بـــأن دينَ محمـــد	من خير أديـــان البريـــة دينـــاً	
لـــولا الملامـــةُ أو حـــذار مسبَّـــة	لـــوجـــدتَني سَمحـــاً بـــذاك مبينـــاً	٢٨
• • •		
ألا مهّـــدْ لنفســـك قبـــلَ مـــوتٍ	فـــإن الشيبَ تمهيـــدُ الحِمَـــام	
وقـــد جـــدَّ الرحيـــلُ فكنْ مجـــدّاً	لحـــطِّ الرَّحْـــلِ في دَار المقـــام	٥١
• • •		
أتهـــدي الأنـــام ولا تهـــدي	ألا إنَّ ذلـــــك لا ينفـــــع	
فيـــا حجرَ الشَّحْـــذِ حتى متى	تَسُنُّ الحـــديـــد ولا تقطـــع	٥٨
• • •		
لـــولا بنـــاتي وسيئـــاتي	لـــذبت شـــوقـــاً إلى الممات	٨٦
• • •		
مـــازال يلهـــج بـــالرحيـــل وذكره	حتى أنـــاخ ببـــابـــه الجَّمال	
فـــأصـــابـــه متيقظـــاً متشمراً	ذا أهبـــةٍ لم تُلْهِـــهِ الآمـــال	٨٧ ، ٩٣
• • •		
قـدِّمْ لنفسـك قبل مـوتـك صـالحـاً	واعمـل فليس إلى الخلـود سبيـل	٩٦
• • •		

البيـــت	الصفحة
عَـدْوَي البليـدِ إلى الجليـد سريعـةٌ ... والجمرُ يُـوضـع في الرَّمـادِ فيَخْمـدُ	١٠٣
اتفخرُ بـــاتِّصـــالـــكَ من عليٍّ ... وأُصـلُ البُـؤْسِـــة المـــاءُ القُراحُ وليسَ بنَـــــافِـــعٍ نَسَبٌ زكيٌّ ... يُـدنِّسُـهُ صنـائِعُـك القِبَـاحُ	١١٢
خـذوا بـدمي هـذا الغـزالَ فـإنـه ... رمـاني بسهميْ مقلتيـه على عَمْـدِ ولا تقتلـوه إنني أنـــا عَبْـــدهُ ... وفي مـذهبي لا يُقتـل الحرُّ بـالعبـد	١٣٥
تَعْصي الإلَـــه وأنتَ تُظْهِرُ حبَّـــه ... هَـــذا لعَمْري في الفِعَـــال شَنِيـعُ لَـوْ كَـان حُبُّـكَ صَادِقـاً لأَطَعْتَـهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحبُّ مُطيـــــعُ	١٥٩ ، ٢٣٤ ، ٤١٦
لا تـزرينْ بفتى من أن يكـون لـه ... أم من الروم أو سـوداءُ دعجـــاء فـإنمـا أمهـات النـاس أوعيـة ... مستـودعـاتٌ ولـلأبنـاء آبـاء	١٨٣
أَفْسَدْتَ بالمَنِّ ما أسْـدَيتَ مِنْ حَسَنٍ ... لَيْسَ الكَرِيمُ إذَا أسْـدَى بِمَنَّـان	٢٠٦
والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على ... حب الرضـاع وإن تفطمـه يفطم	٢٠٨
الصَّبْرُ يُحْمَـد في المـوَاطنِ كُلِّهـا ... إلا عليـك فَـإنَّـه مَـذْمُـوْمُ	٢١٦

البيت	الصفحة
تود عدوي ثم تزعم أنني صديقك ليس النَّوْكُ عنك بعازب	٢٣٣
عن المرء لا تسأل وأبصرْ قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي	٢٣٣
أمرُّ على الديار ديار ليلى أقبِّلُ ذا الجدارَ وذَا الجدَارا وما حبُّ الديار شَغفْنَ قلبي ولكن حبُّ من سكَنَ الديارا	٢٣٥
ولو كان النساء كمن ذكرنا لفُضِّلتِ النساءُ على الرجال فلا التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخرٌ للرجال	٢٤١
بقدر الكَدِّ تُكْتَسَبُ المعالي ومن طلب العلى سهر الليالي تروم العزَّ ثم تنام ليلاً يغوصُ البحر من طلب اللآلي	٢٤٨ ، ٣١١
وإذا أراد الله نشر فضيلة طُويت أتاح لها لسان حسود لولا اشتعال النار فيما جَاوَرتْ ما كان يُعْرفُ طيبُ عُرْفِ العُود	٢٤٩
فإن أمَّارتي بالسوء ما اتعظت من جهلها بنذير الشيب والهرم	٢٥٦
إنَّ الرِّجَالَ صَنَادِيقٌ مُقَفَّلَةٌ وَمَا مَفَاتيحُها إلاَّ التَّجاريبُ	٢٧١

البيت	الصفحة
اصبر على مضض الحسو	د فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل نفسها	إن لم تجد ما تأكله
• • •	٢٧١
تَرْجُو النَّجَاة ولم تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا	إنَّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِي عَلَى اليَبَسِ
• • •	٢٧٧
تِلْكَ آثَارُنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا	فَانظُرُوا بَعْدَنَا إلى الآثَارِ
• • •	٢٧٨
وَمَا جَادَ دهرٌ بلَذَّاتِه	علَى مَنْ يَضِنُّ بِخلْع العِذار
• • •	٢٨٠
ألم تر أن الله أرسل عبده	ببرهانه والله أعلى وأمجد
وشق له مِن اسمه ليجِلَّه	فذو العرش محمودٌ وهذا محمد
• • •	٢٨١
النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثَالِ أَكْفَاءُ	أَبُو هُمُو آدَمٌ والأُمُّ حَوّاءُ
• • •	٣٣٠
لَوْ كَانَ فِي العِلْمِ مِنْ دونِ التُّقَى شَرَفٌ	لَكَانَ أَشْرَفَ خَلْقِ اللهِ ابْلِيسُ
• • •	٣٤٣
قَتَلْتُ بِهِ فَهْراً وَحَمَّلْتُ عِقْلَهُ	سَرَاة بَنِي النَّجَّارِ أَصْحَابَ قَارِعِ
وَأَدْرَكْتُ ثَأْرِي واضْطَجَعْتُ مُوسَّداً	وَكُنْتُ إِلَى الأَوْثَانِ أَوَّلَ رَاجِعِ
• • •	٣٦٥
كُلُّ شَيْءٍ ذَاتَهُ لِي شَاهِدُ	إنَّما اللهُ إلَهٌ وَاحِدُ
• • •	٣٩٩

البيـــت	الصفحة
مَـا إنْ مَـدَحْتَ مُحَمَّـداً بِمَقَـالَتِي ... لَكِنْ مَـدَحْتُ مَقَـالَتِي بِمُحَمَّـدِ	٤٢٧
• • •	
وَفِي الصَّمْتِ زَيْنٌ لِلْخَلِيِّ وإنَّمَـا ... صَحِيفَـةُ لُبِّ الْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَـا	٤٥٠
• • •	
وَمَـا الْمَـالُ وَالأَهْلُـونَ إلا وَدَائِـعٌ ... وَلاَبُـدَّ يَـوْمـاً أَنْ تُرَدَّ الْـوَدَائِـعُ	٤٩٤
• • •	
لَـوْ كُنْتَ سَـاعَةَ بَيْنِنَـا مَـا بَيْنَنَـا ... وَرَأَيْتَ كَيْفَ نُكَرِّرُ التَّـوْدِيعَـا	
لَعَلِمْتَ أَنَّ مِنَ الـدُّمُـوعِ لأَبْحُرا ... تَجْرِي وَعَـانَيْتَ الـدِّمَـاءَ دُمُـوعـاً	٤٩٩
• • •	
وَمَنْ يَعْرِفِ الـدُّنْيَـا فَـإنِّي بَلَـوْتُهَـا ... وَسِيـقَ إلَيَّ عَـذْبُهَـا وَعَـذَابُهَـا	
وَمَـا هِيَ إلا جِيفَـةٌ مُسْتَحِيلَـةٌ ... عَلَيْهَـا كِـلاَبٌ هَمُّهُنَّ اجْتِـذَابُهَـا	
فَـإنْ تَجْتَنِبْهَـا كُنْتَ سِلْماً لأَهْلِهـا ... وَإنْ تَجْتَـذِبْهَا نَـازَعَتْـكَ كِـلاَبُهَـا	٥١٢
• • •	
هَجَرْتُ الْخَلْـقَ طُراً فِي هَـوَاكَ ... وَأَيْتَمْتُ العِيَـالَ لِكَيْ أَرَاكَ	
فَلَـوْ قَطَّعْتَنِي فِي الحُبِّ إرْبَـاً ... لَمَـا سَكَنَ الفُـؤَادُ إلَى سِـوَاكَ	٥٢٠
• • •	
أَفْنَى القُرُونَ الَّتِي كَـانَتْ مُنَعَّمَـةً ... كَرُّ الجَـدِيـدَيْنِ إقْبَـالاً وإدبـاراً	
يَـا رَاقِـدَ اللَّيْـلِ مَسْرُوراً بِـأَوَّلِـهِ ... إنَّ الحَـوَادِثَ قَـدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَـارَاً	
لاَ تَـأْمَنَنَّ بِلَيْـلٍ طَـابَ أَوَّلُـهُ ... فَرُبَّ آخِرِ لَيْـلٍ أَجَّـجَ النَّـارَا	٥٢٢
• • •	

البيـــت	الصفحة
إنِّي كَـأَنِّي أَرَىٰ مَنْ لاَ حَيَـاءَ لَـهُ وَلاَ أَمَـانَـةَ وَسْـطَ القَـوْمِ عُرْيَـانَـاً	٥٢٩
يَـا أَيُّهَـا البَـانِي النَّـاسِي لَمِيْتَتِـهِ لاَ تَـأْمَنَنَّ فَـإِنَّ المَـوْتَ مَكْتُـوبُ هَـذِي الخَلاَئِقُ إِنْ سُرُّوا وَإِنْ فَرِحُوا فَالْمَوْتُ حَتْفٌ لَـدَىٰ الآمَـالِ مَنْصُوبُ لاَ تَبْنِيَنَّ دِيَـارَاً لسْتَ تسْكُنهَـا وَرَاجِعِ النُّسْـكَ كَيْمَـا يُغْفَرَ الحُوْبُ	٥٣٣
إِذَا شَـــابَ الغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي وَصَـارَ القَـارُ كَـاللَّبَنِ الحَلِيبِ	٥٣٥
نُرَقِّعُ دُنْيَـانَـا بِتَمْـزِيـقِ دِينِنَـا فَـلاَ دِينُنَـا يَبْقَىٰ وَلاَ نُرَقِّـعُ فَطُـوبَى لِعَبْـدٍ آثَرَ اللهَ رَبَّـهُ وَجَـادَ بِـدُنْيَـاهُ لَمَـا يَتَـوَقَّـعُ	٥٣٦
نَحْنُ قَـوْمٌ لَنَـا ذُنُـوبٌ كِبَـارٌ مَنَعَتْنَـا مِنَ الـوُصُـولِ إِلَيْـهِ تَرَكَتْنَـا مُـذَبْـذَبِينَ حَيَـارَىٰ أَمْسَكَتْنَـا عَنِ القُـدُومِ عَلَيْـهِ	٥٣٨
إِلَى اللهِ كُـلُّ الأَمْرِ فِي خَلْقِـهِ مَعَـاً وَلَيْسَ إِلَى المَخْلُـوقِ شَيءٌ مِنَ الأَمْرِ	٥٤٣
وَيَحْسُنُ إِظْهَـارُ التَجَلُّـدِ لِلْعِـدَىٰ وَيَقْبُـحُ غَيْرُ العَجْـزِ عِنْـدَ الأَحِبَّـةِ	٥٤٤
هَبْ أَنَّـكَ قَـدْ مَلَكْتَ الأَرْضَ طُرَّاً وَأَنَّ لَـكَ العِبَـادَ فَكَـانَ مَـاذَا ؟ أَلَيْسَ غَـــداً مَصِيرُكَ جَـوْفَ قَبْرٍ وَيَحْثُـو التُّرْبَ هَـذَا ثُمَّ هَـذَا ؟	٥٤٦

البيـــت		الصفحة
عَفَـوْا مِنْ بَعْـدِ إِقْـلاَلٍ وَكَـانُـوا	زَمَـــانَـــاً لَيْسَ عِنْـــدَهُمُ بَعِيرُ	٥٥٦

• • •

أَيَـا سَـامِعَـاً لَيْسَ السَّمَـاعُ بِنَـافِعٍ	إِذَا أَنْتَ لَمْ تَفْعَـلْ فَمَـا أَنْتَ سَـامِعٌ	
إِذَا كُنْتَ فِي الدُّنْيَـا عَنِ الخَيْرِ عَـاجِزَاً	فَمَا أَنْتَ فِي يَوْمِ القِيَامَـةِ صَـانِعُ ؟	٥٥٨

• • •

قَـــالَتِ الضِّفْـــدَعُ قَـــوْلاً	فَسَّرَتْـــــهُ الحُكَمَـــــاءُ	
فِـي فَـمي مَـــــاءٌ وَهَـــلْ	يَنْطِـقُ مَنْ فِي فِيـــهِ مَـــاءُ ؟	٥٦٤

• • •

قال الزمخشري عفا الله عنه :

لَجمَـاعَـــةٌ سَمَّـوْا هَـوَاهُمْ سُنَّـــةً	لَكِنَّهُمْ حُمُرٌ لَعَمري مُـــؤْكَفَـــهْ
قَـــدْ شَبَّهُـوهُ بِخَلْقِـهِ وَتَخَـوَّفُـوا	شُنْعَ الـوَرَىٰ فَتَسَتَّرُوا بِـالبَلكَفَـهْ

• • •

وأجابه أحد الفضلاء بقوله :

عَجَبَـــاً لِقَـوْمٍ ظَـــالِمِينَ تَلَقَّبُـوْا	بِـالْعَـدْلِ مَـا فِيهِمْ لَعَمري مَعْرِفَـهْ
قَـدْ جَـاءَهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَـدْرُونَـهُ	تَعْطِيـلُ ذَاتِ اللهِ مَـعْ نَفْيَ الصِّفَـهْ

• • •

وقال آخر :

رَضِينَـا كِتَـابَ اللهِ لِلْفَصْـلِ بَيْنَنَـا	وَقَـوْلُ رَسُـولِ اللهِ أَوْضَـحُ فَـاصِـلِ
وَتَحْرِيفُ آيَـاتِ الكِتَـابِ ضَـلاَلَـةٌ	وَلَيْسَ بِعَـدْلٍ رَدُّ نَصِّ الـدَّلاَئِـلِ
وَتَضْلِيـلُ أَصْحَـابِ الرَّسُـولِ وذَمُّهُم	وَتَصْـوِيبُ آرَاءِ النِّظَـامِ وَوَاصِـلِ
وَلَوْ كَـانَ تَكْـذِيبُ الرَّسُولِ عَـدَالَـةً	فَـأَعْـدَلُ خَلْقِ اللهِ عَـاصُ بْنُ وَائِـلِ

البيـــت		الصفحة
فَلَـوْلاَكَ جَـارَ اللهِ مِنْ فِرْقَـةِ الهَـوَىٰ	لَكُنْتَ جَـدِيراً بِـاجْتِمَـاعِ الفَضَـائِلِ	٥٦٩
• • •		
يَـا جَـاعِـلَ العِلْمِ لَـهُ بَـازِيَـاً	يَصْطَـادُ بِـهِ أَمْـوَالَ المَسَـاكِينِ	
احْتَلْتَ لِلـدُّنْيَـا وَلَـذَّاتِهَـا	بِحِيلَـةٍ تَـذْهَبُ بِـالـدِّينِ	
فَصِرْتَ مَجْنُـونَـاً بِهَـا بَعْـدَمَـا	كُنْتَ دَوَاءً لِلْمَجَـانِينِ	
أَيْنَ رِوَايَـاتُـكَ فِي سَرْدِهَـا	لِتَرْكِ أَبْـوَابِ السَّـلاَطِينِ	
إِنْ قُلْتَ : أُكْرِهْتُ فَـذَا بَـاطِـلٌ	زَلَّ حِمَـارُ العِلْمِ فِي الطِّينِ	
• • •		٥٨٧
وَفِي كُـلِّ شَيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ	تَـدُلُّ عَلَى أَنَّـهُ وَاحِـدُ	
• • •		٥٨٨
لَـوْ لَمْ تُرِدْ نَيْـلَ مَـا أَرْجُـو وَأَطْلُبُـهُ	مِنْ فَضْلِ جُودِكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلَبَا	
• • •		٥٩٦